المقالات الأسبوعية المنشورة بجريدة الأهرام



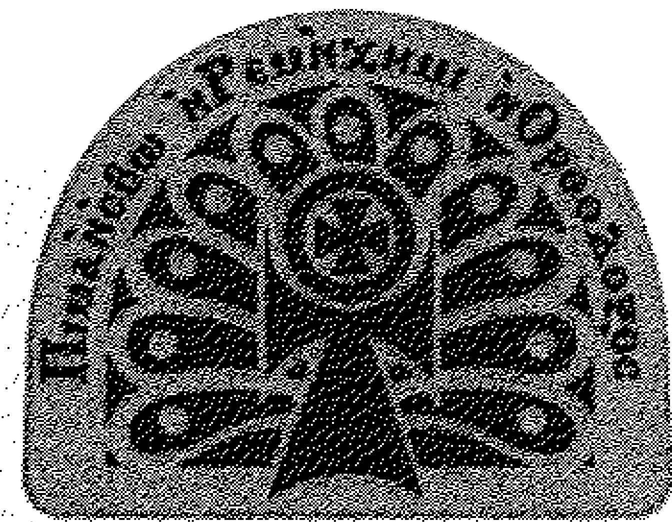
بقلم

قداسة البابا شنوده الثالث



المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي

Ⲡⲓⲡⲁⲧⲣⲓⲁⲣⲭⲏⲥ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ
ⲛ̀ⲟⲣⲑⲟⲇⲟⲝⲟⲥ
بطريركية الأقباط الأرثوذكس
Coptic Orthodox Patriarchate


The Coptic Orthodox Cultural Center
المركز الثقافى القبطى الأرثوذكسى

المقالات الأسبوعية
المنشورة بجريدة الأهرام

بقلم

قداسة البابا المعظم

الأنبا شنوده الثالث

اســم الكتــاب :   المقالات الأسبوعية المنشورة بجريدة الأهرام

بقلم

قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

الطبعـــــــة : الأولى - فبراير ٢٠١٢م

الناشـــــــر : المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي

فصل ألوان وطباعة :

مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط

موبايل: ٠١٢ ٠٥٥٥٠٤٤١ & ٠١٢ ٠٥٥٥٠٤٤٢

تليفاكس: ٠٣ ٤٥٩٦٤٥٢

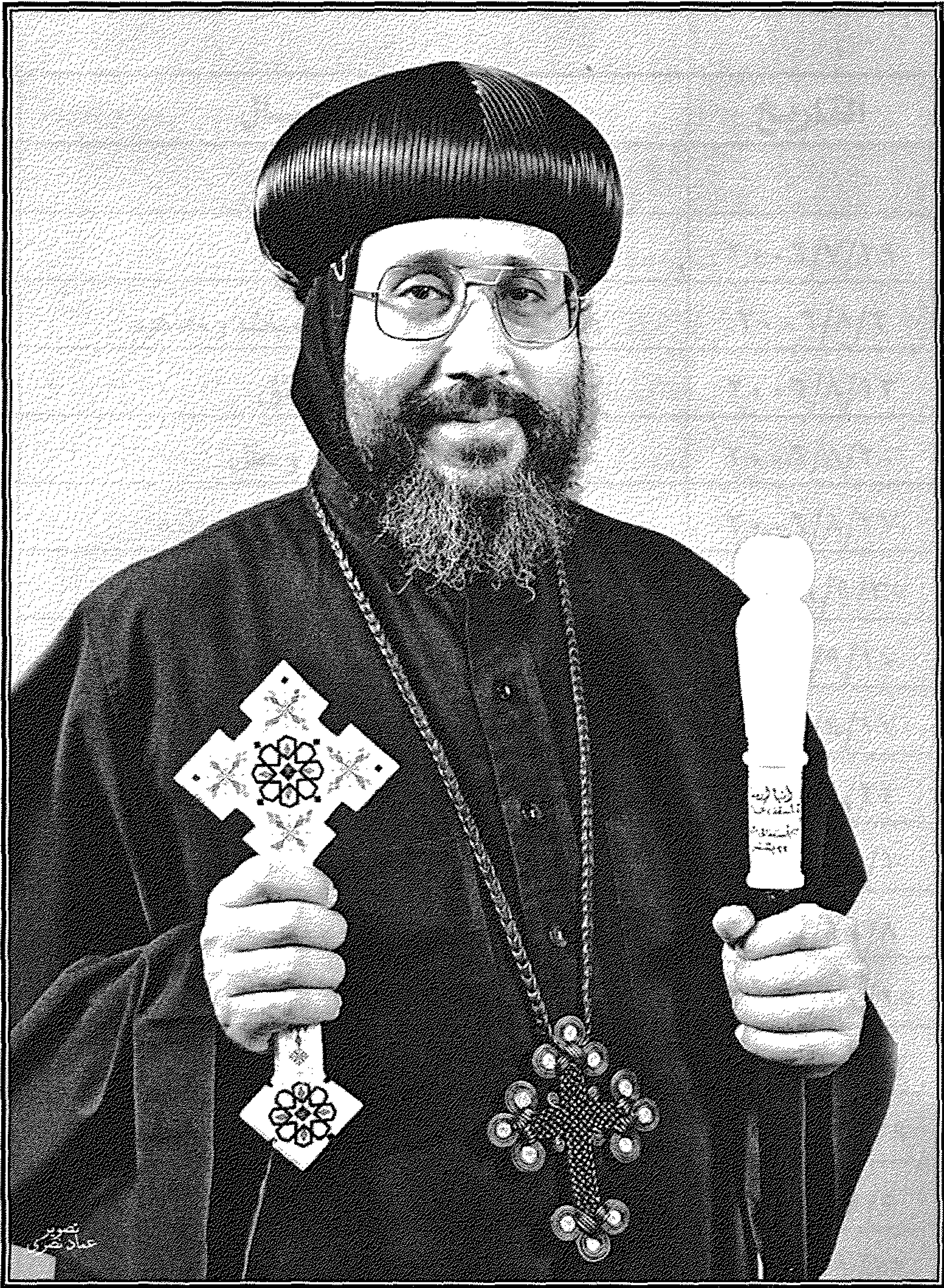
رقــم الإيـــداع :   ٢٠١٢/٨٥٩٥



صاحب الغبطة والقداسة

البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧



نيافة الحَبر الجليل الأنبا إرميا

الأسقف العام وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث

ونائب رئيس المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي

الفهرس

مقدمة

خصّ قداسة البابا شنوده الثالث "البابا المُعلّم" جريدة الأهرام بـــ ٢٩٣ مقالة، بدأها في ٢٩ يوليه ٢٠٠٦م بمقالة "حياة الإيمان" وكان آخِرها في ١٩ فبراير ٢٠١٢م بمقالة "اللّه غيـــر المحدود". وتنوّعت مقالات قداسته التي تُنشر كل يوم أحد في "جريدة الأهرام" في كل الأمور الروحية والاجتماعية. وكانت مقالاته بعيدة عن الخصوصية الدينية للمسيحيين، فكانت رسائله إلى كل العقائد وكل الناس: مسلمين ومسيحيين. وسجلت "الأهرام" أعلى عدد مـــن التعليقـــات على مقالات قداسة البابا شنوده، وكان قداسته يحرص على متابعة التعليقات بنفسه.

وقد حرص قداسته على كتابة مقاله في "الأهرام" بخط يده وحتى في فترات مرضـــه كان يكتب العنوان بنفسه ثم يُملي قداسته المقال لضعفي. وجاءت بعـــض المقـــالات فـــي أجزاء: مثل مقالة "القلب وأهميته" جزء ١ وجزء ٢، و"لا تجعـــل راحتـــك علـــى تعـــب الآخرين" أ و ب وغيرها.

والأجمل في مقالات قداسته أنها تناسب كل العصور وتكرار قراءتها يعطي فهماً أجمل وأعمق لكل ما في حياتنا من إيمان وفرح وصوم وصبر وحب وقوة وضعف وحرية.

نُقدّم هذه المقالات الذهبية لأبناء هذا الوطن العزيز سراجاً منيراً يهدي خطى الجميع للعيش في سلام ومحبة.

وأود أن أشكر كل من تعب في تجميع هذا الكتاب ونخص بالشكر مركز البابا شنوده الثالث للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات للكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

وكذلك الأستاذ أشرف صادق الكاتب الصحفي الذي كان همزة الوصل بـــين قداســـة البابا وجريدة الأهرام الغراء. وكتابات قداسة البابا شنوده وتعاليمه في قلوبنا وعقولنا على مر العصور والأيام. ليجعل الرب هذا الكتاب بركة للكثيرين.

١٤ أمشير ١٧٢٨ش
الموافق ٢٢ فبراير ٢٠١٢م
تذكار نياحة القديس ساويرس
بطريرك أنطاكية

الأنبا إرميا
الأسقف العام
وسكرتير قداسة البابا شنوده الثالث
ونائب رئيس المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي بالأنبا رويس

٢٩ يوليو ٢٠٠٦

حياة الإيمان

النقطة الأولى: هى الفرق في الإدراك بين الإيمان والعقل والحواس. الإيمــان هــو مستوى أعلى من مستوى العقل والحواس.

فالحواس تُدرك الماديات فقط والمرئيات. أما الإيمان فيتسع نطاقه إلى الإيمــان بمــا لا يُرى فاللَّه مثلاً هو فوق مستوى المرئيات والحواس. ولكنا ندرك وجوده بالإيمان، على الرغم من أننا لا نراه... وكذلك الملائكة: لا نراهم بعيوننا، ولكننا نؤمن بوجودهم. وبنفس الوضع نتكلم عن الأرواح. إننا لا نرى الروح، ولكننا بالإيمان نؤمن بوجودهــا. أيضــاً العالم الآخر بكل أوصافه: لم يره أحد قط، ولكننا نؤمن بوجوده. كذلك نؤمن بالأبدية وبكل وعود اللَّه الخاصة بها.

وهنا يبدو الفارق بين رجال الإيمان، ورجال البحوث العلمية.

أصحاب البحوث العلمية لا تدخل في نطاق عملهم كل تلك الأمور التي لا تُرى. وهم لا يكونون في حالة يقين من شيء، إلا إذا فحصوه تماماً بكل أجهزتهم ومقاييسهم العلمية. وعلى نفس هذا المنهج كل أصحاب المذاهب المادية.

****

الإيمان لا يتعارض مع الحواس. لكن نطاقه أوسع منها بكثير.. إنه قدرة أعلى مــن قدرة الحواس التي لها نطاق محدود لا تتعداه. فالحواس المادية تدرك الأشياء المادية فقط. وحتى قدرتها بالنسبة إلى الأشياء المادية هى قدرة محدودة أيضاً. وكثيــراً مــا تســتعين الحواس بالعديد من الأجهزة لمعرفة أشياء مادية أدق من أن تدركها حواسنا الضعيفة. فكم بالحري إذن الأمور غير المادية!!

فالروح مثلاً لا تدركها الحواس المادية، سواء كانت روح بشر أو روح ملاك. وعدم إدراك الحواس لها، لا يعنى عدم وجودها. إنما يعنى أن قدرة الحواس محدودة، لا تصــل إلى مستوى رؤية الروح.

****

وكما أن الحواس البشرية محدودة في قدرتها، كذلك العقل البشري محدود في معرفته. ولا يدرك سوى الأمور المحدودة...

العقل قد يوصّل الإنسان إلى بداية الطريق في إدراك وجود اللّه وبعض صفاته. ولكن الإيمان يوصّل إلى نهاية الطريق..

الإيمان لا يتعارض مع العقل، لكنه يتجاوزه إلى مراحل أبعد بما لا يقاس لا يستطيع العقل، بمفرده أن يصل إليها...

فمثلاً خلق الكائنات من العدم، مسألة يعرضها الإيمان. والباحث العلمي لا يستطيع أن يدركها. والعقل مع ذلك يتسلمها من الإيمان ويدركها. ذلك لأن العقل قد يقبل أشياء كثيرة حتى لو كان لم يدركها.

وليس من طبيعة العقل أن يرفض كل ما لا يدركه...

حتى في نطاق الأمور المادية في العالم الذي نعيش فيه: توجد مخترعات كثيرة لا يدركها إلا المتخصصون، ومع ذلك فالعقل العادي يقبلها ويتعامل معها، دون أن يدرك كيف تعمل وكيف تحدث؟!

والموت يقبله العقل ويتحدث عنه. ومع ذلك فهو لا يدركه، ولا يعرف كيف يحدث!! فإن كان العقل يقبل أموراً كثيرة في عالمنا وهو لا يدركها، فطبيعي أنه لا يوجد ما يمنعه من قبول أمور أخرى أعلى من مستوى هذا العالم...

****

العقل مثلاً لا يدرك (المعجزة) وكيف تتم، ولكنه يقبلها ويطلبها، ويفرح بها...

ولقد سُميت المعجزة معجزة، لأن العقل يعجز عن إدراكها وعن تفسيرها. ولكنه يقبلها بالإيمان، إذ يؤمن بوجود قوة غير محدودة أعلى من مستواه، يمكنها أن تعمل ما يعجز هو عن إدراكها. وهذه القوة هى قدرة اللّه القادر على كل شيء.

إننا نحترم العقل. ولكننا في نفس الوقت ندرك حدود النطاق الذي يعمل فيه. ولا نوافق العقل في طموحه حينما يريد أن يستوعب كل شيء، رافضاً ما هو فوق مستوى إدراكه!

****

النقطة الثانية في موضوعنا، أنه يوجد. نوعان من الإيمان: إيمان نظري، وإيمان عملي:

الإيمان النظري، هو إيمان فكرى فلسفي: مجرد الاقتناع العقلي بوجود اللّه، وبوجود الأمور التي لا تُرى، دون أن يكون لذلك أي تأثير على الحياة! وهو إيمان سهل. فما أسهل إثبات وجود اللّه بالأدلة العقلية والبراهين العديدة

أما الإيمان العملي، فتظهر علاماته في الحياة العملية. فما هى؟

****

*** العلامة الأولى هى ارتباط الإيمان بالفضيلة ونقاوة القلب..**

فمثلاً: لا شك أنك لا تخطئ أمام إنسان بار تحترمه. وقد تكون في حضرته في منتهى الحرص، تستحي أن ترتكب شيئاً مشيناً أمامه. إذ لا تحب أن يأخذ عنك فكرة سيئة أو أن تسقط من نظره. بل قد تحترس أيضاً أمام أحد مرءوسيك أو خدمك، لئلا يحتقرك في داخله أو يقل احترامه لك. لذلك فغالبية الخطايا تُعمل في الخفاء. أما بسبب الخوف أو الاستحياء...

فإن كنت تخجل أو تخاف من إنسان يراك، فكم بالأولى اللّه؟!

إذن إن آمنت تماماً بأن اللّه موجود في كل مكان أنت فيه، يراك ويسمعك ويرقبك، فلا شك سوف تخجل أو تخاف من أن ترتكب أي خطأ أمام اللّه.

فهل عندك هذا الشعور؟ هل يكون أمامك في كل خطية تُحارب بارتكابها؟ لو عرفت هذا ستخجل وتخاف، وتمتنع عن الخطية. لأن خوف اللّه سيكون أمام عينيك باستمرار في كل مرة تحاول أن تخطئ.

بل إنك تشعر بالاستحياء من أرواح الملائكة والقديسين:

هؤلاء الذين لا يحتملون منظرك في الخطيئة. بل إنك قد تخجل أيضاً من أرواح أصدقائك ومعارفك الذين انتقلوا من هذا العالم، وكانوا يأخذون فكرة طيبة عنك...

وإن كنت تؤمن أن اللّه فاحص القلوب وقارئ الأفكار

فلا شك إنك سوف تستحي من كل فكر رديء يمرّ بذهنك، ومن كل شهوة رديئة تكون في قلبك.

لذلك كله، فالذي يؤمن بأهمية علاقته باللَّه، يخشى ارتكاب الخطية، لأنها تفصل عن الحياة مع اللَّه.

*** النقطة الثانية: أن حياة الإيمان ترتبط بسلام القلب وعدم الخوف:**

من صفات المؤمن أن قلبه يكون باستمرار مملوءاً بالسلام والهدوء، لا يضطرب مطلقاً، ولا يقلق ولا يخاف. لأنه يؤمن بحماية اللَّه له. وهو يحتفظ بسلامه الداخلي، مهما كانت الظروف المحيطة تبدو مزعجة. إنما يخاف الشخص الذي يشعر أنه واقف وحده. أما الذي يؤمن أن اللَّه فلا يخاف.

إن المؤمن لا يستمد سلامه الداخلي من تحسن الظروف الخارجية من حوله، إنما يستمد السلام من عمل اللَّه فيه ومعه

في وسط الضيقة أياً كانت، ترى الإيمان يُعطي سلاماً:

ضيقة يتعرض لها اثنان: أحدهما مؤمن والآخر غير مؤمن. فيضطرب غير المؤمن ويخاف ويقلق، ويتصور أسوأ النتائج، وتزعجه الأفكار أما المؤمن فيلاقيها بكل اطمئنان وبسلام قلبي عجيب، واثقاً أن اللَّه سيتدخل ويحلها، وأنها ستؤول إلى الخير، ويقول في ثقة إن اللَّه المهتم بالكل سوف يهتم بي... حقاً أني لا أعرف كيف ستحل المشكلة، لكني أعرف اللَّه الذي سيحلها...

****

النقطة الثالثة أن الإيمان يمنح صاحبه قوة:

إن المؤمن إنسان قوي، يؤمن بقوة اللَّه العاملة فيه. فشعورنا بوجود اللَّه معنا، يمنحنا قوة إلهية ترافقنا وتحفظنا

إن الإيمان - أياً كان نوعه - هو قوة. يكفي أن يؤمن الإنسان بفكرة، فتراه يعمل بقوة لكي ينفذها. فالإيمان يمنحه عزيمة وإرادة وجرأة ما كانت له من قبل... هكذا كان المصلحون في كل زمان ومكان. آمنوا بفكرة، فجاهدوا بكل قوة لتنفيذها. وبسبب إيمانهم، احتملوا الكثير من الضيق حتى أكملوا عملهم. المهاتما غاندي مثلاً، آمن بحق الإنسان في الحرية، وآمن بسياسة عدم العنف. فمنحه هذا الإيمان قوة عجيبة استطاع بها أن يحرر الهند، وأن يعطي للمنبوذين حقوقاً في مساواة مع مواطنيهم...

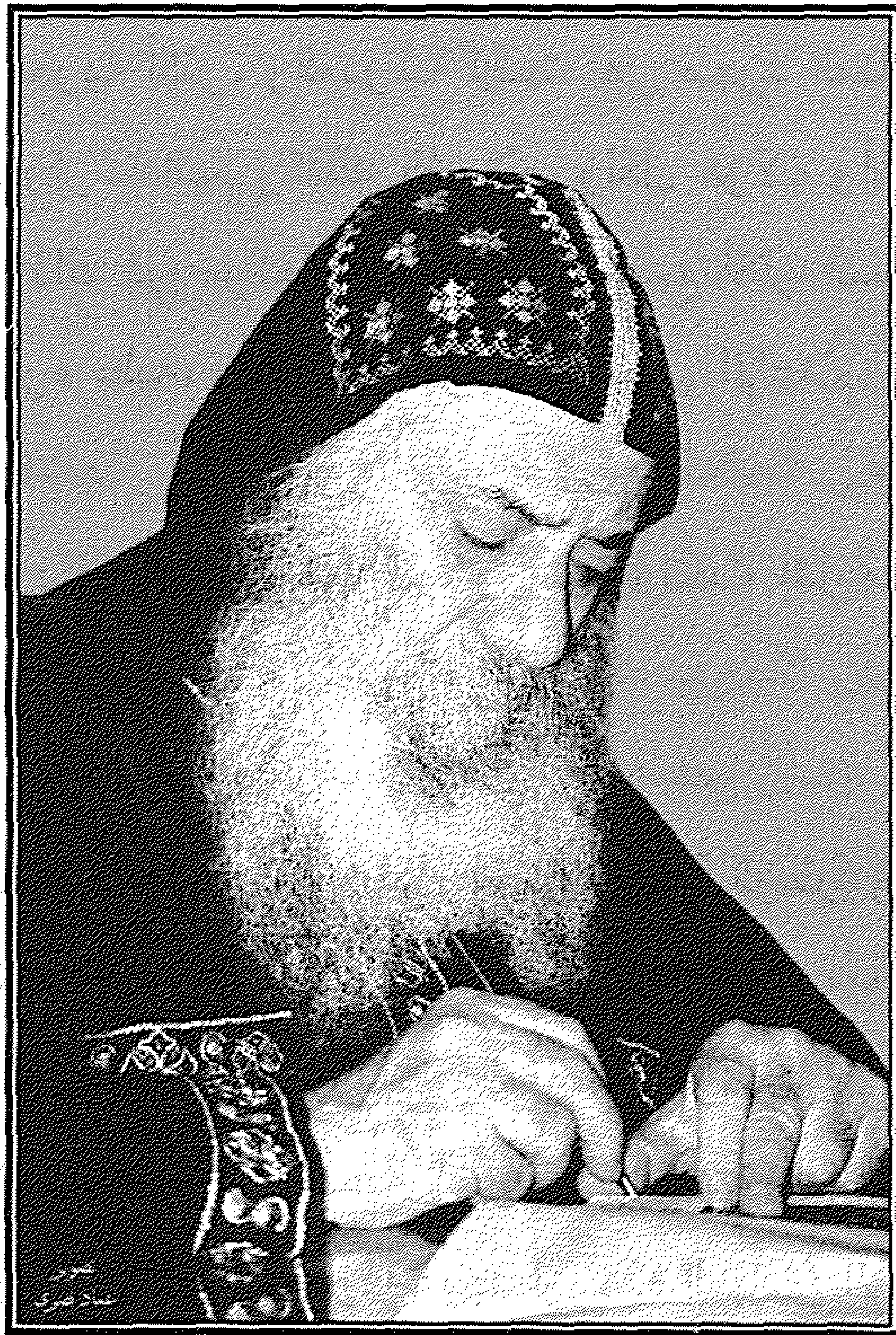
الإيمان أيضاً بنظرية علمية يكون مصدر قوة في نطاقها:

مثال ذلك روّاد الفضاء، في إيمانهم بما قيل لهم عن منطقة انعدام الوزن. وكيف أن الإنسان يمكن فيهم أن يمشي في الجو دون أن يسقط! مَن من الناس يمكنه أن يجرؤ أن يمشى في الجو دون أن يخاف؟!. أما الذي جعل الروّاد ينفذون ذلك، فهو إيمانهم الأكيد بصحة بحوث العلماء الذين أعلنوا هذا. فالإيمان بهذا منحهم قوة وشجاعة. فكم بالأكثر الإيمان بالله...

****

إن الإيمان ليس هو مجرد عقيدة، بل هو عقيدة وحياة.

بقى الحديث عن بساطة الإيمان، وما يقوّي الإيمان وما يضعفه، وأيضاً الشكوك التي تحارب الإيمان. وكل هذه وغيرها، مما لا يتسع له هذا المقال لهذا نكتفي الآن بما ذكرناه.



٦ أغسطس ٢٠٠٦

القيم والمبادئ
بين مسميات ومفاهيم

إن القيم التي يقتنع بها الإنسان ويمارسها في حياته، هى التي تحكم طباعه وسلوكه وتعامله مع الآخرين. وكلما كانت هذه القيم سليمة، يكون سلوكه سليماً. فإن انحرفت القيم التي يؤمن بها، انحرفت حياته كلها. فما هى إذن مصادر هذه القيم في حياة الإنسان؟

أول مصدر للقيم هو الضمير. ثم يتلقاها الطفل في الأسرة، ليس فقط عن طريق التعليم، بل بالأكثر عن طريق القدوة الصالحة والتدريب العملي. وهنا نتذكر قول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوّده أبوهُ

بعد ذلك يأتي دور المدرسة. وحينما يخرج الطفل من بيته إلى المدرسة، يجد نفسه في مجتمع أوسع وفي حرية أكثر. والمدرسة ليست هى مجرد المناهج والمقررات، إنما تشمل أيضاً المدرسين وإرشاداتهم وكذلك الزملاء. ولكل هؤلاء وأولئك تأثيراتهم على قيم الطفل، الذي ينتقل بعد ذلك في مراحل التعليم إلى مجتمع أكثر اتساعاً تختلف فيه القيم، ولا شك سيكون له تأثيره عليه، وبخاصة القراءة ووسائل الإعلام. فهل ستبقى قيمه كما هى أم تتطور أم تتغير؟

فعلينا إذن أن نهتم بكل مصادر هذه القيم ووضعها تحت إشراف، لكي تكون أكثر نقاوة وأكثر ملائمة...

****

ومن القيم الثابتة الأساسية التي تلزم لكل إنسان: محبة الوطن والدفاع عنه، والتضحية من أجله بالدم، إذا احتاج الأمر.

ومن القيم الثابتة أيضاً الصدق والأمانة والعفة، والحرص على نقاوة القلب، ومحبة العطاء والبذل. وإجمالاً محبة الخير ومحبة الغير، مع التطبيق العلمي السليم لكل هذا...

وكلما نما الشخص في السن والمعرفة، يجد أن هذه المبادئ الأساسية لها تفرعات كثيرة. فالعفة مثلاً تشمل عفة الجسد، وعفة اليد، وعفة اللسان. والأمانة أيضاً لها تفرعات

منها الأمانة في أداء الواجب، والأمانة في حفظ أسرار الناس، والحرص على حقوقهم، والأمانة في معناها الأصلي، بحيث لا يأخذ الشخص ما ليس من حقه، ولا يأخذ أزيد من حقه إلا إذا وُهب ذلك.

****

على أن هذه المبادئ والقيم قد تصادفها بعض المشاكل والعقبات، ينبغي للشخص أن ينتصر عليها: فمن جهة قول الصدق: ماذا يفعل إن كان قول الصدق يسبب له حرجاً، أو يوقع غيره في مسئولية؟ من الخير في هذه الحالة أن يمتنع عن الإجابة، ولا يقول ما هو غير الحق، أو يحاول أن يجد وسيلة سليمة للتخلص.

كذلك ماذا يفعل من جهة تأثير الوسَط عليه، ومحاولة شده إلى نطاق آخر بعيد عن القيم التي تعوّدها؟! هنا ينبغي عليه أن يقاوم، ويحتفظ بالقيم دون أن يكسرها، مجاهداً في سبيل ذلك. وبقدر جهاده وثباته يكافئه اللّه، وتثبت شخصيته بدون انحراف.

****

والقيم ليست مجرد مسميات، إنما لها مفهومها السليم لمن يترك الشكليات ويدخل إلى العمق...

فلا ندرب إنساناً على الحكمة، دون أن نشرح له ما هى الحكمة؟ وكيف يسلك بها في شتى ظروف الحياة... كذلك لا ندربه على الشهامة، دون أن نشرح له محتواها ومجالات استخدامها، والبعد بها عن التطرف...

أيضاً الحرية. فكل إنسان يحب الحرية من صغره وبخاصة في مرحلة الشباب، ولكن عليه أن يفهمها بمعناها السليم. فليس معنى الحرية أن يسلك الشخص حسب هواه بدون ضوابط. فنحن نؤمن بالحرية المنضبطة، التي يكون فيها الشخص حراً في سلوكه، بحيث لا يعتدي على حقوق وحريات الآخر، وبحيث لا يخرج عن نطاق النظام العام، ولا عن القانون، ولا عن وصايا اللّه. وهذه مجرد ضوابط للحرية وليست منعاً لها. مثال ذلك شاطئاً النهر. إنهما لا يمنعان مياهه من السير في مجراه، ولكنهما يضبطان هذه المسيرة بحيث لا تتدفق المياه من الجوانب وتتحول إلى مستنقعات!!

نلاحظ أن البعض قد يحاول التخلص من هذه المبادئ والقيم، في اتباع مبدأ آخر هو المتعة... أمثال هؤلاء يجعلون المتعة هدفهم، الذي يسعون إليه بكل جهدهم!! على أن اللَّه - تبارك اسمه - لم يمنع عن الإنسان المتعة، ولكن في حدود العفة، وعدم السلوك بما لا يليق. كذلك لا يجوز أن يركز كل شخص على متعة الجسد والحواس، ويتجاهل الاهتمام بمتعة الروح. فالروح تجد متعتها في محبة اللَّه وفي محبة الفضيلة، وفي التأمل والصلاة، والقراءة الروحية والتسبيح... فهل كل إنسان يهتم بهذا كله؟!

****

موضوع آخر، يبدو عند البعض عائقاً في تنفيذ ما تستلزمه المبادئ والقيم هو (الذات) الـ Ego وما تتطلبه هذه الذات في بنائها واستمرار تقدمها وعلوها

على أن بناء الذات ليس خطيئة. إنما الخطيئة هى في الأساليب الخاطئة التي بها يبنى الإنسان ذاته. فالبعض قد يجعل ذاته هى الهدف، وفي سبيل بنائها لا مانع عنده من أن يخرج على بعض القيم إذا ظن أن ذلك يلزمه.

وفي الحقيقة. أن اتباع المبادئ والقيم هو الطريق السليم لبناء الذات على أساس ثابت. لكن ذلك قد يحتاج إلى بعض الجهاد وإلى الصبر. أما الوسائل الأخرى فقد تبدو سهلة وتوصل إلى الغرض بسرعة!! ولكنه وصول زائف على غير أساس.

****

النقطة الأخيرة هى أن موضوع المبادئ أو القيم ينبغي أن ينال الاهتمام به من الصحف ووسائل الإعلام، ومن المناهج الدراسية، ومن نشاط مراكز الشباب أيضاً، فهذا واجب على الدولة تقوم به، لتبني جيلاً سليم المبادئ.

١٣ أغسطس ٢٠٠٦

أنصاف الحقائق

ليس في أنصاف الحقائق أي إنصاف للحقائق. فهى على الرغم من ظاهر صدقها! لا تعطى مفهوماً كاملاً للحقيقة كما هى... ولذلك حسناً أنه في الشهادة أمام المحكمة، ينصّ القَسَم الذي يقول الشاهد على أنه يقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق. وعبارة (كل الحق) لها معناها بلا شك...

وكمثال أنصاف الحقائق أنني في بدء رهبنتي - وأنا أتأمل في حياة الاتضاع - كتبت هذه الأبيات:

يا تراب الأرض يا جَدّي وجَدّ الناس طُرا
أنت أصلي أنت يا أقدم من آدم عُمرا
ومصيري أنت في القبر إذا وُسّدتُ قبرا

فلما تقدمت في حياة الروح، غيرّت رأيي وقلت:

ما أنا طين ولكن — أنا في الطين سكنتُ
لست طيناً أنا روح — من فم اللَّه خرجتُ
وسأمضي راجعاً للَّه — أحيا حيث كنتُ

وفي مجموعتي الأبيات هاتين تظهر أنصاف الحقائق. فالإنسان ليس مجرد إنسان مخلوق من تراب الأرض وحده، ولا هو مجرد روح من عند اللَّه، إنما هو مكوّن من الجسد والروح كليهما معاً...

موضوع (أنصاف الحقائق) كما ينطبق على الكلام، كذلك ينطبق على الحياة العملية أيضاً. وسنقدم. لذلك الكثير من الأمثلة:

ففي محيط الأسرة، يحدث الطلاق أحياناً. وكل من الزوج والزوجة يلقي السبب في ذلك على الطرف الآخر. فالزوجة تقول إن سوء معاملته لي هى السبب. بينما يقول هو إن تصرفاتها الخاطئة كانت تُثيرني باستمرار. على أن هذه الاتهامات المتبادلة بين

الطرفين تمثل نصف الحقيقة. أما النصف الثاني الأساسي، فهو أن المحبة المتبادلة. التي كانت بينهما والتي كانت هى الدافع إلى الزواج قد فترت ثم ظلت تقل بالتدريج إلى أن زالت وحال محلها شعور بالضيق والرغبة في الانفصال...

****

هناك في الحياة العملية أيضاً نصفان من الحقيقة يجب أن نذكرهما معاً، وهما الحق والواجب، أي الذي لك، والذي عليك. فأنت مثلاً لك حق في الموضوع الفلاني، ولكن من الناحية الأخرى عليك واجب أو واجبات... وبنفس المنطق نتحدث عن الفعل وما يقابله من رد الفعل..

فأنت تقول من حقنا أن نضرب عدو وطننا. ونجيب بأن هذا أمر لا يجادل فيه أحد. ولكن أن النصف الثاني من الحقيقة هو أن العدو لن يظل صامتاً أمام ضربتنا، بل سيقابلها من جانبه بضربات ربما تكون أشد. فما نتائج ذلك؟ وهل ستكون في صالحنا أم ضدنا؟! إن كل شيء ينبغي أن يُحسب له حساب. والحماس للحرب ينبغي أن يوضع إلى جواره خطورة الحرب وتكاليفها ونتائجها من تخريب وتدمير وقتل...

****

شخص يقول: لقد ضاقت بي الحياة هنا. والأصلح لي أن أهاجر لأخذ في الخارج حياة أفضل. ويقف أمام هذا الشخص النصف الآخر من الحقيقة وهو: كيف يسافر؟ وهل إجراءات الهجرة سهلة؟ ثم إذا سافرت إلى الخارج، هل ستجد وظيفة تليق بك، وهل شهادتك العلمية معتمدة هناك؟ وهل ستجد سكناً؟ وهل الوسط هناك يناسبك ويناسب أولادك وتربيتهم؟ وهل إذا ضاقت بك الحياة هناك أيضاً وفكرت أن ترجع إلى وطنك، هل ستجد عملك ومسكنك؟

فلا يصح إذن أن يركز أحد على نصف واحد من الحقيقة، ويتجاهل النصف الآخَر وما يشمل من نتائج...

****

نلاحظ في المشتغلين بالصحافة أنه كثيراً ما يركز الصحفي على حرية الكتابة والنشر، على النصف الثاني من الحقيقة أن حرية التعبير ينبغي إلى جوارها نزاهة التعبير وصدقه. أما إذا تطورت حرية التعبير إلى حرية في التشهير، فهذا أمر لا يقبله أحد.

وعلى العموم أن الحرية بوجه عام هى محبوبة ولازمة. ولكن هذا هو نصف الحقيقة. أما النصف الآخر فهو لزوم انضباط الحرية. فالحرية غير المنضبطة لها خطورتها وأخطاؤها...

****

يدعو كثيرون إلى السلوك المثالي ووجوبه. وهذا حسن جداً. ولكن النصف الآخر من الحقيقة هو العقبات والموانع التي تقف في طريق ذلك. فعلى الداعين إلى المثاليات، أن يسهلوا الطريق إليها، وأن يبحثوا عن العقبات التي تعترض طريقها، ويحاولوا أن يجدوا لها حلاً. فهناك فرق كبير بين التفكير النظري والتفكير العملي...

****

يتحدثون عن الغواية، فيذكرون باستمرار أن سبب سقوط الرجل هو المرأة. وينسون النصف الآخر من الحقيقة وهو نوعية أخلاق الرجل! فالرجل ذو الخلق المستقيم تكون لديه حصانة داخلية ضد كل إغراءات المرأة أياً كانت. فنقاوة قلبه تمنعه من الخطيئة.

أما إن فسدت أخلاق الرجل، وزادت شهوته، وضعفت إرادته، فلا يُلقي سبب سقوطه على المرأة...

****

في الدراسة يركز غالبية الناس على واجب التلميذ ومذاكرته واجتهاده... أما النصف الآخر من الحقيقة، فهو أيضاً المدرسة والمدرسون: فماذا عن اهتمام المدرس، ومدى كفاءته في الشرح والتفهيم؟ وماذا عن المدرسة والفصل الدراسي فيها يضم ستين طالباً أو أكثر مما لا يعطي فرصة للمعلم أن يهتم بكل طالب!

فهل نلقي اللوم كله على التلميذ إذا لم يفهم ولم يستوعب! وبالتالي يكون عرضة للرسوب! فإذا أضفنا إلى هذا عدم عناية الأسرة به في الدراسة، فما ذنبه؟

إن التركيز على سبب واحد في رسوب التلميذ أو ضعف تحصيله، أمر غير عملي، إنما يجب الاهتمام أيضاً بباقي الأسباب...

****

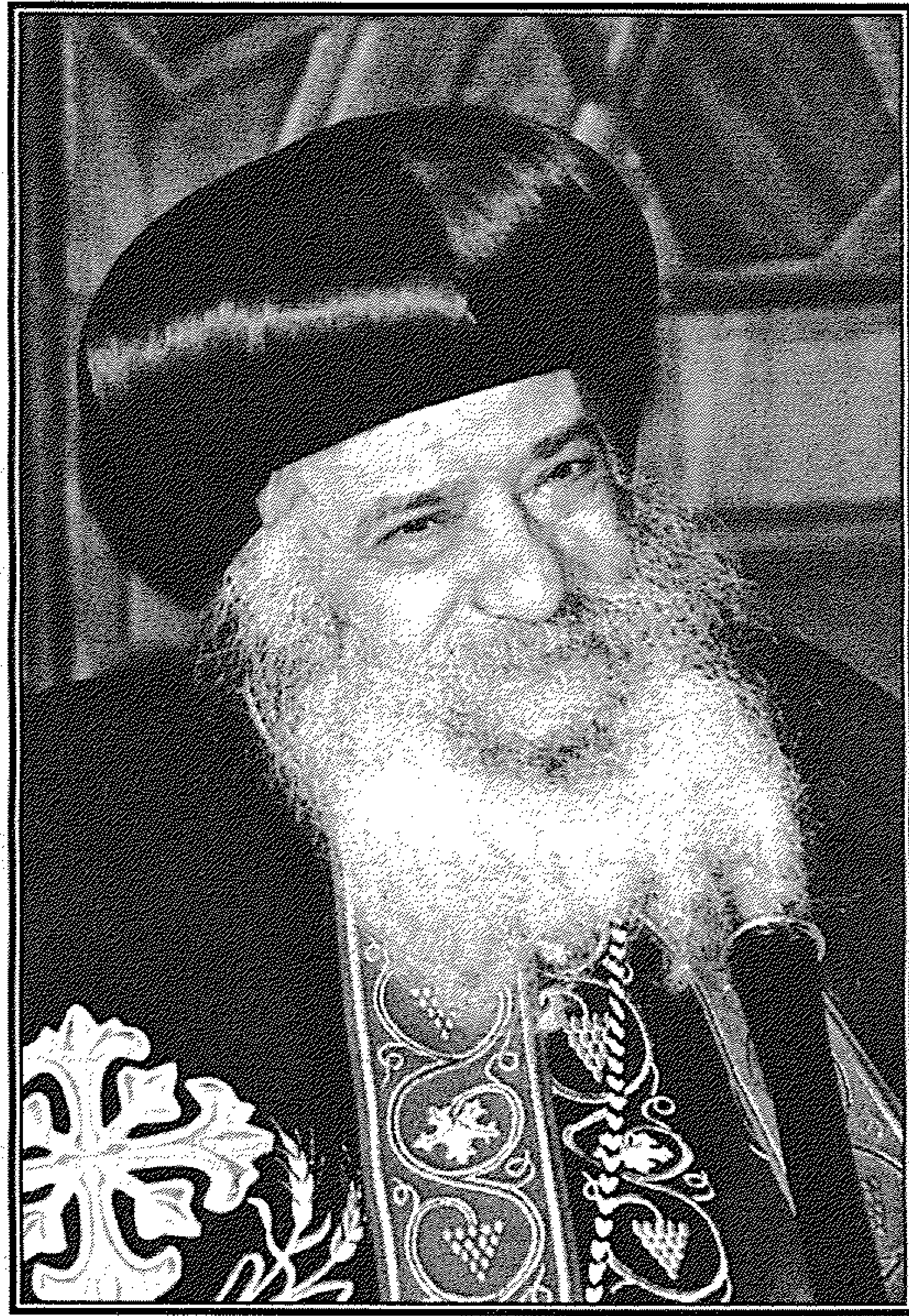
هناك بعض أمثلة أخرى، نذكرها باختصار وتركيز في فقرات:

* محبة الوطن هي واجب مقدس من جهة جميع أبنائه. والنصف الآخر من الحقيقة هو واجب الوطن نحو أبنائه. وهذا أمر على الدولة أن تقوم به، بكل مؤسساتها التشريعية والتنفيذية والشعبية.

* النظام أمر لازم جداً ومطلوب. أما النصف الآخر من الحقيقة، فهو من الذي يرتب النظام ويشرف عليه. وأيضاً شعب يؤمن بالنظام، ويرضى بالخضوع له

* كل أمور الإصلاح يلزمها اقتراحات بناءة ومفيدة. ولكن من ذا الذي يضع المقترحات؟ ومن ينفذها؟

* يرى رجال الاقتصاد أن المال هو العصب الأساسي لكل مشروع. ولكن إلى جوار المال لا بد من وجود اليد التي تديره وتحسن أنفاقه بأمانة وحكمة.



٢٠ أغسطس ٢٠٠٦

جسد، وروح، وعقل

الإنسان مكوّن من عناصر كثيرة أهمها الجسد والروح والعقل. وهو محتاج إلى أن يحفظ التوازن بينهما، فلا يسود عنصر منها على الآخر ويلغي كيانه... فإن ساد الجسد تماماً، لتحول إلى شخص مادي شهواني. وإن سادت الروح تماماً، يتحول إلى الإنسان إلى عابد أو ناسك. أما إن ساد العقل - وكان سليماً - فإنه يتحول إلى فيلسوف... ولكن إن حفظ التوازن بين عناصره، فإنه يكون إنساناً طبيعياً...

****

لكل من هذه العناصر الثلاثة مجاله وأسلحته وغذاؤه. وعلينا أن نهتم بها جميعاً بعناية وحكمة... الجسد له عمله الظاهر في النشاط والحركة، وعمله الباطن من جهة كل أجهزته الداخلية التي تعمل باستمرار في نظام دقيق وفي تعاون مع بعضها البعض. والعقل له عمله الظاهر في التفكير وفي الفهم والاستنتاج والذاكرة وفي الخيال أحياناً. وعمله الخفي في العقل الباطن وما يخزنه من أفكار ومشاعر وشهوات، تظهر أحياناً في الأحلام. أما الروح فهي عنصر الحياة للإنسان، تمنح الحياة للجسد والعقل معاً...

سلاح الجسد هو الحواس المنضبطة. وسلاح العقل هو المعرفة السليمة. وسلاح الروح هو الضمير الصالح.

ولكل من هذه العناصر الثلاثة حروبه. فحروب الجسد تكمن في شهواته. وحروب الروح هي الخطية. وحروب العقل هي الجهالة، وأسوأ منها سوء الفهم.

الإنسان في صورته المثالية - عقلاً وجسداً وروحاً - هو الوضع الذي يشتهيه الكل، وهو ما يسمونه سوبرمان Super Man . ولعله هو الذي يقصده ديوجين الفيلسوف الذي شوهد وهو يجول بمصباحه في النهار باحثاً عن شيء. فلما سألوه "عن أي شيء تبحث؟" أجاب "أبحث عن إنسان"...!!

وقد تحدث برنارد شو الكاتب المشهور عن السوبر مان، فجاءته مغنية أيرلندية جميلة جداً. وقالت له: ما رأيك في أن نتزوج وتنجب ابناً يكون هو السوبر مان في عقليته

وجماله؟ فرفض ذلك الأديب الساخر هذا الاقتراح. وأجابها: ما يدريني ذلك الابن كيف يكون؟ ربما يأخذ جماله مني، وعقله منك. فيصبح لا شيء..!!

****

إن كان الإنسان المثالي غير موجود فرضاً، أليس من الممكن للإنسان العادي أن ينمو؟ نعم، إن جسد الإنسان ينمو، ولكن إلى سن معينة وفي حدود معينة، ثم يقف نموه. غير أنه يمكن تنمية حواس الجسد.

ولكن العقل لا ينمو. له مستوى معين، كما خلقه الله في نوعية خاصة. إنما يمكن تنمية قدراته، في الحدود التي يحتملها مستوى العقل...

كذلك الروح نفسها لا تنمو. ولكن يمكن تنمية محبتها للخير والفضيلة، وتنمية مقدار مقاومتها للخطية.

****

كلٌ من الجسد والعقل والروح له غذاء، علينا أن نقدمه له: غذاء الجسد هو الطعام، وغذاء العقل هو المعرفة، وغذاء الروح في محبة الله والتأمل والتسبيح. وغذاؤها أيضا حب الخير

أما الجسد فنحن مواظبون على إعطائه الغذاء الكافي. فهل نعطى العقل أيضاً غذاءه؟ وهل نعطى الروح غذاءها؟

الجسد نعطيه الغذاء كل يوم، وفي وجبات. ونعطيه في الغذاء كل أنواع العناصر التي تلزمه. فهل نفعل هكذا مع كلٍ من العقل والروح؟! أم نهملهما؟! وإن منحناهما غذاءً، لا يكون ذلك بمواظبة ولا بحرص..!

الجسد إن لم يأخذ غذاءه، يضعف وربما يمرض. كذلك العقل والروح: إن لم يأخذا غذاءهما، تضعف قدراتهما، أو على الأقل لا تنمو...

هناك من يقوى جسده فقط، دون الاهتمام بتقوية قدرات عقله وروحه، فتجده مجرد مظهر من الخارج. وكما قال الشاعر العربي:

ترى الفتيان كالنخل   وما يدريك ما الدخل!

****

إذا حدث تعاون بين عمل كلٍ من الجسد والعقل والروح، يبلغ الإنسان أرقى ما يمكنه أن يصل إليه. ولكن يحدث أحياناً أن يسيطر أحدهما على غيره، وحينئذ لا يكون هناك. اتزان في تصرفات الإنسان:

مثال ذلك قد تسيطر أعصاب الجسد، وتوقف عمل العقل، فيتصرف الإنسان تصرفات غير لائقة، وكأنه بلا عقل!! العقل موجود، ولكن الأعصاب هي التي تولت قيادة التصرفات، وبطياشة!!

وفي أوقات كثيرة يكون العقل مجرد خادم مطيع لرغبات الجسد: فإن أراد الجسد تنفيذ شهوة معينة له، نجد العقل يدبر له كل شيء وينفذه. وبالأكثر يلتمس أدلة وبراهين لتبرير شهوة الجسد هذه!! وهنا يتحول الإنسان إلى شخص شهواني، وكأنه أيضاً بلا عقل!!

إذن ليس العقل في كل وقت، يكون هو الحكم الذي يسيطر على شهوات الجسد أو على أعصابه، وإلا لكان يعمل على منع الخطأ قبل وقوعه... وبخاصة لو كان يخضع لقيادة الروح...

الروح أيضاً لها رغبات واشتياقات تريد من العقل أن ينفذها. والمهم أن يقتنع العقل بذلك... ويرغب هو أيضاً في أن يشترك مع الروح. وهكذا نرى أن التأمل هو مزيج من عمل العقل والروح معاً. فهي تأملات روحية، ولكن العقل عنصر فيها. وكذلك كل ما يلفظه اللسان من عبارات الصلاة، والتي تخرج أصلاً من القلب...

إذن حينما يسجد الإنسان ثم يقف مصلياً، ومخاطباً اللّه سبحانه: أليس في صلاته يكون الجسد والعقل والروح مشتركة كلها معاً في عمل العبادة. وهذا هو عمق مفهومها. يشترك فيها الإنسان كله...

****

وفي كثير من الأحيان يقف العقل وحده، واثقاً من كيانه الخاص، ومستقلاً عن سيطرة الجسد وضغوطه، لكي يقدم بذاته إنتاجاً فكرياً دسماً، يثري به العالم كله أو على الأقل مواطنيه. من أمثلة ذلك ما قدمه أينشتين في مجال العلم، وأمثاله من العلماء، وما قدمه دانتي وبرناردشو في مجال الروايات. وأيضاً شكسبير في الشعر، وبتهوفن في الموسيقى، وطه حسين وتوفيق الحكيم في الأدب... كل أولئك الذين سجل التاريخ أسماءهم بحروف من نور...

٢٧ أغسطس ٢٠٠٦

الضمير
والعوامل المؤثرة عليه

ليس الضمير صوت اللَّه في الإنسان، لأن الضمير يمكن أن يخطئ وأن ينحرف. وصوت اللَّه لا يمكن أن يخطئ...

الضمير في الإنسان كالعقل والروح، فالعقل يمكن أن يخطئ. وكذلك الروح يمكن أن تخطئ، وأيضاً الضمير. الضمير كأي جهاز من أجهزة الإنسان يمكن أن يضعف وأن يقوى. يمكن أن يستنير بالوعظ والتعليم وبالحياة الروحية. كما أنه يمكن أن يضعف وأن ينام، وتطغي عليه المصلحة، وتطغي عليه الإرادة.

ما أسهل أن يختل الضمير، وتتغير أحكامه وتنقلب موازينه. كالطالب الذي يدفعه ضميره لتغشيش زميل له في الامتحان. أو كالطبيب الذي شفقة منه على فتاة يجهضها، أو يعمل عملية ليستر فتاة فقدت بكوريتها. أو يكتب شهادة مرضية لشخص غير مريض ليساعده. أو كالأم التي تستر على أولادها لكي تنقذهم من عقوبة أبيهم، فتغطي أخطاءهم بأكاذيب!

والعجيب في كل هؤلاء أن ضمائرهم لا تتعبهم ولا تبكتهم. بل على العكس يشعرون أنهم عملوا شيئاً حسناً يُفرح قلوبهم!!...

إن عدم تبكيت الضمير على الخطأ يدل على خلل فيه. أما كونه يفرح بالخطأ، فهذا يدل على انقلاب في موازينه...

****

إن الضمير موجود قبل الشريعة المكتوبة. وبه ترفّع يوسف الصديق عن خطية الزنى، ولم تكن هناك خطية مكتوبة وقتذاك تقول لا تزن... وبالضمير وُجد في العالم الوثني فلاسفة يدعون إلى الخير والفضيلة، ولم تكن تقودهم شريعة إلهية...

ولكن لاختلاف معرفة الناس، ولاختلاف عقلياتهم ونفسياتهم، قد اختلفت الضمائر...

فيوجد ضمير صالح مثل ميزان الصيدلي، حيث الزيادة تضر، والنقص يضر. وضمير آخر حرفي، يهتم بالحرف لا بالروح. وهناك ضمير منحرف، وضمير لا يبالي.

وقد يوجد إنسان له ضميران: واحد يحكم به على غيره بكل عنف. وواحد يحكم به على نفسه بكل رقة ومجاملة!

وهناك ضمير واسع يمكنه أن يجد تبريراً لأخطاء كثيرة، وضمير آخر ضيق، يظن الشر حيث لا يوجد شر، ويضخّم من قيمة الأخطاء. وهو ضمير موسوس يقع في (عقدة الذنب)، ويرى الشخص نفسه مسئولاً عن أمور لا علاقة له بها، وتملكه الكآبة أحياناً واليأس. ويظن أنه لا فائدة من كل جهاده، وأنه هالك لا محالة!!

****

والضمير تؤثر عليه العقائد والتقاليد...

فعابد الوثن كان يتعبه ضميره إذا لم يبخّر أمام الوثن ويسجد. وفي بعض البلاد كان الأب الذي لا يقتل ابنته إن فقدت بكوريتها، يثور عليه ضميره لأنه لم يغسل شرف الأسرة من العار! وبنفس الوضع كان الابن الذي لم ينتقم لقتل أبيه بقتل قاتليه، يتعبه ضميره!

وقد يحب شخص إنساناً فيدافع عنه في كل تصرفاته مهما كانت خاطئة! دون أن يتعبه ضميره، بل يتعبه ضميره إن لم يدافع. ويسمّى هذا الدفاع الخاطئ لوناً من الوفاء والواجب!

والضمير تؤثر عليه الرغبات والعواطف، حباً كانت أم كرهاً...

تؤثر عليه في أحكامه وفي سلوكه. ويندر أن يوجد من يحكم في شيء حكماً مجرداً من الرغبات ومن العواطف.

يقع إنسان في مشكلة، يرى أنها لا تُحل إلا بالكذب! فتراه يسّمى الكذب ذكاءً أو دهاءً أو حيلة. وإن حاول ضميره أن يلومه، فإنه يخفف حكمه عليه، ويلتمس لنفسه ألف عذر. وقد يسّمى بعض الكذب كذباً أبيض. ويعيش بمبدأ (الغاية تبرر الواسطة)!

****

الضمير قد يمرض من جهة أحكامه ومن جهة عواطفه!

فلا يبكت في حالات تستحق التبكيت، أو يوبخ بأسلوب هادئ جداً في أمور خطيرة. وقد قال البعض: "إن الضمير قاضٍ عادل ولكنه ضعيف، وضعفه واقف في سبيل أحكامه". ولكن الصعوبة الكبرى أن يكون الضمير ضعيفاً، وفي نفس الوقت أيضاً يكون غير عادل!.

لأنه لا يصح للإنسان أن يعتمد على ضميره وحده. بل عليه أن يلجأ في التحكيم إلى ضمائر أخرى تكون سليمة ومحايدة، وبعيدة عن تأثير الأغراض والبيئة والتقاليد. وهنا تظهر أهمية الإرشاد الروحي من مرشد موضع ثقة، يمكنه أن يقوّم مسيرة ضمير غيره. لأن هناك طرقاً تبدو للإنسان مستقيمة، بينما تقود إلى طريق خاطئ.

****

الضمير أيضاً يتأثر بالمعرفة:

فالمعرفة السليمة تجعل الضمير يستنير بالفهم. لأنه ما أكثر الذين يخطئون عن جهل. فإن استناروا بالمعرفة، يمتنعون عن الخطأ.

لهذا أرسل اللَّه الأنبياء والرسل، وأوجد المعلمين والمرشدين، لكي ينيروا للناس الطريق السليم، لأن ضمائرهم لم تعد كافيةً لإرشادهم، أو لأن ضمائرهم قادتهم إلى طرق خاطئة... كذلك لأن الشيطان قد يتدخل ليرشد الإنسان إلى طريق منحرف...

المعارف الخاطئة يمكن أن تقود الضمير أيضاً. ألم تكن الفلسفة الأبيقورية التي هدفها اللذة تقود ضمائر تابعيها؟! وكذلك فعلت الفلسفات الإلحادية: ألم تؤثر على ضمائر معتنقيها، وتحرفهم عن طريق الأمانة كله وتؤثر على سلوكهم؟

هناك معلمون يدعون تلاميذهم إلى الجدية الكاملة وعدم الضحك إطلاقاً، على اعتبار أن هذه من علامات الرزانة، وهي من صفات الرجل الكامل. ومعلمون آخرون يدعو تلاميذه إلى حياة البشاشة والمرح، لأنهم بهذا يكسبون محبة الناس والتفافهم حوله. وهكذا بنوع المعرفة يتأثر الضمير. وهناك معلمون يقولون إن تحديد النسل ضد إرادة اللَّه. وهكذا تتعب ضمائر الذين ينظمون النسل. بينما معلمون آخر يقولون إن هذا محلل ونافع، ليمكن تربية الأولاد تربية سليمة. فيستريح بذلك ضمير من يكتفون بعدد قليل من الأبناء تكون في قدرتهم تربيتهم وتعليمهم.

لذلك على الإنسان أن يحترس من نوع المعرفة التي يتلقاها سواء كانت من المعلمين أو عن طريق الكتب والقراءة

****

بقي أن أقول إن موضوع الضمير والأمور التي تؤثر عليه هو موضوع طويل، أرجو أن أتمكن من إكماله في العدد المقبل إن أحيانا الرب وعشنا. فإلى اللقاء...

٣ سبتمبر ٢٠٠٦

الضمير والإرادة

تحدثنا في المقال السابق عن الضمائر وأنواعها، وعن تأثر الضمير بالعقائد وبالتقاليد، وعن تأثره بالرغبات والشهوات، وبنوع المعرفة التي تقدم إليه. واليوم نتابع موضوعنا فنقول:

إن الضمير يتأثر بالجماعة والبيئة المحيطة به:

مثل شاب يندفع في مظاهرة يهتف ويخرّب. فإذا قُبض عليه وألقى في السجن، فإنه وهو وحده في هدوء السجن، قد يفكر بطريقة أخرى غير ما كان منه في انسياقه وراء الجماعة...

أو مثل شاب يعبث ويلهو وسط جماعة من أصدقائه، دون أن يصحو ضميره أو يوبخه. فإن خلا إلى نفسه قد يوبخه ضميره...

إن الإنسان في وسط الجماعة يقوده الانفعال والانسياق وراء الرأي العام، ولا يقوده العقل ولا الضمير. بل يكون الضمير معطلاً ولو إلى حين. كذلك الإنسان في وسط الجماعة، قد تقود ضميره الشائعات والإثارات، وقد يصدق في سرعة ما يقولون، ويتصرف متأثراً بما سمعه...

****

الضمير قد يتشجع إذا أثرت عليه جماعة صالحة وقادته إلى الخير. ولكنه قد يتراخى وينام وهو في وسط جماعة خاطئة، أو تتغير مبادئه ويحكم على الأمور حكماً مختلفاً. وهذا ما نلاحظه في بعض الذين يتركون بلادهم مدة طويلة، ويتغربون في بلاد أخرى تختلف في ثقافتها وفي تقاليدها وفي عادات شعوبها...

على أن هناك ضمائر قوية، قد لا يطغي عليها تيار المجتمع، وإنما هى التي تؤثر فيه. مثال ذلك الأنبياء والمصلحون وغيرهم... إنهم لم يتأثروا بفساد الجيل الذي عاشوا فيه، بل تولوا قيادته، وغيروه إلى أفضل... هؤلاء الأقوياء يتصفون بالصلابة والصمود

وعدم الانقياد. إنهم يذكرونني بالجنادل الستة التي اعترضت مجرى النيل، ولم تؤثر فيها كل تياراته ومياهه وأمواجه على مدى آلاف السنين...

****

الضمير أيضاً يتأثر أيضاً بالقادة والمرشدين والمعلمين...

ومن بعض الأشخاص المشهورين. وكثيراً ما نجد إنساناً هو صورة طبق الأصل من أبيه أو مرشده، في أسلوبه، وفي أفكاره وطباعه، بل حتى في حركاته. يعتنق كل مبادئه، ويتأثر بها ضميره، ويخضع لها وتعيد جزءاً من طبعه. نقول هذا بوجه خاص بالنسبة إلى المبتدئين، والذين في فترة تكوين مثالياتهم...

****

والضمير في طريقه، قد يصطدم بأمور عديدة أولها الإرادة...

فإذا مالت الإرادة نحو الخطية وأرادت تنفيذها، وحاول الضمير منعها، فإنها تعمل على إسكات الضمير أو الهروب من صوته. ويقوم صراع ما بين الضمير والإرادة: أما أن ينتصر فيه الضمير، وأما أن تنتصر الإرادة وتنفذها ما تشاء من الخطأ.

إن الضمير هو مجرد صوت يوجّه الإرادة نحو الخير، ويبعدها عن الشر. ولكنه لا يملك أن يرغمها...

هو مجرد صوت، يصيح باستمرار في عقل الإنسان وفي قلبه، يشهد للحق، وينذره من جهة الأخطاء ويبكته على ارتكابها، ويكتفي بهذا الواجب..

****

والإرادة قد تحاول إسكات الضمير بحجة الاحتفاظ بسلامها القلبي! إنها لا تريد أن يكون هذا الضمير سبباً في تعكير صفوها الداخلي، أو أن يتعب نفسيتها، ولذلك تسكته. هذه الإرادة المريضة يهمها راحة النفس وليس راحة الروح. أما الروح فتستريح في طاعة الرب، وفي نقاوة القلب، وترحب بتوبيخ الضمير وطاعته...

إن الإرادة الخاطئة تهرب من الضمير ولا تعطيه فرصة. لذلك تهرب أيضاً من محاسبة النفس، بالمشغولية المستمرة. وإن أتاها صوت الضمير من مصدر خارجي، من أب أو صديق أو معلم، تحاول تغيير مجرى الحديث إلى موضوع آخر، هروباً من هذا الصوت الذي يتعبها..

وقد يجد الضمير أنه لا مجال له، فيستكين ويصمت. ويمضى عليه الوقت فيتعود الصمت، ولا يتدخل في أعماق الإرادة!

وتبقى الإرادة وحدها في الميدان، تعمل ما تشاء، وتتفرغ لرغباتها، ولا تعطى للضمير فرصة أخرى... فيصبح ضميراً غائباً، أو ضميراً مستتراً، أو ضميراً نائماً. ويتعطل عمله في الإرشاد.

وتساعد الضمير على السكوت، وسائل التسلية المتعددة، التي ينشغل بها الإنسان، ووسائل الترفيه، وطغيان لذة الخطية، وعدم جدوى التوبيخ. وييأس الضمير من إمكانية العمل. وبخاصة لو أنه حثّ على التوبة مراراً، ولم تستجب له الإرادة. إنه مجرد مرشد لا يستطيع أن يرغم الإرادة على قبول مشورته!

****

الضمير مثل إشارات المرور في الطريق. قد تضئ باللون الأحمر لكي يقف السائق. ولكنها لا ترغمه على الوقوف...

ما أسهل أن يخالف السائق إشارة المرور الحمراء، ويستمر في سيره، وتُكتب له مخالف، ولا يبالي. إن الضمير مجرد مرشد. أما التنفيذ ففي يد الإرادة.

فهل إذا انحرفت الإرادة وأسكتت الضمير، أيستمر الإنسان واقفاً في أخطائه، ويضيع نفسه ويهلك؟! إذن لا بد من عامل خارجي يتدخل...

هنا قد تتدخل نعمة اللّه لكي تنقذ الإنسان...

ما دام ضميره ضعيفاً، وإرادته المنحرفة هى المسيطرة... والنعمة قد تتدخل وحدها بناءً على رحمة اللّه بهذا الإنسان الضعيف، لكي توقظه من غفلته، وتلين قلبه القاسي. وقد تتدخل النعمة استجابة لصلاة هذا الإنسان طالباً أن يخلصه اللّه من هذه الإرادة، أو استجابة لصلوات محبيه وأقربائه الذين يطلبون إلى اللّه من أجله...

ومع تدخل نعمة اللّه، يبقى الإنسان حراً يستجيب للنعمة أو لا يستجيب. ولكن من الخير له أن يطيع صوت اللّه، ويبدأ حياة جديدة بإرادة صالحة...

١٠ سبتمبر ٢٠٠٦

القلب
أهميته وعمله (جـ١)

القلب هو مركز العواطف والمشاعر والحب، وهو مركز الحياة الروحية كلها. فإن الحياة البارة المقبولة عند اللَّه، ليست مجرد ممارسات خارجية في العبادة، أو فضائل ظاهرية. إنما هى حياة قلب طاهر، أرتبط في كل علاقاته باللَّه والناس برباط الحب الصادق. وكل فضائله وعبادته وممارساته تكون نابعة من قلبه، ومزينه بعلامة الحب... إذن الحياة الروحية - قبل كل شيء - هى حياة قلب مع اللَّه، وبالتالي مع الناس.

علاقة القلب بالمشاعر كلها:

القلب فيه الحنو والطيبة، أو فيه القسوة والشدة.

فيه الإيمان والثقة، أو فيه الشك وفقدان السلام.

فضيلة التواضع مثلاً، ليست هى أن يقول الإنسان كلام أتضاع بفمه. إنما التواضع الحقيقي هو تواضع القلب. والكبرياء هو ارتفاع القلب.

القلب أيضاً فيه الخوف، كما فيه الاطمئنان. أمر واحد خطير يحدث لاثنين. أحدهما يخاف ويرتعش ويتخيل له نتائج مرعبة. بينما الآخر يقابله بكل سلام واطمئنان. وفي هدوء يفكر كيف يتلافى نتائجه السيئة. وهكذا حسب قلب كل واحد تكون مشاعره...

****

علاقة القلب بالفضائل:

إن القلب هو مصدر الفضائل كلها. كما أن الخطايا مصدرها القلب.

فالإنسان الصالح، من قلبه الصالح تصدر الصالحات. والإنسان الشرير من قلبه الشرير تخرج الشرور...

إن كان في قلبك حب، يظهر الحب في معاملاتك. وإن كانت في قلبك عداوة، تظهر هذه أيضاً في تصرفاتك، بل تظهر في لهجة صوتك وفي نظرات عينيك، لان مصدر كل

هذا هو القلب. إلا لو كان في القلب رياء، وأظهر الإنسان غير ما يبطن. على أن ذلك أيضاً ينكشف..

****

علاقة القلب بالفكر:

* القلب والفكر يعملان معاً. كل منهما يكون للآخر سبباً ونتيجة..

مشاعر القلب تسبّب أفكاراً في العقل. وأيضاً الفكر الذي في العقل يسبّب مشاعر في القلب. إن اشتهى الإنسان بقلبه خطية، فإن هذه الشهوة تسبب له أفكاراً من نوعها. ومن الناحية الأخرى إن فكرّ إنسان في خطية، فإن هذا الفكر يجلب له شهوات في قلبه.

إن أردت إذن صلاحاً في قلبك، أصلح أفكارك... وابعد عن مصادر الفكر الخاطئ. حينئذ لا تضغط الأفكار على القلب.

* الوجوديون الذين رفضوا اللّه بقلوبهم، دخلت أفكار الإلحاد إلى أذهانهم. إذن الإلحاد قد يكون من الفكر والقلب معاً.

* ربما تكون بينك وبين إنسان محبة. ويأتي ثالث فيغيرّ فكرك من نحوه، تجد قلبك إذن قد تغيرّ وفقد محبته الأولى، وظهر ذلك في كل تصرفاتك، بل وفي معاملاتك وفي ملامحك...

* وتجديد الذهن يجلب تجديد القلب معه.

****

علاقة القلب بالإرادة:

إذا ملأت محبة اللّه قلب إنسان، فإنه لا يستطيع أن يخطئ. لأن محبته للّه هى التي تسيطر على تصرفاته. وهكذا تتجه إرادته نحو اللّه بالكلية. أما إذا كان القلب غير كامل في محبته للفضيلة، فإن إرادته تكون متزعزعة، تتصرف حسب التأثيرات الخارجية عليها إن خيراً وإن شراً...

* أيضاً إن كان القلب يتميز بالجدية والتدقيق، والالتزام بالمبادئ والقيم، فإنه حسب تمسكه بكل هذا تكون إرادته قوية.

والقلب المنقلب، تكون إرادته متقلبة.

* هناك ارتباط إذن بين القلب والإرادة، وبين القلب والفكر، وبين القلب والفضيلة، وبين القلب واللسان. فكيف ذلك؟

القلب واللسان:

مِن فيض القلب يتكلم اللسان. والقلب الطاهر تكون كل كلماته طاهرة وصادقة. فإن تكلم إنسان كلاماً سيئاً، فهذا يدل على أن هناك مشاعر سيئة في قلبه كانت مصدراً لكلامه.

* والكلام الطيب وحده لا يأتي بنتيجة، إن لم يكن صادراً عن مشاعر حقيقة في القلب. لذلك قد تعتذر أحياناً إلى إنسان، فلا يقبل منك اعتذارك. لأنه لا يحس تماماً أن كلمات الاعتذار صادرة من قلبك، وإنما هى مجرد كلام، وحتى نبرات صوتك لا تدل على أسفك، لأنها غير مختلطة بمشاعر القلب. فتبدو رخيصة غير مقبولة..

* الإنسان اللّماح الحساس يستطيع أن يكتشف حقيقة الكلام، وهل هو صادر من القلب أم لا. سواء كان كلام مديح، أو كلام اعتذار، أو كلام نصح. فالصوت يكشفه، وملامح الوجه تكشفه. وما هو داخل القلب، لا يمكن للألفاظ أن تخفيه...

(ونتابع في العدد القادم حديث القلب أهميته وعمله)

١٧ سبتمبر ٢٠٠٦

القلب
أهميته وعمله (جـ ٢)

القلب والحياة مع الله :

تبدأ حياتك مع اللَّه من قلبك: تبدأ بالإيمان، والإيمان من عمل القلب. وتكمل بعمل الفضيلة، والبعد عن الخطيئة. وكل ذلك من عمل القلب أيضاً. فالإنسان الذي يحب الفضيلة لا يخطئ. إن وصايا اللَّه في قلبه وفي فكره لا يملك أن ينساها.

فإن قال البعض إن هناك وصايا قد تبدو صعبة في تنفيذها، مثل الاحتمال ومغفرة الإساءة. نقول إن وصية اللَّه تبدو صعبة علينا، إن كانت خارج قلوبنا، لم نمتزجها بعواطفنا، ولم نشعر بأهميتها... ولذلك إن أخطأنا، يكون السبب راجعاً إلى القلب أولاً وأخيراً..

* تقول: فلان قد أضاعني. أقول لك لم يضيعك سوى قلبك... لو كان قلبك قوياً غير قابل للضياع، ما استطاع أحد أن يضيعك. ثم أن عدوك هذا لا يستطيع أن يحاربك إلا من الخارج. فإن كان داخلك سليماً، فلن يضرك في شيء... صدق ذلك الحكيم الذي قال: "لا يستطيع أحد أن يؤذي إنساناً، ما لم يؤذِ هذا الإنسان نفسه".

****

* أتقول: هذا الكلام الذي سمعته غيرّ أفكاري وشككّني؟!

أقول لك إن قلبك هو السبب، لأنه قابل للتشكيك، ويسمح للفكر أن يتغير... لو كان قلبك ثابتاً وقوياً، ما كان الشك يدخل إليه، مهما سمعت من كلام...

* أتقول إن الضيقات قد زعزعتني..!

أقول لك: إنها ما كانت تزعزعك، لو كان قلبك صامداً من النوع الذي لا يتزعزع... إن الضيقة تُسمى ضيقة، إن كان القلب يضيق بها. أما القلب الواسع فإنه لا يتضايق من شيء... القلب الواسع يتناول المشكلة ويحللّها، ويحاول أن يبحث عن حلّ لها. فإن عجز

عن ذلك يحيلها إلى اللّه حلاّل المشاكل كلها... ويستريح ولا يتزعزع، واثقاً بالإيمان أنه لا بد سيأتي الحل من عند اللّه.

****

القلب وعمله الروحي:

نتكلم هنا عن عمل القلب في التوبة، وعمله في الصلاة، وفي العبادة جملة، وصلة الإنسان باللّه، تبارك اسمه:

فمن جهة التوبة:

التوبة الحقيقة هى رجوع القلب إلى اللّه. هى تغيير القلب من الداخل، أي تغيير شهوات الإنسان الداخلية. لأنه ما دامت في القلب خطية محبوبة، لا يكون قد تاب توبة حقيقية، حتى لو كان لا يقترف هذه الخطية بالفعل!.. فاللّه يريد أن يرجع الناس إليه بكل قلوبهم...

فخطية الجسد أو خطايا الحواس هى الثانية في الترتيب الزمني، أما الخطية في الترتيب فهى خطية القلب. فإن تنَقى القلب، تتنقى الحواس، ويكون الجسد طاهراً. وإن انتصر الإنسان في الداخل على الخطايا التي تحاربه، فإنه بالتبعية ينتصر من الخارج أيضاً. وهكذا فإن التوبة التي من القلب، هى التوبة التي تتحكم في الحواس وفي كل المظاهر الخارجية...

****

أتقول فلان أغضبني ونرفزني؟! كلا، بل الأولى أن تقول إنه أظهر لي الخطأ الموجود في قلبي. لأنه لو كان قلبي قوياً، ما كنت أقع في النرفزة..! والانتصار على الخطايا بالضرورة يأتي من الداخل. وهذا ما يجب أن يركز عليه الوعاظ والمعلمون...

فتاة تقول لها: ملابسك، زينتك، شكلك، مكياجك. أو شاب تقول له: شعرك الطويل، بنطلونك الجينز، منظرك!! وتحاول أن تضغط من الخارج، أو تؤنب وتوبخ... تاركاً القلب كما هو!!

اعرف تماماً أن هذا الأسلوب لا يجدي. فالمهم هو القلب، وما مدى اقتناعه الداخلي واتجاهه الفكري...

إن التغيير الخارجي، لا يأتي إلا بالتجديد الداخلي، أي بذهن يفكر بطريقة جديدة ينفعل بها القلب ومشاعره. ومهمة الواعظ أن يتعامل مع قلوب الناس وأفكارهم، وليس مع آذانهم وحدها.. ولا يركز على المظاهر الخارجية وحسن السلوك من الخارج...

****

القلب والصلاة:

الصلاة المقبولة هى الصلاة التي من القلب، وليست هى مجرد كلمات نرددها أمام اللَّه. إنما هى مشاعر قلب ينسكب أمام اللَّه، حتى من غير كلام.. يقول داود النبي للرب في المزمور: "باسمك أرفع يدي، فتشبع نفسي كأنها من شحم ودسم".. مجرد رفع اليدين!

الصلاة هى بالحقيقة رفع القلب إلى اللَّه. أما صلاة الشفتين فقط - من غير مشاعر القلب - فهى ليست صلاة مقبولة!

إن كلمة (صلاة) مأخوذة من الصلة - أي صلة القلب باللَّه - فإن لم توجد هذه الصلة، لا تُعتبر صلاة!!

****

القلب وفضيلة العطاء:

العطاء الحقيقي هو أن تُعطي من قلبك، فيما تعطي من جيبك! فقلبك أولاً يمتلئ بمحبة المحتاجين والإشفاق عليهم. وبهذه المشاعر تقدم لهم العطاء المادي، وأنت توقن تماماً أن ما تعطيهم إياه هو حق من حقوقهم عليك. وأنه ليس من عندك، بل من عند اللَّه الذي أعطاك ما تعطيه لهم... وهكذا تعطي بغير تعالٍ، وقلبك مملوء بالاتضاع، شاكر اللَّه على عطائه لك ولهم...

٢٤ سبتمبر ٢٠٠٦

العقل البشري
أهميته - أنواعه - قوته أو انحرافه

كلمتكم من قبل عن أهم عناصر الإنسان وهى الجسد والعقل والروح. وتحدثنا بشيء من التفصيل عن الضمير والإرادة والقلب... ونود اليوم أن نتكلم عن العقل...

العقل هو الذي يميز الإنسان عن باقي المخلوقات الحية الأرضية.

وهو أساس شخصية كل عالم ومخترع، وكل فيلسوف وأديب... وهو عماد كل نجاح وتفوق ونبوغ. وهو الأساس الذي يُبنى عليه كل مشروع وكل هيئة. وكثيراً ما يوزن الإنسان بمقدار قيمة عقله..

والعقل هو الصلة بين الكاتب والقارئ: أحدهما يملي، والثاني يستوعب. والعقل هو عماد التعليم، وكل المعاهد العلمية على تنوع مستوياتها...

****

العقل جهازه هو المخ، وإنتاجه هو الفكر، وخزانته هى الذاكرة.

وحسب نوعية العقل، تكون نوعية فكره. فإن كان العقل ممتازاً، تكون أفكاره ممتازة. وإن كان عادياً، تكون أفكاره عادية...

والمخ والقلب هما أهم عنصرين تعتمد عليهما حياة الإنسان الجسدية. فإن ضعفت كل أجهزة الإنسان، وبقى مخه وقلبه سليمين، فإنهما يُبقيان عليه. لأنه ماذا يبقى من شخصية الإنسان، إذا أصيب مثلاً بالزهايمر، وفقد ذاكرته، وفقد معها علاقته بالماضي وكل ما أدخره في ذاكرته من معلومات. وأصبح مخه ليس قادراً على إنتاج جديد. وإن أنتج شيئاً، سوف ينساه!!

وللأسف، فإن (العقل) - على الرغم من كل أهميته - لا يوجد له قسم خاص بدراسته في كل كليات الجامعة. وهم يدخلونه تحت عنوان (علم النفس) في كلية الآداب. بالجامعة برغم وجود فارق كبير بين مفهوم النفس ومفهوم العقل، وإن كانوا يدمجونها معاً بالقول إن الإنسان له نفس عاقلة...

وأتذكر أنه في أيام دراستنا بالجامعة، فإن الدكتور وليم الخولي - إذ أراد أن يتخصص في دراسة العقل - فإنه بعد إتمام دراسته في كلية الطب، وتخرجه كطبيب، التحق كطالب بكلية الآداب قسم علم النفس، لكي يكون مؤهلاً لدراسة العقل دراسة علمية متكاملة. وهكذا صار فيما بعد مديراً لمستشفى الأمراض العقلية بالخانكة.

* * * *

والعقل أنواع ودرجات:

فهناك العقل العبقري، والنابغة، والذكي، والحاد الذكاء. والعقل العادي، وما هو أقل من ذلك. ويوجد العقل البسيط، والعقل المفكر. والعقل العميق في تفكيره، والعقل الضحل في التفكير... والعقل الذي يتقبل المعلومات بالتسليم، وغيره الشكاك، والذي يود أن يفحص كل شيء. والعقل البحّاث، والذي يستقبل بحوث غيره. والعقل الذي يحب أن تنمو مواهبه وقدراته باستمرار، وإلى جواره المكتفي بما عنده.. ويوجد العقل الذي له حدود لتفكيره، وآخر يتجاوز كل حدود. ويوجد العقل المعتد بذاته، والعقل المتواضع الذي يقبل من غيره، ويكون مستعد أحياناً أن يتنازل عن فكره. وهناك العقل العنيد، والآخر السهل في تعامله. والعقل السليم، والعقل المنحرف أو المريض. وأنواع أخرى.

ونضيف إلى كل ما ذكرناه، أن العقل ليس منزهاً عن الخطأ...

فمن الممكن جداً أنه يخطئ. ولعلنا نسأل: هل العقل هو الذي يخطئ أم أفكاره تخطئ؟ أم أنه لا يمكن الفصل بينهما؟

لقد أخطأ كثير من الفلاسفة الوثنيين، وأنتجوا أفكاراً منحرفة. وأفكارهم كان لها تأثيرها على عقول غير الدراسيين، فلوّثت أفكارهم، وشتّت عقولهم. فانحرفت تلك العقول، وانحرفت أفكارها. وانتشرت عدوى الأخطاء بين كثيرين..

* * * *

وهناك أمراض تصيب العقول، حتى عقول الكبار...

مثل: (البارانويا جنون العظمة) (والشيزوفرينيا انفصام الشخصية). وأحياناً يندمج هذان المرضان معاً، فيصاب الشخص بـ (بارانويل شيزوفرينيا). وربما تتدرج معهما عقدة الاضطهاد Persecution Complex . فيخيّل إليه أن كثيرين يريدون اضطهاده أو الإيقاع به!

هناك أيضاً مرض (الزهايمر) أي فقدان الذاكرة. وهذا قد يزحف على الشخص تدريجيا. فيبدأ أن ينسى شيئاً فشيئاً، حتى ينسى كل معارفه وأقاربه. هذا المرض أصاب ريجين رئيس أمريكا، حتى نسى أنه كان رئيساً للولايات المتحدة! وقد أصاب هذا المرض كثيراً من الكبار، على الرغم من نبوغهم السابق...

وأمراض العقول عديدة، يعرفها المتخصصون. ويعرفون طرق علاجها وأساليب التعامل معها...

****

على أن هناك أسئلة حول العقل وأهميته وعمله، نذكر منها:

* هل يمكن للعقل أن يتغير عن نوعيته أو درجته؟ وهل يمكن أن ينمو؟

لا شك أن العقل يرتفع مستواه، إذا خالط عقولاً أعلى منه، وأراه - في اتضاع أن يستفيد منها... ويبقى السؤال قائماً: هل العقل هو الذي يرتفع مستواه؟ أم أن أفكاره هي التي يرتفع مستواها؟

ونفس الوضع بالنسبة إلى نمو العقل: هل هو الذي ينمو؟ أم درجة تفكيره هي التي تنمو؟ وهل ينمو العقل أم قدراته؟

وبالنسبة إلى نضوج الطفل ونموه، يبقى السؤال قائماً: هل عقل الطفل ينمو كلما تقدم به العمر؟ أم أن العقل تُكتشف فيه قدرات كانت كامنة غير معروفة، ومواهب كانت فيه لم تكن تُستخدم بعد..؟

****

* هل يعيش الإنسان بالعقل أم بالروح؟

طبعاً بالروح يعيش كل أحد على الأرض حياة عادية. أما بالعقل، فإلى جوار الحياة العادية، يعيش الخاصة التي تعتبر حياتهم حياة... والذين يستمر إنتاجهم الفكري يحيا بعد موتهم..

وأيضاً بالعقل يعيش المجتمع الحياة العادية. أما بالروح فيحيون حياة مقدسة منتسبة إلى اللّٰه...

وبعد، هل قلنا ما يلزم قوله عن العقل؟ كلا، فمن العقل أن نقول إن الموضوع أطول من هذا بكثير...

١ أكتوبر ٢٠٠٦

الجسد
هل هو مصدر كل خطية ؟!

كثير من النسّاك يرون أن الجسد هو مصدر الخطايا جملةً! ويرون أن كل الخطايا ترجع إلى ثلاثة: الجسد والعالم والشيطان! وأن الشيطان يستخدم الجسد بالذات! بل يبالغ البعض ويقولون إن الجسد هو خطية في ذاته!!

ونحن نقول لهم: لو كان الجسد خطية في ذاته، ما كان اللّه قد خلق جسداً على الإطلاق، وما كان قد أبدع في تكوين هذا الجسد...

فلقد خلق اللّه أجساداً للبشر والحيوانات والأسماك والطيور... ولكن أبدعها جميعاً في كثرة أجهزته وأدقها هو الجسد البشري. فهل يُعقل أن يكون هذا الجسد مجرد وعاءٍ للخطيئة ؟! وهو أكمل جسد في الخليقة...

****

يقولون إن جسد المرأة هو سبب سقوط الرجل!!

ونقول لهم أن سبب سقوط الرجل هو شهوته. كما أنه قادر على ممارسة شهوته بدون المرأة، على الأقل بفساد قلبه وبتصورات ذهنه التي تسبح في مجال أوسع من نطاق الواقع!

إن الخطيئة تبدأ في العقل والقلب أولاً. وبعد ذلك تبحث لها عن سبب خارجي عملي لكي تتعلق به. وهنا تبدو المرأة باعتبارها الشماعة التي يعلّق الرجل عليها أخطاءه!!

****

لا ننسى أيضاً أن الروح لها أخطاؤها، والعقل أيضاً له أخطاؤه.

وقد تكون أخطاء الروح والعقل أكثر. فلماذا التركيز إذن على الجسد وأخطائه؟! ربما لأن غالبية أخطاء الجسد واضحة ومكشوفة، بينما أخطاء العقل - على الرغم من كثرتها وبشاعتها - غير مكشوفة،! لذلك فهى تختفي وراء الجسد، وتصدّره للمسئولية!!

بينما - في الكثير من الحالات - العقل هو الذي يتسبب في خطايا الجسد..

هو الذي يفكر في الخطية وفي طريقها وفي توقيتها، ثم يدفع الجسد إلى ارتكابهـــا... فعلى من تقع مسئولية الخطية إذن؟ على العقل أم على الجسد؟ على كليهما طبعـــاً. علـــى العقل أولاً كمحرضٍ ومدبرّ. ثم على الجسد أخيراً كمنفذ...

إن غالبية ما يقال ضد الجسد، هو نتيجة المبالغة في إكرام الروح!

ولكن لا يجوز في إكرام الروح، أننا نهبط بمستوى الجسد حتى أننا نسلبه كل حقوقه! فالجسد له ماله، وعليه ما عليه، وكذلك الروح. كما أن الأخطاء المنسوبة إلى الجسد، هى منسوبة فقط إلى غرائزه إذا أُسيء استخدامها... وما أسهل استخدام كل هذه الغرائـــز فـــي طريق الخير...

كما لا يصح في الحكم على الجسد، أننا نركز على السلبيات فقـــط، بينمـــا نتجاهـــل الإيجابيات وهى ذات تفاصيل عديدة...

والمعروف أن غالبية النساك الحقيقيين، ما كانوا في كل تداريبهم الروحية، يهـــدفون إلى تعذيب الجسد، بل إلى توجيهه روحياً.. والى تهذيب غرائزه وليس قتلها...

****

إننا بالجسد يمكننا أن نخدم اللّه، وأن نخدم الناس، ونفعل الخير

* بالجسد نركع ونسجد، ونعبد اللّه، ونرفع أيدينا في الصلاة، ونحني هاماتنـــا أمـــام اللّه. ونعبّر عن خشوع الروح بواسطة خشوع الجسد. وبالجسد نصوم، ونقـــدم أجســـادنا ذبيحة للّه. وبالجسد ندخل إلى أماكن العبادة، ونستمع فيها إلى كلمة اللّه ووصـــاياه علـــى أفواه الواعظين... وكل مشاعر العبادة التي هى داخل القلب، نعبّر عنها بالجسد...

* وبالجسد أيضاً نفعل الخير، ونخدم الناس. به نمشي ونذهب إلى أماكن المرضـــى ونزورهم. وبه نمد أيدينا ونعطي للمحتاجين والفقراء. وبه نعقد كـــل الاجتماعـــات التـــي تبحث كل ما يؤول إلى خير المجتمع. وبه نجلس مع الفقراء ونبحث مشاكلهم. وبه نربت بأيدينا على الأطفال، ونقدم لهم عطفاً وحناناً. وكل عواطف القلب نؤيدها بواسطة الجسد.

ومن اهتمام البشر بالجسد، كل ما يبذلونه من جهد في علاجه من مرضـــه والعمـــل على إراحته من تعبه، والعمل على العناية بصحته، وعلى تقديم ألوان من الأنشطة له في النوادي وغيرها.

ومن اهتمام اللّه بالجسد، قيامة الجسد بعد موته، وحفظه سالماً إلى الأبد، وتهيئة مكان له في الأبدية السعيدة ... ولو كانِ الجسد مصدراً لكل خطية، ما كان اللّه يقيمه في اليوم الأخير، ليحيا في الأبدية حياة لا خطية فيها...

****

ومن اهتمامنا بالأجساد، احتفاظنا برفات الأبرار والقديسين كذكرى باقية بعد موتهم، وللتبرك بها أيضاً.

وكذلك ما نقيمه لهذه الأجساد من تماثيل تعمر بها الميادين، وكلها تخليد ذكرى أصحابها، ولاحتفاظ التاريخ بها، فلا تُنسى..

وأيضاً ما يحتفظ به غالبية الناس من صور لأحبائهم، سواء منهم الأحياء أو الذين انتقلوا من هذا العالم. وكلها صور للأجساد وليس للأرواح.. لكي بصورة الجسد يتذكرون حياتهم وسيرتهم. وكذلك الاحتفاظ بصور الشخصيات الشهيرة...

أيضاً التحنيط.. أليس هو دليلاً آخر على الاهتمام بالأجساد، ولو لحفظها لرجوع الروح والاتحاد بها، حسب عقيدة قدماء المصريين.

****

أما بدعة حرق الأجساد (التي لا نؤمن بها) فقد بدأت ببدعة أخرى هي (عودة التجسد) Reincarnation وبها يولد الإنسان مرة أخرى في جسد جديد، ويظل ينتقل في ولادات متتابعة، وفي تجسدات متعددة، إلى أن ينحل من الجسد باتحاد روحه في الملأ الأعلى، بما يعرف عند الهنود بحالة النرفانا. والذين يعتقدون بهذا الأمر لا يهمه الجسد الحالي في شيء، ما دام بعد موته ستحل روحه في جسد آخَر. ولذلك كانوا يحرقون أجسادهم، ثم يحتفظون بجزء من رمادها في قارورة صغير، كتذكار.. وقد رأيت هذا بنفسي في إحدى مدن الشرق الأوسط. زعيم الهند المهاتما غاندي الذي كانوا يقدسونه للغاية، حرقوا جسده أيضاً وألقوا رماده في النهر ليُباركه.

****

بقيت نقطة أخيرة يلزم أن أقولها في أهمية الجسد وهي:

أهمية الجسد في التناسل، وتتابع الأجيال

فلولاه ما بقي أحد من البشر من أبناء آدم وحواء!!

٨ أكتوبر ٢٠٠٦

الفكر
نقاوته وسقطاته

الإنسان الطاهر النقي، ينبغي أن يكون طاهراً في جسده وروحه، وأيضاً في أفكاره وحواسه ومشاعره، وحتى في أحلامه وظنونه.

وهكذا عليه أن يحرص على نقاوة أفكاره، لأن فكره مِلك للَّه. أما الذي يترك فكره ينشغل بأمور خاطئة، إنما يدل على أن اللَّه لا يملك قلبه، لأنه من داخل القلب تنبع الأفكار.

وإن كان القانون لا يحاسبك على أفكارك، فإن اللَّه يحاسبك عليها وكذلك الضمير يبكتّك على الفكر الخاطئ، لأن الضمير أقوى من القانون، وأوسع مجالاً منه. لذلك فالذي يحترس ألاّ يخطئ بفكره، من الصعب عليه أن يخطئ بالعمل والفعل. ومن هنا كانت نقاوة الفكر سبباً في نقاوة الإنسان كله...

****

أما عن مصادر الفكر الخاطئ فهى كثيرة. وعلى الإنسان أن يبعد عن كل ما يجلب له فكراً خاطئاً، وعن كل الأمور التي تسبب نجاسة فكره...

فقد تأتي الأفكار بسبب قراءات خاطئة، أو سماعات غير لائقة، أو بسبب الوسط الخارجي: من خُلطة أو عِشرة أو صداقة بطالة... وقد يتولد الفكر الرديء من فكر آخر رديء.

لذلك ينبغي أن يبعد الإنسان عن كل هذا، لكي يحتفظ بنقاوة فكره. وفي نفس الوقت يملأ ذهنه بأفكار نقية بديلة.

وقد تتوالى الأفكار الخاطئة من رغبات أو شهوات رديئة داخل القلب. وفي الواقع إن الرغبات والأفكار يتعاونان معاً. يمكن لكل منهم أن يكون سبباً ونتيجة. فالفكر الرديء يمكن أن ينجب شهوة رديئة. وكذلك الشهوة الرديئة يمكن أن تلد أفكاراً رديئة. وفي أحياناً كثيرة تكون الأفكار معبرة عن الشهوات. فالذي يعمل على تنقية قلبه من الرغبات الرديئة، حينئذ سوف تتنقى أفكاره تبعاً لذلك..

والأفكار والشهوات قد يلدن أحلاماً أو ظنوناً. فالشيء الذي تفكر فيه أو تشتهيه قد تحلم به. وبهذا تكون على إنسان مسؤولية في بعض الأحيان تجاه أحلامه! وكلما يتنقى قلب الإنسان وفكره، فعلى هذا القدر تتنقى أحلامه. أما إذا حلم بشيء ضد أفكاره ورغباته، فقد ينزعج بسبب ذلك ويصحو بسرعة. ولا يستمر الحلم طويلاً.

****

وقد تكون الأفكار الشريرة في بعض الأوقات مجرد حرب من الشيطان، يريد بها أن يعكر صفو القلب ويفقده سلامه الداخلي. ولكن ليست كل الأفكار الشريرة حروباً من الشياطين. فهناك فرق واسع بين حروب الأفكار والسقوط بالفكر. فالفكر الشرير إذا كان مجرد حرب من الشيطان، يكون قلب الإنسان رافضاً له، وتحاول الإرادة بكل قوتها أن تطرده وتتخلص منه ولا تقبله على الإطلاق.

أما سقطة الإنسان بالفكر، فإنه يكون خلاله راضياً به، أو ملتذاً به. وقد يحاول أن يستمر فيه ويستبقيه ويطيله. وقد يتضايق إن طرأ سبب يقطع حبل هذه الأفكار.

لذلك إن خطرت هذه الأفكار الشريرة بذهنك، كن مقاوماً لها بصدق. أما إن استبقيتها، يكون هذه اختباراً لنقاوة أفكارك!

****

نصيحتي لك أن تقاوم الأفكار الشريرة وتهرب منها. فإن حاربك فكر شرير، حاول أن تشغل ذهنك بشيء آخر، لكي تهرب منه. يمكنك أن تفكر في أمر يكون أكثر عمقاً من الفكر الشرير، فيغير مجرى تفكيرك.

أو اشغل نفسك بالقراءة في شيء ممتع، لكي تتحول أفكارك من ذلك الموضوع الرديء إلى موضوع القراءة. ويمكن أن تُصلي سراً وترفع قلبك إلى اللّٰه طالباً أن يبعد الفكر عنك... وإن لم ينفعك كل هذا، انشغل بعمل يدوي، أو تكلم مع أي إنسان لكي تطرد عنك ذلك الفكر.

واحذر من أن تستسلم للفكر الرديء، لأن هذه خيانة منك للّٰه وانضمام منك لأعدائه. على أن هروبك من الفكر من بدء وروده على ذهنك، هو أسهل وأيسر من محاولتك الهروب بعد استبقائه فترة... لأن الفكر كلما استمر معك فترة، فإنه يمارس سلطة عليك، ويُخضع إرادتك إلى جاذبيته، حتى تصبح عبداً له تنفذ مشيئته.. وإذا استمر معك الفكر،

قد يتحول إلى انفعال، أو إلى رغبة أو شهوة... وقد يتطور إلى محاولة التنفيذ. وبهذا تنتقل من خطيئة الفكر إلى خطيئة العمل!

****

وقد يأتي الفكر الشرير من الفراغ.. وكما يقول المثل "فكر الكسلان معمل للشيطان... فالإنسان المنشغل العمّال، يتحكم في أفكاره، ويوجهها حسب نوع مشغوليته. فالتلميذ المجتهد يوجه أفكاره نحو دروسه. والعالم المنشغل أفكاره في العلم. والصانع المنشغل تنحصر أفكاره في صناعته.. وأي واحد من هؤلاء وأمثالهم، إن أتاه فكر شرير، لا يجد له مكاناً من ذهنه...

أما الذي يقضي وقته في فراغ، فإن ذهنه يتعرض للأفكار الشريرة. لأنه لا يوجه أفكاره، بل الأفكار هى التي توجهه. أما أنت فابدأ بالمبادرة. قم إذن بتوجيه أفكارك. ولا تترك الأفكار تعبث بك وتوجّهك...

****

إن الفكر يمكن أن يكون سلاحاً في يدك، أو يكون سلاحاً ضدك. فاتخذه صديقاً لك لا عدواً. واعرف أن أعظم المشروعات النافعة بدأت بفكرة، وكل الأعمال الإنسانية العظيمة بدأت بفكرة. ونحن في احتياج إلى خبراء في شتى العلوم والصناعات، نستقدمهم من بلاد بعيدة أو قريبة لكي نحصل من كل منهم على أفكار تحوى علمه وخبرته... فلتكن إذن أفكارك كنزاً لك ولغيرك. ولتكن أفكارك بركة للمجتمع الذي تعيش فيه... فإن لم تستطع أن تجعل أفكارك مصدر نفع لك وللناس، فعلى الأقل لا تجعلها سبب ضياع لك تفقدك مصيرك الأبدي، وتفقدك نقاوة قلبك...

****

لا تنتظر حتى يحاربك الفكر الشرير ثم تتعب في مقاومته، بل أبدأ أنت واشغل فكرك بالتأملات والأفكار الصالحة، وبمشاعر الحب نحو اللّه والناس، حتى يستحي منك ذهنك إن أراد الشيطان أن ينجسه أو يسقطه. لذلك انشغل دائماً بكل ما هو نافع...

واعرف أن اللّه يقرأ أفكارك ويفحصها. لذلك ينبغي أن تخجل من نفسك كلما استسلمت للفكر الخاطئ. وإن سقطت في الفكر فلا تيأس وتستمر. بل أسرع وقوّم أفكارك. وليكن اللّه معك، يهبك نقاوة الفكر كعطية إلهية من عنده.

١٥ أكتوبر ٢٠٠٦

الذات
أو (الأنا) الـ Ego

نود أن نتحدث في هذا المقال عن خطورة حرب الذات روحياً. مما يشمل محبة الذات، والشعور بالذات، ومحاولة تمجيد الذات، وجعلها فوق الكل، وما ينتج عن كل ذلك من خطايا.

من أولى الخطايا التي تلدها (الأنا) الكبرياء:

فالمهتم (بالأنا) يريد باستمرار أن يكبّر ذاته. فتكون ذاته كبيرة في عينيه، وأيضاً كبيرة في أعين الآخرين. ويكون في ذلك معجباً بذاته. وقد يقع في ما يسمونه (عشق الذات) فنفسه جميلة جداً في عينيه، كمن يحب باستمرار أن ينظر في مرآة، ويتأمل محاسنه..!

ومن هنا، فالذي يقع في محبة الذات، قد يقع أيضاً في الغرور:

ويظن في ذاته أكثر من حقيقة نفسه. أنه يحسّب أنه شيء، وأن له أهمية خاصة، أو له مواهب خاصة، أو أنه يمتاز على غيره: يفهم أكثر، أو له مركز أكبر. وهذا الشعور يعطيه ثقة زائدة بالنفس يريد أن يفرضها على الآخرين، وبهذا الشعور ينقاد إلى العظمة والى محبة المتكآت الأولى.

****

ربما هذا الشعور بالذات يأتي إلى الإنسان في سن المراهقة، عندما يشعر بانتقاله إلى مرحلة أعلى تمنحه أهمية معينة.

وما أكثر ما يستمر معه هذا الشعور المراهق، كلما طال به العمر. ولكنه يأخذ مظاهر أخرى غير مظاهر سن المراهقة.

وقد يحدث هذا الشعور للطفل من كثرة المديح أو التشجيع، أو بسبب التفوق، أو بسبب ملكات خاصة. غير أن هذا الشعور قد لا يكون له خطورة عند الطفل. ولكنه غالباً ما ينحرف عند الكبار.

ومن هنا فإنه محبة الذات قد تقود إلى الغيرة والحسد:

وفي هذه الغيرة يريد أن كل شيء يصل إليه هو. فيصل إليه كل المديح والمال، وكل الإعجاب بالنجاح والتفوق، وكل الاهتمام.

إنه ليس فقط يحب لذاته أن تُمدح، بل أن يكون المديح كله له وحده! وإن مدحوا غيره، تتعب نفسه ويتضايق، كما لو كان ذلك الغير الذي مدحوه قد اغتصب منه حقاً موقوفاً عليه ..!

ونلاحظ أن المهتم بذاته يركز على تحقيق ذاته:

إنه لا يفكر في ملكوت اللَّه، إنما في ملكوته هو! فملكوت اللَّه لا يشغله، إنما تشغله ذاته وكيف يحقق لها وجودها وطموحها! حتى في صلاته يرى أن عمل اللَّه له، هو أن يبني له ذاته، ويكبّر له ذاته على الأرض وفي السماء. وهكذا لا تشمل صلواته سوى عبارات أريد.. وأريد...

والذي يركز على ذاته يريد أن الكل يعملون على تحقيق ذاته:

فالمجتمع الذي يحيط به، عليه أن يحقق له ذاته. وحتى الكنيسة مثلاً واجبها أن تحقق له ذاته. وإذا لم يحدث هذا يثور على الكل! وربما يبتعد عن الوسط الديني كله، لأنه لم يجد ذاته فيه!!

بل أن كل شخص لا يحقق له ذاته، يبتعد عنه، حتى اللَّه نفسه!! **وهذا يذكرنا بالوجوديين الملحدين** الذين كل واحد منهم يبحث عن وجوده هو، وكيف يتمتع بهذا الوجود. ولسان حاله يقول: من الخير أن اللَّه لا يوُجد، لكن أوجد أنا..!

ومعنى الوجود عنده هو التمتع باللذة. فإن كانت وصايا اللَّه تقف ضد متعته الجسدية والمادية، فلا كان اللَّه ولا كانت وصاياه!... إلى هذا الحد تقود الأنا والذات.

****

وفي كل هذا، يكون المهتم بذاته وحدها، بعيداً كل البعد عن التواضع!

ذلك لأن محبته للكرامة قد تقف حائلاً أمامه في الوصول إلى حياة الاتضاع. فهو يرى في التواضع إقلالاً من شأنه، وإبعاداً له عن العظمة التي يريدها لنفسه! إنه يحب لذاته أن تُحترم من الجميع. بل يلذ له أن يكون المحترم الوحيد! وأن يكون هو الوحيد الذي هو موضع اهتمام الناس وتقديرهم.

ومحبو الذات: كل فرحهم في الأخذ لا في العطاء:

يظنون إنهم بالأخذ يبنون الذات ويكبرونها، ويضيفون إليها جديداً..! أما العطاء فيقوم به الإنسان الذي يخرج من الاهتمام بذاته إلى الاهتمام بغيره، ويؤمن بقول السيد المسيح مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ.

****

وبهذا ممكن أن الإنسان المهتم بالأخذ، يقع بالتالي في البخل:

فهو يريد أن تزيد أمواله لكي تتمتع بها الذات، فيصعب عليه أن يُعطي. ويرى أن العطاء يُنقص المال الذي تعب هو في جمعه. ولهذا فإن كثيراً من الأغنياء يريدون باستمرار أن تكثر أرصدتهم في البنوك، ويفتخرون بذلك. ولهذا يرى من الصعب عليه أن يدفع حتى العشور أو الزكاة أو حق اللّه عليه في أمواله. ونرى أن غالبية التبرعات يدفعها الفقراء ومتوسطو الحال، إلا ما ندر.

****

والذي يثق بذاته أكثر مما يجب، قد يقع في الاعتداد بالنفس. وفي ذلك يبعد عن الطاعة والمشورة، لأنه لا يطع إلا فكره، ولا يثق إلا برأيه...

وهو في كل ذلك لا يعتمد إلا على نفسه. فهو حكيم في عيني ذاته: يعرف كل شيء، فلماذا يلجأ إلى المرشدين؟! ولماذا يستشير؟! أي شيء جديد سوف يأخذه من الاستشارة؟!. ولهذا إن أشار عليه أحد الكبار بشيء، لا يقبل ذلك بسهولة بل يجادل كثيراً ويحاور. وهكذا أيضاً مع أبيه بالجسد...

****

لهذا فالإنسان المعتد بذاته، يكون صلب الرأي عنيداً...

وما أسهل ما يختلف مع الآخرين. ويعتبر أن كل من يخالفه في الرأي، هو بالضرورة على خطأ. وهو أن دخل مع أحد في نقاش، فليس من السهل عليه أن يقتنع، لأن الذات عنده لا يمكنها أن تتراجع!

* بل المعتد بذاته يكون عنيداً حتى في علاقته مع اللّه نفسه!

وبهذا لا يستطيع أن يحيا حياة التسليم، ومن الصعب أن يقول للرب: "لتكن مشيئتك" بل مشيئتي يارب اطلب منك أن تنفذها...

ولأنه بار في عيني نفسه، لذلك لا يعترف إطلاقاً بخطأ وقع فيه:

وإن كان خطئه واضحاً، فإنه يحول المسؤولية في ذلك إلى غيره! فإن رسب في امتحان، يعلل ذلك بصعوبة الأسئلة، أو بشدة المصححين. أو أنه يلوم اللَّه الذي لم يساعده بل قد تخلى عنه، فرسب ...

أما إن نجح في الامتحان، فإنه ينسب ذلك إلى ذاته وإلى مجهوده وذكائه، وفي ذلك لا يُشير مطلقاً إلى معونة اللَّه له، ولا يشكر... وإن سألته في هذا، يقول لك: أشكر من؟ وعلى أي شيء؟! لقد فعلت كل شيء بنفسي ونجحت بمجهودي الخاص بدون أية معونة من أحد!! فلا داعي إذن لعبارة الشكر هذه...

****

وبعد، إن هناك الكثير مما نقوله عن الذات، فإلى اللقاء في عدد مقبل إن شاء الرب وعشنا.



٢٢ أكتوبر ٢٠٠٦

الــذات
تلد جمهرة من الخطايا

١- لعل أول خطية للأنا هى الأنانية:

وفيها الإنسان يتمركز حول ذاته، لا يفكر إلا فيها هى، وأن يكون لها كل ما تريـد. وفي ذلك يفضلها على الكل. فإذا اصطدمت ذاته بمحبة إنسان، يفضل ذاته علـى هـذا الإنسان. وإن تعارضت رغبات ذاته مع بعض المبادئ أو القيم، فإنه يضحي بكل المبادئ والقيم لكي يحقق ما ترغبه ذاته. بل إن اصطدمت ذاته بمحبة اللَّه أو بطاعة وصاياه، فإنه يفضلها على كل وصايا اللَّه، ويكسر تلك الوصايا لأجلها.

وطبعاً لكل هذا نتائجه في حياته بصفة عامة...

****

٢- أيضاً المحب لذاته قد يصبح لحوحاً يتعب غيره:

إنه يريد أن ينفذ فكره أو رغبته بكافة الطرق وبكل سرعة! لذلك يلجأ إلى الإلحـاح الشديد الذي يتعب أعصاب غيره. وذلك بتكرار الطلب، والضغط على تنفيذه الآن، وكمـا هو، وبسرعة، مهما كانت هناك عوائق تمنع من ذلك، ومهما كان الوقت غير مناسـب!! ولكن الأنا تريد، ولا يهمها إحراج من تطلب منه، أو إعاقته عن عملـه.. وإذا اعتـذر، لا يهمه عذره، وتعاود الإلحاح مرة أخرى، وتضغط...

وبهذا يصبح التعامل مع مثل هذه الأنا صعباً جداً...

****

٣- والـذات تقود كذلك إلى الرياء:

فالذي يحب ذاته، يريد أن الناس يرون هذه الذات في أجمل صورة، وأن يراه الناس على غير حقيقته، فيبدو أمامهم فاضلاً وباراً، مهما كان في داخله عكس ذلك، ومهما كانت له خطايا مُخفاة! وهكذا ينال منهم مديحاً لا يستحقه. وهو لا يهمه التقدير الحقيقي لذاتـه،

إنما يكفيه المظهر الخارجي مهما كان خادعاً للناس. وكل هذا رياء. على أن الرياء لا بد أن ينكشف ولو بعد حين. وكما قال الشاعر:

ثوب الرياء يشفّ عما تحته ... فإذا التحفت به فإنك عارِ

****

٤- وفي سبيل محبة الذات يقع أيضاً في الكذب:

والمعروف أن الكذب هو غطاء للذات، تغطي به أخطاءها ونقائصها، حتى لا تنكشف أمام الآخرين. فتنكر ما فعلته من خطأ. وإن انكشف إنكارها، تخفيه بكذب آخر... وهكذا لكي تبدو ذاتها بلا عيب!

كذلك قد يكون الكذب أحياناً هو وسيلة الذات التي توصلها إلى أغراضها. فتلتمس الحيل وتخترع الأسباب لكي تصل إلى ما تريد...

وسواء كان الكذب هو وسيلة للذات في أغراض آثمة تريدها، أو لإخفاء أمور آثمة لا تحب أن تنكشف.. فالذات هى الدافع في كليهما...

****

٥- ومحبة الذات تكون بعيدة دائماً عن العطاء والبذل وخدمة الآخرين:

فالذي يحب ذاته لا يريد أن يعطي، لأنه باستمرار يريد أن يأخذ ويزداد، لا أن ينقص ما عنده، بالعطاء. وإن حدث أنه أعطى في يوم ما، إنما لكي يأخذ من وراء ذلك مديحاً أو سمعة طيبة، وليس حباً في الناس وإراحتهم. وهو لا يعرف خدمة الآخرين، لأنه لا يحس باحتياجاتهم بسبب تمركزه حول ذاته. وإن دخل ذات يوم في مجالات الخدمة العامة، فلا يكون ذلك إلا بحثاً وراء السلطة والشهرة والنفوذ والمظهر الخارجي، لكي ينال اسماً في المجتمع!!

****

٦- ومحبة الذات تقود إلى الانفراد بالسلطة:

فمحب الذات إذا دخل في إدارة ما، يريد أن يجمّع كل السلطات في يديه. ويقول لا يتم شيء إلا بإذني وبمشورتي وفكري. فالقرار هو قراري، والتدبير هو تدبيري، وهكذا لا يشترك معه أحداً في النفوذ. يذكّرنا بإمبراطور فرنسا الذي قال: L'Etat est moi أي الدولة هى أنا.

وهكذا فإن الحكم الديكتاتوري في التاريخ أساسه الذات، لأنه حكم الفرد الواحد، أي الذات المنفردة بالسلطة...

****

٧- والمحارب بالأنا من الصعب أن يتعاون مع أحد:

لأنه يريد أن عقله هو الذي يسود. فالمتعاون معه إما أن يكون خاضعاً لفكره أو على الأقل متماشياً معه، وإلا يصطدمان أو ينفصلان!

* أيضاً من الأنا وعنادها تتولد الانقسامات والصراعات...

ومن الأنا تتسبب الخلافات العائلية، حيث يتسبب كل فرد برأيه. وقد يصل الأمر إلى المحاكم والقضايا، وما يسبق ذلك من شقاق وشجار وانفعال. وفي كل ذلك لا يفكر أي شخص في سعادة غيره ولا في إرضائه. بل هي الذات التي لا تفكر إلا في راحتها، ولو تبني راحتها على تعب الآخرين! ولا تفكر إلا في كرامتها هي وحقوقها سواء كان ذلك داخل الأسرة أو خارجها.

بل من الذات أيضاً تتسبب الحروب، ولكن على مستوى الدول...

****

٨- والمحارب بالذات، ما أسهل أن يصير عدوانياً:

فيقف موقفاً عدوانياً ضد كل من يقف في طريق ذاته موقفاً معارضاً أو منافساً، أو من يظنه كذلك. ذلك لأنه لا يحب أن ينافسه أحد! لذلك فإن معارضة الغير له تسبب له غضباً، ويتحول الأمر إلى خصومة. وتشتد الخصومة فتتحول إلى حقد. ذلك لأنه لا يستطيع أن يغفر الإساءة بسهولة! وإذا طال الوقت، وشعر أن ذاته لم تنل حقها... حينئذ قد يفكر في إرضاء ذاته بالانتقام. وهنا يصبح عدوانياً...

ولا شك أن كل جرائم الأخذ بالثأر سببها الذات.

****

٩- الإنسان الواثق بذاته، يفرض هذه الذات وطلباتها على الله نفسه!

فهو لا يقول للرب في صلاته "اكشف يارب ما تريد في أن أفعل... ولتكن مشئيتك". ولا يطلب إرشاد الله له، إنما يفرض على الله طلباته! وكأنه يقول: "هذا الموضوع الذي أعرضه اليوم عليك يارب: أنا قد درسته جيداً. وبقي عليك أن تنفذه لي. وأن تفعل كذا

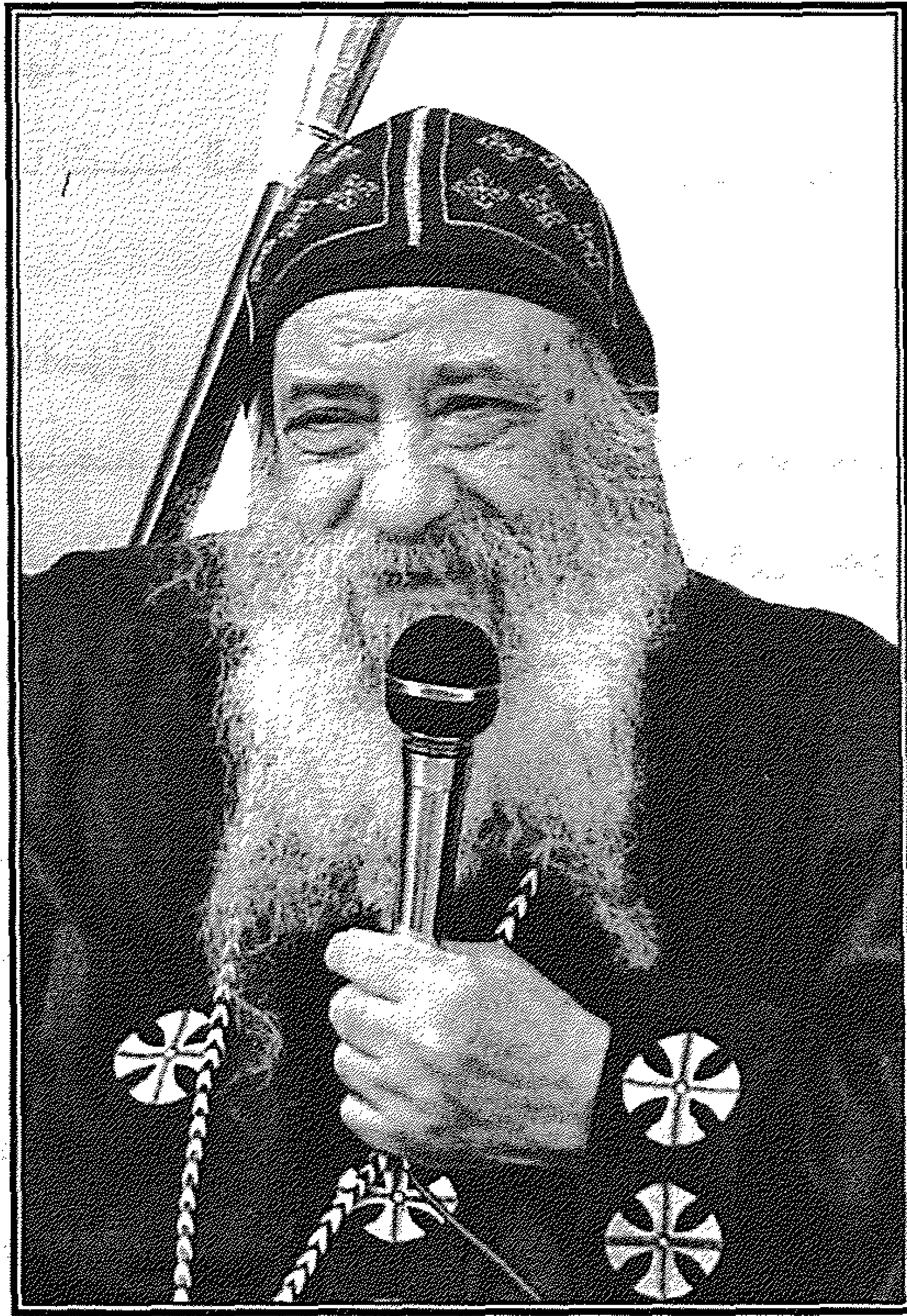
وكذا لي!! وليس فقط يفرض مشيئته على اللَّه دون أن يطلب معرفة مشيئة اللَّه! بل بالأكثر يطلب أن يكون ذلك بسرعة وبغير إبطاء!!

وهو أيضاً يراقب أعمال الناس، ويحاول أن يفرض إرادته عليهم!

****

١٠- والذي يحاول أن تكبر ذاته في عينيه، يتخيل ذلك في أحلام اليقظة:

وهى محاولة لتكبير الذات ولو في عالم الخيال. أو هى صورة للذات التي لا يشبعها الواقع الذي تعيش فيه، فتلجأ إلى إشباع ذاتها بأحلام اليقظة. فتتخيل أنها صارت كذا وكذا، وفعلت كذا و كذا. ونالت من الناس ألواناً من الإعجاب والتوقير والتمجيد!! وهكذا تعيش في جو من المجد الباطل Vain glory. ثم تصحو منه لترى أنه ليست لها القدرة لتصل إلى ما تخيلته في أحلامها!!



٢٩ أكتوبر ٢٠٠٦

اتجاهات ثلاثة

أمام البشر جميعاً ثلاثة اتجاهات في الحياة هى الاتجاه الفردي، والاتجاه الجماعي، والاتجاه نحو اللَّه ... وقد يختار البعض اتجاهاً واحداً من هذه الثلاثة يسلكون فيه ويركزون عليه. وقد يجمع البعض بين اتجاهين. وما أقل الذين يسلكون في الاتجاهات الثلاثة كلها بحكمة.

أما الاتجاه الفردي واجبات الإنسان نحو نفسه وحدها. بينما الاتجاه الاجتماعي فيشمل واجبات الشخص نحو المجتمع الذي يعيش فيه. كما أن الاتجاه الثالث فيهتم الإنسان بواجباته نحو اللَّه في العبادة والسلوك الروحي.

****

الاتجاه الفردي:

فيه يهتم الإنسان كيف يبني ذاته في كل ما يرفع مستواه:

* **كأن يهتم بعقله وذكائه وفهمه**، وينمي مواهبه في ذلك، كما يعمل على اكتساب مواهب أخرى. وربما يدخل في تدريبات عقلية لتنمية الذاكرة أو الفهم، أو الاستنتاج، أو سرعة البديهة، أو حل مشكلات عقلية أو ألغاز لتنمية الذكاء أو قوة الملاحظة... فيصير بهذا كله شخصاً لماحاً، يدرك بسرعة ما لا يدركه غيره. وينظر إلى الأمر الواحد من عدة زوايا. ويحسب توقعات لكل ردود الفعل لكل عمل يقوم فيه. وبهذا يكتسب فراسة تنفعه...

* **وقد يهتم بثقافته ومعرفته**، فيضيف إلى عقله وذكائه كثيراً من المعلومات في عديد من العلوم والفنون. ويصبح واسع الإطلاع له دراية بأمور متعددة سواء من الناحية النظرية أو الناحية العملية والخبرة ...

****

* **وقد يهتم أيضاً بأن تكون له نفسية سويّة**، بعيدة عن الخوف والاضطراب والقلق. وما إلى ذلك من الأمراض النفسية. وإن كان يحاربه شيء من هذا كله، يحاول أن يحلله ويعرف أسبابه ويعالجه، حتى لا يقع فيه... وهكذا يصل إلى الصفاء النفسي...

* **وقد يهتم البعض برفاهية نفسه ومتعتها،** فيحيطها بكل ما يمكنه من أسباب التسلية والمتعة، بحيث أن تكون بريئة. وهكذا يقضي وقته في ألوان من الترفيه من قراءات والعاب وموسيقى ومن سائر الفنون... والبعض يجد متعة في نوع من الرياضة يمارسه أو ينبغ فيه أو يكتفي بالفرجة على أبطاله.

* **وربما يهتم البعض بقوة جسده أو صحته،** ويرى أن ذلك يساعده على رفاهية الحياة والبعد عن المرض والألم. لذلك يضع لنفسه نظاماً ثابتاً للراحة، ونظاماً يومياً للرياضة، ونظاماً في التغذية والتقوية...

إن كان رجلاً يهمه قوة جسده وصحته. وإن كانت امرأة فإنه يهمها جمال جسدها ورشاقته. وكل من الاثنين يبذل وقتاً من أجل الاهتمام بالجسد.

****

وغالبية الناس - من الناحية الفردية - يهمهم النجاح في الحياة:

سواء الطالب في دراسته، أو الموظف في عمله، أو رجل الأعمال في مشروعاته، وبالمثل العالم والمفكر. كذلك رب الأسرة وصاحب أي مسؤولية، يهمه النجاح في مسؤوليته.

ولكن يختلف الناس في مستوى النجاح الذين يسعون إليه: هل هو نجاح عادي أم متفوق أم عبقري، أم له رقم قياسي ... كما يختلفون في طريقة الوصول إلى هذا النجاح. والبعض يقيس نجاحه بالمركز الذي يصل إليه في حياته العملية. والبعض الآخر يقيس نجاحه بمدى إتقانه للعمل الذي يعمله مجرداً من عنصر المكافأة عليه.

كل هذا وما يشبهه يدخل في الاتجاه الفردي.

****

الاتجاه الاجتماعي:

وفيه الفضائل التي يمارسها الإنسان وسط الناس أو في علاقته معهم.

ومنها: ١- **فضيلة الاحتمال وعدم الغضب أو النرفزة:**

سواء الغضب داخل نفسه من تصرفات تحدث له من آخرين، أعني الغضب المكبوت. أو غضب آخر ثائر لا يستطيع ضبطه، ويكون له أثره في علاقته مع غيره. يضاف إليه ما يصاحب هذا الغضب من أخطاء ومن قرارات لها خطورتها...

* فالإنسان الفاضل على المستوى الاجتماعي يضبط نفسه وقت الغضب ويحرص ألا تصدر منه إهانة لغيره أثناء غضبه، ولا جرح لشعوره. لا بكلمة شتيمة ولا بكلمة تهديد. كما يحرص ألا يفقد أعصابه ويعليّ صوته. إنما يكون متزناً مالكاً لنفسه. لا تزعزعه إهانة من غيره، ولا تهبط بمستواه. كذلك في غضبه لا يستخدم العنف الجسماني، كالذي يدخل في عراك يستعمل فيه الضرب واللكم أو ما هو أسوأ من ذلك. فإن هذا كله يهبط بمستواه الاجتماعي، وهو ضد كرامته وسمعته وسط الناس.

****

٢-البعد عن الغضب فضيلة سلبية، تقابلها إيجابياً البشاشة والوداعة:

فالإنسان الفاضل اجتماعياً يكون بشوشاً له ملامح مريحة تجعل الآخرين يحبونه. وقد يتصف بالمرح البريء وباللطف وبروح الدعابة، فيفرح من يختلط به، وتلذ له عشرته. ويبسط على جلسته مع الآخرين روح الصفاء والود.

وهو يتصف بالوداعة وطيبة القلب، وسعة الصدر في التعامل مع الآخرين. ولا يسمح بأن تتأزم الأمور بينه وبين غيره. وما أسهل أن يرد على إساءة الغير بفكاهة تجعله يبتسم، وتزول روح التوتر..

وهكذا ينطبق عليه المثل العامي بأنه: "إنسان بحبوح".

*** وعكس ذلك كله - من الناحية الاجتماعية - الإنسان النيكدي ...!**

الذي بروح النكد يخسر الناس. فالآخرون يبعدون عن عشرته خوفاً من أن يفقدوا معه سلامهم الداخلي. ومن أمثلة ذلك الزوجة النكدية التي في كل مرة تقابل زوجها بالبكاء والحزن، والتحقيقات الكثيرة، والعتاب الشديد على أتفه الأمور..! وبهذا تجعل زوجها يهرب من منزله، ويفضّل قضاء الوقت مع أصدقائه بعيداً عن النكد ..!

****

٣- الرجل الفاضل، يتصف أيضاً بالتعاون، وحسن التعامل، وخدمة الغير:

فهو لا يعيش لنفسه فقط، إنما يكون خدوماً للآخرين، يساهم معهم في أمورهم ويتعاون معهم. ولا يدخل في مشاكل مع أحد. ويتحاشى كل ما يضر بالغير. يجد فيه الناس حسن التعامل، فيطمئنون إليه ويحبونه. ويتبادلون معه نفس الروح والأسلوب. ويرتبط بالصداقة مع كثيرين...

٤- والإنسان الفاضل اجتماعياً، يتميز بالكلام الطيب:

حقاً إن الإنسان: بكلامه يتبرر، وبكلامه يدان. والرجل الفاضل لا تصدر منه إلا الكلمة الحلوة التي تجذب الناس إليه. وله اللسان النقي، الذي لا يجرح ولا يُحرج...

* **وهو يتميز أيضاً بالصدق.** وصدقه يجعله موضع ثقة الناس. فهم يطمئنون إلى صحة كلامه، وصحة ما ينقله إليهم من الأخبار، وبخاصة إذا ما كان يتميز أيضاً بالدقة التامة وعدم المبالغة. أما الكذوب فيفقد ثقة الآخرين وبخاصة إذا انكشف، وهو يفقد احترام الناس مهما كان مركزه.

* **والرجل الفاضل يتميز أيضاً بعفة اللسان:**

فهناك ألفاظ لا يستطيع الإنسان العفيف أن ينطق بها، إن كانت خارجة عن حدود الأدب أو الذوق، أو تخدش مسامع الفضلاء! لهذا فهو مهذب في ألفاظه، ينتقيها انتقاء. وهو يبعد عن الألفاظ الجنسية، وعن الفكاهات الرديئة وعن ألفاظ المجد، وعن الشتيمة والسباب، وعن التشهير ومسك سيرة الآخرين، أو تناولهم بالتهكم والحط من قيمتهم...

* **والإنسان الفاضل يستفيد الناس من علمه ومعرفته وحتى من أسلوب كلامه.**

وهو لا يضيع وقت غيره في ثرثرة، ولا يتحدث في أمور ليست من اختصاصه، ولا من تخصصه. بل يقول الكلمة المتزنة الموثوق بها التي لها مراجعها، والكلمة التي تضيف إلى سامعه ما ينفعه وما يحتاج إليه...

****

٥- الإنسان الفاضل من صفاته أيضاً الشفقة والعطاء:

كما لو كان كل من يقابله يأخذ منه شيئاً... إن لم يكن نفعاً مادياً، فعلى الأقل يحس أنه يشعر باحتياجاته وظروفه ويتعاطف معه في إشفاق وبإخلاص...

****

٦- كذلك الإنسان الاجتماعي الفاضل هو إنسان عادل منصف:

يُعطي كل ذي حق حقه. لا يظلم أحداً، ولا ينحاز إلى أحد ضد أحد. بل هو منصف في كل أحكامه ومعاملاته. ويأخذ للآخرين حقهم حتى من نفسه! ولا يمكن أن يرتفع على حساب غيره، أو ينال راحته على تعب غيره. وهو مستعد أن يعتذر لأي إنسان له حق عليه، فينصفه ويعطيه حقه...

٧- والإنسان الاجتماعي الناجح يتصف بالنشاط والحيوية:

إنه لا يكون خاملاً أبداً في المجتمع الذي يعيش فيه. بل هو شعلة من نشاط. أينما حلّ يملأ المكان حركة وبركة. وكل مسئولية يقوم بها، يظهر فيها إنجازه وإنتاجه، ويشعر الكل أنه دائماً يعمل. وهو لا يكسل ولا يبحث عن راحته، بقدر ما يسعى إلى نجاح العمل. وهكذا يعجب الناس بحيويته، ويصبح موضع ثقة في كل ما يتولاه من مسئوليات، غير شهوته لمسؤوليات أكبر..



٥ نوفمبر ٢٠٠٦

الالتزام
صفاته وعناصره

الإنسان الفاضل يلتزم بكل كلمة يقولها، وبكل وعد يعد به، وبكل اتفاق يبرمه مع آخرين، وبكل نظام يخضع له...

كما يلتزم بكل عهد بينه وبين اللَّه. ويلتزم بقيم وأخلاقيات وقواعد روحية. وهو يحيا حياة على مستوى المسئولية. لذلك فهو محترم من الكل. إن قال كلمة، تكون لها عند الناس أهميتها ووزنها، بل تكون أفضل من أي اتفاق مكتوب وموثق. حتى إن لم يقل كلمة، بل هز رأسه بعلامة الموافقة، يدركون تماماً أنه سيلتزم بهذه الموافقة، بدون شهود وبدون إمضاء!!

التزامه هذا دليل على الرجولة، ودليل على احترام الكلمة، واحترام الوعد والاتفاق. إنه سلوك شريف...

والإنسان الفاضل يلتزم أيضاً بما يقرره ويفرضه على نفسه. وكذلك بما يقرره النظام العام، وما توجبه المبادئ السليمة. وكذلك يشعر أن هناك التزاماً تفرضه وصايا اللَّه بما يلزم لها من طاعة...

****

الوفاء بالوعود والعهود:

إنك في حياتك كلها يا أخي لا شك قدمت للَّه الكثير من التعهدات في مناسبات متعددة. فهل وفيّت بهذه الوعود أمام اللَّه؟ وهل كنت في كل ذلك على مستوى الالتزام بما وعدت اللَّه به؟! كم من مرة وقعت في ضيقة شديدة، وتعهدت أمام اللَّه - إن هو أنقذك منها - أن تفعل كذا وكذا... فهل أنت قد التزمت بكل ما تعهدت به أمام اللَّه في ضيقتك؟ وكذلك ما تعهدت به أثناء مرضك؟!

وهل أنت التزمت بكل نذر نذرته أمام اللَّه؟

وكم مرة - أثناء مشاعر التوبة التي مرت بك - تعهدت أن تترك الخطيئة نهائياً ولا تعود إليها... فهل التزمت بتلك التعهدات؟

وكم مرّت عليك مناسبات مقدسة، أو مناسبات تاريخية، وقفت فيها أمام اللَّه تعده بوعود كثيرة. فهل التزمت بكل ما قلته من وعود؟ أم أن لسانك كان يرود قول الشاعر:

كم وعدتُ اللَّه وعداً حانثاً ليتني من خوف ضعفي لم أعِدْ

****

وإن كان هذا هو مدى التزامك بمواعيدك في علاقتك مع اللَّه، فماذا نقول بالأكثر عن التزامك بالوعود وبالمواعيد في علاقتك مع الناس؟!

راجع نفسك بدقة وحاسبها عن مبدأ الالتزام في كل حياتك العملية... وضع أمامك في هذه المحاسبة مضار عدم الالتزام.

عدم الالتزام:

* إن عدم الالتزام يحوي في داخله لوناً من اللامبالاة، ومن التسيبّ، والتحلل من كل رباط، وكل شرط وكل اتفاق... بطريقة لا تدعو إلى الاحترام! وعدم الالتزام ليس فيه أي شعور بالمسؤولية أمام اللَّه وأمام الناس وأمام الضمير. وليست فيه جدية. بل هو دليل على الضعف...

وغير الملتزم يحاول أن يتفطن بالحجج والأعذار، ليفلت من المسؤولية!

نعم، ما أكثر أن يعتذر بالعوائق والموانع، وبأن الأمر قد خرج تماماً من نطاق إرادته وقدرته، أو أن الظروف لم تسمح! أو أنه قد نسى، أو لم يجد الوقت، ولم يجد الإمكانية..! وغالباً ما يكون السبب الحقيقي هو أنه لم يتعود على أن يحيا حياة الالتزام، وأن يحترم كلمته!!

أما الإنسان الروحي الملتزم، فإنه يبذل كل جهده للانتصار على العوائق إن وجدت! وأن ينفذ التزامه مهما حدث، ومهما كانت الصعوبة... كرجل على مستوى المسئولية... بل إنه يشعر في داخله باحتقار لنفسه، حينما يقدم عذراً لإعفائه من الالتزام!

* لذلك فإنك تشعر بالراحة، حينما تعمل مع إنسان يتميز بالالتزام...

إن اتفقت معه على شيء، تتوقع تماماً إنك تتفق على أمر مضمون سيأتي بنتيجة سليمة... إنك في عملك مع الملتزمين تنام مستريحاً، واثقاً بأنك تعمل مع من يقدّر الموقف ويحترم الاتفاق.

* * * *

* أما غير الملتزم، فإنه يسلك بحسب هواه، ولا يبالي بأمر ولا بنظام. ويحاول أن يتملّص من كل ما يراه قيداً...

وهو لا يخضع لشيء من النظام العام، شاعراً بأن له حريته الخاصة، مهما كسرت هذه الحرية في طريقها من نظم أو قواعد! لذلك فإن غير الملتزم لا يفهم المعنى الحقيقي للحرية، ظاناً أن الحرية هى لون من التسيب لا يلتزم فيه بشيء! ومعتقداً أن النظم هي قيود تقيد فكره وإرادته وعمله!! بينما الحرية الحقيقية هي أن يتحرر من الشهوات والرغبات والعادات التي تقيده...

* وإذ يتحلل من الالتزام باسم الحرية، يضطر المجتمع أن يلزمه بالقوة. فيخرج من الالتزام إلى الإلزام... وهكذا تلزمه القوانين والعقوبة. ويحتاج من المجتمع إلى مراقبة ومحاسبة ومتابعة وتفتيش. فإن أصرّ على عدم التزامه، يتعرض للجزاء. فيضطر إلى أن يلتزم على الرغم منه!

* * * *

صفات الملتزم:

الملتزم لا يلتزم بالعمل فقط، وإنما أيضاً بنوعية ممتازة في أدائه..

وبهذا يحالفه النجاح في كل ما يعمل، لأنه يعمل بجدية وإخلاص. ولا يحتاج مطلقاً إلى رقيب، يكفي ضميره ونيته الطيبة.

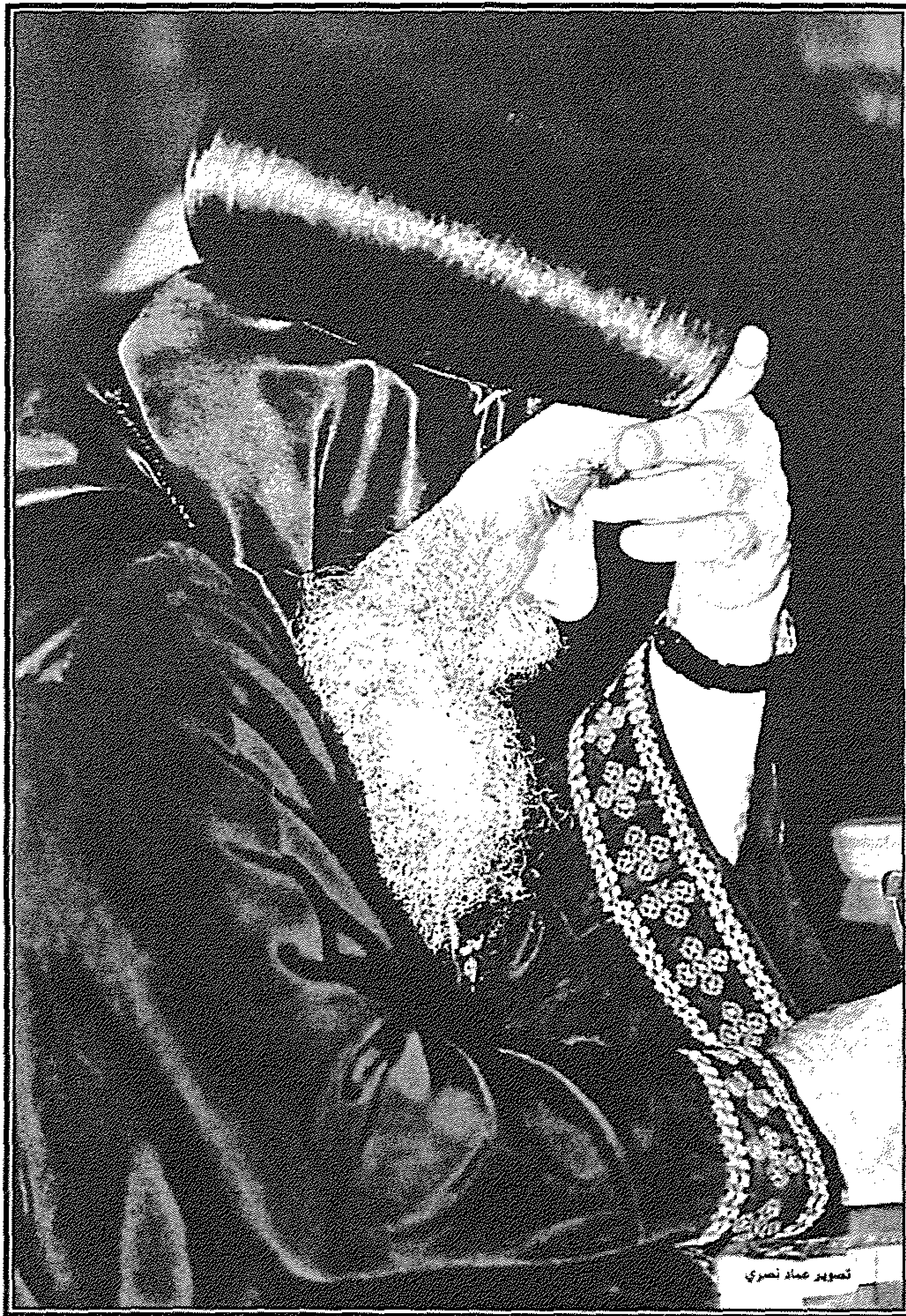
وهو يشعر أن أي تقصير في التزامه، إنما يسبب حرجاً له ولكل العاملين والمتعاونين معه، مما لا يرضاه لنفسه ولهم...

* وهو خارج محيط العمل مع الناس، يسلك بالتزام في حياته الخاصة، في كل ما يمس روحياته، في كل عبادته من صلاة وتأمل، وكل علاقته مع اللّه - تبارك اسمه - في طاعته والعمل بوصاياه... ويكون ملتزماً في كل نظام روحي يضعه لنفسه، فلا يتهاون فيه ولا يقصّر...

* وهكذا يكون الملتزم باستمرار قدوة ودرساً لغيره، يتعلمون من حياته الجدية.

* والملتزم يحرص على كل طاقاته، لكي يستطيع الوفاء بالتزاماته... فهو يحرص كل الحرص على وقته، لأنه يحتاج إلى هذا الوقت في القيام بالمسؤوليات التي تلقى على عاتقه... لذلك فهو حريص ألا يضيّع هذا الوقت في تفاهات تعرض له، أو تسليات يمكنه الاستغناء عنها...

* ولأن الملتزم لا يحب أن يقف النسيان عقبةً في طريق وفائه بالتزاماته، لذلك فهو يذكّر نفسه باستمرار بما يجب عليه عمله..



١٢ نوفمبر ٢٠٠٦

القيم السليمة
والتقييم الخاطئ

إن كلمة (قيم) من الناحية الأخوية هى كلمة جمع ومفردها (قيمة). وتعني الأشياء ذات القيمة التي تقود الإنسان في حياته. والمقصود بها اصطلاحاً. هى الأمور السامية ذات القيمة التي يهتم بها كل من يتبع طريقاً فاضلاً، ويتمسك بها كمبادئ يبدأ بها كل عمل يعمله...

فما هى الأشياء التي لها قيمة في تقديرك؟ والتي تقودك في حياتك؟

إن الناس يختلفون من جهة القيم. فالإنسان الروحي له قيم عالية يضعها أمامه باستمرار. بينما هناك أشخاص في العالم، يعيشون بلا قيم أو لهم قيم أخرى غير روحية، أو لهم تقييمهم الخاص للأمور.

* في قلب كل إنسان يوجد اهتمام بشيء معين له القيمة الأولى في تقديره الخاص. ومن أجل هذا الشيء يبذل كل جهده. وفيه يركّز كل عاطفته. فهناك من يركز كل همه في المال، ويعطيه كل القيمة. وهناك من يركز القيمة كلها في الشهرة أو العظمة. وهناك من يجعل القيمة كلها في النجاح أو التفوق...

وبحسب هذا التركيز قد تختفي القيم السابقة التي ربما لا يفكر فيها إطلاقاً!

****

وهنا يقف أمامنا موضوع هام هو:

الغرض والوسيلة:

فإنسان له غرض معين يعطيه كل القيمة، ربما في سبيله لا يهتم بنوعية الوسيلة التي توصله إليه، وقد تكون وسيلة خاطئة! فلا مانع مثلاً من الكذب والخداع والفن والحيلة لكي يصل إلى غرضه أياً كان هذا الغرض! فإن وصل، يشعر بفرحة النجاح، حتى إن كانت راحتك قائمة على تعب الآخرين!

لا شك إن هذا هو إنسان وصولي، يعيش بلا قيم، قد فقد السمو في الغرض والوسيلة، كليهما! وفرحه فرح باطل!

أما الإنسان الروحي، فيضع أمامه غرضاً صالحاً. ولا بد أن تكون وسائله الموصلة إلى هذا الغرض الصالح هى وسائل صالحة أيضاً.

فهكذا يكون أصحاب القيم والمبادئ.

****

وهنا نتعرض لموضوع هام هو:

معنى النجاح:

كل إنسان يشتاق إلى النجاح. ويمثل النجاح إحدى القيم التي يضعها أمامه. ولكن ما هو النجاح. ونقصد النجاح بمعناه الحقيقي...

ذلك لأن الأشرار يفرحون أيضاً إذا ما نجحوا في تحقيق الشر الذي يريدونه! وكل صاحب غرض يفرح بنجاحه في الوصول إلى غرضه مهما كان خاطئاً! ونحن لا نقصد النجاح بهذا المعنى..

فالنجاح الحقيقي هو أن تصل إلى نقاوة القلب، وليس فقط إلى تحقيق أغراضك أياً كانت.. وهكذا يكون النجاح هو أن تنتصر على نفسك، لا أن تنتصر على غيرك..

والنجاح هو أن تصل إلى ملكوت اللّه في قلبك. وكل غرض آخر لك يكون داخل هذا الملكوت.

فإن خرج نجاحك عن هذه القيم، يكون فشلاً لا نجاحاً.

والعجيب أنه كثيراً ما يطرح إنسان بأنه قد نجح بينما السماء ترثي لحاله! وقد يظن أنه نجح في أمر من أمور هذا العالم الحاضر، بينما يكون قد خسر أبديته!

وهنا لا بد لنا أن نعرض لإحدى القيم الهامة وهى الاهتمام بالأبدية.

****

الاهتمام بالأبدية:

الإنسان الروحي يكون اهتمامه الأول هو بأبديته، أي في مصيره الأبدي. وينمو في هذا الشعور حتى تشغل الأبدية كل اهتمامه، تصير الأبدية صاحبة القيمة الأولى في حياته.

وكل عمل أو غرض يتعارض مع أبديته يرفضه رفضاً كاملاً. وهذا الاهتمام بالأبدية يجعل لحياته اتجاهاً روحياً ثابتاً، حريصاً على محبة اللّه وحفظ وصاياه.

هذا الاتجاه الروحي يفقده الذين جعلوا القيمة الأولى لحياتهم هى الانشغال بالعالميات وبالمركز والمتعة انشغالاً ملك كل تفكيرهم، وأنساهم الحياة الأبدية، كما أنساهم قول السيد المسيح: "ماذا يستفيد الإنسان، لو ربح العالم كله وخسر نفسه"...!!

****

ليتك تسال نفسك أيها القارئ العزيز: ما هى قيمة الحياة الأبدية عندك؟ هل هى إحدى القيم الأساسية التي تحرص عليها، ولا تبرح ذاكرتك في أي وقت؟ أم أنت لا تفكر فيها على الإطلاق، تشغلك عنها اهتمامات كثيرة؟ فما هى هذه الأمور الكثيرة التي تنال منك اهتماماً وتقيماً أكثر من أبديتك؟! أما آن الأوان أن تصلح موازينك الروحية، وتعيد تقييمك للأمور، حتى تنال ما يليق بها من اهتمام وتركيز في قلبك وفي فكرك وفي توزيع وقتك؟

إنه كلما ترتفع قيمة الأبدية في قلبك وفي فكرك، فعلى هذا الحدّ تصغر وتتضاءل قيمة شهوات العالم في نظرك.. وهذه بلا شك واحدة من معالم الطريق الروحي... لأنه سيأتي وقت يفارق فيه الإنسان كل ما في العالم من متع وملاذ، ويقف ليقدم للّه حساباً.

لقد جرَّب القديس أُغسطينوس كل شهوات العالم قبل توبته، ولكن لما تاب وصغرت كل هذه الأمور في نظره، استطاع أن يقول: جلست على قمة العالم، حينما أحسست في نفسي أني لا أشتهي شيئاً ولا أخاف شيئاً.

أتركك الآن يا قارئي العزيز وإلى اللقاء في المقال المقبل لنكمّل باقي تأملاتنا.

١٩ نوفمبر ٢٠٠٦

عـودة إلـى
القيـم السلـيمة

تحدثنا في العدد الماضي عن القيم السليمة التي يلتزم بها كل إنسان، حتى وصلنا إلى الاهتمام بالحياة الأبدية.. واليوم نتابع حديثنا في موضوع القيم السليمة فنتكلم عن:

علاقتك بالغير:

ما هى قيمة الإنسان في نظرك، أي إنسان؟ هل تنظر إليه باعتباره أخاً لك في البشرية؟ تحبه، ويهمك أمره. هل تهتم بكل أحد؟ أخذاً درساً من اللّه الذي يهتم بالكل، طبعاً في حدود قدراتك... هل تحرص على مشاعر الناس، كل الناس؟ وهل تقدّر قيمة النفس، أي نفس؟

هل كل إنسان نفسه ثمينة عندك؟ وهل كل إنسان نفسه تماماً كنفسك؟ تحب له ما تحبه لنفسك. وتحرص عليه وعلى مصالحه. كما تحرص على أعزّ أحبائك: ما يصيبه كأنه أصابك، وما يفرحه يفرحك. وما يسئ إليه كأنه أساء إليك؟

****

هذه هى إحدى القيم التي يحافظ عليها الإنسان الروحي، أعني تقديره لقيمة النفس البشرية، وحرصه الشديد في المحافظة على حقوق وعلى مشاعر كل أحد...

إنك يا أخي - إن ارتفعت قيمة الإنسان في نظرك - لوجدت نفسك بالضرورة تحترم كل إنسان، وتحب كل إنسان، ولا تجرؤ على أن تجرح شعور إنسان ما. ولا تجرؤ على أن تخطئ إلى أحد، ولا أن تخطئ مع أحد! بل تخاف أن يطالبك اللّه بدمه في اليوم الأخير..!

****

* أنا أعرف أنك تهتم بمشاعر الكبار. ولكنك قد تتجاهل الصغار وتنساهم! اعلم إذن أن اللّه - تبارك اسمه - يهتم بالكل: بالصغير وبالكبير، بالسيد وبالعبد، بالخادم وبالمخدوم.. يشرق بشمسه على الأبرار والأشرار، ويمطر على الصالحين والطالحين... ويشبع كل حي من رضاه... فلنتبع خطواته..

ليس أحد منسياً عند اللّه. كل نفس عزيزة عنده، يرعاها بكل حب وإشفاق، كراعٍ صالح يهتم بكل خرافه...

فكن أنت هكذا، لأن اللّه قد ترك لنا مثالاً نحتذيه...

****

لو صار للإنسان هذه القيمة في نظرك، ستحترم حرية الناس، وستحترم حقوقهم. فلا تُغضب أحداً، ولا تغضب من أحداً، ولا تظلم أحداً، ولا تضر أحداً، ولا تشهر بسمعة أحد، بل تشمل الكل بمحبتك..

وقيمة النفس البشرية، تدعوك إلى خدمة الناس، حينما يحتاجون إلى ذلك. بل - لو أدّى الأمر - بذل النفس من أجلهم... وأيضاً الاهتمام بالنفس الواحدة، فلا تضيع في زحمة الجماهير..! وهكذا نرى الإنسان الروحي يتعب لأجل غيره...

هنا ونعرض لإحدى القيم الأخرى وهى:

الراحة والتعب:

الإنسان العادي يهمه أن يستريح ولو تعب الناس. أما صاحب القيم فيجد راحته الحقيقية في أن يتعب هو لكي يستريح الناس، الراحة عنده هى أن يريح غيره لا نفسه، بل أن نفسه تستريح في راحة غيره.

والراحة في مفهومه هى راحة ضميره وليس راحة جسده... ولا مانع عنده في أن يتعب جسده، إن كان بذلك يمكنه أن يريح غيره، وبذلك يرتاح ضميره...

وهو يدرك تماماً أن الراحة الحقيقية هى الراحة في الأبدية فليتنا نتعب ههنا بقدر إمكاننا في عمل الخير، عارفين إن الإنسان في الأبدية سيأخذ أجرته بحسب تعبه على الأرض.

وكل الأبرار قد تعبوا في عمل البر، وفي نشر البر، وفي الجهاد المتواصل لأجل بناء ملكوت اللّه على الأرض.

لذلك فإن التعب من أجل الخير هو إحدى القيم التي يهتم بها الإنسان البار، وهو علامة من معالم الطريق الروحي..

****

ننتقل إلى نقطة أخرى في موضوع القيم، وهي:

الروح والجسد:

غالبية الناس.. في تقييم احتياجاتهم يعطون كل القيمة للجسد وليس للروح، ويظهر هذا في اهتماماتهم العملية: فهم يقدمون كل الاهتمام بأجسادهم وبأجساد أبنائهم وأقاربهم... وهكذا يهتمون بطعام الجسد، وبصحته، وقوته وجماله. ويعطون الجسد كل ما يحتاج من غذاء ومن دواء وعلاج، وما يحتاجه من راحة ونشاط واستجمام...

أما الروح قد تنال نفس الاهتمام. لأن تقييم احتياج الروح ليس وارداً على الذهن، وربما يكون مهملاً...!

لذلك تضعف أرواح الناس، إذ لا تجد غذاءها الروحي الكافي، ولا الاهتمام بكل ما تحتاج إليه من تقوية ومن رياضة روحية، ومن سائر المنشطات الروحية كالقراءة والتأمل والتراتيل والاجتماعات الروحية، والصلوات والألحان، والعظات، والتداريب الروحية...

حقاً أن التقييم الذي نُعطيه للروح هو الذي يحدد مسلكنا في الحياة.. وهو الذي يجعلنا نهتم بالقيم الروحية، وبالوسائل الروحية التي تنمينا روحياً، وتدفعنا إلى التقدم باستمرار في الطريق الروحي...

****

وسنضرب مثالاً في العمل الروحي وهو الصلاة:

ما هو تقييمك للصلاة؟

* هل هو مجرد معونة لك في وقت الضيق؟ تلجأ إليه (حينما تحتاج) إلى الله؟!
* أم هي فرض عليك؟ إذ لم تؤده تشعر بتأنيب ضمير، لمجرد التقصير!
* أم هي غذاء روحي لازم لك؟ إن لم تتناوله تفتر في حياتك الروحية!
* أم هي متعة تشعر بحلاوة مذاقها؟ فتنسى الدنيا وكل ما فيها، وتود لو طال بك الوقت في الحديث مع الله!..

حسب تقييمك للصلاة، تكون درجة روحانيتك فيها، وتكون أيضاً قدرتك على الاستمرار في عمل الصلاة...

٢٦ نوفمبر ٢٠٠٦

الهدف والوسيلة

نحن جميعاً نتفق في الأهداف أو الأغراض، ما دامت النية سليمة، وما دام الهدف نافعاً وخيراً. ولكننا قد نختلف في الوسائل الموصلة الأهداف...

فما هى أسباب الاختلاف في الوسائل إذن؟

سببها اختلاف الفكر والعقل. فكُلّ منا له فكره الخاص ونظرته الخاصة إلى الأمور. كذلك تختلف الأفكار في درجة الذكاء، وبالتالي في الاستنتاج وفي الحكم والتقدير. ويختلف الناس أيضاً في الطباع وفي نوع النفسية. كذلك يختلفون من جهة البيئة المحيطة بكل منهم ومدى تأثيرها عليه..

لذلك نجد أشخاصاً يتميز كل منهم بطيب العنصر وبمحبة الخير. ومع ذلك فوسائلهم مختلفة... كُلّ منهم له طريقته وأسلوبه، وله منهجه الخاص في الوصول إلى الغرض. ولهذا كثير ما يحدث خلاف في العمل الجماعي حسبما نرى العديد من الهيئات...

****

أحياناً يوجد تنوع وأحياناً أخرى يوجد اختلاف وخلاف...

ونحن لا نعترض على التنوع، فهو يؤدي إلى ثراء في الفكر وفي الخبرة. أما الاختلاف فكثيراً ما يتسبب في انقسام وصراعات. وربما يتحول من الموضوعية إلى خلاف شخصي يتطور إلى خصام وعداوة!

ويحدث الاختلاف حينما يرى البعض أن طريقه هو الطريق السليم الوحيد، وينتقد غيره من الطرق ويحاول تحطيمها!

والحل هو إيجاد تنسيق وتكامل وتعاون بين الطرق المتعددة المتنوعة الواصلة إلى نفس الغرض الواحد...

****

وسنضرب الآن عدة أمثلة من الاختلاف حول الغرض الواحد..

ففي موضوع الإصلاح مثلاً:

الإصلاح أمر يريده الجميع ويتفقون عليه. ولكن تتعدد الآراء وتختلف في الوسائل التي يمكن بها أن يتم الإصلاح المنشود...

* فيرى البعض أن الإصلاح ينبغي أن يتم عن طريق لجنة من الحكماء، أو من الشيوخ ذوى الخبرة والمعرفة يضعون مفهومه وقواعده وأنظمته... بينما يرى البعض الآخر أن الإصلاح يضعه الشعب كله صاحب المصلحة الأولى فيه. وأنه لا بد أن يتم برضي الشعب وموافقته على كل بند من بنوده...

* يرى البعض أن الإصلاح يتم عن طريق الحلول الإيجابية البناءة، وهى واضحة المعالم للجميع. بينما يصرّ البعض الآخر على أن الإصلاح السليم لا يمكن بناؤه إلا بواسطة دراسة متأنية متعمقة تخص كل الموضوعات التي يشملها الإصلاح. وليس المهم عامل الزمن، بل التركيز على الإتقان ...

* يرى البعض أن لا أسلوب يوصل إلى الإصلاح إلا العنف، عن طريق النقد الشديد والمنشورات والتجريح والتشهير... ذلك لأن المخطئين الذين سيتخلص الإصلاح منهم، لا يمكن إزاحتهم إلا باستخدام الشدة معهم وكشفهم أمام الجماهير. بينما يرى آخرون أنه لا يجوز - في أسلوب الإصلاح - أن نفقد الوداعة واتضاع القلب، بل نحتفظ بروحياتنا...

وهكذا تتعدد الوسائل، بل تختلف أحياناً، والغرض واحد وهو الإصلاح

****

وللأسف، لا ننكر في موضوعنا هذا، أن البعض يستخدم أحياناً:

مبدأ ميكيافيللي الذي يُنادي بأن الغاية تبرر الواسطة!

فيرى أنه ما دامت الغاية سليمة، فلا مانع من استخدام أية الوسائل مهما كانت خاطئة! وإن عاتبت هذا الشخص على أخطائه، يحتج بأنه يسعى إلى غرض نبيل! كلا، فالغرض النبيل يلزم أن تكون وسائله نبيلة أيضاً. ولا يصح الجمع بين الخير والشر ليسيرا معاً في طريق واحد!!

* بالمثل أب يقسو جداً على ابنه حتى يعقده نفسياً. ويحتج بغرض مقدس هو تربية ابنه! هذا الغرض سليم، ولكن الوسيلة مخطئة... أو أم تتدخل في صميم الحياة الزوجية

لأبنتها، وقد تتسبب في فصلها عن زوجها! وتبرر ما تفعله بحرصها على كرامة ابنتها.. إنها وسيلة غير حكيمة تؤدي إلى الضياع..

****

وكثيراً ما ضيعَ الناس علاقاتهم بغيرهم، كنتيجة للوسيلة الخاطئة...

مثال ذلك شخص يسعى إلى مصالحة غيره. إنه هدف سليم بلا شك.. ويرى أن وسيلة ذلك هى العتاب. ولكنه في طريقة العتاب، يعيد الأوجاع والجروح القديمة، ويضغط عليها بأسلوب يتعب الطرف الآخر. ويخرج من العتاب وقد ساءت العلاقة عن ذي قبل! لأن طريقة العتاب كانت سيئة... بعكس ذلك إنسان آخر يستطيع بالعتاب أن يكسب الموقف. بل يجعل الطرف الآخر يتفهم الموضوع على أحسن وجه، ويعتذر له، ويخرجان صديقين وكأن شيئاً لم يكن...

****

العتاب هو العتاب. ولكن وسيلته عند واحد مقبولة ومجدية. وعند آخر متعبة ومؤذية، وتأتي بعكس المطلوب..!

إنسان يعاتب بطريقة هادئة، والآخر يعاتب بطريقة ساخطة.

الأول يعاتب بحب وعشم، والثاني يعاتب بحقد وانتقام.

هذا يريد أن يصالح. وذاك يريد أن يثبت للطرف الآخر أنه مخطئ، وأنه يستحق ما ناله منه!!...

****

لذلك، نصيحتي لك أيها القارئ العزيز:

إن اشتركت مع أحد في عمل ما، أو من أجل خير ما، لا يكفي أن يكون مشتركاً معك في الهدف أو الغرض، وإنما ينبغي أن يكون مشتركاً معك أيضاً في الوسيلة وأسلوب العمل...

لئلا تكون طريقته في تنفيذ الغرض المشترك غير طريقتك. فتختلفان معاً، أو يسبب لك مشاكل باعتباركما شريكان في عمل واحد...

****

ما أكثر الوسائل للغرض الواحد. وكلُ منها ترى أنها الأفضل والأصلح:

ولنضرب المثل فتربية الأبناء: إنه هدف سليم يتفق عليه الجميع. ولكنهم يختلفون في أسلوب التربية:

* فالبعض يمنحون أولادهم الحرية الكاملة، كما في كثير من بلاد الغرب. وحينما يكبر الأولاد، لا يمارس الآباء أية سلطة عليهم. ويبررون ذلك بأنهم يريدون للابن أن تكون له شخصيته المستقلة التي لا تقع تحت ضغط..

* هناك أسلوب عكس هذا يلجأ إليه آباء آخرون، وهو التشديد الكامل لحماية الأبناء من الانحراف. ولكنه قد يوجد كبتاً له ردود فعل سيئة...

* وهنا طريق وَسَط: لا هو بالحرية التي فيها تسيب، ولا هو التشديد والتقييد.. هو أسلوب الأب الذي يصادق ابنه. ويشرح ويعلّم ويُقْنِع ويحاور... ولا شك أن الإقناع - ولو أنه يأخذ وقتاً وجهداً - إلا أنه يُوجِد حافزاً في الداخل، يكون أفضل من الأوامر والنواهي التي هى مجرد ضغوط من الخارج...



١ ديسمبر ٢٠٠٦

تهنئة لجريدة الأهرام في عيدها المائة والثلاثين

يسرني أن أُهنئ جريدة الأهرام على هذا الجسر الطويل الممتد الذي عبرته خلال ثلاثة قرون من الزمان، في عهود تنوّع حكّامها من خديوي، إلى سلطان، إلى ملك، إلى رئيس جمهورية. وقد زارها ثلاثة من رؤساء جمهوريتنا: جمال عبد الناصر، وأنور السادات، وحسني مبارك. وجلسوا في مكاتبها، وتحدثوا إلى محرريها، وامتدحوا خط سيرها الذي تحوّل باستمرار إلى الأفضل...

كم من جرائد عامة سبقت الأهرام أو عاصرتها، ولكنها اختفت ولم تستمر، وتخلّفت عبر هذا الزمن الطويل. أما (الأهرام) فقد صمدت أمام تيارات كثيرة حتى احتفلت بعيدها المائة والثلاثين...

****

وأُهنئ جريدة الأهرام على ذلك العدد الكبير من مشاهير الكتّاب الذين حرروا فيها، من قادة الفكر والقلم، ومن رجال السياسة والأدب، من يمنحون هيبة للكلمة، ويستخدمون وقاراً في التعبير... من أمثال د. طه حسين، ود. نجيب محفوظ، والأستاذ توفيق الحكيم، ود. لويس عوض، ود. بطرس غالي، والأستاذ أحمد بهاء الدين، والأستاذ أحمد الصاوي محمد، والأستاذ يوسف السباعي، ود. يوسف إدريس، وبنت الشاطئ... وكذلك من احتضنتهم جريدة الأهرام من بداية عملهم الصحفي، إلى أن بلغوا علو قامتهم فيها... وأيضاً بعض من تتلمذوا في (الأهرام)، ثم أنشأوا لهم صحفاً خاصة، أو استعارتهم مجلات وجرائد ليصيروا رؤساء تحرير لها...

ومن هنا، فإن (الأهرام) لم تكن مجرد صحيفة أو جريدة، وإنما مدرسة ضمت العديد من الأساتذة وأخرجت للصحافة العديد من أصحاب الأقلام المعروفين...

وبهذه المناسبة أهنئ الأهرام أيضاً على مجموعة مميزة من رؤساء تحريرها: بدءاً بمؤسيسها سليم تكلا وبشارة تكلا، ومروراً بالأستاذ محمد حسنين هيكل، والأستاذ علي أمين، والأستاذ أنطون الجميل... إلى رئيس تحريرها حالياً الأستاذ أسامه سرايا.

وإلى جوار كل هؤلاء نذكر كوكبة تحيط برئيس التحرير: من نواب رئيس التحرير، والمشرفين على الأقسام المتعددة للجريدة، ومحرري الأبواب المتنوعة، حيث تصل في مجموعها إلى أكثر من ثلاثين صفحة، الأمر الذي يحتاج إلى جهد عقول كثيرة...

****

نهنئ (الأهرام) أيضاً بتنوع موضوعاتها وأهميتها. فهي تشمل إلى جوار السياسة الخارجية، ما تنشره عن أخبار الدولة، وكافة ما يهم القراء من موضوعات في التعليم، والاقتصاد، والفكر المستنير، وفي الأحداث الجارية، وما يلزمه من الإعلانات بتعدد أنواعها.. وكذلك آخر أخبار الرياضة والفن...

ولا ننسى إطلاقاً صفحة الكاريكاتير التي أشرف عليها مدى سنوات طويلة الأستاذ الفنان صلاح جاهين، الزجّال والشاعر والروائي والرسّام الفكاهي، الذي أسعد كثيرين بإنتاجه الأدبي والفني.

كما كانت الصفحة قبل الأخيرة لجريدة الأهرام تمثل أهم ما يُنشر في الصحف عامةً عن الوفيات والعزاء. وقد نمت حتى أصبحت تحوي عدداً من الصفحات...

****

يضاف إلى كل هذا، الإصدارات الخاصة بالأهرام. ولعل في مقدمتها الأهرام الدولي، والأهرام الاقتصادي، وعديد من المجلات. وأذكر هنا أنني كنت - أثناء تواجدي للعلاج في أمريكا - أقرأ جريدة الأهرام كل يوم، ويسرني صدورها بانتظام في بلاد الغرب.

إن ثقة الناس بجريدة الأهرام وما تنشره، جعلها واسعة الانتشار في مصر وخارج مصر أيضاً. وهذه الثقة أيضاً هى التي ساعدت الأهرام على الاستمرار مدى ١٣٠ عاماً، وإلى المزيد في مستقبل الأيام أيضاً...

****

وجريدة الأهرام لا تمثل وجهة نظر حزب من الأحزاب السياسية كما في الجرائد الحزبية. كما لا تمثل فكر شخصي معين أو هيئة ما كما في الجرائد الخاصة. إنما هى

تمثل مصر أولاً وأخيراً، في سياسة من الحياد ومن الرزانة في النشر، حافظت عليها كل هذا الزمن..

وحتى اسمها أيضاً (الأهرام) له الطابع المصري الصميم.. والحياد الذي اتصفت به الأهرام، هو من الأسباب الهامة الرئيسية التي ساعدت على ثقة القراء بها.

****

إن عدد المشتغلين في جريدة الأهرام من محررين وإداريين وموظفين وعمال - سواء في نفس الجريدة أو إصداراتها - هو عدد كبير جداً... ولذلك كان من السهل أن يكون لها مركزها - بالانتخاب - في عضوية نقابة الصحفيين، وحتى في منصب النقيب نفسه أحياناً...

وهذا الأمر أضاف إلى جريدة الأهرام مركزا آخَر مميزاً إلى جوار مركزها المميز في التحرير والإدارة وسعة الانتشار...

****

إن صدور (الأهرام) كجريدة يومية بحجمها المميز، وكذلك ما صدر عنها من مجلات... كل ذلك كان لا بد في تسهيل تنفيذه، من وجود مطابخ خاصة تقوم بهذا العبء كله. وهكذا أنشئت مطابع الأهرام، ونمت على أحدث طراز، وأصبحت تُطبع فيها أيضاً جرائد أخرى أفسحت الأهرام صدرها لها، احتضنت طبعاً في مطابعها.

وبهذا صارت لمطابع الأهرام شبه خدمة عامة تقوم بها بالإضافة إلى طبع جريدتها الخاصة وباقي إصداراتها...

****

وبعد، إن الحديث عن كل ما يتعلق بجريدة الأهرام، قد يطول بنا حتى يتحول هو أيضاً إلى هرم آخر...

لذلك، فليعذرني القارئ العزيز إن اكتفيت بهذه النقاط البسيطة التي ذكرتها في تحية وتهنئة (الأهرام) بعيدها المائة والثلاثين، جعله اللّه عيداً سعيداً للجريدة وأسرتها العريقة من المحررين والقراء.

١٠ ديسمبر ٢٠٠٦

الفضائل لا تتعارض
بل تتكامل..

لا يوجد تناقض في الفضائل، ولا يهدم بعضها بعضاً مهما بدت بعض التناقضات للعين غير الفاحصة! والإنسان الحكيم لا يقتني إحدى الفضائل على حساب فقد فضيلة أخرى، بل يجاهد لاكتساب الكل...

لذلك فهو يجمع بين الحب والحزم، وبين الرحمة والعدل، وبين الوداعة والشجاعة، وبين البساطة والحكمة... فكلها فضائل تتمشى معاً في غير تعارض ولا تناقض. وسنبدأ حديثان عن تكامل الفضائل...

الحب والحزم:

الشخصية المتكاملة تجمع بين الطيبة والقوة، وبين الحب والحزم. وهذا الأمر لازم جداً في محيط الآباء، والمدرسين، ورجال الإدارة. فيكون في طبعهم الحنو، ومن صفاتهم أيضاً الهيبة. وليس من الصالح أن حنوهم يفقدهم هيبتهم. فالهيبة لازمة لحفظ النظام وحفظ القيم. والحنو لازم حتى يطيعهم الناس عن حب وليس عن رعب!

* على أنه من الأشياء الغريبة في محيط الأسرة، أن الوالدين يوزعان أحياناً الحب والحزم فيما بينهما: فيكون للأم الحب، وللأب الحزم! بينما ينبغي أن يكون الحب والحزم لكل منهما...

وفي هذا، نرى أنه إذا أخطأ الابن أو حاول أن يُخطئ، تحاول الأم أن تمنعه عن ذلك بقولها له: "... لئلا يغضب أبوك ويعاقبك ".. دون أن تقول له: إنها هي أيضا لا ترضى عن ذلك الأمر!! ويختلط الأمر على الابن، ولا يعرف أين الحق. وكل ما في الأمر أنه يتقى غضب الأب!

* ويحدث أحياناً أخرى أن رئيساً لإدارة ما يريد أن يكسب محبة مرءوسيه، ولأجل هذا يتهاون في حقوق العمل ولا يكون حازماً في معاقبة المخطئين. وربما تحدث نتائج سيئة جداً، لهذا الحنو الخالي من الحزم.

الوداعة والشجاعة:

هاتان الصفتان لا تتعارضان. فمن الخطأ أن يظن شخص أن صفة الوداعة تمنعه من الشجاعة، وتحوّله إلى جثة هامدة لا نخوة فيها ولا شهامة ولا حياة..! كما من الخطأ أن تحوله الشجاعة إلى التهور أو إلى العنف بفقدان وداعته. وإنما عليه أن يستخدم الوداعة حين تحسن الوداعة، ويستخدم الشجاعة حين تلزم الشجاعة. وتظهر كلٌ من هاتين الصفتين في الحين المناسب لها. وكما قال سليمان الحكيم: "لكل شيء زمان. ولكل أمر تحت السمَوات وقت".

الوداعة ليس معناها الضعف، والشجاعة ليس معناها العنف. والوداعة والشجاعة يجب أن تمتزج كل منهما بالحكمة والفهم. وأتذكر أنني قلت مرة في رثاء أستاذ عظيم لنا:

يا قوياً ليس في طبعهِ عنفُ ... ووديعاً ليس في ذاتهِ ضعفُ
يا حكيماً أدّب الناس وفي ... زجره حبٌ وفي صوته عطفُ
لك أسلوبٌ نزيه طاهرُ ... ولسانٌ أبيض الألفاظ عفُّ

إذن ليكن الإنسان وديعاً. ولكن لا يسمح للطيبة أو الوداعة، أن تفقده كرامته وحقوقه وهيبته، وتدفع غيره إلي اللعب به، وإلا فسوف يكره الناس الطيبة، والمشكلة ليست فيها، وإنما في إساءة فهمها، وفي استخدامها وحدها بعيدة عن غيرها من الفضائل. ولذلك يجب أن نزن كل فضيلة بميزان دقيق، ولا نمارسها وحدها بغير حكمة...

البساطة والحكمة:

من الأخطاء الواضحة أن يوصف إنسان بالبساطة، بينما لا تكون له حكمة. بل تكون بساطته هذه لوناً من السذاجة، وتؤخذ عليه بعض التصرفات. ويحاول البعض أن يعذروه، بقولهم عنه أنه بسيط! وفي الواقع ليست هذه بساطة حقيقية.

* فالبساطة هى عدم التعقيد، وليست عدم الحكمة، وليست هى السذاجة.. البساطة الحقيقية هى بساطة حكيمة. والحكمة يمكن أن تكون أيضاً حكمة بسيطة. ومن الجائز أن يقول إنساناً كلاماً حكيماً جداً، وبأسلوب بسيط. وتكون له حكمة في عقله، وبساطة في قلبه وفي أسلوبه. فهو يتصرف في عمق الحكمة وبكل بساطة. حكمته ليس فيها تعقيد الفلاسفة. وكلامه العميق يكون واضحاً وبسيطاً يفهمه الكل.

* كذلك فليس معنى البساطة أن تصدقّ كل ما يقال لك بدون تفكير، أو تُعطي مجالاً للبعض أن يخدعك أو يلهو بك! إنما في بساطة تعاملك مع الناس، تكون مفتوح العينين حاضر الذهن، تستطيع أن تميز الذئاب التي تلبس ثياب الحملان. كما لا تعيش في جو من الحذر والشك والظنون...

* وأيضاً الإنسان البسيط - حينما يطيع من هو أكبر منه - إنما يمزج الطاعة بالحكمة. وبهذا لاتقاد شخصيته المتكاملة بفضيلة واحدة منفصلة عن باقي الفضائل الأخرى...

****

الرحمة والعدل:

هاتان الفضيلتان يمكن أن تجتمعا معاً، ولا تناقض بينهما...

والله - جل جلاله - من صفاته الرحمة وأيضاً العدل، بغير انفصال بينهما. فرحمته مملوءة عدلاً، وعدله مملوء رحمته. ويمكن أن نقول إنه عادل في رحمته، وإنه رحيم في عدله.

هما صفتان تتكاملان، ولا تتناقضان إطلاقاً.

إذن متى يختلف العدل عن الرحمة عند بعض البشر؟ يحدث الاختلاف في حالة التطرف من جهة ممارسة أي منهما.. أي عندما يتحول العدل عند البعض إلي قسوة، أو تتحول الرحمة إلى استهانة بحقوق العدل، وتشجيع الآخر على الخطأ، ولو عن غير قصد!

وهنا يمكن أن نقول إن الشخص الرحيم يمكن أن يعاقب المخطئ، ولكن في رفق على قدر ما يحتمل ذلك المخطئ. وأيضاً بقصد إصلاحه وإعطاء درس لغيره، وليس بروح الانتقام ولا بعنف...

وهكذا فإن المسؤول عن إدارة عمل، لا يجوز له أن يسلك في فضيلة التسامح والعفو عن المخطئين، بأسلوب يُسئ إلي العمل، وتسقط به هيبة الإدارة، ويسوده التسيب واللامبالاة!
وهنا يكون المسؤول قد فقد فضيلة العدل وفضيلة الحزم، وظنّ أن المعاقبة خطية!

إنما بالتكامل في الفضائل، يعرف الإنسان متى يعفو، ومتى يعاقب. ويكون روحياً في كلا الحالين. ويعرف متى يعمل العمل المناسب، في الوقت المناسب، وبالسبب الداعي إليه..

١٧ ديسمبر ٢٠٠٦

لا تجعل راحتك
على تعب الآخرين (أ)

ما أكثر الخطايا التي يقع فيها من يبني راحته على تعب الآخرين... وسنضرب لذلك أمثلة عديدة منها:

١- من يقيم حفلة ساهرة صاخبة، بميكروفونات تنقل الصوت عالياً عبر عدة شوارع...

ويستمر على ذلك إلى ما بعد منتصف الليل في لهو وغناء وضوضاء. ولا يبالي في كل ذلك بشعور غيره ولا بمصلحته! فالمحتاج إلى نوم لا يستطيع أن ينام. والتلميذ لا يستطيع أن يذاكر. والمريض يزعجه الصوت، وربما يكون قد تناول حبوباً منومة تفقد مفعولها. وباقي الناس تفقد حريتهم في الكلام وفي القراءة وفي الاستمتاع بوقتهم... ولكن صاحب الحفلة مسرور بحفلته، وغير عابئ بتأثيرها على غيره!

* ومثال ذلك أيضاً: من يفتح راديو أو ترانزستور في أتوبيس أو قطار... هو يريد أن يسمع ولا يهمه غيره...

****

٢- مثال آخر: من يجد لذته في التهكم والضحك على غيره...

فيتخذ ذلك الشخص مجالاً للسخرية والتفكه والتسلية، غير مبال بجرح مشاعره، جاعلاً السامعين يشاركونه في جعل ذلك الإنسان أضحوكة لهم.. وبخاصة إن كان لا يستطيع الدفاع عن نفسه، أو يحتشم من ذلك لأن الذي يستهزئ به أكبر منه سناً أو مقاماً...

هذا الساخر إنما يحاول أن يجد راحته في تعب غيره نفسياً.

****

٣- كذلك من يدخن سيجارة، وبجواره من يكره رائحتها...

ينفخ دخانها في وجهه أو فيما حوله. ولا يهمه أن غيره يكاد يختنق من رائحة الدخان، وبخاصة لو كان ذلك في مكان مغلق! ونشكر الله أن كثيراً من شركات الطيران

تمنع التدخين داخل الطائرة... ونلاحظ أن زوجات كثيرات يتعبن من أزواجهن المدخنين الذين يعكرون جو البيت كله برائحة دخانهم...

* يدخل تحت بند التدخين أيضاً المصانع التي تلوث الجو بالدخان، وتؤذي صحة الإنسان.. وكذلك العربات التي تنفث في سيرها دخاناً.

****

٤- مثال آخر: من يتعب غيره بمكالمات تليفونية قد تطول...

يطلب غيره تليفونياً في أي وقت. وقد يكون ذاك نائماً، أو على مائدة الطعام، أو عنده ضيوف، أو يكون منشغلاً بعمل هام يجب أن يقوم به.. ويظل هذا الشخص يتكلم ويتكلم، دون أن يسأل هل الذي يسمعه لديه وقت لسماعه أم لا؟ بينما اللياقة تقتضي أن يسأل..!

****

٥- وبنفس الوضع، الحكم على بعض الزيارات...

إنسان يزور صديقاً أو قريباً له على غير موعد، دون أن يتأكد هل هذا الصديق مستعد لاستقباله أم لا! ولكنه يدخل ويجلس ويتكلم. وقد تطول الجلسة، وصاحب البيت يخجل من أن يقول له أنه مُنشغل، أو كان على وشك الخروج لمهمة معينة أو موعد مع آخرين... ويكون هذا الضيف وهو جالس في بيت صاحبه، إنما هو جالس على أعصابه!

وما أصعب مثل هذه الزيارات إن كانت خلال أيام الامتحانات، ويعلو فيها الصوت، والطلبة الذين في البيت يحتاجون إلى هدوء.. ولكن هؤلاء الضيوف يحاولون أن يجدوا راحتهم، ولو على تعب غيرهم!

****

٦- أيضاً هناك أشخاص يريدون أن يتكلموا، وربما في موضوعات لا يستريح لها سامعوها..!

وقد يتحدثون عن أسرار أناس آخرين، أو مشاكل معينة، أو أخطاء قد حدثت، أو يفتحون أذهان سامعيهم لمعرفة أمور جديدة عليهم من الخير لهم أن لا يعرفوها.. ولكنهم يريدون أن يتكلموا، ولو أتعبوا السامعين، ولو صبوا في آذانهم معلومات مؤذية، ولو أتلفوا أفكارهم..!

وقد يحاول السامع أن يهرب، ولكنهم يضغطون بالكلام لأنه يجدون متعتهم في الحديث، شاء السامع أن يسمع أم لم يشأ! هذا بالإضافة إلى إضاعة وقته..

٧- كذلك من يضغط على غيره، إنما يبحث عن راحته هو بتعب الغير..

وقد يكون هذا الضغط على إرادته، لكي ينفذ ما لا يريد! وربما يُستخدم فيه أحياناً الإلحاح المتعب الذي يشكل ضغطاً على أعصابه وعلى أُذنيه، وقد يكون الضغط مباشراً أو عن طريق وسطاء. أو قد يكون ضغطاً على ضميره بلون من التهديد... المهم أن يصل هذا الشخص إلى تحقيق غرضه بالضغط أو بضغوط. ولا يهمه مطلقاً شعور من يضغط عليه، ولا تعب أعصابه أو تعب ضميره، وتعب فكره وتعب إرادته، ومقدار الوقت الذي تستغرقه الضغوط...

****

٨- هناك أشخاص آخرون يستريحون نفسياً عن طريق الشكوى والبكاء، ويشركون غيرهم في آلامهم باستماع مشاكلهم ومتاعبهم وأحزانهم...

ولو حدث ذلك مرةً أو في إحدى المناسبات، لكن ممكناً الاحتمال بشعور المشاركة الاجتماعية.. ولكن ماذا عن أشخاص تعودوا الشكوى والبكاء والنكد..؟! فما أن يقابلوا حتى ينفتح ريكوردر الشكوى والحزن والتعب والبكاء إلى غير ما لا نهاية! ومهما حاول السامع أن يخفف عنهم لا يستطيع. ويزداد الأنين والتعب، وربما لغير سبب أو لسبب تافه، أو بحديث متكرر وبلا نتيجة! المهم أنه يريدون أن ينفسوا عن أنفسهم، ولو تعب سامعوهم... نصيحتي لمثل هذا الشاكي أن ينظر إلى ملامح سامعه.. ويرى هل تعب أو ضجر؟ وهل من الممكن أن يكمل كلامه أم لا...

ما أكثر الذين يفقدون أصدقائهم ومعارفهم، بمداومة الشكوى والبكاء...

****

٩- نقطة أخرى هي التبرج:

إنسانة تقف طويلاً أمام المرآة قبل أن تخرج من منزلها. ولا تفارق المرآة حتى ترضى تماماً عن نفسها وأنها صارت في منتهى الجمال والفتنة، وأن كل من يراها لا بد سيعجب بها! ولا يهمها في كل ذلك أنها قد توقع غيرها في شَرك. بل كل راحتها النفسية أن تكون موضع الإعجاب، ولو تعب الذين يعجبون بها! نصيحتي لها: لا تجعلي محبة الذات تقودك، بل اهتمي أن لا تكوني عثرة لأحد...

****

١٠- نقطة مشابهة، مع اختلاف في التفاصيل: وهى بعض المُتزينات في الحفلات:

إنسانة تريد أن تكون الأولى في إحدى الحفلات. وقد تحضر حفل عُرس، وتحاول أن تكون أجمل وأشيك من العروس نفسها! فتلبس ملابس فوق مستوى الكل، وتتحلى بحليّ لا تتحلى به امرأة أخرى. تريد أن تجذب انتباه الكل، ولو ألغت وجود غيرها! حتى ولو أتعبت باقي النساء وشعرن بصغر نفس وبضآلتهن إلى جوارها! هذه أيضاً تبحث عن راحتها بتعب الأُخريات.

وإن ناقشها أحد في ذلك، ترد قائلة: "إنها حفلة، ويجب أن أهتم فيها بأناقتي". نعم، ولكن في حدود المعقول، ودون إثارة الغيرة، ودون الدخول في مقارنات. أليس في الحفلة ما يناسب مستوى المشتركات فيها، بأناقة معقولة..

****

وبعد، يا قارئي العزيز، أرى أن هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من الأمثلة. فإلى اللقاء في المقال المقبل، إن شاء الرب وعشنا.



٢٤ ديسمبر ٢٠٠٦

لا تجعل راحتك
على تعب الآخرين (ب)

تحدثنا في مقالنا السابق عن عشرة أمثلة للذين يبنون راحتهم على تعب الآخرين. واسمحوا لي أن أكمل هذا الموضوع بأمثلة أخرى:

١١- ما أكثر المشاكل العائلية التي سببها أيضاً: من يجعل راحته على تعب غيره، ولا يبالي بمن يتعبه!

مثال ذلك: الزوجة التي تطلب من زوجها طلبات فوق طاقته المالية، وبهذا ترهقه مالياً، أو تضطره إلى الاقتراض أو إلى الديون. أو أن يقول لها: "ليس معي". وأحياناً تحرجه بالتحدث عن حظها العاثر في أن تتزوج رجلاً ليس معه ما ينفقه عليها! وهكذا تجرح شعوره...

ونفس الكلام ينطبق على الابن الذي يكلّف والديه بما هو فوق طاقتهما...

وخارج محيط الأسرة، يمكن أن نذكر المواطن الذي يطلب هو أيضاً من الدولة ما هو فوق طاقتها...

****

١٢- ومثال آخر للذين يجعلون راحتهم على تعب غيرهم:

من يريد أن يبني مجده على هدم غيره. ويظن بهذا أنه يُظهر تفوقه!

مثل كاتب يريد أن يحطم جميع البديهيات والمسلّمات التي يعرفها الكل، محاولاً أن يثبت خطأها لكي يقدم رأياً جديداً، كأنه يفهم أكثر من سابقيه، أو أنه هو الوحيد الذي يفهم! وأن كل ما ورثناه من الأجيال السابقة هو خطأ في خطأ! ومن هنا نشأ المبتدعون الذين يبتدعون شيئاً جديداً لعله يبني لهم مجداً... وهنا أحب أن أفرّق بين المبتدعين والمبدعين..

* ومن الأمثلة أيضاً من يريد أن يظهر علمه بناء على جهل غيره. أو أن يسأل غيره أسئلة محرجة المقصود بها أن، يظهر جهل ذاك. ثم يجيب هو على نفس الأسئلة ليظهر تفوقه...

١٣- مثال آخر: من يخفي مواهب غيره لكي تظهر مواهبه هو:

فلا يسمح لغيره بالظهور، لكي يبقى وحده في الصورة... كالأستاذ الجامعي الذي لا يُعطي المعيد فرصة ولا درجة علمية إلا بشق الأنفس.

ونفس الإشكال يقع فيه غالبية الناشئين: فلا فرصة سهلة لكاتب ناشئ، أو لمخترع ناشئ، أو لفنانٍ ناشئ. لأن الكبار والمشهورين يريدون أن يحتكروا العبقرية ذاتها! ويجدون راحتهم في أن يخلو الجو لهم بلا منافس مهما تعب كل الناشئين. فيحتكرون الجو، ويحتكرون الغير..!

ويدخل في هذا المجال أيضاً: من يحضر اجتماعاً أو حواراً، ولا يُعطي فرصة لغيره أن يتكلم، فيكون وحده هو المتكلم الظاهر...

****

١٤- ومن أمثلة الراحة بتعب الآخرين: الزوج الغيّار

إنه الزوج الذي - من أجل غيرته على زوجته - يكاد يحبسها في البيت، لا يراها أحد، ولا تتكلم مع أحد. ولا تضحك على فكاهة قالها الغير مهما كانت فكاهة تُضحك الحجر! وإلا يقيم الدنيا ويقعدها... كأنما أشترى عصفورة جميلة وحبسها في قفص. حتى إن غنّت داخل القفص، يمنعها من الغناء... وهكذا تضيقّ عليها تضييقاً يجعلها تكره الحياة بسببه... وإن جادلته أو عاتبته، يقول لها: "هذا هو الذي يُريحني"! ولكنها راحة على تعب غيرك، لا تقيم فيها أي اعتبار لشعور زوجتك.

ومثل الزوج الغيّار، الزوجة الغيّارة أو النكدية، أو الكثيرة التحقيق مع زوجها في كل تحركاته ومقابلاته. والتي ترهقه بأسئلة تحرجه. وذلك لكي تطمئن هى وتستريح، مهما تعب هو...

****

١٥- وتظهر الراحة على تعب الآخرين في مشكلة الزحام:

فكل واحد في الزحام يريد أن يسبق غيره، أو يأخذ مكان غيره، أو يصل هو ولا يهمه أن يصل غيره أو لا يصل! ويظهر هذا الأمر بشكل أوضح في مشاكل المرور: من جهة السيارة التي تريد أن تمّر ولو عطلت غيرها أو عطلت المرور كله...

* ويشبه هذا من يحرص على الأماكن الأولى في بعض الاجتماعات، أو يحاول أن يحجزها قبل مجيئه بطريقة ما، وكذلك من يقف في اجتماع، ولو أخفى الرؤية عن غيره. والعجيب أن هذا الزحام قد يحدث في الأماكن المقدسة أيضاً.

وقد سمعنا مرة على سقوط ووفاة بعض التلاميذ الصغار، نتيجة لزحامهم خوفاً أو هرباً.

****

١٦- وموضوع الزحام يذكرنا بالمنافسات عموماً:

ونقصد بالذات المنافسات التي يلجأ فيها البعض إلى طرق خاطئة، لكي يتعبوا غيرهم أو يتخلصوا منه... منها المنافسة في محيط الوظائف والمناصب والترقي... حيث يزيح المنافس شخصاً من مكانه ومركزه ليحل محله، أو يأخذ درجة أو علاوة بدلاً منه، ولو بتقديم شكاوى ضده أو إشاعة المذمة فيه، أو يتسبب في فشله لكي يضيعه... ويدخل في مثل هذه المنافسات، المضاربات في الأسواق.

أما في مجال السياسة، فيحدث أحياناً أن يحارب حزب حزباً آخر ينافسه، أو يحاول إسقاطه في الانتخابات بطرق غير مشروعة، أو ينشر عنه أخباراً كاذبة!

****

١٧- مثال آخر: هو أنواع من السرقة والغش والاحتكار:

فالنشال يريد أن يأخذ ما في جيب غيره، ليضعه في جيبه هو. وينطبق هذا على كل سرقة أو ربح غير مشروع... سواء كان ضحيته أفراداً أو الدولة.

ويدخل في هذا المجال: الغش في التجارة، واحتكار الأسواق، والمضاربات فيها، والربا الفاحش، والسوق السوداء، والهروب من الضرائب أو الجمارك، والإقرارات المزيفة للذمة المالية.. في كل هذه، يبني كل إنسان راحته على تعب غيره...

ومثلها صاحب العمل الذي يبخس أجور العمال والموظفين، لكي يغتني هو، وكأنه يسرق تعبهم وعرقهم.. وكذلك الذي يطلب رشوة لكي يتمم عملاً مشروعاً! إنها أيضاً سرقة، وقد تكون بالإكراه أو الإلزام. وهي راحة خاطئة على تعب الآخرين... وأيضاً من يسرق فكر غيره وينسبه إلى نفسه. ومن يترجم كتاباً من تأليف غيره وينسبه إلى نفسه..

****

١٨- نذكر كذلك النظرية المعروفة باسم (كبش الفداء):

تحدث مثلاً سرقة كبيرة في إحدى الشركات يقوم بها أحد الكبار. ولكي ينجو هذا الكبير من المسؤولية، يُقدم - بدلاً منه - موظف بسيط، أو مدير الحسابات، أو عضو مجلس إدارة منتدب. وتلصق التهمة بأحد هؤلاء، بينما ينجو المخطئ الحقيقي، وينال راحته بتعب غيره. الذي يُعتبر كبش الفداء...

كذلك محاولة النجاة من مسؤولية أي خطأ بإلصاقه بشخص آخر.

وبالمثل من يتهم غيره ظلماً، لكي يفلت هو من العقوبة..

****

١٩- يدخل في موضوعنا هذا: الاستعمار والحروب:

حيث تجد إحدى الدول القوية راحتها في تحطيم دولة أخرى، أو في استغلالها لمصلحتها، أو حصارها اقتصادياً، أو استعمارها..

وقد يفعل الأفراد مثل هذا في حدودهم الضيقة...

****

٢٠- نذكر أيضاً محبي الاستطلاع، ومحبي معرفة أسرار الناس:

كثيراً ما يجد هؤلاء راحتهم في ما يتعب غيرهم.. سواء الذين يريدون معرفة أسرارهم، أو الذين يلحون عليهم بالسؤال لكي يستخرجوا منهم معلومات عن طريق الأسئلة المتواترة والإلحاح المتعب، حتى يعصروهم عصراً لكي يحصلوا على كل ما عندهم من معلومات بالضغط والإحراج...

****

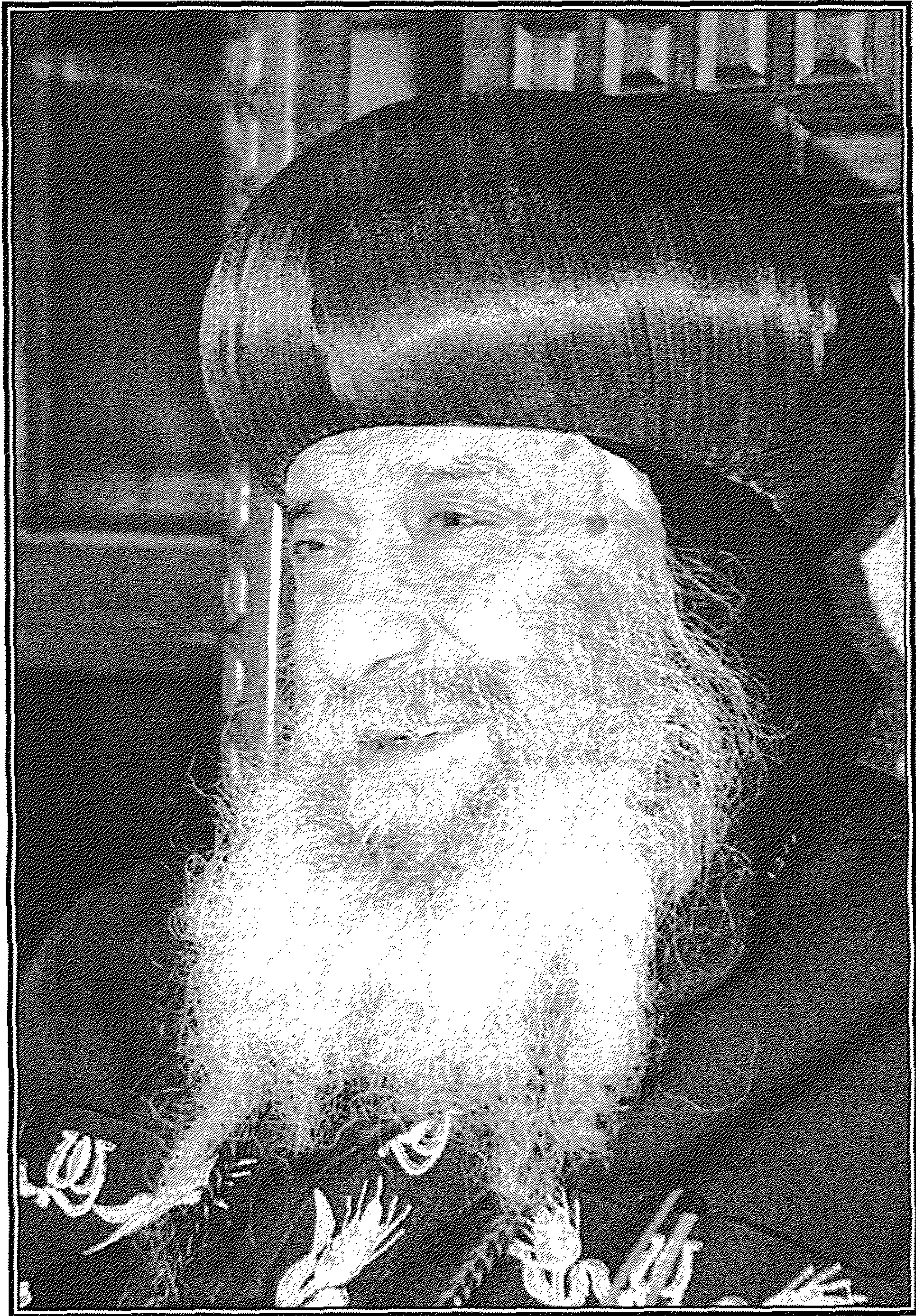
٢١- هناك أيضاً: اغتصاب الفتيات وإغراؤهن:

فقد يجد شاب راحته الجنسية في أن يضيّع فتاة ويغتصبها، ويقضي بهذا على مستقبلها... وحتى مجرد العلاقة التي تشغل عقل الفتاة وعاطفتها، وتؤثر سلبياً على سمعتها، وعلى دراستها إن كانت تلميذة أو طالبة في الجامعة... كل ذلك لمجرد أن يجد الشاب متعته في مصادقة فتاة، مهما أساء إليها بهذه الصداقة! إنها راحة مبنية على تعب الآخرين...

****

٢٢- أخيراً: موضوع الغضب والنرفزة...

إنسان أعصابه متعبة ومتضايق. يريد أن ينفّس عن ضيقه بأن يصب غضبه على الآخرين كلاماً أو كتابةً، لكي يستريح هو مهما تعبوا هم! وما ذنبهم في تعرضهم لأعصابه المرهقة؟! وإن عاتبته في ذلك، يقول لك: "لم أستطع أن أستريح إلا بعد أن قلت هذه الكلمة"! ولكنها راحة خاطئة سببت تعباً لغيرك.



٣١ ديسمبر ٢٠٠٦

دعوة إلى التوبة في بداية العام

فيما نحن نبدأ عاماً جديداً، علينا أن نبدأه بقلب جديد، وفكر نقي، وسلوك بعيد عن أخطاء الماضي. وهذا يقودنا حتماً إلى التوبة، وقبل أن ندخل في هذا الموضوع بالتفصيل، يهمنا أن نوضّح.

ما هى التوبة؟

*** التوبة هى يقظة روحية:**

لأن الخاطئ هو إنسان غافل، لا يدرك تماماً ما هو فيه، ولا يعرف إلى أين تقوده أخطائه. إنه مثل كرة تتدحرج من على جبل، وبسرعة، وقوة تدفعها إلى أسفل. وتظل هكذا تهبط وتهبط، إلى أن تصطدم بحجر كبير فتتوقف.. وحينئذ تسأل ذاتها إلى أين أنا ذاهبة؟! هنا التوبة التي توقفها فلا تنحدر أكثر...

***إذن التوبة هى صرخة من الضمير**، وثورة على الماضي في اشمئزاز يرفض السقوط السابق، ويستحي ويخزى...

* التوبة هى تغيير لحياة الإنسان وسلوكه. ليست هى انفعالاً وقتياً نحو اللَّه. إنما هى تغيير جدي وجذري في الفكر والقلب وفي المعاملات، بحيث يشعر كل من يتعامل مع هذا التائب، إن حياته قد تغيرت، وكذلك طباعه وأسلوبه في الحديث. وأصبح رافضاً عملياً لكل خطاياه السابقة... وأفكاره صارت من نوع آخر

لذلك قيل عن التوبة إنها تجديد للذهن...

****

*** التوبة هى رجوع إلى اللَّه:**

هى اشتياق قلب أبعدته الخطية عن اللَّه، فأنفصل عنه. ثم شعر أنه لا يستطيع أن يبعد أكثر. فكان لزاماً عليه أن يرجع...

وما دامت الخطية هى خصومة مع اللَّه، تكون التوبة هى الصلح معه، ومع الملائكة وأرواح القديسين.

* لذلك قيل إن التوبة هى استبدال شهوة بشهوة...

هى شهوة للحياة مع اللّه، بدلاً من شهوة العالم والمادة والجسد.

* والتوبة هى استجابة من الإنسان لدعوة اللّه إليه..

إنها استجابة من الضمير لصوت اللّه فيه. وهى استجابة من الإرادة لما يحثها الضمير عليه. بل هى استجابة من الإنسان بصفة عامة لعمل النعمة معه في قيادته إلى الخير وإبعاده عن كل خطأ..

* التوبة هى فرصة لصفحة جديدة، يفتحها اللّه في علاقته معك. فيما يغفر لك الماضي كله. إنها فرصة تقوّي فيك الرجاء، وتبعد عنك اليأس مهما ساءت الحالة أو طال السقوط...

****

***التوبة هى باب الرحمة، وباب الغفران:**

إنها جسر يوصّل بين الأرض والسماء. وهى سبب فرح في السماء وعلى الأرض. فرح في السماء عند الملائكة وأرواح القديسين بعودة التائب إلى اللّه. وفرح على الأرض للتائب وأهله وكل المجتمع المحيط به.

وفي نفس الوقت هى عذاب للشيطان الذي يحاول عرقلتها. ذلك لأنها تخلص وتعتق المسبيين الذي سباهم بشره. ولأن تعبه الذي تعب به في سنين عديدة، تضيعه التوبة منه. لقد زرع الشوك في أرضنا خلال زمن طويل. وإذا بالتوبة تحرقه في يوم واحد، وتطهّر الأرض.

*** التوبة هى حياة الانتصار وأنشودة الغالبين:**

وهى بداية الرحلة التي يقطعها الإنسان في طريق الطهر والنقاء.

****

دعوة إلى التوبة:

* ليتك تستجيب أيها القارئ العزيز إلى نداء التوبة في هذا العام الجديد، ولا تظن أنك في غير احتياج إلى التوبة بحجة أنك بعيد عن كل ألوان الخطأ. حقاً، فإن الذي لا يرى أنه محتاج إلى التوبة، هو شخص لم يفحص ذاته جيداً.

*** لذلك يلزم لكلٍ منا أن يجلس إلى نفسه في بداية هذا العام، ويحاسب نفسه بكل دقة،** وبلا مجاملة، وبلا أعذار وتبريرات، لكي يكتشف ما يحتاج إليه من تغيير، ليصل إلى ما هو أفضل..

* وإن كان أحد لا يخطئ بالفعل، فربما يجد أنه يخطئ أحياناً بالفكر، أو بالنية، أو بمشاعر القلب. وكل هذا تحتاج أيضاً إلى توبة. لأن الإنسان البار، يجب أن يشمل البر فكره وقلبه ونياته...

والنقطة الأولى إذن في طريق التوبة، هى الرغبة في التوبة:

لأن كثيرين لا يريدون أن يتوبوا. بل يجدون لذة في خطاياهم تدعوهم إلى البقاء فيها. أو أن طباعهم جميلة في أعينهم لا يحبون أن يغيروها... لهذا فإن مجرد الرغبة في التوبة، هى نقطة حسنة تتلقفها النعمة وتعمل عملها في الإنسان، وتدفعه إلى ترك الخطية.

واهم من ترك الخطية بالفعل، هو التخلص من شهوتها:

فقد يوجد إنسان لم ينتقم لنفسه مطلقاً ممن أساءوا إليه. ولكن شهوة الانتقام في قلبه، لم يتنق منها بعد. وربما يحنّ إلى هذه الشهوة. وقد يندم على فرص معينة كان يمكنه فيها أن ينتقم ولم يفعل! مثل هذا الشخص، ربما ترك الخطيئة لمجرد إطاعة وصية اللَّه، وليس لأنه يكرهها...! والمفروض أن يتدرج في حياة النقاوة، حتى تنتزع هذه الخطية وكل خطية من قلبه

لذلك قيل إن كمال التوبة هو كراهية الخطية:

أي أن يصل إلى الوضع الذي يكره فيه الخطية من كل قلبه، بحيث يشمئز منها، ولا يحتاج إلى بذل أي مجهود في مقاومتها إن عرضت له. ذلك لأنها لم تعد تتفق مع طبيعته النقية. مثال ذلك يوسف الصديق الذي سعت الخطيئة إليه وألحت عليه، فرفض وهرب منها...

على أن ترك الخطية التي تحارب الإنسان، حتى كراهيتها.. تأتي بعدها خطوة أخرى وهى:

ترك الخطايا التي تتكشف له بالنمو الروحي:

ذلك لأن اللَّه تبارك اسمه - من فرط حنوه علينا - لا يشاء أن تتكشف لنا كل خطايانا وضعفاتنا دفعةً واحدة، حتى لا نقع في صغر النفس. وإنما كلما نسمع عظة روحية، وكلما

نقرأ في كتاب اللّه وفي الكتب الروحية، تتكشف لنا ضعفات في أنفسنا، وتقصيرات تحتاج إلى علاج وإلى توبة. وهكذا ندخل في عملية تنقية للذات قد تستمر مدى الحياة.

إذن هناك توبة عن النقائض التي يكشفها.. النمو..

ولا تقتصر فقط على محاربة السلبيات التي هى فعل الخطايا.

****

علينا أن نعرف أن الشيطان في محاربته لنا، قد يترك ميداناً يحاربنا فيه لكي يتحول إلى ميدان آخر. فعلينا أن نكون مستعدين له في كل الميادين. حتى الخطية التي نكون قد استرحنا منها فترة، قد يعاود قتالنا فيها. وبهذا فإن التوبة ليست مرحلة من حياتنا وتنهي، وإنما هى تستمر معنا. وهكذا تصبح عملاً يومياً يلزمه حرص دائم حتى لا نخطئ.

فلنصلِ أن يمنحنا الرب قوة في هذا العام لكي نفعل باستمرار ما يرضي صلاحه. ولتكن نعمته عاملة مع جميعنا.



٧ يناير ٢٠٠٧

جاء السيد المسيح للكل
يرفع معنويات الجميع

أهنئكم يا إخوتي بعيد الميلاد المجيد، وببدء عام جديد، راجياً لكم فيه حياة سعيدة مباركة، ثابتة في محبة اللَّه وطاعته، ومصلياً لأجل بلادنا مصر المحبوبة لكي يمنحها اللَّه الرخاء والسعة، ويديم عليها الاستقرار والهدوء...

ويسرني في عيد الميلاد السيد المسيح، أن أحدثكم عن بعض ما تركه لنا من أمثولة طيبة، وكيف كان يعمل دائماً على راحة كل الناس: يحب الكل ويخدم الكل، ويرفع معنويات الضعفاء، ويرشد ويعلّم...

كان قلباً مفتوحاً للكل، يجول يصنع خيراً (أع ١٠: ٣٨).

فيشعر كل إنسان أن له نصيباً في المسيح:

اهتم بالأمم كما اهتم باليهود، وشمل حنانه الأبرار والخطاة، القديسات والساقطات، الأطفال والكبار، والجياع، والمسبيين، النساء والرجال. وبسط عطفه على الفقراء والمحتاجين والجياع، والتعابى والضعفاء. وأيضاً بالمرضى والمصروعين من الشياطين. وفي اهتمامه لم ينس الحزانى على موتاهم. بل إنه لم يغفل حتى مقاوميه فأشفق عليهم...

****

وقال: "تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت١١: ٢٨).

وقال أيضاً إنه جاء ليعصب منكسري القلوب، وينادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق، ويعزى كل النائحين (إش٦١: ٢١).

نعم، جاء يطلق الذين وقعوا في أسر الشياطين، أو الخطية، أو الأمراض. وكل من كانوا في ضعف أو عجز.

* فمن جهة المرضى: شفى مريض بيت حسدا الذي ظل ملقى في مرضه مدى ٣٨ سنة إلى جوار البركة، حتى قال السيد المسيح: **"قُم. احمل سريرك وامشِ"** (يو ٥: ٨) فقام وحمل سريره ومشى. وشفى أيضاً المفلوج الذي أنزلوه إليه من السقف بسبب الزحام

(مر ٢). وكان كل الذين عندهم مرضى بأنواع أمراض كثيرة يقدمونهم إليه، فكان يضع يديه عليهم ويشفيهم (لو ٤: ٤). وقيل إنه كان "يطوف كل الجليل، يعلّم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل من يئس من شفائه، ومن عجز الطب في علاجه.

فلجأوا إليه باعتبار أنه رجاء من ليس له رجاء، ومعين من ليس له معين.. وكان يشفي جميع المتسلط عليهم إبليس...

* فالمصروعون من الشياطين، كان - ينتهر الشيطان فيخرج منهم. وكان بعضهم يصرخ ويقول له: "مالنا ولك؟ أجئت قبل الوقت لتُعذبنا". ومن بين الذين شفاهم مريم المجدلية التي كان عليها سبعة شياطين، فأخرجهم منها، فتبعته وصارت تلميذه له (لو٨: ٢). وشفى رجلاً من كورة الجدريين كانت به شياطين كثيرة (لو ٨: ٣٠).

* أما عن **إقامة الموتى**: فقد أقام ابنة يايرس رئيس المجمع (لو ٨: ٤١، ٥٥). وأقام ابن أرملة نايين، وكان شاباً وحيداً لأمه تبكي عليه (لو٧: ١١، ١٢). وبين الذين أقامهم أيضاً: لعازر أخو مريم ومرثا من بيت عنيا (يو ١١).

****

وكان السيد المسيح حانياً على الخطاة، ويقتادهم إلى التوبة

كان لا يعتبرهم أشراراً، بقدر ما يعتبرهم مرضى. وكان يقول عنهم في رفق: **"لا يحتاجُ الأصحَّاء إلى طبيب بل المرضى. ما آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة"** (مر٢ : ١٧). وهكذا جعل للخطاة نصيباً فيه.

ومن هؤلاء الخطاة جماعة (العشارين)، وكانوا محتقرين من الناس في جيلهم، لأنهم كانوا محبين للمال ومشهورين بالظلم. هؤلاء رفع المسيح معنوياتهم أيضاً، واقتادهم إلى التوبة والخلاص. ومن بينهم متى العشار الذي صار فيما بعد واحداً من الاثني عشر. وزكا العشار الذي دخل المسيح إلى بيته، ولم يبالِ بتذمر الناس لدخوله بيت رجل خاطئ. بل قال لهم: **"اليوم حصَل خلاصٌ لهذا البيت، إذ هو أيضاً ابن إبراهيم"** (لو١٩ : ٩). وفي مثل الفريسي والعشار (لو١٨: ٩ - ١٤) أظهر للناس أن العشار في انسحاق قلبه وطلبه للرحمة، كان أفضل من الفريسي المفتخر ببره. لذلك فإن العشار خرج من الهيكل مبرراً دون ذاك..

****

السامريون كانوا أيضاً خطاة، ولكن شملهم حنانه وعطفه..

وكان اليهود لا يعاملون السامريين باعتبارهم منحرفين عن الإيمان. فحدث ذات يوم أن إحدى قرى السامرة رفضت قبول السيد المسيح. وحينئذ اقترح عليه تلميذاه يعقوب ويوحنا أن يطلب فتنزل نار من السماء وتفنيهم. ولكنه انتهرهما وقال لهما: **"لستُما تعلمان من أي روح أنتما! لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليهلك أنفس الناس، بل ليخلص"** (لو ٩ : ٥٥ - ٥٦).

وفي مرة أخرى ضرب للناس مثل السامري الصالح الذي أنقذ يهودياً ملقى على الطريق بين حيّ وميت (نتيجة اعتداء بعض قطاع الطرق عليه). فحمله السامري على دابته، واعتنى به حتى شُفي، بينما كان قد مّر عليه كاهن ثم لاوي، وجازا مقابله دون أي اهتمام (لو ١٠: ٣٠ - ٣٧). ومازال اسم السامري الصالح يطلق الآن على الهيئات التي تعتني بالغير مهما كان دينه أو عقيدته.

المهم أن السيد المسيح أطال أناته على السامريين حتى قبلوا الإيمان فيما بعد (يو ٤).

****

وأيضاً شمل حنانه (الأمم) أي الشعوب غير اليهودية:

وكانوا مكروهين جداً من اليهود، على اعتبار أنهم يعبدون آلهة وثنية، وأنهم غرباء عن رعوية إسرائيل، بلا ناموس، ولا أنبياء، ولا عهد مع اللّه (أف ٢: ١٣). هؤلاء اجتذبهم السيد المسيح إليه وأظهر أنهم مقبولون أمام اللّه.

وفي شفائه لغلام قائد المائة الأممي، أُعجب بإيمان ذلك القائد، وقال عنه: **"لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا"** (مت ٨ : ١٠). كما شفى أيضاً ابنة المرأة الكنعانية، وهي من شعب يعتبره اليهود ملعوناً. وقال لتلك المرأة: **"عظيم إيمانكِ"** (مت ١٥ : ٢٨).

وبعد القيامة قال لتلاميذه: **"تكونون لي شهوداً في أورشليم وكل اليهوديَّة، وفي السامرة، وإلى أقصى الأرض"** (أع ١: ٨). كما أوصاهم قائلاً: **"اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم... وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به"** (مت ٢٨ : ١٩ ، ٢٠).

كما قال فيما بعد لتلميذه بولس الرسول: **"فإني سأُرسلك إلى الأمم بعيداً"** (أع٢٢: ٢١). وقال له في مرة أخرى: **"كما شهدت بما لي في أورشليم، هكذا ينبغي أن تشهد في رومية أيضاً"** (أع ٢٣ : ١١). وهي أشهر مدينة للأمم وقتذاك.

وهكذا كان السيد المسيح لكل الأمم وكل الشعوب.

وكذلك رفع معنويات المرأة، وأعطاها مجالاً:

أعطى المرأة مكانةً لم تكن لها في العالم اليهودي. وبارك النساء وخدمة النساء "ونسوة كثيرات كن يتبعنه من الجليل ويخدمنه من أموالهن (لو٨: ٢، ٣) (مت ٢٧: ٥٥). وقد طوّب الأرملة الفقيرة التي دفعت في الصندوق من أعوازها (مر١٢: ٤٤) كما أنه أقام العشاء الأخير في بيت مريم أم يوحنا الملقب مرقس. وقد تحول هذا البيت فيما بعد إلى كنيسة (أع ١٢: ١٢)، وكذلك بيت ليديا بائعة الأرجوان (أع ١٦).

وكما اهتم بالنسوة القديسات، كذلك شمل عطفه الساقطات أيضاً. فدافع عن المرأة الخاطئة التي ضُبطت في ذات الفعل، وقال لمن طلبوا رجمها "**من كان منكم بلا خطية، فليرمها أولاً بحجر**" (يو٨: ٧). فلما مضى هؤلاء، قال لها: "ولا أنا أيضاً أدينك. اذهبي ولا تخطئي مرة أخرى".

واهتم السيد المسيح أيضاً بالأطفال ورفع معنوياتهم...

الأطفال الذين كان ينظر الكبار إليهم في احتقار واستصغار، وينتهرونهم أحياناً ويطردونهم من طريقه. هؤلاء قال عنهم: "**دعوا الأطفال يأتون إليَّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت اللّه**" (لو١٨: ١٦). وأيضاً رفع طفلاً في الوسط وقال: "**إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد، لن تدخلوا ملكوت اللّه**" (مت ١٨: ٣)، يقصد مثل الأطفال في براءتهم وبساطتهم.

وكان يحب الأطفال ويحتضنهم ويباركهم (مر١٠: ١٦) ولما انتهروهم وهم يسبحون يوم أحد الشعانين، دافع عنهم بقول المزمور: "**من أفواه الأطفال والرضَّع هيَّأت تسبيحاً**" (مت ٢١: ١٦). لذلك كله كان يحبه الأطفال ويلتفّون حوله.

****

كان قلبا عطوفاً على الكل، لا يرفض أحداً حتى الذين ينتقدونه!

فالفريسيون الذين كانوا يقفون ضده، والذين كانوا يريدون أن يصطادوه بكلمة، لم يمتنع عن زيارتهم وإظهار الحب لهم، وأن لهم رجاء فيه. ولما دعاه سمعان الفريسي، دخل إلى بيته واتكأ... وناقشه ودخل معه في حوار (لو ٧: ٣٦ - ٤٧). مع أن ذلك الفريسي كان قد فتح له باب بيته، ولم يفتح له باب قلبه... حتى الذين صلبوه التمس لهم عذراً وقال: "**يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون**" (لو٢٣: ٣٤).

وأشفق على الضعفاء والجياع والمرضى:

وقال لمن يصنعون معهم إحساناً - ولو بزيارتهم - "**بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم**" (مت ٢٥: ٤٠). وفي معجزة إشباع الجموع من الخمس خبزات، قال: لا أستطيع أن أصرفهم جياعاً لئلا يخوروا في الطريق (مت ١٥: ٣٢).

ومن اهتمامه بالفقراء أنه اختار تلاميذه الفقراء صيادي السمك. وكان غالبيتهم من غير المثقفين، ولكنه منحهم من عنده الحكمة والقوة.

****

وكانت له شعبية كبيرة، باهتمامه بالكل

وكان يعلم الناس أعمق التعاليم، ولكن في بساطة أسلوب يفهمه الكل، الكبير والصغير، الجاهل والمتعلم. وكان في شعبيته يتبعه الألوف وكثيراً ما كانوا يزحمونه... كان يدخل بيوت الناس، ويدخل إلى سفن الصيادين. يقابل الكل ويكلمهم: في الطريق، وفي المزارع، وعلى الجبل، وفي مواضع خلاء، وعند شاطئ البحيرة.. في كل مكان. ودخل مجامع اليهود أيضاً، وعلّم الناس فيها (لو ٤: ١٦- ٢١).. كان للكل، يعمل لأجل الجميع...

وكل الذين قابلوه منحهم بركة أو نعمة أو إرشاداً. ولم يغلق ذاته على أحد إطلاقاً. وفتح أبواب الخلاص أمام الجميع. ولم يقصر محبته على طائفة أو مجموعة معينة، أو نوعية خاصة من الناس، أو شعب واحد...

كان للكل، للعامي والفيلسوف. كان للصيادين البسطاء كما للوقا الطبيب والفنان، كما لشاول الفيلسوف الذي قرأ الكثير من الكتب وتهذب عند قدمي غمالائيل مُعلّم الناموس (أع ٢٢: ٣)... وكل أحد كان يشعر بدالة وصداقة، تربطه بهذا المعلم الصالح وبسماحته ومحبته وحنانه وإشفاقه ومعرفته بالطبيعة البشرية واحتياجاتها...

ختاماً يا إخوتي، هذا الموضوع طويل. فاقتصر على ما ذكرته، وأطلب سلاماً للعالم كله، في الشرق الأوسط، وفي السودان والصومال، وفي بلاد الغرب، وفي فلسطين التي عاش فيها السيد المسيح حوالي الثلاثين عاماً، وكذلك مصر التي مكث فيها ثلاث سنين ونصف..

كونوا جميعاً بخير، وليبارك الله هذا العام، ويبارك دولتنا المحبوبة ورئيسها حسني مبارك، وكل العاملين فيها.

١٤ يناير ٢٠٠٧

عوائق التوبة

كثيرون مقتنعون بأن العام الجديد يجب أن يبدأ بقلب جديد وبروح جديدة، وحياة نقية مقبولة أمام اللَّه، لكي يبارك هذا العام ويجعله سعيداً. ولكن على الرغم من هذا الاقتناع، ما أقل الذين يحيون التوبة التي تُرضي اللَّه فيرضى عنهم. فلماذا؟ هل لأن حماس العالم الجديد قد فتر، ولم يستمر معهم؟ أم لأن التوبة صعبة أمامهم، وهناك عوائق عديدة في طريقها؟!

أتذكر أنه منذ ٤٦ عاماً، وصلني بهذا الشأن خطاب من شاب عزيز عليَّ، فتأثرت جداً ثم أرسلت له رداً قلت في مقدمته: "وصلني خطابك يا أخي المحبوب. ويخيلّ إليَّ أنني قرأته مراراً قبل أن أراه.. إنه صورة حياة أعرفها، وقصة قلوب كثيرةً.

هى أفكار تتعب كثيرين، عوائق تقف أمامهم في الطريق إلى اللَّه، تحول دون توبتهم، وتمنع نموهم الروحي: فالبعض يعجز عن التوبة. والبعض يبدأ ولا يستمر... فما هى تلك العوائق؟

*** أولاً لأن التوبة هى أكثر شيء يحاربه الشيطان:**

لأن معناها أن التائب سيفلت من حبائله، ولا يعود أن يخضع له بعد. وهكذا يضيع كل تعب الشيطان الذي بذله الشيطان من قبل في إسقاطه. لذلك فإن الشيطان يقدم له كل أنواع الإغراءات التي تثنيه عن عزمه الصالح، ويتيح له فرصاً للخطية ما كان يحلم بها قبلاً بحيث تضعف أمامها إرادته، أو يعيد إلى ذهنه ذكريات الخطايا التي هى محببة إليه، أو يظهر صعوبة الطريق إلى اللَّه. وهكذا يجد نفسه في حرب من شهوات القلب، ومن كثرة الأفكار، فيستسلم..!

****

*** من عوائق التوبة أيضاً ضعف الشخصية التي تنقاد إلى المحيط...**

فالمفروض في الإنسان الروحي أن تكون له شخصية قوية ثابتة لا تتجرف مع المحاربات الخارجية من الخارج...

إن سمكة صغيرة يمكنها أن تقاوم التيار وتسير عكسه ما دامت لها إرادة. بينما كتلة ضخمة من الخشب - قدر هذه السمكة مئات المرات - يمكن أن يجرفها التيار، لأنه لا إرادة لها. لذلك - إن أراد أحد أن يتوب - يجب أن يكون قوى الشخصية، قوى الإرادة. يعزم ويقدر...

****

*** عائق آخر في طريق التوبة هو تأجيلها:**

إن الشيطان، إذا وجد أن عزم الإنسان قوي، وأنه مصمم على التوبة، لا يحاربه حرباً مكشوفة بالامتناع عن التوبة خوفاً من رفضه ذلك. بل يدعوه إلى التأجيل بأعذار معينة، أو بإغراءات يقول له فيها: ليس الآن، فالعمر أمامك طويل ويمكنك أن تتوب في أي وقت، إنما الآن أمامك أمور عديدة لتقضيها ولا تناسبها التوبة!!

على أن التأجيل له أكثر من خطورة: فإن فرص التوبة قد تفلت. فإن الخطية إذا استمرت مدة أطول، قد تأخذ سلطاناً عليه وتثبّت أقدامها. كذلك ربما بالتأجيل: مجرد الرغبة في التوبة قد تختفي. والتأثيرات الروحية التي دفعت إليها، قد تفقد قوتها. كما أن التأجيل في مضمونة حتى يكون خطوة نحو الإلغاء...

****

*** من عوائق التوبة أيضاً: اليأس:**

حيث يقول الخاطئ: "كيف يمكنني أن أتوب، وأنا عاجز تماماً عن القيام من سقطتي؟! وإرادتي لا تستطيع مطلقاً أن تقاوم إغراءات الخطية ومحبتها التي في قلبي، وأفكارها المغروسة في عقلي!!

يا أخي إن كنت قد يئست من نفسك، فالسماء لم تيأس من توبتك. وإن كنت غير قادر على الخلاص من شهوات قلبك، فاللّه قادر على أن يُخلصك منها. فقد خلّص كثيرين من قبلك، وكانت حالتهم أسوأ..

فلا تخف إذن، ولا مجال لليأس، ولا تصغر نفسك. فالنعمة حينما تعمل سوف تعطيك قوة. ولا تهم الآن مقاومتك، ضعيفة أو عاجزة..

****

*** يقول البعض: "هل من المعقول أن أعيش طول عمري بعيداً عن الخطية، وهي تجرى في دمي؟! إن تبت اليوم، فسوف أرجع غداً!!"**

إنها مغالطة يلقيها الشيطان في قلبك. كما أنك ستعيش في التوبة بنفس هذا القلب الذي يحب الخطية!! كلا، فسوف يعطيك اللّه قلباً جديداً تُنزع منه محبة الخطية. وحينئذ لن تفكر في الرجوع إليها، بل ستندم على ما فعلته سابقاً. وشعورك الحالي سوف يتغير. وسوف تزول من عقلك الأفكار والصور التي كانت تلوثه من قبل...

إذن احترس من الفكر الذي يقول لك: "إن التوبة صعبة وغير ممكنة. فكل عائق سوف تزول صعوبته، حينما تعمل نعمة اللّه معك.

****

على أن أكبر عائق للتوبة، أن يشعر الشخص أنه غير محتاج إلى التوبة.

وهذا ما يسمونه بالبر الذاتي، أي أن يكون الإنسان باراً في عيني نفسه! ويقول في جرأة: ماذا فعلت من خطأ حتى أتوب عنه؟! بل أن حياته جميلة في عينيه، كيف يغيّرها! حقاً إن الإنسان لا يمكنه أن يتوب، إلا وشعر بأن في حياته بعض النقائص أو الأخطاء فيسعى إلى إصلاح ذاته. لذلك على كل إنسان - من هذا النوع - أن يصلح موازينه الروحية. ويسعى دائماً نحو الكمال. حينئذ سوف يشعر بأن المسافة طويلة بينه وبين المطلوب منه أن يفعله.

****

ولكن مما يعوق التوبة، أن يقارن الشخص نفسه بمستويات ضعيفة:

فيظن - مع هذه المقارنة - أنه في حالة حسنة لا تحتاج إلى توبة. أو يضع أمامه الأعذار، كأن يقول: "كل الناس هكذا... فهل أشذ عن الكل؟!". طبعاً ليس عذراً أن يكون الشر مسيطراً على أغلبية الناس. فأبونا نوح عاش باراً في عصر سيطرت عليه الخطية، حتى أغرق الكل بالطوفان...!

عموماً فإن مخافة اللّه إن وُجدت في القلب، فسوف تبعده عن الخطية، وتقوده إلى التوبة...

٢١ يناير ٢٠٠٧

خطورة الخطوة الأولى المؤدية إلى الخطية

إن أردت يا أخي أن تحترس من السقوط، ابعد كل البعد عن الخطوة الأولى المؤدية إليه. وأعرف أن أطول طريق بدايته خطوة..

وفي غالبية الأحوال لا تهجم الخطية دفعة واحدة بكل قوتها.

إنما قد تزحف زحفاً، ربما في مدة طويلة، نحو القلب. القلب الذي تريد أن تقتحمه، حتى تصل إليه بتدريج طويل...

فالذي يقع في الإدمان، لا يقع فيه فجأة، إنما بتدرج قد لا يشعر به إلا بعد أن يصبح فريسة له. كذلك من يقع في لعب القمار أو في الرشوة، قد يصل إلى ذلك بعد فترة. وهكذا شهوة الزنا، وأيضاً شهوة السلطة..

فعلى الإنسان الحكيم أن يعرف من أين تأتيه الخطوة، ويرقب مراحلها. وعلى رأى المثل "الباب الذي تأتي منه الريح، عليه أن يسده ويستريح"

****

ومراحل الخطية تبدأ غالباً باتصال، ثم انفعال، ثم اشتعال...

تصل الخطيئة أولاً عن طريق أسباب خارجية، أو فكر يلقيه الشيطان في القلب، أو عن طريق التهاون أو المعاشرات الرديئة. فإن أعطاها الإنسان مجالاً، قد تؤثر عليه فينفعل بها، سواء أكان انفعالاً فكرياً أو عاطفياً. فإن تهاون من جهة هذا الانفعال الداخلي، تتحول إلى اشتعال. وفي هاتين المرحلتين تكون مؤثرات الخطية قد انتقلت من الخارج إلى الداخل، وهذا أخطر. وقد يتطور الأمر إلى ما هو أشدّ...

****

يتطور الأمر إلى صراع داخلي، ربما ينتهي إلى استسلام فسقوط...

إنه صراع بين الضمير والخطية، أو بين الروح والمادة. والصراع يدل على أن الإنسان رافض للخطية، ولكنها تلح عليه وهو يقاوم. إنها مرحلة متعبة، غير إنها أفضل

من الاستسلام والسقوط. والإنسان قد أوقع نفسه في هذا الصراع، بتهاونه في المراحل السابقة...

وأنت لا تضمن نتيجة هذا الصراع بينك وبين الخطية...

فقد تنجح فيه بعد تعب. وقد تفشل فتلقى سلاحك، وتستسلم للعدو وتسقط. فالخطية من طبعها أنها لا تستريح حتى تكمل.

وإن سقطت في الخطية لا يتركك عدو الخير بل يستمر في محاربته، حتى تتكرر الخطية إلى أن تصبح عادة عندك أو طبعاً فيك. وتصل إلى الوضع الذي لا تستطيع أن تقاوم... بل تخضع لكل ما يقترحه الشيطان عليك، كعبدٍ له وللخطية التي سيطرت عليك.

إنه نوع من السبي، وقد يتطور إلى وضع أبشع...

****

قد تتطور العبودية للخطية إلى مذلة العبودية...!

أي الوضع الذي فيه يشتهي الخطية ولا يجدها..! ويطلبها متوسلاً بكل قواه. كمن يطلب شهوة المال، أو شهوة المقتنيات، أو شهوة الجسد، فلا يجدها. أو كمن يطلب العظمة أو الكبرياء أو الانتقام والتشفي. ويسعى بكل رغبته لعله يجد...

وكأنه يتوسل إلى الشيطان، أو يتسول من الشيطان، أن يمنحه الخطية. والشيطان لا يلبي نداءه ولا يستجيب... وهذه مذلة! وقد يتمادى الشيطان فيحتقر هذا الإنسان ومطالبه الخاطئة..!

فليفتكر كل شخص في أي مرحلة هو كائن؟

****

فليتك يا أخي تختصر هذا الجهاد، وتبعد عن الخطوة الأولى...

فهذا أسهل لك وأربح، وأكثر ضماناً. كما أن بعدك هذا عن مسببات الخطية، يدل على نقاوة قلبك، وعلى عدم قبولك للتفاوض مع العدو أو التعامل معه.

ضع أمامك مثال النبتة الصغيرة والشجرة الضخمة: فإنه من السهل جداً أن تقتلع شجيرة صغيرة من الأرض. ولكنك إن صبرت عليها حتى صارت شجرة ضخمة، يكون من الصعب عليك اقتلاعها، لأن جذورها قد امتدت في الأرض وتعمقت. وحتى إن نجحت، فهناك خطورة...

قد تنتصر على فكر شرير في داخلك بعد صراع مريراً، ولكنه في صراعك معه، يكون قد نجّس فكرك وربما قلبك أيضاً...

وحتى إن طردته من عقلك الواعي، قد يبقى في ذاكرتك وفي عقلك الباطن. وربما يعود إليك بعد حين، أو يظهر في أحلامك أو في ظنونك... فلماذا كل هذا التعب؟! الوضع السليم هو أن تتخلص منه قبل أن يستقر، وقبل أن يتسع نطاقه في تدمير روحياتك.

****

وبقدر إمكانك حاول أن تبعد عن الخطوة الأولى المؤدية إلى الخطية. ولا تسمح للخطية أن تتطور معك، أو أن تجعلك تتطور معها.. هذا إذا أردت أن تتوب، وأن تحفظ قلبك نقياً.

وفي أي مرحلة وُجدتَ، لا تتطور إلى ما هو أسوأ...

لأن إرادتك قد تكون قوية في أول هذه المعركة الروحية، في مرحلة اتصال الخطيئة بك. فإذا انفعلت، تكون إرادتك قد بدأت تستجيب للخطأ. وفي الاشتعال تكون قد ضعفت. وفي الصراع تدخل في مرحلة حياة أو موت. فإن سقطت، تكون إرادتك قد وقعت صريعة في هذه الحرب. وإن صرت عبداً للخطيئة، تكون إرادتك قد انتهت تماماً، وتصبح إنساناً مسلوب الإرادة. فالتفت إذن إلى نفسك، واحترس من الخطوة الأولى...

****

لأنه كلما يخطو الإنسان خطوة نحو الخطية تضعف إرادته ويميل إلى الخطية...

ويكون قد أعطى الشيطان مجالاً، ووسّع له مكاناً في داخل نفسه. وكلما يخطو خطوة أخرى، تقل مخافة اللَّه في قلبه. بل يكون سقوطه بالعمل متوقعاً جداً.

إذن لا يجوز إهمال أية خطية مهما كانت تبدو صغيرة، إنما ينبغي الحرص منها. فإن أي ثقب بسيط في سفينة، قد يتسع إذا أُهمل، حتى يتحول إلى كارثة. ونهر النيل في مجراه العظيم، قد بدأ بقطرات أمطار سقطت على جبل الحبشة، وسارت حتى وصلت إلينا نهراً... وإهمالنا الضئيل في روحايتنا - إن تركناه حتى يكبر- يصير مخرباً لنا...

****

فلنحترس إذن مدققين من جهة محاربة الأخطاء...

التي ربما تكون أحياناً عبارة عن قليل من الكسل والتهاون والتراخي. فالـذي يهـتم بالقليل، بلا شك سيقاوم الكثير. وكما يقول المثل الإنجليزي: "اهتم بـالبنس، وسـتجد أن الجنيه يهتم بنفسه".

كن إذن دقيقاً جداً. لأن الخطأ الذي قد تظنه بسيطاً، ربما يجر إلى مشاكل ضـخمة. واعرف أن التدقيق سوف يعلمك الحرص..

فالذي يهتم بالحشمة داخل غرفته الخاصة، سوف يحتشم بالطبع في خارجها. والتـي في حجرتها الخاصة المغلقة عليها، تستحي من أرواح الملائكة والأبرار، هذه لا بد إنهـا ستسلك بحشمة في الخارج أمام الناس..

****

إن الشيطان ذكي، لا يحارب الإنسان البار بخطية بشعة دفعة واحدة، ولا يطلب منـه باباً واسعاً يدخل منه إلى حياته. وكل ما في الأمر، أنه قد يستأذنك في ثقب إبرة، فلا تبالي وتسمح له، وهذا يكفيه. ثم يظل يوسعه حتى يتلف الحياة كلها!

وما أكثر الخطايا التي تدخل من ثقب إبرة!

فاحترس إذن وكن مدققاً...

٢٨ يناير ٢٠٠٧

أنواع نفسيات

ليست كل النفسيات من نوع واحد، سواء في ذلك الأبرار أو الأشرار. فكل واحد لـه طبعه الذي يتميز به عن الآخر.. فهناك نفسيات اجتماعية يمكنها أن تندمج مع الآخرين وتتعامل معهم، ونفسيات أخرى تحب الوحدة والهدوء. ونفسيات ثالثة تندمج في الأمرين معاً: يمكنها أن تعيش في المجتمع أو تعيش في الوحدة، حسبما تتيح الظروف لها، وتنجح وتنتج في الحالين.

****

توجد نفسية مستريحة، وتريح غيرها من الناس...

تعيش سعيدة وراضية، ويكون تعاملها مع الناس سهلاً. الخير الذي فيها تفيض بـه على الآخرين. وما في طبعها من الكرم والحب تغدقه على غيرها. نفسية خدومة تخدم كل من يقابلها في طريق الحياة وهي مستعدة أن تبذل وتجزل العطاء، وتتعب لتريح الآخرين.

ومن هذا النوع الممرضين والممرضات، والذين يعملون في إطفاء الحرائق وإنقاذ الغرقى، والذين يكرسون أنفسهم في خدمة مرضى الجذام ومرضى السلّ، وفي خدمة المعوقين والعجائز والمسنين، ويجدون سعادتهم في إسعاد غيرهم...

****

أما النفسية الشريرة: فما فيها من شرّ، تظنه في غيرها...

- فالإنسان الكذاب يظن أن جميع الناس يكذبون مثله! وإن قلت لـه شيئاً، يسأل "أصحيح هذا الكلام؟ هل أنت متأكد؟ إذن احلف لي. هل بذمتك حدث هذا فعلاً؟..." ذلك لأن الكذب الذي في طبعه يسقطه على غيرك، ويشك في كل ما يصل إليه.
- والشخص الماكر، يظن بالمثل أن غيره يمكر به، وكذلك غير الأمين لا يأتمن أحداً على سرّ، ولا على ماله، ولا على عرضه...

• وإن كان في نفسية شخص: الخداع، يفكر أن كل من يقابله يمكن أن يخدعه فيتخوف منهم. وإن كانت الخيانة في طبعه، يظن أن غيره سيخونه، فيحترس حتى من أصدقائه المقربين. وإن كان في نفسيته سوء الظن، يسئ الظن في كل من يتودد إليه.

****

وإن كان شخص في نفسيته عقدة الاضطهاد Persecution Complex يظن أن كل شخص يمكن أن يضايقه أو يتآمر عليه. وبذلك يعيش في خوف وربما في انطواء.

وهذا النوع من الناس ينفث فيمن حوله نفس الخوف والشك...

ويقول لمن يطلب نصيحته: خذ حذرك من الناس. فمن الجائز أن يخدعوك إذا يكذبوا عليك أو يضطهدوك.. وبهذا النصح يربى فيه ما يشبه نفسيته! حتى بعض الوظائف المعينة تجد عند أصحابها نفسية الشك والتحقيق في كل شيء...

****

والنفسيات تتنوع أحياناً بحسب الوراثة أو البيئة أو التربية...

فالابن مثلاً يمكن أن يرث نوعاً من النفسية، من أبيه أو أمه. أي يرث طبعاً معيناً يظل ثابتاً في نفسيته، أو يلتقطه من نوع التربية.. وهكذا نرى بعض الشعوب تتميز بطباع خاصة، أو نفسية تسود على الغالبية.

أو يتأثر الشخص بالجو العام، حتى في التقاليد، وفي العقيدة أيضاً. فمثلاً في البلاد الشيوعية، يتأثر الطفل من صغره بالجو الشيوعي، ويصير شيوعياً. لا تقبل نفسيته الإيمان بوجود اللّه، ولا بحياة أخرى.

وفي تأثير البيئة والجو العام على طباع الناس ونفسياتهم، نجد كثيراً من الناس سافروا إلى الخارج وقضوا هناك فترة طويلة، قد أثر ذلك على طباعهم و تقاليدهم. وحينما يرجعون إلى بلادهم، تكون نفسياتهم قد تغيرت، وصارت لهم طباع لم تكن فيهم من قبل!

****

وأحياناً تتأثر النفسية بالقدوة والمثل ونوع الصداقة...

وفي ذلك قال أحد من الأدباء: "إن قلت لي من هم أصدقاؤك، أقول لك من أنت". ومن المبالغة الشديدة في هذا التأثر، تقول بعض الأمثال الشعبية "من عاشر قوماً أربعين يوماً، صار منهم"!!

* وتتأثر النفسية أيضاً بنوع القراءة، إن كانت عميقة ومقنعة لهم.

*** كما تتأثر النفسية أيضاً بنوع العُقد...**

فمثلاً إنسان خانه صديقه العزيز عليه جداً، وكانت تلك الخيانة عميقة الأثر في نفسه. فقد تغرس في نفسيته عقده من الصعب أن يتخلص منها. وهى أن أي شخص يمكن أن يخونه. فيتخوف من بعض أصدقائه ويحترس من خيانة غيره له.

كذلك من يقع في عقده الخوف، ومن طباعٍ تكونت فيه منذ طفولته، وعقّدته في بعض الأمور.

****

ومع كل ما ذكرناه، يمكن للنفسية أن تتغير...

بل قد تتغير إلى العكس، إن أثرت عليها عوامل مضادة على درجة من العمق. كما حدث في توبة بعض مشاهير التاريخ...

ومثال ذلك القديس أُغسطينوس الذي كان في بدء حياته بعيداً عن اللّه والإيمان، وبعيداً عن حياة العفة والطهارة. وقد كتب تفاصيل خطاياه في كتاب اعترافاته...

ولكنه لما تاب.. وكانت توبته صادقه وعميقة، تغير إلى العكس تماماً، وصار راهباً ثم أسقفاً. وقاد حياة الفضيلة والتأمل في جيله، بل ترك تأثيره الروحي في أجيال طويلة من بعده...

ومن الناحية الطبية، يمكن للنفسية أن تتعب وتمرض...

بل تدخل أيضاً في صراع مع الذات، وتنقسم على ذاتها.. وقد يصيبها القلق والاضطراب وربما لغير سبب مقنع...

نعم، هناك نفسيات قلقة باستمرار وخائفة ومنزعجة. الشك يصيبها بالقلق. مثل أم تأخر ابنها إلى ساعة متأخرة بالليل. وتظل تلعب بها الأفكار: ربما حدث له حادث مؤسف، أو ربما خطفه بعض الأشرار.

ويظل زوجها في البيت يبتسم في وجهها ويلاطفها. ربما ابننا تأخر في المذاكرة مع أصدقائه، أو قد يكون في لهو معهم أو في النادي. وهى تستمر في قلقها، وتقول لزوجها: ربما تعب ابننا من معاملتنا، وفضل البعد عن البيت. وهكذا تظل في القلق حتى يرجع ابنها بسلامة، دون أن يضره شيء.

****

وهناك نفسية تتعب فتضر ذاتها:

كإنسان في نفسيته بعض التردد والخوف، فلا يقدر على اتخاذ قرار سريع أو بطئ. فهو دائما يتقلب في ما ينبغي أن يفعله أو يتجه إليه: كمن يتردد في نوع الدراسة التي يدرسها، أو في نوع العمل أو الوظيفة التي تحكم مستقبله. أو يتردد في موضوع الزواج وأية فتاة يختار؟ وهل سيسعد في اختياره أم لا.

وتردده هذا، يصل به إلى نوع آخر من المرض النفسي، هو عدم الثقة بالنفس. فلا يثق بأي شيء يصل إليه تفكيره: هل هو صواب أم خطأ. ويضطر أن يقابل غيره، ويعرض عليه الأمر. وما يصل إليه من مشورة، ربما لا يثق هل يستطيع أن ينفذه أم لا؟ إنها نفسية تحتاج إلى من يسندها باستمرار، ومن تثق في حكمته وصحة رأيه.

****

وبعد، ألا ترى معي أن هذا الموضوع طويل، وأن أنواع النفسيات يحتاج منا إلى لقاء آخر لنوفيه حقه؟

إذن إلى اللقاء في المقال المقبل إن شاء اللّه.

٤ فبراير ٢٠٠٧

أنواع أخرى
من النفسيات

تحدثنا في المقال السابق عن تنوع النفسيات، وذكرنا بعضاً منها. واليوم نكمل هذا الموضوع بذكر أنواع أخرى ، فمنها:

*** النفسية المهزوزة المنهارة:**

هذه النفسية التي تتعب وتنهار في أية ضيقة تصادفها. وتبكي وتنهمر دموعها، وتستخدم العقاقير لكي تهدأ قليلاً أو تنسى. فتستخدم حبوباً مهّدئة أو مسكنّة، وأحياناً حبوباً منّومة أو شبه مخدّرة، لكيما تخرج من المشكلة التي اصطدمت بها... أنها نفس مهزوزة غير قادرة على احتمال أية صعوبة في مسيرتها، وتحتاج إلى من يسندها باستمرار!

فإما أن يسندها معين يعينها، أو تسندها الأدوية!

إنها تذكّرني بنوعين في زراعة العنب: هما العنب الأرضي، وعنب التكعيبة:

ففي العنب الأرضي تقلّم الشجرة، بحيث تقف وحدها...

بينما النوع الآخر يحتاج إلى تكعيبة يستند عليها! ولا يقوم إلا بها. وإن وقع من هذه التكعيبة، ينفرط على الأرض ويتلف...

وهكذا النفس الضعيفة المنهارة تحتاج إلى تكعيبة يستند عليها! وهذه التكعيبة إما أن تكون زوجاً، أو مرشداً، أو تكون أباً أو أماً أو صديقاً وما أشبه ذلك، تستشيره وتطلب إرشاده، ولا تحيا بدونه...!!

****

*** النفس الهادئة، الصافية والشفافة:**

هى نفس - في هدوئها - تشيع الهدوء في كل مكان توجد فيه... وهى أيضاً نفسية هادئة بشوشة تشيع الفرح بين الناس، حيثما وُجدت..

بالإضافة إلى كونها نفسية متعاونة مخدومة تساعد الكل وتريحهم..

وهى أيضاً نفسية هادئة شفافة. يمكن لأي شخص أن يطمئن إليها ويستريح.

كما يمكنك أن تستودعها أسرارك وأنت مطمئن، ويمكنك أن تسترشد بها، وأنت واثق بحكمة نصائحها...

وهى أيضاً نفسية فيها سلام داخلي مبني على الإيمان، وفي داخلها اطمئنان حقيقي يجعلك مطمئناً طالما أنت معها...

****

*** هناك أيضاً نفسيات حساسة جداً:**

حساسيتها فوق الوصف، وهى حساسية من جهة ذاتها وراحتها وكرامتها. حيث أن أقل كلمة تتعبها وتجرح شعورها... وكأنها نوع من الحرير، إذا مرّ عليه أقلّ غبار يخدشه! إنها نفسية ناعمة إلى أبعد حد، لا تحتمل مرّ النسيم. فكم يكون الخطر إن هبّت عليها عاصفة!!؟

هذا النوع من النفسيات: إذا جلست إليها، فلا بد أن تتكلم بحرص، وأن تتعامل بحذر. وقبل أن تلفظ بكلمة، لا بد أن تفكر جيداً: هل هذه الكلمة تجرحها أم لا؟ وهل هى تشك فيها، أو أنها تفهمها بطريقة خاطئة!!؟ وبهذا الحرص تتجنب هذه النفسية خوفاً عليها!!

****

*** توجد نفسية أخرى شكّاكة:**

تشك في كل أحد، وتشك في زوجها إن كانت امرأة. وتشك في الزوجة إن كانت نفسية رجل. كما أنها تشك في رئيسها في العمل: أيريد ترقيتها أو يعطل ترقيتها أو يضطهدها بأية الطرق!!

بل أنها قد تشك في اللّه أيضاً، إذا تأخرت معونته، أو إن حدث ولم يستجب صلاة لها! أو إن ظنت أنه تخلى عنها في أي موقف!

وإن تكلمت مع هذه النفسية، قد ترى الشك في عينيها، وفي صوتها ولهجتها، وفي ملامحها. وتنظر إليك نظرة تشعر بها أنها تشك في كلامك...

وقد تطلب إليك أن تثبت كلامك ببراهين كثيرة. ويظهر الشك في نوع أسئلتها!... أصحيح هذا؟ ولماذا؟ ومتى حدث؟ ولمن؟ ومن هو الشاهد على هذا؟ أسئلة كثيرة تحاصرك بها...!

وعلى رأى المثل: "ما أسهل أن يدخل الشك إلى العقل وما أصعب خروجه"!

*** هناك نفسية أخرى متشائمة:**

إنها تتشائم من كل شيء: من صوت الغراب، ومن صوت البوم، ومن وجوه بعض الناس إن اصطبحت بهم، وتقول حينئذ: يارب استر. يارب مرّر هذا اليوم على خير. ويدركها التشاؤم إن قرأت في إحدى الجرائد من طالعك في هذا اليوم، أو ماذا تقول النجوم..!

هذه النفس المتشائمة تشيع التشاؤم في عقول من يتعاملون معها من الناس. ودائماً تتوقع أسوأ النتائج وأسوأ الأحداث!! وإن سمعت عن حرب أو كارثة، تتوقع أن نهايتنا قد قربت..! وكذلك في المرض، تبالغ في مرضها! وتظن أنه سينتهي بكارثة أو بالموت! وإن حاول الطبيب أن يطمئنها، تشك في كلام الطبيب، وأنه يخفي عنها الحقيقة!

****

*** نفسيات أخرى دائمة الكآبة أو النكد، والنقّادة:**

من الصعب أن تبتسم. زميلاتها في العمل يسمونها "كئيبة هانم"!

وقد تتحول الكآبة عندها إلى نكد. وتصبح شخصية نكدية، تشيع النكد في كل مكان تحل فيه، فتجدها دائمة العتاب، ولأي سبب. وتنظر إلى كل الأمور بمنظار أسود. وينطبق عليها قول الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

إنها نفسية نقادة، دائمة النقد. وتصف كل شيء بالفساد، وتنادى بالإصلاح! ويخيّل إليَّ إنها إذا نظرت أيضاً إلى المرآة، ستنادي كذلك بلزوم الإصلاح! وتقصد إصلاح المرآة طبعاً لتكون صادقة في تقديم صورة من ينظر إليها!!

****

*** توجد أيضاً نفسية قاسية ، وطبعها شديد:**

مثل الأم القاسية أو الأب القاسي، في تربية الأبناء، إذ لا يجدان وسيلة لمواجهة أخطاء الصغار إلا بالقسوة. وكذلك كل من تكون له سلطة أو إدارة أو رقابة، ويستخدمها بقسوة في أحكامه ...

إن النفس القاسية - ومثلها النقّادة، لا يسلم أحد منها، ومن لسانها "الذي تعود الشدة في التعامل مع غيره، صغيراً كان أم كبيراً ... والعجيب أن هذا النـــوع يظـــن أن تصـــرفه سليم!!

****

*** هناك أيضاً النفسية الجشعة:**

هذه التي لا تكتفي، مهما نالت ومهما أخذت. ومنها يقول سليمان الحكيم: "كل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن"..!

مثال ذلك من لا يشبع من المال. بل يشتاق إلى المزيد، مهما كانت له مـــن الثـــروة، ومن لا يشبع من المديح، ومن لا يشبع من النفوذ أو من الشهرة. وإنما يتطلع إلى ما هـــو أكثر...

والجشع قد يدفع صاحبه إلى طرق غير شرعية أو غير لائقة. وقد يلجأ إلـــى الغـــش أو التزوير أو الجريمة بأي نوع..

****

والعجيب أن هذه النفسيات لا تحب أن تتغير، ولا تقبل أي نصيحة. وهي لا تريد أن تتطور إلى أفضل. والحكيم من يفحص ذاته جيداً.. ويحاول أن يرى العيوب التـــي فيهـــا ويصلحها..

وبعد، وقد تحدثنا عن هذه النوعيات من النفوس، يخيل إليَّ أن هناك نوعاً نحتاج أن نكمل به موضوعنا، إن كانت هناك فرصة.

١١ فبراير ٢٠٠٧

نفوس مُريحة
وأخرى غير مريحة

النفوس المريحة هى التي تريح غيرها...

وهكذا قد يجلس إنسان معك فتستريح لوجوده معك. وتود لو أن جلسته تطول مهما مرّ الوقت. بينما يجلس إليك آخر، فتظل تعدّ الدقائق متمنياً لو أنه رحل عنك، وبسرعة. ذلك لأن الشخص الأول مريح، والثاني متعب..

فإنسان يمرّ عليك، كالنسيم الهادئ أو النسيم العَطِر..

وآخر يمرّ بك، وكأنه عاصفة هوجاء..!

فما هى إذن النفس المريحة؟ وما هى صفاتها؟

ولماذا تكون نفوس بعض الناس متعبة وغير مقبولة؟

هذا ما نود أن نتحدث عنه في مقالنا هذا:

****

أول نفس مريحة في حياة كل إنسان، هى أمه:

يرى الطفل راحته في صدرها الدافئ، وفي إرضاعها له، وفي نظراتها الحانية، وفي ابتسامتها، وفي استجابتها لاحتياجاته... ومعها يشعر دائماً بالاطمئنان والأمن.

والطفل الرضيع، الذي نظن أنه لا يدرك شيئاً، من العجيب أنه يستطيع أن يميز أمه أو مرضعته عن أية امرأة أخرى... فهى حين تحمله تبتسم له، ويبتسم هو لها في فرح وبشاشة. بينما تحمله امرأة أخرى فيصرخ...

****

الطفل حسّاس جداً من جهة ملامح الناس:

هو لا يتضايق مطلقاً من أي كلام فيه انتهار أو غضب، لأنه لا يفهم معنى الكلام. لكنه يفهم الملامح، ويميز النظرة المريحة من النظرة المتعبة. ويميز الملامح البشوشة من

الملامح المزعجة. فيطمئن إلى النفس المريحة، من نوع النظرة، وشكل الملامح، ونبرة الصوت. ويميز النفس المريحة التي تداعبه وتلاعبه وتلاطفه.

لذلك، احترسوا باستمرار، واضبطوا ملامحكم حينما تقابلون الأطفال احترسوا من جهة الانتهار والتوبيخ، لأن الملامح فيه لا تكون مريحة..

****

وصدقوني، نفس الأمر يكون أيضاً في معاملة الكبار:

هم أيضاً يحتاجون إلى التعامل مع النفوس المريحة، فيريحهم كذلك شكل الإنسان وملامحه وأسلوب معاملته. وربما الواحد منهم يرى شخصاً لأول مرة فلا يستريح إليه بسبب تعبيرات وجهه، أو نبرة صوته وحدته، أو حركاته. وملامح ذلك الشخص توحي إليه بعدم الاطمئنان وعدم الثقة به..!

ويحدث هذا أيضاً في اختيار الأصدقاء: فهناك من تنجذب إليه وتشعر من أول لقاء، كما لو كنت تعرفه منذ زمان، بينما آخر تنفر منه تلقائياً!!

****

- **نفس الكلام نقوله عن الأطباء:**

هناك طبيب يستريح إليه المريض، في بشاشته من جهة، وفي شرحه للمرض وللعلاج من جهة أخرى. وأيضاً في ما يعطيه من بريق الأمل والرجاء مهما كان المرض خطيراً. ويشعر المريض بالاطمئنان إلى أنه في يد أمينة مخلصه تعمل على الاهتمام بصحته، وأنه في رعاية طبية مع قلب عطوف..

- **وأيضاً نقول نفس الكلام عن المرشد الروحي:**

المرشد المريح الذي يعرف نفسية وظروف من يطلب منه الإرشاد، ويعرف الحروب الروحية التي يتعرض لها. كما يدرك تماماً ما هى الإرشادات التي يمكنه تنفيذها، وما مدى قدرته على السير في الحياة مع الله بطهارة وبرّ، ومقدار النعمة الممنوحة إليه... لذلك يقابله في حنو وإشفاق، مهما كانت خطاياه، ويقوده في التدرج الممكن حتى يصل...

وبهذا يفتح المسترشد قلبه، ويتكلم بصراحة، دون أن يخشى قسوة من المرشد أو انتهاراً له بسبب ضعفاته...

من صفات النفوس المريحة:

- **الإنسان البشوش هو صاحب نفسٍ مريحة:**

طبيعة الناس أنهم يحبون البشاشة، ويستريحون إلى الوجه البشوش، الذي من فيض سلامه القلبي يفيض بالسلام وبالراحة على كل من يقابله...

البشاشة هى فرح ينتقل من نفس إلى نفس. لذلك فإن غالبية الناس يحبون النفوس المريحة التي تدخل البهجة إلى القلب. ومن هؤلاء: الفنانون المتخصصون في التمثيل الكوميدي، والفنانون ذوى المواهب في الرسم الكاريكاتوري المصحوب بفكاهة لطيفة، طالما أن الفكاهة تكون بريئة ولطيفة ولا خطأ فيها...

ولأن البشاشة والفكاهة تريح النفس، لذلك فإن بعض المصورين قبل أن يلتقطوا الصورة يطلبون إلى الناس أن يبتسموا أولاً، لأن الوجه المبتسم يكون مريحاً لمن يراه.. على أن البعض - بطبيعتهم - لهم وجوه مبتسمة بشوشة في كل المناسبات. وهؤلاء لهم نفوس مريحة...

****

- **كذلك الإنسان الوديع الهادئ هو من النفوس المريحة:**

إنه بهدوئه يُدخل الهدوء إلى قلب الآخرين. ومهما كانت الأمور صعبة، تعمل النفس الهادئة على تهوينها وتخفيف وقعها. وبهذا تريح الغير. وفي جو من الطمأنينة تبحث تلك الأمور معهم، لكيما تعمل في هدوء إلى حلّ..

وأيضاً الإنسان الوديع الهادئ هو إنسان مريح في معاملته. لأنه يأخذ الأمور ببساطة، فلا يُغضب أحداً، ولا يغضب هو من أحد. بل يتعامل مع الكل في سهولة وبساطة ويسر. وهكذا لا تتعقد الأمور أبداً في التعامل معه.

- **أيضاً المبشرون بالخير، هم من أصحاب النفوس المريحة:**

إن الناس يسعدون بمن يبشرهم بخبر طيب... ويعتبرونه بشارة خير، ويرون كلامه فألاً حسناً.

إن الأخبار التي تنشر في الصحف، والتي تذاع من القنوات الفضائية، تختلف من واحدة إلى أخرى، فمنها ما تريح الناس بما تعلنه ومنهم ما تزعجهم وتخيفهم. وطوبى للمبشرين بالخير. لأنهم مريحون..

• **كذلك صانعو الخير هم من أصحاب النفوس المريحة:**

وطبيعي أن الناس يستريحون لمن يعمل خيراً معهم، ويحبونه. وهكـذا فـإن الـذين يعملون على إنقاذ الآخرين، والذين يتصرفون بحنو وإخلاص في الجمعيات الخيرية، وكل من يتطوعون لإنقاذ الآخرين، ومن يتبرعون بدمائهم للمرضى في المستشفيات، كل أولئك وأمثالهم من النفوس المريحة...

****

النفوس غير المريحة:

إنهم على أنواع كثيرة للأسف الشديد:

• منهم أصحاب الدم الثقيل، غير المقبـولين فـي كلامهـم، ولا فـي تصـرفاتهم ولا يستريح أحد إلى معاشرتهم ولا إلى الخلطة معهم. إنهم منفرون.

• ومنهم أصحاب النفوس المتطفلة، الذين يحشرون أنفسهم فيما لا يعنيهم والذين لا يعترفون بخصوصيات أي إنسان وإن اقتربوا من أحد، يريدون أن يعرفوا ليس أخباره فقط، وإنما صميم أسراره. بل يسألونه أيضاً عما يريد أن يعمله وعن نواياه وأفكاره. وإن أحجم عن الإجابة، يتهمونه بعدم الإخلاص وعدم الحب وعدم الثقة بهم.. إنهم نفوس غير مريحة.

• ومن النفوس غير المريحة، أولئك الذين يتصفون بالإلحاح الشديد، غير مقـدرين ظروف من يلحون عليه، ويضغطون على فكره وأعصابه. ويريدون بإلحاحهم أن يحصلوا على غرضهم وإلى الوصول إلى طلبهم، مهما تعب الذي يلحون عليه... إنهم نفوس غير مريحة، ومن النفوس غير المريحة أيضاً: القوم المتشائمون، الذين ينظرون إلى الحال الراهن وإلى المستقبل بمنظار أسود قاتم، وينشرون ما عندهم من تشاؤم في كل موضع يكونون فيه. وحيثما يسيرون يصطحبون معهم النحس والشؤم. وكأنهم بوم ينعق... إنهم غير مريحين.

• ومن النفوس غير المريحة، أولئك الذين يجادلون لمجـرد حـب الجـدال. فـلا يعتمدون على منطق، ولا يخضعون لكلام منطقي. ويصرّون على فكـرهم بجـدال هـو مضيعة للوقت وتعب للأعصاب...

• ومن النفوس غير المريحة: الأنانيون، والذين يطليون الكلام في ثرثـرة بـدون معنى، والذين يتصفون بالنكد والوجوه المتجهمة باستمرار، والذين لا يبـالون بغيـرهم، والذين يتصفون بالبرود في معاملاتهم... وأمثال هؤلاء من أنواع أخرى.

١٨ فبراير ٢٠٠٧

ما بين الطموح والقناعة

القناعة فضيلة وهى ضد الطمِع. والإنسان الفاضل يحب أن يكون راضياً ومكتفياً بما هو فيه. فهل فضيلة القناعة بهذا المعنى تتعارض مع الطموح الذي يريد باستمرار أن يكون حاله أفضل مما هو فيه؟ أم يستطيع الإنسان المتدين أن يجمع في حياته بين القناعة والطموح دون أن يُخطئ؟

والجواب هو أنه ليس كل طموح خطيئة، بل قد يكون فضيلة.

والحكم في ذلك يرجع إلى نوع الطموح، وإلى وسيلته...

****

فهناك طموح روحي، وهو في نفس الوقت يتفق مع طبيعة الإنسان.

فالاشتياق إلى الكمال هو فضيلة. ونقصد به الكمال النسبي، نسبةً إلى ما يستطيعه الإنسان وما وُهبت له من نعمة ومن عون إلهي. أما الكمال المطلق فهو للّه وحده. وقد وضع اللّه في طبيعة الإنسان أن يشتاق إلى النمو وإلى الكمال، حتى بذلك يمكنه أن ينمو في الفضيلة وفي عمل الخير. وهذا بلا شك طموح روحي، يجب على الإنسان أن يسعى إليه...

فلا يجوز للإنسان أن يكتفي بوضع معين في البر، يتجمد عنده دون أن يتقدم أو يتحرك ويمتد إلى ما هو أفضل. فهذه ليست قناعة سليمة، إنما خمول في الحياة الروحية. فيجب أن يمتد الإنسان إلى قدام، ما دام ذلك في مقدوره ولا يتعارض مع أي وصية إلهيه...

****

هناك إذن أنواع من الطموح، وكل نوع له هدفه:

* يوجد طموح في جمع المال، وصاحبه لا يكتفي مهما اقتنى. وهدفه هو الشهرة أو النفوذ أو شراء الناس بالمال، أو الإنفاق على الملاذ والشهوات. وربما في طموحه هذا

يعزّ عليه أن ينقص ماله في الإحسان إلى غيره أو الصرف على مشروع خيري. هو يعبد المال ويتكل عليه...

مثل هذا الطموح المالي هو طموح خاطئ.

* هناك طموح آخر في السلطة والنفوذ، والارتفاع في المناصب والألقاب.

ليس من أجل استخدام النفوذ في خدمة المجتمع. إنما الهدف كله هو محبة العظمة والكبرياء. وهذا أيضا طموح خاطئ.

* هناك طموح آخر في العلم، والتفوق في البحوث العلمية. وهذا الطموح مطلوب ويستحق التقدير، بحيث يستخدم العلم في الخير.

* كذلك طموح روحي، وهو فضيلة، بحيث يكون في حكمة، ولا يقود إلى الغرور، ولا ينحرف إلى التطرف...

****

أما الطموح الشرير، فقد ظهر بأعلى قمته في الشيطان:

إنه طموح يهدف إلى التأله ومنافسة اللَّه في سلطانه، وتكوين مملكة شريرة تُعادي اللَّه، وتجذب البشر إليها بعيداً عن اللَّه. بطموح في تدبير فرص للخطيئة، والنمو في وسائل اللّهو والفساد، وابتكار أساليب جديدة في الشر. وعدم الاكتفاء بعدد الساقطين في حبائله، بل يطمح إلى إسقاط الكل. ويفرح في طموحه إن أسقط أحد الأقوياء أو الأبرار، وإن انتشر الشرّ وزاد.

ويعلّم أنصاره الطموح في درجات الفساد، وجذب الآخرين إليه. فالذي يحترف النصب والاحتيال عنده طموح في ابتكار أساليب جديدة في النصب، ويفرح بنجاحه في ذلك.

****

أخشى أن يكون من نفس الطموح الشرير، طموح بعض علماء الهندسة الوراثية:

أقصد الذين بدأوا يتدخلون في أمور تتعلق باختصاص اللَّه في الخلق! بأن يتحكموا في نوعية الإنسان الذي يُولد، ويشكلون الجنين حسب هواهم من جهة المواصفات التي يريدونها. ويقدمون بويضات مخصبة أحكموا فيها دمج ما أرادوه من أوصاف الجينات.

حتى صارت لهم بنوك لتلك البويضات المخصبة، تتلقى ما تريده الأم من نوع الجنين من حيث نوعه وشكله ولونه وذكائه!! وتدرجوا إلى ما أسموه بالاستنساخ"

نحن لا نعارض مطلقاً الطموح في العلم، بحيث يكون للعلم حدود لا يتعداها إلى الدخول في اختصاص اللّه وحده...

****

والطموح الخاطئ كما يكون خاطئاً في نوعه، كذلك قد يكون خاطئاً في وسيلته:

مثال ذلك شخص يريد أن يرتفع، ويضع في طموحه أن يكون أعظم الكل. فتكون وسيلته هى أن يحطم كل من يراه منافساً له في العظمة والارتفاع، لأنه في طموحه يريد أن يكون أعظم من الكل، وأعلى من الكل. سواء كان طموحاً في العظمة أو في الغنى أو في المناصب. والأمثلة على ذلك لا تُحصى، نشاهدها في الحياة العملية...

*** وقد يكون الطموح خاطئاً بسبب شهوة لا تكتفي ولا تشبع.**

كأن يقع شخص في شهوة المال. وكلما نال منه يطمح إلى نوال المزيد. وتظل نفسيته في تعب، لأن خياله يسبح في أرقام من المال أكبر أضخم. وينطبق عليه قول سليمان الحكيم: "كل الأنهار تجرى إلى البحر، والبحر ليس بملآن. وهكذا يقوده هذا الطموح المالي إلى لون من الجشع، وربما إلى وسائل خاطئة لتحقيق أهدافه وبالمثل من يقع في شهوة العظمة، أو في شهوة الشهرة. ولا يكتفي...

****

نقطة أخرى من الطموح الخاطئ، وهى الغرور

ففي بعض الأحيان قد يمتزج الطموح بالغرور: إما بغرور سابق أو بغرور لاحق. فالغرور السابق هو أن يظن شخص في نفسه أنه يستطيع - في طموحه - أن يقوم بأعمال هى فوق مستواه بكثير. فيتحدى أو يعد بأداء مهام لن يقدر عليها!

وليس هذا في الأمور المادية فقط، بل حتى في الأمور الروحية! إذ يريد في طموحه أن يقفز إلى فضائل قد وصل إليها الأبرار بعد جهاد طويل! أو أنه يهدف إلى مستويات يظنها فضائل، وهى ليست كذلك. ولذلك فإن الحكماء من المرشدين ينصحون مثل هذا الطامح بالتعقل وعدم التطرف.

أما الغرور اللاحق، فهو أن مثل هذا الشخص - في طموحه يصل إلى الخيلاء والتكبر، ويرتفع في عيني نفسه. ويظن أنه قد وصل إلى ما لم يصل إليه غيره!

****

إن الطموح بمعنى النمو الدائم في طاعة اللَّه ومرضاته، يكون فضيلة. لكنه إذا تحول إلى مجرد الإعجاب بالذات (الـ Ego) يصبح خطيئة...

لأن التمركز حول الذات - إن دخل في أية فضيلة - فإنه يفسدها، إذ يهبط بمستواها، ويغيّر هدفها الصالح..

فكل إنسان عليه أن يبذل جهده لكي يداوم النجاح ويرتفع مستواه. أما إن تحول هدفه في النجاح إلى مجرد التفوق على غيره - ولو بمستوى ضعيف - يكون قد انحرف في طموحه! لأن الإنسان الصالح يفرح بارتفاع غيره، ولا يهدف إلى مجرد التفوق على الغير. بل يريد الوصول إلى الكمال وأن يصل غيره أيضاً.

والذي يطمح في الوصول إلى المستويات العليا، لا يدخل في صراع مع الغير، ويحتفظ بقلبه نقياً. فلا يفرح بالعلو مع هبوط الغير...

****

وهنا قد يسأل البعض: كيف يكون لي طموح نحو الكمال، بينما الكمال هو للَّه وحده؟

ونجيب بأن الكمال المطلق للَّه وحده. ولكن الكمال النسبي ممكن لأي إنسان، أي ما يصل إليه من كمال بالنسبة إلى ما لديه من مقدرة وإمكانيات وما يهبه اللَّه من النعمة. ومثال ذلك يمكن لأحد الطلبة في دراسته أن يصل لدرجة الكمال في علم من العلوم حسب مستواه. إنه مجرد كمال نسبي...

* **سؤال آخر: كيف يمكن التوفيق بين الطموح والقناعة؟**

بينما القناعة معناها الرضا بالقليل. أما الطموح فلا يرضى بالقليل، بل أنه يهدف إلى المزيد!! وأن يمتد إلى قدام..

والإجابة سهلة. وهى أن القناعة هى قناعة في الماديات. أما في الأمور الروحية، فيمكن للإنسان القانع مادياً أن يكون له طموح روحي. وبالمثل نقول عن الزهد: أنه زهد

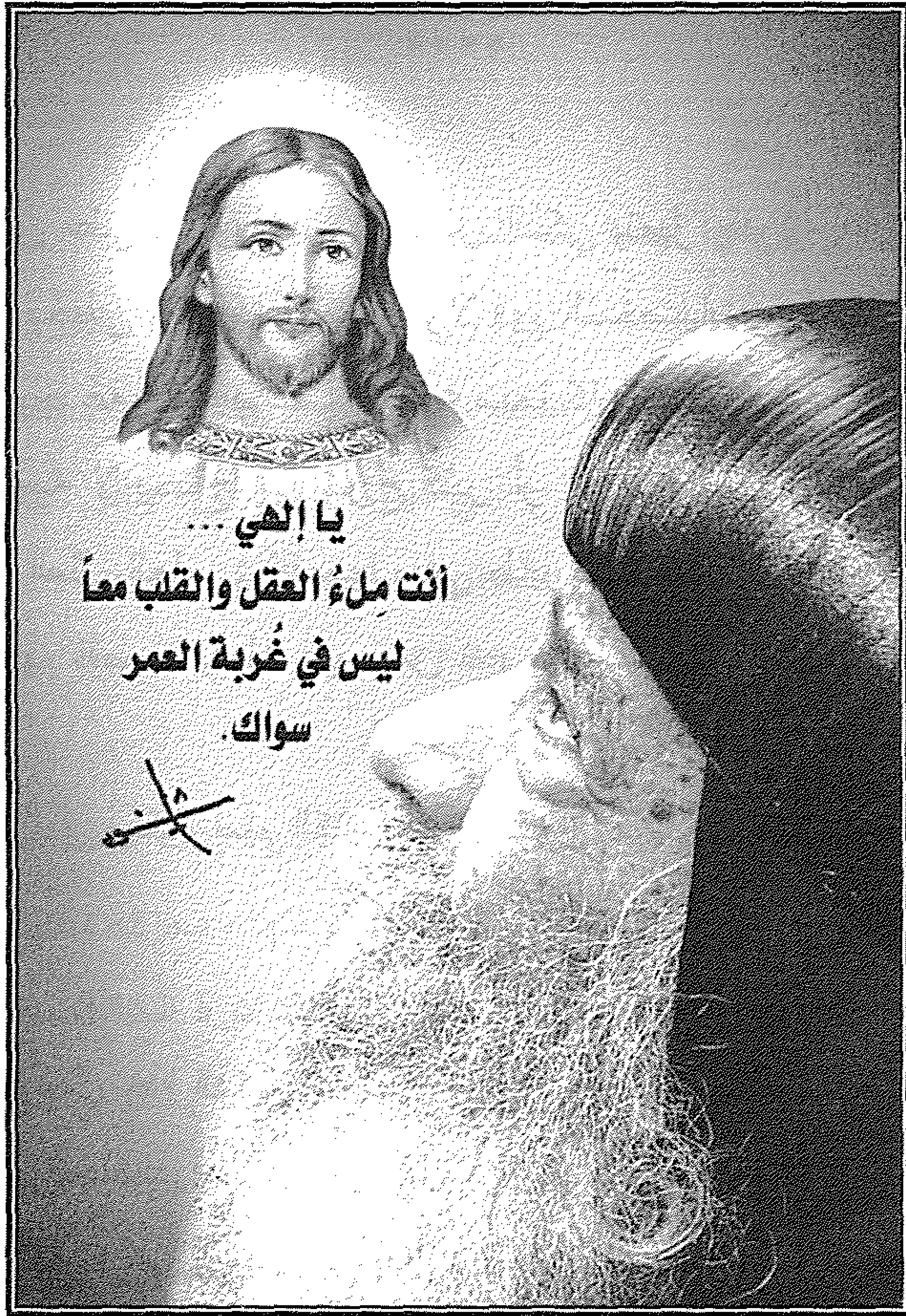
في مشتهيات العالم الفاني. فعلى الإنسان القانع أن يمتد إلى قدام في حدود الإمكانيات المتاحة له، ويقنع بما تصل إليه إمكانياته..

****

سؤال أخير: ماذا عن الطموح في العلم؟

والجواب هو أن هذا الطموح واجب. ونحن نهنئ أبنائنا النابغين في العلم ونفتخر بهم. ولكن على كل إنسان أن يحتفظ بالتوازن في حياته.

فمع طموحه في العلم، لا يهمل في روحياته، ولا يقصّر في صلواته وتسابيحه ومعرفته الدينية بحجة دراسته وانشغاله بتحصيل العلم. وإنما اهتموا بهذه، ولا تهملوا تلك. واللّه هو المعين.



٢٥ فبراير ٢٠٠٧

الذكاء
عناصره - أنواعه - موانعه

الذكاء هو تجلي العقل والفكر. وهو الوسام الذي يتزين به العاقلون. كما أنه الطريق إلى السمو إن أُستخدم في الخير.

والذكاء يتميز بصفات معينة وعناصر يعمل من خلالها، منها: الفهم، والاستنتاج، والذاكرة، والتفكير، ودقة الملاحظة، وسرعة البديهة... وله علاقة بالحكمة والشفافية... وسنحاول أن نتكلم بشيء من التفاصيل عن كلٍ من هذه العناصر وفروعها:

****

*** الفهم:**

الفهم عند الناس على مستويات. والشخص الذكي يتميز بقدرته على سلامة الفهم، ودقة الفهم، فهو لا يخطئ في فهم الأمور، ولا فهم الشخصيات وطبيعة الناس ومقاصدهم. لا يستطيع أحد أن يخدعه، فهو يكشف الخداع مهما كان مستوراً أو ملتوياً.

وفي سرعة فهمه لا يحتاج إلى شرح كثير أو إلى توضيح، ولا يحتاج إلى وقت لكي يفهم. بل كما يقول المثل العامي: "يفهمها وهي طايرة" بل على الأكثر يفهمها قبل أن تطير... وهو لا يفهم فقط ما يفعله غيره من نحوه، وإنما أيضاً ما ينوي ذلك الغير أن يفعله...

والأمور التي تبدو معقدة أمام الكثيرين، لا تكون كذلك بالنسبة إليه لأنه بذكائه يحلّ تلك العقد..

ويقال عن فهم مثل هذا الذكي إنه لمّاح:

ذلك لأنه يلمح المقاصد والأغراض قبل أن تنفذ، ويلمح المشاعر دون أن يُفصح عنها. يدرك نفسيه غيره وما يريده، من مجرد ما توحي به ملامحه، وما تريد أن تنطق به عيناه، وكذلك من لهجة صوته، ومن نوعية ألفاظه...

وهذا الذكي الفهيم اللماح - إن قرأ شيئاً - لا يقتصر فقط على قراءة السطور، بل يقرأ أيضاً ما وراء السطور، وما هدف الكاتب وإن لم يكتبه...

لذلك فهو يتعامل مع الناس، وهو يفهمهم، كما يفهم مفاتيح شخصياتهم

****

*** الاستنتاج:**

الإنسان الذكي له قدرة على الاستنتاج، وهو يخرج من ذلك بنتائج سليمة. كل خطوة يستطيع أن يستنتج ما بعده. ومقدمات أي أمر تقوده إلى نتائجه. وهو لا يقتصر على معرفة الجزيئات، إنما بسهولة يستخرج منها الكليات. فتفاصيل الأحداث مثلاً، يجمعها ويرتبها ويخرج منها بنتائج معينة، وتكون سليمة...

وقد يسمى البعض هذا، لوناً من الفراسة، أو من التنبوء، ويرون أن الدبلوماسيين يتصفون غالباً بهذه الصفة.

والقدرة على الاستنتاج يلزمها أيضاً دقة الملاحظة:

فالإنسان الذكي لا تفوته ملاحظة شيء. ودقة ملاحظته كما تشمل الأشياء، تشمل المواقف، والأساليب، والسياسات، والأهداف، ونوعية الألفاظ التي تُستخدم. كما تلاحظ أيضاً تطورات الأمور، واتجاهات الرياح التي تهب: ومن أين؟ وإلى أين؟

لذلك فالشخص الذكي إنسان مفتوح العينين، متوقد الذهن.

****

*** الذاكرة:**

الذاكرة لازمة جداً للإنسان الذكي. لأن ضعف الذاكرة يقف عائقاً أمام الفهم السليم وأمام الاستنتاج وما يلزمه من تجميع المعلومات ومقارنتها ومعرفة مدلولاتها...

والذاكرة على أنواع وصفات. ولعل في مقدمتها: **الذاكرة الحافظة**، أي التي تحفظ المعلومات داخل العقل ولا تنساها. غير أن اللّه سمح بالنسيان لكي ينسى العقل المعلومات التافهة ويفسح المجال للأمور الهامة والأساسية. والناس يختلفون في مدى ما تحفظه ذاكرة كل منهم. وهناك من تحتفظ ذاكرته بأمور قديمة العهد، وبتفاصيل دقيقة. وهناك من تقوى ذاكرته في حفظ الأرقام، أو في حفظ الأسماء. أو في حفظ نصوص معينة...

والذاكرة الحافظة هى في نفس الوقت ذاكرة خازنة أي تخزن المعلومات في العقل الواعي أو في العقل الباطن.

وهناك **ذاكرة مرتبة:** لا تكتفي بخزن المعلومات، إنما ترتبها أيضاً. بحيث أن أراد الشخص أن يتحدث في موضوع معين، يجد المعلومات قد وصلت إليه من ذاكره مرتبة تتعلق بكل ما يخص هذا الموضوع من معارف مختزنة من قبل.

وهناك **ذاكرة فوتوغرافية:** بحيث إذا تذكّر شخص موضوعاً معيناً قد قرأه، يجد الصورة واضحة أمامه، نفس الصفحة من فوق أو من تحت أو في الوسط، وكأنه يعود إلى قراءتها...

وكلما ازدادت قوة الذكاء، جمع العقل كل هذه الأنواع من الذاكرة..

****

*** سعة العقل:**

حيث يوصف الذكي بأنه Broad - Minded أي واسع أو شامل في تفكيره. ينظر إلى كل أمر من زواياه المتعددة. ولا ينحصر مطلقاً في زاوية واحدة لا يتعداها..! وهذا ما يتعب الإنسان الضيق في فكره..

فالإنسان الواسع العقل يكون ذكياً في حساباته، يعمل حساباً لكل صغيرة وكبيرة، وينظر إلى النتائج المحتملة إيجاباً أو سلباً.

وهكذا فالإنسان الذكي يعمل حساب ردود الفعل لكل تصرفاته...

فلا يكفي مثلاً أن يقول كلمة يرى أنها حق وصدق، إنما يتأكد من ردود فعلها وكيف يفهمها غيره، وماذا تكون النتيجة. وهكذا حينما يصارح أو يعاتب...

*** أنواع ودرجات الذكاء:**

هناك ذكاء بالفطرة، بالموهبة أو بالوراثة. وُلد فيه الإنسان هكذا ولا فضل له فيه. وقد تكون كل أسرته بهذا الذكاء أيضاً.

وهناك ذكاء يسمونه بالحاسة السادسة. وهو يحتاج إلى تفاصيل وشرح.

على أنه هناك **ذكاء مكتسب. أو نقول بدقة أكثر "تنمية الذكاء"**. ويكون ذلك بتداريب كثيرة على ذلك، مثل المتدرب على حل الألغاز أو حل المشكلات، والتمرينات التي

يتدرب عليها الطلبة في علمي الهندسة والجبر. وقد يأتي ذلك أيضاً بقراءة قصص الأذكياء، وبمعاشرة الأذكياء والحكماء وكبار السن وذوى الخبرة.

وفي درجات الذكاء يمكن أن نذكر الذكي intelligent واللامع الذكاء Brilliant . والعبقري أو النابغة Genius. وكل من هؤلاء له أوصاف ودرجته وقدراته.

* * * *

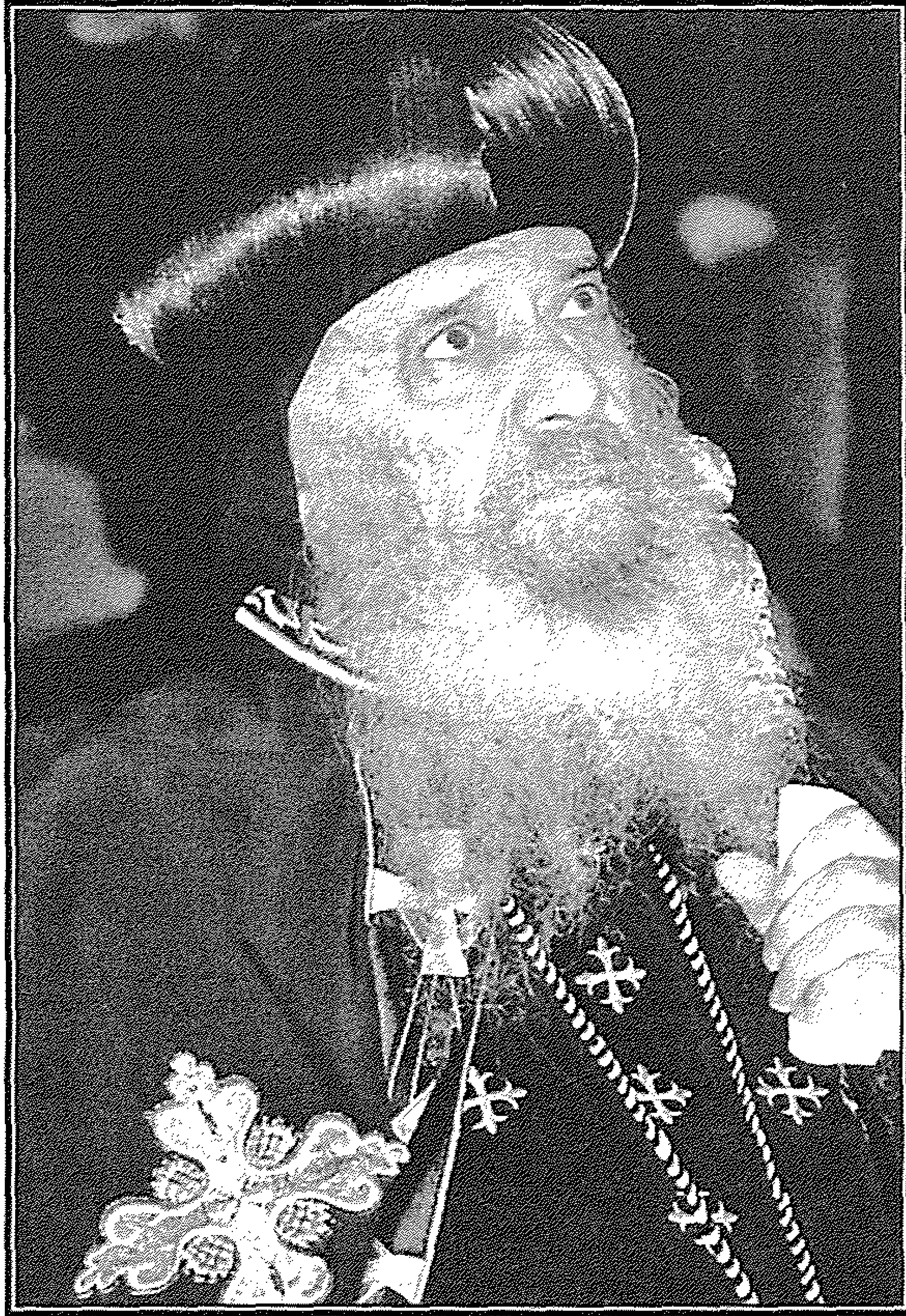
بقي أن أتحدث عن عناصر أخرى في موضوعنا هى:

١- علاقة الذكاء بالحكمة وبالمعرفة والمؤثرات الخارجية.

٢- الاستخدام الجيد للذكاء والاستخدام الرديء.

٣- العوائق التي تقف أمام الذكاء فتمنع استخدامه.

فإلى اللقاء في العدد المقبل إن أحيتني نعمة الرب وعشنا.



٤ مارس ٢٠٠٧

الذكاء
استخدامه، وعوائقه

إذا استخدم الذكاء في حكمة، كان بركة عظيمة لصاحبه ولكل المتعاملين معه. وإذا أُسيء استخدامه ينتج عنه شرّ وضرر. مثله مثل المال، والوقت، وبعض المخترعات: على حسب استعمالها، تكون النتيجة خيراً أو شراً..، هكذا الذكاء...

فالذكاء من جهة الخير:

* هو سبب نجاح الإنسان وسبب تفوقه، سواء في الدراسة أو العمل أو أي مشروع يقوم به، وهو أيضاً سبب نجاحه اجتماعياً في علاقته مع الآخرين. وبالذكاء يمكنه أن يخرج من أي مأزق، وأن يحل أي مشكلة تحل به.

* والذكاء مصدر كبير لروح الفكاهة والدعابة والترفيه. وكل الذين اتصفوا بخفة الروح كانوا أذكياء، ويتقنون كيف يستخدمون الكلمة الواحدة بأكثر من معنى، ويدركون العنصر الذي تتأثر به نفوسهم ويثير فيها روح المرح والبهجة..

* والذكاء يصلح أيضاً في الدفاع عن النفس والدفاع عن الغير. وهو لازم لمن يعملون في مجال المحاماة وفي مجال التقاضي.

* والذكاء يصلح جداً للعاملين في التحقيقات وفي الأمن. وبه يكتشفون الجريمة ومرتكبيها، كما يكتشفون خداع من يفكر بينما هو المرتكب الحقيقي للجرم... بل الذكاء أيضاً لكل من يدير عملاً ويراقب سير الأمور فيه.

* والذكاء نافع أيضاً لأن يتعرف به الإنسان على حقيقة ذاته وأسباب أخطائه وطرق مقاومتها. والإنسان الذكي لا تخدعه حيل الشياطين في إسقاطه. بل هو أيضاً لازم لمن يعمل في مجال الإرشاد الروحي، به يدرك عمق الحروب الروحية وطرق مقاومتها...

* والذكاء نافع جداً في كسب ثقة الناس واحترامهم. وكل الناس يعجبون بالإنسان الذكي، ويرحبون بصداقته وبالعمل معه...

* وإن كان الجمال سلاح المرأة ومصدر إعجاب الناس بهـا، فـإن الـذكاء كثيـراً ما يكون سلاح الرجل ومصدر التفاف الناس حوله. وهو الذي يرشحه لكثير من الوظائف والمناصب، ويفسح له مجالاً في العمل الاجتماعي.

****

ولكن الذكاء - للأسف - يُستخدم أحياناً بطريقة سيئة...

* فقد يتحول إلى لون من المكر والدهاء.

* وما أسهل أن يُستخدم الذكاء في الغش وفي التزوير، وفـي تلفيـق الـتهم علـى الأبرياء، وفي نهب الآخرين والسطو على حقوقهم.

* والمعروف أن أشهر قادة العصابات كانوا أذكياء. وكذلك كل من يقومون بأعمـال التخريب وبأنواع شتى من الجرائم والنصب والاحتيال...

* وبالاستخدام السيئ للذكاء يمكن خداع البسطاء. وكلما اشتد ذكاء أولئك الأشـرار يمكنهم أن يخدموا الكبار أيضاً... والبعض منهم يلتصقون بأصحاب المناصب الكبيرة لكي يعملوا من خلالهم، إذ يشعرونهم أنهم أكثر الناس إخلاصاً لهم، وأنهم يقـدمون النصـيحة النافعة، وبهذا ينالون ثقتهم ويورطونهم في أمور تضرهم...

* والذكاء السيئ يمكنه أن ينشر الشائعات المغرضة، ويسبكها حتـى تبـدو وكأنهـا حقيقة يصدقها الغير...

* وإذا استخدم الذكاء السيئ في مجال السياسة أو في الحـروب، أو خـداع الأمـم الضعيفة، فإنه يكون ويلاً لها...

* والذكاء السيئ يمكن أن يُستخدم في الجاسوسية بتمثيل ذكاء يستطيع به الجاسـوس أن يتنكر أو يتخفي تماماً، ولا يسمح بمجال للشك فيه...

* ويعوزنا الوقت أن نتحدث عن ألوان الاستخدام السيئ للذكاء..

****

الفرق بين الذكاء والحكمة:

الذكاء يظهر في التفكير العقلي السليم، والحكمة تظهر في التصرف الحسـن. وقـد يجتمعان معاً: فالإنسان الحكيم يكون ذكياً. ولكن ليس كل ذكي يكون حكيماً في تصرفاته، إذ تقف أمامه عوائق معينة تعطل هذا الذكاء في عمله.

ومن أجمل ما قيل في الحكمة والذكاء، قول الشاعر:

إذا كنـــت فـــي حاجـــةٍ مرســـلاً .. فأرســـل حكيمـــاً ولا توُصـــهِ
وإن بـــاب أمـــر عليـــك التـــوى .. فشـــاور لبيبـــاً ولا تعَصـــهِ

****

فما هى الأمور التي تعوق الذكاء، وتفقده الحكمة في التصرف؟

* ربما يكون إنساناً ذكياً، ولكنه قليل المعرفة. يقع في أخطاء بعيدة عن الحكمة فـــي التصرف، وتُسمى "خطايا الجهل". وقد يوجد إنسان آخر كثير المعرفة عن طريق قـــراءة واسعة في الكتب، ولكنه ليس ذكياً، ويلقبونه بالإنجليزية Bookish مـــن قـــراءة الكتـــب بلا فهم أو بلا حكمة. فالكتب بالنسبة إليه طلاء خارجي لشخصية فارغة من الداخل..!

* وربما يفقد الذكي الحكمة، إن كان غضوباً أو متوتر الأعصاب، أو في حالة نفسية سيئة لا تساعده على التفكير. لذلك فإن العقل يتعطل عن قيادة تصرفاته، وتتولى قيادتـــه الأعصاب فيخطئ...

* وقد يوجد إنسان ذكي، ولكنه شهواني. وحينما تسيطر عليه الشهوة، لا تترك مجالاً للعقل لأن يعمل. وحينئذ تقوده الشهوة، ويقع في أخطاء وفي خطايا بعيـــدة تمامـــاً عـــن الحكمة على الرغم من ذكائه! أو قد يستخدم ذكاؤه في تنفيذ شهواته، غير حاسب نتائج كل ذلك... وربما تكون الشهوة شهوة المال، أو شهوة الشهرة، أو شهوة الســـلطة، أو شـــهوة الجسد... وأياً كان نوعها، فإنها تعطل عقله عن العمل السليم وعن التصرف الحكيم...

* وربما يكون الذكي سماعاً، أي يتأثر كثيراً بما يسمع، ويصدقه، ويثق بما تصل إليه من معلومات، وما أكثر ما تكون خاطئة. ولكنه يبني قراره حسب ما يسمعه، ولا يكـــون قراراً حكيماً.

* وربما يساعده على هذا السلوك غير الحكيم، أنه ليس لديه وقت لفحـــص الأمـــر ودراسته، فيتخذ قراراً خاطئاً بسبب سرعة البت في الأمور. ويشبه الوقوع في مثل هـــذا الخطأ: الذكي ولكنه مندفع بطبعه. وبالمثل الإنسان الشديد الحساسية...

ومن هذا كله نرى أن نوع النفسية تؤثر على استخدام الذكاء، أو تعوق استخدامه أحياناً...

* فقد يكون الإنسان ذكياً، ولكنه مستعبد من عادة رديئة تسيطر عليه، وتخضعه لحكمها، فيتصرف تصرفات خاطئة. إذ قد توقف العقل بكل ذكائه، وتولت العادة دفة القيادة...

* أو قد تقوده مشاعر الحقد، أو الحسد، أو الغيرة، أو الغرور. وتدفعه بعيداً عن الحكمة، ويستسلم ذكاؤه لتلك المشاعر فيخطئ ويرتكب ما لا يمكن أن يفعله إنسان حكيم..!

حقاً أن الإرادة قد تقف ضد الذكاء. وإذا سيطرت، لا يكون الإنسان وقتذاك في كامل عقله ولا يتصرف بذكاء! وهكذا يفعل ما يضر نفسه، سواء كان يدرى ذلك أو لا يدرى.

****

نقطة أخيرة أقولها قبل أن أختم هذا الموضوع وهى:

متاعب الذكاء:

* كما أن الذكاء له منافع، له أيضاً متاعب!

منها أن الذكي قد يظن غيره على نفس الدرجة من الفهم، وقد لا يكونون ذلك. فيتضايق إن لم يفهموا ما يريده منهم، أو ما يريده لهم. وربما تتعب أعصابه، ويتضايق بسبب ذلك، ويثور أو يحزن، لأنه كان يتوقع غير ما يحدث..!

* أو قد يعتمد شخص على ذكائه، فلا يعمل ما ينبغي له أن يعمل، وذكاؤه وحده لا يكفي. فتكون النتائج سيئة..

* أو قد ينحرف اتجاه الذكاء - فكراً وليس عملاً - ويستخدم كل طاقاته في الانحراف الفكري. ومثال ذلك بعض الفلاسفة الملحدين، كان لهم نشاط عقلي كبير، ولكنه انحرف فوقع في ضلال وأوقع غيره معه. وهكذا أصحاب البدع أيضاً...

١١ مارس ٢٠٠٧

فضيلة ضبط النفس

يقول سليمان الحكيم: "مالك نفسه خير ممن يملك مدينة" فمن ذا الذي يملك نفسه. إنه الذي يستطيع أن يراقب نفسه ويحكمها...

ولا شك أن ضبط النفس يشمل عناصر كثيرة: منها ضبط اللسان، وضبط الفكر، وضبط الفكر، وضبط الحواس، وضبط الفم من جهة الأكل، وضبط الرغبات والشهوات، وضبط الأعصاب في حالة الغضب، وضبط باقي التصرفات.

والذي لا يستطيع أن يضبط نفسه بنفسه، يحتاج إلى من يضبطه. وربما يعرض نفسه لمن يعاقبه..

****

ضبط اللسان:

يقول الحكيم: "كثرة الكلام لا تخلو من معصية. أما الضابط شفتيه فعاقل". وقال آخر: "كثيراً ما تكلمت فندمت. وأما عن السكوت فما ندمت قط".

والذي يضبط لسانه ينجو من خطايا عديدة: فلا يقع في إهانة الآخرين بالشتيمة أو بالتهكم القاسي، أو التهديد، أو التعالي عليهم...

ولا يقع في الكذب ولا المبالغة، ولا التجديف ولا القَسَم الباطل، ولا في كلام المجون، ولا في الثرثرة. ولا في الافتخار والتباهي والبر الذاتي. ولا في مسك سيرة الناس، ولا في الغيبة، ولا في الوقيعة. ولا في التملق والرياء، وخداع الآخرين، مع جمهرة أخرى من الأخطاء...

وما أعمق عبارة "إذا سكت الجاهل، يُحسب حكيماً".

إن الكلمة الخاطئة التي تقولها تُحسب عليك، مهما اعتذرت عنها...

فما دمت قد لفظتها ووصلت إلى آذان الناس وإلى أذهانهم ومشاعرهم، لم تعد ملكاً لك وحدك، بل أصبحت ملكاً لغيرك: يحلّلها ويحكم عليها.. بينما كنت أنت الذي تحكم عليها قبل أن تقولها. فأصبحت هى التي تحكم عليك، لأنك بكلامك تُدان...

* وضبط الشفتين له فوائد كثيرة: منها أن الإنسان يُعطي نفسه فرصة للتروي والتفكير قبل أن يتكلم، ويأخذ أيضاً فرصة لانتقاء الألفاظ واختيار الكلمة المناسبة، وحساب ردود الفعل لكل كلمة يقولها...

وما أجمل قول الشيخ الروحاني: "سكّت لسانك لكي يتكلم قلبك".

وخذها نصيحة: ليس كل ما تسمعه، تردده على آذان غيرك. وإلا فإنك تجلب لهم أفكاراً هم في غنى عنها. وأخطر من ذلك أنك تكتب ما كنت تقول. فإن ما تكتبه يصير وثيقة عليك.

****

ضبط الفكر:

هو أن يحرس الإنسان أفكاره، ولا يقبل كل فكر يرد إلى ذهنه، ويكون حريصاً على أن تكون أفكاره نقية طاهرة. وإن وصل إليه فكر خاطئ، يحذر من التمادي فيه والتعامل معه، وإنما يطرده بسرعة لئلا يسيطر عليه ويتحول إلى مشاعر في قلبه...

إذن كن حذراً يا أخي من أفكار الغضب والانتقام والشهوة، ومن أفكار الحسد والغيرة والحقد، ومن أفكار الكبرياء والافتخار وتمجيد الذات. ومن كل أفكار الشر والأباطيل وكل فكر لا يمجد اللَّه.

وإن لم تقدر على ذلك، تذكر المثل الذي يقول: "إن كنت لا تستطيع أن تمنع الطير من أن يحوم حول رأسك، فعلى الأقل لا تجعله يعشش في شعرك".

لذلك لا تستبقِ في داخلك فكراً خاطئاً. وحاول أن تشغل ذهنك باستمرار بأفكار نافعة، حتى إن حاربك الشيطان بفكر، لا يجدك متفرغاً له.

وهناك وسيلة أخرى لحفظ الفكر وهى ضبط الحواس.

****

ضبط الحواس:

الحواس هى أبواب الفكر، فاحرس هذه الأبواب.

اضبط السمع والنظر واللمس، حتى لا تُدخل إليك فكراً خاطئاً. ولتكن حواسك طاهرة. وما يصل إلى حواسك بدون إرادتك، لا تفكر فيه، ولا تعد إليه بإرادتك. فمثلاً قد

تكون النظرة الأولى مصادفة وغير مقصودة، ولكن معاودة النظر تكون بلا شك بإرادتك، وتحاسب عليها إن كانت تجلب إليك فكراً رديئاً.

واعرف أن حواسك ليست فقط تجلب إليك أفكاراً، وإنما أيضاً قد تترسب في عقلك الباطن، وتتحول إلى أحلام وظنون...

إذن فضبط الحواس يساعد على نقاوة الأفكار، ونقاوة الأحلام والظنون. وهو يساعد كذلك على نقاوة المشاعر...

****

ضبط المشاعر:

إن وجدت شعوراً خاطئاً قد زحف إلى قلبك، فلا تتجاوب معه، بل حاول أن تتخلص منه بسرعة قبل أن يرسخ فيك. وباستمرار احتفظ بنقاوة قلبك. ولا تستسلم لأية شهوة أو رغبة خاطئة، بل قاومها...

وإن دخل الشعور الرديء إلى قلبك، فلا تجعل الأمر يتطور معك إلى ما هو أسوأ، أو يؤثر على إرادتك ويتحول إلى عمل...

وإن تدرجت إلى مرحلة العمل، فاضبط نفسك ولا تجعل العمل الخاطئ يتحول إلى عادة ويسيطر عليك.

ولا تسمح أن تكون مشاعرك حرة طليقة بلا قيد أو ضبط.

وإنما اضبط نفسك من جهة استخدام الحرية. ولتكن حريتك منضبطة.

لتكن حرية طاهرة، لا تفعل فيها ما لا يليق. ولتكن حرية مسالمة وعاقلة، لا تتعدى فيها على حريات الغير، ولا على حقوق الغير، ولا على النظام العام أو القانون...

والحرية الحقيقية هى أن يتحرر قلبك أولاً من كل خطأ. وحينئذ يمكنك أن تستخدم حريتك الخارجية في حكمة وسلام.

****

ضبط الأعصاب:

الإنسان القوي يستطيع أن يضبط أعصابه، وبخاصة في حالة الإثارة وتحريك الغضب. وهكذا يضبط نفسه من جهة الاندفاع والتهور، ومن جهة اتخاذ أي قرار سريع وهو في حالة انفعال...

وإن وجد نفسه منفعلاً، يحرص على أن يضبط لسانه، وبقدر إمكانه يضبط ملامحه أيضاً، ويضبط حركاته. ولا يسمح لنفسهِ أن لا يخطئ في حق غيره مهما أخطأ ذلك الغير في حقه. لأن الخطأ لا يجوز معالجته بالخطأ.

****

الضبط الخارجي:

الإنسان الذي لا يضبط نفسه بنفسه، قد يُرغم على الانضباط من الخارج، بغير إرادته. كابن لا ينضبط من تلقاء ذاته، فيضبطه التأديب وتربية والديه له. أو أي إنسان يرغمه على الانضباط: القانون والعرف والعقوبة.

أو إنسان يضطر إلى الانضباط عن طريق الخوف، أو بدافع الخجل من الناس، أو خشية الانكشاف أو الفضيحة.

أو شخص لا يضبطه نقاء قلبه، إنما وجود موانع تعوقه، أو عدم قدرة منه، أو أن الفرصة غير سانحة، أو لمقاومة آخرين له... وكلها أسباب غير روحية، ولا تنبع من داخله

****

أما الشخص الروحي فينضبط من الداخل بإرادته، حباً منه للخير، وحرصاً منه على إطاعة اللّه، وتقويماً منه لإرادته الخاصة..

وانضباطه الداخلي - في قلبه وفكره - يساعده على الانضباط من الخارج أيضاً. ويكون انضباطه الخارجي تعبيراً عن داخله أيضاً..

على أنه باستمرارية الانضباط الخارجي، سواء كان الإنسان مرغماً عليه من الخارج، أو أنه يغصب نفسه على ذلك، فبهذا الاستمرار يتعود الإنسان أن يكون منضبطاً..

١٨ مارس ٢٠٠٧

الهدوء
تاريخه وعناصره وأنواعه

تاريخ الهدوء:

الهدوء هو الأصل في هذا الكون. وهو الأصل قبل خلق هذا الكون أيضاً. كان اللَّـه وحده منذ الأزل، في هدوء كامل. ومرّت ملايين السنوات أو ملايين الملايين، بل ما هو أكثر. بل قبل أن يوجد الزمن، وقبل أن تُعرف مقاييسه... والهدوء هو الأصل.

ثم بدأ اللَّه يعمل كخالق، وخلق كل شيء. وهكذا "في البدء خلق اللَّـه السمَوات والأرض". وتمت قصة الخلق في هدوء. خلق اللَّه الكون. وعاش الكون في هدوء. وكمثال لذلك كانت الأجرام السمائية تتحرك في الفلك، بكل نظام ودقة، وبكل هدوء، بدون اضطراب. نهار يعقبه ليل، وليل يعقبه نهار. لا ضجيج ولا صراع...

****

إذن متى بدأ الكون يفقد هدوءه؟

كان ذلك بعد أن خلق اللَّه مخلوقات عاقلة، ذات إرادة حرّة.. ومرّت على هذه الكائنات العاقلة فترة وهى هادئة: ليس من يتشاجر، ولا من يتخاصم، ولا من يحتج، ولا من يخالف أو يعصي، ولا من يثير مشكلة أو اضطراباً بأية صورة من الصور.

وكان أول فقد للهدوء سببه الشيطان...

وسقط الشيطان وهوى، وتبعته مجموعة من أتباعه.

ومن جهة البشر: عاش الإنسان أولاً في هدوء. حتى الوحوش كانت تحيا معه في هدوء. لا عداوة بينه وبينها. لا هى تفترسه ولا حتى تهجم عليه. ولا هو يصيدها أو يطاردها أو يخافها. بل تجمعه معها رابطة من الألفة والمعيشة المشتركة الهادئة. وكما كان الأمر مع أبينا آدم، كان نفس الوضع مع أبينا نوح في الفلك. فالوحوش المفترسة في أيامنا، لم تكن مفترسة في أيام آدم.. وما كانت تفترس حيواناً أضعف منها...

على أن الإنسان الأول أخطأ وطُرد من الجنة. وسجّل لنا الكتاب كيف أن أخاً قتل أخاه. ثم امتلأت الأرض شراً وضجيجاً...

****

غير أن هذه الفترة الصاخبة، التي تعيشها البشرية على الأرض، لا تقاس إطلاقاً بالهدوء الشامل الذي كان منذ الأزل، والذي سيكون في الأبد إلى ما لا نهاية...

إنها نقطة مضطربة في بحر الهدوء اللانهائي.

ولعل الملائكة ينظرون إلى عالمنا في تعجب. ولعلهم يقولون: لماذا الضجيج في هذا الكوكب؟ ولماذا يعيش الناس في صخبٍ هكذا؟ متى يهدأون؟! ويقيناً إنهم لن يهدوأ إلا إذا وصلوا إلينا. لأن الهدوء هو منهج الحياة في السماء..

****

عناصر الهدوء:

ما هو الهدوء؟ وما عناصره؟ وما نتائجه؟

وما الفضائل التي ترتبط بالهدوء، وتُفقد بفقده؟

وكيف يمكن للإنسان أن يحصل على الهدوء، ويستمر فيه؟

إن الهدوء يشمل حياة الإنسان كلها، في الداخل والخارج، ما ظهر منها وما استتر. وهكذا يشمل:

١- الهدوء الداخلي: ويشمل هدوء النفس، وهدوء القلب، وهدوء الفكر.

٢- هدوء الجسد: ويشمل هدوء الحواس، وهدوء الحركات.

٣- هدوء الأعصاب: ويشمل روح البشاشة، وهدوء الملامح أيضاً.

٤- هدوء الكلام: ويشمل نوعية الكلام وطريقته، وهدوء الصوت.

٥- هدوء التصرف: ويشمل الهدوء في الحياة العملية، والسلوك الخاص.

وأيضاً هدوء الحلول فيما يصادف الإنسان من مشاكل.

وتتعلق بكل هذه الأنواع أمور أخرى منها:

أ- هدوء الطبيعة، وهدوء المكان، وهدوء المسكن.

ب- فضائل ترتبط بالهدوء.

ج- طبيعة الهدوء، وهل هو هدوء حقيقي، أم مجرد مظهر هادئ، أم هدوء مؤقت، أوانه لم يُختبر بعد؟؟

****

الهدوء الحقيقي:

١- لا يمكن أن نحكم على إنسان بأنه هادئ، إلا إذا حدث اختبار لهدوئه...

فقد يبدو الإنسان هادئاً، لأن الظروف الخارجية التي حوله هى الهادئة، ولم تحدث مشكلة أو إثارة تختبر هدوءه. وربما لو اصطدمت به، يظهر على حقيقته إن كان هادئاً أم لا...

أي إن اصطدم مع شخص آخر في الرأي أو في التصرف. أو إن أصابته إهانة أو أذى، أو تعّرض لكلمة جارحة... حينئذ يمكن من تصرفه أن نحكم على حقيقة أو مدى هدوئه.

ونفس الوضع إن وقع في مشكلة ما، أو في ضيقة، أو تعرّض لمرض، أو واجهته صعوبة ما... فإن ذلك يكون اختباراً لنفسيته، واختباراً لأعصابه: كيف يسلك ويتصرف، وهل يفقد هدوءه وينزعج؟ أم يحتمل ويحل المشكلة في هدوء؟ هذا هو أول اختبار للهدوء الحقيقي، لأن كل إنسان يمكنه أن يكون هادئاً في الظروف الهادئة.

٢- أما الاختبار الثاني، فهو مدى الاستمرار في الهدوء...

فالهدوء الحقيقي هو هدوء دائم، كشيء من الطبع. فلا يهدأ الإنسان إلى فترة معينة، ثم يفقد بعدها هدوءه، ويتغير سلوكه أمام المشاكل!!

إنما هى الطبيعة الهادئة التي تستمر في هدوئها، مهما طال الزمن وتغيّر الحال. الإنسان الهادئ بطبعه لا تغيّره المشاكل والاصطدامات، بل على العكس تظهر ما عنده من رحابة الصدر ومن وداعة وطيبة القلب.

٣- والهدوء الحقيقي ليس هو الهدوء الظاهري، بل الداخلي...

فلا يكون الشخص هادئاً من الخارج فقط، بينما في داخله بركان ثائر!! بل على العكس يكون هدوئه الداخلي هو منبع وسبب هدوئه الخارجي.

٤- وهناك فرق بين الهدوء الحقيقي، والهدوء الذي قد يكون مثيراً..!

وذلك لأنه يحدث أحياناً أن شخص قوي الأعصاب يمكنه أن يحتمل زميلاً منفعلاً، ويردّ عليه بهدوء شديد أو ببرود شديد بأسلوب يثير أعصابه بالأكثر. فيزداد انفعاله، ويقابل هو هذا الانفعال بمنتهى الهدوء أو البرود، متفرجاً عليه، وجاعلاً منه مجال نقد من الحاضرين!

كلا، ليس هذا هو الهدوء بمعناه الروحي السليم. فالإنسان الروحي لا يحطم غيره بهدوئه. فأخوه المنفعل هو وديعة في يديه، يحافظ على أعصابه وعلى سمعته. ويحاول أن يوصّله إلى الهدوء هو أيضاً والإنسان المحب للهدوء لا يكون فقط هادئاً، وإنما أيضاً مهدئاً. وإن وجد غيره هائجاً، يهدئه بالجواب الليّن..

٥- والإنسان الهادئ إما أن يكون قد وُلِدَ هكذا، أو يكون الهدوء عنده مكتسباً...

والهدوء المكتسب يحتاج إلى جهد، وإلى تدريبات نود أن نعرض لها فيما بعد. وكل جهد في الوصول إلى الهدوء، له مكافأته وأجره... والذي يصل إلى الهدوء بالتدريج والتدريب والجهد، لا يعود يبذل فيما بعد جهداً، بل يكون راسخاً في حياة الهدوء، وله في ذلك خبرات. ولذلك فإنه يحافظ على هذا الذي اقتناه بتعب وبمعونة كبيرة من النعمة...

وأنت - يا أخي القارئ - إن كنت غير هادئ بطبيعتك، فلا تقل لا شأن لي بالهدوء. لقد وُلدت وطبيعتي هكذا!

حتى إن كنت قد وُلدت هكذا، فليس هذا عذراً. يمكنك أن تتغير، وتجاهد لكي تقتني الهدوء. ولكي تصل إلى ذلك: عليك أن تقتنع بأهمية الهدوء، وبفائدته لك ولمن تتعامل معهم. وتقتنع أيضاً بأن هناك فضائل تتعلق بالهدوء، من صالحك أن تقتنيها...

ولكي أحدثك عن كل هذا، أرجو أن يسمح لنا بفرصة في المقال التالي لنتابع حديثنا، إن أحببت نعمة الرب وعشنا.

٢٥ مارس ٢٠٠٧

فوائد الهدوء
والفضائل المرتبطة به

فوائد الهدوء:

* الهدوء يُريح الأعصاب، ويساعد الفكر في عمله. وفي الهدوء يمكن للإنسان أن يحل مشاكله، بأعصاب غير مضطربة وفكر غير مشوش.

وفي التعامل مع الناس، الطريقة الهادئة أكثر تأثيراً في النفس وتأتي بنتائج مقبولة، بعكس الطرق العنيفة التي تأتي بردود فعل سيئة. لذلك فالإنسان الهادئ محبوب من الناس، يساعدهم هدوءه على قبول كلامه.

وفي الحياة العملية الشيء الذي يُعمل في هدوء، يأتي بنتائج أفضل..

* غير أن بعض الناس طبيعتهم نارية. أينما يحلّ الواحد منهم، يحلّ معه التوتر والغليان، ويسبقه ضجيجه. هو عبارة عن شعلة متقدة، حيثما ألقيت أشعلت وأحرقت، وتفجّر منها الشرار. والشخص الناري نظراته من نار، كلماته قذائف، وطلباته أوامر لا تقبل التأجيل.

هذه الطبيعة الثائرة، إن وجدت هادئاً تثيره. أما الطبيعة الهادئة فإن وجدت ثائراً تهدئه.

****

* الشخص الهادئ الأعصاب لا ينفعل بسرعة. وربما لا ينفعل أيضاً ببطء. إنه كالجبل الراسي، تعصف به الرياح وهو راسخ. أو هو كالجنادل الستة التي تعترض النيل في أقصى الجنوب، مهما عصفت بها الأمواج تبقى هادئة في مكانها، لا تتأثر ولا تتزحزح...

أما الإنسان الثائر الأعصاب، فأنه ينفعل بسرعة ويثور ويصخب، وربما لأتفه الأسباب أو بغير ما سبب. لمجرد شكوكه الداخلية وتصوراته!

بعكس الإنسان الهادئ، فهو قوي، تعجز الأسباب الخارجية عن أن تثيره.

بل تستطيع أعصابه القوية أن تصمد أمامها. وهكذا ينال إعجاب الناس. بينما الثائر الصاخب: مهما ثار وضج، وشتم وهدّد، وبدأ وكأنه يخيف غيره، فإنه لا ينال احترام أحد. ثورته تدل على ضعفه وعلى عدم قدرته في ضبط نفسه...

****

* الشخص غير الهادئ نفسياً، يضع هموم الدنيا كلها فوق رأسه. ويتعرض بذلك لمشاكل كثيرة: فيفقد سلامه الداخلي، ويقع في الاضطراب والقلق وما في ذلك من أتعاب، وربما يقع كذلك في الكآبة والحزن والارتباك. وقد يصاب نتيجة لذلك بأمراض عديدة جسدية ونفسية. إنه يضر نفسه صحياً وفكرياً واجتماعياً. ويفقد شخصيته واحترام الناس له. إنه يغضب منهم يغضبون عليه. وإن ثار عليهم، ما أسهل أن يعاملوه بالمثل، فيفقد صداقتهم ومحبتهم، وقد يتعرض لعداوتهم.

* غير الهادئ: أقل كلمة تعكره، وأقل تصرف يثيره. وربما تحاربه رغبة في الانتقام وفي الدفاع عن نفسه، وفي إثبات وجوده وحماية كرامته. فيثور ولا يصل إلى نتيجة، بل تسوء حالته. وفي كل حال يخسر المواقف، وتُمسك عليه أخطاء...

****

* أما الإنسان الهادئ، فإنه بالجواب اللين يصرف الغضب، ويمكنه أن يهدئ مناقشه مهما كان ثائراً...

ودائماً الإنسان الهادئ هو الأقوى... لأنه استطاع أن يتحكم في أعصابه وفي ألفاظه. ولأنه ارتفع فوق مستوى الإثارة فلم تقوَ عليه. وأيضاً لأنه - في هدوئه - يمكنه أن يتحكم في الموقف، وأن يدير الحوار بغير انفعال.

* انظروا إلى السماء في هدوئها. وكذلك الملائكة وكيف ينفذون أوامر اللّه في هدوء عجيب. وكيف يعلمون في حراستنا وحفظنا بهدوء كامل حتى أننا لا نشعر بهم ولا بعملهم...! وانظروا أيضاً كيف كان الشهداء هادئين أثناء استشهادهم، يستقبلون الموت في هدوء وبكل فرح، لملاقاة الرب...

****

* أيضاً القلب الهادئ يتمكن من العمل الروحي، في الصلاة والتأمل والقراءة والتسبيح. أما إذا فقد القلب هدوءه، فإنه لا يقدر على التأمل. وإن حاول الصلاة تسرح

أفكاره وتطيش. وإن قرأ كتاباً لا يمكنه أن يركزّ ويفهم ويتابع... لأجل كل هذا كان النُساك والرهبان يبحثون عن الهدوء والسكون. لأنه في الجو الهادئ، وفي المكان الهادئ، البعيد عن الصخب والضوضاء، يمكنهم أن يمارسوا عملهم الروحي...

****

فضائل ترتبط بالهدوء...

*** الهدوء له علاقة بالمحبة، يأخذ منها ويعطيها:**

فالإنسان المحب يكون هادئاً في علاقته مع الناس. لا يثور عليهم، ولا يمتد ولا يشتد. أما الكراهية فإن دخلت إلى قلب شخص، تكون كالبركان الثائر الذي لا يهدأ. تريد أن تنتقم وأن تحطم. ولا تهدأ حتى تنفذ ما تريد، وتنفّس عما في داخلها.

والعالم يحتاج إلى الحب والهدوء، لكي يحل مشاكله. يحلها بالتصالح وليس بالتصارع. ففي الهدوء وبالهدوء، يمكن أن يتلاقى الناس مهما اختلفت أفكارهم، ليحلوا مشاكلهم في هدوء الحوار المشبع بالحب.

أما إن اختفى الهدوء، فإن الحب يختفي معه. إذ لا تبقى المحبة مع التشويش والصخب والضوضاء، والحدة في الصوت، والشدة في التصرف...

****

*** لهذا ترتبط فضيلة الهدوء بفضيلة السلام أيضاً...**

فالإنسان الهادئ يكون على الدوام مسالماً. كان أن المسالم يكون بطبيعته هادئاً. الهادئ لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. لذلك يعيش مع الناس في سلام، لأنه لا يتشاجر مع أحد، ولا يحلّ مشاكله بالعنف، بل بالهدوء.

إن السلام قد يُفقد بين عنيف وعنيف. ولكنه لا يُفقد بين عنيف وهادئ. لأن الهادئ يحتمل العنيف. كما أن النار لا تطفئها النار، بل يطفئها الماء... فإن كان الهادئ يستطيع بهدوئه أن يطفئ نار العنفاء. فكم بالأولى يكون السلام بين اثنين هادئين. كذلك فإن الهدوء مظهر يعبرّ عن السلام الداخلي في الشخص الواحد.

****

*** والعلاقة بديهية بين الهدوء والوداعة:**

لأن الهدوء هو فرع من فروع الوداعة، حتى أن اسميهما يتبادلان المواقع. فحينما نتكلم عن الهادئ نتكلم عن الوديع. وحينما نتكلم عن الوديع نتكلم عن الهادئ. والذي يفقد هدوءه، بلا شك يفقد وداعته...

****

*** هناك علاقة أيضاً بين الهدوء والعمق:**

فالإنسان الهادئ يمكنه أن يصل إلى العمق. ومن يصل إلى العمق، يصير عميقاً. وهنا يحضرني عبارة قالها أحد الآباء الأدباء الروحيين وهى:

"عندما رمى بي اللَّه حصاة على بحيرة الحياة، أحدثت فقاقيع على سطحها ودوائر لا حصر لها. ولكنني حينما وصلت إلى القاع صرت هادئاً".

حقاً إن السطحيين يحاولون أن يحدثوا فقاقيع على سطح الحياة ودوائر لا حصر لها. ولكنهم إن وصلوا إلى العمق يصيرون هادئين... وهكذا من يصل إلى نضج الحياة وإلى عمق الفكر وعمق الروحيات.

أما الإنسان السطحي غير العميق، فلا يكون هادئاً، بل يجول باحثاً عن ذاته، أو محاولاً أن يُحقق ذاته، هنا وهناك.

****

*** والهدوء يتعلق أيضاً بالإيمان والتسليم:**

الذي يحيا حياة الإيمان، يعيش في هدوء قلبي، شاعراً أن حياته في يديّ اللَّه الحانيتين. لذلك لا يقلق أبداً ولا يضطرب. وإن حاقت به مشكلة يثق بأن اللَّه لا بد سيحلها، وينتظر الرب في هدوء. وبالإيمان يقول: "كله للخير". وإن أتعبته الضيقات إلى حين، يقول: "مصيرها أن تنتهي". فيهدأ قلبه ويستقر.

كما أن الذين يحيون في الإيمان، لا يكونون سبباً في تعكير هدوء غيرهم.

١ أبريل ٢٠٠٧

هدوء النفس والفكر

هدوء النفس:

١- هناك أشياء كثيرة تعكر هدوء النفس أحياناً، منها أخطاء الآخرين:

فقد تكون أخطاؤهم مؤذية أو مغلقة أو مثيرة تُفقد الإنسان هدوءه. ربما تصدر منهم حروب أو مضايقات أو معاكسات. وهكذا يمكن فقد الهدوء بسبب جار مشاكس، أو زميل متعب في العمل، أو مدير عنيف. أو بسبب أخطاء الغير التي تسبب ضرراً، أو تُلجئ الشخص أن يكون في حالة حرص مستمر، أو في حالة توتر بسبب ما يتوقعه من مشاكل.

فقد يخرج المدرس عن هدوئه بسبب تصرفات تلاميذه. وقد يفقد الأب هدوءه بسبب أخطاء الابن. وربما تصرفات من بعض أفراد تؤثر على هدوء المجتمع كله.

****

٢- وقد يفقد الإنسان هدوءه بسبب معاشرة غير الهادئين:

فإن عاشر إنساناً مضطرباً أو قلقاً أو خائفاً، ربما تنتقل عدوى أخطاء هذا الشخص إليه، أي ينتقل إليه الخوف أو الاضطراب أو القلق. وبالعكس فإن معاشرة الهادئين تُدخل الهدوء إلى النفس.

إن كثيراً من النواحي النفسية يمتصها الإنسان من غيره، جيدة كانت أم رديئة... لذلك ليس غريباً إن داومت الجلوس في مكان فيه سجن، أن تتجسس نفسك بما تسمعه من أحاديث الناس. وليس بعيداً إن عاشرت إنساناً كثير الشك، أن يسري الشك إلى فكرك وقلبك دون أن تقصد!

****

٣- مما يفقد الهدوء أيضاً، بعض الأخبار ووسائل الإعلام:

* ما أكثر ما تقدمه بعض الفضائيات والصحف وسائر وسائل الإعلام من أخبار مثيره قد تزعج نفسيات الناس، وتؤثر على أفكارهم وأعصابهم. حتى ليظن البعض أن هناك دماراً قد حدث أو كوارث سوف تحدث! وقد تتلاحق هذه الأخبار بسرعة، حتى

ما يفيق الشخص من سماع خبر، إلا ويلاحقه خبر آخر.. وهكذا يعيش البعض في توتر! وهناك صحفيون يرون أن الإثارة هى دليل النجاح في نشر أخبارهم، فيختارون العناوين المثيرة والأخبار المثيرة، بغض النظر عما تحدثه في النفوس، وقد لا تكون صحيحة.

*** ونفس الوضع ينطبق على الأخبار التي يرويها الناس في أحاديثهم.**

أخبار المشاكل والضيقات والآلام والفضائح، سواء على مستوى عام أو على مستوى الأسرة أو الفرد. وهناك من يروى بأسلوب فيه انفعال شديد، ينقله إلى من يسمعه فينفعل بانفعاله..

ويعيش الناس في شدّ وجذب من جرّاء الأخبار المتلاحقة. حتى أن من يريد أن يحيا في هدوء، يحاول أن يبعد عن هذه الأخبار المثيرة..

****

٤- وأهم ما يُفقد الإنسان هدوءه، ما تحدث له من مشاكل:

* فصغار النفوس، أقل مشكلة تزعجهم. أما الكبار فقد يتضايقون إلى حين، إن بدت المشكلة بلا حلّ. فإن وصلوا إلى حل، تهدأ نفوسهم.

الإنسان غير الهادئ قد يقيم الدنيا ويقعدها إن صادف مشكلة. وقد يكون تصرفه في علاجها، هو مشكلة أخرى يسببها وتكون أسوأ مما أراد علاجه!

* والإنسان قد يفقد هدوءه أمام مشكلة خاصة، أو أمام مشكلة عامة، كالمواصلات أو الروتين أو المشاكل الاقتصادية.

****

هدوء الفكر:

الإنسان غير الهادئ، تشغله أفكار كثيرة، تموج وتطيش، وتروح وتجئ، ولا تثبت على حال. فكرٌ يجذبه إلى هنا، وفكر يشده إلى هناك. وذهنه دائم التغير. والأفكار تؤثر على نفسه، فتكون غير مستقرة. وهكذا يحاربه القلق والشك، ويدفعانه إلى الخوف والتردد

**** فالفكر الشكاك القلِق يفقد هدوءه من الداخل:**

ويظل يسائل نفسه في حيرة: هل هو على حق في شكوكه، أم إنها وهم بدافع من الخوف؟ وكيف يمكنه أن يتحقق من ذلك؟ وربما لا يصل إلى حل، وتظل الشكوك تعذبه وتؤرقه، وتختفي أحياناً ثم تظهر. وفي شكوكه ما أسهل أن تسوء علاقته مع الآخرين.

والشك على أنواع: سواء كان شكاً في وقائع أو أشخاص، أو في عقيدة أو في اللَّـــه نفسه. وربما يكون شك الشخص في ما ينتظر مستقبله.. وفي كـــل ذلـــك يكـــون العقـــل مضطرباً، وأفكاره حائرة وغير هادئة.

على أن هدوء القلب قد يجلب هدوء الأفكار. وقد ينجـــوا الشـــخص مـــن شـــكوكه باستشارة بعض الحكماء، وبالصلاة لكيما ينقذه اللَّه من شكه ويكشف له الحقيقـــة، ويُبعـــد عنه الاضطراب والقلق والحيرة

****

**** ومن مظاهر عدم هدوء الفكر: حالة الفكر الطائش الجوّال:**

إن الفكر الهادئ يكون مركزاً، ومستقراً في موضوع تفكيره، وله عمق في التفكيـــر. أما الفكر غير الهادئ، فإنه يجول من موضوع إلى موضوع. ويطيش في أمور متعـــددة، بغير هدف. كالتلميذ الذي تطيش أفكاره أثناء المذاكرة، أو المُصلي الذي تطـــيش أفكـــاره أثناء الصلاة.

وقد قال أحد الآباء: "إن كانت النار طعامها الوقود، فإن الفكر طعامـــه الحكايـــات". فالفكر الطائش غير الهادئ يهوى الحكايات. وينتقل من قصة إلى قصة، ومن خبـــر إلـــى خبر، ومن شخص إلى آخر، دون أن يهدأ، سواء في قراءته أو صلاته أو صـــمته. إنـــه يذكرنا بالشيطان الذي يهوى الجولان في الأرض والتمشي فيها!

****

**** ومن مظاهر عدم هدوء الفكر، حالة الفكر النقّاد:**

ذلك الفكر الذي لا يعجبه أحد، ولا يعجبه شيء. فهو باستمرار ثائر على الأوضـــاع، يرى أن الحق قد ضاع! وهو دائماً ينظر إلى كل الأمور بمنظار أسود. ويهوى أن ينتقـــد كل ما يصل إلى علمه. ولو عن غير معرفة وعن غير دراسة وعن غير فهم لمجريـــات الأمور!! وعلى رأى المثل العربي: "الناس أعداء ما جهلوا".

وهذا الشخص قد يحشر نفسه في ما لا شأن له وبه، ويتحدث بأسلوب الواثـــق فـــي أمور ليست من اختصاصه. ومشكلته أن في قلبه سخطاً أو حقداً، أو أن فيه تذمراً علـــى سائر الأمور، فيصل إلى النقد، ويتباهى بأنه ينقد. بينما يفقد فكر هدوءه. وأكثر من هـــذا، يحاول! إشاعة عدم الهدوء في عقول غيره، ينشر أفكاره الناقدة غير الهادئة.

**** ومن الأفكار غير الهادئة، الفكر اللحوح:**

هذا النوع من الفكر يلحّ على عقل الإنسان إلحاحاً، ويضغط عليه بطريقة متعبة. وإن حاول العقل أن يتخلص منه، لا يستطيع، بل يستمر فيه. وبخاصة ذلك الفكر الذي ينام به الإنسان ويصحو، ويلحّ عليه بلا هوادة ولا راحة، حتى أثناء عمله وأثناء سيره. وأخطر من هذا أن يدفعه إلى التنفيذ بسرعة. ولا يعطيه فرصة لمراجعته!

هذا الفكر اللحوح يفقد الإنسان هدوءه، ويعطله عن أمور أخرى قد تكون هامة جداً. ويضغط على أعصابه ويتلفها، لكيما تحسب أن تنفيذ هذا الفكر هو أسهل وسيلة للراحة منه...

إن الفكر اللحوح هو فكر مشاغب وعنيف، كما لو كان يرغم صاحبه...

****

**** ومن أنواع الأفكار غير الهادئة: الفكر المتقلب:**

ذلك الذي يعرض الشيء وعكسه. وتارة يوافق على أمر ما، وفي وقت آخر يعارضه. ويتحمس للموضوع حيناً، ثم يفتر حماسه! إنه كأمواج البحر، في المدّ والجزر. وهو فكر متردد يسبب لصاحبه القلق وعدم الاستقرار. يذكّرنا بقول الشاعر:

كريشة في مهب الريح طائرةٍ لا تستقر على حالٍ من القلق

أما الفكر الهادئ، فإنه يشبه السفينة التي تشق طريقها في هدوء، في مسار واحد، لا تضطرب فيه، ولا تنحرف يمنة ولا يسرة..

أن الأفكار الهادئة تنبع من قلوب هادئة. بينما الأفكار غير الهادئة تفقد القلب هدوءه. وكذلك القلب غير الهادئ يزعج الأفكار.

٨ أبريل ٢٠٠٧

القيامة العامة يتبعها التمتع بما لا يُرى

أهنئكم يا إخوتي وأبنائي بعيد القيامة المجيد، وبنعمة القيامة التي وهبها لنا اللَّه، لنحيا حياة أخري في الأبدية السعيدة.

وأهنئ الرئيس المحبوب حسني مبارك بالنتائج الموفقة لكل رحلاته لخير مصر، ولصالح الوطن العربي الكبير، راجيا له ولكم كل بركة وخير، وليحفظ اللَّه العالم في أمن وسلام.

وبعد، أود أن أحدثكم في هذا العام المبارك عن جوهر المتعة في العالم الآخر بالقيامة، وهى قول الكتاب المقدس: **"ما لم تره عينٌ، ولم تسمع به أذنٌ، ولم يخطر على بال إنسان ما أعدّه اللَّه للذين يحبونه"** (١كو ٢: ٩). ولهذا نصحنا الكتاب بقوله: **"غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التي لا تُرى، لأن التي تُرى وقتية، وأما التي لا تُرى فأبدية"** (٢ كو ٤: ١٨).

فما هى إذن تلك الأشياء التي لا تُرى؟ وما الذي لم تره عين وقد وُعدنا أن نتمتع به في الأبدية؟

****

*** من الأشياء التي لا تُرى: الأبدية:**

نحن نسمع عن الأبدية، ونقرأ عنها في وعود اللَّه، ولكننا لم نرَ الأبدية، فكل شيء أمامنا إلى زوال، وحياتنا على الأرض لها نهاية. فالذي ينظر باستمرار إلى الأبدية، وإلى امتداد حياته بعد الموت، يعمل لهذه الأبدية، ويستعد لها باستمرار، بالتوبة والعمل الصالح ونشر الخير في كل مكان ومع كل أحد، والذي يفكر في الأبدية باستمرار، لا ينظر إلى هذا العالم الحاضر، ولا يهتم به، موقناً بأن العالم يبيد وشهوته معه. كذلك لا يركز رغباته في المادة ولا يشتهيها... هو يعيش في العالم، ولكن العالم لا يعيش فيه، كما يمكنه أن يملك المادة، ولكن لا يسمح للمادة أن تملكه، بل يستخدمها للخير.

إن العالم والمادة من الأشياء التي تُرى، فهى لذلك وقتية - فلا يجعلهما سببا لضياعه روحياً - فقد قال السيد المسيح: **"ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه"** (مت ١٦ : ٢٦)، ولهذا كل ما نفقده من العالم والمادة لا نحزن عليه، لأنه سوف لا يصحبنا في اليوم الأخير، ولا يكون معنا في الأبدية.

****

*** أيضاً من الأمور التي لا تُرى: الملائكة وأرواح الأبرار:**

إن الملائكة أرواح، وهم حولنا يروننا، وينقذوننا من أخطار كثيرة، وعلى الرغم من وجودهم حولنا، فنحن لا نراهم بهذه العيون المادية، ولكننا سنراهم بلا شك بعد القيامة في الأبدية السعيدة، وكذلك سنرى أرواح الأبرار الذين سبقونا إلى السماء.

أما الآن، فنحن بالروح نؤمن بوجود الملائكة، ونراهم بالإيمان ونستحي أن نفعل خطية في حضرتهم، على الرغم من أنها غير مرئية حالياً.

****

*** من الأشياء التي لا تُرى أيضا: الروح:**

الروح لا تُرى، أما الجسد فهو من المرئيات، لذلك فالشخص الروحي، يحيا مهتماً بروحه، وغذائها الروحي، وإن كان الجسد له غذاؤه المادي، فإن الروح تتغذى بحياة الفضيلة والبر، وتتغذى بمحبة اللّه وبعمل الخير، وبالصلاة والتسبيح، وبكلام اللّه في عمقه وروحانيته، والإنسان الذي يهتم بأبديته، يحرص على نموه الروحي وعلى التدريبات الروحية النافعة له. ذلك لأن اهتمامه بروحه ومصيرها الأبدي يجعله يبذل كل جهده في عمل ما يربطها باللّه ووصياه فتكون مقدسة له.

في نفس الوقت يجعل روحه هى التي تقود جسده، ولا تخضع أبداً لغرائزه، بل بكل حرص وتدقيق، تتخلص من شهوات الجسد، ومن طياشة الحواس، ومن شهوة العين وتعظم المعيشة. فلا يكون لهذه المرئيات سلطان عليه...

****

*** كل متع الحياة الأرضية من الأشياء التي تُرى، أما متع الأبدية فهى ما لـم تـره عين، ولم يخطر على قلب إنسان.**

* وهكذا فإن الآباء النسّاك، قد نظروا إلى كل متع هذه الحياة، فإذا هى زائلة وفانية لا تستحق اهتمامهم، فارتفعوا فوق مستواها وفوق كل رغبة فيها، وماتوا عن العالم، وزهدوا كل متعه الأرضية، ناظرين إلى ما سوف يتمتعون به بعد القيامة.

* وفي هذا المعنى يقول القديس أُغسطينوس: "**جلست على قمة العالم، حينما أحسست في نفسي أني لا أشتهي شيئاً ولا أخاف شيئاً**".

* وأكبر مثال في الارتفاع عن كل المرئيات، وعن الحياة الأرضية ذاتها، مثال الشهداء الذين تقدموا إلى الموت بفرح، غير ناظرين إلى العالم وكل ما فيه، ورافضين الإغراءات التي عرضت عليهم. ذلك لأنهم كانوا مركّزين كل أبصارهم وقلوبهم في ما لا يرى في الحياة بعد الموت.

****

*** من الأشياء التي لا تُرى أيضا، المعنويات:**

وأعني بها المُثل، القيم، والمبادئ، والحق، والخير، والبر... وأيضاً الإيمان لأنه هو "**الثقة بما يرجى، والإيقان بأمور لا تُرى**" فالذي يعيش بالإيمان، إنما يعيش ناظراً إلى ما لا يُرى .

وهو حينما يتطلع إلى السماء، لا ينظر فقط إلى هذا الغلاف الجوي المحيط بنا، الذي تسبح فيه الطائرات. ولا إلى الفَلَك الذي توجد فيه الشمس والأجرام السماوية البعيدة، وإنما إلى ما هو فوق ذلك بكثير... إلى السماء التي فيها الملائكة وعرش اللّه، والتي فيها كل شيء يسير حسب مشيئة اللّه، فلا خطية ولا عصيان. وأيضاً السماء التي فيها أرواح الأبرار منتظرين يوم القيامة، وبدء الحياة الأبدية.

****

*** والذين ينظرون إلى ما لا يُرى، يتوجهون بقلوبهم وأفكارهم إلى اللّه - جلّت قدرته - اللّه الذي لم يره أحد قط في لاهوته...**

إننا لم نرَ اللّه، لأن عيوننا هذه قاصرة عن رؤياه. ولكننا رأينا قوته وعجائبه، وعمل نعمته فينا وفي غيرنا. رأينا يده التي لا تُرى، وهى تتدخل في مشاكلنا وتحلها. ورأينا

كرمه الذي يفتح كوى السماء ويفيض علينا، ويشبع كل حي من رضاه... ورأينا اللّه كيف يقيم الحق، ويسحق الباطل، وكيف يحكم للمظلومين...

أما المتعة الحقيقية بعشرة اللّه في الأبدية فهذا ما لم نره بعد، ولكننا ننتظره بالإيمان.. الإيمان بما لم تره عين ولم يخطر على بال إنسان.

أما كيف سنتمتع بعشرة اللّه في الأبدية، وما كنه تلك العشرة؟ فمن جهة هذا الأمر من الخير لي أن أصمت. إن الأبدية هى التي ستعلن لنا هذا الأمر الذي غالبا ما تعجز اللغة عن شرحه ووصفه..!

****

*** وما دامت الأبدية بهذا الجمال الذي لا يوصف، إذن يجب علينا أن نستعد لها...**

نستعد لها بمحبتها قبل أن نصل إليها. ونستعد لها بعدم التعلق بالمرئيات والانشغال بها. حقا إن القلب الذي يرتفع فوق المرئيات، هو حصن منيع لا ينهدم. إنه مستوى فوق العالم وفوق المادة والجسد..

فالذي يتعلق قلبه تماماً بحب المرئيات وشهوة الأمور التي في العالم، هذا المسكين حينما يترك الجسد ويصعد إلى السماء، أيجدها غريبة عليه؟! أو يصاب بالإحباط الذي لا يجد فيها ما يشتهيه من متع الدنيا؟ أم تراه يسأم السماء - إن كان قد وصل إليها – ويرى هذه الدنيا هى الأفضل!!

لذلك يا إخوتي وأبنائي علينا أن نتدرب من الآن على محبة السمائيات ومحبة الأمور التي لا تُرى. ونكنز لنا كنوزاً في السماء، إن ذهبنا إلى هناك نجدها...

نعمل ما نستطيعه، ونطلب من نعمة اللّه أن تكمل لنا ما لا نقدر عليه. ولنتمسك بذلك الهدف السامي.

وعلينا أن نُصلي من أجل الحب والسلام في العالم كله، وبخاصة في فلسطين ولبنان والعراق، وفي كل العالم العربي، وفي أفريقيا..

وكل عام وجميعكم بخير.

١٥ أبريل ٢٠٠٧

هدوء اللسان
وهدوء الملامح والحواس

هدوء اللسان:

اللسان الهادئ محبوب من الكل. واللسان غير الهادئ يوقع صاحبه في أخطاء كثيرة. وعدم هدوء اللسان له مظاهر نذكر من بينها:

١- اللسان الكثير الكلام لا يتوقف بينما كثرة الكلام لا تخلو من المعصية.

إنه لسان يتكلم باستمرار، في أي موضوع، حتى ما يخرج عن اختصاصه ومعرفته. لا يستطيع أن يضبط ذاته داخل شفتيه. ولا يبطل الكلام حتى في أدق نقاط العلوم، ولا في أدق أسرار السياسة. المهم أن يتكلم وكفى... حتى في أخبار الناس وخصوصياتهم. إنه لسان غير منضبط، لا يستطيع صاحبه أن يتحكم فيه ولا يهدئه.. وما أجمل قول المزمور "ضع يارب حافظاً لفمي، وباباً حصيناً لشفتيّ".

٢- ومن عدم هدوء اللسان: حدة الصوت وعلوّه وصخبه.

إن الشخص الهادئ يتكلم بصوت هادئ كأنه نسيم عابر. أما غير الهادئ فيتكلم بصوت كأنه عاصفة هوجاء.

* هناك أشخاص - حتى في الوعظ - يعظون بصوت عالٍ وحاد، بل إنهم ينتهرون السامعين في عنف، وأمامهم ما كان يقال عن الخطباء قديماً: إنهم (يهزون أعواد المنابر). ويكون السامعون جالسين على أعصابهم! ويكون تأثير هذا الوعظ هو الانفعال، وليس التأثير الروحي.

أما الواعظ الروحي فيقنع الناس بالتعليم النافع في هدوء، بعمل الروح فيهم وليس بانفعال حواس الجسد. لذلك قد ينفعل البعض أثناء العظة من الواعظ الانفعالي، ثم يفقدون الانفعال بعد حين. أما الإقناع الروحي الهادئ، فهو أكثر تأثيراً وثباتاً داخل النفس.

* وإن كان الصوت العالي يُستخدم أحياناً وسط الجماهير لكي يسمعوا، فما لزوم استخدامه في الأحاديث الخاصة؟! إن الشخص الهادئ لا يرفع صوته وهو يتحدث إلى

غيره. فلا يعلو صوته فوق احتياج السامع. وهو في نقاشه لا يحدث ضجيجاً. أليس أمراً معيباً أن يتناقش البعض، فتعلو أصواتهم وتتداخل، حتى بسببهم سامعوهم يتشاجرون! نعم هناك أشخاص يصيحون حين يتكلمون، ويصرخون حين يهمسون. ويتكلمون بسرعة، وفي أصواتهم ضوضاء...

٣- ومن مظاهر عدم هدوء الصوت أيضاً: الألفاظ الشديدة الجارحة.

إنسان مثلاً كلامه شديد وصعب، كلام مرّ وجارح، ناقد ولاذع وهدّام. تخرج الكلمات من فمه، وكأنها قذائف اندفعت من صاروخ.. بينما يستطيع أن يعبرّ عن رأيه وقصده بألفاظ هادئة..

٤- ومن مظاهر هدوء اللسان هدوء الحوار.

الإنسان الهادئ يناقش في هدوء، وبه يكسب الآخرين، كما كان القديس ديديموس الضرير يناقش الفلاسفة الوثنيين في أدب جم دون أن يهاجمهم. فكانت طريقته أن يربحهم، لا أن يحطمهم ويخجلهم.

أما المناقش غير الهادئ، فإنه يحول الحوار إلى شجار، تحمي فيه المناقشة، ويتوتر الجو ويتكهرب إلى أبعد الحدود. تجد في أسلوبه تحفزاً وهجوماً، واستعداداً عنيفاً للرد قبل أن يستوعب الرأي. وهو يحاورك لا لكي يفهمك أو يصل معك إلى الحقيقة، إنما لكي يفحمك أو يهزمك. ويحاول أن يتهكم عليك وعلى آرائك، وكأنك عدو ويريد أن ينتقم منك.

أما المناقش الهادئ، فإنه يكسبك صديقاً أثناء حواره معك، ويتكلم في موضوعية، بكل هدوء، ولا يقاطعك أثناء النقاش. ولا يتعرض مطلقاً لشخصك. وإن كنت ثائراً يهدئك. وقد يقنعك وتوافقه على رأيه، بدون أن تشعر أنك خرجت منهزماً. وفي هدوئه لا يشعرك مطلقاً إنكما خصمان، بل صديقان يحاولان معاً أن يصلا إلى الحقيقة.

غير الهادئين إذا تناقشوا، يقاطعون بعضهم بعضاً. وقد يكون خمسة في مناقشة: أربعة يتكلمون في نفس الوقت، وواحد منهم فقط يسمع ذلك الضجيج. وليس أحد آخر عنده استعداد لأن يسمع غيره! أنها أفكار كثيرة تتصارع. وكل واحد يرى أن الحق في فكره الخاص.

٥- وما نقوله عن الحوار يمكن أن نقوله عن العقاب، الهادئ وغير الهادئ.

٦- ليس المطلوب فقط أن يكون اللسان هادئاً بل بالأكثر يكون مهدئاً.

ومن أمثلة ذلك قول سليمان الحكيم: "الجواب اللين يصرف الغضب، والكلام الموجع يهيج السخط". إن الشخص الهادئ يفيض من هدوئه على الآخرين فيهدئهم إن كانوا ثائرين. أما غير الهادئ فيثيرهم بهياجه.

هدوء الملامح:

قليل من الناس يستطيعون التحكم في ملامحهم. فالملامح تكشف حالة القلب، فإن اضطرب القلب، ظهر ذلك في ملامح الوجه. وكذلك إذا اغتاظ أو تضايق أو اشمئز أو خاف. كل ذلك تكشفه نظرات عينيه. إنها اعترافات غير إرادية تعلن عما في داخله. وقد يضطرب إنسان، وإن سألوه يفكر ولكن نبرات صوته، وحركات يديه أو شفتيه، ونظرات عينيه وخلجات ملامحه.. كل ذلك ينطق بما في داخله، ولا يسمح بمجال للشك.

لا تظنوا أن القلب هو باستمرار خزانة تكتم أسراره فكثيراً ما يكون مكشوفاً ومنفتحاً بواسطة الملامح لكل شخص لماح.

إن القلب الهادئ ملامحه هادئة ومريحة. تحب أن تجلس إليه لكي تتأمل الهدوء العجيب الذي يفيض من القلب ويكسو الملامح. لذلك لم يكن عجيباً أن أحد تلاميذ القديس الأنبا أنطونيوس يقول له: "يكفيني مجرد النظر إلى وجهك يا أبي" ففي وجهه كان يرى السلام الذي يملأ قلبه.

لذلك على الإنسان أن يهدئ قلبه، لكي تهدأ ملامحه تبعاً لذلك.

****

هدوء الحواس:

* هناك أشخاص أجسادهم غير هادئة، لا تستطيع أن تستقر في مكان واحد. تريد أن تروح وتجيء، وتقوم وتقعد. حتى في بيتها لا تستقر طويلاً، وإنما لا بد من الزيارات والفسح ونزهة الجسد، والانتقال من مكان إلى آخر. هذا ما نسميه طياشة الجسد.

وهناك من يتحركون بلا سبب. الجسد يتحرك باستمرار. وإن تكلم تتحرك يداه، وربما رأسه تتحرك أيضاً، وقد يشير بأصابعه. وربما يتناقش اثنان وتنظر إلى أيديهما فتجدها دائمة الحركة. إنها طياشة الحركات. بعكس الجندية التي يتكلم فيها الجندي في وضع هادئ . فإن حرّك يديه يقال له [اثبت].

في بعض الأحيان تلزم الحركة قليلاً للتعبير عن الانفعال الداخلي. أما أن تكون الحركة مستمرة فهذا غير معقول. وما أكثر من تدل حركاتهم على عدم الهدوء. حتى أن دخل الشخص منهم أو خرج، يحدث ضجيجاً في فتح الباب أو إغلاقه. وإن تحرك يحدث صوتاً في مشيه، وإن حرّك السكر في كوب من الشاي، يخيل إليك أنه يدق جرساً. بينما الهادئون لا تسمع لهم صوتاً.

* في بعض البلاد الهادئة، تجد أيضاً المظاهرات هادئة.

هى مسيرة احتجاج هادئة. بينما المظاهرات حسب قواميسنا ضجيج هنا وهناك، حيث يصيح المتجمهرون ويهتفون، ويلوحون بأيديهم، ويقيمون الدنيا ويقعدونها، وكأنهم في شبه ثورة. أما في البلاد الهادئة، فتخرج المظاهرات تعبر عن رأيها بلافتات تحمل فكرها ومطالبها. وتنتقل من مكان إلى آخر، فتنقل إليه فكرها في هدوء.

*** وهدوء الجسد يصحبه هدوء الحواس، الذي يساعد على هدوء الفكر.**

الحواس الطائشة - من نظر وسمع وشمّ - تجلب أفكاراً. والأفكار تؤثر على مشاعر القلب. وهكذا قد يجلس الإنسان في اجتماع وعيناه زائغتان، تنظران ماذا يفعل هذا؟ وماذا يفعل ذلك؟ أو قد يجلس شخص على مائدة، وتتجول عيناه ليرى ماذا يأكل هذا أو ذاك؟ وكيف؟ وتتبع ذلك أفكار.

وإطلاع الحواس على أسرار غيرها، يدخل ضمن زنا الحواس:

وينطبق هذا على الأذن إن حاولت أن تسمع ما ليس من حقها سماعه. وكذلك العين التي تحاول أن تبصر ما ليس من حقها أن تبصره. إنها حواس غير هادئة همها الجولان في الأرض والتمشي فيها.

والحواس الطائشة غير الهادئة تتسبب في إثارة الأعصاب، وبخاصة إن كان هدفها البحث عن خبر مثير أو منظر مثير.

والعجيب أن الحواس أحياناً لا تكون هادئة، حتى في أثناء الصلاة. فجولانها هنا وهناك يعطل تركيزها في الصلاة وانشغالها في العبادة. وقد يسرح الفكر مع عدم التركيز.

٢٢ أبريل ٢٠٠٧

الحرية
ضوابطها وأنواعها

لقد خلقنا اللَّه أحراراً، لا نُستعبد لشيء، ولا نُستعبد لأحد. ومن الكلمات الجميلة عن الحرية، ذلك المثل الإنجليزي الذي يقول:

"لو أنك فقدت كل شيء - ما عدا الحرية - فأنت لا تزال غنياً"...

ولكن الحرية لها شروط وحدود، وإلا فأنها تتحول إلى لون من التسيب. ومع محبتنا العميقة للحرية، إلا أننا لا نؤمن بالحرية المطلقة، ولا نأمن لنا. بل الحرية السليمة هي الحرية المنضبطة...

فما هى الحرية المنضبطة؟ وما هى ضوابطها؟

* كل إنسان حرّ، بحيث لا يعتدي على حريات غيره أو حقوقه. فهو لا يستطيع أن يضع يده في جيب غيره، ويقول: "أنا حرّ أضع يدي حيثما أشاء"!! كما لا يليق به أن يقيم حفلاً بمكبرات صوت واسعة الانتشار، تزعج المريض الذي هو في حاجة إلى النوم والراحة، وتعطل طالب العمل الذي لا يمكنه أن يذاكر دروسه في وسط من الضجيج... وما يشبه ذلك من حالات.

* والإنسان أيضاً حرّ، بحيث لا يخالف النظام العام. فهو لا يستطيع أن يقود سيارته بعكس قواعد المرور، ويقول: "أنا حر أقود سيارتي حيثما أشاء"!

* والإنسان حرّ بحيث لا يتعدى القانون، ولا حتى العرف السائد، وإلا عرضّ نفسه للعقوبة والجزاء. وعدم معرفته بالقانون لا تعفيه إطلاقاً من المسئولية إذا ما خالفه.

* وأيضاً الإنسان حرّ، بحيث لا يخالف أي وصية من وصايا اللَّه تبارك اسمه. وإن كان اللَّه قد خلقنا أحراراً، إلا إنه في نفس الوقت وضع لنا وصايا يجب أن نلتزم بطاعتها. أما إن خالفناها، فإننا نعرض أنفسنا للعقوبة الإلهية...

* والإنسان حرّ، بشرط أنه لا يضر نفسه.. فليس هو حراً في تعاطى المخدرات أو المسكرات، أو في الأضرار بصحته بأية طريقة من الطرق، أو بأية عادة ضارة،

أو بالإهمال في دراسته. وليس هو حراً في نوعية الألفاظ التي يستخدمها، سواء كانت نابية أو غير لائقة...

****

لكل هذا ينبغي أن يضبط الإنسان نفسه فيما يستخدم الحرية.

وإن لم يضبط نفسه، يتعرض لأن يضبطه المجتمع أو القانون. وما أجمل العبارة التي قالها أحد الآباء: "احكم يا أخي على نفسك، قبل أن يحكموا عليك". إذن انضباط الحرية يبدأ من الضمير أولاً، ثم من المجتمع أو القانون الذي ينظم كافة العلاقات...

وقد وُضع القانون لحماية المجتمع من انحرافات البعض في استخدام الحرية، وأيضاً لحماية الضعيف من بطش القوي. كما وُضع القانون لتنظيم الحريات ومنعها من التسيب.

والإنسان الذي لا يضع حريته تحت إشراف من المراقبة والمحاسبة، فإن القانون سيتولى هذه المحاسبة وأيضاً المعاقبة. ومن حق القانون - في حالة انحراف الحرية - أن يحكم بالسجن بل وبالإعدام أيضاً. وإن كان السجن يمنع السجين من الحرية، إلا إنه في الواقع يمنعه من إساءة استخدام الحرية في إيذاء الغير. وكذلك الإعدام هو حماية للمجتمع ممن يستخدم حريته ضد غيره استخداماً لا يستحق معه الحياة. وفي الكتاب المقدس آية تحكم بأن: "سافك دم الإنسان، بيد الإنسان يُسفك دمه" وأيضاً "نفس تؤخذ عوضاً عن نفس". وتقوم الدولة بتنفيذ ذلك...

****

وهناك فروع كثيرة للحرية، منها:

الحرية الشخصية، وحرية العقيدة، وحرية الفكر.

والحريات العامة، منها: حرية الرأي، وحرية الاجتماع، وحرية النشر، وحرية الصحافة. وكل ذلك في حدود القانون والقواعد الموعية..

* **فالحرية الشخصية** لها شروط أيضاً. فلا يجوز لأي إنسان - باسم الحرية أن يقوم بأي عمل مخلّ بالآداب، كأن يسير عارياً في الطريق، ولا يجوز أن يفتح ريكوردر في ركوبه للأتوبيس ويقول هذه حريتي. كما أنه في حريته الشخصية لا يسمح له بأن يتزوج زيجة غير شرعية، أو أن يمارس الشذوذ الجنسي، كما لا يجوز لفنانة أن ترقص في الطريق. وكذلك ليس من الحرية الشخصية أن ينتحر الإنسان، إذ ليس من حقه أن يقتل

نفسه. فنفسه مِلك للّه الذي خلقها، وأيضاً مِلك للمجتمع الذي رعاها وعلّمها وأنفق عليها وينتظر منها أن ترد الجميل.

ومن الحرية الشخصية، حرية العقيدة أيضاً. فالإيمان أمر بين الإنسان وربّه، لا يكرهه عليه أحد أو يغيّره...

ومن جهة **حرية الفكر**. فالإنسان حرّ يفكر كما يشاء. ولكنه مسئول أمام اللّه عن نقاوة فكره. فكل فكر خاطئ يُحاسب عليه أمام ضميره وأمام اللّه.

أما **حرية الرأي وحرية النشر**: فهما مكفولتان حسب القانون بحيث لا ينشر أحداً أفكاراً هدامة أو يقُصد بها إثارة الجماهير وقيادتهم في ما يضر المجتمع. وكما يُسمح للإنسان بحرية الفكر والرأي، فإن عليه أن يلتزم بنزاهة الرأي وصدقه. فإن خرج عن هذا، يكون قد أساء استخدام الحرية، وتقع عليه المسئولية.

ونفس الوضع نقول عن **حرية الاجتماع**، فهى مكفولة طالما هى بريئة وصالحة. أما إذا كانت تهدف إلى قلب الأنظمة القائمة، فما أسهل أن يوجد سبب لمنعها. ليس منع حرية الاجتماع، وإنما لمنع أهدافها الخاطئة.

حرية الصحافة: هى أيضاً قائمة حسب القانون. ولكن ينطبق عليها ما قلناه في حرية النشر. فلها أن تكتب ما تشاء مساهمة في بناء المجتمع وتثقيفه وتوضيح الأمور له. أما إذا تحولت كتابات بعض الأخبار أو المقالات إلى السب والقذف والتشهير والمساس بسمعة الآخرين، فحينئذ تدخل تحت طائلة القانون، لأن السب والتشهير ليسا من خواص الصحافة كما ينبغي لها أن تكون...

خلاصة القول أن الحرية هامة ولازمه، بشرط عدم انحرافها..

ويستطيع أن يستخدم الحرية استخداماً سالماً، من يستخدمها استخداماً سليماً. وعموماً فالصفة الأولى للحرية، أن يتحرر المرء من الداخل. يتحرر من الخطيئة، ومن الذات، ومن كل عادة خاطئة أو طبع رديء. وحينئذ يستطيع أن يستخدم الحرية بأسلوب لا يُسئ فيه إلى أحد، ولا يُسئ فيه إلى نفسه، ولا تنطبق عليه عقوبات القانون ولا لوم المجتمع له.

ومن احترم حريات الغير، يحترم الكل حريته. أما إذا ظلمه أحد، فسوف يدافع المجتمع عنه. وينصره اللّه الذي يحكم للمظلومين.

٢٩ أبريل ٢٠٠٧

عفة اللسان والقلم والفكر وعفة اليد

يظن البعض أن العفة قاصرة فقط على عفة الجسد... بينما هى تشمل أيضاً عفة الحواس من نظر وسمع ولمس. وكذلك عفة القلب، وعفة اليد، وعفة اللسان، وعفة الفكر والقلم.

عفة اللسان:

* وواضح أن عفة اللسان تعنى أنه يبعد عن كل كلمة رديئة. وكما قال السيد المسيح: "كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس، سوف يعطون عنها حساباً في يوم الدين". ولا يقصد بالكلمة البطالة مجرد الكلمة الخاطئة، وإنما أيضاً كل كلمة بلا نفع، أو كل كلمة ليست للبنيان.

* والإنسان العفيف لا يلفظ كلمة شتيمة أو أهانة أو تهكّم، ذلك لأنه يحترم غيره، ولا يسئ إلى أحد بكلمة جارحة، ولا بكلام استهزاء أو احتقار أو ازدراء، في أي حديث أو في أي عتاب.

وأذكر في يوم أربعين إنسان روحي، توفى سنة ١٩٥١م قلت عنه:

لكَ أسلوب نزيه طاهرُ ولسانُ أبيض الألفاظ عفُّ
لم تنل بالذمّ مخلوقاً ولم تذكر السوءَ إذا ما حلّ وصفُ
إنما باللطف والتشجيع قد تصلح الأعوجَ، والأكدرُ يصفو

لهذا فإن الذي يستخدم ألفاظاً جارحة، أو ألفاظاً قاسية، وكأنها كرجم الطوب، ليس هو إنساناً عفيف اللسان...

اللسان العفيف لا يشهّر بغيره، ولا يكشف عورة إنسان في حديثه. لأن عفته تمنعه من ذلك.

اللسان العفيف هو لسان مؤدب مهذب. يزن كل كلمة يلفظ بها، ولا يحتاج إلى مجهود لكي يتكلم كلاماً عفيفاً، لأن هذا هو طبعه وقد تعوّده.

واللسان العفيف لا يستخدم ألفاظاً معيبة من الناحية الخلقية. فهو لا يتلفظ بألفاظ جنسية بذيئة. ولا يذكر قصصاً أو فكاهات جنسية، ولا يقبل سماعها إن قيلت من غيره. ولا يردد أغاني من نفس النوع، بل يخجل من النطق بها، ولا فيما بينه وبين نفسه في مسكنه الخاص. إنه لا يتدنى إلى هذا الوضع. ويمنعه أدبه من استخدام لغة لا تتفق والأدب الذي تعوّده.

****

* واللسان العفيف قد تعوّد أيضاً عفة التخاطب. كما أنه قد تعوّد على أدب الحوار. فهو لا يقاطع غيره أثناء الحديث معه، ولا يوقفه عن الكلام لكي يتكلم هو. ولا يعلو صوته في الحوار. ولا يحاول أن يقلل من شأن غيره في حواره، لكي يثبت رأيه هو. ولا يهين غيره أثناء المناقشة. فكل هذه الأمور وأمثالها مما لا يسمح به أدبه.

* واللسان العفيف يكون موضوعياً في حواره، ولا يتعرض إلى الجوانب الشخصية في من يتحاور معه. وإنما يكون منطقياً في ما يقوله. لا يمكن أن يصف محدثه بالجهل أو عدم الفهم. ولا يكشفه في هذه النواحي. بل يركزّ على موضوع النقاش.

****

عفة القلم:

وعفة اللسان ترتبط بعفة القلم.

وأعني القلم الذي يراعي كل ما قلناه فيما يكتب. فلا يشهّر بأحد، ولا يجرح أحداً. ولا يعمد إلى الإهانة. ولا يشيع عن إنسان ما ليس فيه. بل يحرص على أعراض الناس، ويرى أن سمعتهم أمانة لا يمكن لقلمه أن يتجاوزها. بل القلم النزيه لا يكتب إلا بموضوعية تتفق وعفته...

* وهنا نرى عفة النقد ونزاهته... أي النقد العادل البريء الموضوعي، الذي يهدف إلى الحق بغير تجريح. ويزن الأمور بميزان سليم. ويذكر النقاط البيضاء أولاً قبل غيرها من النقاط التي لا يوافق عليها. وهكذا يعطي كل ذي حق حقه.

وفي نقده لا يدخل في نوايا الناس وما في قلوبهم، فتلك أمور لا يعرفها سوى اللّه وحده.

* على أني أضيف إلى كل ما ذكرناه، أن خطية القلم ومثلها خطية اللسان هى خطية ثانية في الترتيب الزمني أو الفعلي. أما الخطيئة الأولى فتكمن في القلب الذي يعبر عنه اللسان كما يعبر عنه القلم في كتاباته. ومن القلب يخرج الفكر، ويعبّر اللسان حيناً والقلم حيناً آخر.

****

عفة القلب وعفة الفكر:

هذه الصفة الداخلية، يُبنى عليها كل تعفف من الخارج.

وعفة القلب هى عفة المشاعر والعواطف والأحاسيس، وعفة المقاصد والنيات والرغبات. وعن عفة القلب تصدر بلا شك عفة الفكر، وعفة اللسان، كما تصدر عن القلب أيضاً عفة الحواس، فكل هذه خارجة من مصدر واحد.

* لذلك أن وجد أحد أن فكره قد بدأ يسير في مجرى غير عفيف، فليسرع ويقاوم هذا الفكر ويوقفه قبل أن يتطور إلى أجهزته الأخرى، وقبل أن يعبّر الفكر عن وجوده بطريق اللسان أو القلم أو الحواس أو العمل. وليهتم إذن بحالة قلبه وعواطفه التي هى مصدر لفكره أيضاً.

* وعفة القلب والفكر، لها علاقة بالعقل الباطن.

فالعقل الباطن يعمل عن طريق المخزون فيه من أفكار ومن رغبات وصور ومشاعر. فإن كان المخزون في العقل الباطن غير عفيف، حينئذ يظهر ذلك في أحلام غير عفيفة، وفي ظنون وأفكار من نفس النوع.

* وهنا يقف أمامنا سؤال كثير ما يسأل البعض وهو: هل مثل تلك الأحلام غير العفيفة تعتبر خطيئة، بينما هى غير إرادية؟ والإجابة إنها ليست غير إرادية تماماً، بل يمكن أن نقول عنها إنها شبه إرادية أو نصف إرادية، لأنها ناتجة عن مخزون إرادي سابق في العقل الباطن. لأنها لو كانت بالتمام غير إرادية، لاستيقظ منها الشخص دون أن تكمل، لأنه لا خبرة له بها ولا طاقة له باحتمالها.

عفة اليد:

اليد العفيفة لا تمتد إلى ما لغيرها، سواء بسرقة أو بأي لون من اغتصاب حقوق الغير. كذلك لا تعتبر يداً عفيفة، تلك التي تفرح بربح غير جائز.

ويدخل في هذا الأمر: الربا الذي يفرضه الرابي على الفقراء المحتاجين، وأيضاً احتكار بعض التجار سلعاً معينة في السوق، أو فرض أسعار عالية مجحفة بمن يشترى. فتمتلئ أيدي هؤلاء من مال أخذوه من تعب الناس واحتياجهم، ظلماً وقهراً. وكما قلت عن مثل ذلك في إحدى القصائد:

خطفوهُ من يد الجوعان بل　　　من رضيع لم يوفّوه فطاما

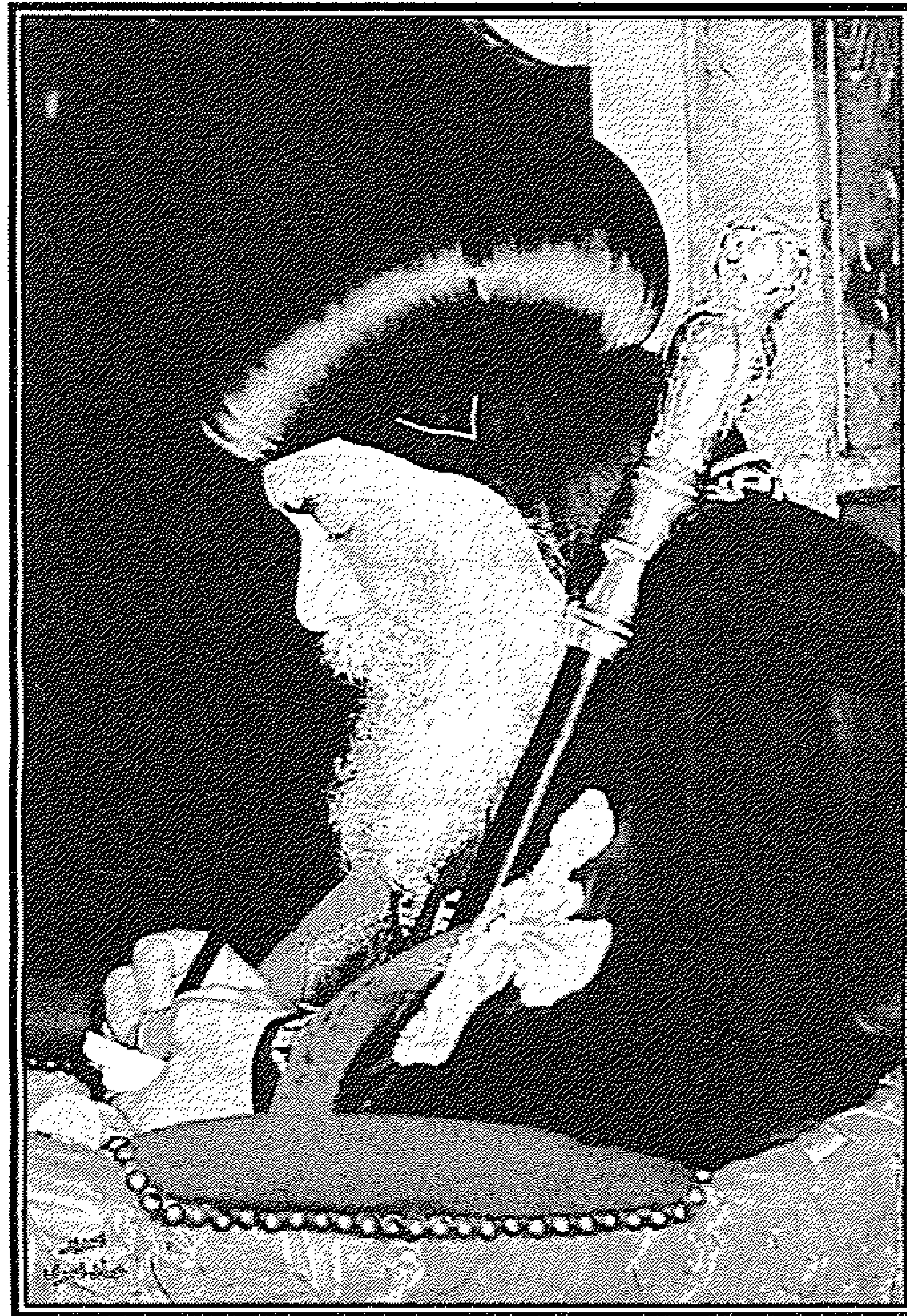
****

ومن عفة اليد أيضاً العفة في الطلب.

حيث يستحي الإنسان العفيف اليد أن يمد يده. بل إذا أعطى البعض له، يستحي أن يأخذ. بينما الإنسان غير العفيف قد يطلب ما لا يستحقه. وكأنه حق قد سلبه منه الذي يتوقع منه العطاء. وحينما يأخذ شيئاً، لا يستحي أن يطلب أزيد وأزيد!

****

* ختاماً أرجو أن أكمل لكم موضوع العفة في المقال المقبل إن أحبت نعمة الرب وعشنا.



٦ مايو ٢٠٠٧

مراحل الخطيئة

في غالبية الحالات لا تهجم الخطيئة على الإنسان دفعة واحدة بكل قوتها، إنما تزحف إليه زحفاً حتى تصل إليه بشيء من التدريج. لذلك فلينظر كل شخص من أين تأتيه الخطية، ويرقب تطورها، ويحترس..

*** ومراحل الخطية تبدأ غالباً باتصال، ثم انفعال، فاشتعال...**

فتتصل الخطية بأي شخص عن طريق العثرات أو التهاون أو الصدفة، أو المعاشرات الرديئة، أو لقاءات الحياة العادية. فإن أعطاها مجالاً، قد تؤثر عليه فينفعل بها سواء أكان انفعالاً فكرياً أو عاطفياً أو بطريق الحواس. فإن تهاون مع هذا الانفعال، يشتد فيتحول إلى اشتعال. وفي هاتين المرحلتين تكون مؤثرات الخطية قد انتقلت من الخارج إلى الداخل، وفي هذا خطورة. وقد يتطور الأمر إلى ما هو أشدّ...

*** يتطور الأمر إلى صراع داخلي، ربما ينتهي إلى تسليم وسقوط...**

إنه صراع بين الضمير والخطيئة، أو بين الروح والمادة. وهذا الصراع يدل على الإنسان رافض للخطيئة، وأنه يقاوم. وهى مرحلة متعبة، ولكنها أفضل من الاستسلام للخطأ والسقوط. وهكذا يكون الإنسان قد أوقع نفسه في هذا الصراع بتهاونه في المراحل السابقة...

****

*** والصراع مع الخطيئة غير مضمون النتيجة..**

ويتوقف على مدى مقاومة الشخص، وعلى تدخل النعمة لإنقاذه... فقد تدركه المعونة الإلهية، وتنتشله بطريقة ما مما هو فيه. وقد يتعب من الصراع ويفشل، ويلقي سلاحه ويستسلم ويسقط. وذلك لأن الخطيئة من طبيعتها أنها لا تستريح حتى تكمل.

* فإن سقط الشخص في ذلك الصراع مع الشر، لا يتركه الشيطان بل يستمر في محاربته له، حتى تتكرر الخطيئة، وحتى تتحول إلى عادة أو إلى طبع فيه. ويصل إلى الوضع الذي لا يستطيع فيه أن يقاوم...!

* وهذا ما نسميه بالعبودية للخطية. حيث يخضع لكل ما يقترحه الشيطان عليه، كعبد له وللخطية التي سيطرت عليه. ثم لا يكتفي عدو الخير بأن يجعل فريسته عبداً له، إنما يتطور إلى ما هو أبشع...

*** تتطور العبودية إلى مذلة العبودية..!**

أي إلى الوضع الذي يشتهي فيه الشخص الخطية التي تسيطر عليه، ولا يجدها..! ويطلبها متوسلاً بكل قواه. يتوسل ولا يتوصل.. كمن يطلب شهوة المال، أو شهوة الجسد، فلا يجدها. أو كمن يطلب العظمة أو الكبرياء، أو الانتقام أو التشفي. ويسعى بكل رغبات قلبه لعله يجد... وكأنه يتوسل إلى الشيطان، أو يتسول من الشيطان، أن يمنحه الخطية! وهذه مذلة.. وقد يتمادى الشيطان في غروره، ويحتقر هذا الشخص الذليل..!

****

* فلينظر كل شخص في أية مرحلة من هذه المراحل هو كائن؟

*** وليختصر الجهاد والصراع، ويبعد عن الخطوة الأولى..**

فهذا أسهل له وأربح وأكثر ضماناً. كما أنه بابتعاده عن أول مرحلة من مراحل الخطية، يدل على عدم قبوله لها بسبب نقاء قلبه.. ويريح نفسه من التفاوض مع الشيطان بعدم التعامل معه.

إنه من السهل على أي شخص، أن يقتلع من الأرض نبتة صغيرة أو شتلة أو شجيرة. ولكن إن صبر عليها حتى تصير شجرة ضخمة، حينئذ يكون من الصعب عليه اقتلاعها. وهكذا مع فكر الخطيئة منذ بدايته...

* قد ينتصر إنسان على فكر شرير بعد صراع مرير، ولكنه في أثناء الصراع يكون قد نجّس ذهنه وربما قلبه.

وحتى إن طرد الفكر من عقله الواعي، قد يبقى في ذاكرته وفي عقله الباطن. وربما يعود إليه بعد حين، أو يظهر في أحلامه أو في ظنونه... فلماذا كل هذا التعب؟ الوضع السليم هو التخلص منه من بادئ الأمر، قبل أن يستمر، وقبلما يتسع نطاقه في تدمير الروحيات. والانتصار على الفكر يبدأ من مرحلة الاتصال. فليحاول كل شخص أن يبتعد عن الاتصال بمصادر الخطية.

يقول داود النبي في المزمور: "طوبى للإنسان الذي لم يسلك في مشـورة الأشـرار، وفي طريق الخطاة لم يقف، وفي مجلسِ المستهزئين لم يجلس".. لذلك لا تسمح للخطيئـة أن تتطور معك، أو تجعلك تتطور معها. ومن أول خطوة ابتعد عنها. هذا إذا كنت تريـد أن تتوب، وأن تحتفظ بقلبك نقياً...

****

*** لذلك في أية مرحلة من مراحل الخطية وجد الإنسـان نفسـه، فليجاهـد أنهـا لا تتطور إلى أسوأ...**

لأن الإرادة تكون قوية في أول القتال، أعني في مرحلـة الاتصـال. فـإذا وصـل الشخص إلى مرحلة الانفعال، تكون إرادته قد بدأت تستجيب للخطأ. وفي الاشتعال تكون قد ضعفت. أما في مرحلة الصراع، فإن الإرادة تكون بين الحياة والموت. وإن سـقطت تكون قد وقعت صريعة في حربها ضد الخطية. وفي حالة العبودية للخطية تكون الإرادة قد ماتت تماماً. ويصبح الإنسان حينذاك مسلوب الإرادة.. إذن فليعلم هذه الحقيقة جيداً:

إنه كلما يخطو خطوة في طريق الخطية، تضعف إرادته.

وكلما يضعف، يميل إلى الخطية، ويكون قد أعطى الشيطان مكاناً ووضـعاً داخـل نفسه. وكلما يخطو خطوة أخرى نحو الخطية، تقل مخافة اللّه في قلبه، ويكـون سـقوطه بالعمل متوقعاً جداً...

****

والإنسان الحكيم لا يستهين بأية خطية، مهما بدت صغيرة...

فأي ثقب بسيط في سفينة، قد يتسع إذا أُهمل حتى يتحول إلى كارثة غـرف. ونهـر النيل بمجراه العظيم بدأ بقطرات مياه أمطار سقطت على جبال الحبشة واسـتمرت فـي سيرها حتى وصلت إلينا نهراً. وأطول مشوار في طريق الخطية بدأ بخطوة واحدة.

لذلك فلنحترس مدققين من جهة أي تهاون أو تراخ في كلامنا أو تصرفنا، عـارفين أن من يهتم بالقليل، سيهتم بلا شك بالكثير. وكما يقول المثل الإنجليزي: "اهـتم بـالبنس، فتجد أن الجنيه يهتم بنفسه" لذلك كن دقيقاً جداً. فربما خطأ بسيط يجرّ إلى مشاكل كثيـرة. بينما التدقيق ينفعك ويعلمك الحرص...

فالذي يهتم بالحشمة مثلاً وهو داخل غرفته، لا بد انه سيحتشم خارجها. الـذي فـي حجرته الخاصة يستحي من أرواح الملائكة والأبرار، هذا لا بد سيسـلك باحتشـام فـي الخارج أمام الناس، وتصير الحشمة من طباعه التي يقودها. وهكذا في باقي تصرفاته...

* إن الشيطان ذكي جداً. لا يهاجمك بخطية بشعة دفعةً واحدة. لا يطلب منـك بابـاً واسعاً يدخل منه إلى حياتك. وكل ما في الأمر أنه يستأذنك في ثقب إبرة. وقـد لا تبـالي فتسمح له. وهذا يكفيه، ويظل يوسعه حتى يتلف حياتك كلها...

*** حقاً ما أكثر الخطايا التي تدخل من ثقب إبرة..!**

إنه لا يدعوك مثلاً إلى إهمال الصلاة، لكنه قد يقترح تأجيلها بعض الوقـت ريثمـا تستعد. ثم يظل يؤجل ويؤجل حتى يفوتك موعد الصلاة أو تنساها. وهكـذا يفعـل معـك بالنسبة إلى التوبة..

****

* والخطوة الأولى إلى الخطية تختلف من شخص إلى آخر، وتتنوع حسب الظروف. فكن يقظاً من هذه الناحية. وإذا دُفعت إلى الخطية الأولى، فلا تكمل وتصل إلى الثانية...

واحترس من أن تكون الخطوة الأولى بالنسبة إليك، هى الغرور والثقة الزائدة بالنفس التي تقودك إلى عدم الاحتراس أو إلى شيء من الفتور...

كذلك استفد من دراسة الخطوة الأولى التي أسقطت غيرك. وبخاصة أولئـك الـذين كانوا أقوياء، أو ظنوا أنهم أقوياء.

وبالاحتراس من الخطوة الأولى، تتدرب على حياة التـدقيق وعلـى حيـاة الجهـاد الروحي. وليكن الله معك.

١٣ مايو ٢٠٠٧

القوة
عناصرها ومصادرها

**** ما هى القوة الحقيقية؟ لأنه توجد قوة زائفة.**

القوة ليست هى العنف، فالعنف منفّر. وليست هى حب السيطرة وإخضاع الآخرين. وليست هى التهور والاندفاع والجرأة على كل كبير، كتلميذ يتحدى معلمه، أو ابن يتجرأ على أبيه! وليست هى قوة شمشونية في الجسد والعضلات.. ولا هى الاحتداد بالنفس بأسلوب خاطئ والافتخار بهزيمة الآخرين. وأيضاً القوة ليست هى استخدام السلطان في غير موضعه، ولا هى الإدعاء باللسان..! إذن ما هى القوة؟ وما عناصرها وما مظاهرها.

****

**** من أهم عناصر القوة: قوة الشخصية...**

أي أن يكون الإنسان قوياً في عقله، في فهمه، في قدرته على الاستيعاب وعلى الاستنتاج. قوياً في ذاكرته، في سرعة بديهته، في حكمته وحسن تصرفه. ويكون أيضاً قوي الإرادة والعزيمة، وقوياً في حسن إدارته للأمور. وأيضاً يكون قوياً لا يهتز أمام أي تهديد أو تخويف.

وتظهر قوته أيضاً في كل عمل يعمله، وفي كل مسئولية يتحملها. فيكون قادراً على تحمل المسئوليات مهما كانت كبيرة أو خطيرة. فيقوم بعمله بكل جدية، وبكل أمانة والتزام. ومهما حدثت من عوائق أو مضايقات، لا يقلق ولا يضطرب، بل يقف كالجبل الراسخ لا يتزعزع. وواثقاً بأن كل مشكلة لها حل، وأن اللّه يعمل معه ويعمل به..

وهذا الإنسان القوي في شخصيته، يكون له تأثير في المجتمع الذي يعيش فيه، وربما يمتد تأثيره إلى أجيال... وهو لا يتأثر بأخطاء البيئة - إن وجدت - بل تكون له القدرة على التأثير على غيره، عن طريق فكره واتجاهاته ومبادئه وقدوته الصالحة.

****

** عنصر آخر من عناصر القوة، هو ضبط النفس:

ولا شك أن ضبط النفس يحتاج إلى قوة داخلية. وقد قال سليمان الحكيم: "مالك نفسه خير ممن يملك مدينة". وضبط النفس يشمل قوة لضبط الأفكار فلا تسرح فما لا يليق، وقوة أخرى لضبط الحواس حتى لا يخطئ بالنظر أو السمع أو اللمس، مع ضبط لمشاعر القلب وعواطفه. كذلك الذي يتدرب على ضبط النفس، يحتاج إلى قوة أخرى ليضبط لسانه، فلا تخرج من فمه كلمة خاطئة ولا كلمة زائدة... كل هذا يدل على قوة داخلية تستطيع أن تتحكم في الفكر والحواس واللسان والمشاعر.

والإنسان الذي يضبط نفسه هو إنسان قوي يمكنه أن يتحكم أيضاً في غرائزه وانفعالاته، ويرتفع فوق مستوى الإثارة. ذلك لأن الإثارة الخارجية لا يمكنها أن تثيره من الداخل، لأنه يكون دائماً أقوى منها. فهو لا ينفعل مثلاً ويثور إذا ما تعرض لإساءة من أحد، ولا يقاوم الشر بالشر، ولا يرد على الكلمة الخاطئة بمثلها. إنه شخص قوي. لا يغلبه الشر، بل يغلب الشر بالخير، ويستطيع أن يسيطر على الغضب، ويكون قوياً في أعصابه فلا تفلت منه...

****

** ومن هنا فمن مظاهر القوة: قوة الاحتمال:

فالإنسان القوي يستطيع أن يحتمل الشدائد والضيقات. وإن أصابته تجربة، لا تهزه من الداخل. بل يصمد ويمكنه أن يتحملها إلى أن تمرّ... كما أنه يحتمل أيضاً أخطاء الآخرين. عارفاً أن الإنسان المخطئ هو الضعيف الذي لم يضبط نفسه. ولذلك فإن الأقوياء هم الذين يقدرون أن يحتملوا ضعفات الضعفاء. والشخص القوي من الداخل، ليس فقط يقدر على الاحتمال، وإنما أكثر من هذا يمكنه أن يغفر للمسيء ويسامحه...

الإنسان الضعيف يحتاج إلى من يحتمله. أما القوي فيحتمل غيره، يحتمل طباع المسيء وأخطاءه وتصرفاته.. هنا تظهر القوة الروحية التي بها يصبر، ولا يضج ولا يتذمر، إنما يتصرف بصدر واسع وقلب منفتح، وبحنو على الآخرين كمرضى.

****

*** * والإنسان القوي هو قوي في حبه وبذله وعطائه:**

هذه هى المحبة القوية، التي ليست بالكلام واللسان بل بالعمل والحق. ولعل من أعمقها محبة الأم لرضيعها، ومحبة الجندي لوطنه، ومحبة الراعي لرعيته. وتظهر قوة هذه المحبة بالأكثر في بذل الذات وتظهر بأجلى صورها في سيرة الشهداء الذين بذلوا حياتهم في فرح، وكذلك في حياة النسّاك وأهل الزهد الذين تركوا كل شيء لكي يتفرغوا لمناجاة اللَّه. كما تظهر أيضاً في مخاطرات الذين يعملون في إخماد الحرائق، وفي إنقاذ الغرقي وأمثال تلك الأعمال الإنسانية.

وفي هذا المجال، لا ننسى أيضاً الذين يبذلون كل جهدهم في علاج مرضى السلّ والجزام، وفي العناية بالمعوقين والمكفوفين، وفي العناية بالأيتام، وبالذين ليس لهم أحد يهتم بهم.

إنها المحبة القوية التي لا تتضجر من أنين المريض، ولا من شكوى المحتاج، ولا من إلحاح المتضايق، ولا من طلبات المعوزين. بل في قوة تبذل الوقت والجهد والعاطفة لأجل إراحة الآخرين. وتكون مستعدة - في قوة حبها وعطائها - أن تبذل أكثر وأكثر...

****

*** * ومن عناصر القوة: قوة الإيمان وقوة الصلاة..**

أقصد الإيمان القوى باللَّه الذي لا يضعف ولا ينحرف مهما حاربته الشكوك والظنون. الإيمان بالوجود دائماً في حضرة اللَّه، فيخجل أن يخطئ أمامه، واثقاً أن اللَّه يرى كل شيء. بل حتى بالفكر والنية يخشى أن يخطئ لأنه يؤمن إيماناً قوياً أنه اللَّه فاحص للقلوب وعارف بما في الأفكار والنيات. وأيضاً الإيمان القوي بأن اللَّه يتدخل ويحل المشاكل ويرسل الفرح من عنده. وكذلك الإيمان القوي بالأبدية والحياة الأخرى والعمل لها.

ومن الأيمان القوي تصدر أيضاً الصلاة القوية التي تثق بأن اللَّه يسمع وأن اللَّه يستجيب. إنها الصلاة التي يمكنها في قوة أن تفتح أبواب السماء، وأن تصنع المعجزات...

****

** هناك قوة أخرى في التوبة، وفي الصمود أمام المحاربات الروحية:

التوبة القوية التي تكون حداً نهائياً يمنع الخطية، وتكون فاصلاً بين حياة وحياة، بحيث لا يرجع الشخص مرة أخرى إلى الخطأ مهما كانت الإغراءات والضغوط الخارجية. تلك التوبة القوية التي قال عنها القديسون إنها ليست مجرد ترك للخطية، بل هى كراهية للخطية، يمتد بعدها التائب في العمل الإيجابي البناء، وفي حياة البر التي تنمو معه يوماً بعد يوم.

والشخص الروحي القوي هو الذي ينتصر باستمرار على محاربات الشيطان، مهما كانت تلك المحاربات شديدة وضاغطة.. وهو في توبته تكون له القوة التي يعترف بها أنه قد أخطأ، مثلما فعل القديس أُغسطينوس الذي كتب اعترافاته ونشرها لكي تقرأها الأجيال. ودلّت تلك الاعترافات على صدق توبته.

****

** والقوة الروحية تتميز بأنها دائمة. مستمرة ومستقرة:

بلا ذبذبة أو نكسة ورجوع إلى الوراء.

لأنه ما أسهل - عند كثيرين - أن يظهروا أقوياء في موقف معين، أو في فترة معينة، ثم تخور قواهم بعد ذلك.

وهنا يقف أمامنا سؤال يطرح ذاته: ألا يحدث أن البعض قد يضعف أحياناً؟ فما هى أسباب الضعف؟ وما أنواعه؟ وما علاجه؟ هذا ما أود أن أحدثك عنه في المقال المقبل، إن أحبت نعمة الرب وعشنا.

٢٠ مايو ٢٠٠٧

الضَعف
أنواعه، ومعالجته

تكلمنا في المقال السابق عن القوة وعناصرها ومصادرها. ولكن لا ننكر أنه توجد بين كثير من الناس ضعفات. فما هى أنواع الضعف؟ وما الموقف منها؟ وما العلاج؟

**** قد يوجد إنسان ضعيف، ولا ذنب له في ذلك:**

مثال ذلك: من وصل إليه الضعف عن طريق الوراثة. سواء كان الضعف في جسده أو في قواه العقلية... أو هو إنسان قد وُلد بصحة ضعيفة، أو في مستوى اجتماعي ضعيف، أو ما أشبه...

وضعف الجسد قد يقاسي منه الإنسان الروحي أيضاً، إذ قد يقف عائقاً أمام بعض الممارسات الروحية. فمثل هذا الضعف لا يجوز أن يتضايق الشخص منه، بل يعمل ما يستطيعه على قدر ما يحتمله جسده. إنما المهم أن يحتفظ بروحه قوية وصالحه، عارفاً تماماً إن اللّه لا يطالب الإنسان بما يفوق طاقته...

****

**** وقد يوجد إنسان أعصابه ضعيفة:**

وضعف الأعصاب إما أن يكون له سبب جسدي بيولوجي، وهذا يحتاج إلى علاج طبي. وإما أن يكون ضعف الأعصاب راجعاً إلى سبب نفسي أو روحي، كأن يكون الشخص سريع الغضب، سريع الانفعال. وبالتالي يكون ضعيف الاحتمال، ويحتاج إلى شخص يحتمله، ذلك لأن الإنسان القوي هو الذي يستطيع أن يحتمل الضعيف.

على أن الإنسان الغضوب الضعيف الاحتمال، عليه أن يعالج هذا الضعف الذي فيه. وذلك بأن يبعد بقدر إمكانه عن كل الأسباب التي تثيره، وعن المجالات التي توقعه في النرفزة، ويتجنب الاحتكاك بالأشخاص الذين لا يستريح إلى معاملاتهم نفسياً. وفي نفس الوقت يمارس تداريب روحية في البعد عن الغضب، وأن يعمل على تقوية أعصابه من الناحية الجسدية. كما يلزمه أن يتأنى في تصرفاته وفي ثورته. ويضع أمامه النتائج السيئة

للغضب، قبل أن يغضب... كما ينفعه كثيراً أن يقرأ عن سير الودعاء والهادئين، ويحاول أن يحاكيهم في تصرفهم. ولا يترك نفسه إلى هذا الضعف. وليس مقبولاً منه أن يعتذر قائلاً: ماذا أفعل؟ فطبعي هكذا!! فالمفروض أنه ينتصر على طبعه ويغيرّه...

****

**** هناك نوع آخر من الناس ضعيف في إرادته:**

ضعيف في تنفيذ ما يريده من الخير، أو ضعيف في مقاومة بعض الخطايا، أو أن من طبعه التردد. فإرادته لا تستطيع أن تقرر ما ينبغي عليه أن يفعله. وإن قرّر شيئاً، قد لا يقدر أن يثبت فيه، بل تراوده أفكار أخرى مختلفة...

على أن هناك تداريب عديدة لتقوية الإرادة يمكن أن يسلك فيها. كما يمكنه أن يستشير إنساناً حكيماً أو مرشداً روحياً موثوقاً به، وينفذ ما يقوله له ولا يبطئ. وقد يقوي إرادته عن طريق الصوم، وعن طريق التغصب، أي يغصب نفسه ولا يدللها ولا ينفذ لها كل ما تريده. كما يقوّى إرادته عن طريق الفهم وبالإقناع. وإن كان خاضعاً لعادة تسيطر عليه، يقاومها بكل شدة ولا يستسلم لها مطلقاً مهما كانت الدوافع، عالماً أن الاستسلام للعادة يزيده ضعفاً على ضعف، ويزيد العادة تعمقاً ورسوخاً...

****

**** وقد يوجد شخص ضعيف أمام غيره:**

أو أمام بعض الأشخاص بالذات. بحيث لا يقدر أن يعصي أو يقاوم فلاناً من الناس، أو يخجل منه ويقوده الخجل إلى الخطأ. أو هو ضعيف أمام طلبات زوجة، أو صديق، أو شخص أكبر منه سناً أو مقاماً. أو هو ضعيف أمام رأي الجماعة التي تحيط به، وقد تكون جماعة مخطئة. أو هو ضعيف أمام ارتباطات قد ارتبط بها من قبل، أو تعهدات تعهد بها دون فحص دقيق ودون معرفة بكل نتائجها..

مثل هذا الشخص عليه أن يفضّل الحق على الشخص، ويطيع ضميره أكثر مما يطيع الظروف المحيطة. ويفيده أيضاً أن يخاف من النتائج السيئة التي يقوده إليها خجله وطاعته لغيره. أو يتحاشى لقاء الأشخاص الذين يضعف أمامهم، أو يواجههم ويشرح لهم بكل صراحة ما يتوقعه من نتائج سيئة لو نفذ لهم ما يريدون.

****

** هناك نوع من الضعف هو ضعف النفسية:

فقد يوجد إنسان نفسيته ضعيفة، من نوع الناس الذين يسمّونهم "صغار النفوس"... هذا النوع يقلق بسرعة، ويضطرب وينهار ربما لأتفه الأسباب. وهو يشك في ذاته وفي قدراته وفي مواجهته للمواقف، ويخاف من النتائج التي تنتظره، ولا يستطيع أن يحتمل. ولا يقدر أن يثبتّ في موقف ويتحمل مسئوليته... ومثل هذا الشخص له نفسية طفل صغير، حتى إن كان كبيراً في السن. وربما منذ طفولته، لم يعوّدوه الإقدام أو الاعتماد على النفس، أو أنه وقع في حياته تحت تخاويف كثيرة أو مرّ بتجارب مؤسفة وفاشلة أفقدته الثقة بنفسه، فوصل إلى حالته هذا فما موقفنا منه؟

ما أجمل عبارة "شجعوا صغار النفوس اسندوا الضعفاء، تأنوا على الجميع"... لذلك علينا أن نفتح طاقة من الرجاء لتضيء على الجالسين في الظلمة خائفين ومضطربين... نحدثهم عن عمل اللّه وتدخله، ونقوّي عزيمتهم، ونسهّل لهم الطريق، ونزيل من أمامهم المخاوف ونثبتّهم... إن اللّه نفسه يسند الضعفاء الذين كالأطفال، ويرسل لهم معونة من عنده، ولا يحتقر ضعفهم، ويظل يدرّبهم حتى يصيروا أقوياء، أو تتحسن نفسيتهم شيئاً فشيئاً.

****

** يوجد أحياناً من هو ضعيف في الأسلوب أو في التفكير:

الإنسان الضعيف التفكير يمكن أن ينمي قدرته على عمق أكبر من التفكير بقدر ما تحتمل قدراته العقلية. ولعل ما درسناه في الرياضة ونحن صغار في تمارين الهندسة والجبر يحمل أمثلة من تدريب الفكر، وكذلك ما يسلك فيه البعض من جهة حلّ الألغاز، كل هذا وغيره يُنمي الفكر. وإذا عجز البعض عن الحل، لا نُعطي لهم كل الحل دفعة واحدة، وإنما نقودهم في خطوة وندفعهم إلى التفكير في غيرها وهكذا. ولكن لا ييأس من هو ضعيف في فكره، بل يتدرب. كذلك كثرة الإطلاع مفيدة، على شرط أن يقرأ الشخص ما ينميه فكرياً...

وقد يقوى الشخص على التفكير، ويكون ضعيفاً في التعبير، أي لا يستطيع أن يعبر بطريقة سليمة أو بأسلوب جيد عما يريد. هذا أيضاً يمكن علاجه بالتدريج وبالتدريب...

**** أخيراً، هناك من هو ضعيف في إيمانه:**

والإيمان على درجات في قوته. ولست أقصد مجرد الإيمان النظري بوجود اللَّه، إنما بالأكثر الإيمان الذي يظهر عملياً في حياة الإنسان اليومية. فقد يتعرض شخص لمشكلة، ويضعف إيمانه في إمكانية حلها أو في تدخل اللَّه لإنقاذه منها. وقد يُصلي ولكن يضعف إيمانه في استجابة اللَّه لصلاته..! وعلى أية الحالات فإن الذي يخطئ وهو يعرف أن اللَّه يرى كل شيء ويسمعه، ما مدى إيمان هذا الشخص برؤية اللَّه له؟!

في كل ذلك على الإنسان أن يقوي إيمانه في ثقة كاملة باللَّه وعمله، ورؤيته وتدخله. وإن حاربه الضعف، يُصلي ويقول: "أنني أؤمن يارب. أعن ضعف إيماني".



٢٧ مايو ٢٠٠٧

مستويات ثلاثة
في سلوك الإنسان

يتكون الإنسان من ثلاثة عناصر رئيسية هى الجسد والروح والنفس. وقد كان قدماء المصريين يميزون بين الروح والنفس.. فالروح يسمونها الكا، والنفس يسمونها البـاء.. وسنحاول في هذا المقال أن نتحدث عن هذه العناصر الثلاثة، ومدى تأثير كل منها على الإنسان. وسنبدأ أولا بالجسد والروح، وبعد ذلك عن النفس..

* الجسد مأخوذ من المادة، فهو في احتياج إلى المادة بطريقة طبيعية لحفظ كيانه، من جهة غذائه وشرابه ودوائه، ومن جهة إقامته وراحته. فإن أخذ من المادة ما يلزمه، لا يكون قد أخطأ في شيء...

ولكن وجه الخطأ يأتي، حينما يشتهي الجسد المادة بطريقة غير طبيعية، وحينما تسيطر عليه هذه الشهوة وتعطل عمل الروح، إذ يشتهي الجسد ما هو ضد شهوة الروح فيقاومها...

* والجسد ليس شراً بطبيعته، وإلا ما كان اللّه قد خلق جسداً، لأنه لا يخلق شراً. ولكن الشر هو في انحراف شهوات الجسد. وذلك حينما يقع الجسد في شهوة الزنى، أو شهوة البطنة، أو في السكر والعبث، أو في شهوة القنية والامتلاك، أو شهوة المال عموماً، أو شهوة ما يمتلكه الغير.

* مثل هذا الشخص يصير جسدانياً، أي أنه يسلك في شهوات الجسد، وهو في هذه الحالة يكون بلا ضابط، وتسيطر عليه الحواس، بحيث يسعى باستمرار إلى متعة هذه الحواس - وبكون مستواه هو مستوى كثير من الحيوانات التي تعيش بأجسادها ولأجسادها...

** ولكن فليست كل الأجساد في هذا المستوى الجسداني، إذ توجد أجساد طاهرة، لأشخاص يعيشون في الجسد، ولكن ليس حسب أهواء الجسد وشهواته. بل يمكنهم أن يضبطوا تلك الشهوات والأهواء والغرائز لتسلك في مسلكها دون انحراف.

والجسد المنضبط هو الذي يخضع لقيادة الروح ولا يقاومها.

****

** فإن كنا قد تحدثنا عن المستوى الجسداني وأخطائه ولزوم انضباطه. فما هو المستوى الروحي إذن؟

الإنسان الروحي يهتم بسلامة روحه، وبالنمو في السلوك بالروح، سواء بالنسبة إلى نفسه أو إلى غيره. وهكذا يتحاشى كل ما يعطل روحياته. ويضع أمامه في كل حين، وفي كل أمر، أن تكون صلته دائمة باللَّه تبارك اسمه، ينفذ وصاياه، ويبني ملكوت اللَّه على الأرض، وينشغل بمحبة وملائكته وسمائه. ويقول كما قال داود النبي في المزمور: "محبوب هو اسمك يارب، فهو طول النهار تلاوتي". وفي نفس الوقت يحرص على أن قلبه نقياً لا يوجد فيه شيء يعكر صفو علاقته مع اللَّه.

** والإنسان الروحي يتغذى بالفضيلة، ويتغذى بالصلاة والتسبيح ومحبة اللَّه. يقوده ضميره الصالح، وعقله المنيرّ، وفهمه السليم لوصايا اللَّه، وحرصه الشديد على مصيره في الأبدية، وحبه للخير حيثما يحل، ومهما كانت الظروف.

* وروحه تخضع للَّه، وجسده يخضع لقيادة روحه. ويحفظ التوازن بين احتياجات جسده، والضوابط التي تضعها مبادئه ومثالياته...

** هذا هو المستوى الروحي الذي يسلك فيه الإنسان بالروح. على أن الإنسان مهما بلغ من مستوى روحي، يجب ألا يغتّر بذاته أو تأخذه الخيلاء والكبرياء، ظاناً أنه ارتفع إلى المستوى الذي لا يمكن أن يخطئ. بل يعرف أن الشيطان له حيله الكثيرة، وأنه "قبل الكسر الكبرياء، وقبل السقوط تشامخ الروح" كما قال سليمان الحكيم. ولذلك فالإنسان الروحي، مهما بلغ من علو، يلزمه التواضع. وفي نفس الوقت يحيا حياة الحرص والتدقيق، وفي حكمة حتى لا تخطئ. ولكي يتفادى أية نكسة في حياته الروحية، محترساً من أية خدعة يخدعه بها الشيطان...

* وفي كل ذلك يعتمد على اللَّه في كل شيء. ودائماً ينسب كل قوة يعمل بها إلى اللَّه الذي منحه إياها. ويطلب باستمرار أن يحفظه اللَّه من الزلل.

****

تكلمنا عن المستويين الجسداني والروحاني. فما هو إذن المستوى النفساني، الخاص بالنفس؟

** في المستوى النفساني يتركز الإنسان حول نفسه. ويقع في حب الذات وما تشتهيه النفس من رفعة وسلطة، ومن شهرة ومديح الناس.وقد يقع في الأنانية، إذ يحب ذاته وحدها، ويرجو الخير - كل الخير - لنفسه فقط وليس للغير. وبهذا قد يقع أيضاً في الحسد والغيرة، ويدبر المكائد حتى لا ينافسه أحد... وهكذا فإنه يستخدم الفكر أيضاً والمشاعر من أجل النفس، أي من أجل نفس واحدة هى نفسه!

** وقد يطلب من اللَّه بعض المواهب، ويكون غرضه منها ليس عمل الخير ولا خدمة المجتمع، وإنما التباهي بما قد وصل إليه، لكي ينال رفعة في نظر الغير.

** وهذا المستوى النفساني بعيد عن حياة الروح تماماً التي تتصف بالتواضع وإنكار الذات وتفضيل الغير... والعجيب أن الشخص النفساني - كلما يحاول أن يرفع نفسه - يكون قد هبط بها إلى أسفل، حتى في نظر الناس لأنهم ينفرون ممن يحب التباهي ومن يتمركز حول نفسه...

****

** وسنحاول أن نقارن بعض الشيء بين هذه المستويات الثلاثة التي يسلك الإنسان في واحدة منها...

** نقطة معينة هامة وهى متعة كل مستوى:

الجسد متعته في اللذة، واللذة هى من عمل الحواس، كما أنها مؤقتة وزائلة. وهى تختلف تماماً عن الفرح والسرور. أما النفس فسرورها ولذتها تكون في حيز ضيق وهو الذات. وهو سرور محدود وزمني، يكون له وقت عارض وينتهي...

** ولكن الروح هى التي تفرح الفرح الحقيقي. تفرح بالخير وانتشاره، وتفرح بوجودها في حضرة اللَّه. وتفرح بانتصارها على شهوات الجسد وعلى إغراءات الشيطان، وتفرح بنجاح الآخرين ونموهم وبرّهم. بل تفرح أيضاً بما يُسمى "مذاقه الملكوت" أي كيف تتذوق ملكوت اللَّه وهى على الأرض وتبتهج بعشرته. كذلك فإن الروح تتميز بأنها تفرح بالألم إذ كان من أجل اللَّه. وفرح الروح هو فرح دائم يبدأ ههنا على الأرض ويستمر في الأبدية.

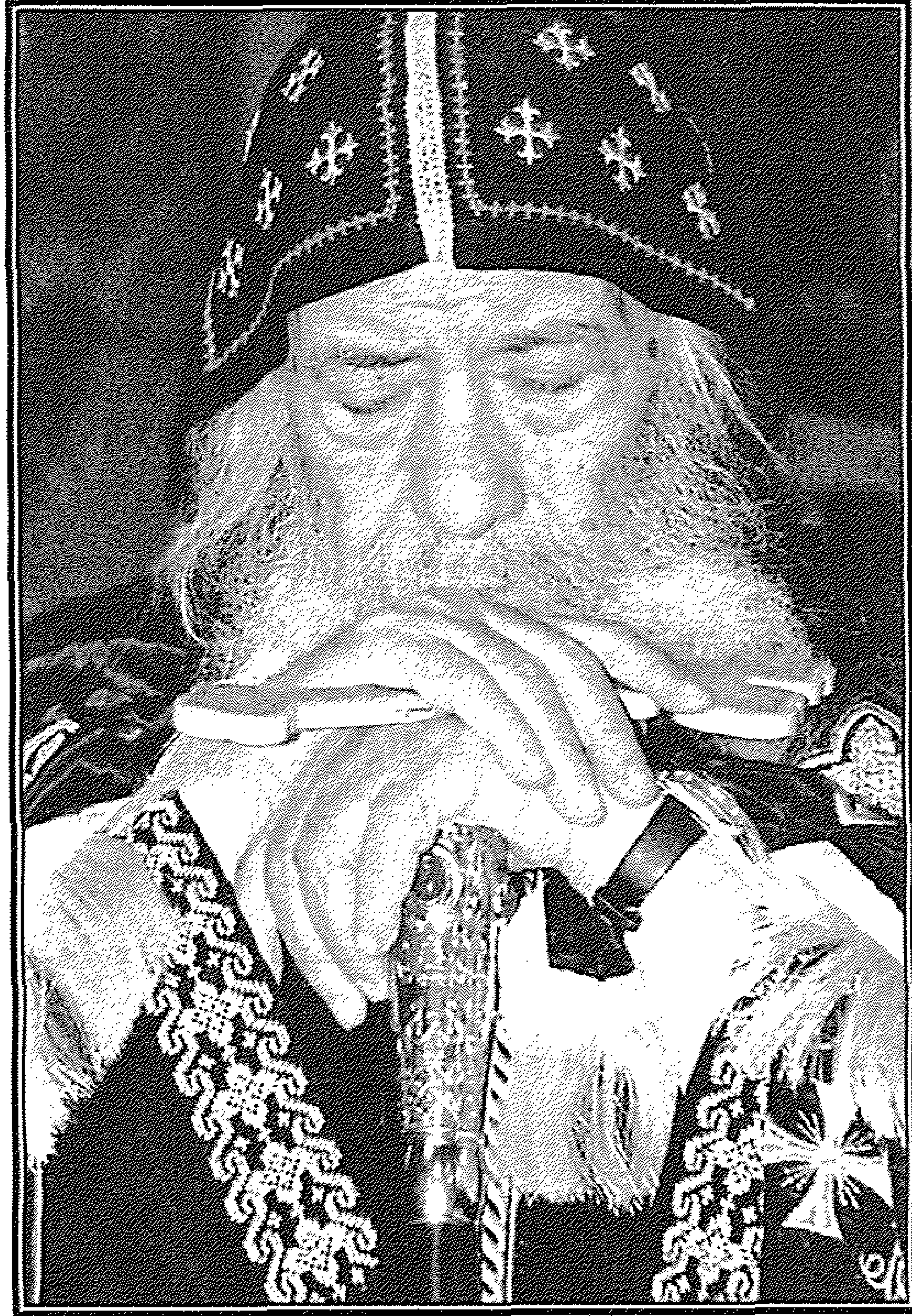
** ما يظنه المستوى الجسدي أو المستوى النفسي من فرح - أو من لذة وســرور - ما أسهل أن ينقلب في الأبدية إلى حزن، حين يكشف لهم اللَّه حقيقة ما كانوا فيه فيندمون!

** كذلك الشهوة تختلف تماماً في المستويات الثلاثة: فشهوة الجسد هى في المــادة، وشهوة النفس هى في الذات، أما شهوة الروح فهى في الخير والأبدية والحياة مع اللَّه...

****

** يبقى السؤال الأخير في مقالنا هو: هل يمكن التوفيق بين هذه المستويات الثلاثة؟ وكيف؟

يمكن ذلك في الشخصية المتكاملة، التي تعمل كلها من أجل هدف واحد مجاله الخير. بحيث لا تتعارض اتجاهات الروح مع الجسد ولا مع النفس. فالنفس تنكر ذاتها، والجســد لا يأخذ من المادة إلا ما يلزمه فحسب. ولا ينحرف الإنسان في كل عناصره عن هــدف الخير.



٣ يونيو ٢٠٠٧

هدوء الطبيعة والمساكن

الطبيعة الهادئة تنقل هدوءها إلى النفس. وهدوء الطبيعة يساعد على هــدوء الطبــع. ومحبو الهدوء يبحثون عنه أينما وُجد.

* من أجل ذلك يخرج الناس إلى الحدائق والبساتين، حيث المناظر الطبيعية الجميلــة تهدئي الأعصاب. وإن لم يستطيعوا ذلك بصفة دائمة، فعلى الأقل في أيام العطلات. كمــا يسافر الأثرياء إلى بلاد ذات طبيعة جميلة. وكثير من الناس يضعون في بيوتهم زهــوراً في أوانٍ خاصة، أو يزينون جدران منازلهم ببعض مناظر طبيعية مريحة.

** ولا شك أن ازدحام المساكن في المدينة - أية مدينة - يسبب ضوضاء وصــخباً للحواس. وبخاصة في الشوارع التجارية حيث يزدحم الناس بطريقة غير عادية - وكذلك في الأماكن التي تكثر فيها المصانع والمستشفيات والجامعات والمدارس، أو ما يســمونه (منطقة الخدمات) في المدينة.

** ويستتبع ذلك تعدد طرق المواصلات وما تحدثه من أصوات وضجيج. وبخاصة في ساعات بدء وانتهاء العمل في شتى المصالح، وأقصد ما يسمونه Rush hour حيــث يخرج الآلاف من الموظفين والطلبة ومن رجال الأعمال إما بعرباتهم الخاصــة أو فــي البحث عن الأتوبيسات وعربات الترام وعربات الأجرة. وهنا يبدو ضجيج المدينــة فــي عمقه، مما يتعب محب الهدوء ويفقده هدوء الحواس. وقد تتعطل المواصلات مــن كثــرة الزحام في المدن المكتظة بالسكان، وما يتبع كل هذا من مشاكل وانفعالات وتعطل مصالح البعض وضياع الوقت.

** لهذا كله، كان كثيرون يفضلون السكنى في الضواحي، حتى أن مدينة لندن مثلاً يفضل بعض سكانها أن يقطنوا خارج المدينة أو في ضواحيها المعروفة باسم Suburbia (كالمعادى بالنسبة إلى القاهرة مثلاً).

وعلى الأقل، إن لم يستطع البعض السكنى في الضواحي، فإنهم يقضون فيها نهاية الأسبوع كفترة راحة واستجمام، بعيداً عن ضجيج المدينة...

** كما أنه - التماساً للهدوء - بعض المدن لا تسمح أنظمتها ببناء كل مساحة الأراضي السكنية. فلا يُسمح لصاحب الأرض إلا ببناء ثلث مساحة أرضه أو ربعها. ويستخدم الباقي كفضاء أو حديقة. وهكذا تبعد المساكن عن بعضها البعض، كما توجد الخضرة التي تساعد على هدوء الأعصاب والهدوء النفسي. ويكتسب المكان جمالاً بما فيه من أشجار وأزهار. ويتمتع كل شخص بكمية كافية من الهواء النقي، وبمناظر طبيعية تجلب الهدوء إلى النفس...

وأمثال هذه المدن لا يُسمح فيها إلا بارتفاع محدود للمساكن... وتبعاً لكل ذلك يقل الزحام وتقل الضوضاء. وتكون هذه الأحياء السكنية هى الأحياء الهادئة في المدينة.

** ولكن نظراً لارتفاع ثمن الأراضي حالياً، ولكثرة السكان ولأزمة المساكن، فإن مثل هذه المساكن المريحة الهادئة، من الصعب أن تتوفر إلا للقادرين الذين يحبون الهدوء والسكون. وتلافياً لهذا النقص، تحاول بعض المدن أن تخصص مساحات معينة داخل المدينة لتكون حدائق عامة كتنفس للناس... على أن هذه الحدائق - على الرغم من نواحيها الجمالية والصحية - غالباً ما تكون أمكنة صاخبة من جهة الصوت، باعتبارها أماكن للترفيه وليس للهدوء.

** لهذا فإن الذين يلتمسون الهدوء، ولا يجدونه في هذا كله، فإنهم يُنصحون بتغيير الجو التماساً لهدوء الأعصاب...

وقد قرأت مرة في أثناء الحرب العالمية، أن أيزنهاور رئيس أمريكا ذهب ليقضي نهاية الأسبوع إلى جوار إحدى البحيرات، حيث التقطوا له صورة هناك وهو يصيد السمك. كل ذلك على الرغم من مسئولياته الخطيرة. ولكنه كان يعرف جيداً أن راحة الأعصاب سوف تُريحه في تحمل مسئولياته، وتعطيه نشاطاً للفكر وهدوءاً للنفس..

** وبعض الآباء كانوا يجدون الهدوء في البرية. وكانوا يفضلون هدوء الليل على ضجيج النهار. وكانت صلواتهم في الليل الهادئ أكثر عمقاً وتأملاً مما في النهار الصاخب. وأتذكر أنني كتبت في مذكرتي في إحدى الليالي، وأنا في مغارتي في الجبل (ربما سنة ١٩٦٠) البيتين الآتيين:

هدوء الليل موسيقى وأسرار تُهامسني

وصوت الريح في رفقٍ يصب اللحن في أُذني

أما في المدن، فإنه للأسف، قد غيروا هدوء الليل، وجعلوه مجالاً لصخب الملاهي والحفلات بكافة أنواعها وبرامجها وضجيجها...

** مما يؤثر على الهدوء أيضاً: الأصوات وشدة الأضواء وبعض الألوان: فالأصوات العالية تزعج الهدوء، سواء ما يصدر من القطارات والعربات وآلات التنبيه، والدراجات البخارية (الموتوسيكلات)، وأصوات الطائرات، ومكبرات الصوت في الاحتفالات (إن كانت خارج مكان الاحتفال) .. بل حتى أصوات المارة في الطرقات، وأصوات الباعة في بعض الأحياء الشعبية..

إن صخب الأصوات في المدينة يفقد أهلها هدوء الحواس، وبخاصة إن كانت تلك الأصوات تعلو وتتداخل وتستمر بلا ضابط.

** وحتى في أحاديث الناس العادية: هناك من يتحدثون في هدوء، فلا يرتفع صوتهم ويعلو. بينما غيرهم يتكلمون فيسببون ضوضاء تُفقد المكان هدوءه، ويشعر سامعوهم كأنهم في شِجار أو في معركة.. والوضع الهادئ هو أن يتكلم الشخص على قدر احتياج سامعه، ولا يرفع صوته فوق الحاجة. ومحبو الهدوء لا يسترحون إلى الصوت العالي ولا إلى الصوت الحاد ..

** لذلك قد تكون التليفونات أحياناً سبباً يُفقد البعض هدوءهم... وذلك إذا ما أكثر البعض استعمالها وطالت أحاديثهم، وأفقدت الطرف السامع إحساسه بملكيته لوقته، أو أشعرته بأنه قد فقد راحته، أو تعطلت أعماله بسبب تلك المكالمات..! لذلك فإن الذين يريدون قضاء وقت هادئ، يبعدون عن استخدام التليفونات إلا في الضروريات فقط.

** الألوان كذلك منها ما يشيع الهدوء في النفس، ومنها ما يثير الناظر إليه. فـــاللون الأخضر مثلاً لون هادئ، وكذلك اللون السماوي. بعكس الألوان الحمراء والصـــاخبة، إلا إذا كان لونها مجرد تنوع في مجموعة، يضفي وجوده جمالاً خاصاً. ولهذا فإن كثيـــرين يختارون لجدران بيوتهم ألواناً مريحة للنظر، وكذلك ألوان أثاثـــاتهم وألـــوان ملابســـهم. ويختارون في حدائقهم ألواناً من الزهور تريح أعصابهم...

** وكما نذكر الألوان، نذكر الأضواء أيضاً: فالأضواء الشديدة مثيرة وتتعب العين والأعصاب. وهكذا فإن الكشافات القوية التي للسيارات، تتعب أعين السائقين في الاتجـــاه المضاد.

** مما يزعج الهدوء أيضاً: ماكينات المصانع إن كانت في مناطق ســـكنية، فـــإلى جوار أصواتها، كثير منها يلوث الجو بالدخان أو بالبخار أو بغير ذلك مما يكون له تأثير على الصحة كما أنه يفقد الهدوء.

إن العالم لا يستغني عن المصانع ولها فوائدها الاقتصادية.. ولكن ليس مكانها وســـط مساكن الناس، ويحسن اختيار أماكن أخرى لها... وفي بعض الدول توجد مدن معنية من المعروف أنها مدن صناعية. وهى غير باقي المدن التي يعيش ساكنوها في جو هـــادئ. ويكفي أن عمال تلك المصانع يتحملون متاعبها.

وينطبق هذا الكلام أيضاً على المناطق التي تنتج البترول، والتي تعمل في الأســـمنت والجير ومشاكل ذلك. إلى جوار الضجيج الذي يصدر عن مصانع الصلب والحديد وأدواته المتعددة...

** ونحن نشكر الله أن بلادنا هادئة من نواحٍ طبيعية معينة فلا توجد فيها ثـــورات من باطن الأرض من براكين أو زلازل، كما أنها لا تقاسي من اجتياح السيول، ولا مـــن الثلوج وذوبانها.

أما كيف يقتني الناس الهدوء من حيث داخل نفوسهم وطباعهم، فهذا لـــه موضـــوع خاص سوف ننشره إن أحبت نعمة الرب وعشنا.

١٠ يونيو ٢٠٠٧

تدريبات على الهدوء

إذا أردت أن تدرب نفسك على الهدوء - وبخاصة هدوء القلب وهدوء الأعصاب وهدوء الحياة - فعليك بالنصائح الآتية:

١- لا تسمح لأي شيء أن يثيرك. بل تقبّل كافة الأمور بنفس هادئة، لا تنفعل كثيراً بالأسباب الخارجية مهما كانت تبدو متعبة، ولا تقلق وتضطرب. وإن انفعلت، حاول أن تضع حدوداً لانفعالك، وأن تهدئ نفسك. ولا تتصور أو تتخيل نتائج خطيرة سوف تحدث، فهذا التخيل سوف يزعجك. وقل لنفسك: إن كل مشكلة لها حل أو بضعة حلول. فكرّ إذن في الحلول، حينئذ يدخل الهدوء إلى قلبك. وإن عجزت عن إيجاد حلّ، استشر غيرك. وإن عجز الغير أيضاً، فأعطِ المشاكل مدى زمنياً تحل فيه. واطلب معونة اللّه وتدخله وستره. وباستمرار اجعل المشاكل تدور حولك من الخارج، دون أن تدخل إلى قلبك فتؤذيك. إن الأمواج الهائجة إذا صدمت السفينة من الخارج لا تضرها. ولكن إن وُجد ثقب في السفينة تدخل منه المياه، حينئذ تكون السفينة في خطر. احرص إذن على عدم وجود ثقوب في نفسك تدخل منها المشكلة إلى أعصابك لتحطمها.

٢- كن دائماً قوي القلب قوي الإيمان، واسع الصدر في مقابلة المتاعب، بحيث لا تتضايق بسرعة. واعلم أن الضيقة قد سُميت هكذا، لأن القلب قد ضاق عن أن يتسع لها. أما القلب الواسع فإنه لا يتضايق بشيء. إن قطعة من الطين إذا ألقيت في كوب من الماء فإنها تعكره. أما إذا ما ألقيت في المحيط فإنها لا تعكره. بل يفرشها في أعماقه ويقدم لك ماءً رائقاً...

اعرف يا أخي أنه إذا وقع حجر على جبل، فأنه لا يهزه. ولكن إن وقع هذا الحجر على زجاج فإنه يهشمه ويفتته. لهذا كن جبلاً لا زجاجاً.

٣- مما يفيدك في حياتك، أن تكون لك روح المرح وبالبشاشة. فإنها تجلب للإنسان هدوءاً في النفس، واسترخاءً في الأعصاب، وتبعد عنه الكآبة والاضطراب. ومهما كان

الجو مكهرباً وصاخباً، فإن الإنسان المرح، يستطيع بفكاهة لطيفة أن يزيل جو التـــوتر.. وعموماً فإن المتصفين بالمرح، تكون أعصابهم هادئة. بل إنهم بالأكثر يمكنهم أن يهـــدئوا غيرهم أيضاً. كما أن الوجوه البشوشة تشيع الهدوء في الآخرين. لهذا درّب نفسك علـــى البشاشة والمرح، وتقبّل كثيراً من الأمور بهذه الروح...

٤- كذلك أن أردت أن تكسب الهدوء، يمكنك ذلك بمعاشـــرة الأشـــخاص الهـــادئين، بعكس الذين يختلط دائماً بالمضطربين والثائرين، فإنهم ينقلون إليه عـــدوى مشـــاعرهم. فالخائفون ينقلون إليه خوفهم، والمتشائمون ينقلون إليه تشاؤمهم. وكذلك فالذين يحـــاربهم الشك والضيق ينقلون إلى غيرهم الشكوك والضيقات. أما معاشرة الهادئين فإنها تمنح الثقة والطمأنينة والسلام.

قد تقرأ خبراً مزعجاً فتقلق. ثم تُقابل شخصاً هادئاً فتجده قد تقبّل الخبر بمنتهى الثقـــة وهو مطمئن تماماً أنه سوف لا يحدث شيء متعب على الإطلاق. ويشـــرح لـــك، فيبـــدأ الاطمئنان يزحف من نفسه إلى نفسك فتهدأ. ألست ترى إذن أنك بمعاشرة الهادئين يمكنك أن تمتص إيمانهم وهدوءهم، وتأخذ من سلامهم الداخلي سلاماً لنفسك... وتأخـــذ أيضـــاً نموذجاً وقدوة من طباعهم الهادئة، وتحاول أن تحاكيها إذ تعجبك وتريحك. وتتعود علـــى طريقة تفكيرهم في مقابلة المشاكل والضيقات، وتتعلم من ذكائهم كيف يســـتوعب العقـــل المشكلة ويهضمها، وكيف يمكنه إن يفهم الأمور ويحل المشاكل ويستنتج الطرق الصالحة لعلاجها، كما تتعلم أيضاً من إيمانهم ومن طِول بالهم واحتمالهم وصبرهم.

إن معاشرة الهادئين هى من أفضل أنواع المهدئات.

٥- كذلك درّب نفسك على عدم الاندفاع وعدم التسرع. واعرف أن قلة الصبر تـــدل على عدم هدوء الإنسان في الداخل. فالإنسان الهادئ يكون دائمـــاً طويـــل البـــال. فـــإن اضطرب يفقد القدرة على الصبر. ولا يستطيع أن ينتظر حتى تحُلّ الأمور. إنما يريد أن يعمل الآن أي عمل، أو يتكلم أي كلام، أو يتخذ أي قرار!! وفي ذلك ما يضره.

٦- ما دمت لم تصل بعد إلى فضيلة الهدوء، ابعد إذن بقدر إمكانك عن أسباب الإثارة وكل مصادرها. ابحث ما هى الأسباب التي تجعلك تفقد هدوءك، سواء كانت منك أو من

الخارج. وتحاشى هذه الأسباب وبخاصة في المعاملات. وكما قال أحد الحكماء: "لا تأخذ وتعطي مع إنسان يقاتلك به العدو". وابعد عن المناقشات الحادة. ولا تستصحب غضوباً. وابعد أيضاً عن القراءات التي تفقدك الهدوء، وعن سماع الأخبار التي تزعجك.

٧- وفي معاملاتك مع الآخرين لا تفترض المثالية في جميع الناس. فإن قوبلت بتصرف خاطئ من البعض، لا تتضايق. فالناس هكذا: فيهم الطيب والرديء. ولا تتوقع أنك ستتعامل مع ملائكة أو قديسين، إنما مع بشر عاديين، لا نسمح لأخطائهم من نحونا أن تقلقنا..!

وأيضاً لا ترد على أحد وأنت غضبان. إنما انتظر إلى أن تهدئ نفسك، ثم أكمل الحديث معه، أو على الأقل اصمت. فليس من صالحك ولا من صالحه أن تناقشه وأنت في حالة توتر. واحذر من أن ترد على الإساءة بإساءة، وإلا تكون قد شابهت المسيء في أخلاقه...

٨- ابعد عن استخدام العنف بكل أنواعه، ولا تواجه العنف بالعنف. فليس هذا هو أسلوب الروحيين. فالإنسان الروحي لا يغلبنّه الشر، بل يغلب الشر بالخير. وإذا تملكتك الحيرة في التصرف، فشاور أحد الحكماء واعمل بمشورته. فإنك بهذا تضيف إلى فكرك فكراً أكثر خبرة. وتتعلم الحياة عملياً...

٩- لا تلجأ إلى العقاقير لكي تحصل على الهدوء. واعلم أن استخدام المسكنات والمهدئات والمنومات لها ردود فعلها واحذر من أن تتعودها. إنها كلها تُتيهك عن نفسك، دون أن تحل مشاكلك أو تزيل متاعبك. إنما اعمل على حلّ إشكالاتك داخل نفسك، وبحلول عملية وطرق روحية. واعرف أن الذي يتعود تعاطي المسكنات، قد تصبح إدماناً ولا تفيده بل قد يضطر إلى إزادة كمياتها. وما أن يفيق منها حتى يجد نفسه كما هى بنفس متاعبها وبدون حلّ...

١٠- كذلك لا تلتمس الهدوء بالانطواء والهرب. ولا تظن أنك في انطوائك على نفسك قد صرت هادئاً! كلا، فهذا مرض آخر وليس هدوءاً .. فإن كانت لك مشكلة في بيتك، لا تظن أن حل المشكلة هو في هروبك إلى النادي أو المقهى أو إحدى السهرات، بينما تظل المشكلة قائمة كما هى. لا تصلح إلا بمواجهتها، ومعرفة أسبابها وحلها عملياً..

١١- تعوّد الهدوء في دخولك وخروجك، وفي طريقة كلامك بحيث تكون ألفاظك هادئة ليست فيها كلمة عنيفة أو جارحة. وقبل أن تلفظ كلمة فكرّ في نتائجها وفي تأثيرها على غيرك...

وإذا كتبت خطاباً غير هادئ، فلا ترسله بسرعة. بل اتركه يوماً أو يومين، وأعد قراءته، وغيرّ ما يلزم تغييره فيه. وكل فكر يلحّ عليك، لا تسرع في تنفيذه ولا تطاوعه. بل أنتظر حتى تفحصه في هدوء...

١٢- أخيراً، أنصحك بأن تُعطي جسدك ما يحتاجه من الراحة ولا ترهقه. فإن الإنسان في حالة الإرهاق، تكون أعصابه عرضة لعدم الاحتمال، وربما يفقد هدوءه ويتصرف بغضب أو عصبية لأتفه الأسباب مما يندم عليه فيما بعد. لذلك لا تدخل في مناقشة حادة وأنت مرهق. ولا تأخذ قراراً مصيرياً وأنت مرهق.

١٧ يونيو ٢٠٠٧

الوداعة
ودماثة الخُلق

من هو الإنسان الوديع؟ وما صفاته وبناء شخصيته؟

** الإنسان الوديع هو الشخص الطيب المسالم. وكثير من الناس يستخدمون صفة الطيب بدلاً من صفة الوديع. وهو عموماً إنسان هادئ بعيد عن العنف. هو هادئ في طبعه. هادئ الأعصاب، وهادئ الألفاظ والملامح، وهادئ الحركات فالهدوء يشمل كله من الداخل والخارج. فهو هادئ في قلبه ومشاعره، وهادئ أيضاً في تعامله مع الآخرين، ويتصف بالحلم فهو حليم في أخلاقه.

** وقد قيل عن السيد المسيح في وداعته إنه "لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ". فهكذا يكون الوديع بعيداً عن الصخب والضوضاء. لا يصيح. بل حينما يتكلم، يتصف كلامه بالهدوء واللطف، يختار ألفاظه بكل دماثة وأدب. لا يجرح بها شعور إنسان أياً كان. حتى إن كان ذلك الشخص مثل فتيلة مدخنة، لا يطفئها، فربما تمر عليها ريح فتشعلها.

** يعمل كل ذلك - لا عن ضعف - وإنما عن لطف.

يذكرني هذا الأمر بقصيدة كنت قد نظمتها منذ حوالي ٥٦ عاماً في يوم الأربعين لأستاذ وديع كنت أحبه، وقلت فيه:

يا قوياً ليس في طبعه عنفُ ... ووديعاً ليس في ذاته ضعفُ
يا حكيماً أدّب الناس وفي ... زجره حبٌ وفي صوته عطفُ
لك أسلوب نزيهٌ طاهرٌ ... ولسانٌ أبيضُ الألفاظِ عَفُّ
لم تنلْ بالذمِّ إنساناً ولم ... تذكر السوءَ إذا ما حلّ وصفُ
إنما بالحب والتشجيع قد ... تُصلح الأعوجَ، والأكدرَ يصفو

** الإنسان الوديع يكون أيضاً بعيداً عن العنف وعن الغضب هو إنسان هادئ لا يثور ولا يثار. لا يحتد ويغضب بسرعة ولا يبطئ. ولا ينفعل الانفعالات الشديدة، ولا تغلبه النرفزة (العصبية)، لأنه هادئ باستمرار، يتصف بالطيبة والبشاشة. لا ينتقم لنفسه، ولا يحلّ مشاكله بالشدة. بل إن حدث وأساء إليه أحد، يقابل ذلك بالاحتمال والصبر.

** والإنسان الوديع لا يقيم نفسه رقيباً على الناس وتصرفاتهم. إنه لا يقيم نفسه قاضياً، ولا يتدخل فيما يفعله غيره. ولا يُعطي نفسه سلطة مراقبة الآخرين والحكم على أعمالهم. وإن اضطرته الضرورة إلى الحكم، لا يقسو في أحكامه.

** وقد يغلبه الحياء، فلا يرفع بصره ليملأ عينيه من وجه إنسان. إنه لا يفحص ملامح غيره ليحكم على مشاعره ماذا تكون، أو ما مدى صدق الغير في كلامه.. وإن حورب بذلك يقول لنفسه: "أنا مالي، خلّيني في حالي". هو بطبيعته الوديعة لا يميل إلى فحص أعمال الناس..

وإن تدخّل في الإصلاح، يُصلح بهدوء ووداعة ورقة..

** والإنسان الوديع يكون دائماً سهل التعامل مع الغير. يستطيع كل شخص أن يأخذ معه ويعطي... إنه سهلٌ في نقاشه وحواره. لا يحتد ولا يشتد. ولا يستاء من عبارة معينة يقولها من يحاوره. بل يشعر المتناقش معه براحة مهما كان معارضاً له. يعرف أنه سوف لا يغضب عليه، وسوف لا يحاسبه على كل لفظ مما يقوله.

** الإنسان الوديع بشوش، لا يعبس في وجه أحد. له ابتسامة حلوة محببة إلى الناس، وملامح سمحه مريحة لكل من يتأملها. لا تسمح له طبيعته الهادئة أن يزجر أو يوبخ أو يحتد أو يشتد، أو أن يغير صوته في زجر إنسان.

** ومهما عومل، لا يتذمر ولا يتضجر ولا يشكو. بل غالباً ما يلتمس العذر لغيره، وفي ذهنه يبرر مسلكه، ولا يظن فيه سوءاً، وكأن شيئاً لم يحدث. فلا يتحدث عن إساءة الناس إليه، ولا يحزن بسبب ذلك في قلبه. وإن حدث وتأثر بسبب ذلك أو غضب، سرعان ما يزول تأثره. ولا يمكن أن يتحول حزنه أو غضبه إلى حقد، بل ما أسرع أن يصفو.

** إنه إنسان بطيء الغضب. لا يغضب لأي سبب. أما إذا غضب الوديع، فلا بد أن أمراً خطيراً قد دعاه إلى ذلك. وغالباً ما يكون غضبه لأجل الخير ولأجل الغير، وليس لأجل نفسه أو بسبب كرامته أو حقوقه الشخصية... وإذا غضب الوديع فإنه لا يثور

ولا يفقد أعصابه، إنما يكون غضبه هو مجرد تعبير عن عدم موافقته وعدم رضاه عما يحدث. فهو عموماً أعصابه هادئة. وإذا انفعل لا يشتعل.

** والإنسان الوديع هو بطبيعته مسالم، لا ينتقم لنفسه. لا يقابل الشر بمثله، ولا يرد على السيئة بما يشبهها. إنما هو كثير الاحتمال. لا يدافع عن نفسه. بل غالباً ما يدافع عنه غيره، موبخين من يسيء إليه بقولهم "ألم تجد سوى هذا الإنسان الطيب لكي تُسيء إليه؟!". فالوديع لا يؤذي أحداً، ويحتمل أذى المخطئين..

** والوديع له سلام في داخله، فلا ينزعج ولا يضطرب. فكل المشاكل الخارجية لا تستطيع أن تعكر صفوه الداخل. وكما قال أحد الآباء: "سهل عليك أن تحرك جبلاً من موضعه. وليس سهلاً أن تُثير إنساناً وديعاً".

والوديع لا يصطنع الهدوء. إنما كما خارجه، هكذا داخله أيضاً. إنه كصخرة أو جندل في نهر، مهما صدمته الأمواج لا يتزعزع.

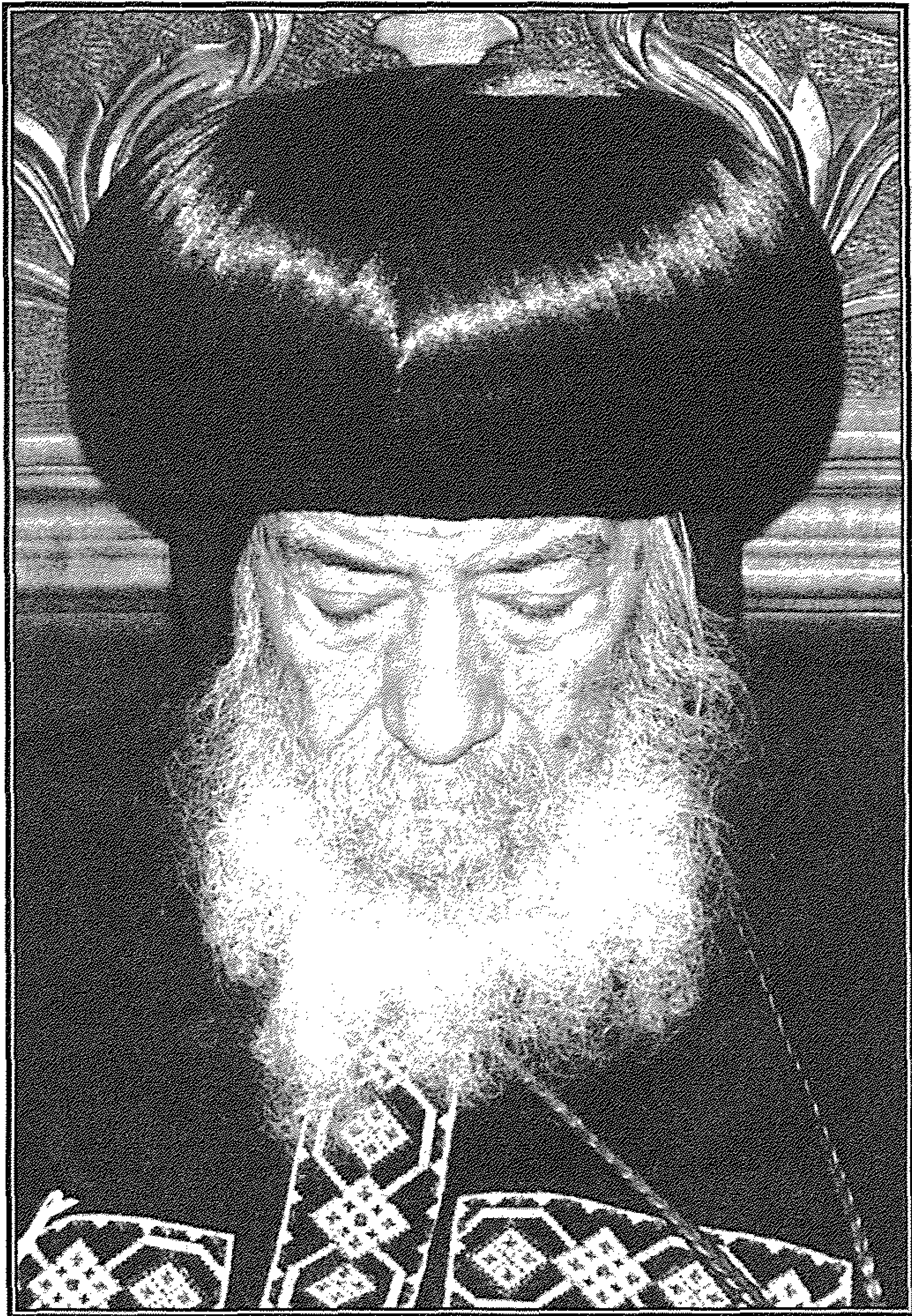
** والوديع بعيد عن المجادلة والمحارنة. أو ما يسميه العامية (المقاومة في الكلام). لأنه لا يجاهد لكي يقيم كلمته أو لكي ينتصر في المناقشات. إنما هو يقول رأيه ويثبته، وليقبله من يشاء ومتى يشاء، دون أن يدخل في صراع جدلي يفقده هدوءه..

** والوديع لا يوجد في تفكيره خبث ولا دهاء ولا تعقيد... لا يقول شيئاً وفي نيته شيء آخر. بل الذي في قلبه هو الذي على لسانه. وما يقوله لسانه إنما يعبر عن حقيقة ما في قلبه، فليس عنده التواء، ولا يدبر خططاً في الخفاء. بل هو إنسان واضح، يتميز بالصراحة، يمكن لمن يتعامل معه أن يطمئن إليه تماماً. فهو شخص بسيط، لا حويط ولا غويط!.

** إنه يمر على الحياة، كما يمر النسيم الهادئ على سطح الماء.. فهو لا يُحدث في الأرض عاصفة ولا زوبعة، ولا يُحدث في البحر أمواجاً ولا دوامات. فهو لا يحب أن يحيا في جو فيه زوابع ودوامات لأن كل ذلك لا يتفق مع طبعه، ولا مع هدوئه ولا لطفه، ولا مع أسلوبه في الحياة. لذلك كل من يعاشره يلتذ بعشرته. فهو إنسان طيّب لا يصطدم بأحد، ولا يزاحم غيره في طريق الحياة. وإن صادف في طريقه مشاكل، فإنه يمررها، ولا يدعها تمرره...

** وأخيراً هناك نوعان من الودعاء: أحدهما وُلد هكذا، والثاني اكتسب الوداعة بجهاد وتداريب وبعمل النعمة فيه...

** على أن في حديثنا عن الوداعة، لا يفوتنا أن ننسى ما يعطلنا. فأحياناً تقف ضدها الإدارة والسلطة. فالبعض إذ يمارس الأمر والنهي، والتحقيق والمعاقبة، ويكون من واجبه مراقبة الآخرين وتصريف أمورهم، قد يفقد وداعته أحياناً، ويرى في الحزم والعزم والحسم ما يبرر له العنف في بعض الأوقات. ولكن مغبوط هو الذي يحتفظ بوداعته فيما يمارس عمل السلطة... وهنا يبدو أن موضوعنا هذا يحتاج إلى تكملة...



٢٤ يونيو ٢٠٠٧

الوداعة
وقوة الشخصية

بدأت معكم في مقالي السابق موضوعاً عن الوداعة. فتحدثت عن علاقة الوداعة بدماثة الخلق، فشرحت بعضاً من شخصية الإنسان الوديع، ورقته وهدوئه ولطفه واحتماله... ولكي نستكمل هذا الموضوع، علينا أن نتحدث عن نقطة أخرى هامة وهى علاقة الوداعة بقوة الشخصية، وبالذات بفضائل أخرى مثل الشجاعة والشهامة والنخوة والجرأة، وهل كل تلك الفضائل تتعارض مع الوداعة في رقتها وهدوئها؟...

** إن الفضائل لا يناقض بعضها بعضاً، فهى تتكامل ولا تتعارض. وينبغي أن يفهم الناس معنى الوداعة في حكمة. فالمعروف أن الطيبة هى الطبع السائد عند الوديع. ولكن عندما يدعوه الموقف إلى الشهامة أو الشجاعة أو الشهادة للحق، فلا يجوز أن يمتنع عن ذلك بحجة التمسك بالوداعة. أما إن امتنع عن الموقف الشجاع، فلا تكون هذه وداعة حقيقة، إنما تصير رخاوة في الطبع، وعدم فهمٍ للوداعة، بل عدم فهم للحياة الروحانية بصفة عامة. فالروحانية ليست تمسكاً بفضيلة واحدة تُلغى معها باقي الفضائل، إنما هى في ممارسة كل الفضائل معاً بطريقة متجانسة ومتعاونة...

إن الشخص الوديع الطيب الهادئ، ليس هو جثة هامدة لا تتحرك.. بل إنه - إذا دعته الضرورة - يتحرك بقوة نحو الخير ونحو الغير.. ولا يكون هذا ضد الوداعة في شيء. إنما عدم تحركه يكون نوعاً من الخمول، ويُلام عليه. وربما يصبح هزأة في نظر الناس...

** فالوديع يمكن أن يدافع عن المظلوم، وأن ينقذ المحتاج. هل إذا رأى شخصاً في خطر، معرّضاً للقتل من بعض الأشرار، ألا يهمّ بإنقاذه، أم يحجم عن ذلك مدعياً أن الوداعة لا تتدخل في شئون الغير؟! وهل إن سمع فتاة تصرخ وهى تستغيث بسبب أشخاص يحاولون الاعتداء عليها، أتراه يبعد عن إنقاذها، أم هو بكل شهامة ينقذها، ولو

أدّى به الأمر أن يدخل في عراك أو شجار... فهكذا يكون موقف الرجولة والفروسية. وهو لا يتعارض مع الوداعة في شيء...

** إن الوديع لا يكون سلبياً باستمرار، إنما يتخذ الوضع الإيجابي حينما تدفعه الضرورة إلى ذلك. فهو يشهد للحق ولا يمتنع. كما يتدخل لحل مشاكل الغير حين يكون في طاقة يده أن يفعل ذلك. ويكون حله للمشاكل في هدوء يتفق مع طبيعته، وفي حدود الواجب عليه.

** من خصال الوديع أنه لا يتكلم كثيراً. ولكنه في ذلك يضع أمامه قول سليمان الحكيم: "لكل شيء تحت السمَوات وقت. للكلام وقت، وللسكوت وقت"... لذلك فهو يتكلم حين يحسن الكلام. ويصمت حين يحسن الصمت. وإذا تكلم يكون لكلامه تأثيره وقوته. وإن صمت تكون في صمته أيضاً قوة - ولكنه لا يصمت حين تدعوه الضرورة إلى الكلام، شاعراً بأننا أحياناً نُدان على صمتنا...

** هنا ونسأل: هل يمكن للإنسان الوديع الطيب القلب أن ينتهر ويوبخ ويؤدب؟ نقول: إن كان ذلك من واجبه، فلا بد أن يفعل ذلك. فالأب له أن يؤدب أولاده، وإن لم يؤدبهم يجازه اللَّه على تقصيره. وكذلك المدرس بالنسبة إلى تلاميذه، ورئيس أي عمل بالنسبة إلى مرءوسيه. فكل هؤلاء يمكنهم أن ينتهروا ويوبخوا المخطئين، حفظاً على سلامة سير الأمور. ولا يكون ذلك ضد الوداعة... على أن يكون التوبيخ في غير قسوة، وبأسلوب عفيف لا تتدنى فيه الألفاظ عن المستوى اللائق. والمعروف أن الأنبياء والرسل كانوا يوبخون البعيدين عن طريق الرب لكي يقودوهم إلى التوبة. وما كان يتهمهم أحد بأنهم ضد الوداعة.

** في موضوع الوداعة إذن، ينبغي أن نفرق بين الأشخاص الذين هم في وضع المسؤولية، وبين الذين لا مسؤولية لهم. فالذي هو في منصب الإدارة والمسئولية، له أن يأمر وينهي، بكل حزم لكي تستقيم أمور إدارته. ولكن ليس له أن يأمر في تسلط أو غطرسة، فهذا لا يتفق مع الوداعة. وهكذا يحتفظ بين الوداعة والسلطة. ولكن الإنسان الوديع العادي الذي لا مسئولية له، فإنه ينأى عن الأمر والنهي واستخدام السلطة.

** كذلك فالشخص المسئول ينبغي أن تكون له هيبته واحترامه، لا في كبرياء، إنما لتوقير منصبه وشخصه أيضاً. ويمكن أن يجمع بين الوداعة والهيبة. فهو لا يكلم الناس

من فوق، في تعالٍ بل في بساطة وحسن تعامل واحترام لمشاعرهم، دون الإخلال بوقار رئاسته. وهكذا فإن الشخص المسئول، يمكن أن يكون وديعاً، لا وضيعاً. وكبيراً لا متكبراً...

** هل يمكن إذن للإنسان الوديع أن يغضب وأن يحتج دون أن يتعارض ذلك مع وداعته.

نعم، يمكن أن يغضب، ولكن في غير نرفزة (عصبية) لأن النرفزة هى ضعف في الأعصاب لا يليق بالوداعة. إنما الوديع في غضبه يعبر عن عدم رضاه، ويعبر عن ذلك في حزم وفي هدوء، بدون صخب أو ضوضاء... وهو في غضبه يعمل على تصحيح الأخطاء.

وله أيضاً أن يحتج، ولكن في أدب وبأسلوب يليق بوداعته. واحتجاجه يكون تعبير عن عدم رضاه.

** إن الإنسان الوديع له إنسانيته الكاملة، وله حقوقه وعليه واجبات. وإن كانت الطيبة هى الصفة السائدة في شخصيته، إلا أنها لا تلغي باقي صفات الشخصية من الشجاعة والشهامة والجرأة والشهادة للحق. كما أن للوديع حماسة قد تظهر في حينها، وإرادة تحب أن تعمل. والطيبة عنده لا تعني السذاجة، وإنما هى دائماً تمتزج بالحكمة، وتسلك بالأسلوب الرصين في هدوء وبعيد عن الضجيج.

** فالوديع لا يهين أحداً، وفي نفس الوقت لا يعرّض ذاته للمهانة.. وهو لا يرد على الإساءة بالإساءة، وأيضاً يبعد عن المسيئين ويتحاشى الخلطة بهم. وهو يحترم الناس، ويتصرف بما يدعوهم إلى احترامه. هو في مستوى مرتفع عن الخطأ. فبقدر إمكانه لا يقع في خطأ. أما إن أخطأ إليه أحد، فذاك يبكته ضميره ويبكته الآخرون.

** لهذا كله لا نتناول الوداعة بأسلوب أنصاف الحقائق، بل نعرضها بحقيقتها الكاملة، سواء من جهة دماثة الخلق، أو من جهة قوة الشخصية أيضاً. وبهذا تتضح صورتها الحقيقية.

١ يوليو ٢٠٠٧

ثلاثة تفاصيل لفضيلة الأمانة

لست أقصد مجرد الأمانة في المال والأمور المادية، أي أن الإنسان لا يكون سارقاً أو ناهباً لغيره... إنما أقصد الأمانة بوجه عام في كل حياة الإنسان الروحية، في تفاصيل ثلاثة.

أمانة في علاقته مع الله، ومع الناس، ومع نفسه...

كثيرون بدأوا الحياة معاً. ولكن بعضهم وصل، والبعض لم يصل، والبعض تأخر. فما السبب في كل ذلك؟ السبب هو مقدار أمانة كلٍ منهم. فالذين وصلوا هم الذين كانوا في غاية الأمانة في أداء دورهم في الحياة والقيام بواجباتهم ومسئولياتهم على أكمل وجه...

** والأمانة تشمل الأمور العالمية، كما تشمل الأمور الروحية. فكما يهتم الإنسان بروحياته، ينبغي أن يكون أميناً في كل عمل يعمله. فالتلميذ ينبغي أن يكون أميناً في دراسته، في مذاكراته ومراجعته ونجاحه وتفوقه. وكذلك العامل في إتقانه لعمله وحفظه لمواعيده. وبالمثل الموظف وكل من هو في مسئولية. فيوسف الصديق كان إنساناً روحياً وأميناً في عمله، سواء في خدمته لفوطيفار حتى ازدهر عمل الرجل. كما كان خادماً في عمله كوزير تموين لمصر، حتى أنقذها وأنقذ البلاد المحيطة لها من المجاعة.

** وتوجد في الحياة العملية أمور لاختبار الأمانة: مثال ذلك: هل من الأمانة أن يحصل شخص على شهادة مرضية زائفة، يقدمها للحصول على عطلة من العمل بدون وجه حق. وهو في ذلك لا يكتفي بأن يكون غير أمين، إنما يوقع الطبيب معه ويجره إلى الخطأ معه! كذلك من يأخذ بدل سفر بدون وجه حق، أو يطلب بمكافأة على عمل زائد Over time بينما يمكن القيام بنفس العمل في الوقت العادي بدون زيادة!

والأمثلة كثيرة من جهة عدم الأمانة في الحياة العملية: منها من ينقل الأخبار بطريقة غير أمينة. أو من لا يكون أميناً على سرّ اؤتمن عليه. كذلك من لا يؤدي أية مهمة كُلِّف بها بالأمانة المطلوبة.

الأمانة تجاه اللَّه:

* فقلبك الذي هو مِلك للَّه، لا تفتحه لأعدائه. وهكذا فإن الإنسان الأمين نحو اللَّه وحفظ وصاياه، لا يتساهل مع أية خطية، ولا يتراخى مع الفكر الخاطئ، بل بكل أمانة يطرده بسرعة ولا يقبل أن يفصله أي فكر أو أية مشاعر عن محبة اللَّه وعن طاعته وحفظ وصاياه. وهو يحفظ تلك الوصايا ولا يحيد عنها أميناً في تنفيذها، لا يلتمس في ذلك ولا تبريراً، وينتصر على كل العوائق.

* وهو أمين أيضاً في صلواته وكل نواحي عبادته، وأمين في عقيدته وفي إيمانه وفي تقديم صورة مشرقة عن الإنسان المؤمن. وهو أمين في خدمة بيت اللَّه وفي دعوة الناس إليه. ويفعل ذلك بكل جدية. يبدأ يومه باللَّه وينهيه بذكر اسمه. ويحيا باستمرار في حياة الشكر، يشكر اللَّه على نعمته وستره ورضاه. ولا يتذمر مُطلقاً على مشيئة اللَّه... وهو باستمرار حريص أنه لا ينطق بِاسم اللَّه إلاَّ بخشوع يليق بعزة اللَّه وجلاله ومجده.

** والأمين في علاقته باللَّه يكون أميناً في نذوره وعهوده. يعرف أنه من الخير له أن لا ينذر من أن ينذر ولا يفي. كما يكون أميناً أيضاً في واجباته المالية من نحو اللَّه.

****

أمانة الإنسان نحو نفسه:

** يضع أمامه مصيره الأبدي. فيهتم بروحه ونقاوة قلبه. ويكون أميناً كل الأمانة في مقاومة الخطية، وفي السلوك في حياة الفضيلة والبر. ويعطي روحه غذاءها اليومي من الصلوات والتراتيل وقراءة كتاب اللَّه والتأمل فيه. ولا يقتصر على مجرد الاهتمام بالجسد واحتياجاته. بل يجعل روحياته في المرتبة الأولى من اهتماماته، بحيث ينمو كل حين في حياة البر، حتى يصل إلى الكمال النسبي الممكن له كإنسان...

** كذلك يكون أميناً في تثقيف نفسه بكل مصادر المعرفة والحكمة. حتى ينمو في عقله وفكره وذكائه. وإن كان طالب علم، يكون أميناً في دراسته لكي يصل - ليس فقط إلى النجاح - إنما إلى التفوق أيضاً والامتياز.

** والإنسان الأمين لا يعتذر مطلقاً بقلة إمكانياته، إنما يحاول أن ينمي إمكانياته وقدراته بكافة الطرق. وهو لا يعتذر بالعوائق والموانع، بل يبذل كل جهده للانتصار عليها. وفي كلٍّ يقوّي إرادته فلا تخور ولا تضعف.

** والإنسان الأمين لا يتساهل مع نفسه في أي شيء. بل يضبط نفسه تماماً. وذلك أنه إن تساهل من جهة أخطاء الحواس، تحاربه الأفكار. وإن تساهل مع الأفكار، تحاربه الشهوات. وإن تساهل مع الشهوات، يسقط في العمل الخاطئ. إنه في أمانته يكون كالجبل الراسخ تصدمه العواصف والأنواء فلا تنال منه شيئاً...

** والإنسان الأمين نحو نفسه، يكون أميناً من جهة وقته. فيستغل كل دقيقة من حياته لفائدته وفائدة الآخرين... وهو يدرك تماماً أن الوقت جزء من حياته لا يجوز له أن يبدده.. ويحرص أن يكون وقته في صالحه وليس ضده، بحيث لا يندم على وقت قضاه في عمل ما.

** الإنسان الأمين على نفسه، يعرف أن له نفساً واحدة إن خسرها خسر كل شيء وليس ما يعوّضها... وهكذا يذكر باستمرار أنه "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه". لذلك فهو يهتم بحاضر نفسه ومستقبلها. ويحرص على خلاص نفسه...

****

أمانته نحو الآخرين:

** الإنسان الأمين يحرص على الآخرين كما يحرص على نفسه. ويهتم بخلاصهم كما يهتم بخلاص نفسه.

إنه لا يكتفي بأنه لا يؤذي أحداً، بل يبذل جهده لعمل الخير نحو كل أحد. ويكون كالشمعة التي تُضيء لكل أحد، وكالشجرة التي تظلل على كل من يحتمي بها. ويكون صانع خير وصانع سلام مع الكل...

** والإنسان الأمين يحتفظ بأسرار الناس لا يفشي شيئاً منها ولو لأقرب المقربين إليه. ولا يفضح ضعفات أحد بل يكون ستراً له وغطاء... وإن وجد أحداً محتاجاً إلى معونة لا يُقصّر في إعانته، ويفعل ذلك في سرية بحيث لا يخجله أمام غيره... ويكون معيناً لمن ليس له معين، ونوراً للسائرين في الظلمة...

** وأمانته نحو الآخرين تلزمه أن يشاركهم في أحزانهم وفي أفراحهم، وتقتضيه الأمانة أن يزور المريض منهم، وأن يُعزي من يحتاج إلى عزاء. وأن يُقدّم النصيحة المُخلِصة لمن يلزمه النصح، وأن يشترك في حل مشاكل من هو في ضيقة، ما دام هذا

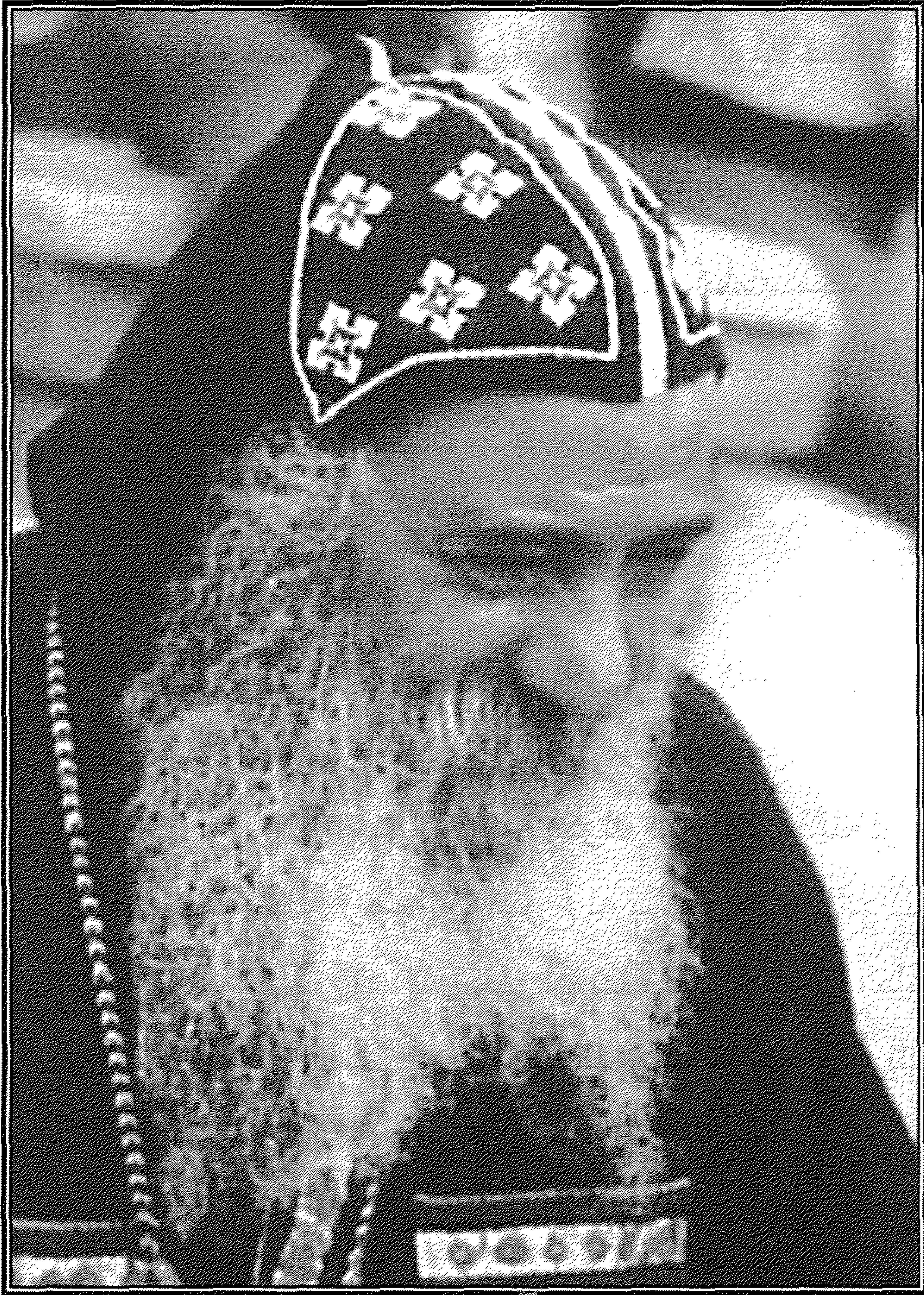
الأمر في قدرته. ويكون قلباً مُحباً للكل، ويحترم الصغير منهم والكبير. ولا يحتقر الساقط بل يُساعده على القيام...

****

** على أن هناك من يسأل بعد كل هذا:

ولكن ماذا أستطيع أن أفعل، إن كان لا يمكنني الوصول إلى هذا المستوى؟ وإن كنت - على الرغم من ضعفي - أريد أن أكون أميناً الأمانة كلها، فكيف أبدأ.

أرجو - إن أعطاني الرب فرصة - أن أُجيب عن هذا السؤال، فإلى اللقاء.



٨ يوليو ٢٠٠٧

كُن أميناً في القليل
فيقيمك اللَّه على الكثير

لعل إنساناً يقول: "الطريق الروحي طريق طويل. فكيف أبدأ؟ وكيف أصل إلى نهايته؟ كيف يمكنني أن أصل إلى الكمال المطلوب مني؟" والجواب على ذلك سهل وممكن وهو "كُن أميناً في القليل، فيقيمك اللَّه على الكثير". فهذا الذي عليك أن تفعله. وليس لك أن تفكر في نهاية المطاف مرة واحدة. واعرف أن أطول مشوار أوله خطوة. كُن إذن أميناً في الخطوة الأولى، فيقيمك اللَّه على باقي الخطوات. كُن أميناً من جهة النية، فيقيمك اللَّه على الإمكانية. كُن أميناً من جهة الإرادة، فيُسهل لك العمل.

** إن الشيطان قد يصعّب لك الطريق ويعقده، ويضع أمامك مخاوف تصوّر لك الكثير المطلوب منك مما لا تستطيعه، وذلك لكي يوقعك في اليأس. أما اللَّه فلا يطلب منك سوى الأمانة في القليل. سوف يأخذ بعد ذلك بيدك خطوة خطوة حتى تصل... يكفي من جهة إرادتك أنك سائر في الطريق.

****

** تقول: كيف تكون حياتي كلها ملك للرب؟ أقول لك: هناك يوم في الأسبوع مُخصص للَّه، يوم عبادة وصلاة وخدمة له. فكن أميناً من جهة حق اللَّه في هذا اليوم، ولا تشغل وقتك بأمور أخرى، وكُن أميناً من جهة ذكرك اللَّه في أوقات فراغك. حينئذ يبارك اللَّه في باقي أيامك، ويعطيك فرصة أن تتفرغ له بالأكثر...

أيضاً كُن أميناً في بيتك، حتى يراك اللَّه كفؤاً أن تقام على بيته. لا تحلم بأن تكون في وضع القيادة الدينية لكي تعمل عملاً من أجل اللَّه، إنما ابدأ أولاً بأسرتك. لأنه إن لم تستطع أن تدبر بيتاً واحداً، فكيف يمكنك أن تدبر جميع المؤمنين؟!

** بل أقول لك: كُن أميناً من جهة نفسك، لكي يقيمك اللَّه على نفوس الناس. اختبر أولاً أمانتك في تدبير نفسك، هذه التي هى معك كل حين، وتعرف كل أسرارها وفقط ضعفها، ويمكنك بسهولة أن توبخها على أخطائها، ويمكنها هى أن تطيعك... فإن كنت

غير أمين في تدبير نفسك، فكيف تؤتمن إذن على تدبير غيرك؟! إن لم تقدر على قيادة نفس واحدة هى داخلك، فكيف تقدر على قيادة نفوس أخرى ليست تحت طاعتك؟! صدق أحد الحكماء حينما قال: "الذي لا يكون أميناً على درهم واحد، كاذب هو إن زعم أن يكون أميناً إن اؤتمن على ألف دينار!!".

إذن المهم هو عنصر الأمانة التي عندك، وليس مقدار الدرجة التي تتولاها... إن بطل أية رواية لا يشترط أن يكون فيها ملكاً أو رئيساً أو قائداً. بل ربما يكون الخادم أحياناً هو بطل الرواية. والناس يقدّرونه ويعجبون به من أجل أمانته في إتقان دوره، بغض النظر عن ماذا كان ذلك الدور...

إن داود كان أميناً في رعي الغنم، فأقامه اللّه على رعاية شعب...

****

** أحياناً تقف يائساً أمام أخطاء مسيطرة عليك، كأنها عادة متمكنة أو طبع ثابت فيك، وأنت تصرخ ماذا أفعل لكي أخلص؟

كُن أميناً فيما هو في مقدور إرادتك، يقيمك اللّه على ما هو فوق إرادتك. تقول: "وماذا أفعل من جهة الأحلام الخاطئة التي تأتيني وأنا نائم لا أملك ردّها عني؟! وهى أشياء راسبة وراسخة في عقلي الباطن!"... أقول لك: كُن أميناً في ضبط عقلك الواعي، فيقيمك اللّه على ضبط العقل الباطن. كُن أميناً في مقاومة أخطاء الصحو، يقيمك اللّه بلا شك على التخلُّص من أخطاء النوم. كُن أميناً في حراسة فكرك أثناء النهار، فيقيمك اللّه على نقاوة الفكر بالليل، ويأتي الوقت الذي تنتقي فيه أفكارك وأنت نائم. إن قدسية أفكارك بالنهار ستصحبك بالليل...

* كذلك إن كنت أميناً في حفظ الحواس، سوف ينصرك اللّه في حروب الفكر. ذلك لأن الحواس هى أبواب الفكر ومسبباته... فإن كنت أميناً في الابتعاد عن مسببات الفكر الخاطئ، سيحرسك اللّه من الأفكار الخاطئة... وبأمانتك في محاربة الأفكار، طبيعي أن يقيمك اللّه على نقاوة القلب وهى أفضل..

** تقول: "أريد أن أصل إلى المحبة الكاملة. فأحب اللّه من كل قلبي ومن كل فكري، وأحب الناس كلهم حتى التي يقاومنني جداً ويعادونني، وأحب الخير للجميع. فهل

يمكنني أن أصل إلى كل هذه الفضائل وهى تبدو صعبة وغير ممكنة؟!".. أقول لك: ابدأ بالقليل فتصل إلى الكثير أعني ابدأ بمخافة اللَّه.

فإن كنت أميناً في حفظ فضيلة (مخافة اللَّه) وبذلك تحفظ كل وصاياه. حينئذ تبدأ أن تجد في حفظ الوصايا لذة روحية، وهكذا تحب الفضيلة وتحب الخير لجميع الناس. ثم تحب اللَّه الذي أنار عقلك هكذا... وتكون قد وصلت إلى المحبة التي تنمو فيها حتى تصل إلى كمالها.

تقول: "وكيف أحفظ الوصايا، بينما أنا أحب خطايا كثيرة هى بلا شك ضد وصايا اللَّه؟!" أقول لك: ابدأ بالتغصُّب، أي اغصب نفسك على عمل الخير، واضبط نفسك عن ارتكاب الخطأ. فإن كنت أميناً في التغصُّب، ستصل حتماً إلى محبة الخير. ذلك لأن المحبة - محبة اللَّه ومحبة الخير - قد لا تكون نقطة البدء، إنما هى نتيجة لعمل روحي طويل. يبدأ بالتغصُّب حتى يصل إلى الحب...

تقول: "وكيف أصل إلى محبة اللَّه؟" أقول لك: ابدأ أولاً بمحبة الناس بكل جدية وأمانة ونقاوة. لأنك إن لم تكن أميناً في محبة الناس الذين تراهم، كيف يمكنك أن تحب اللَّه الذي لا تراه؟! تقول: "وكيف إذن أحب أعدائي؟!" أقول لك: ابدأ أولاً بمحبة معارفك وأصدقائك. ثم تأكد أن العدو الوحيد الذي يحاربك ولا يمكنك أن تحبه هو الشيطان، ذلك لأنه ليس عدوك وحدك، بل هو عدو اللَّه وعدو الخير، وهو الذي يحرض بعض البشر ضدك. وأولئك ليسوا أعداء لك بالحقيقة، إنما هم ضحايا الشيطان الذي يحرضهم ضدك. وبهذا يتغير شعورك من نحوهم، وتعطف عليهم كضحايا، وبالتدرج تحبهم وتطلب من اللَّه أن يُخلّصهم مما هم فيه.

****

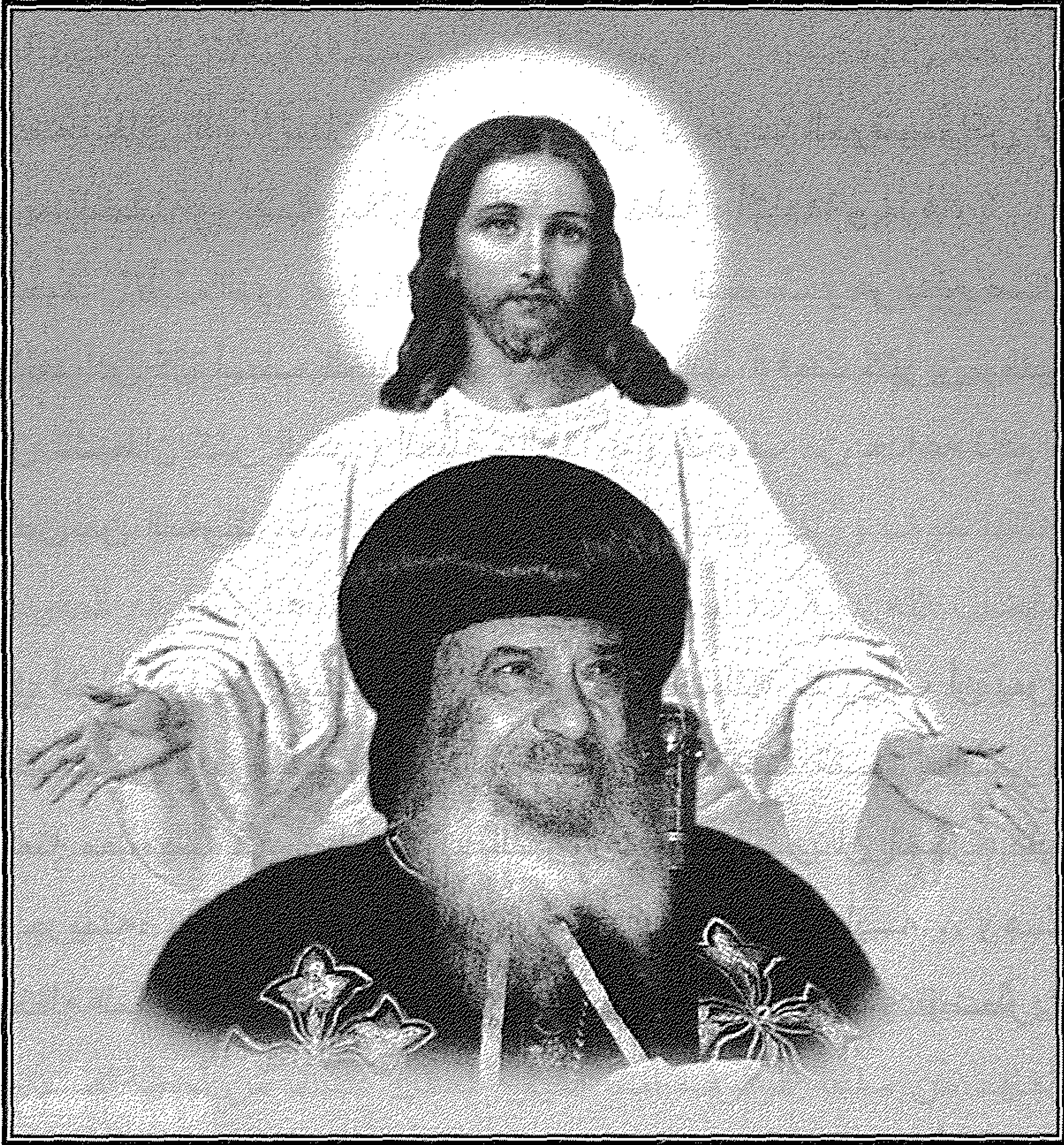
** تقول: "كيف أصل إلى فضائل الروح وهى أعمق بكثير من فضائل الجسد؟". أقول لك: إن الذي هو أمين في الفضيلة التي تُمارس بالجسد، يرتقي إلى فضيلة الروح. فالذي يصوّم جسده عن الطعام، ويصوّم لسانه عن الكلام الرديء، يتدرج إلى أن يصوّم ذهنه عن الفكر الشرير، وقلبه عن الشهوات الخاطئة.

ومن الناحية الأخرى "بخشوع الجسد في الركوع والسجود يمكن أن نصل إلى خشوع الروح. وإن كنا أمناء في الأمور المادية الخاصة بالجسد، يقيمنا اللَّه على الأمور

الروحية. وإن كنا أمناء في احتمال إخوتنا من البشر في الحياة الاجتماعية، يقيمنا اللَّه على مقاومة الشياطين في حروبهم الروحية. وإن كنا أمناء من جهة الأمور التي نراها بعيوننا، يقيمنا اللَّه على ما لم تره عين...

** لذلك يا أخي: كُن أميناً على ما في يدك، يقيمك اللَّه على بعض مما في يده هـو، أي على مواهبه الفائقة للطبيعة. وكن أميناً في استخدام إمكانياتك المتاحة، فيقيمك اللَّه على ما ليس لك. كذلك بأمانتك في مقاومة الخطايا الظاهرة، قادر اللَّه أن ينصرك، في الخطايا الخفية والسهوات.

وباختصار: إن كنت أميناً في هذا العمر القصير المحدود الذي على الأرض، فإن اللَّه يقيمك على الحياة الأبدية في السماء.



١٥ يوليو ٢٠٠٧

مخافة اللَّه
لماذا وكيف؟

** جميع الناس يحتاجون إلى مخافة اللَّه وهى لازمة لهم لتصدهم عن ارتكاب الخطايا والذنوب والآثام: ليس فقط للذين يعيشون في حياة الخطية بكل استباحة واستهتار، ويكسرون وصايا اللَّه بكل جرأة دون أي خوف أو حياء، بل أيضاً يثورون على القيم والمبادئ ويصل بهم الأمر إلى التذمر على اللَّه... وإنما المخافة لازمة كذلك للذين يخطئون اعتماداً على رحمة اللَّه ومغفرته، ناسين أن اللَّه عادل وأنه قدوس، ضد الخطية بكل صورها.

** وعندما خلق اللَّه الإنسان، كان هذا الإنسان لا يعرف الخوف. ولكن الخوف دخل إلى قلبه نتيجة للخطيئة، وأصبح ملازماً لها: قبل الخطية وأثناءها وبعدها..

** فالخوف الأول الذي يسبق الخطية، هو خوف السقوط، وهو يدفع صاحبه إلى الحرص والبُعد عن كل أسباب الخطية ومصادرها، إذ أنها أوقعت كثيرين ومنهم من كانوا أقوياء. ولكن الشيطان كثير المكر والحيلة والخداع، والتخوف من خداعه نافع جداً، لأنه يحمي الشخص من السقوط...

****

** فإن أخطأ، يقع في خوف آخر، هو خوف الانكشاف. إذ يخاف أن يعرف الناس خطيئته وينكشف، ويقع في الفضيحة والعار، ويتعرّض لألسنة الناس التي لا ترحم، وتصبح سمعته مضمضة في أفواههم..! لذلك يقول علماء النفس أن المجرم كثيراً ما يحوم حول مكان جريمته، خائفاً من أن يكون قد ترك هناك أثراً يدل عليه... وهذا العامل النفساني يستغله المحققون. فإن أشاروا إلى شيء من آثار الجريمة، قد يضطرب المجرم أو ينهار...

والخطاة يخافون من اليوم الأخير الذي تنكشف فيه الأعمال وتُفحص الأفكار والنيات... فأين يهربون في ذلك اليوم وأين يختفون..؟! وإن كانت خطاياهم لا تنكشف

على الأرض بأسباب وحيل شتى، فلا بد أنها ستنكشف أمام الديان العادل وأمام الكل في يوم الحساب...

بل إن هناك أمراً آخر يخاف منه الإنسان الروحي، وهو أن خطاياه قد تكون مكشوفة أمام أرواح الذين انتقلوا من هذا العالم، سواء أمام أحبائه الذين كانوا يثقون به فيندهشون! أو أمام الذين كانوا ينتقدونه فيرون أنهم كانوا على حق..!

ولعل إنساناً يسأل: وماذا تراني أفعل إذن؟ والجواب هو أن التوبة تمحو خطاياك، وكأنك لم تفعلها. ولا تعود لك خطايا تخاف أن تنكشف، بعد أن محاها اللّه بتوبتك. فإن كنت تخاف الانكشاف في اليوم الأخير، تُب من الآن.

** نوع آخر من الخوف يرتبط بالخطيئة هو خوف العقوبة، أو الخوف من نتائج الخطيئة... والخاطئ يخاف من عقوبتين: أحداهما أرضية، والأخرى سماوية. والعقوبة السماوية رهيبة وأبدية...

أما العقوبةِ الأرضية فهى على أنواع: إما عقوبة من المجتمع: فضيحة واحتقار، أو نبذ هذا الشخص إن كانت خطيئته بشعة، أو عدم الثقة به في المستقبل... أو عقوبة من القانون مثل السجن أو ما هو أشد. أو عقوبة يوقعها اللّه عليه بطريقة ما، أو لعنة...

** وهناك خوف روحي يتابع الخاطئ، أو يخافه الإنسان المحترس من السقوط. إنه يخاف من غضب اللّه عليه إذا أخطأ، أو أن تتخلى عنه النعمة وتفارقه المعونة الإلهية. ويخاف - إن سقط - أن يأخذ الشيطان سلطاناً عليه، ويفقد حرية إرادته، وإذا بالشر الذي ليس يريده، إياه يفعل! وهكذا يخاف - إن سقط - أن يتوالى سقوطه، ويتحول الأمر معه إلى أسوأ... ويخاف أن يأتيه الموت فجأة، وهو غير مستعد لملاقاة الرب...

** قال أحد القديسين "إني أخاف من ثلاثة أمور: أخاف من لحظة مفارقة روحي لجسدي. وأخاف من ساعة الوقوف أمام الديان العادل. كذلك من لحظة صدور الحكم عليّ"... فإن كان القديسون يخافون على الرغم من ارتفاعهم العجيب في حياة الفضيلة، فماذا نقول نحن الضعفاء عن أنفسنا؟!

** إن الذي يخاف اللَّه، لا يخطئ. أما الذي يخطئ فإنه شاهد على نفسه أنه لا يخاف اللَّه... والذي يخاف اللَّه، لا يعمل شراً حتى في الخفاء. لأنه يعرف أن اللَّه يرى كل شيء، ويسمع كل شيء، ويفحص حتى أعماق القلوب...

** ولعل البعض يسأل "ما رأيك إذن في من يعمل الشر ولا يخاف؟" والجواب هو أن هذا الشخص قد وصل إلى حالة الاستهتار واللامبالاة. أو أن ضميره مريض أو متعطل عن العمل. أو أن دوامة العالم تجرفه، ولا تعطيه فرصة لمراجعة نفسه ولا للتفكير في أعماله. فهو في غيبوبة روحية: إن استيقظ منها، لا بد سيخاف. وبعض من أمثال هؤلاء الناس، نراهم في ساعة الموت، أو إذا اقتربوا من الموت، لا بد أن الخوف يرعبهم. لأنهم لم يعملوا لأجل تلك الساعة ولم يستعدوا لها. ويشعرون أنهم قد أضاعوا حياتهم... هؤلاء يقول عنهم المزمور إنهم لم يسبقوا أن يجعلوا اللَّه أمامهم...

فإن كنت تريد ألاّ تخاف في اليوم الأخير، فلتخف الآن.

** ونحن نشكر اللَّه الذي منحنا المخافة التي تمنعنا من الخطية وبالتالي مما يتبعها. مخافة اللَّه توصل الإنسان إلى التوبة وإلى تنفيذ الوصايا إنها بداية الطريق الروحي، وهى أيضاً سياج للحياة الروحية حتى لا تعثر ولا تنحرف. فالذي يخاف اللَّه، يطيع اللَّه ويعمل كل ما يوافق مشيئته الإلهية. كما أن المخافة تُعلِّم الإنسان الحرص والتدقيق في كل ما ينوي أن يفعله، وتُعلّمه ضبط النفس حتى لا يسقط. أما إذا لم توجد مخافة اللَّه في القلب، فما أسهل أن ينطبق عليه المثل القائل: "إذا لم تستحِ، فافعل ما تشاء"!!

** ومخافة اللَّه تقود أيضاً إلى الجدية في الحياة الروحية، وأن يكون الإنسان مُلتزماً على الدوام. أي حيث لا تكون هناك مخافة، فبالتالي لا توجد ضوابط، ويتحول الشخص إلى التسيب واللامبالاة... أما الإنسان المُلتزم الجاد، فإنه يقول في نفسه: "إن اللَّه سوف يحاسبني على أدق الأمور. فلا يجوز أن أتهاون أو أتساهل..."لذلك فهو يحاسب نفسه على كل تصرف، بل أيضاً على كل أفكاره ونياته، وعلى كل صغيرة وكبيرة. ويشعر كما لو أنه واقف أمام جهاز تسجيل، يُسجل عليه كل مشاعره وعواطفه... وهذا المُسجل سيذاع في اليوم الأخير، أمام الملائكة وكل البشر.

** وهكذا فإن المخافة تقود الإنسان إلى النمو الروحي، وما يلزم هذا النمو من الجهاد والتعب، لكي يتقدم في كل يوم عن سابقه، حتى يصل إلى الكمال النسبي المطلوب منه... وكلما رأى أن الطريق طويل أمامه، حينئذ يصل إلى اتضاع القلب، وتقوده المخافة إلى الخشوع، ليس في وقت الصلاة فقط، إنما في كل حين.

** ومخافة اللّه تدعوه إلى مزيد من المعرفة، حتى لا يخطئ أو يقصّر عن جهل. ولهذا فإنه يلجأ إلى الاستفاضة في القراءة الروحية، وأيضاً إلى استشارة المختبرين فيما يحتاج إليه من معرفة أعمق. ويُصلّي كثيراً لكي يرشده اللّه فيما ينبغي أن يفعله...

** والذي يخاف اللّه، لا يُركّز فقط على نفسه، بل يهتم كذلك بجميع أحبائه ومعارفه، حتى يقودهم معه إلى مخافة اللّه، حرصاً على أبديتهم وخلاص أنفسهم، ويبذل في سبيل ذلك ما يستطيعه من جهد...



٢٢ يوليو ٢٠٠٧

حياة الشكر

الإنسان الشاكر هو الذي يذكر الجميل أو العون المُقدم إليه، ولا ينساه مُطلقاً بل يقدّره ويشكر عليه. فالشكر في قلبه وعلى لسانه، للّه وللناس. فإن كان اللّه قد صنع معه خيراً عن طريق أحد من الناس، فهو يشكر اللّه على ذلك، وأيضاً يشكر الإنسان الذي كان واسطة طيبة في وصول ذلك الخير إليه.

** ولكن غالبية الناس الشاكرين، إنما يشكرون أحياناً، أي في مناسبة معينة، أو على خير بالذات قد وصل إليهم. أما حياة الشكر فتعني أن الإنسان يشكر اللّه في كل حين، وعلى كل شيء. فهو يشعر على الدوام أن حياته في يد اللّه وحده، وأن اللّه باستمرار يصنع الخير معه. لذلك فهو يقبل كل ما يأتي من عند اللّه بفرح، ويشكر عليه. ويقول في إيمان: "كله للخير"...

** ولكن قد يسأل البعض ويقول: نحن نؤمن بلا شك أن كل ما يأتي من عند اللّه هو خير. ولكن ماذا عن الأمور التي تأتينا من الناس، وقد لا تكون كلها خيراً؟! نجيب على هذا بأن تصرفات الناس حيالنا: إن كانت خيراً فستصل إلينا بما فيها من خير. ولكن إن لم تكن كذلك - وكانت شراً مثلاً - فإن اللّه المُحب لنا وللخير سوف يحوّلها إلى خيراً، وتصل إلينا خيراً في النهاية...

** لذلك فالمؤمنون الحقيقيون يشكرون اللّه دائماً على كل شيء. وحينما يشكرونه، لا يفعلون ذلك لمجرد الاستسلام لمشيئته، أو طاعة لوصيته كأمر مفروض عليهم!! كلا، فليس هذا هو الشكر الحقيقي، وليس الشكر هو مجرد ألفاظ تُقال بدون اقتناع، كأداء الواجب... بل هم يشكرون اللّه من كل القلب، وبكل الثقة، متأكدين تماماً أن اللّه لا يسمح بأن يحدث لهم سوى الخير. وأنه - كضابط للكل - يرقب كل ما يحدث لهم، ويدبر الموقف لصالحهم. لذلك هم يشكرونه على كل ما يحدث لهم، واثقين أنه سينتهي لخيرهم. وهنا ترتبط حياة الشكر بحياة الإيمان...

** وحياة الشكر عند المؤمنين على درجات: أقلها الشكر على المعجزات والمواهب الفائقة والنعم العظيمة، وعلى الخيرات الوافرة والواضحة التي لا يشك أحد في عظم نفعها. وربما في غير ذلك قد لا يشكر البعض! وقد تمر عليهم النعم (البسيطة) مروراً عابراً، مع خيرات أخرى يرونها طبيعية وعادية ولا تحتاج إلى شكر!!

** وهناك شكر أعلى في مستواه، وهو الشكر على القليل، ونحن إن شكرنا على القليل يمنحنا اللَّه الكثير. ولكن الملاحظ في المستوى العادي أن أي إنسان قد يشكر على شفاء مريض من داء خطير كالسرطان مثلاً. ولكنه إن شكر على الشفاء من دور زكام أو برد، فإنه يدل على أنه متعود في حياته على الشكر، سواء على الكثير أو القليل...

ولعله من فوائد الشكر، استمرار النعم وزيادتها. وفي هذا قال أحد الآباء: "ليست موهبة بلا زيادة، إلاَّ التي بلا شكر"..

** هناك درجة أخرى من الشكر: هى الشكر على الخفيات، على ما لا يرى... إنه شكر من أجل المتاعب التي كان من الممكن أن تصل إلينا، ولم تصل. وذلك بسبب حفظ اللَّه لنا وعنايته... إن الشيطان بلا شك يبذل كل جهده لضررنا وإسقاطنا. فإن كنا الآن بخير، فسبب ذلك أن اللَّه تبارك اسمه قد منع الضرر عنا قبل أن يصل إلينا، أعني الضرر الذي لا نعرفه... ونحن نشكر اللَّه على هذا الحفظ وهذه الرعاية...

طبيعي أننا نشكر اللَّه على الضيقات التي أنقذنا منها. ولكن هناك ضيقات أوقفها في الطريق ومنعها من أن تصل إلينا، ونحن لا نعرفها. ولكننا نشكره على حفظه لنا منها. إذن شكرنا على إنقاذنا من الضيقة التي نراها شيء. وشكرنا على حفظه لنا من ضيقات لا نراها، هذا أمر أعظم...

صدقوني، لو أن اللَّه كشف لنا كل ما كان يُدبّر ضدنا في الخفاء، وقد نجانا اللَّه منه، ما كانت حياتنا كلها تكفي للشكر... الممزوج بالحب..

** هناك درجة أخرى، أعلى من كل ما سبق، وهى الشكر في كل حين، وعلى كل شيء. وفيها تكون حياة الإنسان كلها شكراً... والشكر الدائم لا يحتاج إلى سبب واضح محدد، وما أكثر الأسباب كما سنذكر فيما بعد. ولكن يكفي أننا في رعاية اللَّه الذي يريد لنا الخير. وهذا اللون من الشكر لا يتوقف على نوعية الحال الذي نحن فيه..

** هناك درجة نبيلة وسامية جداً من الشكر، وهى الشكر على الضيقات: ليس فقط على الضيقات التي أنقذنا اللَّه منها، بل بالحري على الضيقات القائمة التي ما زلنا نعيش فيها، وبالإيمان نثق أنها لخيرنا.

إن الصبر على الضيقة واحتمالها فضيلة، والرضا بالضيقة وقبولها فضيلة أكبر. ولكن ما هو أعظم من الكل، الشكر على الضيقة، وأعني الشكر بفرح، وليس كمجرد واجب. ذلك لأننا إن شكرنا على النعم فقط، يكون حبنا هو للنعم، وليس للَّه معطيها... أما إن شكرناه حتى على الضيقة فإننا نبرهن على أننا نحب اللَّه ذاته وليس مجرد عطاياه.

** إننا نشكره مهما حدث. ولا نسمح للأحداث المؤلمة أن تقللّ من إيماننا بحفظ اللَّه، أو تقللّ شكرنا له، أو أن تنزع سلامنا منا...

وهذا الشكر له تأثيره على الآخرين، فيتعزون به، ونكون لهم قدوة في الضيقات. وقد قلت كثيراً إن الضيقة سُميت ضيقة لأن القلب قد ضاق عن أن يتسع لها. أما القلب الواسع فإنه لا يتضايق بشيء. وطبيعي أن الذي يشكر على الضيقة سيشكر على كل شيء.

** والإنسان الروحي يشكر على الضيقات، لأنها تقوي روحياته وتمنحه عمقاً في الصلاة وعمقاً في الصوم، وتزيد إيمانه إذ يرى فيها كيف أن يد اللَّه تعمل، وكيف يتدخل لمعونته. كما تعطيه خبرات روحية. ولهذا فهو لا يتذمر أبداً في حياته مهما كانت الظروف.

** والذي يمارس حياة الشكر الدائم يجد أسباباً كثيرة تدعوه إلى الشكر. فهو يشكر اللَّه أولاً لأنه خلقه ومنحه الوجود، بل بالأكثر خلقه إنساناً عاقلاً حراً مُريداً، كما يشكره على كل المواهب التي منحه إياها، ليس فقط على المواهب الفائقة للطبيعة إنما على التي تبدو له طبيعية، مثل الذكاء، أو رخامة الصوت، أو جمال الصوت، أو القدرة على الإقناع، أو القدرة على الاحتمال.

** ويشكر اللَّه على الإيمان الذي وُلِدَ فيه، والذي يشتهيه كل الملحدين ولا يجدونه. يُحكى أن فيلسوفاً ملحداً رأى فلاحاً أُمياً راكعاً يُصلّي من كل قلبه وبكل مشاعره. فقال: "إنني مُستعد أن أتنازل عن كل فلسفتي ودراستي في مقابل أن أحظى بشيء من إيمان هذا الفلاح البسيط الذي يخاطب شخصاً لا يراه"!!. وأنت يا أخي مؤمن، أفلا تشكر؟!

** اشكر اللَّه أيضاً لأنه يعطيك فرصاً كثيرة للتوبة. لأن ملايين من الذين في الجحيم يشتهون ساعة واحدة من الحياة أو أقل، لكي يقدموا فيها توبة، ولا يجدون..! وأنت إن قرر اللَّه أن يأخذ روحك، ألا تشتهي بعض دقائق من هذا العمر الذي لا تشكر عليه...

** اشكر اللَّه على كل إحساناته إليك منذ وُلدت: كم مرة طلبت من اللَّه طلباً فاستجاب لصلاتك؟ كم من ضيقة أنقذك منها؟ وكم من مرض شفاك منه أو أنقذك من الإصابة به؟ كم باب رزق فتحه أمامك؟ كم خطية ارتكبتها ولم يحاسبك اللَّه حسب خطاياك، بل احتملك!! أتستطيع إذن أن تُحصي إحسانات اللَّه إليك؟! لست أظن ذلك ممكناً! فكم بالأكثر لو أضفت إليها إحساناته إلى أحبائك وأقربائك، وإلى الوطن كله...

** اشكر اللَّه أيضاً على الصحة التي أنت فيها. وكما يقول الحكيم: "إن الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يشعر به إلاَّ المرضى.." إن كثيرين من الذين يرقدون على فراش المرض يشتهون أن يمشوا على أرجلهم مثلما تمشي. وأيضاً الذين يُعالجون عند أطباء العيون يشتهون نعمة البصر التي لك. فاشكر على كل هذا وعلى غيره...

** أخيراً، إن شكرت، فاشكره أيضاً على نعمة الشكر هذه، واستمر فيها.

٢٩ يوليو ٢٠٠٧

الغضب الخاطئ
خطية منفرة ومُدمّرة

الشخص الروحي - إذا غضب - يكون غضبه مجرد تعبير عن عدم رضاه على الخطأ. ويكون غضباً لأجل الحق، أو دفاعاً عن الآخرين. وقد يكون بحزم، ولكن لا يفقد فيه أعصابه، ولا يخطئ بلسانه. ومثل هذا الغضب لا لوم عليه. ولكن هناك غضباً خاطئاً، تدخل فيه النرفزة التي هى تلف في الأعصاب. ومعه قد يعلو الصوت أو يحتد ويشتد، وينفعل الشخص انفعالاً واضحاً معيباً، ويبدو ذلك أيضاً في ملامحه وأعصابه. هذا هو الغضب الخاطئ...

** وهذا النوع من الغضب يحمل في طياته العديد من الأخطاء: فبالإضافة إلى ما فيه من حدة وعصبية، فيه أيضاً قساوة قلب. وتزداد هذه القساوة كلما ازدادت حدة الغضب. وقد تصل في بعض الأحيان إلى العنف، وإلى الضرب والاعتداء.

** وطبعاً في حالة الغضب لا يحتمل الشخص غيره، وتزول منه مشاعر المحبة، لأن المحبة تحتمل كل شيء وتصفح عن المسيء. أما الغضوب فإنه لا يصفح عن غيره في إساءاته، أو ما يظن إنها إساءة. ولا يستطيع أن يغفر. وبالتالي يحرم نفسه من مغفرة اللّه له شخصياً..

** والغضوب يقع في كثير من خطايا اللسان. فهو تلقائياً يهين من يرى أنه قد أساء إليه، ويحكم عليه أحكاماً. وقد يتلفظ بكلمات جارحة، ويشتم غير محترم لغيره. ويتصرف بأسلوب غير لائق، ربما يلومه عليه الناس ويفقدون تقديرهم له. وهو قد يندم أخيراً على ما فعله، حينما تهدأ أعصابه الثائرة ويتوقف غضبه. ولكن بعد فوات الوقت...

** ويكون في كل ذلك قد وقع في عدم ضبط النفس، وفي عدم السيطرة على الأعصاب وعلى اللسان. وربما يكون فيما قاله عن غيره أثناء ثورة غضبه، قد ظلمه بأحكام هو بريء منها، أو على الأقل لم يصل أبداً إلى مستواها. ولكن في الغضب يتصور الشخص في من يهاجمه أفكاراً مبنية على سوء الظن لم تحدث منه ولن تحدث.

** وقد يتطور الغضب بمشاعره الخاطئة فيتحول إلى بغضه، وتتحول هذه البغضة إلى خصومة وإلى معارك تستمر. لأن ما يخطئ به الشخص في غضبه، ربما لا يستطيع أن يعالج نتائجه. فيما تلفظ به من شتائم أو إهانات أو تهديدات أو جرح شعور أو اتهامات ظالمة... هذا كله قد يترك في نفسية الطرف الآخر تأثيرات عميقة، تحول الأمر إلى كراهية بينهما...! وهكذا حتى لو تاب الغضوب عن غضبه، ربما تظل نتائج غضبه باقية...!

** ومع الغضب أيضاً تكمن خطية التهور والاندفاع: فغالباً ما يكون الغضب مصحوباً بالتسرع، أو يكون نتيجة للتسرع والاندفاع، ويأخذ فيه الشخص قرارات أو تصرفات غير مدروسة، وهو في حالة انفعال..!

وهذا الغضوب يريد أن ينتقم لكرامته أو لحقوقه، ولرد اعتباره، ويعمل على رد ما يرى أنها إساءة بما هو أشدّ منها!.

** وفي أثناء الغضب يفقد كل فضائل الوداعة والتواضع. لأنه يفقد حلمه وهدوءه، ويفقد اللطف والبشاشة والحنو، ويتحول إلى كائن ثائر هائج الطبع. وهو يفقد أيضاً صفات الشخص المتضع، لأنه كما قال أحد الآباء الروحيين: "إن الإنسان المتواضع لا يُغضب أحداً، ولا يَغضب من أحد". فالمتواضع يجلب الملامة على نفسه فلا يَغضب. كما أنه يلتمس بركة كل أحد ودعاه ورضاه، لذلك لا يسمح لنفسه أن يغضب أحداً.

** والشخص الغضوب يفقد أيضاً سلامه، ويفقد الكثير من علاقاته، إذ أنه في غضبه يفقد سلامه الداخلي، سلام القلب والفكر وسلامة الأعصاب، كما يفقد في نفس الوقت سلامه وعلاقته مع من يغضب عليه. أليست غالبية قضايا الطلاق والمشاكل الزوجية سببها الغضب!! ولا شك أنه في حالة الغضب يفقد علاقته مع اللَّه، إذ يكسر وصاياه الخاصة بالتسامح والاحتمال وحسن التعامل مع الناس... وعموماً فإن ساعة غضبه تكون ساعة نكد وكآبة له، وربما لغيره أيضاً...

** الغضب أيضاً يكون مصحوباً بالجهل: جهل الإنسان بما يفيده وما يضره، وجهله بنظرة الناس إليه في حالة نرفزته، وجهله بالنتائج السيئة التي لغضبه: حيث يدمر علاقاته مع غيره، وقد يدمر سلام بيته وأسرته، ويدمر أثناء ذلك بعض روحياته. كما أنه قد يفقد وظيفته أو ترقيته، إذ كان غضبه عنيفاً مع رؤسائه في العمل. وربما في لحظة يضيع

ما بناه في سنوات! حقاً إن الغضب خطية مدمرة. وكما قال سليمان الحكيم: "لا تسرع بروحك إلى الغضب، لأن الغضب يستقر في حضن الجهَّال"..

** من كل ذلك، نرى أن الغضب خطية مركبة، تحمل في داخلها كثرة من المعاصي. كذلك فإن هذه النرفزة مضرة على صحة صاحبها: وعلى رأي أحد العلماء الذي قال: "إن جسم الإنسان أثناء الغضب يفرز سموماً". وفي التعبير العامي نقول عن الغضوب: إن دمه قد تعكّر...

والغضب قد يتسبب في أمراض كثيرة، منها ارتفاع ضغط الدم، وأمراض الأعصاب، والسكر، وبعض أمراض القلب والمعدة. وبعض الأشخاص قد يرتعش أثناء غضبه، أو يرتجف صوته وألفاظه!

** ومن نتائج الغضب أيضاً عرقلة الصلاة: فقد يحاول الشخص أن يُصلِّي بعد غضبه، فيجد أن فكره يتشتت أثناء الصلاة، ويسرح في الأسباب التي من أجلها قد غضب، أو في نتائج ما حدث وفي مستقبل تعامله مع من أغضبه. ويتصوّر أموراً عديدة، ويكون كمن يكلّم نفسه، أو يُكلّم غيره. ويرى أن صلاته التي سرح فيها في هذا كله، لا يمكن أن تُحسب صلاة. وإنما البركان الذي داخله مازال ينفث حمماً..!

** والغضب باعتباره خطية مكشوفة ومفضوحة، يكون باستمرار معثراً للآخرين، ولا يعطي صورة طيبة عن الذي يغضب ويتنرفز، ويبدو أمام الناس ضعيفاً فاقد الأعصاب، غير مسيطر على نفسه، لا يستطيع أن يضبطها... كما يبدو أنه والشخص الآخر الذي تسبب في غضبه، كلاهما متشابهان في الخطأ مع اختلاف النسبة...

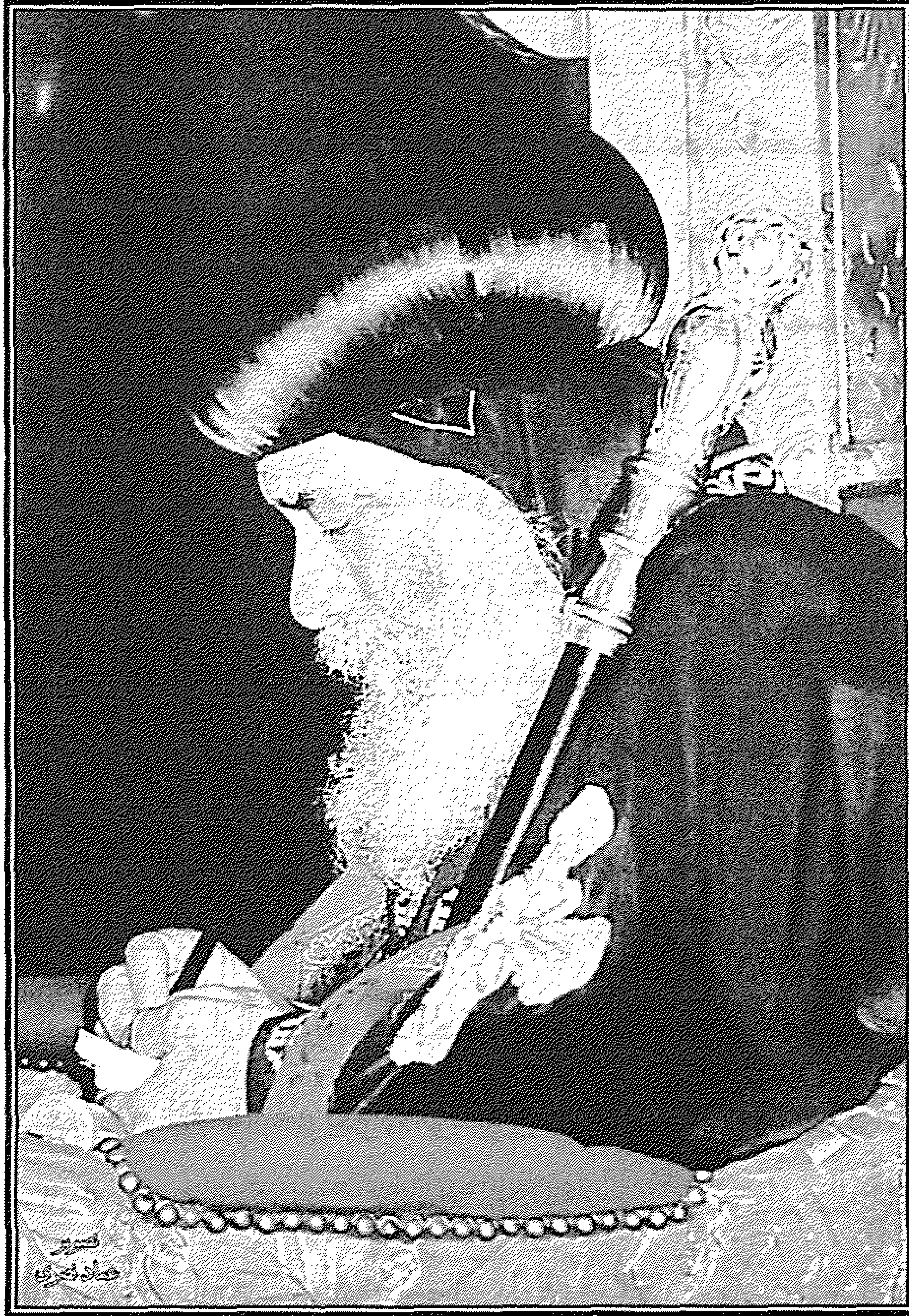
** ومن أجل كل هذه الأخطاء التي يشملها الغضب، وكل نتائجه السيئة، فإن فضيلة الاحتمال تبدو مضيئة وذات قدر كبير... ومعروف أن الاحتمال بعيد عن الرغبة في إثبات الذات ومحبة الكرامة، كما أنه دليل على الرحمة، فيمتزج بفضيلة العفو عن المسيء، ويدل على سعة الصدر وطهارة القلب وسموه. وهو يُوجد دالة عند اللَّه، وتفرح به الملائكة، وينال صاحبه عزاءً على الأرض، وإكليلاً في السماء...

** والإنسان الذي يحتمل المسيء، هو بلا شك أقوى من المسيء، وأقوى ممن يغضب بسبب الإساءة. إنه الأقوى لأنه استطاع أن يضبط نفسه فلا يخطئ ولا يرد الإساءة بمثلها. وهو الأقوى في أعصابه وفي إرادته وفي صبره، وفي أنه لم ينزل بنفسه

إلى مستوى المُسيء في أخطائه لكي يرد عليه بما يستحقه. وبعض الآباء يرى أن المُسيء هو شخص ضعيف، يحتاج إلى من يحتمل ويقيمه بالصبر من أخطائه وسقطاته...

** أتذكر أنني حينما كنت أعمل في التعليم منذ حوالي ٦٠ عاماً، أن جاءني زميل وقال لي: "أنا لا أستطيع أن أحتمل فلاناً" فقلت له: "ولكن اللّه يا أخي مازال يحتمل هذا الشخص في كل أخطائه إليك وإلى غيرك، كما يحتمل أخطاء غيره أيضاً. فاصبر أنت عليه، وربما باحتمالك تكسبه ويندم. أما إن رددت عليه، فإن الموضوع سيكبر"...

** أما بعد، فأود أن أقول إن الغضب يكون على أنواع ودرجات. وأنا لم أحدثك إلاَّ عن جانب واحد من الغضب الثائر العدواني. فإلى اللقاء في مقال آخر إن أحبت نعمة الرب وعشنا، لكي استكمل معك هذا الموضوع أو أحاول أن أستكمله...



٥ أغسطس ٢٠٠٧

الغضب الخاطئ
أنواعه ودرجاته

في الغضب الخاطئ يوجد نوعان: غضب داخلي مستتر، وغضب واضح ظاهر. والغضب الداخلي هو غضب الفكر والقلب.

** فأنت قد لا تسيء باللسان إلى من أغضبك، وقد لا تجرحه بأية كلمة. وربما تبدو صامتاً لا ترد الإهانة بإهانة. ومع ذلك هناك ثورة في داخلك ولكنها مكبوتة. وهنا لا تستطيع أن تقول إنك لم تغضب. ففي الواقع إنك غضبت ولكنك كتمت غضبك.

** وربما كبتك لغضبك يكون لأسباب روحية أو غير روحية. أما السبب الروحي فهو ضبط النفس ومنعها من الخطأ، وتهدئتها ريثما تجد حلاً لتصريف الغضب من داخلك. وفي هذه الحالة نقول إنك لم تحتمل، وفي نفس الوقت لم تثر. انفعلت في داخلك، ولكنك وقفت عند هذا الحد حتى لا تخطئ بلسانك، ولا تخطئ بتصرفك، ولا تنتقم لنفسك. وهذا طبعاً أفضل من النرفزة والحدّة...

** وربما يكون كبت الغضب بسبب الخوف: أعني الخوف من الشخص الذي أخطأ إليك، لأنه أقوى منك، أو أنك خاضع لإدارته، وتخشى نتائج الغضب، فربما تؤدي إلى حالة أسوأ. وقد يكون خوفك هو أن يأخذ الناس فكرة سيئة عنك إذا ثرت وانتقمت...

** وقد يكون سبب سكوتك هو الانتظار ريثما ترد أو تنتقم لنفسك فيما بعد. فأنت إذن صامت، لا لأنك قد غفرت للمسيء، وإنما لأن الفرصة الآن غير مواتية للرد، والغضب الظاهر قد يكشف نواياك، ومن الحكمة أن تظل هذه النوايا في الكتمان إلى أن يحين الوقت الذي تنتقم فيه لنفسك، وبقوة، وبدون أن تقع في مسؤولية! وكل هذه خطايا مكتومة مع الغضب المكبوت...

** وفي كل ذلك يكون الفكر منشغلاً بالخطية، والقلب كذلك. ويكون الغضب مالكاً على كل المشاعر. ويظل الذهن يُشبع مقاصده بأفكار الرد والانتقام، ومحاولة أخذ حقه

بأنواع وطرق شتى، ومجازاة من أغضبه بأساليب متنوعة وبصور يريدها أن تحدث، ويتخيل حدوثها كما لو كانت واقفة. وبهذا يبرهن على أنه لم يحتمل ولم يصفح، وأن الغضب يشتعل في داخله...

** أمثال هذا النوع من الناس، وإن كانوا قد بعدوا عن الغضب الظاهر، إلاَّ أنهم يغذون في داخلهم الغيظ والسخط، وإذ هم متعكرون في الداخل، لا يقابلون المسيء باللطف المعتاد. وقد يتحول السخط الذي في قلوبهم إلى لون من الحقد. وإن كان ذلك لا يؤذي الآخرين، لكنه يضر صاحبه ويفقده نقاوته.

على إننا نقول إنه ليس كل الصامتين في مجال الغضب هم أنقياء، فهناك نوع من الصمت يمكن أن نُسميه الصمت المثير. فقد يوجد شخص أعصابه قوية جداً، يقف في منتهى البرود والجو يغلي، دون أن يغضب. ويستطيع بصمته وبروده أن يثير الطرف الآخر، ويجعله يغضب ويخطئ بالأكثر. وفي ذلك يظن أنه بريء لم يرتكب أي خطأ! بينما هو السبب في خطأ غيره. وكان يمكنه بكلمة لطيفة أو عبارة هادئة أن يهدئ هذا الذي يتكلم معه. وهو مسؤول عمن أثاره وأغضبه ببروده...

** إن المطلوب منك، ليس فقط أنك لا تغضب ولا تثور، وإنما أيضاً أنك لا تتسبب في غضب غيرك... بل أنك بهذا الصمت المثير تكون أكثر ذنباً، لأنك تحاول أن تحصل على فخر أو مديح بصمتك عن طريق السبب في خطأ غيرك!!

** لقد قال الآباء الروحيون إنه توجد ثلاثة أنواع من الغضب:

أ- نوع من الغضب يثور في الداخل.

ب- ونوع آخر ينفجر في الكلمات والعمل والتصرف.

ج- ونوع ثالث، وهو ليس مثل النوعين السابقين يغلي ويعمل في ساعة. بل هو يستمر أياماً وفترات طويلة... وهذا النوع يتحول من غضب إلى بغضة أو كراهية. إذ ليس فقط يستسلم الشخص للانفعال، بل يستمر حانقاً، ويظل يغذي في داخله شعوراً ضد الآخر، ويلتصق ذهنه بأفكار ضده..

** إذا استمر الشخص يفكر: "ما الذي قاله لي هذا الشخص؟ وماذا يقصد؟ وهل من كرامتي أن أسكت على شيء من هذا؟ أنا أيضاً لا بد أن أقول له... ولا بد أن أعطيه درساً لن ينساه..".

إن فكّر هكذا، يصل إلى الانفعال وإلى التهيج وإلى الغضب والاضطراب. وإذا استمر الغضب يتحول إلى حقد، وإلى رغبة في الانتقام، سواء تمت أو لم تتم...

** والرغبة في الانتقام، أو الرد على الإساءة بمثلها، تمر في درجات: فقد يمكن لشخص أن يرد بالكلام، أو بالتعبير، بعبارة أو بإشارة أو بنظرة يُفهم منها أنه أوقفه عند حدة... وقد لا يفعل ذلك، ولكن تبقى في قلبه مرارة من نحوه.

** وشخص آخر يحاول أن لا تكون في قلبه أية مرارة أو حقد. ولكنه إن سمع شخصاً يسب ذلك الشخص أو ينتقده أو يقلل من شأنه، فإنه يبتهج بذلك. وهكذا يدل على أن قلبه ليس نقياً إذ يفرح بإهانة غيره..!

** إنسان آخر لا يبتهج بسماع تحقير من أساء إليه. ولكنه على الرغم من هذا لا يفرح بنجاحه. بل أنه يتضايق إذا ما مدحه أحد أو أكرمه، شاعراً في نفسه أنه لا يستحق. وفي هذا كله لا يكون القلب نقياً.

** مستوى آخر وهو أن شخصيْن أساء أحدهما إلى الآخر، ولكنهما تصالحا وعاشا فترة في سلام. ولا يكون في قلب أحداهما أية ضغينة نحو من أساء إليه. غير أنه يحدث بعد مضي بعض الوقت، أن يقول ذلك المسيء كلمة جارحة. فيبدأ المساء إليه أن يتذكر القديم كله. ويضطرب ليس فقط من أجل الإساءة الثانية، بل من السابقة أيضاً. ذلك لأنه لم ينسها، ومازالت في عقله الباطن.

مثل ذلك الإنسان يشبه من اشتكى من جرح، ثم التأم ذلك الجرح ولكن بقي مكانه حساساً. بحيث إذا اصطدم بشيء، يشعر بالألم أو قد يدمي الجرح بعد التأمه..!

**هناك فرق بين التصرف والترسيب. تصريف الغضب معناه إنهاءه وعدم بقاء شيء مترسب من ذكراه. أما الترسيب فيشبه زجاجة بها دواء سائل، ومكتوب عليها "رج الزجاجة قبل الاستعمال" فالسائل من فوق يبقى رائقاً. ولكن إن رجرجت الزجاجة تجد أنه قد تعكر كله بسبب ما كان مترسباً في القاع.

**إذن في علاج الغضب والمتهيج، لا يكفي فقط أن تصفح، وإنما بالأكثر أن تنسى. وكما يقول المثل الإنجليزي:

Not only to forgive, but rather to forget.

إننا لا نهدف فقط إلى أن يتخلّص الشخص من الاضطراب والتهيج والانفعال الذي يضره، وليس فقط أن يزيل من قلبه كل حقد وغيظ. وإنما بالأكثر القلب الواسع والطبع الحليم الحكيم، الذي يكون أكبر وأسمى من أن تؤثر فيه إساءات الناس.

يحضرني في هذا المجال مثال السفينة القوية السليمة التي تخوض البحر بكل أمواجه دون أن تضرها المياه والأمواج، ذلك لأنها محصنّة. لا يوجد فيها ثقب يدخل منه الماء إلى السفينة، كما لا تستطيع المياه أن تغطيها وتتلفها...

كذلك أمامي مثال الجنادل الستة في مجرى النيل التي سُميت خطأ بالشلالات: تعصف بها المياه من كل ناحية وبقوة، وهى ثابتة في مكانها لا تتزعزع. هكذا الشخص القوي الذي مهما سمع من إساءة أو إهانة، لا تنال من أعصابه أو هدوئه. بل كما قال الشاعر عن المسيء:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يُضرِها وأوهى قرنه الصخرُ

١٢ أغسطس ٢٠٠٧

الخير
في ذاته، ووسيلته، وهدفه

ما هو الخير؟ وما هى مقاييسه؟

لكي نحكم على أي عمل بأنه خير، ينبغي أن يكون هذا العمل خيراً في ذاته، وخيراً في وسيلته، وخيراً في هدفه. وبقدر الإمكان يكون أيضاً خيراً في نتيجته...

** فما معنى أن يكون العمل خيراً في ذاته؟ إننا نطرح هذا السؤال لأن كثيرين - بنية طيبة - قد يعملون أعمالاً يظنونها خيراً، وهى على عكس ذلك ربما تكون شراً خالصاً!

مثال ذلك الذي يقتل ابنته التي أخطأت، بحجة أنه يريد أن يغسل شرف الأسرة ويمحو عارها! وفي نفس الوقت يكون قد حرم ابنته من الحياة، وحرمها من إعطائها فرصة للتوبة... ومثله من يقسو على ابنته قسوة تجعلها تطلب الحنان من مصدر آخر ربما يقودها إلى الانحراف. وقد يظن هذا الأب أنه في شدته وقسوته يكون حازماً في تربيته وحريصاً على عفة ابنته بينما أسلوبه الخاطئ يؤدي إلى عكس ما يطلب...

** إن الناس يختلفون فيما بينهم في معنى الخير وفي الحكم على الأعمال. وقد يعمل أحدهم عملاً فيعجب به البعض ويمتدحونه، بينما يتضايق غيرهم من نفس هذا العمل. ويتجادل الفريقان، وكل منهما يؤيد وجهة نظره بأدلة وبراهين. ويبقى الحق حائراً بين هؤلاء وأولئك! ولعلنا نلاحظ هذا الصراع في تصرفات الأحزاب السياسية، وفي النظرة إلى أمور عديدة تتعلق بالفن وبأنواع من الملاهي والترفيهات...

** لذلك - من أجل التأكد من خيرية العمل - على كل إنسان أن يتروى ويتمهل في حكمه على الأمور... ومن أجل هذا أيضاً أوجد اللّه المشيرين وذوي الخبرة والفهم كأدلاء في طريق الحياة يشرحون أين هو اتجاه الخير.

ولكن يشترط في المرشد أن يكون حكيماً دارساً وصافياً في روحه وعميقاً في فهمه، لئلا يضل غيره من حيث لا يدري ولا يقصد. ولئلا ينطبق حينئذ المثل

القائل: "أعمى يقود أعمى، كلاهما يسقطان في حفرة"... كذلك فإن من يسترشد، عليه أن يدقق في اختيار من يرشده، ولا يجري وراء كل نصيحة مهما كان قائلها، بل يتبع الحق.

** على أن سؤالك قد يقف أمامنا، وهو: هل الضمير هو الحكم في معرفة الخير؟ وهل نتبعه بلا نقاش؟

أجيب وأقول: يجب على الإنسان أن يطيع ضميره، ولكن يُشترط أن يكون ضميره صالحاً، فهناك ضمائر تحتاج إلى هداية، وضمائر قد شوهها مرشدون مضلون، وضمائر لا تسندها عقول فهيمة حكيمة. ولنعلم أن الضمير يستنير بالمعرفة: بالوعظ والتعليم والقراءة والنصح. وما أكثر ما يعمل البعض عملاً بضمير مستريح، ثم يتضح أنه كان عملاً خاطئاً!

إن الإنسان الصالح ينمو يوماً بعد يوم في معرفته الروحية، وبهذا النمو يستنير ضميره أكثر، فيعرف ما لم يكن يعرف، ويدرك أعماق من الخير لم يكن يُدركها قبلاً. وربما فضائله السابقة التي كان يفتخر بها، تتضح كأنها لا شيء في ضوء نموه...

** الخير أيضاً يرتبط بنسيانه، إذ ننسى الخير الذي عملناه، من فرط انشغالنا بالسعي وراء خير آخر أعظم منه وأكبر. كما أننا نرى أن الخير الذي تم، لم نعمله نحن، وإنما عمله اللَّه بواسطتنا. وكان يمكن أن يعمله بواسطة غيرنا، غير أنه من محبة اللَّه لنا، أنه أعطانا الفرصة أن نعمل، وفي الواقع أن نعمته هى التي كانت تعمل بنا...

** وعموماً فالخير هو أن يرتفع الإنسان فوق مستوى ذاته ولذاته، وأن يطلب الحق أينما وُجد، ويثبت فيه ويحتمل من أجله. والخير لا يتجزأ ولا يتناقض. فلا يكون إنسان خيّراً وغير خيّر في وقت واحد.

** والإنسان الخيّر ليس هو الذي تزيد حسناته على سيئاته. فربما سيئة واحدة تتلف نقاوته وتضيّعه! إن نقطة حبر واحدة كافية لأن تعكر كوباً مملوءاً من ماء نقي صافٍ. وميكروباً واحداً كافٍ لأن يلقي شخصاً على فراش المرض. فليس هو محتاجاً إلى مجموعات متعددة من الجراثيم لكي يُحسب مريضاً. وبنفس المنطق، فإن خطيئة واحدة تضيع نقاوة الإنسان.

وهكذا فإن الإنسان الشرير ليس هو الذي يرتكب كل أنواع الشرور، إنما بواسطة شر واحد لا يصبح إنساناً خيّراً مهما كانت له فضائل، ولكن يفسد قيمتها هذا الشر الواحد..

** فإن أردت أن تكون خيّراً، سر في طريق الخير كله. ولا تترك في نفسك شائبة واحده تعكر نقاء قلبك. ولا تظن أنك تستطيع أن تغطي رذيلة بفضيلة، أو أنك تعوّض سقوطك في خطيئة معينة، بنجاحك في زاوية أخرى من زوايا الخير. بل في المكان الذي هزمك الشيطان فيه، يجب أن تنتصر... على نفس الخطيئة ونفس نقطة الضعف. ونحن مطالبون إذن بأن نسير في طريق الكمال النسبي المتاح لنا كبشر، لأن النقص ليس خيراً.

** والخير ليس هو فقط أن نعمل الخير، بل بالأحرى أن نحب الخير الذي نفعله. فقد يوجد إنسان يفعل الخير دون أن يريده. أو أن يعمل الخير بدافع الخوف، أو بدافع الرياء لكي ينظره الناس ويكتسب مديحاً. أو لكي يهرب من انتقاد الآخرين. وقد يوجد من يفعل الخير وهو متذمر ومتضايق: كمن يقول الصدق ونفسيته مُتعبه، وكان يود لو يكذب وينجو. وكمن يتصدّق على فقير وهو ساخط ويود ألا يدفع.. فهل نُسمي كل ذلك خيراً؟!

** وقد يوجد من يفعل الخير لمجرد إطاعة وصية اللّه، دون أن يصل قلبه إلى محبة تلك الوصية. مثل الذي لا يرتكب الزنا والفحشاء لمجرد وصية اللّه التي تقول: لا تـزنِ، دون أن تكون في قلبه محبة العفة والطهر. وفي ذلك قال القديس جيروم: "يوجد أشخاص عفيفون بأجسادهم فقط، بينما نفوسهم زانية"! أمثال هؤلاء اهتموا بالخير في شكلياته وليس في روحه. والخير ليس مجرد شكليات، وليس لوناً من المظاهر الزائفة.

** من أجل هذا - لكي نحكم على العمل بأنه خير - يجب أولاً أن نفحص دوافعه وأسبابه وأهدافه.

فقد يوبخك اثنان: أحداهما بدافع الحب، والآخر بدافع الإهانة. ويكون عمل أحداهما خيراً، والآخر شراً...

وقد يشترك اثنان في تنظيم سياسي وطني: أحداهما من أجل حب الوطن وخدمته، والثاني من أجل حب المناصب والظهور!

** الخير إذن هو شهوة في القلب لعمل الصلاح، تُعبّر عن ذاتها وعن وجودها بعمل صالح. وليس هو مجرد روتين آلي للعمل الصالح.

ماذا إذن عن باقي الأمور الخاصة بالخير، وبخاصة في وسائله ونتائجه؟ استسمحك أيها القارئ العزيز في أن نكمل هذا الموضوع في عدد مقبل.

١٩ أغسطس ٢٠٠٧

الخير
صفاته وأعماقه

ليس الخير عملاً مفرداً أو طارئاً، إنما هو حياة:

فالشخص الرحيم مثلاً، ليس هو الذي تظهر رحمته أحياناً في حادث معين. إنما الرحيم هو الذي تتصف حياته كلها بالرحمة. وتظهر الرحمة في كل أعماله وفي كل معاملاته، وفي أقواله وفي مشاعره، وفي أحكامه على تصرفات الناس. بل تبدو الرحمة أيضاً في ملامح وجهه... الخير هو اقتناع داخلي بحياة القداسة، مع إرادة مثابرة على عمل الخير وتنفيذه. هو حب صادق للفضيلة، تعبر عنه حياة فاضلة..

**** والذي يحب الخير، يسعد بأن جميع الناس يعملون الخير.**

بدون غيره من أحد. فالذي يغار يدل على أن فيه شيء من الذاتية. أمَّا مُحب الخير، فإنه يفرح حتى لو رأى أن جميع الناس يفوقونه في عمل الخير.. ويكون بذلك سعيداً. المهم عنده أن يرى الخير، وليس المهم أن يتم الخير بواسطته أو بواسطة غيره، بعيداً عن كل مشاعر الحسد...

** والإنسان الخيّر يقيم تناسقاً في حياته بين فضائله. فلا تكون واحدة على حساب الأخرى! خدمته مثلاً للمجتمع، لا تطغي على اهتمامه بأسرته. ونشاطه لا يطغي على أمانته لعمله. كما أن أمانته تجاه كل مسئولياته لا تعطل شيئاً من صلاته وعبادته...

وهو يدرك أن الفضيلة التي تفقده فضيلة أخرى، ليست هى فضيلة كاملة أو خيّرة. لأن الفضائل تتعاون معاً، ويتداخل بعضها في البعض...

فهكذا نتعلم من اللَّه نفسه تبارك اسمه: فعدل اللَّه مثلاً لا يمكن أن يتعارض مع رحمته، بل ولا ينفصل عنها. عدل اللَّه عدل رحيم. ورحمته رحمة عادلة. عدل اللَّه مملوء رحمة. ورحمة اللَّه مملوءة عدلاً. ولا نستطيع أن نفصل بينهما. وعندما نقول عدل اللَّه ورحمة اللَّه، فلسنا من جهة الفصل بينهما نتكلَّم، إنما من جهة التفاصيل، لكي نفهم...

**** والخير ليس هو فضيلة سلبية، بل إيجابية:**

ليس هو سلبية تهدف إلى البُعد عن الشر، إنما هو إيجابية في عمل الصلاح ومحبته. فالإنسان الخيّر ليس هو فقط الذي لا يؤذي غيره، بل هو بالحري الذي يبذل ذاتـه عـن غيره. ليس هو فقط من لا يرتكب خطيئة، بل هو الذي يعمل براً.

**** والإنسان الخيّر هو الذي يصنع الخير مع الجميع...**

حتى مع الذين يختلفون معه في الجنس أو اللون أو اللغة أو المذهب أو العقيدة.

إنه كالينبوع الصافي يشرب منه الكل. وكالشجرة الوارقة يستظل تحتهـا الكـل. إن الينبوع والشجرة لا يسألان أحداً: ما هو جنسك؟ أو ما هو لونك؟ أو ما هو مذهبك. وهكذا الخيّر يُعطي دون أن يتفرس في وجه من يعطيه. ويحب دون أن يحلل دم من يحبه..

**** والإنسان الخيّر يعمل باستمرار على توسيع طاقاته في عمل الخير...**

ولا يرضى على الخير الذي يعمله من أجل اتجاهه نحو خير أكبر. وفي اشتياقه إلى اللامحدود، يشعر أن هناك آفاقاً في الخير أبعد بكثير مما يفهمه حالياً.. ويقيناً أننا عنـدما ندخل إلى عالم الروح في الأبدية، سننظر إلى ما عملناه من خير في العالم، فنذوب خجلاً ونتوارى في حياء!.

**** على أن كل ما نعمله من خير، إنما هو نتيجة لعمل نعمة اللّه فينا...**

أو هى نتيجة لتسليم أنفسنا إلى عمل نعمة اللّه. لذلك فالإنسان يبعد عن الخير، عندما يعلن انفصاله عن نعمة اللّه. أي عندما يرفض أن تقود النعمة حياته، وتبدأ إرادته البشرية أن تعمل منفردة!!.

حياة الخير إذن، هى حياة تسليم الإرادة للّه، أي حينما يسلّم الإنسان للّه كل فكره وكل مشاعره وكل عمله. ولعل هذا الإنسان حينما يقف في يوم الدينونة أمام اللّه، يقول في دالة الحب للّه: على أي شيء سوف أُدان يارب؟ وأنا من ذاتي لم أعمل شيئاً! وإنما حياتي كلها كانت بين يديك. وكل شيء بك كان. وبغيرك لم يكن شيء مما كان!!.

فهل أعمالك أيها القارئ العزيز هى كذلك؟ أي هى مجرد عمل النعمة فيك. أم هـى أعمال بشرية بحتة، قابلة للزلل وللخطأ والسقوط؟!.

**** واعلم أن الخير كالماء، الذي هو دائماً يمشي ولا يقف...**

فإن وقف أصابه الركود... لذلك فإن الخير، باستمرار يمتد إلى قدام، يتحرك نحو اللّه ونحو الناس. فهو لا ينتظر حتى يجيء الناس إليه، يخطبون ودّه، بل هو الذي يتحرك إليهم دون أن يطلبوه. ولذلك - فلأنه الخير - فيه دائماً عنصر المبادرة...

**** وعمل الخير، على الدوام فيه لذة.**

حتى إن كان أحياناً مملوءاً من الآلام. فآلامه حلوة المذاق، تريح القلب وتريح الضمير... فالذي ينقذ غريقاً يشعر بلذة في إنقاذه. والتي ترضع طفلها، تشعر بلذة في إرضاعه. والذي يحسن إلى فقير، يشعر بسعادة فيما يسعده. والذي يُضحي في سبيل وطنه، يجد كل المتعة والفخر في تضحيته...

** والخير لا يشترك إطلاقاً مع الشرّ. لأنه أية شركة بين النور والظلمة؟! لذلك نحن لا نوافق إطلاقاً على المبدأ المكيافيللي القائل: "بأن الغاية تبرر الواسطة". أي أن الغاية الخيّرة يمكن أن تكون تبريراً للوسيلة الخاطئة! فوسيلة الخير ينبغي أن تكون خيراً مثله. والخير لا يقبل أية وسيلة شريرة توصل إليه. إذ كيف يجتمع الضدان معاً؟!.

فالذي يلجأ إلى الكذب لكي ينقذ إنساناً، والذي يلجأ إلى القسوة والعنف لكي ينشر بهما الحق أو ما يظنه حقاً.. والذي يلجأ إلى الرشوة لكي يحقق لنفسه خيراً. والذي يلجأ إلى الإجهاض لكي يستر سمعة فتاة... كل أولئك قد استخدموا وسائل شريرة، لكي يصلوا بها إلى الخير، أو إلى ما يظنونه خيراً!.

**** ولعل البعض يسأل: ماذا نفعل إذا كنا مضطرين إلى هذه الوسائل؟**

نُجيب بأن هذه كلها وسائل سهلة وسريعة، يلجأ إليها الإنسان بطريقة تلقائية، دون أن يحاول بذل مجهود للوصول إلى الخير، ودون أن يبذل تضحية، ودون أن يتعب أو يحتمل...

فالكذب مثلاً حلّ سريع وسهل. أما الإنسان الحكيم الخيّر، فإنه يفكر ويجتهد ذهنه بعيداً عن هذه الوسيلة. ويقيناً أنه سيصل إلى وسيلة أخرى تريح ضميره. كذلك العنف والقسوة، كل منها حلّ سهل يلجأ إليه إنسان لا يريد أن يتعب في الوصول إلى حل آخر يكون وديعاً ولطيفاً...

**** إن الخير يريدك أن تتعب من أجله، ولا تلجأ إلى الحلول السهلة السريعة ولكنها خاطئة...**

وبقدر تعبك من أجل الخير، تكون مكافأتك عند اللّه.. وبهذا المقياس تقاس خيريتك. إن الحل السهل يستطيعه كل إنسان. أما الذي يكد ويتعب للوصول إلى تصرف سليم، فإنه يدل على سلامة ضميره وحبه للخير. عليك إذن أن تفحص الوسائل التي تستخدمها للوصول إلى الخير، وتتأكد أنها وسائل خيّرة.

إن الشيطان حينما يفشل في إقناعك بطريق الشر، ويجدك مُصراً على الخير. فإذ يفشل في السيطرة على الهدف أو نوع العمل، قد يقنع بالسيطرة على الوسيلة، فيُقدّم لك خططاً للوصول... فاحذر إذن، ولا تجعله يكسب أية جولة في صراعه معك.

**** أخيراً، اطلب من اللّه أن تكون نتائج عملك خيراً أيضاً:**

لا شك أنك قد لا تستطيع أن تتحكم في النتائج. وقد تتدخل في الأمر عوامل شريرة خارجة عن إرادتك، محاولة أن تفسد نتائج مجهوداتك الخيّرة... إنك كما تُجاهد بكل قوتك أن تعمل خيراً، فإن الشيطان - من جهته - يعمل بكل قوته لكيما يعرقل عملك. ولكن لا تيأس، فإن اللّه يتدخل لإعانتك.

لهذا قلت لك إن العمل الخير تكون نتائجه - بقدر الإمكان - خيراً.

٢٦ أغسطس ٢٠٠٧

القلب الكبير

إن الإنسان الضيق القلب يتأثر بسرعة، ويتضايق بسرعة، ويندفع في الانتقام لنفسه. أما صاحب القلب الكبير، فإنه واسع الصدر، يحتضن في داخله جميع المُسيئين مع إساءاتهم. فلا تتعبه أخطاء الغير، ولا يقابل الإساءة بالإساءة. إنما تذوب جميع الإساءات في خضم محبته، وفي لجة احتماله...

القلب الكبير أقوى من الشر. فالخير الذي فيه أقوى من الشر الذي يحاربه. فهو دائم الحب - مهما حدث - ودائم السلام يشبه الصخرة التي تلطمها الرياح وهي ثابتة لا تتزعزع. ويرى أن الخطاة عبارة عن أشخاص ضعفاء قد غلبهم الشر الذي يحاربهم. فهم يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم، وينقذهم مما هم فيه...

** فهو يعلم علم اليقين أن المسيء، إنما يسيء إلى نفسه قبل أن يسيء إلى غيره. وإذ هو يسيء إلى مستواه الروحي، وإلى نقاوة قلبه، وإلى سمعته، وإلى مصيره الأبدي. وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يضر غيره ضرراً حقيقياً... فالذي يشتم غيره مثلاً، إنما يعلن نوع أخلاقياته هو، دون أن يضر المشتوم في شيء. ويبقى المشتوم في مستواه العالي، لا تقلل الشتيمة من جوهر معدنه الكريم. بل تدل على خطأ مقترفها. والذي أصابته الإهانة – فإن كان قلبه كبيراً – نراه لا يتأثر. بل يأخذ موقف المتفرج وليس موقف المنفعل..! وفي أعماق نفسه يشفق على المُخطئ!.

** وهنا تتضح أمامنا درجات روحية في مواجهة الإساءة: وهي احتمال الإساءة، ومغفرة الإساءة، ونسيان الإساءة، والعطف على المُسيء وإنقاذه مما هو فيه، كما يشفق الطبيب على مريض ويعمل على علاجه مهما ساءت حالته.. ففي أية درجة من هذه الدرجات، تضع نفسك أيها القارئ العزيز؟.

** كل إنسان يستطيع أن يحب من يحبه، ويحترم من يحترمه، ويكرم من يكرمه. كل هذا سهل لا يحتاج إلى مجهود. ولكن نبيل هو الإنسان الذي يُقابل الإساءة بالإحسان. ويحب المُسيء لكي ينقذه من طباعه الميالة إلى الإساءة.

** هنا - بدون شك - تكون المحبة بلا مقابل. أي أن هذا الإنسان النبيل لم يأخذ محبة في مقابل محبته. وإذ لم يأخذ أجراً على الأرض، يكون أجره محفوظاً في السماء..

إن القلب الكبير ليس تاجراً، يعطي حباً لمن يقدّم له حباً! أو يعمل خيراً مع الذي ينقذه شكراً!! بل هو يصنع الخير مع الكل، بلا مقابل. إنه يعمل الخير، لأن هذه هي طبيعته. فهو يعمل الخير مع من يستحقه، ومع الذي لا يستحقه أيضاً، مع المُحب ومع المُسيء، مع الصديق ومع العدو... مثل الشمس التي تشرق على الأبرار والأشرار، ومثل السماء التي تمطر على الصالحين والطالحين.. وهذا أيضاً درس نتعلّمه من اللّه - تبارك اسمه - الذي يحسن إلينا ونحن خطاة نكسر وصاياه!.

** وهكذا نرى أن القلب الكبير لا يعامل الناس كما يعاملونه. وإنما يعاملهم حسب سموه وحب نبل. وهو لا يتغير في سموه وفي نبله طبقاً لتصرفات الناس حياله. فهو لا يرد على الإساءة بإساءة. لأنه لا يقبل أن تصدر عنه إساءة نحو أحد، حتى لو كان ذلك في مجال الرد عليه..

أما ضعاف القلوب، فإنهم يتأثرون بتصرفات الناس، ويتغيرون تبعاً لها...

****

** كذلك فإن القلب الكبير يعيش على الدوام في سلام داخلي، يملك عليه الهدوء. وكل ضيقات العالم لا تزعجه. إنه يستمد سلامه من داخل نفسه، وليس من الظروف المحيطة به...

حقاً، إنه ليس من صالح الإنسان أن يجعل سلامه يتوقف على أسباب خارجية: إن اضطربت الأحوال، يضطرب معها، وإن هدأت يهدأ. فسبب خارجي يجعله يثور، وسبب آخر يجعله يفرح! سبب يبكيه وسبب يبهجه. ويكون في هذا كما قال الشاعر:

كريشة في مهب الريح طائرة   لا تستقر على حال من القلق

** إن صاحب القلب الكبير يجعل الظروف الخارجية تخضع لمشاعره ولقوة صلابته، ولحسن تحكمه في انفعالاته. ولا يخضع هو لها...

إن حدث حادث معين، يتناوله في هدوء. يفحصه بفكر مستقر، ويبحث عن حلّ لـــه. كل ذلك وهو متمالك لأعصابه، متحكم في انفعالاته. وبهذا ينتصر، ويكـــون أقـــوى مـــن الأحداث، ويحتفظ بسلامه الداخلي... ذلك لأن قلبه أقوى مـــن الظـــروف، وأكبـــر مـــن الأحداث.

** لذلك أيها القارئ العزيز، ليكن قلبك كبيراً، وصدرك رحباً. وقل لنفسك في ثقة: لا يليق بي أن أضعف، أو أن تنهار معنوياتي أمام الأخبار المثيرة، أو أمـــام الضـــغطات الخارجية، مهما حدث. سأحاول أني لا أنفعل. وإن انفعلت، ســـأحاول أن أســـيطر علـــى انفعالاتي... وبنعمة اللّه سوف أصمد إلى أن تمر العاصفة...

** لا تفكر في الضيقة التي أصابتك، ولا في أضرارها ومتاعبها. بل فكّر في إيجاد حلّ لها. إن كثرة التفكير في الضيقة هى التي تحطم الأعصاب وتتعب الـــنفس. وأحيانـــاً يكون التفكير في الضيقة أشد إيلاماً من الضيقة ذاتها. أما التفكير في الحل فهو الذي يُوجد سلاماً...

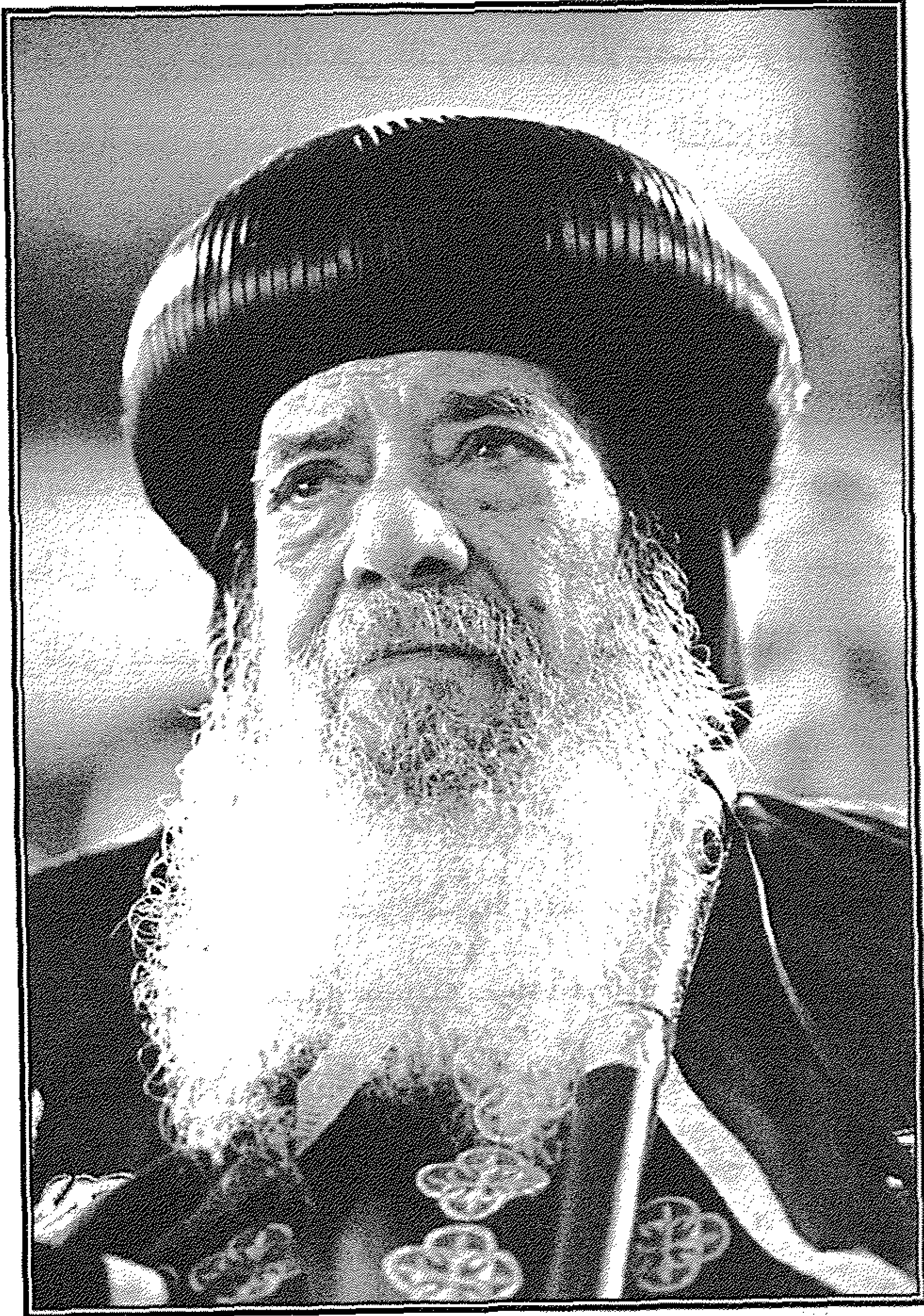
** ضع في نفسك أن كل ضيقة لها حلّ، ولها مدى زمني تنتهي فيه. فإن وصـــلت إلى حلّ سوف تستريح. وإن لم تصل، ثق بروح الإيمان إن اللّه عنده حلول كثيرة، وإنـــه سوف يعينك ويحل إشكالاتك... وتذكّر ضيقات سابقة قد حلّها اللّه ومرت بسلام... واحذر من أن يوقعك الشيطان في اليأس، وأن يصوّر لك الأمر مُعقداً لا حل له. فـــإن الإنســـان المؤمن لا ييأس. والذي يستسلم لليأس قد يتصرّف تصرفاً خاطئاً ربما يكون أكثر ضرراً من المشكلة نفسها...

** إن القلب الكبير لا يستسلم للضيقات. بل قد لا يشعر بالضيقة، لأنها لم تضـــايقه. وأتذكر أنني قلت من قبل: إن الضيقة سُميت ضيقة، لأن القلب قد ضاق عن أن يتسع لها. ولو كان القلب مُتسعاً، ما شعر أنها ضيقة، وما تضايق منها. الضيق إذن في قلوبنا وليس في العوامل الخارجية: فإن تعكرنا نحن من الداخل، تبدو أمامنا كل الأمور متعكـــرة. وإن تعبنا في الداخل، تبدو الأمور متعبة! أليس حقاً أن أمراً من الأمور قـــد يضـــايق إنســـاناً ما، وفي نفس الوقت لا يتضايق منه إنسان آخر، وهو نفس الأمر؟!.

** ليس المهم إذن في نوع الأحداث التي تحدث لنا، بل المهم بالأكثر هو الطريقة التي نتقبل بها الأحداث ونتصرف معها...

القلب الكبير يصمد في قوة أمام الإشكالات فيزداد قوة. أما الضعيف فينهار أمامها ويزداد ضعفاً. والإشكالات هى نفس الإشكالات! فإن أحاطت بك المتاعب من الخارج، احرص أنها لا تدخل مُطلقاً إلى داخل نفسك. فالمياه تحيط بالسفينة من الخارج فلا تؤذيها. أما إن زحفت إلى داخل السفينة بسبب ثقب فيها، حينئذ يكون الخطر! فاحذر جداً من أن يوجد ثقب في نفسيتك، تدخل منه المياه إلى قلبك، فيتعب..

واعلم أن جميع التجارب والضيقات والمشاكل تؤول إلى الخير، إذا أمكننا الاستفادة منها.



٢ سبتمبر ٢٠٠٧

القلب العطوف

كلمتكم في مقالنا السابق عن القلب الكبير المملوء بالتسامح والعفو، وهو أيضاً القلب العامر بالسلام والطمأنينة. واليوم أود أن أحدثكم عن القلب العطوف المملوء بالحنان والرقة الذي يفيض إشفاقاً على كل أحد، حتى على الذين لا يستحقون..!

وحنو الإنسان على غيره قد يشمل الكائنات جميعاً. فيحنو على العصفور المسكين، وعلى الزهرة الذابلة، وعلى الشجرة العطشى إلى الماء. ويحنو على الحيوان الضعيف الخائف من وحش يفترسه!

** وقد يكون الحنو من نواحي مادية أو جسدية. كما يكون من نواحٍ نفسية أو معنوية. وخلاصة الأمر أن القلب العطوف يفيض بحنانه في كل المجالات وعلى الكل. فيشفق على الفقير المحتاج، وعلى المريض المتألم. كما يشفق على اليائس المُتعب نفسياً، وعلى الخاطئ الساقط المحتاج إلى من يأخذ بيده ويقيمه.

** والحنان ليس مجرد عاطفة في القلب، وإنما القلب العطوف تتحول فيه العاطفة إلى عمل جاد من أجل إراحة الغير. ذلك لأن الحنان النظري هو حنان قاصر ناقص، يلزمه إثبات وجوده بالعمل. فهو لا يحنو بالكلام واللسان، بل بالعمل والحق.

** إن القلب العطوف يمكنه أن يكسب الناس بحنوه. أما القلب القاسي فينفّرهم. لأن القلب القاسي دائماً يحطم ويهدم. وقسوته لا تشفق ولا ترحم. إنها نار تأكل كل شيء، حتى نفس القاسي!

أما الناس فيحتاجون إلى من يعطف عليهم، وإلى من يأخذ بأيديهم، فيشجع الضعيف، ويقيم الساقط. من يفهم ظروف الناس واحتياجاتهم وتكون له روح الخدمة، فيخدم الكل، ويساعد الكل ويعينهم. ولا يحتقر ضعفات الناس. بل يشدّد الركب المخلّعة والأيدي المسترخية...

** القلب العطوف يجول يصنع الخير. ولا يقول عن الساقطين الخاطئين إنهم لا يستحقون. بل يرى بالحري أنهم يحتاجون.

أليس أن اللّه - تبارك اسمه - وهو في علو قداسته، نراه يشفق علينا، ونحن في عمق خطايانا. وهكذا يستر ولا يكشف! وكم من أُناس غطسوا في الشر، فلم يكشفهم ولم يفضحهم، ولم يشأ أن يعلن مساوئهم للناس. لأنهم لو انكشفوا لضاعوا، وانسد أمامهم الطريق إلى التوبة بعد فقدهم لثقة الناس..!

** لذلك فإن القلب العطوف لا يتحدث عن أخطاء الناس، ولا يشهّر بها، ولا يقسو في الحكم عليها. بل قد يجد أحياناً لهم عذر، أو يخفف من المسؤولية الواقعة عليهم. وإن قابلهم، لا يفقد توقيره لهم، مُعطياً إياهم فرصة لإصلاح وضعهم. بل أنه قد يضحي بنفسه من أجلهم، ويحمل بعض المسئولية عوضاً عنهم.

قال أحد القديسين: "إن لم تستطع أن تمنع من يتكلّم على الغير بالسوء، فعلى الأقل لا تتكلم أنت". وقال أيضاً: "إن لم تستطع أن تحمل خطايا الناس وتنسبها إلى نفسك لتنقذهم، فعلى الأقل لا تستذنبهم وتنشر خطاياهم".

** إن القلب العطوف يعيش في مشاعر الناس: يتصوّر نفسه في مكانهم، ولا يجرح أحد. ويبرهن على نقاوة قلبه بعطفه على الكل... وهو يعرف أن الطبيعة البشرية حافلة بالضعفات. وربما أقوى الناس تكون في حياته أيضاً ثغرات. لذلك فإن القلب العطوف ينظر إلى الناس في حنو، حتى في سقوطهم أيضاً. وبهذا كان أقوى المرشدين الروحيين هم الذين يفهمون النفس البشرية، ولا يقسون عليها في ضعفاتها.

** إن القلب العطوف، لا يعامل الناس بالعدل المطلق مجرداً، بل يخلط بالعدل كثيراً من الرحمة. ولا يزن بميزان عدل جاف حرفي يطبق فيه النصوص. بل أيضاً يقدّر الظروف المحيطة، سواء كانت عوامل نفسية أو وراثية أو تربوية أو عوامل اجتماعية. أمّا الذي يصب اللعنات على كل مُخطئ، دون أن يقدّر ظروفه أو يفحص حالته، فإنه قلب لا يرحم.

** القلب العطوف لا يحكم على أحد بسرعة. بل يعطي كل أحد فرصته للدفاع عن نفسه وتوضيح موقفه.

وهو لا يكثر اللوم والتوبيخ .. وإن وبّخ، فإنما يكون ذلك بعطف وليس بقسوة. وقد يقدّم لتوبيخه بكلمة تقدير أو كلمة حب، حتى يكون التوبيخ مقبولاً. وإن احتاج الأمر منه

إلى حزم وشدة، فقد يفعل ذلك مُضطراً. ولكنه في مناسبة أخرى يصلح الموقف. ويعالج بالحنو نفسية ذلك المُخطئ.

** والقلب العطوف لا يُخجل أحداً ولا يجرح أحداً. وقد يشير إلى الخطأ من بعيد بألفاظ هادئة. وربما بطريق غير مباشر، وربما في السرّ وليس في أسماع الناس.

أما الذي يرجم الناس بالحجارة، فعليه أن يتروى، لئلا يكون بيته من زجاج... وليعلم أن كل الفضائل بدون المحبة ليست شيئاً، وأن المحبة تتأنى وترفق، وتكسب الناس بالحنو، ولا تخسرهم بالقسوة. ورابح النفوس حكيم.

****

** أيضاً القلب العطوف دائماً يعطي.. وهو يعطي في حب، وباستمرار، دون أن يُطلب منه، بل بدافع داخلي.. إنه دائم التفكير في احتياجات الناس ليقوم بها، دون أن يقولوا له.

** هذا القلب العطوف يريد أن يريح الناس وأن يسعدهم. وإن وُضعت في يده مسئولية، يستخدمها لراحة الناس. وإن وهبه اللّه ثروة أو سلطة أو أية إمكانية، فإنه يستخدمها أيضاً لأجل راحة الناس، كل الناس.

** والقلب العطوف لا يستطيع أن ينام، إن عرف أن هناك شخصاً في تعب أو احتياج. بل يظل يفكر ماذا تراه يفعل لأجله. لذلك كان من المستحيل على مثل هذا القلب أن يؤذي أحداً، لأنه يتألم لآلام الناس أكثر من تألمهم هم...

** والقلب العطوف يعطي من حبه وليس من مجرد جيبه، ويُشعر الآخذين من عطائه أنه من إنسان مُحب، وليس مجرد مُحسن. وهو يعطي الكل. ولا يقتصر على الأصدقاء والأحباء وذوي القُربى أو إخوته في الدين والمذهب، بل هو يريح الجميع.

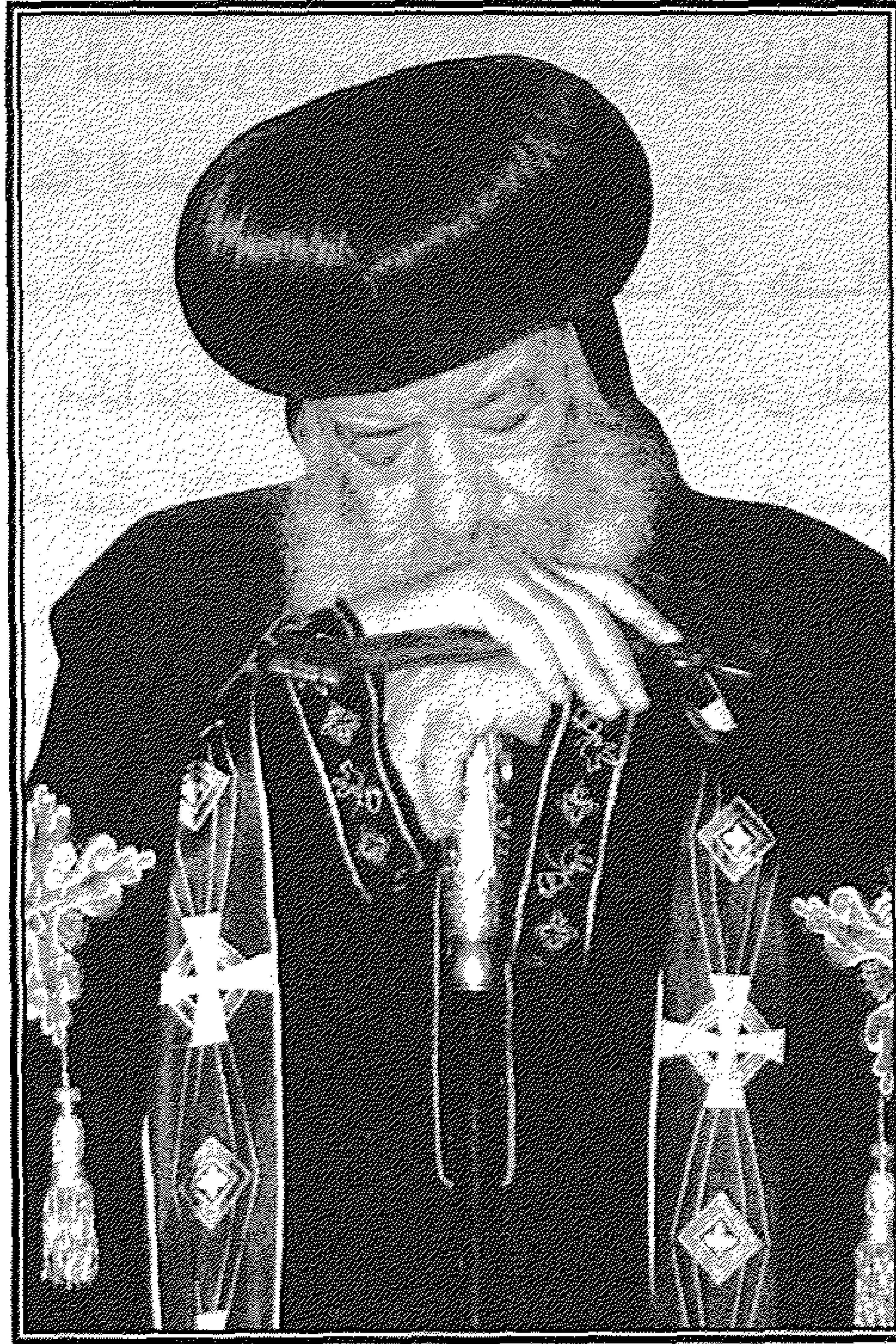
** وهو يعطي بكور إيراداته، أي أوائل ما يصل إليه لكي يبارك اللّه الكل. يعطي المرتب الأول الذي يتقاضاه، والعلاوة الأولى، وأول ما يصل إليه من إيراد. فالجرّاح مثلاً يعطي أجر أول عملية يجريها، والطبيب يعطي أجر أول كشف، والمدرس يعطي أجر

أول درس خصوصي. والصانع يقدّم أجر أول عمل يقوم به. والزارع يُعطي أول حصيد أرضه، وأول ثمر شجرة. كل ذلك يُقدّم عطية للمحتاجين والمعوزين.

** وأجمل ما في العطاء أن يعطي الإنسان من إعوازه ليسد احتياج غيره. وفي هذا منتهى الحب والحنو. لأن فيه تزول الذاتية، وتحل محلها محبة الغير، بل تفضيل الغير على المعطي نفسه.

وفي كل هذا، يشعر القلب العطوف إنه إنما يعطي من مال اللَّه لعيال اللَّه، دون أي فضل من جهته! وكيف ذلك؟

في الواقع أننا لا نعطي شيئاً من مالنا، بل من اللَّه الذي أعطانا ما نعطيه، وأعطانا أيضاً موهبة العطاء. فكل شيء نملكه هو ملك للَّه. ونحن مجرد وكلاء على ما عندنا من مال، قد استودعنا اللَّه إياه لكي ننفق منه على وجهات الخير. وهو الذي يعطي القلب العطوف ما فيه من عطف وإشفاق.



٩ سبتمبر ٢٠٠٧

فوائد النسيان

من النسيان ما هو ضار وما هو نافع. والنسيان الضار ليس هو موضوعنا في هذا المقال. ومن أمثلته: أن ينسى المرء واجباته الدينية أو مسئولياته العملية. أو أن ينسى وعوده أو عهوده أو بالأكثر أن ينسى إحسانات اللّه إليه. وما يشبه ذلك وهو كثير.

على أن النسيان ليس كله شراً. فقد سمح به اللّه من أجل نفع الإنسان وفائدته، لو أنه أحسن استخدامه. فالإنسان الحكيم يعرف ما الذي ينبغي أن ينساه، وما الذي ينبغي أن يتذكره. وسنحاول في هذا المقال أن نشرح بعض المجالات التي يحسن فيها النسيان:

**** فمن فوائد النسيان مثلاً: أن ننسى إساءات الناس إلينا.**

ننساها لكي نستطيع أن نسامح وأن نغفر ونصفح. ولكي لا يملك الغضب على قلوبنا بسببها. وننساها لكي نهرب من شيطان الحقد ومن شيطان الكراهية إذا ثبتت في أذهاننا.

فالذي ينسى أخطاء الناس إليه، يمكنه أن يقابل الكل ببشاشة، ويملك السلام قلبه، ولا يختزن فيه شراً من جهة أحد. لذلك، إذا أساء إليك أحد، لا تحاول أن تسترجع في ذهنك إساءته إليك، ولا تتحدث مع الناس عما فعله بك ذلك المُسيء، ولا تفكر في أية إهانة لحقت بك. لئلا يرسخ كل ذلك في ذاكرتك ويتعبك..

**** ولا تنسَ فقط أخطاء الناس إليك، وإنما كل أخطائهم عموماً..**

لأنك لو تذكرت على الدوام أخطاء الناس، لاسودت صورتهم في نظرك، ولعجزت أن تجد لك من بينهم صديقاً! إنه يندر أن يوجد أحد ليست له أية أخطاء. فلو أننا تذكرنا لكل أحد أخطاءه، لما استطعنا أن نتعامل مع أحد. وربما يدخل الشك إلى قلوبنا من جهة الناس جميعاً. وربما لا نستطيع أن نتكلّم باحترام مع كل أحد.

من هنا تبدو فائدة نسيان أخطاء الناس.. كما يجب أن ننسى لهم أخطائهم، لكي نطلب من اللّه نسيان خطايانا.

وفي نفس الوقت الذي ننسى فيه أخطاء الناس، علينا أن نذكر خطايانا الخاصة لكـي نصل إلى التوبة وإلى الاتضاع. موقنين تماماً أنه إن نسينا خطايانا، سيذكرها لنا اللَّه. أما إن ذكرنا خطايانا فسوف يغفرها لنا اللَّه. إذن فليذكر كل أحد خطايـاه، وينسـى خطايـا غيره. بعكس المتكبر الخالي من الحب، الذي دائماً ينسى نقائصه، ودائماً يـذكر نقـائص غيره، أو يتحدث عنها.

**** من فوائد النسيان أيضاً أن ننسى فضائلنا**، حتى لا نقع في الكبرياء والإعجـاب بالنفس... فإن عملت خيراً، أو إن شاءت نعمة اللَّه أن تعمل خيراً بواسطتك، فـلا تـذكر ذلك ولا تتذكره. لئلا يجلب لك التذكار مديحاً من الناس، تستوفي به أجرك على الأرض، دون أن يختزن لك الأجر في السماء.

فالذي يفعل خيراً، عليه أن يخفي الأمر، ليس فقط عن الناس، إنما حتى عن نفسه هو بالنسيان.

حقاً، إن الذي يذكر فضائله، أو يُظهر فضائله، إنما يقع في الغرور والخيلاء، ويفقـد الكثير من ثوابه. لذلك انسَ الخير الذي تعمله. وإن ألحّ عليك الفكر في تذكره، انسب ذلك إلى عمل نعمة اللَّه معك، وليس إلى إرادتك الخيّرة. واشكر اللَّه الذي هيّأ لـك الظـروف التي ساعدتك. واذكر أيضاً أن ذلك العمل كان يمكن أداؤه بطريقة أفضل من التي عملتـه بها...

**** من فوائد النسيان أيضاً أن ننسى المتاعب والضيقات:**

أحياناً يكون التفكير في متاعب الضيقة أشد إيلاماً وضرراً من الضيقة ذاتها. لـذلك من الخير لك أن تكون الضيقات خارجك وليست داخلك. أي لا تسمح لها بالـدخول إلـى فكرك، ولا الاختلاط بمشاعر قلبك لئلا تتعبك. أي حاول أن تنساها. وإن ألحّ عليك الفكر ولم تستطع أن تنسى، حاول أن تنشغل بالقراءة أو بالعمل أو بالحديث مع الناس، لكي تبعد الفكر عنك وتنسى..

وعندما تنسى ضيقاتك ومتاعبك وآلامك، ستدرك أن النسـيان نعمـة وهبهـا اللَّـه. وستشكر اللَّه الذي جعلك تنسى... أليس في معالجة المرضى المتعبين بأفكارهم ومشاكلهم

النفسية، يُقدّم لهم الأطباء أدوية لكي تشتّت تركيز أفكارهم، فينسون! وبهذه الطريقة يحاول الإنسان أن يشتري النسيان بالطب والدواء والمال... إذن مبارك هو اللّه أن يهب النسيان مجاناً لمن يحتاجونه.. إذن انسَ المتاعب والهموم، لأن تذكرها يجلب الأمراض النفسية والعصبية وأمراضاً أخرى. وهنا ندرك فوائد النسيان.

**** من فوائد النسيان أيضاً، أن ينسى الإنسان الأسباب المُعثرة التي تجلب له الخطية**... فقد يقرأ شاب قصة بذيئة، أو يرى منظراً خليعاً، أو يسمع كلاماً مثيراً... وإن لم ينسى كل هذه الأمور، تظل تشغل فكره وتحاربه روحياً، فتُضيّع نقاوة قلبه. ولذا من الخير له أن ينسى... وقد يقع شاب آخر في مشكلة عاطفية، ويحاول من أجل إراحة قلبه أن ينسى. وإذا استطاع ذلك، يعترف إن النسيان نعمة عظيمة..

لذلك حاول أن تنسى كل ما يعكر نقاوة قلبك. لا تجلس وتفكّر في أي شيء ينجس فكرك أو مشاعرك. وإن عبر أيّ من هذه الأمور على ذهنك، فلا تستبقه، بل اطرده بسرعة، ولا تعاود التفكير فيه، لكيما تنساه...

**** من فوائد النسيان أيضاً أن تنسى كل الأمور التافهة، لكي تُبقي في ذهنك الأمور النافعة لك ولغيرك...**

تصوّروا مثلاً لو أن إنساناً تذكّر كل ما يمر عليه طوال يومه، أو طوال أسبوع أو شهر، من كل الأمور التافهة التي تختص بالأكل والشرب وأحاديث الناس ومناظر الطريق، وأيضاً كل القراءات وكل الأحداث... هل مثل هذا الشخص تحتمل طاقة فكره وذاكرته أن تخزن فوق ذلك كله، المعلومات اللازمة له والأساسية؟! لا أظن ذلك... من أجل هذا يسمح اللّه - لفائدتنا - أن ننسى التافهات، لكي تتبقى في ذهننا الأمور الهامة فقط. أما الذين يتذكرون كل الأمور التافهة، أو يهتمون بها فلا ينسوها... هؤلاء ستكون أحاديثهم تافهة أيضاً..

كذلك تصوّروا مثلاً إن أراد أحد أن يُصلّي. ووردت في ذهنه وذاكرته كل الأخبار والأحاديث التي عبرت به في يومه... أتراه يستطيع أن يركّز في فكره في الصلاة؟! أم يسرح فيما يتذكره!

وأيضاً إن أراد أحد أن يذاكر درساً، أو أن يكتب بحثاً، أو أن يناقش موضوعاً هاماً، أتراه يستطيع ذلك، بينما في ذهنه كل التافهات التي مرّت به طوال يومه؟ أليس من المفيد له أن ينساها، ولو إلى حين!

إن النسيان إذن هو عملية غربلة حيوية، تغربل في الذهن وفي الذاكرة جميع المعلومات والمعارف والمناظر والسماعات، التي وردت إلى العقل، فتستبقي النافع منها، وتطرد ما لا يفيد، عن طريق النسيان...

لذلك فلنحاول جميعاً أن نتحكم في ميزان ذاكرتنا. فلا نستبقي فيها إلاّ كل ما يفيدنا. أما الباقي فننساه. من أجل هذا، سمح اللّه بوجود النسيان. على أنه يجب أن نكون حكماء في معرفة ما يفيدنا نسيانه. وما يجب علينا أن نتذكره.



١٦ سبتمبر ٢٠٠٧

الصوم
شروطه وفوائده

من أعماق قلبي أُهنئ إخوتي المسلمين في مصر والعالم الإسلامي كله، بحلول شهر رمضان، شهر الصوم الذي تقترب فيه القلوب معاً، وتقترب إلى اللّـه. وليكن صوماً مباركاً مقبولاً عند اللّه... وبهذه المناسبة أحب أن أحدثكم عن الصوم بمعناه الحقيقي أو بمفهومه الروحي، وعن شروطه وما يجب أن تلتصق به من الفضائل، وكيف يكون بهذا مفيداً للأفراد وللجماعة...

** والصوم معروف في جميع الأديان، حتى في البوذية والهندوسية والكنفوشيوسية، وعند اليوجا بأسلوب أعمق في وسيلة لقهر الجسد لكي تأخذ الروح مجالها. وفي حياة المهاتما غاندي الزعيم الروحي للهند، نرى أن الصوم كان من أبرز الممارسات الواضحة في حياته، وكثيراً ما كان يواجه به المشاكل...

** ويخطئ من يظن أن الصوم هو مجرد فضيلة للجسد، أو أنه مجرد علاقة الإنسان بالطعام وموعده. فالصوم في حقيقته هو عمل للروح في تساميها عن المادة والطعام، ويُعبّر الجسد عن رغبة الروح بالصوم. الصوم إذن هو حالة روح زاهدة تُشرك الجسد معها في الزهد. وهكذا لا يكون الصوم هو الجسد الجائع، بل بالحري هو الجسد الزاهد. فليس الصوم هو جوع الجسد، بل هو تسامي الجسد، ومعه طهارة الجسد. ليس هو حالة الجسد الذي يجوع ويشتهي أن يأكل. بل الجسد الذي يسمو - ولو إلى حين - عن شهوة الأكل!

** الصوم هو فترة ترتفع فيها الروح، وتجذب الجسد معها، لكي تُخلّصه من أحماله وأثقاله، ومن شهواته المادية، وتجذبه معها إلى فوق. فيعمل معها العمل الروحي بلا عائق. إذن الصوم هو فترة روحية يقضيها الجسد والروح معاً في عمل واحد هو عمل

الروح! حيث يُصلّي الإنسان ليس فقط بجسد صائم، إنما بالأكثر بنفس صائمة: بفكر صائم عن الرغبات الخاطئة، وبقلب صائم عن الشهوات الرديئة، وبروح صائمة عن محبة الماديات. إذن هى فترة صالحة للاقتراب إلى اللّه أكثر من باقي الأيام.

** الصوم إذن فترة مقدسة، تشعر فيها بمتعة روحية، وترى أن صلتك باللّه قد زادت وتعمقت. إنها ليست أياماً عادية، بل هى أيام لها طابع مثالي غير عادى يتميز بالتدرُّب على النمو الروحي.

** لهذا كله، ينبغي أن نتأكد أن الصوم قد غيّر الكثير في حياتك إلى ما هو أفضل. فهل أنت يا أخي العزيز تدرك أن الصوم قد غيّر فيك شيئاً؟ أم تمر عليك أصوام خلال سنوات وسنوات، وأنت كما أنت، بنفس الصفات والضعفات؟!

** إن أردت التغيير في حياتك فضع أمامك الفضائل التي ينبغي أن ترتبط بالصوم، حتى تستفيد روحياً من صومك!

الصوم لا بد أن تصحبه التوبة، بحيث يبعد الصائم عن الخطية، ويحرص على أن يكون فكره مقدساً، وقلبه مقدساً، وجسده أيضاً يكون طاهراً. بحيث أنه كما يصوم الجسد عن الطعام، يصوم أيضاً عن كل شهوة خاطئة، وكل الملاذ المحرمة.

** واعلم أنه بدون التوبة، يرفض اللّه صومك ولا يقبله. وبهذا تكون لا ربحت سماءً ولا أرضاً. وتكون قد منعت جسدك عن الطعام بلا فائدة وبلا أجر سماوي. فإن أردت أن يقبل اللّه صومك، راجع نفسك، واعرف ما هى خطاياك وارجع عنها وتُب. وبهذا تُصلح ذاتك وتصطلح مع اللّه في صومك. وإن أبطلت الخطية خلال أيام الصوم، فاستمر في إبطالها بعده. فالتوبة ليست قاصرة على فترة الصوم فقط. إنما بالتدرُّب عليها أثناء الصوم، تتعود عليها فيتنقى قلبك، وتحتفظ بهذا النقاء كمنهج حياة.

** وإذ تتوب في الصوم، أعدد نفسك للجهاد ضد الشيطان. ذلك أن الشيطان إذ يرى صومك وتوبتك، يحسد عملك الروحي ليفقدك ثمرة برك. وهكذا قد يُقدّم لك أثناء أيام الصوم إغراءات جديدة لم تكن متاحة قبلاً، وحيلاً عديدة يلتمس بها إسقاطك! فاحترس وقاوم كل ذلك. وإن رأيت الصوم فترة حروب روحية من عدو الخير، اجعلها أنت فترة انتصار روحي على كل الإغراءات.

** والصوم كما تصحبه التوبة، تصحبه أيضاً الصلاة والعبادة. فليس الصوم هو الاكتفاء بمنع الجسد عن الطعام، فهذه ناحية سلبية. أما الناحية الإيجابية فهى إعطاء الروح غذاءها. فالجسد يصوم، والروح تتغذى بالصلاة والترتيل والألحان والتسابيح، وبالقراءات الروحية والتأمل الروحي. واعلم أن صلاة روحية تُصلّيها وأنت صائم وضعيف في جسدك، هى أعمق من عشرات الصلوات التي تصدر منك وجسدك مملوء بالطعام وصوتك يهز الجبل!

** ولتكن صلواتك في الصوم هى من أعماق قلبك وبكل مشاعرك. ولا تحاول أن تريح ضميرك بمجموعة من التلاوات لا عمق فيها، ولا هى خارجة من قلبك. واعلم أن الصلاة - من واقع اسمها - هى صلة... صلة قلب بإلهه.

** فهل فترة صومك متصلة باللَّه؟ أم أن فكرك منشغل بأمور كثيرة، ووقتك لا ينال منه اللَّه شيئاً، تشغله باللَّهو أحياناً وبألوان من المتع العالمية؟! وهل صلواتك وقراءاتك الروحية أثناء الصوم هى أكثر مما في باقي الأيام؟ وهل تجد في الصلاة متعة روحية؟

** الصوم أيضاً لا بد أن يصحبه ضبط النفس. لذلك احرص على أن تضبط نفسك ضد كل رغبة خاطئة، سواء أتتك من داخلك أو من حروب الشيطان. امسك إذن زمام إرادتك في يدك.

** في الصوم قد يشتهي جسدك أن يأكل فتمنعه، وتنجح في منعه. استخدم هذه الإرادة في منع كل رغبة بطالة، وكل عادة رديّة، وكل تصرف خاطئ، وكل شهوة للجسد. أما الذي يملك إرادته في الامتناع عن الطعام، وينغلب مع باقي شهواته، فماذا تراه قد استفاد من صومه؟!

** الصوم أيضاً تصحبه الصدقة والإحسان على الفقراء والمحتاجين. فالذي يشعر في الصوم بالجوع، يشفق على الجياع ويطعمهم. ولا يستطيع أن يأكل، إن شعر أن غيره لا يجد ما يأكله.

وهكذا يعمل الكثيرون في الصوم على إقامة موائد للفقراء. على أن الأمر لا يصح أن يقتصر على تقديم الطعام، إنما يحسن أيضاً الاهتمام بهؤلاء الفقراء لكي يستطيعوا أن يعيّدوا حينما يأتي العيد. وذلك بأن تُقدّم لهم الملابس والمصروفات...

** الصوم عن الطعام، يحسن أن يصحبه أيضاً صوم اللسان، وصوم القلب والحواس. وقد قال أحد الآباء: "صوم اللسان خير من صوم الفم. وصوم القلب عن الشهوات خير من صوم الاثنين" أي خير من صوم اللسان والفم كليهما.

** فهل لسانك صائم عن كل كلمة رديئة؟ وإن كنت كاتباً، هل قلمك صائم عن كل خطأ في الكتابة؟ ولا شك أن القلب الصائم عن الخطية يستطيع أن يصوّم حواسه عن الخطأ بالنظر أو بالسمع وما إلى ذلك. ويستطيع أن يصوّم لسانه عن كل الكلام الشرير، لأن الكلام بلا شك صادر عما في داخل القلب.

** والذي يريد أن يستفيد من صومه، تنفعه جداً التداريب الروحية لتكون مصاحبة لصومه. فيُدرّب نفسه على ترك كل نقاط ضعفاته. كما يُدرّبها على اقتناء ما ينقصه من الفضائل. فإن نجح في هذا التدريب، يكون قد خرج من الصوم بفوائد لا تُحصى.

٢٣ سبتمبر ٢٠٠٧

التعب المقدس

من بين أصناف التعب نوعان: تعب شرير وتعب مُقدس: أما التعب الشرير فهو مثل تعب الشيطان في إغراء الناس وفي محاولة إسقاطهم. ومثل تعب الأشرار والمتآمرين في كل تدابيرهم للإضرار بالآخرين. ومثل تعب الفاسدين لكي يصلوا إلى متعتهم في تحقيق الفساد، وما أشبه من هذه الأمور...

** أما التعب المقدس فهو الذي يتعبه الإنسان في إراحة غيره، أو في تنفيذ وصايا ربه، أو في جدية القيام بما عليه من واجبات ومسئوليات وهو في كل هذا التعب، يشعر براحة في ضميره، ويفرح بنتائج تعبه وثماره. كما أنه ينال أجراً من اللّه حسب كل ما بذله من جهد وتعب، وينال أيضاً مديحاً من الناس...

** ولعل من الأمثلة الأكثر شهرة وشيوعاً في هذا التعب المقدس: تعب الوالدين في تربية الأبناء. من حيث العناية بالصغير منذ طفولته، والاهتمام بصحته وغذائه واحتمال الكثير من طلباته وضعفاته، واستمرار العناية به حينما يكبر. والتعب في الصرف عليه في كل مراحل تعليمه. وأيضاً تقويمه في مراحل الشباب، واحتمال ما قد ينشأ من انحرافاته وانفعالاته...

ولا ننسى تعب الأم في تجهيز ابنتها للزواج، والعمل على استقرارها في بيت، والاطمئنان عليها في رعاية رجل يسعدها. والإنفاق عليها في هذا السبيل لكي تبدو في أجمل صورة يوم زواجها.

والوالدان في كل تعبهما من أجل تربية ورعاية الأبناء، وفي العمل لضمان مستقبلهم لا يباليان بما يبذلانه من جهد ومن مال. وقد يضطران إلى الاستدانة، أو الالتحاق بعمل إضافي يزيد من إيراداهما للإنفاق على أبنائهما. ولا يؤلمهما ذلك بل يفرحان به... إنه تعب مقدس.

** ومن أمثلة هذا التعب أيضاً كل العاملين في خدمة المجتمع في شتى المجالات: مثل الطبيب الذي يبذل كل جهده لشفاء المريض ولإنقاذه من آلامه بقدر إمكانه. ونذكر في

هذا المجال أيضاً الطبيب النفساني الذي يحتمل كثيراً لكي يشفي مريضه من القلق أو الاضطراب أو الخوف أو الوهم أو الشك... مهما كلّفه ذلك من جهد مضني بسبب تعامله مع شخص غير طبيعي. ولكنه بكل صبر يتعب في احتماله، فهذا تعب مقدس... وينضم إلى هؤلاء العاملون في جمعيات الإسعاف، وفي الهلال الأحمر والصليب الأحمر، والمعالجون لمرضى الدرن ومرضى الجذام وغيرهم.

** ومن أبرز الذين يتعبون لأجل غيرهم رجال المطافئ الذين يقتحمون النيران والدخان لإنقاذ الأنفس والمباني من الحريق. وما أنبل رجل المطافئ الذي يدخل في بيت يحترق، ليحمل طفلاً أو امرأة أو عجوزاً، مُضحياً بنفسه لينقذ أولئك الضعفاء، وينقلهم من الموت إلى الحياة.. إن تعبه هو إكليل يُوضع فوق رأسه. إنه تعب مقدس.

ينضم إليه في نفس العمل مُنقذو الغرقى، الذي يرمي أحدهم بنفسه في البحر، ويكافح الأمواج والدوّامات لينتشل شخصاً مُشرفاً على الغرق ويحمله على ظهره إلى شاطئ النجاة.

** ومن الأمثلة البارزة في التعب المقدس رجال الجيش الذين يتعبون لحماية أوطانهم ويعيشون على الحدود في قسوة الحر والبرد، وفي خطورة الجو والبحر... ولا ننسى إطلاقاً ما بذله جنودنا في بسالة نادرة وفي تضحية بأرواحهم في حرب أكتوبر، حينما عبروا القناة وحطموا خط بارليف، وهم معرّضون للموت، حتى استرجعوا أرض سيناء من أيدي المحتلين لها، ورفعوا علم بلادنا في زهو وفخر. وسجّل لهم التاريخ كل تعبهم. إنه تعب مقدس...

** ومن أمثلة التعب المقدس في أعلى قممه، الشهداء. أولئك الذين ذاقوا كل أنواع الألم، ثم سفكوا دماءهم وبذلوا أرواحهم من أجل الوطن أو الدين أو مبدأ تمسكوا به. إنهم لم ينالوا تمجيداً لهم في حياتهم، لكنهم نالوا ذلك بعد رحيلهم فمجدتهم الشعوب ومجدّهم التاريخ. وصار لهم مركز عظيم في السماء.

** نذكر أيضاً أولئك العلماء الذين يسهرون على الدوام، ويكدّون أذهانهم وتفكيرهم، ليُقدّموا للعالم نتاج العلم، لا لكي يحصلوا على درجات علمية أو تشريفية، إنما لكي يريحوا الناس ويسهّلون لهم حياتهم. كالذين اخترعوا الفاكس والـ Mobile phone وتليفون السيارة. وكالذين يبذلون الجهد لاختراع أدوية لعلاج الأمراض المستعصية،

أو لتخفيف آلامها أو لإيقاف انتشارها... هؤلاء لم يتعبوا من أجل نفوسهم، بل من أجل غيرهم. لذلك فتعبهم مقدس.

ومن أمثلة هؤلاء أيضاً: ذلك العالم الذي اخترع لأجل المكفوفين طريقة الكتابة والقراءة بالبارز، طريقة (برايل). فمنحهم أسلوباً للمعرفة. هو وكل الذين ينقلون إليهم المعارف بنفس طريقة (برايل)، ويتعبون في سبيل ذلك. وتعبهم تعب مقدس.

** نضم إليهم المهتمين بالصم والبكم، الذين اخترعوا لهم طرقاً للكلام بالإشارة، ووضعوا لهم قاموساً لهذه الإشارات مزوداً بالصور. فأصبح الصم والبكم يتفاهمون مع بعضهم البعض بتلك الإشارات. حقاً، إن كل تعب لأجل هؤلاء هو تعب مقدس.

كذلك المهتمين بجميع طوائف المعوقين، وأيضاً المهتمين بخدمة المسنين، وبخاصة الذين في حالة من الضعف والعجز لا يستطيعون خدمة أنفسهم. فالذين يخدمونهم يتعبون كثيراً لأجلهم تعباً مقدساً...

** نضم إلى هؤلاء، كل من هو في مسؤولية كبيرة أو صغيرة، ويبذل كل جهده للقيام بعمله بأمانة وإخلاص، لا يلجأ إلى الكسل أو الروتين، ولا يتكل على المساعدين والوكلاء. بل يُباشر كل صغيرة وكبيرة لتتم المسؤولية على أكمل وجه مهما تعب في سبيل ذلك، مُحتملاً التعب في أداء واجبه... كالراعي الذي لا يهتم براحة نفسه، بل يبذل جهده لأجل خرافه، فيأتي بها إلى المراعي الخضراء وإلى منابع الماء، ويحميها من كل اعتداء أو خطر تتعرض له. وأيضاً كالزارع الذي يتعب في حرث الأرض وزرعها وريّها، وتنظيفها من الآفات والحشائش المتطفلة. حينئذ يفرح بثمرة تعبه في موسم الحصاد.

** كذلك من الناحية الروحية: من يتعب في أداء واجباته نحو اللّه في أمور العبادة من صوم وصلاة وتسبيح وقراءة في كتاب اللّه وترديد آياته. ويحرص على مواعيد الصلاة في ساعات النهار وساعات الليل غير محتج بالراحة أو بالمشغوليات. إنه مهما تعب، يكون تعبه مقدساً ومقبولاً أمام اللّه. وأيضاً مثله من يحرص على صومه بكل طهارة، ويبذل فيه ما يستطيعه من إطعام الفقير والمسكين... كل هؤلاء يجدون في تعبهم متعة روحية تعوّضهم عما يبذلون، وتدفعهم إلى الاستمرار في عملهم الصالح مهما تعبوا...

** من الأمثلة الهامة أيضاً في التعب المقدس: ضبط النفس، وما يحمله ذلك من قهر جميع الشهوات المحاربة للروح، مهما تعب الإنسان وضغط على إرادته... لكي يتخلّص من بعض العادات السيئة المسيطرة عليه. ولكي ينتصر على شياطين عدة تقاومه. وهو لا ينتصر عليها إلاَّ بجهاد مع الفكر والقلب والحواس، جهاداً قد يتعب فيه، ولكن نعمة اللَّه تسند جهده وتعبه، وتمنحه الانتصار في عمله الروحي.

ومن ضمن ضبط النفس: ضبط اللسان فلا ينطق بكلمة خاطئة أو كلمة زائدة. وضبط الأعصاب حتى لا يسيطر عليها الانفعال ويقودها إلى ما لا يرضاه الضمير. وضبط الحواس فلا تطيش في ما لا يليق.

** أخيراً أيها القارئ العزيز، أقول لك إن كل تعب تبذله ونفسك مستريحة، لا تشعر فيه بضيق أبداً بل بلذة. بعكس التعب الذي تبذله في ضجر وسخط. وذلك لا يتمشى بلا شك مع رغبة الروح في الصلاح وفي عمل الخير.



٣٠ سبتمبر ٢٠٠٧

صوم اللسان

ما أخطر أن يصوم الفم عن الطعام، بينما لا يصوم اللسان عن أخطاء الكلام وهي كثيرة ونتائجها سيئة جداً! فما هى تلك الأخطاء التي يجب أن يصوم اللسان عنها؟

** من الأخطاء التي يجب أن يصوم عنها، جرح شعور الآخرين. ويشمل ذلك كلام السخرية بهم والتهكم والاستهزاء. وأيضاً أسلوب الكلام الجارح الموجع. وكذلك كل كلمات الإحراج التي تُخجل الغير، بقصد. وأيضاً كل كلام بقصد مضايقة السامع، مع الاستمرار في عدم مراعاة شعوره ..

** ومن جرح الشعور بالأكثر، كلام الشماتة، فهو بمثابة وضع نار على جرح. إذ بدلاً من تعزية الناس في ضيقاتهم، تضاف إليهم آلام أشد بالشماتة.

وأحياناً يجرح اللسان شعور صديق بعتاب مُتعب..

** ومن أخطاء الكلام التي يجب أن يصوم اللسان عنها، كلام الإهانة، ويشمل طبعاً كل الشتائم بأنواعها.

فإن تحدَّث شخص عن غيره في غيبته، يُسمَّى ذلك اغتياباً، أما وإن نشر عيوب غيره أمام آخرين، فإنَّ ذلك يُسمَّى تشهيراً. وإن كان تشهيره هذا في مقال في الصحف، فإنه يُسمَّى سبّاً علنياً وقذفاً مما يحاسب عليه القانون.

** والشتيمة قد تشمل إهانة إنسان في موقف مُعيَّن، أو أنها تطوِّق الإنسان كله. فهناك فرق بين أن يُقال عن شخص إنه كذب في الموقف الفلاني، وبين أن يُقال عنه إنه كذاب. فهذه العبارة الأخيرة تعني صفة لحياته كلها.

** ومن ضمن أساليب الشتيمة: التحقير والتصغير، أي التقليل من شأنه. كأن يُقال لأحد الرجال: "يا ولد"!

ومن كلام الإهانة أيضاً ما يثار حول شخص من شكوك وظنون تسيء إلى سمعته وسط الناس. ومنها أيضاً الحديث عن الفضائح والخصوصيات ...

وهذه كلها أخطاء يجب أن يتجنبها اللسان المُهذَّب. كما أنها تثير عداوات بينه وبين غيره. وقد تدعوهم إلى الرد عليه بالمثل. وكما يقول المَثَل: "من غربل الناس نخلوه".

** ومن أخطاء اللسان التي يجب أن يصوم عنها: الكذب بأنواعه الكثيرة، وأولها الكلام بعكس الحقيقة.

على أنه من الكذب أيضاً: المبالغة، فهى ليست صدقاً خالصاً. ومنها استخدام كلمة (كل أو جميع) بمعنى مُطلَق. كأن يُقال: "كل الناس رأيهم كذا"، أو "كل شعب البلدة الفلانية بخلاء"!

** وقد تدخل في نطاق الكذب، أنصاف الحقائق. ولهذا يُقال: "إن أنصاف الحقائق، ليس فيها إنصاف للحقائق". ولذلك فإنَّ الشاهد في المحكمة يُطلَب منه أن يقول الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق.

لهذا ينبغي الدقة في الكلام، لأنَّ هناك عبارات مُعيَّنة قد تعني مفهوماً غير المعنى المقصود!

** ومن أخطاء اللسان أيضاً: شهادة الزور، وكل الأحكام غير العادلة not fair ذلك لأنَّ مُبرِّئ المُذنب ومُذنِّب البريء كلاهما ضد الحق. حتى لو احتج البعض أنه يدافع عن غيره. فالمفروض أنه يدافع ولا يكذب.

** ومن أخطاء اللسان: طُرق اللف والدوران في جو من عدم الوضوح والصراحة في الحديث، مع شعور السامع بأن الحقيقة تائهة، وأنَّ المُتكلِّم يريد أن يخفيها...

** ومن أخطاء اللسان: الخداع والتضليل، وبخاصة من المساعدين مع رؤسائهم. وكم من الرؤساء أخطأوا نتيجة التضليل من الذين حولهم.

** ومن أخطاء اللسان: التملُّق والنفاق، ومدح السامع بما ليس فيه، وإشعاره بأن ما يفعله هو سليم وممتاز، مهما كان خطأ! ويشمل ذلك أيضاً الرياء، والحديث بمظهر يبدو حسناً وهو رديء! أو تبدو فيه الصداقة والإخلاص، على غير حقيقة الأمر! ويدخل في هذا النوع مَن يسمونهم ذوي لسانين. كشفتَيْن تقطران عسلاً، ومشاعرهما مُرَّة كالأفسنتين!

** من أخطاء اللسان أيضاً ويجب أن يصوم عنها، كل أخطائه التي هى ضد آداب الحديث والمناقشة. كأن يقطع حديث مَن يُكلِّمه، لكي يتحدَّث هو، أو مَن يأخذ الجلسة كلها لحسابه، دون أن يعطي فرصة لغيره أن يتكلَّم!

* كذلك كثرة الجدل الذي لا يوصِّل إلى نتيجة مع الإصرار على رأي واضح الخطأ، وما يسمى بالملاججة أو بالعامية (المقاوحة)!

وكذلك حب الانتصار في النقاش مع تحطيم الغير.

** ومن أخطاء اللسان أيضاً: الكلام الخارج عن حدود الأدب، الذي يخدش حياء العذارى وأهل العفة. مثل الحديث عن بعض أمور الجنس بطريقة مكشوفة!

* وكذلك من أخطاء اللسان، الفكاهات غير المؤدبة، والأغاني الهابطة، وعبارات المجون، وكلام الإغراء الذي يحاول به أحد الشبان أن يجتذب فتاة! وأيضاً كل كلام غير محتشم أو غير مهذَّب أو بأسلوب مُتدنٍّي.

** ويدخل في هذا المجال، المزاح الرديء، مع خطأ تسميته مزاحاً. وأيضاً كل أسلوب يصدر عن المُتكلِّم بغير احترام لغيره، أو بغير لياقة، بعيداً عن الذوق السليم.

** ومن أخطاء اللسان أيضاً التي يجب أن يصوم عنها، إضاعة وقت الغير، في حديث غير نافع أو هو من التافهات، مع الثرثرة وكثرة الكلام، وبخاصة مع شخص مسؤول يحرص على وقته.

* وقد يلجأ البعض إلى التطويل بغير داعٍ. فما يكفيه كلمة أو جملة يقول فيه محاضرة. وقد تكون إطالته مُملَّة أو حافلة بكثرة الشروح والمقدمات، حتى يضجر السامع ويقول له: "هات من الآخر"! ومثله مَن يكرر الكلام، وكأن مَن يخاطبه لم يسبق له سماع ما قاله!

* ومن أخطاء هذا النوع، الكلام بغير موعد. كمَن يُفاجئ شخصاً ويتحدَّث معه ويستمر في الحديث. ومن ذلك بعض المكالمات التليفونية التي تأتي فجأة دون حساب الوقت.

ويدخل في هذا المجال: الزيارات غير المحدودة النهاية، وما فيها من ضياع وقت. وقد قال الأستاذ مكرم عبيد لبعض من هؤلاء الضيوف: "أهلاً بكم وسهلاً. تأتون أهلاً، ولا تخرجون سهلاً"!

** أخيراً: إنَّ كل كلمة بطَّالة، وليست للبنيان أو للمنفعة يتكلَّم بها اللسان، سيعطي عنها حساباً أمام اللَّه. لهذا فإن صوم اللسان عن الأباطيل، هو فضيلة يجب أن نحرص عليها ونُدرِّب أنفسنا عليها.

٧ أكتوبر ٢٠٠٧

الإيمان
أنواعه ونتائجه

★ الإيمان هو مستوى أعلى من العقل:

العقل البشري محدود، ولا يدرك سوى الأمور المحدودة التي تدخل في نطاق إمكانياته. فهو يستطيع أن يوصلك إلى مُجرَّد معرفة وجود اللَّه، وإلى معرفة بعض صفاته. ولكن الإيمان يكمل معك الطريق إلى أقصاه. وهكذا فإنَّ الإيمان بالوحي يكمّل ما لم يصل إليه العقل ..

★★ العقل قد لا يدرك أشياء كثيرة ولكنه يقبلها:

فليس من طبيعته أن يرفض كل ما لا يدركه. بل حتى في المحيط المادي في العالم الذي نعيش فيه، توجد مثلاً مخترعات كثيرة لا يدركها إلاَّ المتخصصون، ومع ذلك فالعقل العادي يقبلها ويتعامل معها، دون أن يدرك كيف تعمل وكيف تحدث. والموت يقبله العقل ويتحدَّث عنه، ومع ذلك فهو لا يدركه، ولا يعرف كيف يحدث افتراق الروح عن الجسد! فإن كان العقل يقبل أموراً كثيرة في عالمنا، وهو لا يدركها، فطبيعي لا يوجد ما يمنعه من قبول أمور أخرى أعلى من مستوى هذا العالم ..

★★ العقل لا يُدرك (المعجزة) كيف تتم، ولكنه يقبلها ويطلبها بل يفرح بها. وقد سُمّيت المعجزة معجزة، لأنَّ العقل يعجز عن إدراكها وعن تفسيرها. ولكنه يقبلها بالإيمان، الإيمان بوجود قوة غير محدودة أعلى من مستواه، يمكنها أن تعمل المعجزة التي يعجز العقل عن إدراكها. وهذه القوة هى قوة اللَّه القادر على كل شيء ... وكمثال للمعجزات التي نقبلها جميعاً دون أن ندركها: معجزة خلق الكون من العدم، ومعجزة القيامة العامة من الأموات..

إننا نحترم العقل ونستخدمه. ولكننا في نفس الوقت ندرك حدود النطاق الذي يعمل فيه. ولا نوافق العقل المغرور الذي يُريد أن يعي كل شيء، رافضاً كل ما هو فوق مستوى إدراكه ...

★★ **الإيمان أيضاً هو مستوى فوق الحواس:**

إنه قدرة أعلى من قدرة الحواس التي لها نطاق مُعيَّن لا تتعداه. فالحواس المادية تدرك الماديات. غير أن هناك أموراً غير مادية، تخرج عن نطاق قدرة الحواس المادية من نظر وسمع ولمس وشم ... وحتى قدرة الحواس بالنسبة إلى الأشياء المادية، هي محدودة أيضاً. وكثيراً ما تستعين الحواس بعديد من الأجهزة لمعرفة أشياء مادية أدق من أن تدركها حواسنا البشرية الضعيفة.

★★ **وهكذا فالحواس لا تدرك ما لا يُرى**، أي غير الماديات وغير المرئيات، كالأرواح مثلاً، سواء كانت أرواح بشر، أم أرواح الملائكة، أو الشياطين ... وعدم إدراك الحواس لها، لا يعني عدم وجودها، إنما يعني أن قدرة الحواس محدودة.

★★ لذلك فإنني عجبت من رائد الفضاء المُلحد، الذي قال: إنه صعد إلى السماء ولم يرَ اللَّه!! ظاناً أنه في تهكمه يمكن أن يرى اللَّه بهذه العين الجسدية القاصرة التي لا ترى كثيراً من الماديات! كما أن اللَّه في كل مكان، في السماء وفي الأرض وما بينهما، ولا يحدّه مكان. فإن كان لم يرَ اللَّه على الأرض، فطبيعي أنه لا يراه على القمر، ولا في أي موضع. إنَّ اللَّه لا يراه أحد إلاَّ بالإيمان.

★★ **إنَّ الإيمان قوة في ذاته، كما يمنح صاحبه قوة:**

وكل مَن آمن بفكرة، يعطيه الإيمان بها قوة لكي ينفذها. من هنا فإنَّ المصلحين - في كل زمان ومكان - آمن كل منهم بفكرة، فجاهد بكل قوة لتنفيذها، مهما احتمل من مشقة، ومهما صبر.

المهاتما غاندي مثلاً، آمن بحق بلاده في الحرية، وآمن بسياسة عدم العنف. ومنحه ذلك الإيمان قوة عجيبة استطاع بها أن يُحرِّر الهند، وأن يعطي الحقوق للمنبوذين ليتساووا مع إخوتهم. وأمكنه أن يحتمل الكثير لكي لا يسلك بعنف هو وأتباعه، ولا أن يلاقوا العنف بالعنف. إيمانه بالفكرة أعطاه القوة لتنفيذها ...

★★ **بل حتى الإيمان بالعلم يصنع الأعاجيب:**

مثال ذلك روّاد الفضاء. وكمثال لإيمانهم ما درسوه عن منطقة انعدام الوزن في الفضاء، وكيف أن الإنسان يمكنه أن يمشي في الجو دون أن يسقط! فمَن من الناس يجرؤ

أن يمشي في الجو دون أن يخاف؟ أمَّا الذي جعلهم ينفذون ذلك، فهو إيمانهم الأكيد ببحوث العلماء الذين قالوا بهذا. فمنحهم الإيمان شجاعة... حقاً إنَّ الفرق بين أشجع الناس وأخوف الناس هو الإيمان ...

★★ ومن جهة الإيمان باللَّه، فهو على أنواع:

هناك إيمان سطحي، نظري، عبارة عن عقائد مُعيَّنة يعتنقها الشخص، دون أن يكون لها تأثير في حياته. فيكون له اسم المؤمن، دون أن يكون له قلب المؤمن.

وهناك أيضاً إيمان المناسبات، يظهر فقط في أماكن العبادة، وفي أوقات الصلاة والاستماع إلى العظات الدينية، ثم تنتهي فاعليته، ولا يكون له الدوام في باقي ظروف الحياة ...

وهناك إيمان قوي لا يتزعزع، مهما حاربته الشكوك أو حلَّت به الضيقات. وإيمان آخر مبني على الخبرات مع اللَّه وعمله ...

★★ أمَّا الإيمان العملي، فهو الإيمان الذي يمارسه الإنسان في كل يوم، فهو بالنسبة إليه حياة يحياها وله نتائج هامة جداً ...

★★ **من نتائج الإيمان الحقيقي: السلام الداخلي.** إذ يكون القلب مملوءاً بالسلام والهدوء. لا يضطرب مُطلقاً، ولا يقلق، ولا يخاف. لأنه يؤمن بعناية اللَّه وحمايته له، مهما كانت الظروف المحيطة تبدو مخيفة ومزعجة! فالقلب المؤمن لا يستمد سلامه من تحسن الظروف الخارجية، إنما من حفظ اللَّه وعنايته.

★★ **يخاف الشخص الذي يشعر أنه واقف وحده. أمَّا الذي يؤمن أن اللَّه معه، فإنه لا يخاف.** فإن قَلَّ إيمانه، ودخله الشك في حفظ اللَّه له، حينئذ يخاف. الشك يضعف الإيمان، وضعف الإيمان يؤدي إلى الخوف. والخوف يؤدِّي إلى الانهيار والضياع. ففي كل مرَّة تخاف، وبّخ نفسك على قلة إيمانك. وقُل لنفسك: أين هو إيماني بأنَّ اللَّه موجود، وأنه هو الحافظ والمعين.

★★ نرى فاعلية الإيمان أيضاً وسط الضيقات:

إن ضيقة واحدة قد تصيب اثنين: أحدهما مؤمن، والآخر غير مؤمن. فيضطرب غير المؤمن ويخاف ويقلق، ويتصورَّ أسوأ النتائج، وتزعجه الأفكار. أمَّا المؤمن فيُقابل الضيقة بكل اطمئنان. ويقول: "هذه المشكلة سيتدخَّل اللَّه فيها ويحلّها وتزول". وقد تسأله كيف سيتدخَّل اللَّه؟ وكيف يحلّها؟ فيجيبك: أنا لا أعرف كيف؟ ولكنني مؤمن أنَّ اللَّه يهتم بنا أكثر مما نهتم بأنفسنا. وعند اللَّه حلول كثيرة. وهو قادر أن يفتح كل باب مُغلَق.

إنَّ المؤمنين ما كانوا يخافون حتى من الاستشهاد، لإيمانهم بأنه يوصّلهم إلى حياة أخرى أكثر سعادة، وهى أبدية.

★★ أيضاً من أهم نتائج الإيمان: نقاوة الحياة وحُسن السِّيرة:

فالإنسان المؤمن يحترس في كل لفظ ينطق به، وفي كل عمل يعمله. لأنه يؤمن أنَّ اللَّه موجود في كل مكان، ويسمع ويرى كل ما يفعله. لذلك هو يخجل من أن يرتكب خطيئة أمام اللَّه الذي يراه. بل أن المؤمن يُدقق بحيث أن أفكار الخطيئة لا يقبلها عقله، ولا شهواتها تسكن في قلبه. وذلك لأنه يؤمن تماماً بأنَّ اللَّه يفحص القلوب ويقرأ الأفكار. لذلك يعمل المؤمن على حفظ ذاته نقياً طاهراً، سواء بالعمل أو اللسان، أو بالفكر أو بمشاعر القلب.

١٤ أكتوبر ٢٠٠٧

النعمة
أنواعها - موقفنا منها

ما هى النعمة؟ إنها بلا شك ما ينعم به اللَّه على خليقته ... وأوَّل نعمة وهبها اللَّه للخليقة هى نعمة الوجود، إذ أوجدهم وما كان لهم وجود من قبل.

ونعمة الوجود تشمل أيضاً نعمة الحياة، بالنسبة إلى الملائكة والبشر وكل الكائنات الحية ... وهذا النوع من النعمة هو النعمة الخالقة.

★★ هناك أيضاً نعمة الرعاية والحفظ. لأنه لو تخلَّت نعمة اللَّه عن الكون لحظة واحدة، لهلك الكون بكل ما فيه. ولكن اللَّه من محبته وعنايته، يمسك بهذا الكون ويرعاه بنعمته الحافظة.

والنعمة الحافظة تشمل أيضاً نعمة الصحة. وكما يقول الحكيم: "الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يدركه سوى المرضى".

★★ هناك نعمة أخرى هى نعمة الجمال. فمن البدء خلق اللَّه كل شيء جميلاً. ونحن نرى ذلك في الطبيعة الجميلة من حدائق غنَّاء، ومن زهور وورود. ونراها بأجمل صورة في الفراشات الملونة، وفي الأسماك الملونة. كما نرى هذا الجمال في تغريد الطيور والبلابل، وفي خرير الماء، وفي نور القمر الهادئ الجميل.

وفي كل عام تُقام مسابقات لملكات الجمال في العالم. فهل تدرك كل هؤلاء الملكات أن جمالهن هو نعمة من اللَّه لهنَّ، عليهنَّ مقابلتها بالشكر للخالق المانح الجمال؟!

★★ هناك أيضاً نعمة السلام والطمأنينة يهبها اللَّه لبعض الأفراد فتكون قلوبهم مملوءة بالسلام، بعيدة عن القلق والاضطراب والخوف. كما يهب هذه النعمة لبعض الدول أو الشعوب، فتعيش بعيدة عن الحروب والقلاقل والانقسامات والخصومات، تحيا في هدوء ...

★★ كذلك كل خير يأتي للبشر، هو نعمة من اللَّه. مثال ذلك بلاد أنعم اللَّه عليها بخصوبة الأرض ووفرة المياه، وبالتالي كثرة الإنتاج. أو بلاد أنعم اللَّه عليها بمعادن

أو أحجار كريمة يستخرجونها من جبالها، أو ببترول وغازات من باطن أراضيها. وكل ذلك ينمي اقتصادها وينشر الخير فيها. إنها نعمة.

★★ على أن نِعَم اللَّه لا نستطيع أن نحصيها. وإنما كل ما ذكرناه ما هو إلاَّ مُجرَّد أمثلة. نضيف إليه نعمة النجاح في الحياة، ونعمة السمعة الطيبة ومحبة الناس لِمَن يجد نعمة في أعين الآخرين. وأيضاً نعمة النسل الصالح ... بالإضافة إلى نعمة حرية الإرادة التي وهبنا اللَّه إيَّاها ...

★★ على أنه في قمة النِّعَم التي وهبنا اللَّه إيَّاها نعمة الخلود، إذ تكون لنا حياة أخرى بعد نعمة القيامة من الموت، حيث نستمتع بالحياة الأخرى في النَّعيم الأبدي ...

★★ نقطة أخرى نذكرها من جهة النعمة وهى وجود ثلاث مستويات لها: أحدها على المستوى العادي، والثاني على المستوى القيادي، والثالث على مستوى حالات خاصة.

فمِن جهة المستوى العادي: النعمة تعمل في الكل. لا يوجد أحد لم تعمل معه نعمة اللَّه... والنعمة هنا ترشد الإنسان إلى الخير، وتُقوِّيه على فعله. ولكنها لا ترغمه على ذلك، لكي يبقى الإنسان حُرَّاً، يفعل الخير برضاه وبكامل إرادته، حتى يستحق المكافأة على ذلك. أو هو يرفض ...

★★ أمَّا الذين في المستوى القيادي، فإنهم ينالون من النعمة قوة مضاعفة: منها نعمة لأجل نفوسهم، ونعمة أخرى لأجل عملهم القيادي، للتأثير في الآخرين. ويزداد قدر النعمة الممنوحة لهم، بقدر ثِقَل المسئولية المُلقاة على عاتقهم.

وكُلَّما تزداد صعوبة العمل القيادي أو خطورته، فإنَّ اللَّه حينئذ ينعم على القادة بمواهب خاصة، قد تصل أحياناً إلى المعجزات.

★★ أمَّا على المستوى الخاص، فهناك أشخاص تحتاج حالتهم إلى نعمة خاصة تتناسب مع ما هم فيه من ضيقات أو مشاكل، أو ما ينوون القيام به من مهام أو مشروعات، أو ما عليهم من مسئوليات.

وتدخل في المستوى الخاص، نعمة الدعوة لِمَن يدعوهم اللَّه للقيام برسالة مُعيَّنة، كالأنبياء والرُسُل مثلاً. وحينئذ بالإضافة على نعمة الدعوة، يزودهم اللَّه بنعمة أخرى تشمل الإمكانيات التي يحتاجها أداء هذه الرسالة ...

★★ من جهة أنواع النعمة أيضاً، هناك نعمة ظاهرة ونعمة خفية. فالنعمة الظاهرة فهى المعونة الإلهية التي نراها ونحسَّها في حياتنا. أمَّا النعمة الخفية، فهى التي تعيننا دون أن ندري، أو التي تبعد عنا شراً قبل مجيئه إلينا، ونحن لا ندري عنه شيئاً. كمؤامرات كانت تحاك حولنا، وأبطلها اللَّه قبل أن تتم.

★★ وهناك نِعَم طبيعية يهبها اللَّه للإنسان، كالقوة والجمال والذكاء والفن والحكمة. ونِعَم أخرى تُعتبَر فوق الطبيعة، مثل المواهب المعجزية.

وهناك نِعَم تعمل فينا من الداخل، لتنقية قلوبنا وقيادة ضمائرنا وأفكارنا، وإرشادنا في طريق الفضيلة والبِرّ. ونِعَم أخرى تعمل من خارجنا، لتنقية الأوساط المحيطة بنا، وإبعاد القوات المُحاربة لنا ...

★★ وهناك نعمة تبدأ في العمل معنا: إمَّا لأننا لا نريد أن نعمل، أو لأننا لا نستطيع أن نعمل، أو لأننا نجهل ما ينبغي علينا أن نعمله. فتأتي النعمة، وتنير عقولنا، وتحث إرادتنا، وتدفعنا إلى العمل دفعاً، وتُقوّينا على إتمامه.

ونعمة أخرى ترانا قد بدأنا في عمل الخير، أو اتجهت نيتنا إليه، فتأتي لتكمل لنا الطريق، وتمنحنا الإمكانيات اللازمة لنا.

★★ والنعمة قد تأتي وحدها، وقد تُطلَب فتأتي.

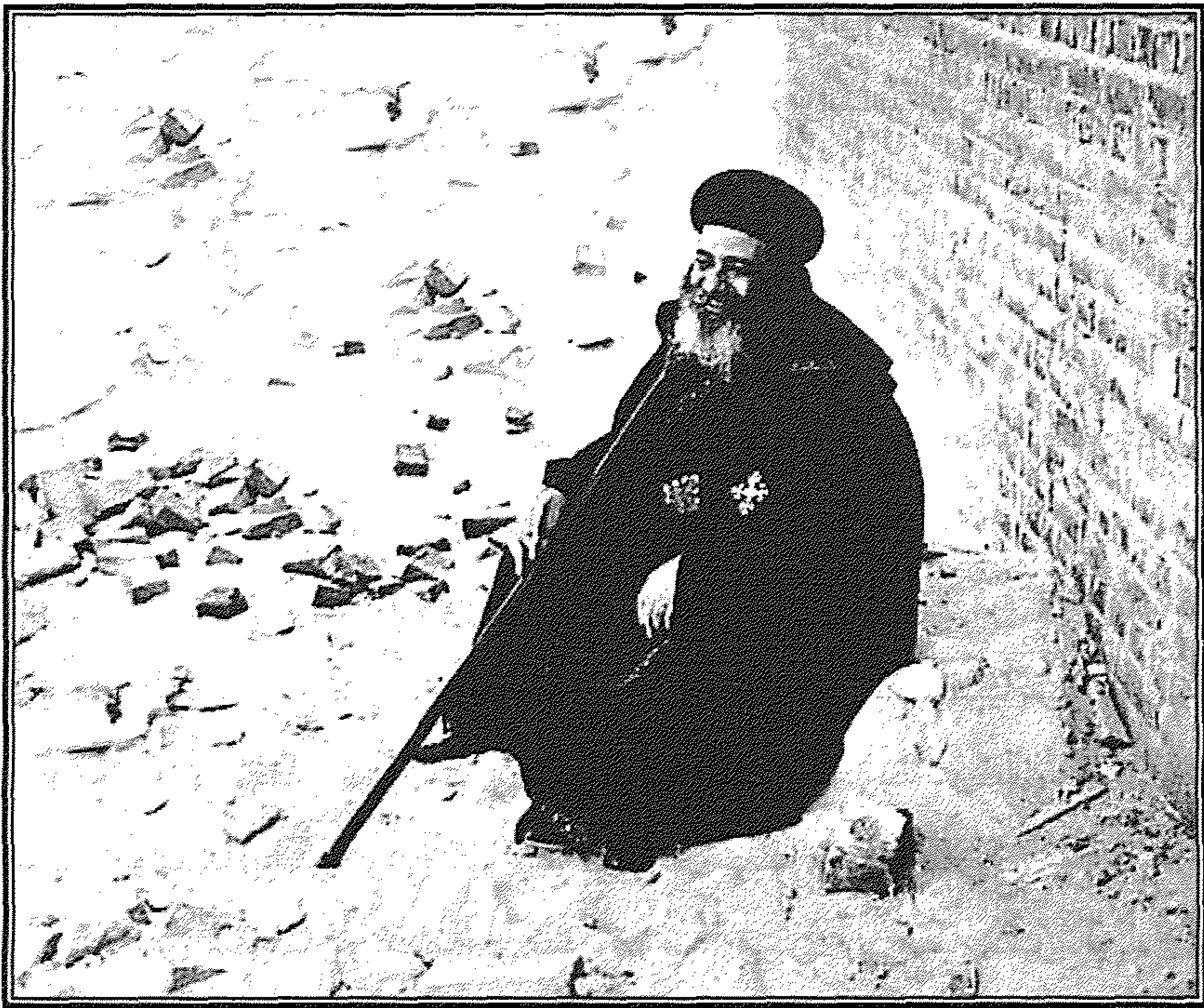
إنها تأتي وحدها، لأنَّ اللَّه يعرف ضعف طبيعتنا وقوة الشياطين المُحاربة لنا، وأننا بدون معونته الإلهية لا نستطيع أن نعمل شيئاً، لذلك فهو يسندنا بنعمته التي تعمل فينا، والتي تعيننا بقوة من عنده، حتى نسير في طريقه بغير خوف ولا قلق ...

★★ وقد تأتي النعمة إذا ما طلبناها في صلواتنا، أو نتيجة لصلوات الآخرين من أجلنا، أو لتشفُّع القديسين فينا، أو تأتي النعمة نتيجة لرضى الوالدين ودعواتهما الطيبة،

أو لدعوات أُناس فقراء أو محتاجين قد ساعدناهم، فدعوا لنا بالبركة في حياتنا. أو تأتي النعمة لمُجرَّد حنو اللّه ومحبته وشفقته.

★★ على أننا في كل عمل النعمة معنا أو لأجلنا، علينا أن نتجاوب معها ونشترك في العمل، لأنَّ نعمة اللّه العاملة في الإنسان، ليست سبباً له في أن يتكاسل، تاركاً للنعمة أن تعمل وحدها، قائلاً: "كله بالنعمة". فلو كان كل شيء خاصاً بالنعمة فقط، ما أخطأ أحد! وما كان لأحد أن يكافئه اللّه على عمل خير، لأنه من ذاته لم يعمل شيئاً، وإنما النعمة هي التي عملت كل شيء!! لذلك علينا جميعاً أن نعمل مع النعمة، بكل عواطفنا، وبكل ما نملك من قدرة تستطيع النعمة أن تقوِّيها ...

★★ أخيراً، أُحب أن أقول وأنا آسف، أن هناك حالة يمكن أن نسميها تخلِّي النعمة. مثالها: إنسان أعانته النعمة على عمل عظيم، فتكبَّر قلبه وارتفع، ناسباً كل شيء إلى قوته، وناسياً عمل اللّه معه. حينئذ تتخلَّى عنه النعمة فيسقط أو يفشل، لكي يعود فيتضع ويعطي المجد للّه .. وهناك أسباب أخرى للتَّخلِّي.



٢١ أكتوبر ٢٠٠٧

كثيرون يعيشون خارج أنفسهم

★★ جاءني وهو في غاية الاضطراب والقلق، وقال لي: "هناك خطر يُهدِّد البلد كله". فقلت: "أتقصد دولة تريد محاربتنا من الخارج؟". فقال: "كلا، إنه عدو يحيط بنا في كل مكان. بل إنه يوجد أحياناً داخلنا". فسألته: "ألعلك تقصد الشيطان؟". أجابني: "لست أقصد الشيطان. إنما أقصد الميكروبات... التلوث الماء ملوث، والجو ملوث. وما تنفثه المصانع والعربات من الدخان، وما يُلقَى في الماء من القاذورات. وما تُسبِّبَه أحياناً بعض الأدوات الطبية غير المُعقَّمة تماماً. والعدوى التي تأتي من المرضى الذين يتحركون هنا وهناك بغير علاج ... كل هذا وغيره خطر يُهدِّد الناس".

وطفق هذا الأخ يتحدَّث عن المرض والتلوث والميكروبات حديثاً مستفيضاً يُكرِّره في أُذن كل مَن يقابله، في حماس شديد. إنه موضوع قد دخل في بؤرة تفكيره واستقرّ، وصار يشغل ذهنه باستمرار. وأصبح يهتم بنقاء الجو من الميكروبات، أكثر مما يهتم بنقاء قلبه وأفكاره من الخطايا والشهوات وكيفية التَّخلُّص منها ... إنه واحد من الذين يعيشون خارج أنفسهم ...

★★ شخص آخَر تشغله الأخبار، هي أوَّل ما يهتم بقراءته حينما يطَّلع على جرائد الصباح، ويُتابعها في كل الصُّحف، ويُقارن ويدرس ويستنتج، ويتوقَّع ما سوف يحدث حسب تفكيره. كما يُتابع أيضاً الأخبار التي توردها وسائل الإعلام من شتَّى البلاد. ويظل يتحدَّث عن هذه الأخبار مع كل مَن يُقابله، سواء كانت أخبار السياسة أو المجتمع، أو أخبار الرياضة أو أخبار الفن ... إنه يتغذى بالأخبار كما يتغذى بالأحاديث سواء كان قارئاً أو سامعاً أو مشاهداً ... وفي كل ذلك لا يهتم مُطلقاً بأخبار نفسه، ماذا عن حياته الروحية؟ وماذا عن سقوطه أو قيامه أو نموه؟ وماذا يمكن أن يفعله من أجل صلاح نفسه... إنه يعيش دائماً خارج نفسه.

★★ شخص ثالث كل همّه واهتمامه في أموره المالية ومشروعاته الاقتصادية، وكيف يزيد ماله وتنمو ثروته، مع أخبار السوق والبورصة، وسعر الدولار والإسترليني واليورو. المال بالنسبة إليه هو كل شيء. هو الذي يشغل ذهنه وقلبه، وتتركّز فيه كل عواطفه. بنجاحه في حساباته المالية يفرح، وباهتزازها بعض الشيء يحزن ... إنه أيضاً يعيش خارج نفسه. يعيش وسط الحسابات، دون أن يقيم أي حساب لحياته الروحية وعلاقته باللّه.

★★ شخص رابع لا تشغله سوى متعته الشخصية، وكل ما يتعلّق بأمور اللّهو، أو اللذة الحسية. تفكيره يدور حول الأفلام والمسرحيات، وحول اللقاءات والعواطف السطحية، والرحلات والحفلات، وما يعجبه من الغناء والموسيقى، وأيضاً ما يلذ له من الطعام والشراب ... كلها أمور خاصة بالجسد وبالحواس. أمّا نفسه، وأمّا ضميره، فأمور لا تخطر له على بال، ولا تلاقي منه اهتماماً ... إنه يعيش خارج نفسه ...

★★ هناك مَن هو أخف من كل مَن سبقوه، ولكنه أيضاً مشغول ... تشغله أسرته، ولا يُفكِّر إلا في الأولاد وفي دراستهم ومستقبلهم، وفي زواج البنات وتكاليف كل ذلك. كما تشغله احتياجات الأسرة من: مأكل وملابس وسكن. ولا يتحدث سوى عن الأسعار وارتفاعها، والمُرتَّب الذي أصبح لا يكفي ولا يسد احتياجاته واحتياجات أسرته. ويظل يسهب في هذه الموضوعات وتفاصيلها. ولست ألومه في ذلك. ولكن اللوم يكمن حول الاستغراق في هذه الأمور، دون ترك أيَّة مساحة من التفكير والاهتمام في ما يلزم نفسه أيضاً ..! لقد قال السيد المسيح: "افعلوا هذه ولا تتركوا تلك". أمّا أن ينشغل الإنسان انشغالاً كاملاً بأموره المادية مع ترك روحياته إلى الإهمال، فهذا يضره بلا شك ...

★★ يا أخي المبارك: إنّ لك نفساً واحدة، إن ربحتها ربحت كل شيء، وإن خسرتها خسرت كل شيء. وحقاً، ماذا يستفيد الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟!

فلا ينفعك إذن أن تعيش خارج نفسك، تجذبك سائر اهتمامات الدنيا، وتستولي على كل فكرك وقلبك ومشاعرك ووقتك واهتماماتك، وتبعدك عن العناية بروحك، وكأنك في

غيبوبة كاملة عن حياتك وعن مصيرك!! ولعلني هنا أسألك: متى تستيقظ؟ متى تُفكِّر في أبديتك، أعني في الحياة الأخرى ومصيرك فيها؟

★★ هذا الأمر الجوهري يحتاج منك إلى فحص الذات، ومراقبة الذات، ومحاسبة الذات، والعمل على تقويم الذات، وعلى نموها في حياة الفضيلة والبِرّ، وفي تكوين علاقة عميقة بينك وبين اللَّه، وعلاقة طيبة مع سائر الناس ...

★★ إذن افحص ذاتك. اجلس قليلاً مع نفسك، كما تجلس بالساعات مع الآخرين. واهتم بحالة هذه النفس كما تهتم بحالات غيرك من الناس، وتعلّق على أقوالهم وتصرفاتهم وطباعهم ... هل فحصت ما هي طباعك؟ على الأقل ما هو الثابت منها الذي لا يتغيَّر. وماذا يقول الناس عنك، في السرّ أو في العلن، وبخاصة الذين يتضايقون منك أحياناً ...

★★ وفي فحصك لنفسك، لا تحاول أن تُبرِّر ذاتك في كل ما تفعل. ولا تحاول أن تلتمس لنفسك الأعذار في كل خطأ يلومك عليه الآخرون. إنما كُن عادلاً كل العدل في الحُكم على كل أعمالك وأقوالك، دون محاباة لنفسك.

★★ حاسب نفسك محاسبة دقيقة على كل تصرُّف، بل على كل ما يجول داخلك من مشاعر وأفكار ومن نيَّات وأغراض. واذكر باستمرار قول ذلك المُرشِد الحكيم في نصيحته: "احكُم يا أخي على نفسك قبل أن يحكموا عليك". ونتيجة لهذا كله، اعمل على تقويم نفسك، وعلاجها من كل ما يشينها. وابحث عن مسببات الأخطاء، وحاول أن تتفادها، وتحترس من جهتها حتى لا تسقط.

★★ وفي ملاحظة نفسك، وتفادي أخطائها، درِّب ذاتك على فضيلة ضبط النَّفْس، فهى فضيلة كبرى ونافعة.

اضبط إذن فكرك، وحواسك، واضبط لسانك، واضبط أعصابك ... حينئذ لا يسهل سقوطك أبداً، بل تكون على الدوام مُحترساً ومُتحفِّظاً، وسالكاً بكل تدقيق وبكل جِدِّيَّة في جميع تصرفاتك.

★★ وإن أخطأت، عاقب نفسك على أخطائك، فنفسك تقبل منك العقوبة دون تذمُّر، كما تقبل منك اللوم والتوبيخ الذي ربَّما لا تقبله من الغير.

★★ بهذا لا تكون في غيبوبة عن نفسك، بل مهتماً به وملاحظاً لها، ومُلتزماً بما ينفعها، ومُحافظاً لها بعيداً عن كل خطأ وسقطة.

٢٨ أكتوبر ٢٠٠٧

حَسَب نوعية النفسية في تجاوبها

ليست سائر الأمور ذات تأثير واحد على كل الناس. إنما يختلف الأمر حسب مدى تجاوب النفسية وانفعالها وتأثرها، أو ما يُسمَّى الـ Response. فالحدث الواحد أو الخبر الواحد يُقابل من كل شخص حسب نوعية نفسيته. وسنضرب لذلك أمثلة:

★★ يفقد أحدهم بصره، فيحزن حزناً شديداً إذ قد فقد بعض مقومات الحياة. ويدعوه الحزن إلى شيء من الإحباط واليأس، فيسلُك في معيشته حسب ضعف إمكانياته.

ولكن فقد البصر عند طه حسين، دفعه إلى مزيد من النشاط الفكري والثقافي لكي يعوِّض ما فقده. وهكذا تعمَّق في الدراسة، وحصل على درجة الدكتوراه، وألَّف الكتب ذات التأثير العميق. وصار أستاذاً في الأدب، ثم عميداً لكلية الآداب بجامعة القاهرة، وأول رئيس لجامعة الإسكندرية، ثم وزيراً للتعليم. وصارت له شهرة كبيرة، وأصبح موضع إعجاب الملايين. وكان تجاوبه مع فقد البصر تجاوباً بناءً، لا يأس فيه. قابلته نفسية قوية استطاعت أن تعوِّض ما قد فقده...

تذكِّرني قصة طه حسين بقصة مماثلة للقديس ديديموس الضرير في القرن الرابع الميلادي، الذي عوَّض فقد البصر بأنه اخترع وسيلة للكتابة على البارز، قبل طريقة برايل بحوالي خمسة عشر قرناً من الزمان. وألَّف الكثير من الكتب، وصار من عُلماء عصره، ورئيساً لمدرسة الإسكندرية في القرن الرابع. وكان تجاوبه مع فقد البصر تجاوباً إيجابياً تعويضياً.

ونلاحظ أنَّ كثيراً من الذين فقدوا بصرهم، قد عوَّضهم اللَّه - جلَّت قدرته - بقوة في الذاكرة، وحساسية أقوى في باقي الحواس وبخاصة في السمع ...

★★ نقطة أخرى من جهة اختلاف التجاوب (أي الـ Response) وهو ما يختص بالمشاكل ومواجهتها. هنا أيضاً تظهر بوضوح نوعية النفسيات. فهناك مَن يُقابل المشكلة بالارتباك، فتطغي على تفكيره وأعصابه، وتتعبه وترهقه. بينما شخص آخر ينتصر على

المشكلة ولا يدعها تنتصر عليه. يقابلها بالفكر العميق وبالإيمان بعمل اللّـه، ويحاول أن يوجد لها حلاً. وثالثٌ يستشير، وربُّما يجد في المشورة حلاً لم يخطر على فكره فيستريح له. ورابعٌ يلجأ إلى الصلاة طالباً من اللَّه عوناً ينقذه من المشكلة ... وهكذا تتنوَّع طرق مواجهة المشكلة، ويتنوَّع أيضاً أسلوب التجاوب والتفاعل معها، حسب نوعية النفسية ...

★★ بالمثل أي خبر مُحزِن يُصادف الإنسان: كيف يواجهه؟ نرى شخصاً حساساً جداً يُدمِّره الخبر المُحزِن، وإذا بالأحزان تسيطر على نفسيته مدة طويلة، في بكاء لا يأتي بنتيجة، وربُّما يؤثِّر الحزن الشديد على قلبه وأعصابه، ويُسبِّب له أمراضاً...! بينما شخص آخر لا يسمح للحزن بأن يستمر معه أو يسيطر عليه. ويضع أمامه هذا المبدأ "مرِّر المشاكل دون أن تُمرِّرك". أي اجعلها تمرّ دون أن تحوِّل حياتك إلى مُرّ وتقاسي المرارة بسببها...

★★ يختلف التجاوب أيضاً في نوعية مقابلة الإساءة أو الإهانة: فهناك مَن يغضب بل يثور. ويقول إنَّ كرامتي قد خدشت، ولا بد أن أنتقم وألقِّن هذا المُسيء درساً لَن ينساه. وشخص آخر يقول إنَّ كرامتي أسمَى من أن ينالها مُسيء قد فقد أدبه، وكما يقول المَثل: "إن أتاك العيب من أهل العيب، فلا يُعتبر ذلك عيباً"، أو كما يقول الشاعر:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ ... فهى الشهادة لي بأني كامل.

وآخر يقول: من الأفضل لي أني لا أردّ، لأنَّ الرد قد يقابل بردّ آخَر، وردّ الردّ يحتاج إلى ردّ، والموضوع يمتد ويزداد. فإهماله يجعله ينتهي من أوّله...

وهكذا مع كل نقد: هناك مَن يقابله بموضوعية وبعقل، ومَن يقابله بأعصاب وبانفعال. وتعتمد المواجهة دائماً على نوعية النفسية ... هل بهدوء، في شرح مُقنع، أم بهجوم مضاد، أم بلامبالاة؟!

★★ اختلاف نوعية التجاوب، يظهر أيضاً في مواجهة الفشل، ومواجهة النجاح... فإنسان إذا فشل، قد يفقد الثقة بنفسه، ويُصاب بصغر نفس، فينهار بسبب فشله. بينما شخص آخر إذا ما فشل يعاود الكرَّة مرة أخرى. ويقول لنفسه: "إن فاتتك فرصة فالتمس غيرها". مثال ذلك شخصان: أحدهما إن هُدِمَ له بيت يجلس عند بقية البناء المنهدم يندب ويبكي. بينما آخر لا تنهار نفسيته بانهيار بنائه. وإنما يبدأ من جديد أن يحفر أساساً ليُشيِّد بناءً بديلاً.

★★ نفس الوضع بالنسبة إلى نوعية النفسية في مواجهة النجاح والشهرة. هناك مَن يقابل النجاح بلون من الغرور ومن التباهي، ويمشي في الأرض مرحاً في إعجاب بالنفس، يستقبل المديح ويستزيده. بينما آخر يُقابل النجاح باتضاع، وينسب ذلك إلى الظروف المحيطة، وإلى تعاون الآخرين معه وجهدهم، وإلى معونة اللّه قبل كل شيء. وإذا قوبل بمديح من الناس، يقول: مَن أكون أنا في المقارنة بمَن فاتوني في هذا المجال؟! وهكذا يبتعد عن الغرور ... ويحاول أن ينمو، دون الاكتفاء بما وصل إليه من نجاح ...

★★ يظهر اختلاف التجاوب أيضاً من جهة الأخبار. فهناك مَن يُصدِّق كل خبر يصل إليه، وينفعل به، فيحزن أو يفرح أو يثور، ويتحدَّث في انفعال - من جهة هذا الخبر - مع كل مَن يقابله ... بينما آخر يسمع أو يقرأ الأخبار، فيحلِّلها ويفحصها، ويرفض البعض، ويقبل البعض الآخر، ولا يسمح للأخبار بأن تؤثِّر على نفسيته أو تقوده ...

★★ يختلف أيضاً تجاوب الناس من جهة المرض والموت. فهناك مَن يقابلها بتذمُّر وألم. والبعض يقابل كل ذلك برضى وخضوع لمشيئة اللّه. والبعض قد يقوده المرض والألم إلى التوبة. ويقوده الخوف من الموت إلى الاستعداد لملاقاة اللّه في الحياة الأخرى.

كذلك من جهة مواجهة موت الأحباء. قد يكون تأثير ذلك على البعض هو الحزن الشديد. بينما قد يترك موت أولئك شعوراً بالزهد وإيقاناً بأنَّ العمر مصيره إلى الزوال مهما طال. فيأخذ الأحياء درساً لحياتهم من موت أحبائهم. والبعض - في مجال الموت - يفكِّرون في القيامة وأنهم سوف يتقابلون مع أحبائهم في حياة أخرى أفضل من هذه الدنيا...

★★ أخيراً بالنسبة إلى المبادئ السامية، يختلف أيضاً تجاوب الناس من جهتها. فالبعض يقول: "أنال منها حسب إمكانياتي ولا أزيد". والبعض الآخر يحرص أن يصل إلى الكمال الذي تتيحه له النعمة. وآخرون يقولون: "هذه القيم العالية هي للقديسين وليس لنا". وكل شخص حسب نوع نفسيته يتخذ له طريقاً في حياته.

٤ نوفمبر ٢٠٠٧

الضمير
أمام الضباب أحياناً

هناك أمور كثيرة تكون واضحة جداً أمام الضمير، لا يجد في الحكم عليها أيَّة صعوبة على الإطلاق ... بينما أمور أخرى يحيط بها ضباب كثيف، يقف أمامها حائراً جداً لا يدري بماذا يحكم، ولا يرى أين الخير وأين الحق؟ وأين النافع وأين الضار؟!

وفي هذه الحالة، رُبَّما لا يكتفي الضمير بذاته، فيستعين بضمير أحد المرشدين، وقد يقف هذا المُرشد أيضاً في حيرة، لأنَّ الخير ليس واضحاً أمامه، فيقول: "نُصلِّي وننتظر، لعل اللَّه يكشف الأمر لنا"...

لذلك يُخيَّل إليَّ أن الطريق الروحي يحتاج أحياناً إلى عسكري مرور يقف فيه وبيده علَمان، أحدهما أخضر والآخر أحمر، فيسمح لهذا الأمر أن يمر، ولا يسمح لذاك بالمرور، واضعاً حدوداً بين الحلال والحرام، وبين الجائز وغير الجائز ... نقول هذا، لأنَّ أسئلة عديدة تدور حول بعض أمور منها:

★★ ما هي الحدود الروحية بين الصمت والكلام؟ متى ينبغي للإنسان أن يصمت، ويكون في صمته حكمة، ويقول: "أنا مالي، خلِّيني في حالي"؟! ومتى يجب عليه أن يتكلَّم، لأننا في بعض الأحيان نُدان على صمتنا؟ متى يرى الخطأ في غيره، فيوبخ وينتهر؟ ومتى يقول: "لا جدوى من التوبيخ غير فقدان سلامنا مع الآخرين"؟!

★★ أيضاً متى يُسمَح بالمزاح مع الآخرين؟ ومتى لا يجوز ذلك؟ وما هو الحد الفاصل بين المزاح المقبول، والمزاح غير المقبول؟ وأيهما أفيد الروح الجادة أم المرحة؟ وما حدود هذه وتلك؟

★★ كذلك ما حدود الشكوى؟ وما حدود العتاب؟ ومتى يجوز للإنسان أن يشكو ويُطالب بحقه؟ ومتى يجعل الشكوى للَّه وحده، ومتى يتنازل عن حقه ولا يُطالب به، ولا يدخل في نزاع مع آخرين؟

ومتى يرى العتاب مُفيداً، يصفي به حساباته مع المُسيئين؟ ومتى يبعد عن العتاب لئلا تسوء الأمور بالأكثر، حسبما قال الشاعر:

ودَعْ العتابَ فربّ شرٌ .. كان أوله العتابا

★★ وما الحُكم على المُنتحر؟ هل نعتبره قاتل نفس، لأنه لا يملك نفسه ليقتلها؟ أم نقول عنه إنه لم يكن يملك قواه العقلية أثناء انتحاره؟ وإلى أي حد؟ ... وبنفس المنطق ما مدى الأحكام على الأطفال إن أخطأوا: هل هم لا يدرون ماذا يفعلون؟ أم نحاسبهم على تصرفاتهم؟ وفي أي مرحلة من العمر؟ وإن حاسبناهم، هل نحاسب معهم البيئة التي عاشوا فيها، ونوعية التربية والتوجيه؟ ...

★★ هناك أسئلة أخرى قد تقف أمام الضمير: ما هي الحدود الفاصلة بين الراحة والكسل، وبين الحزم والقسوة، وبين الحُب والشهوة، وبين الحرفية والتدقيق، وبين الحرية والتَّسيُّب، وبين النقد والتجريح، وبين الحب والتدليل، وبين التواضع وصِغَر النفس؟؟ كلها أسئلة تحتاج إلى إجابات فاصلة، وإلى مزيد من الشرح والتوضيح. وسنحاول أن نتناولها أو بعضها بشيء من التفاصيل.

★★ إنَّ مسائل الصمت والكلام والتوبيخ والعتاب والشكوى وما أشبه، كلها تحتاج إلى حكمة من الضمير في حكمه. فليس كل صمت أو كلام يكون فضيلة أو خيراً في ذاته. إنَّما يتكلَّم الإنسان حين يجب عليه ذلك، ويصمت حين يحسن الصمت ...

فحين يكون الكلام لازماً لإنقاذ إنسان، أو لتحذيره من كارثة يمكن أن تحدث له، فمن الخطأ الصمت في هذه الحالة. وإن صَمَتنا نُدان على صَمْتِنا. كذلك يُدان الإنسان إن صَمَتَ في الإعلان عن هويته، أو في الدفاع عن الحق. وأيضاً يكون موضع اللوم، مَن ينطبق عليه المَثَل القائل: "سكت دهراً، ونطق كفراً". ومعه مَن يتكلَّم بلا هدف وبلا معنى...

★★ أمَّا عن المزاح، فيشترط فيه أن يكون بريئاً، ولا يتدنى ولا يهبط في أخلاقياته. وعموماً الشخص المَرِح يكون محبوباً من الناس لأنه يشيع جواً من البشاشة والفرح. وأنا

باستمرار أقول: "اضحكوا مع الناس، ولا تضحكوا على الناس". ولا مانع من المزاح بشرط أن المازح لا يتهكَّم في مزاحه على غيره، أو يجعله مجالاً للسخرية والتَّندّر. بل في كل فكاهاته، عليه أن يحتفظ باحترامه للغير...

★★ وبنفس الوضع يكون العتاب بروح المودَّة والعَشَم، ولا يكون سبباً في إثارة الطرف الآخر بلومه على أخطاء تُنسَب إليه. فالذي يُعاتب في مودة، لا يجرح شعور مَن يعاتبه، لأنه بهذا قد يخسر صداقته. وكذلك ليكن العتاب في سرية فيما بينه وبين الآخرين. لأنَّ معاتبته على أخطاء أمام الغير، فيما كشفه أمامهم بما لا يليق، فيضطر للدفاع بالمثل. ويسوء الموقف.

★★ أمَّا مُطالبة الإنسان بحقِّه - إذا لحقه ظُلم - فهذا من حقِّه تماماً، ولا يمنعه عنه دين ولا قانون ولا عرف. ولكن إن كان من الزاهدين وتنازل عن حقّه، فهذه درجة سامية، ليست في مستوى الجميع، ولا يمكن أن يُطالب الكل به. والدفاع عن الحق لازم إن كان الأمر يخص الجماعة وليس مُجرَّد فرد. فالذي يُمثِّل هذه الجماعة لا يحق له أن يتنازل عن حقوقها. أمَّا من جهة حقوقه هو، فإنه حُر أن يُطالب بها أو يتنازل عنها.

ونفس الكلام ينطبق أيضاً على الشكوى. فمن حق الإنسان أن يشكو لوالديه أو مرشديه أو رؤسائه، وحتى إلى المحاكم أيضاً. ولكني هنا أذكر قول أحد الرهبان في تأملاته الروحية: "حينما أشكو ياربِ، لِمَن أشكو إلاَّ لك، وحينما أشكو، مَن أشكو إلاَّ نفسي". إنها درجة روحية عالية، ولا يستطيع الكل أن يصلوا إليها...

★ أمَّا من جهة الفرق بين الحُب والشهوة؟ فقد سئلت هذا السؤال منذ أكثر من ٣٥ عاماً، فكان جوابي: "الشهوة تُريد دائماً أن تأخذ. أمَّا الحُب فهو يُريد دائماً أن يعطي وأن يبذل"...

فإن أحبَّ شاب فتاة وأصرّ على أن يشغلها. فضيّع بذلك وقتها، ورُبَّما ضيَّع دراستها أيضاً. وبكثرة اللقاءات ضيَّع سمعتها. ورُبَّما ضيَّع أيضاً عفتها. أترى نُسمِّي هذا حُبَّاً أمْ نُسمِّيه شهوة. لأنَّ الذي يحب فتاة حُبَّاً حقيقياً، إنما يحرص عليها حرصه على أخته ...

★★ ما الفرق أيضاً بين النقد والتجريح؟ ليس كل تجريح يُسمَّى نقداً. فالنقد يقتصر على الناحية الموضوعية. أمَّا التجريح فيتناول إهانة الشخصية. والفارق الآخر أنَّ النقد هو لون من التحليل، يذكر النقاط التي تُمدَح. ومن جهة النقاط التي يعترض عليها فإنه يحلّلها ويشرح أخطاءها دون أن يمس صاحبها بسوء.

★★ ومن جهة الفرق بين الراحة والكسل، فهو واضح جداً. ذلك أنَّ الراحة هي إعطاء الجسد ما يعوِّضه عن تعبه بغير زيادة ولا مبالغة. بعكس الكسل الذي هو تراخي الجسد غير المحتاج إلى راحة، وإعطاؤه فرصة يهمل فيها واجباته ومسؤولياته.

★★ أمَّا عن الفروق بين الحزم والقسوة، وبين الحب والتدليل: فالحزم هو الوضع المتوسط بين القسوة والتدليل. فهو لا يقسو بحيث ينفر منه الصغير. ولا يدلل الصغير بحيث يتلف بدون حريته. إنما حازم في رفق، ومُحب في حكمة.

ولعلَّ هذا يُذكّرني بالمَثَل الفرعوني القائل: "لا تكن يابساً فتُكْسَر، ولا ليِّناً فتُعْصَر". إنها نفس الوسطية التي نطلبها أيضاً ما بين الحرفية والتدقيق، بحيث يُدقِّق الإنسان بالروح التي تتطلبها القيم والأوامر دون الخضوع لحرفيتها بدون حكمة وتصرُّف.

١١ نوفمبر ٢٠٠٧

ردود الفعل

كل فعل له رد فعل، عنيفاً كان أو خفيفاً. إنما هو ردّ للفعل حسب درجته. وحكيم هو الإنسان الذي يحسب حساباً لرد الفعل قبل كل كلمة يقولها، وقبل كل موقف يتخذه ... وجاهل جداً مَن لا يحسب حساباً لردود الفعل ...

★★ ولعل من الأمثلة الواضحة لحساب ردود الفعل، ما نراه في مشاهدة لاعبي الشطرنج. إذ يبدو كل منهما صامتاً، بينما هو يُفكِّر في عُمق: إن قام بتحريك شيء من اللعب، ماذا سيكون ردّ الفعل عند الطرف الآخر؟ فإن أجاب باللعبة الفلانية، ماذا يكون ردَّه هو على ذلك. وهكذا يطول التفكير في حساب ردود الفعل ...

★★ وردّ الفعل قد يشمل كل شيء: وقد يكون مشابهاً للشيء تماماً أو متناسباً معه. فرد الفعل للحب هو حب مثله، وقد يكون رد الفعل للصدّ هو صدّ مثله. ورد الفعل للترحاب هو الشكر. ولكن ردّ الفعل للإهمال قد يكون الألم أو البعد. وما أعجب رد الفعل في الإحسان إلى الناس إذ يقول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسانهم

أمَّا إذا قوبل الإحسان بنكران الجميل، فإن ردّ الفعل لنكران الجميل هو عدم استمرار الإحسان. وكما قال أحد الحكماء: "ليست عطية بلا زيادة إلاَّ التي بلا شكر"!

★★ إنَّ الإحسان إلى المحتاجين والفقراء، كثيراً ما يكون ردّ فعله هو الدُّعاء من كل القلب لِمَن قد أحسن إليهم. وهكذا يكسب المحسن أصدقاء يشفعون فيه عند اللَّه. وأيضاً "طوبى للرحماء فإنهم يُرحَمون". وعكس ذلك لِمَن يقسو قلبه على المعوزين والمساكين. لأنَّ مَن يسمع صراخ المسكين ولا يستجيب له، يصرخ هو أيضاً إلى اللَّه في وقت ما، ولا يستجيب له.

صدقوني، حتى الذي يصنع جميلاً مع حيوان أو طير، قد لا يُنسى له إطلاقاً هذا الجميل. فالذي يحنو على كلب أو قط، أو يخرج شوكة من جسم حيوان، يحظى برد فعل عجيب منه. وبالعكس يقول المثل: "مَن يؤذي قطاً، يخربشه". إنه رد فعل.

★★ إنَّ مَن يهين غيره، تكون لإهانته ردود فعل كثيرة. فإمَّا أن يكون ردّ الإهانة إهانة مثلها، أو يكون ردّ فعلها خصومة إذا لم يحتملها القلب. وإذا كانت إهانته كلمة نابية، تؤخذ عنه فكرة أنه سيء الخُلُق. قد يكون رد الفعل هو الانتقام. نفس الكلام نقوله عن ردود الفعل للمهاجمة أو التحدي أو التجريح ... هل يظن مقترف مثل ذلك الإثم أن خطأه يمر دون أثر أو رد فعل ..؟!

★★ ما هى قصص الانتقام أو الأخذ بالثأر - وبخاصة في بلاد الريف - إلاَّ ردود فعل؟ إن لم تكن في وقتها، فقد تكون بعد حين. وإن لم تكن من الجاني نفسه، فقد تكون من أولاده أو من أعز أحبائه، أو تكون انتقاماً في مقتنياته. إن سفك الدم له ردّ فعله الذي قد لا يُنسى. وكما قال الرب لقاتل هابيل الصِّدِّيق: "صوت دم أخيك صارخ إليَّ من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك" ...

★★ كذلك في عالم السياسة نرى ردود الفعل واضحة جداً. فنائب الدائرة الذي لا يهتم بها، يكون لإهماله ردّ فعل في عدم انتخابه مرة أخرى. وهكذا أخطاء أي مسؤول في الحُكم، تكون لها ردود فعل عند أحزاب المعارضة فتتناولها بالنقد. بل قد يكون لها ردّ فعل عند الدولة نفسها. فأحداث الأقصر التي قُتِل فيها بعض السائحين الأجانب منذ سنوات، كان من نتائجها أو ردود فعلها، تغيير وزير الداخلية...

★★ والسياسة العنيفة للأجناس البيضاء في أفريقيا السوداء، كان من ردود فعلها - ولو بعد زمن - هو خروج أحد هؤلاء السود من السجن ليصير أوّل حاكم أسود لجنوب أفريقيا وهو الزعيم مانديلاً .. وكذلك من ردود الفعل لاستعمار كثير من دول أفريقيا بواسطة بلاد الغرب كان من نتائجها ظهور حركات استقلالية في أفريقيا نفضت عن كاهلها ذلك الاستعمار، وصارت تحكم نفسها بنفسها .. وفي الهند حدث نفس الوضع، فإذا كردّ فعل للاستعمار البريطاني، ظهر زعيم هندي جاهد لتحصل الهند على استقلالها، وهو الزعيم المهاتما غاندي الذائع الصيت.

★★ وفي الدولة العثمانية، نذكر السلطان عبد الحميد الذي انفرد بالحُكم فكـان ردّ الفعل ثورة ضده قال فيها أمير الشعراء أحمد شوقي:

عبد الحميد حساب مثلك في يد الملـك الغفـور
سدت الثلاثين الطوال ولسن بـالحكم القصـير
تنهي وتأمر ما بدالك في الكبير وفي الصـغير
لا تستشير وفي الحمى عدد الكواكب من مشـير
دخلوا السرير عليك يحتكمون في رب السـرير
أعظم بهم من آسـرين وبالخليفـة مـن أسـير

★★ لا شك أنَّ التعالي على الناس له ردّ فعله، وقد يكون عسـيراً. ومـا الثـورة الفرنسية المشهورة في أواخر القرن الثامن عشر، إلاَّ دليل أكيد على هذا الأمر إذ غيّرت الإمبراطورية تغييراً كاملاً تحت شعار "الحرية والإخاء والمساواة". ثم كان لظلم روبسبير رد فعل آخر، ثم كانت دولة نابليون بونابرت، وتطوَّرت الأمور.

★★ وفي النواحي الدينية نرى نفس ردود الفعل أيضاً. فردّ الفعـل علـى محـاكم التفتيش، وعلى نظرية السمو البابوي التي نادى بها جريجوري السابع، وما حـدث فـي قصة إذلال كانوسا وغيرها وصكوك الغفران، كان من نتائجها ظهور مارتن لـوثر وردّ الفعل البروتستانتي الذي أوجد انقساماً خطيراً في الكنيسة من القرن الخامس عشر حتـى الآن.

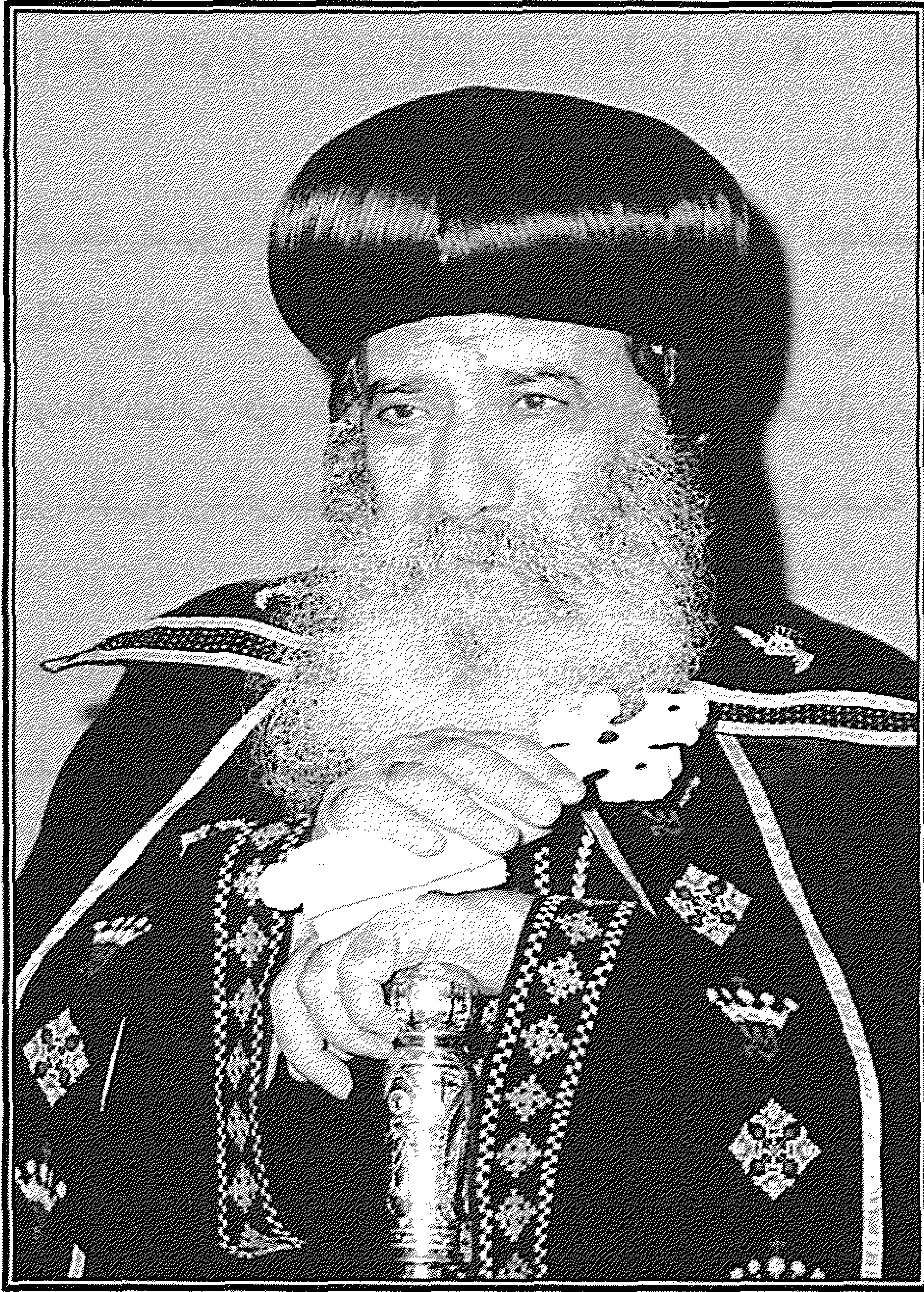
كذلك كان لكتاب سليمان رشدي الذي أصدره في إنجلترا ردّ فعله الخطير في العـالم الإسلامي مما حكمت به إيران عليه بتحليل دمه ومكافأة بالملايين لِمَن يقتله. وكذلك كـان ردّ الفعل على الرسوم الدنماركية وعلى تصريحات البابا بندكت السادس عشر...

★★ لذلك على كل إنسان أن يعمل حساباً لكل فعل قبل أن يفعله، ولكل لفظة قبل أن يلفظها. لأنَّ أمراً واحداً قد تكون له ردود فعل كثيرة. وخطيئة واضحة قد تكون لها ردود فعل عالمية. وما أصعب ردود الفعل للقادة والرؤساء، ومَن ينظر إليهم باعتبار أنهم قدوة ومثالاً لغيرهم. لذلك قال الحكيم العربي: "قدّر لرِجْلك قبل الخطو موضعها ...".

★★ وردود الفعل قد تتخطَّى حدود المكان والزمان فالثورة الفرنسية كان لها ردود فعل خارج فرنسا. والثورة المصرية كان لها ردود فعل خارج مصر. بل أن انتصار أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان له رد فعل في العالم العربي كله وفي إسرائيل وفي نظرة أمريكا إلى مصر واحترام العالم كله لها. كما كان لها أيضاً ردّ فعل وتأثير في الخطط العسكرية التي يمكن تدريسها.

★ إنَّ نشاط الإنسان له ردّ فعل، وتكاسله له كذلك ردّ فعل. وأفكار الإنسان ليست قاصرة عليه، بل لها ردود فعلي عليه، وعلى كل مَن يتأثر بهذه الأفكار سلباً أو إيجاباً.

لذلك في كل فكرك أو كلامك أو تصرفاتك، لا تنظر إلى نفسك فقط، إنما إلى كل ما تحدثه من ردود فعل سواء على مستوى الأسرة أو البيئة أو الرأي العام كله.



١٨ نوفمبر ٢٠٠٧

السلام والاطمئنان

ما أحوج كل إنسان إلى السلام والاطمئنان، لكي يستريح قلبه وفكره، ويشعر بالهدوء في حياته.

والسلام على ثلاثة أنواع: سلام مع اللَّه، وسلام مع الناس، وسلام داخل نفسه يمكن أن نُسمِّيه السلام القلبي ...

★★ أمَّا السلام مع اللَّه، فيكون بطاعة وصاياه، والسلوك في حياة الفضيلة والبِرّ. ذلك لأنَّ الإنسان الذي يحيا في الخطيئة والإثم، ويبعد عن الصلاة والعبادة، إنما يُبرهِن عملياً على أنه في خصومة مع اللَّه ومع كل سكان السماء. ولكي يصلح موقفه، ويكون في سلام حقيقي مع اللَّه، عليه بالتوبة ونقاوة القلب.

★★ أمَّا السلام مع الناس، فله جانبان سلبي وإيجابي. ففي الجانب السلبي لا يدخل في صراعات واشتباكات وخصامات مع باقي الناس، ولم يحمل في قلبه حقداً أو عداوة ضد أحد. أمَّا العُنصر الإيجابي في السلام مع الناس فيكون بالتعاون معهم، وبالحُبّ والمودَّة، وتقديم الخير للكُل، والحِرص على مشاعر كل مَن يتعامل معه...

★★ أمَّا السلام القلبي داخل النفس، فيكون بالبُعد عن كل أسباب الاضطراب والقلق والخوف، مع الاطمئنان من جهة حياته الخاصة ومستقبله، والاطمئنان أيضاً على مُحبيه ومعارفه. وهذا النوع من السلام الداخلي سيكون موضوع تأمُّلنا في هذا المقال. بحيث نتحدَّث عن مصادر وأسباب السلام والاطمئنان، والعوامل التي تُساعد في أن يفقد الإنسان سلامه...

★★ لكي تحيا يا أخي في سلام واطمئنان، عليك قبل كل شيء أن تؤمن بحفظ اللَّه ورعايته وعنايته، وأنه يهتم بك أكثر من اهتمامك بنفسك، ويُدافع عنك، ولا يسمح بأن يصيبك أي شر أو ضرر. وتؤمن أيضاً أن اللَّه قادر على كل شيء، وفي قدرته يمكن

أن يُخلِّصك من كل متاعبك ويحل كل مشاكلك. وأنه أقوى من كل قوى الشر التي قد تحاربك.

إن كان عندك مثل هذا الإيمان، سوف لا تتزعج أمام أية مشكلة أو ضيقة. بل ستكون مطمئناً أن اللّه في رعايته لك سوف لا يتركك أو يتخلّى عنك.

تؤمن أيضاً أن حياتك في يد اللّه، وليست في أيدي الناس يتصرّفون فيها كما يشاءون، يؤذونك أو يُغيِّرون مسار حياتك حسب أهوائهم! إن كان لك هذا الفكر، سوف تخاف وتضطرب وتفقد سلامك، وتظل تُفكِّر ماذا سوف يحدث لي؟! أمّا إيمانك بأن اللّه سوف يرعاك، فإنه يُدخِل الاطمئنان إلى قلبك...

من مصادر الاطمئنان أيضاً: قوة القلب. أعني قوة الشخصية التي لا تخاف ولا تتزعزع بسهولة. بل تستطيع أن تجابه المشاكل في صمود وثقة. لا تضطرب، بل بفكر هادي مُتزن تبحث عن حلول وإن لم تجدها يمكنها أن تصبر وتحتمل دون أن تفقد رجاءها ودون أن تفقد سلامها. وعكس ذلك النفوس الضعيفة التي تنهار أمام مصاعب الحياة وأمام عدوان الناس.

إنّ العاصفة تستطيع أن تهز شجرة الخروع، ولكنها لا تهز السنديانة أو البلوطة أو أيَّة شجرة لها جذور قوية وعميقة في الأرض. كذلك الأمواج لا تستطيع أن تؤذي باخرة أو سفينة قوية تشق طريقها في البحر وتسير مطمئنة. ولكن هذه الأمواج يمكنها أن تتعب قارباً صغيراً أو سفينة فيها ثُقب يسمح للماء أن يترسَّب إلى داخلها ... لذلك كُن قوي القلب ولا تفقد سلامك أمام المشاكل والضيقات. كُن مِثل الجنادل الستة التي في مجرى النيل لا تقوى عليها الأمواج ولا العواصف والأنواء، لأنها ثابتة راسخة ...

★★ كذلك إن أردت أن تحيا في سلام واطمئنان، عاشر أُناساً أقوياء القلب لا يضطربون، وسوف تجد أن سلامهم الداخلي ينتقل منهم إليك، ذلك إن حاولت أن يكون لك نفس صفاتهم واعرف أنّ الصفات القوية يمكن أن تنتقل من شخص إلى آخر بالعِشرة والمُحاكاة. فمَن عاشر الشجعان يُمكن أن يقتبس منهم الشجاعة. ومَن عاشر الحُكماء يُمكن أن يتعلَّم منهم الحكمة. وبالمِثل فإنّ مَن يُعاشر المطمئنين يمكن أن يسري الاطمئنان منهم إليه، ويستريح قلبه بكلمات الطمأنة التي يقولونها له، فتهدئ روعه.

ومن الناحية الأخرى يمكن عدوى النقائص أو الأمراض النفسية تنتقل من شخص إلى آخر. فمَن عاشر المصابين بالوهم، ما أسهل أن يُحاربه الوهم أيضاً. ومَن يجلس مع شخص مُرتعِب ومرتعد، يمكن أن ينتقل الرعب إليه أيضاً بالعدوى. إذ يقول له ذاك: "ألَمْ تعلم، لقد حدث كذا وكذا، ولا بد أن تكون النتائج وخيمة جداً ومُرعبة فيحدث ويحدث"، حينئذ قد يسري الرُّعب إليه .. على أن كل ذلك يحدث مع النفوس القابلة للضعف والسهلة التأثُّر. أمَّا أقوياء القلوب فيكون لهم صمود ...

لذلك كُن قوياً من الداخل، وليكن اطمئنانك نابعاً من داخلك، وليس من الظروف الخارجية المؤثِّرة سلباً أو إيجاباً.

★★ وممَّا يُساعد على السلام القلبي والاطمئنان، البُعد عن الوهم والشك، وكافة أنواع المخاوف التي تزعج النفس.

والخوف الذي يُسبِّب الانزعاج والاضطراب وينزع الاطمئنان والسلام، له أسباب داخلية وخارجية. فهناك بعض صغار النفوس يخافون ويضطربون من لا شيء، ويتصوَّرون متاعب لا وجود لها، كالذي يُقال عنه إنه: "يهرب ولا مُطارِد" أو أنه يتخيَّل أنَّ له أعداء يحاولون الفتك به، فيفقد سلامه القلبي بسبب هؤلاء الأعداء الذين لا وجود لهم إلاَّ في مخيلته.

أو قد يكون الخوف والاضطراب بسبب الشكوك، إذ يُفكِّر ماذا تراه سيحدث؟ لعلَّ مشكلة تنتظرني! مثل فتاة يأتي شاب لكي يخطبها، فتظل تتعبها الشكوك: هل ستعجبه أم لا تعجبه؟ وهل ستتم الخطوبة أم يمضي الخطيب ولا يعود. وهذا الشكّ يفقدها اطمئنانها، إذ لا توجد ثقة بالنَّفس ... أو مِثل طالب يتقدَّم إلى امتحان، أو طالب وظيفة يتقدَّم إلى الاختبار الشخصي Interview فيضطرِب ولا يطمئن. هل يجوز الاختبار بنجاح أم يفشل فيه. إنها شكوك ومخاوف لا تنتهي. فالشكوك تُسبِّب الخوف، والخوف يولد شكوكاً.

★★ وقد يفقد الإنسان اطمئنانه بسبب عوامل نفسية: كالذي يؤمن بالحسد، وبما يسمونه "العمل" أو السِّحر. ويظن أن أيَّة نعمة تأتيه لا بد وراءها أعين مَن يحسدونه

عليها، فيقول: إنَّ فلاناً عينه صعبة جداً، أخاف من نظرته الحاسدة التي قد تفلق الصخر! أو يخاف أن منافسيه يعملون له عملاً ليؤذيه!!

إنسان آخر جبان، يُسبِّب له جُبنه خوفاً واضطراباً، أو له خوف طفولي، فيخاف من الظلام وما يختبئ فيه. أو كمَن يركب طائرة، وإن حدث مطب هوائي يضطرب ويظن أنَّ النهاية قد أتت!

وهناك مَن يفقد سلامه واطمئنانه بسبب الخوف من المرض ومن الميكروبات وتلوث الجو والماء وإمكانية العدوى. وهناك متدينون يخافون من حروب الشياطين ومن مكرهم وحيلهم. وفي كل ذلك لا يُفكِّرون في نعمة اللَّه الحافظة التي تمنح السلام والاطمئنان!.



٢٥ نوفمبر ٢٠٠٧

فوائد الألم وأنواعه

غالبية الناس أو كلهم يكرهون الألم ويهربون منه إلى حياة المُتعة والفرح. ولكننا لا ننكر أنَّ الألم صارت له فوائد كثيرة، للشخص المتألم وللمحيطين به وللعالم كله، وللعلم. فما هى فوائد الألم التي لولاها ما سمح اللَّه بالألم؟ وهل الألم كله ضرر، أم له وجه آخر مضيء يمكن الانتفاع به؟ وما هى علاقة الألم بعديد من الفضائل الخاصة والاجتماعية؟ هذا ما نود أن نتحدث عنه في هذا المقال... كما نود أن نذكر أنواعاً من الألم وطريقة الاستفادة منها.

وهنا أذكر ما قاله أحمد شوقي أمير الشعراء في إحدى قصائده:

ومُتِّعت بالألم العبقريّ ... وأنبغ ما في الحياة الألم.

ذلك لأن النفس تكون أكثر شفافية وحساسية في حالة الألم منها في حالات البهجة واللَّهو أو المتعة.

كما أن الألم دليل على الحساسية والحياة. فالعضو الميت لا يحس ألماً، أمَّا الحيّ فإنه يشعر بالألم.

★★ على أنَّ أول فائدة للألم هى أنه إنذار بالمرض وبيان لموضعه، وذلك حتى يتنبه المريض إلى أن هناك شيئاً غير طبيعي في جسده يلزم أن يعالجه. وأخطر الأمراض هى التي تبدأ دون أي إحساس بالألم، وتظل تسري وتتطور دون ألم، إلى أن تصل إلى درجة من الخطورة يصعب علاجها، مثل بعض أمراض السرطان. وهنا نشعر بفائدة الألم لو كان قد بدأ منذ المرحلة الأولى، حتى نتفادى التطور السيئ...

ويشبه هذا الأمر مرض الطفل الرضيع الذي لا يستطيع أن يُعبِّر عما يشكو منه. ولكن ألمه هو التعبير الذي يكشف موضع الوجع عنده حتى نعالجه. شعوره بالألم وصراخه بسببه، هو نقطة البدء، ثم تأخذ أجهزة الكشف مجراها لتعيين المرض...

★★ من فوائد الألم أنه أوجد نهضة فكرية في العقل البشري الذي وقـف تجاهـه لعدة أمور: لاكتشاف الألم أين هو؟ ثم البحث عن أسبابه، وأيضاً لتسكين الألـم وتهدئتـه أو علاجه.

★★ ولهذا نقول إن من فوائد الألم أنه كان السبب الطبيعي في نشأة علـم الطـب. فلولا الألم والتفكير في التخلُّص منه، ما كانت هناك حاجة إلى الطب ... على أنه بتعـدد أنواع الآلام، ظهرت أيضاً تعدادات في تخصصات الأطباء. فكل نوع ألم، ظهـر أمامـه نوع تخصص طبي.

★★ ولولا الألم والمرض، ما كانت المستشفيات والعيادات، ومـا كانـت كليـات الطب، وما كان العدد الجبار الذي يعمل في هذا المجال من الأطباء الذين بدافع إنسـاني يبذلون قصارى جهدهم لتخفيف آلام المرضى. ولولا الألم ما كان عِلم التمـريض، بعـدد كبير من (ملائكة الرحمة) لخدمة المرضى في آلامهم.

★★ والألم كان أيضاً السبب في نشوء علم الصيدلة، الذي بدأ أولاً باكتشاف ما في الأعشاب من عناصر علاجية، ثم تطور الأمر إلى نهضة كبيرة في علم الأدويـة، وفـي الجهود العميقة المبذولة لإعداد ما يُخفف الآلام أو يزيلها.

★★ ولولا الألم ما نشأ علم التخدير بأنواعه. لأنه مَن ذا الذي يمكنـه أن يحتمـل إجراء عمليات جراحية خطيرة له، بدون تخدير يساعده علـى احتمـال الجراحـة دون الشعور بأي ألم!

★★ ومن فوائد الألم أنه كان سبباً في البحوث والاكتشافات العديدة، والدخول فـي التكنولوجيا الطبية بعديد من الأجهزة مثل الأشعة والـ MRI، والقسطرة، وما إلى ذلـك مما يصعب حصره. وهكذا فإن التعامل مع الألم أوجد بلا شـك طفـرة علميـة عجيبـة بلغت ذروتها.

★★ من فوائد الألم أيضاً أنه يوجد دافعاً روحياً، يتقرَّب به المريض المتـألم إلـى اللَّه، ملتمساً منه الرحمة والمعونة للشفاء. وهكذا يصبح الألم مدرسة للصـلاة ومدرسـة للتوبة. فإن دقائق من الألم الشديد يكون لها تأثيرها في المريض أكثر مـن مائـة عظـة يسمعها، وبخاصة في الأمراض الخطيرة والآلام الشديدة، حين يكون باب الأمل المفتـوح

وحده أمام المريض المتألم هو باب الله وليس غيره. والآلام قد لا تدفع فقط إلى الصلاة، إنما أيضاً إلى النذور وإلى التعهدات أمام الله.

★★ ومن فوائد الألم أنه يكون سبباً في التعاطف الاجتماعي، وإحاطة المتألم بالعديد من المحبين والأصدقاء والأقارب، الذين يحيطون به بكل مشاعر المودَّة، يزورونه ويطلبون له الشفاء. وهناك مَن يتبرَّع له بدمه، أو يتبرَّع له بأحد أعضائه. بل أن بعض حالات العلاج المكلّفة من الناحية المالية، تكون سبباً في تبرعات من البعض لإنقاذ المريض ... إلى جوار مَن يساهمون في العناية بالمريض ورعايته. ورُبَّما لولا آلامه، ما كان كل هؤلاء المحبين حوله وما كان ما يبذلونه...

حقاً ما أعمق القلب النبيل الذي يحس بآلام غيره ويتأثَّر بها. وأعمق منه مَن يُشارك الناس في آلامهم.

★★ رُبَّما غالبية ما قلناه كان عن ألم الجسد. على أن هناك أنواع آلام أخرى كثيرة منها ألم النفس. وفي المقدمة الألم الذي يقاسيه الضمير عندما يخطئ الإنسان، ألم التبكيت الداخلي والندم والحزن على ما ارتكبه. وهو ألم نافع جداً يقود إلى التوبة.

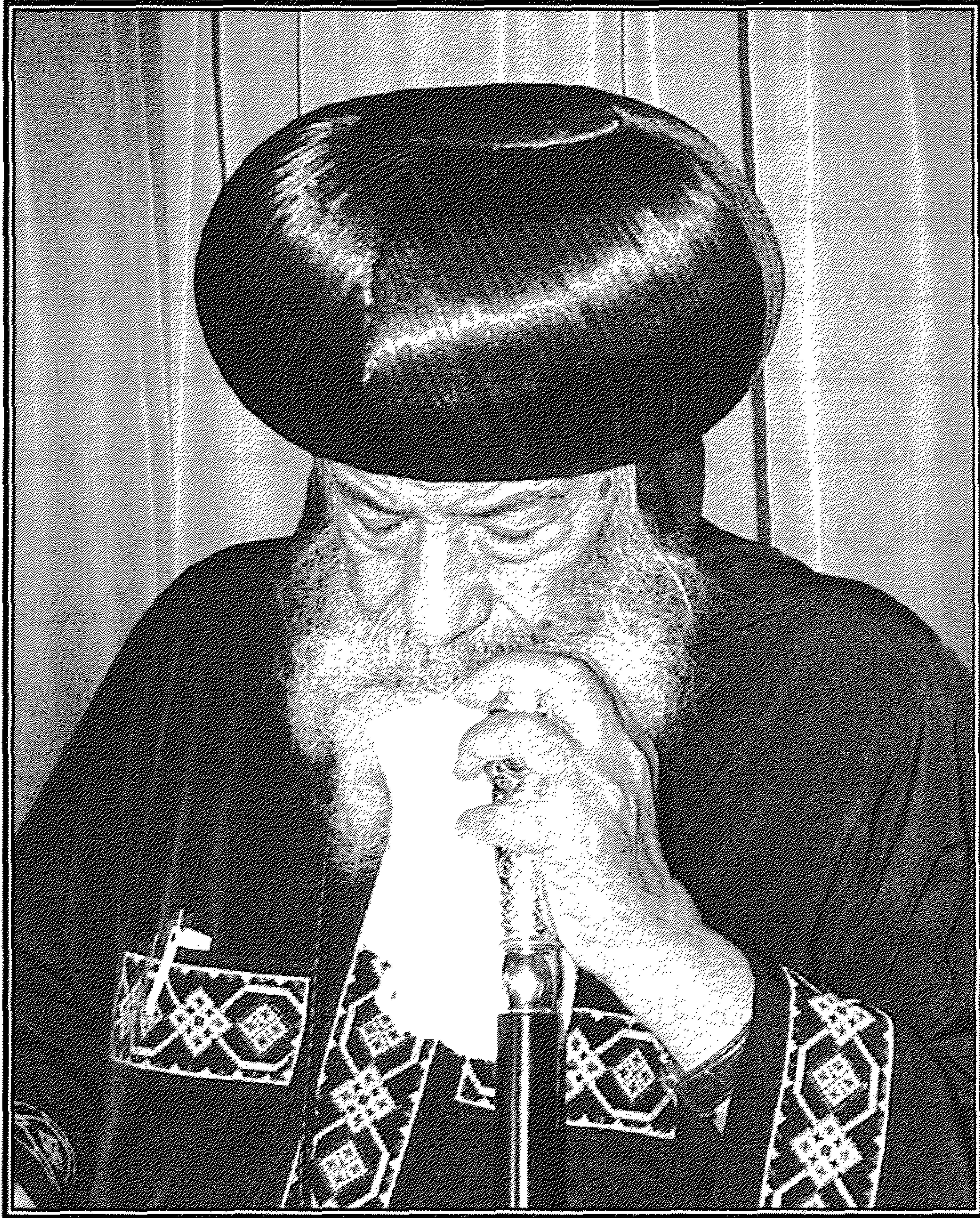
★★ وتوجد آلام بسبب الضيقات والمشاكل. ومن فائدتها البحث عن وسائل لحلها، والتعاون في هذا الحل.

★★ ويوجد ألم الفقر، ومن فائدته أن يكون الفقير عصامياً، يعمل على بناء نفسه بنفسه، ويتصف بالجدِّيَّة والبُعد عن اللَّهو. كما أن ألم الفقراء من فائدته أنه يثير العطف في قلوب المتصفين بالكرم الذين في نبلهم يتألمون بسبب الفقراء ويدفعهم هذا إلى العطاء والبذل. أمَّا البخلاء فلا يتألمون بسبب عوز الفقراء، وهذا عيب. نضيف إلى هذا أن الإحساس بآلام الفقراء وعوزهم، مع وجود فوارق اجتماعية كبيرة بينهم وبين الأغنياء، كل هذا دفع بعض الفلاسفة والمُفكِّرين إلى إرساء مبادئ الاشتراكية.

★★ ولمَّا كانت بضدها تتميز الأشياء، فإن كثيراً من الآلام دفعت إلى حرص من ناحية الضد. فإن الآلام الناتجة عن ويلات الحروب، دفعت إلى حرص الدول على السلام. وآلام الذين يخافون البطالة، دفعت إلى الاعتماد على النفس والعمل في المشروعات الصغيرة. كذلك فإن ألم التشوّه دفع إلى اختراعات في التجميل.

★★ من فوائد الألم أيضاً إنه درس لمَن يستفيد منه: فآلام مرض الإيدز صارت درساً في العفة. وآلام المدخنين صارت درساً في البُعد عن التدخين أو منعه. وآلام الرسوب في الامتحان أو الحصول على مجاميع ضئيلة كانت درساً لوجوب الاجتهاد والتفوق. كذلك فإن آلام السجن والشعور بالعار هى درس للبُعد عن الجريمة.

★★ من فائدة الألم أيضاً أنه يدفع إلى حياة الشكر: فلولا ألم المرض ما كان الناس يشكرون على الصحة التي هى تاج على رؤوس الأصحاء لا يشعر به إلاَّ المرضى. ولولا آلام القيود، ما كان الناس يشكرون على الحرية والراحة. ولولا آلام الضيق، ما كان البعض يشكر على أيام الفرج. ولولا وجع الألم، ما كنا نشكر على عدم الألم.



٢ ديسمبر ٢٠٠٧

مقاومة الأفكار الشريرة

إلهنا القدوس يريد أن تكون أفكارنا دائماً طاهرة ونقية، لا تتلوث ولا تلوث القلب معها إذا ما تحولت من أفكار إلى شهوات. والأفكار الشريرة على أنواع: منها أفكار النجاسة، وأفكار الحقد والانتقام، وأفكار العظمة والكبرياء، وأفكار الدهاء والنصب، وأفكار التجديف والإلحاد. وما إلى ذلك.

والأفكار الشريرة تأتي إمَّا من فساد داخل النفس، وإمَّا من حروب الشياطين، أو من عِشرة رديئة منحرفة.

★★ ونصيحتي لك أنك لا تنتظر حتى تهجم عليك الأفكار ثم تقاومها. بل الأفضل - إن استطعت - أنك لا تعطيها مجالاً على الإطلاق للوصول إليك. وكيف ذلك؟ اشغل فكرك باستمرار بما هو مفيد. حتى إن أراد الشيطان أن يحاربك بفكر شرير، يجدك مشغولاً وغير متفرِّغ له، فيمضي عنك. ولكن ما أصعب أن تأتي المحاربة الفكرية إلى الإنسان، فتجد أبوابه مفتوحة، وعقله مستعد للقبول. لذلك ما أعمق قول الحكماء: "إن عقل الكسلان معمل للشيطان"!

★★ ولكن إن حدث ودخل فكر رديء إلى عقلك، استبدله بفكر آخر يحل محله. لأنَّ العقل لا يستطيع أن يُفكِّر في موضوعين في وقت آخَر بنفس العمق. لذلك ينبغي أن يكون الفكر الجديد الذي تريد به أن تُغطِّي على فكر المحاربة، يكون عميقاً حتى يمكنه أن يطرد الفكر الآخر. كالتفكير في لغز أو مشكلة أو مسألة عقائدية، أو موضوع يهمك جداً، أو محاولة تذكّر شيء نسيته ... أو في مشكلة عائلية أو اجتماعية هامة، أو في سؤال عويص ليس من السهل الإجابة عليه، أو في موضوع يسرّك أن تستمر أن تفكّر فيه ....

أمَّا التفكير السطحي فلا يطرد الأفكار المحاربة لك. إنما تطرد أفكار تكون أعمق منها، تدخل إلى أعماقك وتحل محل تلك الأفكار الشريرة ...

★★ يمكنك أيضاً أن تطرد الأفكار التي تحاربك، وذلك بأسلوب الإحلال. على أن تكون أيضاً قراءة عميقة. لأنَّ القراءة السطحية تعطي مجالاً للسرحان، ويبقى الفكران معاً: أحدهما سطحي والآخر عميق. فإن حاربك فكر شهوة، لا تصلح لطرده قراءة عادية، بل تصلح القراءة التي تشغل الفكر في عمق.

★★ وربُّما يُطرَد الفكر عن طريق الصلاة. لأنَّ الإنسان يستحي من الفكر الخاطئ أثناء مخاطبته للّه في صلاته. كما أنه ينال معونة من الصلاة إن كانت بحرارة تقاوم السرحان.

وقد يُطرَد الفكر بالانشغال بعمل يدوي، إن كان هذا العمل يحتاج إلى انتباه وتركيز. وعموماً فإنَّ العمل يشغل الإنسان ويريحه من حرب الأفكار، بعكس الفراغ الذي يكون مجالاً لحروب الفكر. لذلك قال الحكماء: إنَّ الذي يعمل يحاربه شيطان واحد، بينما الذي لا يعمل تحاربه عدة شياطين. ونلاحظ أن اللّه قد أعطى أبانا آدم عملاً يعمله وهو في الجنة، مع أنه لم يكن محتاجاً إلى العمل من أجل رزقه ...

★★ فإن لم يمكن طرد الفكر الشرير بكل هذه الوسائل، فالأصلح أن يخرج الإنسان من وحدته ليتكلَّم مع شخص آخر. لأنه من الصعب أن يتكلَّم مع إنسان في موضوع مُعيَّن، وفي نفس الوقت يكون عقله مُنشغلاً بفكر آخر.

كذلك ينفعه أن ينشغل بأي نوع من التسلية، سواء كانت فردية أو مشتركة مع آخرين.

★★ المهم أنك لا تترك الفكر الخاطئ ينفرد بك، أو تنفرد به ...

إن عملية تشتيت الفكر الخاطئ، أو إحلال فكر آخر محله، أو شغل الذهن عنه بعمل أو بتسلية، أو حديث أو كتابة أو قراءة أو صلاة ... كل ذلك يُضعِف الفكر أو يطرده أو ينسيك إيَّاه ...

★★ كذلك يجب عليك أن تعرف سبب الفكر وتتصرَّف معه.

فقد يأتيك مثلاً فكر غضب أو انتقام بسبب موضوع مُعيَّن يحتاج إلى التصريف داخل قلبك. لأنه طالما تبقى داخلك أسباب الغضب، فلا بد أن ترجع إليك الأفكار مهما طردتها ...

فإن كان الفكر سببه قراءة مُعيَّنة أو سماعات من الناس أو عثرة من الحواس، أو مشكلة تشغلك، حاول أن تتفادى هذه الأسباب، أو تجد حلاً. وهكذا تمنع الفكر بمنع سببه.

★★ وإن حاربتك أفكار كبرياء أو عظمة أو مجد باطل، تذكَّر أنك مخلوق من تراب، وإلى التراب تعود. وأن أفكار الكبرياء تمنع عنك نعمة اللَّه فتتعرَّض للسقوط. وكما قال سليمان الحكيم: "قبل الكسر الكبرياء، وقبل السقوط تشامخ الروح".

وإن حُورِبت بمحبة المال وتخزينه، ضع في ذهنك باستمرار أنك في يوم من الأيام ستترك هذا العالم وكل ما فيه من مال ومقتنيات، ولا يصحبك في طريق الأبدية سوى أعمالك، خيراً كانت أم شراً ...

في كل ذلك تقاوم الأفكار الخاطئة عن طريق مناقشتها روحياً وتحليلها والرد عليها.

★★ على أنه في مقاومة تلك الأفكار، الجأ إلى السرعة وعدم التساهل في طرد الفكر. لأنك إن طردت الفكر بسرعة، فسوف يضعف أمامك. أمَّا إن أعطيته فرصة وتساهلت معه، فسوف يقوى عليك، وتضعف أنت في مقاومته. إذ قد تنضم إليه أفكار أخرى وتزداد فروعه. كما أنه قد ينتقل من العقل إلى القلب، ويتحوَّل إلى شهوة، ويبسط نفوذه على إرادتك.

واحترس من خداع يحاول أن يقنعك بأن تستبقي الفكر لكي تعرف ماذا تكون نهايته وإلى أي طريق يتجه؟ إن كثيراً من هذه الأفكار أنت تعرف نهايتها. وإن لم تعرف، فأنت تستطيع أن تستنتج من نوعية بداية الفكر، فتعرف إلى أين يتجه؟

★★ بعض الآباء كانوا ينصحون في التخلُّص من الأفكار الخاطئة، أن نضع أمام الفكر آية من آيات الكتاب تنهي عنه أو تشرح ضلاله. والإنسان بتذكّره هذه الآيات يخشى اللَّه ويوقف الفكر الشرير.

ولكن هناك أفكار تحتاج إلى طرد سريع، وليس إلى الفحص والتحليل. لأنَّ ذلك قد يؤدِّي إلى تثبيت الفكر بالأكثر، وإطالة مدة إقامته. كما قد يتسبب في تشعب الفكر. لذلك إن هاجمتك الأفكار الشريرة، يجب أن تصدها بسرعة. لا تتساهل معها، ولا تتراخَ، ولا تتماهل، ولا تتفاوض إطلاقاً مع الفكر. لا تأخذ معه وتعطي. لأنك كلما استبقيته

عندك، كُلَّما يأخذ قوة، ويثبِّت أقدامه، ويحتل منطقة أوسع في تفكيرك. وبهذا يأخذ سلطاناً عليك. أمَّا في بدء مجيئه فكان ضعيفاً يسهل طرده.

★★ إن طرد الأفكار يحتاج إلى حكمة وإفراز وإلى معونة إلهية أو معونة من المرشدين الخبيرين بالأفكار وطرق مقاومتها. فهم لا يجهلون حيل عدو الخير وأسلوبه في طرح الأخبار. لذلك فالمبتدئ في الروحيات، وليست له خبرة بمقاتلة الأفكار، ينفعه جداً أن يسأل مرشداً روحياً ذا خبرة. وفي نفس الوقت حينما يُصلِّي أن ينقذه اللَّه من الأفكار، ما أسرع ما يأتيه العون الإلهي الذي يساعد المجاهدين في حياة البِرّ، ويحرسه الرب من الفكر.

★★ وبوجه عام فإن حرص الإنسان على نقاوة قلبه، تجعله في حصانة من غزو الأفكار الشريرة له. قد تحاربه ولا تقدر عليه. لأنَّ البرّ الذي فيه يكون دائماً أقوى من الشر الذي يحاربه. فيصده عنه بسرعة وتحميه نعمة اللَّه من السقوط.



٩ ديسمبر ٢٠٠٧

الأطفال وأهميتهم وكيفية التعامل معهم

الأطفال هم نواة الجيل المُقبل. إن أحسنَّا إعدادهم، أمكننا ضمان جيل سليم نافع. أمَّا إن أهملناهم أو أسأنا معاملتهم، فتكون النتيجة كارثة اجتماعية في المستقبل. ولذلك فالأطفال هم وديعة في أيدينا، سنُقدِّم عنها حساباً أمام اللَّه والوطن. وهذه المسئولية تشمل الأسرة والمدرسة والمجتمع وكافة أجهزة الدولة.

والطفولة تنقسم إلى نوعين: الطفولة المُبكِّرة التي في الخمس سنوات الأولى تقريباً من العمر. والطفولة المتأخرة وهي ما بعد ذلك حتى سن الصبا. وسوف نتحدَّث في هذا المقال عن الطفولة المُبكِّرة وخصائصها وكيف التعامل معها ... وما تجده في مقالنا هذا ليس هو نتيجة قراءات في كُتب علم الاجتماع أو علم النفس أو الأنثروبولوجي، إنما هو خبرات عملية في التعامل مع الأطفال ودراسة نفسياتهم وطباعهم ...

★★ أول قاعدة في التعامل مع الطفل، هي أن تعامله بما يناسبه، بمستوى عقليته ونفسيته. فإن فشلنا في التعامل معه، فغالباً ما يرجع ذلك إلينا. إذ نكون قد أخطأنا فهم الطفل، أو أخطأنا الوسيلة إلى اجتذابه. والوضع السليم هو أن ننزل إلى مستواه، ولا نُكلِّمه من فوق. لا بد أن نعرف ما يحبه وما لا يحبه، وأن نفهم طباعه ونتمشى معه، ولا نرغمه على الخضوع لطباعنا.

اجعله يشعر أنك صديق وأنك في صفه. وليكن هذا هو أساس التعامل. وإن قابلت طفلاً لأول مرة، أو رأيته في زيارتك لأسرته، فلا تسرع بحمله على كتفك أو بمداعبته. فربما يصدك، فيؤثِّر فيك هذا الصد، فتأخذ منه موقفاً أو تتجاهله، وهكذا تفقد علاقتك معه ...

إنما من طبيعة الطفل إن قابل غريباً، أن يفحصه أولاً ويتأمَّله، أو يتفرَّس فيه، ثم يُحدِّد علاقته به. إنه يحب أن يطمئن أولاً إلى أنَّ هذا الشخص الجديد لا خطر منه. وله حق في هذا. وقد يبني اطمئنانه على شكل هذا الشخص وصوته وملامحه وحركاته

ولطفه. فقد يخاف من الشخص الغضوب الذي يتكلَّم بعصبية، أو الذي تكون ملامحه مقطبة (مكشرة)، أو الذي ينتهر طفلاً آخر أمامه. فلا يقبل مداعبة هذا الشخص مهما حاول ذلك، بل يهرب منه. ولكنه يأنس إليك، إن رآك مبتسماً ضحوكاً، منفرج الأسارير وطيب القلب. فاحترس إذن واضبط ملامحك، إن هناك أطفال لئلا تخيفهم.

إنَّ الأُم التي توبِّخ طفلها الصغير بقسوة، وقد تهدده بعنف، ربما يصرخ الطفل في خوف ويستغيث، لا بسبب كلامها فربُّما لا يفهمه، أو يكون منشغلاً بملامح وجهها الغضوب، ويرى فيه صورة مزعجة لا يحتملها. وما أسهل أن تترك هذه الصورة عقدة في نفسه أو تُسبب له أحلاماً مزعجة.

★★ الطفل في مرحلة الطفولة المُبكرة يستخدم الحواس أكثر من العقل. ويحب الصور أكثر من المعلومات، أو تصل إليه المعلومات عن طريق الصور. وهو في هذا السن يحب الحيوانات والطيور، ويراها أمامه كما لو كانت تنطق وتتكلَّم. وقد يحتضن لعبة من قطن بشكل قطة أو دُب، ويخاطب تلك اللعبة كأنها كائن حي. وتصلح له في هذا السن قصص الحيوانات. إنها تشبع خياله، وحبَّذا لو كانت هادفة. تعجبه قصص ميكي ماوس وأشباهها. وهو يحب الحكايات، ويحب مَن يحكي له حكايات. لذلك جهز نفسك برصيد من الحكايات، تصير بها صديقاً للأطفال..

★★ والطفل يحب اللعب ويجد فيه تسليته ومتعته. ويحب مَن يعطيه لعباً، كما يحب مَن يلاعبه أو يلعب معه من الكبار. والمفروض أن نوفِّر للطفل مجالاً للعب، وأنواعاً من اللعب التي يحبها. وإن لم نفعل ذلك، سنجعله يلجأ إلى تصرفات من اللعب فيها عبث أو خسارة، أو أنه يُحدث ضوضاء. ثم نلومه على ذلك، واللوم يرجع إلينا. وإلاَّ نسأل: كيف يمكن أن يشغل الأطفال وقتهم، وماذا قدَّمناه لهم؟!

بعض الأسرات تحرص أن يكون عندها حجرة للعب الأطفال. والأغلبية التي لا يتوفر لها ذلك، تلحق أطفالها بعض الوقت في أحد النوادي أو الحضانات.

وهناك ألعاب للأطفال لا تقتصر فقط على التسلية، وإنما تشمل أيضاً تدريبات على الذكاء والخبرة. مثل ألعاب لبعض قطع الكاوتشوك متنوعة الأشكال والألوان، ومعها رسم لبيت يستطيع الطفل بتشابكها أن يبني بيتاً ثم يهدمه ليبني آخر برسم آخر.

البعض يشكو من أن الطفل في لعبه قد يكسر أشياء في البيت أو يتلفها، فمثل هذه الأشياء ابعدها عن متناول يده.

★★ الطفل أيضاً من طبيعته أنه دائم الحركة. له طاقة يستخدمها في الحركة. ولا تستطيع أن تأمره بأن يجلس في مكان صامتاً لا يتحرّك، لأن هذا ضد طبيعته. فإن أرغمته على ذلك - لكي ترتاح أنت - يكون هذا لوناً من قهر الكبار للصغار. ولا يجوز أن نعوِّد أطفالنا على قبول القهر.

أتذكَّر أن أسرة زارتني في مكتبي بالقاهرة، وكان معهم طفل فوجد أن المكتب واسع، فأخذ يجري ويلعب فيه. فانتهرته أمه وقالت له: "اقعد يا ولد ساكت. بطَّل لعب لأن البابا ها يزعل منك". ولكنني قلت له: "العب يا حبيبي على كيفك. أنا لا أزعل من لعبك". فاطمئن الطفل وأكمل جريه في المكتب ولعبه. إلى أن تعب من الحركة فجلس هادئاً.

إذن لا تطلب من الطفل أن يتصرَّف هادئاً كالكبار، ولا ترغمه على ذلك بالضرب أو الانتهار. وإلاَّ فإنه سيتعقد من السُّلطة ويشتهي التخلُّص منها.

★★ الطفل أيضاً يُحب ما يضحكه. وقد يضحك أحياناً بلا سبب ندركه نحن. ربما بشيء غير مألوف له يضحكه، أو منظر مُعيَّن، أو كلمة متكرِّرة أو ملحَّنة، أو لعبة تفرحه. وبالضحك يُعبِّر عن سروره أو رضاه، أو عن تآلفه مع شخص مُعيَّن يستريح له، فيضحك في وجهه أو يبتسم، أو أنك تداعبه فيضحك. وهو يسرّ بالإنسان الضحوك، أو الذي يقص عليه قصصاً تضحكه.

★★ الطفل أيضاً له خيال واسع، يستطيع أن يؤلِّف به قصصاً، ويتصوَّر أخباراً لم تحدث، ويصدّقها ويرويها. فلا تقل عن خياله إنه يكذب. فهو لا يقصد الكذب، وإنما يروي خياله كأنه حقيقة. ويمكنك أن تسرح معه وترى نهاية قصصه، أو تصحح مسارها في الطريق، وسيقبل منك التصحيح. ويعتبرك شريكاً معه في تأليف القصة، أو شاهداً معه على وقوع أحداثها!!

★★ الطفل في مرحلة الحضانة وما يليها مُغرم بالتقليد. فهو يُقلِّد الحركات: حركة اليدين والرأس وطريقة المشي وحركات الملامح أيضاً. وكذلك يُقلِّد طريقة الصوت والألفاظ. ويحاول أن يمتص الشخصيات التي أمامه ويحاكيها ...

فإن وجدت الأم أن طفلها يلفظ بلفظة غريبة، أو يأتي بحركة غريبة، فلتعلم أنه لا بد قد التقطها من غيره: من أحد أفراد الأسرة، أو من الجيران أو الضيوف، أو من التليفزيون.

وهنا لا بد من المحافظة على سلامة بيئة الطفل بقدر الإمكان. وأيضاً فليحترس الوالدان من جهة أسلوبهما حينما يختلفان أمام الأطفال. فإمَّا أن يلتقط الأطفال أخطاءهما ويقلدوها، أو تسقط في نظرهما مثاليات الكبار!

وقد يتحدَّث الكبار أمام الصغار بغير احتراس ظانين أنهم لا يفهمون! بينما يدرك الأطفال ما يحدث. وإن كانوا لا يفهمون كل الكلام، فعلى الأقل سيفهمون ما توحي به الملامح والأصوات والحركات. يكفي المنظر!

وما دام الطفل يحاكي ويُقلِّد، فإن كان أبواه متدينين سيلتقط منهما تدينه، والعكس صحيح. ومن هنا نقول: إنَّ الزواج ليس مُجرَّد علاقة بين زوجين، إنما هو مسؤولية عن جيل جديد.

★★ هناك أشياء أخرى كثيرة تُقال عن الطفل لم يتسع لها هذا المقال. ولكني أحب أن أقول لك أخيراً: إنك إن أحببت الطفل يمكنك أن تقوده. فالطفل يتبع مَن يحبه، ويكون مستعداً أن يطيعه لأنه يطمئن إليه. وعلى عكس ذلك ينفر ممَّن لا يشعر بمحبته، وقد يعانده.

١٦ ديسمبر ٢٠٠٧

وأيضاً كيف نعامل الأطفال

في المقال السابق تحدَّثنا عن بعض صفات وخصائص مرحلة الطفولة المُبكِّرة، وكيف أن الطفل يستخدم الحواس أكثر من العقل، مع ميله إلى البشاشة والضحك، ومحبته للحركة واللعب ولزومهما له. وكيف أنه يتصف بالخيال الواسع والشغف بالحكايات وتقليد الآخرين. وإطاعة مَن يحبه ومَن يطمئن هو إليه.

وهنا أذكر قصة مشهورة عن رجل زمَّار دخل إحدى القرى، وأخذ يُزمِّر فاستهوى الأطفال الذين أُعجِبُوا به، فالتفُّوا حوله. وصار ينتقل من حارة إلى أخرى، والأطفال وراءه ومجموعات منهم تنضم إليه، وهم في غاية المتعة والسرور، منقادين إلى زمارته، حتى خرج بهم جميعاً إلى خارج القرية. وهكذا نرى كيف ينساق الأطفال وراء مَن يجذبهم أو مَن يُعجَبون به، أو مَن يجلب لهم المتعة. كما أنهم يحبون مَن يلاعبهم، ومَن يناغيهم ومَن يُسلِّيهم.

★★ وإذا لاعبت الأطفال، أو مدحت أحداً منهم، فاحترس من الغيرة. فالطفل يُغار جداً إذا نال طفل غيره مديحاً منك أو حُبَّاً لم ينله هو. أو إذا لاعبت غيره وأهملته هو. أو أعطيت غيره ولم تعطه ... قد يتضايق منك لأنك غير عادل في توزيع حنانك ...! والخطر من هذا، أنه قد ينتقم من الطفل الآخر، فيضربه أو يخطف منه شيئاً، ولو في وقت لاحق ...

إذن حاول مع الأطفال أن تكون عادلاً، وأن تعاملهم بمساواة. ولا تجعلهم يكرهون بعضهم بعضاً بسببك. ولا تترك طفلين يتشاجران على لعبة واحدة ...

★★ الطفل أيضاً يشعر أن من حقه أن يأخذ كل شيء. ولا يقبل في ذهنه أن شيئاً ما هو مِلك للأب أو الأم أو أحد الإخوة أو الضيوف ... بل يأخذه بلا مانع ولا عائق. وإذا أردت استرداده منه، يبكي ويصرخ ويحتج ... كأنك أنت المُخطئ في الاسترداد، وليس هو المُخطئ في الأخذ!!

فلا تتهمه بأنه لص أو حرامي. فهذه كلمات جديدة عليه، لا توجد في قاموسه، لا يعقلها ولا يقبلها. وكأنك تُعلِّمه شتائم يمكن أن يستخدمها بغير معرفة مع غيره ... وأيضاً لا تنتهره ولا تضربه ولا تكن قاسياً عليه، إذا أخذ شيئاً ليس له. وإنما يمكنك في هذه الحالة، إخفاء الأشياء الهامة التي تخشى أن يأخذها أو يتلفها ... أو يمكن أن تشغله بشيء آخر، فيترك ما في يده، ويأخذ ذلك الشيء وبخاصة لو كان البديل مغرياً له: لعبة جميلة مثلاً، أو شيئاً يحدث صوتاً يجذبه. وسترى أنه سينسى ما كان معه أولاً.

★★ الطفل إنسان صغير، داخل إلى مجتمع جديد لا يعرف كيف سيتعامل معه، ومَن هو موضع ثقة يطمئن إليه. وهو يثق بك إذا كنت صادقاً معه، سواء في المعلومات التي تقولها له، أو المواعيد التي تعده بها. فحذار أن تكذب. فالطفل عنده الصراحة الكافية التي يقول لك بها إنك تكذب (إن كان يعرف هذه اللفظة) أو يقول لك: "إنت بتضحك عليَّ". أو على الأقل لا يعود يثق بك فيما بعد فيما تقوله. وتكون بذلك قد أدخلت الشك إلى قلبه! وأفقدته شيئاً من بساطته التي تميل إلى تصديق الغير. ويدخل في هذا المجال، إذا خدعته بحيلة مُعيَّنة لتمنعه عمَّا يريد، واكتشف أنك خدعته!

★★ الطفل أيضاً يفرح بالألوان وتنوعها. تعجبه الفراشات في تعدُّد ألوانها، وكذلك السمك الملوَّن. وربَّما توجد ألوان مُعيَّنة تجذبه. وهو في ملابسه، قد لا يهمه نوع القماش أو غلو ثمنه، إنما يهمه بالأكثر اللون الذي يحبه.

وأنا حينما أوزِّع الشيكولاتة على الأطفال، أحرص على أن أعطيهم من شتَّى الألوان التي تغلِّفها مع أنها كلها من صنف واحد. فأقول للطفل: "آدي الأخضرة، وآدي الأصفرة، وآدي الأزرقة". فيفرح الطفل بهذا وربَّما يقول: "أنا عايز كمان من الأحمرة". إنه يهتم باللون، أمَّا النوع فيُميِّزه فيما بعد.

ولذلك فمن تسليات الطفل عملية التلوين.

★★ الطفل في هذا السن يحب مَن يمدحه. فلا تقل أنا أخشى عليه من الكبرياء وأريد أن أُعلِّمه التواضع!! كلا، فإنَّ هذا لا يناسب الطفل إطلاقاً. بل بالمديح يطمئن الطفل على سلامة تصرفاته.

في السن الناضجة يمكن تمييز الخير من الشر عن طريق العقل والتعليم. أمَّا الطفل فيعرف أن هذا خير حينما يمدحونه بسبب، وإن ذاك خطأ أو شر حينما يمنعونه عنه. كما أن المديح يُقدِّم له نوعاً من الإيحاء:

فإن قالت الأم: "ربنا يحب العيال الحلوين اللي بيحبوا إخوتهم الصغيرين ويلعبوا معَاهم" تجد طفلها يرد عليها: "أنا يا ماما بحب أختي الصغيرة وبالعب معاها". هذه نتيجة المديح. فماذا عن التوبيخ؟

★★ إن كان التوبيخ شتيمة، فإن الطفل يسمعها منك ويقولها لغيره. وتكون قد أضفت إلى قاموسه كلمة رديئة!

إن التعامل مع الطفولة يُعلِّمنا نحن الكبار كيف نختار الألفاظ المهذبة. حتى لا نقول كلمة رديئة يتعلَّمها أطفالنا منا. وهذه بلا شك مسؤولية الأبوين ومسؤولية الأقارب، وكذلك كل مَن يعمل في مجال الحضانة ... احترس إذن من ألفاظ الذم...

★★ احترس أيضاً من أسلوب التخويف والتهديد والعقوبات وبخاصة في علاقة الطفل باللَّه. لا تقل له باستمرار: "إن فعلت هذا ربنا يزعل منك ولا يحبك" وأسوأ من هذا "هايوديك النار". لا تجعل صورة اللَّه مخيفة للطفل، وأنه واقف له ليراقبه ويعاقبه، وأن اللَّه باستمرار ضد حريته ورغباته!

هنا وأتذكَّر قصة عاصرتها منذ أكثر من ستين عاماً، قبل رهبنتي: كان لنا جار مريض وعلى فراش الموت. وكان له ابن طفل، فأبعدوه عند بعض أقاربه حتى لا يرى أباه في ساعة موته. ثم مات الأب والطفل لا يعلم. ورجع الطفل بعد أسبوعين إلى بيته، وسأل عن أبيه أين هو؟ فقالوا له: "ربنا أخذه". فظل الطفل غضبان من اللَّه مدة طويلة. كيف يأخذ أباه منه الذي يحبه! لقد عرضوا الأمر بطريقة غير موفقة. كان يمكنهم أن يقولوا للطفل: "بابا راح السما".

★★ من المفيد والمناسب أن تشارك الطفل في اهتماماته.

وبهذه المناسبة أذكر أنه في أحد الأيام زارتني أم ومعها طفلها فأرادت أن تظهر لي نجابة ابنها ومحفوظاته. فقالت له: "قل للبابا الترتيلة الفلانية التي تحفظها. قل كذا ...".

أمَّا الطفل فنظر إليَّ في براءة وفرح وقال: "شايف الجزمة الجديدة الحمـرة بتـاعتي"... كان الطفل سعيداً جداً بحذائه الأحمر الجديد، وأفكاره مُركَّزة فيه، ويريـد مـن الكـل أن يشاركوه فرحه. والأم مشغولة بالترتيلة!

ومن ذلك الحين، صرت كُلَّما أرى طفلاً، أمتدح أولاً ملابسه الجميلة، وما عليها مـن أشكال ورسوم. وإن كانت بنتاً، أمتدح الحلق الذي تلبسه، أو الفيونكا التي فـي شـعرها، أو اللعبة التي في يديها... وبعد إشباع الأطفال بهـذا المـديح والرضـى، نـدخل فـي المحفوظات لو اتسع المجال.

★★ أكتفي بهذا الآن، وإن كان الموضوع أطول ممَّا قلناه بكثير.



٢٣ ديسمبر ٢٠٠٧

الحُب
ما هو؟ وأنواعه

سألني البعض: هل يمكن أن تُحدثنا أو تكتب لنا عن الحُب؟ أم أنك - كرَجُل دين - تتحرج من الخوض في مثل هذه الموضوعات؟ فقلت: كلا، ليس هناك من حرج. فليست الحساسية في الموضوع الذي يتكلَّم فيه رَجُل الدين، إنما المُهم في الأسلوب الذي يتكلَّم به، وطريقة معالجة الموضوع بحيث تحتفظ بوقارها...

★★ والحُب على أنواع: أهمها المحبة التي تربط بين الإنسان وخالقه. فاللَّه - تبارك اسمه - بسبب محبته لنا، يتولانا بالرعاية والعناية، ويغدق علينا من كرمه وعطائه. ونحن نحب اللَّه من أعماق قلوبنا. وتظهر محبتنا له في إيماننا به، وفي طاعتنا لوصاياه، وبأن نحيا حياة الفضيلة والبِرّ التي ترضيه.

★★ وكما نحب الخير، نحب الغير: نحب الناس جميعاً، لا بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق. نخلص لهم، ونعمل على إسعادهم بقدر طاقتنا. وفي مقدمة هؤلاء: الأهل والأقارب والأصدقاء، وكل مَن يسمح اللَّه بأن يوجدوا في طريقنا لكي نعمل معهم خيراً...

★★ ومن الحُب السامي أيضاً حُب الوطن، وهو غريزة في الإنسان بحيث يحب بلده وشعبه بالمعنى الواسع، كما يحب قريته أو الحيِّ الذي وُلِدَ فيه، أو الذي له فيه ذكريات...

★★ أنتقل من هذا كله، إلى النوع الذي يظن البعض أن الحديث عنه لا يخلو من الحرج، وهو الحُب الذي بين فتى وفتاة، أو بين رجل وامرأة. والشباب قد يسأل عن هذا الموضوع في شيء من الحياء كأنه يعبر خطاً أحمر!!

★★ هنا وأتذكَّر سؤالاً قدَّمته لي صحفية مشهورة منذ حوالي ٣٥ عاماً. حيث قالت لي: "ما الفرق بين الحُب والشهوة؟".

وكانت إجابتي: "الحب يريد دائماً أن يُعطي، والشهوة تريد دائماً أن تأخذ". الشهوة تريد أن تُشبع ذاتها، ومن النادر أن تشبع. فهي تريد باستمرار، وقد يكون الطرف الآخر ضحيتها. وليس هذا هو الحب بمعناه الحقيقي ...

★★ فالذي يحب فتاة لا يُضيِّع سُمعتها بكثرة لقاءاته معها. ولا يشغل فكرها بحيث تفشل في دراستها أو في عملها. والأهم من هذا كله أنه لا يضيع عفَّتها، ويلقيها إلى مستقبل مُظلم! فإن كان يحبها لكي يتزوجها، فليحفظها نقية وسليمة إلى حين يتم الزواج... فالذي يحب فتاة حُبَّاً حقيقياً، يحرص عليها كما يحرص على أخته ويُقدِّم لها كل معونة، في إخلاص لها، ويحميها من نفسه ومن نفسها ضد أي انحراف يطرأ على علاقتهما...

★★ كذلك فلنفرق بين الحب العاطفي Emotional والحُب الجنسي Sexual. فالحُب العاطفي لا خطر منه. ويمكن للشباب من الجنسين أن يحبوا بعضهم بعضاً، إن كان حُبَّاً طاهراً في نطاق الحياة الجامعية أو الزمالة في العمل، طالما يكون مُجرَّد مشاعر بريئة لا علاقة له بالجسد وغرائزه...

أمَّا الحُب الجنسي، فله خطورته وانحرافاته. وقد سمح به اللَّه في محيط الزواج. وبه يتم إنجاب البنين واستمرارية الجنس البشري. وفي غير الزواج لا يُسمح به...

فإن وجد شخص أن مشاعره نحو فتاة قد انحرفت إلى الجنس Sex، بينما لا تربطه بها علاقة شرعية، فليشعر أن هناك خطيئة تسعى إليه أو يسعى هو إليها. وينبغي أن يضبط نفسه ومشاعره، ويُنقِّي نفسه من الداخل.

★★ قرأت مرَّة لأحد الكُتَّاب أنه عرض لموضوع الحب فقال: "إن الحب هو أكثر العواطف أنانية"!! ولعله يقصد أن رَجُلاً يحب امرأة، فيهمّه أنها لا تحب أحداً غيره. كذلك فإنَّ امرأة تحب رَجُلاً، فلا تقبل أبداً أن يحب امرأة غيرها... ومن هذيْن المِثَالَيْن، واضح أنَّ هذا الحُب يرتبط بالغيرة.

ومثل هذه الغيرة تحمل في داخلها أمرين هما: عدم الثقة بالنفس، ومعها الشك في الطرف الآخر أن تكون له علاقة آثمة مع طرف ثالث. ولكن المرأة الواثقة بأنوثتها، وبقوة جاذبيتها، وبشدة تأثيرها على الرَّجُل، لا تجد سبباً يجعلها تغار من امرأة أخرى، بل لا تحسب أن هناك امرأة أخرى تنافسها. وكذلك الرجُل الواثق من محبة امرأته له، والذي لا يشك أبداً في إخلاصها له...

★★ موضوع آخَر في الحُب، وهو مدى العلاقة بين الشابات والشبان الزملاء في الجامعة. وأنا دائماً أقول إن الطالبة التي تتحدث مع كل زملائها بروح جامعية، وفي أدب وحشمة، لا يشك فيها أحد، لأنه من غير المعقول ومن غير الممكن أن تكون في علاقة خاطئة مع الكل. وبنفس الوضع الطالب الذي يتحدث مع كل الفتيات والزميلات بالروح الجامعية المعروفة...

إنما تبدأ الشكوك تحوم في حالات التخصص. أي عندما تخصص فتاة في الحديث مع شاب مُعيَّن بالذات من زملائها، وتذاكر معه، وتتبادل معه كراسات المحاضرات، وتلتقي به دون غيره. هنا تبدأ الألسنة والشائعات، وتصبح سُمعتها وسُمعته داخل علامة استفهام!

★★ وهنا قد يسأل البعض: "ألا يكون الحب بين زميل وزميلة في الجامعة مقدمة لزواجهما؟". وفي الإجابة على هذا السؤال نقول:

إنه يندر زواج اثنين في نفس العمر، فغالباً ما يكون الزوج أكبر سنوات من الزوجة. ثم أنَّ الطالب سوف لا يتزوج إلاَّ بعد التخرُّج، وبعد أن يقضي فترة الخدمة العسكرية. ثم ينتهي منها ليجد وظيفة أو عملاً يدر عليه رزقاً (إن كان ذلك ممكناً) بحيث يمكنه أن يجد مسكناً خاصاً، ويكون له مال يتقدَّم به للزواج ... وكل ذلك يستغرق سنوات. فهل ستبقى زميلته منتظرة له طول هذه المدة؟ وهل سيبقى الحب بينهما قائماً كما هو؟! على الرغم من انقطاع الزمالة الدراسية التي كانت تسمح بالتلاقي كل يوم تقريباً، وعلى الرغم من اختلاف ظروف الحياة. لذلك فموضوع الزواج بين زميل وزميلة في الجامعة، يحتاج إلى رؤية ومزيد من العُمق والتفكير...

★★ وفي مجال الحُب، هناك نصيحة أقولها لكل فتاة: ضعي ضوابط لمشاعركِ وعواطفكِ. ولا تُفرِّطي أبداً في نفسكِ. فغالباً ما لا يقبل أي شاب أن يتزوج من فتاة فرَّطت في نفسها معه. وقد تحوطه الشكوك بأنه إن تزوجها قد تُفرِّط في نفسها مع غيره، ما دامت هى سهلة بهذا الوضع...!

كوني حافظة لنفسكِ كل الحفظ. واعرفي أن المحجوب مرغوب. ومن الناحية الأخرى يقول المَثَل: "إذا كثُرَ العرض، قلّ الطلب". فاحفظي هذيْن المَثَلَيْن. وكوني حكيمة

جداً في علاقاتكِ. واعلمي أن العاطفة إذا لم ترتبط بالحكمة، تتحوّل إلى طياشة ونزوة. وربَّما إلى ضياع...

★★ أخيراً: أقول للشباب: لتكن قلوبكم وأذهانكم عامرة بما يشغلها من مشاعر روحية وأفكار عميقة خاصة بمستقبلكم. ولا تتركوا فرصة لأي فكر جنسي أن يدخل ويُعشِّش داخلكم. وأقول للفتاة: احتفظي دائماً بحيائكِ، فإن الحياء زينة للمرأة.



٣٠ ديسمبر ٢٠٠٧

البطالـة
نتائجـها، وعلاجها

إن مشكلة البطالة هى من أخطر المشاكل التي تُعاني منها بلادنا، ويُقاسي بسببها شبابنا. إذ يبذل الشاب قصارى جهده في الدراسة، بما تحمل من تعب ومن نفقات مالية. ثم يجد نفسه بعد التخرُّج عاطلاً لا عمل له، ولا يزال يعتمد في مصروفاته الخاصة على والديه!! فيُصاب بالإحباط، وتتعب نفسيته ونفسية أسرته معه...

★★ ونتيجة لهذه البطالة يتأخَّر سن الزواج بالنسبة إلى الشباب. فكيف يتزوج إنسان ليس له إيراد أو مصدر رزق ينفق منه على أسرة؟! كيف يقتني له سكناً وما يحتاجه المسكن من مفروشات؟! وكيف يدفع نفقات الزواج؟!... وإن كان الشاب يمكنه أن يحتمل التأخُر في سن زواجه، فإنَّ الفتاة إن تأخَّر بها السن وكبرت، يقل الإقبال عليها...

★★ وبتأخُر سن الزواج، يتعرَّض المجتمع إلى مشكلة أخرى أشد خطورة، وهى الفساد الخلقي. وهذا ما رأيناه قد انتشر بشكل مُقلق. وأحياناً يحاول الفساد الخلقي أن يتخفى وراء مُسميات زائفة مثل الزواج العُرفي وهو لون من الزنى، في علاقات بغير بيت، ولا صلة شرعية، ولا مسؤولية عمَّا قد ينتجه من نسل أو من عمليات إجهاض ... إلى جوار أنواع أخرى من مُسمَّيات الزواج لتغطية ذلك الضياع...

★★ ومن نتائج البطالة أيضاً وما تحمل من إحباط، لجوء بعض الشباب إلى المخدرات بأنواعها، أو إلى وسائل من اللَّهو الرخيص، هروباً أو محاولات هروب، ممَّا هم فيه من ضيق ... وفي نفس الوقت - إذ لا يجدون المال الذي يلزم للإنفاق على المخدرات واللَّهو، يلجأون إلى أساليب خاطئة في الحصول على هذا المال...

★★ وطبعاً قد يصحب كل هذا، شعور من السخط على المجتمع وعلى الدولة التي تتركهم في هذا الضياع بلا حلول! هذا السخط قد يكون على الأقل عند بعض من الشباب...

★★ وهذا كله قد تستغله بعض الهيئات التي تقف ضد الدولة والنظام الحاكم، لكي تثير المشاعر، وتحاول جاهدة أن تعبّئ نفوس الشباب في اتجاه مُعارض...

★★ ولعله من نتائج البطالة أيضاً تفكير كثير من الشباب في الهجرة بحثاً وراء الرزق، دون أن يدرسوا ما ينتظرهم من تلك الهجرة. وأمام هذا التفكير ظهر بعض سماسرة الهجرة غير الشرعية، الذين قادوا الشباب في رحلات غير مضمونة، كان من نتائجها غرق الكثيرين دون أن يصلوا إلى غايتهم. وتعرّض بعض الشباب إلى عمليات نصب بِاسم الهجرة!

★★ وربَّما بسبب البطالة، قد ظهر سؤال على لسان الكثيرين: هل التعليم هو لمُجرَّد الثقافة فقط، ولا علاقة له بمصادر الرزق؟! وهل الثقافة وحدها تكفي بدون رزق؟! وإن كان لا بد عملياً من ارتباط الأمرين معاً، فكيف يمكن تفعيل الثقافة لتكون أيضاً مصدراً للرزق كما هى مصدر للمعرفة؟

★★ أمَّا عن علاج مشكلة البطالة، فإنه يلزم لذلك مؤتمر أو اجتماع يضم كافة التخصصات من رجال الدولة، ورجال العِلم والاجتماع والاقتصاد والعمل، ومن كبار المفكرين لكي يدرسوا كيف يمكن أن يوجدوا عملاً لملايين العاطلين؟ وما هى المشروعات النافعة؟ وماذا تكون مصادر التمويل؟

★★ أمَّا نحن فنُقدِّم بعض اقتراحات لتكون موضع دراسة:

أوّلها أهمية التدريب المهني في مناهج التعليم الصناعي الثانوي وفي الكليات الجامعية التي لها علاقة بالصناعة والعمل. على أن يكون التدريب لمهن يحتاج إليها المجتمع، وتكون لصناعات يحتاج إليها السوق. ذلك لأنَّ مُجرَّد التعليم النظري لا يكفي...

ونلاحظ أن بعض الشركات والمصانع تقوم أحياناً بتدريب أشخاص ليتولوا العمل مباشرة في تلك المصانع عند استكمال تدريبهم.

★★ نقترح أيضاً أن تهتم الدولة بإيجاد مشروعات صغيرة للشباب تموّلها الدولة، بحيث لا تمنحهم المال لذلك، إنَّما تُقدِّم لهم المعدات والآلات وتُدرِّبهم على استخدامها. على أن تكون تلك المشروعات الصغيرة لازمة للمجتمع، وإنتاجها يجد تسويقاً متاحاً. وهذا الأمر يلزمه دراسة السوق، وإنتاج ما يلزم السوق...

★★ تعويد شبابنا أن يعملوا ليجدوا رزقاً. ولا يشتهون الوظائف الجاهزة والجلوس على المكاتب. وإقناعهم بأن رجال الأعمال يحصلون على رزق أوفـر مـن المـوظفين محدودي الدخل.

★★ كذلك يلزم أيضاً أن تكوِّن الدولة علاقات مع البلاد المحتاجة إلى عمالة. بحيث تتفق معهم على تقديم ما يحتاجون إليه من عمال يتم إعدادهم لهم ليقوموا بالغرض الـذي سيقومون به هناك...

★★ وهنا تحتاج بلادنا إلى إعداد العمال المـؤهلين لعصـر قـد انتشـرت فيـه التكنولوچيا والآلات الحديثة. ومثل هؤلاء العمال هم الذين يمكنهم العمل مع المسـتثمرين الذين يحضرون إلى بلادنا، كما يمكنهم أيضاً السفر للعمل في الخارج.

★★ نقترح أيضاً تكوين مجموعات كبيرة للعمل في مجال الأسماك التي توجد بكثرة وراء السدّ العالي، من جهة صيدها وإرسالها في ثلاجات - عبـر النيـل - إلـى بـاقي المحافظات، أو تعليبها لكي تُصدَّر إلى الخارج، مع ما تحتاجه عمليات التعليب من عمالة، وهذا طبعاً يناسبه أن نعوِّد شبابنا على عدم التمركز حول المدن والعواصم، ولا مانع من السفر إلى أماكن بعيدة كالسدّ العالي.

★★ محاولة إيجاد عمل لأطفال الشوارع، إنقاذاً لهم من الضياع، واستفادة بهم فـي ما يناسبهم من عمل.

كذلك يمكن إيجاد أعمال لسكان الريف وللمرأة الريفية، مثل المناحل، وتربية الدواجن والأغنام والبهائم، وكافة أنواع الأغذية وصناعات الألبان، والتدبير المنزلي، وعرض كل ذلك أيضاً لتسويقه. مع تزويد النساء ببعض ماكينات الخياطة لصناعة مـا يلـزمهم مـن ملابس وما يلزم غيرهم...

★★ أحب في موضوع البطالة أن نأخذ مثالاً من دولة الصين التي يزيد عدد سكانها عن المليار. وعلى الرغم من ذلك، فإنها تجد عملاً لكل أولئك، كما تجد تسويقاً لإنتـاجهم. وبالإضافة إلى تشغيل هذا العدد الضخم، تتمتع البلاد بنهضة صناعية.

★★ وأخيراً فإن موضوع البطالة يتعلَّق أيضاً بالزيادة الهائلة في النسل عاماً بعـد عام. ولا شك أن الانضباط في موضوع النسل سيحل كثيراً من مشكلة البطالة.

وللموضوع بقية.

٦ يناير ٢٠٠٨

في بدء عام جديد

أهنئكم يا إخوتي وأبنائي ببدء عام جديد، نرجو أن يكون عاماً سعيداً في حياة كل فرد منَّا، وأن يكون كذلك بالنسبة إلى بلادنا العزيزة، وإلى العالم كله وبخاصة المناطق المتوترة والملتهبة فيه.

★★ وطريقة كنائسنا في استقبال عام جديد، هى استقباله بليلة صلاة كاملة. على أن تُطفأ الأنوار قبل نصف الليل بدقيقة تقريباً، وذلك لإعطاء كل الحاضرين فرصة يُصلِّي فيها كل فرد في قلبه صلاة خاصة من أجل نفسه ومُحبيه، ومن أجل وطنه أيضاً، وما يشاء من طلبات. ثم تُضاء الأنوار ويعود الجميع إلى الصلاة العامة. ونقصد من هذا أن يكون اللّه هو أوّل مَن نتحدَّث إليه في العام الجديد، أفراداً أو مجتمعاً. ثم يصير هذا منهجاً يومياً في أن يكون اللَّه أوّل مَن نتحدَّث إليه، واضعين اللّه في البدء باستمرار.

★★ والمُهم في العام الجديد، أن يكون جديداً في أسلوب حياتنا، وليس في مُجرَّد التقويم بأن نستخدم رقم ٢٠٠٨ بدلاً من ٢٠٠٧ ... بحيث نشعر فيه أن حياتنا قد تغيَّرت إلى الأفضل، سواء الظاهر منها في معاملاتنا، أو ما يخص قلوبنا وأفكارنا... فهل تشعر فعلاً أيها القارئ العزيز بهذه الجدة في حياتك، وأنك من بداية العام الجديد قد قُمت بتصحيح بعض نقاط في تصرفاتك، كان يلزمها أن تتغيَّر... أم أنت كما أنت؟!

★★ أوّل واجب علينا في عامنا الجديد، أن نشكر اللَّه من عُمق قلوبنا على كل ما فعله معنا من خير في العام الماضي سواء نحن أو مَن نحبهم.. ذلك لأنه - كما يقول أحد الآباء - "لا توجد عطية بلا زيادة، إلاَّ التي بلا شُكر"... وقد قال داود النبي في أحد مزاميره: "سبِّحي يا نفسي الرب، ولا تنسي كل إحساناته". ولا شكَّ أن إحسانات الرب إلينا كثيرة جداً...

★★ يحتاج الإنسان أيضاً في بداية العام الجديد، أن يجلس جلسة صريحة مع نفسه، لا يُجامل فيها ذاته، إنما يفحص حياته بكل دقة، ويرى كيف يسير، وإلى أي مصير؟

وهل توجد له ضعفات مُعيَّنة، أو أمور يلومه البعض عليها؟ وهل أفكاره كلها نقية؟ وهل مشاعر قلبه كلها طاهرة؟ وهل تصرفاته بلا عيب، وكذلك كل علاقاته؟

★★ عليه أيضاً في هذه الجلسة أن يبحث ما هي علاقته باللَّه تبارك اسمه؟ وهل هي عبادة شكلية روتينية يهتم فيها بالمظهر فقط، أي يعبد اللَّه بشفتيه أمَّا قلبه فمُبتعد عنه بعيداً؟! وهل هو أمين في جميع واجباته الدينية؟ وهل هو يُنفِّذ جميع وصايا اللَّه؟ وإن لم يكن، فما هي مواضع تقصيره؟

★★ وفي هذه الجلسة أيضاً، عليه أن يبحث علاقته مع بعض الفضائل الرئيسية مثل نقاوة القلب ونقاوة الفكر، ومثل الوداعة والهدوء، وفضيلة العطاء، وفضيلة العفة، ونزاهة الكلمة وصدقها، ومدى أمانته في عمله، واستقامته في أساليبه، ومدى علاقته بحياة الدقة والجدِّية، وما إلى ذلك من الفضائل...

★★ إن كشف النفس فضيلة كبرى، ولوم النفس على أخطائها فضيلة أخرى. وما أصدق وأعمق قول ذلك الأب الروحي: "احكُم يا أخي على نفسك قبل أن يحكموا عليك".

★★ على أن كشف النفس ولوم النفس، ينبغي أن يصحبهما أيضاً تقويم النفس، أي إصلاحها. والإنسان قد لا يقبل أحياناً توبيخ الآخرين له، ولكنه يقبل ذلك عن نفسه. ولوم الآخرين له قد لا يكون عن معرفة دقيقة بحقيقته. ولكن لومه لنفسه يكون عن معرفة تامة لنفسه. كما أن كشف الآخرين لأخطائه، قد يحرجه أمام الغير، أمَّا كشفه لنفسه فلا إحراج فيه. وهو كذلك يقبل التوجيه من ضميره أكثر مما يقبله من أي إنسان.

★★ لذلك اهتم أيها القارئ العزيز بنفسك ومصيرها في العالم الآخر، وكذلك سُمعتها في العالم الحاضر. فأنت تملك نفساً واحدة، إن خسرتها خسرت كل شيء، وإن ربحتها ربحت كل شيء. وقد قال السيد المسيح في عبارة خالدة: "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟!"...

★★ وأنت في فحصك لنفسك، وفي كشفك لأخطائك وتقصيراتك ونقائصك، احذر كل الحذر من تغطية كل ذلك بتبريرات وأعذار لا تستطيع مُطلقاً أن تريح الضمير، وليست مقبولة عند اللَّه وقد صدق ذلك الإنسان الروحي الذي قال: "إن طريق جهنم مغروس بالأعذار والتبريرات"!! والواقع أنَّ الأعذار والتبريرات، إنما هدفها أن يلمّع الإنسان نفسه أمام الغير، بينما هو مكشوف أمام اللَّه كما أنَّ الهدف أيضاً هو تغطية الخطية وليس إصلاح النَّفس!

★★ وإذ تعرف أيها القارئ العزيز حقيقة نفسك في بدء العام الجديد، حاول إذن أن تضع لك خطة للعام الجديد تشمل علاقتك مع اللّه والناس ونفسك، بحيث تقودك إلى حياة أفضل. على أن تكون خطة عملية وسهلة التنفيذ. ولا مانع من أن يكون فيها عنصر التدرّج الذي به تصعد السلّم الروحي درجة درجة، وتصل إلى ما يمكن لنفسك أن تصل إليه، ولو بعد حين...

★★ وفي كل ذلك تطلب المعونة الإلهية. لأنك بدون معونة اللّه لا يمكنك أن تفعل شيئاً. فقد جرَّبت ضعف البشرية ومازلت تُجرِّب. إذن افتح قلبك أمام اللّه، وقُل له بكل صدق وإخلاص: "ها هى نفسي أمامك يارب، بكل نقائصها وضعفاتها، تطلب إليك أن تتولَّى أنت قيادتها. تتولَّى قيادة قلبي وفكري وحواسي وإرادتي. إنني لك أنت الذي أوجدتني. فلا تترك الشيطان يخطفني من يدك"...

★★ وبعد هذه الصلاة، اجلس أيضاً وادرس العوائق التي وقفت أمامك في الماضي، تعطلك في طريق الفضيلة، وتوقف نموك الروحي. واطلب من الرب قوة لاجتياز كل تلك العوائق. ومن جانبك حاول أن تسد جميع الأبواب التي تأتي إليك منها الخطيئة ... وضع لنفسك قيماً مُعيَّنة تلتزم بها مهما كانت الظروف الخارجية.

★★ وكما تضع خطة لحياتك الخاصة، ضع لك أيضاً نموذجاً لعلاقتك مع الآخرين، وكيف تسودها المودة والتعاون والبُعد عن كل أنواع التصادم. وعلى قدر طاقتك سالم جميع الناس. البعض منهم تمنحه من عطائك، والبعض تحتمله في رقتك، والبعض تتحاشى غضبه. وكل هؤلاء تُصلِّي من أجلهم: أن يحفظهم الرب بسلامه، وأن يحفظك من أذية أي أحد منهم.

★★ لا تنسَ في بداية العام الجديد أن تُصلِّي من أجل وطننا العزيز وسلامة كل فرد فيه، وأن يُنجِّيه اللّه من مشكلة البطالة، ومشكلة ارتفاع الأسعار فوق قدرة الدخل. وكذلك أن يُنقِّيه اللّه من كل مواضع الخلل حيثما وُجِدت، ويحفظه في سلام، ويمنح قادته باستمرار الحكمة وحُسن التدبير.

كما تُصلِّي أيضاً من أجل العالم كله، وبخاصة المناطق الملتهبة التي تكثر حوادثها وتتعدَّد ضحاياها. ليكن الرب معهم ومعنا. وليكن هذا العام مُباركاً وسعيداً...

٧ يناير ٢٠٠٨

مقال عيد الميلاد

جاء المسيح ينشر الحب

يسرني أن أهنئكم يا إخوتي وأبنائي جميعاً بعيد ميلاد السيد المسيح له المجد، وببدء عام جديد، جعله اللّه عاماً سعيداً، لكم ولبلادنا العزيزة، ولهذا الشرق المُبارك الذي وُلِدَ فيه المسيح، وبثَّ فيه تعاليمه، وللعالم كله...

★★ لقد جاء المسيح ينشر الحُب. حيثما كان يتحرَّك، كان الحُب يتحرَّك. وأينما كان يقيم، كان الحُب يقيم. عرفه الجميع مُحبَّاً، ومُحبَّاً للجميع...

وكان يقول لتلاميذه: "**وصيةً جديدةً أنا أُعطيكم: أن تُحبُّوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم ... بهذا يَعرفُ الجميع أنكم تلاميذي: إن كان لكم حُبٌّ بعضاً لِبَعضٍ**" (يو ١٣ : ٣٤، ٣٥) تُرى لماذا اعتبر هذا الحب وصية جديدة؟ أليس لأنه يطلب لهم حُبّاً من نوع خاص له عمقه. إنه الحُب الباذل، مثل حُبه هو الذي قال عنه: "**ليس لأحدٍ حُبٌّ أعظم من هذا: أنْ يَضعَ أحدٌ نفسَهُ لأجل أحِبَّائهِ**" (يو ١٥ : ١٣). وهكذا قيل عن محبته لتلاميذه: "**إذ كان قد أحَبَّ خاصَّتَهُ الذين في العالم، أحَبَّهُم إلى المُنتهى**" (يو ١٣ : ١). وعبارة "حتى المنتهى" هنا، تعني أنها محبة بلا حدود...

★★ ولم يكن الحُب لتلاميذه فقط، بل هى وصية للعالم كله... فلمَّا سألوه: ما هى الوصية العُظمى في الناموس (أي الشريعة)؟ أجاب: "**تُحِبُّ الربَّ إلهَكَ من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك. هذه هى الوصية الأولى والعُظمى. والثانية مثلها: تُحِبُّ قريبك كنفسِكَ. بهاتين الوصيَّتين يتعلَّقُ الناموس كله والأنبياء**" (مت ٢٢ : ٣٤ - ٤٠)... وكلمة (قريبك) هنا، تعني جميع البشر. لأننا كلنا أقرباء: أبناء أب واحد هو آدم، وأم واحدة هى حواء...

وطبيعي إن كان كل منا يحب جميع الناس، فلن يسرق أحداً، ولا يقتل أحداً، ولا يسيء إلى أحد، ولا يُدنِّس عفة أحد.

وإن كان يحب اللّه، فلن يعصاه في شيء، ولا يكسر شيء من وصاياه. وبهذا يكون كلام السيد المسيح عن محبة اللّه والقريب قد شمل كل نصوص الشريعة وكل وصايا الأنبياء.

★★ والمحبة التي نشرها السيد المسيح تشمل محبة الأعداء أيضاً. فهو الذي قال: **"أحِبُّوا أعداءكم. بارِكوا لاعِنيكم. أحسِنوا إلى مُبْغِضِيكُم، وصلُّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم ويطردونكم"** (مت ٥ : ٤٤). وقال تعليقاً على ذلك: **"لأنه إن أحبَبْتُم الذين يُحِبُّونكم، فأيُّ أجرٍ لكم؟! أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك؟ "** (مت ٥ : ٤٦). كما أنَّ اللّه المُحب، هو أيضاً **"يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين"** (مت ٥ : ٤٥).

وهكذا توصي المسيحية بأنه **"إن جاعَ عدُوُّكَ فأطْعِمْهُ. وإن عَطِشَ فاسقِهِ"** (رو ١٢ : ٢٠). وقد ضرب السيد المسيح مثل السامري الصالح، الذي وجد يهودياً اعتدى عليه اللصوص وتركوه بين حي وميت. فلمَّا رآه سامري مُسافر، نزل واعتنى به، وعالجه وحمله إلى فندق، وأنفق عليه (لو ١٠ : ٣٠ - ٣٦). بينما اليهود لا يعاملون السامريين (يو ٤ : ٩). والقصد من هذا المَثل العناية بالأعداء من جهة، ومعنى كلمة القريب من جهة أخرى.

★★ إنَّ محبة السيد المسيح قد شملت الغرباء مثل السامريين، وقصته واضحة في هداية المرأة السامرية، ومدينتها (يو ٤) ورفضه معاقبة قرية سامرية أغلقت أبوابها في وجهه. وقوله لتلميذيه وقتذاك إنه: **"لم يأتِ ليُهلِكَ أنفُسَ الناس بل ليُخلِّصها"** (لو ٩ : ٥٢ - ٥٩).

وشملت محبته الأمم أيضاً أي الـ Gentiles وكان اليهود لا يقبلونهم ولا يتعاملون معهم ولا يتزاوجون باعتبار أنهم من الكفرة غير المؤمنين. ولكن السيد المسيح تعامل معهم بحب. ولمَّا جاءه قائد مائة أُممي يطلب من أجل شفاء عبد له مُشرف على الموت، وقال له: **" يا سيد، لا تتعب. لأني لستُ مُستحقّاً أن تدخل تحت سقفي ... لكن قُل كلمةً فيبرأ غُلامي ...** فمدحه السيد المسيح وشفى غلامه. وقال للجمع المحيط: **إني لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا"** (لو ٧ : ٢ - ١٠).

ومن محبته لهؤلاء الأمم - الذين كانوا يعبدون آلِهَة غريبة - دعا تلاميذه أن يبشِّروهم بالمسيحية (أع ١ : ٨)، (مر ١٦ : ١٥). وهكذا دخلوا في الإيمان، وتركوا عباداتهم وأصنامهم ... إذ قوبلوا بالمحبة وليس بالاحتقار.

وأحب السيد المسيح أيضاً العشارين والخُطاة، وجذبهم إليه. ومن أمثلتهم زكا العشار الذي لمَّا دخل المسيح إلى بيته، انتقده اليهود لأنه دخل عند رجل خاطئ. فردَّ المسيح قائلاً: **"اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضاً ابن إبراهيم"** (لو ١٩ : ٧ - ٩). وقال عن رسالته أنه **"جاء لكي يطلب ويُخلِّص ما قد هلك"** (لو ١٩ : ١٠).

★★ ومحبة السيد المسيح بالذَّات شملت المرضى والمحتاجين وكل مَن صرعهم الشيطان. فكان يجول يصنع خيراً ويشفي جميع المُتسلِّط عليهم إبليس (أع ١٠ : ٣٨) **" فأحضروا إليه جميع السُّقماء المُصابين بأمراضٍ وأوجاعٍ مختلفة، والمجانين والمصروعين والمفلوجين، فشفاهم"** (مت ٤ : ٢٤). وكانت المعجزات ممزوجة بالحُب، وأحياناً بعبارة "تحنن". ونفس هذا الحنان كان له في مجال التعليم، إذ قيل عنه: **"ولمَّا رأى الجموع تحنَّن عليهم، إذ كانوا مُنزعجين ومُنطرحين كغنمٍ لا راعي لها"** (مت ٩ : ٣٦). ونفس هذا الحنان أيضاً قيل عنه في معجزة إقامته ابن أرملة نايين من الموت (لو ٧ : ١١ - ١٥).

★★ ومحبته شملت جميع الفقراء والمحتاجين. فقال عن الاهتمام بالجياع والعطاش والغرباء والعرايا والمحبوسين: **"بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتُم"** (مت ٢٥ : ٤٠). ووعد المهتمين بكل هؤلاء بالبركة والدخول إلى ملكوت اللَّه.

★★ ومحبته شملت أيضاً كل البؤساء، والمُهمَّشين في المجتمع، والذين هم في ضيق. وقد قال إنه جاء لكي "يبشر المساكين، ويعصب منكسري القلوب، ويُنادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق" (إش ٦١ : ١، ٢).

★★ كان ينشر الحُب الذي ترتبط فيه محبة اللَّه بمحبة الإنسان. كما يرتبط الحب بالإيمان وبالاحتمال. وهكذا تقول لنا المسيحية: **"مَنْ لا يُحِبُّ أخاه الذي أبصرهُ، كيف يقدر أن يُحِبَّ اللَّه الذي لم يُبصِرهُ؟"** (١يو ٤ : ٢٠). على أنَّ المحبة للإخوة، ينبغي أن تكون محبة عملية، وليست مُجرَّد كلام. فهذا تعلمنا المسيحية **"لا نُحِبَّ بالكلام ولا باللِّسان،**

بل **بالعمل والحقّ**" (١يو ٣ : ١٨). وهكذا توصـــينا "**الإيمان العامل بالمحبَّة**" (غل ٥ : ٦). فكل عمل خالٍ من المحبة، لا يقبله الله.

★★ المسيحية تُقدِّم لنا اللَّه المُحب، الذي أحبَّنا قبل أن نوجد - حينما كنا في عقلــه فكرة، وفي قلبه مسرة - ومن أجل هذا الحُب أوجدنا. وبالحُب منحنـــا البركـــة والرعايـــة والمواهب. وفي محبته لنا، ندعوه أباً. ونُصلِّي له قائلين: "أبانا الذي في السمَوات". وفـــي محبته لنا ندعوه الراعي الصالح الذي يهتم بخرافه، ولا يستطيع أحد أن يخطفها من يـــده (يو ١٠: ١١ - ٢٨).

★★ إنه إلهنا الطبيب الذي قال: "**أنا أرعى غنمي وأُربضها ... وأطلب الضال، وأستردُّ المطرود، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح**" (حز ٣٤ : ١٥، ١٦). وهو الـــذي يعطينـــا دون أن نطلب، ويعطينا فوق ما نطلب. له المجد في محبته غير المحدودة.

★★ ختاماً: نُصلِّي - في مناسبة هذا العيد - أن يمنح اللَّه بلادنا الرخـــاء والأمـــن. ويشمل برعايته العراق ولبنان وسوريا ومنطقة دارفور، وكل المنـــاطق المحتاجـــة إلـــى معونة. ونُصلِّي أيضاً من أجل رئيس بلادنا الرئيس حسني مبارك، الذي جعل هذا العيـــد عيداً وطنياً لجميع المصريين.

وكل عام وأنتم بخير.

١٣ يناير ٢٠٠٨

أحبُّوا ذواتهم محبة ضارة

هناك أشخاص فيما يريدون أن يبنوا أنفسهم، يهدمونها! وإذ يعملون على تحقيق ذواتهم، يفقدونها! إنهم أولئك الذين يحبون ذواتهم محبة خاطئة تكون ضارة بهم ... فمَن هم؟ وما نوعية أخطائهم؟

★★ منهم مَن يحب ذاته، بأن يجعلها تعيش باستمرار في أجواء من اللذة الخاطئة، لذة الحواس ولذة الجسد ورفاهيته ... هذه اللذة التي من أخطائها أنها تقود إلى الشهوة وإلى الخطيئة. وربما تؤدي إلى تدنس النفس والجسد، وإلى الانغماس في اللَّهو. وبهذا كله يضيّع الإنسان نفسه. ولا يعرف أيضاً قيمة وقته فيضيعه، بينما الوقت هو جزء من حياته. وهكذا يمتهن حياته دون أن يدري!

★★ وهناك مَن لا يلذذ نفسه بالحواس، وإنما بالفكر. والفكر مجاله أوسع بكثير. فما لا يدركه في الواقع بالحواس أو بالجسد، يكفيه أن يغمض عينيه، ويؤلّف حكايات وقصصاً وخيالاً وأحلام يقظة، ويرى أنه يُمتِّع نفسه بكل هذا! ويقول في فكره: سوف أصير وأكون، أو سوف أفعل وأفعل. وقد يغرق في مثل هذه الأفكار أوقات طويلة. ثم يستيقظ منها على فراغ وضياع لم يستفد منه شيئاً.

إن الخيال فيه لون من المتعة لا تستطيع أن تدركه الحواس. ومجاله غير محدود. وفي هذا الخيال يتصوَّر تصورات لا يمكن أن تتحقق في الواقع. وهو لون من تخدير النفس، حيث تنسى الواقع الذي تعيش فيه، لكي تتمتع باللاشيء واللاوجود!!

★★ نوع آخر من الناس يريد أن يبني نفسه بالعظمة التي تأخذ مظهراً خارجياً غير حقيقي وغير روحي، لا يبنيهم بل يهدمهم.

أمثال هؤلاء قد يقعون في الغرور، وفي التباهي والفخر، مما لا يقبله الناس منهم. وقد يقعون أيضاً في حب المظاهر، وحب مديح الناس. وإن لم يجدوا مَن يمدحهم، يمدحون هم أنفسهم ويشرحون مواقف تمجدهم! بينما الناس يحبون الودعاء الذين مهما بلغوا من علو، يعيشون في إنكار الذات.

أمَّا العظمة الحقيقية فهي غير ذلك كله. هي في قوة الشخصية وفي فضائلها. في قدراتها ومواهبها، لا في تباهيها. إنها العظمة الصامتة التي يدركها الآخرون ويرون تأثيرها وفاعليتها، مهما أنكرت ذاتها.

ولكن الذين يظنون إنهم يبنون ذواتهم بعظمة زائفة، فإنهم يذكروننا بقول أحد الآباء الروحيين: "مَن سعى وراء الكرامة، هربت منه. ومَن هرب منها بمعرفة، سعت إليه وأرشدت الكل إليه"...

★★ إن أسوأ ما في محبة العظمة، ما يصل إليه البعض من البارانويا، أي جنون العظمة، حيث يظن مَن يقع في هذا الشعور أنه أعظم الكل، وليس مَن ينافسه في عظمته! ويتخيَّل في نفسه ما ليس فيه من صفات العلو والسمو، ويطلب أن يعامله الجميع بما يليق بعظمته!! وهكذا يخسر ذاته فيما يظن أن يمجدها...

★★ والذي يريد أن يبني نفسه بالعظمة، ربما يقدم نفسه إلى مناصب ووظائف ليس هو مؤهلاً لها. وإن نجح في الوصول إلى ذلك، تظهر الممارسة ضعيفة، ويجلب على نفسه نقداً ما كان أغناه عنه، ويحط من قدر نفسه عملياً، فيما أراد أن يعليها...

★★ يوجد أيضاً مَن يحاولون أن يبنوا ذواتهم عن طريق ما يتخيلونه زعامة أو بطولة ترتبط بشيء من العدوانية، في صراع وعراك. تجدهم كشعلة من نار، في حماس مستمر، للنقد والهدم والتحطيم!! دون أن يقوموا بأي عمل إيجابي بنَّاء ... فلا تسمع من أفواههم سوى عبارة: "هذا خطأ، وهذا مُخطئ"..

ولذتهم هي في انتقاد الكبار. ومثلهم الأعلى هو (طرزان) الذي يقفز على الجبال، ويضرب هذا وذاك. شأن الفتيان الذين يحبون الأفلام السينمائية التي فيها ضرب نار، وقلب عربات، وقتل ... ويسمونها أفلام البطولات.

أولئك لهم الطبع الناري، دائم الهجوم، دائم العدوان، دائم الغضب والاقتحام. يفرح بأنه أحرج فلاناً من الناس، وانتصر وغلب. وفي محاولته تحطيم الآخرين يرى نفسه بطلاً يخشون بأسه. وفيما يظن أنه يحطم الآخرين، إنما يحطم نفسه، ولا يكسب في الدنيا ولا الآخرة.

إنه مثل التلميذ المشاكس في الفصل الذي يظن أنه يكون ظاهراً يُتعِب المدرسين ويضايقهم ولا يحترمهم، ظاناً أن هذا جرأة وقوة شخصية! وغالباً ما يرسب هذا التلميذ، وينجح زميله الهادئ... مسكين هذا الذي يرى نفسه مقاتلاً Fighter بينما هو يحطم نفسه!

والعجيب أن الهدم أسهل من البناء وأسرع. وكما يقول المَثَل العامي: "البئر الذي يحفره العاقل في شهر، يردمه الغبي في يوم!" سهل أن عمارة من عشرين طابقاً يهدمها أحد الأشرار في لحظات، بقنبلة! ويبقى البناء هو العمل الجيد. أمَّا الهادمون فلا يهدمون سوى أنفسهم!

★★ نوع آخر يحبون أنفسهم محبة خاطئة، بمنحها الحرية في كل شيء! يريد الواحد منهم أن يعمل ما يشاء، متى يشاء، كيفما يشاء!! محاولاً أن يتخلَّص من كل سُلطة وكل نظام وكل قانون! ويرى أن التقاليد قيد عليه، ولا يقبل التوجيهات أو النصائح. بل يقول: "أنا حُرّ. لا أقبل تدخلاً في حريتي"! بينما لا يدري المعنى الحقيقي للحرية من حيث هى تحررٌ من كل خطأ ومن كل نقص. أمَّا ما يدَّعيه من حرية، فإنه يقوده إلى الضياع. وهناك فرق كبير بين الحرية والتَّسيُّب ... الذي يفقد فيه الشخص فضيلة ضبط النفس...

★★ يُذكِّرنا هذا بالوجوديين الذين يجدون أنفسهم بالتَّحرُّر من اللَّه ومن وصاياه. وشعار الواحد منهم "من الخير أن اللَّه لا يوجد، لكي أوجد أنا"!! في شعور أن اللَّه يقف ضد نزواتهم وشهواتهم.

ومن أخطر أنواع الحرية في الفكر الديني. وافتخار البعض بأنه صاحب فكر جديد في أمور الدين. وهذه الحرية المنحرفة كثيراً ما قادت البعض إلى الإلحاد، أو إلى تكوين مذاهب خاصة! وأكثر من هذا، محاولة أولئك في جذب الآخرين إلى فكرهم.

★★ هناك أشخاص آخرون يريدون أن يبنوا أنفسهم عن طريق مجد خاص بالغنى والمركز والشهرة وبعض المظاهر الخارجية، بينما المجد الحقيقي للذات هو في نقاوتها وحكمتها وقداسة سيرتها ... ولكن المظاهر الخارجية لا تبني النَّفس مُطلقاً، كما لا تصحبها في الأبدية.

★★ البعض يحاول أن يبني نفسه بأن يبدو باراً وبلا خطأ في أعين الناس. وهكذا يغطي أخطاءه بتبرير الذات والتماس الأعذار في كل سقطة! وفي هذا الدفاع عن النَّفس، لا مانع عنده أحياناً من الكذب أو الرياء أو إلصاق السبب بالآخرين! فيرتكب أخطاء أخرى. بينما الوضع الروحي لبناء النَّفس هو تنقيتها من الأخطاء، وليس التغطية على أخطائها.

أخيراً أقول إنه من العجب أن يحاول البعض أن يثبت وجوده بطريقة تلغي وجوده أو تقلل من شأنه.

٢٠ يناير ٢٠٠٨

الإرادة
لماذا تضعُف؟ وكيف تقوى؟

أحياناً يحب الإنسان أن يعمل خيراً، ويحاول ولكنه لا يستطيع. ويرجع السبب إلى ضعف إرادته، أو أنه يقتنع تماماً أن عادة مُعيَّنة تسبب له ضرراً. ومع ذلك لا يمكنه ترك هذه العادة إن أراد ذلك، والسبب هو ضعف إرادته. فما هى الأسباب التي تؤدي إلى ضعف الإرادة؟ وكيف يمكن أن يقوي الإنسان إرادته؟ هذا ما نود أن نبحثه معاً في هذا المقال.

★★ أول شيء يُضعِف الإرادة عن عمل الخير، هو الشهوة الخاطئة، سواء كانت شهوة الجسد، أو شهوة المال والقنية، أو شهوة المناصب وتعظُّم المعيشة، أو شهوة الانتقام ... كلها شهوات تتسبب في ضعف الإرادة. فحينما تدخل الشهوة إلى القلب، تضعف الإرادة عن مقاومتها. وكلَّما زادت الشهوة، يحدث أنها تضغط على الإرادة بشدة حتى تنهار الإرادة تماماً.

لذلك من عوامل تقوية الإرادة، أن يتخلَّص الشخص من كافة شهواته الخاطئة.

★★ كذلك مما يُضعِف الإرادة، القُرب من مسببات الخطية أو من مسببات الشهوة. فالشهوة قد تنبع من قلب الإنسان أو من أسباب خارجية كالاختلاط الخاطئ أو المعاشرات الرديئة التي تُفسد الأخلاق الجيدة. ولذلك فالقُرب من مسببات الخطيئة يجعل الشخص مُعرَّض لحربين: من الداخل ومن الخارج. ولا شكَّ أن اجتماعهما معاً، يُدخِل الفكر الخاطئ إلى العقل والقلب، ويضغط الفكر على الإرادة فتضعُف.

★★ ومما يُضعِف الإرادة، التباطؤ في طرد الأفكار أو الشهوات الخاطئة، فإن تركها الشخص ترعى في قلبه، وتلعب بعواطفه، وتدغدغ حواسه، وتغري نفسه، وتقنع عقله، فإنها - بطول المدة - تقوى عليه. فتضعُف إرادته عن مقاومتها ... وإن انتصر على الفكر، يكون ذلك بمجهود كبير يبذله، وبتدخل النعمة لإنقاذه.

لذلك إن حاربتك شهوة، فقاومها للتو. ولا تستبقِ فكرها عندك، وبهذا تقوى إرادتك على طردها. أمَّا التهاون في طرد الأفكار، فإنَّ هذا يدل على أن رغبة الإنسان غير

مستقيمة، وأنه غير جاد في التخلُّص من الشهوات، فتصبح الإرادة حائرة ما بين الخير والشر، ولا تقوى على المقاومة...

إنَّ السرعة لازمة لتقوية الإرادة، سواء في التخلُّص من أفكار الخطية، أو في العمل على تنفيذ الوصية. ذلك لأنَّ طول المدة والتردد، والتفاوض مع الفكر. كل ذلك يضعف الإرادة.

★★ إنَّ الشيطان من حيله أحياناً، أنه لا يُقدِّم لك الخطية واضحة لئلا ترفضها. فلا يقول لك مثلاً: "لا تفعل هذا الخير"، إنما يقول لك: "لنؤجل الأمر بعض الوقت لمزيد من التفكير". ويظل ينتقل بك من تأجيل إلى تأجيل، حتى تفتر همتك في عمل الخير الذي فكَّرت فيه. وهكذا تضعُف إرادتك. فاحترس إذن من حيلة الشيطان...

★★ على أن أصعب ما يُضعف الإرادة، أن تتحوَّل الرغبة في الخطيئة إلى عادة. والعادات من الصعب مقاومتها، وتحتاج إلى جهد كبير للتخلُّص منها ... على أن العادة تنشأ من عمل إرادي متكرر. فكن حذراً من ذلك، حتى لا تتكوَّن عندك عادة خاطئة تستولي على شيء من إرادتك الحُرَّة وتستعبدها، وتضغط عليك في ممارستها سواء أردت أو لم ترد.

★★ ومن الناحية الإيجابية، مما يقوِّي الإرادة، وجود مخافة اللَّه في القلب: إذ يخاف الإنسان أن يعصى اللَّه ويتعرَّض لعقوبته. يخاف اللَّه الذي يراه ويسمعه، ويرقب كل ما يفعله، ويُحاسب ويُجازي. لذلك كُلَّما تُعرَض له شهوة رديئة، يقول في نفسه: "كيف أفعل هذا الشر العظيم وأخطئ إلى اللَّه؟!". وبهذا تقوى إرادته على رفض تلك الشهوة. وإيجابياً يقوى على عمل البِرّ...

★★ وممَّا يقوِّي الإرادة أن يضع الإنسان أمامه قيماً يتمسَّك بها ويلتزم بالخضوع لها. حتى لو قامت الدنيا وقعدت لا يمكنه أن يفعل ما يتعارض مع هذه القيم. فالتمسُّك بالإيمان من القيم التي رسخت في قلوب الشهداء، لذلك مهما تعرضوا له من تعذيب، لم يمنعهم من التمسُّك بإيمانهم. وقد كانت العفة من القيم التي تمسَّك بها يوسف الصديق، فكانت إرادته قوية في رفض كل إغراءات الخطية. والبعض يجعل الصدق والأمانة من القيم التي تُشكِّل شخصيته. فتكون إرادته قوية ترفض كل أساليب الكذب والخداع مهما كانت الضغوط الخارجية...

إنَّ إرادتنا تضعف أحياناً، حينما تضعف بعض القيم في حياتنا. أمَّا إن بقيت القيم قوية وكان التزامنا بها قويَّاً، فإنَّ إرادتنا تكون قوية جداً. وهناك قيم هامة مثل احترام القانون، واحترام الكبار، واحترام النظام العام ... إن ضعفت هذه القيم، تجد الإرادة منقــادة إلــى العصيان والتَّمرُّد...

★★ ممَّا يقوِّي الإرادة أيضاً: التغصُّب وضبط النفس... فهل أنت تدلل نفسك، وتمنحها في كل حين ما تهواه؟! إن كان الأمر كذلك، فسوف تضعف إرادتك لأنها لا تجد ما يضبطها. فتفقد هي سيطرتها على رغباتها وشهواتها. وتفقد أنت سيطرتك على إرادتك...

لذلك اغصب نفسك على عمل الخير. وبالوقت سوف تتعوَّد ذلك، وحينئذ تفعل الخير بكل رضى وبشوق. لأنَّ إرادتك ستكون قد قويت في هذا المجال، إنَّ التغصُّب هو الخطوة الأولى التي تقودك إلى الحياة الروحية التي بلا تغصُّب. ذلك إن كانت النَّفس متمرِّدة فــي بادئ الأمر... وكذلك اغصب على رفض كل شهوة خاطئة. مثل شخص يبدأ في رجــيم للطعام مثلاً، فلا يأكل كل ما يشتهيه، ولا يكثر من تناول طعام يحبه. ولو أتــاه فكــر أن يأكل من صنف منعه عنه الطبيب، يرفض ذلك بحزم. وبهذا تقوى إرادته.

إنَّ ضبط النفس إذن، يؤدِّي إلى تقوية الإرادة. وإذا قويت الإرادة، تؤدِّي إلى مزيــد من ضبط النَّفس .. كما أنَّ التَّغصُّب في ضبط النَّفس، يجعل الشيطان يهابك ويعرف أنــك لست سهلاً. وكُلَّما تغصب نفسك، تدركك نعمة اللَّه وتعينك، لأنك بهذا التَّغصُّــب تبــرهن على محبتك للَّه وللفضيلة وجهادك في سبيل ذلك. فيستجيب اللَّه لجهادك ويسندك بقوة من عنده.

★★ من الأشياء التي تُقوِّي الإرادة أيضاً، يقظة الضمير. بحيث يكــون الضــمير صاحياً باستمرار، يراقب ويُحذِّر من الخطأ. ولكن يحدث في بعض الأحيــان أن يكــون الضمير صاحياً، ومع ذلك يحدث تكون النَّفس مشتاقة إلى الخطية، فتُسكت الضمير!! حقاً إنَّ الضمير يرشد إلى طريق البرِّ، ولكنه لا يرغم الإنسان على السَّيْر فيــه ... فتتــدخل مخافة اللَّه لتُعالج ضعف الضمير، وتذكار وصايا اللَّه يُقوِّي الإرادة فترفض الخطأ وتدفع إلى عمل البرِّ..

★★ لهذا فإنَّ السلوك في الطريق الروحي يُقوِّي الإرادة. فالشخص المداوم على الصلاة والتأمُّل في وصايا اللَّه، يخجل من الانقياد إلى شهوة خاطئة، وتحثّه إرادته على رفضها.

٢٧ يناير ٢٠٠٨

طاقات وطباع وغرائز

من طاقات الإنسان: العقل والروح والنَّفس والضمير والإرادة والحواس. وهى تختلف من شخص إلى آخر. بالإضافة إلى ما يمنحه اللّه من مواهب لكل فرد على حدةٍ. وهذه الطاقات والمواهب قابلة للنمو. أو على الأقل نكتشف قدراتها بالزمن والاحتياج.

★★ العقل مثلاً: نحن لم نكتشف بعد كل قدراته. هل كانت الأجيال السابقة تصدّق أنه يمكن للعقل البشري أن يخترع سفن الفضاء التي توصّل الإنسان إلى القمر فيمشي على سطحه؟! كما يخترع أقماراً صناعية تجول حول العالم، تجمع أخباراً وترسل صوراً!! ومَن كان يتصوَّر أنه كان يمكن للعقل أن يُقدِّم للبشرية كل الاختراعات الحالية في مجال الطب والهندسة وسائر العلوم؟! مثل: الكومبيوتر والـ mobile phone، وإمكانية عمل جراحة للجنين في بطن أمه؟! وما زلنا نرى نمواً واضحاً لطاقات العقل تظهر عملياً...

★★ وروح الإنسان أيضاً لها طاقات عجيبة لم يدركها كل الناس. فهم لم يكتشفوها لأنهم لم يستخدموها، ولم يدخلوا في التداريب التي تنشط الروح وتفسح لها مجال انطلاقها الطبيعي. وإننا عندما نقرأ عن التداريب الروحية التي تجريها جماعات من الهندوس واليوجا، وما وصلوا إليه من نتائج، نرى عجباً..! إنها ليست معجزات ولا قدرات غير طبيعية. بل هى الطاقة الطبيعية للروح، يكتشفها مَن يحيا بالروح، ومَن يستخدم الروح ويهتم بها...

★★ هناك أيضاً طاقات للحواس لم نستخدمها كلها. وذلك لعدم شعورنا بالاحتياج إليها. فهى طاقات تظل كامنة إلى أن تظهر حينما تفقد حاسة مُعيَّنة، فنستعيض عنها بتنشيط حواس أخرى بديلة.

فإنسان مثلاً فقد بصره، ويحاول أن يستعيض عنه بالسمع وباللمس ورُبَّما بالشَّم أيضاً، فتقوى كل هذه الحواس، ويكتشف قدرات لها لم تكن متاحة له من قبل. ولكنها

ظهرت لأنه أخذ يُدرّب هذه الحواس تدريباً دقيقاً لتكون له أبواباً للمعرفة بدلاً من النظر الذي فقده. ولم تكن هكذا من قبل، بل كانت كامنة غير ظاهرة في حالة عدم استخدامها... كما نلاحظ أيضاً أن الذي فقد بصره، تقوى ذاكرته، لأنه يستخدمها أكثر من ذي قبل، إذ أن القراءة لم تعد متاحة له. وحتى هذه القراءة نراه يستعيض عنها بطريقة برايل، بتقوية حاسة اللمس.

★★ إنَّ الإنسان الكامل: في كمال عقله، وكمال روحه، وكمال حواسه كلها، لم يُوجد بعد في أي إنسان عادي ... وطاقات كل شخص كما تحتاج إلى تداريب لتنمية قدراتها، تحتاج إلى تداريب أخرى حتى لا تضعف بعدم الاستخدام.

★★ علينا مثلاً أن نُنمِّي العقل والذاكرة وملكات التفكير التي لنا. وننمي قدراتنا على التفكير السليم والاستنتاج وحل المشاكل. فالمسائل الرياضية والتمارين الهندسية التي كنا ندرسها في المدارس، لم تكن لمُجرَّد العلم أو للتخصُّص في الرياضيات، إنما كانت لها فائدة أخرى في تدريب العقل على التفكير.

مَثَل آخر لهذا التدريب، هو اثنان يلعبان الشطرنج وكل منهما صامت يُفكِّر: ما هي الخطوة التي سيلعبها زميله، وكيف يرد عليها؟ وماذا سيكون رد زميله على رده؟ وكيف يتصرَّف وقتذاك؟ وكيف يمكنه أن يُعرقل خططه؟ وكيف تكون له هو خطط غير مكشوفة توصّله إلى النتيجة المطلوبة ولو بعد مراحل؟ إنه أيضاً تدريب على الذكاء، وليس مُجرَّد لعبة شطرنج للتسلية وقضاء الوقت...

وما أكثر تداريب الذكاء وتنمية التفكير: الألغاز أيضاً وحلّها والمسابقات، كلها تداريب على التفكير. كذلك يمكنك أن تُنمِّي موهبة التفكير في محيط أسرتك وسط أولادك. وعلّمهم أن يواجهوا أيَّة مشكلة بالتفكير وفي غير اضطراب. وفي الحياة العملية توجد تداريب على الحكمة وحُسن التَّصرُّف، أو تنمية الفكر عن طريق المشورة والانتفاع بخبرات الآخرين.

★★ الضمير أيضاً يحتاج إلى تنمية. ذلك لأنه يوجد ثلاثة أنواع من الضمائر. منها الضمير الواسع الذي يتساهل مع كثير من الأخطاء، ويُسمِّيها الأخطاء الصغيرة أو البسيطة، فيُمرِّرها ويُبرِّرها!! وهناك الضمير الضيق الذي يظن الخطأ حيث لا يوجد

خطأ، أو أنه يضخِّم من قيمة بعض الأخطاء. أمَّا أنت فليكن لك الضمير الصالح، الذي يتميَّز بالفهم السليم، ويعرف كيف يُميِّز بين الخير والشر، وبين ما يجوز وما يليق. ويزن الأمور بميزان دقيق، بلا إفراط ولا تفريط.

ويأتي هذا بالتعلم على تُقاةٍ من المتعمقين في علوم الدين والاجتماع والأخلاق، وداوم التأمُّل بعمق في كلام اللَّه وفي سِيَر الناس الأبرار المشهود لهم، وكذلك بالتأثُّر بالقدوة الصالحة.

★★ معارف الإنسان أيضاً تحتاج إلى تنمية، غير النمو الطبيعي في المعرفة خلال مراحل العمر. والذي يهتم بنموه في المعرفة يصير مُثقَّفاً ويستطيع أن يكون عضواً نافعاً في المجتمع. والمعرفة تُغذِّي عقله، وتُغذِّي ضميره، وتقوِّم طباعه، وتدفعه إلى السلوك الصالح. كما أنَّ المعرفة تساعده في طريق الحكمة وحُسن التَّصرُّف، والنجاح في التعامل مع الناس. وإذ نما في المعرفة وفي الخبرة، قد يصل إلى القدرة على الإرشاد وقيادة الغير...

★★ إنَّ حياة الإنسان بكل طاقاتها وزنة سلَّمه اللَّه إيَّاها لكي يعتني بها. لذلك يلزمه أن يُنمِّي شخصيته بصفة عامة لتتحوَّل إلى شخصية قوية سوية، سواء في العقل أو الضمير أو المعرفة أو السلوك، أو النفسية السوية، والحكمة في الحكم على سائر الأمور.

فلا تترك شخصيتك إذن، دون ضابط ودون اهتمام ودون نمو...

★★ الجسد أيضاً طاقة وهبها اللَّه للإنسان، فهو الجهاز التنفيذي لكل القرارات التي تصدر عن العقل أو الروح أو الإرادة أو الضمير...

وما أسهل أن تؤثِّر أمراض الجسد على النَّفس، فتجلب لها ألواناً من الألم أو الحزن أو الضيق أو التَّذمُّر. وبعض الناس قد يصلون إلى درجات من الانهيار النفسي بسبب أمراض أجسادهم، أو يصابون بالكآبة والقلق والحيرة بسبب ما تتعرَّض له صحة الجسد من اضطرابات...

كذلك شهوات الجسد تؤثِّر على الضمير وعلى الإرادة، وتحاول أن تستخدم طاقات العقل لتحقيق أغراضها. كما أنَّ شهوة الجسد قد تستأثر الفكر تماماً، فلا يدور إلاَّ في فلكها. وإذا سيطرت فإنها تضعف الروح وتبطل صلتها باللَّه.

★★ لهذا كله ينبغي حفظ التوازن بين طاقات الإنسان فتتعاون معاً وتتكامل. ولا يصح أن يوجد تناقض أو تنافس بين الطاقات يؤدّي إلى صراع داخلي وانقسام في الشخصية. كما قال أحدهم: "كنت أصارع نفسي وأجاهد، وكأنني اثنان في واحد. هذا يدفعني، وذاك يمنعني"!! نعم ما أسهل أن تتصارع الطاقات: فالجسد يشتهي ضد الروح. والروح ضد الجسد. أو النفس ضد الضمير. أو العقل ضد الإرادة..!

بينما الإنسان السليم السَّوي لا يوجد فيه مثل هذا الصراع. ولا تحاول إحدى طاقاته أن تُسيطر على باقي الطاقات أو بعضها.

★★ أخيراً: ألا ترى معي يا قارئي العزيز أن موضوعنا هذا يحتاج إلى تكملة، لنتحدَّث عن الطباع والغرائز والمواهب. فإلى لقاء...



٣ فبراير ٢٠٠٨

كيف نستخدم
الطاقات والطباع والغرائز

توجد طاقات للإنسان يبدو بعضها هداماً، أو يستخدمه الكثيرون استخداماً سيئاً خاطئاً، بينما كل شيء في طبيعة الإنسان يمكن استخدامه للخير. وسنضرب لذلك بضعة أمثلة.

★★ فالغضب مثلاً طاقة يمكن استخدامها للخير، مهما استخدمها البعض كخطية. فالغضب يُعتبر خطيئة إن أخذ طابعاً جسدانياً نفسانياً: إن تحوّل مثلاً إلى نرفزة، أو توتر في الأعصاب، وثورة وهياج، وعدم انضباط الصوت والملامح والحركات، مع أخطاء اللسان وقسوة الألفاظ والعنف ... مع الأخطاء النفسية، من جهة ارتباط الغضب أحياناً بالغيظ والكراهية، والرغبة في الانتقام للنفس، وثورة الفكر بأسلوب غير روحي. وربَّما يصل إلى الإهانات وجرح شعور الآخرين، وإلى الاشتباك بالأيدي...

★★ ومع ذلك فالغضب طاقة يمكن استخدامها للخير. فهناك نوع منه يُسمَّى بالغضب المقدس، مثل غضب موسى النبي لمَّا رأى الشعب قد صنع عجلاً ذهبياً وعبدوه، ومثل غضب كثير من الأنبياء على الخطاة وتوبيخهم وإنذارهم، مع ملاحظة أن يكون ذلك بغير نرفزة وعصبية. وهكذا نرى أنَّ الغضب وهو طاقة نفسية يمكن تحويله إلى الخير.

★★ ونلاحظ أن يوحنا كاسيان في كتابه (المعاهد) Institutes كتب باباً عن الغضب، وشرح بطريقة روحانية كيف أن الإنسان يمكنه أن يغضب ولا يخطئ إذا ما غضب على خطاياه ونقائصه وضعفاته وسقطاته. بل أن هذا اللون من الغضب المقدس يقوده إلى التوبة وإصلاح نفسه وعدم الخطأ في المستقبل. وبهذا يكون قد قام بتوجيه الطاقة الغضبية في اتجاه سليم.

★★ لهذا، نحن لا نقف ضد الطاقة الغضبية بل ندعو إلى توجيهها توجيهاً حسناً، إذ ينتج عن ذلك الحماس والغيرة المقدسة والنخوة والحزم. إن تحطمت هذه الطاقة صار الإنسان خاملاً.

★★ الغضب الحكيم لازم في محيط الأسرة لحسن تربية الأبناء بحزم في غير التدليل الذي يفسدهم، ولكنه حزم مصحوب بحُب. وكذلك يلزم الغضب في مجال الإدارة، حتى تستقيم الأمور ويتخوف المفسدون.

★★ إنَّ الإنسان الروحي لا يمكنه أن يرى الشر ولا تتحرك روحه، وإلاَّ خلت الأرض من المصلحين، على أن يكون ذلك، بحق، وبحكمة وإذا غضب الإنسان لهدف روحي، ينبغي أن تكون وسيلته أيضاً روحية: فلا يشتم، ولا يتعالى ويتكبَّر على غيره، ولا يتجاوز حقوقه.

★★ نقطة أخرى هامة هى العناد: هل هو طاقة أم خطيئة؟ أم هو في الأصل طاقة حوّله البعض إلى خطيئة؟ إنَّ العناد السيئ هو التصميم على الخطأ. حيث يسلك الشخص في طريق خاطئ ويُصمِّم عليه، ويرفض كل تفاهم وكل نصيحة مخلصة بعقل مُغلق أمام كل إصلاح لمساره. حتى لو صدرت النصيحة من صديقٍ وفيّ، أو مرشد موثوق به، أو أب روحي ... ومهما كان الحق واضحاً!!

★★ مثل هذا العناد هو تصلُّب في الفكر والإرادة، وغالباً ما يكون صادراً عن كبرياء أو عن اعتزاز زائد بالذات وثقة واهمة بالنَّفس.

وهو غير الثبات على الحق. وعلينا في حكمة وإفراز أن نُميِّز بينهما. ولا نخلط بينهما في حكم واحد. ونلاحظ هذا في تربية النشء ..

فإن كان العناد - أو ما يُسمِّيه البعض عناداً - هو في حقيقته صموداً وثباتاً في الخير، فلا نمنعه ولا ننهه. ونضرب لذلك أمثلة:

★★ من أمثلة ذلك مَن يقف في صلابة قوية أمام مَن يريدون إزاغته عن دينه، رافضاً كل المحاولات، وكل الإغراءات المقدمة إليه، وهو غير مُقتنع بالمجادلات، لا يتراخى ولا يتساهل، وهو واثق أنه على حق ... أيقول عنه مجادلوه إنه عنيد؟! ولكنه ليس عناداً سيئاً، بل هو ثبات في العقيدة يُمتدح عليه ...

نفس الوضع نقوله عن الشهداء ورسوخهم في الإيمان، على الرغم من كل الإغراءات وكل التهديدات، وعلى الرغم مما تعرَّضوا له من سجن ومن نفي، ومن ألوان التعذيب المرعبة. ولكن القلب كان راسخاً لا يتزعزع. رُبَّما مضطهدوهم وصفوهم بالعناد وبصلابة الرأي. ولكنه كان عناداً مُقدَّساً وثباتاً على الإيمان.

★★ هناك أيضاً العناد مع النَّفس في الجهاد الروحي: في الصوم، وحفظ العفة، وحفظ الفكر والحواس، وضبط اللسان وضبط الحواس، وفي كل التداريب الروحية، وفي منع النفس عن الخطية كما قال الشاعر:

"ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم".

في كل هذا يحتاج الإنسان إلى عناد ضد الشيطان والجسد والشر، وإلى عناد ضد الشهوة واللَّهو. فيجد الشيطان نفسه أمام إنسان قوي ليس سهلاً. يعجم الشيطان عوده فيجده صلباً. ويحاول الدخول إلى قلبه وإلى فكره، فإذا هو جنة مُغلقة وينبوع مختوم. وإذا بهذا البار يقف أمام كل أنواع الإثم بكل عناد وتصميم، كصخرة جامدة لا تؤثِّر فيها العواصف. هذا العناد ضد الشيطان وحيله، هو عناد مُقدَّس...

★★ هناك في الحياة الاجتماعية أيضاً عناد مسموح به. مثل فتاة ريفية يريد أهلها تزويجها من شاب من أقاربها لا تحبه بل تكرهه، ولا تتصوَّر الحياة معه إطلاقاً. هذه إن رفضت فمن حقها أن ترفض. وإن ألحّوا عليها وضغطوا فاستمرت في الرفض، هل يصفونها بالعناد؟ إن من حقّها أن تأخذ هذا الموقف العنيد. لأنَّ إرغامها هو سبب لبطلان الزواج.

★★ لذلك إن وجدنا عناداً، وهادفاً إلى الخير، وصادراً عن إرادة قوية، فلا يجوز أن نقف أمامه ونتهمه بصلابة الرأي. بل فلتبقَ الإرادة في قوتها وصلابتها وتصميمها. لا نحطمها، وإنما نضمن سلامة مسارها نحو الخير...

★★ نقطة أخرى في موضوع الطاقات وهى المواهب: فلنفرض أن إنساناً له موهبة في النحت أو الشِّعر أو الموسيقى أو التلحين، أو حتى في التمثيل أو الغناء أو ما أشبه .. هل نكبت عنده هذه الموهبة، في ادعاء أنها ضد الاتجاه الديني، وتبعده عن اللَّه؟!

★★ إنني لست أجد في إحدى هذه المواهب أي خلاف مع الدين. فالخطأ ليس في الموهبة، وإنما في انحرافها. وما أسهل توجيه كل المواهب توجيهاً روحياً، دون العمل على تحطيمها بِاسم الدين.

فالفن شيء جميل، لا يستغني عنه المجتمع. فإنَّ انحرف الفن، نحارب الانحراف ويبقى الفن الذي لولاه يتحول البلد إلى جمود لا جمال فيه. ونحن نشكر اللَّه أن في بلادنا مجموعة من الفنانين الذين لهم شهرة طيبة وأمجاد في عالم الفن، وإنتاج يفتخر به الوطن وينتشر خارجاً.

★★ والتمثيل بالذات كم خدم المجتمع خدمات جليلة، ودافع عن بعض قضاياه، دفاعاً كان له تأثيره الكبير أكثر من المقالات التي لا تجسد الحقائق بل تشير إليها. وفي بلد ممثلون لهم كل المحبة من الشعب وكل التقدير، ولهم مركزهم الاجتماعي المرموق، ولا يشك أحد في تدينهم.

★★ كذلك فإن الغناء والموسيقى والشِّعر والتلحين، كلها مواهب وطاقات يمكن استخدامها في الخير. وقد كان داود النبي شاعراً وموسيقياً. وكان يحسن الضرب على العود والمزمار والعشرة الأوتار. ولا ننسى ما قدمه للعالم من المزامير ممَّا أوحى له اللَّه بها.

نعود ونقول لا نحارب الطاقات، بل نحسن استخدامها.

١٠ فبراير ٢٠٠٨

روح الإنسان
أهميتها - قوتها - الاهتمام بها

الروح هى عنصر الحياة في الإنسان. وقدماء المصريين كانوا يرون أن حياة الإنسان هى في الروح والنفس. الروح تُسمَّى (كا)، والنفس تُسمَّى (با). وجمع (كا) هو (كاو) أي أرواح. وهى داخلة في اسم باني الهرم الثالث (منقرع). وهو بالهيروغليفية (من كاو رع)، أي أرواح رع الخالدة. (وبالقبطية واليونانية منقريوس).

★★ وحياة الإنسان مرتبطة بالروح. فإن لفظ روحه، انتهت حياة جسده. ولكن روحه تبقى حية، وترجع إلى خالقها. إلى أن يأتي يوم القيامة، فترجع الروح وتتحد بالجسد فيقوم. ومن هنا نؤمن بخلود الروح، وأنها لا تموت بموت الجسد. لأنها عنصر حيّ بطبيعته.

★★ وروح الإنسان غير روح الملاك وروح الشيطان. فالملاك روح طاهر لا يفعل سوى الخير ويفرح به. أمَّا الشيطان فهو روح شرير لا يفعل سوى الشر ويحث عليه. ولكن روح الإنسان تتأرجح بين الخير والشر. ذلك لأنها متحدة بجسد، والجسد مرتبط بالمادة. لذلك فهو يتجه بطبيعته إلى المادة، ويصير مادياً بعكس الروح التي لها اتجاه روحي يسعى نحو اللَّه. ومن هنا يحدث صراع بين الجسد والروح. وكل منهما يقاوم الآخر. فالجسد يقاوم الروح، ويريدها أن تطيعه في اتجاهه المادي أو الجسداني. ومن الناحية الأخرى فإن الروح تقاوم الجسد في كل شهواته لكي تجذبه إلى طريقها الروحي المتجه إلى اللَّه.

★★ والعجيب أن غالبية الناس يهتمون كثيراً بالجسد، ولا يهتمون ولو قليلاً بالروح!! فمن جهة الغذاء مثلاً، أنت تعطي جسدك غذاءه كل يوم، بل ثلاث وجبات في اليوم، وبكميات كافية حسبما يحتاج. فهل تعطي روحك غذاءها كل يوم؟

وأنت تعطي الجسد غذاءه من كل العناصر والأصناف اللازمة: تعطيه الكالسيوم لبناء العظام، والحديد لبناء الدم، والبروتين لبناء الأنسجة. وتعطيه السكريات والكربوهيدرات لأجل الطاقة. وتعطيه ألواناً مُتعدّدة من الفيتامينات والعناصر.

فهل أنت تعطي الروح كل ما يلزمها من أصناف الغذاء؟ إن الروح تحتاج في غذائها إلى كلام اللّه، وإلى القراءات الروحية، والتأمل، وإلى التراتيل والتسابيح والألحان، وتأثير الاجتماعات الروحية، والمعاشرات الروحية. كما تحتاج إلى محاسبة النفس ... فهل أنت تُقدّم لها كل هذا الغذاء، وبانتظام؟ لمنفعتها وتقويتها ...

★★ أنت أيضاً تعطي الجسد راحته. والروح أيضاً تحتاج إلى الهدوء والخلوة الروحية. فهل تقدم لها ذلك؟ وهل تريحها أيضاً بالإيمان والسلام القلبي؟

★★ كذلك إذا مرض الجسد، تعرضه على أطباء. وحسبما أمروا تنفذ، وتقدم للجسد الدواء اللازم والعلاج ... والروح أيضاً قد تمرض بكثير من الأمراض، وتتعبها الخطايا. وتحتاج في مرضها إلى أطباء روحيين، هم المرشدون الروحيون الذين لهم خبرة بالروح وما تقاسيه. فهل أنت تأخذ من هؤلاء ما تحتاجه الروح من علاج؟

★★ وإن كان في الطب الجسدي، الوقاية خير من العلاج، ففي الطب الروحي كذلك... بأن يُبعد الإنسان روحه عن كل ما يضعفها من أسباب الخطية والشهوة ومصادرها، فيبعدها عن المعاشرات الرديئة التي تفسد الأخلاق الجيدة، ويبعدها عن كل عثرة وكل تأثير خاطئ. وبهذا تقوى الروح ولا تتعرَّض إلى ضعفات...

كل هذه تقويات عادية. تتم بالأكثر لو كان روح اللّه يعمل في روح الإنسان ويتولّى قيادتها ... في هذه الحالة تكتسب الروح مسحة من جمال، يمكن أن تدخل تحت عنوان (زينة الروح) ...

★★ عجيب أن للإنسان - قبل أن يخرج من بيته - يقف أمام المرآة يتأمَّل نفسه، ليطمئن على أناقته وزينته وحُسن منظره ... بينما لا تهمه روحه ومنظرها وحُسن زينتها!! فما هي زينة الروح إذن؟

إنَّ الروح تتزيَّن بالفضائل ... تتزيَّن بالوداعة والرقة والاتضاع واللُّطف والأدب ودماثة الخلق ... فهل أنت قبلما تختلط بالمجتمع، تنظر في مرآة روحية، لتطمئن على روحك هل هى في زينتها كما ينبغي لها أن تكون؟ فيراها الناس في هذا الجمال، ويُمجِّدون اللَّه على نعمته...

★★ بهذه الزينة تتجمَّل الروح أيضاً في مقابلتها للَّه في السماء. حيث - في الموت - يترك الإنسان جسده، وتخرج روحه صاعدة إلى اللَّه، معطرَّة بالفضائل، لها رائحة ذكية ... حقاً هكذا خلق اللَّه الإنسان منذ البدء، مجملاً ومُزيَّناً بالبساطة والبراءة قبل أن يُخطئ. حيث كانت روحه في منتهى النقاء لا تعرف شرَّاً...

★★ إنَّ الروح النَّقيَّة الطاهرة، تقود الجسد معها في طريق روحي. أمَّا هى فيقودها روح اللَّه. وتكون مُجرَّد أداة في يد اللَّه، يعمل بها كل خير. وتتميَّز هذه الروح بالهيبة والقوة وبالحرارة أيضاً.

★★ الإنسان القريب من اللَّه يكون حاراً بالروح. وإن ابتعد عن اللَّه يدركه الفتور. والإنسان الحار في الروح، تشمل حرارة روحه كل شيء: إذا صلَّى، تكون صلاته حارة جداً ملتهبة بالحب الإلهي. تكون حارة في إيمانها، وفي خشوعها، وفي ألفاظها وتعبيراتها...

والإنسان المُتميِّز بحرارة الروح، حينما يقوم بخدمة روحية، مُظهِراً الحرارة في خدمته، فتكون خدمة ملتهبة، فيها الغيرة المقدسة النارية التي تهدف إلى انتشار الخير، وبناء ملكوت اللَّه على الأرض، بعكس الخدمة غير الروحية الخاملة الذابلة الفاترة.

★★ إنَّ الروح الطاهرة تكون لها قوة وهيبة وسُلطان. يكون لها سُلطان في التأثير على الناس، يُسميه البعض كارزما. فإن تكلَّم الشخص الروحي، تكون لكلمته قوة، ويكون لها سُلطان أن تدخل إلى العقل والقلب وتُحدِث تأثيراً.

إنَّ الشخص الذي يشعر بهيبة أبيه ويخافه، هناك سُلطان من روح أبيه عليه بالإضافة إلى سُلطان الوصية الإلهية. أمَّا الشخص الذي لا تزال هناك معركة بين جسده وروحه، ويقاوم أحدهما الآخر، وقد تكون روحه منهزمة أحياناً، فهذا قد فقد سُلطان روحه.

★★ أمَّا الشخص القوي بالروح، فإنَّ الشياطين نفسها تخافه، لأنه قد هزمها من قبل رافضاً كل إغراءاتها .. لذلك له هيبةٌ أمامها. ولكن الروح تفقد هيبتها، حينما تخضع للشيطان وتعطيه مجالاً أن يعمل فيها ويوجهها.. أمَّا الأرواح التي تهابها الشياطين، فهى التي جاهدت وغلبت ولم تستسلم للشيطان في أية شهوة أو هفوة .. إنها الأرواح الكبيرة.

★★ والأرواح الكبيرة هى كبيرة في محبتها للَّه، وفي عفّتها وفي قوتها، وفي مستواها. فلم تقتصر فقط على الوصول إلى التوبة، إنما ظلَّت تنمو إلى البِرِّ، ساعية إلى حياة القداسة والكمال. وهى لا تسعى فقط إلى خلاص نفسها، بل إلى خلاص الآخرين أيضاً.

والأرواح الكبيرة هى أيضاً كبيرة في المعرفة والفهم وفي الحكمة وبهذا أصبحت لها قدرة على إرشاد الآخرين وقيادتهم.

وبعض الأرواح الكبيرة، بعد أن تفارق جسدها على الأرض، ينتدبها اللَّه أحياناً لأداء خدمات لبعض المُتشفِّعين بها على الأرض.

١٧ فبراير ٢٠٠٨

رحلة الخبر إلى أذنيك

ليس كل ما يصل إلى أُذنيك هو صدق خالص. فلا تتحمَّس بسرعة لكل ما تسمع ولا لكل ما تقرأ. ولا تتخذ إجراءً سريعاً لمُجرَّد كلام سمعته من إنسان ما. بل تحقق أوَّلاً. واعرف أن كثيراً من الكلام يقطع رحلة طويلة قبل أن يصل إلى أُذنيك.

★★ صدق الحكيم الذي قال: "لا تُصدِّق كل ما يُقال". لهذا اجعل عقلك رقيباً على أُذنيك، وافحص كل ما تسمعه. ولا تُصدِّق كل خبر، لئلا تُعطي مجالاً للوشاة والكاذبين، ولِمَن يخترعون القصص، ولِمَن يؤلِّفون الأخبار، ولِمَن يدسُّون ويشهدون شهادة زور. كل هؤلاء يبحثون عن إنسان سهل يُصدِّقهم. وقد قال عنهم أمير الشعراء أحمد شوقي:

قد صادفوا أذناً صغواء ليِّنة   فأسمعوها الذي لم يُسمعوا أحداً

وما أجمل قوله أيضاً عن مثل هذا الذي يُصدِّق كل ما يسمعه، ويقبل الأكاذيب كأنها صدق:

أثَّر البهتان فيهِ   وانطوى الزورُ عليهِ

يا له من ببغاءٍ   عقله في أُذنيهِ

★★ نعم لو كُنَّا نعيش في عالم مثالِي، أو في وسط الملائكة، لأمكنك حينئذ أن تُصدِّق كل ما تسمعه، ولا تتعب ذاتك في فحص الأحاديث ولكن ما دام الكذب موجوداً في العالم، وما دمنا نعيش في مُجتمع توجد فيه ألوان من الناس يختلفون في نوع أخلاقياتهم، وفي مدى تمسكهم بالفضيلة، فإنَّ الحكمة تقتضي إذن أن نُدقِّق ونُحقِّق قبل أن نُصدِّق، وأن نفحص كل شيء ونتمسَّك بما هو حق.

★★ ولكن قد يقول أحدهم: "إنني أُصدِّق هذا الخبر على الرغم من غرابته، لأنني سمعته من إنسان صادق لا يمكن أن يكذب".

نعم، قد يكون هذا الإنسان صادقاً، ولكنه سمع الخبر من مصدر غير صادق، أو من مصدر غير دقيق ... أو قد يكون الشخص الذي حدَّثك أو نقل الخبر إلى مَن حدَّثك،

جاهلاً بحقيقة الأمر، أو على غير معرفة وثيقة أكيدة بما يقول ... أو قد يكون مبالغاً أو مازحاً أو مداعباً. أو رُبَّما يكون قد أخطأ في السماع أو الفهم. أو أن المصادر التي استقى منها معلوماته غير سليمة...

★★ أو رُبَّما يكون المصدر الأصلي الذي أخذ عنه هذا وذاك غير خالص النية فيما يقول. وهناك أسباب شخصية تدفعه إلى طمس الحقائق، أو إلى الدَّس والإيقاع بين الناس. أو قد يكون من النوع الذي يتباهى بمعرفة الأخبار والسبق إلى نشرها بين الناس. فيقول ما يصل إليه بسرعة بدون تحقيق ... وقد يكون مُحبَّاً للاستطلاع، يلقي الخبر ليعرف ما مدى وقعه على الناس.

★★ ولكن رُبَّما يقول القائل: "إني لم أسمع هذا الخبر من فرد واحد فقط، إنَّما من كثيرين، مما يجزم بصحته".

فنقول: إنه لا يصح أن نحكم عن طريق السماع دون تحقيق، حتى لو سمعنا من كثيرين! فما أكثر ما يكون كلام الكثيرين على وفرة عددهم، له مصدر واحد مخطئ ... وما أكثر مما تتفق جماعة كبيرة من الناس على كذب مشترك، وفي التاريخ أمثلة كثيرة عن هذا الأمر. وما أكثر ما تتفق مجموعة من شهود الزور على أمر ما، وهكذا تفعل أيضاً مجموعات من ناشري الشائعات...

★★ إنَّ وصية "لا تشهد بالزور" كما أنها موجّهة إلى المُتكلِّم، هى أيضاً موجّهة إلى السامع. فالذي يسمع الكذب ويقبله، إنَّما يُشجِّع الكاذب على الاستمرار في كذبه. وبقبوله، يحيط نفسه بأُناس مخطئين غير مخلصين.

★★ وكذلك فإنَّ ناقل الكذب يُعتبر كاذباً، وشريكاً في نشر الكذب. وقد يقع تحت هذا العنوان أيضاً مروجو الشائعات الكاذبة. بل قد يقع في هذا الفخ، البسطاء الذي يُصدِّقون كل ما يسمعونه! ويتكلَّمون عنه. كأنه حقيقة، دون فحص أو تدقيق. وفي الحقيقة لا نستطيع أن نُسمِّي مثل هذه بساطة. لأنَّ البساطة في جوهرها هى عدم التعقيد، وليس قلة الفهم أو البعد عن الحكمة والتدقيق. ونحن نؤمن بالبساطة الحكيمة، وبالحكمة البسيطة...

★★ اثنان يشتركان في خطية الكذب: قابل الكذب، وناقل الكذب. وكلاهما يشتركان مع الكاذب الأصلي في نشر كذبه.

وإن كانت بعض المشاكل تتسبَّب أحياناً من نقل الكلام، فإن أقل الناس ضرراً مَن ينقلون الكلام هو، كما يفعل جهاز تسجيل الصوت (الريكوردر) الأمين المُخلص، الذي لا يزيد شيئاً على ما قيل، ولا ينقص، بل يُعطي صورة دقيقة صادقة عمَّا قيل.

★★ إنَّما بعض الأشخاص قد يسمع كلاماً، فيتناوله ويضيف عليه رأيه الخاص ومفهومه الخاص، واستنتاجه وأغراضه وظنونه، ويُقدِّم كل ذلك معاً لإنسان آخر، كأنه الكلام المُباشر الذي سمعه ممَّن نطق به!!

★★ انظروا يا إخوتي ماء النيل وقت الفيضان، وهو بني اللون من كثرة ما حمل من طمي ... هذا الماء كان في أصله ماءً نقيًّا صافياً رائقاً عندما نزل مطراً من السماء على جبال الحبشة. ولكنه طوال رحلته في الطريق، كان ينحت الطمي من الصخور، ويختلط بالطين حتى وصل إلينا في الفيضان بصورته وهو بُني اللون طيني...

هكذا كثير من الأخبار التي تصل إليك مُشبَّعة بالطين، رُبَّما كانت رائقة صافية في بادئ الأمر. والفرق بينها وبين ماء النيل، أن طينه مُفيد للأرض. أمَّا الطين الذي خلطه الناس في نقلهم للأحاديث، فإنه ضار وخطر ومُفسد للعلاقات...

★★ كثير من الأخبار عندما تصل إليك، تكون أخبار مختلفة جداً عن الواقع. وسأضرب لذلك مثلاً:

مُجرَّد خبر هو: حدث حوار ساخن بين صديقين في أحد الموضوعات. وصل هذا الخبر إلى زميل لهما فقال: "وقد سمعت أن أحدهما جرح شعور صديقه أثناء الحوار جرحاً غائراً، وأهانه إهانة شديدة". ووصل هذا الكلام إلى شخص آخر، فأضاف: "وطبيعي أن هذا الذي أهين قد غضب غضباً شديداً وتألَّم". ووصل الخبر إلى شخص ثالث، فقال: "وسمعت أيضاً أنه قال بعد ذلك: "صديقي هذا هو خطيب أختي. فإن تزوَّجها سوف يهينها كما أهانني، ويجعل حياتها مُرًّا وعلقماً". ووصل هذا الكلام إلى شخص رابع، فأضاف: "وقد سمعت أنه ذهب إلى أسرته محملاً بهذه المشاعر، وحكى لهم كل شيء وهو متضايق

ومتألِّم". وسمع هذا الكلام شخص خامس، فقال: "وطبيعي أن أب هذه الأُسرة قال في اجتماع عائلي: نشكر اللّه الذي كشف لنا هذا الشخص العنيف قبل أن يتزوج ابنتنا. لا شكَّ أنه إذا تمَّ زواجه بها، سيجعل حياتها جحيماً لا يُطاق". ووصل هذا الكلام إلى شخص سادس، فقال: "ولا بد أنه في اجتماع الأُسرة نوقش موضوع فك تلك الخطوبة". ووصل هذا الكلام إلى شخص سابع، فأسرع ونشر خبراً في إحدى المجلات بعنوان: (مأساة فتاة مخطوبة)، قال فيه: "حدثت مشادة حامية بين صديقين، أدَّت إلى خلاف بينهما، ثم بين أُسرتيهما. وانتهى بفك الخطوبة التي بين أحدهما وأخت الآخر. وانتظروا التفاصيل بالأسماء في العدد المُقبل".

★★ حدث كل هذا بينما الصديقان اعتبرا حوارهما موضوعياً وليس شخصياً. وخرجا منه وهما في صفاء تام، دون أن يترك أي أثر سيئ في نفسية أحدهما ضد الآخر. ولكن هكذا كانت رحلة الخبر عن حوارهما الساخن.

لذلك أقول مرَّة أخرى: لا تُصدِّق كل ما يُقال. بل حقِّق ودقِّق، قبل أن تُصدِّق.



٢٤ فبراير ٢٠٠٨

الحق والدفاع عنه

ما هو الحق؟ الحق هو الصدق، فهو ضد الكذب. والحق هو البِرّ، ولذلك فهو ضد الباطل. والحق هو العدل. ولذلك فالحق ضد الظُّلم. ووزارة العدل كانت تُسمَّى قديماً بوزارة الحقانية. والكلية الجامعية الخاصة بالقوانين والعدل، هى كلية الحقوق. وأكثر من هذا كله، فإنَّ الحق هو اسم من أسماء اللَّه جلّ وعلا. لذلك فالحق له جلاله، وهو يعلو على كل شيء..

★★ سعيد هو الإنسان الذي لا يقول إلاَّ الحق، ولا يحكم إلاَّ بالحق، ولا يتصرَّف إلاَّ بالحق. والمغالاة فيما تظنه حقاً، ليست هى حقاً خالصاً. فإنَّ بعض الذين يحبون الحق يتطرفون في فهمه، ويكون هذا التَّطرُّف ضد الحق. لذلك قال بعض الفلاسفة: إنَّ الفضيلة الحقة هى توازن بين نقيضين هما الإفراط والتفريط.

وهكذا فإنَّ بعض مُحبي الحق يحتارون بين الوداعة والشجاعة: فالبعض قد يبالغون في الوداعة حتى تتحوَّل إلى ضعف وإلى ليونة في الطبع. أو قد يبالغون في الشجاعة حتى تتحوَّل إلى تهور واندفاع. بينما الحق أن يكون التَّصرُّف في حكمة. فيكون الإنسان وديعاً في شجاعته، وشُجاعاً في وداعته، لا يتطرَّف بل يحفظ التوازن بينهما.

وأيضاً في التربية الحقة، يحفظ التوازن بين التدليل والشدة. فليس الحنان الحقَّاني هو حب بلا ضابط، وبلا مبالاة بالأخطاء ممَّا يُشجِّع على الاستمرار فيها. كذلك من الناحية لا مانع من استخدام الحزم في غير عنف منفر..

★★ والذي يحب الحق، ويهمه الدفاع عنه، يجب عليه - قبل أن يأخذ حق اللَّه من الناس - أن يأخذ حق اللَّه أولاً وقبل كل شيء من نفسه هو. وكما قال الشاعر:

يا أيها الرجل المُعلِّم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
ابدأ بنفسك فإنهها عن غيّها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

★★ الذي يحب الحق، لا يجامل نفسه أبداً، ولا يدافع عن أخطائه ولا يبرّرها، ولا يلتمس لنفسه الأعذار في كل سقطاته وضعفاته. بل يعترف أنه أخطأ، فهذا حق. وأيضاً لا يجامل أحداً من أحبائه أو أصدقائه على حساب الحق. فإنَّ الذي يحب الحق، يفضل الحق أكثر من محبته للأصدقاء.

★★ والذي يحب الحق، له ميزان واحد يزن به كل الأفعال وكل الأشخاص. فهو بعيد عن الطائفية والتَّعصُّب. لا فرق عنده بين قريب وغريب. والحق عنده لا يتأرجح بعوامل تتصل بالدين أو الجنس أو القرابة. وأيضاً في حكمه على الأفعال، لا يبالغ في تقدير الخطأ والصواب ... ويعرف تماماً أنَّ مُبِرِّئُ المُذنِب ومُذنِّبُ البَرِيءَ، كِلاهُما غير مقبول أمام اللَّه، لأنَّ كليهما ضد الحق.

★★ والذي يحب الحق، لا يظلم أحداً، ولا يقبل أن يقع ظلم على أحد، حتى لو كان من الذين يعادونه...

وهو لا يدين أحداً في أمر من الأمور، بينما يبرر غيره في نفس الأمر، بسبب نوعية عواطفه تجاه هذا وتجاه ذاك. هو أيضاً لا مانع عنده من أن يدين نفسه في عمل من الأعمال، إن كان ما عمله ضد الحق...

★★ الذي يدافع عن الحق، ينبغي أن يتأكد تماماً أن ما يدافع عنه هو الحق. لأنَّ كثيرين يتحمَّسون لأمور مُعيَّنة، ويُدافعون عنها بكل قوَّتهم - عن جهل واندفاع - بينما لا تكون هذه الأمور حقاً في ذاتها، بل تحتاج منهم إلى دراسة متأنية ليتأكَّدوا أنَّ الحق في جانبهم في حماسهم هذا.

وبالمِثل مَن يُهاجم شخصاً ما بِاسم الحق، ينبغي أن يتأكَّد - قبل مهاجمته له - من أنه قد انحرف عن طريق الحق. وإلاَّ فإن مهاجمته له تكون لوناً من الظُّلم والتشهير لا يرضى عنها الحق في شيء، بل يرفضها.

★★ والذي يسير في طريق الحق، يكون باراً، يتحرَّر من الباطل، ومن الزيف، ومن الرياء والتَّملُّق والنفاق، ومن التَّظاهر بما ليس فيه. فكل هذه أمور ضد الحق... وأيضاً لا يكون شخصاً ذا وجهيْن. ولا يقول غير ما يبطن، بل يكون صادقاً في كل ما يقول. وليعلم أنَّ الرياء لا ينفعه بل ينكشف كما قال الشاعر:

ثوب الرياء يشفّ عما تحته فإذا التحفت به فإنك عاري

★★ والذي يحب الحق يحتمل من أجله، لأنَّ كثيرين لا يحبون الحق إن كان ضدَّ أهوائهم أو ضد مصالحهم، أو إن كان هذا الحق يكشفهم أمام غيرهم. لذلك هم يهاجمون مَن يقول الحق، ويحاولون أن يزيحوه من طريقهم أو يكتموا صوته. فعليه أن يحتمل.

★★ على أنَّ كلمة الحق لها قوَّتها، حتى إن صدرت من طفل صغير ذلك لأنَّ قوة الحق تنبع من ذاته لا من قائله. فكم تكون كلمة الحق أقوى وأقوى إن صدرت من إنسان مسئول له مكانته. بعكس ذلك الباطل الذي ليست له قوة في ذاته، مهما كانت قوة مَن يدافع عنه، ومهما كانت سُلطته.

★★ ومع ذلك فإنَّ العالم منذ القدم يشهد صراعاً مستمراً طوال الأجيال بين الحق والباطل. والمعروف أنَّ الحق له طريق واحد مستقيم، بينما الباطل له طُرق كثيرة وملتوية.

★★ وفي الصراع بين الحق والباطل، قد يبدو الحق منهزماً في بادئ الأمر، ولكنه لا بد أن ينتصر أخيراً. ولكن لماذا ينهزم الحق أولاً وينتصر الباطل؟ ذلك لأنَّ الباطل يستطيع أن يستخدم الكذب والخداع، بينما يتسامى الحق عن هذا. وأيضاً الباطل يلجأ إلى اللف والدوران، وإلى الدس والتآمر، وقد يجذب إليه كثيرين بأساليبه المخادعة، وبإغراءات ووعود. ولكنه لا يستطيع أن يستمر، فينتصر الحق أخيراً.

★★ هذا الأمر شبَّهه القديس أُغسطينوس بالوقود الذي ينتج عنه دخان ونار. فالدخان يعلو إلى فوق، ويظل يعلو ويعلو، وتتسع رقعته. وفيما هو يعلو وتتسع رقعته، فإنه يتبدد!! أمَّا النار فهي تبقى تحت، ولكنها تحتفظ بقوَّتها وحرارتها وتستمر.

★★ لذلك فلا يصح أن يخاف السائرون في طريق الحق أو ييأسوا، إن وجدوا أنَّ الباطل يرتفع ويعلو، أو حتى يسود. فإن هذا كله إلى حين ولن يستمر ... فلا بد أن ينتصر الحق أخيراً وينهزم الباطل أو يزول. ينبغي أن يبقى الحق صامداً لا يتزعزع. فقوَّته في صموده وفي المعونة الإلهية التي تعاضده من فوق.

٢ مارس ٢٠٠٨

العطاء: أهميته ودرجاته

إنَّ اللَّه - تبارك اسمه - هو المُعطي الحقيقي، والمُعطي الأعظم. إنه يُعطي الكل: يُعطي فوق ما نطلب، ويُعطي دون أن نطلب. لقد أعطانا نعمة الوجود، ونعمة الحياة. وأعطانا أيضاً نعمة العقل. وأعطانا خيرات، وكل ما نملكه هو من عنده...

★★ وقد كلَّفنا اللَّه أن نعطي الفقراء والمحتاجين، وأن نعطي دور العبادة، ونعطي الجمعيات الخيرية التي تختص برعاية الأيتام أو الأرامل أو المرضى أو المعوقين... وأن كل عطاء من هذا النوع يُعتبر كأنه مُقدَّم إلى اللَّه نفسه، أو من حقوق اللَّه علينا في مالنا. ونحن حينما نُعطي للَّه، إنما نقول له كما قال داود النبي من قبل: "الكل منك. ونحن من يدك أعطيناك".

★★ وفي التدريب على العطاء، أراد اللَّه من الإنسان أن يعطي شيئاً من كل ما يصل إلى يده، وليكن على الأقل عُشر ما عنده. وهذا وردت وصية العشور في التوراة من أيام موسى النبي. والمقصود بالعشور، ليس أن تكون كل كمية العطاء، وإنَّما هى الحد الأدنى للعطاء. لأنه من غير المعقول، إن دفعت العشور، ثم قصدك بعد ذلك شخص محتاج أو معوز، أن تقول له: "ليس لك عندي ما أعطيك إياه، لأني انتهيت من دفع عشوري، واستوفى اللَّه حقه من مالي"!!

إنَّ دفع العشور عند اليهود والمسيحيين، يُقابل الزكاة عند المسلمين. فهل العشور هى كل ما أمر به اللَّه في التوراة؟ كلا...

★★ فبالإضافة إلى العشور، هناك الوصايا الخاصة بالبكور والنذور. وكان المقصود بالبكور قديماً، أن يُعطي الإنسان كل بِكْر تلده بهائمه أو أغنامه، وأن يعطي ثمر شجره في السنة الأولى للإثمار، وأيضاً أوَّل حصيد أرضه.

ولما كُنَّا لا نعيش كلنا في بيئة زراعية. فالبكور حالياً بالنسبة إلى الموظف، أن يدفع أوَّل مُرتَّب يقبضه. وبالنسبة إلى الطبيب أوَّل كشف وأُجرة أوَّل عملية. وبالمثل مع باقي المهن...

أمَّا النذور فقانونها هو "خير لك أن لا تنــذر، مــن أن تنــذر ولا تفــي". والنــذور لا تؤجلها، ولا تلغيها، ولا تستبدلها...

★★ هناك عن العطاء، قاعدتان ذكرهما سليمان الحكيم، هما:

١- "لا تمنع الخير عن أهله، حين يكون في طاقة يدك أن تفعله".

٢- لا تقُل لصاحبك: "تعالَ غداً فأعطيك" وموجود عندك.

وفي هاتين القاعدتين يرتفع العطاء عن مستوى العشور، ويصــبح الواجــب علــى الإنسان أن يعطي طالما ذلك في قدرته. وأيضاً لا يؤخر العطاء ولا يؤجله.

★ أمَّا من جهة النذور، فكانت وصية اللَّه هى "خير لك أن لا تنذر، مــن أن تنــذر ولا تفي". والنذر هو عطاء اختياري يُقدِّمه الشخص، ولكنه مُلزم بالوفاء بــه. ولا يجــوز تغيير النذر أو تأجيله أو إلغائه. فإذا اضطر الإنسان للتأجيل لظروف ضاغطة، فهذا على الأقل أفضل من عدم الوفاء بالنذر.

★ العطاء أيضاً لا يقتصر على الماديات، إنما يطلب اللَّه منك أن تعطيه يومــاً فــي الأسبوع يكون له، نُسمِّيه "يوم الرب". وهو الأحد عند المسيحيين، والسبت عنــد اليهــود، والجمعة عند المسلمين.

كذلك من جهة الوقت، تطبق عليه أيضاً وصية البكور. فيكون أوَّل اليوم للَّه، ســواء في صلاة الفجر أو صلاة باكر. أو على الأقل يكون أوَّل مَن تُكلِّمه هو اللَّه، فــي صــلاة خاصة.

★ إنَّ العطاء هو نوع من البذل، والتَّخلُّص من الذاتية، وفيه أيضاً شيء من التَّجرُّد، والتَّخلُّص من حُب المال ومن حب الجميع والتكريم، ومن حب المقتنيات والممتلكات. وقد قال السيد المسيح: "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ".

لذلك كل يوم يمر عليك دون أن تعطي فيه شيئاً لغيرك، لا تعتبره من حياتك. واليوم الذي يكون كله أخذاً لا تحسبه مكسباً، إلاَّ لو كنت تأخذ لكي تعطي... لهذا فكل ما يصــل إلى يديك، درِّب نفسك أن تُعطي منه شيئاً لغيرك، ولا تنفرد به...

★ درِّب نفسك أيضاً أن تُعطي أفضل ما عندك. ولا تبحث عن الأشياء المرفوضة منك، فتعطيها للفقراء والمحتاجين، بل أعطِ ممَّا تحبه نفسك، وما تشعر برغبة في التَّمسُّك به...

وهناك درجة عالية في العطاء، وهى أن تُعطي من إعوازك. أو أن تُعطي وأنت محتاج إلى ما تعطيه. وهنا تُظهر أنك في محبتك لغيرك، تُفضّله على نفسك.

★ والذي يحب العطاء، يفرح بما يعطيه لغيره. وقد قال داود النبي في المزمور: "المُعطي المسرور يحبه الرب". والرب نفسه يُعطي خليقته بسرور. نقول ذلك لأنّ البعض يعطي وهو متضايق ومتذمّر، ويشعر أنّ الذين يأخذون منه يرمقونه. مثل هذا الشخص، إنَّما يُعطي من جيبه وليس من قلبه! أمَّا الإنسان الروحي، فإنه يفرح حينما يُعطي، إذ يشعر أنه قد أسعد غيره، أو فك ضيقة إنسان. وفرحه يدل على رضى في القلب وراحة بالعطاء.

★ فضيلة أخرى في العطاء، أن تُعطي بسخاء بلا تقتير. لا تُعطِ وأنت تحاسب اللَّه والناس على ما تعطيه. اللَّه نفسه في عطائه، لا يُعطي بكيل أو بقدر، إنما يفتح كوى السماء ويغدق علينا حتى نقول كفانا كفانا. كما أنه يُعطي بمداومة...

★★ هناك درجة أعلى في العطاء وهى أن يعطي الإنسان كل ما يملك. وهذا ما فعله القديس الأنبا أنطونيوس أبو جميع الرهبان، الذي نفَّذ وصية السيد المسيح القائلة: "إن أردت أن تتبعني، اذهب بِع كل ما لك وأعطه للفقراء، وتعالَ اتبعني" ولا شك أن هذه درجة من الكمال والتَّجرُّد لا يستطيعها كل أحد، إنَّما هى خاصة بالنُّسَّاك والزاهدين. وهى أفضل من الإعطاء من العوز. والذي يعطي الكل، إنَّما يُبرهِن على أنه لم تعد في قلبه أيَّة شهوة لامتلاك شيء.

★★ على أنه أعلى درجة في العطاء، هى أن يُعطي الإنسان ذاته. كما يبذل الجندي ذاته في الدفاع عن وطنه، وكما يفدي شخص غيره بحياته...

ومثال هذا العطاء، الشمعة التي تذوب وتنتهي لكي تنير للآخرين. وأيضاً حبة البخور التي تحترق بالنار، لكي تُقدِّم رائحة ذكية لغيرها. فإن كنت أنت لا تستطيع أن تبذل ذاتك لغيرك، فعلى الأقل أعطه قلبك وحُبك.

★★ بقى أن أقول لك: إنَّما في كل ما تعطيه إنما تنال بركة. فما تعطيه من مالك، تأخذ في مقابله بركة لِمَا يبقى من مالك. وما تعطيه من وقتك، إنَّما يبارك كل وقتك.

★★ لهذا كله درِّب نفسك على العطاء. ودرِّب أطفالك، كأن تجعلهم يُقدِّمون الحلوى لضيوف، أو تشجعهم على إعطاء إخوتهم وأصدقائهم.

٩ مارس ٢٠٠٨

أنصاف الحقائق

الذي يريد أن يصل إلى الحقيقة، لا يجوز له أن يعتمد على وجهة نظر واحدة، إنَّما عليه أن يستمع إلى كل وجهات النظر، ويفحصها ويُحلّلها، ليخرج بنتيجة سليمة. لذلك إن عرض عليك شخص أحد أوجه الحقيقة، فلا تُصدِّق بسرعة بدون تحقق، إنما ابحث: أين الوجه الآخر؟ أو أين الأوجه الأخرى؟

★★ إن شكا أحد من عقوبة شديدة وقعت عليه، فلا تسرع وتصف الذي عاقبه بالقسوة والعنف، إنما ابحث من الناحية الأخرى عن الذنب الذي بسببه تمَّت العقوبة. فربَّما إن عرفته، تدرك أن العقوبة كانت أقل مما يستحقه من جزاء! وحينئذ ستصف مَن عاقبه بالشفقة والحنو.

★★ إن حدَّثك الربيع عن حالة الجو في إحدى البلاد، فلا تثق بأنها حالة دائمة لها، إنما أنصت إلى ما يقوله الصيف والخريف والشتاء. وحينئذ ستعرف ما هي طبيعة تلك البلدة، لأنك لم تقتصر في معرفتك لها على جانب مُعيَّن في وقت مُعيَّن...

★★ وإن حكى عن نفسه، ومدح ذاته بصفات خاصة، فلا تحكم على شخصيته بما سمعته منه، إنما استمع أيضاً إلى ما يقوله الناس. ثم كوِّن لك رأياً من سماع الجانبين...

كذلك لا يكفي ما يعرف عن شخصيته وتصرفاته أمام الناس، فهذه نصف الحقيقة، والنصف الآخر هو طريقة تعامله في بيته ومع عائلته. ربَّما يكون هناك بطبع آخر أو بأسلوب آخر. وهذا الأمر يجب أن يتأكد منه مَن يوشك أن يدخل في خطوبة أو زواج ... فقد يكون الشخص بصورة ما أمام المجتمع، وبصورة أخرى في بيته، وقد يكون في داخل قلبه وأحاسيسه شيئاً ثالثاً. وهو يجمع هذا كله! في العلن صورة، وفي الخفاء صورة مغايرة!

★★ وربَّما ما يعلنه إنسان عن مبادئه وأفكاره ورغباته، هو جزء من الحقيقة، أمَّا ما ينفذه من تلك المبادئ والأفكار شيء آخر ... حقاً إنَّ الأمور الظاهرة هي جزء من الحقيقة، بينما الأمور الخفية هي جزء آخر وقد يكون هو الجزء الأكبر ...

★★ لا تحكم على يهوذا بصورته وهو يتبع المسيح وينشر تعاليمه. إنَّما ضع إلى جوارها صورته وهو يخونه. حينئذٍ تعرف حقيقة ذلك الرجُل ... وأي صديق لك لا تحكم على مشاعره بحالته أثناء الصفاء والرضى، إنما ضع إلى جوارها مشاعره وانفعالاته أثناء الخلاف والغضب ...

★★ وكل إنسان، اذكر له ما له وما عليه، دون أيَّة مبالغة في فضائله أو نقائصه، حتى تكوِّن لك صورة متكاملة عنه. لا تقتصر على نواحي القوة فيه، أو نواحي الضعف، إنما تشمل الأمريْن معاً.

★★ إن الاتهام يُمثِّل نصف الحقيقة. والدفاع يُمثِّل النصف الآخر. والقاضي العادل يستمع إلى الأمريْن معاً، ويمكنه أن يستنتج الحقيقة. وبنفس الوضع ما يُقال في السياسة عن التأييد والمعارضة. فكل منهما يُمثِّل وجهة نظر، وربَّما يُمثِّل جزءاً من الحقيقة. فالتأييد باستمرار في كل الحالات قد يضر، وكذلك المعارضة باستمرار. ولكن اجتماع التأييد والمعارضة معاً هو صورة الديمقراطية ...

★★ حقوق المواطن في بلده، هو جزء من الحقيقة، وواجب المواطن نحو وطنه هو الجزء الآخر. والمعروف أنَّ كل حق قد يقابله واجب أو واجبات. هذا بالنسبة إلى الوطن بصفة عامة، ويمكن تطبيقه أيضاً في نطاق الأسرة. فالابن مثلاً له حقوق يؤديها له والداه، وفي نفس الوقت عليه واجبات حيالها. ونُطبِّق نفس المنطق على العلاقة بين الزوج والزوجة.

★★ وفي العلاقة أيضاً مع اللّه تبارك اسمه. أنت تطلب منه المغفرة، وهو يطلب منك التوبة. والمغفرة والتوبة متلازمتان ... فلا توجد مغفرة بدون توبة، ولا توجد توبة بدون مغفرة...

★★ ما يفعله الإنسان هو نصف الحقيقة، وردود الفعل هو النصف الآخر. فلا ينتظر شخص أن يعمل عملاً، دون أن يكون لذلك رد فعله. وعلى الإنسان الحكيم أن يحسب رد الفعل قبل أن يعمل أي عمل ... وهذا الكلام نقوله أيضاً عن السبب والنتيجة. فأمور مُعيَّنة قد تحدث لك، ويكون سببها تصرفات منك أدَّت إلى ذلك...

★★ فإن مررت على حقل في موسم الحصاد، ووجدت فيه خيراً كثيراً، فاعرف أنَّ هذا هو نتيجة طبيعية لِمَا بُذِلَ لأجله في موسم الحرث والبذور والغرس. والعكس صحيح، وفي ذلك يقول الشاعر:

إذ أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً   ندمت على التفريط في زمن البذر

ونفس الوضع نقوله عن أي تلميذ في الدراسة والنجاح. أتريد أن تنجح، هذه نصف الحقيقة. أمَّا النصف الآخر فهو أن تذاكر وتدرس وتراجع، وتداوم على ذلك...

★★ قد يقول شخص: "هذه القصة جميلة، وقد بدأت قراءتها". نقول له: انتظر حتى تصل إلى نهايتها ومغزاها لكي تحكم عليها. والمَثَل يقول: "نهاية أمر خير من بدايته". إنَّ البداية جزء من الحقيقة، والمهم هو النهاية...

نقول هذا أيضاً على أيَّة مباراة. لا نحكم عليها من جهة بدايتها، بل بنهايتها. وبنفس الوضع لا نستطيع أن نحكم على سياسة ما إلاَّ بعد أن نرى نتيجتها: هل نجحت أم فشلت؟ والكلمة التي تُقال، نحكم عليها من جهة تأثيرها ونتائجها.

★★ قد يحزن شخص، ويقول: "تجارب كثيرة أصابتني". فنقول له: التجربة هي نصف الحقيقة. أمَّا النصف الآخر فهو البركة التي يمنحها اللَّه لِمَن يحتمل التجربة. كذلك فإنَّ عذابات الشهداء هى نصف الحقيقة. أمَّا النصف الآخر فهو المجد الذي يمنحه اللَّه للشهداء مكافأة على استشهادهم.

★★ من ناحية أخرى، رُبَّما شخص منتحر يرى من الموت يُخلِّصه من شقاء حياته. هذه نصف الحقيقة. أمَّا النصف الآخر فهو مصيره بعد الموت كإنسان قاتل قد قتل نفسه!

★★ قد يقول البعض: "إنَّ الشر ينمو في الأرض". فنقول له: هذه نصف الحقيقة، أمَّا نصفها الآخر، فهو أنَّ الخير أيضاً. كلاهما ينميان معاً ... مع اختلاف النسبة.

١٦ مارس ٢٠٠٨

الحركة
في الكون والجسد والروح

الحركة في جسم الإنسان دليل على الحياة. فالدم فيه يتحرّك، والتنفس هو حركة شهيق وزفير، وأجهزة الجسد تتحرّك، والقلب ينبض بالحركة. فإذا مات الإنسان - وكذلك الحيوان - توقفت حركته، ويُقال إنه أصبح جثة هامدة لا حركة فيها... إنما الحركة فيها نشاط وفيها حيوية.

★★ وعندما خلق اللّه الأجرام السمائية، جعل فيها عنصر الحركة، فالأرض تدور حول نفسها مرّة كل يوم، وينتج عن ذلك النهار والليل. وتدور حول الشمس مرّة كل عام ينتج عنها الفصول الأربعة. كذلك الكواكب والنجوم تتحرك وتدور ويرصد علماء الفَلَك تحركاتها. والقمر أيضاً في علاقته مع الأرض مما ينتج عن ذلك أوجه القمر خلال كل شهر.

والنبات أيضاً تتحرّك جذوره داخل الأرض، وتتحرّك فروعه خارجها. وفي حركته ينمو، ويمتد جذعه إلى فوق ويعلو، وتحمل فروعه ثماراً أو أوراقاً أو أزهاراً...

★★ والإنسان الذي لا يتحرّك كثيراً يُصاب بالخمول. وأطرافه التي يتوقف تحركها تُصاب بالشلل. ولهذا يحب الإنسان لجسمه أن يتحرّك، عن طريق المشي أو الرياضة أو السباحة. كل ذلك لكي ينشط الجسد ويقوى ويتدرّب الإنسان على دوام الحركة.

وما أجمل المثل القائل: "في الحركة بركة".

★★ الحياة الروحية أيضاً مطلوب فيها الحركة وعدم التوقف. فخادم اللّه من المفروض أن يتحرّك في كل مجال خدمته. وإن لم يتحرّك ينتقده الناس ويصفونه بالتقصير، ويصير عبئاً. حتى الناسك أو العابد، فإنه أيضاً يتحرّك: إن كان في الوحدة أو الخلوة، يتحرّك نحو اللّه. وإن كان في الخدمة يتحرّك نحو الناس.

★★ الإنسان الروحاني، يكون دائماً نشيطاً. وتتحرّك روحه باستمرار، سواء في العبادة، أو في الاهتمام بكل مَن هم حوله، لكي يقودهم في طريق الخير. ويفعل ذلك في

محيط أسرته أو في مجال أصدقائه ... ما أجمل ما قيل عن السيد المسيح إنه كان يجــول يصنع خيراً، ويطوف المدن والقرى يُعلِّم ويشفي ...

★★ التوبة هى أيضاً حركة داخل القلب لتجديد الحياة. وهى أيضاً - مــن الناحيــة العملية - حركة ينتقل بها التائب من حياة خاطئة إلى حياة بارة ... والصلاة هــى أيضــاً حركة يتجه بها القلب والفكر واللسان إلى اللَّه ليتحدَّث إليه... إن اللَّه - تبــارك اســمه - يجذب الإنسان إليه. وهذه حركة من النعمة، تليها حركة استجابة من القلب البشري ليسلك حسب مشيئة اللَّه.

★★ مفروض في الإنسان الروحي أن ينمو باستمرار في حياة الفضيلة والبِرّ. وهذا النمو الروحي هو لون إيجابي من الحركة، به يمتد الإنسان البار نحو حياة الكمال النسبي الذي تبلغ إليه طبيعته البشرية، حسبما تستطيع من الجهاد، وحسبما تساعده النعمة الإلهية. ومهما وصل إلى درجات روحية، فإنه يحاول أن يمتد إلى قُدّام ولا يتوقف. وهكذا تستمر حرارته وينمو ولا يصيبه الفتور..

★★ إن كان أحد فينا لا ينمو روحياً، فهذا بلا شك تعوزه الحركة المقدســة التــي تدفعه نحو المثاليات ... وعن هذا النمو الروحي، قال أحد الأدباء الروحيين: "اركض في الطريق نحو اللَّه. وإن لم تستطع أن تركض، امشِ. وإن لم تستطع أن تمشي ازحــف... ولكن حذار أن تتوقف"...

ضع أمامك باستمرار أن تنمو، سواء في الصلاة، أو التأمُّل، أو القــراءة الروحيــة، أو في خدمة الآخرين، أو في سائر التفاصيل الخاصة بحياة الفضيلة...

★★ اعرف أنَّ الشيطان أيضاً هو دائم الحركة، لا يهدأ من الجــولان فــي الأرض والتَّمشِّي فيها، لكي يلتمس فريسة له بين البشر في أي موضع. فما دام هو دائم الحركــة، ينبغي أن نواجهه بحركة مضادة لحركاته لكي توقفها وتمنعها من الوصــول إلــى إدراك غايتها...

★★ لذلك يا أخي - في جهادك الروحي - إن لم تستطع أن تتحرَّك، الجأ إلى مَــن يحركك ... إلى مرشد روحي، أو إلى اجتماعات روحية فيها وعظ مؤثِّر أو توجيــه لــه قوَّته. أو ابحث عن كتاب روحي له تأثيره العميق، أو كاسيت فيه تسجيل صوتي لإحــدى العظات التي تمس حياتك. فكل هذه الأسئلة قد تحرك عاطفتك وتقودك إلــى الخيــر، إن

أحسنت اختيار نوعيتها. أو الجأ بالصلاة إلى نعمة الله فهي قادرة أن تدفعك إلى قدام في حياة الروح ...

★★ من جهة تعاملنا مع الآخرين، قد يقابلك إنسان يحتاج إلى معونة روحية، ويحكي لك عن متاعبه. والمفروض أن يتحرّك قلبك نحوه، وأن تعمل ما يمكنك لأجله، وإلاَّ يوبِّخك ضميرك...

هنا وأقول: كم من مساكين يطرقون أبوابنا، ونحن لا نتحرّك لمعونتهم! وكم من محتاجين - مادياً أو نفسياً - ونحن نهملهم! وكل واحد منهم يشكو ويقول: لم أجد مَن يشعر بي، ولا مَن يهتم بمشكلتي! إذن يجب أن نتحرّك نحو هؤلاء ... نتحرّك قلبياً فنشفق عليهم، ونتحرّك أيضاً من جهة العمل...

★★ الحياة الروحية يا إخوتي كلها حركة، سواء في هذا العالم أو في العالم الآخر. حتى الموت، وإن كان يتسبَّب في توقف حركة الجسد، إلاَّ أن فيه حركة للروح. ذلك أنَّ الروح البشرية - في حالة الموت - تتحرّك راجعة إلى الله.

وقيامة الأموات هي أيضاً حركة. إذ تتحرّك الأرواح من مستقرَّها لكي تتحد بالأجساد. ثم تتحرّك الأجساد القائمة من الموت لكي تقف أمام اللَّه العادل في يوم الحساب. وبعد الحساب يتحرّك الكل إلى مصيرهم الأبدي.

★★ والأبرار يتحركون إلى عِشرة الملائكة، وإلى المجد الذي ينتظرهم مكافأة على جهادهم للثبات في الفضيلة، بضبط النفس والانتصار على كل حيل الشيطان وإغراءاته. وكل القلوب الطاهرة تنتظر هذه النهاية السعيدة، حيث ينال الأبرار أكاليل تناسب كل نوعيات تحركهم نحو الخير.

لذلك استعدوا من الآن، بتهيئة قلوبكم وأفكاركم لذلك المجد العتيد. واملأوا قلوبكم بالحرارة الروحية، ومحبة اللَّه ومحبة الخير، ومحبة السُّكنى في السماء. وخلال هذه الحياة الأرضية التي نعيشها الآن، اكنزوا لكم كنوزاً في السماء من كل عمل صالح تعملونه وينتظركم هناك.

٢٣ مارس ٢٠٠٨

معرفة الشر
ما هى؟ وما أضرارها؟

ليست كل معرفة نافعة للكل. فهناك معارف قد تؤثِّر سلبياً في حياة الإنسان، إذ تدنس فكره أو قلبه، وتغرس فيه مشاعر خاطئة، وقد تتطور معه إلى ارتكاب الخطأ...!

★★ عندما خلق اللَّه الإنسان، كان الإنسان نقياً وبسيطاً لا يعرف شراً على الإطلاق. ثم بدأ يخطئ ويعرف الشر. غير أن معرفته للشر كانت محدودة. وبمرور الوقت ازدادت معرفته لشرور عديدة. وحالياً وجدت مصادر كثيرة تؤدِّي إلى معرفة الشر، منها بعض المعلومات التي ينقلها النت والكمبيوتر وبعض القنوات الفضائية، والمجلات ووسائل الإعلام، وأفلام الإثارة، وأفلام العنف والجنس، وبعض كتب الإباحية، ونشر وسائل الإجرام. نضيف ما يوحي به الشيطان من أفكار وحِيَل...

★★ إنَّ معرفة الشر قد تقود الضعفاء إلى السقوط. أمَّا الناضجون، فإنَّ هذه المعرفة تقودهم إلى الوقاية من الشرّ. وينتفع المرشدون الروحيون والآباء والقادة بهذه المعرفة في تعليم أبنائنا كيف يبتعدون عن هذه الشرور، مظهرين لهم الأضرار والنتائج السيئة لها. كما أن أي شخص قد سقط بمعرفة الشر، يحاول أن يحترس حتى لا يسقط مرة أخرى... وهكذا فإنَّ هذه المعرفة حتى تعطي البعض خبرة وحكمة وبخاصة الاحتراس من الخطايا التي تأتي في ثياب الحملان وهى ذئاب خاطفة..

★★ لكن خطورة معرفة "الشر"، تأتي من تأثيره وجاذبيته التي تقود إلى ممارسته. مثال ذلك امرأة تشتهي أن تنجب ابناً، فيصل إلى معرفتها خبر عن بنوك الأعضاء وما يوجد فيه من البويضات المخصبة، حيث تنتقي منها بويضة لتوضع في رحمها تحمل ما تريده من شكل الطفل المطلوب، وطوله ولون شعره وعينيه. بينما ليس من حقِّها أن توضع في رحمها بويضة مخصبة من رجل غير زوجها، ويكون لها ابن مجهول الأب، وتكون هى مُجرَّد حاضنة وليست أُمَّاً. ولا شك أنَّ هذا شر، قادت إليه معرفة الشر...

★★ كذلك من معرفة الشر، محاولة الاتصال بالأرواح عن طريق التنويم المغناطيسي باستخدام وسيط يكون تحت قيادة المنوم المغناطيسي ليستحضر (روحاً) لا ندري ما حقيقتها!!

وأيضاً محاولة معرفة المستقبل عن طريق قراءة الكف أو الفنجان، أو عن طريق النجوم والأبراج. وللأسف يوجد كثيرون يؤمنون بهذه الغيبيات ويتخذونها وسيلة للمعرفة ويمارسونها، حتى في الموافقة على الزواج بأن يتأكدوا هل برج الخطيب وصفاته يوافق برج الخطيبة أمْ لا؟!

★★ إنَّ معرفة الشر قد تُعلِّم الشخص أين توجد الخطية؟ وكيفية ممارستها، وأيضاً كيفية تغطيتها والهروب من مسؤوليتها!!

ولا نقصد بالخطية مُجرَّد خطايا الجسد أو الحواس بأنواعها، كمعرفة التدخين مثلاً وشُرب الخمر، ومعرفة طُرق الإدمان ومواده التي تُدمِّر المخ أو تتلف الجسد.

★★ إنما هناك معرفة أخرى تخص الفكر مثل الشكوك.

ليست فقط الشكوك في إخلاص صديق أو إخلاص زوجة، نتيجة ما يصل إلى الذهن من معلومات تتعب الفكر والقلب. بل بالأكثر معرفة شكوك تتعلَّق بالدين والعقيدة عن طريق طوائف منحرفة تنشر مذاهبها، أو عن طريق غواة التعليم ونشر أفكارهم الخاصة، أو بواسطة بعض الفلسفات الملحدة...

★★ ومعرفة الشر قد تأتي للكبار عن طريق تحقيقاتهم في أخطاء الغير، أو أثناء حل المشاكل، حيث كل طرف فيها يُلقي المسئولية على الطرف الآخر، شارحاً ما يرتكبه من شرور، أو ما في نيّاته من شرٍّ...

★★ على أن هناك معرفة خاطئة تأتي عن طريق مُحبي هذه المعرفة والباحثين عنها لإشباع شهواتهم إلى المعرفة الخاطئة. ومنهم محبو الاستطلاع، والذين يشتاقون إلى معرفة أسرار غيرهم، وبخاصة الانحرافات والفضائح ، ويجدون لذَّة في نشر ذلك، مع ما يتركه نشرهم من تشويه أفكار الغير ومعرفة كيف تنشأ الفضيحة ووسائلها ... وبخاصة في أمور الفساد سواء من جهة خطايا الجسد، أو المعاملات المالية.

★★ ومن ضمن معرفة الشر، معرفة الشخص لِمَا يقوله الناس عنه (أعني أعداءه) مما يلوث سمعته، وبخاصة ما يُسمَّى الغيبة إذ يُقال في غيبته. وما تتركه هـذه المعرفـة في نفسه من ضيق، ومن سوء علاقته بالغير.

★★ ومن معرفة الشر أيضاً، معرفة طُرق النصب والاحتيال. ولعلَّ مـن أمثلتهـا طُرق الغش في التجارة، والأسوأ من ذلك الغش في الأدوية، والغش في الأغذية بأسـلوب يؤدِّي إلى الإضرار بالصحة أو يؤدِّي إلى الموت.

★★ ومن معرفة الشر أيضاً معرفة طُرق الغش في الامتحانات التي قـد يتعلَّمهـا الطلبة من بعضهم البعض. ويوجد طلبة مختبرون في هذا المجال. حدث مـرَّة أن طالبـاً دخل إلى الامتحان، وقد كتب جزءاً كبيراً من المُقرَّر في ورقة صغيرة. ولما ضبطوا ذلك معه، وضعوا تلك الورقة في متحف الكلية بسبب إتقانها العجيب، وعُوقِبَ الطالب.

★★ ومن معرفة الشر، معرفة أنواع من طُرق السرقة، وبخاصة سرقة البنوك، أو التحايل على أخذ قروض منها بدون ضمانات ثم السفر إلـى الخـارج هروبـاً مـن رد القرض. أو سرقة أحد البيوت في غياب صاحبه، بأن يسـتخدم السـارق Master Key وليس مجموعة من المفاتيح كما تنشر ذلك صور الكاريكاتير. ومن الضالعين في السـرقة مَن يخصصون في فتح الخزائن.

هناك أيضاً ما يسمونها (مافيا) وهى تضم مجموعة من محترفي السرقة. وكل فـرد فيها له خبرة في ممارسة هذه المهنة لمدة طويلة، ولهم ذكاء وحيل لا تخطر علـى فكـر إنسان. ولكنهم يلقنون هذه المعرفة لتلامذتهم في المهنة وفي معرفة الشر...

★★ ومن معرفة الشر أيضاً معرفة التَّهرُّب من المسؤولية. وربَّما في نفس الوقـت طريقة إلصاقها بالغير. وبهذا يصبح الشر شريْن. ومن الأمور العجيبة أن مَنْ يفعل ذلـك يرى نفسه ماهراً على الرغم من ازدواج الشر الذي يرتكبه، ويكون أيضاً سعيداً بما يفعل. مثال ذلك رئيس مجلس إدارة شركة أو بنك، يسرق مبلغاً كبيراً من مال تلـك المؤسسـة، وإن تمَّ اكتشاف السرقة، يحاول أن يلصقها بكاتب حسابات أو أمين خزنة، ويخـرج هـو بريئاً وشريفاً!!

★★ ومن معرفة الشر، معرفة طُرق من (الفهلوة)، ووسائل للتحايل علـى الكبـار بأساليب من النفاق أو المديح الكاذب أو الرياء...

٣٠ مارس ٢٠٠٨

كنوز في السماء

كل ما في السماء كنوز، لا تخطر على قلب بشر. وكلها قد أعدَّها اللَّه للأبرار، مكافأةً لهم على ثباتهم في الفضيلة، وعلى جهادهم الروحي وانتصاراتهم على كل إغراءات الشيطان وحيله، هو وكل أعوانه.

★★ ولكنني في هذا المقال لست أقصد الكنوز التي أعدَّها اللَّه - تبارك اسمه - إنَّما أقصد ما يكنزه الإنسان لنفسه في السماء، بأنواع وطُرق شتَّى سوف نتحدَّث عنها...

★★ وسعيد هو الإنسان الذي لا يركِّز كل اهتماماته وجهده على كنوز يكنزها ههنا في الأرض، كأموال في البنوك، أو عقارات وأبنية، أو أرضٍ يمتلكها، أو مصانع وشركات، أو ما شاكل ذلك من المقتنيات الأرضية ... إنما يكون له نصيب أيضاً فيما يجب أن يقتنيه في السماء وما يكنزه هناك. فلماذا يكون هذا؟ وكيف؟

★★ اكنز لك كنوزاً في السماء، لأن كل ما في الأرض هو فانٍ لا يدوم. وكل ما تقتنيه فيها، لن تأخذه معك يوم تترك هذه الأرض مهما طال عمرك. لذلك عليك أن تضع أمامك ميزاناً يُفرِّق بين الفانيات والباقيات: ما تأخذه معك، وما تتركه لغيرك، أردت أو لم ترد...

★★ قد يقول البعض: "أنا - إن تركت العالم - فكل ما أقتنيه سأتركه لأولادي وأفراد عائلتي. وهكذا لن يضيع مني شيء" وطبعاً هذا أمر مقبول لا يُعارضه أحد، فأنت مسؤول عن أولادك مسؤولية اجتماعية أمام اللَّه والناس. ولكن هذا لا يمنع من أن تُقدِّم جزءاً من أموالك للغير. والحكمة تقول لنا جميعاً: "افعلوا هذه، ولا تتركوا تلك". ومحبة كل إنسان للخير ينبغي أنها لا تقتصر على أولاده، بل تكون شاملة. لأنه قد يكون الغير محتاجاً إلى المعونة أكثر من أولادك...

كما أنك لا تضمن أولادك هل يحسنون التَّصرُّف في مالك أم يسيئون؟ فإن كانوا حكماء وميَّالين إلى عمل الخير، سوف تنال نصيباً في السماء من أجرهم. وإن كانوا

عكس ذلك، وضيَّعوا المال بعيش مُسرف أو في ما لا يليق، تكون قد خسرت كل شيء. وعلى كل حال، فالأمر المضمون، هو أن تفعل خيراً للآخرين في حياتك مباشرةً.

★★ كذلك ينبغي أن تعرف أن كل المال الذي لك، وكل الخيرات التي منحك اللَّه إيَّاها، أنت مُجرَّد وكيل عليها لكي تستخدمها في الخير. وسوف تقدم عنها حساباً أمام اللَّه الذي سيقول لك هنا وفي الأبدية: "اعطني حساب وكالتك".

★★ واذكر دائماً الحكمة التي تقول: "ما عاش مَن عاش لنفسه فقط". فأنت تعيش يا أخي في مجتمع له حقوق عليك، ولا بد أن تقوم بواجبك. فاكتنازك كل أموالك لنفسك، دون أن تعطي منها لغيرك وبخاصة للمحتاجين منهم، هو لون من الأنانية والالتفاف حول الذات، لا أقبله لك، ولا يجوز أن تقبله لنفسك...

★★ حسنٌ أن يسعد الإنسان في حياته، ولكن الأفضل من هذا، أن يُسعِد غيره. وبإسعاده للغير سوف يشعر بسعادة أكثر وأسمى. ولهذا الأمر فائدتان: فالذي يُسعِد غيره من ماله له أجر في السماء. وكل ما يدفعه يصير كنزاً له في الأبدية. وكأنه بهذا يحوِّل المال الأرضي الفاني إلى ما يسمونها "عملة صعبة" أعني سمائية. أمَّا الفائدة الثانية، فهى أنَّ هؤلاء الذين يسعدهم سوف يدعون له بالخير، ويُصلُّون من أجله، ويقبل اللَّه صلواتهم لأنها من قلوبهم...

★★ نقطة أخرى، وهى أنك إن أنفقت جزءاً من أموالك سوف يبارك اللَّه الباقي، وستجد أن مالك - بالعطاء - قد زاد ولم ينقص، إذ قد دخلت البركة بما قدمته لغيرك من الخير. وبخاصة في هذا العصر الذي انتشر فيه الغلاء وارتفعت الأسعار بطريقة لا يحتملها الكثيرون. واعرف أن كل معونة مالية تُقدّمها لمحتاج، لا ينساها لك اللَّه، بل أنه يعينك في حياتك كما أعنت غيرك...

★★ وتأكَّد تماماً أن ماليتك الحقيقية ليست هى مُجرَّد رصيدك في البنوك، أو ما تذخر به خزائنك. إنما رصيدك الحقيقي أمام اللَّه هو عدد الذين أسعدتهم بمعوناتك لهم، ومساهمتك في رفع الضيق عنهم، تُرى كم هم؟

★★ أيضاً من الكنوز التي لك في السماء، ما ساهمت به في حَل مشاكل الناس، ومقدار جهدك في إراحة غيرك. حاول إذن أن تريح غيرك على قدر ما تستطيع، مِن كل مَن سمح اللَّه أن تقابلهم في طريق الحياة، أو مَن يقصدونك ولهم عشم فيك أن تصنع معهم خيراً.

★★ لهذا فكل وظيفة تعمل فيها، أو كل مسئولية تُعهد إليك، اتخذها بقدر استطاعتك مجالاً لعمل الخير وإراحة الناس حسب ما يسمح به اختصاصك. وفي هذا، أتذكَّر أنني قلت ذات مرَّة إنَّ الموظف النبيل يجد حلاً لكل مشكلة تصل إليه. أمَّا الموظف المُعقَّد فإنه يحاول أن يخلق مشكلة لكُلِّ حلٍّ، فيُعقِّد الأمور حسب نوع نفسيته!

وثق أن سُمعتك سوف تتبعك بعد ترك الوظيفة أو المسؤولية، ويصدر الناس أحكاماً من جهتك يجمعون عليها، فيحكمون على شخصيتك حسب ما فعلته...

★★ اكنز لك أيضاً حياة فاضلة، فإنَّ أعمالك ستتبعك وتقف أمامك في يوم الدينونة الرهيب. فيا ليت حياتك تكون كلها خيراً، لك ولكل الناس. وإن لم يكن لك ما تُقدِّمه من مال للغير، فعلى الأقل قدِّم لهم كلمة طيبة، أو ابتسامة رقيقة، أو تشجيعاً أو مواساة. وثق أنَّ هذا كله سيكون مكنوزاً لك في السماء.

★★ هناك أشخاص كنزوا لهم في السماء مشروعات نافعة للبشرية كلها، أو قدّموا من عملهم وسائل لعلاج المرضى أو لتخفيف آلامهم، أو مشروعات تساعدهم على العيش. أو بعض كتَّاب قدَّموا من إنتاجهم الفكري ما يفيد الآخرين.

★★ إن كان الأمر هكذا، فماذا نقول إذن عن الذين يخافون أن يعطوا لئلا تنقص أموالهم، وهُم يريدونها أن تزيد وتنمو؟! بل ماذا نقول عن الذين يكنزون لأنفسهم أعمالاً شريرة تكون سبباً في هلاكهم أو طباعاً رديئة لا يشاءون أن يُغيِّروها؟

★★ أخيراً أحب أن أسألك أيها القارئ العزيز: ماذا كنزت لنفسك في السماء؟ ما هو رصيدك فيها؟...

٦ أبريل ٢٠٠٨

الطبع العدواني

تختلف طباع الناس، فيوجد منها الطبع الهادئ الوديع الذي يبعد عن المشاكل، أو يتعامل معها بهدوء ورقة. وهو بطبيعته لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته، ويكون طويل البال، وكثير الاحتمال، ودمثاً في تعامله، لا يُسئ إلى أحد. وإن أساء إليه الغير، لا ينتقم لنفسه، ولا يثور ولا يضج.

★★ وعكس ذلك نوع آخر من الطباع، هو الطبع العدواني، أو الناري أو الهجومي. ويسمونه بالإنجليزية Aggressive. وهذا الطبع قد يوجد عند بعض القادة، أو بعض الشعوب، أو يتصف به بعض الأفراد. وقد يوجد أيضاً في محيط الأسرة.

فمن القادة وُجِد هذا الطبع عند هتلر الزعيم الألماني النازي، وعند كثير من قادة الجيوش الذين أطلقوا عليهم لقب "مجرمي الحرب". والبعض يعتبر أن شاوشيسكي في رومانيا كان من هذا النوع أيضاً، وكذلك منجستو في أثيوبيا، وغيرهم ...

★★ وفي العائلات قد يتصف رب الأسرة أحياناً بالطبع العدواني، فيُعامل أفراد أسرته بقسوة، فتشعر زوجته بأنها سجينة في البيت، بأوامر مُشددة يلقيها من جهة خروجها ودخولها، ولقائها بالآخرين. وهو يظن بذلك أنه يحافظ على عفّتها!! كما أنَّ رب الأسرة هذه يكون عنيفاً مع أولاده، يُحطِّم شخصياتهم بمعاملته لهم حتى أنهم يشتاقون إلى صدر حنون خارج البيت يستريحون إليه. وبهذا قد يقودهم أحياناً إلى الانحراف! وهكذا بطبعه العدواني يصل إلى عكس ما يريد في تربيتهم. وهو يظن ذلك حزماً...

★★ الطبع الناري، ربما يولد الإنسان به، سواء من جهة الوراثة، أو لأسباب طبية أخرى. وبهذا يكون مثل هذا الطفل عدوانياً من صغره، يكسر ويخرّب، ويعتدي على أطفال آخرين، ويسلك بعصبية واضحة.

وقد يكتسب الشخص هذا الطبع الناري من البيئة، من أصدقاء عنفاء يقلِّدهم، أو من رؤية بعض أفلام العنف، أو قراءة قصص من هذا النوع. ويظن أن العدوان لون من قوة الشخصية فيسلك في هذا الطريق. ورُبَّما أثناء دراسته يصير تلميذاً مشاكساً في الفصل،

ويريد أن تكون صورته واضحة ومميزة بين زملائه.. ولا مانع من أن يستخدم الأسلوب العدواني مع أساتذته، إن طلبوا منه حفظ النظام، أو وبَّخوه على خطأ ارتكبه، أو إن منعوه من الغش في الامتحان! حينئذ يبدو طبعه العدواني.

★★ والطبع العدواني على أنواع ودرجات: منه العدوان باليد، مثل الضرب أو الصفع أو الركل. ومنه العدوان باللسان مثل الشتيمة والإهانة والتَّهكُّم والازدراء. ومنه الإهانة بالقلم، أي بالكتابة والنشر، حيث يتحوّل القلم إلى شعلة، تتهم أو تجرح السمعة، أو تصل العدوانية في تطورها إلى التشهير. ورُبَّما يُسبِّب كل هذا عداوات للعدواني.

★★ الشخص العدواني دائماً يحارب ويعارك، ولا يهدأ أبداً. وتجده دائماً متحفِّزاً مستعداً للَّهجوم. إن تكلَّمت معه، يبحث عن خطأ في كلامك لكي يرد عليه. بل إنه يكون مستعداً للرد قبل أن تتكلَّم! والحوار معه يتحوّل إلى شجار، ويعلو فيه الصوت، وكأنه مع مَن يحاوره في معركة.

★★ إنه يريد باستمرار أن ينتصر، ولو بالعنف.. الذات عنده هي المسيطرة عليه. ويود بها أن يُسيطر على غيره. إنه يكره الوداعة، ويعتبرها طراوة في الطبع. ولا يحب الرقة واللطف. ويلجأ باستمرار إلى الحدة والعنف، شاعراً أن ذلك هو الأسلوب السليم الوحيد، الذي يصل به إلى ما يريد. ويحاول أن يُغطِّي حدته بمدح الحزم والجدية. والجدية في مفهومه تحمل الشدة في التعبير وأحياناً ملامح العبوسة!

★★ والطبع العدواني على نوعين: أحدهما حاد المزاج عصبي التَّصرُّف، يغضب بسرعة، ويثور ويحتد، ويعلو صوته ويهاجم. والنوع الآخر يكون عنيفاً في تصرفه، مع غلاف من الهدوء وبرود مستفز. مثال ذلك: مدير أية مصلحة، يصدر قراراً عنيفاً جداً، دون أن يثور أو يصيح...

★★ والإنسان العدواني قد يكون سوداوي الطبع، له النظرة السوداء، والعين النقاد، والفكر الذي يميل إلى إظهار سوءات غيره. واللسان العنيف الألفاظ، الذي تشبه كلماته رجم الطوب. وهو باستمرار يتوقَّع الشر والخطأ من الناس. ومن الصعب عليه أن يثق بأحد. أو أن يمدح أحداً. وإن مدح أحداً، فلسياسة مُعيَّنة، أو ليهاجم به غيره. كما أنه سرعان ما ينقلب ويهاجم.

★★ والذي له طبع عدواني، يكون بعيداً تماماً عن الاتضاع. لا يستطيع أن يخضع لرئيس أو مرشد. بل قد يهاجم الرؤساء ومَن هم في موقف الإرشاد إن خالفوا أسلوبه أو إن انتقدوه. وفي نفس الوقت الذي لا يخضع فيه لأحد، يطالب غيره أن يخضعوا له، وإلاَّ فإنه يهاجم.

★★ العدواني قد يكون كذلك بمفرده، أو قد يكوِّن حوله مجموعة بنفس أسلوبه، يشكِّلون مافيا عدوانية. وقد يختلف مع بعضهم، فيصير عدوانياً ضد مَن يخالفه، لأن من طبعه أنه لا يعالج الأمور بالروية والهدوء، بل بالعنف. حقاً إن التعامل مع الشخص العدواني ليس سهلاً...

★★ الشخص العدواني يثير الجو من حوله، يكهربه. وقد يثير مشكلة حيث لا توجد مشكلة، بل هو يفتعلها، أو أنه يعتمد في ذلك على شائعات غير سليمة. أو أنه يثير مشكلة حول موضوع لم يدرسه بدقة. أو أنه يسرع في عرض مشكلة قبل أن يسبقه غيره في عرضها، حتى لو كانت بلا أساس! ولكن شهوة الظهور بمظهر البطولة والقوة تدفعه إلى ذلك. وعلى أيَّة الحالات، إن عرض المشكلة، يحاول جاهداً أن يطيل زمنها، حتى ترشح في الأذهان، فينال بها شهرة!

★★ وبعض العدوانيين، قد يفسرون سلوكهم بأنه دفاع عن الحق، بينما لا يكون الحق فيما يدافعون عنه. كما أن الذي يدافع عن الحق، ينبغي أن يدافع بطريقة حقانية بعيدة عن الأخطاء، وعن التطرف في الكلام أو المبالغة، وأيضاً يكون أسلوبه بعيداً عن التشهير والتجريح. ولا يحاول تضخيم الأمور، أو أن يجعل من الحبة قبة كما يقول المَثَل.

★★ والشخص العدواني قد يلجأ إلى العنف، لسبب عام يقول إنه يدافع عنه، أو لسبب خاص مثل أولئك الذين يلجأون إلى العنف بسبب الانتقام أو الأخذ بالثأر، أو حسداً لمنافسين لهم ويريدون الحط من قدرهم.

عموماً، الإنسان العدواني لا يُبالي بشعور غيره. ولذلك فهو غير محبوب، لأن عنفه منفر وغير مقبول.

١٣ أبريل ٢٠٠٨

بين الصمت والكلام

الإنسان الحكيم يعرف متى يتكلَّم ومتى يصمت. أي متى يحسن الكلام، ومتى يحسن الصمت؟ وإذا تكلَّم، يدرك ما ينبغي من جهة كمية الكلام ونوعيته.

★★ فمن جهة كمية الكلام، هناك أشخاص يتحدثون بتركيز شديد يحتاج إلى مزيد من التوضيح أو الشرح لكي يفهم السامع. وفي الاتجاه العكسي، يوجد مَن يطيل الكلام بغير داعٍ، بحيث يمكن تلخيص كلامه في الربع أو العُشر أو ما هو أقل..!

فما هى الأسباب في إطالة الحديث؟

★★ قد يكون السبب في كثرة الكلام هو التكرار: تكرار نفس العبارة أو اللفظة، أو القصة كلها، أو تكرار المعنى رغبةً في التأكيد عليه. وقد يكون سبب إطالة الحديث، هو إزادة الشرح والإسهاب فيه، كما لو كان السامع قليل الفهم والإدراك! أو قد تأتي الإطالة عن طريق عرض تفاصيل كثيرة مُملَّة ... وربَّما يكون موضوع الحديث كله غير هام، أو على الأقل لا يستحق كل ذلك الوقت الذي يُنفق فيه...

★★ وقد يكون سبب كثرة الكلام، هو حماس المتكلِّم لأمر مُعيَّن. ويريد أن ينقل هذا الحماس إلى السامع، ظاناً أنه بكثرة كلامه عن الموضوع سيجعل السامع يقتنع به أو يهتم...

★★ وربَّما يحدث أن السامع قد يقتنع، ولكن المتكلِّم يظل يتكلَّم: إمَّا لرغبته في إزادة التثبيت والإقناع. أو لأنه يرى أن ما يقوله هام، ويجب عليه أن يقوله. وإمَّا لأن هناك شحنة في داخله لا يستريح إلاَّ إذا قام بتفريغها. وقد يكون الأمر مُجرَّد طبع في المتكلِّم أن يعيد ويزيد في كلامه!

★★ والإطالة في الحديث قد تؤدِّي إلى الضيق وإلى الملل. فيسرح السامع ولا يهتم، أو يحاول التخلُّص من هذا الحديث بطريقة ما. أو يهرب من هذا المتكلِّم كُلَّما صادفه، إن كانت كثرة الكلام طبعاً فيه...

★★ وكثرة الكلام فيها عدم مراعاة لوقت السامع أو مشغوليته. وعدم مراعاة لنفسيته ولأعصابه ونوع عقليته...

لذلك درِّب نفسك على أن تتكلَّم بميزان. ولاحظ الذي يسمعك، ولا تجعله يملّ من حديثك. وإن رأيت أنه قد فهم قصدك، لا داعي لأن تُكرِّر أو تطيل. ولا تعطِ لأي موضوع أكثر مما يستحق. وابعد عن الكلام في التافهات ...

★★ وحينما تتحدَّث ابعد عن أخطاء اللسان. كأن تبعد مثلاً عن كلمات التجريح والإهانة، وجرح الشعور، والإحراج، وكلام التَّهكُّم، ولا تجعل الغير بحديثك موضع فكاهة وسخرية من الآخرين. ولا تتحدَّث عن عيوب الناس وسقطاتهم. واذكر المثل القائل: "مَن غربل الناس نخلوه". فلذلك تحاشى أي كلام يضايق غيرك. واستر الغير ولا تفضحه...

★★ كن أيضاً محتشماً في حديثك. لا تستخدم أيَّة لفظة بذيئة أو تخدش الحياء. وابعد عن عبارات المجون، وعن الفكاهات غير المؤدَّبة، وعن المزاح الرديء والعبارات الهابطة. واحرص في كلامك على احترام غيرك، وليكن الحديث بلياقة.

★★ ولكي يكون كلامك موضع ثقة، ليكن الكلام بصدق ودقة. فلا يجوز أن يعبّر الكلام عن أنصاف الحقائق. لأن استخدام أنصاف الحقائق، ليس فيه إنصاف للحقائق. وفي الشهادة أمام القضاء يُطلَب من الشاهد أن يقول الحق كل الحق، ولا شيء غير الحق.

★★ كما أنَّ الدقة في الكلام، تدعو إلى عدم المبالغة سلباً أو إيجاباً، أي يجب أن يكون الكلام بميزان، لا يلجأ فيه المتحدث إلى التهوين أو التهويل. ولا يصدر فيه المتكلِّم أحكاماً غير عادلة على أي أحد. لأنَّ مبرئ المذنب، ومذنِّب البريء، كلاهما ضد الحق. وهكذا الكلام يدل على التَّحيُّز، أو الذي فيه تملق لرئاسة، أو مُحاباة لصديق أو قريب ... وإن كان الأمر هكذا، فماذا عن المتكلِّم الذي يلفق تهماً، أو يروي روايات لم تحدث، وكلامه يضلل الغير؟!

★★ أيضاً طريقة الكلام السليم، ينبغي أن يبعد فيها المتكلِّم عن الصوت الصاخب العالي أو الحاد، أو الصوت الذي فيه عجرفة وكبرياء أو تشامخ، حيث يشعر السامع أن مُحدثه يُكلِّمه من فوق بغير احترام. أو في كبرياء يكثر المتكلِّم من الأوامر والنواهي وألفاظ التوبيخ القاسي وشدة الانتهار...

★★ من أخطاء الكلام أيضاً: مقاطعة الغير أثناء الحوار، وتحويل الحوار إلى صراع تعلو فيه الأصوات وكأنه شجار! أو الدخول في جدل عقيم بلا فائدة، أو أن مَن يحاور غيره يأخذ الجلسة كلها لحسابه، ولا يعطي غيره فرصة مماثلة.

★★ ومن أخطاء الكلام أيضاً: الإلحاح المتعب، وإضاعة وقت الغير أحياناً بحديث بغير موعد، أو إطالة الكلام في التليفونات - وربَّما في التافهات - وقد يكون السامع مشغولاً!

★★ لكل هذا ولغيره، قد يُفضّل البعض الصمت على الكلام. وذلك اتقاء لأخطاء اللسان. وفي ذلك قال أحد الآباء الروحيين: " كثيراً ما تكلَّمت فندمت. وأمَّا عن سكوتي فما ندمت قط ". وقد يكون سبب الصمت أنه لا داعي للكلام.

★★ وأحياناً يكون الصمت فيه لون من الرصانة والهيبة. وفي بعض المواقف، قد يكون الصمت أكثر تأثيراً من الكلام. والشخص الصامت لا يدري الناس ما في داخله، فيعملون له حساباً ...

★★ وقد يصمت الإنسان الحكيم، إذا كان موضوع الحديث المثار، في غير اختصاصه أو لم يسبق له دراسته. فإن أبدى رأيًا في هذا الموضوع، رُبَّما يعبر عن عدم معرفة قد تدعو إلى السخرية، فيكون الصمت أفضل. وقد قال سليمان الحكيم: "إذا صمت الجاهل، يُحسب حكيماً".

★★ وبعض المتوحدين كانوا يصمتون، لكي تكون لهم فرصة أكبر للصلاة وللتأمُّل. وقد قال واحد منهم: "لا أستطيع أن أتحدَّث مع اللَّه والناس في وقت واحد".

★★ على أنه إن كان للصمت فوائده، ففي مناسبات أخرى قد يكون الصمت خطية: كأن يصمت الإنسان خوفاً من إعلان الحقيقة! أو حينما تكون له فرصة في إنقاذ شخص مظلوم، وهو يستطيع إنقاذه بشهادة منه! وعموماً قد يصبح الصمت خطية إن كان عن خوف، في مجال يجب فيه الكلام!

★★ وإن كان صديق أو قريب لك يسير في طريق خاطئ ما أسهل أن يضيعه، وأنت تعرف هذا، ولكنك فضَّلت أن تصمت ولم تحذره، حرصاً على علاقتك به، ففي هذه الحالة تكون مخطئاً في صمتك، يمكن أن تحذِّر هذا الصديق في لطف دون أن تجرحه أو تخسره.

الحكمة هى إذن أن تعرف متى يحسن الكلام، ومتى يحسن الصمت.

٢٠ أبريل ٢٠٠٨

كم هو عدد أساتذتنا ومُعلِّمينا؟!

إنه عدد لا يُحصى، إن كنا صادقين مع أنفسنا. ولست في ذلك أقصد أساتذتنا الذين تتلمذنا عليهم في المدارس أو في الكليات والجامعات وفي باقي دور العلم. إنما أقصد بالأكثر مَن تتلمذنا عليهم في الحياة، سواء عرفوا ذلك أو لم يعرفوا... ونحن لا يمكن أن ننكر فضل الذين استفدنا منهم دروساً عملية. فمَن هم كل أولئك؟

★★ أولاً ننكر مَن ألَّفوا لنا كتباً نافعة، أو مَن كتبوا لنا مقالات في الصحف أو المجلات، واستفدنا منها دروساً وكانت نافعة لنا، أو الذين نشروا بحوثاً علمية في كافة مناحي الحياة. وقرأنا في كل ذلك، وشعرنا بيقين أننا زدنا علماً، واستطاع ذلك الفكر أن يؤثِّر فينا، وأن يقود حياتنا إلى أفضل. فهل ننكر فضل كل أولئك علينا، وقد يكون عددهم كبيراً جداً؟! ألا نضمهم إلى مُعلِّمينا، وإن كانوا لا يدَّعون هذا!

★★ ألا يمكن أن نضم إلى هؤلاء الذين نشروا بعض القصص والروايات الهادفة، وقد وجّهت أفكارنا إلى معانٍ وقيم لها عُمقها وتأثيرها وتوجيهها؟ ونضم إلى ذلك أيضاً ما تقوم به وسائل الإعلام من لقاءات تناقش وتبحث أموراً نحن في حاجة إلى معرفتها. وهكذا تصبح بعض برامج الإعلام من مصادر المعرفة والتعليم. وحتى مُجرَّد اسمها (الإعلام) يوحي بشيء من هذا.

★★ إننا نأخذ أيضاً دروساً مما يحدث لنا أو لغيرنا:

حُكي أن أسداً وذئباً وثعلباً تجولوا في الغابة لكي يصطادوا. فتمكنوا من أن يصطادوا حماراً وخروفاً وديكاً. وهنا قال الأسد: "قسّم أيها الذئب". فأجاب: "الأمر واضح يا مولاي: الحمار الأكبر في الحجم هو لك. والخروف المتوسط حجماً هو لي. والديك الصغير للثعلب". فاغتاظ الأسد كيف يكون الحمار الأسوأ لحماً وطعماً هو له. ويكون الألذ طعماً للباقين. وهنا ضرب الذئب ضربة أطارت رأسه. ثم قال للثعلب: "قسّم أنت أيها الثعلب". فأجابه: "الأمر واضح يا مولاي: الحمار لغذائك، والخروف لعشائك، والديك تتسلَّى به

ما بين الأكلتين". فسُرّ الأسد بهذا، وقال: "مَن علَّمك الحكمة أيها الثعلب؟". فأجابه: "تعلَّمتها من رأس الذئب الطائر عن جثته"...

وفي هذه القصة أرانا الثعلب أنه يمكن للشخص أن يتعلَّم من الأحداث. فيأخذ درساً مما يحدث لغيره...

★★ الإنسان الحكيم لا يترك الأحداث تمرّ عليه عابرة دون أن يستفيد منها. بل يحاول أن يأخذ من كل حدث درساً. إنَّ أحداث الحياة مدرسة عملية نتلقَّى فيها علوماً عملية، إن كنا نتأمَّلها في عُمق، ونحاول أن ندرك ما تحمله في طيَّاتها من دروس. هذا إن كنا نريد أن نتعلَّم...

★★ ونحن نتعلَّم أيضاً من التاريخ. وجميل هو قول الشاعر:

ومَن وعَى التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره

إنَّ التاريخ أستاذ كبير، يُلقي دروساً لِمَن يريد أن يستفيد... والدول بالذات تستفيد من دروس التاريخ، سواء من جهة ما حدث في الحروب، أو السياسة، أو العلاقات بين الدول، أو اتجاهات وأهداف كل دولة ومدى قدرتها...

ونحن نستفيد من التاريخ، سواء كان تاريخ الشعوب، أو تاريخ الجماعات أو الأفراد، وندرك كيف نتعامل مع كُلٍّ من هؤلاءِ.

★★ ومن الطبيعة أيضاً نأخذ دروساً. الفلك يعطينا درساً في النظام، وفي العمل الهادئ، وفي التكامل، وفي خدمة الغير بدون ضجيج، وبدون تباهٍ بما يُقدِّمه.

كما أنَّ مَن يريد أن يتعلَّم، يمكنه أن يأخذ درساً من الشجرة التي تُقدِّم ظلاً لأي أحد دون أن تسأله عن جنسه أو دينه أو مذهبه. وكذلك الورود والأزهار التي تُقدِّم رائحتها وعطرها للكل، حتى لِمَن يقطفها ويفركها بين يديه. والأنهار تعطينا درساً في تقديم الخير للناس بلا ثمن، ودرساً آخر في الرضا بحواجزها يميناً وشمالاً دون أن تعتبر ذلك قيداً على حريتها. وكل الأشجار تعطينا دروساً في أننا نأخذ ثمارها منها دون أن تحتج. بل أن تنمو وتثمر لأجل الغير وليس لذاتها...

حقاً، إنَّ مَن يتأمَّل، يأخذ دروساً من كل عناصر الطبيعة التي تُعلِّم في صمت. ونشكر اللَّه الذي منحنا إيَّاها لتعليمنا...

★★ يمكننا أيضاً أن نتعلَّم من بعض الحشرات والحيوانات: فنأخذ درساً من النحلة التي تجتهد لكي تُقدِّم لنا شهداً، نأخذه منها دون أن نشكرها.

كما أننا نتعلَّم من النحل نظامه العجيب. وما أجمل قول أحمد شوقي - أمير الشعراء - عن مملكة النحل:

مملكة مُدبَّرة بامرأة مؤمَّرة
تحمل في العمال والصناع عبء السيطرة
أعجب لعمال يولُّون عليهم قيصرة

كذلك نحن نتعلَّم النشاط من النمل، الذي هو دائم العمل والحركة لا يكسل مُطلقاً. إنني في طول حياتي في البرية، لم أشاهد أبداً نملة واقفة بدون عمل. بل دائماً تسير النملة ولا تقف، وتتعاون مع زميلاتها ... إنها درس في النشاط.

نحن نتعلَّم أيضاً الذكاء من الثعلب، والوفاء من الكلب، والشجاعة من الأسد، والصبر والصوم من الجمل ... كلهم يقدِّمون دروساً لِمَن يريد أن يتعلَّم.

★★ كذلك من مُعلِّمينا الأشخاص الذين يكونون قدوة في الحياة. فنتعلَّم من سلوكهم الطيب ومن فضائلهم، دون أن ينطقوا بكلمة. إنهم يزوِّدونا بنماذج من الحياة تصلح لإرشادنا. فنأخذ دروساً من أسلوبهم في الكلام، وطريقتهم في التعامل، أو في حل المشاكل.

★★ بل أننا أيضاً يمكن أن نأخذ دروساً من أخطاء الآخرين ونتائج تلك الأخطاء وردود فعلها. إنها أجراس عالية الصوت تُحذِّرنا وتنذرنا وتخيفنا، لكي نتجنَّب تلك الأخطاء. وصدق مَن قال: "تعلَّمت الصمت من الببغاء" أي دفعني إلى الصمت لمعرفتي بضرر ثرثرته.

وكما نأخذ دروساً من أخطاء الآخرين، نأخذ دروساً من أخطائنا.

★★ هل بعد كل ما ذكرناه، نستطيع أن نُحصي عدد الذين قد تعلَّمنا منهم؟!

٢٧ أبريل ٢٠٠٨

القيامة مجرد مُقدمة للحياة في السماء

أهنئكم يا إخوتي وأبنائي بعيد القيامة المجيد، راجياً فيه لكم ولبلادنا العزيزة كل خير وبركة، وراجياً للعالم كله سلاماً ورفاهية، وبعد:

★★ نحن نحتفل بالقيامة. فما هى القيامة؟

إنها من عنصرين: العنصر الأول هو أن يقوم الجسد، أي يُبعث حياً. لأنه كان ميتاً، وبالقيامة منحه اللَّه حياة أخرى. أما الروح فإنها حية بطبيعتها، لم تمت حتى تُبعث.

إذن العنصر الثاني للقيامة، هو أن تأتي الروح من مستقرها لكي تتحد بالجسد، ويعود الإنسان كاملاً: جسد وروحاً.

★★ بعد القيامة تكون الدينونة، أي الحساب. فيقف الإنسان أمام منبر اللَّـه العادل ليعطي حساباً عن كل ما فعله أثناء حياته الأرضية، خيراً كان أم شراً.

وبعد ذلك يكون الجزاء، أي المصير. فيذهب الأبرار إلى النعيم الأبدي، والأشرار يلاقون العقاب.

والنعيم الأبدي يكون في السماء، في عِشرة اللَّه والملائكة والقديسين. وعن هذه الحياة في السماء سنتكلم اليوم:

★★ هنا ونسأل: ما هى السماء؟

السماء هى ما يسمو، أي ما يعلو ويرتفع. وتوجد سماوات يعلو بعضها على بعض طباقاً. أي يوجد طبقات من السمَوات:

السماء الأولى هى سماء الطيور، التي تسبّح فيها الطيور وأيضاً الطائرات على ارتفاعات متنوعة. فوق هذا توجد سماء أعلى هى الفلَك حيث توجد الشمس والنجوم والكواكب والمجرات وكل الأجرام السمائية. والإنسان قد وصل إلى طبقة بسيطة هى القمر. ولكنه لن يستطيع الوصول إلى الشمس فطائرته تحترق من وهج الحرارة قبل أن

تصل إليها. فوق هذه الطبقة توجد سماء ثالثة، وهى التي تسكن فيها أرواح الأبرار قبل القيامة العامة. ونقول في بعض تعبيراتنا أن الروح صعدت إلى جوار اللَّه.

★★ فوق كل هذه السمَوات توجد سماء أعلى، نسميها سماء السمَوات، حيث يوجد عرش اللَّه، تحيط به الملائكة ورؤساء الملائكة وكل الطغمات السمائية بكافة أنواعها ودرجاتها... على أن اللَّه تبارك اسمه غير محدود في كل شيء، فليس له مكان محدود هو العرش. إنما عرشه هو مجده غير المحدود. فحيث يوجد تمجيده ومحبته، إنما يشبه هذا عرشاً يجلس عليه اللَّه.

★★ وبهذه المناسبة أقول إن السماء لها معناه الحرفي الذي ذكرناه، ولها معنى آخر رمزي، قلت فيه مرة في مناجاة اللَّه:

قد نسيتُ الكلَ في حبك يا ... متعة القلب فلا تنسَ فتاك
في سماءٍ أنت حقاً إنما ... كل قلبٍ عاش في الحب سماك
عرشُكَ الأقدس قلب قد خلا ... من هوى الكل فلا يحوي سواك

★★ نعود إلى السماء التي يستقر فيها الأبرار بعد القيامة فنقول: لا يوجد في السماء شيء ثقيل، كالجسد المادي، فكل ما فيها خفيف. إن الملائكة يتحركون فيها ويصعدون ويهبطون في خفة عجيبة بل إن الملاك حينما يرسله اللَّه إلى العالم الأرضي لكي يبلغ رسالة، أو لينقذ إنساناً، فإنه يهبط من السماء إلى الأرض في لمح البصر، إذ أنه خفيف جداً في تحركاته وتنقلاته.

فإن كنا في السماء مع الملائكة، هل سيكون وضعنا شاذاً بينهم؟! أم نكون كما قال السيد المسيح عن القائمين من الموت: "**يكونون كملائكة اللَّه في السماء**" (مت ٢٢ : ٣٠).

★★ فهل سنكون في السماء مجرد أرواح بلا أجساد؟ كلا، فسوف تكون لنا الأجساد التي قامت من الموت. ولكنها ستكون أجساداً روحانية ليس لها ثقل المادة. لأن الجسد المادي معرّض لأن يتعب، وأن يمرض، أو يضعف أو ينحل. وكلها أمور لا تناسب سكان السماء.

والجسد المادي يحتاج أن يأكل طعاماً مادياً. والطعام المادي له تفاعلاته داخل الجسم ونتائجه! كما أن الجسد المادي يمكن أن يقع في شهوة جسد آخَر. ومثل هذه الشهوات الجسدية لا تليق أن تكون إلى جوار اللَّه وملائكته، فلا بد أن نرتفع على مستواها.

★★ إن الشهوات التي في السماء، كلها شهوات روحية: مثل شهوة الوجود مع اللَّه ومع ملائكته وقديسيه، أو شهوة التسبيح... ومن غير المعقول، أن تكون لنا شهوة أخرى غير اللَّه، كالشهوات المادية أو الجسدية!! وكما يقول المثل: "في حِضرة الشمس من ذا يبصر الشهبَ".

★★ بالطبع إذن من اللائق والمناسب أنه في السماء تنتهي شهوة المادة، وشهوة الجسد، وكل الشهوات الأرضية. لأننا لو بقينا ملتصقين بهذه الشهوات، فماذا يكون إذن الفرق ما بين الحياة في السماء والحياة على الأرض؟! وماذا تكون الفائدة التي نحصل عليها من الوجود في السماء في مكافأة الأبرار؟! وإن كان الأثرياء الأتقياء على الأرض يتمتّعون بكل الشهوات الأرضية الحلال، فماذا يأخذون في السماء، إن كانوا ينتظرون بلا شك شيئاً أفضل؟! وبخاصة لو كانوا قد سئموا تلك المشتهيات الأرضية، ويشتاقون إلى نوعية أخرى أفضل وأسمى وأرقى مما تعوّدونه في حياتهم الأرضية!

★★ لذلك وعدنا اللَّه بما لم تره عين، وما لم تسمع به أُذن، وما لم يخطر على بال إنسان ما أعدّه اللَّه للذين يحبونه (١كو ٢: ٩). ويقول الكتاب المقدس: إن الأشياء التي تُرى وقتية. أما التي لا تُرى فأبدية (٢كو ٤: ١٨). لذلك نحن ننتظر من الحياة في السماء كل أنواع المتع التي لا تُرى، أي التي فوقِ حواسنا الأرضية.

★★ نقطة أخرى، وهى أننا حالياً على الأرض منشغلون بأشياء كثيرة، خاصة بالعمل أو بالأنشطة أو بواجباتنا من نحو الأسرة أو المجتمع أو الدولة، بحيث لا يوجد لنا وقت كافٍ نقضيه مع اللَّه تبارك اسمه. وما نقدمه له من وقت، هو ضئيل بلا شك!

فهل في الأبدية، في السماء، سننشغل أيضاً عن اللَّه بأمور أخرى؟! كلا. فليست هذه هى طبيعة الحياة في السماء. وإن انشغلنا عن اللَّه هناك، نكون غير مستحقين للسماء، ولا نكون حينذاك "كملائكة اللَّه في السماء". فمن غير المعقول أن نكون في السماء في غربة عن اللَّه!، كما هى الحياة على الأرض!

★★ إن الحياة في السماء، هى الحياة في الحب الإلهي. وما عدا ذلك، فهو لا شيء... والحب الإلهي هو موضوع طويل علينا أن نستعد له من الآن وندرّب أنفسنا عليه. حتى لا تكون الحياة في السماء غريبة علينا، أو نكون نحن غرباء عنها..!!

★★ أخيراً، نرجو ببركة هذا العيد أن يحفظ الرب بلادنا ورئيسها الذي يبذل كل جهده لأجلها ولأجل المنطقة كلها. ونرجو من الرب سلاماً وبنياناً لكل إخوتنا في لبنان وفي فلسطين والعراق وكل الشرق العربي... وسلاماً لبلاد العالم أجمع..



٤ مايو ٢٠٠٨

تحطيم المرايا

كما يتأمَّل الجسد شكله في مرآة، ليطمئن على منظره، فإن وجد ما يحتاج إلى إصلاح أصلحه ... كذلك الروح لها مرايا كثيرة ترى بها شكلها، وتعرف حالتها كيف هى. حتى إن وجدت عيباً تصلحه، أو إن وجدت نقصاً تستكمله.

★★ في مقدمة هذه المرايا، مرآة اسمها: "محاسبة النفس". حيث يجلس الإنسان إلى ذاته، لكي يفتش دواخلها، ويحاسبها على كل أفعالها، وعلى كل فكر، وكل شهوة، وكل رغبات النَّفس، وكل نيَّة تنويها. ويرى في أي طريق تسير، وما هى الأخطاء التي تقع فيها حتى يمكنه تجنبها، وما هى الفضائل التي لم يمارسها. وكل ذلك لكي يصلح من شأن ذاته، ويجعلها تسير في الطريق الروحي السليم.

★★ غير أن البعض إذا كشفت له مرآة "محاسبة النَّفس" حقيقته وعيوبه وخطاياه، فإنه بدلاً من إصلاح ذاته، يحاول أن يُحطِّم هذه المرآة الصادقة، بتقديم أعذاراً عن كل خطية وقع فيها كما لو كان الأمر قد خرج عن إرادته! أو أنه يُغطِّي عيوبه بتبريرات كثيرة يُقدِّمها توضِّح أنه لم يخطئ! أو أنه يلقي اللوم كله على البيئة والوسط المحيط بأنه المسئول عن كل ما فعله، وما كان يمكنه تجنب ذلك! أو أنه يلصق الذنب بشخص آخر لكي يخرج هو بريئاً! ... وفي كل ذلك تكون مرآة "محاسبة النَّفس" قد تحطَّمت عملياً وما عادت تأتي بنتيجة. أو أنه يُحطِّم هذه المرآة بإهمالها وعدم استخدامها، على اعتبار أنها تُسبِّب له شيئاً من العكننة!

★★ مرآة أخرى يرى فيها الإنسان حقيقة نفسه، وهى أن يضعها أمام "وصايا اللَّه" ويرى ما الذي تُنفِّذه منها، وما الذي تعصاه؟ فإن وجد في حياته معصية أو مجموعة من المعاصي، يدرك أنه سائر في طريق خاطئ، وعليه أن يصلح مساره، ويُدرِّب نفسه على طاعة وصايا اللَّه ...

★★ غير أن البعض يعمل على تحطيم هذه المرآة أيضاً، بأن يحاول أن يُفسِّر الوصية الإلهية تفسيراً خاصاً يبرئ به ذاته! أو يلجأ إلى تفسيرات أخرى تُخدِّر ضميره

بحيث لا يلومه مطلقاً على خطاياه! أو أنه يزعم أن الوصية التي يعصاها، لا تنطبق مُطلقاً عليه، بل هي تخص آخرين!

★★ وبهذا الوضع تتحطَّم أمامه هذه المرآة أيضاً، بحيث لا يرى منها حقيقة نفسه! أو أنه يهمل قراءة كتاب اللَّه! أو يهمل قراءة أجزاء منه تُذكِّره بخطاياه! كما أنه بالمثل يهمل سماع العظات التي هم من نفس النوع. لأنه لا يريد أن ينظر في هذه المرآة التي تكشفه!

★★ مرآة أخرى يمكن أن يرى الإنسان فيها نفسه، وهي "انتقادات الناس". فمن المعروف أن كل شخص بعيداً عن التوبة، يجامل نفسه باستمرار، ولا يرى فيها عيوباً، أمَّا الناس فإنَّهم قد لا يجاملون، وإنما يتكلَّمون بصراحة عمَّا يرونه من عيوب، فنعرف منهم حقيقتنا، لكي نتفادى بقدر الإمكان ما ينتقدوننا عليه. هذا إذا كان كل منَّا حريصاً على خلاص نفسه وعلى نقاوة قلبه. ويريد لذاته الخير... وحتى إن غضبنا بعض الأحيان من انتقاداتهم، فإن هذه المرآة تكشف لنا عيباً آخر فينا، وهو الغضب ممَّن يُكلِّمنا بصراحة! أو تكشف لنا عيباً آخر فينا وهو البرّ الذاتي أي اعتقاد الإنسان في نفسه أنه بار!

★★ على أنَّ كثيرين يميلون إلى تحطيم هذه المرآة، مرآة انتقادات الناس. وذلك بأنَّ الواحد منهم لا يقبل مطلقاً أي كلمة انتقاد من أحد، ولا كلمة نُصح أو إرشاد. ولا يقبلون أي توجيه في تغيير سلوكهم! وأشد من هذا: أنَّ الذي ينصحهم، يتخذونه لهم عدواً. ومَن ينتقدهم يحاربونه وينتقدونه. وبهذا لا يحطِّمون هذه المرآة فقط، بل بالأكثر يضيفون إلى أخطائهم موضع النقد، أخطاء أخرى، ولا ينتفعون! كل ذلك لكي يستريحوا في داخلهم براحة خاطئة تضرّهم...

★★ مرآة أخرى يرى فيها الإنسان حقيقة نفسه وهي "المشاكل". فالمشكلة ترينا مدى احتمالنا، كما نرى بها طريقة تصرفنا. وكذلك نرى بها نوعية نفسنا. هل نحن عندما نواجه إحدى المشاكل، نصبر ونعطيها مدى زمنياً يمكن أن تنحل فيه؟ أمْ أننا نُفكِّر في عُمق وحكمة في طريقة أو طُرق توصلنا إلى حل المشكلة؟ أم أننا نلجأ إلى المشيرين والحُكماء نلتمس عندهم حلاً؟ أما أنَّنا نلجأ إلى اللَّه بالصلاة طالبين الحل من عنده؟ كُلّها طُرق في مواجهة المشكلة يختلف فيها شخص عن آخَر، وترى طبيعة كل واحد ...

وحكيم هو الإنسان الذي يكتسب من المشاكل خبرة وحنكة تساعده في المستقبل عند مواجهة مشاكل أخرى، بل تعطيه فرصة في معالجة مشاكل آخرين...

★★ غير أن البعض إذا صادفته مشكلة، ينهار ويبكي أو تتعب نفسه، أو يتذمَّر ويشكو! وتبقى المشكلة كما هي! بل تكون كمرآة قد كشفت له عيوباً أخرى في نفسه كالتَّذمُّر والشكوى والانهيار. وعليه أن يُعالج هذه العيوب في نفسه...

★★ وما نقوله عن المشاكل، يمكن أن نقوله أيضاً عن "التجارب" مثل حالات المرض، أو فقد قريب أو أي إنسان عزيز، أو حالة خسارة أو فقر...

★★ كل هذه وغيرها أنواع من المرايا يرى فيها الإنسان نفسه وطباعه وروحياته، كما يرى أيضاً أخطاءه أو خطاياه إن وُجِدت لكي يصلح من أمره ما يحتاج إلى إصلاح! غير أن بعض الناس إن كشفت لهم إحدى المرايا عيباً فيهم، بدلاً من إصلاحه يُحطِّمون المرآة!

★★ إنَّ الذين يُحطِّمون المرايا، تبقى عيوبهم كما هي دون أن تنصلح. ويكونون هم الخاسرين...

★★ كإنسان مريض بالحمى، يضع الترمومتر في فمه. فإن أظهر له ارتفاعاً هائلاً في درجة حرارته، بدلاً من أن يعمل على معالجة نفسه، يُحطِّم الترمومتر غيظاً وحنقاً، ويبقى مريضاً!!

مسكين هذا الترمومتر الصادق. إنه كغيره مرآة مُحطَّمة!!

١١ مايو ٢٠٠٨

وقت الفراغ!!

إنَّ الذي يعرف قيمة الوقت، ويعرف كيف يستغله في سبيل منفعته ومنفعة غيره، هذا لا يمكنه أن يجد وقت فراغ. لأنه يرى أن وقته لا يكفي مطلقاً لِمَا ينبغي أن يقوم به من عمل ومن مسئوليات..

لذلك فأصحاب الرسالات الكبيرة ليس لديهم وقت فراغ. والذين لديهم طموح في حياتهم، سواء كان طموحاً روحياً أو علمياً، أو حتى طموحاً مادياً ... كل هؤلاء ليس في حياتهم وقت فراغ...

★★ وإني لأعجب من الذين تقف أمامهم مشكلة يسمونها: "مشكلة وقت الفراغ!"، وأعجب بالأكثر من أولئك الذين يبحثون عن وسيلة لقتل الوقت!! بينما الوقت هو جزء من الحياة. فكيف إذن يُفكِّر البعض في أن يقتله، أو يضيعه هباءً؟! ألا يعني هذا أن حياته رخيصة في عينيه؟! وأن وقته لا قيمة له!!

★★ إن وقت الفراغ قد ينشأ من عجز الإنسان في معرفة كيفية الاستفادة منه ... فإن عرف ذلك، لا تبقى أمامه مشكلة اسمها "وقت الفراغ".

★★ وقد يصبح وقت الفراغ مشكلة أمام بعض المسنين، أو الذين أكملوا خدمتهم وأحيلوا إلى المعاش أو إلى الاستيداع. وظنوا أن رسالتهم في الحياة قد انتهت! ولم يعد المجتمع في حاجة إليهم. وكأن حياتهم الباقية أصبحت بلا عمل أو بلا هدف، وصارت كلها فراغاً! أعني أولاً فراغاً في الهدف ... لذلك يلزم هؤلاء أن يبحثوا عن عمل يعملونه، حتى لا تصبح حياتهم مملة وثقيلة عليهم. ولا يهم أن يكون ذلك رسمياً، أو في وظيفة مُعيَّنة، أو عملاً بأجر...

★★ ووقت الفراغ مشكلة يجابهها الطلبة في العطلة الصيفية، إذ ينتهون من دراستهم ولا يجدون ما يشغلون به أنفسهم بعد أن كانت الدراسة هى التي تشغلهم. وواجب المربين

أن يوجّهوا الطلاب إلى أنشطة تشغلهم في العطلة الصيفية. وهذا هو أيضاً واجب الآباء والأمهات، وواجب المرشدين الروحيين.

★★ ومشكلة وقت الفراغ قد تقابل كثيراً من السيدات أو الزوجات غير العاملات، اللائي ليس لهن أطفال أو قد انتهين من تربية أطفالهن.

★★ كل هؤلاء يقف أمامهم موضوع "تقضية وقت الفراغ"، والمفهوم الروحي لتقضية وقت الفراغ، ليس هو البحث عن وسيلة لقتل الوقت!! إنما البحث الجاد عن وسيلة للاستفادة من الوقت ... والمشكلة الكبرى هى أن البعض يقضون الوقت (الزائد عندهم) في ما يضرهم!

★★ إن العقل دائم العمل، لا يهدأ ولا يصمت. إن لم يُفكِّر في أمور نافعة، قد يُفكِّر في الشر أو في ما يضر، أو على الأقل يُفكِّر في تفاهات لا تنفعه ولا تبنيه ... وهكذا بدلاً من أن يقابل الشخص فراغ الوقت، فإنه يقابل فراغاً في التفكير وفي الحياة. فعلينا أن نعطي لعقولنا ما يشغلها بطريقة روحية ومفيدة...

★★ بقى أن نسأل: كيف نقضي وقت الفراغ إن وُجِدَ؟ أولاً لا مانع مطلقاً من بعض الترفيهات المقبولة، أو بعض الراحة، أو الاسترخاء Relax. لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يكون باستمرار منشغلاً وجاداً ومُركِّزاً، أو مشدوداً كل الوقت. واللَّه - تبارك اسمه - قد أعطانا أياماً للراحة، هى من أجلنا، ومن أجل حاجة طبيعتنا البشرية. على أن تكون الراحة أو الاسترخاء في حدود المعقول...

★★ ومن الأشياء النافعة لقضاء وقت الفراغ، القراءة لِمَن يحب القراءة ويجيدها. والمهم هو اختيار نوع القراءة النافعة لبنيان الشخصية فكرياً واجتماعياً وروحياً. لأنَّ القراءة سلاح ذو حدين، يمكن أن ينفع، ويمكن أيضاً أن يفتح أموراً للذهن يمكن أن تؤثِّر عليه تأثيراً ضاراً.

★★ وكالقراءة في شغل الوقت، الاستماع، عن طريق أشرطة كاسيت مفيدة ما أسهل أن توضع في العربة أثناء الانتقال أو السفر، أو الاستماع لأيَّة تسجيلات ولو في البيت،

أو الاستماع لِمَا يفيد في اجتماعات أو مؤتمرات. وبهذه الطريقة يضيف الإنسان عقلاً إلى عقله، وخبرات إلى خبرته. فيزداد حكمة ومعرفة.

★★ وبالنسبة إلى الشباب، يمكن مساعدتهم بالأنشطة الصيفية التي احتلَّت مجالاً في أذهان المشرفين في المدارس أو في المعاهد والمدارس وفي مراكز الشباب، أو المهتمين بالشباب في دور العبادة وفي الجمعيات. كل أولئك مهمتهم وضع برامج لقضاء أوقات الفراغ تجذب الشباب أكثر مما يجذبهم اللَّهو والعبث. وبعضها رياضية تنشط الجسد وتُحسِّن صحته، كما تساعد على الترابط.

★★ بعض الشباب يمكن أن يقضي وقته في تدريبات مُعيَّنة، أو أنشطة في مجال الفن بتعدُّد أنواعه: كالرسم أو النحت أو الموسيقى أو كتابة القصة إن كانت له موهبة في هذا المجال، أو يتدرَّب على أعمال يدوية نافعة. أو فتاة تتدرَّب على تنسيق البيت وتجميله، أو على أعمال أخرى كالتطريز والتدبير المنزلي...

★★ بالنسبة إلى المسنين وكبار السن، يمكنهم التطوع في مجالات الخدمة الاجتماعية حيثما تتاح، وبخاصة في كثير من الجمعيات وبيوت الإيواء وما أكثرها. وبهذا يشعرون أن المجتمع لا يزال محتاجاً إليهم، وأن أمامهم مجالاً للعمل وتحمل مسئوليات. كما أن العمل ينشئهم.

وتوجد أحياء فقيرة أو شعبية تحتاج إلى خدمة، كخدمة المعوقين مثلاً أو الأيتام، أو خدمة المحتاجين والفقراء، أو زيارة المرضى، أو الخدمة الروحية في جذب الناس إلى التوبة، وإبعادهم عن المخدرات وأمثالها...

★★ هناك خدمة أخرى نافعة جداً، وهى خدمة الكشافة والجوالة. وهى تنفع الشخص نفسه كما تنفع غيره. وينتفع المجتمع بالكشافة في حفظ النظام.

★★ ختام الأمر كله: إن كان لديك وقت فراغ، حاول أن تنتفع به، ولا تُضيِعه، ولا تسمح له أن يُضيِّعك.

١٨ مايو ٢٠٠٨

فراغات!!
أو أنواع من الفراغ

تحدَّثنا في المقال السابق عن فراغ الوقت، وشيء من فراغ الفكر، وبقيَ أن نتحدَّث عن فراغ الشخصية، وفراغ الروحانية، وأيضاً عن الفراغ العاطفي..

★★ فراغ الشخصية:

نرى في الحياة أناساً في ملء الشخصية، أي أن شخصية كل منهم مكتملة لكل عناصرها: إن تكلَّم واحد منهم يفيض لسانه نفعاً وعذوبة، ويهفو الآخرون لسماعه مستفيدين بعمق كلماته وبحُسن صياغتها. وإن استشاروه في أمر من الأمور، يجدون عنده نبعاً من الحكمة والإرشاد. وإن عاشروا مثل هذا الشخص يرون فيه الرقة والحنان وحُسن التعامل، والطيبة والإخلاص. وإن تولَّى هذا الإنسان إدارة عمل ما، تظهر في إدارته الجدِّيَّة والنزاهة وحُسن التدبير ... إنه في كل ما يحيط به يُمثِّل الشخصية المتكاملة الممتلئة بالخير والفضيلة، في حياتها وفي علاقاتها...

★★ غير أنه ليس كل الناس هكذا، فهناك مَنْ يتصفون في حياتهم بفراغ في الشخصية، فلا توجد في حياتهم قوة ولا إنتاج، ولا أي نفع للمجتمع الذي يعيشون فيه. بل إنَّ حياتهم كلها فراغ: إن تكلَّموا، فكلامهم مُجرَّد ثرثرة لا تبني ولا تُفيد، وقد يسأم الناس سماع ما يقول، أو قد يتندرون على ما في أقواله من أخطاء! وإن عاشروه، يجدون عِشرته مُجرَّد إضاعة للوقت، لا فائدة منها. فهو لا يبدي رأياً حكيماً، ولا يتدخَّل في حل مشكلة. بل قد يكون هو نفسه مشكلة يصعب حلّها. وبالإجمال يُحكم على شخصيته بأنها تافهة. إن عدم المجتمع وجودها، فإنه لن يخسر شيئاً. وإن غاب هذا الشخص عن اجتماع ما، لا يشعر أحد بغيابه، وإن حضر لا يضيف شيئاً!

★★ قد يشعر مثل هذا الإنسان بأن شخصيته فارغة لا قيمة لها في المجتمع، ولا ثمر لها ولا تأثير. ولا تُلاقي اهتماماً من أحد. وهذا الشعور يُسبِّب له لوناً من صِغر

النَّفس أو المذلَّة الداخلية، وبخاصة لو كان الفشل يُلاحقه، أو عدم الإقبال عليه سواء في موضوعات الزواج أو التوظف أو الصداقة! ويرى أنه لا عُمق له ولا فكر ولا معلومات ولا جاذبية ولا شخصية ولا قوة!!

★★ وقد يُصاب بعُقدة النقص، إذ يحاول أن يُغطِّي على نقصه بنقص آخر! أو يعمل على علاج فراغ شخصيته بفراغ آخر. إذ يحاول أن يثبت أنه ذو معرفة وفهم، وذلك بأن يتطوَّع للكلام فيما لا يعرف، وإبداء الرأي في أمور لم يدرسها! ويدل بكلامه على جهله. وقد يُقابله الناس بالسخرية، فيزداد شعوراً بالنقص، ويرى أن هذه المحاولة لسد فراغه هي بلا جدوى.

★★ وربَّما يحاول أحدهم أن يُغطي على فراغ شخصيته بمدح ذاته أمام الناس لكي يستجدي احترامهم! فيذكر الأعمال (العظيمة) التي يقام بها! أو ينسب أعمال غيره إلى نفسه! أو يعمل على تحطيم غيره انتقاداً وتشهيراً لكي يبدو هو في قمة المعرفة أو أنه خارج دائرة النقد!! أو يُقاوم العاملين بسبب ضيقه من كونهم يعملون وهو لا يعمل!! أو يجلس في عظمة، ويُغطِّي فراغه بالغنى والأناقة ومظاهر الكبرياء!

ومثل هذا الأسلوب قد تلجأ إليه أيضاً، المرأة التي تُغطِّي على فراغ شخصيتها بالزينة والتَّجمُّل والتَّحلِّي بكثرة الذهب والأحجار الكريمة...

★★ والإنسان الفارغ الشخصية قد يحاول أن يعيش في الخيال وليس في الواقع. وذلك بأن يرضي نفسه بأحلام اليقظة حتى لا يشعر بفراغها! وفي هذه الأحلام يتصوَّر أنه قد صار شيئاً ما! ولكن هذه الأحلام لا تنفعه...

★★ وهؤلاء الذين يشعرون بفراغ في الشخصية، ليت المجتمع يحاول أن يُوجِد لهم ما يشغلهم، ويستغل طاقاتهم المعطلة، إن كانت لهم طاقات يمكن الاستفادة بها...

وعلى كل إنسان أن يكتشف طاقاته ويستغلَّها للخير، وأن يُجاهد في كل يوم أن يعمل عملاً مفيداً، ليس لكي يشعر بالامتلاء، وإنما حُبَّاً في الخير وفي مساعدة الناس، وحينئذ سوف يشعر بالامتلاء، أو يزول شعوره بالفراغ...

★★ وليت كل أحد يكون له هدف كبير يسعى إليه، ويبذل كل جهده لتحقيقه. فإنَّ ذلك ينقذه من الشعور بالفراغ.

★★ **الفراغ الروحي:**

إنَّ الروح التي تعيش بعيدة عن اللّه، إنما تحيا في فراغ، مهما كانت ألوان العواطف المقدمة لها. فكلها لا تشبعها...

هناك أشخاص لهم مشغوليات كثيرة تملأ كل وقتهم، ولهم مشروعات ضخمة يقومون بها، ومسئوليات خطيرة ملقاة على عواتقهم. وقد تكون لهم معلومات واسعة جداً ودراسات عميقة ... ومع كل ذلك تكون أرواحهم في فراغ، سواء شعروا بهذا الفراغ أو لم يشعروا!.

★★ إنه لا ينفع الإنسان شيئاً أن تمتلئ حياته بأمور كثيرة، دون أن يمتلئ قلبه بمحبة اللّه. فما أسهل أن يتحوّل إلى ماكينة دائمة الدوران، بلا روح. وهكذا بالرغم من العمل الكثير الذي يقوم به، ينظر اللّه إلى هذا الإنسان فيجد روحه فارغة. فيقول له: إنَّ لك اسماً إنك حي، وأنت ميت!

★★ لذلك يا إخوتي، املأوا أرواحكم بمحبة اللّه ومعرفته. فإنَّ أرواحكم تكون في فراغ، إن بعدت عن محبة اللّه وعن الصلة به. املأوا أرواحكم بالغذاء الروحي الذي يُقرِّبكم إلى اللّه. قدِّموا لأرواحكم ما تحتاج إليه من صلوات وتأمُّلات، وتسابيح وتراتيل، وقراءات روحية، وكل ما يُشبع الروح. ولا تكن صلواتكم مُجرَّد ترديد ألفاظ أمام اللّه. وتذكَّروا قول الرب في بعض الأوقات عن اليهود: " هذا الشعب يعبدني بشفتيه، أمَّا قلبه فمُبتعد عنِّي بعيداً! ".

★★ لا تتركوا أرواحكم فارغة أو معوزة شيئاً من الوسائط الروحية. واعلموا أنَّ الروح القوية تنتج شخصية قوية، والروح الفارغة تنتج شخصية فارغة. كما أنكم إذا امتلأتم يمكنكم أن تفيضوا على الآخرين. فالحُب الذي في أرواحكم من نحو اللّه ومن نحو البِرّ ومن نحو الناس، يمكنه أن ينتقل إليهم ويقودهم إلى السلوك بالروح. كما أنَّ السماء سوف تفرح بأرواحكم المملوءة حُبَّاً وبرّاً.

٢٥ مايو ٢٠٠٨

الفراغ العاطفي

تحدَّثنا من قبل عن الفراغ من جهة الوقت والفكر، وعن فراغ الشخصية، وفراغ الروح. ونود أن نُحدِّثكم اليوم عن الفراغ العاطفي وأنواعه، ومَن الذين يقاسون هذا الفراغ؟ ولماذا؟ وكيف يتخلَّص البعض من الفراغ العاطفي، بطُرق سليمة أو خاطئة؟

★★ هناك نوعان من الفراغ: أحدهما حالة إنسان يشعر أن له قلباً كبيراً، ولا يجد مَن يملأ قلبه، فيشعر بفراغ، ويريد أن يوزِّع محبَّته، ولا يعرف إلى مَن؟ وهذا النوع يمكن أن ينحرف، إذ ركَّز عواطفه في شخصية مُعيَّنة وأحبها بطريقة خاطئة. ولكن هذا القلب الكبير قد يريحه أن يوزِّع عواطفه في المجال الاجتماعي مثلاً، كإدخال السعادة إلى قلوب اليتامى والأطفال، والمعوزين والفقراء، والمُعاقين والمرضى، والعمل الجاد في حل مشاكل الغير...

★★ والنوع الثاني من الشاعرين بالفراغ العاطفي هم الذين يشعرون أنهم في حاجة إلى مَن يحبهم ويحنو عليهم، ولا يجدونه! وقد يبدأ هذا بوضوح في سن الطفولة. والفراغ العاطفي عند الأطفال، ونتائجه، هو موضوع طويل سنحاول أن نطرقه:

★★ تبدأ المشكلة عند الأطفال في عدم إشباع عواطفهم من جهة والديهم أو من جهة أقاربهم أو إخوتهم أو أصحابهم. ويحدث ذلك أحياناً في حالة ابن وحيد، ليس له أخ أو أخت. ولهذا فأنا أقول دائماً أنه لا يصح أن الأسرة تكتفي بإنجاب ابن واحد، فالأصلح أن يوجد اثنان على الأقل، يُسلِّي كل منهما الآخر، يلعبان معاً، يتحدَّثان معاً، يضحكان معاً، بل حتى يختلفان ويصطلحان، ويتفاهمان معاً بعقلية الأطفال. وفي كل ذلك إشباع عاطفي لكل منهما في جو الصداقة والمودَّة، بالإضافة إلى ما ينالونه من الوالدين.

★★ غير أنَّ الأطفال قد لا يجدون ما يحتاجونه من شبع عاطفي من الوالدين، فالعاطفة التي من الأبوة والأمومة لها طابع خاص ومذاق خاص. وقد يُحرَم الطفل من هذه العاطفة بسبب إهمال الوالدين أو مشغوليتهما: فالأب مشغول طول النهار، وليس لديه وقت لأطفاله! وحينما يرجع إلى بيته يكون في حاجة إلى راحة، ولا يتفرَّغ لتدليل الأطفال

حتى إن طلبوا ذلك! كما أن الأم العاملة، إن رجعت إلى بيتها، قد تنشغل بـأمور البيـت، أو تكون مرهقة وليس لديها وقت ولا أعصاب للأطفال!

★★ وأحياناً حينما يكبر الطفل بعض الشيء، تظن الأسرة أنه لم يعد محتاجاً إلى الحنان، فتهمله من جهة الإشباع العاطفي. وإن طلب ذلك، تظن أن ذلك لون من (الدلع)! بينما هو محتاج إلى العاطفة مهما كبر ... وإن لم يجدها عند والديه، سيلتمسها من الخارج، ولا ندري كيف تكون!

★★ وفي بعض الحالات، قد تعتمد الأم العاملة على الدادات أو المُربيّات، في العناية بطفلها الصغير. ولكن هؤلاء الغريبات لا يمكن أن يُقدمنَ للطفل العاطفة الطبيعية التي للأم..!

★★ وقد يُقاسي بعض الأطفال من الفراغ العاطفي بسبب عدم عدل الوالدين في معاملة أبنائهم. فقد يوجد تمييز بين معاملة الولد والبنت. وتشعر البنت بفراغ عاطفي أو بغيرة نتيجة لذلك. أو يوجد تمايز آخر من الوالدين في معاملتهما لكل من الابن الكبير أو الابن الصغير، أو في الحنو الذي يُقدَّم للابن الجميل ويُحرَم منه الذي هو أقل جمالاً. وهناك أنواع أخرى في تمييز المعاملة بين الأبناء، يشعر بها الأقل بفراغ عاطفي. بينما المساواة هى الوضع السليم...

★★ كذلك مِمَّا يُتعب بعض الأطفال عاطفياً، أنهم قد يعيشون في بيت بعيد عن الحُب، أو له أسلوب خاص في التربية! مِثال ذلك ابنة لها أب حازم جداً وشديد في معاملته، كثير التوبيخ، كثير العقاب، لا تجد فيه إطلاقاً حنان الأبوة. فرُبَّما هذه الابنة - وهى في هذا الفراغ العاطفي - تجد مَن يُقدِّم لها الحُب، ولو بطريقة خاطئة، فتقبل ذلك، وترتاح إليه، لأنها في حاجة إلى قلب، أي قلب، تجد فيه حُبًّا وحناناً...

★★ لذلك نحن ننصح الآباء والأمهات بأن يقدّموا لأبنائهم وبناتهم كل حُب وحنان، ويعاملون حينما يكبرون بروح المودَّة والصداقة، فهذا يحميهم من الانحراف. كما ننصح الأبناء والبنات – إن احتاجوا إلى إشباع عاطفي – أن يستوفوا ما يريدون بطريقة سليمة، بغير خطأ أو انحراف، في صداقة طاهرة...

★★ كذلك ننصح باستمرار العاطفة بين المتزوجين. لأن الزواج قد يبدأ بمحبة قوية، ثم بمرور الوقت قد يحدث فتور في ذلك الحُب. ونتيجة لسوء التعامل، يبدأ كل طرف

منهما أن يشعر بفراغ عاطفي، قد ينتهي بالانفصال أو بقضايا الطلاق! والزوجان الحكيمان يزدادان حُبًّا يوماً بعد يوم، ولا فراغ في محبتهما...

★★ هذا كله، يجعلنا نتحدَّث أيضاً عن الفراغ العاطفي عند الكبار، في حالة المترملين مثلاً. فالأرملة وقد فقدت زوجها شريك حياتها، قد تشعر بفراغ عاطفي، رُبَّما تحاول أن تملأه بمحبة أبنائها. ولكن قد يحدث أن الأبناء يتزوجون ويفترقون في مساكنهم، أو يهاجر البعض منهم، ويزداد الفراغ...

★★ وهكذا نشأت بيوت للمسنين والمُسنَّات، حيث لم يعد لهؤلاء من الأقارب مَن يهتم به. فأصبحت هذه البيوت تقوم بالرعاية اللازمة لكبار السن، ليس فقط من جهة العناية المادية بهم، بل من جهة الإشباع العاطفي أيضاً. ونحن نلاحظ أن أي كلمة طيِّبة أو كلمة مديح أو حُب تُقال لهؤلاء المسنين، تترك في نفوسهم أثراً عميقاً يفرحون به، إذ أنه قد مضى عليهم زمن طويل لم يسمعوا فيه مثل تلك الكلمات...

★★ الفراغ العاطفي قد يشعر به أيضاً، أصحاب المناصب الكبيرة الذين أحيلوا إلى المعاش، ولم تعهد إليهم بمسؤولية أخرى، وفقدوا ما كانوا يسمعونه قبلاً من عبارات التوقير والتبجيل والاحترام، وما كان لهم من التجاء الكثيرين إليهم! هؤلاء كل عبارة مديح يسمعونها وهو خارج المنصب، تُقدِّم لهم إشباعاً عاطفياً، إذ لم ينسَ الناس ماضيهم.

★★ نلاحظ أنَّ الذين يشعرون بفراغ عاطفي، إمَّا أن يملأه بطريقة روحية سليمة بمحبة اللَّه والناس، وبالخدمة الاجتماعية. أو البعض يعوضون ذلك بالانحراف الجسدي، باللَّهو، أو بالمخدرات. والبعض يشبعون أنفسهم بالدراسة والمعرفة. أو بكتابة البحوث أو مذكَّراتهم. والبعض يلجأون إلى ملء الفراغ بأنواع كثيرة من الأنشطة التي تستهويهم. ويجدون في تلك الأنشطة إشباعاً لعواطفهم.

١ يونيو ٢٠٠٨

القلق
أسبابه وعلاجه

القلق شعور يقع فيه كثير من الناس. وقد يكون حالة مؤقتة، شيئاً عارضاً ويـزول. أو قد يصبح طبعاً عند البعض، أو مرضاً نفسياً يحتاج إلى علاج.

★★ الإنسان الروحي، أو الإنسان السَّويّ، نراه باستمرار يعيش في سلام قلبي مهما كانت الظروف الخارجية ضاغطة. وتملك البشاشة علـى تصـرفاته والفـرح الـداخلي والاطمئنان.

أمَّا القلق فهو ضد السلام والفرح، وضد البشاشة والاطمئنان. وهـو ضـد الإيمـان أيضاً، أقصد الإيمان بحفظ اللَّه ورعايته. هوذا داود النبي يقول للَّه فـي المزمـور: "إن سِرْت في وادي ظلّ الموت، لا أخاف شرّاً، لأنَّك أنت معي". ويقول أيضاً: "إن يحـاربني جيش، فلن يخاف قلبي. وإن قام عليَّ قتال، ففي ذلك أنا مطمئن "...

★★ في القلق يتصوَّر الإنسان أو يتخيل أمور سيئة جداً يتوقَّع أن تحـدث، ورُبَّمـا لا تحدث على الإطلاق! ولكنه بسبب تخيلاته وتوقعاته يصير قلقاً، ويستمر قلقه...

★★ وللقلق أسباب كثيرة. منها أن يكون الإنسان قد ارتكب غلطة كبيرة أو خطيـة مخجلة، ويخاف أن تنكشف. وانكشافها يسبب له عاراً أو فضيحة، أو إساءة إلى سـمعته. فيظل قلقاً: هل سينكشف الأمر؟ هل ستُعرف الحقيقـة؟ وإن عُرِفـت، مـاذا سـيحدث؟ يا للَّهول! ويزداد القلق...

من أجل هذا، نسمع أن بعض الذين ارتكبوا جريمة قتل يحومون في الأيـام الأولـى حول مكان الجريمة، ليتأكدوا من أنهم لم يتركوا أي أثر يدل عليهم، وأن أمرهم لم يُكتشف بعد... وكل ذلك من مشاعر القلق التي في داخلهم...

★★ هناك قلق عند البعض حسب طبيعتهم، كالأطفال إذ يخافون فيقلقـون. وأيضـاً بعض النساء: إذا غاب ابن أو ابنة لواحدة منهنَّ، تظل في قلقٍ عليه: مـا سـبب غيابـه أو تأخره؟ هل حدث له سوء؟! وتظل قلقة حتى يرجع.

ومن نفس النوع، بعض صغار النفوس الذين يضطربون بسرعة، ولا يعرفون كيف يتصرَّفون، فيقلقون. ولذلك فإن اللَّه يأمرنا أن نُشجِّع صغار النفوس، ونسند الضعفاء.

★★ القلق أيضاً يتعب الفتيات اللائي ينتظرنَ الارتباط الزوجي، بحيث مَن يأتي ليخطب واحدة منهنَّ، تظل في قلق: هل تعجبه أم لا تعجبه؟ هل يكمل أم يمضي ولا يعود؟!

أتذكَّر أنني كنت أذهب للوعظ في إحدى مدن الوجه البحري منذ ٤٥ عاماً، وأتتني فتاة تطلب الإرشاد. وقالت لي إنها خائفة جداً. سيأتي عريس لمقابلتها، وهى مرتبكة لئلا لا تعجبه فيمضي كما مضى غيره... وهكذا كان حالها مع كل مَن يأتي لخطبتها. فقلت لها: "يا ابنتي، مُجرَّد مقابلتك له بهذا الارتباك والانزعاج، رُبَّما يجعله يخاف من الارتباط بكِ!".

نصيحتي للبنات في مقابلة العرسان، أن تكون لهنَّ ثقة بالنَّفس ولا يقلقنَ. وإن ذهب الخطيب، سيرسل اللَّه مَن هو أفضل.

★★ هناك قلق آخَر قد يصيب بعض المرضى وهم ذاهبون إلى الكشف الطبي: هل سيكشف الطبيب عن مرض يصعب شفاؤه؟ وهل هذا الكشف هو بدء قصة طويلة في التعامل مع المرض والأطباء؟ وهل هو بدء طريق الآلام؟ لهذا يقلق البعض في الذهاب إلى المستشفى، أو إلى طبيب أخصائي في مرض مُعيَّن. أو يقلق جداً في الدخول إلى حجرة العمليات، وفي قلقه تكثر صلواته ونذوره. ورُبَّما لا يكون الأمر خطيراً، وسيخرج معافى بالأكثر!

★★ نوع آخَر من القلق يتعب التلاميذ في قُرب الامتحانات: رُبَّما أسئلة الامتحان ستكون صعبة ولا يستطيعون الإجابة! وأيضاً رُبَّما تكون النتيجة على غير ما يريدون. ويظل القلق يتعبهم فيرتبكون. وفي كل ذلك يحتاجون إلى مَن يطمئنهم ويريح نفوسهم، تماماً مثلما يحتاج المريض المضطرب إلى ابتسامة رقيقة من الطبيب المُعالج وعبارة طيبة تزيل قلقه.

★★ وكما يقلق التلميذ في انتظار النتيجة، كذلك بنفس السبب يقلق الكبار أيضاً. فالمُرشح في الانتخابات قد يقلق في انتظار النتيجة: هل يفوز أم لا يفوز؟

والذي يقدّم على وظيفة، قد يمر بمرحلة القلق أيضاً: هل سيتم تعيينه أم لا يقبلونـــه؟ وكذلك الذي في منصب كبير ربَّما يقلق إذا عرف أن هناك تغييرات مقبلة: فهــل ســيبقى في منصبه أم يتركه. وإن أصابه التغيير، فماذا سيكون مصيره بعد ذلك؟

★★ كل هؤلاء يقلقهم التفكير في المستقبل كيف يكون؟ فلنعمل نحن كل ما نستطيعه على قدر طاقتنا. أمَّا المستقبل فلنتركه في يد اللّه ولا نقلق. حتى إن كــان هنــاك شــيء رديء في المستقبل فمن الممكن أن يتغيَّر إلى الأفضل.

على أن كبار السن قد يقلقون خوفاً من المستقبل، إذ يحسبون ما قد تأتي به الشيخوخة من أمراض أو من ضعف... وقد يتفرَّق أبناؤهم حسب أماكن وظائفهم وبيــوتهم. ولكــن لا داعي للقلق فبيوت المسنين منتشرة حالياً، وفيها كل أنواع الرعاية العاديــة والصــحية والترفيهية أيضاً.

★★ على أن البعض قد يقلق من جهة تدابير الأعداء وما قد يصدر عنهم من خطط ومؤامرات وأذى واعتداء. وداود النبي حورب بهذا الأمر أيضاً. فقــال فــي المزمــور: "يارب، لماذا كثر الذين يحزنونني. كثيرون يقولون لنفسي: ليس له خلاص بإلهه!!" غيــر أنه بالإيمان يتدارك الأمر، ويبعد القلق عن نفسه، فيقول: "وأنت يــارب هــو ناصــري، مجدي ورافع رأسي. بصوتي إلى الرب صرخت فاستجاب لي ...".

نعم، بالإيمان يثق الإنسان بحفظ اللّه له، فلا يقلق.

★★ هناك أشخاص يقلقون بسبب الوهم، مثال ذلك الذين يتشاءمون من الــرقم ١٣ ومضاعفاته، أو الذين يقلقون من خوف الحسد ومن عيون الحاســدين، أو أولئــك الــذين يؤمنون بحساب النجوم، فيقلقون من جهة تعاملهم مع شخص مولــود فــي نجــم مُعــيَّن لا يستريحون له!!

★★ والبعض يقلقون من جهة التجارب، والمشاكل التي يظنون أنها بلا حلّ، بينمــا عند اللّه حلول كثيرة. وكل باب مُغلق، له عند اللّه مفاتيح لا تُحصى. فالاتكال على اللّــه ومعونته يخلِّص الإنسان من القلق...

وعلى كل مَن تصادفه ضيقة، ألاَّ يُبالغ في القلق والخوف. فيواجه الأمور بــالحرص والرجاء في اللّه، وليس بالقلق.

٨ يونيو ٢٠٠٨

الخوف
أنواعه ومُسبِّباته

ليس كل خوف عيباً. فهناك خوف يُعتبر فضيلة. وهو الذي قال عنه سليمان الحكيم: "بدء الحكمة مخافة اللَّه". أي أنَّ الذي يخاف اللَّه، ويخاف عقوبته إذ يعصاه، هذا بلا شك سيسلُك بحكمة في كل طُرق الفضيلة، مبتعداً عن الشر والفساد ... وبممارسة هذا الخوف المُقدَّس زمناً، يصل إلى حياة البِرّ، وينتقل طبيعياً من مخافة اللَّه إلى محبة اللَّه. فهو حينئذ يكون بعيداً عن الخوف، لأنه لم يعُد يفعل ما يستوجب الخوف...

★★ هناك في المجال النفسي، نوع آخر من الخوف هو الخوف من الإيذاء. ومثاله الخوف من الناس الأشرار: سواء من اعتداءاتهم إن كانوا هم الأقوى. أو من تدابيرهم ومؤامراتهم إن كانوا ينوون شرًّا، أو يدبِّرون دسيسة، وما أكثر ادعاءاتهم وأكاذيبهم!

وربَّما يكون من بين هؤلاء، بعض المنافسين في وظيفة أو في عمل أو في ترقية. وهم في منافستهم يريدون أن يطيحوا بمَن يقف أمامهم بكافة الأساليب، فيصبحون مصدر خوف على أن الواثق من نفسه، لا يخاف المنافسة والمنافسين، شاعراً أن مواهبه وإمكانياته سوف تسنده فيفوز على منافسيه...

★★ وأحياناً يكون مصدر الخوف هو الأعداء وما يحملونه في قلوبهم من بُغضة. وقد قال داود النبي: "أكثر من شعر رأسي، الذين يبغضونني بلا سبب"، ولذلك كان يصرخ للَّه في بعض مزاميره ويقول: "يارب، لماذا كثر الذين يحزنونني؟ كثيرون يقولون لنفسي ليس له خلاص بإلهه!!". ولكنه كان بالإيمان ينجو من مخافة أولئك الأعداء فيقول: "أنت يارب هو ناصري، مجدي ورافع رأسي... ".

★★ أشخاص آخرون كانوا يخافون من رؤسائهم ومن بطش الرؤساء. وفي التاريخ القديم كثيراً ما عبدوا الفراعنة والملوك! وبعض الناس يلجئهم الخوف من بعض الرؤساء إلى تملُّق أولئك الرؤساء، وأحاطتهم بجو من النفاق.

★★ البعض قد يخاف أيضاً من الحسد، ومن عيون بعض الحاسدين. فيقول مثلاً: إن (فلان) عينه تفلق الحجر!! ولذلك فالذين يخافون من الحسد، يحاولون إخفاء ما يمكن أن يحسدهم الغير عليه. ونصيحتنا لهؤلاء ألاَّ يخافوا من الحسد. فالحاسد يتعب نفسه ولا يضر غيره. وقد قال الشاعر:

اصبر على كيد الحسود فإنَّ صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

★★ والبعض قد يخاف من الشياطين، أو من الجن، أو مِمَّن يُسمِّيهم البعض (بالعفاريت). والرهبان كانوا يعيشون في الوحدة في البريَّة في شقوق الجبال، وما كانوا يخافون من شيء من هذا كله. والشيطان ليس حُرًّا في محاربته للبشر. واللَّه - جلَّ جلاله - لا يسمح للشيطان بأن يحارب البشر فوق ما يطيقون. لذلك لا داعي للخوف.

والإنسان القوي القلب لا يخاف. أعرف قصة حدثت منذ زمن طويل في إحدى قرى الصعيد: كان الناس يتحدَّثون عن جن أو عفريت يظهر عند بئر مهجور في أطراف القرية ويؤذي مَن يراه. فقام رجُل قوي القلب، وقال: أنا سأذهب إلى هذا البئر المهجور، وبندقيتي معي، وإذا ظهر لي هذا الجن أو العفريت سأضربه بالرصاص!! وذهب فعلاً إلى هناك، ولم يظهر له شيء، لأنَّ قلبه قوي...

★★ أُناس آخرون يخافون من التجارب والمشاكل، وما يمكن أن تحدثه من أضرار، أو قد تكون فوق الاحتمال! والوضع السليم في مثل هذه الحالة، ليس هو التَّخوُّف من نتائج المشكلة، إنما هو التفكير العملي في حل المشكلة. فإن تمَّ الاهتداء إلى حلٍّ، حينئذ يزول الخوف. وإن لم يجد الإنسان حلاًّ، عليه أن يصبر بعض الوقت. لأنَّ كل مشكلة تحتاج إلى مدى زمني لكي تُحلّ فيه. وخلال هذا الوقت، على القلب أن يتجه إلى اللَّه الذي بقدرته ومعونته تُحلّ المشكلة، وتنتهي التجربة إلى خير...

★★ هناك نوع آخَر من الخوف، وهو خوف بعض الأتقياء من الوقوع في الخطيئة، بسبب حروب الشياطين وحيلهم وكثرة الإغراءات التي تقود إلى السقوط. ومع أنَّ هذا

الخوف له طابع روحي، إلاَّ أنه يزول بالحرص، والبُعد عن الأسباب التي تُضعف الإرادة أمام إغراءات الخطية. مع طلب نعمة خاصة من اللَّه تُعطي قوة للروح وصموداً أمام عوامل السقوط والانحراف.

★★ هناك خوف آخَر يقع فيه بعض المرضى والمُسنين وهو الخوف من الموت. وهو خوف له عِدَّة اتجاهات: منها طبيعة الموت ومفارقة الروح للجسد. وأيضاً الخوف من الحرمان من العالم وما فيه من المُتع ومن الأحباء والأقارب والأصدقاء ... ثم خوف ثالث من المصير بعد الموت، هل هو إلى النعيم أمْ إلى الجحيم؟!

على أنَّ الذي يستعد للموت بالتوبة والسَّيْر في حياة البِرّ، هذا لا يخاف الموت. كذلك لا يخاف الموت مَن يحب السماء أكثر من محبته لمُشتهيات العالم الحاضر...

★★ ومن المعروف أنَّ الذي يخاف الموت، يخاف أيضاً من مُسبِّباته، وبخاصة من المرض، ومن العدوى، ومن الحوادث سواء في الجو أو في البحر أو في البَر.

حدث أن أحد الخائفين كان يقول: "هناك عدو خطير موجود في كل مكان". فسألناه: هل تقصد الشياطين؟ فأجاب: كلا، بل الميكروبات التي لا يخلو منها مكان. وقد توجد في الجو، وفي الطعام، وفي الماء، وفي الناس!!

★★ هناك خوف آخَر وهمي، مثل خوف الأطفال من الظلام، ومن وجودهم وحدهم، حيث لا يوجد سبب يدعو إلى ذلك! والبعض قد يضيف إلى الظلام الحركة المفاجئة كسبب للخوف.

★★ وبعض الناس يرجع سبب الخوف عندهم إلى الطبع. فهم بطبعهم يخافون. ومن أمثلتهم الجبناء. فالإنسان الجبان يخاف من أقل سبب، أو بلا سبب. وقد يصل الخوف به إلى درجة الرُعب. فيرتعش جسده ويرتبك...

وأحياناً توجد عند البعض عقدة الخوف، ويصير الخوف عندهم كمرض نفساني، وليس لأسباب مُعيَّنة في بعض الوقت!

١٥ يونيو ٢٠٠٨

طُرق تبدو مستقيمة وعاقبتها الضياع!

يحدث أحياناً - من جهل الإنسان أو من غروره - يظن أنه سائر في طريق سليم وطريق حكيم، بينما هو يسير في طريق الهلاك. ولهذا فالنصيحة التي تُوجَّه إليه أنه لا يكون حكيماً في عَيْنَيْ نَفْسِه، ولا باراً في عَيْنَيْ نَفْسِه، ولا يعتمد بالكمال على فهمه وحده، ولا ينفذ كل ما يطرأ على ذهنه من أفكار، أو من رغبات. فقد تكون هذه كلها ناتجة عن شهوات نفسه، وليس عن حكمة في التدبير.

★★ وربَّما الشيطان يرى نفسه حكيماً في حيله، وناجحاً في طرقه، بينما طرقه كلها آثمة ونهايتها إهلاك البشر. وتقود إلى الهاوية سواء بالنسبة إليه هو، أو إلى ضحاياه. وكثيراً ما ينظر الإنسان إلى كل أشجار الإغواء والإغراء فيجدها جميلة في المنظر، جيدة للأكل، بهجة للعيون، بينما هى في حقيقتها عكس ذلك تماماً. وأماكن اللَّهو تبدو مغرية ومبهجة للقلب، بينما هى طريق واسع يؤدِّي إلى الهلاك.

ووسائل المال الحرام كالرشوة والسرقة، تبدو أسرع الطُّرق لتكوين الثروة، بينما قد تقود إلى السجن والفضيحة ولا يباركها اللَّه. وذلك كله لأن الشيطان يعمي بصر السائر في هذا الطريق فلا يرى النهاية المهلكة إنما يبصر فقط أحلام الثراء. وبنفس الوضع احتكار السوق وفرض أسعار في مستوى الخيال. وكلّها طُرق تبدو لأصحابها مستقيمة ويظنون أنها تدل على الذكاء. وبنفس الأسلوب مَن يلجأون في البيع بطُرق متنوعة من الغش تدرّ عليهم المال الوفير، وتُضيِّع الذين يشترون. ونقطة البدء الخاطئة عند أمثال هؤلاء أنهم يُفكِّرون في أنفسهم وليس في غيرهم. ويا ليتهم يُفكِّرون في أنفسهم بطريقة بارة وإنما بأسلوب كله إثم.

★★ وبنفس المنطق نتكلَّم على الذين يبغون الشهرة ومحبة الظهور فيتناولون المنافسين لهم بكل ألوان الإيذاء والتحطيم، مُتخيِّلين أن هذا هو المنهج السليم الذي يُبعِد

عنهم المنافسة فيبقيهم وحدهم في قمة الطريق! وبالعكس ما أسهل أن يجُرّهُم هذا المنهج إلى الضياع إذ يشمئز الناس من أساليبهم ويبعدون عنهم.

★★ لقد رأت الدولة الرومانية أيام نيرون وحتى أيام دقلديانوس أنَّ القضاء على المسيحية بالقتل والنفي والتعذيب والسجن ستكون نهايته مجد الوثنية وبقاء عبادة الأصنام... بينما كانت النتيجة أنَّ هذه الطريقة التي كانت تبدو لهم مستقيمة قد انتهت بضياع دولتهم.

★★ وهكذا سلك أصحاب البِدَع والفلسفات الوثنية في نشر أفكار الإلحاد ظانين بهذا أنهم سوف يقضون على الإيمان كما حدث في روسيا البلشفية لمدة سبعين عاماً ولكنها انتهت بالقضاء على الشيوعية المُلحدة ورجوع الناس إلى الإيمان. لأنَّ بذور الحق في قلوب الناس كانت أقوى من الباطل الذي يحاربهم من الخارج. وتبخَّرت وانتهت الأفكار التي قالت إنَّ الدين هو أفيون الشعوب.

★★ والكذب والخداع من الأمور التي يظن البعض أنها توصلّهم إلى النجاح بسرعة، أو إلى الإفلات من يد القانون! بينما قد ينتهي الأمر من جرّاء ذلك إلى الهلاك والفضيحة وسوء السُمعة.

★★ والذين يتمسَّكون بأسلوب الطُّرق الخاطئة ظانين أنها توصل إلى النجاح هم إمَّا مخدوعون من الشياطين، أو على درجة من الجهل يُصور لهم الشرّ خيراً، والمُرّ حلواً، أو أن نظرهم قاصر لا يمتد إلى قُدَّام، ولا يتصوَّر النتائج التي تنتهي إليها طُرقهم الخاطئة. وهُم لا يأخذون درساً من فشل غيرهم الذين يتبعون نفس الأسلوب.. وربَّما لتأثير القدوة الشريرة يخطئون الطريق. ولعلّ الذي يقودهم في ذلك هو التعلُّق بالمادة والماديات مع ضعف الحياة الروحية وضعف التَّمسُّك بحياة البِرّ لبعدهم عن اللّـه وعن الطريق الروحي. وهُم في كل ذلك يقولون عن الشخص الروحي أنه إنسان مسكين محروم من مباهج الدنيا، على اعتبار أن مباهج الدنيا هى تلك المباهج الدَّنِسة البعيدة عن الحق، هؤلاء مجدهم في خزيهم الذين يتعلَّقون بالأرضيات.

٢٢ يونيو ٢٠٠٨

كيف تتحول الوصايا إلى حياة

إن الدين ليس مجرد معلومات، ولا مجرد امتلاء من المعرفة الدينية. فالمعرفة وحدها لا تكفي. ماذا يستفيد الإنسان إن كان يعرف كل المعلومات عن الفضيلة، دون أن يسلك في حياة الفضيلة؟!

إذن لا بد أن تتحول المعرفة إلى ممارسة، وتتحول المعلومات إلى عمل، وبالتالي تصبح حياة.

★★ نقول هذا لأن كثيرين يواظبون على قراءة الكتب الدينية، ويحرصون على حضور الاجتماعات الروحية في دور العبادة، ومع ذلك حياتهم هي كما هي دون تقدُّم. يعيشون بنفس الأخطاء التي يقعون فيها باستمرار، وتنقصهم بعض الفضائل التي يحتاجون إليها دون أن يخطوا خطوات عملية للحصول على تلك الفضائل.

★★ من هنا كان لا بد للإنسان من بعض خطوات عملية يقوم بها لكي يبدأ القيام بإصلاح ذاته روحياً.

لا بد للإنسان الذي يحرص على خلاص نفسه من أن يخلو بعض الأوقات إلى نفسه يفتّشها ويفحصها ويعرف في أي طريق تسير. وهذه هي فضيلة محاسبة النفس. أما الذي يترك نفسه بلا مراقبة ولا محاسبة ولا دراية بأي طريق تسلك، فهو شخص غريب عن نفسه غير مبالٍ بأبديته. وما أعجب الحكمة التي تقول: "اعرف نفسك".

★★ إذا عرف الإنسان نفسه، وعرف عيوبه وأخطاءه ونقائصه، سيبدأ حينئذ بالعمل على تقويم ذاته وعدم السماح لنفسه بأن تسلك حسب هواها. وهنا يدخل في فضيلة أخرى هي ضبط النفس. وفي هذه الحالة يُجاهد مع نفسه كي لا تنحرف إرادته للخطأ، ويُجاهد مع اللَّه في الصلاة طالباً نعمة ترشده وتقويّه.

★★ وكثيرون يستخدمون في هذا المجال التداريب الروحية: أي أن يدرب نفسه على فضيلة لكي يقتنيها، أو يدرب نفسه على ترك خطية معينة يقع فيها. ونحن ننصح القارئ

العزيز إذا كشف له أحد الأشخاص عيباً موجوداً فيه، لا يتضايق من ذلك بل يشكر ذلك الشخص لأنه ينبهه إلى شيء عليه أن يُجاهد لكي يتركه.

★★ وفي جلوس الإنسان مع نفسه، عليه أن يكون صريحاً مع ذاته إلى أبعد الحدود، ولا يحاول أن يغطّي أخطاءه بالتبريرات أو التماس الأعذار. فالذي يبرر نفسه، يبقى دائماً حيث هو، لا يصلح من ذاته شيئاً، لأنه يرى ذاته جميلة في عينيه بلا عيب. أما إذا اعترف في داخل نفسه بأنه يقع أحياناً في أخطاء معينة، حينئذ يمكنه التدرُّج على ترك تلك الأخطاء.

★★ إن التداريب الروحية وسيلة عملية تحول وصايا اللّه إلى حياة. ولا تبقى الوصايا مجرد معلومات يشتاق إليها الإنسان دون أن يدركها. وينبغي أن يكون التدريب في حدود طاقة الإرادة. فلا يدرب أحد ذاته على فضيلة فوق مستواه، أو على درجة أعلى من قامته. إنما الفضائل الكبار يسعى إليها الإنسان خطوة خطوة في حدود الممكن، وبهذا لا يشعر بالفشل والإحباط إذا قفز إلى أعلى مما هو فوق مستواه.

★★ وليكن التدريب محدداً وواضحاً، فلا تقل مثلاً إني أريد أن أدرّب نفسي على حياة التواضع أو الوداعة أو الإيمان. بينما تكون كل كلمة من هذه الكلمات غير واضحة في تفاصيلها أمامك وهكذا لا تفعل شيء. إنما قل مثلاً أريد في حياة الاتضاع أن أدرّب نفسي على أمر واحد وهو أنني لا أمدح ذاتي أمام الآخرين.

★★ وكذلك لا تقل أريد أن أدرّب نفسي على ترك أخطاء الكلام. فهذا موضوع طويل له تفاصيل عديدة قد لا تستطيع أن تصل إليها دفعة واحدة. إنما قُل مثلاً أريد أن أدرّب نفسي على عدم مسك سيرة الناس، أو أريد أن أتدرب على الألفاظ الهادئة غير الجارحة أو قل أريد أن أتدرب على الكلام بقدر وعدم الإطالة في الحديث بلا داع. فما يحتاج إلى كلمة لا أقول فيه جملة. وما يحتاج إلى جملة لا أقول فيه محاضرة. وإن فهم محدثي ما أريد، لا داعي لأن أزيد. وهكذا كلما يكون التدريب محدداً، يمكن النجاح فيه.

★★ الحياة الروحية لا تنمو بكثرة التداريب، وإنما بالثبات فيها. فإن القفز السريع من تدريب إلى آخَر لا يفيد روحياً. لأن كثيرين يريدون أن يصلوا إلى كل شيء في أقل فترة من الوقت. فتكون النتيجة عدم الوصول إلى أي شيء!! أو أنهم يضعون أمامهم

تداريب عديدة في نفس الوقت بحيث ينسون بعضها، أو لا يستطيعون التركيز عليها جميعاً. أما أنت فاسلك في تداريبك بحكمة شيئاً فشيئاً لكي تصل.

★★ وإن سقطت في تدريبك في وقت ما، ولم تصل إلى ما تريد الوصول إليه، فاعرف أسباب الفشل وحاول أن تتحاشاها فيما بعد.

وهكذا تأخذ خبرة روحية في كل ممارساتك، وتعرف أسباب السقوط، وحروب العدو وطريقة الانتصار عليه. حتى أن البعض في تدريباتهم الروحية لأنفسهم وما أدركوه من نتائجها أو انتصارها أو فشلها، صاروا بهذه الخبرة مرشدين لغيرهم. كالأم التي اختبرت الحياة، وتستطيع أن تنصح ابنتها بنصائح عملية تفيدها.

★★ وإن درّبت نفسك على شيء من الحياة الفاضلة وفشلت في التدريب، فليكن لك ذلك سبباً في الاتضاع والشعور بالضعف، حتى لا تتكبر نفسك بتوالي النجاح. وأيضاً ليكن ذلك دافعاً لك أن تشفق على الضعاف والمخطئين. ولتكن سقطاتك موضوعاً لصلواتك تطلب فيها نعمة من اللّه وقوة.

★★ إن التداريب الروحية هى جهاد للوصول إلى نقاوة القلب، وأيضاً إلى النمو في حياة البر. وهى خبرة تُدرك بها عمل اللّه معك، وكيف أنه يسندك في تدريبك. لذلك فهى ليست مجرد جهاد نعتمد فيه على عملنا البشري وقوة إرادتنا. إنما هى في روحانيتها طلبة مقدمة إلى اللّه لكي يتدخّل في حياتنا وينعم علينا بما نريد في تنفيذ وصاياه.

فكثيرون يقدمون للّه رغباتهم الروحية في أسلوب نظري، في مجرد مشاعر القلب أو كلام الصلاة. أما التداريب الروحية فهى رغبات تقدم إلى اللّه بأسلوب عملي يشعر فيه الإنسان أنه لا يستطيع وحده أن يصل إلى حياة الفضيلة والنمو فيها إلا بمعونة من عند اللّه تبارك اسمه.

★★ وبالتداريب الروحية نقتني الثبات في الفضائل. لأنه ما أسهل أن يسير الإنسان في فضيلة ما يوماً أو يومين أو أسبوعاً. لكن المهم أن يستمر حتى تصبح هذه الفضيلة عادة فيه، أو تتحول إلى طبع، وتصبح جزء من حياته لا ينفصل عنه. وهذا طبعاً يحتاج إلى زمن واستمرارية. والاستمرار هو الدليل على معرفة عمق الفضيلة فيك.

٢٩ يونيو ٢٠٠٨

ما هى الصلاة؟
وكيف تصل إلى اللَّه؟ (أ)

يظن البعض أنه يُصلِّي، بينما صلاته لم تكن صلاة، ولم تصعد إلى اللَّه! فما هى الصلاة إذن؟ وكيف تكون؟

★★ الصلاة هى جسر يوصل بين الإنسان واللَّه. إنها ليست مُجرَّد كلام، إنما هى صلة ... هى صلة باللَّه قلباً وفكراً ... إنها إحساسك بالوجود في الحضرة الإلهية، أي بأنك أمام اللَّه واقفاً أو راكعاً أو ساجداً. وبغير هذا الإحساس لا تكون الصلاة صلاة. وبالإحساس بالوجود في الحضرة الإلهية ينسى الإنسان كل شيء، أو لا يهتم بشيءٍ. ولا يبقى في ذهنه سوى اللَّه وحده. ويتضاءل كل شيء أمامه، ويُصبح اللَّه هو الكل في الكل وليس سواه...

★★ الصلاة هى عمل القلب، سواء عبَّر عنها اللسان أو لم يُعبِّر. إنها رفع القلب إلى اللَّه، وتمتُّع القلب باللَّه. والقلب يتحدَّث مع اللَّه بالشعور والعاطفة، أكثر ممَّا يتحدَّث اللسان بالكلام. وربَّما يرتفع القلب إلى اللَّه بدون كلام. لذلك فإنَّ حنين القلب إلى اللَّه هو صلاة. ومشاعر الحُب نحو اللَّه هى صلاة. والصلاة كما قُلنا هى الصِّلة بين اللَّه والإنسان. وإن لم توجد هذه الصِّلة القلبية فلن ينفع الكلام شيئاً. إذن هى مشاعر فيها الإيمان، وفيها الخشوع، وفيها الحُب.

★★ إن أحببت اللَّه تُصلِّي. وإن صليت تزداد حُبَّاً للَّه. فالصلاة إذن هى عاطفة حُب نحو اللَّه، نُعبِّر عنها أحياناً بالكلام ... نرى هذا الحُب وهذه العاطفة بكل وضوح في مزامير داود إذ يقول: "يا اللَّه أنت إلهي، إليك أُبكِّر. عطِشت نفسي إليك". "كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا اللَّه. عطشت نفسي إلى اللَّه، إلى الإله الحيّ. متى أجيء وأتراءى قُدَّام اللَّه"... إنه شوق إلى اللَّه وعطش إليه، كما تشتاق الأرض العطشانة إلى الماء.

★★ كثيرون يُصلّون، ولا تصعد صلواتهم إلى اللّه، لأنها ليست صادرة من القلب... هى مُجرَّد كلام!! هؤلاء رفض اللَّه صلواتهم. كما قال في العهد القديم عن اليهود: "هذا الشعب يكرمني بشفتيه، أمَّا قلبه فمبتعد عني بعيداً"... إذن حينما تُصلِّي أيها القارئ العزيز، تحدَّث مع اللَّه بعاطفة. فالصلاة هى اشتياق المخلوق إلى خالقه، أو اشتياق المحدود إلى غير المحدود، أو اشتياق الروح إلى مصدرها وإلى ما يشبعها.

★★ والصلاة المقبولة هى التي تصدر من قلب نقي. لذلك قال اللَّه لليهود في العهد القديم: "حين تبسطون أيديكم، أستُر وجهي عنكم. وإن أكثرتم الصلاة، لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً".

★★ إذن ماذا يفعل الخاطئ المُثقَّل بآثامه؟ إنه يُصلِّي ليُساعده اللَّه على التوبة. ويتوب لكي يقبل اللَّه صلاته ... يُصلِّي ويقول: "توبني يارب فأتوب". فالصلاة هى باب المعونة الذي يدخل منه الخاطئ إلى التوبة ... إذن لا تنتظر حتى تتوب ثم تُصلِّي!! إنما صلِّ طالباً التوبة في صلاتك لكي يمنحك اللَّه إيَّاها .. ذلك لأنه بمداومة الصلاة يُطهِّر اللَّه قلبك إن كنت تطلب ذلك بانسحاق أمام اللَّه.

★★ الصلاة هى تدشين للشفتين وللفكر، وهى تقديس للنَّفس. وأحياناً هى صُلح مع اللَّه ... فالإنسان الخاطئ الذي يعصي اللَّه ويكسر وصاياه، يشعر أنه توجد خصومة بينه وبين اللَّه. فلا يجد دالة للحديث مع اللَّه. فإن بدأ يُصلِّي، فمعنى هذا إنه يريد أن يرجع إلى اللَّه ويصطلح معه ... وبالصلاة يستحي أن يخطئ بعد ذلك، ويحب أن يحتفظ بفكره نقيًّا. فهو إذن يصل إلى استحياء الفكر. وهذه ظاهرة روحية سليمة. وكُلَّما داوم على الصلاة، يدخل فكره وقلبه في جوٍ روحي.

★★ الصلاة هى رُعب للشياطين، وهى أقوى سلاح ضدهم. الشيطان يخشى أن يفلت من يده هذا الإنسان المُصلِّي. ويخشى أن ينال المُصلِّي قوة يحاربه بها. كما أنه يحسده على علاقته هذه مع اللَّه، العلاقة التي حُرِمَ هو منها ... لذلك فالشيطان يُحارِب الصلاة بكل الطُّرق. يحاول أن يمنعها بأن يوحي للإنسان بمشاغل كثيرة مهمة جداً تنتظره، وأنه ليس لديه وقت الآن للصلاة! أو يشعره بالتعب أو بثقل الجسد. وإن أصرَّ على الصلاة، يحاول الشيطان أن يُشتِّت فكره ليسرح في أمور عديدة ... أمَّا أنت يا رجُل اللَّه، فاصمد في صلاتك مهما كانت حروب إبليس. وركِّز فيها فكرك وكل مشاعرك.

واعرف أن محاولته منعك من الصلاة، إنما تحمل اعترافاً ضمنياً منه بقوة الصلاة كسلاح ضده. وثِق أنك في تمسُّكِكَ بالصلاة، فإنَّ نعمة اللَّه سوف تكون معك ولا تتخلَّ عنك.

★★ وفي صلاتِك، افتح أعماق نفسك لكي تمتلئ من مُتعة الوجود في حضرة اللَّه... اطلب اللَّه نفسه وليس مُجرَّد خيراته ونِعمه ... تأكَّد أن نفسك التي تشعر بنقصها، ستظل في فراغ إلى أن تكملها محبة اللَّه ... إنها تحتاج إلى حُب أقوى من كل شهوات العالم. وهى عطشانة، وماء العالم لا يستطيع أن يرويها. وكما قال القديس أُغسطينوس في اعترافاته مخاطباً اللَّه: "ستظل نفسي حيرى إلى أن تجد راحتها فيك".

★★ قُل له يارب: "لست أجد سواك كائناً يرفق بي ويحتويني ... أنت الذي أطمئن إليه، فأفتح له قلبي، وأحكي له كل أسراري، وأشرح له ضعفاتي فلا يحتقرها بل يشفق عليها. وأسكب أمامه دموعي، وأبثه أشواقي. أشعر معه أنني لست وحدي، وإنما معي قوة تسندني .. بدونك يارب أشعر أنني في فراغٍ، ولا أرى لي وجوداً حقيقياً ... ومعك أشتاق إلى ما هو أسمَى من المادة والعالم وكل ما فيه ... ". هذه هى صلاة الحُب وهى أعلى من مستوى الطلب. فالقلب المُحِب للَّه قد يُصلِّي ولا يطلُب شيئاً. وكما قال أحد الآباء: "لا تبدأ صلاتك بالطلب، لئلاَّ يُظن أنه لولا الطلب لما كنت تُصلِّي".

★★ والصلاة قد تكون شكراً للَّه على ما أعطاه لك من قبل. شكراً على عنايته بك ورعايته لك، وعلى ستره ومعونته وكل إحساناته، لك ولكل أصحابك وأحبائك. وقد تكون الصلاة تسبيحاً ... وقد تكون مُجرَّد تأمُّل في صفات اللَّه الجميلة ...

وبعد، ألاَّ ترى أن موضوع الصلاة لم يُكمل. فإلى اللقاء في المقال المُقبل إن أحب الرب وعشنا.

٦ يوليو ٢٠٠٨

ما هى الصلاة؟
وما صفاتها المقبولة؟ (٢)

مبارك هو إلهنا الطيب الذي منحنا أن نُصلِّي. تواضع منه أن يسمح لنا بأن نتحدث إليه، وتواضع منه أن يُصغي إلينا ... مَن نحن التُّراب والرَّماد حتى نقترب إلى اللّه ونقف أمامه ونتحدَّث إليه .. ونضم أنفسنا إلى صفوف الملائكة الواقفة أمام عرشه تُسبِّحه وتتبارك بالوجود في حضرته؟! حقاً إنه تواضع من الخالق أن يسمح لمخلوقاته بهذه الدالة...

★★ لذلك عار كبير وخطية كبرى، أن تقول: ليس لديَّ وقت للصلاة!! عجيب أن الخالق يسمح لنا أن نُكلِّمه، ونحن المخلوقات نعتذر بضيق الوقت!! إنَّ أمور عديدة تافهة نجد لها وقتاً ... ومحادثات لا قيمة لها نجد لها وقتاً. لماذا إذن نحتج بضيق الوقت في الحديث مع اللّه.

إنَّ داود النبي كان ملكاً وقائداً وقاضياً للشعب، وله أُسرة كبيرة. ومع ذلك يقول للرب: "سبع مرات في النهار سبَّحتك على أحكام عدلك"، "في نصف الليل نهضت لأشكرك"، "سبقت عيناي وقت السحر لأتلو في جميع أقوالك".

★★ المشكلة إذن لا تكمن في الوقت، وإنما في عدم الرغبة. إن كانت لديك رغبة في الصلاة، فلا شك أنك ستجد لها وقتاً .. ثم يجب أن تعرف أنَّ الصلاة بركة لك وأنك فيها تأخذ ولست تُعطي. فهل تظن أن تُعطي للّه وقتاً حينما تُصلِّي؟! أم أنَّ اللّه مُحتاج إلى صلاتك؟! بل أنت تأخذ في الصلاة قوة ومعونة، وتأخذ لذَّة روحية ومُتعة بعِشرة اللّه وحلاً لمشاكلك ... مُجرَّد وجودك في حضرة اللّه متعة حتى لو لم تفتح فمك بكلمة واحدة، حتى لو لم يتحرَّك ذهنك بأي فكر. كطفل في حضن أبيه، لا يطلب شيئاً سوى أن يبقى هناك.

ما أجمل ما قاله بعض الآباء عن الصلاة، إنها مذاقة الملكوت.

★★ على أنه ليست كل صلاة مقبولة، لأنه ليست كل صلاة، صلاة. فما هى إذن شروط الصلاة المقبولة؟

يجب أوّلاً أن تكون بالروح: فيها روح الإنسان يخاطب روح اللَّه، وقلبه يتصل بقلب اللَّه. وهذه الصلاة التي من الروح والقلب، هى التي تفتح أبواب السماء، وتدخل إلى حضرة اللَّه، وتُكلِّمه بدالة، وتأخذ منه ما تريد ... بل إنَّ هذه الصلاة هى أيضاً التي تشبع الروح. كما قال المُرتِّل في المزمور: "بِاسمك أرفع يديَّ، فتشبع نفسي كما من شحم ودسم".

★★ الصلاة الروحانية تكون أيضاً بخشوع أمام اللَّه. إن محبَّتنا للَّه لا تمكن أن تنسينا هيبته وجلاله ووقاره. وهكذا في خشوعنا ندرك أدب الحديث مع اللَّه.

وخشوعك أمام اللَّه هو خشوع الروح وخشوع الجسد أيضاً ... أمَّا عن خشوع الجسد فيشمل الوقوف والركوع والسجود. بحيث لا تقف وقفة متراخية ولا متكاسلة. ولا تستسلم للشيطان الذي يحاول أن يُشعرك في وقت الصلاة بتعب الجسد أو بمرضه أو بإنهاكه أو بحاجته إلى النوم!

إنَّ خشوع الجسد لازم، لأنَّ الجسد يشترك مع الروح في مشاعرها، ويُعبر عنها، كما أن تراخي الروح وعدم اهتمامها، يظهر كذلك في حركات الجسد، مثل انشغال الحواس بشيء آخر أثناء الصلاة.

★★ أمَّا عن خشوع الروح، ففيه تكون الصلاة بانسحاق القلب. إذ يشعر المُصلِّي أنه - وهو طبيعة ترابية - يقف أمام اللَّه الكُلي العظمة غير المحدود، الذي طالما غمرنا بإحسانه، ونحن نجحد وصاياه بخطايانا الكثيرة. ففي خشوعه يشعر بعدم الاستحقاق.

★★ والصلاة الطاهرة تكون بإيمان وبعُمق وفهم. إذ يؤمن المُصلِّي أن اللَّه يسمع ويستجيب ما دامت صلواتنا حسب مشيئته. كذلك في صلاته يقول كل كلمة بفهم ويقصد كل أعماقها. وهو يُصلِّي من عُمق قلبه ومن عُمق احتياجاته ومن عُمق فكره. وهذه الأعماق تمنح الصلاة حرارة.

★★ على أننا نريد أن نُقدِّم بعض ملاحظات هامة لتكون الصلاة روحانية ومقبولة.

لا تكتفِ بالصلوات المحفوظة فقط. وإنما درِّب نفسك على صلوات خاصة تقولها للَّه بقلب مفتوح أمامه لا يخفي عنه شيئاً، تعبر فيها عن كل مشاعرك، وتذكر فيها كل احتياجاتك، وتطلب فيها معونة في ضعفاتك.

★★ درِّب نفسك على الاستيقاظ المُبكِّر، وبدء اليوم بالصلاة. حيث يكون قلبك صـــافياً، ولم يزدحم بعد بأفكار العمل وسائر المسئوليات. كما يكون بيتك هادئاً لم تدركه ضوضـــاء النهار. فتخلو مع اللَّه بدون مُعطِّل. ويكون اللَّه هو أول من تتحدَّث إليه في يومك، وتأخــذ منه بركة لهذا اليوم.

★★ درِّب نفسك على إطالة الوقت في الوجود مع اللَّه. وما أجمل قول داود النبـــي في المزمور: "محبوب هو اسمك يارب، فهو طول النهار تلاوتي". وهنا اسأل نفسك: كــم من الوقت تقضيه مع اللَّه في يومك؟ مقارناً ذلك بالأوقات الكثيرة التي تقضيها في أحاديث وترفيهات لا تفيدك شيئاً. ولا تجعل الوقت الذي تقضيه مع اللَّه في نهاية مشغولياتك، بـــل في قمة مشغولياتك.

★★ تدرَّب أن تُدخِل اللَّه في كل موضوع وكل مشكلة لك. فلا تقف وحدك في كـــل مشاكلك وكل مشاغلك. ولا تعتمد فقط على مُجرَّد ذكائك أو على معونة الآخـــرين. إنمـــا اشعر بأنك لا تستغني عن اللَّه في كل ما يعرض عليك من أمور. موقناً أن أمـــورك قـــد تسلَّمتها يد أمينة قوية هي يد اللَّه التي ستدبِّر كل شيء حسناً.

★★ تدرَّب على الصلاة من أجل الآخرين، وبخاصة كل الذين هم في احتياج. صلِّ من أجل معارفك وزملائك وأهل بيتك، ومن أجل المجتمع الذي تعيش فيه، ومـــن أجـــل المرضى والتعابى، ومن أجل الوطن والمناطق التي تحتاج إلى معونة وسلام.

★★ وأخيراً، إن كنت لم تصل بعد إلى الصلاة الطاهرة الروحانية المركـــزة، فـــلا تمتنع عن الصلاة لهذا السبب. بل تدرَّج حتى تصل إلى كمال درجة الصلاة. والمعـــروف جيداً أنك تتعلَّم الصلاة بالصلاة.

كذلك حاول أن تستمر في الصلاة، كُلَّما أردت أن تنهيها، مشتاقاً أن تبقى في الجـــو الروحي الذي للصلاة، غير مفضلٍ عليها أيَّة مشغولية أخرى ... واللَّه الذي قبل صلوات الأبرار، هو يقبل صلواتك أيضاً.

١٣ يوليو ٢٠٠٨

دواعي السقوط روحياً

ليس كل مُحبي الفضيلة يستمرون قائمين على الدوام في الطريق الروحي. بل كثيراً ما يسقطون شعروا بذلك أو لم يشعروا. وقد يكون السقوط أحياناً بتدريج طويل. فما هي أسباب هذا السقوط؟ وكيف ينشأ؟ وهل يستمر أم يتوقَّف؟ وهل يتطوَّر؟

★★ من الأسباب الأساسية لسقوط الكثيرين، التساهُل مع الخطية. فقد لا ينظر هذا المؤمن نظرة عميقة إلى بعض التصرُّفات ظاناً أنها أمور بسيطة لا خطأ فيها، وإن عملها لا يؤنبه ضميره عليها وهكذا يُقابلها بكثير من التساهل بعدم التدقيق.

إنَّ الشيطان عندما يُوقِع أمثال هؤلاء الأبرار لا يبدأ دائماً بضربة قاضية. إنما قد يبدأ معهم بشيء بسيط ثم يتدرَّج به على مجال طويل. لقد سمَّاه أحد الآباء أنه فتَّال حبال. وحباله طويلة إلى أبعد حد. فقد يُخطط لإسقاط إنسان بخطة تتم بعد سنوات، بسياسة بعيدة المدى، تُسمَّى في الروحيات سياسة النَّفَس الطويل، بطريقة تبدو غير محسوسة. فقد يصوِّر له الخير مثلاً في مكان مُعيَّن يعمل فيه. ثم يُدبِّر له في ذلك المكان علاقات تبدو بريئة تماماً. وبعد ذلك تبدأ شباكه.

★★ ومن ضمن هذه الحرب الروحية، السقوط التدريجي الذي لا يُحس. كالنازل مثلاً من وادي النطرون إلى القاهرة، يجد نفسه قد نزل عدَّة أمتار إلى أسفل، في طريقٍ مستوٍ، ليس فيه هبوط مفاجئ يلفت النظر. هكذا في الروحيات ... مثال ذلك شخص هادئ وديع يزن كل كلمة تخرج من فمه وزناً دقيقاً حريصاً. ولا يسمح لنفسه أن يجرح شعور إنسان بكلمة قاسية. ثم يُعيَّن هذا الشخص الرقيق الهادئ في وظيفة كبيرة. ويقتنع أن الإدارة هى في الحسم وفي توبيخ المخطئين. فيُراقب كل هؤلاء، ويوبِّخ على كل خطأ توبيخاً شديداً يتدرَّج إلى توبيخ عنيف يتدرَّج إلى كلمات قاسية ... ويستمر هذا الأمر زمناً طويلاً حتى تتحوَّل قسوة الألفاظ عنده إلى طبع يستخدمه في مناسبة وغير مناسبة. وهنا إذا جلس إلى نفسه جلسة روحية، فاحصة، لوجد أنه فقد وداعته الأولى، وفقد رقَّته وهدوءه.

★★ عن هذا الإنسان وأمثاله نقول روحياً إنهم وقوعوا فيما نُسمِّيه (بالصحو المتأخر)! أي أنهم لم يستيقظوا لأنفسهم ويعرفوا تأخُّر مستواهم الروحي إلاَّ مُتأخِّرين، بعد أن تكون الخطية قد تمكّنت منهم دون أن يشعروا.

★★ ومن أمثلة التساهل مع الخطية مُعاشرة أشخاص يختلفون في المبدأ وفي الأسلوب الروحي ولهم تأثيرهم لقوة شخصيتهم. ويتساهل هذا الإنسان البار في قبول ما يسمعه منهم، وما يصدر عنهم من تصرُّفات. وقد يُسر بفكاهاتهم الخاطئة جداً ويضحك لها دون أن يشعر، وقد يُجاملهم في بعض أحكامهم على الآخرين دون أن يدرس ... وبالتدريج يجد أنه قد اقترب إلى صورتهم. وبمرور الزمن قد يصبح كواحد منهم. وهكذا بالتساهل مع الخطية يجد أنه انزلق إلى وضع ما كان يتصوَّره سابقاً.

★★ ومن أمثلة التساهل مع الخطية التساهل مع الأفكار، فقد يُلقي الشيطان إلى إنسان بار بفكر خاطئ. وتكون الحكمة أن يطرد هذا الفكر فوراً ولا يتعامل معه. غير أنه قد يتساهل مع الفكر ولو بأسلوب مناقشته وإثبات ما فيه من خطأ. ولكن الفكر قد يتحوّل معه إلى شعور. فإن تساهل مع هذا الشعور قد يتمكَّن من قلبه ورُبَّما يتحوّل إلى شهوة وتؤثِّر على الإرادة حتى تقتلع من بِرِّه شيئاً. والحكمة تقتضي عدم التساهل مع الفكر الخاطئ. فتساهلك معه يجعله يتمكَّن منك. وتحاول أن تتخلَّص منه ولا تستطيع. ولا شك أنك كنت تقوى على هذا الفكر في بادئ الأمر.

★★ ومن أمثلة التساهل مع الخطية، التساهل مع الألفاظ أثناء الكلام. يقول الإنجيل: "كل كلمة بطَّالة تخرج من أفواهكم، تُعْطُون عنها حساباً في يوم الدين". والآباء القديسون لم يفسّروا الكلمة البطَّالة على أنها مُجرَّد الكلمة الشريرة الواضحة الخطيئة، وإنما في تدقيقهم قالوا إن كل كلمة ليست للبنيان الروحي هى كلمة بطَّالة، لأنها لا تنفع السامع بشيء ولا تبني ملكوت اللَّه في قلبه. وهكذا كانوا لا يتكلَّمون إلاَّ كل كلمة نافعة للبنيان، حينما يرون أن كلماتهم سيكون لها نفع روحي.

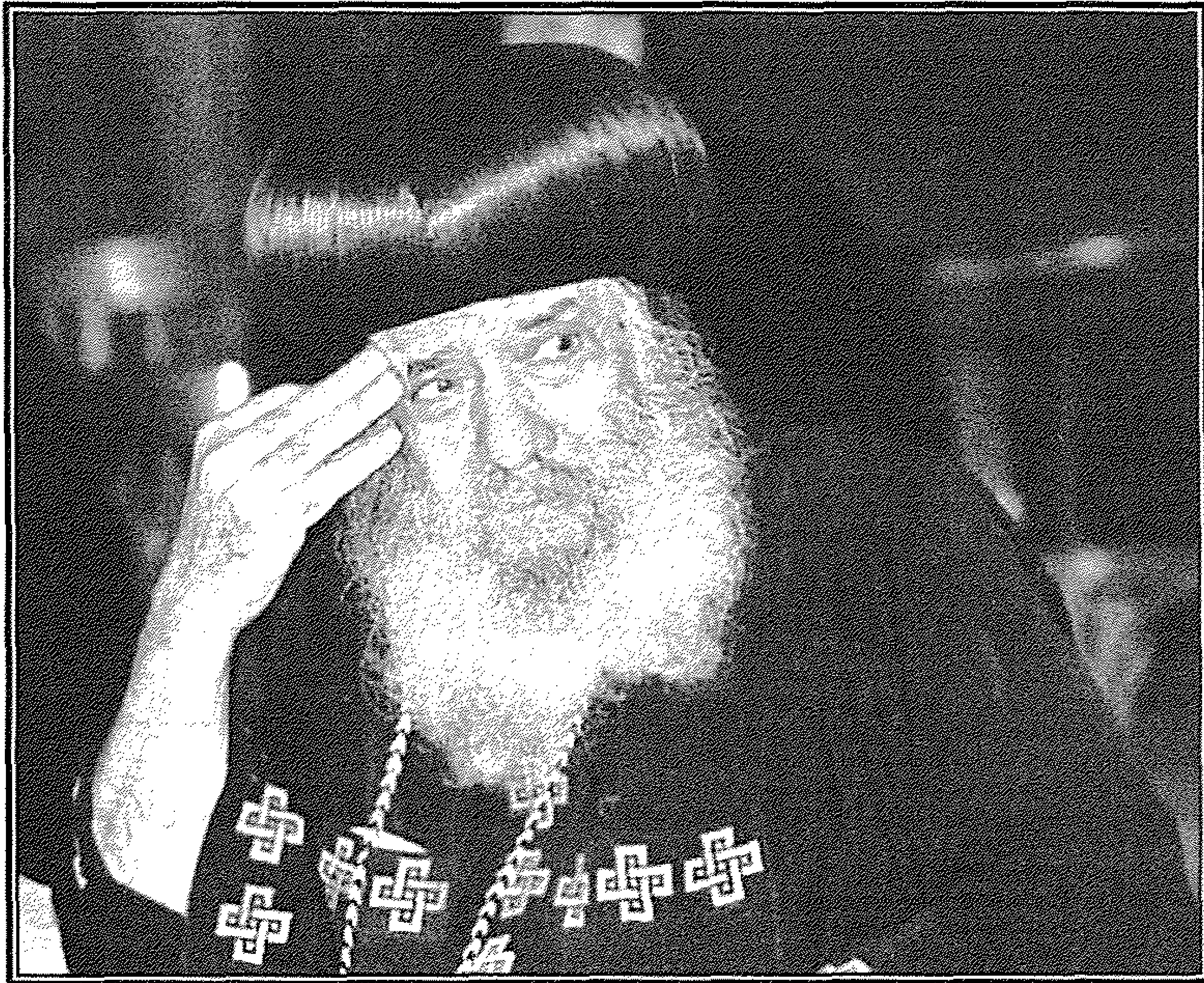
أمَّا الذي يتساهل من جهة هذا المبدأ الروحي ويتكلَّم كلاماً ليس للبنيان، ما أسهل أن يتدرَّج منه إلى كلام خطيئة، سواء شعر أم لم يشعر.

★★ إنَّ التدقيق لازم جداً للحياة الروحية. فالذي يمتنع عن أي خطأ مهما كان صغيراً في نظره، لا يمكن أن يقع في خطأ كبير. ومن هنا فإنَّ الذي يحتفظ بحواسه نقية

طاهرة نظراً وسمعاً ولمساً، لا يمكن أن يقع في خطية عملية ضد العفة. وهنا نتذكَّر قول القديسة سارة في نصيحتها إلى أحد النُّسَّاك: "إنَّ فماً تمنع عنه الماء بصومك، لا يطلب خمراً. وإن منعت عنه الخبز لا يطلب لحماً". وهنا يبدو التدقيق وعدم التساهُل مع الصغائر.

★★ إنَّ الأشخاص الحريصين يكونون في منتهى الحزم مع أنفسهم. لهم رقابة شديدة على النَّفس: رقابة على كل فكر، وعلى كل شعور، وعلى كل إحساس، وكل تصرُّف، وكل لفظ. وهم لا يبدأون بهذا الحزم ثم يتساهلون بعد حين ويسمحون لأشياء تدخل إلى نفوسهم ثم تكبر. بل يستمر حزمهم مدى الحياة.

★★ كُلَّما يتساهل الإنسان مع الخطية، فعلى هذا القدر تضعف إرادته، وتفتر محبته للفضيلة، ويقل احتراصه، ويفقد صلابته. ويزداد حينئذ تأثير الخطية عليه. وعندما يحاول الهروب منها، يجد عقبات في داخله. ولا تكون له بعدئذ هيبة روحية أمام الشياطين. لأنَّ الشيطان يبدأ بأن يجس نبض هذا المؤمن. فإن وجده متراخياً أمامه، يقبل أفكاره ويفتح له أبوابه، حينئذ لا يجد مانعاً من أن يقوِّي هجومه عليه، ويعمل على إسقاطه.



٢٠ يوليو ٢٠٠٨

الخطية الأعمق في حياتك

كثيراً ما يخطئ الإنسان، وينسى ما قد ارتكبه. ولكن هناك خطية مُعيَّنة تقف أمامه ولا يستطيع أن ينساها. إنها خطية تركت عُمقاً مُعيَّناً في مشاعره، وعُمقاً آخر في ذاكرته. ووقفت أمامه تشعره بأنه إنسان خاطئ ... أو هي خطية لها أثر كبير على سُمعته أو على مستقبله. وربَّما آثارها امتدت إلى زمن طويل. أو من الصعب علاج نتائجها.

★★ وقد تدخل هذه الخطية إلى أعماقه وتستولي على إرادته فلا يستطيع منها فكاكاً. وقد تصبح جزءاً من طبعه، يقع فيها باستمرار. وتقف أمامها إرادته عاجزة تماماً. على أن خطورة هذه الخطية قد لا تكون في كثرتها إنما في بشاعتها ... ومثل هذه الخطايا لا تُعد وإنما توزن.

★★ فإذا أضيف تكرار الخطية إلى بشاعتها، يكون الأمر أصعب وأخطر. وبخاصة تلك الخطايا التي ترسخ في العقل الباطن، وتتعمَّق جذورها فيه، وتُصبح مصدراً لأحلام وأفكار وظنون وشهوات ... ويحاول الإنسان أن يتخلَّص منها فلا يستطيع! لقد أصبحت وكأنها جزء من طبيعته ومن تكوين شخصيته. لقد تعوَّدها فلصقت به. وكأنه قد ذاق شيئاً فاستطعمه وما عاد يستغني عنه. وهو مُستعد أن يتوب عن جميع خطاياه ويتركها ما عدا هذه ... هذه التي صارت تجري في دمه وفي عُمق شهواته.

★★ مشكلة هذه الخطية أنها محبوبة جداً لِمَن يرتكبها. وقد يتأثَّر بعظات عميقة ويحب أن يتوب، ولكنه لا يستطيع. إنه يندم على ما وصل إليه من مستوى. ولكنه مع ذلك أسير لتلك الخطية، عاجز عن مقاومتها. سيطرتها عليه أقوى من رغبته في التَّخلُّص منها. إنه يحتاج إلى دفعة كبيرة من الخارج، تنقذه من الهوة التي هبط إليها، وتُمزِّق عنه الربط التي تقيد بها ... يحتاج إلى عمل من النعمة ينقذه من سيطرة تلك الخطية عليه فلا يعود ينجذب إليها.

★★ هناك خطايا أخرى تتعب الإنسان، وتهز ضميره هزّاً متى استيقظ: مثل خطية الارتداد، وخطية التجديف، وخطايا الشَّك ... نعم، الشَّك الذي يُقال عنه أنه من السهل أن

يدخل إلى عقل الإنسان، ولكن من الصعب أن يخرج والشَّك الذي يفقد به الشخص ما كان له من بساطة الإيمان، ويتوه ذهنه في عقلانيات متناقضة لا تنتهي. هذا إذا كان شكّاً في اللَّه وفي بعض الأمور الإيمانية. أمَّا إن كان الشَّك في إنسان، فإنه يفقد الثقة به ويعجز عن استرجاعها.

★★ خطايا أخرى لا ينساها الإنسان بسبب نتائجها: مثال ذلك زوج أهان زوجته إهانة كبيرة جداً أذلّ بها كرامتها فلم تستطع احتمالها. فتركت بيت الزوجية إلى بيت أبيها. وعجزت كل محاولات المصالحة بسبب عُمق ما أحست به المرأة، ممَّا جعلها تفقد محبتها لذلك الزوج، وقد أخذت فكرة عن طباعه ومعاملاته بحيث أسقطته من نظرها ... وهو نفسه يذكر إهانته لزوجته في ندم، مُعتبراً أنها الخطية الكبرى في حياته الزوجية. وتزداد هذه الخطية خطورة وعُمقاً إن كانت نتائجها قد وصلت إلى المحاكم والقضايا.

★★ وقد تصبح الخطية هى الأعمق في الحياة إن كان لا يمكن علاجها: مثل حالة فتاة فقدت بكارتها وحملت سفَّاحاً، أو حالة راهب كسر نذره وتزوَّج. أو حالة موظف كبير ضُبِط في رشوة وفقد وظيفته وسُمعته. وأصبحت نتيجة الخطية عند كل هؤلاء تطاردهم وتسيء إليهم.

★★ هناك خطية سببها طبع إنسان يحب من كل قلبه أن يعرف أسرار الناس وأخبارهم. فهو جوعان أخباراً، يبحث عن أسرار الناس، ويسأل عنها، ويُفتِّش ويسمع ويتسمع ويستنتج. ويسأل أسئلة محرجة لكي يعرف منها خبراً. ويتفاوض مع آخرين من مُحبي معرفة أسرار الناس، لكي يعطيهم خبراً مقابل معرفة خبر...

ثم يتحوّل من جامع أخبار إلى ناقل أخبار. وتُصبح سُمعة الناس مضغة في فمه، يلقيها في آذان الغير كعليم ببواطن الأمور ومتداخل في الأسرار. وقد يسمعها البعض منه ويتهرَّب البعض الآخر، خشية أن يصبحوا هُم أيضاً هدفاً له، ولمحبته معرفة الأسرار. وهكذا قد يجد أن محبته معرفة أسرار الغير قد أبعدت الناس عنه. وأيضاً قد أتعبت أفكاره، فما عاد يثق بأحد.

وقد يتحوّل من ناقل للأخبار إلى مؤلِّف للأخبار .. فينسب إلى البعض أخباراً لم تحدث ولكنه رُبَّما يستنتجها أو يدَّعيها.

★★ إنَّ الخطيَّة التي هى أكثر عُمقاً في حياة الإنسان: إمَّا هى خطية الماضي التي لا يمكن أن تُنسى. أو خطية الحاضر التي تعجز الإرادة عن مقاومتها، فهى بذلك مستمرة ودائمة. أو هى خطية المستقبل إذ أصبحت شهوة في حياة الإنسان يعملها الآن وكل آوان.

★★ وقد لا تكون الخطية الأعمق في حياة الإنسان مرتبطة بأي عمل مثل شخص لا يستطيع أن يسعد نفسه عملياً، فيعمل على إسعادها بالفكر بتصورات في الخيال. ذلك أن المحرومين عملياً يعوضون أنفسهم بالفكر والخيال دون أن يتخذوا أي إجراء عملي بنَّاء يبنون به أنفسهم! ويدخلون في مجال واسع من أحلام اليقظة سواء فيما يريدونه لأنفسهم من مناصب ودرجات وألقاب أو حتى ما يشتهونه من خطايا ليست متاحة لهم عملياً، ولكنها متاحة في الخيال. والخيال مجاله واسع لا يقف عند حدّ. يتصوَّر فيه الشخص تصورات لا يمكن أن تتحقَّق في الواقع، ويكون سعيداً بذلك سعادة وهمية.

وكثير من المجانين يقعون في مثل هذا الخيال الذي يشبعون به أنفسهم. والفرق بينهم وبين العقلاء، أنهم يُصدّقون ما يتخيلونه.

★★ البعض تكون خطيَّته العميقة قاصرة على نفسه. والبعض الآخر تكون خطيئته واقعة على الآخرين. فهو لكي يظهر ذاته يعمل على تحطيم غيره، مقتنعاً بأن تحطيم الغير أو محاولة تحطيم الغير إنما يدل على تفوق في ذاته يسعده وربَّما تكون سياسته الإقلال من شأن الآخرين أسلوباً دائماً في حياته. وهو لا يعتبره خطيئة بل يستمر فيه مدعياً أنه يفعل الخير.

٢٧ يوليو ٢٠٠٨

الحياة المُثمرة

الإنسان الصالح لا بد أن يكون لصلاحه ثمر يدل عليه. ثمر في حياته، وفي معاملاته، وفي كل أعماله وإنجازاته ... هذا بعكس أشخاص كثيرين يعيشون ويموتون، دون أن يكون لحياتهم أي أثر أو ثمر. وتنتهي سيرتهم وكأنهم لم يُولدوا.

★★ إن الأشخاص الروحيين لا بد أن يكون لهم ثمر روحي في حياتهم وفي حياة غيرهم من الناس الذين يتصلون بهم. وكُلَّما تعمَّقت حياتهم الروحية، فعلى هذا القدر يزداد ثمرهم ويستمر.

والثمر يدل على نوعية الإنسان. فكما أنَّ الشجرة الجيدة تُنتج ثماراً جيدة، والشجرة الرديئة تنتج ثماراً رديئة، هكذا الناس أيضاً: من ثمارهم تعرفونهم.

★★ الإنسان الطيب تظهر ثمار الطيبة في حياته: في بشاشة الوجه، وسماحة التعامل، وفي الكلمة الطيبة، والابتسامة المشرقة، وفي هدوء الطبع، وفي حُسن التعامل .. بعكس الشخص القاسي الذي تظهر ثمار قسوته في غضبه وفي ثورته، وفي ألفاظه القاسية، وفي نوعية معاملاته الشديدة. فلا يقل أحد عن مثل هذا الشخص أنه على الرغم من غضبه له قلب أبيض! فالقلب الأبيض لا بد أن يكون ثمره في دماثة الخلق وفي رقة الطبع.

★★ والآن أيُّها القارئ العزيز، ما هى ثمار حياتك التي يحكم بها الناس عليك؟ وأيضاً يحكم بها اللَّه؟ ما هو الثمر الذي يصاحبك في حياتك الأخرى حينما تقف أمام اللَّه في اليوم الأخير؟ ما هو الثمر الذي يحكم به عليك المجتمع ويدل على نوعية شخصيتك؟ وما هو ثمرك في كل أنواع المسئوليات التي توليتها أو الوظائف التي شغلتها؟

★★ في الحياة السياسية مثلاً: هناك مَن يختارونه عضواً في البرلمان (في مجلس الشعب). فتظهر ثمار عضويته واضحة للجميع. في حرصه على دراسة كل ما يُعرض في المجلس، ومناقشاته الجدية، وحرصه على مصلحة الشعب. وفي نفس الوقت له ثمار أخرى في العناية بالدائرة التي يمثلها، واهتمامه بحل مشاكل الناس، والعمل على توفير

كل ما يحتاجونه، باتصالات قوية مع المسؤولين في الدولة ... وفي الجانب الآخر هناك أعضاء آخرون لا صوت لهم ولا أي عمل ولا أي ثمر. وكأنهم ليسوا أعضاء في المجلس!!

★★ في مجال القضاء مثلاً: هناك قضاة لهم أحكام في غاية الحكمة والعدل، تُعتبر من ثمار إيمانهم بالحق. وتصير تلك الأحكام قصصاً تُروى عنهم في تاريخ المحاكم ويحاكيها غيرهم، ولا تُنسى على مدى الأيام .. كذلك الحال مع رجال الإدارة: كل منهم تظهر ثمار طباعه في طريقة تعامله مع الجماهير. فمنهم مَن يستغل سُلطته الإدارية في حل مشاكل الناس، وفي استجابة طلباتهم الممكنة، بروح طيبة للغاية. ومنهم مَن يستغل سُلطته الإدارية في التعالي على الناس وإذلالهم. وكما سبق أن قلت ذات مرَّة: " أن الموظف المتعاون يحاول أن يجد حلاً لكل مشكلة. أمَّا الموظف المُعقَّد فإنه يعمل على إيجاد مشكلة لكل حل ". وهكذا تظهر ثمار الطباع في طريقة التعامل.

★★ في حياة التلمذة تظهر أيضاً ثمار تعب طلاب العلم. فمنهم من يظهر ثمر تعبه في نجاحه. ومنهم مَن يظهر ثمر تعبه في تفوقه. وهكذا ما يزرعه الإنسان إيَّاه يحصد ... نفس الوضع نراه في الكرَم والبُخل: الإنسان الكريم يحصد من ثمرة كرمه محبة الناس ودعاءهم، وبالإضافة إلى هذا أجراً سماوياً. أمَّا الإنسان البخيل فيحصد من ثمر بخله سخط الناس عليه.

★★ أيضاً بالنسبة إلى محبة الخير. لا تكفي مُجرَّد هذه المحبة وإنما ينبغي أن تظهر ثمارها في عمل الخير. وكما قيل عن السيد المسيح إنه: " كان يجول يصنع خيراً. ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب ". ففي محبتك للخير، لا يكفي أن تقول للمحتاج كلمة دعاء طيبة، إنما بقدر إمكانك تساعده على قدر ما تستطيع. لأنَّ المحبة الحقيقية ينبغي أن يكون لها ثمر عملي.

★★ الإنسان الصالح تتعدَّد ثماره الصالحة في كل مكان يحل فيه، كما تظهر ثمار صلاحه في طباعه الجيدة. ومن ثماره أيضاً أنه ينشر الصلاح بين كل مَن يعاملهم فيصيرون صالحين مثله ولهم ثمار تُعبِّر عن ذلك، كالشجرة التي تطرح بذراً يصنع ثمراً كنوع الشجرة. الإنسان الصالح لا يكتفي فقط بالبُعد عن السلبيات وسائر الأخطاء إنما هو

دائماً إيجابي في ثمار الفضيلة التي يُقدّمها. هو نور يشرق في كل موضع فيُبدّد الظلمة التي تكتنف المكان إن وُجِدت.

إنَّ اللَّه - تبارك اسمه - قد منحنا الحياة لتكون حياة مثمرة، ويكون ثمرها مستمراً ومنتشراً، ويكون كله جيداً .. غير أن بعض الناس - للأسف الشديد - تختلط في حياتهم الثمار الرديئة مع الثمار الجيدة. فتوجد في حياتهم فضائل وشرور، أعمال صالحة وأعمال خاطئة. وفي حياتهم ضعفات يمكن لثمارها الرديئة أن تُعكِّر ثمار الفضائل التي فيهم. والمفروض في الإنسان أن يكون نقيًّا من كل ناحية.

★★ ومن بين الهالكين في يوم الدين قد نجد شخصاً قد هلك بسبب ثمر واحد خاطئ في حياته، كالخيانة مثلاً، أو الظُّلم، أو النجاسة، أو محبة المال، أو ما شابه ذلك. لذلك على كل شخص أن يتعرَّف تماماً على نقطة الضعف التي فيه، والتي قد تهلكه. ويحاول أن يتخلَّص منها. ذلك لأنَّ الهالكين ليسوا هُم التي حياتهم كلها شروراً وأثماراً رديئة. بل ثمر رديء واحد يكفي لهلاك الإنسان. كما أنَّ آفة واحدة قد تفسد الزرع كله على الرغم من وجود ثمار جيدة فيه.

والحياة المثمرة قد تبرز فيها صفة مُعيَّنة تكون سبباً لشهرتها ونفع المُجتمع كله بسببها. فهناك حياة لها ثمرة في العلم أو في الاختراع وهذا الثمر ينفع المجتمع كله أو ربُّما العالم أجمع. أو حياة لها ثمر بارز هو القدوة الصالحة ذات التأثير الجيد العميق في الآخرين ... أو حياة لها ثمر واضح في القيادة أو البطولة أو الشجاعة، يفخر المجتمع بأمثولتها الطيبة ... أو حياة لها ثمر في الذكاء والحكمة ونتائج هذا كله ... أو حياة لها ثمر في النجاح الواضح من جهة كل أعمالها ومسئوليتها ... والمهم أن يكون للحياة ثمر يُبرِّر وجودها ويبرهن على فائدتها.

ليكن لك إذن ثمر في حياتك يتفق مع طبيعتك، ومع الهدف الذي تسعى إليه. واحذر كل الحذر من أن تكون حياتك غير مثمرة.

٣ أغسطس ٢٠٠٨

حياتنا سلسلة اختبارات

نعم إنَّ حياة كل إنسان هى سلسلة اختبارات: تُختبر فيها نفسيته ومشاعره، ونيَّاته وأفكاره، وكل ما يفعله أو يقوله. وبناء على هذه الاختبارات يتحدَّد مصيره وأبديته حين يقف أمام اللَّه الديَّان العادل في اليوم الأخير. وهذه الاختبارات معروفة لكل إنسان، وتتلخَّص في سؤال واحد وهو: ما هو موقفه من وصايا اللَّه؟

والعجيب في هذه الاختبارات أنَّ اللَّه - يتبارك اسمه - لا يترك الإنسان فيها وحده، وإنما تساعده النعمة بقدر ما يقبل هذه النعمة ويتعاون معها. وتظل هذه الاختبارات معه كل يوم، وكل العُمر، وكل مراحل الحياة. وبها تُقيَّم شخصيته، ودرجته في الأبدية وعلى الأرض أيضاً.

★★ بعض الناس لم يعيشوا طويلاً. فكانت فترة اختبارهم قصيرة، ولكنها أمام اللَّه كانت كافية، تُعبِّر عن نوع الشخصية وروحانيتها وجهادها، ومدى المحبة التي فيها من نحو اللَّه والناس. على أن اختبار الإنسان ليس هو مُجرَّد اختبار لفترة مُعيَّنة من حياته، وإنما للحياة كلها بصفةٍ عامة. لأنَّ البعض قد تمر عليه فترة ضعف لأسباب مُعيَّنة طارئة. ولكنها لا تدل على طبيعة حياته كلها. إنما هى فترة فتور أو سقوط، استقام بعدها ونما في النعمة. وربَّما تكون فترة البداية سيئة مثل حياة القديس أُغسطينوس وغيره ممَّن دخلت التوبة في حياتهم وغيَّرت مجراها إلى العكس تماماً. وإلهنا الحنون الرحيم لا يأخذ الإنسان فجأة في ساعة ضعف، وإنما يُعطيه الفرصة باختبارات أخرى لتصحيح مسار حياته. والمُهم في الاختبارات ليس نوع الاختبار، إنما موقف الإنسان منه.

★★ وقد يسأل البعض: ما لزوم هذه الاختبارات، ما دام اللَّه يعرف حقيقتنا دون أن يختبرنا؟ على أنه بهذا الاختبار يعرف الإنسان ذاته. وإن سقط يعرف نقط الضعف التي فيه، ويعرف اتجاه إرادته. وإن عوقب لا يشتكي. وإنما يقول في أعماق نفسه: " نحن بعدلٍ جوزينا ". وبمعرفته لضعفه يتضع، ويتوب، ويُدقِّق في حياته وتصرفاته حتى لا يسقط مرة أخرى. كما أن اختبار أي شخص يكون درساً لغيره أيضاً. كما أنَّ

الاختبارات أيضاً مجال للمكافأة إذا نجح الإنسان فيها. وعلى رأي أحد القديسين الذي قال: " لا يُكلَّل إنسان إلاَّ إذا انتصر. ولا ينتصر إلاَّ الذي حارب ". أي الذي اختبرت شجاعته. كذلك في السماء يأخذ الإنسان الأكاليل المُعدَّة للغالبين.

★★ وطُرُق الاختبار ووسائلها ومصادرها كثيرة: فبعضها يأتي من ذات الإنسان. والبعض قد يأتي بسبب مضايقات من البشر. والبعض يأتي للأبرار من حسد الشياطين وحيلهم. إنَّ ظروفاً كثيرة تحدث في حياة كل شخص وتكون اختباراً له. والمُهم ليس من أي مصدر جاء الاختبار، إنما المُهم هو صمود الإنسان ونجاحه ... كالتلميذ الذي يواجه أسئلة مُعيَّنة، ليس المُهم في نوع المادة التي يُختبر فيها، إنما نوع إجابته ومدى فهمه.

★★ قد يُختبَر الإنسان بالذات بنقطة ضعف فيه. فهناك شخص أهم نقطة ضعف فيه هى الأمور الجنسية، وآخر نقطة ضعفه هى محبة المال، وثالث نقطة ضعفه هى محبة السُّلطة أو محبة الظهور أو قسوة الطباع ... وقد تكون حياته خالية من ضعفات أُخرى. والمطلوب منه أن ينجح في نقطة الضعف التي فيه.

★★ وقد يُختبَر الإنسان بأخذ شيء منه. مثال ذلك مَن يطالبه الرب بدفع جزء من ماله للفقراء. فهل يدفع أم لا؟ وهل يعتذر بأسباب قد لا تكون حقيقية؟ أم يؤجِّل؟ أم يدفع وهو مُتذمِّر؟ كما يختبره الرب أيضاً بتقديس يوم من الأسبوع له. فهل يُحقِّق ذلك أم ينشغل بأمور أخرى وينسى أن هذا هو يوم الرب؟!

★★ وقد يُختبَر الإنسان بالأمراض أو بالضيقات. فهل يتذمَّر وينسب ذلك إلى اللَّه الذي سمح بالمرض أو بالضيقة؟! وتقل محبته للَّه، وبخاصة إذا صلَّى ولم يستجب اللَّه صلاته، أو تأخَّر عليه في الاستجابة!! أمَّا البار فلا يتغيَّر قلبه بتغيُّر الأحوال التي تطرأ عليه. إنما هو في كل ضيقاته يقول: " المُر الذي يختاره الرب لي، خير من الشهد الذي أختاره لنفسي ". " وكل ما تسمح يارب به، أقبله بشُكرٍ "...

★★ وقد يُختبَر الإنسان بالإغراءات، سواء كانت إغراءات جسدية أم مالية، أو خاصة بالمناصب والألقاب، أو أيَّة شهوة أخرى يتعرَّض لها الشخص. ونُلاحظ أن الشهداء لم يحاربوا فقط بالتعذيب، وإنما بعضهم حورِب بإغراءات مُعيَّنة فرفضها.

★★ وربَّما يُختبَر الإنسان بالنجاح والعظمة. فهل يرتفع قلبه بذلك؟ وهل يتعالى على غيره ويفقد تواضعه أم يبقى كما هو؟ وقد قال أحد الأُدباء عن مثل هذا الشـخص إنـه: " يكبر دون أن يتكبَّر، ويحتفظ بثباته في وثباته ".

ومثل هذا الاختبار يحدث للذين يُنعِم اللَّه عليهم بمواهـب مُعيَّنـة، كالـذكاء مـثلاً، أو الجمال، أو النبوغ في الفن، أو بأيَّة مواهب فائقة للطبيعـة. فكيـف يسـتخدم هـؤلاء مواهبهم؟ وهل ترتفع قلوبهم بها؟

★★ أحياناً يكون العتاب اختباراً لقوة الاحتمال، إذا كان الذي يُعاتب شـديد اللهجـة يُظهِر لك أخطائك من نحوه ومن نحو غيره. فهل أنت تقبل العتاب بصدرٍ رحـب وروح طيبة، وتكسب مَن يعاتبك، وتكسب فضيلة الاحتمال؟ أم أنت تثور وتضج، وتعتبر إظهار أخطائك إهانة لك؟... ونفس الوضع مع الذي يُكلِّمك بصراحة وبغير مُجاملة، فتستاء منـه وقد تخسره!

★★ إنَّ كل كلمة قاسية توجَّه إليك، وكل معاملة سيئة تُعامـل بهـا، كلهـا اختبـار لشخصيتك وما موقفك منها. وهنا تختلف ردود الفعل عند كثيرين، حسب نـوع طبـاعهم وشخصياتهم وروحياتهم، ونوع تعاملهم مع الناس.

★★ وأنت أيها القارئ العزيز قد تقول إنك تُحب الناس جميعاً، وأنك مُستعد أن تبذل ذاتك عن بعض من أصدقائك ومحبيك. ثم تصطدم بتصرُّف واحد منهم لم تكن تنتظـره. إنه تصرُّف سيئ ولكنه اختبار لمحبتك التي تتحدَّث عنها: هل هى محبة تستطيع أن تغفر؟ أم هى من النوع الذي لا يحتمل ويتحوَّل بسرعة ويتغيَّر؟!

حقاً إنَّ المحبة ليست بالكلام إنما تقع تحت الاختبار.

★★ لا تتضايق يا أخي من الاختبارات، وإنما حاول أن تكون ناجحاً فيهـا وصـلباً وقوياً.

١٠ أغسطس ٢٠٠٨

ما هو الانتصار؟
وكيف يكون؟

الانتصار أمر محبوب. يفرح به كل شخص يكون منتصراً، أو يظن أنـه منتصـر. على أن هناك انتصاراً حقيقياً وانتصاراً زائفاً. فما هو الانتصار الحقيقي؟ وما شـروطه؟ وكيف يكون؟ بل ما هو الانتصار الذي يريده اللّه لنا، وتفرح به السماء لأجلنا؟

★★ الانتصار الحقيقي هو الذي ينتصر به الإنسان على نفسه وليس على غيره. فلا يجوز للقاتل أن يفرح بانتصاره على القتيل وسفك دمه. فهذا القاتل في موقـف المنهـزم. لأنه لم يستطع أن ينتصر عمَّا في نفسه من قسوة ومن حقد، أو من رغبة فـي الانتقـام. فكان ينبغي أن يخزى من كل هذه النقائص. كذلك مَن يُشبع الطرف الآخر فـي الحـوار ما يستطيع من تهكُّم ومن استهزاء لا يظن أنه منتصر. ولأنه لم يستطع أن يحتفظ بـأدب الحوار، فهو إذن في وضع المنهزمين.

★★ إذن الانتصار الحقيقي هو الانتصار أولاً على النفس. وأن ينتصر الإنسان فـي الداخل، وأن ينتصر على الخطيئة والشيطان. فهو بانتصاره الداخلي على كل شهوة خاطئة وكل فكر رديء، يستطيع أن ينتصر في الخارج على كل حـروب الشـيطان. فيوسـف الصديق مَثَلاً، إذ كان منتصراً في الداخل استطاع أن ينتصر على الشهوة التي حاربته من الخارج. وعلى الخطيئة التي حاربته من سيدته الخاطئة.

★★ والإنسان الروحي ينتصر على جميع العوائق التي تحاول أن تعطله في طريق البِرّ أيّاً كانت. وهو لا يسمح لنفسه بأن يعتذر لتلك العوائق، ولا يُبرِّر نفسه إذا أخطأ.

★★ والإنسان الروحي ينتصر أيضاً على الضيقات والمشاكل. فالمشـاكل لا تهـزه ولا تهزمه، ولا تُضعِف معنوياته، ولا تُعكِّر نفسيته، ولا تلقيه في دوامـات مـن القلـق والاضطراب والشك. أنه ينتصر على المشاكل بالإيمان وبالصلاة وبالصبر. ولا يضـيق قلبه بها، ولا يفقد سلامه بسببها. وهو لا ينتصر فقط على الضيقات بالاحتمال، بل بالأكثر

يفرح بها. لأنها تقدم له خبرات جديدة في معونة الرب له. ويرى أن كل شيء يؤول إلى الخير.

★★ وحياة الانتصار مفرحة، لأن الإنسان الروحي يصبح بها قدوة لغيره. فيقدم للناس مثالاً على إمكانية حياة البِرّ. وعلى أن حياة الانتصار هى واقع عملي يلمسونه أمامهم. ويثبت أن الأبرار أقوياء، ببرهم وبنعمة اللّه العاملة فيهم.

★★ إنَّ الانتصار لازم جداً في الحياة الروحية، وبدونه لا يدخل أحد إلى السماء، ولا يتمتَّع بعِشرة الملائكة والقديسين. فالسماء لا يدخلها إلاَّ موكب الغالبين المنتصرين، الذين برهنوا على ذلك في فترة اختبارهم على الأرض، فهل أنت من هؤلاء؟ أم أنك تضعف أمام أي إغراء أو أيَّة خطيئة؟!

★★ وقد قدَّم التاريخ لنا أمثلة من المنتصرين، لعلَّ في مقدمتهم أبطال الإيمان الذين جاهدوا الجهاد الحَسَن ونالوا إكليل البِرّ. وفي مقدمتهم الشهداء القديسون، الذين انتصروا على كل التهديدات وعلى السجون، وعلى ألوان من العذاب رُبَّما تبدو فوق احتمال البشر، وثبتوا على إيمانهم، وقابلوا الموت ببسالة عجيبة، وكانوا مثالاً رائعاً جذبوا غيرهم إلى الإيمان.

★★ ونحن نذكر من أمثلة المنتصرين أب الآباء إبراهيم، الذي انتصر على كل عواطف الأبوة، ولم يكن لديه مانع إطلاقاً من أن يُقدِّم ابنه الذي يحبه ذبيحة للّه وطاعة لأمره. فكافأه اللّه على ذلك ولم يسمح بموت ابنه.

ومن الأمثلة الأخرى النُسَّاك والعُبَّاد والمتوحدون الذين انتصروا على كل شهوات العالم وتفرَّغوا للعبادة بعيداً عن كل ملاهي المجتمع.

★★ ومن أمثلة المنتصرين أيضاً، أصحاب الفكر العميق الذين استطاعوا بأفكارهم أن يُغيِّروا معالم المجتمع الذي عاشوا فيه، وأن يضعوا مبادئ راسخة اقتنع بها الناس وسلكوا بنهجها. قادة الفكر هؤلاء لم ينتصروا فقط في حياتهم وإنما أيضاً ساعدوا غيرهم على حياة الانتصار.

ويُمكن أن نضم إلى هؤلاء القادة والمرشدين الروحيين الذين سندوا الضعفاء بنصائحهم التي منحتهم قوة.

★★ بعد كل ما قلناه على الانتصار في الحياة الروحية، نذكر أيضاً الانتصار في كافة نواحي الحياة: في الحياة الاجتماعية، والحياة السياسية والحياة الاقتصادية أيضاً. كل ذلك بعقلية راجحة وبالانتفاع بخبرات الغير، وبعدم اليأس في الحياة. بحيث إذا فاتتك فرصة تلتمس غيرها. وإن فشلت الخطوة الأولى تعاود الجهاد في خطوات أخرى ناجحة في المستقبل.

★★ وهنا يواجهنا سؤال هام وهو: كيف ننتصر على الدوام؟ ينبغي أولاً أن يكون لك هدف واضح مُحدَّد في حياتك، ويكون هدفاً نقيًّا، وتتخذ له وسائل ممكنة في حدود قدراتك وظروفك. وأن تسعى دائماً إلى الكمال فإذا لم تصل إليه فعلى الأقل تصل إلى المُمكن.

★★ ضع أمامك أيضاً أن تنمو باستمرار، وأن تتقدَّم في كل حين خطوة أكبر في حياة الفضيلة والبرّ. فإن الذي يسعى إلى التَّقدُّم، من غير المعقول أن يرجع إلى الوراء. والذي يسعى أن يكون اليوم أقوى مما كان بالأمس، هذا لا يسمح لنفسه بأن يضعف وبأن يسقط. فهل أمامك برنامج روحي تسير على نهجه في النمو الروحي؟ وهل تتبع مسيرة حياتك هل هى تصعد أم تهبط؟ وهل هى تزيد أم تنقص؟ وهل أنت دائم الانتصار في حياتك أم أحياناً تنهزم وتسقط؟

★★ إذا كنت لست دائم الانتصار في روحياتك، فابحث ما هى نقاط الضعف التي فيك؟ وما هى أسباب السقوط أحياناً؟ وعالج كل ذلك بحزم شديد. ولا تكن مجاملاً لنفسك أبداً .. لكي تنتصر لا تعتمد على نفسك وحدها. بل باستمرار التمس معونة من فوق، من عند رب المعونة الذي هو قادر أن يسندك بقوته، وأن يحفظك بمعونته. ففي كل مشاكلك وفي كل نقائصك وفي كل ضعفاتك اطلب معونة إلهية. وليكن لك الإيمان في أن اللَّه سوف يستجيب صلواتك. وفي نفس الوقت جاهد على قدر ما تستطيع لكي تكون بلا عيب أمام اللَّه والناس.

★★ بقي أن أقول لك إنك إذا انتصرت في حياتك فلا تفتخر بقوتك. إنما أشكر اللَّه الذي ساعدك وأعانك حتى تنتصر، لا بقوتك، بل بمعونته ونعمته.

١٧ أغسطس ٢٠٠٨

الهاربون من اللَّه

عشرات ومئات الملايين يؤمنون باللَّه، ويُصلُّون ويصومون. ولكن كثيرين من هؤلاء المؤمنين يهربون من اللَّه! أي يهربون من الحياة معه، ومن محبته، ومن الحياة الروحية التي يدعوهم إليها، أو من بعض المهام التي يدعوهم إليها ... فلماذا يهرب كل هؤلاء؟ وكيف يهربون؟ وهل يستمرون في هروبهم أم يرجعون؟

★★ هناك أشخاص يهربون من اللَّه بسبب شهواتهم. يشعرون أن حياتهم مع اللَّه ستحرمهم من شهوات لا يريدون تركها. مثال ذلك الوجوديون الملحدون، الذين يرون أنَّ وصايا اللَّه تمنعهم من تحقيق شهواتهم وتحقيق وجودهم فيها. فيكون شعور الواحد منهم هو " من الخير أنَّ اللَّه لا يوجد، لكي أُوجد أنا!! ".

أو مثل شخص يقول: "إن سرت مع اللَّه سأنقسم على ذاتي، وسأدخل في صراع بين الروح والجسد، وصراع بين الخير والشر، وأنا لا أُريد أن أدخل في صراعات! فمن الخير لي إذن أن أبعد عن طريق اللَّه هذا وعن وصاياه!".

هؤلاء شهواتهم تتعبهم وليس وصايا اللَّه، ولكنهم لا يريدون أن يواجهوا هذا الواقع لأنهم يخافونه. هم مثل إنسان مريض بمرض خطير، يهرب من الأطباء، ومن الكشف والأشعة والتحاليل، لكي يستريح ولو راحة وهمية، هارباً من الواقع لأنَّ الواقع يتعبه.

★★ هناك أشخاص يرون أن البعيدين عن اللَّه مستريحون، ويستطيعون أن يقضوا مصالحهم بأنواع وطُرق شتَّى: بكذبة بسيطة تتغطى كل غلطة، بشهادة مرَضيَّة مزوَّرة يُبرِّرون كل غياب، بالرشوة والمحسوبية يُقضي كل عمل، بالتساهل في الأخلاقيات يمكن كسب عديد من الأصدقاء، بعبارتين من عبارات التَّملُّق يمكن كسب الرؤساء وخداعهم، وبشيء من الرياء الخفيف يمكن الحصول على احترام الناس ومديحهم، وبضربة قاسية ومؤامرة خفيَّة يُمكن التَّخلُّص من جميع المقاومين ... أمَّا طريق الرب فهو صعب وكله قيود وموانع! فلماذا السير فيه؟! لذلك يرى هؤلاء أن الهروب من اللَّه أفضل!

★★ أو أن البعض يرى أن طريق اللَّه لا يُناسب العصر! لا يناسب ما وصلت إليه المدنية والأفكار الحديثة وطبيعة المجتمع. ويقولون إنَّ الذين يسيرون مع اللَّه هم (دقَّة قديمة) لم يتحضروا بعد. فالبُعد عنهم وعن طريق اللَّه أفضل لكي يحتفظ الإنسان بسُمعته كشخص راقٍ متمدن ... كما يرون أيضاً أن المجتمع الحديث يسخر من هؤلاء المتحفِّظين، وهكذا يهرب هؤلاء من اللَّه.

★★ البعض يهرب من اللَّه بسبب مُسمَّيات روحية تتعبه: فالحياة الروحية فيها محاسبة النَّفس، وفيها حياة التوبة، وفيه النمو الروحي. وكل هذه أمور متعبة في نظر هؤلاء. يقول الشخص منهم: ما معنى أن أجلس وأُحاسب نفسي وأكتشف أن لي ضعفات وسقطات، وأدخل في مذلة الندم والشعور بالإثم Sense of guilt، وأيضاً في تعب الضمير وتبكيته! مالي وكل هذا. الهروب منه أفضل لكي أعيش مستريحاً. مثل هذا، هو كشخص عنده دمّل أو خُراج، لا يريد أن يفتحه ويُنظِّف ما فيه. بل يظن أنه يتركه هكذا ويستريح!... كما أنَّ التوبة بالنسبة إليهم هى ترك حياة جميلة في أعينهم فما الدَّاعي للسَيْرِ في التوبة وخسارة حياة المتعة الخاطئة. فالهروب من كل ذلك أفضل. وبالتالي الهروب من اللَّه الذي يدعو إلى التوبة وتغيير الحياة. أمثال هؤلاء يعيشون في حالة تخدير دائم من الناحية الروحية. أو في حالة لا وعي بالنسبة إلى ضمائرهم. وهم يهربون من واقعهم ويهربون من اللَّه.

★★ وهناك مَن يهرب من اللَّه، لأنَّ لديه شيئاً يحرص عليه، ويخاف عليه من اللَّه: هناك مَن يحرص على ما لديه من مال، أو مظاهر من العظمة، أو قسوة تخضع الناس له، أو إدارة أعمال للهو، أو شهرة في الملاهي، أو أساليب خاطئة توصله إلى ما يريد ... فإن سار في طريق اللَّه يحرمه من كل ذلك. فالوضع الأمثل أن يهرب من اللَّه.

★★ والبعض يهرب من اللَّه بسبب اليأس، إذ يرى أن السَّيْر في طريق اللَّه طويل لا يعرف مداه. فاللَّه لا يريدنا فقط في حياة التوبة، إنما يطالبنا بالنمو الروحي حتى نصل إلى حياة القداسة أو الكمال الممكن. فمَن يستطيع كل هذا؟! ومَن يستطيع في كل فضيلة أن يتطوَّر فيها حتى يصل إلى قمَّتِها؟! إذن الهروب من اللَّه أفضل.

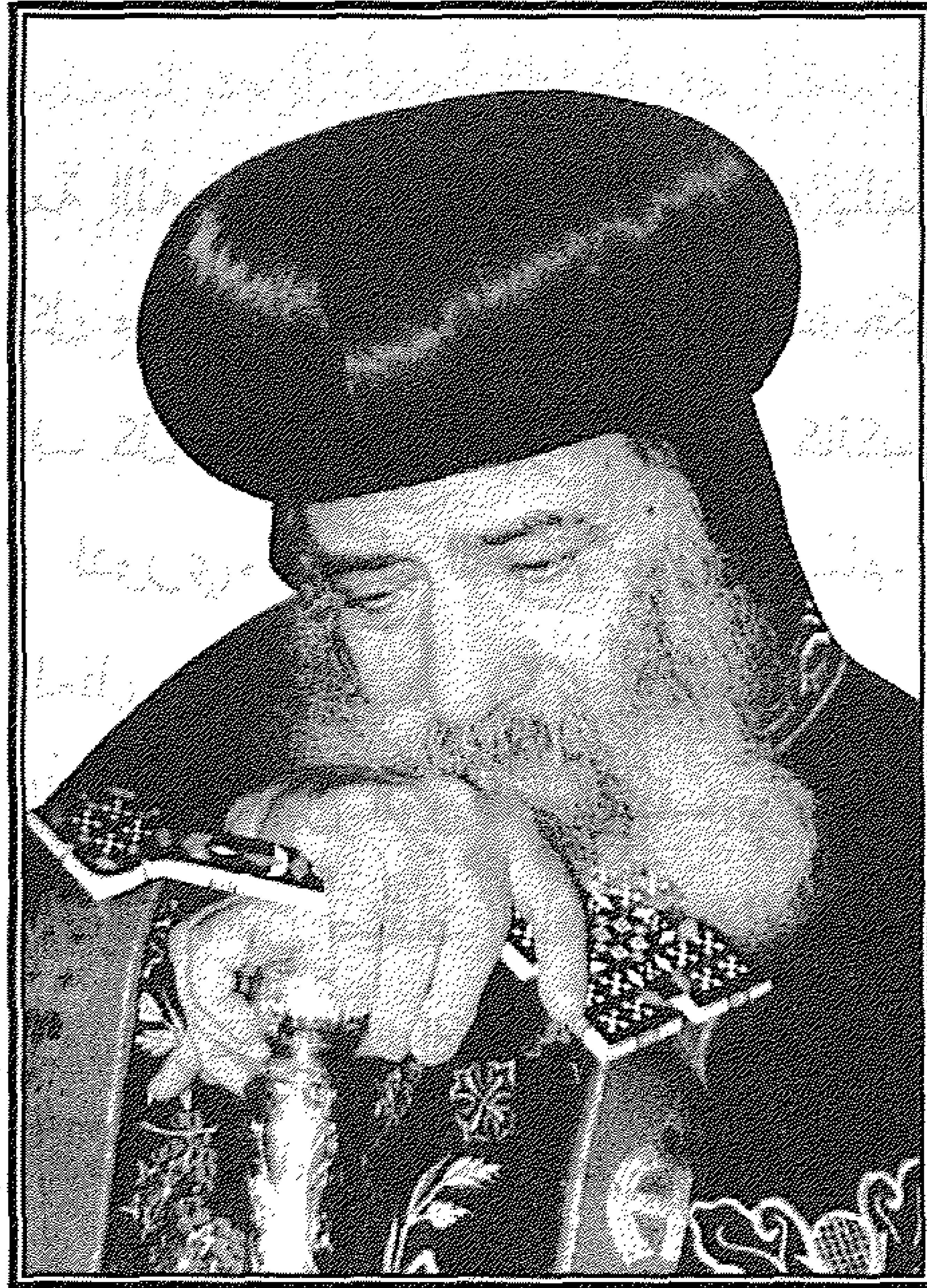
★★ وهناك أسباب أخرى كثيرة للهروب من اللَّه. على أن الذين يهربون منه، يهربون أيضاً من كل ما يتعلَّق باللَّه. يهربون من دور العبادة، ومن قراءة كلام اللَّه

ووصاياه، ومن التأمُّل في حياة الفضيلة، ومن الاجتماعات الروحية، ومن كل مَن يُبكِّتهم بسبب طريقهم الخاطئ، ومن كل مَن يدعوهم إلى تغيير نمط حياتهم.

ونحن نقول لكل هؤلاء: مهما هربتم من اللَّه، فهو سيسعى إليكم ليجذبكم إليه. وقد صدق داود النبي حينما قال للَّه في المزمور: " أين أهرب من روحك، ومن وجهك أين أختفي؟! ". كما نقول لهم إنَّ هذا الهرب ليس من صالحكم. ويجب أن تواجهوا الواقع في شجاعة وصدق.

★★ وأوّل واقع تواجهه هو أبديتك، أي مصيرك الأبدي. فإلى أي مصير سيقودك الواقع الذي تعيش فيه؟ إذن عليك أن تواجه نفسك. وأنت لا تستطيع أن تخدر ضميرك إلى الأبد. فلا بد أن يصحو في يوم ما. وحينئذ ماذا تفعل؟

★★ مشكلة كبيرة تواجه الناس، وهى: كيف سيترك الشخص خطيئته مع أنه يحبها؟! كأن الذي يترك الخطيَّة سيظل بنفس القلب الذي يشتهيه! كلا، فإنَّ اللَّه حينما يُرجِع التائب إليه يمنحه قلباً جديداً يختلف عن القلب الذي كان يشتهي الخطيئة. كما أنه يمنحه نعمة خاصة تقوده في الطريق الجديد. فلا تعطِ فرصة للشيطان الذي يحاول أن يظهر لك صعوبة الطريق إلى اللَّه ويُقنعك بالهروب منه.



٢٤ أغسطس ٢٠٠٨

حكمة اللّه

من صفات اللّه - تبارك اسمه - أنه حكيم في كل ما يفعل. وقد يوجد أيضاً من البشر أشخاص حكماء، كقول الشاعر:

فخذوا العلم على أربابه ... واطلبوا الحكمة عند الحكماء

ولكن حكمة اللّه تتميَّز عن كل هؤلاء بأنها حكمة غير محدودة، وأنها للخير، وتشمل الكل، وتقف العقول مبهورة أمامها...

وسنضرب الآن بعض أمثلة لحكمة اللّه. ولنتكلَّم أولاً عن حكمته - عزّ وجلّ - في موضوع الخلق...

★★ يقول داود النبي في المزمور: " ما أعظم أعمالك يارب، كلها بحكمة صنعتها ". الخالق العظيم بحكمة كبيرة رتَّب مواعيد الخلق: خلق الماء أولاً قبل أن يخلق النبات والعُشب لكي يتغذَّى النبات والعُشب عليه. وخلق هذيْن قبل أن يخلق الحيوان لكي يتغذَّى الحيوان على العُشب. وخلق الإنسان أخيراً لكي يتغذَّى على النبات ولكي يكون الحيوان في خدمته.

★★ وما أعجب حكمة اللّه في علم وظائف الأعضاء بالنسبة إلى مخلوقاته: انظروا كيف منح وظائف مُعيَّنة لكل مركز من مراكز المخ، وكذلك حكمته في وظائف القلب وعلاقته بالمخ، وفي وظائف كل جهاز من أجهزة الجسم، كالكبد، والكُلى، وكل عناصر الجهاز الهضمي، والجهاز الدوري، وعمل الدم، وعمل العظام. بل أيضاً وعمل الضمير، وعمل الأعصاب، وعمل العقل.

انظروا أيضاً حكمة اللّه في قوانين الوراثة، وكيف يرث الجنين من صفات والديه، وبعض صفات الأجداد وما تركوه من صفات كامنة في الأعمام والأخوال. وما مركز الجينات في كل ذلك ومركز الهرمونات والكروموزمات. وما حكمة اللّه في قوانين الوراثة المُتعلِّقة في الشكل العام وبالقامة، ولون العين ولون الشعر، وملامح الوجه ونوع فصيلة الدم وما إلى ذلك...

★★ كذلك حكمة اللّه في خلقه الطبائع مُتعددة ومتنوعة: فقد خلق الملائكة أرواحاً بعيدة عن المادة، بصفات بعيدة تماماً عن البشر. وخلق كائنات جامدة هى مادة فقط، بلا نفس ولا روح. كالجبال والأنهار والحجارة والرمل. وخلق كائنات أخرى بعضها من جسد مادي ونفس: كالحيوانات والطيور والأسماك والحشرات. ثم خلق الإنسان من جسد مادي ونفس وروح وله عقل وضمير ... وكل نوع من هذه الأنواع له صفاته التي يتميَّز بها.

وكل تلك الخليقة في تنوّع عجيب: تنوّع في اللون، وفي الشكل، وفي الفهم، وفي الطباع، وفي نوع النفسية والعقلية. بل وفي تنوّع أيضاً في النطق أو عدمه وفي نوع الأصوات أيضاً ... حتى لا تمل الخليقة من النظر إلى بعضها البعض...

تصوَّروا ماذا كانت الخليقة لو لم يوجد بها هذا التنوّع؟! أي لو كان الجميع من البشر مثلاً بعقلية واحدة ونفسية واحدة وشكل واحد! ينظر كل إنسان إلى غيره، وكأنه ينظر إلى مرآة!

بل إنَّ اللّه أوجد مثل هذا التنوّع في خلقه للملائكة. فليسوا كلهم درجة واحدة ولا طغمة واحدة. وهناك ملائكة للتسبيح تقف أمام العرش الإلهي. وملائكة أخرى للخدمة تُرسَل في مهمات مُعيَّنة.

★★ وفي الطبيعة الجامدة أوجد أنواعاً أيضاً: أوجد الضغط والحرارة والهواء والسُّحب والأمطار. بحيث ينتقل الهواء من الضغط الثقيل إلى الضغط الخفيف. وهذا الضغط الخفيف يخف بالحرارة. وإذا ازدادت حدة الهواء وسرعته، يتحوَّل إلى رياح وعواصف. ويمكن أن يتبخَّر الماء ويرتفع ويتحوَّل إلى سُحب، ثم يتكثَّف أيضاً ويتحوَّل إلى مطر.

هناك حكمة وضعها اللّه في قوانين الفَلَك: في العلاقات القائمة بين الشموس والكواكب والنجوم والمجرَّات ... وما ينتج عنها من الفصول ومن الحرارة والبرودة، والنور والظلمة، وعلاقة كل هذه بحياة الإنسان. كل ذلك بنظام ثابت عجيب وحكيم.

★★ ونرى حكمة اللّه في منحه للمخلوقات الضعيفة وسيلة تنجو بها من الكائنات التي هى أقوى منها: فالأسد يستطيع أن يفترس الغزال. ولكن اللّه منح للغزال قدرة عجيبة على الجري ينجو بها من الأسد. والكلب يستطيع أن يفترس القط، ولكن اللّه منح القط

قدرة على التَّسلُّق بحيث يتسلَّق الأشجار والأعمدة وينجو من الكلب. والقط عنده قدرة أن يفترس الفأر، لكن اللَّه منح الفأر قدرة على الحفر، فيحفر لنفسه مسالك يختبأ فيها من القط... وهكذا بالنسبة إلى كائنات كثيرة.

★★ يمكننا أيضاً أن نتأمَّل حكمة اللَّه في التجارب والألم، بل وفي وجود الألم عامة. إنَّ الألم في الجسد يكشف مواضع المرض فيه. وما أخطر الأمراض التي لا يشعر فيها الإنسان بالألم وتظل تنتشر حتى تصبح صعبة العلاج. وقد سمح اللَّه بالألم من أجل قيادة الإنسان إلى التوبة أحياناً. فإنَّ ساعة واحدة من الألم المُتعب قد تُرجِع الإنسان إلى اللَّه وتقوده إلى التوبة أكثر من عشرات العظات. ففيما يشعر أنه قريب من الأبدية، يستعد لها. أو يشعر باحتياجه الشديد إلى اللَّه فيسعى إليه. بل إنَّ الألم يوجد مشاعر الحنو والتعاطف بين الناس فيُساهم بعضهم في العمل على تخفيف آلام الغير وهكذا تنمو العلاقات الاجتماعية.

هناك تأمُّل آخر من جهة حكمة اللَّه في الموت: فقد أوجد اللَّه الموت لينقل الإنسان من حياة مادية فانية إلى حياة روحية باقية. ومن حكمة اللَّه في الموت أنه لا يستبقي على الأرض أجيالاً متتابعة من شيخوخة عاجزة. بل يجعلها تفسح الطريق إلى أجيال جديدة كلها حيوية ونشاط وإنتاج. ومن حكمة اللَّه في وجود الموت أن يجعل الناس يستعدون للأبدية عارفين أن هذا العمر ليس باقياً على الأرض.

★★ إننا جميعاً نؤمن بحكمة اللَّه. وإيماننا هذا له فوائد عديدة في حياتنا. إذ نثق باللَّه ونُسلِّمه الحياة. ونشكره على كل تدبيراته معنا ومع غيرنا. وفي إيماننا بحكمة اللَّه نبعد عن التَّذمُّر والشكوى وعن التجديف أيضاً، شاعرين أن كل ما يعمله اللَّه هو من أجل خيرنا سواء فهمنا ذلك أو لم نفهم.

٣١ أغسطس ٢٠٠٨

حكمة اللَّه
في الخلق والتدبير

★★ لقد دبَّر اللَّه لكل واحد من مخلوقاته ما يريحه وما يناسبه. فالدب القطبي مثلاً، لأنه يعيش في مناطق باردة، دبَّر له اللَّه فروًا لتدفئته. بينما الحصان لا يحتاج إلى ذلك. والجمل خلق له اللَّه خفًّا في قدميه يمشي به على الرمال. والقرد خلق له مرونة في كل فقراته تمكنه من تسلق الأشجار مثلاً. كذلك خلق اللَّه أجنحة للطيور، وزعانف للأسماك وللحيوانات الضعيفة دبَّر لها وسيلة للهرب.

حدث مرة أنني مررت على تكعيبة للعنب فرأيت تدبير اللَّه العجيب: ففي الشتاء تنفض الكرمة أوراقها، فتدخل أشعة الشمس لكي يتدفأ مَن يجلس تحت التكعيبة في فصل البرد. وتعود أوراق الكرمة فتملأ التكعيبة في الصيف، لكي يستظل مَن يجلس تحتها في فصل الحر. إنها حكمة عجيبة في التدبير وهكذا مع الأشجار النفضية. إلى جوار نفع كل هذا في تدبير حياة الشجرة نفسها.

★★ هناك أيضاً تدبير إلهي عجيب في وظائف أعضاء الإنسان: لقد دبَّر له اللَّه كل شيء: العدسة العجيبة الموجودة في العين، والمضخة العجيبة الموجودة في القلب، والمراكز العجيبة التي في المخ، والحساسية العجيبة التي في سائر الحواس، كاللمس والشم والذوق. والمفاصل العجيبة التي للأطرف، والمرونة العجيبة الموجودة في الفقرات.

كذلك العمل العجيب الذي تقوم به كل أجهزته: يكفي أن يأكل الإنسان مثلاً قطعة من الحلوى. فتقوم الأسنان واللسان بعملهما: اللسان يلوكها، والأسنان والضروس تحطمها وتهيئها للبلع. ثم تتناولها مجموعة من الإفرازات، منها ما يخص المواد الدهنية، وما يخص المواد السكرية، وما يخص المواد النشوية، لكي يتم هضمها ثم تمثيلها. وتتحوَّل إلى أنسجة ودم في جسم الإنسان من نفس النوع!

★★ وكما دبَّر اللَّه طبيعة الأجرام السماوية وعملها، كذلك دبَّر حياة حتى الحشرات: خذوا مثلاً تدبير اللَّه للنحلة، كيف منحها ذلك التدبير العجيب في جمع الرحيق من

الزهور، وتحويل الرحيق إلى شهد وكأنها عالم في الكيمياء. ومنحها استخراج غذاء الملكات، وكأنها صيدلي ماهر يعد أقوى علاج. كذلك منحها تدبيراً عجيباً في صنع الخلايا وكأنها مهندس بارع! ومنحها تدبيراً عجيباً في العمل الإداري والعلاقة بين العمال وبينهم وبين الملكة. حتى قال في ذلك أمير الشعراء أحمد شوقي:

مملكة مُدبَّرة ... بامرأة مؤمَّرة

تحمل في العمال والصنَّاع ... عبء السيطرة

أعجب لعمال ... يولّون عليهم قيصرة

★★ وهكذا منح اللَّه أيضاً تدبيراً عجيباً للطيور في رحلاتهم الطويلة، وقيادة تلك الرحلات. ومنح الخليقة الحيوانية تدبيراً منظماً في النسل. كما منح النباتات أيضاً في ذلك نظاماً وتدبيراً، به تبذر الشجرة بذراً يصنع ثمراً، بذره فيه كجنسه.

★★ كذلك قام اللَّه بتدبير حياة الإنسان جملة وأفراداً. فكل إنسان يُدبِّر اللَّه له عملاً خاصاً بحيث ينتهي هذا التدبير إلى القصد الإلهي لو أن هذا الإنسان قد سلَّم نفسه لعمل اللَّه وتدبيره.

أمامنا مثل عجيب هو حياة يوسف الصديق وكيف دبَّرها اللَّه خطوة خطوة إلى أن انتهت إلى الوضع الكريم الذي أراده اللَّه له.

ما أكثر ما يضطرب إنسان في حياته الروحية. ويقول للرب: متى أصل؟ متى أدرك وأنال؟ ولكن اللَّه في حكمته العجيبة يُدبِّر الوقت الذي يراه أفضل الأوقات لتنظيم حياة هذا الإنسان.

★★ إنَّ اللَّه لا يُدبِّر الكل بأسلوب واحد، إنما يُدبِّر كل واحد بما يناسبه، وفي الوقت الذي يناسبه. تختلف التدابير والأوقات، ولكن العامل المشترك في الكل هو الحكمة الإلهية والصلاح الذي يتميَّز به تدبير اللَّه. نرى ذلك مثلاً في حياة موسى النبي منذ طفولته، وفي حياة يوسف الصديق، وفي حياة داود النبي، وفي حياة غيرهم. كل أولئك كانت حياتهم ألحاناً في قيثارة اللَّه. حياة كل واحد منهم كانت وتراً خاصاً بنغمة مُعيَّنة، عزف عليها التدبير الإلهي لتكون سيمفونية عجيبة تستمتع بها البشرية.

★★ ونرى حكمة اللَّه - تبارك اسمه - في أنه دبَّر حلولاً لمشاكل كثيرة ما كانت تخطر على بال. كما حدث أنه شق البحر الأحمر، وأنزل من السماء المن والسلوى، الأمر الذي حدث في التاريخ لأول مرة. كما دبَّر في حياة البعض أحلاماً ورؤى كانت تفاسيرها لوناً من النبوءات عمَّا يحدث فيما بعد. وكانت تلك الرؤى إعلانات من اللَّه عن طريقة تدبيره.

★★ على أنه كثيراً ما لجأ البشر إلى حلول بشرية ففشلت ثم تدخلت الحلول الإلهية كعلاج حاسم للإشكالات. وفي هذا المجال قصص عديدة جداً لسنا نظن أن هذه الصفحات تتسع لها الآن.

★★ على أن تدبير اللَّه لحياة الإنسان، لا يعني إلغاء حرية هذا الإنسان في تدبير حياته. إنما يتمتع بالتدبير الإلهي، مَن يسلم حياته ومشيئته للَّه، يصرفها الرب حسب مشيئته. وهكذا تخضع المشيئة البشرية للمشيئة الإلهية، وتسير الاثنتان في خط واحد وهدف واحد. وتُسمَّى هذه بحياة التسليم، أي تسليم الإنسان للمشيئة الإلهية. وتُبنى على الثقة الكاملة بحكمة اللَّه في تدبيره، والإيمان بخيرية العمل الإلهي، والإيمان بأن التوقيت الذي يضعه اللَّه هو أفضل توقيت، والرضا بما يفعله اللَّه. بل ينتقل الرضا إلى مستوى الشكر على كل ما يشاءه اللَّه. وفي كل ذلك لا يخامر قلب الإنسان أي شك أو تذمر على تدبير اللَّه، مهما كانت الظروف الخارجية. بل يقول له في كل حين: يارب لتكن مشيئتك.

ما أعجب هذا، أن اللَّه يتولَّى حياتنا ويدبرها. بل أكثر من هذا أنه يدبر حياتنا قبل أن نولد. إذ تكون له في حياة كل منا خطة إلهية يوجه بها مسير حياتنا كما يشاء. وكل منا يقول للسيد الرب: أنا يارب شاكر لك على كل ما تفعله بي، وخاضع لمشيئتك الإلهية في حياتي، حيثما تُسيرني أسير، وكيفما تصيرني أصير.

★★ ما أعجب التدبير الإلهي مع العالم الذي كان يعيش في الوثنية وعبادة الأصنام. ثم استطاع اللَّه بحكمته وقوته وحُسن تدبيره، أن يقود هذا العالم إلى الإيمان به، وإلى ترك الوثنية تماماً. مبارك هو في كل تدبيره الإلهي.

٧ سبتمبر ٢٠٠٨

الصوم المقبول
روحياته وقدسيته

خالص تهانئي لإخوتي المسلمين بحلول شهر رمضان وأيام الصوم المبارك، جعلها اللَّه أيام نقاء وصفاء وعِشرة طيبة مع اللَّه ومع الناس.

والصوم يا إخوتي ليس هو مُجرَّد جوع للجسد، بل هو غذاء للروح. الصوم فترة ترتفع فيها الروح، وتجذب الجسد معها. تُخلِّصه من أثقاله، وتجذبه معها إلى فوق، لكي يعمل معها عمل الرب بلا عائق. والجسد الروحي يكون سعيداً بهذا ... الصوم هو تعبير الجسد عن زهده في المادة والماديات، واشتياقه إلى الحياة مع اللَّه. وذلك باشتراكه مع الروح في عملها.

★★ الصوم ليس مُجرَّد فضيلة للجسد بعيدة عن الروح. فكل عمل لا تشترك فيه الروح لا يُعتبر فضيلة على الإطلاق. إن عمل الجسد في الصوم هو تمهيد لعمل الروح، أو هو تعبير عن مشاعر الروح. إن الصوم هو روح زاهدة، تشرك الجسد معها في الزهد. وبهذا لا يكون الصوم هو الجسد الجائع بل الجسد الزاهد. ليس هو حالة الجسد الذي يجوع ويشتهي أن يأكل، بل الجسد الذي يتخلَّص من شهوة الأكل ولو لفترة مُعيَّنة.

★★ لذلك فإن الصوم لا بد أن تصحبه بعض الفضائل، لكي يكون صوماً روحياً. وأوَّل فضيلة ترتبط بالصوم هو ضبط النفس. وكما يضبط الصائم نفسه من جهة شهوة الطعام، كذلك يضبط نفسه عن كل فكر خاطئ وكل كلمة رديئة، وكل رغبة بطالة. ثم بعد ذلك يقوي فيه ضبط النفس حتى يصبح منهج حياة. ليس في أيام الصوم فقط إنما في أيام الفطر أيضاً.

★★ والصوم أيضاً تصحبه التوبة. فيحاول الصائم أن يتخلَّص من كل خطيئة تتعبه وتُعكِّر صفو قلبه وعلاقته مع اللَّه. وبدون التوبة يرفض اللَّه الصوم ولا يقبله. فاللَّه يُريد

القلب النقي أكثر مِمَّا يُريد الجسد الجائع. والتوبة موضوع طويل ينبغي في صومنا أن نحرص على جميع ما تتطلبه التوبة من مشاعر ومن تغيير الحياة إلى أفضل.

كذلك يرتبط الصوم بأعمال الرحمة والصدقة. فالذي يشعر في الصوم بألم الجوع يشفق بلا شك على الجياع. ولا تكون مُجرَّد شفقته مقتصرة على المشاعر وإنما تمتد إلى العطاء بقدر ما تستطيع. ولذلك ما أكثر موائد إطعام الفقراء في فترات الصوم. وإذا ما تمَّ التدرب على هذه الفضيلة تمتد أيضاً في غير أيام الصوم وتصبح فضيلة إطعام الفقراء مستمرة على طول الأيام.

★★ ولما كان الصوم فترة روحية مميزة، لذلك تصحبه الصلاة والعبادة، فيكون فترة للقراءات الروحية والتأمُّلات الروحية والصلة باللَّه. أمَّا الصوم بدن صلاة وتأمُّل، فيكون مُجرَّد عمل جسداني بعيد عن الروح. بل الصوم أيضاً فرصة للصلاة. لأنَّ صلاة واحدة تصليها وأنت صائم هى أعمق من صلوات عديدة يكون فيها الجسد ممتلئاً بالطعام.

وليس الصوم فقط فترة غذاء روحي، إنما هو بالأكثر فترة تخزين للروحيات، أي فترة طاقة روحية غير عادية تسند الإنسان في أيام الإفطار أو أيام الفتور الروحي. والذي يكون أميناً لروحياته في فترة الصوم تنفعه هذه الأمانة في وقت المحاربات الروحية أو إغراءات الخطية.

★★ والصوم يكون فترة للتداريب الروحية العديدة، وتختلف هذه التداريب من شخص إلى آخر حسب احتياج كل إنسان. فقد يتدرَّب شخص ما على ترك عادة مُعيَّنة. مثل مدمن التدخين مثلاً الذي يتدرَّب في الصوم على ترك تدخينه. أو قد يتدرب إنسان على ترك بعض أخطاء اللسان والغضب، أو أيَّة نقطة ضعف فيه.

★★ ومن التداريب النافعة التي يحرص عليها البعض في صومهم، هى التداريب الخاصة بمقاومة الوقت الضائع: الضائع في الكلام الزائد، وفي المناقشات التي لا تفيد، وفي بعض الترفيهات التي يمكن الاستغناء عنها. مع التدرب على الاستفادة بهذا الوقت فيما يبني الشخصية وينفعها. وكل إنسان يعرف أين يضيع وقته وهو جزء من حياته من الخسارة أن يضيع.

★★ ومن التداريب النافعة أثناء الصوم، تلك التداريب الخاصة بحسن العلاقات مع الآخرين. كأن تدرب نفسك أثناء صومك على مصالحة مَن انقطعت صلتك بهم، لغير ما سبب جوهري يدعو إلى ذلك. كذلك التدريب على مساعدة الغير أو حل مشاكل البعض، أو إسعاد أي إنسان بطريقة ما. وبهذا تكون فترة الصوم بركة لك وللآخرين أيضاً. وعلى الأقل لا تسمح لنفسك بأن تكون فترة الصوم أيام خصومة لك مع الآخرين. فأنت إن لم تستطع أن تنفع غيرك، فعلى الأقل لا تؤذ أحداً.

★★ ما أجمل في فترة الصوم أن يعتكف أحد الكُتَّاب ليؤلِّف كتاباً يشتهي الناس قراءته. أو أن أحد الكبار يعتكف ليكتب مذكَّراته وينشرها ... وبالمثل أيَّة فرصة خلال الصوم لإنتاج فكري أو فني أو علمي.

★★ ما أكثر المنافع التي يمكن أن يستفيد بها الناس في فترة الصوم إن أرادوا ذلك. ومن أجل هذا سمح اللَّه أن يوجد الصوم في جميع الأديان وفي جميع البلاد وفي كل العصور، لقصد إلهي يراه.

فلو أن كل شخص في فترة الصوم ركَّز على فضيلة واحدة يقتنيها، لأصبح الصوم ذا نفع للصائم من جهة وللمجتمع كله ... وأنه لكذلك.

★★ من أجل هذا عليك أيها القارئ العزيز أن تجلس إلى نفسك، وتذكر كم من الأصوام مرَّت عليك، وما الذي انتفعت به روحياً من تلك كل الأصوام؟ إن كنت لم تنتفع فاعرف أنك قد سلكت في الصوم بطريقة خاطئة أو بطريقة جسدانية بحتة لم تشترك فيها روحك. أو أنك أخذت من الصوم مظهره الخارجي دون أن تدخل إلى جوهره وتعرف الهدف منه كوصية إلهية!

★★ إننا من أعماق قلوبنا نشكر اللَّه – تبارك اسمه - الذي منحنا فضيلة الصوم، وأعطانا هذه الوصية التي ترقى بها أجسادنا وأرواحنا .. هو أيضاً فلنسأله أن يمنحنا القوة والحكمة لكي نصوم كما ينبغي صوماً مقبولاً عند اللَّه ونافعاً لنا نحن البشر.

١٤ سبتمبر ٢٠٠٨

علاقة اللَّه بالإنسان
قوامها الحُب والعطاء

إن اللَّه دائماً يُعطي، ويُعطي بسخاء، ويُعطي للكل. هو يُعطي دون أن نطلب، ويُعطي فوق ما نطلب. وهو يُعطينا ما نعطيه للغير. وفي كل ذلك يُعلِّمنا العطاء. وقد بدأت علاقة اللَّه بالإنسان، بالحب والعطاء

★★ كان اللَّه وحده منذ الأزل. لم يكن هناك غيره. ثم أحب أن نوجد فأوجدنا. وكانت النعمة الأولى التي أعطانا إيَّاها هى نعمة الوجود. لم يكن اللَّه محتاجاً إلى وجودنا بل نحن المحتاجون إليه. وخلقه لنا كان من فرط تواضعه. إذ لم يشأ أن يوجد وحده، بل أوجد مخلوقات أيضاً توجد معه.

★★ والعطية الثانية التي أعطاها اللَّه للإنسان، كانت بأن خلقه في أحسن تقويم. وميَّزه عن باقي المخلوقات الأرضية بالعقل والنطق والفهم. وأعطاه أيضاً حرية الإرادة والسلطان على حيوانات البرية وطير السماء وسمك البحر. بل جعله خليفة اللَّه في أرضه.

★★ وعندما خلق اللَّه الإنسان أعطاه أيضاً الصحة والقوة والجمال. كان الإنسان الأول في منتهى الجمال حينما خلقه اللَّه. وكانت النقاوة والطهارة تُضفي عليه جمالاً آخر. وكان جسده قوياً وفي صحة كاملة، كان خالياً من الأمراض الجسدية والأمراض النفسية وكان كاملاً جسداً ونفساً وروحاً قبل أن تغير الخطية من صورته.

★★ ومنح اللَّه الإنسان الأوَّل البركة: فبارك آدم وحواء، ثم بارك نوحاً وبنيه، وبارك إبراهيم أب الآباء والأنبياء. وبارك محبيه من البشر ومن الأنبياء، وجعلهم بركة للعالم. ومنح كل أولئك كرامة ومجداً، في الأرض وفي السماء.

★★ ومنح اللَّه البشرية نعمة البقاء، والاستمرارية في الوجود. وذلك عن طريق الزواج، بأن خلق الإنسان ذكراً وأنثى، ليثمروا ويكثروا ويملأوا الأرض.

★★ ولمَّا مات الإنسان، أعطاه اللَّه نعمة القيامة من الأموات، فسوف يقوم البشر في اليوم الأخير ليحيوا حياة أخرى. وهكذا أعطى اللَّه للبشر نعمة الخلود، لكي يحيوا إلى الأبد في حياة أخرى لا تكون لها نهاية.

★★ وفي محبة اللَّه للإنسان، منحه مواهب وعطايا صالحة. تتعدَّد هذه المواهب من شخص إلى آخر. بعضها مواهب عقلية، والبعض مواهب روحية. ووصلت مواهبه لمختاريه إلى حد صُنع المعجزات. وأعطى البعض حكمة، كسليمان. وللبعض موهبة الرؤى وتفسير الأحلام كما كان لدانيال ويوسف الصديق.

★★ وأعطى اللَّه للإنسان موهبة الحديث معه. كما كان موسى كليم اللَّه، وإبراهيم خليلاً للَّه. بل أعطَى البشرية كلها شرف الحديث معه في الصلاة. وأعطى البعض شرف خدمته ونشر ملكوته على الأرض كما حدث مع الأنبياء والرسل، وخدام اللَّه في كل عصر ومكان. وألهم هؤلاء ما يقولون للناس. وأعطَى الأنبياء موهبة الوحي الإلهي.

★★ ولمَّا أخطأ كثير من الناس، فإنَّ اللَّه لم يتركهم في سقطاتهم، بل أعطاهم روح التوبة والرجوع إليه، وأعطاهم أيضاً المغفرة وكل هذا من حنان اللَّه ورحمته.

★★ وأعطى اللَّه للإنسان أن تكون له صِلة بالقوات السمائية. وذلك عن طريق عمل الملائكة من أجل البشر. فهناك ملائكة تبشّرهم، وملائكة تنذرهم، وملائكة تعينهم وتنقذهم. بل أعطاهم أيضاً أن يحيوا مع الملائكة في العالم الآخر فيما بعد.

★★ وأعطى اللَّه للإنسان كل ما يحتاجه على الأرض من العناية، وكفل له حاجته من الطعام والشراب والملبس. وجعل في الأرض خيرات تكفي لكل البشر، إن حسن توزيعها.

★★ ومن أهم العطايا الإلهية للإنسان: الرعاية. فاللَّه لم يخلق الإنسان ويتركه وحده بل لا يزال يرعاه في كل مكان وعبر الأجيال. ويرسل له رعاة يهتمون به ويحلون مشاكله، ويمنحونه العون والمساعدة.

★★ ومن عطايا اللَّه للإنسان، إرشاده له في طريق الحياة، وتعريفه بالطريق السليم الذي يسلك فيه. وهكذا منحه الوصايا الإلهية التي صارت نوراً له في الطريق. ومنحه أيضاً الضمير الذي يُميِّز بين الخير والشر، ويحث على الخير، ويحذر من الخطأ، ويقود الإنسان إلى التوبة، وإلى محبة اللَّه وطاعته.

★★ وقد أعطى اللّه للإنسان قلباً يشتاق إليه. وأعطاه أيضاً نعمة الإيمان به. حتى أننا نشكر اللّه ونقول له في صلواتنا: " أعطيتني عِلم معرفتك " فما أجمل هذه العطية أن نعرف اللّه وأن تكون لنا به صلة، وتستمر هذه الصّلة من الآن وإلى الأبد.

★★ أعطانا اللّه أيضاً أن نعتمد عليه، وأن نطلبه في ضيقاتنا، فيستجيب لنا ويعيننا. وهكذا نشكره على كل إحساناته إلينا. ونشعر أننا لسنا وحدنا في هذا العالم، وإنما هناك قوة من فوق تسندنا في طريق الحياة.

★★ أعطانا اللّه أيضاً المحبة التي نحبه بها، والتي نحب بها بعضنا البعض والتي بها نعطي للغير بقدر ما نستطيع: نعطيهم حُبًّا، نعطيهم نصيحة وفكراً، ونعطيهم من الأمور المادية التي أعطانا اللّه إيَّاها. وفي كل هذا لا نعتبر أنفسنا إننا نُعطي، وإنما نوصل خيرات اللّه للناس.

★★ إن داود النبي تذكَّر عطايا اللّه وإحساناته إليه فقال في المزمور: " باركي يا نفسي الرب وكل ما في باطني فليبارك اسمه القدوس. باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل إحساناته ". وهكذا أعطانا درساً في أن نتذكّر كل إحسانات اللّه إلينا، وكل إحساناته إلى أحبائنا ومعارفنا وإلى وطننا أيضاً.

★★ إنَّ كل عطية صالحة تصل إلينا، لا شك أن مصدرها هو اللّه الذي أعطاها غير أننا كثيراً ما ننسب ما يصل إلينا من خيرات لغير اللّه. ننسب ذلك إلى بعض الناس، أو إلى ذكائنا الخاص، أو إلى الظروف المحيطة. وبهذا يقل شكرنا للّه، ويقل اعترافنا بجميله، وتقل صلتنا به واعترافنا بأننا لولاه ما كُنا شيئاً على الإطلاق.

★★ اجلس يا أخي إلى نفسك، واطلب من ذاكرتك أن تجول في كل عمل اللّه من أجلك منذ أن وُلِدت وإلى هذه اللحظة. وتأمّل في كل خطوة أنجح اللّه فيها طريقك، أو أعطاك نعمة في أعين الناس، أو أنقذك من مشكلة، أو ستر عليك ولم يشأ أن يكشفك... ثم أُشكر اللّه المُعطي. وحتى وإن كانت عطاياه قد وصلت إليك عن طريق آخرين، فاشكره أيضاً لأنه استخدم هؤلاء من أجل منفعتك.

٢١ سبتمبر ٢٠٠٨

حياتنا هى للَّه وحده

إنَّ اللَّه هو الذي وهبنا الحياة، فأصبحت هذه الحياة له. إننا نحيا لأجله، ونحيا به. ولا نستطيع أن نفصل حياتنا عنه. لذلك ما أجمل المبدأ الذي يقول: "إن عِشْنا فللربِّ نعيشُ، وإن مُتنا فللربِّ نموت. إن عِشْنا وإن مُتنا فللربِّ نحن".

★★ وفي مجال التطبيق العملي نقول: إن أكلنا، فمن أجل الرب نأكل، لكي نأخذ طاقة للجسد نستطيع بها أن نعمل ما يرضيه. وإن صُمنا، فمن أجل الرب نصوم، لكي تقوى الروح وتكون في صلة قوية باللَّه. إذن طاقة الجسد هى من أجله، وقوة الروح هى من أجله...

كذلك من أجل اللَّه نتكلَّم أو نصمت: من أجله نتكلَّم، فنشهد للحق وللإيمان وللبِرّ، ونعلن وصاياه للناس، ونعزي الآخرين ونقويهم، وننطق بكلام الحكمة النافعة للبنيان ... ومن أجل اللَّه نصمت، عاملين بقول الحكيم: " كثرة الكلام لا تخلو من معصية ". إذن نتكلَّم حينما يفتح اللَّه أفواهنا، ونصمت حين نخشى الخطأ في الكلام.

★★ كل عمل نعمله، فمن أجل اللَّه نعمله ... نعمله له من أجل طاعته. ونعمله بنعمته والقوة التي يمنحنا إيَّاها. وهكذا لا يكون أي عمل من أعمالنا مستقلاً عن اللَّه. وهكذا بالرب نعيش، لا لأنفسنا ولا لأهداف خاطئة كما يحدث للبعض.

★★ هناك أشخاص يعيشون لذواتهم فقط وبطريقة خاطئة: كل ما يريده الواحد منهم، هو أن يبني ذاته، ويحيط ذاته بالمتعة والرفاهية. وربَّما في سبيل ذلك يزيح الآخرين من طريقه ليبقى هو. وفي كل ذلك يكون الذي يعيش لنفسه فقط إنساناً أنانياً. وقد صدق المَثل القائل: " ما عاش قط مَن عاش لنفسه فقط ".

ينبغي أن توضع الذات في آخر القائمة، حينما تُرتَّب الأولويات. فنقول إنَّ اللَّه أولاً، ثم الآخرين، ثم الذات أخيراً. على أن هذا الترتيب لا يكون سليماً إن كانت فيه انفصالية عن اللَّه. فالعمل لأجل الآخرين والعمل لأجل الذات، ينبغي أن يكون كلاهما داخل الحياة لأجل اللَّه، وليسا منفصلين عنه. وهكذا يكون اللَّه هو الكل في الكل.

★★ وقد يقول إنسان: أنا أعيش لأجل أولادي. فمن أجلهم يعمل ويتعب ويشقى. ومن أجلهم يكنز مالاً ليترك لهم ميراثاً. والعناية بالأولاد واجب مُقدَّس. ولكن الخطأ هو أن يُركِّز الإنسان على أولاده، ويهمل واجباته تجاه الآخرين وتجاه اللَّه! أي يهمل نصيب اللَّه في ماله، ونصيب الفقراء أيضاً. الواجب إذن أنك فيما تهتم بأولادك، أن تهتم بباقي الناس أيضاً. وكما تحب أولادك وتعطيهم من تعبك وكدك، تحب أيضاً الفقراء والمحتاجين وتعطيهم من تعبك وكدك، وتحب المجتمع كله وتخدمه وتبذل لأجله. وتكون محبتك للكل هى داخل محبتك للَّه. فالمفروض أن يكون الحب كله للَّه، والتعب كله للَّه. ومحبة الأبناء ومحبة الناس جميعاً داخل محبتك للَّه. كما تكون محبتك الأولى لأولادك، هى أن تجعلهم يعرفون اللَّه ويحبونه.

★★ لا تجعل للَّه منافساً في محبتك، سواء كان المنافس شخصاً أو شيئاً. وهكذا تحب اللَّه من كل قلبك ومن كل فكرك، وبكل إرادتك. ثم تحب الناس جميعاً داخل محبتك للَّه. أي لا تتعارض محبتك لأحد منهم مع وصية من وصايا اللَّه.

إننا نعيش للرب لأنه خلقنا. لم يكن لنا وجود فأوجدنا. منحنا هذا الوجود فصرنا له. ونحن نعيش حياتنا الحالية معه كعربون للحياة الأبدية، نعيش للرب هنا لكي نستحق أن نعيش معه في السماء.

★★ والذي يعيش للرب، يظهر ذلك في فضائل كثيرة يحياها، أو تتميَّز بها حياته. إنه يُسلِّم حياته للَّه، ويعيش في حياة الطاعة له. وبالتالي يحيا حياة الفضيلة والنقاء. ويُنفِّذ وصايا اللَّه عن حب لا عن تغصب. ولا يهتم بشهوات المادة والرغبات الفانية. وقد صدق أحد الآباء حينما قال: " خير الناس مَن لا يُبالي بالدنيا في يد مَن كانت ". لذلك فالذي يعيش لأجل اللَّه لا يهتم ولا يضطرب لأجل أمور كثيرة، متيقناً أن الحاجة الحقيقية هي إلى واحد وهو اللَّه. وقد اختار الأبرار هذا النصيب الصالح.

★★ والذي من أجل اللَّه يعيش، لا يخاف الموت. بل يقول: ونحن من أجل اللَّه نموت. أي نموت لكي نلتقي باللَّه في الحياة الأخرى، راجعين إليه من غربة هذا العالم لكي نحيا معه ومع ملائكته في ملكوته السماوي. وعبارة نموت للرب قد يقولها أيضاً الشهداء، والذين يبذلون حياتهم بأية الطرق من أجله.

لذلك يحسن بك أن تتأمّل في السماء وفي الحياة الأخرى وفي عِشرة الملائكة وعِشرة الأبرار والقديسين. حينئذ تشعر أن الموت هو مُجرَّد جسر ذهبي يصل بين الأرض والسماء، وبين الحياة الوقتية والحياة الأبدية.

★★ كذلك مما يساعدك على الحياة مع اللّه السلوك في شتى الفضائل التي تشعر بها أنك مع اللّه، وأن اللّه معك، وأنك تحيا في طريقه، وتُنفِّذ مشيئته على الأرض. وما أسهل أن تُدرِّب نفسك على ذلك، ولو واحدة بواحدة ... وثق أنك كُلَّما عشت في حياة الفضيلة، تستطيع أن تقول بثقة: "مع الرب نعيش".

★★ يُساعدك أيضاً في هذا المجال أن تتأمّل في صفات اللّه الجميلة ... تتأمّل في اللّه الشفوق الحنون، وفي اللّه المُعين، المُغيث، الرازق، المُعطي، وفي اللّه القادر على كل شيء الموجود في كل مكان، الناظر إلى كل ما نفعله، والسامع لكل ما نقوله ... وإلى غير ذلك من الصفات الإلهية المحببة إلى النفس ... حينئذ ستشعر أنك تعيش مع هذا الإله الذي تحبه وتحب كل صفاته.

★★ ممّا يساعدك أيضاً أن تعيش مع اللّه، أن تزداد صلتك به عن طريق صلواتك. ولا أقصد فقط الصلوات المحفوظة التي يُصلّيها الكل، وإنما أقصد بالذات الصلوات الشخصية التي تتخاطب فيها مع اللّه بقلب مفتوح وبلسان صريح، تجعله يشترك معك في كل عمل تعمله، ويوحي إليك بكل كلمة تقولها، وتكون لك مشيئة توافق مشيئة اللّه، في حياتك وحياة الآخرين.

★★ ولكي تعيش مع اللّه ينبغي أن تجعل اللّه يملأ قلبك وفكرك، ويقود خطواتك ورغباتك، وبقدر الإمكان يشغل نصيباً طيباً من وقتك. ذلك لأنَّ الذي ينشغل وقته بأمور تافهة عديدة وربُّما بأمور تبعده عن اللّه كثيراً ... فهذا لا يمكن أنه يشعر أنه يحيا مع اللّه.

★★ لذلك أحب أن تدرّب نفسك على الحياة مع اللّه ولو يوماً يتدرج إلى يومين ثم إلى أسبوع. فإن أتقنت ذلك تستطيع أن تجعل حياتك كلها مع اللّه، وليكن اللّه معك يقويك ويعينك.

٢٨ سبتمبر ٢٠٠٨

لا
للشكلية والحرفية

★★ الإنسان الفاضل يهتم بعُمق الأمور وليس بشكليتها. ومن جهة تعامله مع وصايا اللَّه، يهتم بروحانيتها وليس بحرفيتها. ذلك لأنَّ الشكليات هى المظهر الخارجي. والإنسان الروحي لا يهتم بالمظهر إنما بالجوهر. وليس هذا فقط من جهة الأمور الدينية، وإنما حتى في الأمور الإدارية والمدنية والحياة عامة. وسنحاول في هذا المقال أن نتناول العديد من الأمثلة لشرح هذا الموضوع:

★★ كان اليهود وبخاصة أيام إشعياء النبي يهتمون بالعبادة الشكلية من صلوات وأصوام وتقديم ذبائح والاهتمام بالاحتفالات والأعياد الدينية، بينما هم بعيدون عن اللَّه تماماً. ولذلك رفض اللَّه صلواتهم وقال لهم: "حين تبسطون أيديكم، أستُرُ وجهي عنكم. وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً". وقال عنهم أيضاً: "هذا الشعب يُكرمُني بشفتيه، أمَّا قلبه فمُبتعدٌ عني بعيداً". حقاً إن اللَّه يُريد العبادة التي من القلب وليس مُجرَّد الشكليات الخارجية.

★★ مثال آخر، قد يركع الإنسان ويسجد. ويظن أن السجود هو انحناء الجسد أو مُجرَّد ملامسة الرأس للأرض. ويهتم بهذه الشكلية ويكتفي بها. بينما روحانية السجود هى انحناء الروح مع الجسد أيضاً، وهذا لا يأتي إلاَّ بخشوع النَّفس من الداخل. وسجود الإنسان الخاشع أمام اللَّه يختلف تماماً عن مُجرَّد السجود الخالي من خشوع القلب. وجوهر السجود هو الشعور بعظمة اللَّه وهيبته، فأمامه تنحني الرأس حتى تلامس الأرض ويشعر الإنسان إنه لا عظمة له أمام عظمة اللَّه. وهكذا قال داود النبي في مزاميره: "لَصِقَتْ بالتُّراب نَفْسِي". ولم يقل لصقت بالتراب رأسي.

★★ الصلاة أيضاً ليست مُجرَّد ألفاظ نُردِّدها. فهذا الترديد هو مُجرَّد شكلية الصلاة. إنما الصلاة في جوهرها، هى صلة اللَّه ومن هذا أخذت اسمها. والصلاة في عمقها هى انفتاح القلب للَّه، بكل خشوع، وكُل حُب، وكل إيمان. لذلك عجيب جداً أن يُصلِّي إنسان،

أو يظن إنه يُصلِّي، بينما لا توجد صِلة بينه وبين اللّه فيما يسميها صلاة!! فإن كانت لك مثل هذه الصلاة الشكلية التي رُبّما تكون أيضاً بلا فهم وبلا مشاعر، فقل لنفسك في صراحة تامة: "أنا ما وقفت أمام اللّه لكي أعدّ ألفاظاً!!"... إن علاقتك باللّه في الصلاة ليست علاقة مع شفتيك إنما مع قلبك قبل كل شيء.

★★ نطبق هذا الأمر أيضاً من جهة العطاء أو الصدقة. فجوهر العطاء هو أن تعطي من قلبك ومن حبك لا أن تعطي من مالك ومن جيبك. لأنَّ البعض قد يعطي بغير مشاعر، لمُجرَّد التنفيذ الحرفي لوصية اللّه، أو يعطي حياء منه حينما يطلب ذلك منه، أو يعطي وهو متذمِّر، أو يعطي الفقراء وهو يحاسبهم حساباً عسيراً ويقول أحياناً: هذا مستحق وهذا غير مستحق. أو يعطي مجاملة لبعض المشروعات الاجتماعية التي تقوم بها بعض الهيئات ... وفي كل ذلك يظهر أن القلب غير مشترك في العطاء، أو أن العطاء غير مرتبط بمحبته للمحتاجين وإشفاقه عليهم، أو يعطي بشيء من التعالي والافتخار!! كل ذلك هو لون من الحرفية في العطاء أو الشكلية التي تخرج عن روح المحبة والشفقة والمشاركة الوجدانية مع أولئك المحتاجين. أمَّا الإنسان الروحي فيرى أن المُعطي الحقيقي هو اللّه. وأن ما يعطيه هو للناس قد أخذه من اللّه ليوصله منه إليهم، في اتضاع وإنكار للذات.

★★ بنفس المنطق نتكلَّم من جهة الصوم. فروحانية الصوم هى في إخضاع الجسد وضبط النفس، تمهيداً لأن يكون ذلك منهج حياة. غير أنه قد يوجد شخص يهتم بالشكل فقط، أي مُجرَّد فترة الانقطاع عن الطعام. ثم بعد ذلك يعطي جسده ما يشتهيه بغير انضباط! وبهذا فإن ما ينتفع به في صومه، يفقده بعد إفطاره. ويذكرني هذا الأمر بقول أمير الشعراء أحمد شوقي عن زجاجة الخمر:

رمضان ولَّى هاتها يا ساقي .. مشتاقة تسعى إلى مشتاق

بينما روحانية الصوم تقول إن الذي امتنع شهراً من الزمان عن زجاجة الخمر، من المفروض أنه قد وصل إلى قوة الإرادة التي يرفض بها تلك الزجاجة. ولا يقول عنها إنه مشتاق يسعى إلى مشتاقة.

★★ نقطة أخرى وهى أن اللّه - تبارك اسمه - قد وهبنا يوماً في الأسبوع ليكون يوماً مخصصاً لعبادته، ولهذا أيضاً جميع البلاد تُعفي الموظفين من العمل في هذا اليوم. غير

أن كثيرين ينسون جوهر هذا اليوم ويعتبرونه مُجرَّد يوم عطلة يقضونه كيفما يشاءون دون أن يدخلوا إلى العمق ويخصصوه كله لعبادة اللّه وخدمته.

فاسأل يا أخي نفسك عن موقفك من هذا اليوم، وهل أنت تخصص للّه جزء يسيراً منه أم تعطيه اليوم كله؟ ... ونفس الكلام نقوله عن الأعياد والمواسم الدينية وجوهرها وليس حرفيتها، ومقدار نصيب اللّه منها؟! وهل هى لمجرد اللهو أم لها طابع التقديس؟!

★★ ننتقل إلى نقطة أخرى وهى خدمة المجتمع، سواء الخدمة الفردية أم ما تقوم به بعض المؤسسات من خدمة عامة أو اجتماعية ... فهل الذي يقوم بهذا العمل يعتبر خادماً للمجتمع بقدر ما تحمل هذه الكلمة من معنى؟ أم أن هؤلاء الخدام ينسون كلمة خدمة. ويرتفع قلبهم، ويتسلطون في مواقع خدمتهم، ظانين أن عضويتهم في تلك المؤسسات أو الجمعيات أو رئاستهم لها تعطيهم السلطة فيما يخدمون. وهكذا يكونون قد فقدوا جوهر الخدمة ومعناها، وأصبحت الخدمة بالنسبة إليهم مجالاً لإظهار الذات، أو مُجرَّد أعمال إدارية ومالية يقوم بها الأعضاء، أو مُجرَّد أنشطة لتلك الهيئات وفي كل ذلك ينسون جوهر الخدمة وعُمقها وروحانيتها.

★★ موضوع الشكليات يدخل أيضاً في نطاق الأخلاقيات. فرُبَّما شاب يظن أنه عفيف لأنه لم يرتكب الخطية عملياً، بينما شهوة الخطيئة في قلبه تملأ أفكاره وأحلامه. وعن مثل هذا الشخص قال القديس چيروم: " هناك أشخاص لهم عفة في أجسادهم، بينما أرواحهم زانية "،... بنفس الوضع إلى حد ما في الاهتمام بالشكليات، تلك الفتاة التي تظن أن كل العفة في اختيار نوع ملابسها، وليس في نقاء القلب أو طهارة السلوك!!

★★ نذكر في هذا المجال أيضاً، الاحترام الشكلي. فقد يوجد أشخاص في العمل يقابلون رؤساءهم بمظهر من الاحترام الشديد والطاعة، بينما قلوبهم بغير ذلك ... وبنفس المنطق الذين يتحدَّثون كثيراً عن الوطنية واحترام بلادهم، بينما في جوهر حياتهم لا يخدمون وطنهم كما ينبغي بل يركزون على ذواتهم كيف ينتفعون من كل وضع أو مركز يوجدون فيه. وينظرون إلى الوظائف على أنها مُجرَّد مجال للكسب المادي وليس لخدمة المجتمع. ومن هذا الوضع نائب الدائرة الذي ينسى إنه في خدمة الدائرة. وتصبح الدائرة هى التي خدمته باختياره نائباً!!

٥ أكتوبر ٢٠٠٨

خطايا الجهل

قد يُخطئ شخص عن شهوة أو سوء نيَّة، وقد يُخطئ آخر عن جهل. ويدخل في نطاق الجهل: عدم المعرفة، وعدم الفهم، وسوء الفهم. ويقع في هذا الأمر العديد من الناس. وحينما نقول (عدم المعرفة)، لا نقصد المعنى المُطلَق لهذه الكلمة، إنما معناها بطريقة جزئية، أي عدم معرفة الشيء الذي يخطئ فيه، أو عدم فهمه له، أو سيئ فهمه له... وينطبق هذا الأمر على كثيرين، حتى من الكبار ... وسنحاول في هذا المقال أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع:

★★ من الأمثلة الواضحة: بعض سكان القرى الذين يعيشون في جهل بأشياء عديدة. يأتي إليهم مَن يقودهم فكرياً في اتجاه مُعيَّن سياسي أو مذهبي أو اجتماعي. فيرددون ما يُقال لهم عن غير وعي أو غير فهم، وقد يتحمَّسون لِمَا سمعوه وينشرونه فيخطئون عن جهل. ويذكرني ذلك بما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي في كتابه (مصرع كليوباترا) عن مثل هذا الشعب:

أثّر البهتان فيهِ .. وانطوى الزور عليهِ
يا له من ببغاءٍ .. عقله في أذنيهِ

وللأسف قد يقع في هذا الأمر أيضاً بعض الكبار من المُتعلِّمين والمثقفين وأصحاب المناصب. ولكنهم على الرغم من ثقافتهم في مجال اختصاصهم، فإنهم على جهل بما قيل لهم، فتأثروا به وأخطأوا وانقادوا كغيرهم!!

★★ هنا وأذكر حرب الشائعات: يطلق بعضهم شائعة مُعيَّنة، أو ينشرها في إحدى الصحف ووسائل الإعلام، وقد تكون بعيدة عن الحقيقة كل البُعد. ومع ذلك تجد مَن يصدقها ويتأثَّر بها. وربَّما يرتكب تبعاً لذلك أخطاء عديدة، تكون أيضاً أخطاء عن جهل...

وتدخل في هذا الموضوع دعايات عديدة خاطئة ومغرضة تسير في اتجاه غير الحقيقة. ومَن يتبعها يخطئ عن جهل!

★★ ولقد صادف السيد المسيح بعضاً من قادة اليهود، مثل الكتبة والفريسيين والصدوقيين، كانوا يقودون الشعب في طريق خاطئ، مع أنهم من رجال الدين! وذلك بتفسيرهم الدين تفسيراً منحرفاً. والذين ساروا وراءهم أخطأوا. وكانوا لا يدرون ماذا يفعلون! ولذلك قال السيد المسيح عن أولئك القادة: إنهم أغلقوا أبواب الملكوت أمام الناس، فما دخلوا هم، ولا جعلوا الداخلين يدخلون! كما قال عنهم أيضاً إنهم قادة عميان، ينطبق عليهم المَثَل القائل: " أعمى يقود أعمى، كلاهما يسقطان في حفرة "!

أليس عجيباً أن يصدر الجهل مِمَّن يدّعون أنهم مصادر المعرفة! ومَن يثق بهم ويُصدّقهم، يخطئ عن جهل...

★★ من العجيب أيضاً أن الإلحاد يدل على جهل، مع أن ناشريه يوصفون بأنهم فلاسفة! ولكنهم على جهل باللَّه، وجهل بنشأة الخليقة ومصدر الطبيعة، وجهل بالعالم الآخر وبالملائكة والحياة بعد الموت...! ولو كانوا على عِلم أو ذوي معرفة، لعرفوا أن "السمَوات تُحدِّث بمجد اللَّه، والفَلَك يُخبر بعمل يديه" كما ورد في المزمور. من أجل هذا كله، قال داود النبي أيضاً في المزمور: "قال الجاهل في قلبه: ليس إلـه"! فوصفه بأنه جاهل، حتى لو كان من الفلاسفة، ومهما ادَّعى لنفسه من العلم...

★★ يمكننا أن نقول أيضاً أن عبادة الأصنام كانت لوناً من الجهل بطبيعة اللَّه الكلي المعرفة والقدرة، إذ كيف يمكن أن يعبد الناس وثناً لا يعقل ولا يتكلَّم، وقد صنعوه بأنفسهم من الحجارة أو المعادن؟!

★★ لذلك، من أجل مقاومة الجهل بالدين، أرسل اللَّه - تبارك اسمه - الأنبياء، وأقام المُعلِّمين والمرشدين، لكي ينقلوا الناس من ظلمات الجهل إلى النور. كما أمر الوالدين في كل أسرة أن يُعلِّموا أبناءهم، ويثبِّتوهم في معرفة اللَّه والإيمان به.

وبهذه المناسبة أقول إن بعض الأمهات، إذا أخطأ طفل واحدة منهن، تقول له إنك بذلك "ربنا يزعل منك". وتُكرِّر هذا الكلام في كل خطأ، فينشأ الطفل غاضباً من اللَّه الذي باستمرار يتضايق منه!

★★ ومن أجل التوعية والإرشاد، أوجد اللَّه في أعماق كل إنسان ضميراً يهديه إلى الخير، ويُبَكِّته إذا أخطأ. والضمير السليم هو قاضٍ عادل في أحكامه. ولكن قد يحيطه الضباب في بعض الأمور، فلا يُميِّز أين الصواب وأين الخطأ! لهذا أرسل اللَّه الوحي الإلهي في كتبه المقدسة، لإرشاد الناس عن يقين، حتى لا يخطئوا عن جهل.

★★ إن الجهل له أيضاً تأثيره القوي في الحياة العملية. وسنضرب لذلك بعض الأمثلة:

ومن أهمها جهل البعض بمفهوم الحرية. وظنهم أنه من حق الإنسان أن يفعل ما يريد، دون أن توقفه وصايا اللَّه، ولا قواعد النظام العام، ولا العرف السائد!! وهكذا فإنَّ الـ Liberals (أي المتحررين) في بعض بلاد الغرب يسمحون بزواج المثل Home sexuality باعتبار أن ذلك يدخل في الحرية الشخصية! كما يسمحون أيضاً بحرية المرأة في إجهاض جنينها دون أي قيد أو شرط. كما يسمحون أيضاً - في نطاق الحرية - بأخلاقيات أخرى منحرفة! وكل ذلك يدل على جهل بمفهوم الحرية ونطاقها.

★★ كذلك قد يُخطئ الإنسان عن جهل بمفهوم العظمة، حينما يظن أن العظمة في التعالي والتباهي، وفي أن يأمر وينهي، ويرغم الغير على الخضوع له، وأنَّ العظمة أيضاً هى في المال والمناصب! بينما كل هذه مُجرَّد مظاهر خارجية. أمَّا العظمة الحقيقية فهي الشخصية المتكاملة، المتجملة بالعقل والحكمة وسائر الفضائل...

★★ أيضاً ما أكثر ما يخطئ الإنسان عن جهل بمفهوم السعادة. فالبعض يظنون أن السعادة في اللهو ومتعة الجسد، وفي الجاه والغنى. فينهمكون في اللذة الزائفة. وفيما يظنون أنهم يسعدون أنفسهم، فعلى العكس يهلكونها عن جهل.

★★ وهناك أيضاً مَن يخسرون حياتهم الزوجية، لجهلهم بحقوق كل زوج تجاه الآخر، وبطبيعة الحياة الأسرية وطريقة حل مشاكلها.

★★ وأخيراً، يوجد مَن يُضيِّع نفسه، لجهله بحقيقة نفسه وما يلزمها هنا وفي الأبدية. لذلك صدق ذلك الحكيم الذي قال: " اعرف نفسك ".

١٢ أكتوبر ٢٠٠٨

الضرر في
سوء الاستخدام

هناك عطايا كثيرة وهبنا اللَّه إيَّاها، ويمكن أن نستخدمها في الخير. ولكننا إذا أسأنا استخدامها، تكون النتيجة ضرراً لنا ولغيرنا. فالضرر إذن ليس فيها، إنما في سوء الاستخدام.

★★ فالمال مثلاً يمكن أن يكون منه الخير أو الضرر، حسب استخدامه.

يمكن استخدامه في الخير عن طريق العطف على المحتاجين، والقيام بمشروعات نافعة للمجتمع، وفي الإصلاحات العامة، وفي تقوية اقتصاد البلاد، ومساندة الجمعيات الخيرية، ومساعدة العجزة والأيتام والأرامل ... وما إلى ذلك. ولهذا نقرأ عن كثير من القديسين كانوا أغنياء، وجعلوا الفقراء شركاء في أموالهم...

ولكن سوء استخدام المال يصبح شراً، إذا ما أُستخدم المال في الاحتكار، والتلاعب بالبورصة والأسواق، وفي الملاذ الخاطئة، وفي شراء الذمم بالمال، أو الوصول إلى السُّلطة عن طريق المال. وكذلك إن تم تقييم الناس بحسب أموالهم، كما قال أحد الشعراء:

إن قلّ مالي فلا خِلّ يصاحبني ... إن زاد مالي فكل الناس خلاني
فكم عدوٍ لأجل المال صادقني ... وكم صديق لفقد المال عاداني

وأيضاً من الضرر محبة المال، ومحبة اكتنازه كما لو كان صنماً. والاتكال الكُلّي على المال والاعتماد عليه في الوصول لأي غرض. أو أن يصير المال سبباً في التعالي والكبرياء، وسبباً في فرض السُّلطة. كل هذا بسبب سوء استخدامه...

★★ نقطة أخرى وهى الحُب:

لا شكّ أنَّ الحُب فضيلة كبرى، إذا ما أُستخدم في محبة اللَّه، ومحبة الخير، ومحبة الناس جميعاً، ومحبة السماء والملائكة، ومحبة المثاليات ... وبهذا المفهوم يكون مَن الخطأ أننا لا نحب...

ولكن اسم الحُب قد يساء استخدامه، إذا ما أُطلِقَ على الشهوة والجنس. وإذا ما صار حب فتى لفتاة سبباً في ضياع عفَّتها، وضياع سمعتها ومستقبلها، وشغل عقلها بعواطف مؤقتة تؤدي إلى عدم نجاحها في حياتها...

وأيضاً يُصبح الحب ضرراً، إذا ما أُستخدم في الأنانية، وأحب الإنسان ذاته محبة خاطئة تقوده إلى الإضرار بمَن يعتبره منافساً له في المركز، أو في المال، أو في الظهور، أو في محبة امرأة. هنا تكون محبة الذات هي الخطأ، ويكون إنكار الذات هو الفضيلة...

كذلك هناك نوع من الحُبّ يُسبِّب ضرراً، إذا ما أحبَّ شخص المادة، وأصبحت هي كل ما يشغله وما يسعى إليه. وبهذا يخلو قلبه من محبة اللَّه والناس...

★★ الفن أيضاً يمكن استخدامه في الخير أو في الشر.

ونقصد بالفن فروعه في الموسيقى والغناء، والشِّعر، والرسم والنحت، والتمثيل في المسرح أو السينما، وسائر الفنون الأخرى. ولا شكّ أن الفن موهبة.

لقد كان داود النبي شاعراً وموسيقياً. كان ينظم كثيراً من مزاميره شِعراً، ويغنيها على المزمار. كما كان يُحسن الضرب على العود والقيثار وعلى العشرة الأوتار. وكان ميشيل أنجلو رساماً اشتهر بأيقوناته الرائعة ... وما أعظم النحَّاتين إلى صارت تماثيلهم تُعرض في أرقى الميادين تعيد إلى الناس ذكريات أعاظم الرجال... وكان بتهوفن وباخ من أعظم الموسيقيين تأثيراً في المشاعر. كما كان شكسبير من أشهر الشعراء ومؤلفي التمثيليات. ويعوزني الوقت إن تحدّثت عن التمثيليات النافعة التي تحكي قصصاً من أحداث التاريخ النافعة، وذكريات الشهداء والأبطال...

ولكن الفن - للأسف الشديد - قد يستخدمه البعض في الإثارة الجنسية مثل الصور العارية، والأغاني الماجنة، والتمثيليات التي تقود إلى مشاعر خاطئة، والشِّعر الذي يُستخدم في الهجاء والغزل والخمر. كل ذلك لا يعيب الفن. إنما العيب هو في الاستخدام الخاطئ...

★★ ننتقل إلى الكلام عن العقل:

فالعقل موهبة عظيمة من اللَّه للإنسان، ميَّزه عن سائر المخلوقات الحيَّة التي على الأرض. وجعل من عناصر العقل: الفهم والاستنتاج والبديهة والذاكرة والذكاء. وبالعقل السليم يمكن أن يكون الإنسان ناجحاً، وحكيماً في تصرفاته، ونافعاً للمُجتمع الذي يعيش فيه، ومنتجاً.

غير أن العقل يمكن أن يُساء استخدامه، ويصبح أداة في أيدي الأشرار والمجرمين، يدبِّرون به المؤامرين، ويحيكون به الحيل الخبيثة، والدجل والشعوذة. والمعروف أنه وراء كل جريمة عقل يُدبِّرها، ويحاول أن يخفي معالمها. كما أن العقل قد يدخل في الأمور الاقتصادية فيقلب موازينها. كما يدخل أيضاً في الحروب، فيُساعد على إهلاك الملايين.

وأكبر مَثَل لاستخدام العقل في الشر: الشيطان. فهو بحيله وأفكاره، أهلك الملايين في طُرق الرذيلة التي يوحي بها...

★★ وفي مجال العقل، نتحدَّث أيضاً عن نقطتين، وهما الخيال وبعض المخترعات، وكلاهما من نتاج العقل.

★ فالخيال موهبة، يمكن أن يُستخدم في الخير. ويساعد في نظم الشعر، وتأليف القصص والروايات النافعة، كما يساعد على التأمُّل، ويسرح به العقل في السماء والملائكة والأبدية... غير أن الخيال يمكن أن يستخدم أيضاً في الشر. كما يتخيَّل البعض قصصاً ينتقمون بها لأنفسهم، أو يرتكبون بها شهوات يريدونها. أو يدخلون بها في أحلام اليقظة. ونلاحظ أن كثيراً من المجانين شطح بهم الخيال، فتخيَّلوا أنفسهم ما ليس لهم!

★ كذلك المخترعات هى بركة من العقل للبشرية، ولكنها يمكن أن تستخدم في الخير. فالذرة والمفاعل النووية يمكن استخدامها في أمور سلمية نافعة. ويمكن بسوء استخدامها في الحروب تؤدي إلى التدمير الخطير كما حدث مع هيروشيما ... إذن هى ليست شراً في ذاتها، إنما في سوء استخدامها. ونفس الوضع نقوله عن العديد من إنتاج التكنولوجيا الحديثة...

★★ الغريزة أيضاً ليست شرًّا في ذاتها، وإلاَّ ما كان اللَّه قد خلقها فينا. وذلك إذا استخدمت في مجالها الطبيعي.

فالغريزة الجنسية لازمة لبقاء الجنس البشري عن طريق الزواج. أمَّا إذا أُسيء استخدامها في الزنا والنجاسة، فحينئذ تصير شراً، ليس في ذاتها، إنما بسوء استخدامها.

وكذلك الغضب يعتبر خيراً، إن أنتج الشجاعة والنخوة والشهامة والدفاع عن الحق، وإن كان بطُرق سليمة، أمَّا إذا ما أُسيء استخدامه، فإنه يتحوَّل إلى شر منفر.

★ أخيراً يمكن تطبيق هذا المنهج في أمور كثيرة.

١٩ أكتوبر ٢٠٠٨

شروط وتكوين
الأسرة السعيدة

ليس الزواج مُجرَّد علاقة اجتماعية أو عاطفية بين رجل وامرأة، وإنما هو أيضاً مسئولية ... إنه تكوين أسرة ورعاية لأطفال، يُربون في خوف اللَّـه، وينشئون تنشئة صالحة، لتكوين مُجتمع صالح ووطن متماسك. فهو إذن أمانة توضع في أيدي الأزواج والزوجات لإعداد الجيل المقبل.

★★ لذلك ينبغي أن يكون سن الزواج هو سن النضوج. ليس فقط النضوج الجنسي، وإنما أيضاً النضوج الفكري والاجتماعي، وسن القدرة على تحمل المسئوليات.

فهذان الخطيبان سيصيران بعد زواجهما أبوين لطفل أو أطفال، يتحمَّلان مسئولية تربيتهم. فيجب أن يكونا في سن النضوج الذي يسمح بتحمل مسئولية تربية الأطفال ... كما ستكون لهما أعباء اجتماعية، ومسئوليات عائلية ومالية واجتماعية، يلزمهما الدراية بتصريف أمورها.

★★ إن النضوج هو الذي يساعد على حُسن الاختيار قبل الزواج، وعلى استمرار الحياة الزوجية هادئة سليمة، والتغلب على ما يعترضها من مشاكل .. والنضوج هو الذي يساعد كلا من الزوجين على تحمل مسئولياته بنفسه، دون الحاجة إلى استشارة والديه، والسير حسب توجيهاتهما، وما يتبع ذلك أحياناً من مشاكل عائلية نتيجة لتدخل الصهر أو الحماة في شئون العائلة الجديدة الصغيرة.

★★ إن السن الصغيرة في الزواج هى عرضة للتقلب وسرعة الانفعال، وعرضة للتصرفات الطائشة. وما أكثر ما تشتد فيها الخلافات الزوجية. إنها سن تحتاج إلى رعاية، وليست سناً تقدر على تحمل المسئوليات، وعلى تدبير شئون الأسرة بروح الأبوة أو الأمومة، وعلى تفهم الحياة الجديدة، وتفهم العلاقات مع الأولاد ومع العائلات المجاورة ومع الأقارب.

★★ والأسرة المثالية ينبغي أن تُبنَى على أساس من التوافق. وكما يقول البعض إن الزواج عبارة عن نصف يبحث عن نصفه الآخر. فالزوجان وهما يعيشان معاً في بيت واحد، وفي حياة مشتركة طول العمر، ينبغي أن يكون التوافق بينهما تاماً. إنهما مثل جوادين يجران عربة واحدة، ولا يمكنهما ذلك إلاَّ إذا كان سيرهما في اتجاه واحد، وبسرعة واحدة، وبقوة متكافئة. يسيران معاً، ويقفان معاً، ويتجهان نحو هدف واحد، ولا يضغط أحدهما على غيره. وقديماً قال المثل: "من شروط المرافقة الموافقة".

★★ ينبغي أن يوجد بينهما توافق في الفهم الديني، وفي الفكر وفي المبادئ والتقاليد، وفي طريقة الحياة ... لأنه كيف يمكن أن يرتبط الاثنان بحياة واحدة إن لم يوجد هذا التوافق؟! وكيف يسلك الاثنان في المجتمع، وبل وفي محيط الأسرة، إن كان كل منهما له طريقه وله طريقته؟! كما أن الاختلاف بين الزوجين يكون له تأثيره على الأولاد. إذ يحتار الابن في أي طريق يسلك، وبأيَّة مثالية يقتضي، وأمامه متناقضات في حياة أبويه!!

★★ وينبغي أن يوجد توافق في الطباع أيضاً، إذ كيف يمكن أن يعيش طرف جاد جداً، مع طرف مرح جداً؟! أو كيف يعيش شخص مُدقِّق جداً، مع آخر في منتهى التساهل والتسامح والتهاون؟! وكيف يعيشان معاً إن كان أحدهما يميل إلى الهدوء الشديد، والآخر يميل إلى اللهو والصخب وكثرة الكلام؟! والمفروض أن يكون الاثنان واحداً على قدر الإمكان.

★★ وهنا نعرض لموقف الوالدين في خطبة ابنتهما أو ابنهما ... إن وظيفة الوالدين تكمن في العرض وفي الإرشاد. ولا يمكن أن تصل إلى الفرض أو الإرغام. من حقهما أن يرفضا زوجاً لا يجدانه مناسباً. ولكن ليس من حقهما أن يفرضا آخر. وحتى في الرفض، ينبغي أن يكون ذلك سبباً على أسس سليمة وأسباب تستحق ذلك. وليس لهما أن يغيظوا أولادهم لئلا يفشلوا...

★★ بعض الآباء يفرضون خطيباً عن طريق العنف والسيطرة، أو عن طريق الحزن والغضب والمرض، وإرغام الابن أو الابنة على القبول حرصاً على صحة أحد الوالدين (كأن يُقال للابن: أبوك سيُصاب بالسكر أو أمك ستُصاب بالضغط أو ستقضي على أحد والديك برفضك). أو قد يفرض الأبوان خطيباً على ابنتهما عن طريق الشك في

أخلاقها إذ يقولان لها: إن رفضك للخطيب الحالي يدل على علاقتك بشخص آخر! ... أو قد يفرضان شخصاً عن طريق الإلحاح المستمر، ورفض باقي العروض. أو قد يفرض الأبوان أحد أقربائهما أو أصدقائهما أو شخصاً ثرياً أو له وظيفة مرموقة.

ولكن فليتذكَّر الأبوان أنهما لا يختاران ما يناسبهما هما، وإنما ما يناسب الابن أو الابنة. فالزواج هو حياة الذي سيتزوج، وليس حياة أحد الأبوين الذي يختار. وكل أنواع الفرض لا يمكن أن تُنتج زواجاً ناجحاً. فالزواج الناجح هو الذي يُبنَى على التوافق والرضا والحُب.

★★ على أنه على الخطيبين أن يعرفا أن فترة الخطبة هى فترة تعارف، وفترة ود وصداقة، وفترة إعداد للزواج، ومن الخطأ أن يفهم البعض أن الإعداد للزواج هو مُجرَّد الإعداد المادي، من حيث تجهيز الأثاثات، والبيت المناسب، والملابس. أو يدخل في هذا الإعداد اتفاقات مالية وانشغالات تلهيهم عن عنصر التوافق. بينما الإعداد السليم للزواج في فترة الخطبة هو إعداد الخطيبين لكي يصيرا فكراً واحداً، وقلباً واحداً واتجاهاً واحداً. ولا يمكن أن يتم ذلك إلاَّ إذا كانت فترة الخطبة يتعارف فيها كل من الخطيبين على الآخر، ويفهمه ويتفاهم معه، ويتأكد من توافق طبعيهما. فيجب على كل من الخطيبين أن يكون مفتوح العينين، ذكياً، مدركاً لأهمية معرفة مَن سيشاركه الحياة كلها.

★★ وفترة الخطبة ليست فترة تمثيل، يحاول فيها كل من الخطيبين أن يبدو أمام الآخر في صورة مثالية غير حقيقتها، سرعان ما تنكشف بعد الزواج، وتبدو الخدعة، فيتصدَّع الزواج.

★★ وفترة الخطبة ليست فترة عواطف سطحية تلهيهما عن معرفة جوهر كل منهما. كما أن هذه العواطف ينبغي أن تكون لها حدود لا تتجاوزها. فالخطيبة التي تبيح لخطيبها أن ينال منها ما لا يجوز له، يحدث أحياناً أنه يفقد الثقة في عفتها بعد الزواج. وقد يؤول الأمر إلى فسخ الخطوبة وينتهي كل شيء. فلتكن إذن حريصة جداً، وتدرك الفارق العظيم بين الحب والشهوة.

٢٦ أكتوبر ٢٠٠٨

عناصر التعامل
داخل الأسرة

هناك عناصر هامة لازمة للتعامل داخل الأسرة لصيانة الأسرة وسلامتها.

★★ ولعلَّ من أهم هذه العناصر: عنصر الفهم. فيلزم للأبوين أن يفهما نفسية أبنائهما في كل مرحلة من مراحل العمر، وما يناسب كل مرحلة من أسلوب التعامل. فيعرفون مثلاً كيفية معاملة الطفل الخجول، والطفل المشاكس، والطفل العدواني، والطفل الأناني، والطفل العنيد، وطريقة معاملة كل منهم. كذلك على الزوج أن يفهم نفسية المرأة وطباعها. وعلى الزوجة أن تفهم عقلية الرَّجُل ونفسيته وكل منهم يتعامل مع الآخر بما يناسب ذلك الفهم.

★★ والمرأة الحكيمة - لكي تكون زوجة ناجحة - ينبغي أن تُدرك كيف تتعامل مع الرجل. فتحادثه بمعلومات تشبعه، ولكن لا تتعالى عليه بمعلوماتها حتى لا تخدش كبريائه. والمرأة الحكيمة تحفظ لرَجُلِها كرامته ... ويمكنها في مجال الحق أن تقنعه، ولكنها لا تشعره بأنها تقوده! وفي حالة ضيقه تحتمله، ولا تزيده ضيقاً على ضيق، وتحاول أن تخفف عنه على قدر الإمكان. إن كان يناسبه الصمت تصمت، وإن كان يناسبه الضحك تضحكه. وإن كان مستعداً للحوار تحاوره.

★★ إن كانت بين الزوجين مودة وثقة سيصارح كل منهما الآخر بما يتعبه. وإن لم توجد المودة والثقة، يحاول كل منهما أن يوجدها. ويمكن أن يتعاتب الزوجان أحياناً بطريقة موضوعية بعيدة عن الحدَّة. ولا يكون العتاب لأي سبب. فكثرة العتاب تزيل مشاعر الحب، وتزيل أيضاً مشاعر الاحترام. كذلك لا يجوز في العتاب أن كل طرف يحاول أن يثبت خطأ زميله. كما لا يجوز أن يكون العتاب بطريقة جارحة أو بأسلوب يشعره أنه في عتابه قد فقد ثقته وتقديره.

★★ وفي الزواج ليس من الصالح أن كلاً من الزوجين يقيم نفسه رقيباً على تصرفات الطرف الآخر. فيُحاسبه ويُعاتبه، ويشعره بالخطأ أحياناً، ناسياً كل أعمال محبته السابقة، أو مُسيئاً للظن فيه!!

★★ ومن الخطر أن يشعر أحد الزوجين أنه في الزواج قد فقد حريته! وأنه أصبح مُقيَّداً في كل تصرفاته، يحاسبه الطرف الآخر على كل كلمة وكل زيارة، وكل ابتسامة وكل إعجاب بأحد من الناس، مهما كان إعجاباً عادياً بريئاً! وكل ذلك في جو من الشك المُتعب للنفس، وفي محاولة للمراقبة أو السيطرة! ومن الخطر أن يتحوَّل ذلك إلى جو من النكد .. فكثير من الزيجات قد فشلت بسبب النكد.

ومن العناصر اللازمة لهدوء الأسرة عنصر طول البال. فيلزم للأم مثلاً أن تكون مستريحة الأعصاب، ولا تجعل أولادها ضحية لتعبها النفسي أو الجسدي، أو نتيجة لخلاف بينها وبين زوجها أو بين بعض المعارف. فلا يجوز لأبنائها أن يتحملوا اضطراب أعصابها، أو كونها غير قادرة على الاحتمال، أو تعاني ضيق الخلق، أو أنها تكون أحياناً عصبية لا تحتمل كلمة منهم، بل تصيح وتنتهر، وربما تضرب وتؤذي! وقد يلتقط أولادها منها هذا الأسلوب في تعاملهم مع بعضهم البعض! بينما المفروض فيها أن تكون قدوة لهم في كل شيء.

عليها إذن - في وقت غضبها - أن تضع حدوداً للغضب وأسلوبه. فيكون غضبها لسبب لازم يفهمه الأطفال ويأخذون منه درساً. ولا ينحرف الغضب إلى العنف، أو إلى استخدام ألفاظ غير لائقة، أو التهديد بما لا تستطيع تنفيذه!

★★ ومن العناصر اللازمة للتعامل مع الأبناء، عنصر الحنان. فمن النافع للأطفال أن يشبعوا من حنان الوالدين، حتى لا ينحرفوا إلى التماس الحنان من مصدر خارجي لا نضمن سلامته. وحنان الوالدين ينبغي أن يكون بحكمة، فلا يتحوَّل إلى تدليل خاطئ يُسئ إلى تربيتهم، ولا يتيح للأبناء أن يستغلوه في السلوك بلا مبالاة وكأنهم لم يخطئوا! أو أن الأم تدافع عنهم أمام أبيهم من جهة أخطائهم وتبررها، أو تُغطِّي عليها حتى لا يراها!! وهكذا لا يجد الأبناء مَن يربيهم.

★★ والحنان أيضاً يشمل العطاء لِمَا يحتاجه الأبناء. فيعطيهم الآباء ما يحتاجونه دون أن يطلبوا. ولا شك أن هذا يترك في نفوسهم أثراً طيباً، ويبادلون والديهم حباً بحب.

على أن العطاء ينبغي ألاَّ يمتزج بالإسراف والبذخ، وإنما يكون في حدود المعقول. وذلك حتى لا يشب الابن شاعراً بأن كل ما يطلبه واجب التنفيذ، مهما كانت حالة الأسرة لا تسمح بذلك.

★★ من الأمور اللطيفة التي يحبها الأطفال عنصر المرح في البيت. والأبوان المرحان يكسبان محبة أبنائهما. حتى الضيوف والأقرباء الذين يزورون البيت: إن كانوا يتصفون بالمرح، يحبهم الأولاد ويلتفون حولهم، ويسعدهم تكرار زيارتهم. وإن لم يجد الأبناء مرحاً في البيت سيبحثون عنه خارج محيط الأسرة، ولا نضمن أي نوع من المرح سيجدونه وتأثير ذلك عليهم.

على أن المرح في البيت يجب أن يكون منضبطاً، وله حدود وأوصاف. فيعرفون بأي أسلوب يكون المرح، ومع مَن يكون، وإلى أي حد. ويميِّزون بين الفكاهة المقبولة وغير المقبولة، وكيف أن المرح لا يتحوّل إلى التهريج.

★★ من العناصر اللازمة للتعامل داخل الأسرة، عنصر الحكمة: الحكمة في تربية الأولاد. والحكمة في التعامل بين الزوجين، والحكمة في حل المشاكل إن وُجِدت. والحكمة في مقابلة الأخطاء. فهناك أمور تحتاج إلى تدخل جاد، وأمور أخرى يحسن تركها بعض الوقت. حتى لا يأخذ الوالد موقف الشرطي في محيط أسرته.

★★ من العناصر اللازمة لقيام الأسرة وسلامتها، عنصر الاحترام والتقدير: ونقصد أولاً الاحترام المتبادل بين الزوجين وتقدير كل منهما للآخر، وتبادل عبارات المجاملة والشكر التي قد يفقدها الزوجان أحياناً في تعاملهما معاً بحجة رفع الكلفة! ولست أرى إطلاقاً أن رفع الكلفة يمنع الاحترام اللازم. بل أن احترام الزوجين لبعضهما البعض يكون درساً لأبنائهما. والمرأة المثقفة الحكيمة تستطيع أن تُكلم زوجها في أمور يحترم فيها عقلها ومعرفتها. بعكس المرأة التي يأتي زوجها من عمله، فلا تحدثه إلاَّ في أمور تافهة تتعلَّق بعملها في البيت وصلتها بالجيران والأقارب! وإن أراد أن يتكلَّم أو يتناقش في موضوع هام، لا يجد العقلية التي تناسبه أو تشبعه ... على أن عنصر الاحترام ينبغي أن يشمل أيضاً محيط الأبناء والأقارب والأصدقاء.

٢ نوفمبر ٢٠٠٨

تربية الأبناء
بين المصادقة والمعاقبة

علاقة الأبوين بالأبناء ينبغي أن تقوم على دعامتين أساسيتين هُما الحُب والحكمة. والحُب يشمل الحنو والرعاية والعطاء. والحكمة تشمل الفهم السليم في ممارسة كلٍ من عناصر المعاملات مع الأبناء.

★★ ونحن ننصح في تربية الأبناء، أن تبدأ بعلاقة من الصداقة بينهما وبين أبنائهما، بحيث تربطهما بهم مشاعر من المودة، وليس مُجرَّد سُلطة الأعلى على الأدنى...

وفي هذه الصداقة والمودة، توجد الثقة والمصارحة: فيستطيع الابن أن يفتح قلبه لوالديه، ويحدثهما بصراحة عمَّا في داخله. ويكشف مشاكله وحروبه الروحية، دون أن يخشى عقاباً أو توبيخاً أو فقداناً للثقة به. بل يطلب المشورة والإرشاد. ولا مانع من الحوار، لا بلون من المجادلة والكبرياء، بل للتوضيح وبحث كل وجهات النظر معاً...

وفي كشف الابن لأخطائه، يكون واثقاً أن أبويه سوف لا يعايرانه بها، أو يغيران معاملتهما له بسببها...

★★ وبعلاقة المصارحة هذه، وفي جو المصادقة والمودَّة، يثق الابن أن والديه يتصفان بالموضوعية وليس بالانفعال. فهما يسمعان في هدوء كل ما يقوله عن أخطائه ومشاكله، دون أن يثور أيّ منهما أو يتضايق، أو يشتد في لوم الابن أو إيلامه، بل يرشده إلى ما يجب عليه في إقناع. وبهذه المعاملة يمكن للابن أن يقتنع بمحبة والديه وحكمتهما، ولا يخفى عنهما شيئاً، ويتخذهما كمرشدين...

★★ على أن جو المصادقة بين الأبناء والأبوين، لا تمنع احترام الأبناء لهما، سواء من الناحية الدينية التي تأمر بإكرام الوالدين والخضوع لهما، أو من الناحية العملية أيضاً ثقةً بحكمتهما ومحبتهما وحُسن إرشادهما.

★★ وبالرغم من كل ما قلناه عن الصداقة والمودة بين الوالدين وأبنائهما، نقول أيضاً إن بعض أخطاء الأبناء تحتاج إلى عقوبة إن كانت فادحة أو مقصودة، بينما أخطاء أخرى

يكفيها مُجرَّد التنبيه أو التوبيخ، أو إظهار عدم الرضى عنها أو الإرشاد، أو الإنذار بالعقوبة إن تكرر الخطأ..

★★ والعقوبة لازمة أحياناً، لأنَّ كثيرين لا يشعرون بفداحة الخطـأ إن لـم يُعـاقبوا. وبدون العقوبة قد يستمر المخطئ في أخطائه، وقد يصل إلى حد الاستهانة والاستهتار. واللَّه - تبارك اسمه - على الرغم من رحمته ومحبته للبشر، قد عاقب كثيرين، شعوباً وأفـراداً، وأنذر بعقوبات...

★★ وهناك أنواع من العقوبة يستخدمها الآباء والأمهات، فالبعض قد يمنع عن ابنـه شيئاً من المصروف أو الهدايا، أو يمنعه عن بعض الترفيهات أو المشـهيات أو الزيـارات التي يحبها. أو يمنعه عن اللعب، أو عن بعض الصداقات.

على أن بعض الآباء قد يلجأ في العقوبة إلى أسلوب من العنـف وجـرح الشـعور، مثل الضرب والشتيمة! وهذا بلا شك أسلوب غير روحي. وقد يأتي بنتائج عكسية، إن كان منهجاً مستمراً.

★★ على أن البعض قد يستخدم في العقوبة أسلوب المخاصمة أو المقاطعة. فتستمر الأم مثلاً فترة طويلة لا تُكلِّم ابنها ولا تستمع إليه. ولا ترد عليه إن كلَّمهـا، أو تتجاهلـه باستمرار. وفي نفس الوقت تغيظه بمعاملة إخوته بلطف. وقد تطول فتـرة المخاصـمة، ويبدو الموضوع بلا حلّ!

★★ ولا شك أن المخاصمة والمقاطعة لها أضرارها وأخطارها: فهي إجراء سـلبي وليست حلاً لإشكال. ويكون فيها الابن – وبخاصة لو كان صغيراً - في وضع عاجز عن التَّصرُّف، ولا يعرف متى تنتهي هذه المخاصمة؟! وكيف؟ كما أنها لا تُعطي مجالاً للتفاهم أو الحوار. وإن طالت، يزداد الأمر تعقيداً ... ويبدو أن هذه الوسيلة كعقوبـة، لا تصـلح إلاَّ إذا كانت لدقائق أو ساعات يعقبها عتاب...

★★ المهم في العقوبة أن تكون ذات نتيجة طيبة في تقويم الابن، ولا تكون مُجـرَّد تنفيس عن غضب مكبوت، أو إراحة لأعصاب متوترة..

والوالدان الحكيمان لا يهددان، إنما يتصرفان بحكمة تجمع بين الحب والحزم، وبـين العقاب والعلاج. فيكون العقاب هدفه الإصلاح، وليس لمُجرَّد المُجازاة. وبحكمة يُعـرف سبب العقوبة، وهل يصلح؟ ولأي مدى...

★★ وللعقوبة شروط. والشرط الأول منها، أن يعرف الابن أنه قد أخطأ، وأنه يستحق العقوبة.

لذلك ينبغي توضيح الموقف له، وشرح نوعية الخطأ الذي وقع فيه ونتائجه. على أن يقتنع بذلك. لأنه إن لم يدرك أنه قد أخطأ، سيشعر أنه قد وقع تحت ظلم، وأن سُلطة الوالدين تُستخدم بطريقة عشوائية وبدون حق، وهذا الشعور يضره ويتعبه..

★★ يجب إقناعه أيضاً بأن العقوبة نافعة له لتربيته. وعليه أن يتذكَّر أنه فعل ما لا يليق، وربُّما قد أساء إلى سُمعة الأسرة، وقدَّم أمثولة سيئة لإخوته الذين قد يقلدونه في حالة عدم معاقبته.

مع إشعاره أن العقوبة لا تتعارض مع محبة والديه له.

★★ ومن شروط العقوبة أن تكون على قدر الاحتمال: على قدر ما يستحق الخطأ من جهة، وعلى قدر ما يحتمل المخطئ من جهة أخرى. ويُراعى في العقوبة شعور الابن الحساس، والابن الصغير، والابن الصغير الذي قد تصدمه العقوبة، والابن المحتاج إلى حنان لظروف خاصة. ويُراعى أيضاً عامل السن، وعامل الجهل أحياناً...

★★ وتكون العقوبة لوقت محدد تنتهي بعده. لأنَّ بعض الأباء إذا غضبوا مرَّة على أبنائهم، يكون غضباً مستمراً لا يُعرف متى ينتهي؟! وإن منعوا الابن عن شيء، لا يعرف متى ينتهي المنع؟ وهذا خطأ بلا شك. واللَّه نفسه، كان يُعاقب، ثم يعفو ويغفر..

★★ وينبغي أن تكون العقوبة على أساس ثابت من المبادئ والقيم. فلا يعاقب الابن عن شيء من المفروض أن يبتعد عنه، ثم يصرح له بذلك الشيء في وقت آخر!! وهكذا لا يدرك الحكمة في المنع والمنح!

★★ ومن شروط العقوبة أن تكون لوناً من العلاج، وتؤدي إلى ذلك. وأن يفهم الابن بها أنه غير مغضوب عليه. وإنما الغضب هو على الخطأ.

٩ نوفمبر ٢٠٠٨

أيُّ الاثنين؟ أم كلاهما؟

في كثير من الأمور نقف في حيرة. ونسأل هل السبب فيما يحدث يرجع إلى هذا الأمر أم ذاك؟ إلى أيّ الاثنين؟ أم تراه يرجع إلى كليهما معاً إذا اجتمعا؟ ولنضرب أمثلة:

★★ المرأة التي تخفي بعض محاسنها، خوفاً على الرجال من الوقوع في الفتنة: هل هذا الإخفاء راجع إلى إغراء في جمال المرأة؟ أم إلى نقص في مناعة الرجل؟ أقصد إلى شهوة الرجل الذي لا يستطيع أن يصمد أمام جمال المرأة! فيقول لها مع الشاعر:

صوني جمالك عنا إننا بشرٌ   من التراب وهذا الحسن روحاني

(ولو أنني أختلف مع هذا الشاعر. فالشخص الترابي لا يُخشى عليه من الحسن الروحاني، بل من الحِسن الجسداني).

والرجل الطاهر النقي القوي في روحياته، لا يتعب جسدياً من جمال المرأة، بل ينظر إليها في طهر وكأنها ابنته أو أخته أو أمه... فما السبب إذن في إخفاء بعض جمال المرأة؟ أهو الإغراء من جانبها؟ أم هي الشهوة من جهة بعض الرجال الضعفاء في روحياتهم؟ أم ترى السبب يرجع إلى الأمرين معاً؟ إغراء المرأة وشهوة الرجل!!

★★ وفي مجال الإغراء والشهوة، نضرب مثلاً آخر حول المال: هل الرجل الذي يقبل الرشوة ليعطي للآخرين حقاً ليس لهم: هل السبب في سقطته هو إغراء المال؟ أم السبب هو فساد نفسيته التي تحب المال ولو حراماً؟ وتبيح الاستحقاقات ظلماً بانحراف في شئون الإدارة؟ أم السبب يشمل الأمرين معاً: الإغراء من مقدم الرشوة، والفساد من جهة قابلها...

★★ في موضوع المال، نعرض مثالاً آخر: ذلك الغني البخيل، الذي مهمته جمع المال وتكديسه، وعدم إعطاء أحد مهما كان محتاجاً! هل لو بعض المحتاجين سرقوه، ما داموا لم يستطيعوا أن ينالوا المال منه بالحسنى! هل جريمة السرقة هذه تقع تبعتها على البخيل المسروق، أم تقع على المحتاجين السارقين؟ لا شك أن الكل مدانون: الذي سرق

لأنه قد ارتكب جريمة مهما كانت أسبابها. والبخيل الغني لأنه لو كان يحسن على غيره من ماله، لأحبه الناس وما سرقوه...

★★ ندخل في موضوع آخر هو [قضايا الطلاق]. وهنا نسأل ما هو السبب الأساسي لمحاولة الطلاق بين اثنين بدأت حياتهما بالتفاهم والحب؟ هل السبب مثلاً هو سوء معاملة أحدهما للآخر؟ أم السبب هو عدم احتمال هذا الآخر لسوء المعاملة، وبخاصة إذا كانت قد استمرت زمناً طويلاً؟ أم أن الأمرين قد اجتمعا معاً؟ أم هناك أسباب أخرى؟

★★ وهنا نتعرض لموضوع [الغضب]، ومدى المسؤولية بين من يثير ومن يثار. لنفرض أن شخصاً كتب مقالاً مثيراً ضد شخص آخر خرج عن حدود اللياقة والأخلاق. كان بإمكان هذا الشخص أن يسكت ويتجاهله، عملاً بقول الشاعر:

إذا بُليت بشخص لا خَلاق له   فكن كأنك لم تسمع ولم يقلِ

أو كان بإمكانه أن يرد رداً موضوعياً هادئاً بغير انفعال. ولكنه إن ردّ بعنف يثير الطرف الآخر، وبه يصبح مثيراً بعد أن كان مثاراً، ويحتاج هو أيضاً إلى ردّ!! ويتبادل الاثنان الموقف... وحينئذ نسأل من هو الملام؟ هل الأول باعتبار البادئ أظلم؟ أم الثاني لأنه قابل العنف بعنف، والخطيئة بمثلها؟ أم كلاهما مدانان؟

★★ مثال آخر، وهو: من الأكثر مسؤولية: المحرّض أم المنفذ؟ إنسان حرّض على ارتكاب جريمة ما، وأنفق عليها من ماله، وأغرى من نفذها بسعة في الإنفاق عليه إلى أن تم تنفيذ الجريمة... فهل المسؤولية الكبرى تكون على المحرض الذي هو المؤلف والمخرج لهذه الجريمة؟ أم إنها تكون على المنفذ الذي لولاه ما تمت الجريمة؟ طبيعي أن الاثنين كليهما مدانان. ولكن من منهما دينونته أكبر؟!

★★ نتعرض للانحرافات الخلقية. فنذكر أولاً الملاهي وكل ما فيها من إغراءات تدفع إلى الخطأ وتقدم له أمثلة وأنواعاً. وبعض المجلات التي تساهم في هذا المجال، وتعرض صوراً وقصصاً. وسائر الأفلام الخاطئة، وبعض وسائل الإعلام. وما يحويه الإنترنت... ثم يسقط بعض الشباب في خطايا دفعتهم إليها ومهدت لها كل تلك الوسائل السابقة... وهنا نسأل ما حدود المسؤولية في كل ذلك؟ هل نلوم السقوط وحده؟ أم نلوم أيضاً مسبباته؟ أي

الاثنين يوجه إليه اللوم الأكبر؟ الذي يشعل ناراً، أم الذي يحترق بها. بلا شك نلوم المخطئين، وكذلك من أعَدّوا لهم هذه البيئة والمجال وكل تلك الأسباب والمعثرات.

★★ هذا الأمر يجعلنا نذكر ما تشكو منه بعض الأمهات من متاعب تصدر من أبنائهن... هؤلاء الأبناء كانوا عجينة لينة في أيديهن في وقت الطفولة، ويمكن تشكيلها حسبما يرون، بالإضافة إلى الحب الشديد الذي يربط الطفل بأمه... فكيف وصل بهم الأمر إلى حد الإزعاج الذي تشكو منه الأمهات؟ هل السبب هو إهمالهم حينما كبروا وعدم متابعتهم؟ أم هناك أسباب أخرى تدخل فيها السن والبيئة من جهة المدارس والأصدقاء والجو العام؟ أم كل ذلك معاً؟

★★ ننتقل إلى موضوع الحرية التي تتمتع بها بعض الشعوب. هل هى منحه تُعطى لهم من حكامهم ويمكن أن تسحب منهم؟ أم هى دليل على نضوج هذا الشعب، فأصبح مؤهلاً لهذه الحرية، ويستحقها، ولا يمكن أن يُحكم بدونها..، يبدو أن هذا الرأي الأخير صحيحاً. لأنه كما قال أحد كبار رجال السياسة الفرنسيين: "إن الحرية والديمقراطية تنالها الشعوب بحسب نضوجها"...

★★ موضوع آخر هو الخطيئة ما بين إغواء الشيطان وإرادة الإنسان. هل الشيطان مسؤول مسؤولية كاملة عما يقع فيه كل إنسان من خطايا وأخطاء؟ أم الشيطان مهمته هى فقط أن يقترح، والإنسان حرّ أن يقبل أو لا يقبل ما يقترحه عليه الشيطان؟! فإن حدث وسقط الإنسان، فالمسؤولية تكون على الاثنين: الذي أغوى، والذي قبل الإغواء..

★★ أخيراً أريد أن أتكلم عن الموت وخوف الناس منه. هل سبب هذا الخوف هو جهلهم طبيعة الموت وكيفية مفارقة الروح للجسد، والناس يخافون مما يجهلونه. أم السبب هو الخوف من المصير بعد الموت لمن هو غير مستعد له بالتوبة؟ أم السبب هو مفارقة الأحباء والأصدقاء والحياة ذاتها.. أم كل هذه الأسباب مجتمعة معاً؟

١٦ نوفمبر ٢٠٠٨

العنف

العنف مُنفِّر وغير مقبول. وللأسف فإن البشرية قد عرفته وخبرته، حينما حدث أن هابيل البار قام عليه أخوه وقتله. وكان دمه الزكي أوّل دم بشري سُفِكَ على الأرض نتيجة للعنف.

★★ والعنف هو من طباع الوحوش المفترسة التي تخيف، ولم يكن أصلاً من طبع الإنسان. ولمّا انتشر بين البشر كان يمارسه الرجال. أمّا النساء فإن من طبعهن الرقة وليس العنف، وتُستثنى من ذلك بعض الحموات..!

★★ والعنف وُجد أحياناً في بعض مظاهر الطبيعة، وكان مدمراً. ومن أمثلته السيول الخطيرة التي تجرف أمامها بيوتاً ومدناً وتشرّد أهلها. ومن أمثلته أيضاً البراكين والزلازل والعواصف الشديدة جداً التي تهز الأمكنة وتسبب حرائق وبخاصة حيث توجد الغابات.

★★ والعنف على نوعين أساسيين: عنف مادي، وعنف نفسي أو معنوي. أمّا العنف المادي فيشمل الضرب والإيذاء والاعتداء، ويصل أقصاه إلى القتل. وأشر من القتل عنفاً كثير من التعذيب، وهى ضد الإنسانية تماماً، ولكن عرفتها الإمبراطورية الرومانية والثورة الفرنسية أيام روبسبير وأعوانه. وقد رأيت ألواناً منها حينما زرت قصر الرعب في لندن سنة ١٩٦٩م وأنا أسقف...

★★ ومن العنف أيضاً الحروب التي يهلك فيها الآلاف، وبخاصة ما يستخدم فيها من المدافع والصواريخ والأسلحة النووية التي تُبيد مدناً بأسرها أو بعض الأقاليم كما حدث لهورشيما في الحرب الماضية، وكما يحدث في استخدام أنواع من القنابل الفتاكة، وكذلك الغازات السامة ... وفي كل ذلك لا نجد في نفوس المحاربين أي تأثير بهلاك ضحاياهم، بل يفرحون بذلك، ويرون حصاد موتاهم في الحرب نصراً!!

★★ أمّا أنواع العنف النفسي أو المعنوي فهى عديدة ومتنوعة .. فيوجد مثلاً عنف في أسلوب التربية داخل الأسرة من الآباء نحو الأبناء. والتربية العنيفة ليست بالطريقة السليمة المنتجة. وإن حدث أن الابن أطاع عن طريقها، تكون طاعة خارجية لم تغيَّر

القلب الذي يكون بداخله ضيق وتذمر. وقد يصل عنف الوالدين إلى إرغام ابنتهما على زواج لا تقبله، أو قد يؤدي عنفهما في تربيتها إلى هروبها من المنزل، أو أنها تلتمس الرقة والحنو من مصدر خارجي له خطورته. وأيضاً إن العنف في التعامل بين الزوجين ربما يؤدي إلى الطلاق.

★★ هناك عنف أيضاً في حلّ المشكلات. فبدلاً من أن تحل المشكلة في هدوء وفي حكمة، قد يتطور الأمر إلى نزاع وإلى عنف يؤدي إلى صراع، ورُبَّما يصل إلى التقاضي والمحاكم، لأنَّ كل طرف يتشبث بموقفه في عنف، بلا تفاهم!

★★ والإنسان العنيف يستخدم أيضاً ألفاظاً عنيفة. ففي موقفاً ما، بدلاً من أن يُعبِّر عن رأيه أو مشاعره بكلمة رقيقة هادئة، فإنه يستخدم ألفاظاً كرجم الطوب، تسيء إلى غيره أو تجرحه. وبهذه الألفاظ قد يخسر الموقف أو يخسر الناس، بينما يكون الحق في جانبه، ولكن ألفاظه لا تساعده!

يشبه هذا الأمر، مَن يكتب مقالاً، ولا ينتقي الألفاظ المناسبة. ورُبَّما عنف ألفاظه يمكن اعتباره سباً وقذفاً. وقد تعرضه الألفاظ إلى المحاكمة، مهما قال: لست أقصد!

★★ يذكرنا هذا الموضوع بأسلوب النقد. ورُبَّما يوجد كاتب أو خطيب يكون عنيفاً في نقده لا يذكر إلاَّ الأخطاء، أو ما يرى أنها أخطاء، ويشرحها بلون من التجريح أو الإهانة! ويكون هذا غير مقبول منه. بينما نقد أي كتاب أو فكرة، إنما يعني التحليل، فيشمل ذكر النقاط البيضاء التي تستحق المديح. ثم التعرض إلى النقاط الأخرى بطريقة موضوعية، بغير تجريح لشخصية غيره.

فالتجريح لون من العنف، كذلك كل إهانة...

★★ ومثل النقد، يوجد عند البعض عنف في العتاب هذا الذي قال عنه أحد الشعراء:

ودَعْ العتاب فربّ شرٍ ... كان أوله العتابا

يمكن للإنسان أن يُعاتب في محبة وفي رقَّة. أمَّا إذا كان عنيفاً في عتابه، فقد يخسر مَن عاتبه، تجعل مَن يسمعه يتضايق منه مهما كان صديقاً ومحباً.

★★ يوجد عنف أيضاً في الإدارة. فبعض المديرين أو الرؤساء أو الحكام يكونون عنافاً. والعاملون تحت إدارتهم يتعبون منهم، ورُبَّما لا يكونون مخلصين لهم. وما أكثر

ما تحدث التاريخ عن عنف فرعون وأمثاله من حكام دعوهم بالطغاة بسبب عنفهم. وكل هؤلاء حينما كانوا يعاقبون مَن يسيء، كان عقابهم عنيفاً فوق طاقة الاحتمال، وفوق مستوى السبب الداعي إلى العقوبة!

★★ يذكرنا هذا الأمر بعنف بعض أساتذة الجامعات في الامتحانات والتصحيح، من حيث صعوبة الأسئلة وتقدير الدرجات على الإجابة. وفي الامتحان الشفهي - إذا وقع طالب تحت يد واحد منهم - يقول: نجني يارب من هذه الساعة!

★★ يوجد عنف أيضاً في الأحكام والاتهامات. فإن حدث وتحدثت عن غيرك، لا تحكم عليه حكماً عنيفاً دون أن تدرس ظروفه ومبررات موقفه. وفي هذا المجال توجد اتهامات عنيفة للبعض، دون أن يدري مَن يتهمه بحقيقة الوقائع، ودون إثبات لِمَا يقوله ضده. والعجيب أنه يفتخر بما يقوله من اتهامات، ويقول: فلان هذا، أنا سلخته!!

ويدخل أيضاً في هذا المجال العنيف تحقير الغير، أو اتخاذه مادة للتهكم والازدراء، أو الإحراج...

★★ من جهة المرأة - فعلى الرغم من رقتها - قد تستخدم العنف أيضاً. وربَّما يكون ذلك عن طريق الدموع ومداومة البكاء. وكأنها بالدموع ترغم الرجل على الاستجابة لِمَا تطلب! وقد قال أحد الحكماء: " إن المرأة بدموعها قد تكسب كل شيء، وقد تخسر كل شيء ".. على أن قد تلجأ إلى أسلوب آخر في إرغام الرجل على الاستجابة، وهو الإلحاح. وعموماً فإن الضغط والإرغام لونان من العنف المعنوي..

يُضاف إليهما عند البعض أسلوب التهديد ...

★★ أخيراً، أحب في هذا أن أذكر موضوع (الحزم). والحزم لازم في بعض المواقف التي تفشل فيها الطيبة والوداعة والرقة، وبخاصة إذا كان السبب هو الدفاع عن الحق، أو تأديب المخطئين حتى يكونوا عبرة لغيرهم.

ولكن يشترط في هذا الحزم أن يكون بغير قسوة وبغير عنف .. ويمكن للمدبر الحكيم أن يكون حازماً وشديداً، ولا يكون عنيفاً في نفس الوقت.

٢٣ نوفمبر ٢٠٠٨

الشكّ

أحياناً يُحارَب الإنسان بالشكّ، سواء من نحو اللّه جلّ جلاله، أو من نحو الناس، أو يُحاربه شكّ من جهة نفسه ومدى قدرته وثقة الناس به ... والشكّ هو حالة من عدم الإيمان أو من عدم الثقة، ومن عدم وضوح الرؤية.

★★ قد يكون دخول الشكّ إلى الذهن سهلاً، ولكن خروجه يكون صعباً جداً ويترك أثراً مخفياً رُبَّما يظهر بعد حين. أمَّا إذا ثبت الشكّ واستمرّ، فإنه يصير جحيماً للفكر والقلب معاً. وهذا الشكّ قد يتلف الأعصاب، ويدعو إلى الحيرة وكثرة التفكير بلا نتيجة مع عدم القدرة على البتّ في الأمور. وما أسهل أن يتسبب في القلق وعدم النوم.

أمَّا إذا صار الشكّ من طباع الإنسان، أي أن يكون شكاكاً باستمرار، فإنه يتحوّل حينئذ إلى مرض نفسي، وإلى عُقد لها نتائجها.

★★ والشكّ من نحو اللّه - تبارك اسمه - يكون على أنواع: منها الشكّ في وجود اللّه. وقد يكون هذا بسبب كتابات وأفكار الملحدين أو معاشرتهم، والمناقشة في أمور أعلى من مستوى الإنسان. وقد يأتي الشك من قراءة بحوث منحرفة في الفلسفة أو في علاقة العلم والدين، أو في تاريخ الكون ونشأته. وقد يثير ذلك أشخاص على مبدأ (خالف تُعرف)...

★★ وقد لا يكون الشكّ في وجود اللّه، إنما في رعايته ومعونته وحفظه. وذلك إن كثرت المشاكل والضيقات حول شخص، ولم يجد لها حلاً، وصلَّى من أجلها ولم تحدث استجابة لصلواته. وحينئذ يشكّ في معونة اللّه وفي جدوى الصلاة!! ورُبَّما يشك إنسان في مراحم اللّه وغفرانه، وذلك في حالة تأمل هذا الإنسان في كثرة خطاياه وبشاعتها.

★★ ولمقاومة هذا الشكّ، يحسن التأمُّل في صفات اللّه الجميلة، وفي قصص رعايته كما ترويها أحداث التاريخ وسِيَر الأبرار. والثقة بأن اللّه يستجيب الصلاة في الوقت المناسب وبالطريقة التي يرى فيها خير الإنسان ونفعه، وعلينا أن ننتظره بدون قلق. كذلك

يجب البُعد عن أفكار الملحدين، مع الاستفادة من استشارة المتعمقين في العلـوم الدينيـة وذوي الخبرة.

★★ أمَّا عن الشكّ في النفس، فقد يبدأ عند الطفل الذي لا يعرف هل ما يفعله خطـأ أم صواب؟ وهذا يلزمه التوجيه السليم، كما ينفعه المديح والتشجيع بالنسبة إلى كل تصرف حسن يقوم به. كذلك فإن الشكّ في قدرة النفس قد يحدث عند الطلبة: فيشك الواحد منهم في قدرته على النجاح، أو في كفاية الوقت له لاستيعاب دروسه فيحتاج إلى تشجيع.

★★ حتى الكبار أيضاً يحتاجون إلى تشجيع وإلى كلمة طيبة، وإلى رفـع روحهـم المعنوية. وبخاصة إن حاربتهم الشكوك وهم في حالة مرض أو ضيق أو مشكلة أو ضائقة ويشكون هل سيخرجون من تلك الأزمات بسلام؟ أم يدركهم اليأس!

★★ وقد يشكّ الإنسان في ما هو طريق الحياة الذي يسلكه، وبخاصة في المراحـل المصيرية حيث الطريق غير واضح أمامهم: هل يختارون هذا النهج أم غيـره؟ وهكـذا يقعون في التردد والارتباك! وقد يلجأ البعض منهم إلى الاستشارة أو يلجأ إلـى القرعـة، ويستمر في الشكّ! والأمر يحتاج منهم إلى تحديد الهدف والثبات فيه، ومعرفة الوسيلة التي تؤدي إليه...

★★ أمَّا عن الشك في الناس، فقد يحدث أحياناً بين الأصدقاء ومدى إخلاص أحدهم: وينتج هذا عن قلة الثقة أو قلة المحبة. فإن الإنسان إذا أحب شخصاً محبة حقيقيـة، فإنـه لا يشك فيه. وإن أدركه شكّ في ذلك، عليه بالعتاب في جو من الصراحة والمواجهة وفي محبة. وكذلك عدم التأثر بالوشايات، وعدم تصديق كل ما يُقال. فكثيراً ما يكون الاتهـام ظالماً، وغرضه التفريق بين الأصدقاء!

★★ وقد يحدث الشكّ أيضاً بين الأزواج، إذ يشكّ أحدهما في عفة الطرف الآخـر، وفي علاقاته مع الغير ... وقد يلجأ إلى شيء من المراقبة والتضييق، أو يتعـب داخليـاً ويؤثِّر هذا على علاقته الزوجية، وتعيش الأسرة في جو من النكـد، وفـي كثـرة مـن التساؤلات والريبة!

★★ وهناك شكّ قد يحدث في مجموعات من الناس. إذ ربَّما خطأ فردي يُطبق على الكل. مثال ذلك سقطة أحد أفراد أسرة، تجلب الشكّ في كل الأسرة، بينمـا يكـون بـاقي أعضائها من الصالحين جداً!

★★ أمَّا عن أسباب الشكّ فهى كثيرة، منها طبيعة الشخص الذي يشكّ. فقد يكون موسوساً أو شكاكاً، وطريقة تفكيره تؤدي إلى الشكّ. وقد يكون ضيق التفكير ليس أمامه سوى الشكّ! ولو كان واسع الأفق لزال شكّه...!

★★ أو قد يكون إنسان بسيطاً يقبل كل ما يقال له. فيُحدِّثه البعض عن أخطاء صديق له في حقّه، فيصدقهم ويشكّ فيه! أو لبساطته يخدعه الناس من جهة عقيدة أو إيمان ويوقعونه في شكّ. ومن ناحية أخرى قد يكون شخص عميق التفكير ويبحث في أمور أعمق منه، فيقع في الشكّ. وهكذا ما أكثر ما وقع بعض الفلاسفة في شكوك إيمانية، وأوقعوا غيرهم!!

★★ قد تأتي الشكوك أيضاً من حروب الشياطين يوعز بها إلى الناس. والشيطان يعرف كل الشكوك التي مرَّت على البشرية من آلاف السنين، ويمكنه أن يحارب بها كما فعل في القديم. وهو يلقي الشكوك في كل شيء، لكي يُبلبل فكر الإنسان ويُحيِّره.

★★ وقد تأتي الشكوك من البيئة، من الوسط المحيط، من معاشرة الشكاكين، فينتقل الشكّ منهم إلى مَن يختلط بهم. كما أنه بمعاشرة المؤمنين ينتقل الإيمان منهم إلى غيرهم. ومن مصادر الشكّ قراءة الكتب التي تحوي شكوكاً، وأيضاً الشائعات التي تنشر شكوكاً...

★★ ورُبَّما يأتي الشكّ بسبب الوهم. فقد يتوهم البعض مثلاً أن رقم ١٣ وراءه شر. فيشكّ من جهة وجود هذا الرقم في أيام التاريخ وفي غير ذلك. وفي أمريكا يقفز الرقم في المصاعد من ١٢ إلى ١٤ مباشرة، تفادياً للرقم ١٣.

★★ ومن أسباب الشك، انحصار الفكر في سبب واحد!! فقد لا يحضر أحد أصدقائك حفلة تقيمها دفعته إلى ذلك أسباب عديدة. فإن حصرت التحليل في سبب واحد هو إهمال لمشاعرك، حينئذ تشكّ. وإن تأخر زوج عن موعد رجوعه إلى بيته، وحصرت زوجته تفكيرها في سبب واحد، رُبَّما يدخلها الشكّ. كذلك إن حصر موظف عدم ترقيته في سبب واحد، فإنه يشكّ!

٣٠ نوفمبر ٢٠٠٨

قساوة القلب

القساوة مكروهة من الجميع، إلا من القساة أنفسهم. وهى منفّرة، ولها نتائج سيئة عديدة. وهى ضد الرحمة والرأفة والرقة، وضد الوداعة والاتضاع...

★★ ومن مظاهر القساوة: الكلمة القاسية، والنظرة القاسية، والمعاملة القاسية، والعقوبة القاسية، والتوبيخ القاسي، والعقاب القاسي، وغير ذلك. أي أن القلب القاسي يبسط قساوته على كل تصرفاته. وقد تكون قساوته على الجسد أو على النفس أو كليهما، وسنحاول في هذا المقال أن نطرق كل هذه الأمور، كما نبين أسباب القساوة ونتائجها.

★★ غالباً ما تكون القسوة ناتجة من استبداد القوي بالضعيف، والعمل على قهره، في حين لا يستطيع هذا المسكين أن يدافع عن نفسه، أو أن يقاوم بطش القوي! والعجيب أن هؤلاء القساة لا يوبخهم ضميرهم، بل إنهم يعتبرون بطشهم دليلاً على ما يتمتعون به من قدرة وقوة! أو أنه دليل على سلطانهم وسيطرتهم..

★★ وقد تصدر القسوة في محيط الأسرة، من أبٍ يخطئ في فهم أسلوب التربية السليمة، ويظن أن الحزم في تربية أبنائه يعني القسوة عليهم لكي يتأدبوا!! وهكذا يضيّق عليهم في كل شيء، ولا يعطي لشخصياتهم فرصة للنمو، بل على العكس يجعلهم يعيشون في جو من الأوامر والنواهي، وفي لون من الحصر النفسي، مما يجعلهم يكرهون البيت الذي يعيش فيه هذا الأب العنيف القاسي، وقد يهربون من قسوته، ملتمسين صدراً حنوناً وحضناً دافئاً يحتويهم، وربما يقودهم ذلك إلى الضياع أو الضلال..

★★ وربما تحدث هذه القسوة من زوج ضد زوجته، باعتباره رب البيت، وله سلطان على الزوجة، فيهينها ولا يعاملها برفق، ولا يشفق عليها في أي تقصير مهما كان غير مقصود، أو ما يعتبره هو تقصير حسب وجهة نظره... وبهذا الوضع يختفي الحب من بيت الزوجية، وتحل محله السلطة والنفوذ. وقد تتهدد الحياة الزوجية بالتفكك، والزوج

لا يبالي. وكل ما يهمه أن يحتفظ بمركزه كرجل البيت القوي، الذي كل شيء في نطاق قوته وسلطانه!!

★★ في بلاد الغرب - أمريكا مثلاً - إذا قسا الرجل على زوجته أو أولاده، أو إن ضرب أحداً منهم، بإمكانهم أن يطلبوا له البوليس تليفونياً، فيأتي ويقبض عليه ويبيت في الحبس، ويُحقق معه. وفي بلاد الشرق يمكن أن تلجأ الزوجة إلى القضاء وتطالب بالانفصال عن زوجها لسوء معاملاته... غير أن كثيراً من النساء يقبلن القسوة من الزوج في صبر، باعتباره أبو الأولاد، وعائل الأسرة، وسند البيت. ويعرف الزوج هذه الحقيقة ويستمر في قسوته!!

★★ وأحياناً يقسو الأب على أولاده من زوجته الأولى بسبب من زوجته الحالية التي توغر صدره ضدهم، لأنها لا تحبهم. وقد تصدر القسوة منها مباشرة ضد هؤلاء الصغار. ولذلك يكره الأبناء زوجة الأب ويصفونها بالقسوة.

★★ نفس الاستبداد بالضعفاء والقسوة عليهم، يحدث في مجال العمل، من مدير قاسٍ ضد موظفيه أو مرءوسيه. وذلك بحكم سلطانه عليهم، وشعوره بالقدرة على التدخل في مصائرهم. وما أسهل أن يكتب تقارير شديدة ضد بعضهم تسئ إليه، وتُستغل بتهديده بالخصم من مرتبه، بل والفصل من وظيفته. ولهذا ما يشكو هؤلاء الموظفون من رئيسهم القاسي، أو يتملقونه في جبن حرصاً منهم على بقاء مصدر رزقهم! وخوفاً من هذا الإذلال الذي يقاسونه من هذا القاسي، فيهبط مستوى نفسياتهم..

★★ الرجل النبيل أو الروحاني، يحاول باستمرار أن يُخضع نفسه بتداريب من ضبط النفس وبخاصة في حالة الغضب. أما الشخص القاسي فهدفه أن يُخضع غيره له، اعتزازاً منه بقوته، غير مبالٍ بالمثاليات. ومسكين من يقع في يده. لهذا صدق داود النبي حينما قال: "أقع في يد اللَّه، لأن مراحمه واسعة، ولا أقع في يد إنسان"...

★★ القسوة تحدث أحياناً في مجال العقوبة، حينما تكون فوق الاحتمال، وبعدم النظر إلى ظروف المخطئ. وما أكثر ما يحدث بطريق غير مباشر، أن تُصيب العقوبة أسرة المخطئ أيضاً. لأنه هو عائل الأسرة. ومعروف المثل: "أضرب الراعي، فتتشتت الرعية". لذلك يحسُن أن ينظر المجتمع في معاقبة المخطئين إلى الحالة الاجتماعية وليس إلى مجرد الفرد!

★★ القسوة كذلك تأخذ مجالها في "أجور العاملين". فالرجل الثري الذي يملك المصانع والشركات والمشروعات، وكذلك الغني الذي يحتكر السوق، إذا حدث من هذا أو ذاك أنه أعطى العاملين تحت يده أجوراً زهيدة لا تكفي معيشتهم مع غلو الأسعار، فهذه بلا شك قسوة منه، وعدم مبالاة بحاجة الآخرين وعوزهم. هؤلاء مذلتهم تصرخ إلى اللَّه، ويصرخ معها كل المهمّشين في المجتمع الذين لا يجدون رزقاً ولا وظيفة..

★★ إن إذلال الناس قسوة لا يرضاها اللَّه "ومن يسمع صراخ المسكين ولا يستجيب، فأنه يصرخ أحياناً إلى اللَّه ولا يُستجاب". لأنه بالكيل الذي يكيل به للغير، يُكال له أيضاً. فليلتفت القساة إلى أنفسهم، لئلا يأتي الوقت الذي فيه يجازيهم اللَّه حسب أعمالهم.

★★ متى يلين إذاً قلب القاسي ويتخلص من قسوته؟ ومتى يرحم غيره لكي يعامله اللَّه بالرحمة؟ متى يعرف أن الفترة التي يمارس فيها القسوة على الأرض هى فترة محدودة إذا ما قيست بالأبدية غير المحدودة. وفي تبدُّل يشعر بالآم غيره.

★★ حسن أن يعيش الإنسان سعيداً ولكن إن أسعد غيره، فأنه يشعر بسعادة أكثر. فإن كانت في يده سلطة أو ثروة، ليته يستطيع أن يسعد بها الآخرين، فيدعون له أن يبقيه اللَّه وينميه، ويطرح الخير كل الخير فيه..

★★ وإن كانت القسوة سببها السلطة أو محبة السيطرة فإن السلطة لا تدوم، إنما هى اختبار للإنسان كيف يستخدمها؟ هل لاستعباد غيره، أو لإثبات عظمته هو وقدرته على إخضاع الغير؟! حقاً إن في القسوة لوناً من الكبرياء يجب أن يتخلص منه القلب النبيل الحريص على أبديته. كذلك فإن القلب الحساس الذي يشعر بآلام الغير ويشفق عليهم، لا يمكن أن يكون قاسياً في يوم ما، ضد أي أحد.

٧ ديسمبر ٢٠٠٨

الأفكار الشريرة: مصادرها ومقاومتها

الإنسان النقي الطاهر تكون أفكاره نقية طاهرة. فما الموقف إذن إن أتته أحياناً أفكار ليست طاهرة؟

★★ وهنا علينا أن نميز بين حرب الفكر والسقوط بالفكر:

حرب الفكر هى أن يلحّ عليك فكر خاطئ أو فكر شرير، وأنت غير قابل له، وتعمل بكل جهدك وكل قلبك على طرده، ولكنه يبقي بعض الوقت. وبقاؤه ليس بإرادتك، وإنما بضغط الفكر عليك. وفي هذا لا تكون قد أخطأت، بل أن مقاومتك لذلك الفكر تُحسب لك براً... أما السقوط بالفكر، فهو قبولك للفكر الشرير، واستبقاؤك له، وربما اختراعك صوراً جديدة له...

★★ والسقوط بالفكر قد يبدأ برغبة خاطئة في قلبك، أو بشيء مختزن في عقلك الباطن. أو قد يبدأ بأسباب من الخارج تحاول أن تقاومها أولاً، ثم تستسلم لها وتسقط وتتطور في سقوطك. أو قد تسقط في الفكر الخاطئ إلى لحظات وترضى به، ثم تستيقظ لنفسك وتقاومه، ثم تعود فتسقط.

★★ اعرف أنه على قدر ما تقاوم الفكر الشرير، تأخذ سلطاناً عليه، فيهرب منك ولا يجرؤ على الاستمرار في محاربتك.. وأيضاً على قدر ما تستسلم له، يأخذ هو سلطاناً عليك ويجرؤ على محاربتك.. إذن بيدك دفة الحرب وليس بيد الفكر الذي يجس نبضك وعلى حسب حالتك يحدد موقفه منك... إن الفكر الخاطئ يختبر قلبك من الداخل: هل يوجد فيه ما يشبهه، ومعروف أن شبيه الشيء منجذب إليه... فإن كان قلبك من الداخل أميناً جداً، لا يخون خالقه مع الأفكار الشريرة، ولا يفتح لها مدخلاً، ولا يتعامل معها ولا يقبلها، حينئذ تهرب منه الأفكار الشريرة وتخافه الشياطين... أما إن تساهل مع الأفكار، فإنها تجرؤ عليه...

★★ هناك أفكار شريرة تدخل إلى القلب النقي لتساهله معها. وأفكار شريرة تخرج من القلب المنحرف بسبب عدم نقاوته. أي أن هناك أفكار شريرة تـأتي مـن الخـارج، وأخرى تأتي من داخل الإنسان. وعموماً فالأفكار الخاطئة التي تدخل إلى القلب تتحـول إلى انفعالات أو شهوات. وإن خضعت لها الإرادة تتحول إلى عمل..

★★ الأفكار التي تأتي من القلب، يكون مصدرها إما رغبات أو شهوات موجـودة في القلب. أو أنها تصدر عن أمور كثيرة اختُزنت في العقل الباطن من صور أو أخبـار أو أفكار أو قصص. من هذا المخزون في الداخل تخرج الأفكار بسبب أية إثارة. فاحرص إذن على أن يكون المخزون في عقلك الباطن نقياً.

★★ على أن الأفكار التي تخرج من العقل تكون في العادة أقل قوة مـن الأفكـار الأخرى الخارجة من القلب. وذلك لأن التي تصدر عن القلب تكون ممتزجـة بالعاطفـة أو بالشهوة، ولهذا تكون أقوى. وهكذا فإن طرد الأفكار الخارجة من العقل يكون أسـهل. أما إذا تساهل أحد معها واستبقاها، فقد تنتقل إلى القلب وتنفعل بانفعالاتها فتقـوى. لـذلك ينبغي على الإنسان أن يحفظ عقله وقلبه، كما يحفظ الخط الواصل بين العقل والقلب، وقد قال سليمان الحكيم: "فوق كل تحفّظ احفظ قلبك، لأن منه مخارج الحياة".

★★ إن حرب الأفكار إن هاجمتك، وأنت نقي القلب وحار في الروح، تكون حربـاً ضعيفة ويمكنك أن تهرب منها. أما إن حوربت بالفكر الشرير، وأنت فـي حالـة فتـور روحي، أو فقدت اشتياقك إلى حياة البر، فإنها حينئذ تكون حرباً عنيفة، ويكون الهـروب منها صعباً.

★★ وكما تحفظ عقلك لكيلا يدخله فكر يعكر نقاوتك، يجب أيضاً أن تحفظ حواسك. لأن الحواس هى أبواب للفكر. إذاً احفظ نظرك وسمعك وملامسك وبـاقي حواسـك لأن ما تراه وما تسمعه قد لا تستطيع أن تمنع ذهنك من التفكير فيه ومن الانفعال بـه... وإنْ دخل إلى سمعك أو بصرك أو فكرك شيء غير لائق، فلا تجعله يتعمق في داخلك، وليكن مروره عابراً.

★★ إن الأفكار العابرة لا يكون لها تأثير قوي. ولكن إذا تعمقت، فإنها تترسب في العقل الباطن، وتمد جذورها إلى القلب، وقد تصل إلى مرحلة الانفعال...

ونشكر الله الذي منحنا نعمة النسيان التي نطرد بها الأفكار العابرة وما تجمعه الحواس من عثرات. أما الأفكار التي نُدخلها إلى أعماقنا، فإنها تستقر في عقلنا الباطن، وتتصل بالشعور واللاشعور ولا يكون صرفها سهلاً، وقد تكون سبباً في حرب من الأفكار والظنون والأحلام ومصدراً للرغبات والانفعالات وبداية لقصص طويلة...

★★ ولعل البعض يسأل: كيف أُقاوم الأفكار التي تضغط عليَّ أحياناً، وتحاول أن تخضعني لأستسلم لها؟

والجواب هو أن هناك طرقاً عديدة: منها أن تشغل ذهنك بفكر آخر يكون أقوى من الفكر الذي يحاربك، فيحل محله. لأن عقلك لا يستطيع أن يفكر في موضوعين في وقت واحد بنفس العمق. لذلك يُشترط في الفكر الجديد الذي تطرد به الفكر الخاطئ، أن يكون عميقاً، كالتفكير في مشكلة عويصة، أو أمر يهمك جداً ... أما الفكر السطحي، فإنه لا يطرد الأفكار المحاربة لك. بل يستمر الفكران معاً. أحدهما في العمق، والآخر كسرحان!

★★ أو يمكن أن تطرد الفكر بالقراءة كطريقة للإحلال. على أن تكون أيضاً قراءة عميقة تجذبك وتستهويك، ولا تترك مجالاً للفكر الذي يتعبك. أو أن تنشغل بأي عمل. وإن استمر الفكر، حاول أن تتحدث مع غيرك في موضوع هام. لأنه لا يمكن أن تتكلم وتفكر في وقت واحد. كذلك يمكنك أن تعرف سبب الفكر، وتتصرف معه إن استطعت.

★★ هناك وسيلة أخرى، وهى الوقاية من هذا الفكر وأمثاله. وذلك بأن تشغل عقلك باستمرار بما هو مفيد. حتى إذا جاء الشيطان ليحاربك بفكر شرير، يجدك مشغولاً عنه وغير متفرغ له، فيتركك ويمضي. أما ترك أبوابك مفتوحة لعدو الخير، فهذا يساعده على اقتحامها. ويقول المثل: "عقل الكسلان معمل للشيطان".

المهم أنك لا تُعطي مجالاً للفكر الخاطئ أن ينفرد بك، أو أن تنفرد أنت به.

١٤ ديسمبر ٢٠٠٨

نصائح
في المصارحة والعتاب

كنت أعرفه شخصاً حقّانياً يحب الحق ويدافع عنه. وقد جاء في ذات يوم يطلب مشورتي، فقال لي: أنا إنسان صريح أحب الصراحة. ولا أقبل أن أكون بوجهين: أجامل الغير بأحد الوجهين، بينما أكون متضايقاً من أخطائه. لذلك أتكلم مع كل أحد بصراحة. غير أن هذه الصراحة تسبب لي مشاكل مع من أصارحهم برأيي فيهم، أو من أعاتبهم في تصرفاتهم معي. فهم يتعبون ويسببون لي متاعب... فماذا أفعل؟ هل من الحرام أن أتكلم بصراحة سواء في الرأي أو العتاب؟!

★★ فأجبته: الصراحة ليست حراماً. ولكن المهم مع من تكون صراحتك؟ وكيف تكون؟ أي ما هو الأسلوب الذي تتكلم به أثناء صراحتك مع غيرك؟ وهل هو أسلوب لائق أم غير لائق؟ هل هو أسلوب جارح أو قاسٍ؟ وهل يحمل اتهاماً ظالماً ربما بسبب معلومات وصلت إليك وهى غير سليمة؟ وهل أنت في صراحتك تتدخل فيما لا يعنيك، وتتجرأ على ما هو ليس من اختصاصك؟

★ كذلك ينبغي أن تعرف الأسلوب الذي تتكلم به في صراحة مع شخص أكبر منك سناً أو مقاماً أو مركزاً. فلا شك أن الصراحة معه تختلف عن صراحتك مع شخص في مستواك، في نفس سنك ومركزك. وتختلف عن صراحتك مع صديق لك توجد بينك وبينه دالة تسمح بأن تستخدم معه ألفاظاً لا تستطيع أن تستخدمها مع شخص كبير: فمثلاً تستطيع أن تقول لصديقك: "أنت غلطان في هذا الأمر". بينما لا تستطيع أن تقول لأبيك أو عمك، أو لأي شخص له مهابة في نظرك.

★★ والصراحة أيضاً تحتاج إلى مراعاة أدب المخاطبة.

يلزمك في ذلك أن تكون حريصاً على انتقاء الألفاظ، بحيث تستخدم ألفاظاً تصل بها إلى هدفك، دون أن تهين من تكلمه أو تجرحه أو تُسيء إليه، فكل ذلك غير لائق. نقول هذا، لأن هناك أشخاصاً يستخدمون في صراحتهم ألفاظاً تعكر الجو وتلهب الموقف.

ويحاولون أن يخفوا خطأهم هذا تحت اسم الصراحة! ويكونون مدانين، ليس بسبب صراحتهم، وإنما لعدم حرصهم على أدب التخاطب في الصراحة، أو بسبب عدم اللياقة.

★★ كذلك ينبغي أن تكون الصراحة في حكمة، حسب هدف روحي سليم. فما هو الهدف من صراحتك؟ هل هو التوبيخ والإهانة ومجرد النقد؟ أم الهدف هو تبليغ رسالة معينة؟ أم الهدف هو العتاب والتصالح؟ أم هدف آخر؟ فإن كان الهدف سليماً، ينبغي أن تكون الوسيلة الموصلة أيضاً هي سليمة، وتأتي بنتيجة طيبة. لأن مجرد التوبيخ في الصراحة قد يأتي بنتائج سيئة.

★★ مثال ذلك شخص يقول: "أنا صريح أقول للأعور إنه أعور في عينه". فهل يا أخي إن قلت للأعور هذه العبارة، تكون قد خسرته أم ربحته؟ وهل لو عايرته بعبارة "أنت أعور"، تكون صراحتك هذه سبباً في إرجاع البصر إلى عينه العوراء؟! أم هي صراحة لمجرد التجريح والإهانة والإيذاء، بلا أية فائدة تجلبها منها!!

★★ مثل هذا الإنسان (الصريح) يرى في الصراحة إثباتاً لجرأته وشجاعته! فلو كان السبب منها مجرد إثبات الذات، لا تكون فضيلة. بل الصراحة السليمة هي التي هدفها الدفاع عن الحق، دون أن تكون للذات هدف منها. ثم أمامنا سؤال هام وهو: هل لك سلطان التأديب أو التقويم أو الحكم على الغير؟

إذن إن تكلمت بصراحة مع إنسان أكبر منك، فاخلط صراحتك بالأدب والحكمة. وإن كنت صريحاً مع من هو أصغر منك، فلتكن صراحتك ممزوجة بالرقة والهدوء.

★★ ولا شك أن هناك فرقاً بين الصراحة وسلاطة اللسان! وإن كانت الصراحة دفاعاً عن الحق، فاعلم أنه ليس من الحق، أن تستخدم أسلوباً جارحاً لتقنع غيرك بما تراه أنت حقاً. بل إن احترامنا للناس يجعلهم أكثر قبولاً لما نقوله لهم. وهم يقبلون الصراحة التي في أدب وحكمة.

★★ أعود إلى الجزء الثاني من سؤالك وهو عن عتابك مع صديق أخطأ إليك. من حقك طبعاً أن تعاتب بالأسلوب الذي يأتي بنتيجة طيبة. وأيضاً للعتاب قواعد.

★★ أولاً: اعرف طبيعة صديقك: هل من النوع الذي يقبل العتاب أم هو لا يقبلــه؟ ذلك لأن هناك من تعاتبه، فيثور ويحاول أن يبرر نفسه، ويكثر الجدل، ويعتبر أنك تتهمه وتظلمه. وينتهي العتاب بنتيجة أسوأ. وصدق الشاعر الذي قال:

ودَعْ العتابَ فــربّ شــرٍّ ** كــان أوله العتـــابا

أما الصديق الواسع الصدر، المحب، الذي يقبل العتاب بصدر رحب، وبموضعيه دون أن يغضب وينفعل، فهذا يمكنك أن تعاتبه وتصفّي الموقف معه..

★★ ثانياً: الذي تعاتبه، عاتبه فيما بينك وبينه وحدكما، وليس أمام الناس. وذلك لأن البعض لا يقبل العتاب أمام الغير، الذي تحدثه فيه عن أخطائه نحــوك أمــام الآخــرين، فيظهر بذلك في صورة تقلل من شأنه أمامهم. ولذلك يرى أنه لا بد أن يدافع عــن ذاتــه مبرراً نفسه، وربما مظهراً خطأك أنت.

★★ ثالثاً: يجب أن يكون أسلوب عتابك رقيقاً ومقبولاً وفي محبة. بحيث يبــدأ أولاً بذكر محاسن صديقك وفضائله ومواقفه الطيبة معك.. قبل أن تذكر الأخطاء التي تريــد أن تعاتبه عليها. وبهذا تكون قد فرشت مقدمة من الود تجعله مستعداً أن يقبل ما تقوله بعد ذلك.

واحذر أن تعاتب بعنف، وبألفاظ شديدة. أو أن تكون كمن يريد أن ينتقم لنفسه أثنــاء العتاب الذي تحط فيه من قدر صديقك. فهذا لا يقبله منك، وربما يرد عليه بالمثل ويشتعل الموقف.

★★ رابعاً: كن واسع الصدر، ولا تعاتب على كل ما تراه خطأ، صــغيراً كــان أم كبيراً. فهناك بعض الأمور البسيطة التي لا تستحق العتاب، بل تدخل تحت عنوان "المحبة تحتمل كل شيء". وقد قال الشاعر العربي في ذلك:

إذا كنت في كــل الأمور معـــاتباً ** صديقــك لــم تلقَ الذي لا تعاتبــهْ
فعِش واحــداً أو صِل أخــاك فإنــه ** مقــارفُ ذنبٍ مــرةً ومجــانبـــهْ
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ** ظمِئتَ وأي الناس تصفو مشاربهْ؟!

لذلك نصيحتي لك: لا تخسر أصدقائك عن طريق العتاب. وهناك أمور تصدر مــن صديق ولا تعجبك. ولكن خذها بحسن نية. ولا تفكر في أن صديقك قــد أراد أن يُســيء إليك. ربما كانت هفوة، أو زلّة لسان، أو كلمة منه بأسلوب الفكاهة... الخ.

٢١ ديسمبر ٢٠٠٨

كيف تُعالج المشاكل

كل إنسان في الدنيا تقابله أحياناً مشكلات في حياته. ولكن تختلف أساليب الناس في التعامل مع المشاكل، أو في التأثر بها. وذلك تبعاً لنوع نفسية وعقلية كل إنسان، وأيضاً تبعاً لخبرته وظروفه... فهناك أنواع من الناس تحطمهم المشاكل، بينما آخرون ينتصرون عليها. وهناك أساليب خاطئة، وأساليب أخرى سليمة في مواجهة المشكلة. وسنحاول أن نستعرض النوعين:

والبعض قد يهرب من المشكلة. ومع ذلك فالمشكلة لا تهرب منه، ولا بد أن يواجهها ولو بعد حين. فما هى أذن الأساليب المتعددة التي يقابل بها الناس مشاكلهم؟

★★ منها أسلوب النكد والبكاء. وهو أسلوب الطفل الذي يواجه المشكلة بالبكاء. على أن هذا التصرف الطفولي قد يبقى عند البعض حتى بعد أن يكبر، وبخاصة عند كثير من النساء. أي مواجهة المشكلة بالحزن أو البكاء، دون أي حل عملي...

بعض الزوجات يلجأن إلى النكد والبكاء في مواجهة مشاكلهن العائلية، فيخسرن أزواجهن بهذا النكد: يدخل الرجل إلى بيته، فيجد زوجته غارقة في دموعها، وربما لسبب لا يستدعي ذلك، فيحاول حله. ويتكرر البكاء لسبب آخر ولسبب ثالث ... ويصبح البكاء خطة ثابتة في مواجهة كل ما لا يتفق مع هوى الزوجة، مع تأزم نفسي وشكوى وحزن!! مما يجعل الزوج يسأم هذا الوضع، ويهرب من البيت وما فيه من نكد. وتجني المرأة عليه وعلى نفسها بلا نتيجة...

★★ غير أن البعض يلجأ إلى طريقة أخرى وهى الضغط والإلحاح. فقد يكون لدى إنسان رغبة يريد تحقيقها بكافة الطرق، ويجد معارضة لذلك من أب أو أم أو رئيس. فيظل يلح أو يضغط بطريقة يظن أنها توصله أخيراً!!

والإلحاح قد يوصّل إلى مشاعر من السأم والضجر، أو قد يوصّل أحياناً إلى موافقة ليست برضى القلب. والعجيب أن صاحب الرغبة ربما يفرح بهذه الموافقة، ولا يهمه قلب من أعطاها، ولا مرارة نفسه من الضغط عليه!

★★ على أن البعض قد يعمل على حل المشكلة بالعنف. يقع في هذا العنف الأب الذي يحاول أن يعالج أخطاء أبنائه بالعنف، ويقهرهم بالضرب على طاعة أوامره. أو يعامل بالقسوة ابنته ظاناً أنه بالتشديد عليها يحافظ على عفتها، بينما قد يؤدي عنفه إلى هروبها من بيته! وبنفس الأسلوب قد يحاول المدرس أن يستخدم العنف مع تلاميذه ليلزمهم على الهدوء وعدم الفوضى في الفصل، فيتمردون عليه بالأكثر.. إن العنف ربما تكون له ردود فعل تعقد المشكلة ولا تحلها...

★★ وبعض الناس يلجأون إلى الجريمة لحل إشكالاتهم. مثال ذلك اللص الذي يراه أحد أفراد البيت وهو يسرق، فيقتل من يراه. وبهذا يعرض نفسه لعقوبة الإعدام على جريمة القتل، بدلاً من السجن على جريمة السرقة.

مثال آخر: الأب الذي تحمل ابنته سفاحاً. فلكي يمحو عار الأسرة، يقتل هذه الابنة دون أن تُعطى فرصة للتوبة، فيجني عليها، كما يجني على نفسه كقاتل!

★★ هناك من يلجأ إلى حل مشكلته بالحيلة والدهاء. مثل شخص يجد لنفسه منافساً في الترقية، فيدبر له مؤامرة تسئ إلى سمعته أو تؤدي إلى فصله ليزيحه من طريقه...

وإن كان من ينافسه صديقاً له بمستوى أرقى، يخون هذا الصديق ويلفّق له تهماً في الخفاء لكي يتخلص منه! إلا أن الخائن - على الرغم من أن خيانته قد أوصلته إلى غرضه - ولكنه إذا وبخه ضميره بعد ذلك، فإنه لا بد أن يحتقر نفسه. وهو قد يحتمل احتقار الآخرين له. ولكنه لا يستطيع احتمال احتقاره لنفسه، فذلك أكثر إيلاماً له. وهذا مصير كل من يغدر بأحبائه أو أولياء نعمته، إذ يعيش في عذاب.

★★ وهناك من يواجه المشكلة بأعصابه فإذ لا يحتمل، يلجأ إلى الزعيق والصياح، والغضب والنرفزة والصوت العالي الحاد. وقد يستخدم الشتائم والألفاظ الجارحة. وكل ذلك لا يحل مشكلته.

إن الأعصاب الهائجة ربما تكون وسيلة لتخويف الطرف الآخر، ولكنها وسيلة منفرة وغير روحية، وتدل على العجز.

★★ البعض يلجأ في حل مشكلته إلى العقاقير والمسكنات وما أشبه من الأدوية والمهدئات التي غالباً ما تكون لها تأثيرات جانبية ضارة ولو بعد حين. وهي لا تحل

المشكلة، إنما تحاول أن تريح أعصاب صاحبها لفترة ما. وبالمثل من يظن أن يواجه المشكلة بشرب الخمر أو المسكر، أو بالتدخين أو بتعاطي المخدرات!!

★★ على أن هناك خطايا أخرى يحاول أن يواجه بها البعض مشاكلهم. كمن يحاول - إذا انكشف أمره - أن يغطي على ذلك بالكذب والإنكار. فإذا انكشف كذبه، يغطيه بأكاذيب أخرى. أو إن واجهته مشكلة مع بعض أصدقائه أو زملائه، يلجأ إلى المقاطعة والخصام أو يتطور الأمر إلى العداوة. أو يصرّ على رأيه ويلجأ إلى المكابرة والعناد.

★★ هناك نوع من الناس، إذا ضغطت عليهم المشاكل بشدة، يشعرون بصغر النفس في داخلهم، ولا يقدرون على مواجهتها فيدركهم الخوف ويستسلمون للواقع، وليحدث ما يحدث. ولكن ليس هذا حلاً للمشكلة، إنما هو خضوع لها.

كل ما سبق هو طرق خاطئة في مواجهة المشاكل. فما الصحيح؟

★★ أولاً حل المشكلة بحكمة وعقل. ليس بأعصاب متوترة، ولا بالعناد، ولا بنفسية مريضة، ولا بخوف واستسلام، وإنما بحكمة. وربما يعترض البعض بأنه ليس جميع الناس حكماء أو ذوي خبرة.

★★ هنا الحل الثاني وهو اللجوء إلى المشورة، وأخذ رأي العارفين وأصحاب الخبرة. فلا يكتفي الإنسان برأيه ومعرفته، إنما يضيف إليها رأي الكبار ومن مروا بمشاكل من نفس النوع.

★★ كذلك ينفعك في مواجهة المشكلة: الصلاة والصوم. لأن ما يعجز الإنسان عن حلّه، له عند اللّه حلول كثيرة. ونؤمن جميعاً أن اللّه قادر على كل شيء. وكل باب مغلق أمامك، له مفتاح أو عدة مفاتيح عند اللّه الرؤوف الذي يفيض برحمته. والواقع يجب أن نضع اللّه في مقدمة وسائلنا، حتى قبل الحكمة والمشورة أو ممتزجة معهما.

★★ ومع ذلك هناك أمر يصلح في مواجهة المشكلة أحياناً، وهو الصبر، وترك مدى زمنياً للمشكلة لكي تُحل فيها. فلو وضعت في ذهنك أن المشكلة تُحل الآن، ستبقى في قلق الانتظار وفي تعب مستمر. اللّه سيحلها في الوقت المناسب.

★★ عليك إذن بالهدوء في مواجهة المشاكل. لأنه لا يمكنك حل مشكلة وأنت مضطرب أو خائف. إنما الأعصاب الهادئة تُعطي مجالاً للتفكير السليم.

★★ يبقى مع هذا كله العمل الإيجابي الفعال لحل كل مشاكلك.

٢٨ ديسمبر ٢٠٠٨

ما بين الذكاء والحكمة

الذكاء هو طاقة فكرية نابعة من العقل. وتظهر في سرعة الفهم، وقوة أو عُمق الفهم، وسرعة البديهة، والقدرة على الاستنتاج. ومن عناصر الذكاء أيضاً قوة الذاكرة.

أمَّا الحكمة فتتجلَّى في التصرف الحسن. والحكمة الحقيقية هي هبة من اللَّه. وربَّما يكون عند بعض الناس دهاء أو ذكاء يظنونه حكمة. أو تكون عندهم سياسة أو كياسة يظنونها حكمة. بينما تكون الحكمة بعيدة عن هذا كله. ونود هنا أن نميز ما بين الحكمة والذكاء..

★★ الحكمة - ويسمونها أحياناً بالإفراز - لها معنى أوسع كثيراً من الذكاء. بل الذكاء هو مُجرَّد جزء منها. وقد يتمتَّع إنسان بذكاء خارق وعقل ممتاز، ولا يكون حكيماً في تصرفه، إذ توجد عوائق تعطل عقله وذكاءه أثناء التصرف العملي ...

★★ رُبَّما تطغي عليه شهوة مُعيَّنة هي التي تقود تصرفاته، فيخضع لها تماماً، ويتصرَّف بأسلوب بعيد عن الحكمة، على الرغم من ذكائه الذي تكون الشهوة قد عطلته وتولت القيادة بدلاً منه ... أو قد يخضع في تصرفاته لأعصاب تثور وتنفعل. فيتصرَّف بأعصابه وليس بذكائه. ولا يكون تصرفه حكيماً ... أو قد يكون له ذكاء، ولكن تنقصه الخبرة أو المعرفة، ولهذا يكون سلوكه غير حيكم ...

★★ ففي أي شيء إذن تتميز الحكمة عن الذكاء؟ إن الذكاء مصدره العقل، وقد يكون مُجرَّد نشاط فكري سليم. ولكن الحكمة لا تعتمد على العقل وحده. إنما تستفيد أيضاً من الخبرة، ومن الإرشاد على أيدي حكماء، ومن معونة اللَّه نطلبها بالصلاة ليمنحنا حكمة.

والحكمة ليست مُجرَّد معرفة سليمة، أو مُجرَّد فكر صائب، إنما هي تدخل في صميم الحياة العملية، لتعبر عن وجودها بسلوك حسن.

★★ حقاً إن الفكر السليم أو الذكاء، يجوز اختباراً دقيقاً عن التطبيق العملي، فإن نجح يتحوَّل إلى حكمة.

وقد يكون الإنسان ذكياً، ويُفكِّر أفكاراً صائبة. ولكن تنقصه الدقة في التعبير، لنقص معلوماته اللغوية في استخدام كل لفظ بدقة. فيخطئ في التعبير. أمَّا الإنسان الحكيم فإنه يقول ما يقصده، ويقصد ما يقوله.

★★ وهكذا تشمل الحكمة جودة التفكير، ودقة التعبير، وسلامة التدبير. وبهذا نقول إن كل حكيم ذكي، ولكن لا يشترط أن يكون كل ذكي حكيماً.

والحكيم إذا كانت تنقصه المعرفة، فإنه يستعيض عنها بالمشورة وبالقراءة والإطلاع، وبالاستفادة من خبرته وخبرة الآخرين. كما ينتفع أيضاً بأحداث التاريخ، كما قال الشاعر:

ومَن وعى التاريخ في صدره ** أضاف أعماراً إلى عمره

★★ ونظراً لأهمية الخبرة في الوصول إلى الحكمة، فإننا نسمع عبارة (حكمة الشيوخ). والمقصود بها أنهم في مدى عمرهم الطويل، اكتسبوا خبرات كثيرة في الحياة تمنحهم حكمة، بغض النظر عن درجة ذكائهم. وهكذا فإن المشيرين يضيفون إلى عقل الإنسان عقلاً من خلال مشوراتهم. ويضيفون إلى فكره وجهة نظر أخرى ما كان يلتفت إليها لقلة خبرته ومحدودية رؤيته. ولعلهم يمنعونه من الاندفاع في اتجاه معين تكون كل قواه الفكرية مُركَّزة فيه بسبب غرض مُعيَّن في قلبه.

★ إن من معطلات الذكاء: التَّسرُّع، لذلك يتصف الحكماء بالتروي. والحكيم لا يندفع في تصرفاته، إنما يهدئ اقتناعه العقلي حتى يتبصَّر بأسلوب أعمق وأشمل. إن السرعة لا تعطي مجالاً واسعاً للتفكير والبحث والدراسة ومعرفة الرأي الآخَر. كما لا يكون فيها مجال للمشورة ولعرض الأمر على اللّه في الصلاة. وربُّما تحوي السرعة في طياتها لوناً من السطحية. والتصرفات السريعة كثيراً ما تكون تصرفاته هوجاء طائشة ... بينما الحكماء تصرفاتهم متزنة رزينة قد أخذت نصيبها من التفكير والفحص، مهما اتهموها بالبطء ...

★★ ولا ننكر أن بعض الإجراءات تحتاج إلى سرعة. ولكن هناك فرقاً بين السرعة والتَّسرُّع. فالتَّسرُّع هو السرعة الخالية من التعمق والدراسة. ويأخذ التَّسرُّع صفة الخطورة، إذا كان يتعلَّق بأمور مصيرية أو رئيسية وتحتاج إلى حكمة في التَّصرُّف. ويكون التَّسرُّع بلا عذر، إن كانت هناك فرصة للتفكير ولم يكن الوقت ضاغطاً. لذلك فإنني أقول باستمرار: إن الحل السليم ليس هو الحل السريع، وإنما هو الحل المتقن.

★★ قد تكون السرعة من صفات الشباب، إذ لهم حرارة زائدة تريد أن تتم الأمور بسرعة. ولكنهم حينما يدرسون الأمر مع مَن هم أكبر منهم، يمكن أن يقتنعوا بأن السرعة لها مخاطرها، ومن الحكمة التروي ... وقد تكون السرعة طبيعة في بعض الناس غير الحكماء. وأولئك يحتاجون إلى تدريب أنفسهم على التروي وعُمق التفكير...

★★ وكثيراً ما يندم شخص على تصرف سريع قد صدر منه، فأخطأ فيه أو ظلم فيه غيره. مثال ذلك صحفي قد يسرع في نشر خبر ليحصل على سبق صحفي. ثم يتضح أن الخبر غير صحيح. ويفقد هذا الصحفي ثقة الناس في دقة أخباره.

ومثال ذلك أيضاً أب يعاقب ابنه، أو رئيس يعاقب أحد مرءوسيه على أخطاء. ثم يتضح أن الذي عوقب كان بريئاً!

★★ من معطلات الذكاء أيضاً عدم الفهم أو عدم المعرفة. فقد يكون زوج ذكياً جداً، ولكنه يفشل في حياته الزوجية. وأما سبب فشله فهو جهله بنفسية المرأة، فهو يعاملها كما لو كانت بنفس عقليته ونفسيته!! أمَّا الرجل الحكيم فإنه يدرس عقلية المرأة ونفسيتها وظروفها، بحيث يتصرَّف معها حسبما يناسبها. وبالمِثل فإن المرأة الحكيمة تدرس نفسية الرجل وعقليته، وبهذا تتعامل معه بما يريحه، فتربحه.

★★ ونفس الكلام نقوله في معاملة الأطفال: فربَّما إنسان ذكي يطلب من بعض الأطفال أن يجلسوا هادئين لا يتكلَّمون. بينما الحكيم يرى أن سن الأطفال يناسبها الحركة والكلام. فلا يضغط عليهم بما لا يحتملونه ... وهكذا بالنسبة للتعامل مع أي إنسان، يعامله بما يناسبه.

★★ والحكيم - بدارسته عقلية ونفسية مَن يعاملهم - يعرف نوعية المفاتيح التي يدخل بها إلى قلب كل منهم، وينجح في تصرفاته معه. وحتى إن حدث في بعض الأحيان أن تعطل المفتاح الذي يدخل به إلى شخصية إنسان ما، فإنه يزيّت هذا المفتاح ويشحمه ويعود فيفتح باب القلب وينجح.

★★ حقاً إننا نفشل أحياناً، في التعامل مع أشخاص معينين. ويكون السبب ليس لعيب فيهم، بقدر ما يرجع السبب إلى عدم معرفتنا بطريقة التعامل معهم. والحكمة تقتضي أن ندرس بعُمق نوعية هؤلاء الناس وأسلوب التعامل معهم.

٤ يناير ٢٠٠٩

محاربات روحية
من الداخل والخارج

كل إنسان معرض للحروب الروحية لاختبار إرادته، حتى القديسين والأبرار. غير أن أولئك الأبرار كانوا منتصرين في محاربتهم...

والمحاربات الروحية قد تأتي إلى الإنسان من داخل نفسه، أو من الشيطان، أو من العالم، أو من الناس الأعداء الأشرار ...

★★ والمحاربات الداخلية، التي من داخل النفس، من أفكار العقل وشهوات القلب وحركات الجسد، هى أصعب من المحاربات الخارجية، لأنَّ الإنسان يكون فيها عدو نفسه. ولأنه يضعف أمامها، إذ هو يشتهيها ولا يريد مقاومتها. لذلك كانت نقاوة القلب هى أهم شيء في الحياة الروحية. والقلب النقي هو حصن لا يُنال. إنه يشبه بيتاً مبنياً على الصخر، مهما هبَّت عليه الزوابع لا تسقطه ...

★★ وربُّما يكون سبب الحرب الداخلية، اندماج الخطية في الطبع، بحيث يترسَّب في عقل الإنسان وقلبه ما يحاربه. وقد يكون سببها حالة فتور يجوزها الإنسان، أو طبيعة ضعيفة تستسلم للخطأ، أو إهمال الإنسان في ممارسة الوسائط الروحية، فيضعف القلب من الداخل، ويترك الفكر يطيش بلا ضابط ... وربما تبدأ بالتراخي في ضبط الحواس، والحواس هى أبواب يدخل منها الفكر.

والحرب الروحية الداخلية قد تأتي خفيفة أو عنيفة. وحتى إن بدأت خفيفة، فإن تراخي الإنسان لها تسيطر عليه.

ومن المحاربات الداخلية، حرب الأفكار وحرب الشهوات.

★★ أمَّا عن حرب الأفكار، فقد تأتي في اليقظة أو أثناء النوم. والأفكار الخاطئة التي تحارب الإنسان أثناء نومه، ربما تكون مترسبة من أفكار وأخبار وصور النهار، ممَّا كمن في العقل الباطن من شهوات وأفكار، وما جلبته الأذن من حكايات وأخبار، وما قرأه الشخص من قصص، وما رأته العين من صور، بحيث ترسب كل ذلك في ذهنه.

★★ كل هذه تأتي مرَّة أخرى في أحلام أثناء الليل، أو في سرحان أثناء النوم، أو ما يسمونه أحلام اليقظة. ويستمر الإنسان في ذلك، إن كان القلب قابلاً لها. أمَّا إن كان رافضاً لها، فإنها تتوقف، ويصحو هو إلى نفسه.

وإرادة الإنسان ضابط هام للفكر، فهي التي تسمح بدخول الفكر. أمَّا إن دخل خلسةً، فهي التي تسمح باستمراره أو إيقافه. ومن موقف الإرادة تأتي المسئولية...

★★ ومن هنا نرد على السؤال القائل: هل هذه الأفكار إرادية، أم غير إرادية، أم شبه إرادية: أي من النوع الذي هو غير إرادي الآن، ولكنه نابع من إرادة سابقة تسبَّبت فيه؟! فقد يغرس الشيطان في عقل الإنسان يدخل إليه بغير إرادته. وهذا الفكر إن لم تكن عليك مسؤولية في دخوله. فلا شك عليك مسؤولية في قبوله.

★★ إن أردت، يمكنك أن تطرد الفكر ولا تتعامل معه ولا ترحب به. لأنك إن قبلته، تكون خائناً لمحبة اللَّه، ومُقصِّراً في حفظ وصاياه، وفي صيانة قدسية قلبك من الداخل...

★★ وقد يأتيك الفكر الخاطئ في حلم. فإن كنت نقياً تماماً، سوف لا تقبل هذا الفكر في الحلم أيضاً. وإن كنت لم تصل إلى هذا المستوى وقبلته، فستحزن في يقظتك كثيراً لقبوله. وحزنك سيترك أثره العميق في عقلك الباطن، بحيث ترفض كل حلم مماثل في المستقبل، ولو بالتدرج، إلى أن تصل إلى نقاوة عقلك الباطن.

★★ إذن قاوم الفكر الخاطئ بالنهار أثناء يقظتك، لكي تتعود مقاومته حتى بالليل أثناء نومك. وتنغرس هذه المقاومة في أعماق شعورك، ويتعودها عقلك الباطن ... إذن زمام أفكارك في يدك: سواء الأفكار التي تصنعها بنفسك، أو التي ترد إليك من الخارج، من الشيطان أو من الناس. وما أصدق المثل القائل: إن كنت لا تستطيع أن تمنع الطير من أن يحوم حول رأسك، فعلى الأقل تستطيع أن تمنعه من أن يُعشِّش في شعرك...

★★ وإن اشتدت عليك الأفكار بطريقة ضاغطة ومستمرة، فلا تيأس، ولا تقل لا فائدة من المقاومة، وتستسلم للفكر!! فإن اليأس يجعل الإنسان يتراخى مع الفكر، ويفتح له أبوابه الداخلية، ويضعف أمامه ويسقط. أمَّا أنت فحارب الأفكار، واصمد في قتال الأفكار، ولا تجعلها تقودك. إنما اطلب نعمة اللَّه لكي تنقذك، حتى وأنت ساقط. قل له يارب: حتى إن أنا سقطت، فإنني واحد من رعيتك ومن خليقتك، فلا تتركني، بل أنقذني من سقوطي. إنها خطية ضعف، وليست خطية خيانة لك...

★★ وعموماً، الجأ أولاً إلى الوقاية فإنها خير من العلاج. املأ ذهنك إذن بفكر صالح. حتى إذا أتاك الشيطان يوماً بفكر رديء، لا يجدك متفرغاً له، فيبعد عنك. لا تترك عقلك في فراغ، خوفاً من أن يحتك الشيطان ويغرس فيه ما يريد.

ولذلك فالقراءة الروحية مفيدة لك جداً، وكذلك أية قراءة عميقة. فإنها تشغل الذهن وتمنع الأفكار الرديئة عنه...

★★ كُن مستيقظاً باستمرار، ساهراً على نقاوة قلبك، فلا يسرقك الفكر الخاطئ دون أن يحس ... فاطرد الأفكار في بادئ الأمر حينما تكون ضعيفة، وأنت لا تزال قوياً. لأنك إن تركت الأفكار الخاطئة باقية فترة في ذهنك وتثبت أقدامها وتقوى عليك. وتضعف أنت ولا تقوى عليها.

★★ اهتم بالفضيلة الروحية التي يسمونها استحياء الفكر ... إذ يستحي الفكر من أن يخطئ، بينما هو أمام الله الذي يراه ويسمعه في كل مكان وكل وقت.

★★ ابتعد أيضاً عن مسببات الخطأ، عن العثرات التي تجلب لك أفكاراً خاطئة. ابتعد عن كل لقاء ضار، وعن كل معاشرة أو صداقة خاطئة، وعن كل القراءات التي تسبب لك أفكاراً دنسة، وعن كل السماعات والمناظر التي هى مصدر للفكر الخاطئ وما دامت الحواس هى أبواب الفكر، فلتكن حواسك نقية، لكي تجلب لك أفكاراً نقية. أمَّا إن تراخيت مع الحواس، فإنك تحارب نفسك بنفسك.

★★ إن أتعبك الفكر وأنت وحدك، اهرب منه بالحديث مع الناس. لأنه ليس بالإمكان الجمع بين ما يقوله الناس وما يوحي به الفكر الخاطئ. واعلم أن الهروب من فكر الخطية أفضل من محاربته. لأنك حتى لو قاتلت الفكر الخاطئ وانتصرت عليه، يكون قد لوَّث ذهنك ولو إلى لحظات ...

★★ لا تخدع نفسك وتقول: " سأرى كيف يسير الفكر وكيف ينتهي؟ " ولو من باب حُب الاستطلاع. لأنك تعرف تماماً أن هذا الفكر سيضرك، وربُما يُخضعك له.

★★ أيضاً إن الأفكار الخاطئة إذا استمرت، قد تقودك إلى انفعالات وشهوات تكون أخطر لأنها تنتقل من الفكر إلى القلب، ومن الذهن إلى العاطفة.

وحرب الشهوات هذه، أود أن أحدثك عنها في مقال آخر.

٧ يناير ٢٠٠٩

مفاهيم
أعلنها السيد المسيح

أُهنئكم يا إخوتي وأحبائي بعيد الميلاد المجيد، وبدء عام جديد، راجياً لكم في هاتين المناسبتين حياة سعيدة وجديدة، أي أفضل من ذي قبل في كل شيء. كما أرجو للعالم كله سلاماً وتعاوناً، وأن ينجو من هذه الأزمة المالية العالمية التي انتشرت من قارة إلى أخرى، وكانت لها نتائجها السيئة.

★★ وكلنا نُصلي من أجل إخوتنا الفلسطينيين، لكي يكونوا وحدة لها قوتها، ولكي يوقف اللّه العدوان الوحشي على غزة، في قتال غير متكافئ عسكرياً قد سالت فيه دماء الآلاف من الجرحى، ومئات لاقوا مصرعهم من أجل الدفاع عن أرضهم.

إننا نُدين هذا العدوان، ونعلن أنه ليس من الشرف العسكري ضرب الأطفال والنساء والشيوخ الذين ليس في أيديهم سلاح.

إن العدوان على المدنيين لا شيء فيه من الشهامة أو الإنسانية. ولقد كان منظر الجرحى من هؤلاء العزّل يدمي القلب ويشعل المشاعر. وليس لهم سوى اللّه، فلم يسرع لإنقاذهم مجلس الأمن ولا هيئة الأمم المتحدة.

★★ إننا نحب الفلسطينيين. واهتمت بهم مصر منذ سنة ١٩٤٨ أي منذ أكثر من ستين عاماً، وجعلت قضيتهم من أولى قضاياها. وكم من لقاءات عقدها الرئيس مبارك في مصر من أجلهم، وكم من اتصالات لأجل التهدئة، ونزع فتيل النار، مع إرسال المساعدات.

ومن ذا الذي ينكر ما بذلته مصر من مجهودات لأجل الفلسطينيين. ومازالت تسعى سياسياً لعمل ما تستطيعه لأجلهم.

وإننا نُصلي من أجل أن ينتهي احتلال غزة وحصارها، وأن يوقف العدوان، وينتشر السلام في المنطقة، وأن يتحد العرب ويعملوا بسياسة واحدة.

كما نُصلي من أجل إخوتنا في العراق وفي السودان، وأن تنتهي القرصنة الصومالية، وتُبحر السفن في المنطقة سالمة مطمئنة.

★★ هنا وأبدأ أن أكلمكم عن ميلاد السيد المسيح، وما يمكن أن نستفيده من هذا الميلاد الذي صار زاوية في تاريخ العالم. بحيث يقال هذه سنوات ما قبل الميلاد، وسنوات ما بعد الميلاد.

★★ لقد جاء المسيح يقرّب المسافة ما بين السماء والأرض، أو يحوّل الأرض إلى السماء، أو ليجعل مشيئة اللَّه كما هى منفذة في السماء، هكذا تكون على الأرض ... جاء يقرّب ما بين اللَّه والإنسان، أو ينزع حاجز الخوف الذي بين الإنسان واللَّه، مما يجعله يهرب من اللَّه ومن وصاياه!

★★ جاء يعلن أن اللَّه أب للبشر، وكلهم أولاده. لذلك فهو يعلمهم في الصلاة أن يخاطبوا اللَّه قائلين: "أبانا الذي في السمَوات". ويلقبه المسيح لهم بعبارة " أبوكم السماوي". واللَّه - كأب - له كل حنو الأبوة وكل المحبة للبنين. إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم حتى المنتهى. بل أن اللَّه هو الحب المطلق. أو كما تعلّم المسيحية "اللَّه محبة".

★★ اللَّه أحب العالم كله. ونحن - خليقته - نحبه. نعم نحبه، لأنه هو أحبنا قبلاً: أحبنا ونحن مجرد فكرة في عقله الإلهي منذ الأزل، قبل أن نوجد. وبسبب هذا الحب منحنا نعمة الوجود فخلقنا. ومن أجل محبته لنا منحنا العقل والنطق والإرادة، كما منحنا السلطة على باقي المخلوقات التي على الأرض. وبهذا صار الإنسان خليقة اللَّه أو وكيله على أرضه.

★★ والحب متبادل بين اللَّه والبشر. وكل إنسان يجد في اللَّه الصدر الحنون الذي يلجأ إليه في كل مشكلة أو ضيقة. فهو معين من ليس له معين، ورجاء من ليس له رجاء، وميناء الذين في العاصف ... وباستمرار يقول اللَّه للبشر: لا تخافوا، "ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر". "لا أهملكم ولا أترككم، بل إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة منكم باسمي، فهناك أكون في وسطهم". "إن نسيت الأم رضيعها، فأنا لا أنساكم".

★★ علمنا السيد المسيح أيضاً أن اللَّه هو الراعي الصالح، وكلنا من غنم رعيته. وهو الذي قال: "أنا أرعى غنمي وأربضها، وأطلب الضال، وأسترد المطرود، وأجبر

الكسير، وأعصب الجريح". والله في رعايته لنا، يبحث عن الإنسان الخاطئ الذي ضلّ الطريق، ويسعى إليه حتى يرده.

وللرب ألوان في رعايته: ففي هذه الرعاية أرسل إلينا الأنبياء وزودهم بالوحي لتعليمنا وإنارة الطريق أمامنا. ومن عناصر رعايته: الإنقاذ. وهكذا فإن ملائكة الله حالة حول خائفيه وتنجيهم. ومن عناصر رعايته الحفظ. فهو يحفظنا من كل شر ومن كل سوء، يحفظ نفوسنا، ويحفظ دخولنا وخروجنا من الآن وإلى الأبد.

★★ وقد علّمنا السيد المسيح كيف يتعامل الله مع الخطاة. فهو لا يشاء موت الخاطئ، بل أن يرجع ويحيا. وهو يريد أن الجميع يخلصون، وإلى معرفة الحق يرجعون. إنه يشفق على الخطاة، ويدعوهم إلى التوبة. ويقول في ذلك: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى" ونحن نعلم أن الله قد صبر على العالم الوثني، حتى عاد إليه تاركاً عبادة الأصنام وآمن ..

وصبر على الشيوعيين الذين كانوا لا يؤمنون بوجوده، حتى آمنوا بعد سبعين عاماً من الإلحاد. وقد أطال أناته على خطاة كثيرين، حتى تابوا، بل صار بعضهم قديسين.

وعلمنا نحن أيضاً أن نتأنى على الخطاة ولا نحتقرهم، بل قيل لنا: "شجعوا صغار النفوس، اسندوا الضعفاء، تأنوا على الجميع" وهو أيضاً لم يصنع معنا حسب خطايانا، بل حسب رحمته.

★★ وعلمنا السيد المسيح أن الله هو المُخلّص، الذي يخلّص شعبه من خطاياهم، والذي يُخلصنا من الشيطان وكل قُوى الشر. وكانوا قبل ذلك يحسبون أنه مجرد خلاص من أعدائنا ومن جميع مقاومينا، أو هو خلاص من حكم الرومان. ولكن السيد المسيح أراهم أنه خلاص من عقوبة الخطية بالفداء. بل هو أيضاً خلاص من سيطرة الخطية ذاتها ومن أفكارها وشهواتها.

★★ علمنا السيد المسيح أيضاً أن الله عادل ورحيم، وعدله لا ينفصل عن رحمته. فمن جهة عدله، هو يحاسب كل شخص حسب أعماله خيراً كانت أم شراً. ومن رحمته فهو يغفر الخطايا عن طريق التوبة. وبغفرانها بالتوبة يكون عدل الله مملوءاً رحمة، وتكون رحمة الله مملوءة عدلاً. حقاً إنه عادل في رحمته، ورحيم في عدله.

★★ تحدث السيد المسيح كذلك عن ملكوت اللَّه وملكوت السماء. وعلمنا أن نقول للَّه في صلواتنا "ليأتِ ملكوتك". ونقصد بهذا ثلاثة معانٍ: منها ملكوت اللَّه داخلنا، أي ملكوته على أفكارنا وقلوبنا وعواطفنا وحواسنا وكل حياتنا. كما نقصد ملكوت اللَّه على كل الأرض، أي ينتشر الإيمان به في العالم كله.

★★ هذا ما تعلمناه من السيد المسيح عن اللَّه. أمّا من جهتنا فعلّمنا أن تسود المحبة في كل علاقتنا مع الناس. فنحب حتى الأعداء. وبهذا يسود السلام بيننا وبين الجميع.

نسأله أن يسود السلام في العالم كله. كما نسأل أن يحفظ بلادنا ورئيسها حسني مبارك الذي يبذل كل جهده من أجل سلامة وطنه وكل المنطقة. وكل عام وجميعكم بخير.



١١ يناير ٢٠٠٩

أنواع من حروب الفكر

هناك ثلاثة أنواع من الناس تتعبهم الأفكار الخاطئة: أحدهما يسعى هو بنفسه إلى الفكر. وآخر يُعايش الفكر ويستبقيه. والثالث له خيال خصب، يُمكنه أن يؤلِّف قصصاً وروايات حول الفكر الخاطئ. كل هؤلاء: إن كانت أفكارهم تحول حول خطايا معينة، فلا شكَّ أن الأفكار ستتعبهم كثيراً، لأنها لا تجد في داخلهم مقاومة لها.

★★ فالذي يسعى وراء الفكر الخاطئ، هذا لا تأتيه الأفكار وتُتعبه، إنما هو الذي يتعب نفسه بالأفكار. إنه يُفتش عن مصادر الفكر. فيرسل حواسه هنا وهناك، بقصدٍ ونيَّة، لكي تحصل له على مادة تُغذِّي فكره، ويفرح بذلك جداً ويشتهيه. مثاله: النوع المُحب للاستطلاع، الذي يبحث عن أخبار الناس وأسرارهم، وبخاصة ما يسيء إليهم. ويسره أن يتحدَّث في أمثال هذه الموضوعات، ويزيد على ما يسمعه تعليقات واستنتاجات من ذهنه، وحبَّذا لو كانت فضائح وشروراً. وبهذا يكنز في ذهنه صوراً تؤذيه روحياً ... وهكذا يقع في خطايا الفكر وخطايا اللسان أو خطايا القلم إن كان كاتباً. وكل نوع من هذه الخطايا يُغذِّي الآخر ويسببه ...

★★ مثل هذا النوع من الناس، إن جلس مع أحد من أصدقائه أو معارفه، يُبادره على الفور: ماذا عندك من أخبار؟ ما لذي حدث لفلان أو حدث منه؟ ماذا رأيت وماذا سمعت؟ وما رأيك في كل هذا؟ وماذا تعرف أيضاً؟ ويظل مُمسكاً بهذا الصديق يستخرج كل ما عنده، مثل فلاح يحلب بقرة، ولا يترك ضرعها حتى يُخرج كل ما فيه!

★★ إنه بكل هذا، يضر نفسه ويضر غيره بما يعرف من أسرار الناس وما يرويه عنها. وكل شخص يصادفه في الطريق، يحاول أن يصطاد منه خبراً. وإن جلس إلى مائدة يأكل مع غيره، تجول عيناه ليعرف ما الذي يأكله فلان وكميته؟ وما طريقته في الأكل؟ وما الذي يحبه؟ وما الذي لا يقبله؟ وهكذا في باقي الأخبار حتى في صميم الخصوصيات!!

★★ والعجيب في مثل هذا الشخص: إنه إن كان هناك شيء رديء، يتهافت على سمعه. وإن عرف شيئاً حسناً، لا يستقبله بحماس!

إنه يجمع الأخبار والأسرار، وحواسه طائشة. وتسأله ما شأنك بهذا؟ وما لذي تستفيده من معرفة فضائح الناس؟ لا تجد جواباً! إنه مرض. يصبح عادة عنده أو جزءاً من طبعه. إنها عادة حُب الاستطلاع ...

★★ كم من أُناس أضروا أنفسهم وأضروا غيرهم بحُب استطلاع ما لا شأن لهم به، ومحاولة كشف ما هو مستور من خصوصيات الغير. وربما بحيل غير لائقة تشتمل على خطايا أخرى كثيرة ...

ولعلَّ البعض يسأل: ماذا أفعل إن لم أكن أنا مصدر الفكر، بل ضحيته من آخرين؟ أقول لك: ليس من صالحك أن تسمع أي خبر خاطئ. وإن وصل إليك الخبر، لا تُعايشه، ولا تجعله يعيش فيك.

★★ لا تستبقِ الفكر الخاطئ في ذهنك ولا حتى في أُذنيك. وابعد بكل جهدك عن الأشخاص الذين يُسبِّبون لك الفكر. وإن اضطررت إلى الاستماع إليهم بسبب خارج عن إرادتك، فاشغل نفسك أثناء الحديث بموضوع آخر. ولا تأخذ معهم ولا تُعطِ، ولا تُركِّز في كلامهم.

وما سمعته من كلام خاطئ، لا تُعاود التفكير فيه مرة أخرى فإن هذا يُثبته في عقلك الباطن. واعرف أنك إن تهاونت في طرد الأفكار، فقد تلد لك أفكاراً أخرى. لأنه لا يوجد فكر عقيم .. وقد يلد الفكر فكراً آخر من نوعه أو من نوع آخر. وقد يلد انفعالاً أو شهوة، أو مشاعر رديئة سيئة، وقد يلد خطايا يصعب طردها ... ويصبح الفكر الخاطئ أباً لعائلة كبيرة.

★★ إن الفكر الخاطئ يجس نبضك أولاً، ليعرف مدى نقاوة قلبك ومدى استعدادك الداخلي للتفاوض معه. فإن رفضت التعامل معه، يعرف أنك لست من النوع الرخيص السهل الذي يحب ما يعرضه. فيتركك. وإن حاول أن يستمر، يكون ضعيفاً بسبب نقاوتك الداخلية.

★★ إذن اغلق أبواب نفسك أمام الفكر الخاطئ، لأنه لا يستريح حتى يكمل. إن الفكر هو مُجرَّد خادم مُطيع تُرسله الشهوة حتى يُمهِّد الطريق أمامها. ومن الصعب أن

يبقى الفكر مُجرَّد فكر، دون أن يتطوَّر إلى ما هو أخطر، فالفكر يتطوَّر في تنقلاته، من الحواس إلى الذهن، إلى القلب، إلى الإرادة.

★★ فإن استبقيت الفكر في أُذنيك ولو قليلاً، يزحف إلى عقلك. وهنا قد يتناوله الخيال، فيلد منه أبناء كثيرين. وينمو الفكر في داخلك، حتى يصل إلى قلبك، وإلى مشاعرك وعواطفك وغرائزك وشهواتك. وهنا تكون الحرب الفكرية قد وصلت إلى قمتها. لأنه بتداولك مع الفكر، يأخذ سُلطاناً عليك. لأنه اجتاز حصونك ووصل إلى قلبك.

★★ ما أخطر هذه الحالة. لأنه فيها يكون قلبك هو الذي يُحاربك، أو تكون لك حربان: داخلية وخارجية، والداخلية أصعب ... ويكون وصول الفكر إلى قلبك هو أقصى ما يتمناه. وحينئذ تجتمع بناته حولك، وبناته هي شهوات القلب.

★★ فإن سقط القلب في يد الفكر، تسقط بالتالي الإرادة بسهولة، إذ يضغط القلب عليها. إن الإرادة تكون قوية حينما يكون القلب قوياً، وحينما يكون الفكر في الخارج. ولكن إذا ضعف القلب، تضعف الإرادة تلقائياً. وإن لم تفتقدها نعمة اللَّه بقوة من فوق، ما أسهل أن تستسلم، ويسقط الإنسان في خطية عملية. فالحَل السليم إذن هو عدم معايشة الفكر بل طرده.

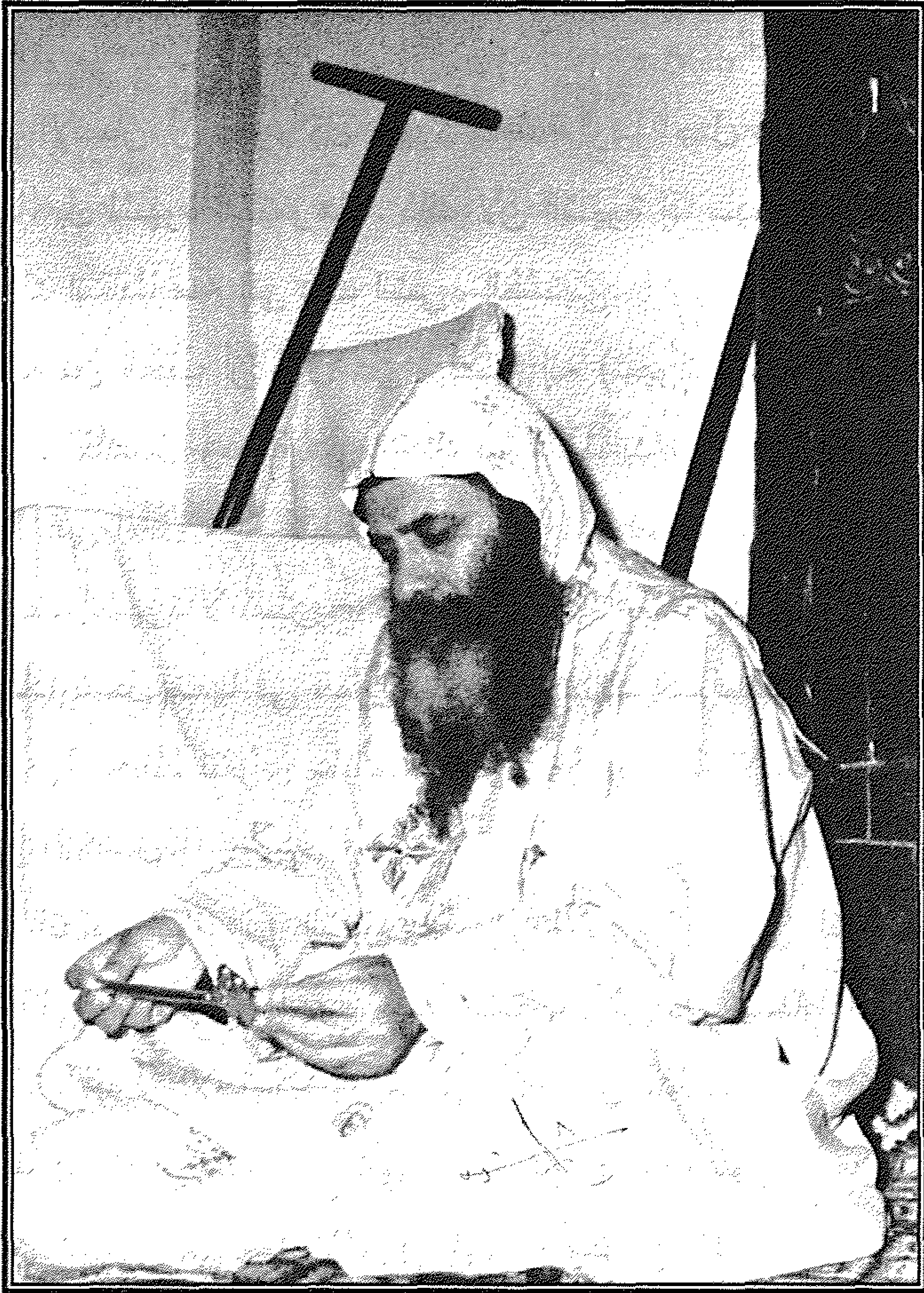
★★ إذا سيطر الفكر على شخص، فليس فقط يقوده إلى السقوط، إنما بالأكثر إلى مرحلة أخطر هي العبودية للفكر ودوام الخضوع له. فما دام الفكر يشعر أن قلب الإنسان قد أصبح في يده، حينئذ يُمكنه أن يستمر معه أياماً أو أسابيع. ويبقى في ذهنه المُستعبد له ...

ويدخل الخيال، فيضيف إليه في كل حين شيئاً جديداً، ويطرد منه كل شيء خيِّر. وإذا بهذا الشخص ينام والفكر في ذهنه، ويصحو والفكر في ذهنه .. ويمشي أو يعمل، والفكر قائم. إنها العبودية للفكر. وقد ييأس هذا الشخص، ويقول: خيرٌ لي أن أُنفِّذ ما يريده فكري، بدلاً من أن أبقى في تعب منه ..!

★★ وإذا نفَّذ ما يُريده الفكر، ووقع في الخطية بالفعل، فإنَّ الخطية تريد أن تتكرَّر وتستمر، حتى تصبح عادة. وبدلاً من العبودية للفكر، يدخل في العبودية لممارسة الخطية ...

★★ الحَل إذن هو علاج المشكلة منذ البدء. وذلك بالبُعد عن كـل مصـادر الفكـر الخاطئ ومسبّباته. علماً بأن فكر الخطية قد لا يبدأ بخطية، لأنه بهذا يكون قد كشف نفسه، فيهرب منه القلب النقي أو يطرده أو يُقاوم بكُل السُبُل.

لذلك يبدأ فكر الخطية بطريقٍ ملتوٍ يؤدّي في النهاية إلى خطية. والإنسـان الحكـيم المختبر يعرف هذه السُبُل ويتحاشاها.



١٨ يناير ٢٠٠٩

حرب الشهوات

الشهوات كثيرة ومتنوعة. منها شهوة الجسد، وشهوة الرئاسة والمناصب، وشهوة الكرامة والعظمة، وشهوة المال، وشهوة الامتلاك أو الاقتناء، وشهوة الشهرة، وشهوة الزينة والجمال، وشهوة السيطرة أو السُلطة، وشهوة الانتقام والتدمير، وشهوة المعرفة وحُب الاستطلاع ...

★★ وعلى الإنسان أن يُقاوم كل شهوة خاطئة. وما أجمل قول الحكيم: " افرحوا لا لشهوة نلتموها، بل لشهوة أذللتموها ". ذلك لأن الشهوة إذا سيطرت على القلب، تكون ملكية اللَّه للقلب قد انتقلت منه إلى ذلك الشيء المُشتهَى.

★★ حقاً إنه من العيب أن يُقال عن شخص إنه (شهواني)، أي أنه يُقاد بشهوته. فإذا اصطدمت بالشهوة، فأفضل وسيلة هى أن تهرب منها، بدلاً من أن تدخل معها في صراع قد تنهزم فيه. أو على الأقل - إذا انتصرت - يكون قلبك قبل ذلك قد تَدنَّس بالشهوة.

★★ ما دامت الشهوة لا تستريح حتى تكمُل، فالأفضل لك هو الهروب منها، والبُعد عن مُسبباتها. لماذا تدخل معها في صراع أو نقاش؟ إنك كُلَّما أعطيتها مكاناً أو تهاونت معها أو اتصلت بها، حينئذ تتقوَّى عليك. وتتحوَّل من مرحلة الاتصال، إلى الانفعال، إلى الاشتعال ... إلى الاكتمال.

فتتدرَّج من التفكير فيها، إلى التَّعلُّق بها، إلى الانقياد لها، إلى التنفيذ، إلى التكرار، إلى الجنون بها، إلى الاستعباد لها. وقد يلجأ الشخص إلى طُرق خاطئة لتحقيق شهواته: إلى الكذب، أو الخداع، أو الاحتيال. وربُّما إلى أكثر من هذا ...

★★ وأحياناً إذا تعب إنسان من شهوة، يقع في خدعة ويقول: " من الأفضل أن أُشبع هذه الشهوة، حتى أقضي على هذا الاشتياق إليها، وأستريح "!!

إنَّ الشهوة لا تَشبع أبداً. فكُلَّما يُمارس الإنسان الشهوة، يجد لذَّة، واللذَّة تدعوه إلى المُمارسة. والقصة لا تنتهي ...

★★ إن إشباع الشهوة لا ينقذ الإنسان منها، بل يزيدها ...

إنسان مثلاً يشتهي المال: نراه كُلَّما يجمع مالاً، يشتاق إلى مال أكثر، ويُحب أن يكثر ماله من الآلاف إلى المليون إلى المليار ...

شاب طموح يشتهي الترقِّي: إن وصل إلى الدرجة الرابعة، يشتاق إلى الثالثة، ثم إلى الثانية فالأولى، فدرجة مدير عام.

والذي يقع في شهوة الجسد، لا يشبع من شهواته ...

أبونا آدم كان له شجر الجنة ما عدا واحدة، فاشتاق إلى هذه الواحدة، حتى أكل منها... وبالوضع مَن وقع في شهوة النساء قد لا يكتفي ...!

★★ صدق سليمان الحكيم حينما قال: " العين لا تشبع من النظر، والأذن لا تمتلئ من السمع.. كل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن ... ".

لا تظن إذن أن إشباعك للشهوة ينقذك منها. لأنه لا ينقذك إلاَّ ضبط النفس والهروب من الشهوة. إن يوسف الصديق لم تكن له شهوة تحاربه من الداخل. ومع ذلك هرب من الشهوة التي تحاربه من الخارج من امرأة تشتهيه ...

★★ مُفيد إذن هو البُعد عن الشهوات، لأنها جذور الخطايا .. فالزنى يبدأ بشهوة الجسد. والسرقة تبدأ بشهوة ما للغير أو بشهوة حُب الاقتناء. والكذب يبدأ بشهوة تبرير الذات أو بشهوة تدبير شيء ما. والقتل يبدأ أحياناً بشهوة الانتقام أو الحسد، أو بشهوة الهروب من الانكشاف بخطية أخرى ...

★★ لذلك إن نجا الإنسان من الشهوة، وانتصر عليها بالهروب منها، يكون قد انتصر على كل الخطايا التي بدايتها الشهوة ... وحقاً إن لذَّة الانتصار على النفس، بضبط النفس من جهة الشهوات، هي أعمق من لذَّة مُمارسة الشهوات ...

★★ ونصيحتي لك، هي أنك إن تعبت من شهواتك، لا تيأس، ولا تظن أنه لا فائدة من المقاومة... بل فكّر فيما تستطيع أن تعمله نعمة اللَّه من أجلك، وليس ما تعجز أنت عن عمله.

إن اللَّه لا يتركك وحدك في جهادك الروحي ضد الشهوات، بل هو يعينك بقوة من عنده تسندك مادمت ترغب في أن تحيا حياة البرّ. وفي ذلك قال أحد الآباء: " إن الفضيلة تريدك أن تريدها لا غير ". فإن أردت الفضيلة، حينئذ تدركك قوة من الأعالي تُساندك حتى تنتصر ...

★★ أمَّا أنت فجاهد بكل إرادتك، وبالصلاة حتى يعينك اللَّـه. ولا تخجل من أن تُصلِّي حتى وأنت ساقط تحت عنف الشهوة. بل تمسَّك باللَّه بالأكثر الذي يُمكنه أن يُنقِّيك ويُطهِّرك ...

قُل له: أنا يارب إن انهزمت أمام الشهوة، فأنا مازلت واحداً من خليقتك ومن رعاياك. أنا واحد من قطيعك الذي ترعاه حتى إن ضللت، فسوف تبحث عني وترجعني إليك. لأنك تريد أن الجميع يخلصون، وأن ينتصروا على شهواتهم ...

أنت يارب لا تتخلَّى عني، وأنا لا أتخلَّى عنك، مهما حاول الشيطان أن يفصلني عنك.. وأنا يارب وإن كنت قد انهزمت حيناً أمام شهواتي، إلاَّ أني لم أتركك في أعماق قلبي، ولن أتركك ...

★★ لا تجعل حروب الشهوة تفصلك عن محبة اللَّه وعن محبة ملائكته وسمائه. وحتى إن ضعفت وسقطت، قُل له في عُمق: "أنت تعرف يارب أنها خطية ضعف، وليست خطية خيانة مني لك، ولو هي خطية بغضة لك، حاشا أن تكون كذلك".

وفي كل ذلك، ثِق أن اللَّه يهتم بإنقاذك من كل شهواتك ومن كل سقوطك وضعفاتك، وسوف يجذبك إليه، ويردك إلى طريقه مهما بعدت بعيداً أو حاولت إغراءات العالم شدك إليها.

★★ وتذكَّر دائماً أولئك الذين انتصروا في حرب الشهوات ضدهم، فإن ذلك يشجعك ويقويك. ولا تضع أمامك ما تعرفه عن ضعفاتك وانهزاماتك، فإنَّ ذلك يغرس اليأس في نفسك. أيضاً تذكَّر الذين سقطوا وقاموا، ونموا في حياة التوبة حتى صاروا من الأبرار، واللَّه - في رحمته - لم يذكر لهم ماضيهم.

★★ ولكي تتخلَّص من قوة الشهوات الخاطئة، حاول أن تجعل شهوة أمور أخرى من صفات البِرّ والفضيلة تحل محلها، وتجد عُمقاً في قلبك، لكي تقيم توازناً بين هذه وتلك في مشاعرك.

وثِق أن الجانب الخيِّر سوف ينمو داخل قلبك شيئاً فشيئاً، حتى تتخلَّص من شهوات الخطية.

وإن عرفت ضعفك، لا تعرّض نفسك لمحاربات الشهوة مرَّة أخرى. بل اهرب من كل مسبباتها، واغلق طرقها الموصلة إليك، واغلق أبواب قلبك أمامها. وليكن اللَّه معك.

٢٥ يناير ٢٠٠٩

حروب الشياطين

من طبيعة الشيطان أن يقاوم البر والأبرار. وحروبه هى اختبار لحرية إرادتنا. فإذا انتصرنا فيها نصبح مستحقين لخيرات السماء وأيضاً تكون لنا مكافآت على الأرض. والشيطان باستمرار يحسد السالكين في الفضيلة، لكي لا ينالوا البركة الإلهية التي حُرم هو منها.

★★ وحروب الشيطان وكل جنوده وأعوانه هى ضد الكل، لم ينجو منها أحد إذ يحاول الشيطان بكل جهده أن يبعد البشرية عن اللَّه. فلا تظنوا أن حروب الشياطين هى للمبتدئين فقط أو للخطاة. كلا فهو يحارب الكل مهما ارتفعوا في حياة البر، بل يحارب الأبرار بالأكثر. لذلك على كل إنسان أن يحترس، ولا يظن أنه قد ارتفع فوق مستوى هذه الحروب. والشيطان دائم الجولان في الأرض لكي يصيد ضحاياه ويبحث عن أية فريسة ليسقطها.

★★ الشيطان لا ييأس مهما كان الذي يحاربه قوياً. فالخطية قد طرحت كثيرين جرحى وكل قتلاها أقوياء. وإن كانت ملائكة السماء تفرح بخاطئ واحد يتوب، فلا شك أن الشياطين تفرح ببار واحد إذا سقط، بل تفرح بسقوط أي أحد يخضع لهم ويصبح من أعوانهم. وهى حروب دائمة، قد تتنوع ولكنها لا تنتهي.

★★ وحروب الشيطان قد تشتد في الأوقات المقدسة، كالصوم مثلاً، والشيطان يتضايق جداً حينما نبدأ في أي عمل روحي. فيسعى بكل الحيل لئلا تفلت الفريسة منه، فنحن نبدأ العمل الروحي وهو يبدأ في المقاومة. لأنه لا يستريح لآية صلة لنا مع اللَّه. كذلك إن بدأ الإنسان بالصلاة الطاهرة العميقة أو التأمل الروحي أو التسبيح، فإن الشيطان لا يقف مكتوف اليدين أو متفرجاً وإنما يعمل هو أيضاً عمله. والعمل الروحي بما فيه خدمة اللَّه يُثير حسد الشياطين، إذ كيف للبشر الذين لهم جسد من تراب تكون لهم حياة مرتبطة باللَّه، بينما الشيطان وهو روح بعيد عن اللَّه وروحه نجسة!

★★ ومحاربات الشيطان قد تكون خفيفة أحياناً أو ثقيلة. فإنسان يحاربه الشيطان بشهوة ما، فإن استجاب لها يكتفي الشيطان بنقطة البدء هذه، ثم يترك هذه الفريسة المسكينة يحاربها فسادها الداخلي أو تحاربها عاداتها الخاطئة أو غرائزها. والإنسان المنتصر في حروب الشياطين على طول الخط، ربما يحاربه الشيطان بالكبرياء، لكي يرتفع قلبه وتتركه النعمة.

★★ وهناك حروب شيطانية عنيفة وفجائية، منها الظهورات المفزعة، أو الرؤى الكاذبة وسائر الضربات الشيطانية. ولكن اللّه لا يسمح لأن تحدث أمثال هذه الحروب لكل أحد. لأنه لا يدعنا نجرب فوق ما نستطيع. ولهذا ننصح الذين يُحاربون بالرؤى والأحلام المضللة، أن يعرفوا أن ليست كل الرؤى والأحلام من اللّه أو من العقل الباطن، فبعضها من الشياطين.

★★ لا ننسى أن الشيطان حارب العالم القديم بالوثنية وعبادة الأصنام، وبعبادة الأرواح وبعض مظاهر الطبيعة مثل عبادة الشمس. كما حاربهم بتعدد الآلهة أيضاً. والبعض حاربه بإنكار وجود اللّه كما حدث في الشيوعية. وأيضاً مع الوجوديين الذين غلبهم أولاً بالشهوات. ثم أقنعهم أن يقولوا: "من الخير أن اللّه لا يوجد لكي نوجد نحن" على اعتبار أن وصايا اللّه تحد من حريتهم.

★★ ومن محاربات الشيطان، حروب الشك، كالشك في رعاية اللّه وخصوصاً إذا صلى شخص وشعر أن صلواته لم تستجب. وحروب الشك في القيامة وفي السماء وفي عقائد كثيرة. فإن أتتك بعض هذه الحروب لا تظن أنك قد ضعت تماماً، إنها محاربات من الشيطان فعليك بالصلاة لكي يُنجيك الرب منها. وقل له في صلاتك: "أنا يارب أعبدك وأؤمن بك، لكن هذه الأفكار غريبة عني وتأتيني من الخارج". كذلك امْتَنِع عن القراءات التي تجلب مثل هذه الأفكار. وثق أن اللّه لا يمنع أمثال هذه الحروب ولكنه يساعدنا لكي ننتصر عليها.

★★ لا تخافوا من الشيطان ومن حروبه. لأننا إن ضعفنا أمامه. نجعل للشيطان كرامة ليست له، ونجعله يتجرأ علينا. بل يجب أن نصمد أمام الشيطان ونقاومه، حينئذ لا يجد له مكاناً فينا فيهرب ويبعد عنا. كذلك لا يليق أن نترك عقولنا في فراغ لئلا يجدها الشيطان فرصة لكي يملأ فراغنا بما يلقيه فيه من أفكار وشهوات.

★★ إن الشيطان قد يحاربنا بحياة اللهو، وحياة الترف، ومحبة المادة أو المال، أو الانقياد إلى ملاذ الجسد وإشباع غرائزه. كل ذلك لكي يمهد قلوبنا وأفكارنا لحروب أشد. ومنها شهوات يلقيها في ذهن الإنسان. وهذه تكون ضعيفة في أولها، لأنها غريبة عليه. وتظل هكذا ضعيفة إلى أن يفتح لها الإنسان باباً تدخل منه إلى قلبه، وإلى مشاعره وهكذا يكون قد أخطأ. بفتح القلب للشيطان وهذه خيانة روحية للَّه، ومحاولة لتحطيم ملكوت اللَّه داخلنا.

★★ هناك حروب أخرى للشيطان تكون بطيئة طويلة المدى جداً لا يشعر بها الشخص. وبها يجذب الشيطان ضحاياه بتدرج طويل يخدرهم قليلاً قليلاً، وينقص من حرارتهم الروحية شيئاً فشيئاً على مدى واسع حتى تتغير حياتهم وهم لا يدركون ذلك إلا بعد فوات الفرصة، حينئذ ينتهز الشيطان ما وصلوا إليه من فتور فيضربهم بعد ذلك ضربة شديدة وهم غير مستعدين لها.

★★ وربما يغري الشيطان بعض الناس بأن يقيموا أنفسهم مصلحين لغيرهم، وقضاة على أفعال الغير. فإن اقتنعوا بهذا يعلمهم الغضب والثورة ومسك سيرة الناس، والتدرج حتى الوصول إلى انتقاء القادة. واعتبار أنفسهم أبطالاً في كل هذا ولا مانع من أن يتلفظوا بكلمات جارحة في انتقاداتهم، ويفخرون بكل ذلك، ويعتبرون أنهم يفعلون خيراً ولا تؤنبهم ضمائرهم. فهذه إحدى محاربات الشيطان أن يُلبس الخطية ثوب فضيلة.

★★ على أننا لكي ننتصر في حروب الشيطان، ينبغي أن نعرف صفاته وأسلوبه في القتال. حتى ندرك كيف نقاومه. فما هي صفات الشيطان؟ وكيف يحارب؟ وهل له أسلوب ثابت، أم أنه يتغير في أساليبه حسب تغير الحالة؟ هذا ما نود أن نحدثك عنه أيها القارئ العزيز في المقال المقبل إن شاء اللَّه.

١ فبراير ٢٠٠٩

صفات الشيطان في حروبه

يفيدنا جداً أن نعرف صفات الشيطان في حروبه معنا لكي نُدرك كيف نواجهه. **والمعروف عن الشيطان الصفات الآتية:**

★★ الشيطان صاحب قتال لا يهدأ. وهوايته إسقاط الآخرين. وهو في قتاله لا يمل ولا يستريح. إنه ماهر، باستمرار يرقب حالة ضحاياه ويلقي بذاره في كل مكان. وحتى إن كانت حروبه تنتهي أخيراً إلى هزيمته، ولكنه لا يستطيع أن يبطل الحرب لأنها صارت جزءً من طبيعته.

★★ والشيطان قوي ودلائل قوته إنه استطاع أن يضل العالم كله أيام الطوفان، ولم تنجو من ضلاله سوى أسرة واحدة هى أسرة أبينا نوح.

ونفس الوضع نقوله عن مدينة سدوم أيام لوط البار، التي ألقاها في الشذوذ الجنسي حتى استحقت عقوبة اللّه.

★★ وقوة الشيطان تظهر أيضاً في إلقائه العالم كله في الوثنية في العهد القديم ما عدا شعباً واحداً حدث إنه وقع في الوثنية أيضاً، فكثير من ملوك يهوذا وإسرائيل وقعوا في عبادة الأصنام وأخطأ معهم الشعب. كذلك أوقع العالم في تعدد الآلهة في كثير من البلدان. ومن أمثلة قوته إنه صرع أناس كثيرين، قيل إنه كانت عليهم أرواح نجسة.

ولكن ليس معنى الحديث عن قوة الشيطان أن نخاف منه!! كلا. فإن كان الشيطان قوياً، فإن قوة اللّه أعظم وأعظم وهو ينقذ الناس من قوة الشيطان. وآباء عديدون قد غلبوا الشيطان وكان يخاف منهم.

★★ والشيطان خبير بالحروب وخبير بالبشر. تصوروا أن الشيطان كان يحارب الإنسان منذ أكثر من سبعة آلاف سنة منذ الإنسان الأول. فأي خبرة تكون له في حربه مع البشرية. لا شك إنه أقدر مخلوق على فهم النفس البشرية وطريقة محاربتها. ويعرف نواحي القوة والضعف فيها، ويعرف الأسلوب الذي يمكنه أن يحاربها به.

إن أكبر عالم نفساني، وأكبر محلل نفساني، هو الشيطان. علم النفس عنده ليس مجرد نظريات، إنما هو خبرات، على المستوى العملي والعلمي أيضاً. وبنطاق واسع جداً شمل البشرية كلها. كذلك هو يعرف متى يحارب وكيف يحارب ومتى ينتظر! ومن أي الأبواب يدخل إلى الفكر أو إلى القلب.

★★ والشيطان ذكي وحكيم في الشر. وحكمة الشيطان كلها خبث ومكر وحيله. ومن مظاهر ذكاء الشيطان إنه قد يغير خططه وأساليبه لتوافق الظروف. فهو يسبك حيله بطريقة ذكية لا يشعر بها الإنسان المحارب منه، أو أنه يقدم الخطية في أسلوب فضيلة.

★★ ومن صفات الشيطان أنه كذاب فلا يجوز أن نصدق كل ما يقوله الشيطان ولا ننخدع به، مهما قدم في حيله من إغراءات. وهو يعلن كذبه في الأحلام والرؤى الكاذبة. ومن أمثلة ذلك إنه ظهر مرة لراهب متوحد وقال له: "أنا الملاك ميخائيل أرسلني اللّه إليك. فأجابه الراهب في اتضاع: إنني إنسان خاطئ لا استحق أن يظهر له ملاك. فلعلك أُرسلت إلى غيري وأخطأت الطريق". فمضى الشيطان عنه وظهر كذبه.

ولعل من كذب الشيطان أيضاً ما يقوله على أفواه المنجمين ومن يدعون معرفة الغيب، كمن يقرأ الكف، أو يضرب الرمل، أو يقرأ فنجان القهوة أو يدعي معرفة البخت والطالع بأنواع وطرق شتى. وواضح لاهوتياً أنه لا يعرف الغيب سوى اللّه وحده.

★★ وإغراءات الشيطان كلها أكاذيب حيث يصور للإنسان سعادة تأتيه من وراء الخطية فإذا سقط الشخص يجد أن كل إغراءات الشيطان هى سراب زائل.

كذلك أحلام اليقظة التي يقدمها لضحاياه كلها أكاذيب.

ومن أكاذيب الشيطان إيهام المنتحر أن الموت سوف يريحه من متاعبه. وأنه لا حل لمشاكله سوى الموت حيث يتخلص من كل متاعبه ويستريح. فإذا صدَّق من ينتحر يجد نفسه في الجحيم وليس في راحة.

★★ وتقريباً في غالبية الخطايا يضع الشيطان أكاذيبه. فهو يوحي للسارق بأنه ليس أحد يكشف سرقته، وكذلك يوحي للمرتشي والمهرب والغشاش. وهو يوحي للقاتل بأن المقتول يستحق القتل، أو أن القتل غسل للعار الذي يلوث الشرف. بل لعل الإلحاد هو أكثر أكذوبة قدمها الشيطان للبشرية.

★★ والشيطان أيضاً لحوح، لا يمل من الإلحاح. وربما ما يعرضه من فكر خاطئ يظل يعرضه مرات عديدة مهما رفض الناس، وربما من كثرة ضغطه وإلحاحه، يستسلم الإنسان له ويخضع.

والشيطان في إلحاحه لا ييأس من الفشل أبداً بل يعود. وهو في إلحاحه لا يعترف بالعقابات، ولا يهمه مراكز الناس ولا روحياتهم بل يضرب ضربته ويحدث ما يحدث. وربما الذي لا يهلك بسمومه اليوم، قد يهلك بها غداً أو بعد سنين أو أكثر. إنه مثابر نشيط دائب على العمل.

★★ والشيطان كثير المواهب. فهو يعرف الموسيقى والفن والنحت والرسم والشعر والأغاني. ويمكنه أن يلهم المشتغلين بالملاهي كل ما يحتاجونه في فنونهم لإغراء الناس وإسقاطهم.

★★ وهو قاسٍ. يسقط الناس بلا رحمة، وتظهر قسوته أحياناً في محاربة البعض بالمناظر المخيفة. وأيضاً في قسوته على من يصرعهم. وهو قاسٍ فيما يثيره على العالم من حروب وويلات وجرائم. ويفرح بكل ويلات العالم ويحسب ذلك انتصاراً له. وهو يبث الخصومات والانشقاقات ويفرح بالتخريب.

★★ وهو خبيث في تظاهره بالعطف. وفي ذلك يبرر لك الخطأ حتى لا يتعبك ضميرك. وكل أخطائك يقدم لها من العديد من الأعذار والتبريرات وينصحك قائلاً: "لا تقل على كل شيء إنه خطأ، ولا تبالغ في تبكيت نفسك لئلاً يقودك هذا إلى الوسوسة". حقا إن ما فعلته خطأ، ولكنك لم تقصد ونيتك طيبة، والله ينظر إلى النيات وماذا كان بإمكانك أن تفعل!! الظروف كانت ضاغطة. وهو يعطف عليك حينما تصوم ويدعوك إلى الأكل حرصاً على صحتك وهو لا يلومك على التدخين وأضرارك الصحية. إن عطف الشيطان ليس حباً وإنما هو حيلة للإسقاط.

★★ الشيطان أيضاً حسود ونهاذ للفرص. ومن أمثلة ذلك إنه حسد يوسف الصديق على ما رآه من رؤى، ونقل الحسد إلى قلوب إخوته. وهو يحسد كل إنسان في حياة الفضيلة فيحرمه منها.

٨ فبراير ٢٠٠٩

من حيل الشياطين

ما أكثر حيل الشياطين: إنها لا تنتهي. إن لم تصلح حيلة منها، يستبدلها بغيرها، إلى أن يصل إلى غرضه. وليست هناك خطة واحدة أمامه لتوصله. بل يتخذ لكل حالة ما يراه مناسباً لها، دون أن يتقيد بشيء. على أنه من أشهر حيله الواضحة المتكررة، بضعة أساليب صارت معروفة ومحفوظة، نذكر منها.

١- خطية تلبس ثوب فضيلة:

ما أسهل أن يقدم لك الشيطان بعض الخطايا بأسماء غير أسمائها، بأسلوب يسهل قبوله، بحيث تلبس ثياب فضائل:

فالدهاء أو الخبث يطلق عليه اسم الذكاء، ويقدّم القسوة في معاملة الأبناء، باسم الحرص على تأديبهم. بحيث إن لم يستخدم الأب القسوة، ضميره يوبخه.

والتبرج، والتزين غير اللائق، يقدمها باسم الأناقة والنظافة. والتهكم على الناس والاستهزاء بهم، يقدّمه على أنه لطف وظرف، ومحبة ودالة، وخفة روح، ومحاولة للترفيه.

★★ إن الشيطان لا يقدم الخطية مكشوفة لئلاً يرفضها الإنسان الحريص - بل يقدمها باسم مقبول، وهى هى، ولا فرق.

يقول أنني سأدخل مع هذا الشخص في حرب مسميات، وأسقطه كما أريد، ربما دون أن يشعر، أو قد يشعر، وضميره لا يبكته. فلو أنني دعوته إلى الرياء - بهذا الاسم المنفر - فلن يقبله. إذن ماذا أفعل؟ أسميه عدم إعثار الآخرين، أو القدوة الحسنة.

★★ قال السيد المسيح: " تأتى ساعة، يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم قرباناً للّه". ويقيناً إن الشيطان يقدم القتل إلى أولئك الناس، على أنه غيره مقدسة، أو دفاع عن الدين، أو تطهير للأرض من الخطاة.

★★ والكذب يمكن أن يقدمه الشيطان تحت اسم الحكمة. أو كنوع من حسن التصرف، أو إنقاذ للموقف! والطبيب قد يكذب على المريض في تسمية نوع مرضه. ويعتبر هذا أمام ضميره، أنه حفظ لمعنويات المريض، وحمايته من الانهيار، لكي يُشفى. والبعض يسمى بعض أنواع الكذب الأبيض! وما أشهر ما يسمونها (كذبة إبريل)، كنوع من الدعابة أو الفكاهة!.

★★ وبهذا الشكل ما أسهل أن يُسمّي الشيطان الرقص المُعثر باسم الفن. وكذلك الصور العارية والماجنة هى أيضاً فن. وبالمثل التماثيل العارية أيضاً، وبعض التمثيليات التي يقولون عنها: "للكبار فقط"! وتحت اسم الفن يُخفي الشيطان كثيراً من الخطايا والمعثرات التي لا تستحق اسم الفن. فالفن الحقيقي له اسم جميل ومحترم.

★★ إلباس الخطية ثوب الفضيلة هو حيلة ماكرة من الشيطان. أتراه يدعو البخل بخلاً؟! ما كان أحد إذن يقبله. ولكنه يسميه "حسن تدبير المال" أو "حفظ المال لحاجة المستقبل". أو يسميه عدم التبذير أو عدم الإسراف!!

وإذا أراد الشيطان أن يمنع غنياً من أن يدفع للفقراء، يقول له: ليس من الخير أن تعلمهم الشحاذة، أو تعوّدهم على التشرد والتواكل. إن عدم إعطائهم هو حكمة وعين الحكمة. لكي يبحثوا عن عمل، ويأكلوا خبزهم بعرق جبينهم حسب الوصية!.

★★ إن إعطاء الخطية اسم فضيلة، يشجع الناس على الاستمرار فيها، ولا يبكتهم ضميرهم على ما يفعلون. احترس إذن من المسميات الخاطئة، ولا تسمح للشيطان أن يخدعك. فإن الخطية هى خطية، مهما اختفت وراء اسم آخر...

****

٢- من حيل الشيطان أيضاً: الأمور الصغيرة:

إن الخطايا الكبيرة الواضحة الدنس، يحترس منها الإنسان الحريص على نقاوته، ويفرّ منها: لذلك فالشيطان يؤجل محاربته بها، ما دام هو منتبهاً لها. أما الأمور الصغيرة، فيحاربه بها، لأنه لا يحترس منها، ولا يهتم بها... ويظن أن مثل هذه الأمور الصغيرة، إنما تحارب المبتدئين والصغار. ويقول: "أما نحن قد كبرنا عن أمثال هذه الأمور". لهذا يحاربه الشيطان بها...

★★ فما هى هذه الأمور الصغيرة؟ وما أمثلتها؟

ربما تكون مثل تمسك الإنسان برأيه، وقد يكون خاطئاً! ومع ذلك لا يستشير أحداً. وقد يقول له الشيطان: "وماذا في ذلك؟ أي خطأ فيه؟! وهل لا بد أن تستشير؟ وهل عقلك لا يكفي؟ وما أعظم عقلك! ". وهكذا يسلك حسب هواه ويسقط...

وقد تكون الأمور الصغيرة مثل التساهل قليلاً مع الحواس والقراءات والسماعات، ظاناً إنها لا تأثير لها عليه! بينما قد يضره ذلك. وما تجلبه الحواس ينغرس في عقله الواعي وفي عقله الباطن، وتكون له ثماره الخطيرة، ولو بعد حين..

★★ إن الأمور الصغيرة قد لا تكون صغيرة فعلاً، بل الشيطان يسميها هكذا. وربما توصل إلى أخطر النتائج...

إن الإنسان ينظر إلى الزنى والسرقة والكذب وما أشبه، على أنها من الكبائر. ولكنه لا ينظر بنفس الاعتبار إلى خطايا الفكر أو خطايا اللسان، ويعتبرها من الأمور الصغيرة، وهى ليست كذلك، وربما يهلك نتيجة لعدم حرصه في الكلام. وتؤخذ لفظه عليه مما يقوله، وتكبر وتصير جريمة قذف. كما أن فكره - الذي يستهين به - قد يتحول إلى شهوة تؤدي به إلى السقوط...

★★ حقاً أن شيطان الأمور الصغيرة يمكن أن يهلك الإنسان. فيمكن أن تغرق سفينة كبيرة، بسبب ثقب صغير في قاعها. والإنسان لا يكون موته فقط بواسطة وحش كبير يفترسه، إنما يكفي لموته ميكروب صغير لا يُرى بالعين المجردة...!

وأبشع العلاقات بين فتى وفتاة، قد تبدأ بعلاقة بريئة جداً. ولكنها - مع التساهل والدالة - تتطور إلى ما هو أسوأ وأخطر، حتى تنتهي بخطية كبيرة.

★★ وعوامل النصب والاحتيال، قد تبدأ بأمور بسيطة مثل الثقة مع الطرف الآخَر، وفي ظل هذه الثقة، التوقيع على أوراق بدون حرص أو شكٍ في النوايا. وينتهي الأمر أخيراً بكارثة اقتصادية، سببها تلك الأمور التي تبدو صغيرة.

وقد تبدأ الكارثة الاقتصادية بأمور أخرى صغيرة، أو تبدو أيضاً صغيرة، مثل ضمانك لإنسان صديق لك، وتوقيعك على ذلك. ثم يسافر ذلك الصديق إلى الخارج ولا يعود. وتُطالب أنت بكل ما عليه من ديون أو مستحقات مالية...

★★ إن الخلاص من شيطان الأمور الصغيرة، يحتاج بالضرورة إلى حياة التدقيق والحرص، لئلاً تتحول تلك الأمور إلى كبائر تهدد حياتك الروحية، وحياتك العملية أيضاً.



١٥ فبراير ٢٠٠٩

تخصّصات في العمل الشيطاني

كما أنه توجد في العِلم تخصُّصات، هكذا أيضاً في أعمال الشياطين تخصُّصات متعدِّدة يتقنها أخصائيون من الشياطين، لهم بها معرفة وخبرة .. نذكر من بينها:

(١) **شيطان مُتخصِّص في التخدير**: ذلك أنه حينما يكون الإنسان متيقظاً ومتنبهاً لخلاص نفسه، صاحياً عقلاً وروحاً، فإنه من الصعب أن يسقط. وهكذا قال أحد الآباء: إن الخطية يسبقها إمَّا الشهوة أو الغفلة أو النسيان. فهذه الحالة الأخيرة، حالة الغفلة والنسيان، هى تخدير من الشيطان للإنسان.

★★ بالتخدير ينساق الشخص إلى الخطية، كأنه ليس في وعيه. يخدِّره الشيطان بحيث ينسى كل شيء، ما عدا الخطية. فتكون كل حواسه وأفكاره ومشاعره مُركَّزة في الخطية وحدها. وأمَّا كل ما عداها فلا يحسّ به الإنسان إطلاقاً، كأنه قد نسيه تماماً!

★★ ينسى علاقته باللَّه. وينسى كل وصايا اللَّه. وينسى مبادئه واحتراسه. وينسى وعوده للَّه وتعهداته. وينسى نقاوة قلبه. وينسى أيضاً نتائج الخطية عليه وعلى غيره وينسى عقوبات اللَّه وإنذاراته. ويكون كأنه مخدَّر تماماً، لا يعرف إلاَّ الخطية. ولا يفيق إلاَّ بعد السقوط، حينما يكون كل شيء قد انتهى!!

★★ وقد يفيق الإنسان بعد الخطية مباشرة، وربَّما بعد مدة طويلة. فيهوذا مثلاً لم يفق إلاَّ بعد فوات الفرصة ...

وهناك مَن يفيق من تخديره فيتوب. وهناك مَن يفيق، فيُصاب بصغر نفس أو قد ييأس..

لذلك هناك نصيحتان أقدمهما لك، إذا خدَّرك الشيطان:

الأولى: أن تفيق بسرعة. وهذا لا يتوفَّر إلاَّ إذا كان قلبك من الأصل محباً للفضيلة. واحذر من أن تستمر مُخدَّراً بالخطية إلى أن تصبح عادةً! أو أن تصحو من تخديرك بعد أن تكون قد وصلت إلى نتائج سيئة جداً ...

والنصيحة الثانية: هى أنك حينما تفيق، إنما تفيق إلى توبة حقيقية وسريعة، وليس إلى يأس أو صِغر نفس. واستخدم الندم وانسحاق القلب لنفعك الروحي.

(٢) **شيطان الخجل:** إنَّ الخجل يكون فضيلة إذ أحسن الإنسان استخدامه. ولكن الشيطان كثيراً ما يستخدمه بطريقة تساعد على السقوط.

★★ كإنسان كان جالساً وسط أُناس، وبدأوا يتكلّمون كلاماً رديئاً من الناحية الأخلاقية، أو يتحدّثون بالسوء في سيرة شخص ما له مكانته ويشهّرون به، أو يسردون قصصاً غير لائقة.. وهذا الإنسان الجالس بينهم لم يكن يتوقّع كل هذا. فيُفكّر أن يتركهم وينسحب. ولكن شيطان الخجل يمنعه ويستمر في البقاء. أو أنه يُفكّر أن يقول لهم: "هذا الحديث لا يليق". ولكن شيطان الخجل يمنعه. فيستمر جالساً يستمع. ويمتلئ عقله بأفكار ما كان يجب أن تجول بذهنه.

★★ وأحياناً أخرى يدفعه شيطان الخجل أن يوقّع على تزكية لا يوافق عليها ضميره. وذلك خجلاً من الشخص المُزكّى!

أو يوقّع على بيان أو قرار، هو في أعماق غير راضٍ عنه! أو يشترك في مدح إنسان لا يستحق ذلك .. وإن حاول أن يمتنع عن كل ذلك، يدفعه شيطان الخجل!

★★ وقد يجعل الشيطان فتاة أن تخجل من ملابسها المحتشمة، بحجة أن التيار العام ضد ذلك!

وبالمثل قد يجعل شاباً متديناً أن يرفض سيجارة يُقدّمها إليه زميل أو أستاذ له، بحجة عدم جرح شعوره!

وكم من خطايا يقع فيها الإنسان بسبب شيطان الخجل...!

★★ والمفروض أن يرفض المتدينون هذا الخجل، أو يجدون سبباً يبعدون به عن الإحراج بلباقة. أو أن يكون الشاب المتدين قوي الشخصية يستطيع أن يدافع عن موقفه الروحي بإقناع الآخرين. أو على الأقل يبعد تماماً عن الصحبة أو المناسبات التي تُعرّضه لشيطان الخجل.

والعجيب أن الروحيين يخجلون أحياناً من تدينهم، بينما تكون للخاطئين جرأة وجسارة في التباهي بأخطائهم.

(٣) **شيطان الوقت الضائع:** الذي يضيع وقته في تفاهات، بلا أدنى فائدة روحية أو عقلية أو صحية، وبلا فائدة للآخرين.

لا يهم الشيطان أن ترتكب خطية في هذا الوقت، بل يكفيه أن هذا الوقت يضيع بينما هو جزء من عمرك!

★★ والأمثلة كثيرة لهذا الوقت الضائع، ومنها: أحاديث قد تطول بالساعات في موضوعات لا فائدة لك منها، وتكون بلا حجة. ومجادلات ومناقشات لا جدوى منها سوى تعب الأعصاب وضياع الوقت. وزيارات وسهرات وترفيهات زائدة عن الحد. ومسليات تأخذ كل الوقت، وتعطل إيجابيات هامة في حياتك مثل جلوس البعض في المقاهي، والكلام وقتل الوقت.. وطبيعي أن الذي يقبل ضياع وقته، تكون حياته رخيصة في عينيه..

(٤) **شيطان التأجيل:** إنَّ الشيطان يريد بكل جهده أن يمنعك من كل أعمال البرّ. فإن وجدك مقدماً على عمل فضيلة مُعيَّنة، لا يمنعك عنها صراحة لئلا يكشف نفسه، وإنما يدعوك إلى التأجيل.

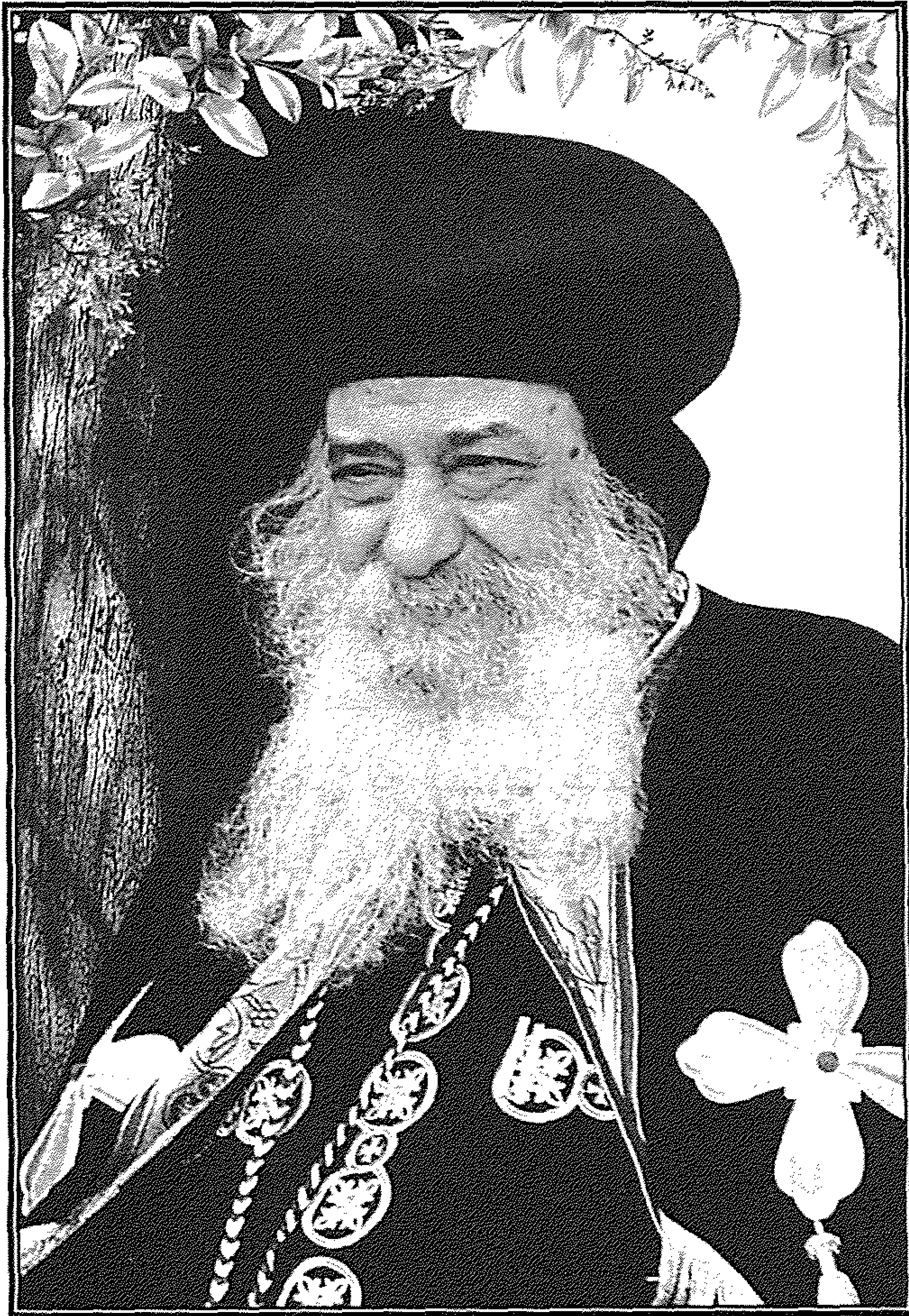
★★ يقول لك: لماذا الإسراع؟ الأمر في يدنا نستطيع أن نعمله في أي وقت. رُبَّما التريث يعطينا فرصة لفحص الأمر بطريقة أعمق، أو لاختيار أسهل السُّبُل للوصول إليه، أو يعطينا مزيداً من الاقتناع ... على أيَّة الحالات عندنا بعض أمور هامة حالياً، ما أن ننتهي منها، حتى نقوم بعمل هذا البِرّ ...

★★ والمقصود بالتأجيل هو إضاعة الحماس للعمل، أو إضاعة الفرصة، أو ترك الموضوع فرصة لعلك تنساه، أو يحدث ما يُغطِّي عليه. كأن تأتيك مشغولية كبيرة تأخذ كل اهتمامك ووقتك، أو يحدث حادث يُعطِّلك، أو تبدو عوائق مُعيَّنة تُعرقل التنفيذ، أو يلقي الشيطان في طريقك بخطية تقترفها، فتفتر حرارتك الروحية، فلا تنفذ ما كنت تنوي عمله من أعمال البِرّ.

★★ يا أخي، رُبَّما هى إحدى زيارات النعمة تدعوك. فإن أنت أجَّلت العمل، ضاع تأثيرها. إن الفرصة حالياً في يدك، فاعمل ما تريده من الخير، ولا تؤجّل. لأنَّ التأجيل قد يكون خطوة إلى الإلغاء، يعرضها الشيطان بلباقة منه.

★★ إن كنت مقبلاً على عمل من أعمال الرحمة، استمع إذن إلـى قـول سـليمان الحكيم: "لا تمنع الخير عن أهله حين يكون في طاقة يدك أن تفعله. لا تقـل لصـاحبك: ارجع فأعطيك غداً، وموجود عندك".

كذلك إن دعاك صوت في داخلك أن تتوب، فلا تؤجّل التوبة، لعلك لا تجد ما يدفعك إليها فيما بعد.



٢٢ فبراير ٢٠٠٩

حِيَل أُخرى للشيطان

★★ **الإغراءات:**

منذ البدء والشيطان يُقدِّم ألواناً من الإغراءات، ليُسقِط بها ضحاياه من البشر. إنه يجس نبض الإنسان، لكي يكتشف هل يضعف أمام إغراء مُعيَّن أم لا؟ فإن وجده لا يهتم بهذا الإغراء ولا يتأثر، يُجرِّب معه إغراء آخَر ... وبخبرة الشيطان مع الناس، يحرص أن ينتقي لكل منهم ما يناسبه.

★★ وإغراءات الشيطان لا تُسقِط إلاَّ قلباً يميل إليها، أو يمكن أن يميل إذا استمر الوقت. أمَّا القلب القوي، فإنه يرفض تلك الإغراءات ولا يعبأ بها. الشيطان يعرض، ولكنه لا يُرغِم. وتتوقف النتيجة على القلب: هل يستجيب للإغراء أم لا يستجيب؟ ...

★★ وهو يُغري الجسد بالشهوة أو المتعة أو اللذة. كما يغري النفس بالسُّلطة أو الشهرة، أو التفوق على الآخرين، أو العظمة بكافة أنواعها، أو إشباع الذات حسبما ترى. يغري الرجال بالنساء، ويغري المرأة بنوع مُعيَّن من الرجال ... ويغري الضعيف بالقوة، ويغري القوي بالتشامخ والفخر. ولا يترك أحداً بدون إغراء ...

★★ والشيطان يحاول أن يُقدِّم إغراءاته مؤثِّرة وقوية. فإن وجد شخصاً قد عزم على التوبة بكل إصرار وحزم، يُقدِّم له خطية كان يشتهيها منذ زمن، ويبحث عنها فلا يجدها. فيضعها أمامه فجأةً وهى تسعى إليه! ويغريه بها فيسقط. إذ يقول له: إنها فرصة أمامك لا تُعوَّض. فلا تترك هذه الفرصة تمر، ويمكن أن تتوب بعدها! التوبة أمامك في أي وقت. ولكن مثل هذه الخطية ليست متاحة في كل وقت! وهكذا يجد المسكين نفسه أضعف من الإغراء، فيسقط. إن الشيطان يعرف بخبرته أين يوجد الجرح الذي يضغط عليه فيؤلم ...

★★ **هناك حيلة أخرى للشيطان هى الانقياد للتيار:**

يقول لك: الكل هنا يفعل هكذا، فهل تشذ أنت، ويكون لك أسلوب خاص يغايرهم؟! تقول إنك تتبع الحق، ولو كان ضد تصرُّف الكل. ولكن هذا سيجعل الكل ضدك، لأنك

بهذا تكشفهم وتحرجهم ... فهل تستطيع أن تسبح عكـس التيـار؟! سـتقول كمـا قـال الشاعر:

سأطيـع اللَّـه حتـى .. لو أطـعتُ اللّه وحـدي

★★ لكن الجميع لا يستطيعون مثل هذا الصمود. فشيطان الانقياد للتيار السائد يدفع إلى هذا التيار بطُرق شتَّى: أحياناً يجعل البعض يسيرون في نفـس التيـار مـن بـاب المُجاملة، أو بدافع الخجل أو الخوف من مواجهة الآخـرين، أو تفاديـاً لـتهكُّم النـاس وتعييرهم، أو نتيجة لضغط الظروف الخارجة والإلحاح الواقع عليهم. أو خضوعاً لسُلطة أقوى ... أو يقول له الشيطان: دع هذه المرَّة تمرّ، ولن تتكرَّر. ثم تتكرَّر طبعاً. أو يُبكِّته الشيطان قائلاً: ما هذا الكبرياء؟! هل من المعقول أن يكون كل الناس مخطئـين، وأنـت الوحيد الذي على حق؟! ... أو يقول له الشيطان في خبث: كَبِّر عقلك، ومَشِّي أمـورك. ماذا تنتفع إن خسرت الكل؟!

★★ وقد يخضع الإنسان للتيار السائد نتيجة لضعف شخصيته ... إمَّا أنـه لا يقـدر على المقاومة. أو أنه يُقاوم قليلاً، ولا يَثبُت. أو أن صديقاً له تأثير عليه، يقول له: " لـيس من الحكمة أن نبدأ بمقاومة التيار. والأفضل أن نجاريهم فترة، ثم بعد ذلك نقاوِم "! علـى أننا لا ندري إلى أي مدىً تمتد هذه الفترة ...

★★ إن الانقياد للتيار لا يجرف إلاَّ الضعفاء. أمَّا الشـجعان أو أصـحاب المبـادئ والقيم، فإنهم يثبتون على مبادئهم مهما احتملوا في سبيل ذلك. وبثبـاتهم يقـدمون قـدوة صالحة لغيرهم. وربما يصيرون أمثلة يذكرها التاريخ. إنهم يرفضون الخطأ حتى إن رأوا كباراً يسيرون فيه، أو وقعت فيه الغالبية! فكل ذلك لا يمكن أن يجعل الخطأ صواباً.

★★ وسيلة أخرى من وسائل الشيطان هى العُنف:

والمعروف أن العنف هو ضد الوداعة والهدوء، وضد الاتضاع أيضاً. وهـو لـون أيضاً من قساوة القلب ... ومن الكبرياء ..

والشيطان لا يغري الخطاة فقط بالعنف، إنما يغري كـذلك المتـدينين والـروحيين. ولذلك ما أكثر ما نرى المتدين عنيفاً، يواجه بالعنف كل ما يراه خطأً ... وبينما نرى اللَّه - تبارك اسمه - يصبر على الخاطئين ويدربهم في حكمة وهدوء على الطريـق السـليم، فإن المتدين العنيف لا يسلك هكذا ...

★★ والبرّ لا يأتي بطريق العنف، ولا بإرغام الغير على السلوك فيه. إنما يأتي باقتناع العقل ورضى القلب. فيصير الإنسان باراً، بقلب نقي. يعمل الخير حُباً في الخير، لا مُرغماً عليه. ومن الواضح أن ضغط المتدينين العنفاء، لا يوجد براً حقيقياً. بل قد يؤدي إلى مظهرية دينية، لا علاقة لها بنقاوة القلب من الداخل. وحتى هذه المظهرية قد لا تستمر. بل تزول بزوال الضغط.

★★ عجيب أن شيطان العنف، يدخل في مجال التدين، كما يدخل في مجالات الخطية. لأنه بمكره لا يجعله تديناً حقيقياً ... أمَّا أنت يا أخي، إن أردت أن تجذب الناس إلى التدين، اجعلهم يحبون البِرّ والفضيلة، ويجدون فيها متعةً، دون أن يكونوا مكرهين على ذلك بأسلوب العُنف.

★★ من حروب الشياطين أيضاً، حرب اليأس:

والشيطان يلجأ إلى محاربة الإنسان باليأس، بعد مقدمات طويلة تمهيدية، يُشعره بها، أنه لم يعد له خلاص من الخطية، وأنه قد تشبَّع بها تماماً بالإثم، بحيث لا يمكن أن يتوب. فيرى أنه ليس فقط لا قدرة له على التوبة، بل بالأكثر لا رغبة له في التوبة.

★★ يحدث هذا أحياناً بعد سقطة كبيرة، يظن فيها الخاطئ أنه لا مغفرة! وأنه لا حَلّ للقيام من سقطته!

وقد لا تكون السقطة بهذه الدرجة، ولكن الشيطان من عادته أن يضخِّم في الأخطاء ليوقع صاحبها في اليأس..

إنه ماكر جداً. فهو قبل إسقاط الإنسان، يُسهِّل في موضوع الخطية جداً حتى تبدو شيئاً عادياً، ويضع لها مبرِّرات ... أمَّا بعد السقوط: فإمَّا أن يستمر في سياسة التهوين لكي يتكرَّر السقوط. وإمَّا أن يلجأ إلى التهويل، فيقول للخاطئ: هل من المعقول أن يغفر لك الرب كل هذا الذي فعلته، وكل هذا المستوى الذي هبطت إليه؟! وعبثاً يمكنك أن تتوب!.

★★ وقد يلقي الإنسان في اليأس - لا من جهة خطايا قد وقع فيها - إنما من جهة مشاكل تبدو مُعقَّدة جداً أمامه، وليس لها من حَلٍّ ... بينما اللّه قادر أن يَحِلّ كل المشاكل بحنانه الذي لا يُحدّ، وإشفاقه على مَن يلجأ إليه...

إنَّ الإنسان القوي القلب، والعميق في إيمانه، لا يمكن أن يعرف اليأس إليه طريقاً. بل مهما كان الجو مظلماً جداً، فإن الرجاء يفتح أمامه طاقات من نور...

١ مارس ٢٠٠٩

الشكوك: أنواعها وعلاجها

الشكّ حالة يكون فيها الإنسان مُزعزعاً قلقاً، لا يدري في أي طريق يسير. هو في حالة من عدم وضوح الرؤيا، يفقد فيها سلامه الداخلي، ويكون مُضطرباً في نفسه وفكره، فاقداً للثقة. وهكذا يصير الشكّ جحيماً للفكر والقلب معاً.

★★ أحياناً يكون دخول الشكّ سهلاً. ولكن خروجه يكون صعباً جداً. وقد يترك أثراً مخفياً، ما يلبث أن يظهر بعد حين .. وإذا استمر الشك، ما أسهل أن يتحوّل إلى مرض وإلى عُقد لها نتائجها. فيُقال إن هذا الشخص شكّاك، أي أن الشكّ صار طبعاً له.

★★ وهذا الشكّ - إذا استمر - فإنه يتلف الأعصاب، ويدعو إلى الحيرة وارتباك الفكر. وفي عنف الشكّ، يمنع النوم، ومن نتائجه أيضاً، أنه يؤدي إلى التَّردُّد وعدم القدرة على البتِّ في الأمور.

★★ والشكّ على أنواع كثيرة: منها الشكّ في اللّه وفي العقيدة، والشكّ في الناس وفي الأصدقاء والأقارب، وأحياناً الشكّ في بعض الفضائل والقيم. بل الشكّ في النفس أيضاً، وفي إمكانية التوبة وفي قبول اللّه لها. وما أكثر تفرعات الشك ومجالاته. وسنحاول في هذا المقال أن نتعرَّض ولو بإيجاز لكل ذلك ...

★★ فمن جهة الشكّ في اللّه جلّ جلاله يكون ذلك على نوعين: إمّا في وجود اللّه، وإمّا في مدى معونته لنا. والشكّ في وجود اللّه، أي الإلحاد، فهو إمّا محاربة من الشيطان، يحاول أن يزعج بها فكر المؤمن بينما القلب يرفضها بشدة. فلا يجوز للإنسان أن يتعامل مع هذا الفكر ولا أن يضطرب بسببه. والإثباتات على وجود اللّه كثيرة ...

★★ وقد يكون السبب في هذا الشكّ قراءة كتب الملحدين أو معاشرتهم والاختلاط بأفكارهم، أو يأتي ذلك من بحوث منحرفة في الفلسفة، أو في العلاقة بين الدين والعلم، وأصل الكون ونشأته. بينما لا خلاف بين الدين والعلم. فإن عرض البعض خلافاً: فإمّا أن يكون سببه خطأ فيما يسمونه علماً، أو فهم خاطئ للدين.

★★ وقد يكون الشكّ هو في مدى معونة اللَّه وحفظه، كأن يقول شخص: " لقد صلَّيت من أجل أمر مُعيَّن مرَّات عديدة بلا نتيجة. فما قيمة الصلاة إذن وما نفعها؟! ". ويبدأ أن يشكّ في جدوى الصلاة. أو في مراحم اللَّه. بينما اللَّه سيستجيب في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة. ويعطي الإنسان ما ينفعه وليس ما يطلبه. واللَّه بحكمته يعرف تماماً ما ينفعنا، ويمنحنا إيَّاه دون أن نطلب ...

★★ إنَّ الشيطان يلقي بذاره من جهة الشكّ في اللَّه، لكي يجعلك تترك اللَّه، وتصبح فريسة في يديه هو. فعليك أن تبعد عن كل مصدر يبعدك عن اللَّه. أما الكتب التي تُشكِّكّ في وجود اللَّه أو معونته، فلا يصح أن يقرأها إلاَّ الثابت في الإيمان، القوي في عقيدته، الذي يستطيع أن يرد على ما فيها من انحراف فكري ...

★★ هناك نوع آخر من الشكّ هو الشكّ في بعض الأصدقاء والأحباء والأقارب. هؤلاء إن كانت تربطهم المحبة والثقة، فلن يعرف الشكّ إليهم سبيلاً. ولكن إن نقصت المحبة، حينئذ تنقص الثقة. فيكون القلب مستعداً للشكّ، والأذن مفتوحة لكلام الوشاة. وكما يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

قد صادفوا أُذناً صغواء ليِّنةً .. فاسمعوها الذي لم يُسمعوا أحداً

وعلاج هذا الأمر هو المواجهة والصراحة. على أن يكون ذلك في محبة وفي غير اتهام أو قسوة. مع عدم التأثر بالسماعات والوشايات، وعدم تصديق كل ما يُقال. فكثيراً ما يكون الاتهام ظالماً، مهما كانت الدلالات واضحة. ولا يجوز الحُكم على أحد بدون الاستماع إليه.

★★ وقد يحدث الشكّ أحياناً بين زوجين. فيشُكّ الزوج في أن زوجته تخونه، أو تشُكّ الزوجة في أن زوجها يخونها. وقد يكون سبب ذلك كلمة إعجاب بريئة أو ابتسامة.

وأحياناً يحدث الشكّ كرد فعل لوسائل الإعلام. فإن رأت الزوجة فيلماً فيه زوج خان زوجته وهو في سفر أو في غربة. ثم تصادف أن زوجها قال لها إنه سيسافر في مهمة لبضعة أشهر، حينئذ يحاربها الشكّ وتقول له: " لن تسافر وحدك. رِجلي على رِجلَك. في سفري معك أكون حصناً لك يحميك من أيَّة امرأة تحاول اجتذابك إليها ".

★★ إنَّ هذا الشكّ بين الزوجين، قد يكون سببه الغيرة الطائشة، أو عدم الثقة بالنفس. فإنَّ الزوجة التي تثق بنفسها، لا تظن في يوم من الأيام أن هناك امرأة أكثر منها جاذبية يمكن أن تؤثِّر على زوجها.

★★ هناك شكّ آخر يمكن أن يوقعه الشيطان في بعض الفضائل أو القيّم. كأن يُشكِّك إنساناً في التسامح، فيقول عنه إنه لون من ضعف الشخصية. أو أثناء الصوم يحاربه بالأكل إذا جاع. ويقول له: "ما لزوم الصوم؟! وهل الفضيلة الجسدية لها قيمة؟! إنَّ اللَّه يهمه الروح قبل كل شيء. ليكن قلبك مع اللَّه، وكُل ما تشاء!! ".

★★ وقد يُشكِّك الإنسان في ما هو الحرام؟ وما هو الحلال؟ ويحاول أن يطبق هذه الحيلة على السينما والتليفزيون وكل أنواع اللهو والموسيقى. ثم يتدرَّج إلى كل مال يصل إليه، وهل فيه حرام أو شبه حرام، كفوائد البنوك مثلاً. ثم في حق اللَّه من ماله، وعلى أيَّة جهة من العطاء يجوز أو لا يجوز. وهكذا يحيا في شكٍّ وفي حيرة ...

★★ الشكّ أيضاً ما أكثر ما يتعب الإنسان في المراحل المصيرية. ففي فترة الخطوبة: مَن تفضل الفتاة: هل الشاب الجذاب الذي تحبه؟ أم الغني الذي يكفل لها كل وسائل الراحة؟ أم صاحب المنصب الكبير؟ أم الذكي جداً الممتاز في دراسته؟ أم الشاب الذي يحبها ويهواها؟ وتبقى في حالة شكّ. وفي كل ذلك، هل تقبل ما يفضله أبوها، أم ما يفضله قلبها؟ أم ما يفضله عقلها؟...

★★ وشكّ المرحلة المصيرية قد يتناول نوع الدراسة التي يدرسها طالب بعد الثانوية العامة. بأيَّة كلية يلتحق؟ وأيَّة وظيفة تؤهلها؟ بل في الوظيفة بعد تخرجه: هل يفضّل العمل الحكومي أم العمل الحُر؟ وهكذا يتوه في شكوك تحتاج إلى بتٍّ، ورُبما إلى مشورة أيضاً من ذوي الخبرة. وإلاَّ يقع الشخص في دوامة من التَّردُّد.

وفي المراحل المصيرية عموماً، يحتاج الإنسان إلى ثبات في هدف سليم، وفي وسيلة تحققه، مع معرفة للنَّفس وقدراتها ...

★★ ومن النواحي الخطيرة في الشكِّ، شكّ الإنسان في نفسه. إذ لا تكون له ثقة في نفسه وفي قدرته. كالطالب الذي يشكّ في قدرته على النجاح، أو في كفاية الوقت الباقي له على الامتحان، لكي يدرس فيه المُقرَّر عليه. ومثال آخر شكّ إنسان يريد إقامة مشروع

مُعيَّن، وهل ينجح فيه أم يفشل؟ أو شكّ إنسان في نفسه: هل هو محبوب من الناس أم لا؟ وهل تصرفاته مقبولة أم غير مقبولة؟

★★ إن الفاقدين الثقة في نفوسهم يحتاجون إلى تشجيع. وكما أن الأطفال يحتـــاجون إلى كلمات مديح أو تشجيع ليثبتوا في الطريق السليم، كذلك الكبار أيضاً، يحتاجون إلـــى كلمة طيبة، وإلى رفع روحهم المعنوية وبخاصة إن كانوا في حالة مرض، أو في مشـــكلة أو ضيقة. حتى لا يدركهم اليأس، أو أن يقول الواحد منهم: " لا فائدة ... قد ضعت!! ".

★★ ومن جهة موضوع الشكّ: أشكّ أنه انتهى عند هذا الحدّ!



٨ مارس ٢٠٠٩

أسباب الشكّ

أحياناً يرجع سبب الشكّ إلى طبيعة الشخص نفسه، إذ تكون شخصيته مهزوزة غير ثابتة، أو يكون موسوساً، وطريقته في التفكير وفي الحُكم على الأمور تجلب له الشكّ.

★★ وقد يكون بسيطاً، يُصدّق كل ما يُقال له، فيصبح ألعوبة في يد مَن يلهو به. إن حكى له أحد عن صديق يتقول عليه، ما أسهل أن تتغيَّر معاملته لهذا الصديق، ويشكّ في إخلاصه. بل أنه قد يتعرَّض إلى الشكّ في أمور عقائدية أو إيمانية، إذا ما شككه شخص أكثر منه فهماً. ونفس الوضع من جهة الفكر السياسي. فإنَّ البعض الذين لهم اتجاه سياسي مُعيَّن، يجدون لهم مجالاً في أمثال هؤلاء البسطاء والقليلي المعرفة لكي يضموهم إليهم.

ومثل هؤلاء البسطاء - رُبَّما بالشكّ - يتحوَّل من اتجاه إلى عكسه، ويكونون كما قال الشاعر: كريشة في مهب الريح طائرة .. لا تستقر على حالٍ من القلقِ

★★ وعلى عكس هذا، فإنَّ الشكّ قد يُحارب أشخاصاً لهم عقول عميقة التفكير. فبينما الإنسان العميق التفكير يستطيع أن يكتشف زيف الشكوك فلا يقع فيها، نراه من الناحية المضادة. إذا ما بحث أموراً أعلى من مستوى عقله خاصة باللّه والسماء والأبدية وطبيعة الخليقة - رُبَّما يقع في الشكّ ويرتبك عقله. وهذا هو الذي حدث مع الفلاسفة الملحدين. كانوا فلاسفة على مستوى عقلي عميق. ولكنهم ألحدوا. لأنهم حاولوا أن يبحثوا أموراً فوق مستوى عقلهم!! ففشل العقل في الوصول، وضلُّوا ...

★★ حقاً، إن العقل هو نعمة كبيرة من عند اللّه. ولكن له حدوداً لا يجوز له أن يتجاوزها. هذه الأمور أعلنها اللّه بطريق الوحي والأنبياء، ولا يمكن الوصول إليها بالعقل وحده. وإذا حاول بالعقل بعيداً عن الإيمان أن يصل إليها، قد يقع في الشكّ. مثال ذلك خلق الإنسان من تُراب ...!! وأيضاً المعجزات.

★★ ولهذا فإن المعجزات قد تحدث مع البُسطاء الذين يقبلونها بالإيمان. بينما بعض العُقلاء الذين لا يقبلون شيئاً إلاَّ بعد تفكير وفحص .. هؤلاء لا تحدث لهم معجزة، ولا يؤمنون بها ...

★★ من مصادر الشكّ أيضاً، بل من أهمها: الشيطان، فهو ماهر جداً في خلق الشكوك وفي تصديرها. وله خبرة طويلة في غرس الشكوك في عقول الناس. ويجد لذّة في ذلك. ويعتبر قبول البشر لشكوكه انتصاراً له. والشيطان يعرف جميع الشكوك التي مرَّت على العالم من آلاف السنين، ويمكنه أن يحارب بها. وقد يلقي الشكوك في الإيمان، وفي العلاقة مع الآخرين، وفي القيم والمبادئ، وفي كل شيء .. لكي يجعل الإنسان في حيرةٍ من أمرهِ، وفي دوامة من الشكّ ...

★★ وربَّما يأتي الشكّ إلى الإنسان من غيره من الناس، إذا ما ترك أذنيه فريسة لأقوالهم .. وهكذا قد تأتي الشكوك من معاشرة الشكاكين. فاحترس إذن من كلام هؤلاء ولا تصدقه. لأنه كما أنَّ معاشرة المؤمنين الثابتين في إيمانهم تنقل إليك الإيمان والثقة، فإنَّ معاشرة الشكّاكين تنقل إليك الشكّ إذا قبلت ما يقولونه لك. ومثال ذلك أن شخصاً قال لي: " حينما أقرأ بعض الجرائد في الصباح، يُخيَّل إليَّ أن البلد قد ضاعت، وأن الخطر قريب، فهم يشككوننا في الحال وفي المستقبل وفي الأشخاص .. !! ".

★★ ولذلك فمن أشهر مصادر الشكّ، الشائعات. وكثيراً ما تكون خاطئة أو مغرضة. وفي ذلك قال أحد الأُدباء: " إذا أردت أن تشعل حريقاً في بلدٍ ما، أطلق فيها شائعات هامة. فإنَّ الشائعات يمكن أن تثير جوّاً من القلق والاضطراب وربَّما الخوف أيضاً. ويشكّ الناس قائلين: تُرى، ما الذي حدث؟! ".

★★ من أسباب الشكّ أيضاً: الانحصار في سبب واحد ... وقد يكون هذا السبب هو أسوأ افتراض ممكن. مثال ذلك: أم قد تأخرت ابنتها في العودة إلى البيت مساءً. فتشكّ في إصابتها بسوء. كأن حدث لها حادث، أو أن أحداً قد خطفها. وتظل في قلق بسبب هذا الشكّ حتى تعود. وربَّما تشكّ في أنها ستعود!! بينما يكون السبب في تأخرها هو زحمة المواصلات، أو زميلة لها قد عطّلتها، أو احتاجت أن تشتري شيئاً من مكان بعيد، أو ... ولكن حصر التفكير في سبب واحد، وهو إصابتها بسوء، هذا ما يجلب الشكّ.

★★ ومشكلة الانحصار في سبب واحد، كثيراً ما يجلب الشكّ بين الأزواج. وهذا السبب هو سوء الظنّ في شريك الحياة. فإن حدث أن الزوج قد ألزمته الضرورة في الاهتمام بوالدته أو والده في ضيقة مُعيَّنة، رُبَّما تشكّ الزوجة قائلة: " إنه يحب عائلته أكثر مني، وبسببهم يتأخر عن بيته، أو ينفق عليهم أكثر مِمَّا ينفق على أولاده وأسرته!! ". وإذا

أُعجب الزوج بدعابة قالتها امرأة أخرى، أو برأي ذكي عرضته، تبدأ الزوجة في أن تشكّ وتظن أن هذا الإعجاب رُبَّما وراءه علاقة ما، أو أنه سيقود إلى انحراف، وتتعب!!

★★ إن الانحصار في سبب واحد، هو ضيق في التفكير. بينما الفكر المُتسع يضع أمامه افتراضات كثيرة، فلا يشكّ ولا يتعب ...

★★ قد يحدث الشكّ أيضاً بسبب الوهم. فقد يتوهَّم البعض أن رقم ١٣ مثلاً وراءه شر ما. فيدخلهم الشكّ في كل يوم يكون تاريخه ١٣ أو مضاعفاته! وهكذا في بعض البلاد نرى أن المصعد (الأسانسير) ينتقل من رقم ١٢ إلى ١٤ مباشرة، ويلغي رقم ١٣، ونفس الوضع في أدوار المساكن. وكل ذلك عبارة عن وهم ...

★★ وقد يحدث الشكّ بسبب الضيقات، وبخاصة إذا ما طالت مدتها، واقترب الإنسان من اليأس. حينئذ قد يحاربه الشكّ في رحمة اللَّه، وفي جدوى الصلاة التي لم تكن لها نتيجة. أو أن فتاة طال بها الوقت ولم تتزوج، أو كُلَّما يأتي إليها عريس، يذهب ولا يعود... حينئذ قد يدخلها الشكّ في أن (عملاً) قد عُمِلَ لها وبسببه يحدث كل هذا!! وتبدأ في الذهاب إلى المشعوذين لكي يفكُّوا لها ذلك العمل! وكل ذلك خرافات ...

★★ ومن أسباب الشكّ أيضاً، عدم الثقة بالنفس. ومثال ذلك كثير من ألوان الشكّ بين الأزواج. فالزوجة التي تشكّ في خيانة زوجها، وراء هذا الشكّ، يوجد شكّ منها في نفسها، وفي مدى كفايتها للزوج. أمَّا الزوجة الواثقة بنفسها، فهي لا تشكّ. بل تقول في نفسها: " لا توجد امرأة أفضل منِّي في الجمال أو الجاذبية يمكن أن ينجذب إليها زوجي. أنا واثقة أنه في قبضة يدي، لا يمكنه الخروج منها "!

وبنفس المنطق يمكن أن يتحدَّث الزوج الواثق تماماً بقوته وتأثيره على زوجته وبمدى محبتها له. أمَّا إذا فقد الثقة بنفسه، فحينئذ يمكن أن يشكّ في زوجته، وفي إمكانية أن تتجه إلى رجل آخَر وتتعلَّق به.

١٥ مارس ٢٠٠٩

طول البال

هذه الفضيلة يسمونها أيضاً طول الأناة، وطول الروح، وسعة الصدر، والحليم، وفي ذلك قيل عن موسى النبي: "وكان الرجل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض".

★★ وإلهنا الصالح - تبارك اسمه - طويل الأناة، وينبع ذلك من عمق رحمته. ولولا طول أناته علينا - مع كثرة أخطائنا - لهلكنا جميعاً. إنها طول أناة اللَّه تقتاد الناس إلى التوبة.

وبطول أناته صبر على عبدة الأصنام زماناً طويلاً، حتى رجعوا أخيراً إلى الإيمان وعبدوه. كما صبر على الشيوعيين الذين وقعوا في الإلحاد، وبعد سبعين سنة عادوا إلى الإيمان. كما أطال اللَّه أناته على أُغسطينوس في خطاياه، حتى تأب أخيراً وصار قديساً... وبالمثل أطال الرب أناته على فلاسفة الوثنية حتى آمن البعض منهم.

★★ طول أناة اللَّه تقود إلى التوبة أو إلى الدينونة أي العقاب. فلا تظن يا أخي القارئ العزيز، إذا أطال الرب أناته عليك في كل أخطائك وخطاياك المتكررة أنك بعيد عن العدل الإلهي، إنما هى فرصة تُمنح لك لكي تغيّر مسلكك، وإلا...

★★ كذلك إذا أحاطت بك التجارب والضيقات، ولم يسرع اللَّه إلى معونتك، لا تظن أنه قد تخلّى عنك. كلا، بل هو بطول أناته يعدّ الوقت المناسب الذي يُبعد فيه كل ضيقة عنك. تأمل مثلاً قصة يوسف الصديق، وكيف طال به الزمن في عديد من الضيقات. وأخيراً دبّر اللَّه الفرصة المناسبة التي جعله فيها الرجل الثاني في مصر، ورفع من شأنه جداً.

★★ إن قصة يوسف الصديق هى درس لنا. لذلك أطل أنت أناتك في كل ضيقاتك. وثق أن معونة اللَّه لا بد ستأتيك في الوقت الذي يراه مناسباً. كما أن اللَّه - بطول أناته - إنما يعطينا نحن أيضاً درساً في الصبر وفي التعامل مع الناس...

★★ قد يتضايق البعض من معاملات الناس له، ومن أسلوبهم الذي لا يحتمله، ويطلب إليهم أن يغيروا أسلوبهم فلا يغيرونه. وربما تطلب الزوجة هذا الطلب من زوجها فيظل كما هو...

ولكن علينا أن نعرف أن طباع الناس تحتاج إلى وقت لكي يمكنهم أن يغيروها، وليس من السهل عليهم أن يغيروا أسلوبهم بسرعة. والأمر يحتاج منا إلى طول بال. وبخاصة لو كان أسلوب الناس قد تحول إلى طباع فيهم. فالبعض منهم لا يشعر أنه على خطأ، ولا يريد أن يتغير. والبعض يريد ولا يستطيع.

★★ كذلك فإن طول البال يحررنا من الغضب على الناس، ويعطي العقل فرصة أن يتدبر الأمر. وعموماً فالإنسان الطويل البال، هو إنسان بطيء الغضب.

★★ نفس الوضع بالنسبة إلى التعليم والإرشاد، يحتاج ذلك أيضاً إلى طول بال مع التلميذ حتى يقبل الدرس، وحتى يتفهمه ويهضمه، ثم يغرسه في ذاكرته، ثم لا ينساه. إن المدرس الضيق الصدر لا يمكنه أن يفيد تلاميذه. فبعضهم لا يفهم بسرعة، ويحتاج مدرسه إلى أن يطيل أناته عليه حتى يفهم، وحتى يحفظ. والمدارس تطيل أناتها على الراسبين أيضاً. فالذي لا ينجح من الدور الأول يعطونه فرصة في الدور الثاني لكي ينجح ويعوض ما قد فشل فيه من قبل.

★★ أتذكر أنني منذ ستين عاماً أخذت درساً روحياً في طول البال من أحد تلاميذي. كان طالباً في إحدى المدارس الأجنبية التي كنت مدرساً فيها. وقد طلب مني أن أعطيه درساً خاصاً في مادة هو ضعيف في استذكارها. فأعطيته الدرس الأول ومعه واجب كانت نتيجة إجابته صفراً. ثم أخذ الدرس الثاني ومعه أيضاً واجب ليحله، وبالمثل كانت نتيجته صفراً كسابقه. فتضايقت وقلت له: "أنت بهذا الشكل لا يمكن أن تنفع". فعاتبني هذا التلميذ وقال لي: "لماذا تثبط همتي، وأنا بذلت كل جهدي وتحسنت؟!". فتعجبت من كلامه وسألته أي تحسن هذا وقد أخذت صفرين متتالين؟! فقال لي: "في الواجب الأول كانت لي ١٨ غلطة فأخذت صفراً. وفي الواجب الثاني كانت لي ١٢ غلطة فقط فأخذت صفراً. إنه بلا شك تحسن ولو أنه تحت الصفر، إذ قلّت الأخطاء. فبشيء من التشجيع يمكن أن أتحسن أكثر، وأصعد من تحت الصفر وأخذ درجة".

ومن ذلك الحين، وحتى الآن، مازالت في ذهني عبارة "التحسن تحت الصفر". فأطلت بالي على ذلك التلميذ الذي صار فيما بعد مهندساً كبيراً.

★★ إننا نحتاج أيضاً أن نطيل بالنا على الأطفال حتى ينمو تفكيرهم، وينضج إدراكهم، فيتحولون من مرحلة اللهو إلى الجدية. ولا شك لا بد أن يأخذ ذلك زمناً. وهكذا تخطئ الأم التي تضجر من تصرفات طفلها، فتنتهره أو تضربه على أخطاء هو لا يعرف أنها أخطاء. ومن المفروض أن تتصف بطول البال حتى يمكنها أن تتعامل مع الطفل بما يناسب عقليته ونفسيته في تلك السن.

★★ بالمثل الصبي في الصناعة التي يتدرب عليها، يحتاج إلى طول بال، حتى يتقن تلك الصنعة. فقد يخطئ في فترة التدريب مرة أو مرتين أو أكثر، وهذا شيء طبيعي. فلا يجوز لمعلمه أن ييأس منه. بل يطيل باله عليه، حتى يكمل تدريبه.

★★ وبالمثل في الإرشاد الروحي: قد يبذل المرشد وقتاً وجهداً في قيادة شخص إلى التوبة. ثم يلاحظ أنه لم يتب بعد، فيدركه اليأس منه. وهذا خطأ، لأن التوبة لا تأتي هكذا بسرعة. إذ توجد معوقات كثيرة من التعود السابق على الخطية، ومن شهوات القلب، ومن المحاربات الخارجية. والأمر يحتاج إلى طول بال من المرشد، ومداومة التشجيع.

★★ إن يئس المرشد من إمكانية توبة الخاطئ، فسوف يتركه إلى الضياع والهلاك وهكذا إذا يئس الطبيب من علاج مريضه فسيتركه إلى الموت لا محالة. الأمر في الحالين يحتاج إلى طول بال. وكثير من الأمراض تحتاج إلى صبر من المريض والطبيب حتى يتم الشفاء منها، أو على الأقل حتى تتحسن الحال ويمكن احتمالها...

★★ في مجال العمل أيضاً: إذا قام شخص بمشروع، ليس له أن ينتظر نجاح مشروعه من أول خطوة. بل عليه أن يطيل أناته حتى يُعرف مشروعه وينتشر، وتتفتح أمامه الأسواق، وتنتصر على المنافسات، ويدخل في تجربة الربح والخسارة، ويستقر أخيراً.

★★ إن طول البال يلزم في كل المجالات: في العلاقات السياسية والاجتماعية، وفي السياسة والاقتصاد، وفي الحصول على عمل. بل وفي الوصول إلى كما الديمقراطية. وكقاعدة عامة لا يمكن الوصول إلى الكمال من أول خطوة، إنما بالتدرج والصبر.

★★ والإنسان الذي ليس له طول بال، ما أسهل أن يقع في القلق والضجر والانزعاج، وتتعب نفسيته ويفقد سلامه الداخلي. وقد يصاب بالاندفاع والتسرع مما تكون له نتائج سيئة. وربما في تسرعه يأخذ قرارات أو مواقف ارتجالية أو عشوائية. وبعض أُناس ليس لهم طول بال في حل مشاكلهم، فيلجأون إلى السحرة والمشعوذين لعلهم يجدون عندهم حلاً.



٢٢ مارس ٢٠٠٩

البشاشة

البشاشة فضيلة اجتماعية مميزة. فالإنسان البشوش يسعد الناس ببشاشته، ويشركهم معه في فرحه أو في سلامه وهم يستبشرون به، إذ ينقلهم إلى نفس مشاعر البهجة التي له.

إنه يشيع السلام حوله. ويبعث الطمأنينة في قلوب الآخرين. وبشاشته تشع من نظرات عينيه، ومن ابتسامته، ومن ملامح وجهه، ومن أسلوب حديثه. إنه نفس مستريحة من الداخل، وقادرة على إراحة الغير. تُشعر مَن حولها بأنه لا يوجد ما يدعو إلى الكآبة، بل هناك فرح على الرغم من كل شيء.

★★ الإنسان البشوش لا يسمح للمشاكل بأن تحصره داخلها. إنما يكسر دائرتها، ويفتح له باباً ليخرج منها.

إنه لا يعتمد على عقله وحده، إنما على الإيمان بالأكثر. أي الإيمان بالله الذي يحب البشر، ودائماً يعمل معهم خيراً. فإن كُنا لا نرى هذا الخير، فذلك قصور منا لا يمنع من وجود الخير أو من انتظار مجيئه.

★★ الإنسان البشوش، حتى إن حاربته الأحزان من كل جانب، يقول لنفسه: "وما ذنب الناس في أن يروني عابس الوجه فيحزنوا؟!" لذلك فهو في نبل نفسه - إن أدركه الحزن - يحتفظ به لذاته وحده. ويقدم بشاشته للآخرين. فهو لا يشركهم في الحزن بل في الفرح ...

★★ الإنسان البشوش ينتصر على المتاعب، ولا تنتصر المتاعب عليه ... إنه لا يقع في الحصر النفسي، ولا تكون نفسه عدوة له في داخله. وهنا يكون عقله صديقاً له، ودائماً يريحه. أمَّا الكئيب، فعقله يكون ألدّ أعدائه، لأنه يصوّر له متاعب، رُبَّما لا وجود لها. ودائماً يضخّم له ما يمكن أن تنتظره من مشاكل. ويغلق أمامه أبواب الحلول..! وإن أراد أن يخرج من بيته، يقول له: لا تنس المتاعب التي ستقابلك!

★★ الإنسان البشوش حقاً، هو الذي يتمتع بالبشاشة الداخلية. فهو ليس فقط بشوشاً في مظهره، من الخارج. بل البشاشة تملك أعماق قلبه وفكره، وتنبع من داخله. فلا يحمل همَّاً...

إذا أخطأ: فبدلاً من أن يفقد بشاشته، يعمل على إصلاح الخطأ. وحينئذ يعيش في سلام داخلي، وفي سلام مع اللَّه...

كثيرون إذا وقعوا في خطأ أو في مشكلة، يكون الرد الطبيعي عندهم هو الكآبة. ولكن الكآبة ليست حلاً عملياً للمشاكل. أمَّا الشخص البشوش، فإنه يبحث عن الحل العملي الذي يتخلَّص به من المشكلة وينقذه من الكآبة. فإن وجد الحل، تزول المشكلة، ويملكه الفرح.

★★ أمَّا الكئيب: فإن المشكلة تستولى على كيانه كله. وبالأكثر عقله ومشاعره. فيظل يُفكِّر في المشكلة وأعماقها وأبعادها، وكيف حدثت، وما يتوقعه من نتائج سوداء لها ...

فيزداد كآبة، ولا يُفكِّر مطلقاً في حل المشكلة. وإن فكَّر في حلٍّ، فإنه يستصعبه ويضع أمامه العقبات ... أو يتخيل أنه لا حلّ..! وهنا تشمل الكآبة كل تفكيره. فلا يبصر الحل وهو موجود! وهكذا يستمر في كآبته، بل تزداد تلك الكآبة. ولا يستطيع أن يكون بشوشاً...

★★ الإنسان البشوش إن لم يجد حلاً لمشاكله، يتركها إلى اللَّه، وينساها في يديه الإلهيتين.

أمَّا الكئيب، فلا يستطيع أن ينسى مشاكله. إنها قائمة دائماً أمام عينيه، تتعبه وتزعجه. وكُلَّما فكَّر فيها، ترهق أعصابه. وربَّما يحتاج إلى طبيب نفسي، يعطيه منوماً أو مهدئاً، لكي تستريح أعصابه. على أن تلك المهدئات، هى مُجرَّد علاج من الخارج، بينما الداخل في تعب...

★★ حسن أن الإنسان البشوش يعطي لنفسه فرصة يعمل فيها اللَّه. وإن أتعبته مشكلة، وعجز فكره عن حلَّها، يُصلِّي واثقاً أن اللَّه لا بد سيتدخل، ولا داعي مُطلقاً للقلق... البشوش يجعل اللَّه بينه وبين المشكلة، فتختفي المشكلة وراء اللَّه. أمَّا الكئيب فيضع المشكلة بينه وبين اللَّه، فلا يرى اللَّه يعمل.

★★ البشوش لا يعطي للمتاعب وزناً فوق وزنها الطبيعي. وكثير من الأمور يأخذها ببساطة، فلا تتعقَّد أمامه. وبطبيعة نفسه لا يتضايق إلاَّ من الأمور التي هي فوق الاحتمال.. وهو في العادة له قلب واسع لا يتضايق لأي سبب، ولا يفقد بشاشته.

★★ إن الإنسان عموماً قد يفقد بشاشته بسبب عدم الاكتفاء. أي أنه لا يكتفي بما عنده، بل يتطلَّع باستمرار إلى طموحات عالية رُبَّما لا تكون سهلة المنال. فإن لم ينلها يكتئب. ولهذا فالإنسان القنوع الراضي بما قسم اللَّه له، يكون دائماً بشوشاً شاكراً.

إنَّ الطامع في منصب كبير أو في مستوى عالي، إن لم تتحقق آماله، فإنه يكتئب ويفقد بشاشته. ومن العجيب أن كبار الأغنياء قد يفقدون بشاشتهم أيضاً، إن أرادوا نمواً لثرواتهم ولم يتحقَّق ذلك. وقد يتحقَّق لهم ما يريدون، ومع ذلك يفقدون البشاشة إذ يجدون أمامهم ضرائب ومستحقات للدولة لا يحبون دفعها كلها. وإن لجأوا إلى التهرب الضريبي، تصدمهم قضايا وأحكام تفقدهم البشاشة أيضاً!!

★★ الإنسان البشوش يحب أن يكون جميع الناس بشوشين مثله. فلذلك هو يحاول دائماً أن ينسيهم أحزانهم، ويشع فيهم الاطمئنان، ويبحث عن حلول لمشاكلهم، ويعطيهم تعليلاً مريحاً لكل الضيقات، ويجلب البهجة لهم مهما حدث...

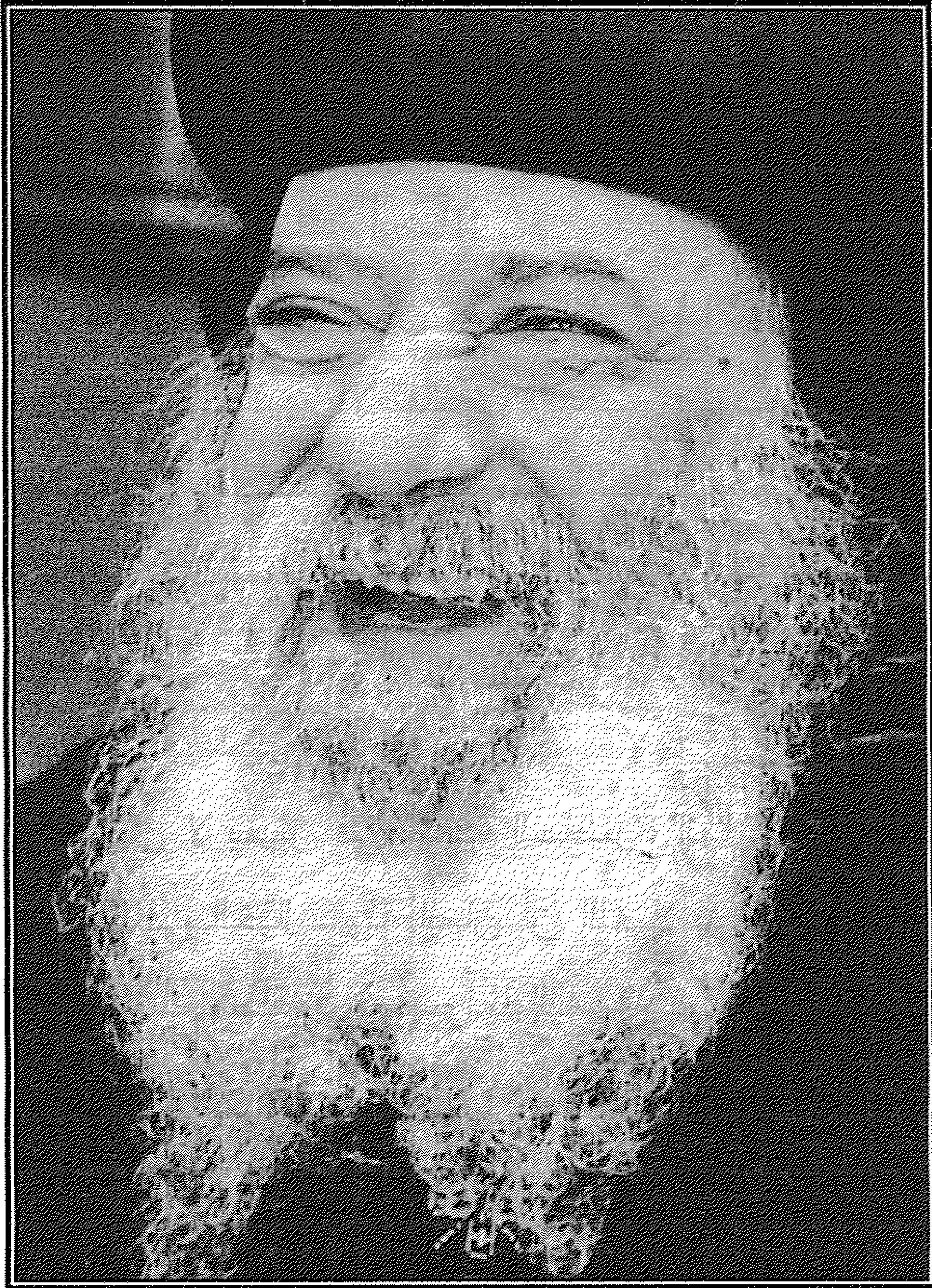
إنه يخفف من قدر المتاعب، ولا يحسب لها ثقلاً. وفي كل مشكلة تحل لغيره، يريحه بأن الرب الحنون المُحب يقول: "تعالوا إليَّ يا جميع التعابى والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم".

★★ الإنسان البشوش لا يعيش في التعب الحاضر، إنما بالرجاء يعيش في الفرح المقبل. يعيش سعيداً ولو في الخيال. وله إيمان أن اللَّه لا بد سينقذه من تعبه. إنه مؤمن بالمعونة الإلهية التي لا يشك مطلقاً في وصولها إليه. إن لم يكن اليوم، فغداً.

★★ هناك مشكلة في موضوع البشاشة وهى أن البعض يخلط بين الجدية والعبوسة، وبين الضحك والخطيئة. وكأن الذي لا يكون عابساً، فهو بالضرورة يكون عابثاً!! أو على الأقل يكون ساهياً عن نفسه، أو غافلاً عن الاهتمام بأبديته وناسياً لخطاياه.

ومن هنا نرى أن بعض المتدينين أو رجال الدين يحرصون دائماً أن يتصفوا بالجدية أو بالتَّزمُّت. وهذا يقودهم إلى أن يكون كل منهم عابساً. ويعتبرون المرح أو البشاشة حراماً..!

وهذا التَّزمُّت له خطورته، لأنهم يخيفون الناس من التدين. أو هــم يقــدمون للنـــاس صورة عن التدين غير سليمة. ونقول: لماذا لا يكون الإنسان متديناً، ومرحاً وبشوشاً فـــي نفس الوقت؟ وهل معنى التدين أن ينفصل الإنسان عن الحياة الاجتماعية وما فيهـــا مـــن مرح وبهجة؟ وهل إذا ضحك المتدين يبكته ضميره؟ وماذا عن الحفـــلات التـــي تتميـــز بالمرح، هل مستواها هابط؟ وماذا عن الطفل الذي يحب أن يضحك، ويحب مَن يضحكه؟ هل نعلّمه التَّزمُّت؟!



٢٩ مارس ٢٠٠٩

توتر الأعصاب

ما هى الأسباب التي تؤدي إلى توتر الأعصاب؟ وكيف يتصرف الإنسان إذا وجد أن أعصابه متوترة؟ وما علاج توتر الأعصاب بصفة عامة؟

إنَّ أسباب توتر الأعصاب: بعضها جسدية، والبعض نفسية أو روحية.

★★ فمن الأسباب الجسدية التعب والإرهاق:

إن الأعصاب تتعب ضمن الجسد المتعب. وتكون في حالة لا تحتمل فيها شيئاً. وأي ضغط عليها أو أيَّة إثارة، تسبب لها توتراً، يظهر في انفعالات الإنسان وتصرفاته:

إنَّ العمل المتواصل يعرض الأعصاب - كما يعرض الجسد كله - إلى الإرهاق. لذلك يحتاج الإنسان إلى الراحة والاسترخاء خلال فترات العمل. كما يحدث مع تلاميذ المدارس: يعطونهم فسحة بين الحصص، يسمونها في الإنجليزية Break، لأنها تكسر حدة العمل المتواصل، وتريح الذهن، كما تريح الجسد، وبالتالي تريح الأعصاب.

★★ ونلاحظ أن اللَّه - تبارك اسمه - قد منحنا يوم راحة في الأسبوع. لأنه وهو الخالق لطبيعتنا، يعرف أن طبيعتنا تحتاج إلى هذه الراحة، كما يعرف أن العمل المتواصل بدون راحة، يُسبِّب للإنسان مشاكل كثيرة.

لذلك احترس من أن تدخل في لقاء أو حوار ساخن، وأنت مُرهَق جسدياً، لأن أعصابك أيضاً تكون مرهقة، ولا تحتمل سخونة الحوار ... بينما إذا تمَّ ذلك اللقاء - وأنت مستريح جسدياً وعصبياً - فإنه يمر بطريقة سهلة، ويأتي بنتيجة أفضل.

إذن لا تعتبر فترات الراحة والاسترخاء لوناً من الترفه، بل هى من لوازم النجاح. وكما لا تدخل في نقاش حاد وأنت مرهق، كذلك لا تدخل في مثل هذا النقاش مع شخص تعرف أنه مرهق، لأن حالته الصحية لا تساعده على التفكير العميق، ولا على مجابهة رأي معارض.

★★ أيضاً قد يكون من أسباب التوتر، مرض الأعصاب:

فالأعصاب المريضة لا تحتمل كثيراً، بل تتوتر بسرعة. وهى تحتاج إلى علاج عند أطباء متخصِّصين. وبعض أمراض الأعصاب لا علاقة لها بالنفسية والأخلاق. مثال ذلك:

شخص مريض بالعمود الفقري، وإحدى الفقرات تضغط على عصب مُعيَّن فتتعبه أو تلهبه. ويكون هذا المريض - في ألمه - غير مُحتمل لحوار أو نِقاش.

بل المرضى عموماً، الذين يشتد عليهم المرض والألم، قد يكونون في حالة من التعب لا تحتمل أي لون من الجدل.

★★ **وقد يكون سبب التوتر، هو أن الشخص عصبي بطبعه**، يثور بسرعة لأدنى سبب. ويحتد ويرتفع صوته، وتتغيَّر لهجته، وتتجهَّم ملامحه. ومثل هذا الشخص يحتاج إلى علاج نفسي، وإلى تداريب روحية على الهدوء وضبط النفس وحُسن معاملة الآخرين.

والمعروف أن كلمة نرفزة مأخوذة من كلمة Nerves أي أعصاب. فابعد عن الاحتكاك بمثل هؤلاء، لئلا تسمع منهم ما لا يرضيك.

★★ وقد يكون سبب توتر الأعصاب، هو طبع العنف أو التَّزمُّت:

فالإنسان الذي يتخذ العنف منهجاً في حياته، تكون طبيعة تصرفاته مصحوبة بالتوتر. ولا يقبل نقاشاً ولا مخالفة له في الرأي. ويحاول أن يصل إلى هدفه بسرعة ومن أقصر الطُّرُق، وبشدة. فلو قوبل عنفه بعنف، يزداد الأمر توتراً من الجانبين.

★★ كذلك الإنسان المُتزمِّت لا يكون واسع الصدر، ولا واسعاً في تفكيره. وتزمّته يجعله يضيِّق على نفسه، وعلى غيره أيضاً، ويكون التعامل معه مشحوناً بالتوتر.

وكما نجد الأشخاص المُتزمّتين ملامحهم عابسة، بجدية متحفزة وعيون ملتهبة، وأعصاب مستعدة للهجوم، مع تعليقات متشدِّدة قاسية: "هذا خطأ، وهذا حرام، وهذا لا يليق".

والمُتزمِّت قد يقيم نفسه رقيباً على جميع الناس، ومصلحاً للمجتمع كله، محاولاً أن يُصلح الكبار كما يصلح الصغار، والذين يعرفهم والذين لا يعرفهم. إنه يثور على كل شيء، في كل مكان، في كل مناسبة وبلا مناسبة ... كل ذلك بأعصاب متوترة.

★★ لذلك، نصيحتي إليك - لكي تهدأ أعصابك وتبعد عن التوتر - أنك لا تقم نفسك رقيباً على غيرك. ولا تتدخل فيما لا يعنيك، ولا تحاسب أحداً إلاَّ ما هو في حدود مسئوليتك الخاصة. أمَّا ما هو خارج ذلك، فلا تحشر نفسك فيه. وقُل لنفسك: "مَن أقامني قاضياً أو محاسباً". بهذا تستريح أعصابك وتهدأ.

★★ وقد يكون سبب التوتر حالة نفسية:

مثل الاضطراب أو القلق، أو الخوف أو الخجل أو التردد. ففي هذه الحالات تتوتَّر الأعصاب، وبخاصة لو لم تجد حلاً، ولم تجد وسيلة للتعبير عمَّا تريد ... ويحتاج الإنسان في هذه الحالة، أن يهدئ نفسه من الداخل.

★★ كذلك قد تتعب الأعصاب، بسبب الأفكار السوداء:

إذ يُفكِّرون بطريقة تشد أعصابهم وتتعبهم. مثال ذلك الذي لا يتوقَّع إلاَّ شراً، ولا يتخيَّل إلاَّ أسوأ النتائج. ومثله الإنسان الشكَّاك، والمُعقَّد، والذي يتمادى بسرعة في تفكيره، بغير حدود، فتتعب أعصابه.

★★ ومن أسباب توتر الأعصاب، الضغوط الخارجية:

مع خطأ التعامل معها. كالمشاكل والضيقات المتتابعة، والتي تبدو صعبة الحل. وأيضاً أخطاء الآخرين ونتائجها، أو قسوتهم وسوء معاملتهم. على أن كل الضغوط الخارجية لا تؤثِّر إلاَّ من جهة نفسية الشخص. فالبعض قد يقابلها باحتمال أو بحكمة، والبعض يقابلها بلا مبالاة أو يجعلها خارج نفسه. والبعض يقابلها بانفعال، وتتوتر أعصابه بسببها.

★★ ومن أسباب التوتر سماع أو قراءة الأخبار المتعبة:

فهى إمَّا أن تكون متعبة في نوعيتها، أو في تكرارها. فالأخبار المزعجة والمقلقة والمثيرة، أو التي تحوي ظلماً أو تسبب شراً، والأخبار المغرضة، والأخبار الكاذبة .. كل هذه كلها تثير الأعصاب وتُسبِّب توتراً. لذلك فالبُعد عن هذه الأخبار يريح النفس، وأيضاً مقابلتها بلا مبالاة ...

★★ من أسباب توتر الأعصاب أيضاً الإلحاح المستمر، والإطالة والتكرار:

ويكون ذلك الإلحاح ضغطاً على أعصابك، وبخاصة إذا قلت للمتكلِّم قد فهمت ما تقصد، ومع ذلك يزيد ويعيد نفس المفهوم. أو إذا وعدته بأنك ستنفذ طلبه، ومع ذلك يلح ويلح، غير مهتم بوقتك أو بأعصابك. أو مَن يشرح لك شيئاً، وتقول له: "قد عرفت" ومع ذلك يطيل الشرح ويُكرِّر الكلام. كل ذلك يسبب توتر الأعصاب.

★★ **مِمَّا يريح أعصابك، أن تتعوَّد البشاشة**، وأن يدخل في حياتك روح المرح. ففي ذلك تنبسط الأعصاب بدلاً من التوتر. وبعكس ذلك يحكم المتزمتون على المرح والضحك بأنه حرام!

وتوتر الأعصاب يعالج أيضاً بالحياة الروحية السليمة. فالإنسان الروحي بعيد عن التوتر، يؤمن أن اللَّه يتدخل في المشاكل لكي يحلَّها، ويؤمن أن كل باب مغلق، له مفتاح يرسله اللَّه، أو عدَّة مفاتيح. وهو إن قرأ عن أخبار متعبة، يضيفها إلى معلوماته وليس إلى أعصابه. ويؤمن أن اللَّه سيحوّلها إلى خير.



٥ أبريل ٢٠٠٩

الكذب وأنواعه

بمناسبة ما يقولونه عن (كذبة أبريل)، وما يدعيه البعض مما يسمى بالكذب الأبيض!! أريد أن أكلمكم في هذا المقال عن الكذب بأنواعه الكثيرة. على الرغم من تعدد الأنواع، الكذب هو الكذب مهما كان شكله.

★★ من بين أنواع الكذب صانعوا الشائعات ومروجوها. وقد يقع في هذا الخطأ أيضاً البسطاء الذين يصدقون كل ما يسمعونه، ويتكلمون عنه بالحقيقة دون فحص أو تأكد. كذلك من يسمع من أمثال هؤلاء ويشترك في نقل الكذب وما شبه.

ما أعمق الحكمة التي تقول: "لا تصدق كل ما يقال" ... فلو كنا نعيش في عالم مثالي كل ما فيه صدق، لكان من الممكن أن نصدق كل خبر. لكن ما دام الكذب موجود في العالم، فيجب علينا أن ندقق ونحقق قبل أن نصدق.

فلا يصح أن يشك أحد في تصرفات صديقه، أو حتى عدوه، بسبب كلام قد سمعه عنه، بدون تحقق دقيق، حتى لو كان قد سمع نفس الكلام من كثيرين. فما أكثر ما يكون كلام هؤلاء جميعاً له مصدراً واحداً خطأ. وربما من يبلّغ الخبر الخطأ، ينطبق عليه قول الشاعر:

أثّر البهتان فيه	وانطوى الزور عليه
يا له من ببغاء	عقله في أذنيه

★★ إن كان نقل الكلام خطيئة ويسبب مشاكل، فأنه أخف الناس ضرراً من ينقلون الكلام كما هو كما يفعل مسجل الصوت "الريكوردر" الأمين الصادق الذي لا يزيد على ما يقل شيئاً. فما أعمق شر الذين ينقلون الكلام بعد أن يضيفوا عليه رأيهم واستنتاجاتهم وأغراضهم أو ما يدعونه عن قصد المتكلم ونياته!! ويقدمون كل ذلك لغيرهم كأنه الكلام المباشر الذي نطق به من قد سمعوه!!.

★★ ما أكثر الأخبار التي تصل إليك وتكون مختلفة تماماً عن الواقع. فقد يدعون إن فلاناً قال وقال، بينما هو لم يقل شيئاً من ذلك كله. وربما لا يشاء ذلك الشخص أن يكذّب

ما قاله. لأن طباعه هى أن يدخل مع غيره في إشكالات. أو أنه يترك الأمور لكي تتكشف فيما بعد. أو أنه لا يعير ما يقل عنه اهتماماً.

★★ من أنواع الكذب أيضاً المبالغة:

وواضح أن المبالغة ليست كلها حقاً ولا صدقاً أياً كان نوعها بالمديح أو الذم: وغالباً ما تكون كلمة "كل" أو كلمة "جميع" تحمل مبالغة ليست كلها صدقاً. كأن يقول شخصاً "كل أهل البلد الفلاني بخلاء!!". بينما يكون من بينهم من يتصفون بالكرم وتكون عبارته كذباً وإدعاء.

من بين أنواع الكذب: النفاق والمحاباة:

النفاق قد يأخذ أيضاً اسماً آخر هو الملق وكلاهما يعنيان المديح الزائف أو المديح الزائد عن الحد. مثل مديح موظف لرئيسه، أو قروي لعمدة بلده. أو ما أشبه. ونرى أن كثيرا من الوصوليين يصلون إلى أغراضهم بغير وجه حق، عن طريق ملق زائف لا يبني على حق. ويرون ذلك أسهل سبيل يوصلهم. وهذه المبالغة وقع فيها كثير من الشعراء، حتى قيل عنهم: "الشعر أعذبه أكذبه".

ويزيد خطأ النفاق بشاعة، إن كان صاحبها بوجهين: أي يتملق شخصاً في وجهه، ويذمه في غيبته.

★★ ومن بين أنواع الكذب: الرياء.

وذلك بأن يظهر الإنسان في صورة يراها الناس على غير حقيقته. وتكون له صفتان مضادتان لبعضهما البعض: صورة حقيقية وهى رديئة وبشعة وصورة أخرى تبدو جميلة ومجيدة وهى التي يراها الناس فلذلك سمي هذا بالرياء. وفي ذلك قال الشاعر:

ثوب الرياء يشفّ عما تحته   فإذا التحفت به فإنك عاري

ويتبع هذا الرياء، أن يمدح الإنسان نفسه بما ليس فيه ويظهر هذا واضحاً فيما يسمونه "الفخر" وبعض الفخر يبدو فيه الكذب واضحاً جداً. ولكنه في صورة بلاغية جميلة. كقول الشاعر: ولو أرسلت رمحي مع جباناً   لكان بهيبتي يلاقي السباعا

★★ ومن أنواع الكذب أيضاً: أنصاف الحقائق. وذلك بأن يخفي المتكلم النصف الآخر من الحقيقة. بينما الذي يذكره يعطي معنى عكسياً. مثل إخفاء عيوب إنسان، وذكر فضائله. أو العكس بإظهار عيوبه فقط وتقديم صورة مشوهة عنه!! وصدق الذي قال: "أن أنصاف الحقائق، ليس فيها إنصاف للحقائق". من أجل هذا يُطلب من الشاهد في المحكمة أن يقول الحق كل الحق.

★★ يظن البعض أن الكذب ينجّي!! ويلجأ إليه المخطئ لإخفاء خطية معينة.

ونصيحتي لهؤلاء أن حبل الكذب قصير. ولا بد أن ينكشف، فتصير الخطية أكبر. وعموما فأن الذي يخاف من انكشاف خطأ يفعله، يجب عليه ألا يفعل ذلك الشيء. وبهذا يستريح من خطايا كثيرة.

★★ يلجأ البعض إلي الكذب بسبب الخوف أو الإحراج أو إلحاح الذي يسأل.

ونصيحتنا أن السكوت أفضل من الكذب. لذلك اصمت أو غير مجرى الحديث، أو أعتذر عن عدم الإجابة. أو تكلم بالصدق في الحدود التي تستطيعها. أو تكلم بصراحة وشجاعة ودافع عما تراه حقاً. أو اعترف بالخطأ واعتذر.

★★ قد يحدث الكذب أحياناً في مجال المجاملة فقد يحابي شخص أهل الميت، فيمدحه وقت تأبينه مديحاً بما ليس فيه، بأسلوب يُتعب السامعين، ويفقدهم الثقة في كلام التأبين.

و نصيحتنا أن يكتفي بمديح الميت بالفضائل المعروفة عنه بغير مبالغة. أو يركز المتكلم كلامه عن الموت والأبدية.

★★ وقد يقع الإنسان في الكذب عن طريق دفاعه عن الخطأ في خطية ثابتة. بينما مبرئ المذنب ومذنب البريء كلاهما لا يرضى اللّه عنهما. لأن كلا منهما ضد الحق وما يقولانه كذب. وربما يقول شخص: أنا لا أريد أن أشوّه سمعة إنسان خاطئ. ولكن عليه أن يحترس جداً إن كان دفاعه عن هذا المذنب يُسبب ضرراً للغير مثال لذلك: لنفرض أن فتاة فاضلة تقدم لخطبتها شاب وأنت تعلم عنه أنه متعب. وإن تزوجها سوف يذيقها المرّ، فإن أخذوا رأيك فيه، هل تُبرأه وهو مذنب؟! وبهذا تضيع مستقبل تلك الفتاة المسكينة الفاضلة!!.

★★ وقد يكون الكذب بسبب الكبرياء أو إخفاء الجهل. كأن يُسأل شخصاً كبير عن أمر هو يجهله. فلكي يظهر أنه يعرف، يجيب أية إجابة خاطئة لخفي جهله بينما لا يضر

الإنسان في شيء أن يقول لا أعرف. وليس من المفروض أن كل شخص يعرف كل الأمور. وعلى رأى المثل: "من قال لا أعرف فقد أفتى".

★★ أحياناً يقف أمامنا سؤال. هل إخفاء بعض الحقائق يُعتبر كذباً؟ والإجابة أنه إن كان الأمر يتعلق بخصوصيات أو أسرار خاصة به أو بغيره، ولا يجوز له أن يكشفها فليس الإخفاء خطأ. وخصوصاً ما يتعلق بسر المهنة... كما أن هناك أموراً من الضرر البالغ إذاعتها إلا من المسؤولين في الوقت المناسب. ويمكنك أن تقول لمن يسأل عن أمر كهذا: "اعفني من هذا السؤال".



١٢ أبريل ٢٠٠٩

قيمة الوقت في حياتنا

الوقت هو جزء من حياتنا. إن ضيّعناه نضيع جزءاً من حياتنا. وإن استخدمناه حسناً نبني به حياتنا. وكما قال الشاعر:

دقّات قلب المرء قائلة له　　　　إن الحياة دقائق وثواني

★★ لذلك وأنا سائر في طريق الحياة، رأيت أشخاصاً لا يكفيهم وقتهم لقضاء مهامهم الكثيرة. فهم يحرصون على كل دقيقة حتى لا تمضي دون عمل نافع. وكثيراً ما يقول الواحد منهم: لست أجد وقتاً...

بينما رأيت في سوق الحياة أشخاصاً آخرين يبحثون عمن يستأجرهم، لكي يأخذ جزءاً من حياتهم ويمنحهم عنه أجراً. وقد يبالغون فيعطونه وقتاً أزيد يُسمى Over Time مقابل أجر إضافي...

وعجبت من بيع الوقت هذا، والمساومة أحياناً في ثمنه، وكيف أن البائعين وقتهم لا يبقى منه شيء لأنفسهم وللنمو بحياتهم الروحية والثقافية وعلاقتهم مع اللّه...

وعجبت بالأكثر لمن يبيعون وقتهم زهيداً. فلا هم يحترمون وقتهم، ولا غيرهم يحترمه. وإن كثر هذا النوع من الناس، تنطبق عليهم القاعدة: "إذا كثر العرض، قلّ الطلب". ومن هنا تظهر البطالة. ويرى هؤلاء أن حياتهم رخيصة، بلا مواهب يحترمها الناس، ويحترمون الوقت الخاص بها..

★★ وأعجب من كل هؤلاء الذين ذكرتهم، نوعية أخرى وهى أولئك الذين يضيعون وقتهم، وينفقون مالاً على إضاعته!!

مثال ذلك الذين يقضون وقتهم في اللهو والعبث، وفي لعب القمار (الميسر)، وفي صالات الرقص حيث يغرسون في أذهانهم مناظر قد تتعبهم فيما بعد، ومشاعر تشوّه نقاوة قلوبهم. ويدفعون ثمن كل ذلك مالاً، وقد يستدينون..

★★ نوع آخر من الناس يقضون وقتهم في التافهات، التي حتى إن لم تكن فيها خطيئة، إلا أن الاستمرار فيها فترات أزيد من المعقول، هى مضيعة للوقت، مثل الجلوس

طويلاً في المقاهي أو في الكازينو ... وكان يمكن استخدام ذلك الوقت في ما يفيد ... هؤلاء لا يعرفون قيمة لوقتهم، ولا يستخدمونه في بناء أنفسهم..

★★ إنني أُدهش أيضاً من الأشخاص الذين لا يعرفون كيف يستغلون وقتهم في شيء نافع، فيدركهم الملل والضجر، ويخرجون من بيوتهم بلا هدف، يبحثون عن وسيلة يتخلصون بها من ذلك الملل. ويفرحون إذ يجدون ما يستطيعون به قتل الوقت!!

بينما قتل الوقت هو قتل جزء من حياتهم. ولكن حياتهم رخيصة إلى هذا الحد! يقيناً أن هؤلاء لم يدركوا بعد طعم الحياة الحقيقية، كما لم يدركوا الهدف الذي من أجله خلقهم اللّه!

★★ في كل هذا وأمثاله، اسأل نفسك: هل وقتك معك أم عليك؟ أي هل تستفيد منه، أم تستخدمه للإضرار بنفسك أو بغيرك؟ أم أنت تريد أن تتخلص من وقتك بأية الطرق؟!

★★ فهناك وقت يقضيه الإنسان في الخطية: سواء في السعي إليها أو التدبير لها أو ارتكابها... وهذا الوقت كله ضده، محسوب عليه في الدنيا وفي الآخرة. وقد يقضي أوقاتاً ضعفه في الندم عليه، وفي تأنيب ضميره له، أو في محاولة معالجة نتائج الخطايا التي ارتكبها فيه. وقد تتحول بعض هذه الخطايا إلى عادات ثابتة، يعسر عليه أن يقاومها، فتستمر معه في وقت أطول وأعمق. وربما يشترك معه غيره في تلك الخطايا، فيضيعون معه. وتصبح خطاياه مزدوجة.

★★ إذن هناك أشخاص لا يضيعون وقتهم فحسب، وإنما يضيعون وقت الآخرين معهم... من أمثلة هؤلاء من يتصل بغيره بالتليفون، ويظل يتحدث ويتحدث إلى غير انتهاء. ولا يراعي وقت من يتحدث إليه، وهل هو متفرغ له أو لا؟ وهل هذه المكالمة تعطل عن بعض مشغولياته الخاصة؟ ولكنه - إذ لا يقيّم أهمية لوقته - لا يقيّم أهمية لوقت غيره...

ومن أمثلة إضاعة الوقت: الأحاديث العادية المملة، وقد تكون في أمور تافهة لا تفيد قائلها ولا سامعها! أو كشخص يسألونه في موضوع ما، فبدلاً من أن يُجيب بكلمة، يحوّل الإجابة إلى محاضرة.

★★ وربما إضاعة الوقت يأتي عن طريق الزيارات: ومنها الزيارات التي يقوم بها البعض فجأة بدون موعد مسبق، اعتماداً على الدالة وزوال الكلفة، وربما تكون في ظروف لا تسمح.. وبخاصة لو كانت في موسم الامتحانات، والطلبة الذين في البيت يحتاجون إلى الهدوء للاستذكار، ويزعجهم ما في الزيارة من ضجيج وأصوات.. وربما يزيد من تعب الزيارة أنواع الحديث التي فيها بلبلة الأفكار.

★★ الإنسان الحكيم يقيم توازناً في توزيع وقته. وكما قال سليمان الحكيم: "لكل شيء تحت السمَوات وقت: للكلام وقت، وللصمت وقت". لذلك فلا يكون اللهو في وقت الاستذكار، ولا قراءة الجرائد في وقت العمل، ولا المزاح في وقت الجدية... بل يختار الشخص العمل المناسب في الوقت المناسب. كذلك في الأمور السياسية، يعرفون ما هو الوقت المناسب للحرب وللسلام وللحوار! ومتى تُقطع العلاقات ومتى ترجع؟

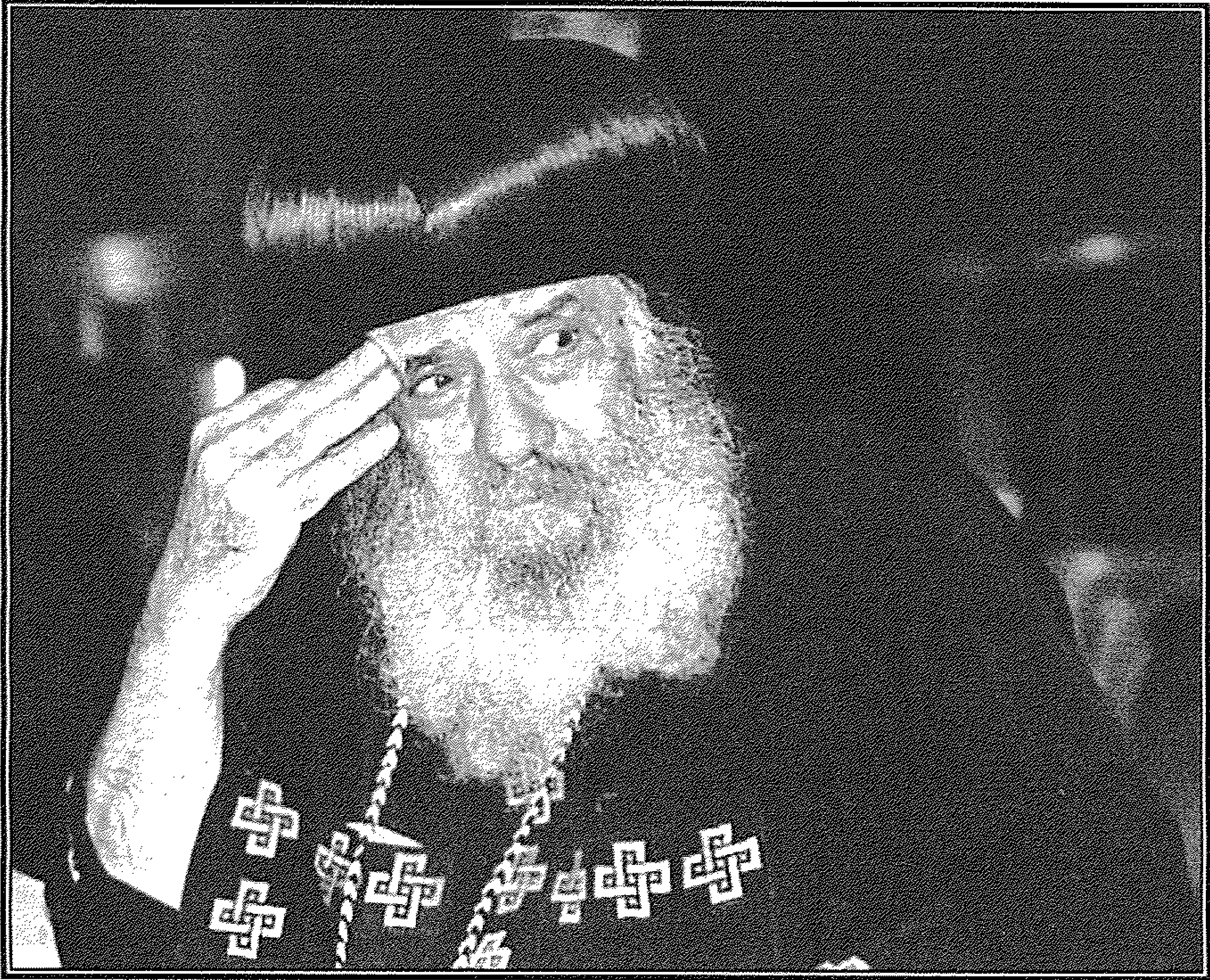
★★ وعلى كل شخص أن يراعي العدل في توزيع الوقت على كافة واجباته ومسئولياته، بحيث لا يهمل أياً منها بسبب انشغاله بغيرها: فمثلاً رجل أعمال ناجح في عمله: لا يصح أن يُعطي كل الوقت للعمل، بينما يهمل أسرته فلا يمنحها وقتاً! في حين أن أولاده وباقي عائلته يحتاجون وقتاً يتمتعون فيه بحنانه واهتمامه!.. أو شخص آخر مخلص جداً لكل مسئولياته، ولكنه لا يُعطي وقتاً لصحته وراحته. وربما نتيجة الإنهاك الشديد يصاب بمرض...

إن التوازن بين وقت التعب ووقت الراحة، أمر هام في حياة كل إنسان. فلا يتمادى في الراحة بحيث يصل إلى الكسل والخمول. ولا يتمادى في التعب بحيث يصل إلى الإنهاك والإجهاد. فيكون له وقت للتفكير العميق، ووقت للاسترخاء من كد الذهن.

★★ وفي عملية التوازن، يراعي كل ما يحتاجه عقله وروحه وجسده، هذه العناصر التي تتكون منها بشريته.. فيعطي وقتاً لبناء ذهنه وثقافته وما يلزمه من المعرفة والعلم، كذلك يلزمه أن يُعطي وقتاً لروحه، وما يلزمها من الصلة باللَّه، ومن فترات لمحاسبة النفس وتقويمها. ولا ينسى في كل ذلك جسده وما يحتاجه من راحة وتقوية وعلاج...

★★ كذلك ينبغي أن يكون وقتنا ثميناً عندنا، نستفيد به في الإنتاج، وفي بناء بلدنا، وفي القيام بكافة واجباتنا الاجتماعية. إن بمجرد مكالمة تليفونية أو زيارة، لكي تُهنئ بها شخصاً أو تعزي فيها آخر، أو تشجع ثالثاً، أو تقوم بواجب نحو مريض،... كل ذلك يُحدث أثراً جميلاً في علاقتك مع الآخرين...

★★ من الحريصين أيضاً على وقتهم والاستفادة به، من يقدمون خدمات للمجتمع بإنتاجهم الفكري، أو بحوثهم العلمية، أو بسائر أنواع الفنون. ولا ننسى أبداً من يستخدم وقته في الاستعداد لحياته الأبدية. وأيضاً في إرشاد الباقين للاهتمام بأبديتهم أيضاً.



١٩ أبريل ٢٠٠٩

لقاءات عجيبة في القيامة

أهنئكم يا إخوتي وأبنائي بعيد القيامة المجيد، راجياً فيه لبلادنا العزيزة سلاماً وأمناً، وراجياً للعالم كله قياماً من سقطته المالية وكل آثارها المؤلمة في جميع الأقطار..

وبعد، نحن قد تعوّدنا في كل عام أن نتحدث عن القيامة العامة، وما تحوي من معانٍ وأفكار وتأملات، عارفين الأهمية العظمى لقيامة الأموات، التي لولاها لتشابه البشر مع الحيوانات والحشرات والهوام، تلك التي تنتهي حياتها بالموت وبعده الفناء... أما البشر فيمتازون بأن لهم حياة أخرى بعد الموت أولها القيامة التي يدخلون بها إلى الحياة الأبدية التي لا تنتهي.

★★ ومن نِعَم القيامة إنها تفتح الباب للقاءات كثيرة وعجيبة ومجيدة، ما كان ممكناً أن تحدث إطلاقاً بدون القيامة...

أول هذه اللقاءات: لقاء اثنين كانا متلازمين ومتزاملين طول العمر كله، لا يفترقان لحظة واحدة. بل إنهما كانا في وحدة عجيبة واندماج فوق الوصف... وأعني بهذين الاثنين: الروح والجسد في كل إنسان. وفي الوحدة التي عاشاها، كانت مشاعرهما تندمج. فإن فرحت الروح، يبتسم الجسد أو يضحك ويتهلل. وإن حزنت الروح، فإن الجسد يكتئب أو يبكي. وإن دخلت الروح في مجال الصلاة، فإن الجسد يركع أو يسجد أو يقف في خشوع وما إلى ذلك من نواحي المشاركة في كل المشاعر والانفعالات التي يسمونها في عالم الطب: "سيكو سوماتيك". حقاً كل منهما للآخر شريك العمر.

هذان الصديقان المتلازمان افترقا بالموت. فصعدت الروح إلى فوق، ونزل الجسد إلى أسفل ودُفن. وبقيت الروح حية لم تمت. أما الجسد فتحلل وتحوّل إلى تراب. ومرّت مئات أو آلاف السنين على الافتراق الكامل بين الروح والجسد.

★★ وأخيراً بالقيامة قام الجسد، وأرسل اللّه الروح لتتحد بالجسد وبلا شك أنها وجدته يختلف في بعض الأحوال عما كان من قبل. لأن اللّه لا يقيم جسداً بعيوب كانت

له. فالأعمى لا يقوم أعمى، بل يقوم ببصرٍ جيد. والأعرج والكسيح لا يقومان كما همـا، بل بأرجل سليمة. وهكذا باقي المعوقين لا يقومون بأية إعاقة. وأيضاً المشـوّه والـدميم يمنحهما الرب في القيامة جمالاً. والذين بُترت أعضاء من جسمه في حوادث أو جراحات، ورُكّبت لهم أعضاء تعويضية، كل أولئك يقومون بأعضاء طبيعية سليمة...

★★ هنا ويقف أمامنا سؤال هو: كيف ستتعرف الروح على جسدها لكيما تتحد به، بعد تلك الغربة الطويلة والتغيرات الكثيرة؟ لا شك أن ذلك معجزة أخرى! هل هي ترجع إلى ذاكرة عجيبة للروح؟ أم أنها نعمة معرفة موهوبة لها؟!

★★ المهم أن كل روح تتحد بجسدها. ثم يقفان معاً أمام اللّه العادل في يوم الحساب الرهيب أو يوم الدينونة العامة لكي يقدما حساباً عن كل ما فعلاه خلال عمرهما الأرضي، خيراً كان أم شراً مما اشتركا فيه معاً. وبعد صدور حكم اللّه عليهما، يذهبان معـاً إلـى مصيرهما الأبدي...

★★ هذا هو اللقاء الأول في القيامة. وماذا عن اللقاء الثاني؟ إنه لقاء الأحباء معاً، والأقارب والمعارف والأصدقاء.. منه لقاء الأسرة التي فُقد لها حبيب بالموت. ومرت على ذلك سنوات لهم في الحزن والبكاء عليه. ثم يكون اللقاء معه في القيامة العامة... إنه لقاء الأرامل بالأزواج، أو لقاء اليتامى بالآباء والأمهات...

وهنا أضع مثالاً نادراً، وهو رجل مات وقد ترك زوجته حبلى، فولدت ابناً بعد موت أبيه، لم يرَ أباه قط، ولا يعرف شكله. هذا كيف سيتعرف على أبيه في وقت القيامة؟!

مثال آخر وهو التعرّف على سلسلة الأنساب: أي تعرّف شخص على جدّه وأبي جدّه، وجدّ جدّه، وجدّ جدّ جدّه، إلى آخر السلسلة؟! من سيقوم بتعريف الأسرة على أصولها..؟!

ثم إذا كانت الأجساد ستقوم روحية غير مادية - كما نعتقد - فكيف سـتكون عمليـة التعرّف أو التعريف؟

★★ ثالث لقاء هو لقاء الناس عموماً، بعضهم بالبعض؟ علماً بأن اللقاء في النعـيم الأبدي سيكون فقط للأبرار مع الأبرار. أما الخطاة فإنهم سيطرحون خارجاً في الظلمـة، بعيداً عن نور اللّه ونور ملائكته وقديسيه...

★★ **وهنا تخطر لي بعض أسئلة منها:**

أم بارة كان لها ابنان: أحدهما بار ذهب إلى السماء، ورأته معها، والابن الآخر لم يستحق أن يدخل السماء، فلم تره أمه، ولن تراه... ماذا يكون شعورها وعاطفتها من نحوه، مع معرفتنا بأن مكان النعيم الأبدي قد هرب منه الحزن والكآبة والتنهد. إنه مكان للفرح الكامل الدائم. فهل تلك الأم التي فقدت أحد ابنيها في الأبدية، سينعم اللَّه عليها بنسيانه تماماً، وكأنه لم يوُلد؟ أم أن مشاعرها ستكون كلها مركزة في اللَّه وفي البر والأبرار، بحيث لا يخطر لها على بال ذلك الابن؟!

مثال آخر: إنسان بار مات قتيلاً. وكان قاتله قد ندم من كل قلبه على القتل، وتاب توبة حقيقية، وقبِل اللَّه توبته وذهب إلى السماء. والتقى القاتل والقتيل معاً في دار النعيم. كيف يكون شعورهما، وفي الأبدية لا توجد مشاعر خاطئة إطلاقاً. يقينياً سيلتقيان بكل مودة وحب وفرح. ولكن من أي نوع ستكون تلك المودة وذلك الفرح؟

★★ النوع الرابع من اللقاء في العالم الآخر، سيكون لقاء شعوب وأمم وأجناس، من الأبرار من كل مكان. من الجنس الآري إلى الجنس الزنجي، وما بينهما من أجناس حسب تقسيم علم الأنثروبولوجي: شعوب بيضاء وسوداء وصفراء بدرجاتها وأنواعها... حشد كبير لا يحصى. لا أدرى كيف سيتعرفون بعضهم على البعض؟ أم أن اللَّه - تبارك اسمه - سوف يصنفهم صفوفاً صفوفاً، وفرقاً فرقاً. حسب درجات إيمانهم ودرجات روحانيتهم ودرجات معرفتهم، والكل أبرار ومقبولون... ولكن هل يمكن لقاء الكل بالكل؟ أم هذا غير ممكن؟ هنا ويقف عقلي محتاراً، لا يعرف كيف يجيب. وعلى رأى الشاعر: "ذو الحجى من قال إني لست أدرى".

★★ وهنا تحضرني قصة أخ أرسل إلى قديس شيخ متوحد، في أيامه الأخيرة يقول له: "اسمح لي يا أبي أن أزورك الآن وأراك قبل أن تنطلق إلى مستواك العالي في الأبدية حيث لا يستطيع ضعيف مثلي أن يقترب". فهل يعني هذا أن درجات الأبرار تكون في مستويات كل منها أعلى من الآخر، وليست الخُلطة متاحة للكل! بل يرون من بعيد دون أن يندمجوا معهم ويعطلوا ما هم فيه من متعة روحية في الأبدية!

★★ إن كان الأمر هكذا فكيف يتاح للأبرار اللقاء الخامس الذي هو اللقاء مع الملائكة وما هم فيه من درجات يعلو بعضها بعضاً؟! أم أن في الحياة الأخرى عشرة مع الملائكة، دون أن يعني هذا اندماجاً شاملاً؟ أم هناك اندماج لأن عدد الملائكة لا يُحصى. فيمكن لأعدادهم الوافرة أن تندمج بالبشر الأبرار، وبدء ذلك الشهداء منهم والأنبياء والرسل وسائر القديسين الذين سيكون لقاء الأبرار بهم نوعاً من اللقاءات في الأبدية...

★★ أخيراً يخيّل إليَّ أنني تناولت موضوعات أعلى من مستوى فهمي البشري. ويكفي أن نقول: إنه ستكون لنا في الأبدية لقاءات عديدة تحدثنا عن أنواعها. أما كانت تلك اللقاءات ونوعيتها، فإنه من الأمور التي لم تعلن لنا، ولا يسوغ لنا الخوض في أعماقها...

★★ ختاماً أرجو لكم كل خير. وكل عام وأنتم في بركة ونعمة، مُصلين من أجل رئيس دولتنا المحبوب محمد حسنى مبارك أن يمنحه الرب قوة خاصة تسنده في جهاده من أجل حفظ السلام في بلادنا وما يحيط بها.



٢٦ أبريل ٢٠٠٩

ما بين الصمت والكلام

يقف أمامنا سؤال هام: أيهما أفضل الصمت أم الكلام؟

لكل شيء تحت السمَوات وقت. فلا يجوز الصمت حين ينبغي الكلام. ولا يجوز الكلام حين يجب الصمت. وقد قال الآباء: الصمت من أجل اللَّه جيد، والكلام من أجل اللَّه جيد. ولقد خلق اللَّه الإنسان كائناً عاقلاً ناطقاً، لكي ينطق ولكن بعقل. كما أن اللَّـه خلق للإنسان أذنين ولساناً واحداً، لكي يسمع أكثر مما يتكلم. كما جعل الأذنين مفتوحتين باستمرار. أما اللسان فجعله في فم مغلق بشفتين وحول اللسان أسوار من الأسنان، كل ذلك لكي يستمع أكثر مما يتكلم. وقد جعل اللَّه الأذنين كلاً منهما في اتجاه. الواحدة منهما في اليمين والأخرى في اليسار. لكي من الناحية الرمزية يستمع الإنسان إلى الرأي وإلى الرأي الآخر. وبين الأذنين توجد الرأس ترمز إلى العقل والفكر، للحكم بين الرأي والرأي الآخر.

★★ والكلام على أنواع: فقد يكون وصفاً أو شرحاً، وقد يكون فخراً أو ذماً في الآخرين. وقد يكون عبادة أو مجوناً، وقد يكون سؤالاً أو حكماً على الآخرين. وقد يكون وعظاً أو تعليقاً على الواعظ. قد يكون نقداً أو إعجاباً ... وفي كل ذلك وغيره ينبغي أن تكون الحكمة مشرفة على ذلك كله.

★★ من جهة المشيرين: يحدث أن أباً في ساعة وفاته يترك وصية لأبنائه. كما يحدث أن يتلقون مشورات من آخرين: من قادة دينيين، ومن مدرسين ومعلمين، ومن بعض ذوي الخبرة، ومن آخرين. وقديماً كان أشخاص يأتون من أقاصي الأرض ليسمعوا كلمة منفعة من أحد المتوحدين في البراري ... كل ذلك تتلقاه الأذنان، ويصل إلى العقل، وإلى الضمير. ويكون الإنسان مستمعاً لا مُتكلِّماً. وأحياناً بالضرورة يلجأ إلى الحوار في ما يسمع، إمَّا لكي يفهم، أو لكي يتأكد. أمَّا المتكلِّمون في أذنيه فيشعرون أن هذا واجباً عليهم.

★★ ومع كل ذلك لقد قدم لنا التاريخ أمثلة من الصامتين: كان النساك المتوحدون يرون أن الصمت أفضل، لأنهم بذلك يتفرغون للحديث مع اللّه وليس مع الناس. أما الصمت بالنسبة للناس العاديين فإنه يُعطيهم مزيداً من التفكير، وبعداً عن أخطاء اللسان. وبالتالي حكمة في التدبير. والإنسان الحكيم إذا سؤل سؤالاً، أحياناً يصمت قليلاً ثم يجيب، لكي يُعطي مجالاً ليُقدِّم أحسن إجابة. وذلك لأن التعمق فيما ينبغي أن يُقال هو أفضل من التَّسرُّع في الإجابة عن شيء قبل فهمه جيداً واستيعابه بعمق.

★★ إن كان حكماء كثيرون قد فضلوا الصمت على الكلام، ففي الواقع ليس كل صمت فضيلة، وليس كل كلام خطيئة أو نقصاً. فكما أننا في بعض الأحيان ندان على كلام خاطئ أو متسرع، فأننا في أحيان أخرى ندان على صمتنا. فالمسألة تحتاج إلى حكمة وتمييز، لنعرف متى نتكلم وبأي أسلوب؟ ومتى نصمت؟ وإلى متى؟ لا شك أن هناك كلام نافعاً ومفيداً حين نتكلم بالصالحات. والصمت حالة سلبية، بينما الكلام حالة إيجابية. وإنما يدرب الناس أنفسهم على الصمت، كحالة وقائية من أخطاء اللسان: إلى أن يتدربوا على الكلام النافع.

★★ وسوف نقدم هنا أمثلة للكلام النافع. وهو كل كلمة تفيد السامع لبنيان عقله وروحه، ولثقافته وهدايته: من ذلك كلمة النصح والإرشاد لمن يحتاج إليها، حتى لا يضل الطريق. وكلمة الحكمة التي يجعلها السامع نبراساً له في طريق الحياة. وكلمة التشجيع لإنسان على حافة اليأس أو في حالة انهيار، لكي تبعث فيه الرجاء من جديد. وكلمة العزاء لشخص حزين. كذلك كلام التعليم على شرط أن يكون تعليماً سليماً. يضاف إلى ذلك كلمة البركة من أب لابنه، أو من أستاذ لتلميذه. كذلك كلمة التوبيخ المخلصة التي تصدر من صديق أو مرشد أو أب، لكي تحذر شخصاً يسير في طريق خاطئ، حتى يصحح سلوكه أو يمتنع عن خطأ سيفعله .... كل ذلك يدخل في نطاق كلام المنفعة، لأن من يسمعه ينتفع به.

★★ ما أكثر كلام المنفعة في الحياة العملية. من أجله تنعقد مؤتمرات التوعية في شتى المجالات: منها مؤتمرات الأسرة ليتكلم فيها متخصصون عن كيف يتعامل الخطيبان معاً، أو كيف يسلك المتزوجون حديثاً في حياة جديدة عليهم، أو كيف تحل المشكلات

الزوجية دون أن تتسع أو تصل إلى المحاكم، ودون أن تدخل فيها الحموات فتُعقّدها، بل ربما يعقد مؤتمر أسري عن مثالية سلوك الحموات الفضليات ... كل ذلك كلام منفعة.

★★ تعقد مؤتمرات للشباب يسمعون فيها مما هم أكبر منهم سناً، وأكثر منهم معرفة، يحدثونهم عن طاقة الشباب في تلك السن وكيف تستخدم، وعن المفهوم السليم لكلمة الحرية، والمفهوم السليم للقوة، وعن النجاح في الحياة وكيف يكون؟ وعن العلاقة المثلى في محيط الأسرة، وبين الأصدقاء وفي المجتمع ... وكل ذلك كلام نافع.

★★ بل حتى في الكليات العسكرية: هناك معلومات وإرشادات تعطى للمبتدئين في كيف يسلكون. يلقيها عليهم القادة أو من هم أقدم منهم رتبة. وحتى بعد التخرج يتلقون إرشادات أخرى عملية.

مَثل آخر هو المؤتمرات العلمية تعقد لكي يستمعوا فيها رجال العلم إلى آخر ما وصل إليه العلم في نقاط معينة.

★★ كل ذلك كلام نافع يسعى إليه الناس للاستفادة. يضاف إليه كلام الحكماء والأدباء والمتخصصين في نطاقهم. وأيضاً كلام المسئولين إلى من هم تحت إدارتهم ... ويعتبر كل ذلك في حدود الواجب، يلام من يقصر فيه.

لا يستطيع الأب أن يقول (الصمت فضيلة)، ويقصر في تربية أولاده! بينما يقول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان مِنَّا ... على ما كان عوَّده أبوه

وكذلك الأم في تربيتها لأطفالها من بدء سنهم.

هناك كلام يدخل في حدود الواجب، وهو لازم وملزم. فلا يجوز التقصير في واجب التعليم والتهذيب والتربية.

★★ كذلك إن صمتنا عن الشهادة للحق، نُدان على صمتنا. وأن أعطى صمتنا مجالاً للباطل أن ينتشر وأن ينتصر، كذلك ندان على صمتنا. وإن قصرنا في إنذار البعض وأضر ذلك بنفسه أو بغيره ندان أيضاً. وهكذا إن رأيت شخصاً يوشك أن يسقط في حفرة،

ولم تحذره، فإن سقط ومات يطالبك اللَّه بدمه ويزعجك ضميرك. بهذا يكون الواجب على الرعاة والقادة أن يتكلموا. ويجب الكلام أيضاً على من كلفهم اللَّه أن يقولوا كلمة الحق ويشهدوا لوصاياه.

وحينئذ تكون الفضيلة أن نتكلم حين يجب الكلام.

★★ أما عن الصمت لكي نتقي أخطاء الكلام. وكذلك الحديث عن أخطاء الكلام وآداب الحديث ... فله منا بمشيئة اللَّه مقال آخر.



٣ مايو ٢٠٠٩

آداب الحديث والمناقشة

هناك آداب كثيرة للحديث والمناقشة سنذكر في هذا المقال بعضاً منها:

★★ إذا جلست لتتحدث مع مجموعة من الناس فلا تأخذ الجلسة كلها لحسابك الخاص. لا تحاول أن تكون المُتكلّم الوحيد، أو المسيطر على دفة النقاش. أعطِ فرصة لغيرك لكي يتحدث هو أيضاً، ويُعبِّر عن رأيه. ولا تُشعر أحداً أنه غريب في مجلسك، بل شجّعه وقُل له في مودة: (يسرنا أن نسمع رأيك).

★★ حبّذا لو كنت في الحوار آخِر المُتكلِّمين. وليكن لتأخرك في الحديث هدفان: هما الأدب والحكمة.

أمَّا الحكمة فهى لكي تكون لك فرصة في أن تدرس موضوع الحديث جيداً قبل أن تتكلَّم فيه مع الحاضرين. وأن تستعرض في ذهنك كل وجهات النظر وبراهينها وأسانيدها. حتى إذا ما تحدثت، يكون ذلك عن دراية ومعرفة. وتكون قد أعطيت غيرك فرصة للتعبير، وأعطيت نفسك فرصة للاستيعاب والتفكير.

أمَّا الأدب فهو أن تُفضِّل غيرك على نفسك. تُقدّمه عليك في الحديث احتراماً لرأيه، أو لسنه، أو لرتبته في إبداء الرأي، أو لخبرته.

وفي هذا الأدب لا تحاول أن تُجيب بنفسك على كل سؤال، وبخاصة الموجَّه إلى غيرك. وانتظر إلى أن يتكلَّم الآخرون. وإن كان هناك ما يحتاج إلى إضافة، اذكره في اتضاع مع احترامك لكل ما قيل من قبل.

★★ في حديثك راعِ الدقة والدماثة. بهذا تكسب محبة السامعين واحترامهم، إذ تستأسرهم برقة أسلوبك. وهذه الرقة في الحديث تتمشى مع فضيلة الوداعة. والإنسان الوديع يتناقش بطريقة طيبة، ولا تصدر منه كلمة قاسية أو جارحة. وفي هذه الرقة أو الوداعة لا تحتد على أحد. ولا تتفاخر برأي حسن قد أبديته.

★★ وإن سُئلت عن موضوع لم تدرسه، فلا تدعِ معرفتك بكل شيء. ويمكن أن تقول: (أسف إنني لم أدرس هذا الموضوع جيداً). وعلى رأي المثل: (مَن قال لا أعرف فقد أفتى).

ولا تظن أن قولك هذا يُقلِّل من كرامتك. بل على العكس يزيد الناس ثقة بما تقوله.

★★ وطبعاً يقتفي الاتضاع الأدب، أنك لا تُقاطع غيرك أثناء حديثه، لا تسكته لكي تتكلَّم أنت. فإن هذا يدل على عدم احترامك لمحدثك. ويحدث أحياناً إذا ما قاطعت غيرك في الحديث، أنه لا يقبل ذلك منك. ويُقاطعك هو الآخر. ولا يكون مستعداً لسماعك. وتتبادلان المقاطعة أنتما معاً بدون فائدة. وتختلط كلماتكما بطريقة مشوشة، وأسلوب مُعثِر للآخرين. ويبدو للسامعين أنكما لستما في حوار وإنما في شجار.

★★ وإن كنت في حوار وأخطأ مَن تحاوره، فلا تكشفه بطريقة تحرجه أو تخجله. ولا تتهكَّم عليه. ولا تتعرض لأخطائه في قسوة. اظهر الرأي السليم في إيجابية ووقار دون أن تُحطِّم غيرك. خُذ الخير الذي في كلام محدثك وأترك الباقي. وامتدح النقاط البيضاء السليمة التي في حديث مَن أخطأ، قبل أن تتعرَّض للرد على أخطائه. وليكن كلامك كله في موضوعية وإيجابية.

★★ إن كنت تعرف ما سيقوله مُحدثك، سواء كان ذلك في قصة أو فكاهة أو في اقتباس ما، فلا تخجله وتسكته. بل استمع إلى كلامه في هدوء، كما لو كنت تسمعه لأول مرة. واظهر إعجابك بما يستحق الإعجاب فيما تسمعه. ولا تسبقه بالكلام، أو تُكمِّل له ما يريد أن يقوله. فيضطر أن يقطع حديثه ويصمت في خجل.

★★ لا يكن هدفك من النقاش أن تغلب الناس وتهزمهم. بل الأفيد أن تربحهم وأن تقنعهم. لا أن تخسرهم بكسب المناقشة. إنَّ بعض الناس يظنون أن الانتصار يكون في تحطيم مناقشيهم، أو في إضحاك الناس عليهم! لكن الإنسان الناجح هو الذي يربح مَن يُناقشه، وبهذا يربح المناقشة.

إن القديس ديديموس الضرير استطاع أن يهدي إلى الإيمان كثير من الفلاسفة الوثنين، وذلك بأسلوبه المُهذَّب في الحوار معهم.

★★ كُن دقيقاً في كلامك وفي اختيار الألفاظ. وهنـــاك كلمـــات كثيـــرة يمكنـــك أن تستبدلها بغيرها، ويكون ذلك أفضل وأصوب، وأكثر دقة، وأيضاً يكون أخف وقعاً علـــى آذان الناس وعلى قلوبهم، ويؤدِّي نفس المعنى دون أن تخطئ.

فكُن حكيماً في اختيار الألفاظ. وقل كل كلمة بميزان دقيق. ولا تبالغ، فالمُبالغة تتنافى مع الحق، وتكون مكشوفة وغير مقبولة.

★★ ليكن كلامك بقدر. وحافظ على وقت مُحدِّثك. فلا يصح أن تطيل الكـــلام فـــي موضوع لا يستحق الإطالة فيه. أو في موضوع لا يهم مُحدِّثك في قليل أو كثير. ولا تُطل الحديث مع إنسان يكون مشغولاً، والوقت غير مناسب، أو هو يريد أن ينهـــي الحـــديث. سواء كان صريحاً في ذلك أو يمنعه خجله. لذلك من الخير أن تبادر أنت بإنهاء الحـــديث في لياقة. ولا تنتظر أن يَملّ هو، أو يقلق بسبب مشغولياته الأخرى.

لا تكن كثير الشروحات أو طويل المقدمات وبخاصة إن كنت تتحدث مع إنسان ذكي يفهم بسرعة، أو مع إنسان قد أدرك تماماً ما تريد أن تقوله، وليس في حاجة إلى توضيح أكثر. وإلا تصبح شروحاتك وإطالتك ضغطاً على أعصابه.

★★ في حديثك مع الناس، لا تضغط عليهم في معرفة أسرارهم، أو أسرار غيرهم. ولا تكن لحوحاً في ذلك. واحترس جداً من الأسئلة التي تمـــس حيـــاة النـــاس الخاصـــة. ولا تحاول أن تعرف ما ليس من حقك أن تعرفه، ولا ما يحرص غيرك علـــى كتمانـــه. سواء كان ذلك فيما يتعلق به، أو بأقاربه أو بأصدقائه أو بمعارفه.

ينبغي أن تحترم خصوصيات الناس. ولا تصر على كشف ما يريد غيرك أن يســـتره أو يغطيه. فليس هذا نافعاً لك ولا لهم. وإن وجدته غير مستعد لما تريده منه، فلا تصـــرّ على طلبك، متجاهلاً أعصابه ونفسيته. إن كان عازفاً عن الإجابة، فلا بد أن هناك ســـبباً يدعوه إلى ذلك. فلا تضغط عليه.

★★ في المناقشة إن وجدت الحق في الجانب الآخر، فلا تُغالط. فإن المغالطة تفقدك احترام الناس. ومن الخير لك أن تقول لمناقشك أنت على حق في هذه النقطة. وبهذا تكسب تقديره لك. أمَّا إذا كُنت صاحب الرأي الصواب، وتنازل مُحدثك عن رأيه، تتركه ينسحب دون إذلال، ولا تحاول أن تريق ماء وجهه في انسحابه. وهناك أمور مـــن الأفضـــل أن تناقش فيها غيرك على انفراد. وربما يعترف بخطئه أمامك ولا يستطيع ذلك أمام الناس.

١٠ مايو ٢٠٠٩

خطورة خطايا اللسان

أخطاء اللسان كثيرة نذكر عينات منها:

★★ منها خطايا الكذب، مثل الكذب الصريح، أنصاف الحقائق، كلمات الغش والخداع، والتضليل والتلفيق. وشهادة الزور، والمبالغة والمكر. من المبالغة أحياناً كأن تقول: كل سكان البلدة الفلانية بخلاء! وقطعاً ليس الكل كذلك. أو أن تقول: جميع الشعب غاضبون! بينما أنت لا تعرف مشاعر الجميع. عموماً كلمة كل أو جميع لا تخلو أحياناً من الخطأ.

★★ ومن أخطاء اللسان أيضاً كلمات الإساءة إلى الآخرين: مثل كلام الشتيمة والنرفزة، والسبّ واللعن، وتحقير الآخرين، والتهكم عليهم. ومسك سيرتهم، والغيبة والنميمة والدسيسة. وكذلك ألفاظ التهديد والتعيير والتشهير بالآخرين، وإفشاء أسرار الناس، وإلقاء المسؤولية عليهم، ونشر الشائعات المسيئة.

★★ ومن أخطاء اللسان أيضاً ما يتنافى مع العفة: مثل القصص البطالة، والفكاهات الماجنة، والأغاني العالمية. وكل كلام الإغراء الجنسي، والأسلوب غير المهذب، والعبارات الوقحة. وكل ما تستحي الأذن الطاهرة من سماعه.

ومن الأخطاء أيضاً كلام القسوة، مثل الكلام الجارح الموجع الذي لا يبالي قائله بمشاعر مَن يتحدَّث إليه. وكذلك ألفاظ التخويف وما إليه.

★★ ومن أخطاء اللسان ما يمس العقيدة والإيمان: مثل كلام التجديف، ونشر الشكوك في المعتقدات والمُسلَّمات، ونشر البدع وتشويه أفكار البسطاء بالخرافات والأساطير، وغير المعقول ولا مقبول. واستخدام اسم اللَّه باطلاً فيما لا يجوز.

★★ ومن أخطاء اللسان ما يتعلَّق بتعظيم النفس: كعبارات الكبرياء والخيلاء، والافتخار الباطل بالنفس، ومحاولة تبرير الذات في أخطائها، ومقاطعة الآخرين أثناء كلامهم، والكلام بغطرسة، وأن يرفع الصغير صوته على مَن هو أكبر منه، وكذلك كلام العناد والمقاوحة.

ومن الناحية الأخرى الكلام الخاص بصغر النفس: مثل كلام التملق والمديح الزائد الزائف، والسلوك بلسانين، وكلام النفاق والرياء، وكثرة الشكوى والتذمر وعبارات اليأس.

★★ ومن خطورة أخطاء اللسان:

(١) أن الكلمة التي تخرج من فمك لا تستطيع أن تسترجعها أبداً. وربما تندم عليها، أو تحاول تبريرها أو الاعتذار عنها. ومع كل ذلك كل ما تقوله قد سمعه غيرك بكل ما يحمل السماع من تأثرات. وهنا تختلف خطايا اللسان عن خطايا الفكر والقلب التي هى في داخلك القاصرة عليك وحدك ولم تتكشف للآخرين.

(٢) خطورة أخرى من خطايا اللسان هى تأثيرها على السامعين. ولنفرض مثلاً أن مشاعرك ساءت من جهة إنسان، ومازال الأمر داخل قلبك لم يصل بعد إلى مَن فكَّرت بالسوء من نحوه. فإلى هنا لا تسوء العلاقة بينك وبينه. أمَّا إن كشفت مشاعرك بألفاظ أساءت إليه، فمن الصعب أن تعالج الأمر. لم يعد الأمر حينئذ قاصراً على خطية داخلك، إنما تطور إلى علاقة خارجية. وربَّما تحاول أن تصلح هذه العلاقة فلا تستطيع. أو أن تصالح مَن سمع إساءتك إليه فيرفض ذلك، لأنَّ ردود الفعل التي حدثت نتيجة كلماتك، مازال تأثيرها يعمل داخل قلبك. وقد لا يعرض الأمر بسلام، لأنَّ كلامك قد سمعه آخرون. وهنا تتسع الدائرة. ويتحمس له الذين سمعوا، أو قد تتغير قلوبهم من نحوك، أو قد يرد عليك بالمثل .. وفي كل ذلك ربما تؤخذ عليك فكرة لا تعجبك ولا تستطيع أن تغيرها.

وبقدر ما يكون كلامك جارحاً، فعلى هذا القدر يكون تأثيره أعمق. وقد يزداد التأثير إن كانت لهجة صوتك تماثل قسوة ألفاظك. وقد يدخل كل ذلك لذاكرة الناس رُبما لا تنسى.

★★ خطورة أخرى لأخطاء اللسان: وهى أنك قد تخطئ وتندم وتتوب، ولكن أخطائك تسبب ردود فعل وخطايا لغيرك قد لا يتوب عنها. وقد تسبب لغيرك عقداً نفسية من جهتك أو من جهة أمثالك. ويغرس كلامك في قلوب البعض شكوكاً بمَن قد شهَّرت بهم. وتكون أنت المسؤول عمَّا سببَّته لغيرك من أخطاء على الرغم من توبتك.

وإن كان ما أخطأت به بلسانك ليس إساءات للناس، إنما حكايات ماجنة وكلمات بذيئة، صار يرددها مَن سمعها منك على الرغم من توبتك. وتكون أنت على الرغم من التوبة مسؤولاً عن خطايا لسانك بالنسبة لغيرك.

وأحياناً يكون خطأ لسانك مثالاً خاطئاً قدمته لِمَن هو أصغر منك وصار يتبعه. ورُبَّما تغير أنت تعليمك الخاطئ. بينما يستمر بعض السامعين في ترديده، وتكون مسؤولاً عنه. فماذا يكون موقف ضميرك حينئذ؟

★★ إن خطايا اللسان ليست عقيمة، فما أكثر أولادها ... ولا شكَّ أن الكلمة مسؤولية، سواء إن سُمِعَت أو كُتِبَت. وسعيد مَن يشعر بهذه المسؤولية، ويقدرها حق قدرها.

★★ من خطورة خطية اللسان إنها ليست قاصرة على اللسان. بل هى أولاً خطية قلب عبرت على العقل ثم عبَّر عنها اللسان. فالذي يتكلَّم مثلاً بألفاظ قاسية، واضح أن القسوة في قلبه. وكل ألفاظه الخاطئة تدل على وجود نفس الخطأ داخل القلب. إذن فخطية اللسان هى خطية مركبة: خطية لسان وخطية قلب وخطية فكر. لذلك الذي يريد أن يصلح أخطاء لسانه ويتخلص منها عليه أن يصلح أولاً جذورها في قلبه.

★★ خطية اللسان إذن في الترتيب الزمني هى الخطية الثانية أو الثالثة، أمّا الأولى ففي القلب. وأحياناً تكون خطية اللسان ابنة لخطيةٍ أم. فمثلاً الذي يكذب بلسانه، قد يكون ذلك لكي يغطي على خطية أخرى قد ارتكبها، أو خطية يريد أن يرتكبها. وفي حالة هذه التغطية باللسان تكون في قلبه إمَّا مشاعر الخوف مما ارتكبه، أو مشاعر الشهوة مما يريد أن يرتكبه. وخطية النرفزة مثلاً ترتبط بخطية أخرى هى عدم الاحتمال. وخطية الألفاظ القاسية ترتبط بعدم المحبة أو بعدم احترام الذي يسمع.

★★ إن أدركت خطورة خطايا اللسان وخطورة نتائجها، فاحرص دائماً على أنك لا تخطئ بلسانك مهما كانت الأسباب. تدرب على أن تترك الألفاظ غير اللائقة التي تعودت عليها. وتدرب على أن تحترم سامعك قبل أن تُسيء إليه.

١٧ مايو ٢٠٠٩

الكآبة
أنواعها وعلاجها

الكآبة المؤقتة قد تكون طبيعية تماماً. أمَّا الكآبة الدائمة فغالباً ما تكون مرضاً يحتاج إلى علاج.

فالكآبة المؤقتة: مثالها إنسان يكتئب بسبب خطاياه نادماً عليها. وهذا شيء مقدس ونافع أو يكتئب بسبب حالة محزنة في المجتمع، وهذا أيضا شيء طبيعي. والكآبة بسبب الخطيئة والسقوط قد تقود إلى توبة وإلى طلب المغفرة. وهذا النوع من الكآبة مقدس. فالشخص الذي لا يحزن بسبب خطاياه، هو إنسان مستهتر لا يشعر بما هو فيه من سقوط ومن مخالفة لوصايا اللَّه. كما أن الشخص الذي لا تحزنه مآسي اجتماعية هو إنسان لا يُشارك المجتمع، ولا يتأثر بأحواله.

★★ وهناك كآبة أخرى طبيعية: ومن أمثلتها حزن إنسان على وفاة شخص عزيز عليه، أو حزن شخص على فشل مشروع قام به، أو على عدم نجاحه في الامتحان، أو عدم وصوله إلى غرض كان يريده أو وظيفة كان يتقدَّم إليها. على أن هذا النوع الطبيعي من الكآبة ينبغي أن يكون له حد زمني فلا يستمر.

★★ وهناك من الكآبة الخاطئة، أي التي تحوي خطيئة داخلها: مثالها كآبة شخص في قلبه شهوة خاطئة لم يستطع أن يحققها. أو كآبة أخرى سببها الغيرة والحسد. كأن يحزن شخص يشعر أن غيره قد حصل على شيء نافع كان يتمناه هو، أو يرى أنه أحق منه بذلك الخير.

ومن أمثلة هذا النوع حزن تلميذ لفشله في القدرة على الغش أثناء الامتحان. أو كآبة شخص في أنه لم يستطع الانتقام من غريم له. إن الفشل في ارتكاب خطية، يكون الحزن عليه خطيئة أخرى.

★★ وهناك كآبة سببها اليأس. واليأس في حد ذاته خطأ نفسي. فالمفروض في شخص إذا فاتته فرصة، أن يلتمس غيرها، لا أن ييأس.

وهناك كآبة إنسان ينحصر بالضيقات، ويبقى فيها حزيناً بلا رجاء. كشخص يُجمع المشاكل ويكوّمها أمامه، ويقف حزيناً بلا حل وبلا رجاء وبلا اتكال على اللَّه. لذلك إن أحاطت بك المشاكل، ضع رحمة اللَّه بينك وبينها، فتختفي ولا يظهر أمامك إلاَّ عمل اللَّه الشفوق من أجلك.

★★ وهناك كآبة سببها الحساسية الزائدة: إذ قد يوجد إنسان حساس جداً نحو كرامته، أو حساس جداً نحو حقوقه. يتضايق بشدة لأي سبب، أو لأقل سبب، أو بلا سبب! يريد معاملة خاصة في منتهى الرقة، في منتهى الدقة، في منتهى الحرص. فإن لم يجدها، وطبعاً نادراً ما يجدها، حينئذ يكتئب.

★★ وقد تأتي الكآبة أيضاً للذين لا يعيشون في الواقع بل يرفضونه. ولا يكون لهم بديل عنه سوى خيال لا يتحقق. فهُم حزانى على وضعهم. ولا يحاولون تغييره بطريقة عملية توصلهم إلى ما يريدون. إنما يكتفون بالحزن والثورة على ما هم فيه. ويبقون حيث هم في كآبة وفي سخط على كل شيء. وإن أتتهم لحظات سعادة، نتيجة لبعض أحلام اليقظة التي يسببها الخيال. يستيقظون من أحلامهم وخيالهم، ليجدوا واقعهم كما هو، فيزدادون سخطاً وكآبة. ونصيحتنا لهؤلاء أن يكونوا واقعين. فإمَّا أن يعيشوا قانعين بما هم فيه. وإمَّا أن يعملوا على تغييره بطريقة عملية ترضيهم.

★★ وقد يأتي الاكتئاب بسبب ضيق الصدر وعدم الاحتمال. فالإنسان الواسع الصدر والقلب، يستطيع أن يبرر أشياء كثيرة، تذوب في قلبه الواسع فلا يضيق بها. كذلك سعة الفكر تعالج الكآبة، فالإنسان الذكي إذا أحاطت به مشكلة أو ضيقة، فإنه بدلاً من إرهاق أعصابه ونفسيته بالمشكلة ومتاعبها، يُشغل ذهنه لإيجاد حل للخروج منها. وإن لم يجد الحل، يصبر، ويعطي المشكلة مدى زمنياً تزول فيه. أمَّا كآبة الإنسان بسبب المشاكل، فقد يكون سببها قلة الحيلة.

★★ وقد تحدث الكآبة بسبب حرب خارجية من عدو الخير، دون ما سبب ظاهر. فهو يغرس في النفس أسباباً للضيق ولو يخترعها اختراعاً، أو يكبِّر ويُضخِّم في أسباب تافهة لا تدعو إلى الكآبة ... أو يوجد الشخص في جو من التردد وعدم الثبات يكون سبباً للكآبة.

★★ ومن أسباب الكآبة والقلق، الشكّ إذا استمر في حالة تحطم فيها النفس. سواء كان شكًّا في إخلاص صديق، أو في أمانة زوجة وعفّتها، أو كان شكًّا في حفظ اللَّه ومعونته، أو شكًّا في الإيمان. أو قد يكون الشكّ في الطريق الذي يسلكه الإنسان هل هو نافع له أم ضار؟ أو قد يكون شكًّا في تدابير تُدبَّر له من عدو وهو لا يدري. إن أفكار الشكّ تخرج من العقل لكي تسبب عذاباً للنفس وتقود إلى الكآبة.

★★ ننتقل من كل هذا إلى الكآبة المرضية. حيث تتحوّل الكآبة إلى مرض، إذ تضغط فيها الأفكار على الشخص حتى تُحطِّم كل معنوياته، وتزيل منه كل بشاشة.

فكر الكآبة يلصق بالمريض ولا يفارقه. يكون معه في جلوسه وفي مشيه وفي نومه وفي صحوه، بتخيلات سوداء كلها حزن وقلق وخوف، وصور كئيبة أمامه بلا حل ولا رجاء. إنها كآبة تُضيِّع حياته وروحياته ونفسيته وعقله، لاقتناع داخله أنه قد ضاع وانتهى.

وقد تصور له كآبته المرضية أن أصدقاءه ما عادوا يحبونه كما كانوا في القديم، أو أن اللَّه نفسه قد تخلَّى عنه، أو أن توبته لم تعُد مقبولة. وكل ذلك يوقعه في اليأس والكآبة.

★★ وقد يكون سبب الكآبة المرضية هو عقدة الذنب: كأن يموت له أب أو ابن، فيشعر أنه السبب في موته. أو أنه قصَّر في علاجه والاهتمام به حتى مات. ويظل هذا الأمر يتعبه ويجلب له حزناً لا ينقطع.

وربّما يكون سبب الكآبة أنه وقع في مرض يظن أنه بلا شفاء. أو يتوقع له نتائج خطيرة يصورها له الوهم بأسلوب يُتعب نفسيته.

★★ بقى أن نحدثك عن أعراض أخرى للكآبة، وعن طرق لعلاج الكآبة، ما ينفع منها وما لا ينفع، وعن بعض نتائج للكآبة. وهذه كلها لا يتسع لها هذا المقال. فاستأذنك في تكملة هذا لموضوع في المقال المقبل.

٢٤ مايو ٢٠٠٩

مرض الكآبة، وعلاجات عديدة

تحدَّثنا من قبل عن الكآبة الطبيعية التي تزول بوقتها. ونحب اليوم أن نتحدث عن الكآبة كمرض. حيث يكون المصاب بها ساهماً باستمرار كئيب الوجه والملامح، وأحياناً كثير الشكوى وكثير البكاء. تطحنه الأفكار السوداء بلا رجاء. ويظن أن حالته لا حلَّ لها، وربُّما ينتظره أسوأ مِمَّا هو كائن. وهو إمَّا أن ينزوي وينطوي. وإمَّا أن يجد الشخص الذي يستريح إليه، طبيباً كان أو مرشداً، فيظل يُكثر التَّردُّد عليه، وإطالة الحوار معه، حتى يهرب منه ذلك المريح، فتزداد كآبته، لأنه فقد من يريحه.

★★ والمُصاب بالكآبة المرضية كثيراً ما يتشبَّث بفكره المحزن. وكُلَّما يخرجونه منه يعود إليه. وإن ظنَّ أنه شفى من مرض الكآبة، يعود إليه مرة أخرى ... وربُّما يُفكِّر في الانتحار لكي يتخلَّص من آلامه. ولكنه ربُّما يرفض فكرة الانتحار بسبب تدينه. أو بأنه يُفضِّل الكآبة على الموت، أو لأنه يحاول أن يحل مشاكله عن طريق الخيال. وعموماً فالكآبة لها تأثيرها السيئ على صحته، تُنهك أعصابه، وتتعب نفسيته.

★★ من المُهم لمثل هذا المريض أن يشعر أن الكآبة ليست علاجاً لمشاكله. وعليه أن يعرف أنه بالكآبة قد أتعب نفسه بالأكثر، وربُّما بسببها فقد علاقته مع كثيرين. وأصبحت كآبته بسبب المشكلة، هى مشكلة أضخم من المشكلة التي اكتئب بسببها، مع بقاء المشكلة الأصلية لم تُحل. إذن ينبغي أن يكون واقعياً ويفكر في حل لمشاكله، ولا يركز على الاكتئاب. أو على الأقل لا يجعل كآبته تطول وتستمر، ولا يكشف نفسه أمام الناس، ولا يجعلهم ينظرون إليه في إشفاق أو في يأس. نقول لمثل هذا الشخص: حاول أن تكون أقوى من المشكلة. أو على الأقل آمن أن اللَّه قادر أن يحل المشاكل...

★★ ولكنه قد يقول: كيف أنسى المشكلة وهى لاصقة بذهني أكثر من التصاق جلدي بلحمي؟! أُفكِّر فيها كل حين، في جلوسي مع الناس وفي وجودي وحدي. لا أتحدَّث في موضوع سواها، ولا أُفكِّر إلاَّ فيها.

★★ نُقدّم لمثل هذا الشخص حلاً عملياً وهو المشغولية. حـاول أن تشـغل نفسـك باستمرار لكي تهرب من هذا الفكر الكئيب. فمداومة التفكير فيه تضرك من كـل ناحيـة، جسدياً وعصبياً ونفسياً، وترهقك بلا حل. قُل لنفسك: كفاني تعباً من هذا التفكير الذي لـم يفدني بشيء. لذلك اشغل نفسك باستمرار لكي تستريح أعصابك من إرهاق الفكر.

★★ غير أن البعض قد يرفضون العمل أو يهربون منه لكي يخلو عقلهم مع الفكر. لذلك إن قبلوا العمل تكون علامة صحية. تدل على أنهم قبلوا الاستغناء عن الفكر الكئيب ولو قليلاً خلال فترة العمل.

وأحياناً يكون رفضهم للعمل بحجة أن أعصابهم مرهقة، وقدرتهم الجسدية لا تمكنهم من العمل! وقد تكون هذه حجة وهمية، أو يكون وراءها عامل نفساني. ولذلك قد تقدم له بدلاً من العمل، بعض ألوان من التسلية والترفيهات.

★★ هناك علاج آخر هو بعض أنواع من الموسيقى لها تأثير قـوي علـى الـنفس تريحها وتهدئها. ويمكن اختيار قِطَع الموسيقى المفيدة التي لا تضر روحياً ... بل يكـون لها العمق والتأثير والقدرة على نقل المشاعر المتألِّمة وفـتح أبـواب الرجـاء أمامهـا. ولا نقصد بالموسيقى المرتبطة بالغناء. وهناك موسيقى عميقة لا يصاحبها الغناء.

★★ على أن بعض المرضى بالاكتئاب يلجئون إلى العلاج بالعقاقير وإلـى العـلاج النفسي. وقد تكون العقاقير للتهدئة. فإذا هدأت الأعصاب تصبح في حالة تسمح بـالعلاج النفسي. ولكن لا يصح أن تكون العقاقير علاجاً دائماً أو العـلاج الوحيـد. إن المـريض بالكآبة قد يأخذ المهدئات أو المُسكّنات أو المنومات لكي يستريح من الفكر الذي يتعبه. وقد ينام ثم يصحو فيجد الفكر مازال أمامه ... لذلك فلتكن تمهيداً للعلاج النفسي.

★★ وممّا يفيد في البُعد عن الكآبة، البُعد عن التدين المريض، الذي فيـه يجعلـون الصرامة في معاملة النفس، ومعاملة الآخرين مبدأ روحياً. أو التدين المريض الذي يتبـع مثاليات فوق طاقته فإذا لم يستطعها يكتئب. وللأسف فإن بعض المرشدين لا يتحدّثون عن الفرح والبشاشة. ويعتبرون ذلك ضد التوبة، بينما اللّه يريدنا دائماً أن نكون فـرحين. إن مثل هؤلاء المرشدين قد يقدمون للناس بحياتهم قدوة كئيبة. وحيث يهـرب الـبعض مـن التدين لئلا يصير في تلك الصورة المحزنة الدائمة التجهُّم التي لا تضحك أبداً، وقد فقدت البشاشة والابتسامة والوجه المضيء!

★★ نقول أيضاً أنه يوجد علاج روحي كذلك للكآبة. في مقدمته الإيمان بأن اللَّه يهتم بنا ويحل مشاكلنا. وأن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون اللَّه. وحتى إن وجدت بعض التجارب فإنها تكون لفائدتنا، ويكون لها وقت محدود تزول فيه.

★★ من علاج الكآبة أيضاً: الصبر. والإنسان الروحي الواسع الصدر يعطي مدى زمنياً للمشكلة لكي تُحل فيه. أمَّا الذي يريد حلاً سريعاً لمشاكله، فما أسهل أن يقع في الكآبة كُلَّما وجد الأيام تمر والحالة كما هي في ضيقها. إنما الوضع السليم أن نؤمن بأن اللَّه لا بد سيحل المشكلة مهما طال الوقت.

★★ ولذلك يحسن باستمرار أن تكون للإنسان النظرة المستبشرة من جهة المستقبل، وعدم الاستسلام لليأس مهما كانت الظروف ضاغطة، ومهما كانت الحالة سيئة. فطبيعي أن اليأس يلد كآبة، والكآبة أيضاً تلد يأساً. ويكون كل منهما بالنسبة إلى الآخر سبباً ونتيجة. بل ينبغي أن نعرف أن كل باب مُغلق له عند اللَّه مفتاح أو عدَّة مفاتيح.

★★ ولعلاج الكآبة يحسن أن يعيش الشخص في الواقع الذي هو فيه، وليس في الخيال. فإن مات لك حبيب، أو إن فاتتك فرصة، أو إن فقدت شيئاً، أو إن أصابك مرض، فعِش في واقعك. وحاول أن تتأقلم مع الوضع إلى أن يغيره اللَّه أو يمنحك صبراً عليه. وكثير من الناس يتعبون من مُعاملات الآخرين لهم. كما لو كانوا يفترضون أن هؤلاء الآخرين لهم عصمة لا تخطئ، بينما العصمة هي للَّه وحده. إنَّ العالم الحاضر لا يخلو من المتاعب، فلنَعِش في الواقع، وأن نُدرِّب أنفسنا على الفرح مهما كانت الضيقات، ولا نبالغ في حجم المشاكل ولا في صعوبة حلّها. وإن وقع أحد في الكآبة عليه أن يخرج منها مهما كان سببها. فترك النفس في الكآبة يتعبه ويمرضه، فلا داع إذن للبقاء فيها.

٣١ مايو ٢٠٠٩

الدوافع والأعمال

كل عمل يعمله الإنسان، وراءه دافع يدفعه إليه... وتوجد دوافع ثانية سامية، وأخرى رديئة أو منحرفة.

★★ فمن الدوافع السامية محبة الإنسان لوطنه التي تدفعه إلى عمل كل شيء من أجله. ولعلنا نذكر كمثال في هذا المجال الزعيم الراحل سعد زغلول الذي دفعته محبته لمصر أن يعمل على تحريرها من التدخل الأجنبي فيها. ومن أجل ذلك قام بثورة ١٩١٩م. وحدث أنه نُفي إلى جزيرة سيشيل هو وأصحابه. ولما رجع من نفيه عمل على إصدار دستور ١٩٢٣م. وأكمل بهذا الدافع النبيل بقية حياته كوزير أو رئيس للحزب.

★★ نذكر كذلك قاسم أمين الذي كان هناك دافع يحرّكه وهو الرغبة في تحرير المرأة. ولقد كرّس حياته لهذا الغرض، وأيضاً فكره وقلمه وإقناعه للآخرين. واشتركت معه في هذا الغرض هدى شعراوي. واستطاعا أن يغيرا صورة المجتمع في أيامهما.

★★ نذكر أيضاً بهذا المجال المهاتما غاندى الزعيم الروحي للهند، الذي كانت تدفعه طول جهاده رغبته في استقلال الهند وتخليصها من حكم الإنجليز. ومن أجل ذلك احتمل السجن، وسار على مبدأ المقاومة السلمية مكافحاً حتى نالت الهند استقلالها. وكان يقوده في هذا الجهاد دافع آخر هو إيمانه بعدم العنف.

وبعد أن نالت الهند استقلالها، كان نبله يدفعه إلى الدفاع عن حقوق المنبوذين Out - Casts. وصام من أجلهم حتى قيل أن دمه قد بدأ يتحلل، واستمر حتى حصل لهم على الحق في عضوية البرلمان.

★★ وفي غير المجال السياسي، نرى أناس تدفعهم محبة الفضيلة والبر والإعداد لمصيرهم الأبدي. وهذا الدافع يجعلهم يعيشون في حياه نقية طاهرة. مثال ذلك يوسف الصديق الذي رفض الخطيئة حينما عرضت عليه، واحتمل أن يُسجن من أجل تقواه.

★★ هناك دافع آخر يدفع طلاب العلم إلى السهر والتعب، لكي يصلوا إلى النجاح وإلى التفوق. وهكذا كان الأوائل في النتائج الذين يرهقون أنفسهم في استذكار دروسهم.

وبدافع النجاح والتفوق جاهد أيضاً العلماء والمخترعون حتى يقدموا للعالم ثمر علمهم وذكائهم.

★★ وهناك دوافع أخرى كثيرة تدفع الأبرار مثل الأمانة، وعفة اليد، وهذا وغيره هو ما يجب أن نعُملّه للنشء من أطفالنا سواء في بيوتهم أو مدارسهم أو من قادة المجتمع، حتى ينشأوا على العمل النبيل في حياتهم.

على أن هناك أشخاصاً ليسوا من أصحاب المبادئ أو القيم الروحية تقودهم في حياتهم دوافع أخرى ليست صالحة، بل قد تكون منحرفة أو سيئة.

ومن الدوافع السيئة الانقياد وراء اللذة، سواء كانت لذة للجسد أو للنفس أو للفكر أو لسائر الحواس وسنحاول أن نستعرض هذه الأنواع.

★★ فمن لذة الجسد: لذة الأكل والشرب وأهميتها الكبرى عند الناس واندفاع البعض إليها إلى درجة إصابتهم ببعض الأمراض. يضاف إلى هذه اللذة اندفاع البعض إلى شرب الخمر والمسكرات، وما يجده البعض من لذة في التدخين أو وسائل الإدمان المتعددة، وكلها تهلكهم ويدفعون مالاً كثمن في أهلاك نفوسهم. من الملاذ الخطيرة المهلكة ما نعرفه عن ضحايا الجنس sex وممارسته، وما شهده العالم من خطورة مرض الإيدز، بالإضافة إلى غيره من الأمراض التناسلية. وكثيراً ما تؤدي أمثال هذه الممارسات الخاطئة إلى تفكك في الأسرة نتيجة الشك في سوء الخُلق.

★★ يضاف إلى ملاذ الجسد الخاطئة، ما يتعلق بالحواس كالنظر، والسمع واللمس. وما يقع فيه بعض الشباب من الشهوات الدنسة نتيجة متابعة النظر في بعض الأفلام الخاطئة! أو ما يرونه في بعض المجلات من صور معثرة. كذلك ما يسمعونه من قصص أو فكاهات بذيئة، أو لذة الاستماع إلى أسرار الناس وفضائحهم.

★★ هناك أخطاء أيضاً من جهة ملاذ النفس. كمن تدفعه لذة التشفي والانتقام. فيفرح الواحد من أمثال هؤلاء بما يصيب عدوه أو منافسه من ضرر متشفياً فيه أو شامتاً. يدفعه إلى ذلك مشاعر من الحقد والكراهية في قلبه. وهذا الحقد قد يدفعه أيضاً إلى التحدث عن منافسيه وأعدائه بما يسيء إلى سمعتهم. ويجد في ذلك متعة!

ومن ملاذ النفس أيضاً شهوة الغنى ولذة الجمع والتكويم، والفرح بازدياد الرصيد أياً كان مصدره.

★★ ننتقل بعد هذا إلى ملاذ الفكر ونقصد إشباع الفكر بما يضره، تدفعه أحياناً رغبات الجسد التي لم تتحقق عملياً فتسعى إلى إشباعها فكرياً بلون من السرحان. والفكر يشبع ذاته بأحلام اليقظة والخيال، وبتأليف قصص عن نفسه ترضيه، يصور فيها ذاته حسبما يشاء ويهوى. يدفعه إلى كل ذلك فشله في النجاح العملي وفي الوصول إلى أغراضه بطرق سليمة.

لأجل هذا كله يجب أن نرتفع فوق مبدأ اللذة. ونجعل الدافع لنا هو النفع الروحي.

★★ ومن الدوافع الخاطئة: الانقياد وراء مبدأ المنفعة الشخصية مهما كان في ذلك ضرر بالآخرين أو حتى إذا كانت هذه المنفعة الشخصية تضر بالنفع العام. وتصبح لون من الأنانية البشعة. مثال ذلك جشع التجار ورفعهم للأسعار ويكون من ضحاياهم المشتري المسكين. وفي ذلك يخلطون المنفعة الخاصة بالطمع وبعدم الرحمة بالآخرين. وربما في هذه المنفعة الخاصة يلجأون إلى وسائل لا يرضاها الضمير مثل الغش، والتزوير، والرشوة... كمن يصعد إلى فوق على جماجم الآخرين.

وللأسف كثير من الدول الكبيرة تدفعها المنفعة إلى الإضرار بالدول الأصغر منها غير مبالية بذلك.

★★ ومن الدوافع الأساسية الخاطئة في حياة الغالبية التمركز حول الذات Ego . وحب الذات محبة خاطئة يدفع أحياناً إلى حب العظمة والكرامة والخيلاء، وأن يفضّل الإنسان ذاته عن الكل. أو أن يفعل الخير، لا حباً في الخير، وإنما لكي ترتفع ذاته في نظر الآخرين. أو قد يدفعه إعجابه بذاته، أن يمدح ذاته إن لم يجد من يمدحه.

★★ هناك دافع آخر قد يدفع الكثيرين في الطريق، هو مسايرة التيار العام. إذ لا تكون للشخص مبادئ ثابتة يسير عليها، إنما يتبع ما يراه في البيئة. أو من يتشبع بشعارات سمعها من غيره. وهناك من تدفعهم في حياتهم عاداتهم لسيطرتها عليهم مهما كانت خاطئة.

٧ يونيو ٢٠٠٩

الجدِّيَّة

الجدِّيَّة هى أهم ما يتميَّز به الإنسان الناجح. وعدم الجدِّيَّة سبب أساسي في فشل غيره من الناس. فالإنسان الجاد يعرف تماماً طريقه في الحياة، والوسائل التي توصله إليه. ولا يحيد عن ذلك يمنة ولا يسرة. ويشق طريقه بكل ثبات حتى يصل إلى غايته. هو كسفينة ضخمة تشق طريقها في بحر الحياة وبقوة حتى تصل إلى غايتها. وليس كقارب صغير تعصف به الأمواج والرياح في أي اتجاه.

★★ الإنسان الجاد يكون جاداً في كل مسؤولية تعهد إليه. لا يهمه إن كانت المسؤولية كبيرة أو صغيرة. إنما المُهم عنده هو الجدِّيَّة في أداء هذه المسؤولية وإتقانها. كالمُمثِّل الذي يتقن دوره في أيَّة رواية مهما كان الدور صغيراً. وهكذا قد يكون بطل الرواية هو خادم أو بواب فيها، وليس مديراً أو ملكاً. ومثال آخر هو لاعب الكرة الذي يهمّه أداء دوره في إنجاح الفريق متعاوناً مع باقي اللاعبين، أيَّاً كان دوره. وبهذا إن كان كل عضو في المجتمع يؤدي دوره بجدية، سينجح هذا المجتمع بلا شك.

★★ نرى هذه الجدِّيَّة في العمل: فالتلميذ الجاد يهتم بمذاكرة دروسه من أول العام وتكون له فرصة للمراجعة مرة وأخرى حتى تثبت المعلومات في ذهنه ولا ينسَ منها شيئاً. ولا يكون خائفاً أو مضطرباً في وقت الامتحان. ولا يكون هدفه مُجرَّد النجاح، بل التفوق. بعكس الطالب غير الجاد الذي يهمل دروسه إلى نهاية العام، ثم لا يجد الوقت كافياً لاستيعابها ... كذلك العامل أو الصانع الذي يتميز بالجدية. فإن جديته تؤدي إلى تمييزه في إنتاجه. ويضيف إلى ذلك دقته في المواعيد، واعتدال سعر ما ينتجه، وحسن تعاونه. وبهذا كله ينجح في عمله وتروج بضاعته.

★★ والجدِّيَّة من أهم ما تتميز به الحياة العسكرية: فالرَّجُل العسكري هو إنسان جاد في كل شيء. في مواعيد صحوه، وفي انتظامه في الطوابير، وفي مشيته المنتظمة، وفي ثباته أثناء كلامه بحيث لا يحرك يديه وهو يتحدَّث ولا يلوح بهما. وهو جاد في كل

ما يتعلَّق بالضبط والربط، وجاد في احترامه لمبدأ الطاعة والتسلسل القيادي. وبالتالي تنتشر الجدِّيَّة في حياته كلها، وتتدرج إلى العمليات العسكرية أيضاً. بل أيضاً في أعماله الإدارية يكون في ملء الجدِّيَّة ويثق الناس به.

★★ والخطيب الجاد هو الذي يُحضِّر كلمته، ويُرتِّبها ويُنسِّقها. ويجهد في جمع معلوماتها، وفي حُسن صياغتها، بحيث تكون سهلة في الفهم وفي القبول ... أمَّا غير الجاد فقد يتكلَّم ارتجالاً وبلا ترتيب، وتظهر أفكاره مشوشة وناقصة. وفي غير جديته، لا يكون مُحتَرِماً لعقول السامعين.

نفس الوضع من الجدِّيَّة يكون مع الكاتب أو الصحفي ومع رجال العلم أيضاً، ومع الأساتذة والمدرسين.

★★ والجدِّيَّة تظهر أيضاً في محيط السياسة. فعضو مجلس الشعب مثلاً - إذا كان جاداً - يدرك تماماً أنه صار نائباً للدائرة، ينوب عن أهلها في خدمتهم وحل مشاكلهم، ويكون دائم الصلة بهم. بالإضافة إلى مشاركته في السياسة العامة للوطن. بحيث يدرس الأمور التي ستعرض على المجلس. فإن تحدَّث فيها، إنما يتحدَّث عن معرفة وبكلام له تقديره وتأثيره. أمَّا العضو غير الجاد، فلا يهتم ولا يدرس، ولا يكون له صوت، وقد يتغيَّب بلا سبب. ولا يشعر أحد أنه كان عضواً في المجلس!

★★ وفي مجال المعارضة السياسية، فإن المُعارِض الجاد يُحلِّل المواقف تحليلاً دقيقاً، ويشرح رأيه بطريقة موضوعية. وفي اعتراضه يُقدِّم البدائل الإيجابية. وإن وجد خيراً يمتدحه. إنه يشترك في البناء السياسي كمراقب ومُحلِّل، والمعارضة هي جزء من النظام السياسي، تُظهِر الرأي الآخر، ولكن في نُبل وتعاون. والمعارضة الجادة لا تلعن الظلام إن وجدته إنما تضيء شمعة تُنير الطريق في حكمة.

★★ ونحن لا نقصد بالجدِّيَّة في الحياة: العبوسة والتَّزمُّت، أو أن يكون الإنسان الجاد بعيداً عن المرح والحياة الاجتماعية والتبسط مع الآخرين. إنما بالإضافة إلى مسئولياته الرسمية يكون لطيفاً مع الآخرين. والمعنى الرئيسي للجدِّيَّة هو عدم التراخي أو الإهمال في أي عمل أو مسئولية. والإنسان الجاد يكون ملتزماً، يحترم نفسه ومبادئه، ويحترم الكلمة التي تخرج من فمه، ويحترم الطريق الذي يسلكه.

★★ والإنسان الجاد يحترم عهوده مع الناس ونذوره مع اللّه. إذا وعد بشيءٍ يلتـزم بإتمامه بمُجرَّد كلمته ولا يحتاج الأمر معه إلى صكٍّ مكتوب، أو إلى شروط رسمية. بـل كلمته تُعتبر عهداً. فإن نذر نذراً للّه يكون جاداً في تنفيذه، تماماً تماماً كما خرج من فمه. لا يحاول تغيير النذر، ولا يؤجل القيام به .. ولا يندم على ما قد نذره. فالنذر هـو عهـد بينه وبين اللّه لا يتراجع فيه.

★★ والإنسان الجاد إذا تاب يكون جاداً في توبته، لا يعود إلى الخطيئة مرة أخرى. وإن عزم على التوبة، لا يؤجلها. ولا تكون حياته الروحية متأرجحة بين قياماً وسقوط بل تكون التوبة هى نقطة تحول في حياته لا يدركها التغيير.

★★ والإنسان الجاد إن اعترضته صعاب في طريق الخير، لا يجعلها تعوقـه بـل ينتصر عليها. يكون الخير الذي فيه أقوى من العوائق التي تعطله. عزيمته تدفعـه إلـى قدام. وبالنسبة إليه العوائق ليست موانع.

إن عائق فقد البصر لم يمنع طه حسين من أن يصير عميداً للأدب في عصره. بـل صار أيضاً رئيساً لجامعة الإسكندرية، ثم وزيراً للتعليم.

★★ والإنسان الجاد لا يلجأ إلى الأعذار والتبريرات، يُبرِّر بها نقصـاً فـي حياتـه أو تصرفه. إن الأعذار هى غطاء يُغطِّي به المتهاونون فشلهم. إن نهر النيل لم تقوَ علـى اعتراض طريقه ستة جنادل (يُسمون خطأ بالشلالات). بل استمر في مجراه حتى وصـل إلى البحر. والعصاميون الذين كونوا أنفسهم بأنفسهم، لم يعتذروا لظـروفهم الاجتماعيـة الصعبة. والشهداء لم يعتذروا لقسوة الحكام الوثنيين، بل اعترفوا بالإيمان غيـر مُبـالين بتهديد أو تخويف أو تعذيب.

★★ والإنسان الجاد ينمو باستمرار في حياته وفي فضائله، واضعاً المثاليـة هـدفاً أمامه ليسعى إليه.

١٤ يونيو ٢٠٠٩

المعرفة وأنواعها

المعرفة ليست غاية في ذاتها إنما هى وسيلة للمنفعة. غير أنه ليست كل معرفة نافعة. فهناك معرفة قد تضر. وعندما خُلِقَ الإنسان لم يكن يعرف سوى الخير فقط. ولكنه للأسف الشديد، بدأ يعرف الشر عندما سقط. وبمعرفة الشر بدأ يضر نفسه ويضر غيره أيضاً. إذن عليك أن تتأكد من سلامة كل معرفة تصل إليك. وتتأكد من فائدتها قبل أن تقبلها.

★★ أمَّا عن حدود المعرفة .. فيقولون: إن أكثر الناس علماً هو الذي يعرف شيئاً عن كل شيء، وبنوع من التخصص يعرف كل شيء عن شيء. ويبدو أن هذه العبارة مُبالَغ فيها جداً. فلا يوجد إنسان يعرف كل شيء عن شيء ما، ولا أن يعرف شيئاً عن كل شيء. إن اللَّه وحده - تبارك اسمه - هو الذي يعرف كل شيء عن كل شيء. ومعرفته يقينية ومُطلَقة وغير محدودة. واللَّه يعرف الخفيَّات والظاهرات. يعرف ما في القلوب وما في الأفكار وما في النيَّات لجميع الناس. ويعرف ما في باطن الأرض وما في علو السمَوات. بينما الإنسان لا يعرف شيئاً من هذا كله. واللَّه يعرف المستقبل والغيب أمَّا الإنسان فلا يعرف.

★★ والإنسان إن عرف شيئاً، إنما يكون ذلك بوسائط متعدِّدة، كالحفريات بالنسبة إلى باطن الأرض. وكالمقاييس والمكاييل والأشعة والتحاليل، وأجهزة أخرى كثيرة للوصول إلى ما يمكن معرفته. أمَّا اللَّه فيعرف كل شيء بدون واسطة.

والإنسان يُجاهد لمعرفة طبائع الأشياء. أمَّا اللَّه فيعرفها لأنه هو الذي وضع لكل شيء طبيعته. الإنسان مثلاً يحاول بمجهودات ضخمة أن يعرف أماكن البترول في باطن الأرض أمَّا اللَّه فمعرفته لذلك ناتجة عن كونه هو الذي جعل البترول في تلك الأماكن. وينطبق ذلك أيضاً على مواضع الذهب وباقي المعادن والأحجار الكريمة، وأنواع الكائنات البحرية وغيرها.

★★ أمَّا من جهة أنواع المعرفة: هناك معرفة حسيَّة تأتي عن طريق الحواس، يعرفها الناس بالنظر أو بالسمع أو باللمس أو بالشم. وما أضعف حواسنا فهى لا تدرك كل شيء.

وهناك معرفة عن طريق العقل، تأتي بالدراسة أو الاستنتاج. وهناك معرفة الروح وهى ليست لكل الناس.

غير أن هناك معرفة أخرى عن طريق الكشف أو الإعلان الإلهي. ويدخل في ذلك الوحي الذي يصل إلى الأنبياء. وهناك معرفة أخرى وهى معرفة الإنسان لنفسه.

★★ إنَّ العالم يجهد نفسه كثيراً للحصول على معرفة تختص بالقمر والكواكب. فيستخدم في ذلك سفن الفضاء، وينفق على كل هذا أموالاً طائلة. لكنه ليس بنفس الشوق يسعى إلى معرفة اللَّه ... إنه يسعد كثيراً إن أحضر بعض حجارة من القمر، أو بعض الصور. لأنها تعطيه شيئاً من المعرفة عن الطبيعة التي هى من خلق اللَّه. دون أن يسعد بمعرفة اللَّه خالقه!

★★ ونفس الكلام يُقال عن كثير من الاكتشافات التي يقوم بها الإنسان، ويفخر باكتشافاته، ويمجد العقل البشري الذي وصل إليها. وفي كل ذلك لا يُمجِّد اللَّه الذي خلق هذا العقل ووهبه إمكانياته! هناك معرفة أخرى تأتي عن طريق الآخرين: عن طريق الكتب أو الصحف أو وسائل الإعلام، أو الإنترنت ... ومعرفة عن طريق الأصدقاء أو المعارف أو الأساتذة. ومعرفة تأتي عن طريق الشيطان بما يلقيه في أذهان الناس من فكر، أو رؤى أو أحلام مُضلِّلة. وربُّما يسعى الإنسان إلى الحصول على معرفة من الشيطان عن طريق السحر، أو ما يسمونه استشارة أرواح الموتى، أو بطُرق أُخرى متعدِّدة، كاللجوء إلى المُنجِّمين، وإلى قارئي الكف أو الفنجان، وإلى ضاربي الرمل أو الودع. ويدخل ذلك في اللعب بعقول البسطاء.

ونحن نعرف جيداً أن الشيطان لا يعطي معرفة مجاناً. فلا بد أن يكون له هدف يريد الوصول به إلى الإضرار ببعض البشر.

★★ نوع آخر من المعرفة هو أن يعرف الإنسان نفسه: يعرف أنه مخلوق من تراب لكي يتضع ولا يتكبَّر. ويعرف خطاياه وضعفاته لكي يندم عليها ويتوب. ويعرف مواهبه

لكي يستخدمها في الخير. ويعرف مدى قربه أو بُعده من وصايا اللَّه. ويعرف ما يلزمه للوصول إلى الحكمة والتمييز.

★★ على الإنسان أيضاً أن يعرف طبيعة غيره واتجاهاته، لكي يعرف كيفية التعامل معه ... سواء كان ذلك في التعاون مع الأصدقاء أو في محيط العمل، أو في الحياة الزوجية، وفي الحياة الاجتماعية عموماً ... وأيضاً معرفة نفسية الطفل، ونفسية المعوَّق، ونفسية العاقر، ونفسية المراهق، وكيفية التعامل مع كل هؤلاء ... وعلى الزوج أن يعرف نفسية المرأة، وعلى الزوجة أن تعرف نفسية الرجل.

★★ وعلينا جميعاً أن نعرف الحق، وإن عرفناه نتبعه. وأن نعرف احتياجات الناس لكي نُدبِّرها لهم.

ولنحترس من المعارف التي هى فوق مستوى البشر. فكثير من الناس يبحثون في عالم الأرواح فيضلون. كذلك فلنبعد عن المعارف الضارة، ولا نضيع وقتنا في معرفة أمور لا تفيدنا. وقد قال أحد الآباء الروحيين: "أحياناً نجهد أنفسنا في معرفة أمور، لا نُلام في يوم الدين على جهلنا إيَّاها".

★★ ولنعرف أن ما يدخل الذهن من معارف، يؤثِّر على الحواس والمشاعر وربَّما على العلاقة للآخرين. وبالأكثر من ذلك يُخزن في العقل الباطن. ثم يخرج منه على هيئة ظنون أو أفكار أو أحلام. وبهذا يكون نطاق انتشار المعرفة قد اتسع.

وهناك ألوان من المعرفة تغير نظرة الإنسان إلى كثير من الأمور، وإلى كثير من الناس. ومعارف ضارة قد تجلب الشك. ومعارف ضارة قد تحول الفكر إلى الإلحاد.

★★ لذلك يلزم أن يُدقِّق كل إنسان في اختيار مصادر معرفته، لكي يحتفظ بنقاوة فكره، ولا يتلوث بمعرفة ضارة. وعليه أن يُدقِّق في اختيار الأصدقاء والمعارف الذي يصبُّون معلومات في أذنيه. وكذلك يُدقِّق في نوع قراءاته. ولا يظن أن الأفكار عواقر، وما أكثر أن تلد أفكاراً أخرى ومشاعر عديدة. بل رُبَّما كلمة واحدة تصل إلى ذهنك، فتلد حكاية أو حكايات، وكذلك ما يمكن أن يُقال عن تأثير الشائعات. لهذا كله فإن الوقاية من الفكر الخاطئ خير وأفضل من قبوله ثم محاولة التخلص منه. وإذا ما وصلت إليك معرفة خاطئة، فلا تحاول أن تنقلها إلى غيرك، لئلا يُطالبك اللَّه بما يتعب الغير من نتائج تلك المعرفة.

٢١ يونيو ٢٠٠٩

الحق والباطل

منذ بداية الخليقة وهناك الحق والباطل. الحق في الملائكة الأطهار، والباطل في الشيطان وأعوانه الأشرار. الحق في هابيل البار ابن أبينا آدم، والباطل في أخيه الذي قتله... ومرت العصور والحق والباطل موجودان. والعجيب أن الباطل انتشر انتشاراً كبيراً في الوثنية، وتعدد الإلهة، وعبادة الشمس، وعبادة الأرواح. كما انتشر الباطل في الفساد بألوانه وأنواعه... بينما انزوى الحق بين قلّة تعبد اللّه الحق، وتتمسَّك بالإيمان والفضيلة والعمل الصالح... وظل الحق والباطل يتصارعان على مدى العصور.

★★ وكثيراً ما كان الباطل ينتصر، لأن وسائله أكثر ... الباطل يستطيع أن يكذب ويغش ويخدع، والحق لا يستطيع ذلك. الباطل يمكنه أن يقسو ويبطش ويقتل ويغدر. والحق لا يستطيع أن يفعل ذلك. الباطل يلجأ إلى حبك المؤامرات وتدبير الحيل المهلكة، وتغطية أعماله الخاطئة بخدع، بينما الحق لا يسمح له ضميره بفعل شيء من هذا كله. الباطل يُقدِّم لأتباعه المغريات والنجاسات التي ترضي غرائزه المنحرفة، والحق يرتفع عن هذا المستوى ... كما أن الحق مُقيَّد بقيم ومبادئ ووصايا إلهية، لا يستطيع أن يخرج عن طاعتها. بينما الباطل مُتسيب يفعل ما يشاء، ويسلك حسب هواه بلا ضابط. لذلك فكل الوسائل متاحة أمامه، والباب مفتوح له في أي طريق يسلكه!

★★ لذلك فالباطل له أنصاره وأتباعه والكثيرون، لأنه يوصلهم إلى أغراضهم بشتَّى الطرق والحيل والأساليب ... يوصلهم بالإدعاء أو بالرشوة، أو بالتزوير والتزييف، أو بالاتصال بمراكز القوى وأصحاب القرار فينالون ما يشتهون! أمَّا الحق طرقه ضيقة ومحدودة. يقول لِمَن يتبعونه: هذا ضد الدين، وهذا ضد القانون، وهذا ضد الأخلاق، هذا لا يليق، وهذا لا يجوز ... لذلك يبعد الناس عن الحق أحياناً، ويتهمونه بأنه يُعقِّد الأمور، بينما الباطل يسهلها! وبهذا يصبح أصحاب الباطل أكثر وينتشر الفساد.

★★ والباطل يُسمِّي الأخطاء بغير أسمائها، وكأنها حق!! يُسمِّي التحايل بأنه لون من الذكاء. ويُسمِّي القسوة بأنها شيء من الحزم. ويُسمِّي البُخل بأنه حكمة في التدبير. ويُسمِّي العلاقات الشبابية الخاطئة بِاسم الحب. كما يُسمِّي المغريات من وسائل اللهو بِاسم الفن. ويعتبر سلوك كل إنسان حسب هواه بأن هذه هى الحرية. ويُسمِّي السب والقذف في الجرائد والمجلات بأنه حرية النشر والتعبير!! وكل خطأ من الأخطاء له عند الباطل اسم جميل يجلب الناس إليه أو سبب معقول يبررهم.

★★ على أن الباطل إن انتصر أولاً، فإن الحق ينتصر أخيراً. ولو بكثير من الاحتمال. لقد قال المُصلِّي: "لماذا يارب تنجح طريق الأشرار؟! اطمئن كل الغادرين غدراً!" وأجاب القديس أُغسطينوس على ذلك فقال: "إن الباطل المنتصر يشبه الدخان الذي يرتفع إلى فوق، وتتسع دائرته ولكنه في كل ذلك يتبدد".

إن الاستعمار هجم على كثير من البلاد التي هى أضعف منه. وبرَّر انتشاره بأسباب سياسية واقتصادية. ثم جاء الوقت الذي انتهى فيه الاستعمار، تأسَّست مكانه دول مستقلة. في وقت من الأوقات استعمرت إنجلترا الهند. ثم حدث أن الناسك الهندي العظيم المهاتما غاندي استطاع بهدوئه وسلامه أن يحصل على استقلال الهند وتخلَّصت من الاستعمار.

★★ إن الحق عليه أن يحتمل بعض الوقت حتى ينتصر أخيراً. فسياسة البيض حكمت جنوب أفريقيا زمناً مضطهدة السود. ثم خرج واحد من المسجونين السود ليكون أول رئيس أسود لجنوب أفريقيا. وهتلر دوَّخ العالم زمناً بقوة عجيبة، واستولى على بلاد عديدة، وصار رعباً في زمنه. ثم أتى الوقت الذي انتهى فيه هتلر وانتصر الحلفاء. كذلك الشيوعية سيطرت على روسيا سبعين عاماً ونشرت الإلحاد. ثم بعد ذلك عاد الإيمان إليهم وانتصر على الشيوعية ... حقاً إنه بعد كل ليلٍ مُظلمٍ دامس، يأتي الفجر ثم النهار الساطع النور.

★★ الباطل قد يعتز بأساليبه وبنجاحه الأول، لكن ذلك لا يستمر. بالغش قد ينجح الطالب في الامتحان، ولكنه لا ينجح في حياته العملية. ونجاحه هو نجاح مؤقت، كالبخار

يظهر قليلاً ثم يضمحل. والباطل قد يقول: إن الكذب يُنجِّي! ولكن ذلك ليس في كل حال. كما أن الكذب قد ينكشف فتكون النتيجة أسوأ ... والطغاة قد يبطشون بالضعفاء فيخضعون لهم إلى حين. ومع ذلك فالحال لا يستمر. فما أسهل أن يثور هؤلاء على الطُّغاة ويتخلَّصون من بطشهم.

إن الأب القاسي قد يصور له الباطل أنه بالشدة والعنف يُربِّي بناته تربية سليمة. فيحبسهم في البيت، ويمنع عنهن كل صلة ... وربَّما تكون النتيجة عكسية، فيهرب البنات من سطوته إلى أي صدر حنون!

★★ إن الحق والباطل قد يتصارعان حول المبادئ والقيم. وقد تختلف الموازين وتنعكس المفاهيم. فيحتار الناس أين الحق وأين الباطل؟! الكل يقول أنه على حق. حتى الباطل نفسه يدَّعي أنه هو الحق!! والمسألة تدور حول الخلاف في المفاهيم، أو الخلاف في الانتماء. وكل فريق ينتمي إلى مجموعة معينة يقول إنها على حق.

وأحياناً يتوقف ميزان الحق على القوة. فدائماً يرى الفريق الأقوى أنه يُمثِّل الحق. وأن الحق هو مصدر قوته. وما أعمق كلمة الزعيم سعد زغلول حينما قال: "الحق فوق القوة". ولعله لا يقصد كل قوة، إنما القوة التي هي ضد الحق. فهذه يكون الحق فوقها.

★★ من أجل هذا أرسل اللَّه أنبياؤه ليعلمون ما هو الحق. وأعطانا وصاياه الإلهية تشرح لنا ما هو الحق. كما وهب لنا الضمير. والضمير الصالح دائماً يحكم بالحق. ولكن الباطل قد يغزو الضمير أيضاً فيُضلِّله وذلك إذا ما جعل الشهوة تنتصر على الضمير وتصور له بالباطل طريقاً آخر يسلكه ضد الحق. وأيضاً يتوه الحق إذا ما تعرَّض لمشورة خاطئة أو قيادة باطلة. وهكذا ورد في الكتاب المقدس قول الرب: "يا إسرائيل، مرشدوك مضلون".

٢٨ يونيو ٢٠٠٩

فضيلة التدقيق

الإنسان الصالح يحرص أن يكون مدققاً في كل تصرفاته، في علاقته مع اللَّه ومع الناس ومع نفسه. ويتدرب على ذلك، حتى يصبح التدقيق جزءاً من حياته ومن طباعه.

★★ والإنسان المدقق لا يكون تدقيقه فقط أمام الناس، إنما حتى حينما يكون وحده في غرفته الخاصة. أقول هذا لأن التدقيق في التصرف قد يكون سهلاً نوعاً ما في حضرة الناس. لأننا بطبيعتنا لا نحب أن ينتقدنا الناس، ونخشى أن ننكشف أمامهم، وتظهر أمامهم عيوبنا وأخطاؤنا. ولهذا فأن المقياس الحقيقي لتدقيقنا يظهر حينما نكون وحدنا لا يبصرنا أحد. وفي هذه الحالة يبعد التدقيق تماماً عن الرياء.

★★ إن الإنسان المستقيم يصبح التدقيق تلقائياً عنده، كجزء من طبعه. وليس مجرد محاولة منه، أو مجرد تدريب. أو هو قد تعود على أن يكون مدققاً في كل شيء، بدوافع داخلية فيه تمثل بعضاً من مبادئه وقيمه. وهو يحب دائماً أن يكون بلا لوم أمام اللَّه الذي يراه، وأمام الملائكة الذين يرونه، وأمام أرواح الأبرار في العالم الآخَر. فهل أنت يا أخي مدقق بهذا المقياس، بغض النظر عن أحكام الناس؟

★★ التدقيق هو احتراس من أقل خطأ. أو هو سعي نحو أكمل وضع ممكن، بغير تراخٍ أو إهمال، وفي بُعد عن التبريرات التي تدافع عن بعض الأخطاء. إنه خطوة نحو الكمال... فالذي يكون مدققاً محترساً من الصغائر، من الصعب عليه أن يقع في الكبائر. والذي يحترس بكل جهده من الوقوع في الخطيئة بالفكر، ليس من السهل عليه أن يقع في الخطيئة بالعمل.

★★ ولكن على الإنسان أن يحترس في تدقيقه، حتى لا يقع في التزمت أو في الوسوسة، أو في الحرفية. ففي التزمت والوسوسة، يظن المُتزمّت وجود الخطأ حيث

لا يوجد خطأ، أو أنه يُضخِّم من قيمة الأخطاء فوق حقيقتها، أو تحاربه عقدة الإثم بدون سبب معقول، أو هو - في سبيل الدفاع عن الحق - يصل إلى التَّطرُّف الذي يؤثم تصرفات سليمة. مثل أولئك الذين يُحمِّلون الناس أحمالاً ثقيلة عثرة الحمل. ويغلقون ملكوت السمَوات قدام الناس. فلا يدخلون هم ولا يدعون الداخلين يدخلون!! إنما التدقيق - بمعناه الحقيقي السليم - هو الوضع الذي لا يشوبه خطأ من أي نوع، ما بين التَّسيُّب والتَّزمُّت. إنه يُذكِّرنا بميزان الصيدلي: بحيث كل مادة تدخل في تركيب الدواء. إن زادت عن الحد فإنها تضر، وإن نقصت تضر أيضاً. فالمدقق إذن له مبادئ يُحافظ عليها، بحيث لا يبالغ فيها ولا يهمل.

★★ الإنسان المُدقِّق يكون حريصاً على وقته باعتباره جزءاً من حياته. يستخدم الوقت بطريقة سليمة لا يضيع شيئاً منه فيما يندم عليه، أو فيما لا يستفيد منه. وهو يوزع وقته توزيعاً عادلاً على جميع مسئولياته. وكما يكون مدقِّقاً من جهة وقته، يكون أيضاً مُدقِّقاً من جهة وقت غيره. أقول هذا لأن البعض قد يعتبر وقت غيره رخيصاً عنده فيزور الغير في موعد غير مناسب، أو يطيل الزيارة، أو يطيل الكلام، بحيث يشغله مضيعاً وقته! بينما هذا الآخر لا يعرف في خجله أن يهرب من هذا المتطفل.

إن الشخص المُدقِّق يحترم حياته ووقته، وأيضاً حياة الآخرين ووقتهم. كما أنه لا يسمح لنفسه أن يضيع وقته في التوافه، أو يعطي أيَّة مشغولية وقتاً فوق ما تستحق.

★★ والإنسان المُدقِّق يكون مُدقِّقاً في كلامه. فهو يزن كل كلمة قبل أن يقولها، سواء من جهة معنى الكلمة أو قصدها، أو مناسبتها للمجال أو للسامعين. أمَّا الذي يتكلَّم ثم يندم على قوله، فهو غير مُدقِّق في الحديث. وكذلك الذي يتكلَّم ثم يعاتبونه على معنى كلامه، فيقول ما كنت أقصد ذلك. فالإنسان المُدقِّق يقول ما يقصد، ويقصد ما يقول.

وأيضاً الذي يتكلَّم فيجرح شعور غيره بغير حكمة، هو إنسان غير مُدقِّق.

إن السرعة في التَّكلُّم، هي من الأسباب التي تؤدي إلى عدم التدقيق. سواء السرعة في إبداء الرأي، أو السرعة في الحكم على الآخرين، أو السرعة في الاستسلام للغضب. كل ذلك يُعرِّض الإنسان للخطأ، فلا يكون مُدقِّقاً في كلامه. أمَّا الذي يتباطأ، ويزن الكلمة

قبل أن يقولها، فإنه يكون أكثر تدقيقاً. لأنه يتروَّى في تفكير متزن يمكنه أن يتخيَّر الألفاظ المناسبة، ويحسب ردود فعلها. فلا تحسب عليه كلمة يقولها.

★★ وكما يُدقِّق الإنسان في كلامه، ينبغي أن يُدقِّق في مزاحه وضحكه. بحيث أنه في دعاباته، لا يخرج عن حدود اللياقة والأدب. كما لا يجوز أن تتحول دعابته إلى لون من التهكم على الغير أو الاستهزاء به. أو جعله مادة للسخرية. ولا يجوز له في الدعابة أن يجرح شعور غيره. فمن حق كل إنسان أن يضحك مع الناس، لا أن يَضْحَك على الناس. وليس له أن يهين غيره ولو في مجال المزاح، ولو عن غير قصد.

★★ والإنسان المُدقِّق يكون مُدقِّقاً أيضاً في نقده وفي عتابه. فالنقد السليم ليس هو التجريح بالغير. إنما هو لون من التحليل، تُذكر فيه النواحي الطيبة، أمَّا المآخذ فتُذكر بطريقة موضوعية غير شخصية، وبأسلوب غير هدام. نلاحظ أيضاً أن كثيرين يستخدمون كلمة الصراحة في غير معناها الدقيق. فتتحوَّل الصراحة إلى مهاجمة وتجريح، ولا تأتي بنتيجة. والإنسان المُدقِّق لا يكون قاسياً حينما يُعاتب غيره. فليس من الحكمة أن يحطم غيره بالعتاب أو الصراحة، فيخسرهم.

★★ الإنسان المُدقِّق تظهر دقته أيضاً في كل عمله ومسئولياته. فالدقة في العمل تقود إلى النجاح والإتقان وإلى احترام الناس وثقتهم. والإنسان المُدقِّق لا يحتاج إلى مَن يراجعه في عمله. فهو بذاته يبعد عن كل خطأ. وتكون دقته في العمل نموذجاً لغيره. وإن أخطأ لسبب ما لا يحاول أن يبرر ذلك بأعذار ...

إن كثيرين يدققون في محاسبة غيرهم، ولا يدققون في محاسبة أنفسهم.

والإنسان المُدقِّق يُدقِّق أيضاً في حياته الروحية، في كل تفاصيل علاقته مع اللَّه. ويكون مُدقِّقاً في سلوكه بحيث لا يخطأ. كما يدقق كثيراً في محاسبته لنفسه.

٥ يوليو ٢٠٠٩

متى يستيقظ؟ وكيف؟

الإنسان الذي يعيش في الخطية بعيداً عن اللّه، يُشبَّه بإنسان مائت، أو هو في نوم الغفلة يلزمه أن يستيقظ، بلا تأجيل ولا تأخير. إنه كإنسان مخدَّر لا يدري ما هو فيه. إحساسه الروحي معطل. فهو لا يشعر بحالته، أو ماذا يفعل، ولا خطورة وجسامة ما يفعله. على رأي المَثَل العامي: "سرقاه السكين" فهو في غفلة كأنه خارج نفسه. يحتاج أن يرجع إلى نفسه... إنه في دوامة ينسى فيها روحه، وينسى اللّه، وينسى القيم والمثل. فهو في غفوة لا يشعر بكل هذا. وربَّما يظن أنه في ملء اليقظة، وإنه يملأ الدنيا نشاطاً وحركة! بينما بعض الملائكة يسألون: إلى متى يستمر هذا الإنسان نائماً؟! إنه محتاج إلى مَن يوقظه، يوقظ ضميره وروحه.

حقاً إن الشيطان حينما يريد أن يوقع شخصاً، يخدر ضميره أولاً، أو يقوده إلى حالة الغفوة والغفلة، التي تُعطِّل الحس الروحي، فلا يدري ما هو فيه.

★★ أريد أن أُقدِّم لكم صورة لحالة الخاطئ في غفلته: تصوروا كرة تتدحرج من فوق جبل عالٍ: إنها أُلقيت من فوق الجبل فأخذت تتدحرج تباعاً، في اندفاع مستمر من فوق إلى أسفل. وهى لا تملك ذاتها لتقف، إنما هى تتدحرج باستمرار بلا فكر، بلا وعي، بلا حس، بلا إرادة ... قوة الدفع تجذبها باستمرار إلى أسفل، خطوة تسلمها إلى خطوة، ودحرجة تسلمها إلى دحرجة، بلا هوادة. وهى لا تعرف إلى أين يقودها كل هذا؟ ولا تشاء أن تقف، أو لا تستطيع أن تقف ... ولكن إلى متى؟ إلى أن يصدمها حجر كبير في انحدارها. يعترض طريقها ويوقفها. ويقول لها: إلى أين أنتِ ذاهبة؟ إلى أين تدحرجين؟ أفيقي إلى نفسك. استيقظي. هذا الانحدار المتتابع يقود إلى الضياع. فتقف وقد تنظر فتجد إنها هبطت كثيراً عن مستواها السابق.

★★ هكذا الخاطئ يحتاج إلى أن يستيقظ. وإن لم يستيقظ، لا بد من أن يوقظه غيره. وسعيد هو الخاطئ الذي لا يكون في نوم، وهنا نود أن نسأل ما هى الأسباب التي

تؤدي إلى الغفلة الروحية؟ وما هي الدوافع التي تدفع إلى اليقظة؟ هناك أسباب خارجية تتعلَّق بالمحاربات والعثرات والبيئة المحيطة والظروف. وأسباب داخلية تتعلَّق بطبيعة الشخص نفسه، ونوعية قلبه وتفكيره. وبعض هذه الأسباب تزحف إلى الإنسان بطيئاً بطيئاً، بطريقة لا تكاد تحس. بينما البعض قد يهجم في عنف ويحتوي بسرعة، فينسى كل شيء ألهاه.

ولعلَّ في مقدمة هذه الأسباب المشغوليات. فالمشغوليات طريقة ماكرة من طرق عدو الخير في تحطيم الحياة الروحية. وأهم ما في مكرها. أنها لا تحارب الروحيات، إنما لا تعطيها مجالاً، فننساها. مثال ذلك بشخص تجده دوماً مشغولاً. لا يجد وقتاً يجلس فيه إلى اللَّه ولا إلى الصلاة والقراءة والتأمل والتسبيح أو لأي عمل روحي. كما لا يجد وقتاً يجلس فيه إلى نفسه ليفحص حالته، أين هو؟ وكيف هو؟ وبالتالي لا يجد وقتاً لتغيير حالته. فهو لا يدري ما هي حالته!

★★ إن الشيطان حكيم في الشر، ويُدبِّر خططه بتعقُّل. فبالنسبة إلى بعض الناس، قد يكون الإغراء الواضح بالخطية سلاحاً مكشوفاً لا تقبله ضمائرهم المتيقظة. إذن لا مانع من إرضائه حالياً ريثما يتم تخدير هذه الضمائر. وإذ يرى الشيطان أن الناس إذا خلوا إلى أنفسهم فمن الجائز أن يُفكِّروا في روحياتهم. لذلك لا بد من مشغولية تعطلهم، حتى لو كانت صالحة في ذاتها، على الأقل فأن المشغولية تأخذ كل الوقت. فلا يبقى وقت لمراجعة النفس ومحاسبتها وتنقية الضمير من الشوائب. كما أن المشغوليات تتلاحق، وتتابع بحيث يبدو أنها لا تنتهي، وبخاصة في هذا العصر الذي تسوده التكنولوجيا. وحتى إن تفرغ البعض من مشغوليات العمل، هناك الترفيهات والمسليات لتشغله أو مجرد الأحاديث. وحتى إن جلس الإنسان إلى نفسه، فقد يقول له الشيطان: "وأنا أيضاً سأجلس معك. وحتى إن وقفت تُصلي سأقف معك لأساعدك" وهكذا يذكره بعشرات الموضوعات التي يسرح فيها عقله. لأن المشغوليات قد استقرت في عقله الباطن تعمل فيه.

★★ حقاً إنها مأساة، فإن العالم كله منشغل عن اللَّه... حتى بعض الذين كرسوا أنفسهم له! فهؤلاء بالكاد يجاهدون لكي يحصلوا على وقت يقضونه معه! وأي وقت؟! إنه

وقت تتنازعه أفكار العالم واهتماماته. وللأسف يكون اللَّه في آخِر قائمة الاهتمامات. لا شك أن الموضوع يحتاج إلى تنظيم وتوفير الوقت.

★★ وإن كانت المشغوليات تملك الوقت ولا تُعطي فرصة للروحيات... فالعاطفة المسيطرة تملك القلب والفكر أيضاً بعيداً عن اللَّه، فتستحوذ كل اهتمامات الإنسان. ومع هذه العاطفة تظل الكرة تتدحرج وهى لا تدري ما هى فيه... تماماً كما يكون معنا طفل، نخشى أن يعطلنا بصراخه وضجيجه وكلامه، فتقدم له لعبة يلهو بها، فينشغل بها عنا ويهدأ... كذلك يقدم الشيطان مثل هذه العاطفة أو المشاعر لكي يلهو من القلب بعيداً عن العمل الروحي... ويبحث اللَّه عنك فلا يجدك، ويناديك فلا تسمعه، لأنك مشغول أو مخدر في هذه العاطفة. وربما تكون رواية معينة تسيطر على الإنسان وتملك كل وقته وتحصل على اهتمامه كهواية لتتبع أخبار الرياضة مثلاً أو الفن أو التمثيل. أو تسلية من التسليات أو قراءة خاصة في الفلسفة أو علم النفس... أو تتبع السياسات وأخبار معينة... قد تتحول هذه العاطفة التي تشغله إلى ثورة لتغيير الأوضاع، أو ما يسميه البعض رغبة في الإصلاح حسب مفهومهم الخاص. أو قد تكون هذه العاطفة انتماء إلى جمعية أو هيئة معينة أو فكر ما. وهذه العاطفة قد تطرد كل العواطف الأخرى، من القلب، حتى محبة اللَّه. ونقف أمام هذه الحقيقة المرة: "لقد تم إخلاء صاحب البيت من بيته. واسكنَّا مكانه الغرباء. أقصد اللَّه الذي هو المالك الحقيقي لقلبه، وقد أصبح أنه لا يجد له مكانه فيه".

★★ ومن العوامل الأخرى التي تخدر الضمير: البيئة المنحرفة ... مسكين الإنسان الذي كلما يسير في طريق اللَّه، أو كُلَّما يستيقظ لنفسه، تحاول البيئة بكل جهدها أن ترجعه، فينام مثلهم. أو كُلَّما يحاول أن يستيقظ من غفلته الروحية، يمر عليه صديق يضيع كل ما عنده من روحيات. وينقله بأحاديثه المنحرفة إلى جو آخر. أو يحاول أن يقنعه بكافة السُبل أن يترك ما هو فيه. ولكن الشخص القوي لا تجرفه البيئة المنحرفة بل يصمد ويقاومها. وأحياناً ما يكون عقل الإنسان جهازاً تنفيذياً لرغبات النفس.

١٢ يوليو ٢٠٠٩

أسباب الغفوة الروحية

تحدثنا في المقال السابق عن بعض أسباب الغفوة الروحية وذكرنا من بينها المشغولية الدائمة التي لا تترك وقتاً للعمل الروحي.

★★ وحقاً أننا في عالم مشغول ... مشغول بأمور عديدة جداً. وسيظل مشغولاً إلى نهاية هذا الدهر، وإلى أن تأتي الأبدية. الكل يدور في دوامته. والشيطان يجهز لكل إنسان الدوامة التي تناسبه، والتي يتحرك فيها بلا توقف. ويظل يتحرك إلى أن يأتي الموت فيسحبه منها على الرغم من إرادته. وعجيب أنه رُبَّما في ساعة الموت يوجد أشخاص تشغلهم أمور أخرى عن خلاص أنفسهم. وكل منهم يحب دوامته التي يحركها، أو التي تحركه ... فمتى يستطيع العالم أن يخرج بعض الوقت من مشغولياته لكيما يجد متعته في الوجود مع اللَّه؟

★★ إنَّ اللَّه - تبارك اسمه - يريدنا أن نكون معه. ولكننا للأسف لا نريد! لقد منحنا يوماً في الأسبوع نتحرر فيه من مشغولياتنا ويكون يوماً مقدساً له. عملاً من الأعمال لا نعمل فيه سوى ما يختص بأرواحنا وأرواح غيرنا وصلتنا باللَّه ... حتى إن غفت أنفسنا طوال الأسبوع تستيقظ في هذا اليوم. ولكن هل استجاب الناس لبركة يوم الرب؟! إنهم مازالوا مشغولين حتى في هذا اليوم أيضاً. والأعمال الخاصة التي لم يستطيعوا أن يُنجزوها في أيام العمل الرسمي، يحاولون إنجازها في يوم الرب. وإن استطاعوا أن يجدوا وقتاً فراغاً، يقضونه في ملاهيهم ومتعهم وبدلاً من تسمية يوم الرب باليوم المقدس Holy Day، فإنه يغيِّرون هذا الاسم إلى Week end أي نهاية الأسبوع. وقد تكون مشغولياته وسقطاته أكثر مِمَّا في باقي أيام الأسبوع ... وتستمر الكرة تتدحرج فيه بعيداً عن المجال الروحي.

واللَّه - جلَّ جلاله - يريد أن يقضي ولو يوماً في الأسبوع هكذا معنا، ونحن لا نستجيب. ونحن تستهوينا أمور العالم بالأكثر. يُغرينا الحديث مع الناس أكثر من

الحديث مع اللّه. أليس من العقل ومن الحكمة أن ننزع أنفسنا من الكلام الكثير مع الناس لكي نتكلَّم ولو قليلاً مع اللّه الذي ينتظرنا. إنَّ أيَّة مشكلة طارئة مفاجئة تُقابل الإنسان، لا بد أنه سيجد وقتاً للتَّصرُّف فيها. وذلك لشعوره بأهمية هذا الأمر. فهل أنت يا أخي تشعر بأهمية حياتك الروحية وبأهمية مصيرك في الأبدية. وبأهمية الغذاء الروحي اللازم لك؟ إن شعرت بكل ذلك فلابد ستوجد وقتاً للصلاة وللتأمُّل وللقراءة الروحية وللتسبيح وللترتيل وما إلى ذلك، عندئذ ستحاول أن تنظم وقتك. وتحتفظ دائماً بالتوازن بين عملك الرسمي وواجباتك الاجتماعية، وعملك الروحي أيضاً. نظِّم وقتك ومشغولياتك إذن، حتى لا تسحبك الدوامة بعيداً عن اللّه. وتذكَّر أن ملوك قديسين كانت أعمال المُلك وقيادة الشعب لا تشغلهم مطلقاً عن اللّه.

★★ كذلك عقل الإنسان، حسب نوعيته، يمكن أن يقرب الإنسان إلى اللّه أو يبعده عنه. لأنه كثيراً ما يكون العقل جهازاً تنفيذياً لرغبات النفس أو لشهواتها. فإذا ما انحرفت النفس، ما أسهل أن تجذب العقل خلفها، كخادم مطيع لها يُبرِّر لها سلوكها الخاطئ. وتشتهي النفس شهوة منحرفة، أو تود أن تستريح بعيداً عن تعب الجهاد الروحي وهنا نجد العقل يُقدِّم لها ما تشاء من التبريرات، ومن الأدلة والبراهين لكي يُقنعها بصحة ما تشتهيه، وحتى لا يثور الضمير على خطأ يود إبعاده عنها. عجيب أن يكون العقل أحياناً واقعاً تحت تأثير الآخرين، أو تحت نير الشهوة. أو أن الفهم الخاطئ قد يدفع العقل أحياناً إلى المجاملة الخاطئة أو المنفعة المادية أو إلى تغيير الحقائق للوصول إلى هدف ما.

★★ إن العقل قد يقود أحياناً إلى الخطأ، أو يقدم للخطأ أعذاراً. وربما يحاول الضمير أن يوقظ الإنسان، بينما يعمل العقل على إنامته وتخديره. فيقول مثلاً عن الخطأ: هذا الأمر ما كنت أقصده إطلاقاً. لقد أتى عفواً، والنية غير متوفرة فيه! أو هذه الخطية حدثت على الرغم منه. الضغطات الخارجية كانت شديدة جداً، لا يستطيع أحد الفكاك منها! ويمكن أن تدخل هذه الأمور من الأعمال غير الإرادية. وهذا الخطأ تبرره الظروف، وذاك تشفع فيه النية الحميدة والقصد السليم! وذلك الموضوع طبيعي جداً يحدث لكل أحد! لماذا ندع الضمير يوبخنا عليه؟! ولا شك أن التدقيق الزائد في الحكم على أمثال

هذا الأمر غير جائز. إنه يقودنا إلى الوسوسة ويفقدنا بساطتنا! وهكذا إلى ما لا ينتهي من التبريرات.

حقاً ما أسهل أن ينحرف العقل، وينحاز إلى ذاته، ويشحذ كل طاقاته لمنح سلام زائف للنفس. والفضيلة التي تُقصِّر فيها، ما أبسط أن يقول أنها فوق إمكانياتي، أو الظروف ما لم تساعد عليه! وقد يكون العقل مشحوناً بأفكار تقدمها البيئة أو التقاليد. أو بأفكار استقاها من الكتب أو من الأصدقاء ... وبهذا يكون فكره بهذا الوضع سبباً للضلالة إن كان يُساعد على الخطية بما يُبرِّرها، أو يُخدِّر الضمير بما يُقدِّمه من أعذار.

★★ وخيال العقل الخصيب قد يُساعد على سقوط الإنسان. إذ تشتهي النفس شهوة، فيتناولها العقل، ويُقدِّم لها قصصاً لا تنتهي تدور حول صور لتحقيق هذه الشهوة. وما أن تنتهي صورة حتى يقدم لصورة أخرى. ونفسك كأنها نائمة أو مُخدَّرة تسرح فيما يُقدمه العقل من حكايات تشبع شهواتها ... إلى أن يستيقظ الإنسان أخيراً فيجد أن العقل قد سرح به في مجالات لا تنتهي ... وما أعجب سرحات العقل التي يُقدِّمها في أحلام اليقظة. وفي خطية المجد الباطل مثلاً، ما أسهل أن يؤلِّف العقل روايات طويلة عن أمجاد يصل إليها الإنسان، ويرفعه بها إلى أعلى مستوى. وتظل النفس مخدَّرة مع العقل، سارحة في خيال إلى أن يوقظها طارئ فتستيقظ. وهنا ليست مشكلة الإنسان أنه لا يستطيع أن يستيقظ من أحلامه ... بل مشكلته أنه لا يريد أن يستيقظ!! إنه سعيد بأفكاره سعيد بأحلامه وأوهامه، سعيد بإشباع العقل بشهواته! وما أكثر مواهب العقل للتأليف والتخطيط.

★★ إنَّ البيئة أيضاً، وبخاصة الأصدقاء والمعارف والأقرباء قد يشجعون النفس على رغبات معينة. والشخص القوي لا تجرفه البيئة بل يقاومها. أمَّا الضعيف فربُّما يُساير الجو. إن سمكة صغيرة يمكنها أن تقاوم التيار، لأنَّ فيها حياة ولها إرادة. بينما جزع شجرة ضخم يجرفه التيار على الرغم من ضخامته، لأنه ليس حي ولا إرادة له. حقاً ما أخطر البيئة والشهوة على الإنسان الضعيف. كلَّما تقترب إليه محبة الحق ترجع البيئة فتضعفها.

١٩ يوليو ٢٠٠٩

مَن هو الآخر؟
في حياتك، وفي علاقاتك

هل كل شخص آخر، هو غريب عنك؟ أم أنك تنظر إليه، وكأنك تنظر في مرآة وترى فيه بحق أنه ذاتك الأخرى ... هكذا كان الإنسان الأول: خلق اللّه أبانا آدم، ثم خلق له إنساناً آخر هو أمنا حواء، بمعنى عميق عن الآخر. فهي لم تكن غريبة عنه إطلاقاً، بل هي لحم من لحمه، وعظم من عظامه. أو هي جزء من كيانه. ولم يذكر التاريخ أنهما اختلفا معاً في يوم من الأيام.

وصارا آدم وحواء مثلاً لحياة كل إنسان مع الآخر: يعيشان دوماً معاً في حب: يقطعان غربة العمر معاً، متلازمين ومتزاملين. يقطفان الورد معاً، ويجرحان من الشوك معاً.

وتطور معنى كلمة الآخَر. من علاقة بين فرد وفرد، إلى علاقة بين أفراد أسرة واحدة، إلى علاقة بين أفراد القبيلة، إلى علاقة بين أفراد الوطن الواحد، إلى علاقة بين البشرية جمعاء.

★★ ووُضِعَت علاقات عامة للتعامل مع الآخر. فهو قريب لك. أنتما الاثنان من أسرة واحدة هي أسرة أبوينا آدم وحواء. ويقتضي ذلك الحب والتعاون، وبذل الذات من أجل الآخر. وما أجمل عبارة ذلك الحكيم الذي قال: "ما عاش قط مَن عاش لنفسه فقط" أي أنه لا تعتبر حياته حياة حقيقية، مَن يتمركز حول نفسه، ولا يخرج منها ليندمج بالحب مع الآخر. وهذا الاندماج هو البذرة التي يتكون بها المجتمع. بل الأكثر من هذا مَن يرون أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدون الآخر. فكل نشاطهم هو من أجل الآخر. وكل مواهبهم هي من أجل الآخر. وفي هذا المعنى يقول الشاعر إيليا أبو ماضي:

يا صديقي أنا لولا أنت ما غنيّت لحن

كنت في قلبي لمَّا كنت وحدي أتغنَّى

والمعنى الذي يقصده هذا الشاعر، هو أيضاً علاقة كل كاتب بمن يكتب له. هو من أجلهم يكتب. فهم الهدف، وهو مجرد وسيلة. وفي كتابته إنما يختلط فكره بفكرهم، ويصير للاثنين فكر واحد وليس آخر. وكأنه يقول للقارئ: أنت أُذُني وأنا فمك، وكلانا واحد. فحقاً ماذا تكون جدوى كلماتي من غيرك، إن لم تجد أذناً لتسمعها؟!

نفس المعنى مع كل مَن يعمل عملاً. فالعمل لغيره ونتيجته لغيره. البائع لا شيء إن لم يوجد المُشتري، والراعي لا صفة له إن لم تكن هناك رعية. والمُعلِّم ليس له هدف، إن لم يكن هناك مَن يتلقى العلم على يديه ... وهكذا في كل الأمثلة المشابهة تظهر أهمية الآخر.

★★ نقطة أخرى في علاقة الإنسان بالآخر: وهي أن الإنسان الواسع القلب لا يزاحم الآخَر في طريق الحياة. بل هو يفسح طريقاً لغيره لكي يعمل، أو لكي يسير معه في نفس الطريق. إنه لا يتعالى على الآخَر ولا يتفاخر وهدفه أن يتلاقيا معاً لا أن يتباعدا. وأتذكر أنني كتبت في هذا المعنى في إحدى القصائد:

قل لمَن يعلو ويجري سابقاً ... يا صديقي قِف قليلاً وانتظرني
نحن صنوان يسيران معاً ... أنا في حضنك مِلْ أيضاً لحضني
قل لمَن يعتز بالألقاب إن ... صاح في فخره مَن أعظم مني؟!
أنت في الأصل تراب تافه ... هل سينسى أصله مَن قال إني ..!

★★ بصراحة كاملة: كُلَّما كبرت عندك "الأنا"، حينئذ يختفي الآخر في مقايسك. حيث تقول: مَن الذي يعيش ويظهر، وينمو وينتشر: أنا أَمْ الآخر. أو كما قال البعض: إذا مُت عطشاناً فلا نزل المطر! أو تقول: الدنيا هى دُنياي أنا. خلقها اللَّه لي لكي أعيش!! وتنسى أن اللَّه تبارك اسمه قد خلق الدنيا للكل، والكل رعاياه وموضع اهتمامه.

لماذا تطلب أن يختفي الآخر لكي تظهر أنت؟ ألا يمكن لكما أن تعيشا معاً. حقاً إن عمق الاهتمام بالآخر يكمن في إنكار الذات، وإيثار الغيرة على النفس. بينما إهمالك للآخر هو لون من الأنانية.

★★ يا أخي، لماذا يكون قلبك ضيقاً فلا يتسع للآخر؟! ولماذا إذا ما اتسع قلبك، فإنما ينفتح لنوعية خاصة من الناس؟! بينما ينغلق أمام الآخرين! ولماذا تخسر هؤلاء

الآخرين؟ استمع إلى سليمان الحكيم حينما قال: "رابح النفوس حكيم". على أني أسمعك وأنت تهمس قائلاً: "ولكن فلاناً لا أتفق معه: طبعه لا يتفق مع طبعي وفكره لا ينسجم مع فكري". وهنا أردد عبارة قالها القديس يوحنا ذهبي الفم وهى: "مَن لا توافقك صداقته، لا تتخذه لك عدواً". نصيحتي لك: لا توسع دائرة أعدائك. فليس هذا من الصالح لك ولا لغيرك.

وأحب أن أسألك هل إذا اختلف معك الآخَر في الرأي، هل تحول ذلك إلى خلاف في القلب أيضاً؟! وتهاجم ذلك الآخر وتعاديه، وتحقره وتشهر به؟! أمْ تحاول أن تلتقي به وتتفاهم وذلك في حوار هادئ يسوده الاحترام والمودة. وهل حوارك مع الآخر هدفه أن تنتصر عليه وترغمه على قبول رأيك؟! وهل يؤول حواركما إلى مزيد من التباعد في الرأي والقلب؟!

وهل أنت تؤمن بحرية الرأي وبالتنوع وبالتعدد في الأفكار؟ وهل يظهر ذلك في تعاملاتك؟ أم أنك تعمل على إلغاء شخصية الآخر؟! فإمَّا أن يوافقك، أو تطرحه بعيداً عنك، ويتحول التنوع إلى خلاف، ويتحول الخلاف إلى قتال، ويتطوَّر القتال إلى عداوة تحتد وتشتد!!

★★ في الزواج مثلاً، لماذا يحدث الطلاق أحياناً؟ أليس السبب هو نفس الأشكال: أنا أم الآخر. بينما الحكمة في الزواج أن يصير الزوجان واحداً، لا أن يكون واحداً وآخر... وهكذا عن باقي أفراد الأسرة والأقارب. حيث يقول الواحد منهم عن قريبه: إنه لحم من لحمي وعظم من عظامي. وبالحب يتسع نطاق أسرتك حتى يشمل المجتمع كله، ولا تقول عن فرد منه أنه آخر. هذا المجتمع إذن هو ذاتك الكبرى وليس آخر ... وبالتالي يتحول العالم كله إلى أسرة كبيرة متحابة.

★★ لهذا كله، ينبغي أن نتدرب على محبة الآخر. فالعلاقة مع الآخر كُلَّما ازدادت قُرباً، تتحوَّل إلى وحده. وأتذكر أنني سؤلت مرة عن الوحدة الوطنية فقلت: "يا أخي المواطن: حينما أنظر إلى نفسي فأراك، وأنظر إليك فأراني، وكأنني أنظر في مرآة، وكأننا روح واحد في جسدين، حينئذ تكون هذه هي الوحدة الوطنية".

★★ لقد تعود البعض بأسلوب خاطئ أن يعتبر كلمة الآخر مجرد تعبير عن الغير المخالف!! بينما الآخر هو الأخ والصديق والحبيب، والمشارك لك في طريق الحياة، بكل تعاون وكل حُب. وهو الذي تتطور العلاقة معه إلى أُخوة.

٢٦ يوليو ٢٠٠٩

الهاربون من اللَّه

الأشخاص الروحيون يسعون إلى اللَّه بكل قلوبهم، ويحاولون القرب منه، شاعرين أنه سبب حياتهم ومصدر قوتهم. وإن بعدوا عنه فترة، سرعان ما يعودون ... على أن هناك آخرون بالعكس يبعدون عن اللَّه بل يهربون منه. فما هى أسباب ذلك الهروب؟ وكيف يمكن مقاومته؟ وما هى أيضاً درجات هذا الهروب؟

★★ من أشهر الهاربين من اللَّه: جماعة الوجوديين. الذين يقول الواحد منهم: إن وجود اللَّه يمنع وجودي! فمن الخير لي أن اللَّه لا يوجد، لكي أوجد أنا! ويقصد من عبارة: "لكي أوجد أنا". أي لكي أتمتع بالوجود حسبما أريد، بعيداً عن اللَّه الذي يمنعني من أمور كثيرة يُضيِّق بها عليَّ فلا يمكنني أن أنال حريتي في أن أفعل ما أريد. هذا الإله يريدني أن أقول له باستمرار: "لتكن مشيئتك". بينما أنا أريد أن أُنفِّذ مشيئتي الخاصة لكي أذوق طعم الحياة وألتذ بها. فلهذا أنا أهرب منه ...

★★ هذا الهارب من اللَّه يقول بصراحة: أنني أهرب من اللَّه حينما يختلف فكري عن فكره. فأنا أرى أحياناً أن الكذب يُنجِّني من مشاكل كثيرة فيستر عليَّ في أخطائي. وبهذا الكذب أصير بريئاً في أعين الناس! بينما اللَّه يقول لي لا تكذب. وكذلك يمنعني عن كل خديعة أخدع بها غيري، بينما بهذا الخداع يُمكنني أن أصل إلى تنفيذ غرضي. وينطبق هذا أيضاً في أمور عديدة أرى فيها أن فكري غير فكر اللَّه. فمثلاً أرى أن الاحتفاظ بكرامتي يدعوني إلى أن أنتقم لنفسي، وأرد على الإهانة بإهانة، وهذا ما ينهاني اللَّه عنه. فحينئذ يضطرني الأمر إلى الهروب من وصية اللَّه! وبالتالي بالنسبة إلى كثير من وصاياه.. أرى أن الهروب منها نافع لي.. ولا شك أن الهروب من وصايا اللَّه هو جزء من الهروب من اللَّه نفسه.

★★ واضح أيضاً أن الشهوة من أهم أسباب الهروب من اللّـه، إذا كانت شهوة خاطئة، ولا يريد الإنسان أن يتركها. فلهذا يترك اللّه بسبب الرغبة في تنفيذ تلك الشهوات. ومثل هذا الخاطئ الذي تبعده شهواته عن اللّه، يُبرِّر موقفه من هروبه من اللّه بقوله: "إن صرت مع اللّه، سأنقسم على ذاتي. وسأدخل في صراع بين الروح والجسد، وصراع بين الخير والشر! وأنا لا أريد أن أُتعب نفسي بهذه الصراعات".

كثيرون من هذا النوع لا يريدون أن يواجهوا الواقع إطلاقاً، لأنهم يخافونه. كإنسان مريض بمرض خطير: يهرب من الطبيب ومن الكشف، ومن الأشعة والتحاليل، لكي يستريح! ولو راحة وهمية، هارباً من الواقع لأن الواقع يتعبه.

★★ ومن الذين يهربون من اللّه نوع لا يريد أن يتحمّل مسؤولية خطيئته. ففي حالة الخطية كانوا هاربين من اللّه. وبعد ارتكابها لا يريدون أن يتحمّلوا مطالب التوبة. فما معنى التوبة؟ هل معناها متاعب الندم على تلك الخطايا، وتبكيت النفس عليها، والتعب الذي يتعبه الضمير. وما أسهل على الإنسان أن يقول: ما لي وكل هذا؟! هل من الواجب عليَّ أن أدخل في عقدة الذنب Sence of guilt أم من الأفضل أن أهرب من كل هذا وأستريح؟! إن التوبة ومطالبها صعبة في نظر هؤلاء والهروب من تعب الضمير أمر سهل ولطيف ومريح حتى لو كان معناه الهروب إلى خير ومن الواقع ومن مواجهة النفس.

★★ البعض يرى أن الهروب من اللّه ومن وصاياه، سببه اليأس من إرضاء اللّـه الذي يطالبنا بالبر والقداسة وبالكمال النسبي. فيقول: "ما دام طريق الفضيلة طويلاً بهذا الشكل، فلن يمكنني أن أبلغه، فالأفضل أن أتركه حتى لو حُسِبَ ذلك هروباً".

هناك فتاة تهرب من اللّه لأنها ترى أن الحياة مع اللّه معناها أنه سيحرمها من الزينة ومن الملابس التي تُظهِر محاسنها. وهناك موظف يرى أن اللّه سيحرمه من التباهي والتفاخر بسلطته. وإنسان ثري يرى أن اللّه سيحرمه من الفخر بالثراء ومتعته أو نقص أمواله عن طريق العطاء! وآخرون يهربون من اللّه بسبب الهروب من واجبات العبادة التي تشغل الكثير من الوقت!

★★ البعض يهربون من اللَّه لأنهم يرون أن طرقه ضيقة بينما البعيدون عن اللَّـــه مستريحون، يستطيعون أن يفعلوا كل شيء بسهولة غير مقيدين بشيء: فبالتســـاهل فـــي الأخلاقيات يمكن كسب عدد كبير من الأصدقاء. وبعبارتين مـــن التملـــق يمكـــن كســـب الرؤساء ويمكن خداعهم، وبشيء من الرياء الخفيف يمكن الحصول على احترام النـــاس، وبضربة قاسية ومؤامرة خفية يُمكن التخلُّص من جميع المقـــاومين. وبشـــهادة مرضـــية مزوَّرة يمكن التغطية على كل غياب، وبالرشوة والمحسوبية يمكن الوصول لكل غرض. بينما الذين يعيشون مع اللَّه، نغلق أمامهم أبواباً كثيرة ... لذلك يرون أن الهروب من اللَّه أفضل، بل يتطرف البعض ويقولون: إن السير مع اللَّه لم يعد يناسب العصـــر! ووســـائل المتدينين ليست ناجحة.

★★ إننا نقول للهاربين من اللَّه: "مهما هربتم من اللَّه، فسوف يبحث عـــنكم، لكـــي يردكم إليه". وكذلك فإن طريق اللَّه وإن كان يحرم الخطايا والآثام إلاَّ أنـــه لـــيس كئيبـــاً بالدرجة التي يصوّرها الشيطان. الذي يتعوَّد حياة البِرّ، كثيراً ما يجد فيها متعة تريح قلبه وضميره وفكره. وتجلب له ثقة من المحيطين به.

وإن كان البعض يقول: كيف أعيش مع اللَّه وأترك كل الخطايا التي أحبها وأجد فيها لذَّة؟ بينما حياة البِرّ فيها صعوبة؟! نقول: إن هذا قد يكون في بداية الطريق فقط ولكن إذا نما الإنسان في حياة البِرّ فسوف يجد فيها لذَّة ومُتعة، وتصير سهلة أمامه. إن الشيطان قد يصوّر لك أن طريق الرب صعب عليك لكي تهرب منه! ولكن هذه خدعـــة. فحتـــى إن كانت بعض وصايا الرب صعبة في تنفيذها، فإن اللَّه يُعطي معونـــة بنعمتـــه، ويُصـــيِّر الصعب سهلاً.

★★ نقول أيضاً للهاربين من اللَّه: اهتموا بمصيركم الأبدي، لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟! إنك مهما هربت من اللَّه، فلن تستطيع أن تهرب من يوم الحساب. لذلك في كل خطاياكم لا تنظروا إلى اللَّه باعتباره القوة المانعة التي تمنـــع مـــن ارتكاب خطايا مُعيَّنة، بل اُنظروا إليه باعتباره القوة المانحة التي تمنح كل موهبـــة وكـــل قوة.

٢ أغسطس ٢٠٠٩

كل حق يقابله واجب

بالنسبة إلى علاقتنا بالناس، فإن كل حق نطالب به لا بد أن يُقابله واجب نؤديه وربَّما عدَّة واجبات. أمَّا بالنسبة إلى علاقتنا باللَّه جلَّ جلاله فإننا لا نطالب بحقوق بل كل ما نأخذه هو في نطاق النعمة أو الهبة التي يمنحنا اللَّه إيَّاه. ويدخل في هذا النطاق ما وهبه اللَّه لنا من نعمة الوجود ونعمة الحياة ونعمة العقل ونعمة الرعاية ...

★ كذلك فإنَّ الحقوق التي ننالها ينبغي أن نستخدمها بحكمة ولياقة. وأيضاً من جهة ما نناله من اللَّه من النِّعم والمواهب، فإنَّ اللَّه قد وهبنا نعمة الحياة. وكذلك من حقنا على المجتمع أن نحيا. ولكن يُقابل ذلك عِدَّة واجبات: فواجبنا أن نستخدم حياتنا في الخير، وأن نحافظ على هذه الحياة لتكون نافعة لنا ولغيرنا. كما أنه من واجبنا المحافظة على حياة غيرنا. وإن اعتدى أحد على حياة غيره بالقتل مثلاً، لا يكون هو مستحقاً للحياة، فتؤخذ نفسه منه عوضاً عن حياة غيره التي أهدرها. وبهذا يحكم المجتمع ويُنفِّذ. حياتنا هي أيضاً وديعة أودعها اللَّه إيانا. ومن واجبنا أن نستثمرها، ولا تكون عبئاً على المجتمع، بل تكون مصدر نفع له. فحياتنا جزء من حياة المجتمع، له فيها نصيب، ومن واجبنا أن نمنحه هذا النصيب. فلا نعيش لأنفسنا فقط، وإنما نعيش أيضاً للغير على قدر ما نستطيع. وأحياناً نرى من واجبنا أن نبذل حياتنا لأجل الغير في حب أو لأجل اللَّه أيضاً. وفي هذا يكون الاستشهاد وتكون التضحية ... وفي قمة الذين سجل التاريخ أسماءهم، هم الذين عاشوا حياتهم لأجل غيرهم أو من أجل أوطانهم أو شعوبهم.

★ لقد وهبنا اللَّه نعمة الوجود. وهذه النعمة تقابلها واجبات. ومن العجيب أن يظن إنسان أنه موجود، بينما لا يشعر العالم بوجوده! ذلك لأنه لم يقم بواجب أو بعمل تشعر العالم به! فهل من حق الإنسان في الوجود، أن يكون فراغاً لا يمتلئ المجتمع بشيء منه؟! أم أن حقه في الوجود معناه أن يكون له وجود فعال، وفعَّال في الخير ... وهناك أشخاص امتدت فعاليتهم حتى بعد وفاتهم ... فظلوا موجودين فيما تركوه من أثرٍ باقٍ. على أن كثيراً من الناس يظنون أن حياتهم تمتد في أولادهم وفي أسمائهم وفي عملهم. ولكن ماذا

عن ذات كل واحد منهم؟ حقاً إن الوجود ليس مُجرَّد أنفاس تتردد، بل هو حياة تبقى وتستمر فعاليتها.

★★ من حق الإنسان أيضاً أن يتمتع بالحرية. وقد خلقنا اللَّه أحراراً ولكن من واجبنا أننا لا نحول هذه الحرية إلى لون من التسيب. فالحرية التي وهبنا اللَّه إيَّاها تقابلها واجبات كثيرة أن نحفظ وصايا اللَّه، وأن نعيش في نقاوة وبر. وأيضاً الحرية التي تعتبر حقاً لنا في المجتمع يقابلها واجبات أهمها عدم التعدي على حقوق الآخرين وعلى حرياتهم، وعدم مخالفة نصوص القانون والنظام العام.

من حق الإنسان أيضاً أن يتمتع بالراحة. على أن تكون هذه الراحة في الوقت المناسب وبالقدر المناسب. ومن واجبه أن لا يبني راحته على تعب الآخرين، وألا تتحوَّل راحته إلى لون من الكسل أو التراخي. كما لا يطلب الراحة على حساب عمله والإخلاص لواجباته.

★★ هناك نقطة أخرى وهى حق العمل. وكل إنسان يطالب بحقه في أن يعمل. والبطالة هى خطر على الأفراد وعلى المجتمع. ولكن هل العمل هو منحة يُقدمها لك المجتمع، إما هى طاقة كامنة فيك قادرة على العمل، فحيثما أن توجد ينبثق منك العمل؟ أم أنت أداة يأخذك غيرك ويعمل بك، ويوظفها حسبما يريد. وتصبح أنت موظفاً. ويكون من حقك أجر على عملك مرتب لك؟ لذلك الحق في العمل تقابلها واجبات من أهمها إتقان العمل والنجاح فيه عدم التبرم به. والإنسان الذي يعمل بضمير حي هو الذي يُقدِّم في عمله إنتاجاً أوفر وإتقاناً أكثر. وأمثال هؤلاء يطلبهم أصحاب العمل، دون أن يطلبوا هم عملاً.

★★ هناك أيضاً حقوق اجتماعية. من حق الإنسان الناضج أن تكون له أسرة إذا أراد. ولكن واجبه حسن المعاشرة وحسن التعامل داخل الأسرة، لئلاً ينتهي الزواج بالطلاق. وفي داخل الأسرة من حق الأبناء أن ينالوا الرعاية الكاملة من الآباء والأمهات ومن واجبهم إكرام الوالدين وطاعتهما.

من حق الوالدين أن يكون لهما أبناء. ومن واجبهما مُرعاة تنظيم الأسرة، فلا ينجبان بأسلوب يؤدي إلى التضخم السكاني وما يتبعه من مشاكل اقتصادية واجتماعية.

ومن حق الإنسان أن يتمتع بالحب. ومن واجبه أن يكون نزيهاً طاهراً في محبته للغير. ومن جهة محبته للجنس الآخر ينبغي ألا تتحول إلى شهوة جسدية تقود إلى نجاسة. ومن واجب الإنسان في الحب أن يبعد عن الأنانية، بل يحب الآخرين ويبذل من أجلهم ويحتمل. وأن يجعل محبته مشاعاً للكل بلا تمييز.

من حق الإنسان أن يكون له سكن يأوي إليه. ومن واجبه أن يحرص على حسن الجوار. كما يجب عليه الحرص على جمال ونظافة البيئة التي يعيش فيها.

من حق الإنسان أن يمتلك وأن يقتني وأن يربح. ومن واجبه أن يكون ذلك في حدود المعقول، وفي نطاق الربح الحلال، بعيداً عن الطمع وعن الاحتكار. وله أن يملك المال، ولكن لا يسمح للمال أن يملكه ويصبح هدفه في الحياة. كما أن من واجبه أيضاً أن يستخدم ماله في الخير بقدر إمكانياته أو بقدر استطاعته. وأن يُعطي منه للمحتاجين والمعوزين.

★★ هناك أيضاً للإنسان حقوق سياسية: أولها حق المواطنة الكاملة. يقابلها واجب في الولاء للوطن واحترام الدولة ومؤسساتها وقوانينها. ومن حقوقه السياسية أيضاً حق الانتخاب في حدود النظام العام. ومن واجبه الإدلاء بصوته حسب ضميره.

من حقه أيضاً الدفاع عن نفسه. ومن واجبه أن يكون صادقاً وعادلاً في دفاعه. ولا يظلم غيره ويلقي عليه التبعة دون وجه حق. ومن حقه أيضاً إبداء رأيه ونشره، واستخدام حرية الصحافة. ولكن هذا كله تقابله واجب الحفاظ على صدق المعلومات التي ينشرها، وأيضاً الحفاظ على سمعة الآخرين وعدم التشهير بهم. وأن يحتفظ بأدب الحوار. فله أن يتكلم أو يكتب. وواجبه أن يكون ذلك بحق ولياقة.

٩ أغسطس ٢٠٠٩

الفضيلة هى وضع متوسط بين ضدين

قال بعض الحكماء في تعريف الفضيلة: إن الفضيلة هى وضع متوسط بين الإفـراط والتفريط. أي التوسط بين الإفراط في الزيادة، والتفريط أي النقص. أي أن يسلك الإنسان بميزان من الاعتدال. لا يُبالغ حتى يصل إلى التطرف. ولا يتهاون فيصل إلى الإهمـال. فالمبالغة مرفوضة سواء كانت سلباً أو إيجاباً.

★★ فما هو إذن ميزان الفضيلة في التَّدين مثلاً؟

التدين هو الوضع المتوسط بين المُغالاة إيجاباً إلى حد التطرف، والمُغالاة سلباً إلـى مستوى الاستهتار. أي هى الوضع المتوسط بين التشدد في تطبيـق الـدين إلـى درجـة التَّزمُّت، أو المبالغة في التساهل إلى درجة الاستباحة.

★★ ومن جهة التعامل مع الناس، ما أجمل المثل المصري القـديم: "لا تكـن لينـاً فتُعصر، ولا يابساً فتُكسر". فهُنا الفضيلة تكون في الوضـع المتوسـط المعتـدل، حيـث لا يكون الإنسان مُتساهلاً في حقوقه حتى يدوس الغير عليه في امتهان ولا مُبـالاة. كمـا لا يكون عنيفاً في تعامله مع الآخرين، حتى يصبح موضع انتقامهم بسبب شـدة تعاملـه. وأتذكَّر أنني في شبابي أُتيحت لي فرصة لرثاء أحد كبار أستاذتنا الأفاضل، وقلـت فـي بعض أبيات من الشعر:

يـا قويـاً لـيس فـي طبعـه عنـفُ ... ووديعـاً لـيس فـي ذاتـه ضـعفُ
يـا حكيمـاً أدَّب النـاس وفـي ... زجـره حُـبٌ وفـي صـوته عطـفُ
لـك أسـلوبٌ نزيـهٌ طـاهرٌ ... ولسـانٌ أبـيضُ الألفـاظ عـفُّ

وهكذا توجد حدود للفضيلة. فلا يُبالغ فيها حتى تبدو الوداعة وكأنها لون من ضـعف الشخصية. كما لا يُبالغ في الحزم حتى لا يتحول إلى عنف ... وبهذا توضع قاعدة للتربية يسلك فيها الآباء نحو أبنائهم: بحيث يشعر الابن بحُب أبيه وعطفه، وفـي نفـس الوقـت

بكرامة أبيه وهيبته. كما أن الأب في معاملته لابنه، يحنو عليه بغير تدليل، ويؤدِّب بغير قسوة. لا يهمل التأديب بسبب الحُب. ولا ينسى الحب بينما يؤدِّب.

★★ نفس الوضع بين الاحترام والدالة: ففي علاقة كل شخص برئيسه أو ولى أمره: عليه أن يحترم رئيسه في غير خوف. وإن عامله رئيسه بدالة، لا يستغل الدالة ويفرط في ما يليق رئيسه من هيبته وتوقير ... ومن جهة الصغار عليهم أن يطيعوا الكبار، ولكن ليس بشعور العبودية، أو بفقد شخصياتهم ... إنما يجمعون بين طاعة الرؤساء وطاعة ضمائرهم. وهنا لا نوافق على عبارة الطاعة العمياء، بل تكون بحكمة وتبصر.

★★ الحرية أيضاً هى وضع متوسط بين الكبت والتَّسيُّب. فلا تكون إجباراً يُولد كبتاً ويفقد فيه الشخص إنسانيته وإرادته وكأنه يسير رغم أنفه. ومن الناحية الأخرى لا تطبق الحرية بلا ضابط حتى تصل إلى التَّسيُّب، حيث لا يوجد رادع على الأخطاء. لأننا نرى الوضع الأمثل في الحرية المنضبطة.

★★ كذلك أيضاً الوضع المتوسط بين الصمت والكلام. فلا يبالغ الإنسان في الكلام حتى يصل إلى الثرثرة أو التحدث في ما لا يليق، أو فيما لا يخصه، أو ما ليس في معرفته. ولا يكثر الكلام حتى يمل سامعوه. بل يحرص أن ينطبق عليه قول الحكيم: "ليتكم تصمتون صمتاً فيصير صمتكم لكم حكمة". ومن الناحية الأخرى لا يبالغ الإنسان في الصمت حين يجب الكلام، بل يتكلَّم حين يحسن الكلام، وهكذا يحفظ التوازن بين كلامه وصمته.

★★ نطبق نفس القاعدة في معنى الشجاعة وفي استخدامها: الشجاعة لازمة في الدفاع عن الحق، وفي نصرة المظلوم، وفي رفض الظلم والاستبداد. ولكن لها حدوداً فلا يجوز أن تصل إلى التهور واللامُبالاة. كما لا تكون بأسلوب من الطيش والاندفاع وعدم التَّروي. ولا يكون الدافع إليها أسباب خاطئة. إن الشجاعة فضيلة إذا مورست في حكمة وبأسلوب سليم. كذلك عدم الشجاعة خطيئة.

وبنفس المنطق نتكلَّم عن مفهوم القوة واستخدامها. حيث لا يجوز أن تتطوَّر إلى العنف أو البطش أو الاعتداء على الغير. بينما يحسن أن يكون الإنسان قوي الشخصية وقوي الإقناع. وفي نفس الوقت يكون بعيداً عن التجبُّر وتهديد الآخرين. وأيضاً بعيداً عن ضعف الشخصية.

★★ هذا التوازن ينبغي أن يكون أيضاً في النقد كما في المديح: النقد ليس معناه مجرد ذكر المساوئ، مع تجاهل الفضائل إنما هو إظهار الحق. وفي مجال النقد ليس للإنسان أن يُجرح الآخرين أو يحط من كرامتهم. فللنقد حدود: لا يسكت الإنسان على الخطأ إن كان من حقه أن يظهره. كما لا يُشهِّر بغيره فهذا ليس من حقه.

نفس الوضع بالنسبة إلى المديح: هو فضيلة إن كان يعبر عن تقديره واحترام لصفات تستحق ذلك. ولكن لا يجوز أن يصل إلى التملق أو النفاق. فيكون المديح لتكريم الكبار، ولتشجيع الصغار والمبتدئين.

★★ هناك أيضاً فرق بين الصراحة والإهانة فبدافع من الإخلاص يمكن للصديق أن يتكلَّم في صراحة مع صديقه، سواء في عتاب أو نُصح. ولكن يكون ذلك في مودَّة، ولا تخرج الصراحة عن حدودها إلى جرح المشاعر وهنا تُعتبر إهانة ولا تكون مقبولة. وفي غير مجال الصداقة يمكن أن يكون الإنسان صريحاً، إنما لا يجوز أن يكون هدَّاماً في صراحته. له أن يوضِّح الأمور، وقد يذكر الأخطاء في أدب وبغير تحقير للغير. وأيضاً يكون عادلاً لا يتجنَّى في صراحته، كما تكون صراحته ممتزجة بالصدق. وفي نفس الوقت إن وُجِدت نقاط للمديح ينبغي ذكرها، كأن يمدح الإنسان الهدف مثلاً وينتقد الوسيلة.

★★ وفي الحياة الخاصة يجب أن يكون هناك توازن في المُتعة واللهو والمرح. فمن حق الإنسان أن يتمتع بأمور جائزة ومُحلَّلة، ولكن لا يُبالغ في المُتعة حيث تصل إلى الخطيئة أو الفجور. وفي المرح لا يجوز أن يخرج عن حدوده، حتى يصل إلى التهريج! كما لا يجوز أن يمتزج اللهو بأخطاء لا يرضى عنها الضمير. كذلك من حق الإنسان أن يفرح بحيث لا يتبذل في أفراحه ولا يتدنَّى. أيضاً من حق المرأة أن تتزين، دون أن تبالغ في زينتها حتى تصل إلى التبرُّج وإلى الفتنة وإسقاط الآخرين.

من جهة الفن أيضاً، نُحب أنه لا يخرج عن معناه وعن هدفه كما لا يمكن أن ندعو كل شيء فناً إن كان يُعبِّر عما لا يليق.

١٦ أغسطس ٢٠٠٩

الثمن

كل شيء له ثمن، سواء في السماء أو على الأرض. وهكذا يقتضي عدل اللَّه، كما تقتضي العدالة على الأرض أيضاً. فالحرية مثلاً لها ثمن. وقد صدق الشاعر في قوله:

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مدربة يدق

أي تكون هذه الحرية مدربة بالدم، دم الذين جاهدوا ليحصلوا عليها ... فحرية العبيد في أمريكا، كان لها ثمن هو ثورة العبيد في أمريكا ... وحرية السود في جنوب أفريقيا، كان لها ثمن دفعه مانديلا الذي احتمل السجن سنوات عديدة، حتى خرج ليكون أول رجل أسود حكم جنوب أفريقيا بعد زوال التفرقة العنصرية.

★★ وتخلص مصر من الاحتلال البريطاني، كان له ثمن هو الثورة الجبارة التي قام بها سعد زغلول سنة ١٩١٩م بعد أن نُفِيَّ إلى جزيرة سيشيل هو وأصحابه. تلك الثورة الشاملة التي قامت في مصر كلها. وأعقبها الحصول على الدستور لأول مرة سنة ١٩٢٣م.

وكذلك حصول الهند على الاستقلال بعد أن حكمتها إنجلترا سنوات عديدة. هذا أيضاً كان له ثمن هو الجهاد المُضني الذي قام به زعيمها مهاتما غاندي في أصوام وفي صبر واحتمال حتى اعترفت إنجلترا باستقلال الهند أخيراً.

★★ النجاح أيضاً في أي شيء له كذلك ثمن: وثمنه التعب والجهاد. فلا يُمكن لأحد أن ينال النجاح بمُجرَّد الرغبة فيه. والرغبة وحدها لا تكفي، وإنما كما قال الشاعر:

وما نَيْل المطالب بالتمنِّي ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وعلى رأي المَثل: "مَن جَدَّ وجَدَ". يُضاف إلى النجاح أيضاً التفوق وهذا لا يمكن أن يناله الإنسان إلا بجهد فائق غير عادي.

★★ الصحة أيضاً لا يحصل عليها أحد إلا بثمن. وثمنها هو مراعاة كل القواعد الصحية، وإبعاد الجسد عن كل أسباب المرض والضعف. وتقويته مِمَّا يحتاج إليه من غذاء ورياضة وهواء نقي. أمَّا في حالة المرض: فثمن الصحة هو العلاج اللازم والدواء،

وإطاعة الإرشاد الطبي، واحتمال الألم. وما أكثر الثمن الذي يبذله الإنسان في ظروف العمليات الجراحية. سواء من جهة ماله أو احتماله، والصبر حتى يُشفَى. وبعد ذلك أيضاً الحرص في فترة النقاهة خوفاً من النكسة.

★★ كذلك أيضاً كسب محبة الناس، ما أعظم الثمن الموصل إليه ... يحتاج الإنسان في ذلك إلى تدريب طويل على البذل والعطاء، والثبات في ذلك، واحتمال أخطاء الآخرين، وحسن مُعاملة الكل من الصغار والكبار، وعدم التعامل بالمِثل مع المُسيئين، وعدم الخوض في سيرة الناس. بل إن تحدَّث عنهم بذكر فضائلهم وينسى ما لهم من سيئات ... لهذا كله يكسب الإنسان محبة الآخرين. كما يلزمه أن يدرس ويختبر نفسيات الذين يتصل بهم، ويتعامل مع كل منهم حسب ما يُناسِب نفسيته.

★★ الأمانة أيضاً لها ثمن. والطاعة كذلك لها ثمن. الأمانة الخاصة بعفة اليد ثمنها تدرج الشخص على ألا يأخذ شيئاً ليس من حقه، ولا يأخذ شيئاً أزيد من حقه. وهكذا يبعد تماماً عن المال الحرام، ويحترس من الرشوة بكل إغراءتها ... والأمانة في أداء الواجب ثمنها بذل الجهد على قدر المُستطاع في القيام بالمسئوليات، وعدم التقصير في شيء منهما ... أمَّا عن الطاعة فثمنها محبة مَن تُطيعه، والتضحية بمشيئتك الشخصية لأجل تنفيذ مشيئته، في نطاق مشيئة اللَّه.

★★ كذلك تكوين الثروة له ثمن، والوصول إلى السُّلطة له ثمن ... فالثروة لا تهبط على الإنسان من فوق كعطية مجانية من السماء! وإنما تحتاج إلى جهد وتعب في الحصول عليها. وكثير من الناس يشتهون الثروة ويسعون إليها. ولكن لا ينالها إلا الذين كانت لهم حكمة وخبرة في إدارة الأمور المالية. وأيضاً في الحرص على الثروة حتى لا يفقدوها وأيضاً الحكمة في اختيار شركائهم ... لئلاً يقعوا في شريك يُضيِّع كل جهدهم.

أمَّا من جهة السُّلطة، فما أكثر الذين يسعون إليها ويشتهوها. ولكن لا يصل إليها إلاَّ الذين تعبوا في هذا السبيل وصبروا، وكانت لهم علاقات طيبة مع الذين بيدهم الأمر، حتى حصلوا على مكانة توصلهم إلى السُّلطة.

وفي كل ذلك ليس فقط الحصول على الثروة والسلطة يحتاج إلى ثمن، بل أيضاً الحفاظ على كل منهما يحتاج إلى ثمن. لأنَّ كثيرين حصلوا على الثروة وعلى السُّلطة ثم فقدوها، بسبب سوء الاستخدام أو بسبب الكبرياء...

★★ ونوال المغفرة له ثمن وهو التوبة، والتوبة أيضاً لها ثمن هو جهاد النفس ضد الخطية. وأقصد بالخطية كل أنواعها: سواء خطايا الجسد أو الفكر أو القلب أو الحواس، أو خطايا اللسان وغير ذلك. ومن الناحية الإيجابية: حِفظ نقاوة القلب، وامتلائه بمحبة اللَّه. ثم الثبات في كل ذلك، والبُعد عن كل أسباب النكسة الروحية.

صدّقوني يا إخوتي إنَّ الخطية أيضاً لها ثمن. فما أكثر الذين بذلوا الجهد والمال والصحة ثمناً للخطية. ثم بعد ذلك فقدوا الكل، فلا بقي لهم جهد ولا مال ولا صحة. كما فقدوا الخطية ولم تدم لهم.

★★ أحب أيضاً أن أقول: إنَّ السعادة والحياة الأخرى لها أيضاً ثمن. وثمنها هو الإيمان السليم، والحياة الطاهرة المقبولة أمام اللَّه. وسعيد كل مَن ثبت فيهما، وكل مَن كان في كل حين مستعداً للقاء اللَّه بضمير صالح قدامه.

فإن كان الثمن مطلوباً في كل الأمور العالمية والاجتماعية والاقتصادية، فكم بالأولَى الأمور الروحية! والناس عموماً يختلفون في دفع الثمن، بقدر ما يكونون أمناء وجادين في ذلك. وما دام الإنسان سيُجازَى بحسب أعماله في يوم الدينونة الرهيب، إذاً عليه أن يبذل كل جهده، وكل إرادته لكي يصل إلى أعلى قدر من الحياة الفاضلة، وينمو في ذلك كل حين، حتى يصل بقدر الإمكان إلى الكمال النسبي الذي تستطيعه طاقته البشرية. وسوف يُكافأ على ذلك.

اجلس يا أخي إلى نفسك وحاسبها جيداً: هل بذلت كل طاقتها في عمل الخير؟ فهذا هو الثمن الذي يطلبه اللَّه منها، لكي يكون لها نصيب مُميَّز في السماء.

٢٣ أغسطس ٢٠٠٩

اللَّه الخالق

إن اللَّه هو الوحيد الخالق. أمَّا كل ما وصل إليه الإنسان من اختراعات عجيبة، فما هو إلاَّ نوع من الصُنع. فالصَّانع يصنع أشياء من مواد موجودة. أمَّا الخالق فإنه يخلق من العدم. أي أنه يُنشئ شيئاً من لا شيء. واللَّه جلَّت قدرته خلق كل شيء من لا شيء.

★★ في الأزل كان اللَّه وحده. ومن تواضع اللَّه، ومن كرمه وجُوده خلق كائنات أخرى متنوعة في هذا الكون كله: خلق كائنات مادية ليس لها حياة ولا فهم. وخلق كائنات روحية تماماً هى الملائكة. وخلق الإنسان خليطاً فيه المادة التي هى الجسد وفيه أيضاً الروح وفيه العقل ... لم يكن اللَّه محتاجاً إلى هذه الخليقة، بل هى المحتاجة إليه. لم يخلق الإنسان لكي يُمجِّده. فهو من قَبل الإنسان كان ممجداً من ملائكته. ومن قَبل الملائكة كان مُمجَّداً بطبيعته الإلهية القادرة على كل شيء. واللَّه قبل أن يخلق الإنسان، خلق له كل ما يحتاج إليه لقيام حياته.

★★ وخلائق اللَّه متنوِّعة: فيها الجماد الذي لا حياة له، وفيها الحيوان الذي له نفس تنتهي بموته، وفيها الملائكة الدائمة الحياة، والإنسان الذي له حياة أخرى بعد موته. ومن عظمة اللَّه العدد الهائل من مخلوقاته التي تصل إلى ملايين الملايين، التي تتكرَّر في كل جيل أو كل عام. وبعضها لا يُحصى مثل رمل البحر، وما تحويه السماء من كواكب ومجرَّات. ومن مخلوقاته الأشياء الظاهرة التي نعرفها، والخفي الذي لم نعرفه بعد، سواء في باطن الأرض أو داخل الجبال أو في أعماق البحار، وما تظهره لنا البراكين، وأعمال التنقيب والحفر. وتوجد معاهد لعلوم البحار وأخرى لعلوم الفضاء. ومعاهد للجيولوجيا وأخرى للفَلك. ونحن باستمرار تزيد معلوماتنا عن ذلك الجانب الخفي من خلق اللَّه.

★★ وإلهنا الحكيم في خلقه وضع نظاماً عجيباً يربط خليقته بعضها البعض. وهناك نظام للأجواء يشمل الحر والبرد والعلاقة بين الرياح والأمطار وباقي الهواء، وتوالي الليل والنهار، والظلمة والنور، والرطوبة والجفاف ... كل ذلك بدقة عجيبة بحيث يمكن استنتاج ما يمكن أن يحدث بعد حين. خلق اللَّه النور للعمل، والظلمة للراحة ... إنه عالم

مُنسَّق ومنُظَّم. وهناك نظام لدورة الأرض حول نفسها أمام الشمس طول الأربعة والعشرين ساعة لا يختل على مدى الدهور الطويلة، وينتج عن ذلك الليل والنهار. ودوران القمر حول الأرض مرة كل شهر ينتج عنه أوجه القمر من هلال وتربيع وبدر وأحدب ومُحاق ... كل هذا في نظام ثابت تدل على قوانين فلكية حتى أن بعض الفلاسفة القُدامى كانوا يُسمُّون اللَّه بالمهندس الأعظم.

★★ نُضيف إلى ذلك ما وضعه اللَّه من نظام وتناسق في جسد الإنسان سواء في علم وظائف الأعضاء، أو في المُخ وتركيبه وعمله، وما يصدره من أوامر لباقي أعضاء الجسد وما فيه من مراكز الحركة والبصر والسمع والذاكرة لغير ذلك. كذلك عمل القلب والجهاز الدوري وما يتعلَّق بذلك من ضغط الدم، وفصائل الدم التي تتغيَّر من إنسان إلى آخر ... وباقي الأعصاب وعملها ... والأجهزة الأخرى في جسم الإنسان مثل الجهاز الهضمي، والجهاز التناسلي، وقوانين الوراثة كل ذلك عجب في عجب ... صدقوني حتى مُجرَّد الأسنان، هذه العظام الصغيرة التي ليست في حجم العمود الفقري وباقي العظام! لأن كل سِنَّة أو ضِرس منها هى عالم عجيب تربطه أعصاب ودم، وعمل متناسق لا يمكن إطلاقاً أن تماثله أسنان صناعية.

★★ بل إن عجب اللَّه في كل خلقه، يظهر عميقاً جداً في بصمات الإنسان: فكل إنسان خلقه اللَّه له بصمات خاصة به تختلف عن بصمات أي إنسان آخر. وهنا نقف في ذهول أمام ملايين ومئات وآلاف الملايين من البصمات التي لا تتشابه!! بحيث لا يستطيع أي مهندس أو رسَّام مهما كانت براعته أن يرسم بصمات مثلها ... وما نقوله عن بصمات الأصابع نضم إليه أيضاً بصمات الصوت المتنوعة. بحيث يُكلِّمك أي شخص في التليفون مثلاً، فتستطيع أن تُميِّز صوته وتتعرَّف عليه. كما نستطيع أن نضيف إلى كل هذا ما خلقه اللَّه من ملامح عديدة لرجال ونساء لملايين البشر.

★★ نرى أيضاً قوة الخالق العظيم في عالم الأرواح: سواء قدرته في خلق الملائكة الأطهار الذين قِيل عنهم أنهم ملائكة من نور الذين ينتقلون من السماء إلى الأرض في لمح البصر. والذين لهم قوة عجيبة في الإنقاذ، وصُنع المعجزات. والذين لهم مثالية عديدة في الطهارة والنقاوة...

ويمكن أن ننزل في مستوى الأرواح، إلى عظمة اللّه في خلق روح الإنسان، وصِلة هذه الروح الإنسانية بالجسد، وصلتها أيضاً بالعقل، وبالضمير، وبالحياة والموت، هذه الروح الخالدة العاقلة الناطقة، ومصيرها بعد الموت، وعودة الروح مرّة أخرى إلى الجسد في القيامة العامة، وما يحيط بكل ذلك بأسرار. وما أكثر ما فكّر علماء الأرواح وأحاطوا كل علمهم بعبارة لا أعرف! ... يكفي إننا كُلّما نتطرّق إلى عالم الروح أن نذكر قدرة اللّه الخالق العظيم.

★★ ولماذا نتكلّم عن المستويات العُليا؟ فلنهبط إلى مستوى المخلوقات البسيطة كالحشرات فلنتحدَّث مثلاً: فما أعظم قوة اللّه في خلق النحلة مثلاً كالتي تنتج رحيقها من الأزهار وتحوله بدقة عجيبة إلى عسل، وأكثر من هذا إلى غذاء الملكات، فنعرف كم وهبها اللّه كي يهبها لنا.

كذلك النملة في نشاطها العجيب الذي أصبح مثلاً للبشر ... كل ذلك يرينا عظمة اللّه في خلقه سواء في السماء العالية أو في الحشرات البسيطة، في الجبل العالي، وفي الوادي المنخفض، في الأسد القوي الشجاع، وفي الأرنب الضعيف الخائف.

ونحن إذا تأمّلنا في قوة اللّه الخالق إنما نصل إلى قوة اللّه غير المحدودة وإلى قدرته التي تشمل كل ما يحيط بنا، وإلى حكمته، وحنوه على الكل. وفي كل ذلك نشكره على ما أعطانا إيّاه من عقل. ولا يتملكنا الغرور كبشر في كل ما ننتجه كبشر، إنما هو بسبب العقل الذي خلقه اللّه لنا، تبارك اسمه.

٣٠ أغسطس ٢٠٠٩

اللَّه القوي
القادر على كل شيء

إنَّ اللَّه - جلَّ جلاله - له صفات إلهية خاصة يتميَّز بها عن البشر. ومن صفاته هذه أنه قوي. ولكن قوة اللَّه قوة غير محدودة أمَّا البشر الأقوياء، فقوتهم في أمور محدودة لا يتعدونها. كما أن كل قوة بشرية هى هبة من اللَّه مانح القوة. لذلك قدرة البشر محدودة أمَّا اللَّه فإنه قادر على كل شيء وهذه الصفة خاصة به وحده منذ الأزل.

★★ وقد ظهرت قوة اللَّه أولاً في الخلق وقد تحدثنا عن هذا الأمر في المقال الماضي. والخلق من صفات اللَّه وحده أي الإيجاد من العدم. أمَّا أبسط ما يصل إليه الإنسان فهو أن يكون صانعاً ومكتشفاً أي يستطيع أن يكتشف طبيعة الأشياء وخواصها كما خلقها اللَّه. ثم يصنع من تلك الأشياء ما يستطيعه عقله الذي خلقه له اللَّه. أمَّا الخلق فهو من قدرة اللَّه العجيبة وبخاصة من جهة عدد خليقته وأنواعها، ما يُرى وما لا يُرى سواء من جماد أو خليقة عاقلة، أو ناطقة، مادية أو روحية.

وفي مجال الخلق هناك سؤال هام وهو: ماذا نقول عن الشيطان: هل خلق اللَّه الشيطان بكل ما فيه من شر ومحاولات لإسقاط الآخرين؟ والجواب هو أن اللَّه حينما خلقه، لم يخلقه هكذا إنما خلقه ملاكاً. ثم هذا الملاك سقط وصارت طبيعته فاسدة بإرادته، فتحوَّل إلى شيطان.

★★ من جهة القدرة على كل شيء، نقول إن اللَّه لا مُنافس له في قدرته ... بعض الشعوب البدائية كانت تؤمن بوجود إلهين: إله للخير، وإله للشر. ونحن لا نؤمن إطلاقاً بوجود إله للشر. وليس الشيطان إلهاً للشر، وليس هو منافساً للَّه. واللَّه في قوته التي لا تُحد، مُمكن أن يتدخل متى شاء ويُوقف عمل الشيطان ولا يسمح اللَّه بكل ما يريد. فما أكثر معجزات اللَّه في إخراج الشياطين من المصروعين بها.

والبلاد التي كانت تؤمن قديماً بتعدُّد الآلهة. فهناك إله للحرب، وإله للحب، وإلهة للجمال، وآلهة من النار ... كل تلك كانت خرافات لأنه لا يوجد إلاَّ إله واحد. وبعض صفات هذا الإله الواحد تصورتها تلك الشعوب آلهة ... والشيطان ليس إلهاً للشر وإن كانت قد تبدو له قوة الآن، إلاَّ أن اللَّه سيلقيه في النهاية إلى عذاب جهنم.

★★ تظهر قوة اللَّه أيضاً فيما يصنعه من عجائب ومعجزات لا نستطيع إحصاءها، سواء مِمَّا حدث في القديم وكتب لنا بالوحي الإلهي، سواء من شفاء للأمراض المستعصية، أو إنقاذ من أخطار بواسطة إرسال ملائكته القديسين، أو من رؤى أعلن بها اللَّه بعض مشيئته، أو من مواهب منحها لبعض أبراره وقديسيه، أو من أحلام مقدسة يكشف بها أسراراً مُعيَّنة.

★★ ومن تواضع اللَّه في قدرته، إنه منح القدرة لبعض مخلوقات. سواء في ذلك القدرات التي منحها للملائكة والبشر ... فقد منح قدرات عجيبة للملائكة، بحيث يمكنهم أن ينتقلوا من السماء إلى الأرض في لمح البصر، وأن يقوموا بأعمال معجزية يكلفهم بها. كذلك القدرات التي وهبها اللَّه للعقل البشري فاستطاع العلماء أن يبتكروا ويصنعوا أشياء كانت من قبل تفوق الخيال. ومن كثرتها تبدو الآن طبيعية: مثل الكمبيوتر والفاكس وMobile phone، والطائرات، واستخدام الذرَّة والليزر، وما يُستخدم في مجال الطب والصناعة وعلوم الفضاء والبحار وما إلى ذلك. وأيضاً منح بعض قديسيه أن يصنعوا المعجزات باسمه وبقوته.

هذه القوة الممنوحة لبعض البشر ليست قوة ذاتية لهم، بل هى قوة اللَّه العاملة فيهم بنعمة اللَّه العاملة فيهم، بالإيمان الذي يصبح به كل شيء مستطاعاً بقوة اللَّه العاملة في المؤمن.

★★ قوة اللَّه في محبته لخليقته، وفي رعايته لهم: أنه لم يخلقنا ويتركنا. بل أنه يتولَّى أمر العناية بنا في كل شيء. مازال يرسل لنا النور لكي نؤدِّي به أعمالنا ويسمح لنا أيضاً بالظلمة لكي نستريح. ويُعطي طعاماً لكل أحد، ويشبع كل أحد من رضاه. يعتني بالبشر،

يعتني بالدودة التي تدب تحت حجر. هو عون لِمَن لا عون له، ورجاء لِمَن ليس له رجاء. وما أكثر حالات الإنقاذ التي ينقذنا بها. وكل إنسان يفرح لأنه في حماية إله قوي يقدر أن ينقذه من الضيق. وكل الأبواب المغلقة أمامه، يؤمن أن اللَّه قادر أن يفتحها له.

★★ إنَّ اللَّه قوي أيضاً في احتماله. فقد احتمل عَبَدَة الأصنام مدة طويلة. واحتمل الذين آمنوا بتعدُّد الآلهة، وبعبادة الأرواح، وعبادة ملوكهم، واحتمل المُلحدين. واحتمل أيضاً الذين سلكوا في كل أنواع الشر والفساد واللهو والمجون وكاسري وصاياه بكل نوع، والمُجدِّفين عليه. وكان يستطيع إفناءهم ولكنه لم يفعل ... احتمل كل هؤلاء الخطاة من الملايين على مدى أزمنة طويلة. فما أعجب قوته على الاحتمال. إنها قوة غير محدودة.

★★ لم يكن اللَّه فقط قوياً في احتماله، بل بالأكثر كان قوياً في مغفرته. وأعطانا - بهذه المغفرة وهو التوبة - ومع التوبة أعطانا نعمة لكي نتوب وقوة تساعدنا على التخلص من خطايانا القديمة. وأعطانا شرطاً آخر للمغفرة، وهو أن نغفر لِمَن أساء إلينا.

★★ وهناك أنواع أخرى كثيرة تظهر فيها قوة اللَّه العجيبة: فهو مثلاً قوي في معرفته: فهو يعرف كل شيء. يعرف ما في داخل قلوبنا وأفكارنا ويعرف نيَّاتنا أيضاً يعرف ما فعلناه وما ننوي أن نفعله. وعلى الرغم من كل ذلك فإنه بسبب قوة محبته لا يُعاملنا في كل شيء حسب عُمق خطايانا، إنما حسب قوة إشفاقه علينا في ضعفاتنا. له المجد في قوة الطيبة التي يُعاملنا بها.

٦ سبتمبر ٢٠٠٩

عطايا من اللَّه للبشر

إنَّ العطاء من صفات اللَّه وإحساناته إلينا. فهو باستمرار يُعطي. وبعطائه يعطينا أيضاً درساً في العطاء. وهو يعطينا ما نعطيه لغيرنا. ويعطينا أيضاً موهبة العطاء. ولنبدأ حالياً في قصة العطاء بين اللَّه والبشر.

★★ أول عطاء لنا هو نعمة الوجود، إذ خلقنا من العدم. خلق التراب أولاً ثم خلقنا من التراب وأعطانا نفساً عاقلة ناطقة ... مَن منَّا يشكر اللَّه على هذه النعمة كلها؟! قد يقول البعض هذا شيء طبيعي. ونحن نشكر اللَّه الذي أعطانا هذا الوجود وهذه الطبيعة، إنه من كرم اللَّه ومن محبته أنه أنعم على العدم بالوجود.

★★ ومن عطاء اللَّه أنه مهَّد للإنسان كل سُبل الراحة قبل خلقه، خلق له أولاً الطبيعة التي تريحه: النور والماء والنبات ... رفع له السماء سقفاً، ومهَّد له الأرض لكي يمشي عليها. من أجله ألجم البحر، وأخضع له طبيعة الحيوان، ولم يدعه معوزاً شيئاً بل خلق له الشمس تمنحه النور بالنهار، والقمر والنجوم لإضاءة الليل ... خلق له الطعام الذي يأكله، والطيور التي تغني في أذنيه، والطبيعة التي تمتعه بمناظرها. ومنحه أيضاً كل الطاقات التي تساعده على الحياة.

★★ وعندما خلق اللَّه الإنسان، خلقه في منتهى الجمال، وفي منتهى النقاء والبساطة والطهارة التي كانت تُضفي عليه جمالاً آخر. وكان جسمه قوياً في صحته. كان خالياً من كل الأمراض الجسدية والأمراض النفسية. كان كاملاً جسداً ونفساً وروحاً. بل أن كلمة المرض لم يكن لها وجود في القاموس اللغوي للبشر ولا في الحياة العملية.

★★ ومن كرم اللَّه أيضاً أنه أعطى الإنسان منذ خلقه سلطاناً على كل المخلوقات الحيَّة على الأرض وقتذاك: أعطاه سلطاناً على كل حيوانات الأرض، وكل طيور السماء، وكل أسماك البحر، وهذا السلطان كما كان لأبينا آدم وأمنا حواء، كان لأبينا نوح وأولاده. فإن كان الإنسان قد فقد سلطانه فإن ذلك لم يحدث إلاَّ بعد الخطية. ففي حياة الإنسان الأول ما كان يأكل لحوم الحيوانات، وما كان يصيدها، وما كان يحبسها في أقفاص بقصد

الفرجة عليها. لذلك كله لم تكن هناك عداوة بينه وبينها فهي أيضاً ما كانت تفترسه، وما كانت تؤذيه. وكانت الخليقة كلها أسرة واحدة يرأسها آدم.

★ ومن كرم اللّٰه ومحبته منح الإنسان البركة: فبارك أبوينا الأولين آدم وحواء، وبارك أبانا نوح وبنيه. وبعد ذلك بارك أبرام (إبراهيم) أب الآباء ... وفيما بعد أرسل البركة، ومن أفواه الوالدين ... وأبونا نوح كان بركة للعالم كله. لولاه لفني العالم وقت الطوفان ... ولكن اللّٰه أبقاه لنا بركة وامتداداً للبشرية.

★★ وأعطى الرب للإنسان مواهب كثيرة، وأعطى الرب للإنسان وصايا ترشده كيف يسلك في الحياة، وأول تلك الوصايا كتابةً كانت ما قدَّمه موسى النبي للناس. وقبل موسى النبي أعطى اللّٰه لكل فرد الضمير وبه يعرف الخير والشر، فلمَّا قُتل هابيل البار عاقب اللّٰه أخاه على قتله بينما وصية موسى النبي التي وردت في الوصايا العشر " لا تقتل " كانت بعد مقتل هابيل بحوالي ألف وأربعمائة عام. وكذلك الشرور التي بسببها حكم اللّٰه بالطوفان على الأشرار. اعتبرت شروراً لأنها كانت ضد الضمير قبل أن يُرسِل اللّٰه أية وصية للتوبة ... إننا نشكر اللّٰه من أجل الضمائر التي وضعها فينا منذ البدء.

★★ وأعطانا اللّٰه أيضاً نعمة الصلاة لكي تكون لنا صلة به، نتحدث بها إلى جلاله الأقدس. وهذا من فرط تواضعه ومحبته أن يسمح لنا نحن التراب والرماد أن نُحدثه مباشرة. وهذا أيضاً لون من محبته الإلهية للبشر أن يحدّثوه عن احتياجاتهم لكي يُرسلها إليهم.

★ هناك مواهب خاصة أعطاها اللّٰه للبعض. مثلما أعطى سليمان موهبة الحكمة حتى تلقَّب بسليمان الحكيم. وأعطى شمشون موهبة القوة حتى تلقَّب بشمشون الجبار. وأعطى موسى موهبة النبوة وأصبح لقبه موسى النبي. وأعطى البعض موهبة القيادة ... وأعطى الكثيرين مواهب مُتعدِّدة: وما أكثر الذين وهبهم الرب موهبة الذكاء. فمنهم مَن كان ذكاؤه في العلوم حتى وصلوا بذكائهم إلى علوم الفضاء وصعدوا إلى القمر ومنهم مَن كان ذكاؤه في الطب أو الكيمياء وغير ذلك من العلوم. ومن الناس مَن وهبهم اللّٰه سرعة البديهة، ومنهم مَن أعطاهم اللّٰه مواهب الفن بكافة تفاصيله. وكل مَن نالوا موهبة من اللّٰه، لا يجوز لهم أن يفتخروا بها، بل أن يرجعوها إلى اللّٰه الذي منحهم إيَّاها.

★ ومن أعظم المواهب التي أنعم بها اللَّه على البشر عمل النعمة فيه. وبهذه النعمة يمكنهم أن يقودوا الغير إلى فعل الخير. هؤلاء هُم الخدام الأنقياء الأقوياء في إرشاد الناس. وإذا بنعمة اللّه تعمل فيهم، وتعمل معهم، وتعمل بهم. وهذه النعمة تعطيهم الفهم السليم، وتقودهم إليه.

★★ النعمة يعطيها اللَّه للإنسان لكي يحيا في حياة البر والفضيلة. فإذا لم يخضع إلى عمل النعمة فيه وأخطأ واستمر في خطئه، فإنَّ النعمة تعمل فيه لكي يتوب، وكثيراً ما يفشل الإنسان في أن يتوب إلاَّ بقوة اللَّه العاملة معه التي تقود ضميره إلى التوبة، وتقود قلبه إلى كراهية الخطية وإلى الندم على أفعاله السابقة، والرغبة في تغيير أسلوب حياته وسلوكه.

★★ ومن أهم عطايا اللَّه للإنسان استمرار حياته بعد الموت. وذلك عن طريق القيامة، التي يكون لنا بها حياة أخرى هى الحياة الأبدية التي لا موت بعدها. وما أعمق المتعة التي يعطيها اللَّه لنا في الحياة الأخرى، وما قد وعده اللَّه فيها بما لن تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر ... هذه بلا شك قمة عطايا اللَّه.

★★ أمَّا على الأرض فمن عطايا اللَّه التي نشكره من كل قلوبنا عليها، فإنها الرعاية والحماية التي يحيطنا بها سواء كانت رعايته لنا عن طريق الملائكة القديسين الذين يُرسلهم لحمايتنا أو عن طريق الأبرار من البشر الذين يُكلِّفهم اللَّه لعمل الخير من أجلنا.

أخيراً إننا لا نستطيع أن نُحصي عطايا اللَّه. وما ذكرناه ما هو إلاَّ مُجرَّد أمثلة. ويكفي الوعود التي وعدنا اللَّه بها في الأبدية وكل هذا يستدعي مِنَّا الشكر، ولا يصح أن ننكر عطايا اللَّه. فالذين ينكرون فهم لهم عيون ولكنها لا تُبصر.

١٣ سبتمبر ٢٠٠٩

ما مدى معرفتنا للَّه

كثيرون من الذين يقولون إنهم يعرفون اللَّه تمام المعرفة ويعبدونه، يكونون في الواقع لا يعرفون اللَّه معرفة حقيقية! ذلك لأن هناك أنواعاً من المعرفة فيما يتعلَّق بالعلاقة بين اللَّه والإنسان.

★★ أبسط الأنواع هو المعرفة العقلية التي يقول فيها الشخص: نعم أنا أعرف أن اللَّه هو الخالق العظيم الذي خلق السماء والأرض وما عليهما من سائر المخلوقات السمائية والأرضية، اللَّه الأزلي وحده، الذي لا يحده مكان، القادر على كل شيء ... اللَّه غير المحدود في كل صفة من صفاته، فهو فوق الزمان وفوق المكان. وهو كُلِّي المعرفة. فهو يعرف ما في باطن الأرض، وما في أعماق الجبال ويعرف ما في قلوب الناس، وما في أفكارهم وما في نيَّاتهم ... هذه المعرفة العقلية وحدها لا تكفي. لأن كل ما تفعله هي أن تملأ العقل أفكاراً، وقد يبقى القلب فارغاً لا مشاعر فيه ولا حُب، ولا عاطفة ولا أحاسيس. إنها حالة إنسان قرأ عن اللَّه أو درس، دون أن تكون له صلة خاصة باللَّه.

★★ إنها معرفة العقل لا القلب ... معرفة العُلماء في الدين، وليست معرفة العابدين... وحتى هذه المعرفة العقلية، أمامها مجال للزيادة والنمو، بالدراسة أو بالتأمل. وهى عند البعض تتحوَّل إلى نطاق من الجدل في الدين، وفي الحوار في الأمور الخاصة باللَّه جلَّ جلاله.

★★ أمَّا معرفتنا الحقيقية باللَّه، فهى المعرفة الاختبارية لنا مَن في حياتنا. وهى التي لو تكون عن طريق الكتب أو المحاضرات أو شتَّى أنواع التعلم، بل هى عن طريق مُعاملات اللَّه لنا ... عن إحساناته لنا في احتياجاتنا، وحلّه لمشكلاتنا، ولمسنا حكمته في تدبيره لحياتنا، واحتماله لنا في أخطائنا، أو معاقبته لنا أو مغفرته، أو فتحه أمامنا لأبواب

التوبة ... مع سائر ما نراه من صفات اللَّه الجميلة ... سواء من تعامل اللَّه معنا أو مع غيرنا ... أو من تدبيره الإلهي للأحداث ...

★★ إن خبرتنا مع اللَّه تعطينا معرفة أكثر. وكُلَّما نعرفه نحبه ونُمجِّده، وتزداد معرفتنا له بالأكثر، ويزداد إيماننا به، ونرى فيه القلب الكبير الذي يحنو، والذي يرشد ... فتزداد معرفتنا به، ويتعمَّق اعتمادنا عليه ... ومع أن اللَّه قد يكشف لنا ذاته بأنواع وطرق شتَّى، إلاَّ أننا نحتاج أيضاً أن نُصلِّي في خشوع قائلين له: أعطنا يارب عِلم معرفتك ... على أن معرفتنا للَّه - وإن كانت تبدأ هنا على الأرض - ولكنها لا بد ستستمر أيضاً في الأبدية إلى أن تصل إلى كمالها. فنحن مهما عرفنا عن اللَّه، ومهما درسنا عن صفاته الجميلة المجيدة، فكل ما نقوله إننا نعرف فقط بعض المعرفة. لأننا ونحن في هذا العالم محوطون بضباب هذا الجسد المادي، فلن نصل إلى معرفة كاملة باللَّه تبارك اسمه. ولكننا حينما نخلع هذا الجسد، فأرواحنا الشفافة سوف تعرف أكثر في العالم الآخر.

★★ ولكن هل ترانا سنعرف حينذاك كل شيء عن اللَّه؟ كلا لأننا مخلوقات محدودة، واللَّه غير محدود. ومن المُحال أن المحدود يعرف كل شيء عن غير المحدود!

فهل في الأبدية ستظل معرفتنا عن اللَّه قاصرة؟ كلا بل اللَّه سوف يوسع قلوبنا وعقولنا لكي تتسع لمعرفة أكثر عنه. فتبهرنا تلك المعرفة العجيبة عن اللَّه في عظمته وبهائه، وجماله وكماله ... حتى أننا لا نستطيع أن نحتمل أكثر ... ونقضي بعض الوقت في انبهار بما قد كشفه لنا. ثم نفيق، ولست أدري متى! ونحن نتأمل في ما رأيناه وعرفناه، شاعرين بسعادة لا توصف، وما قد ذقناه من معرفة وما أطيبه ... ثم يعود اللَّه فيوسع قلوبنا وأفكارنا حتى تقوى على احتمال المزيد من المعرفة، حسبما تستطيع طبيعتنا البشرية المحدودة ... ومع كل ما يكشفه لنا اللَّه عن ذاته، يظل كما هو اللّه غير المحدود، ونظل كما نحن الطبيعة البشرية المحدودة التي لا تستطيع أن تحتمل معرفة كل شيء عن اللَّه، إنما يكشف لها اللَّه عن ذاته بقدر فتنمو في معرفة اللَّه على قدر ما تحتمل ... إذاً نحن في الأبدية ننمو في معرفة اللَّه. ولكن إلى قدر مُعيَّن! بل إن صفة واحدة من صفات اللَّه لا نستطيع أن ندركها كلها في كمالها مهما مرَّ الوقت وطال.

★★ لقد سبق أنَّ اللَّه جلَّ جلاله قد أعطانا من قبل معرفة عن طريق الوحي، وعـن طريق الكشف الإلهي، وأعطانا معرفة عن سمائه وملائكته ومجـده ... وأعطانـا مـن المعرفة ما يكفي لأن نحب الحياة معه، ونحب تسبيحه وتمجيده بالقدر الذي يكفينا، وبالقدر الذي تحتمله طبيعتنا ... فإن كان اللَّه في الأبدية سيعطينا أيضاً معرفة الجمال الذي يحيط بملائكته الأطهار وبسمائه، وبالنور الذي يحيط بهذا كله، فكيف إذاً يكون الجلال والجمال المحيطين بذاته وبعرشه!!

★★ وإن كُنا هنا على الأرض لم نستطع معرفة الكواكب والنجوم والمجرَّات. فكيف سندرك معرفة خالق هذه كلها. بل إن كُنا على الأرض حيث نعيش، لا نعرف مـا فـي باطن الأرض من أسرار، ولا ما يوجد في أعماق البحار، ونظل ننقب حتى نعرف بعض المعرفة ... بل فليعذرني القارئ إن قلت أننا حتى الآن لم نعرف أنفسنا! فما الذي نعرفـه مثلاً عن الروح، وعن كنهها، وعن مغادرتها للجسد ... وإن كنا لا نعرف ما هو الجسـد الروحاني الذي سنقوم به ... وإن كنا لم نعرف الإنسان وما يتعلَّق به من أسرار ... فهل في جرأة نسأل: كيف سنعرف اللَّه في الأبدية؟!

★★ كل ما أستطيع أن أقوله إننا سننمو في المعرفة، ونعرف عن السيد الرب الإلـه أشياء ما كنا نعرفها من قبل. وسوف نُبهر بما نصل إليه من معرفة تسعدنا فـي العـالم الآخر. حتى أننا نزدري بكل معرفةٍ أخرى ... ويكون ما نعرفه عن اللَّه وعن الأبدية هو مصدر سعادة لنا في السماء لا تُقارن بأية متعة أخرى بل أنها هى النعيم الأبدي، ولـيس يُماثلها شيء من مُتع هذا العالم التافه الذي نعيش فيه الأرضي.

نشكرك يارب على ما تعطينا إيَّاه من فضل معرفتك.

٢٠ سبتمبر ٢٠٠٩

كيف يحتفل الفقراء بالعيد؟

في مستهل هذا المقال أقدم خالص تهانينا القلبية لجميع إخوتنا وأحبائنا وأصدقائنا المسلمين في مصر وفي أرجاء العالم العربي والعالم الإسلامي، جعله الله عيداً مباركاً سعيداً، وحقق فيه آمال الشعوب...

★★ إننا نرى علامات الاحتفال بالعيد ومظاهر ذلك في كل مكان. ولعل في مقدمة ذلك ما تقوم به وسائل الإعلام من مظاهر وأخبار الفرح بالعيد: سواء ما تقدمه الإذاعة والتليفزيون، وما تقدمه الجرائد والمجلات، من مقالات وأخبار. وما قدمه رجال الفن خلال شهر رمضان من مسلسلات بذلوا فيها كل جهدهم لإفراح الناس. ولا ننسى المجهودات التي بذلتها عدة وزارات كالتجارة والتموين والمالية وغيرها لتوفير المواد التي يحتاج إليها الناس، وأعني القادرين على شرائها... وقد احتفل رجال الدين بالعيد ببرامجهم الدينية الخاصة... واحتفلت هيئات كثيرة في أيام عطلات قُدمت لهم... وامتلأت الشوارع والطرقات بالأضواء وبخاصة الأماكن التجارية... كل ذلك فرحاً بالعيد.

★★ ووسط كل ذلك يبرز هذا السؤال الهام: كيف يحتفل الفقراء بالعيد أو كيف يفرح الفقراء بالعيد؟ والفقراء على درجات: نذكر من بينها المعدمين، والمعوزين، والذين ليس بمقدورهم استيفاء احتياجات الحياة الأساسية والضرورية... كيف يفرح هؤلاء بالعيد؟ وكيف يكون العيد بالنسبة لهم أياماً غير عادية من البهجة والمتعة؟! وإن حاولت الدولة بمجهودات كثيرة أن توفر الطعام في أيام العيد لمن يقدر على شرائها، ماذا نقول إذن عما يريده أطفال هؤلاء الفقراء من ملابس جديدة في العيد تكون مظهراً لفرحهم، وأيضاً ما يريدونه من لعب لا تكتمل فرحة العيد بدونها؟!... أم سينظر كل هؤلاء إلى الأغنياء في متعهم وترفيهاتهم، مقارنين بين حالهم هم وحال أولئك.

★★ إنني اقترح صرف علاوات مالية معينة في مناسبة كل من الأعياد الكبيرة عند المسلمين أو المسيحيين لكي تغطي نفقات أعيادهم ولا تُشعرهم بجوٍ من العوز في أعيادهم أو بلون من المقارنة بينهم وبين المترفّهين... كما أرجو أن تمتد يد المحبة من الأثرياء لكي تبعث روح الفرح في هؤلاء المعوزين، على الأقل في أيام الأعياد. ولا يكتفي الأمر على موائد الرحمن في أيام الصوم. فرحمة اللّه تشمل كل الأيام، الأصوام والأعياد. والرحمة لا يكفيها لقمة طعام لكي تريح الضمير بها. فاحتياجات الإنسان من الرحمة تشمل أموراً عديدة جداً.

★★ إن الاهتمام بالفقراء وبأطفالهم في أيام الأعياد إنما هو عمل روحي، وعمل وطني، وعمل اجتماعي... لا يفوتنا ذلك كمواطنين وكإخوة... ويمتد بنا إلى حالة كل هؤلاء في غير أيام الأعياد أيضاً. ويتعمق بنا الأمر فلا نقول فقط كيف يحتفل الفقراء بالعيد، إنما نقول بالأكثر كيف يفرح هؤلاء الفقراء بالعيد؟ وما هو واجب الدولة حيالهم؟ وواجب الهيئات والأفراد؟

★★ وإن كنا نناقش ما يجب أن يُعمل من أجلهم فبالأكثر ما أشد دينونة وعقاب الذين - بدلاً من إراحة الفقراء - نجدهم يحتكرون الأسواق، ويبالغون في رفع الأسعار، فيتحمّل الفقراء ثقلاً فوق ثقل، بسبب جشع إخوة لهم في المواطنة!!

وإن كنا نقول كل هذا بمناسبة عيد الفطر الذي تحتفل به بلادنا، فهناك أعياد أخرى أيضاً تمر على الفقراء ونسأل كيف يحتفلون بها أو كيف يفرحون فيها؟ ويبقى السؤال محتاجاً إلى جواب... إن كانت الحياة العادية لا يقدرون عليها، فكم بالأولى أيام الاحتفالات؟! إن الأمر يحتاج إلى توفيق عميق بين متطلبات الحياة وسداد تكاليفها.

★★ إن كنا حالياً نتحدث عن مشكلة الفقراء العاديين وكيف يحتفلون بالعيد، فماذا نقول إذن عن الفقراء المرضى الذين عليهم أعباء ضخمة من تكاليف المرض والعلاج وارتفاع أسعار الأدوية، وعدم القدرة على الصرف، وبخاصة قد يحتاج الأمر أحياناً إلى عمليات جراحية فوق مقدور الشخص العادي، ولا تستطيع أن تغطيها تأمينات من الدولة!!!

ما موقف هؤلاء المرضى الفقراء سواء في الأيام العادية أو أيام الأعياد بالأكثر؟ وما موقفنا نحن منهم؟ وهل نكتفي بمجرد كلمة طيبة نقولها دون أي عمل؟! أم نكتفي بمجرد الدعاء ونتركهم إلى اللّه وهو أرحم الراحمين.

★★ إن عبارة "كيف يحتفل هؤلاء بالعيد" قد تشمل كثيرين، وليس الفقراء فقط، ولا المرضى فقط. إنها تشمل أيضاً المشرّدين من أمثال أطفال الشوارع هؤلاء الذين خلقهم اللّه لا لكي يكونوا أولاداً للشوارع، إنما لكي يحتضنهم المجتمع، ويعطيهم مما أعطاه اللّه، أو ما يريد اللّه أن يعطيه لكل فرد من خليقته.

وعبارة "كيف يحتفل هؤلاء بالعيد" تشمل أيضاً الذين في السجون. فإن كانت عبارة "تهذيب وإصلاح" تطلق على السجن، فمن الممكن أن فترة العيد تنال بركة من هذه العبارة.

★★ بعيداً عن الهيئات الكثيرة التي يمكن أن نسأل عن حالتها في يوم العيد، نود أخيراً أن نسأل عن موقف المترفّهين في أيام العيد، الذين ينظرون إلى أنفسهم فقط كيف يقضون تلك المناسبة في بهجة وفرح وفي رفاهية ومتعة، غير ناظرين إلى إخوتهم الذين يعيشون معهم في نفس البلد كيف هم.

نقول لهؤلاء إن اللّه لم يخلق الدنيا لهم وحدهم وإنما لهم ولغيرهم. وإن اللّه قد أعطاهم لكي يعطوا. وبقدر ما هم يعطون، تزداد عطية اللّه لهم بالأكثر، ويفتح لهم كوى السماء لكي تفيض عليهم. فعليهم أن يشركوا غيرهم في ما قد رزقهم اللّه. بل إن أحد القديسين قال عبارة جميلة هى: "إذا لم يكن لك ما تعطيه لهؤلاء الفقراء، فصم وقدم لهم طعامك". كم بالأكثر إذن إن كان عندك ما يكفيك وما يفيض عنك... ليتنا إذن في يوم العيد ننظر إلى غيرنا من المحتاجين ونشعر بفرح عميق حينما نراهم يفرحون معنا ولا يقضون يوم العيد في عوز أو احتياج.

٢٧ سبتمبر ٢٠٠٩

إلهنا إله الكل

استمعت إليه وهو يُناجي اللَّه ويقول: "مَن أنا يارب، حتى أتحدث إليك؟! أنا التراب، وأنت كل العظمة وكل المجد .. أنا الخاطئ الذي يضعف أمام حروب الشياطين ويسقط في كل يوم! كيف أقف يارب أمامك، وأنت القدوس الكُلي القداسة، المُحاط بملائكتك القديسين، يُسبِّحونك كل حين. ومعهم أرواح الأبرار من البشر، الذين يفعلون باستمرار ما يُرضيك..؟!

كان يجب عليَّ يارب أن أدرك مَن أنا ومَن أنت؟! ولكنني تجرأت، وفتحت فمي لأتحدَّث إليك، وأنا غريب عن ملكوتك. لستُ من هذا الجمع المقدس الذي لك والذي هو حولك. وليست لي دالة أن أتكلَّم. فاغفر لي يارب هذه الجرأة ...".

★★ وهنا تدخلت وقلت لذلك الصديق: لا يا أخي، لا تظن أن اللَّه هو إله الأبرار فقط، الأقوياء في روحياتهم، بل هو إله الكل. هو إله الخطاة أيضاً. يشفق عليهم في سقوطهم، ويجذبهم إليه بأنواع وطُرق شتَّى، حتى يقودهم إلى التوبة. وهو ليس فقط إله الأقوياء. بل هو أيضاً إله الضعفاء المحتاجين إلى قوة منه، تسند ضعفهم وتمنحهم القوة.

★★ إنَّ الضعفاء والساقطين والخطاة هم أحوج الناس إلى اللَّه، وهو لا يتخلَّى عنهم. " لأنه لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى ". وقد سألوا مرة رجلاً إعرابياً: مَن هو أحب أبنائك إليك؟ فقال: " الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يُشفى، والغائب حتى يعود ". يقصد الأكثر احتياجاً. فإن كان القلب البشري هكذا، فكم بالأكثر قلب اللَّه؟! لا شكَّ إن كل المحتاجين يجدون فيه كل العطف وكل الحنو. " إنه مُعين مَن ليس له مُعين، ورجاء مَن ليس له رجاء ".

★★ إن اللَّه هو إله الكل. هو إله العصفور المسكين، ينقذه من فخ الصيادين. وهو أيضاً إله الصيادين الذين نصبوا الفخ لهذا العصفور. وهو الحافظ التوازن بين كل هؤلاء.

★★ إنَّ اللَّه ليس لشعب واحد من شعوب الأرض. بل هو لشعوب الأرض كلها. السُّود والبيض والصُّفر والسُّمر، كلهم خليقته، وكلهم تحت رعايته وموضع اهتمامه، بما فيهم من صالحين وخُطاة، وبما فيهم من رعية ورُعاة. اللَّه يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون.

★★ فلا يظن الخاطئ أنه ليس من رعية اللَّه، أو أن اللَّه لا يهتم به! لو كان الأمر هكذا، ما كان ممكناً لأي خاطئ أن يتوب! ولكن مشيئة اللَّه غير ذلك. فاللَّه يشفق على الخطاة جميعهم. ويرسل إليهم نعمة لتعمل في ضمائرهم وقلوبهم وأفكارهم، وتقودهم إلى التوبة. ولعلَّ من الأمثلة الواضحة القديس أُغسطينوس الذي كان بعيداً جداً عن الإيمان، وعن حياة الفضيلة، وكانت أمه تُصلِّي من أجله بدموع كثيرة. كيف أن اللَّه اقتاده إليه؟ فصار مؤمناً، وتائباً وقديساً.

إنَّ اللَّه الذي لا يتخلَّى عن أحد من خليقته، اهتم بالعالم الوثني، وساعده على أن يترك عبادة الأصنام ويصير مؤمناً. وكذلك العالم الذي كان من قبل يؤمن بتعدد الآلهة، كيف قاده إلى تركها ليؤمن بالإله الواحد خالق السماء والأرض.

★★ حقاً إنَّ اللَّه هو إله الكل. كان إلهاً لهؤلاء الوثنيين، وصبر عليهم حتى آمنوا به.. وكان إلهاً لليونان الذين آمنوا بجمهرة من الآلهة تحت قيادة زيوس، وصبر عليهم حتى آمنوا به. وكان إلهاً للمصريين القدماء الذين آمنوا بآلهة كثيرة منها: رع وآمون وأوزوريس وإيزيس وحورس وغيرها، ولكنه صبر عليهم حتى آمنوا به.

إنه إله كل هؤلاء. وفترة بعدهم عنه، لم تجعله يعتبرهم غرباء عن رعيته. هكذا فترة الشيوعية المُلحدة في روسيا، كان اللَّه هو هو، يرعاهم ويهتم بهم، إلى عادوا إليه.

★★ إنَّ اللَّه هو إله الكل، سواء ضلُّوا عن الإيمان أو عن حياة البر. ما أجمل عبارة القديس أُغسطينوس عن حياته السابقة في الخطية: " كنت يارب معي. ولكنني من فرط شقاوتي لم أكن معك ". عجيب أن يقول إن الرب كان معه، وهو خاطئ! نعم كان معه، وبذلك استطاع أن يُغيِّر حياته إلى البر، وإلى التوبة، وإلى النمو في ذلك حتى أوصله إلى القداسة.

★★ إنَّ اللَّه هو إله الكل، مهما كانت حياتهم مُتغيِّرة. هو إله المجاهدين الذين يبذلون حياتهم وجهدهم في خدمة الآخرين، وفي نفس الوقت هو إله العُبَّاد والنُّسَّاك الذين يقضون حياتهم في الصلاة والتأمُّل والنُّسك.

★★ إنه إله البُسطاء، والحُكماء. إله الجُهلاء والعُلماء. ليس الكل طبيعة واحدة، ولا عقلية واحدة. ولكنهم كلهم خليقة واحدة، لإله واحد، يضمهم جميعاً تحت رعايته. ويهتم بالكل ليكونوا جميعاً أبناء للملكوت.

★★ حقاً إن ملكوت اللَّه، سيضمُّ أُناساً من أنواع شتَّى، واللَّه سيقبلهم، بشرط نقاوة قلوبهم، مهما كانت درجتهم أو نوعية عملهم. يكفي أن يكونوا أنقياء القلب، حتى لو كانوا ضُعفاء في مستواهم، أو صغاراً في سنِّهم.

ما دام اللَّه للكل، فهو لا يرفض أحداً. وحتى الذين يرفضونه، لا يأخذهم بجهالتهم، وإنما يحاول أن ينقذهم من هذا الرفض. تارة بترغيبهم في الحياة الروحية. وتارة بتجارب ترجعهم إليه.

وما دام اللَّه للكل، فليس هناك مهمُّون ومُهمَّشُون. بل كل إنسان يشعر باهتمام اللَّه به أيَّاً كانت ظروفه. فطبيعة اللَّه الحانية المملوءة من الشفقة على الكل، ترتبط أيضاً بعمل اللَّه الرعوي. لأنه يرعى الكل. وهكذا يشعر كل إنسان أنَّ اللَّه يرعاه وأنه يقود خطواته. حتى إن أخطأ الطريق، يصلح له طريقه ولكن لا يتخلَّى عنه.

مُبارك هو اللَّه الذي بعد أن خلق العالم كله، ظلَّ يعتني بكل مَن فيه، مهتماً بكل فرد من خليقته، يريد الخير للجميع، سواء هنا على الأرض، أو في المصير الأبدي. ولا يوجد أحد لم ينل من فيض نعمته ... أمَّا الهالكون فهم الذين اختاروا لأنفسهم الضياع، وأصرُّوا على ذلك، ورافضين للنعمة.

٤ أكتوبر ٢٠٠٩

ما هى الفضيلة؟ وكيف تُقتنى؟

ما هى الفضيلة؟ وما معنى عبارة إنسان فاضل؟

ربَّما عبارة إنسان فاضل تعني إنه إنسان خيِّر، يحب الخير ويعمله، ويحب البر. والفضيلة قد تعني النقاوة، نقاوة القلب، والسير في طريق اللَّه. وقد تعني قوة في النفس تُمكنها من الانتصار على كل نوازع الشر وإغراءاته، وتمارس الحياة البارة.

وربَّما الفضيلة تعني الارتفاع فوق مستوى الذات. بحيث يخرج الإنسان من دائرة ذاته، ويعيش لغيره. يخرج من الاهتمام بنفسه، أو التركيز على نفسه، للاهتمام بالآخرين. يخرج من محبته لنفسه إلى محبته للَّه والناس .. نقول هذا لأن الخطيئة كثيراً ما تكون انحصاراً حول الذات. كإنسان يُريد أن يرفع ذاته، ويُمتِّع ذاته، ويُشبع رغبات ذاته.

★★ الفضيلة أيضاً هى ارتفاع فوق مستوى اللذة: لأنَّ غالبية الخطايا قد تكون مصحوبة بلذَّة حسية، أو لذَّة نفسية. فتدور حول ملاذ الجسد أو الفكر أو النَّفس. وتصبح لوناً من إشباع الذات، وبطريقة خاطئة. فالذي يُحب المال أو المُقتنيات، إنما يجد لذَّة في المال أو في المقتنيات. وكذلك مَن يحب الزينة، ومَن يحب الأطعمة، ومَن يحب المناصب أو الشهرة، إنما يجد لذَّة في كل هذا. ومَن يحب الجسد يجد لذته في الجسد. ومَن يحب الانتقام لنفسه يجد لذَّة في ذلك ... الخطيئة إذن قد تكون سعياً وراء اللذة. وحينئذ تكون الفضيلة هى ارتفاع فوق مستوى اللذة، إلى أن تجد إشباعاً لها في السعادة الروحية. والسعادة غير اللذَّة، والفرح غير اللذَّة. فاللذَّة غالباً ما تكون مُرتبطة بالحواس، بالجسد والمادة. أمَّا السعادة والفرح فيرتبطان بالروح. ولذلك فالفضيلة إذن هى ارتفاع فوق مستوى المادة أيضاً.

بقي أن نُوضِّح كيف نقتني الفضيلة؟ وما مصادرها؟

★★ أول مصدر للفضيلة هو الحكمة والإفراز والمعرفة الحقيقية. أي المعرفة التي تُميِّز بين الخير والشر. ومن جهة الحكمة فالحكيم الحقيقي بالضرورة يسلُك في حياة

الفضيلة. أمَّا الخاطئ فإننا نصفه بالجاهل حتى ولو كان من العلماء! إنه جاهل بطبيعة الأمور، وجاهل بطبيعة الخير، وجاهل بمصيره الأبدي، وجاهل بما تجلبه الخطيئة من نتائج ... فالخاطئ جاهل لا يعرف خيره من شره، ولا نفعه من ضره. ولا نقصد بكلمة جاهل المعنى السطحي للكلمة بما تعني أنه أن يتعلَّم في مدارس أو على أساتذة. إنما الحاجة إلى التوعية والإرشاد.

حتى الإلحاد: يقول المزمور: " قال الجاهل في قلبه ليس إله " .. حتى ولو كان هذا المُلحِد من فلاسفة عصره. إنه جاهل!

أمَّا الإنسان الحكيم، فكُلَّما يتعب في الحكمة، فإنه يتعمَّق في فهم الأمور، ويعرف ما ينبغي أن يكون. على أن المعرفة والحكمة وحدها لا تكفي. فقد يعرف الإنسان الخير، ولا يسلك فيه! وهنا نعرض المصدر الثاني للفضيلة.

★★ المصدر الثاني للفضيلة هو قوة الإرادة والعزيمة. لأنَّ هناك أشخاصاً لا يسلكون في طريق الفضيلة، لأنهم مغلوبون من أنفسهم. فالصالح الذي يريده كل منهم لا يفعله ... ويحتاج هؤلاء أن يسلكوا في تداريب روحية لتقوية الإرادة. لذلك أن ضُعف الإرادة يُسبِّب الوقوع في الخطيئة. والوقوع في الخطيئة يؤدِّي إلى مزيد من الضعف. كل منهما يكون سبباً ونتيجة للآخر...

لذلك نقول عن الإنسان الفاضل إنه إنسان قوي: قوي في الوضوح وفي الفكر، وفي العزيمة وفي التنفيذ. قوي في الانتصار على الحروب الخارجية، وفي الانتصار على النزعات الداخلية. أمَّا الذي تستعبده عادة رديئة فهو إنسان ضعيف. والذي لا يستطيع التَّحكُّم في لسانه، ولا التَّحكُّم في أعصابه، ولا التَّحكُّم في فكره، فهو إنسان ضعيف. وبسبب هذا الضعف يبعد عن الفضيلة. حتى وإن تاب عن الخطيئة، يعود إليها مرة أخرى.

★★ من مصادر الفضيلة أيضاً المبادئ والقِيَم: فالإنسان الروحي الذي له مبادئ وقيم يحرص عليها تحصنه، فلا يفعل خطيئة. مهما حُورِب بخطية مُعيَّنة، يقول لا أستطيع مُطلقاً أن أفعل هذا الأمر. ضميري يُتعبني. وهكذا كان يوسف الصديق حينما حورب بالخطيئة.

أمّا الإنسان الخاطئ فلا قِيَم عنده. إنه يكذب لأن الصدق لا قيمة له في نظره. ويزني لأنّ العفة لا قيمة لها في نظره.... وهكذا يكون موقفه مع باقي الفضائل. وبسبب ضياع القِيَم عنده، يقع في الاستهتار واللامبالاة ... ولهذا لا الوقت لـه قيمة، ولا المواعيد، ولا النظام العام، ولا القانون، ولا التقاليد، ولا شيء على الإطلاق!

★★ من مصادر الفضيلة أيضاً مخافة اللّه. فالذي توجد مخافة اللّه في قلبه، لا يخطئ. فالإنسان الروحي يخاف أن يكسر وصايا اللّه، ويخاف اليوم الذي يقف فيه أمام اللّه ليُقدم حساباً عن أعماله. وبالمخافة يسلك في طريق الفضيلة، وبممارسة الفضيلة يحبها.

★★ من مصادر الفضيلة أيضاً الموهبة الإلهية: والفضيلة على نوعين: نوع يُولَد الإنسان به، بطبع هادئ طيب. ونوع آخر يُجاهد فيه الإنسان حتى يصل إلى نقاء القلب والفكر. وما أعجب المَثل العامي الذي يقول: " مالك متربي؟ قال من عند ربي ". على أن كثيرين جاهدوا حتى يصلوا إلى الفضيلة. مثال القديس أُغسطينوس ... حتى الذين وُلِدُوا بالفضيلة يحتاجون أيضاً إلى جهاد، حتى لا يفقدوا برّهم نتيجة لحروب الشياطين. وأيضاً يلزمهم الجهاد من أجل النمو في حياة الفضيلة.

★★ أيضاً مِمَّا يُساعد على الوصول إلى الفضيلة والنمو فيها، النعمة. أي نعمة اللّه التي تُقوّي وتُشجّع وتقود إلى الخير. إنما يجب على كل إنسان أن يتجاوب مع نعمة اللّه العاملة فيه. كذلك طاعة الإنسان لوخذ الضمير الذي يوبّخه كُلَّما أخطأ، ويدعوه إلى اليقظة الروحية باستمرار، وإلى التوبة كُلَّما بعد عن الفضيلة. فطاعة الضمير وسيلة هامة نقتني بها الفضائل. وقد وضع اللّه الضمير في كل إنسان قبل أن يُرسل الشريعة المكتوبة. والضمير الصالح هو مُرشد قوي ...

١١ أكتوبر ٢٠٠٩

أعماق حول الفضيلة

الفضيلة ليست مجرد عمل الخير، إنما هى بالأكثر محبة الخير. ذلك لأن بعض الناس يعملون الخير خوفاً من العقوبة، أو من أجل اكتساب السمعة الطيبة، أو تجنباً لانتقادات الناس. أو البعض يعملون الخير حباً في المديح، أو رغبة في نوال المكافأة، أو مجاراة لجو معين... ولكن كل ذلك لا يدل على فضيلة حقيقية... أما الفضيلة الحقيقية فهى في حب الخير حتى إن لم يكن متاحاً عمل هذا الخير لأسباب خارجة عن الإرادة، وهنا تعتبر مجرد النية الطيبة فضيلة. فإن توافرت الإمكانية مع النية، حينئذ يكتمل الخير. لأن النية وحدها لا تُفيد الآخرين. أما العمل فهو التعبير عما في القلب من مشاعر طيبة.

والذي يعمل الفضيلة يود أن ينمو فيها، وأن يستمر في النمو حتى يصل إلى الكمال الممكن له كإنسان.

★★ وهناك اتجاهان للفضيلة: الاتجاه السلبي وهو مقاومة الخطية ورفضها. والاتجاه الإيجابي وهو السلوك الطيب في عمل الخير. فلا يكفي مثلاً أنك لا تكره إنساناً، إنما يجب أن تحبه وتحب الكل. ولا يكفي فقط أنك لا تتلفظ بكلمة شريرة، إنما من الناحية الإيجابية عليك أن تقول كلاماً للبنيان ينفع الآخرين. وأيضاً ليست الفضيلة هى فقط إنك لا تضر الناس، بل هى بالأكثر أن تعينهم وتتعب لأجلهم.

★★ وللفضيلة مستويات: منها المستوى الجسدي، والمستوى النفسي، والمستوى الروحي. وعلى الإنسان أن يحفظ نفسه في كل مستوى، ويحترس من السقوط في غيره. ولأنه من المعروف أن الحواس هى أبواب الفكر. فما تراه وما تسمعه وما تلمسه قد يجلب لك أفكاراً. إذن لكي تحفظ فكرك، احفظ حواسك. وإن أخطأت بالحواس، لا تجعل الخطأ يتطور بك إلى فكرك. وإن وصل إلى الفكر، اطرده بسرعة، ولا تجعله يتحول إلى مشاعر في قلبك. وإن تحول إلى مشاعر، لا تجعله يتطور إلى الفعل بأن تخطئ الإرادة

أيضاً. واعلم أن جميع المستويات تتجاوب مع بعضها البعض... فخطأ القلب يسبب خطأ الفكر. وخطأ الفكر يسبب مشاعر القلب. وربما الاثنان يدفعان إلى العمل... إنها دائرة، أية نقطة تدور فيها توصل إلى باقي النقاط. وكما في الشر كذلك في الخير تتعاون المستويات معاً.

★★ واعلم أيضاً أن الفضيلة لها مستويان آخران: في الداخل وفي الخارج. في الداخل في القلب والروح والفكر. وفي الخارج في الجسد والممارسة. فمحبة الناس فضيلة في القلب. ولكن لا بد أن تتحول إلى عمل محبة في الخارج. لأنه لا يصح فقط أن نحب بالكلام أو باللسان، إنما بالعمل والحق. وهنا تظهر المحبة التي فيها عطاء وبذل وتضحية. ذلك لأن فضيلتك التي في فكرك لا يشعر بها أحد، فيجب أن تعبر عنها بعملك. ومحبتك لابنك التي في داخل قلبك، لا بد أن تُعبِّر عنها بالحنو والاهتمام والعطايا. واللَّه تبارك اسمه يُعبِّر عن محبته لنا برعايته وعنايته وحفظه لنا. وأنت كإنسان، لا يجوز لك أن تقول محبة اللَّه في قلبي، إنما أن ينبغي أن تُعبِّر عن هذا بطاعتك للَّه وحفظك لوصاياه. ولا تكتفي بأن لك إيماناً باللَّه بدون أعمال طيبة. لأنَّ الإيمان بدون أعمال ميت.

في الصلاة مثلاً: خشوع القلب من الداخل، نُعبِّر عنه بخشوع الجسد من الخارج. وهكذا نجد في الصلاة: الوقوف والركوع والسجود، ورفع الأيدي والنَّظر إلى فوق. ولا يصح أن تهمل خشوع الجسد. قائلاً في ذلك: إنَّ اللَّه إله قلوب، ويكفي أن قلبي مع اللَّه!! مِثال ذلك مَن يُصلِّي على المائدة وهو جالس! ... إنَّ المشاعر الداخلية، تحتاج إلى التعبير الخارجي فيشترك الجسد مع الروح. وتكون الفضيلة من الداخل ومن الخارج معاً. إن ما يجري في عروقك من مشاعر، ينبغي أن يكون له ثمر في الخارج. إن حياة الشجرة في داخلها، يُعبّر عن وجودها في الخارج الخضرة والزهر والثمر. ولا أحد يقبل الشجرة غير المثمرة. كذلك نريد للفضيلة أن تكون مثمرة. وهى تثمر بالعمل الطيب، وبالكلمة الطيبة، وبالسلوك الحَسن، وبالنور الذي يضيء للآخرين، وبالمحبة العملية.

★★ الفضائل أيضاً تتكامل معاً ولا تتعارض. وإن سلكت في فضيلة ما، فلا بد أنها ستقودك إلى فضائل أخرى كثيرة. وإن فقدت إحدى الفضائل، فما أسهل أن يجرك هذا

السقوط إلى ترك فضائل أخرى عديدة... إنها سلسلة مترابطة. إن انفك عقد واحدة منها، انفرط الباقي. ومن الصعب أن نتكلم عن اهتمام الإنسان بفضيلة واحدة فقط وتركه للباقي.

فمحبتك لابنك مثلاً، ينبغي إلا تنفصل عن تربيتك لابنك. وينبغي أن لا تنفصل عن الحكمة في هذه التربية. والحكمة ترتبط أيضاً بالمعرفة. واهتمامك بجسد ابنك وصحته لا يمنعك من الاهتمام بعقله وثقافته وأيضاً لا ينفصل هذا عن الاهتمام بروحيات ابنك وأبديته. وهكذا مع باقي الفضائل.

★★ كوني احب الناس، هذا حسن جداً. ولكن ليست محبتي لهم معناها مجاملتهم في كل شيء، ولو على حساب الحق! فالمفروض أنني أحب اللَّه، وأحب الناس في نفس الوقت. وليس الحب معناه مجرد العطف الجسدي أو المادي فقط، وإنما معناها أولاً الحب الروحي. ورب الأسرة عليه أن يحب أسرته كلها ولكن ليس معنى هذا أن يعطف عليها عطفاً يجعلها تخطئ وتستمر في الخطأ ولا تخاف!

إن محبة الناس للَّه يجب أن ترتبط أيضاً بمخافته، أي بمهابته.

★★ إن الحياة الروحية ليست مجرد فضيلة معينة يركز عليها الإنسان بحيث يهمل باقي الفضائل...! إنما هى حياة تشمل كل شيء. وكتاب اللَّه ليس هو مجرد وصية واحدة أو آية واحدة، إنما هو كتاب يتحدث عن الخير كله، وعن البر كله. وينبغي أن نهتم بكل ما فيه من وصايا، لكي نحيا حياة لا نقص فيها. لأنه ربما نقص فضيلة واحدة قد يضيع حياة الإنسان كلها. مثال ذلك إنسان يحرص على السلوك الطيب في كل شيء. وتنقصه فقط فضيلة الاتضاع، ويقع بذلك في الكبرياء. وتهلكه هذه الخطية وحدها. على أن هذا الموضوع يحتاج إلى التحدث عن تفاصيل كثيرة، ليس وقتها الآن ...

١٨ أكتوبر ٢٠٠٩

أحياناً فضائل تنقصها الحكمة

من الأخطاء الشائعة أن يُركِّز البعض على فضيلة واحدة بحيث تتناقض مع فضائل أخرى لازمة. بينما الحياة الروحية ليست مُجرَّد فضيلة معينة، ولكنها حياة تشمل الكل. وكتاب اللّه لا يُقدِّم لنا وصية واحدة نحيا بها، إنما وصايا عديدة كل منها لها أهمية. وسنحاول في هذا المقال أن نُقدِّم أمثلة لخطورة الفضيلة التي تتعارض مع فضائل أخرى.

★★ بعض الأشخاص الأتقياء يتمسَّكون بفضيلة الوداعة، ولا شكّ أنها من الفضائل العُظمى. ولكنهم يفهمون الوداعة على أن يكون الشخص هادئاً باستمرار ولا يغضب، كما قال أحد الآباء: " إن الإنسان الوديع لا يغضب من أحد، ولا يُغضِب أحداً ".

وتأتي مواقف تحتاج إلى نخوة وإلى شجاعة وشهامة. ولا يتحرك هذا (الوديع)، لأنه يحب أن يكون باستمرار هادئاً ولطيفاً!! وفي تصرفه هذا لا يكون إنساناً فاضلاً. لأن كل موقف يحتاج إلى الفضيلة التي تُناسبه. وكما قال سليمان الحكيم: " لكل شيء زمان، ولكل أمر تحت السمَوات وقت".

★★ من الخطأ أن يكتفي إنسان بالوداعة، ويبتعد تماماً عن الشجاعة والقوَّة حين يأتي الوقت اللازم لهما. كذلك مثل هذه الوداعة الخاطئة تحوّله إلى جثة هامدة بلا حركة، لا نخوة فيها ولا شجاعة. بل الوضع السليم أن يستخدم الوداعة حين تحسن الوداعة، ويستخدم الشجاعة حين تلزم الشجاعة. تكون كلتاهما فيه. وتظهر كل منهما في الحين الحَسن. كما أن الوداعة ليس معناها الضعف. والقوة ليس معناها العنف. والوداعة والقوة تمتزج كل منهما بالحكمة والفهم. كما أن الإنسان القوي لا ينحرف إلى التهوّر، ولا يفقد وداعته وأدبه.

★★ أيضاً كثيرون يحاولون أن تكون لهم فضيلة طيبة القلب، لأنها فعلاً ميزة واضحة لأنقياء القلب. ولكنهم إذ يسلكون في طيبة القلب وحدها، بلا إفراز ولا فهم،

ما أسهل أن يصبحوا ألعوبة وهزأة في أيدي المستهترين. كُن إذن طيب القلب. ولكن أضف إلى الطيبة فضيلة الحكمة كُن طيباً، ولكن ليس بالقدر الذي تفقد فيه كرامتك وهيبتك. وإلاَّ فإن البعض - بسببك - سوف يكرهون الطيبة التي تجعل الغير يستغلّهم ويتعبهم! المشكلة إذن ليست في الطيبة، وإنما في عدم مزجها بالحكمة وبقوة الشخصية. يُمكن أن تكون طيب القلب. ولكن ليس معنى الطيبة أن تُسلِّم قيادتك لغيرك، أو أن تشترك بضعف شخصية في أخطاء الآخرين! أو أنك خوفاً من أن تُغضب غيرك تشترك معه في خطأ، أو تجامله في ذنب واضح!

★★ إذن يجب عليك أن تزن كل فضيلة بميزان دقيق. ولا تمارسها منفردة عن باقي الفضائل. وإن رأيت من نتائجها وحدها بعض السلبيات، فتأكد أن السلبيات ليست بسبب هذه الفضيلة، وإنما بسبب وقوفها وحدها بعيدة عن سائر الفضائل التي ينبغي أن تصاحبها وتحميها.

★★ يحدث أحياناً أن يكون شخص مُتصفاً بالحنو وينقصه الحَزم. أو آخر يتصف بالحَزم وينقصه الحنو وكلاهما مخطئ. ومن الأشياء العجيبة التي نجدها أحياناً في محيط الأسرة، أن الأبويْن قد يوزعان الحنو والحَزم بينهما. فيكون الحِنو مثلاً للأم، والحَزم للأب!! بينما الحنو والحزم يجب أن يتصف بهما كل منهما. ولكن الذي نراه أنه إذا أخطأ الابن، أو حاول أن يُخطئ، تقول له الأم: لا تفعل هذا لئلا يَغضب أبوك ويُعاقبك! دون أن تقول له إنها هي أيضاً لا ترضَى عن تصرفه. ويختلط الأمر على الابن ولا يعرف أين الحق. كل ما في الأمر أنه يتقي غضب أبيه. ويحدث أحياناً أن رئيس إدارة يحب أن يكسب محبة مرءوسيه: من أجل هذا يتهاون في حقوق العمل إرضاء لهؤلاء!!

الإنسان الروحي يمكنه أن يجمع الأمريْن معاً. ولا يستخدم الحِنو بدون حَزم، ولا الحَزم بدون حِنو.

★★ هناك أشخاص يُركِّزون على خدمتهم أو عملهم كل التركيز. ومن فرط انشغالهم يفقدون أهمية الصلاة والتَّأمُّل في حياتهم، كما يهملون واجباتهم الروحية بينما غيرهم

يركِّزون على عبادتهم وروحياتهم، بطريقة يفقدون بها الإخلاص لعملهم. وكلاهما يسلك بطريقة خاطئة. بينما الإنسان الروحي يجمع بين الأمرين معاً. ولا يكتفي بفضيلة منهما مُهملاً الأخرى.

★★ لقد أمر اللَّه - تبارك اسمه - بطاعة الآباء والمرشدين الروحيين. وما أكثر الأتقياء الذين يتمسَّكون بفضيلة الطاعة للكبار مهما كان الأمر. وهنا نسأل هل تجب الطاعة إن كان الأمر مُتعباً للضمير؟! ونحن لا نُنادي إطلاقاً بما يسمونها (الطاعة العمياء). فينبغي أن يكون الإنسان واعياً في طاعته. وأن يدرك أن الطاعة أولاً وأخيراً هى الطاعة للَّه. وداخل الطاعة للّه تكون طاعة الآباء وطاعة الرؤساء وطاعة المُرشدين. فإن صدر من أحد هؤلاء أمر، تكون إلى جوار طاعته عبارة " ينبغي أن يُطاع اللَّه أكثر من الناس".

★★ واجب عليك أن تُطيع الأب والرئيس والمُرشد الروحي. ولكن واجب على كل هؤلاء أن يطيعوا اللَّه فيما يأمرونك به. فإن لم يفعلوا فلا طاعة لهم عليك. واعرف أنه إن كان هناك أشخاص يهلكون بالعصيان، فهناك مَن يهلكون بالطاعة! إن كانت هذه الطاعة ضد ما يأمر به اللَّه. والأمر يتوقف على نوعية الطاعة والعصيان ونوعية المشورة أو الأمر. فإن كانت وصية اللَّه واضحة أمامك يجب أن تطيع الوصية الإلهية مهما كانت شخصية الذي يُقدِّم لك المشورة أو يصدر لك الأمر.

★★ إن فضيلة الطاعة فضيلة جميلة تدل على الأدب والتواضع واحترام الكبار والخضوع لهم. ولكن هناك بعض المواقف التي يجب أن تقول فيها " لا " لِمَن هو أكبر منك. ولكن تقول هذه العبارة في أدب. وبخاصة في بعض المواقف التي تكون ترى واجبك فيها أن تشهد للحق. بشرط أن تكون متأكداً أن ما تُدافع عنه هو الحق فعلاً. لأنه ليس من الحق أن يُخطئ إنسان بِاسم الدفاع عن الحق.

٢٥ أكتوبر ٢٠٠٩

حياة الفضيلة
بين الهدف والوسيلة

كلنا تقريباً نتفق في الأهداف أو الأغراض، ما دام الهدف سليماً وخيِّراً. ولكننا نختلف في الوسائل المؤدِّية إلى الهدف ... فما هى أسباب اختلاف الوسائل إذن؟ سببها اختلاف الفكر والعقل. كل منَّا له فكره الخاص، ونظرته الخاصة إلى الأمور. كذلك تختلف الأفكار بدرجة الذكاء، وبالتالي في الحُكم على الأمور. كما يختلف الناس أيضاً في الطِّباع وفي نوع النفسية. كما يختلفون من جهة البيئة المحيطة بكل منهم ومدى تأثيرها عليهم ... لذلك نجد أُناساً طيبين، ويريدون الخير، ومع ذلك فوسائلهم مختلفة. كل واحد له منهجه الخاص في الوصول إلى الغرض.

أحياناً يوجد تنوّع، وأحياناً يوجد اختلاف وخلاف ... والتنوع شيء طبيعي. ولكن الاختلاف كثيراً ما يتسبب في انقسام وصراعات. وربَّما يتحوّل من الموضوعية إلى خلاف شخصي. وربَّما إلى خصام وإلى عداوة.

★★ مثال لذلك موضوع الإصلاح: كلنا نحب أن تنصلح الأمور. ولكن يختلف الأسلوب، فإنسان يرى أن الإصلاح يأتي عن طريق الحكمة والتفكير والتفاهم. وآخر أسلوبه في الإصلاح هو العنف. عن طريق النقد الشديد والمنشورات والتجريح والتشهير. ويقول إن المخطئين لا يصلحهم إلا اتخاذ الشدّة معهم. وآخر يقول: تنصلح الأمور بالصبر وطول الأناة، وآخر يقول: نُصلِّي ونصوم، واللَّه يتدخَّل ويصلح كل شيء.

★★ لذلك إن اشتركت مع أحد في عمل ما، أو من أجل خير ما، لا يكفي أن يكون مشتركاً معك في الهدف والغرض. إنما ينبغي أن يكون أيضاً مُشتركاً معك في الوسيلة وأسلوب العمل. لئلاً تكون طريقته في تنفيذ الغرض المشترك غير طريقتك. فتختلفان معاً، أو يُسبِّب لك مشاكل باعتباركما شريكان في عمل واحد.

★★ الخطير في مسألة الوسيلة هو المبدأ الميكافلي. وكان ميكافلي يقول: الغاية تُبرِّر الوسيلة. فيظنه البعض أن الهدف الطيب يُبرِّر الوسيلة الخاطئة!!

فمثلاً إنسان بِاسم الغيرة المقدسة على عمل الخير، لا مانع عنده من أن يصيح وينتهر ويوبِّخ ويشتم، وربُّما يرفع قضايا ... ونحن نقول لمثل هذا الشخص: " إن الغيرة المُقدسة تناسبها وسيلة مقدسة ".

وبالمِثل أب يقسو جداً على ابنه حتى يُعقِّده نفسياً، ويحتج بغرض مُقدَّس هو تربية ابنه! الغرض سليم ولكن الوسيلة خاطئة. أو أب من أجل حرصه على عفاف ابنته يعاملها بشدة وقسوة حتى تهرب من بيته، وتبحث عن صدر حنون يعطف عليها ... أو زوج يحبس زوجته في البيت ويُقيِّد كل تحركاتها وكلامها بحجة الحفاظ عليها! الوسيلة أيضاً خاطئة ... أو أُم تتدخل في صميم الحياة الزوجية لابنتها، وعلاقة الابنة بزوجها. وقد تتسبب في فصلها عن زوجها. وتختفي وراء هدف مُقدَّس وهو الحرص على ابنتها وضمان راحتها.

★★ كثيراً ما ضيّع الناس أنفسهم وعلاقتهم بالوسيلة الخاطئة: مثال ذلك شخص يسعى إلى مصالحة غيره. وهذا هدف سليم بلا شك ولكنه يرى أن الوسيلة هى العتاب. لا مانع. ولكنه في طريقة العتاب، يُعيد الأوجاع والجروح القديمة، ويضغط عليها بأسلوب يتعب الطرف الآخر. ويخرج من العتاب وقد ساءت العلاقة عن ذي قبل لأن وسيلة العتاب كانت خاطئة ... بعكس ذلك إنسان آخر يستطيع بالعتاب أن يكسب الموقف، بل يجعل الطرف الآخر يتفهّم الأمور ويعتذر له، ويخرجان صديقين كأن شيء لم يكن.

العتاب هو العتاب. ولكن وسيلته عند واحد مقبولة ومجدية، وعند آخر متعبة ومؤذية وتأتي بعكس المطلوب ... فواحد يُعاتب بطريقة هادئة، والآخر يُعاتب بطريقة ساخطة. الأول يعاتب بحُب وعشم، والثاني يُعاتب بحقد وانتقام. فواحد منهما يُريد أن يُصالح. والآخر يُريد أن يثبت للطرف الآخر أنه مخطئ!

★★ جماعة تدخل في جمعية أو مؤسسة ما. وكلهم يريدون الخير لهذه المؤسَّسة. ولكنهم يختلفون في الوسيلة أحدهم يرى أن الوسيلة هى التعاون الكامل، ولو في ذلك لون من إنكار الذات. ولكن عضواً آخر يرى أن وسيلته هى السيطرة وتدبير الأمور حسب

حكمته هو. كل واحد له طريقته. ولكن يحدث الاختلاف حينما يرى البعض أن وسيلته هى الطريق الوحيد السليم. وينتقد غيره من الوسائل أو يحاول تحطيمه. يُمكن أن يوجد تنسيق وتكامل وتعاون بين الطُرُق المتنوعة المُتعدّدة الواصلة إلى غرض واحد. ولكن يحدث التصارع بين الوسائل المتناقضة.

★★ نطرق موضوع معاملة المخطئين: كلنا نكره الخطأ، ونأخذ من أصحابه موقفاً معارضاً. هذا غرض واحد ولكن الوسائل تختلف: البعض يبعد عن المخطئين، ينعزل عنهم ولا يختلط بهم. والبعض يأخذ منهم موقف المقاومة، ويرد لهم بالمثل، ويحاسبهم على كل خطأ، ولا يترك الأخطاء تمر بسهولة أو بدون مؤاخذة. والبعض يحاول أن يصلح هؤلاء ويكسبهم، رُبَّما بالحُب والصبر، ورُبَّما بالمواجهة والإقناع ... والمُهم أن نوصلهم إلى اللَّه وإلى الطريق السليم ونربح نفوسهم.

★★ أحياناً تتحوّل الوسائل إلى أهداف. فكلنا نرى أن هدفنا الروحي هو الوصول إلى اللَّه. ونرى أن من الوسائل الصلاة والصوم ... الخ، ولنأخذ الصوم مثلاً وكيف يتحوّل عند البعض إلى هدف في ذاته، بينما هو وسيلة نوجد بها في فترة روحية تُساعدنا على الوصول إلى اللَّه. فنمنع أنفسنا عن كل ما نشتهيه لكي نتعوّد السيطرة على الإرادة وبهذا يُمكن أن نمنعها عن الخطأ كما منعناها عن الأكل. هل نحن نحرص في صومنا أن يوصلنا إلى هذا الهدف الروحي؟! أمْ نحن نصوم لمُجرد الصوم بلا هدف وبلا فائدة وبلا نتيجة!

★★ لذلك كله ينبغي أن يراجع كل إنسان هدفه. ويتحقَّق أن وسيلته توصّله إليه. يتأكد أن الهدف سليم وروحي، وأنه لم ينحرف عنه إلى هدف آخر، وأنه يستخدم الوسيلة السليمة التي تُحقِّق هدفه الروحي ... الهدف الروحي الوحيد هو الوصول إلى إرضاء اللَّه والوصول إلى ملكوته. وما الصلاة والصوم والقراءة الروحية والتأمل والوحدة سوى وسائل توصّل إلى هذا الهدف وكذلك الفضائل هى مُجرّد وسائط توصّل إلى الهدف الذي هو اللَّه ... ولكن للأسف قد تتحول هذه الوسائط كلها إلى أهداف!!

١ نوفمبر ٢٠٠٩

عوائق للفضيلة
ولكنها ليست موانع

حياة البر والفضيلة لا تسير سهلة باستمرار، إنما تصادفها عوائق في الطريق. فما هى هذه العوائق وما أسبابها؟ ولماذا سمح اللَّه بها؟... وعموماً يمكن أن نسأل ما فائدة العوائق.

★★ من أهم العوائق عمل الشيطان الذي يحرص بكل قوته على أن يقتنص فريسة من بين الفضلاء. وهناك أمر يسميه الروحيون (حسد الشياطين). وهم يحسدون الأبرار على برهم وعلى نجاحهم في الطريق الروحي الذي فشل فيه هؤلاء الشياطين. يحسدونهم على حياة القداسة والنقاوة، وعلى علاقتهم الطيبة باللَّه. ويحسدونهم على النعمة المصاحبة لهم... لذلك يثيرون حولهم الزوابع، لكيما يفشلوا ويصيروا مثلهم أو من مملكتهم.

★★ فأن سرت في طريق الفضيلة وقابلتك عوائق، فأطمئن، لأنك سائر في الطريق السليم. فلو كنت سائراً في طريق الشيطان، ما كان يحاربك! بل على العكس كان يسهّل طريقك ويشجعك. أما محاربته لك أو محاربة أعوانه، فدليل أكيد على أن مسلكك يتعب الشيطان. ولهذا يجعل طريق الفضيلة ضيقاً حولك. فأنت كلما تبدأ في عمل صالح، يلجأ الشيطان وأعوانه في عمل مضاد لك. ولكن كل ذلك لا يمنعك أبداً من الاستمرار في طريق الخير وسوف يحيطك اللَّه بقوة من عنده تشجعك لتنتصر على كل العوائق.

★★ على أن أكبر عائق للفضيلة هو ذاتك أنت التي قد تحاربك أكثر مما يحاربك الشيطان. فإن كانت تحب المادة أو تحب الخطية فحينئذ تكون ذاتك عائقاً للفضيلة. ومن مظاهر ذلك إن كانت الحواس طائشة تتأمل فيما يثير الخطية فيها. فالحواس هى أبواب الفكر. والفكر يوصل إلى القلب والمشاعر. والجسد أحياناً يقاوم الروح ويقيم عوائق للفضيلة.

★★ ومن عوائق الفضيلة أيضاً الأصدقاء الأشرار والمرشدون المضلون كما قال الرب لإسرائيل في القديم "مرشدوك مضلون". وأحياناً وصف أمثال هؤلاء المرشدين بأنهم قادة عميان... ومن ضمن هذه المعوقات المفاهيم الخاطئة التي تنتشر في البيئة أو في وسط أية جماعة وتضللها. ومن ضمن هذه المعوقات الكتب والمطبوعات الخاطئة.

★★ ومن عوائق الفضيلة أيضاً الطباع الشخصية للإنسان إن كانت طباعاً منحرفة. وربما يكون بعضها طباعاً موروثة، أو طباعاً مكتسبة من البيئة، أو من كثرة الممارسات. مثال ذلك أن يكون الشخص غضوباً أو سمّاعاً أو متسرعاً... ومن العوائق أيضاً شهوات النفس الداخلية، أو بعض أهدافها الخاطئة...

★★ ولكنني من جهة كل هذه العوائق، أقول لك لا تخف. بل اطمئن. واعرف أنك في كل المحاربات الروحية التي تتعرض لها، وفي كل العوائق التي تقف أمامك، هناك المعونة الإلهية التي تسندك. فالشيطان يحاول أن يُعيقك، ولكن النعمة تشجعك وتقويك. اللَّه تبارك اسمه يسمح بوجود العوائق، هذه نصف الحقيقة. أما النصف الآخر فإنه في نفس الوقت يعطيك القوة التي تجاهد بها وتنتصر. إنه يسمح بالتجارب أحياناً. ولكنه لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون، بل يجعل مع التجربة المنفذ.

★★ إن اللَّه قد يسمح بالعوائق لاختبار طاعتنا له ولاختبار محبة إرادتنا للفضيلة ومدى مقاومتها للعوائق... إن كل إنسان يمكنه أن يقدم نية طيبة ووعوداً طيبة. ولكن في ساعة التنفيذ حينما تواجهه العوائق ويدخل في اختبار عملي، ما أسهل أن يفشل.

★★ فمثلاً إنسان يريد أن يدفع نصيب اللَّه في ماله. ثم يقف أمامه عائق وهو احتياجه للمال الذي يريد أن يدفعه. وهنا تُختبر فضيلته... وإنسان يريد أن يدّرب نفسه على فضيلة الاحتمال. وإذا به يتعرض إلى إساءة، ربما يرى أنه لا يستطيع أن يحتملها. ولا يستطيع أن يسامح أو يغفر لمن أساء إليه. وهنا أيضاً تُختبر إرادته... أو إنسان يريد أن يقول كلمة حق. وتقف أمامه عوائق من نتائج قول الحق كأن يتعرض إلى أذية أو إلى تهديد ممن يخيفهم أو يتعبهم قوله للحق. وهنا تُختبر شجاعته، أو صمود قلبه أمام المخاوف!

★★ العوائق تُظهر مدى ثبات الإنسان في إيمانه، وفي علاقته باللَّه والنــاس... إن الشهداء أظهروا عمق إيمانهم، على الرغم من التهديدات والعذابات والسجن والنفي. وعلى الرغم من الإغراءات الكثيرة التي عُرضت عليهم... فبرهنوا أنهم كانوا أقوى مــن كــل ذلك. وانتصروا على كل العوائق ونالوا الأكاليل.

إن الفضيلة الثابتة على الرغم من العوائق تدل على أن الإنسان الروحــي المنتصــر على العوائق، بحيث لا يفقد هدوءه ولا سلامه الــداخلي ولا فضــيلته. بحيــث لا يهتــز ولا يتغير ولا يضطرب، ولا يشك ولا يضعف. بل يدل ثباته على أن معدنه طيب وقوي. وعلى أنه يحيا حياة الانتصار باستمرار.

★★ مثال آخر في حياة الخدمة والبذل من أجل الآخرين: هناك فــرق كبيــر بــين الخدمة السهلة والخدمة الصعبة. فكثيرون يفضلون الخدمة السهلة المريحة. وبلا شــك أن أجرها عند اللَّه لا يمكن أن يكون في مستوى الخدمة الصعبة، التي بلا إمكانيات، أو التي تواجهها مشاكل ومتاعب من الأوضاع أو من الناس، أو من إخوة كذبة! وكلمــا أنتصــر الإنسان على عوائق الخدمة، هكذا يكون أجره عظيماً في السماء.

★★ ومن فوائد العوائق أنها تسبب لنا الاتضاع، والحاجة إلى الصلاة، وإلى طلــب المعونة من اللَّه. وإن انتصرنا على العوائق، حينئذ نشكر اللَّه الذي أعاننــا، ولا نفتخــر بأنفسنا افتخاراً باطلاً.

والعوائق أيضاً في مواجهتها والانتصار عليها، إنما تعطينا خبرة روحية نلمس بها يد اللَّه وتدخّلها لمعونتنا. وهكذا نرى عملياً كيف أن اللَّه يحل لنا المشاكل، ويزيل العوائــق والعقبات. ونختبر كيف أنه يحوّل الشر إلى خير، وكيف يدير الأحداث حســب مشــيئته الصالحة، كما حدث مع يوسف الصديق. وأيضاً بهذا الاختبار الروحي نكتســب شــجاعة وقوة، ولا نعود نخاف من الشدائد والعوائق.

★★ وبمعونة اللَّه التي تنصرنا على العوائق، ندخل في حياة الشكر، ونشــكر اللَّــه الذي أنقذنا. والذي بالعوائق نشّط أرواحنا للقتال مع عدو الخير وجعلنا لا نستسلم لحروب الشيطان ولا لشهوات أنفسنا.

٨ نوفمبر ٢٠٠٩

كونوا لُطفاء...

إنها نصيحة نُقدِّمها للجميع "كونوا لُطفاء نحوكم نحو بعض". وبهذا تكونون محبوبين من الكل. والإنسان اللطيف يتصف بحياة الوداعة والرقة والبشاشة، والبُعد عن الخشونة والعُنف والقسوة والتعالي. ولذلك فإن تصرفاته هى ثمر للروح الوديع الهادئ.

★★ هناك أشخاص - للأسف الشديد - يظنون أن الحياة الروحية هى مُجرَّد صلاة وصوم وما أشبه، بينما يسلكون بطريقة منفرة في معاملة الآخرين!! ولكنني أقول لكل منهم إن لم تكن لطيفاً في تعاملك، فأنت شخص غير مُتدين على الإطلاق. لأنَّ الإنسان المتدين لا بد أن يسلك بطريقة روحية. فيكون مُشفقاً على الغير، لا يُجازي عن شر بشر، أو عن شتيمة بشتيمة. وإن عاتب المُسيء، لا يكون قاسياً في عتابه، ولا يحاول أن يخجله أو يحزنه، أو يُعدد له كل أخطائه. والقلب العامر باللطف، لا يوبخ كثيراً. وإن وبَّخ لا يستخدم كلاماً جارحاً.

★★ إن القلب العامر باللطف، يكسب الناس بمعاملته اللطيفة. وعلى العكس فإن الإنسان الشديد أو القاسي قد يخسر أصدقائه لخشونته.

ما أشد قسوة بعض (المتدينين) في معاملتهم للخطاة، أو مَن يظنونهم خطاة! وما أكثر ما يستخدمون من عبارات جارحة في توبيخهم! ويحسبون أن هذه غيرة مقدسة منهم على الفضيلة والبِر أو يعتبرون هذا شهادة للحق! أو أنهم بالتوبيخ المُرّ يقودونهم إلى التوبة. ولكن ما أجمل ما قيل عن السيد المسيح إنه " لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ ". وفي قيادته بعض الناس إلى التوبة، لم يذكر لهم بشاعة ماضيهم، ولم يجرح شعورهم. بل كان لطيفاً جداً في قيادته.

★★ إن القلب اللطيف لا يحتقر الضعفاء، بل يسندهم ويضع أمامه تلك النصيحة الجميلة العميقة: "شجِّعوا صغار النفوس، اسندوا الضعفاء، تأنوا على الجميع".

واللّه - تبارك اسمه - عاملنا بهذه المعاملة. وجذبنا إلى التوبة بطول أناته علينا. ولو كان قد عاملنا بقسوة لهلكنا جميعاً. وهنا أتذكّر قول أحد الشعراء لامرأة تحترف البغاء:

ودَعوك بائعة الأثيم مــن الهــوى .. كذبوا فإن الذنب ذنــب المشــتري

★★ حقاً إن المعاملة اللطيفة تكتشف النقط البيضاء فتمتدحها، ولا تُركِّز على الـنقط السوداء. تحتضرني بهذه المناسبة قصة مدير لإحدى مدارس الطيران المدني: كان قد أعد للطلبة الامتحان النهائي العملي للتخرج. وصعد أحد الطلبة بالطائرة، وإذ بزمامها يفلـت من يده، وبدأت تتأرجح في الهواء بطريقة مخيفة. وشعر قائدها بأنه قد فشل في الامتحان ولا بد سيُرفض من المدرسة. ورأى أنه على الأقل أن ينقذ نفسه من الموت. وهكذا جاهد حتى نزل بالطائرة إلى الأرض سليماً ... فأقبل إليه مدير المدرسة وقد توقَّع أن يسمع منه قرار الفصل. ولكن مدير المدرسة شد على يده بحرارة وهو يهنئه قائلاً: " على الرغم من خطورة الموقف فأنك نجحت في أن تنزل بالطائرة سليماً كأمهر طيار رأيته في حياتي ".. وبهذه الكلمات اللطيفة المُشجِّعة، أدخل الطمأنينة إلى نفس الطالب. ثم قــدَّم لــه بعـض النصائح.

★★ إن المعاملة اللطيفة لازمة بالنسبة إلى الآباء في تربية أبنائهم، وبخاصة الأطفال الصغار منهم. وقد يخطئ الطفل ولكن الأب لا يعاقبه، واضعاً في ذهنه أن الطفل في مثل هذه السن لا يدرك كل شيء في وضعه المثالي، فهنا الأب لا يُعاقِب وإنما بكـل لطـف يشجع ويُعلِّم ويُرشِد ويُسامح. وبالمثل يعرف طبيعة سن المراهقة وما فيها مــن حــروب روحية. ويكون لطيفاً في معاملة أبنائه في هذه المرحلة من العمر، التي تحتاج إلى حكمة وطول بال في المعاملة. ولا يصلح معها القسوة والخشونة وسوء المعاملة.

★★ وبالنسبة إلى اللّه - تبارك اسمه - يقول عنه داود النبي في المزمور: "لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا". ولماذا؟ يتابع داود النبي فيقول عن الـرب: "لأنه يعرف طبيعتنا، يذكر أننا تراب نحن". حقاً إن اللّه في رقته وطيبته، يقدر ظــروف الناس، وطبيعتهم الضعيفة، فيغفر ... إنهم مُجرَّد تراب، أثارتهم الريح فتحولوا إلى غبــار في الجو. فيصبر اللّه عليهم بعض الوقت حتى تهدأ الريح فيستقرون.

★★ والإنسان اللطيف يسمح لأبنائه أو لمرءوسيه أن يعاتبوه، أو يجادلوه فلا يغضب. إنما بكل لطف يعطيهم فرصة للتعبير عمّا في داخلهم بكل حرية. ويفصح لهم المجال إلى آخرِ حد بلا مانع. إنه لا يغلق على الغير في شرح أفكارهم أو التعبير عما في داخلهم.

حقاً إنه بالعنف قد يخسر الشخص أحبائه، بينما بالمعاملة اللطيفة يمكنه أن يكسب أعداءه. هناك فرق كبير بين القسوة التي توبخ الإنسان على خطاياه، وبين اللطف الذي يجعل الخاطئ من تلقاء نفسه يعترف بخطاياه ويتوب عنها ... إن الشخص اللطيف ما أسهل عليه أن يجد في أحد الخطاة شيئاً يستحق المديح، فيبدأ به ويمتدحه عليه، ويكسب محبته بهذا الأسلوب. ثم بعد ذلك يتطرق إلى ما يُريد أن ينبهه إليه في ترك أخطائه.

★★ على أني أقول إن للطف حدوداً. فإن لم يوصل إلى هدفه قد تبدأ العقوبة. ذلك لأن البعض قد يستغلون المعاملة اللطيفة فيستمرون في حياة الاستهتار واللامبالاة. وهنا تكون من الحكمة معاقبتهم. على أن المعاقبة لا ينبغي أن تكون عنيفة. فالعنف لا يوصل إلى طريقة سليمة. والإنسان اللطيف حينما يعاقب، إنما يعاقب بطريقة لا خشونة فيها ولا ظلم ولا قسوة. وقد تكون متدرجة بحيث تصل إلى الهدف المطلوب من الإصلاح وليس من الانتقام.

★★ أخيراً يهمنا أن نقدم بعض النصائح لمن يريد أن يكون لطيفاً في معاملة الآخرين: في تعاملك مع الناس لا تحاسب وتراقب على كل نقص وكل خطأ. لأنه يندر أن يوجد أشخاص كاملون بلا عيب.

وإن عاتبت فلا تكن شديداً في عتابك. ولا تجرح شعور أحد. وقد قال الشاعر في العتاب:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً .. صديقك لن تلقى الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فأنه .. مقارف ذنباً مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى .. ظمأت وأي الناس تصفو مشاربه؟!

١٥ نوفمبر ٢٠٠٩

ما بين الداخل والخارج

الحياة الروحية الحقيقية ليست مجرد مظاهر خارجية. إنما العمل الروحي يكون في حقيقته في داخل العقل والقلب، في المشاعر والنيَّات والأحاسيس. وإذا كان قوياً في الداخل، فمن الطبيعي أن تظهر ثماره في التصرفات الخارجية.

أما البِرّ الذي من الخارج فقط فقد يكون رياءً. فقد يقوم البعض ببعض أعمال البِرّ من الخارج، وفي داخله حُب الخطية. إنه قد يفعل الخير خوفاً من انتقاد الناس. وقد يبعد عن الخطيئة خوفاً من عقوبة المجتمع أو من عقوبة القانون. أو يمتنع عن الخطيئة أمام الناس خجلاً. أو يقوم بعمل البِرّ من أجل كسب مديح الناس، وليس من أجل محبة اللَّـه ومحبة الخير. أو قد يعمل الخير مجاراة وتقليداً لتيار المجتمع ... وهو في كل ذلك غير مقتنع من الداخل، وربما هو مُحرج لا يستطيع أن يقول لا!!

★★ إن الفضيلة ليست في مجرد عمل الخير، إنما هى أصلاً في محبة الخير. إنما في محبة الخير من داخل القلب، حتى لو كانت هناك موانع للتنفيس. فاللَّـه يكافئ هذا الإنسان على محبته للخير حتى إن لم يتمكن من فعله عملياً لأسباب خارجة عن إرادته. فمثلاً الذين يقدمون عطاياهم للفقراء يكافئهم اللَّه. وأيضاً يكافئ الذين يريدون أن يقدموا وليس لهم. فيأخذون البركة على مجرد النية أو الرغبة الداخلية ما دام هناك عائق يمنع الممارسة الفعلية. ونحن نعرف أن اللَّه يفحص القلوب، ويعرف مدى صدقها، ومدى التزامها إذا أتيحت الفرصة للعمل.

★★ والإنسان البار من الداخل قد تحاربه من الخارج حروب روحية سواء من الشيطان أو من الناس الأشرار، أو من عثرات المجتمع. ولكنه في كل ذلك ينتصر، لأن قوة بره الداخلية تكون أقوى من الحروب الخارجية. ومثالنا لذلك يوسف الصديق: كان قوياً في الداخل ولمَّا ألحت عليه الخطية من الخارج، استطاع أن يرفضها وينتصر.

ومثالنا أيضاً كثرة الحروب الخارجية التي تعرَّض لها شهداء الإيمان، وأيضاً ما عُرِض عليهم من إغراءات كثيرة لكي ينكروا إيمانهم، ولكنهم رفضوا كل ذلك لأن الإيمان القوي الموجود في قلوبهم كان أقوى من التعذيب وأقوى من الإغراء.

★★ أمَّا الإنسان الضعيف من الداخل، فأمامه حربان: إمَّا أنه يسعى بنفسه إلى الخطيئة. أو إذا سعت الخطية إليه، لا يرفضها ولا يقاومها، إن الخطيئة تجد قلبه مُزيناً لها ومستعداً لقبولها، فتدخل إليه وتستريح فيه.

وفي حديثنا عن الضعف نقول إن هناك إنساناً ضعيف من الداخل، وإنساناً آخر يتسبب في إضعاف نفسه. فما أسهل على الإنسان الضعيف أن يحاول تقويم نفسه، ولا يعتبر الضعف الذي فيه طبيعة ثابتة. ولكنه يحاول أن يتغير إلى أفضل. بعكس غيره الذي يشتهى الخطيئة، ويلجأ إلى الأسباب التي تؤدي إلى ضعفه أو تزيده ضعفاً، فيستسلم.

★★ أما البار في الداخل، فإنه مُحصَّن ضد السقوط. مهما صادمته الحروب الروحية، فإنها لا تقدر عليه. أبوابه دائماً مغلقة أمامه إذ قد أغلق أبواب فكره وأبواب مشاعره أمام كل خطية وكل شهوة. مثل هذا يستطيع أن يقاوم إبليس بكل حيله.

★★ على أن الإنسان، قد تمر عليه أحياناً فترات قوة أو ضعف. فهو قد يكون قوياً ينتصر على كل إغراء وعلى كل حرب من الشيطان مهما كانت قوتها. ونفس الشخص قد تأتي عليه فترة يضعف فيها من الداخل ويسقط ... إنه نفس الشخص الذي قاوم وانتصر ثم في وقتٍ ما استسلم وسقط. على أنه في حالة ضعفه الطارئ كثيراً ما تتلقفه نعمة اللَّه وتحرسه من السقوط. أمَّا أسباب السقوط فقد تأتي من الداخل أو من الخارج. وربما الضعف الداخلي قد يأتي بالتدريج. أو قد يأتي السقوط من الداخل والخارج معاً ... مثال ذلك يهوذا: كان مثقلاً بمحبة المال من الداخل وبالخيانة أيضاً. فلمَّا أتته الفرصة من الخارج نفَّذ ما بداخله.

وقد يكون إنسان محارباً من الداخل بمحبة المديح. فإذا أتاه من الخارج تملّق بعض الناس يستسلم ويسقط.

من جهة الخوف مثلاً: ليس سببه مُجرَّد عوامل خارجية تُسبِّب الخوف. فالقلب القوي من الداخل لا يخاف، والمؤمن بحماية اللّه وحفظه له لا يخاف. والشهداء لم يخافوا من الموت لأن قلوبهم البارة كانت تشتهي محبة الآخرة مع اللّه.

كذلك القلب الذي من الداخل يكون قوياً في الإيمان، لا يمكن أن تهزّه الشكوك الخارجية. بل يكون إيمانه الداخلي أقوى من الشكوك وهكذا فإن المؤمنين الأقوياء في داخلهم استطاعوا أن يصمدوا أمام الشكوك التي يُثيرها بعض رجال الفلاسفة أو العلم أو ما يثيرها بعض الملحدين والمنحرفين. إن الخارج قد يضغط ملتمساً استجابة من الداخل... فإن لم يجد استجابة تفشل كل حيله وينصرف في خزي.

كذلك أيضاً من جهة التجارب والضيقات. إن أيوب الصديق إذ كان باراً في داخله، وحلَّت عليه تجارب شديدة ولكنه ظل محتفظاً بإيمانه.

★★ من جهة الداخل والخارج: نقول إن هناك إنساناً يبدو من الخارج صائماً، وفي داخله يشتهي الطعام ويتحايل على ذلك. أمَّا الصوم الحقيقي فهو أن يكون القلب صائماً والنفس زاهدة ولا يتمسك بمُجرَّد الشكليات في الصوم .. ومن جهة العفة، فقد يمتنع الجسد عن كل أنواع الزنا، ومع ذلك قد يكون جسده عفيفاً وربما روحه تكون زانية. ومن جهة الحشمة. ينبغي أن يكون القلب مُحتشماً ولا يعتمد على مجرد مظاهر خارجية. ولذلك قال أحد القديسين إن الإنسان البار يكون محتشماً حتى وهو جالس وحده في غرفته الخاصة.

كذلك من جهة التسامح: فقد يلفظ الإنسان بكلمة " اللَّه يسامحك ". بينما لا يكون قلبه متسامحاً على الإطلاق. ولا يستطيع أن ينسى الإساءة. وإذا حدث أن المسيء إليه تعرَّض لكارثة. وقد يفرح هو بذلك في قلبه. إذن المهم أن تكون الفضيلة في الداخل ولا تكون مجرد مظاهر خارجية.

٢٢ نوفمبر ٢٠٠٩

صراع الاثنينية

عندما خلق اللّه الإنسان، خلقه باراً قديساً بسيطاً، لا يعرف سوى الخير فقط. ولما سقط الإنسان في الخطيئة، بدأ يعرف الشر إلى جوار الخير. وفقط بسطاته وبراعته، وعرف أنه عريان، واستحى من عريه وتغطَّى ...

ومن ذلك الحين وقع الإنسان بين شقّي الرحى، أعني الخير والشر. ودخل في صراع بينهما، وبين الحلال والحرام، وما يليق وما لا يليق.

عاش الإنسان في صراع الاثنينية. أمامه الاثنان، فأيهما يختار. وأمامه النتيجتان: البركة أمْ اللعنة، المكافأة أمْ العقوبة، الحياة أمْ الموت.

★★ وأول صراع عاشه الإنسان، هو الصراع بين الروح والجسد. فالروح تشتهي ضد الجسد، والجسد يشتهي ضد الروح. والإنسان في حيرة. إلى أيٍّ منهما ينقاد. وكما قال أحد الأُدباء الروحيين: " كنت أصارع نفسي وأجاهد، حتى كأنني اثنان في واحد: هذا يدفعني، وذاك يمنعني "... إنه صراع داخلي.

★★ إنه صراع سببه معرفة الخطية، ثم محبة الخطية. وقد يكون أحياناً صراعاً بين الشهوة والضمير. وهو صراع أثناء حياتنا في هذا العالم فقط، الذي نُوجد فيه بالجسد، ونُحاط بالمادة، ونُحارَب بالخطية. أمَّا في العالم الآخر، في الأبدية السعيدة، فسوف نعود إلى بساطتنا الأولى، ولا نعرف سوى الخير فقط. وتُنزع منا تماماً معرفة الخطية. ولا يوجد حينئذ صراع بين الروح والجسد.

★★ أمَّا على الأرض فلا يزال صراع الإنسان قائماً مع الاثنينية. إنه صراع مع نفسه، حتى يصل إلى ضبط النفس ... صراع مع رغباته، ومع أفكاره، ومع حواسه. وينتهي الصراع حينما يصير الإنسان واحداً، وليس جبهات داخلية تقاوم إحداهما الأخرى.

وكما قال أحد الأُدباء: " إذ اصطلح العقل والجسد والروح فيك، حينئذ تصطلح معك السماء والأرض " ولكن الصراع الداخلي هو مرحلة للمبتدئين، أو للذين لم يتحرَّروا بعد من الداخل. فإن تحرَّروا، يكون منهجهم هو النمو في النعمة، وليس الصراع بين الخير والشر.

فإذا كان الإنسان لم يتحرَّر من شهوات العالم والجسد، فلا بد أن يقع في الخوف: إنه يشتهي، ويخاف أن شهوته لا تتحقَّق. فإن تحقَّقت، يخاف أنها لا تستمر. وإن استمرت، يخاف من نتائجها. وفي حالة الخطية، يخاف أن تنكشف، ويخاف من العقوبة ومن الفضيحة، ويخاف من غضب اللَّه عليه. وقد يخاف من كيفية الاعتراف بخطئه. وإن ترك الخطية، قد يخاف من إمكانية العودة إليها. إن حالة الاثنينية ترتبط دائماً بالخوف كما ترتبط بالشهوة. وهكذا قال القديس أُغسطينوس عبارته المشهورة: "جلست على قمة العالم، حينما أحسست في نفسي: أنني لا أشتهي شيئاً، ولا أخاف شيئاً".

الخوف مرتبط إذاً بالشهوة والخطية. ونقصد هذا المعنى للخوف، وليس الخوف الطفولي من الظلام أو الأرواح. فالإنسان الروحي لا يخاف أبداً. إنه يشعر بوجود اللَّه معه، يحميه ويقوِّيه ويخلصه ... الاثنينية إذاً تقود إلى الصراع وإلى الخوف وإلى أخطاء أخرى كثيرة.

★★ الاثنينية تقود إلى الرياء. حيث يصبح الشخص اثنين: أمام نفسه شيء، وأمام الناس شيء آخر ... فأمام الناس يلبس ملابس الأبرار والقديسين. وهو أمام نفسه عكس ذلك تماماً. حينما يكون وحده قد يسلك بإهمال أو بخطأ أو بما لا يليق. وأمام الناس رُبَّما يحرص على أن يكون مُدقِّقاً في تصرفاته.

وبالاثنينية يكون إنسانه الداخلي غير إنسانه الخارجي. رُبَّما تكون كل أفكاره ومشاعره ونيته غير ما يظهر للناس. وبسلوكه أمامهم، مُحال أن يظنوا أن له أفكاراً خاطئة. حقاً لو كشف اللَّه كل الأفكار والمشاعر، كم يكون خجل أصحابها، ودهشة الناس!!

★★ وبالاثنينية قد يكون قلب الإنسان غير لسانه. فهو يقول ما يعجب سامعه، وقد يكون قلبه غير ذلك أو عكس ذلك! وقد يُصلِّي بشفتيه، بينما يكون قلبه مبتعداً عن اللَّه تماماً.

إنسان آخَر تتدرج به الاثنينية إلى التملُّق أو النفاق. فقد يكون في قلبه كارهاً لرئيسه، حاقداً عليه. ومع ذلك يُكلِّمه بكلام المديح والملق ... وفي هذا يكون ذلك الشخص قد صار اثنين: الإنسان الداخلي فيه يختلف عن الخارجي، بل يتناقض معه إلى أقصى حد. فمتى يصير الإنسان واحداً، قلبه واحداً مع لسانه.

وبمثل إنسان في المواضع المقدسة، أو في عبادته أو في خدمته، يكون بمنتهى الرقَّة واللُّطف والأدب. أمَّا في بيته أو في العمل فيكون بمنتهى الشدة والعنف والقسوة. إنه إنسانان مختلفان. كذلك في معاملاته لا يجوز أن يكون اثنين، أو بوجهيْن، أو يلعب على حَبْلَيْن! كأن يعامل شخصاً برقة وبإخلاص وباحترام ... ومن خلفه يُدبِّر له مكيدة، أو يتكلَّم عليه بالسوء. أو يكون معه بكل القلب أو يبدو كذلك، فإذا انقلب الجو انقلب معه. وكما يقول المثل العامي: "معاهم معاهم، عليهم عليهم".

والذي يعيش بالاثنينية، لا يكون له ثبات. فهو غالباً يكون كثير التغيُّر، وأحياناً كثير التردُّد. وقد يتحوَّل من حال إلى حال. وقد تتصارع أفكاره. أو تتصارع أذنه مع عقله. ولا يعرف هل يُصدِّق أذنيه ويتبعهما، أم يُصدِّق قلبه واقتناعه الداخلي.

الاثنينية قد تقود إلى انقسام الشخصية. وإذا استمرت ربما تقود إلى ازدواج الشخصية. وصاحبها قد يُرى في أحد الأيام بصورة، وفي يوم آخر بصورة مغايرة. وتقول أنت عنه في نفسك: " ليس هذا هو الشخص الذي عرفته بالأمس. إنه شخص آخر تماماً!! ".

والاثنينية قد تقود إلى التحايل. إذ يُريد الشخص غرضاً سليماً، وفي سبيل تحقيقه يلجأ إلى وسيلة خاطئة. وهنا يجتمع فيه الخير والشر بعمل واحد. والوسيلة الخاطئة تشوِّه الخير الذي يريده. ولكنه التحايل في الوصول.

في اليوم الأخير، حينما يكشف اللَّه الخفيَّات، تُرى أن يُخبئ الناس وجوههم.

٢٩ نوفمبر ٢٠٠٩

أنواع كثيرة من السرقات

السرقة خسة في النفس، لا يقبل أحد من الكبار أن يتصف بها. رُبَّما يقع فيها الفقير بسبب عوزه واحتياجه. ومع ذلك رُبَّما يقع في السرقة كثير من الأغنياء عن قصد أو غير قصد. وربما يكون بخل الغني وحرمان الفقير هما السبب الذي يدفع إليه. وكثيراً ما تكون السرقة نوعاً من حقد الفقراء على الأغنياء. ومع ذلك السرقة التي يرتكبها الفقراء، لا يمكن للاحتياج أن يُبرِّرها. وهناك كثير من السرقات يقع فيها (الشرفاء)، وربما لا يشعرون بذلك.

★★ إن غنياً يُسخر إنساناً آخر لكي يعمل له عملاً من غير أجرة، يكون بذلك قد سرق أجرته. أو أن يستأجره بأجر بخس دون الكفاف، يكون قد سرق تعبه وعرقه. مثال ذلك عامل يشتغل عندك، وتُعطيه أجراً لا يكفي سكنه وطعامه ومصروف أولاده. مثل هذا الإنسان ألا تكون قد سرقت تعبه. وهو يصرخ إلى اللَّه شاكياً من سرقتك لجهده وتعبه.

وينضم إلى التسخير والأجر البخس، التأخر في دفع الأجر، بحيث يكون الأجير محتاجاً إلى أجره الذي لم يأخذه في ميعاده. ويدخل في هذا النطاق المدير الذي يؤخِّر علاوة الموظف، أو يؤخِّر ترقيته إن كان يستحق تلك العلاوة أو الترقية. مثل هذا المدير يكون قد سرق رزق هذا الموظف إذ قد سلب حقوقه. وبالمثل الموظف الذي يشتغل ساعات زائدة عن المسار القانوني، ويستحق عليها أجراً إضافياً Over Time، ويمنعه عنه رئيسه. هذا أيضاً يكون قد سرق تعبه ... وبالمثل يكون المدير الذي يخصم من مُرتب أحد موظفيه بدون مُبرِّر، أي يخصم من رزقه. من حق رئيس العمل أن يُعاقب موظفيه إن فعلوا ما يستوجب ذلك. أما أن يخصم من استحقاقاتهم ظُلماً فإنه يكون قد سرق جزءاً من رزقهم، حتى إن كان هذا الخصم لم يوضع في جيبه، لكنها تعتبر أيضاً سرقة. فالسرقة ليست فقط أن تسلب ما للناس لنفسك، إنما تشمل أيضاً إن سلبت حق إنسان سواء أخذته لنفسك أو لغيرك.

مثال ذلك أيضاً ما يفعله مأمور ضرائب غير عادل ... فهو إذا قدر ضرائب على شخص أكثر مما يجب، يكون قد سلب من هذا الشخص بعض ماله. وإن قدّر عليه ضرائب أقل ممَّا يجب، يكون قد سلب من الدولة أموالها. في حين أنه لا يكون قد أخذ شيئاً من ذلك لنفسه. وينطبق هذا الكلام أيضاً على موظف الجمارك.

★★ الرّشوة أيضاً هى نوع من السرقة، لأنها ابتزاز لأموال الناس بدون وجه حق. فالرّشوة التي يأخذها موظف من الجمهور هى سرقة واضحة. فكم بالأولَى إن وصلت هذه الرشوة إلى مستوى الإتاوات المفروضة. بحيث لا يقوم مثل هذا الموظف بخدمة فرد من أفراد الشعب دون أن يتسلم منهم إتاوة معينة.

أمَّا الرشوة التي يأخذها موظف لإعفاء مواطن من واجب عليه نحو الدولة، ففيها يكون قد وقع في سرقتين: يكون قد سلب مال هذا المواطن بأخذه رشوة منه. وفي نفس الوقت يكون قد سلب مال الدولة بإضاعة حقوقها نحو هذا الإنسان. ويكون المواطن الذي دفع الرشوة قد وقع هو أيضاً في السرقة إذ سلب الدولة حقوقها التي أُعفى منها.

ولا تعفي الرشوة من المسؤولية، إن أخذت اسماً غير اسمها، كأن تأخذ مثلاً صورة هدية. فالهدايا يتبادلها الأحباء والأصدقاء، ولا يشترط فيها القيام بعمل معين في مقابل ذلك.

★★ العامل أيضاً قد يسرق صاحب العمل بطرق كثيرة منها إن وقت العمل ليس ملكاً للموظف، إنما هو ملك لصاحب العمل الذي يعطيه أجراً عنه. فإن استغل العامل وقت العمل من أجل مصالحه الخاصة أو قضى هذا الوقت في سمر مع زملائه، أو أخذ عطلات بدون وجه حق (عرضية أو مرضية) ... فإنه يكون بهذا قد سرق وقت العمل،.. أو سرق الأجر الذي يأخذه مقابل هذا الوقت. كذلك الموظف لا يكون أميناً في عمله، بينما يأخذ أجراً عن هذا العمل. وبالمثل العامل الذي يشتغل بآلات لصاحب العمل إن تهاون في استخدامها وأدى به الأمر لإتلافها، بحيث يضطر صاحب العمل أن يشتري غيرها من ماله، وهذا أيضاً يكون قد سرق صاحب العمل بإتلاف آلاته.

أيضاً هناك أشخاص يستطيعون بذكائهم وحيلتهم أن يتحايلوا على القانون، ويجمعون لأنفسهم مالاً بغير حق، أو يفلتون من التزاماتهم نحو الدولة. وتكون ضمائرهم قد خدَّرتها الفرحة بربح زائد.

★★ هناك أيضاً سرقة الأفكار، أي أن يأخذ أحدهم فكرة غيره وينسبها إلى نفسه، أو يقتبس شيئاً دون أن ينسبه لصاحبه، كأن له هو!. وهناك في الأدب باب مشهور عن "السرقات الشعرية" ... من أجل هذا وغيره، ضمنت القوانين حقوق التأليف وحقوق النشر والطباعة، وحقوق الاختراع.

★★ أيضاً الغش في الامتحانات يُعتبر لوناً من السرقة، يسرق به التلميذ نجاحاً لا يستحقه أو شهادة لا يستحقها.

وقد يسرق شخص أسرار غيره عن طريق التجسس، بأن يستمع بأذنه ما ليس من حقه أن يسمعه. أو أن يتطفَّل فيقرأ خطابات غيره أو مذكراته الخاصة، خلسة دون علمه. فهو إذن يسرق أسراره.

★★ هناك سرقات أخرى تبدو طفيفة: مثالها كثير من الموظفين يستخدمون أحياناً بعض الأوراق البيضاء الخاصة بالعمل في استعمالهم الخاص. وهى ليست من حقهم مهما كانت زهيدة. وبعض الموظفين الكبار يستخدمون عربات الدولة في تنقلاتهم الخاصة. أو يستخدمون بعض الخدم والعمال في خدماتهم الخاصة. وفي كل ذلك لا يشعر هؤلاء "الكبار الشرفاء" بأي إحساس بالإثم.

وأيضاً قد يستقل أحدهم الترام أو الأتوبيس دون أن يدفع أجراً محتجاً بأن الكمساري من فرط انشغاله لم يمرّ عليه! وحتى إن أعفاه الكمساري ولم يأخذ منه ثمن التذكرة، فهو ليس صاحب الترام أو الأتوبيس ويُعتبر شريكاً له في سرقة الأجرة التي يجب أن تُدفع.

٦ ديسمبر ٢٠٠٩

سرقات أخرى

تحدَّثنا في المقال السابق عن أنواع من السرقات. واليوم نتحدَّث عن أنواع أخرى.

إن كُنَّا نقول إن الطالب الذي يغش في الامتحانات، إنما يسرق نجاحاً ليس له، فإننا نقول أيضاً أن الأستاذ الذي يقسو بطريقة ظالمة على طالب في الامتحان فيخفض درجاته، هو أيضاً يسرق من هذا الطالب تفوقه. والعجيب أنه لا يستفيد لنفسه شيئاً من هذه السرقة.

★★ إن العشور عند المسيحيين، والزكاة عند المسلمين، هي جزء من مالهم ليس لهم، وإنما للفقراء والمحتاجين وأعمال البرّ. فالذي لا يدفعها لأصحابها يكون قد سرق منهم حقهم. بل يكون أيضاً قد سرق من اللّه نفسه حقه في هذا المال. فإن لم يدفع العشور ولم يدفع الزكاة واستبقاها في جيبه، يكون ذلك مالاً حراماً عنده ليس من حقه أن يتصرَّف فيه.

★★ هناك سرقات في محيط التجارة، يظن فيها التاجر أنها مهارة منه وفن يوصِّلان إلى أكبر ربح ممكن. ومن وسائل هذه السرقات الغش في التجارة. كأن يبيع إنسان شيئاً به تلف على أنه شيء سليم، مُستغلاً عدم اكتشاف الشاري للعيب الموضوع في هذه البضاعة. ما أنبل البائع الذي بكل أمانة يُنبِّه المشترى إلى العيب أو التَّلف الموجود في بضاعته. وحينئذ ستسمو منزلته في عين مَن يشتري منه ويثق به. وقد يقول البعض إن مثل هذا البائع سوف لا يبيع. كلاَّ إنه سيبيع ولكن بثمن يناسب العيب الموجود في بضاعته. إنه ثمن أقل ولكنه مال حلال فيه بركة. أمَّا لو أخفى العيب فإنه يكون قد سرق الفرق بين ثمن البضاعة التي فيها عيب والتي ليس فيها.

ويمكن أن ينضم تحت عنوان بيع الأشياء التالفة على أنها سليمة، مَن يبيعك أشياء مستعملة مُدَّعياً أنها جديدة. أو مَن يتفق معك على صنف مُعيَّن، وعند التسليم يستبدله بشيء آخر أقل جودة أو أقل قيمة.

ومن الغش أيضاً أن يبيع التاجر شيئاً بغير اسمه: كأن يبيعك مثلاً حريـراً صـناعياً على اعتبار أنه حرير طبيعي، وأنت غير خبير بالحرير وأنواعه! أو يبيعك معدناً مطلياً بقشرة من ذهب على أنه ذهب خالص وبسعر الذهب. ويدخل أيضاً في هذا المجال بيـع قطع الآثار المغشوشة أو المقلَّدة ومُصنَّعة ... أمَّا إذا باع لك آثاراً حقيقية، فيكون أمامـه سؤال خطير وهو من أين أتى بها. ويكون حينئذ سارقاً لهذه الآثار من الدولـة، ويكـون الشاري شريكاً معه في السرقة.

★★ ومن الغش والواضح الصريح في التجارة، غش المكاييل والموازين والمقاييس. وهنا لا يكون الغش في نوع البضاعة أو جودتها، وإنما في مقدارها. إذ يأخـذ المشـتري كمية أقل من حقه. ويكون الذي ينقصه سرقة من البائع.

★★ هناك سرقة أخرى في التجارة عن طريق الجشع ورفع الأسعار: وتكون هـذه السرقة نوعاً من الابتزاز لمال المُشتري. إن اللَّه يسمح للتـاجر أن يكسـب فـي حـدود المعقول. أمَّا الربح الفاحش المملوء من الجشع الخالي من الرحمة، فلا يوجد دين يقـرّه. إنه سرقة مستترة.

وقد تأتي هذه السرقة عن طريق الاحتكار: بأن يكون التاجر هـو الصـانع الوحيـد أو المستورد الوحيد لهذا الصنف، أو الوكيل الوحيد المتعهد ببيعـه. وعنـد إذن يفـرض أسعاراً باهظة مستغلاً حالة المشتري. وهكذا ينهب أموال الناس، ويشترون وهم مُكرَهون ومضطرون.

★★ وقد تحدث مثل هذه السرقة عن طريق السوق السوداء. تحدث عنـدما يخـزن البائع عنده البضاعة حتى تنفذ من السوق. وقد يشتري هو نفسه منها ويظل يخزن إلى أن تخلو منها باقي الأماكن. وعند إذن يكشف عن وجودها عنده، ويفرض سعراً خيالياً لبيعها، مستغلاً حاجة المشترين إليها، لكي يبتز أموالهم. ويكون سارقاً لهم بطريق غير مباشر.

فالسرقة تأتي عن طريق الاستغلال. إذ يستغل التاجر أنه البائع الوحيد، وأن المشتري محتاج، وعامل الوقت في صالحه. فيفرض سعراً ويرغم المشتري على دفعـه. وتكـون الزيادة الفاحشة نوع من السرقة.

★★ توجد أمور أخرى تدخل في نطاق السرقة مثل التلاعب بالأسواق. كما يفعل بعض التجار في المضاربات. إذ يرفعون الأسعار أحياناً ويخفضونها أحياناً أخرى. وفي خلال ذلك يضيع كثير من التجار الصغار. وتُبتز أموالهم لصالح المضاربين الكبار.

ويدخل في نطاق السرقة أيضاً: المشروعات الاقتصادية الوهمية، التي تُجمع منها أموال الناس بدعايات مغرية، يتضح فيما بعد أنها أنواع من النصب تهدف إلى السرقة.

ويدخل في مثل هذا النصب، الوعد بتدبير عمل خارج البلاد، وتدبير السفر بالغش، وأخذ أموال مقابل ذلك. وينتهي الأمر إلى لا شيء!!

★★ ومن أنواع الغش في غير مجال التجارة: الغش في الزواج: كأن يتزوج إنسان فتاة على أنها بِكر، ويكتشف أنها غير ذلك. وأمثال هذه الزيجة تنتهي غالباً إلى البطلان. ومن الغش في الزواج أيضاً بعض أمور مالية عديدة ليس مجالها الآن.

وهناك أنواع من الغش تدخل في مجال الطب. مثل سرقة الأعضاء. كأن يسرق جراح عضواً من مريض لاستغلاله في علاج مريض آخر. وهذا أمر نادر. ولكنه يحدث أحياناً.

ومن الخطورة أيضاً الغش في الدواء وخصوصاً إذا كانت تتوقف على ذلك حياة إنسان. مثال ذلك ما يُنقل إلى جسد المريض من دم ملوث على أنه دم سليم مفيد! أو يتناول أدوية تكون فاقدة للعنصر الأساسي فيها الفعالة ... إن الغش في الدواء الذي يؤثِّر على حياة الإنسان يجب أنِ يكون القانون حازماً جداً في معاقبته. لأنه يختلف جوهرياً ومصيرياً عن الغش في إحدى السِّلع.

★★ وهناك سرقة أيضاً يقع فيها المشتري وليس البائع. وذلك عن طريق التَّشدُّد الزائد في الثمن لكي يأخذ بأرخص ما يمكن. وقد يكون ذلك مع بائع فقير في احتياج أن يبيع بضاعته بأي ثمن من أجل أن يحصل على قوته الضروري. إن كثيراً من المساومات مع الباعة الفقراء تدل على قساوة في قلب المُشتري.

١٣ ديسمبر ٢٠٠٩

الكذب: أنواعه وأسبابه

الكذب هو حل سهل يلجأ إليه الضعفاء وغير الأذكياء. وكثيراً ما ينكشف. فيلجأ الكاذب إلى كذبة أخرى يُخفى بها الأولى. وهكذا يدخل في حلقة مفرغة من الأكاذيب لا تنتهي ... والكذب دليل على الخوف وعلى ضعف الشخصية. أما الإنسان الصادق فهو شجاع، يتحمل مسؤولية أعماله.

والكاذب لا يثق أحد بكلامه. حتى إن قال صدقاً يشك الناس في صدقه. وقد يلجأ إلى القسم ليثبت قوله، فيشك الناس في أقسامه أيضاً ... كلامه فقد هيبته.

فالكذب خطية مزدوجة، تخفي وراءها في الغالب خطية أخرى. أنه غطاء لخطية سابقة، أو حيلة لخطية مقبلة. لذلك فالمرشد الروحي الذي يُعالج الخطية عند الكاذبين، عليه أن يسألهم ما هى الخطية الأخرى التي دفعتهم إلى الكذب.

★★ والكذب قد يكون مباشراً أو غير مباشر. لذلك فإن ناقل الكذب يعتبر كاذباً، وشريكاً في الكذب ونشره. ويدخل تحت هذا العنوان مروجو الإشاعات الكاذبة. وقد يقع في هذا الأمر أيضاً البسطاء الذين يصدقون كل ما يسمعونه، ويتكلمون عنه كأنه حقيقة، دون فحص وتأكيد. وفي الحقيقة لا نستطيع أن نسمي هذه البساطة بمعناها الدقيق، بل هى سذاجة.

★★ من أجل هذا نقولها نصيحة لكل إنسان من هؤلاء: لا تصدق كل ما يقال، ولا تحكم بدون تحقيق. فلو كنا نعيش في عالم مثالي، لأمكن أن نصدق كل ما يقال. ولكن ما دام الكذب موجوداً في العالم، فيجب علينا أن نحقق وندقق قبل أن نصدق. فمصدر الخبر الذي يصل إلينا قد يكون جاهلاً حقيقة الأمر، أو على غير معرفة وثيقة أكيدة بما يقول. أو قد يكون مبالغاً فيما يسرده من أخبار. أو أن مصادره التي استقى منها المعلومات غير سليمة. أو قد يكون غير خالص النية فيما يقوله، وله أسباب شخصية

تدفعه إلى طمس الحقائق، أو إلى الدس والإيقاع بين الناس. أو له رغبة خاصة في إيذاء شخص معين أو جماعة معينة. وقد يكون أحد المتكلمين مجرد محب للفكاهة، يقول كلاماً بقصد المزاح ليرى ما مدى تأثيره. أو قد يكون محباً للإثارة، ويفرح بأن يُعلن خبراً مثيراً.

ولا يصح أن يكون الإنسان سمّاعاً، يصدق كل ما يسمعه. أو أن يكون توّاقاً لسماع الاتهامات الباطلة، أو أن يكون كالببغاوات التي تسمع دون أن تعقل مثلما قال الشاعر:

أثـر البهتـان فيـه وانطـوى الـزور عليـه
يـا لـه مـن ببغـاء عقلـه فـي أذنيـه

والذي يسمع الكذب ويقبله، إنما يشجع الكاذب على الاستمرار في كذبه. لذلك فخطية الكذب يشترك فيها ثلاثة: الكاذب، وناقل الكذب، وقابل الكذب.

حقاً ما أكثر الاتهامات التي توجه إلى أبرياء، وكلها كذب ودس ووقيعة. وللأسف تكون أمثال هذه التهم أحياناً محبوكة حبكاً عجيباً، حسب مهارة الشيطان في تدبير الشر.

لاحظ تطور الكلام في رحلته إلى أذنيك. إن كان نقل الكلام أي النميمة يسبب مشاكل فإن أخف الناس ضرراً من ينقلون الكلام كما هو، كما يفعل مسجل الصوت (أي الريكوردر) الأمين المُخلِّص الذي لا يزيد عن ما قيل شيئاً. ولكن غير الأمناء فأن ما يصل إليهم من الأخبار يضيفون عليه رأيهم الخاص واستنتاجاتهم وأغراضهم ويقدمون كل ذلك كأنه كلام مباشر قد وصل إليهم. فلهذا كثير من الأخبار عندما تصل إليك، تكون أخباراً مختلفة جداً عن الواقع.

★★ هناك أنواع أخرى من الكذب: منها من يذكر فقط أنصاف الحقائق، بأن يخفي النصف الأخر من الحقيقة الذي يمكن أن يعكس المفهوم السليم. ومن الكذب أيضاً الملق والمحاباة. أي المديح الزائد بدون وجه حق. ويزيد هذه الخطية بشاعة، إن كان صاحبها بوجهين، أي يتملق شخصاً في وجهه ويذمه في غيبته. والبعض قد يحابي أهل الموتى. فيمدح المتوفي مديحاً ليس فيه بشكل يتعب الحاضرين ويفقدهم الثقة في كلام التأبين.

ومن أمثلة الكذب أيضاً الظن السيئ، وأيضاً الرياء.

★★ هناك عوامل تزيد بشاعة الكذب: منها كلما كانت شخصية الكاذب كبيرة، أو كان موضع ثقة، بحيث يصدق كلامه بدون فحص! وتزيد بشاعة الكذب أيضاً كلما عظمت مكانة من تكذب عليه... ومن أمثلة الكاذبين أصحاب الرؤى الكاذبة والعرافة.

★★ يظن البعض أن الكذب يُنجي، ويلجأون إليه لإخفاء خطية معينة. ونصيحتنا لهؤلاء أن يلجأوا إلى طرق سليمة، عارفين أن حيل الكذب قصيرة، وغالباً ما ينكشف. ونقول لهم إن الشيء الذي تخاف أن تنكشف فيه، لا يصح أن تفعله. ولو صمت أن تكون صادقاً لاسترحت من خطايا كثيرة.

وقد يكون الكذب بسبب الإحراج أو الخوف أو إلحاح السائل. ونصيحتنا حينئذ أن السكوت أفضل من الكذب. لذلك اصمت، أو غيّر مجرى الحديث، أو اعتذر عن الإجابة، أو تكلم بالصدق في الحدود التي تستطيعها.

وقد يكون الكذب بسبب الكبرياء إخفاء للجهل! ولكن لا يضير الإنسان أن يقول أحياناً لا أعرف.

★★ وقد يكون سبب الكذب اضطرار وظيفة معينة، مثل المحامي الذي يدافع عن مذنب، أو الطبيب الذي يخدع مريضاً من جهة نوع مرضه. ونحن نريد المحامي النزيه الذي لا يقبل الدفاع عن متهم إلا إذا كان واثقاً من براءته. أما إن دافع عن شخص مذنب، فأنه يشرح العوامل المحيطة التي تخفف من الذنب دون أن يكذب. كذلك الطبيب لا يصح أن يخدع مريضه وهو على أبواب الأبدية فيفقده الفرصة للتوبة. أما إن كانت الأمراض تؤذيها الصراحة فالأمر يحتاج إلى لياقة وبشاشة وإلى عبارات رجاء، وإلى تحذير بصورة لا تحمل اليأس.

★★ ويقف أمامنا سؤال هل إخفاء بعض الحقائق نوع من الكذب؟! كلا فهناك أسرار للإنسان من حقه كتمانها، أو أسرار للآخرين ائتمنوه عليها ومن واجبه أن يحفظها مصونة.

٢٠ ديسمبر ٢٠٠٩

النمو في الحياة الروحية

يظن البعض أنهم قد وصلوا إلى الغاية، حينما يتوبون ويبتعدون عن ارتكاب الخطايا. ولكن البُعد عن الخطية، إنما يُمثِّل فقط الجهاد السلبي في الحياة الروحية. فماذا إذن عن الإيجابيات؟ ... إنها طريق طويل. فالحياة الروحية لا تقف مطلقاً عند حد. إنما سائرة باستمرار. تنمو في كل حين وتتقدَّم. وهكذا فإن حياة النمو هى إحدى خصائص ومعالم الطريق الروحي.

وقد شُبِّه الإنسان الروحي بالشجرة التي تنمو باستمرار - ولا تتوقف لحظة عن النمو. والشجرة تنمو بطريقة هادئة، ربما لا تلحظها وأنت تمر عليها كل يوم. ولكنها تنمو باستمرار - ويظهر نموها بعد حين.

★★ والإنسان الروحي ينمو في كل عناصر الحياة الروحية: ينمو في معرفة اللَّه، وفي مخافته ومحبته. وينمو في حياة النقاوة وفي الصلاة والتأمُّل .. والذي لا ينمو هو عُرضة للفتور، بل عُرضة إلى أن يرجع إلى الوراء.

★★ ولكن إلى أين يمتد الإنسان الروحي في نموه؟ إنه يصل إلى القداسة. ولا يقف عند هذا الحد، بل ينمو في القداسة حتى يصل إلى الكمال. والمقصود طبعاً هو الكمال النسبي، لأن الكمال المُطلَق هو للَّه وحده. إنما الكمال النسبي هو الكمال الذي يستطيع الإنسان أن يصل إليه، في حدود إمكانياته، ونسبة إلى ما وهبه اللَّه من نعمة ومعونة، وما تُحيط به من ظروف.

★★ وإن كنت لا تستطيع أن تصل إلى هذا الكمال النسبي، فمهما فعلت ومهما جاهدت في حياة الروح، قِف أمام اللَّه كخاطئ ومُقصِّر لأنك بعيد عن هذا الكمال المطلوب.

إنَّ الإنسان الذي يسعى إلى الكمال يُشبَّه بمَن يطارد الأفق: يرى الأُفق بعيداً في آخِر الطريق حيث تنطبق السماء على الأرض. فيذهب إلى هناك ليرى الأفق أمامه عند النهر. فيذهب إلى النهر ويرى الأُفق امتد إلى الجبل ... وهكذا إلى ما لا نهاية. فالإنسان

الروحي ينسى كل ما فعله من خير، لأنه يمتد إلى خير أسمى وأعلى، حتى يحب الرب الإله من كل قلبه ومن كل فكرِه، وبكل قوته. ومثل هذا الشخص الذي لا يوجد في قلبه سوى اللَّه - تبارك اسمه - ... هذا لا توجد أيَّة محبة أخرى في القلب تنافس محبة اللَّه ... فهل تشعر بذلك في قلبك؟ إنك تكون كذلك قد وصلت إلى مذاقة الملكوت وأنت على الأرض.

وإن كنت لم تصل، فلا تيأس ولا تحزن واعرف أن أطول طريق أوله خطوة. فابدأ إذن بهذه الخطوة، مهما كانت قصيرة ومهما كانت ضعيفة وفاترة. حينئذ حينما يرى اللَّه رغبتك في الحياة معه، سيُرسل لك معونات إلهية من عنده، وتفتقدك نعمته بكل قوة. واللَّه الذي عمل في القديسين والأبرار وأوصلهم، وهو قادر أن يعمل فيك أيضاً. لكن نعمة اللَّه العاملة ليست تشجيعاً لك على الكسل وعلى التهاون والإهمال. إنما النعمة تعمل فيك، وأنت تعمل بها ومعها. كُن جاداً في روحياتك. افتح قلبك لكي يملأه اللَّه، واحرص ألاَّ تفتحه لمحبة خاطئة. وكُن أميناً في القليل الذي تستطيعه، فيُقيمك اللَّه على الكثير الذي يُريده لك.

★★ على أن النمو في الحياة الروحية قد تُقابله عقابات كثيرة وأولها حروب الشياطين. فالشيطان لا يقف ساكتاً إن وجد إنساناً يمتد إلى قدام باستمرار في طريقه الروحي لذلك يقف ضده وهذا ما يُسمَّى أحياناً بحسد الشياطين. إنهم يحسدون مَن يسير في حياة البرِّ التي فقدوها. ومُحاربات الشياطين قد توقِف النمو عند البعض، وقد تُرجع البعض إلى الوراء. فإن تعرَّضت لهذه الحروب، لا تتضايق إنها شيء طبيعي. بل قاوِم واستمر في نموك، وثِق أن نعمة تُحيط بك أقوى من أعدائك الأشرار.

★★ ومن ضمن معوقات النمو الروحي: البيئة المُعطِّلة. لذلك تخيَّر أصدقاءك ومعاشريك ومُرافقيك في الطريق. فكما أن الصديق الصالح يجذبك معه إلى فوق، كذلك الصديق الشرير يجذبك إلى أسفل ويُعطِّل نموك.

نفس الوضع يحدث بين الأزواج. ولعلنا رأينا تأثير البيئة على لوط في أرض سدوم. إذن فالبيئة الخاطئة والضغوط الخارجية يُمكن أن تعطل الروحيات. لأن البار إذا انتصر عليها حيناً، فربَّما إذا ضغطت عليه فإنها تُعذِّب نفسه يوماً فيوم ولهذا احترس في

ممارستك الروحية من استصحاب أحد يمكن أن يعوقك. فابعد إذن عن الأشواك حتى ينمو زرعك المُقدّس دون أن تخنقه البيئة المحيطة. واذكر دائماً قول الشاعر:

متى يبلغ البُنيان يوماً تمامه ∴ إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

★★ مِمَّا يحارب النمو الروحي أيضاً: الاكتفاء في الروحيات. حيث يصل الإنسان إلى مستوى روحي مُعيَّن فلا يتقدَّم بعده ظاناً أنه وصل إلى نهاية المستوى دون أن يُفكِّر في تخطيه إلى ما هو أعلى. أو يحاربه الشيطان بأن ما فوق هذا المستوى هو لون من التَّطرُّف.

إنَّ الذي يقف نموه هو مُعرَّض للرجوع إلى الوراء. لذلك لا تكتفي مطلقاً بما أنت فيه. ولكن بحكمة ضع أمامك المستويات العُليا التي وصل إليها الأبرار، لكي يُحفزك ذلك إلى مزيد من الجهاد.

★★ هناك أسباب أخرى تعوق النمو الروحي منها إرشاد الخاطئ لأنه كما يقول المثل: "أعمى يقود أعمى، كلاهما يسقطان في حفرة"، لذلك لا تسمع نصيحة كل أحد، ولا تطلب الإرشاد إلاَّ من المختبرين. كما يقول الشاعر:

فخذوا العلم على أربابه ∴ واطلبوا الحكمة عند الحُكماءِ

★★ ومِمَّا يعوق النمو الروحي: التقليد الخاطئ حيث يحاول شخص أن يلبس شخصية غيره دون تمييز، ودون معرفة الفوارق بينهما من حيث الطبيعة والأسلوب. فرُبَّما ما يناسب شخصاً لا يناسب غيره. وقد يحدث ذلك حينما يريد الشخص أن يكون الشخص مُجرَّد صورة من مرشده.

★★ ومِمَّا يُعطِّل النمو الروحي: الاهتمام بالفضائل الظاهرة دون العُمق. فمقاييس الروحيات ليست بالكثرة، وإنما بالجودة. فلا يصح أن يفرح إنسان بكثرة الصلوات، دون أن يدرك ما تحمله الصلاة من صِلة باللَّه، ومن خشوع ومن عُمق وفهم لكل عبارة وما يليق بها من مشاعر. كما لا يجوز أن يهتم بالعفة من جهة الشكل الخارجي، وإنما بعفة القلب من الداخل في مشاعره وأحاسيسه.

★★ وقد يقف النمو الروحي بسبب الكبرياء. فإذا ما ارتفع القلب بسبب مستوى روحي وصل إليه الشخص حينئذ تبعد النعمة عنه لكي يشعر بضعفه فيتضع. فالنمو الروحي ليس هدفه الكبرياء، فإذا وصل إلى الكبرياء يسمح اللَّه أن يقف هذا النمو.

٢٧ ديسمبر ٢٠٠٩

الصلاح: ما هو؟ وما يُشجِّع عليه

الصلاح هو حياة البِرّ والفضيلة، وهو حياة الروح المنتصرة على شـهوات المـادة وشهوات الجسد. وصلاح الإنسان ينتُج من عمل اللَّه فيه عن طريق النعمـة والمعونـة، وأيضاً من استجابة الإنسان للعمل الإلهي.

★★ والصلاح يكون على نوعين: صلاح سلبي، صلاح إيجابي. والصلاح السـلبي هو البُعد عن الخطايا. كما يرد في الوصايا: لا تقتل، لا تزنِ لا تسـرق ... الـخ. أمَّـا الصلاح الإيجابي فتُمثِّله الوداعة والنقاوة والرحمة ومحبة اللَّه ومحبة الناس. والمطلـوب من الإنسان أن يسلُك في نوعي الصلاح كليهما. فيبتعد عن الخطايا، ويسـلك فـي كـل الفضائل الإيجابية. والإنسان الذي يسلك في كمال الصلاح، يشمئز من الخطية وينفر منها. فإن قلَّ صلاحه، يكون بينه وبين الخطية أخذ ورد. أمَّا إن فقد الصلاح تماماً، فإنـه يلتـذ بالخطية، ويستسلم لها، بل قد يسعى إليها.

★★ والذي يصل إلى حياة الصلاح، يأتي عليه الوقت الـذي فيـه لا يسـتطيع أن يخطئ. ومِثال ذلك أنه لا يستطيع أن يلفظ بكلمة نابية، ولا يستطيع أن يكذب بل يحتقـر نفسه إن فعل ذلك، وهو أيضاً لا يستطيع أن يقوم بأي عمل غير مُهذَّب ... وبالتالي كُلَّما نما في الصلاح، يجد أنه عموماً لا يستطيع أن يرتكب أيَّة خطية أيَّاً كان نوعها.

★★ هناك عيب من جهة السلوك في الصلاح أن يحكم الإنسان على بعض الخطايـا بأنها خطايا بسيطة!! فتكون النتيجة أنه يتساهل معها إذ لا يدرك خطورة ذلك! فالخطيـة هى الخطية سواء حكم الشخص عليها بأنها بسيطة أو كبيرة. فمع أنه توجد خطية أبشـع من خطية. ولكن كل منهما يتنافى مع الصلاح. فالإنسان الصالح لا يرتكب هذه ولا تِلك. بل في حياته الروحية يسلك بتدقيق. ولكي يسلك بتدقيق ينبغي أن يحيا في حياة الروح من جهة الرغبة أو العمل.

★★ هل الإنسان الصالح يدخل في صراع مع الخطية؟ نعم، المفروض فيه أن يُقاوِم الخطية حتى الندم مُجاهداً ضدها. إذن فالصراع مع الخطية أمر صالح يقود إلى الصلاح إذا انتصر الإنسان عليها.

على أننا ينبغي أن نُفرّق بين نوعين من الصراع ضد الخطية: صراع ضد الخطية التي تُحارِب الإنسان من الخارج. وهذا يحدث حتى للقديسين، نتيجة لحسد الشيطان وحروبه. وهو صراع لا يتنافى مع الصلاح، بل إنه يدل على بِرّ الإنسان وعدم قبوله للخطية التي تُحاربه. فالمُهم أنه لا يستسلِم لها بل يقاومها بكل قدرته مُجاهداً ضد الخطية. والنوع الثاني من الصراع أن يُصارِع الإنسان ضد خطية تأتيه من داخله، من قلبه، أو من فكره أو من مشاعره. وهذا يدل على أن الداخل لم يصل بعد إلى النقاوة أو إلى الصلاح. بل أنه يُجاهد لكي يصل إليه. إنه صراع صالح من قلب يريد أن يكون صالحاً.

إن الخطية بشعة. الأبرار يشمئزون منها. لذلك يحترس الخاطئ من ارتكابها أمام الناس الصالحين الذين يشمئزون منها إن ارتكبها أمامهم. لذلك يرتكبها في الظلام في الخفاء.

★★ إن كان الصالحون يشمئزون من الخطية، فكم بالأكثر الملائكة! لذلك حينما يرتكب إنسان خطية، فكأنما يطرد الملائكة من حوله. فالملاك الحارس لك يحاول أن يصدك عن عمل الخطية. فإن أصررت عليها، يبتعد عنك. وحينئذ ينفرد بك عدو الخير لكي يكمل طريقك معه. فإن كانت الخطية بشعة هكذا أمام الأبرار وأمام الملائكة، فكم بالأكثر تكون بشعة أمام اللّه الكُلي القداسة!!

★★ لذلك من بشاعة الخطية، أننا نرتكبها أمام اللّه. سواء أمام اللّه الذي يرانا ونحن نخطئ. أو أمام اللّه الذي يفحص أفكارنا ونحن نخطئ أو يعرف مشاعر قلوبنا إذا أخطأنا. والخطية أيضاً هى عصيان للّه وكسر لوصاياه، وبها نُحزِن السماء والملائكة. ولهذا كله فقطعاً أن الإنسان - أثناء ارتكابه للخطية - يكون قد نسى تماماً أنه أمام اللّه الذي يراه. ولهذا قال داود النبي عن هؤلاء الخطاة أنهم لم يجعلوا اللّه أمامهم. هؤلاء فعلوا الشر أمام اللّه، ولم يدركوا أنهم يفعلون ذلك أمامه. أمَّا الإنسان الصالح فإنه يشعر باستمرار أنه أمام اللّه فيخاف أن يُخطئ قدامه. لذلك فإن الذي يقول: " إني اعترف بخطاياي أمام اللّه

مُباشرة "! هذا قد نسى أنه ارتكب تلك الخطايا أمام اللَّه ولم يخجل! إنه محتاج أن يعترف بها أمام مَن يخجل منه فلا يعود إلى ارتكابها.

★★ هناك أشخاص يفقدون صلاحهم لأنهم يستغلون طيبة اللَّه ومراحمه بطريقة خاطئة. إن طيبة اللَّه ومراحمه ينبغي أن يوضع أمامها صلاح اللَّه وقداسة اللَّه ودعوته لنا إلى حياة القداسة والبِرّ. فإن طيبة اللَّه وطول أناته علينا وإمهاله لنا إنما لكي يقودنا كل ذلك إلى التوبة. فإن لم نتُب نتعرض لحكم اللَّه علينا.

★★ إن اللَّه تبارك اسمه، من أجل محبته للصلاح وقيادتنا إليه، وضع أمامنا إمكانيات كثيرة تقودنا إلى الصلاح، منها: إنه خلقنا من الأصل بطبيعة نقية جداً، بعيدة عن الشر، في عقل وفهم وفكر. فلمَّا سقط الإنسان وفقد نقاوته الأولى، وضع اللَّه فيه الضمير الذي هو صوت من اللَّه فينا: يحكم ويُشرِّع، يوبِّخ ويؤنب، ويقود إلى الخير، ويمنعنا من الخطأ، ويكون مرشداً لنا إلى الصلاح، ورادعاً عن الشر هذا إذا أطاع الإنسان ضميره... أما إذا خالف الضمير، فإنه يلقى منه توبيخاً مُرًّا.

★★ ومن أجل قيادتنا إلى الصلاح أرسل اللَّه لنا الأنبياء ووضع أمامنا الوصايا لكي تقودنا إلى الخير، إن كُنَّا باستمرار نتذكرها ونعمل بها. كما وهبنا أيضاً الرعاة والمُرشدين يضعون أمامنا وسائل الصلاح، ويمنعوننا عن أي طريق يخالفهما.

ومن أجل قيادتنا إلى الصلاح أرسل لنا اللَّه النعمة التي تُساعدنا على عمل الخير وتعيننا عليه. وهذه النعمة لا تقودنا فقط إلى صلاح أنفسنا، إنما تُساعدنا أيضاً في عملنا من أجل صلاح الآخرين.

ومن أجل قيادتنا إلى الصلاح أوجد اللَّه العقوبة. حتى نخاف من نتائج الخطية سواء على الأرض أو من جهة مصيرنا في السماء. ولقيادتنا إلى الصلاح قدَّم لنا اللَّه وعوداً جميلة لكل مَن يعمل الخير. إننا نشكر اللَّه الذي لم ينهي حياتنا ونحن في ساعة غفلة سالكين في الخطية. إنما سمح لنا أن نحيا حتى هذا اليوم مُعطياً إياناً فرصة أن نصلح أنفسناً، ونسلك حسب مشيئته، في صلاح.

٣ يناير ٢٠١٠

الأولوية لله

الإنسان الروحي يضع اللَّه الأول في كل اهتماماته وفي كل عمله ولا يسمح لأية اهتمامات أن تعوقه عن اللَّه ومحبته وتنفيذ وصاياه. بل لا يجعل أية اهتمامات تحظى بالأولوية في حياته. فهل أنت يا أخي لك اهتمامات أخرى؟ إنه حسب أولوياتك يكون حماسك ويكون عملك وتكون إرادتك.

★★ وسأضرب لك مثلاً: حينما تستيقظ من نومك كل يوم: من يكون أول شخص تكلمه؟ وماذا تكون أولى اهتماماتك؟ إن كنت إنساناً روحياً، فسيكون اللَّه هو أول شخص تكلمه في كل يوم. حيث تبدأ يومك بالصلاة، تشكر اللَّه الذي منحك يوماً جديداً. وتقول له: "هب لي يارب في هذا اليوم أن تفعل ما يرضيك. وأعطني القوة على ذلك وأرشدني طول هذا اليوم". غير أن غالبية الناس لا يفعلون ذلك. بل يقوم الإنسان من نومه ليغسل وجهه، ويفطر، ويعد ملابسه، ويستعد للذهاب إلى عمله كل ذلك دون أن يهتم بأن يبدأ اليوم بالصلاة أو بالقراءة الروحية أو بالتأمل. وحسب اهتمامه يكون تصرفه. والبعض يعتذر أحياناً ويقول: "لم يكن لي وقت للصلاة"! وهذا الكلام مرفوض وليس هو عذراً مقبولاً، وليس هو السبب الحقيقي. فلو أن هذا الشخص وضع الصلاة والتأمل في قمة اهتماماته، لأمكنه أن يجد لها وقتاً.

★★ يا أخي ليكن اللَّه هو الأول بالنسبة لك في كل يوم وفي كل عمل. فلكي يكون اللَّه هو أول من تكلمه في كل يوم، ليكن أيضاً هو أول من تختتم به يومك، فتصلي أيضاً قبل أن تنام لكي يحفظك اللَّه أيضاً في نومك. وليكن اللَّه أيضاً هو الأول في كل عمل تعمله. تُصلي ليمنحك اللَّه قوة ونعمة ويبارك يومك ويبارك عملك. ويباركك في دخولك وفي خروجك... فإن وضعت اللَّه في الأولوية باستمرار، فإنك لن تخطئ إليه. ذلك لأن اللَّه سيكون فوق كل رغباتك العالمية، وفوق كل لذة أرضية. ويكون اللَّه أمامك باستمرار،

والعالم خلفك. ذلك لأن الإنسان يخطئ إن لم يكن اللّه أمامه، ولم يسبق فيتذكره قبل كل سقوط...

★★ الوضع الطبيعي في تقييم كل اهتماماتك هو أن يكون اللّه أولاً، ثم الناس. وواجباتك الروحية نحوهم، وأخيراً تكون نفسك. وفي العهد القديم كانت هناك وصية هي وصية البكور، فكل ما يصل إلى الإنسان يضع باكورته أي أوله للّه سواء كان ذلك من خيرات أرضه، من نتاج غنائمه وبهائمه، ومن ثمار أشجاره بل حتى ابنه البكر كان يهبه لخدمة اللّه أيضاً. وحينما كان أي شخص يحصد ثمار الأرض، كان يقدم للّه أول حزمة من الحصيد. وهكذا كان اللّه يبارك له في كل شيء. أما الآن، فما أسهل أن يقدم الموظف أول مرتب له للّه وأول علاوة. كما يقدم الحرفيون أول ثمر عمل لهم للّه أيضاً فيبارك اللّه أعمالهم.

★★ وما دام محبة اللّه تكون هى الأولى حتى قبل محبة الابن، فإننا نرى عملاً مثالياً قام به أبونا إبراهيم أبو الآباء والأنبياء، حينما قدم ابنه ذبيحة للّه ولم يضع مشاعره القلبية الأبوية عائقاً أمام الوصية الإلهية. فكافأه اللّه بإحياء ابنه ومباركة نسله. وهكذا نجد الوصية التي تتابعنا وهى تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. ثم الوصية الثانية التي هى مثلها تحب قريبك كنفسك. وقريبك هنا تعني كل أخ لك في الإنسانية أي من نسل آدم وحواء.

★★ حتى النفس لا يكون لها الاهتمام الأول قبل اللّه. نقول هذا لأنه قد يصل اهتمام الإنسان إلى أن يرتبط بغرض ما محوره النفس. ويكون هناك الغرض لإثبات الذات ووجودها، أو لارتفاع الذات بطريقة ما. في سبيل الوصول إلى هذا الغرض، لا يهتم بالوسيلة ماذا تكون، روحية أو غير روحية. ولا يهمه أن تكون حيلاً بشرية أو عالمية أو طرقاً خاطئة. بل تركيز الاهتمام كله في الوصول إلى غرض النفس، حتى لو ضيع هذا الإنسان نفسه!! إن الإنسان الروحي يخرج من دائرة الذات لكي يهتم بالآخرين، ويهتم بهم بأسلوب روحي. لأنه بهذا يرضى اللّه الذي جعله في مقدمة اهتماماته.

★★ ويكون اللَّه أيضاً هو الأول من جهة الطاعة. إذ ينبغي أن يُطاع اللَّه أكثر من الناس. وصايا اللَّه أولاً وبعد ذلك كل ما يطلبه الناس. وبعد إذن كل رغباتنا وطلباتنا الخاصة. وكل طاعة للناس نجعلها في نطاق طاعة اللَّه. أما إن تعارضت معها، فينبغي أن يُطاع اللَّه أبونا. حتى القلب لا نطيعه ولا ننقاد لمشاعره. لأن القلب ينبغي أن يكون للَّه أولاً وقبل كل شيء. فإن خرجت مشاعره عن طاعة اللَّه، فإنها تفقد أهميتها.

★★ ينبغي أن يكون اللَّه أولاً في عناية الأسرة بأطفالها، فالذي نراه الآن، هو أن الأب والأم يجعلون اهتمامهما الأول من جهة تربية أطفالهما ورعاية مستقبلهم... فهم يهتمون بصحة أولادهم، وأكلهم وشربهم ولبسهم، وأيضاً بتعليمهم وإعدادهم لوظيفة لائقة، ثم بعد ذلك بتزويجهم. وكل هذا حسن وواجب. ويقول الأب بعد ذلك وتقول الأم أيضاً "أشكرك يارب أنني أديت رسالتي نحو أبنائي. وقد استراح ضميري من جهتهم". وللأسف لا تضع الأسرة اهتمامها الأول بالتربية الروحية ومصير الأبناء الأبدي!! فلا يعطونهم الغذاء الروحي اليومي، مثلما يعطونهم غذاءهم الجسدي!. وقد يكبر الطفل ويصير مشاكساً ومتعباً لأمه وأبية وهكذا يجنون ثمار الخطأ في عدم الاهتمام بحياته الروحية أولاً وقبل كل شيء.

★★ نسأل أيضاً عن حقوق اللَّه في مالك، من جهة العطاء الذي نقدمه للمحتاجين. قد يهتم البعض بكل إنفاقاته الأخرى، ويضع حقوق اللَّه في آخِر القائمة. إن بقي للَّه شيئاً، كان بها. وإن لم يبقى له شيء، نعتذر للَّه أو نؤجل حقوقه! وذلك بأن اللَّه ليس هو الأول فيما ننفقه من المال.

★★ كذلك في خدمة الشباب. قد نهتم بالأنشطة الكثيرة وليس بالعمل الروحي. فالنادي مثلاً: قد نهتم بمكانه وترتيبه، وما توجد فيه من ألعاب ومن أنشطة رياضية وتسليات. وقد نهتم بتنظيم الكارنيهات والمواعيد والمسابقات، وفرق التمثيل والكورال. ولا نهتم إطلاقاً بالعمل الروحي. وفي ذلك نجد النوادي، في ضوضاءها وفي أخطائها ولا تعطي الصورة الروحية النافعة!.

٧ يناير ٢٠١٠

السيد المسيح يدعو إلى الكمال

السيد المسيح له المجد كان يعلّم باستمرار، في كل مكان وفي كل وقت. وكانوا يدعونه "يا معلم" أو "أيها المعلم الصالح". وهو كمثالي في كل شيء، كان يدعو إلى المثاليات. وفي مقدمة ذلك كان يدعو إلى الكمال، إذ يقول "**كُونوا أنتم كَاملين كما أن أباكم الذي في السمَوات هو كاملٌ**" (مت ٥ : ٤٨).

★★ وطبعاً الكمال الذي يدعو إليه السيد المسيح هو الكمال النسبي، لأن الكمال المطلق هو للّه وحده لا غير...

والكمال النسبي نسميه كذلك. نسبة إلى ما عند الإنسان من مقدرة وإمكانيات، ونسبة لما يمنحه اللّه من معونة ومن قوة للسير في الطريق الروحي، وما يعطيه أيضاً من نعمة تساعده وتقويه. وكذلك نسبة إلى مدى تجاوب الإنسان مع عمل اللّه فيه، ومع عمل اللّه معه.

★★ وحياة الكمال الروحي تشمل علاقة الإنسان باللّه - تبارك اسمه - وعلاقته بالناس، وعلاقته بنفسه أو بذاته.

أما عن علاقة الإنسان باللّه، فقد لخصها بقوله: "**تُحبُّ الربَّ إلهَك من كلِّ قلبك، ومن كل نفسك، ومن كلِّ فكْرك**" (مت ٢٢: ٣٧). وعبارة "من كل قلبك"، تعني أنه لا يكون في قلبك أي منافس للّه. فلا تحب شيئاً ولا شخصاً ضد محبتك للّه، ولا أزيد من محبتك للّه. وفي ذلك يقول السيد الرب "من أحب أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني، فلا يستحقني".

★★ ومحبتنا للّه تعني أن نُطيعه في كل شيء. فهو يقول: "من يحبني، يحفظ وصياي". وإن حدث وكسرنا إحدى وصاياه، فعلينا بالتوبة سريعاً. فالتوبة هى شرط لازم لمغفرة اللّه لنا. فهو يقول: "إن لم تتوبوا، فجميعكم كذلك تهلكون".

ولكي ننال مغفرة اللَّه لنا، علينا أن نغفر أيضاً لمن أذنب إلينا. ونحن نقول في صلواتنا اليومية باستمرار: "اغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً لمن أذنب إلينا". وعلمنا السيد المسيح قائلاً: "إن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم".

★★ وفي محبتنا للَّه علينا أن نطلب في كل حين ملكوته. والسيد المسيح قد تحدث كثيراً عن ملكوت اللَّه، وملكوت السمَوات. وعلّمنا في صلواتنا اليومية - التي نرددها مرات عديدة كل يوم - أن نقول للَّه باستمرار "ليأتِ ملكوتك". وهذه الطلبة تعني العديد من المعاني: منها أن يأتي ملكوتك علينا، على قلوبنا وأفكارنا ومشاعرنا وحواسنا. فتملك أنت يارب كل ما فينا. وتملك! إرادتنا. ونكون كلنا لك، نفعل في كل حين ما يرضيك حسبما نقول هذه الطلبة دوماً في صلاة باكر.

وكلمة "ليأت ملكوتك" تعني أيضاً أن يملك اللَّه على العالم وما فيه. فلا يملك الشيطان وينشر الفساد واللهو والحروب والكروب والعداوت. بل اللَّه هو الذي يملك، فينشر في العالم السلام والمحبة والرخاء.

وكلمة "ليأت ملكوتك" تعني أن يملك اللَّه على سائر الناس، ويقودهم إلى حياة البر والفضيلة.

★★ ومن كمال محبتنا للَّه. الصلاة الحقيقية، التي ليست من الشفتين، بل من القلب. فإن اللَّه وبّخ الشعب قديماً قائلاً: "هذا الشعب يكرمني بشفتيه، أما قلبه فمبتعد عني بعيداً". لذلك ليس كل من يقول: "يارب يارب" يدخل ملكوت اللَّه، بل الذي يفعل مشيئة اللَّه.

وفي كمال الصلاة، قال السيد المسيح: "صلوا كل حين ولا تملوا" "صلوا بلا انقطاع". ومعنى ذلك أنه لا يقتصر الإنسان على صلوات معينة، ويكتفي بذلك! بل في كل حين يمكنه أن يرفع قلبه للَّه ويصلي...

★★ ومن كمال محبتنا للَّه، أن نؤمن به، ونؤمن بعنايته بنا، واهتمامه بكل أمورنا. فقال السيد المسيح له المجد: "لا تهتموا بما تأكلون وما تشربون... انظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يُقوتها. ألستم

أنتم بالحري أفضل منها" "ولماذا تهتمون بما تلبسون؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ا! لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده، كان يلبس كواحدة منها!!"... "اللَّه يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. اطلبوا أولاً ملكوت اللَّه وبره، وكل هذه تزدادونها"...

★★ أما الكلام المطلوب من الإنسان، فيقول السيد المسيح: "طوبى للأنقياء القلب" "طوبى لصانعي السلام".

والقلب النقي لا يوجد فيه شر أبداً، بل لا توجد فيه سوى محبة اللَّه، ومحبة الناس جميعهم. والقلب النقي لا تخرج من فمه كلمة خاطئة. وفي ذلك يقول السيد المسيح: "الإنسان الصالح: من كنز قلبه الصالح، يُخرج الصلاح. أما الإنسان الشرير فمن كنز قلبه الشرير، يُخرج الشرور.

إذن فالكلمة الشريرة، كلمة الإهانة والشتيمة، أو كلمة القسوة، أو كلمة التحقير، وما إلى ذلك... كل هذه مصدرها القلب. فهى خطية مزدوجة: خطية قلب ثم خطية لسان...

والسيد المسيح يحذر من خطايا اللسان، فيقول: "بكلامك تتبرر، وبكلامك تدان". ويقول أيضاً: "كل كلمة بطالة تخرج من أفواهكم، تعطون عنها حساباً في يوم الدين". وعبارة "كلمة بطالة لا تعني فقط الكلمة الشريرة، بل تعني أيضاً كل كلمة ليست للبنيان، أي لا تنفع بشيء...

★★ أما قول السيد المسيح: "طوبى لصانعي السلام" فتعني أن يكون بيننا وبين الآخرين سلام. وأيضاً أن نصنع سلاماً بين الآخرين بعضهم بعضاً. وأتذكر أنني كلما كنت أزور بيتاً من بيوت أبنائنا في الغرب، كانت أول كلمة لي، وأنا أخطو أول خطوة، هى: قال ربنا يسوع المسيح: أي بيت دخلتموه، فقولوا سلام لأهل هذا البيت...

★★ ولكي نصل إلى كمال السلام مع الناس، وضع لنا السيد المسيح قاعدتين: أولهما الاحتمال والتسامح، والثانية هى المغفرة للمسيئين. وفي ذلك قال لنا: "سمعتم أنه قيل للقدماء: عين بعين، وسن بسن. أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر... بل من أراد أن يخاصمك أو يأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخّرك ميلاً، فأمشي معه اثنين.

★★ ولعل من أكمل الوصايا التي قدمها السيد المسيح من جهة التعامل مع الأعداء أو المسيئين، هى قوله: "أحبوا أعداءكم، باركوا لاعينكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم... لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم، فأي أجر لكم؟! أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك؟!.

إن المسيحية تعتبر أن عدونا الحقيقي هو الشيطان أما الأعداء من البشر، فهم ضحايا للشيطان يحتاجون أن نُصلي من أجلهم، ونحتملهم ونغفر لهم...

★★ ومن كمال الوصايا التي وضعها السيد المسيح في التعامل مع البشر، هى وصية العطاء، التي تسمى أحياناً بالصدقة. فقال: "من سألك فأعطه. ومن أراد أن يقترض منك، فلا ترده". وهكذا رفع الناس من مستوى دفع العشور، الذي كان في العهد القديم، واعتبره السيد المسيح مجرد الحد الأدنى للعطاء. وأمر بوصية الاهتمام بالجائع والعطشان والعريان، والغريب والمسجون. وقال: "مهما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي قد فعلتم" (متى ٢٥). ورفع مستوى العطاء إلى الكمال في قوله: "ليس حب أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه عن أحبائه".

★★ ومن أجل تعليم السيد المسيح في العلاقات مع الناس، هى قوله: "مهما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا أنتم بهم". وقوله أيضاً: "بالكيل الذي به تكيلون، يُكال لكم".

فهذا هو الوضع الأصيل والكامل في التعامل: أن نعمل مع الناس ما نشتهي أن يعملوه معنا...

★★ ومن كمال ما يريده السيد المسيح في علاقاتنا مع الأمور العالمية والمادية، هى قوله: "ماذا ينتفع الإنسان، لو ربح العالم كله وخسر نفسه!! أو ماذا يعطي عوضاً عن نفسه؟! إن العالم كله. لا شيء بالنسبة إلى مصيرنا في الأبدية.

ختاماً أهنئكم بهذا العيد، راجياً لكم فيه حياة روحية سعيدة، وراجياً لبلادنا الخير والرخاء والسلام. وراجياً أن يوفق الله السيد الرئيس مبارك في كل اتصالاته وأسفاره، وتعبه من أجل مصر ومن أجل قضية السلام عامة.

١٠ يناير ٢٠١٠

ما يُرى، وما لا يُرى

كل الأمور التي تُرى هى أمور وقتية، تعيش في وقت معين، ثم تنتهي أو تزول، مثل المادة والعالم والجسد أما الأمور التي لا تُرى، أي غير المرئيات، فإنها أبدية لا تزول. فما هى إذن المرئيات؟ وما هى غير المرئيات؟...

★★ من الأشياء التي لا تُرى، الأبدية، أي الحياة في العالم الآخَر. والذي يفكر في أبديته، إنما بالطبع يفكر في غير المرئيات، أي في ما لم تره عين، وما لم تسمع به أذن، وما لم يخطر على بال إنسان. سعيد ومبارك هو الذي يفكر في الأبدية. إنه بلا شك سوف يعدّ نفسه لها. وبالتالي سوف يبتعد عن كل ما يمنع تمتعه بها، وأقصد ذلك التمتع بالأمور التي لا تدخل تحت مستوى الحواس، وما فيها من فرح لا يُنطق به وعجيب. وهو فرح دائم، لا يستطيع أحد أن ينزعه منا.

وفي الأبدية توجد أيضاً المتعة بعشرة اللّه الذي هو أيضاً في عالمنا يرانا ونحن لا نراه... فليتنا ننشغل باللّه الذي نعدّ أنفسنا للحياة في الأبدية، حيث تكون السعادة التي هى فوق إدراكنا...

★★ وفي الأبدية سوف نرى الملائكة الذين يحيطون بنا هنا، ونحن لا نراهم بعيوننا هذه المادية. وكذلك سوف نرى أرواح الأبرار القديسين من البشر الذين سبقونا إلى العالم الآخر... أما الآن، فإننا ننظر إلى كل هؤلاء بالروح وبالإيمان. ونستحي من حضرتهم بيننا، إن فعلنا خطية...

★★ الروح أيضاً هى من الأشياء التي لا تُرى. أما الجسد فإنه من المرئيات. لذلك فإن الشخص الروحي المحب للّه، لا يعيش ناظراً باستمرار إلى الجسد وطلباته، إنما بالأكثر إلى الروح، فيهتم بها وبغذائها الروحي، وبمصيرها الأبدي، وبما يربطها باللّه ويجعلها دائماً معه.

★★ والذي ينظر دائماً إلى غير المرئيات، فإنه يهتم بالمعنويات، وبالإيمان، وعمل الخير. والإنسان الذي يعيش في الإيمان، إنما ينظر دائماً إلى ما لا يُرى، وإلى الأبدية التي يشتاق إليها وهو لا يراها.

وفي كل أمورنا، ننظر إلى قوة اللّه غير المنظورة العاملة معنا، ولا ننظر إلى ضعفنا الظاهر والمشاكل التي أمامنا... إن موسى النبي لم ينظر إلى البحر العظيم الذي يراه أمامه، وإنما إلى قوة اللّه غير المرئية، التي تستطيع أن تشق البحر له بعصاه.

★★ ننتقل إلى الحديث عن المرئيات: لا شك أن في أولها المادة. والمادة وقتية، لا تدوم إلى الأبد بل تزول. إن لم نفارقها نحن، فهي ستفارقنا. ومهما كنزنا لنا كنوزاً من الماديات أموالاً وعقارات وحسابات في البنوك... فإننا سوف لا نأخذها معنا حينما نفارق هذا العالم. فخير لنا إذن أن نكنز لنا كنوزاً في السماء. فإنها ستبقى لنا حيث نلقاها هناك. وتلك الكنوز السمائية هي كل خير نعمله على الأرض، وكل إحسان نعطيه للغير.

★★ ومن الأشياء الوقتية أيضاً، هذا العالم الحاضر الذي سوف يزول وشهوته معه.

ومن هنا وجدنا أن الرهبان والنساك قد بدأوا حياتهم الروحية بالموت عن العالم أو بالبعد عن العالم. ولعل البعض منكم يسأل: ماذا أفعل أنا عملياً: كيف اترك العالم وما فيه من المادة، وأنا أحيا في العالم؟ أقول لك: عش في العالم، ولكن لا تجعل العالم يعيش فيك. يمكنك أن تملك المادة، ولكن لا تجعل المادة تملكك. تعيش في العالم، دون أن تجعله يدخل إلى قلبك، وإلى فكرك ومشاعرك. تستعمل ما فيه من مادة. وأنت متحرر في الداخل من سيطرتها ومن محبتها.

وكل ما تفقده من أمور العالم، لا تحزن عليه، لأنه سوف لا يصحبك في اليوم الأخير. وردد باستمرار هذه العبارة: "ماذا ينتفع الإنسان، لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟!

★★ والإنسان الروحي الذي لا تملكه محبة الماديات. يعيش بلا شك سعيداً ويتحرر من الشهوة ومن الخوف. وفي ذلك قال القديس أُغسطينوس: "جلست على قمة العالم، حينما أحسست في نفسي أني لا أشتهي شيئاً ولا أخاف شيئاً". فالإنسان الذي ارتفع فوق

مستوى الماديات، هو حصن منيع لا ينهدم. إنه فوق العالم، وفوق الجسد أيضاً. أليس الجسد المادي كذلك هو من الأمور المادية الزائلة. إذ سيأتي وقت سننطلق منه، ويأكله الدود، ويتحول إلى تراب!!

إذن عش في الروح، واهتم بها. فالروح من الأمور التي لا تُرى. وبالروح تخلص من شهوات الجسد. أما الأمور المرئية فلا تهتم بها، ولا تسبب لك هماً. وفي قمة هذه الأمور، المال. والعيب ليس هو في المال، ولكن في محبته. ذلك لأن كثيراً من الأغنياء صنعوا به خيراً. والبعض أعطى كل ماله للفقراء كالقديس أنطونيوس مؤسس الرهبنة. إذن استعمل المال، ولكن لا تتكل عليه، ولا تصل إلى الكبرياء بسببه. واكنز به لك كنوزاً في السماء... ولا تظن أن كثرة العطاء للفقراء والمحتاجين، إنما تقلل مالك. كلا، بل هي تمنحه بركة فيزداد.

★★ هناك نقطة هامة في تمييز غير المرئيات على المرئيات، وهي ما نراه في قصص الشهداء القديسين. وكيف أنهم تقدموا إلى الموت، غير ناظرين إلى العالم وكل ما فيه من متع أرضية مؤقتة، ورافضين الإغراءات التي عُرضت عليهم. ذلك لأنهم كانوا مركزين كل اهتمامهم في الحياة التي بعد الموت، الحياة الأبدية التي لا تُرى. ولكن فيها كل البركة وكل السعادة. وأيضاً كانوا لا ينظرون إلى الملكوت الأرضي، بل إلى الملكوت السماوي الذي لا يرونه بالعين المادية، لكنهم يرونه بالإيمان.

حقاً إن النظر إلى ما لا يُرى، يُنجي العالم من كل المذاهب المادية، ومن كل الاتجاهات الإباحية غير الأخلاقية.

١٧ يناير ٢٠١٠

العمق: أهميته وفاعليته

ونعني به العمق في كل شيء: العمق في الصلاة، وفي التوبة، وفي العبادة عموماً، وعمق الكلمة وتأثيرها، وعمق الخدمة، وعمق العطاء، وعمق الإيمان، وعمق المحبة والصداقة، وعمق الشخصية بصفة عامة.

★★ فمن جهة الصلاة كثيرون يصلون، ولكن ليس كل إنسان يُصلي بعمق وتكون صلاته مقبولة. وهنا يعجبني قول المرتل: "من الأعماق صرخت إليك يارب" يقصد صرخت إليك من عمق القلب والعاطفة، من عمق الاستغاثة، وأنا في عمق ضعفي وعجزي وعدم قدرتي. من عمق قلبي طلبتك. من عمق الإيمان والثقة بأنك ستستجيب.

فليس المهم إذن في طول الصلاة وإنما في عمق المشاعر التي فيها. والصلاة التي بعمق فيها شعور بالصلة باللَّه. وهى صلاة بعاطفة وبفهم وتأمل وتركيز، صلاة بحرارة، وبإيمان... صلاة بروح وليست مجرد ألفاظ. فليس المهم في الصلاة مقياس الطول، بل مقياس العمق. هكذا ينبغي أن تكون صلواتنا، ونحرص أن تخرج من أعماقنا.

★★ ومن أمثلة الصلاة التي بعمق، صلاة إنسان مريض بمرض خطير، وهو في ساعاته الأخيرة وعلى حافة الموت. أنه حينما يُصلي فمن أعماقه يتطلع إلى أبديته كيف تكون، أنها صلاة مصيرية لذلك تقال بعمق.

★★ إن عملاً واحداً من أعمال الخير يعمله الإنسان بعمق، ربما توزن حياته كلها. ويبقى هذا العمل خالداً، ويسجل في التاريخ من أجل عمقه.

مثال ذلك العمق الذي قدم به أبونا إبراهيم ابنه كمحرقة أمام اللَّه. إنه كان في تقدمته هذه في عمق المحبة للَّه، وفي عمق الطاعة له، وفي عمق التسليم للإرادة الإلهية. كان في أعماق شعوره يحب اللَّه أكثر من ابنه الذي ناله بعد صبر سنوات طويلة.

ومن أمثلة العمق في العطاء أيضاً من يقدم عشور أمواله إلى اللَّه، وهو في منتهى العوز والاحتياج، أو يقدم بكور مرتب كان ينتظره منذ زمن ليسدد ديونه... ومن عمق العطاء أيضاً من يقوم بخدمة غيره أو إعانته في أهم أيام الامتحانات، وهو في حاجة إلى كل دقيقة... أو الذي يقدم أحد أعضاء جسده، تبرعاً لمريض محتاج إليه، حباً في هذا المريض وإشفاقاً عليه... ومن عمق العطاء أيضاً الذي يستدين ليعطي إنساناً معوزاً.

★★ أما من جهة العمق في الخدمة، فنذكر أولئك الذين ذهبوا إلى بلاد شعبها من أكلة لحوم البشر، لكي يدعوهم إلى الإيمان.

وهناك أمثلة عديدة لأشخاص أبرار كانت لهم خدمات عميقة، وهم لم يكونوا من رجال الدين، ولا ممن يعظون على المنابر. بل كان لهم العمق في العمل الفردي، وكان كل من يلتقي بهم يجذبونه إلى محبة اللَّه، ويلهبون قلبه بكلمات النعمة التي تخرج من أفواههم.

ومن أمثلة ذلك الذين يخدمون في حل المشاكل العائلية، بكل تعب وعمق ومثابرة. وقد يقضي الواحد منهم أياماً طويلة، يسهر ويحاور ويقنع لكي يدخل سلام اللَّه إلى البيت وتحل المشاكل.

ومن أمثلة الذين يخدمون بعمق، أولئك الذين يعملون كل الجهد لجذب الأولاد المتسكعين في الشوارع أو في المقاهي أمام دور اللهو، ويحولونهم إلى أشخاص صالحين.

★★ ومن أمثلة العمق: عمق الكلمة التي تأتي بفاعلية كبيرة. مثال ذلك إنسان يكلمك بكلمة نصيحة أو حتى كلمة تحذير. فتلمس هذه الكلمة قلبك، ولا تفارق ذهنك إطلاقاً. تتمشى معك في الطريق، وتصاحبك في نومك وفي صحوك. وتعمل فيك عملاً كثيراً. إنها كلمة قد خرجت من العمق، ووصلت إلى العمق. وكان لها تأثيرها وفاعليتها وقوتها. وأصبحت تعمل عملاً عميقاً مثلها.

★★ العمق في العبادة. كثيرون يهتمون بالمظهر الشكلي في العبادة دون عمقها. فقد يقوم الإنسان بصوم يرهق فيه جسده، ولكن بغير عمق في العمل الروحي أي في

الانتصار على النفس وفي ضبط الإرادة والحواس والفكر. ولا يكون لهذا الصوم أي تغيير في حياته وطباعه وأخطائه. أما الذي يصوم بعمق روحي، وتصوم نفسه مع جسده، فهذا ينجح في حياته الروحية.

كذلك نفس الوضع بالنسبة للقراءة الروحية وعمقها وتأثيرها. فليس المهم أن تقرأ كمية كبيرة. وإنما ما تتركه هذه القراءة في نفسك من عمق وتأثير. ما أعجب الذين يكونون من علماء عصرهم في الكتب المقدسة، ولكن ليس لهم عمق فيها، لا في الفهم ولا في التطبيق، ولم يستفيدوا شيئاً.

★★ من جهة العمق في التوبة: نقول أن كثيرين تابوا ورجعوا كما كانوا، لأن توبتهم لم تكن بعمق. أما الذين تابوا بعمق، فقد كانت التوبة نقطة تحول مصيرية في حياتهم. لم يعودوا إلى الخطية مرة أخرى. بل تدرجوا من التوبة إلى النمو في حياة البر حتى وصلوا إلى درجات عالية من السمو الروحي.

إن الذين لهم خطايا يكررونها، لم يتوبوا بعد. والذين لا تصحب توبتهم مشاعر الانسحاق والندم، والشعور بعدم الاستحقاق، هؤلاء ليس لهم عمق في التوبة، وما أسهل رجوعهم إلى الخطية.

من جهة العمق في الصداقة والحب. قد يوجد صديق لك تدوم صداقته أعواماً طويلة. ثم بسبب نقطة معينة أو وشاية، أو خبر غير صحيح قد سمعه، ينقلب ويتغير لأن صداقته لم تكن بالعمق الكافي ولا بالمحبة العميقة. أما المحبة العميقة فهي مثل محبة الأم لرضيعها. وأعمق مثال للمحبة، المحبة التي تبذل حتى ذاتها.

★★ أما من جهة عمق الشخصية، فنقول إن الشخصية العميقة لها عمق في التفكير والتدبير، وعمق في الذكاء والفهم. الشخص منهم له ذكاء شمولي، يشمل كل شيء. إذا بحث موضوعاً، يفكر فيه من جميع زواياه، ويعمل حساباً لكل النتائج وردود الفعل. وإذا تكلم يتكلم بعمق. وكل مسؤولية تعهد إليه، يتناول كل شيء فيها بعمق. وكذلك التلميذ الذي يذاكر بعمق، فأنه يذاكر بفهم وتركيز، وبعقل منتبه، لا ينسى. ليس المهم عنده عدد ساعات مذاكرته، إنما عمق الفهم والحرص.

٢٤ يناير ٢٠١٠

محبة الخير ومحبة الغير

الخير في معناه الإيجابي هو البر والفضيلة والنقاوة. وفي معناه السلبي هو البعد عن الخطأ بكل معانيه وتفاصيله.

ونحن حينما نتكلم عن الخير في حياتنا لا نقصد إطلاقاً مجرد عمل الخير، وإنما محبة الخير. فاللّه تبارك اسمه لا يهمه الخير الذي نعمله مضطرين أو مجبرين. كما لا قيمة للخير الذي نبغي من وراءه مديحاً أو مجداً من الناس أو إعجاباً. لأننا في هذه الحالة يكون حبنا هو للمديح والإعجاب وليس للخير. كما أننا ننال أجراً على ما فعلناه هنا على الأرض. وأحياناً قد يفعل الإنسان الفضيلة أو الخير خوفاً أو خجلاً من انتقاد الناس، أو اتقاءً للعقوبة، أو حفظاً لسمعته، أو مجاملة، أو مجاراة للمجتمع، أو رياءً... بينما تكون محبة الخطية في أعماقه. إذن أهم ما نريده هو محبة الخير.

★★ إن الخير مصدره هو اللّه القدوس الذي يدعو إلى الخير، ويساعد الناس على عمله. لذلك إن ابتعدنا عن اللّه، تبتعد طبيعتنا عن الخير. كما أننا إذا ابتعدنا عن الخير نكون قد ابتعدنا عن اللّه.

إن الذي يحب الخير، سيجد أنه قد ارتفع فوق مستوى الصراع مع الخطية. فالمرحلة التي يشتهي فيها الجسد ضد الروح، وتشتهي الروح ضد الجسد، هي مرحلة خاصة بالمبتدئين الذين يجاهدون ضد الجسد غير الخاضع للروح. أمَّا الجسد النقي البار الذي يحب الخير، فهو لا يشتهي ضد الروح. بل إن الروح البارة هي التي تقود جسده نحو الخير.

الذي يحب الخير يُجاهد لكي يغصب نفسه على حياة الفضيلة. فما دام هو يحب الفضيلة، طبيعي أنه لا يغصب نفسه عليها. هذا البار قد أصبح الخير جزءاً من عناصر نفسه، يفعله تلقائياً كشيء عادي طبيعي لا يبذل فيه جهداً. يصير الخير في حياته كالنَّفس

الذي يتنفَّسه، دون أن يشعر في داخله أنه يفعل شيئاً زائداً أو عجباً. لـذلك فهـو أيضـاً لا يفتخر أبداً بهذا الخير، باعتباره شيئاً عادياً بالنسبة إليه.

ومحبة الخير توصل الإنسان بالطبيعة إلى محبة اللَّه الذي هو مصدر كل خير. فيحب اللَّه، ويحب وصاياه، ويحب نعمته التي تُشجِّع دائماً على عمل الخير ... هـذا بعكـس الخاطئ الذي يحب الخطية، ولا يستطيع أن يحب اللَّه معها في نفس الوقت. لأنه لا شركة بين النور والظلمة، ولا خلطة بين البر والإثم. مثال ذلك الوجوديون الذين يظنون أن اللَّه يُعطل ممارستهم لشهواتهم. فينكرون وجود اللَّه الذي يدعو إلى الخير ويعاقب على تلـك الشهوات.

★★ إن الخير هو الأصل في طبيعتنا البشرية، قبل أن نعرف الشر. الشر دخيـل على طبيعتنا. ونحن حينما نحب الخير إنما رجوع إلى الطبيعة البشرية التي خلقنا اللَّه بها وأيضاً نستعد للمصير الذي نصل إليه في الأبدية. وفي محبتنا للخير لا يكون لنـا جهـاد للوصول إليه. إنما يكون جهادنا في النمو في حياة الخير، والتدرج للوصول إلى خير أكبر ثم أكبر.

★★ وفي محبتنا للخير، نحب أن نوصل هذا الخير إلى الغير. ونقصد بالخير كـل أخ لنا في البشرية أياً كان نوعه أو لونه، وأياً كانت علاقتنا بهذا الغير. سواء كان صديقاً لنا، أو عدواً، أو مقاوماً، سواء كان باراً أو خاطئاً. البار نحبه من أجل قدوته الصـالحة. والخاطئ نحبه مصلين من أجله أن ينقذه اللَّه من أخطائه ويقوده إلى الخير. ومحبتنا للناس توصلنا إلى محبتنا للَّه. لأنه إن كان أحد لا يحب أخاه في البشرية الذي يبصـره، فكيـف يقدر أن يحب اللَّه الذي لم يبصره؟!

★★ لذلك يا أخي القارئ إن أردت أن تحب اللَّه، ابدأ أولاً بمحبتك للنـاس. أخـدم الناس، ساعدهم، احترمهم، ابذل نفسك عنهم، أعطِ من قلبك حباً لكل المحتاجين إلى الحب. أعط حباً للأطفال، للعجزة والمسنين، للأيتام، للمحتاجين والفقراء للمعوقين، للذين ليسـوا لهم أحد يذكرهم. فإن أحببت كل هؤلاء ستجد أن محبة اللَّه قد دخلت إلـى قلبـك بقـوة،

وستجد أيضاً أنك ترفع قلبك إلى اللّه ليساعدك على خدمتهم ومحبتهم، وأنك تشكره إذ قدم لك احتياجاتهم لتعطيهم.

أنت تحب الغير لأنه رعية اللّه. وتحبه لأنه يحبهم ويساعدك على محبتهم.

وحينما تحب الغير احرص أن تكون محبتك له محبة طاهرة نقية، ومحبة عملية. فلا تحب بالكلام أو باللسان بل بالعمل والحق. وفي محبة الغير احترس من المحبة الخاطئة التي تسبب ضرراً. ولتكن محبتك للغير محبة عادلة. ولا تكن محبتك له محبة الاستحواذ، أي المحبة التي تحبس محبوبها في حيزها الخاص. فالذي يحبس عصفوراً في قفص لكي يتمتع وحده بتغاريد العصفور.

وفي محبتك للغير عليك أن تحتمله في أخطائه وفي ضعفاته وفي نقائصه. وتحتمل التعب من أجل الغير. وثق أنك ستنال أجرتك من اللّه حسب تعبك في محبة الآخرين وفي خدمتهم وفي قيادتهم إلى الخير.

★★ ومحبة الغير تظهر أيضاً في المحبة الروحية التي تظهر في الرعاية وفي التعليم وفي الإرشاد، وفي حل مشاكل الناس، والتعب في إقناعهم بالسلوك السوي، والصلاة من أجلهم. والمحبة شجرة ضخمة كثيرة الثمار. ومن نوع ثمرها نعرف قيمتها ودرجتها.

★★ ومن جهة محبتنا للخطاة، لا يجوز لنا أن نحتقر هؤلاء الخطاة أو نوبخهم ونتهرهم، بل نقودهم بوداعة وحنو إلى التوبة. ونجاهد لأجل الساقطين لكي يعودوا إلى اللّه.

وفي محبتنا العملية، لا نكتفي بمجرد الإشفاق، أو إلقاء النصائح وإنما نبذل جهداً عملياً لسد احتياجات الناس، سواء كانت مادية أو معنوية.

وبمحبتنا للخير ومحبتنا للغير، نصل إلى نقاوة القلب وبذل الذات لأجل الآخرين.

٣١ يناير ٢٠١٠

نقاء القلب، وكمال التوبة

كمال التوبة ليس هو مجرد عدم فعل الخطية، إنما هو كراهية الخطية. أي أن القلب يكون قد تنقَّى تماماً من كل محبة للخطية أو تجاوب معها. وهكذا يكون القلب نقياً. إذن فالتوبة الكاملة هي علامة على نقاء القلب. ولكن ما هو المقياس الذي يثبت كمال التوبة؟

★★ قد يظن إنسان أنه تائب، بسبب أنه ترك الخطية الرئيسية التي تتعب ضميره، ولم يعد يسقط فيها الآن. أي أنه لم يعد يزنِ مثلاً، أو يسرق، أو يغش، أو يسكر، أو يرتشي. ولم يعد يرتكب خطايا في هذا المستوى. لذلك استراح ضميره، وظنَّ أنه تاب...! وربما في نفس الوقت يكون واقعاً في خطايا كثيرة يعتبرها طفيفة، ولا تدخل في مقاييسه الخاصة بالتوبة. مثل الحديث بافتخار عن النفس، والفرح لمديح الناس، وتبرير الذات باستمرار، والتشبُّث بالرأي الذي يقود إلى العناد، مع إهمال بعض عناصر العبادة كالصلاة مثلاً، وربما عدم احتمال الإساءة، وعدم دفع نصيب اللَّه في ماله ... ومع هذا كله، ضميره لا يوبِّخه. لأنه لم يصل إلى المستوى الذي يتبكت فيه على أمثال هذه الأمور.

★★ أنه ولا شك مُحتاج إلى أن ترتقي مقاييسه الروحية، لكي يتوب عن أمثال هذه الخطايا التي يعتبرها طفيفة أو لا يلتفت إليها باهتمام! وعليه أن يطردها جميعها من قلبه ومن فكره. وهنا يصعد الإنسان درجة في سلم التوبة لكيما ينضج روحياً، ويصير ضميره حساساً جداً. فهل إذا وصل إلى هذه الدرجة نحكم عليه بأنه وصل إلى نقاوة القلب؟ هنا نُبدي ملاحظة هامة، لكي تكون لنا دقة في الحُكم وهي:

★★ رُبَّما هو لا يُخطئ، لأنَّ الشيطان قد تركه إلى حين. والشيطان حكيم في المحاربة بالخطيئة. يعرف متى يُحارب، وكيف يُحارب، وفي أيَّة خطية يُركِّز قتاله ... فإن وجد شخصاً مُتحمِّساً جداً لحياة البِرّ، ومستعداً، يتركه فترة حتى يثق هذا الإنسان

بنفسه ثقة كاملة رُبَّما تدفعه إلى التهوان والتراخي وعدم التدقيق. ثم يرجع الشيطان إليه في وقت يكون فيه أقل استعداداً وحرصاً فيسهل إسقاطه.

وهذه الفترة لا تكون فترة انتصار على الخطية، إنما فترة عدم قتال. إنها فترة راحة من الحروب الروحية، وليست انتصاراً من اللَّه. فإن وجدت نفسك لا تسقط في خطية مُعيَّنة، رُبَّما لا يعني هذا إنك تنقيت منها تماماً. ورُبَّما يرجع السبب إلى أن الشيطان لا يُقاتلك بها حالياً، أو رُبَّما الظروف الحالية غير مواتية، ولا توجد عثرات ومُسبِّبات للخطية، ولا ما يُثيرك من جهتها! والشيطان لا يُقاتلك الآن، ليس حباً في إراحتك، وإنما لأنه يجهز لك فخاً من نوع آخر. ورُبَّما يكون هذا الفخ هو الافتخار بنقاوتك.

★★ ومن الملاحظ أن بعض الخطايا لها مواسم، وليست دائمة. إنها مثل دورات الألم أو الوجع. تلف دورتها في عنف وشدة، ثم تهدأ، ثم تلف دورة أخرى، وهكذا ... أو مثل نبات له أحياناً موسم رقود وفي وقت آخَر موسم إزهار وإثمار.

★★ أو من الجائز أن اللَّه - تبارك اسمه - أراد أن يريحك فترة من إرهاق الخطية حتى لا تبتلع نفسك من اليأس. لذلك تدركك مراحم اللَّه، وتحفظك النعمة وتسندك ولو إلى حين. فتمُر عليك فترة هدوء لا تزعجك الخطية، لأنك غير مقاتل بها حالياً.

أو من الجائز أنك مستريح الآن لأن صلوات قد رُفِعَت لأجلك، سواء من قديسين في السماء، أو من أحباء لك على الأرض. واستجاب الرب لهم، واسترحت من الخطية وضغطاتها.

★★ ولذلك نقول إن هناك فرقاً بين نقاوة الأطفال، ونقاوة الناضجين سِنّاً وروحاً. حقاً إن الأطفال لهم قلب نقي بسيط لم يعرف الخطية بعد، ولم يدخلوا بعد في حرب روحية، ولم تختبر إرادتهم بعد. أي أنهم لم يصلوا إلى السن التي تختبر فيها إرادتهم. وهم غير الكبار الناضجين الذين دخلوا في حروب العدو وقاتلوا وانتصروا، ورفضت إرادتهم الحرة كل إغراءات الخطية. هؤلاء لهم مكافأة الغالبين التي ليست للأطفال. وما أعظم

الذين يصلون إلى نقاوة مثل نقاوة الأطفال بعد صراعات وحروب روحية خرجوا منها منتصرين.

والنقاوة الكاملة هى نقاوة من جميع الخطايا بكل صورها وأنواعها. سواء كانت بالعمل، أو بالفكر، أو بالحواس، أو بمشاعر القلب، أو بسقطات اللسان. ولا تظن إذن إنك قد وصلت إلى درجة نقاء القلب، إن كنت قد تخلَّصت من بعض الخطايا التي كان لها سلطان عليك، إنما النقاوة الحقيقية هى النقاوة الكاملة الشاملة بحيث لا يكون لأية خطية من الخطايا سلطان عليك، فهل أنت كذلك؟ وهل تنقيت من جميع الخطايا حتى التي تتنكر في كل فضيلة لتخدعك.

والنقاوة الحقيقية تكون نابعة من القلب وليست مظهرية خارجية. يذكرني هذا الأمر بأن كثيراً من الوعاظ حينما يتكلمون عن حشمة المرأة، يركزون على ملابسها وزينتها وشكلها الخارجي، دون أن يهتموا بالقلب ومحبة العفة والحشمة فيه، هذا الذي إذا وصلت إليه المرأة، يكون من نتائجه تلقائياً حشمة الملابس والزينة. كذلك ينبغي للعمل النقي، أن يكون نقياً أيضاً في أهدافه ووسائله، ويحكم عليه ضمير صالح غير منحرف. ويعتبر الإنسان نقياً تماماً لو دخل في كل حرب مع الخطية في عمقها وشدتها ولم يهتز. فاختبار نقاوة القلب يأتي من الحروب الروحية الشديدة في استمرارها وإلحاحها. لأن الشخص قد ينتصر مرة، ولكنه لو استمرت الضغوط مدة طويلة ربما يضعف أمامها ولا يقوَ على المقاومة. والشيطان يختبر كل شخص، ويدرس نواحي الضعف فيه، ويضغط بشدة على نقط الضعف، وتزداد حروبه قسوة.

إن نقاوة القلب درجة عالية جداً، لا تكون في بدء الحياة الروحية، إنما قد يصل إليها الإنسان بعد اختبارات طويلة منتصراً على كل أنواع الخطايا، فكراً، وقلباً وحواساً ولساناً وجسداً وعملاً.

٧ فبراير ٢٠١٠

نقاوة العقل الباطن
والأفكار والظنون والأحلام

تحدثنا في المقال السابق عن النقاوة من الخطية ونود أن نتحدث اليوم عن نقاوة الأفكار.

والأفكار ليست عواقر بينما هي تلد أفكاراً أخرى من نوعها أو بأنواع شتى. والذي يريد النقاوة لأفكاره، ينبغي أن تتنقى حواسه أيضاً. فالحواس تلد الفكر: فما يراه الإنسان وما يسمعه وما يلمسه... يفكر فيه أيضاً. فإن أردت النقاء لفكرك، ولتكن حواسك نقية أيضاً، لا تجلب للفكر ما يدنسه.

★★ ونقاوة الفكر يلزمها أيضاً نقاوة القلب. وما يختزن في هذا القلب من مشاعر ومن رغبات ومن شهوات وما يكُنز فيه. فالإنسان الصالح من الكنز الصالح الذي في قلبه يخرج الصلاح. والإنسان الشرير من المكنوز الشرير الذي في قلبه يخرج الشر. وهكذا كما يقول المثل: "كل إناء بما فيه ينضح".

★★ والأفكار إذا تعمقت في الإنسان تختزن في عقله الباطن. وربما تخرج من العقل الباطن على هيئة ظنون أو أحلام أو تفاهات كثيرة. فإن كانت لك ظنون سيئة، أي تظن في بعض الناس ظنوناً تسئ إليهم على غير حقيقتهم، فاعرف حينئذ أن قلبك لم يتنقى بعد، وأن عقلك الباطن لم يتنقى أيضاً. لأن الإنسان صاحب القلب النقي، دائماً تكون أفكاره نقية، ولا يظن السوء. وعلى قدر إمكانه يأخذ الأمور ببراءة وطهارة، ولا يحكم بالسوء على أحد إلا إذا كانت الخطية واضحة تحمل دينونتها في ذاتها. أما الأمور التي تحمل وجهين، لأنه يأخذ الوجه المنير منها. من أجل هذا، فإن أمثال هؤلاء الأشخاص يكونون في علاقة حسنة مع الناس. لأنهم لا ينسبون خطئاً لأحد، كما يعزرون الناس في تصرفاتهم.

★★ ولعلك تسأل: هل معنى هذا أن القلب النقي لا تحاربه ظنون وأفكار شريرة؟ نقول: نعم قد تحاربه الأفكار من الخارج، دون أن تنبع من داخله. بل على العكس يكون من الداخل رافضاً لها، لا يقبلها، بل يطردها بسرعة. والخديعة التي يتعرض لها البعض هنا، هى أن يستبقي الفكر الشرير، ولو بحجة فحصه أو محاربته، أو بنوع من الفضول ليرى إلى أين ينتهي! فتكون النتيجة أن يدنسه الفكر ويفقده نقاوته. والوضع السليم هو طرد الفكر بسرعة، لأن القلب النقي يشمئز من الأفكار الخاطئة، ولا يقبل حتى مجرد فحصها.

★★ ولا يفوتنا إذن أن نتحدث عن الأحلام. والأحلام على أنواع منها أحلام نجسة، وأحلام مرعبة مخيفة، وأحلام بأنواع أخطاء كثيرة، وأحلام تحوى قصصاً أو أفكاراً تافهة. فهل الأحلام الدنسة أو الأحلام الخاطئة، تعتبر خطيئة يُحاسب الإنسان عليها أمام اللّه وأمام الضمير؟ المعروف أن الإنسان لا يُحاسب إلا على الأعمال الإرادية. والبعض يظن أن الأحلام غير إرادية لأن الإنسان يكون أثناءها ليس في وعيه ولا في إرادته!! ولكننا نقول إن الأحلام وإن كانت غير إرادية أثناء النوم، ولكنها ترجع إلى إرادة سابقة قبل النوم ولو بأيام. ولا يمكن أن يحلم الإنسان بأشياء ضد إرادته. وهكذا يمكن أن نعتبر الأحلام شبه إرادية، لأنها تتعلق بإرادة سابقة. فالإنسان مثلاً لا يمكن أن يحلم بأنه يزني أو يقتل أو يسرق ويشتم، إلا لو كان في قلبه ميل لهذه الأمور. والأحلام تنبع أيضاً من صور وقصص ورغبات كامنة في العقل الباطن.

★★ وماذا إذن عن الأحلام المخيفة؟ كإنسان يحلم مثلاً بأسد يفترس... نجيب بأن هذا الإنسان لا بد أنه رأى أسداً في حديقة الحيوان أو في سيرك أو صورة أسد في مجلة أو أسد يفترس في فيلم أو في قصة. ومن مجموعة هذا كله يحلم بشيء من هذا مما يخيفه. يضاف إلى هذا عنصر الخوف الذي في قلبه وفي طبعه. ويمتزج كل هذا معاً ليظهر في حلم مخيف لأسد يفترس. ونفس الوضع نقول عن الخوف من القتل، أو الخوف من اعتداء الغير، أو الخوف من أحداث مرعبة ربما مصدرها قصص اختزنت في العقل الباطن نتيجة قراءات أو سماعات.

★★ الأحلام الخاطئة بصفة عامة، تدل على أن العقل الباطن يحوي رصيداً قديماً من الخطايا، لم يتنقى بعد من صورها وقصصها وذكرياتها. فأما أن تكون ذاكرته لا تزال مدنسة بخزينها الرديء، أو أن هناك بعض مشاعر في القلب، كامنة في أعماقه لم تتنقى بعد. وهى مصدر أحلامه الخاطئة التي تعكر نقاوة ذهنه.

يحتاج مثل هذا الشخص أن يتنقى من ماضيه مثلما يتنقى من حاضره. وعلى أية الحالات قد تحتاج نقاوة الأحلام إلى فترة من الزمن، إلى أن يصبح الإنسان في وضع بعيد تماماً عن الأحلام الشريرة. فبالوقت وعدم التكرار، تختفي مصادر هذه الأحلام من الذاكرة. ويختزن العقل الباطن بدلاً منها أموراً نقية طاهرة، تتناسب مع حياة التوبة والنقاوة التي يحياها. وتكون مصدراً لأحلام نقية تماماً.

علينا إذن أن نسعى إلى تنقية العقل الباطن، بطرد ما فيه من خزين لأخطاء ماضية. ثم إلى تقديس هذا العقل الباطن، بما يشحن أو نشحنه فيه من أمور طاهرة نقية، تكون مصدراً لظنون نقية، ولأحلام نقية. كذلك علينا أن نُنقي فكرنا من حشوه بالأمور التافهة التي إن لم تكن خطية في ذاتها، لكنها مضيعة للوقت وسبب في طياشة الأفكار. لأننا أحياناً قد نقف ونصلي، فتطيش عقولنا أثناء الصلاة بأفكار كثيرة. ذلك لأننا أعطينا تلك الأفكار عمقاً فينا، فأخذت سلطاناً علينا. لذلك احذر ولا تعطِ أمثال تلك الأمور عمقاً في فكرك أو في مشاعرك أو في وقتك. وإن سرقك الاعتياد القديم، استيقظ بسرعة. فإن يقظة العقل والجهاد مع الأفكار، يسبقان نقاوة العقل.

★★ أصعب درجة في النقاوة هى النقاوة من معرفة الخطية. فعندما خلق الإنسان كان بسيطاً طاهراً لا يعرف إلا الخير فقط. وبالسقوط بدء يعرف الخطية. وبمرور الوقت بدأت الخطية تتسلط عليه. وعاش في ثنائية الخير والشر. فمتى يأتي الوقت الذي نتخلص فيه تماماً من معرفة الخطية. اعتقد أن هذه بركة لا ننالها إلا في الأبدية في العالم الآخَر حيث لا معرفة للخطية على الإطلاق.

١٤ فبراير ٢٠١٠

التساهل أمْ الحَزم
في حروب الشياطين

كثيراً ما يسقط الإنسان في الخطية، بسبب تساهله وعدم حزمه في محارباته الروحية. فكيف ذلك؟ المعروف أن الخطية تبدأ بحرب من الخارج، وتريد أن تدخل وتسيطر. وبالتساهل معها تتحوّل الحرب من الخارج إلى داخل القلب. فكيف يحدث هذا التطور؟ تكون الخطية في الخارج: شيئاً مثيراً، وتصرف سيئ من شخص ما، أو أي شيء يمكن اشتهائه أو اقتناؤه ثم يتساهل الإنسان مع حواسه، مع سمعه أو بصره، فيأتيه الفكر ضعيفاً في البدء، ويمكن طرده بسهوله. ولكن بالتساهل مع الفكر، ينزل إلى القلب، ويتحول إلى شعور. فإن استيقظ الإنسان إلى نفسه يمكنه التخلص من هذا الشعور، مؤقتاً أنه يقوده إلى الخطيئة. بهذا الشعور الخاطئ هو خطية في حد ذاته. ولكن بالتساهل مع الشعور يتحول إلى انفعال أو شهوة. وهنا يكون الإنسان قد بدأ يخضع للفكر. وبدأ يدخل في صراع بين شهوته وضميره. والشهوة إن طردت بحزم، يمكن التخلص منها. ولكن بالتساهل تبدأ الشهوة أن تنتشر حتى تشمل فكر الإنسان وقلبه وحواسه.

★ ★ وبالتساهل مع الشهوة، تحاول أن تعبر عن ذاتها عملياً. فإن تساهل معها يصل إلى الخطية بالفعل والعمل، وتصبح الخطية كاملة. ثم لا تستريح الخطية بهذا، إنما تريد أن تتكرر. فإما أن يتوب الإنسان بعد سقطته، أو أنه يتساهل في عمل الخطية، فتتحول إلى عادة. وبهذا يخضع لسيطرتها ويصبح عبداً لها. ويرتكب الخطية بغير إرادته أحياناً ولا يملك السيطرة على نفسه... كمن يقع في الغضب تلقائياً، ويثور دون أن يتحكم في أعصابه. أو كمن يخطئ في الكلام دون أن يتحكم في ألفاظه...

أما الأبرار فهم في منتهى الحزم، لا يتساهلون مع أنفسهم. إنما لهم على أنفسهم رقابة شديدة جداً: رقابة على كل فكر، على كل شعور، رقابة شديدة على حواسهم، في حزم.

ورقابة على كل كلمة تخرج من أفواههم، وعلى كل تصرف. إنها رقابة من الضمير ساهرة في حرص، والنعمة تحفظها.

★★ لا تتساهل إذن مع الخطية، اعتماداً على قوتك. ثقة منك أن الشيطان لا يقدر عليك. فالذي لا يحترس، ولا يبعد عن العثرات، ولا يطلب معونة اللّه ليلاً ونهاراً، يمكن أن يسقط كما سقط من قبله أقوياء.

إنك تكون في ملء قوتك حينما تبدأ الحرب الروحية من الخارج. وتكون أيضاً في ملء عمل النعمة معك. ولكنك كلما تتساهل مع الخطية، تضعف قوتك، وتقل مقاومتك، ويزداد تأثير الخطية عليك، وتزداد سيطرتها على تفكيرك وشعورك وإرادتك. إذ يكون فكر الخطية قد ثبت أقدامه داخلك. وحينما تحاول أن تخرج من نطاقه ومن مجاله، تجد عقبات وتدخل في صراع. وباستمرار التساهل، تجد قوتك قد فرغت، واستسلمت. كقطعة من الحديد وجدت نفسها في مجال المغناطيس. وتريد أن تخرج منه فلا تعرف. وأحياناً لا تريد. بل تجد نفسها بكل ما فيها منجذبة إليه!!

كما أن تساهلك مع الخطية - ولو بالفكر - معناه أن مثاليتك بدأت تهتز. بدأت تتنازل عن المستوى العالي، وتسمح بالشيطان بمكان داخلك. إن الشيطان في بدء حروبه معك، يحاول أن يختبرك ويجس نبضك، ليعرف نوعيتك: هل أنت سهل أمامه أم صعب؟ هل ترفض كل ما يعرضه عليك بحزم وبدون نقاش؟ أم تقبل؟ أم تتفاوض؟ أم تتساهل معه وتقابله في منتصف الطريق. لذلك يراك تتساهل مع أفكاره، حينئذ تسقط هيبتك أمامه، ويعاملك على أساس هذه الخبرة. وحينئذ يجرأ الشياطين ويتلاعبون بك. ويُسلِّمك كل واحد منهم إلى الآخر لكي يلهو بك. ككرة قد نزلت إلى الملعب، واللاعبون يمررونها بينهم. احترس إذن لنفسك. فالذي يتساهل مع الخطية مرة، يتعوَّد التساهل ويتمادى فيه.

★★ لا تتساهل مطلقاً مع الخطية مهما بدت أمامك بسيطة. فاعتبارك أنها بسيطة يقودك إلى التساهل. لا تحاول أن تقسم الخطايا إلى صغائر وكبائر. لا تقل هذا شيء بسيط، وهذا أمر تافه لا يزعج الضمير، وهذه ليست خطية؟ وهذا التَّصرُّف لا يعثرني،

ولن يترك أثراً في نفسي. واعلم أن كثيرين قد سقطوا لعدم تدقيقهم فيما يفعلونـــه. واعلـــم أيضاً أن الذي لا يحترس من الصغائر، يمكن أن يسقط في الكبائر. وكل خطية هى تمرُّد على الفضيلة، وانفصال عن العشرة مع اللَّه. والخطية عموماً هى ضعف ودنس.

★★ كثيرون مثلاً يعتبرون أن أخطاء اللسان هى أمور بسيطة لا تزعج ضمائرهم. بينما كل كلمة بطَّالة يتكلَّم بها الشخص، سوف يُعطي عنها حساباً أمام اللَّه. وليست الكلمة البطالة هى فقط التي في مستوى الكذب والشتيمة والتجديف. إنما الكلمـــة البطالـــة هـــى كل كلمة ليست للمنفعة، وليست للبنيان. ولا شك أن الإنسان الـــذي يُـــدقِّق فـــي كلماتـــه، ولا يتساهل مع أخطاء اللسان، فإنه بالتالي لم يتساهل مع العمل الخاطئ. والتدقيق الـــذي يتعوده يشمل كل حياته وكل تصرفاته. كُن مُدقِّقاً إذن في كل شيء. واعلم أن التساهل مع الشيء الصغير يجعله يكبر. والذي يتساهل في الخطوة الأولى يقع في الثانية ثم في الثالثة وإلى غير حد. واعلم أن التساهل قد يؤدي إلى اللامبالاة، وإلى عدم الخوف مـــن كســـر وصايا اللَّه. لأنك في تساهلك لست تتساهل فقط مع حروب الشياطين، أو مع نقاوة قلبـــك، إنما تتساهل بالأكثر في حقوق اللَّه عليك في وصاياه الإلهية.

★★ وإن سقطت في خطية لا تتساهل في معاقبة نفسك عليها، وفي توبيخ ذاتك بل في معاقبة نفسك أيضاً. ولا تحاول أن تدلك ذاتك في سقطاتها وتلتمس لها عذراً وتخفـــف عنها! لأن الذي يتساهل في توبيخ نفسه على خطاياه، ما أسهل أن يرجع إليها.

★★ وإن تعودت عدم التساهل مع الخطية، سوف تتعوَّد أيضاً التدقيق فـــي القيـــام بواجباتك الروحية، وفي حرصك باستمرار على خلاص نفسك والاستعداد لأبديتك.

٢١ فبراير ٢٠١٠

اجلس إلى نفسك وحاسبها

إذا أردت أن تتوب، أو أن تكون أميناً في علاقتك مع اللَّه، فعليك بين الحين والحين أن تجلس إلى نفسك. فلماذا؟

★★ فأنت إما أنك لا تشعر بما أنت فيه من خطر. لا تعرف حالتك بالضبط، ولا تُدرك أخطاءك ولا عمقها وبشاعتها. لأن دوامة المشغوليات والاهتمامات تجذبك إليها باستمرار، وأنت غارق فيها تماماً... ليس لديك وقت أن تفكر في نفسك وفي روحياتك. وربما لا يخطر هذا الموضوع على فكرك! إذن فأنت محتاج أن تجلس إلى نفسك وتفحصها وتراقبها، لكي تدرك مستوى ما أنت فيه من الروحيات أو مستوى بعدك عنه.

★★ أو ربما إنك تعرف أخطاءك، أو تعرف البارز منها. ولكن ليس لديك وقت ولا فرصة، لكي تفكر كيف تترك تلك الأفكار، وكيف تعالجها. وقبل أن يدور بذهنك أن تعالج خطاء معيناً تكون قد وقعت في غيره أو في ما هو أشد منه... والأخطاء والخطايا تحيط بك من كل ناحية، وليست هناك فرصة للتخلص منها. إذن فأنت محتاج أيضاً أن تجلس إلى نفسك لكي تعالج ما يحتاج فيها إلى معالجة.

★★ وكما يحتاج المريض إلى كشف أشعة وأجهزة تحاليل لكي يعرف ما يدور في داخله بالضبط ونوعية ومدى خطورة أمراضه، وهو يحتاج أيضاً أن يعرف العلاج وممارسته لكي يشفى. وأن يتابع هذا العلاج مع طبيب حكيم خبير بالأمراض وعلاجها. وهذا لا يتأنى بالمريض. إلا إذا انتزع نفسه من مشغولياته وذهب للكشف... هكذا الجلسة مع النفس.

★★ هذه الجلسة الروحية مع النفس هدفها تنقيتها. وذلك بأن يكتشف الشخص خطاياه وضعفاته، ويلوم نفسه عليها. ثم يعرف أيضاً أسباب سقوطه، سواء أكانت أسباب خارجية تضغط عليه، أو أسباباً داخلية يسعى فيها هو نفسه إلى الخطية، أو هي طباع

وعادات أو تأثرات بآخرين... ويحاول في كل هذا أن يتحاشى ما يبعده عن حياة التوبة والنقاوة. ويعزم عزماً قلبياً أكيداً أن يترك أخطاءه بكل رضى واقتناع داخلي.

★★ والإنسان الروحي لا يقصر جلسته مع نفسه على بحث الماضي والندم عليه وتبكيت النفس على أخطائها. إنما عليه أيضاً أن يفكر في مستقبله الروحي، ويضع كذلك خطة حكيمة من واقع حالته واختباراته. ويصمم في أعماقه أن يسلك في ذلك بتدقيق شديد وبجدية والتزام... وفي كل ذلك يطلب من اللَّه نعمة وقوة لكي يسلك حسناً فيما بعد.

★★ وإني أنصح بهذه المناسبة، أن الشخص الذي ينوي أن يحيا حياة بارة في المستقبل، لا ينفعه أن ينتهز هذا الشعور فيقدم للَّه تعهدات ونذوراً أنه سيفعل كذا وكذا! كما لو كان له ثقة أو عزور بقدرته الشخصية الذاتية حتى أن البعض يقول في جلسته هذه افعل بي يارب ما تشاء من الويلات إن رجعت إلى هذه الخطية مرة أخرى!... فما أكثر من وعد اللَّه وعوداً، ولم ينفذ. ثم عاد يقول في حزن:

كما وعدت اللَّه وعداً حانثاً ... ليتني من خوف ضعفي لم أعد

إنما الأمر لا يعد أن يكون مجرد رغبات مقدسة، تعرض فيها إرادتك وعزمك على اللَّه، ليعطيك قوة على التنفيذ. لأنك بدون معونته لا تستطيع أن تفعل شيئاً. وهكذا تندمج جلستك مع نفسك لتكون جلسة صلاة تطلب فيها القوة.

★★ ولا شك أن الشيطان يقاوم بكل قوته جلوسك مع نفسك، لأنه يخشى أن تفلت من سيطرته عن طريقه. إما أنه يخشى في جلوسك مع نفسك، أن تدرك سوء حالتك الروحية فتفكر جدياً في التوبة، وبهذا تفلت من يده. وإما أنه يخشى في جلوسك مع نفسك، أن تطلب معونة من اللَّه، وأن تنال منه قوة روحية لا يقوى الشيطان على مقاومتها... والشيطان جرب كيف أن كثيرين جلسوا إلى أنفسهم فتابوا. مثال ذلك القديس أُغسطينوس الذي لم يستطع أن يتوب وهو في دوامة المشغوليات، ودوامة الأصحاب، ودوامة الفلسفة والفكر... لكنه لما جلس إلى نفسه تلك الجلسة الروحية العميقة، استطاع أن يصل إلى الإيمان وإلى التوبة وأن يرجع إلى اللَّه ويفلت إلى الأبد من قبضة الشيطان. ولم تكن مجرد جلسة عادية، إنما هى جلسة مصيرية.

★★ لذلك فالشيطان يقاوم جلوس الإنسان مع نفسه وذلك بأمرين: أما أن يمنع جلوس الإنسان مع نفسه، بأن يقدم له عشرات من المشغوليات ومئات من الأفكار، ويذكره بأمور تبدو أمامه هامة جداً، ويجب أن يتفرغ لها. وكل ذلك لكي يعود إلى دوامته مرة أخرى. مثال ذلك إذا انتهزت فرصة بداية عام جديد من حياتك لتجلس مع نفسك، يمكن للشيطان أن يعمل على شغل هذه المناسبة بالحفلات والمجاملات حتى تنشغل بذلك ولا تخلو للتفكير بنفسك.

★★ ولكنك إذا أصررت على الجلوس إلى نفسك وفحص تصرفاتك وحياتك، ووجدت فرصة لذلك، وابتعدت عن المشغوليات ولو إلى حين، حينئذ تكون خطة الشيطان أن يجلس معك أثناء جلوسك مع نفسك. فهو لا ييأس أبداً. وفي اشتراكه معك في جلستك الروحية، يقدم لك أفكاراً وأحاسيس من عنده بأن يمنعك من تبكيت نفسك على أخطائها، ويخفف من مشاعر ندمك، فإن تذكرت آية خطية، فبدلاً من أن ينسحق قلبك بسببها وتوبخ ذاتك، يقدم لك الشيطان عنها أعذاراً وتبريرات، بمحاولة لتدليل النفس ومجاملاتها، أو تخفيف المسؤولية عنها بإلقائها مثلاً على الوسط الخارجي أو الآخرين... وكل ذلك لا ينفعك روحياً، ولا يقودك إلى التوبة. إن لومك لغيرك لا يُبررك، حتى لو كان ذلك الغير ملوماً فعلاً. لهذا يجب أن تركز على ما فعلته أنت لأنك مطالب به. وأنت لا تنال المغفرة بالتبريرات وإنما بالتوبة وإدانة النفس.

ولعل من حيل الشيطان أيضاً، أن يقلل لك من خطورة خطاياك. ولا يجعلها تبدو على حقيقتها في بشاعتها، كما لو كانت شيئاً بسيطاً لا تستحق أن تحزن بسببه وتندم. وما أسهل أن يسمى لك الخطايا بغير أسمائها. أو يفلسف الخطية ويحاول أن يخفيها وراء سلامة القصد وحسن النية! وفي كل هذا يقودك إلى الاستهانة واللامبالاة ولا يساعدك على التوبة، بل ربما يدفعك إلى الاستمرار فيما أنت فيه. أما أنت فحينما تجلس مع نفسك حاسبها بكل حزم. وافحصها بدقة، واطمئن باستمرار على نقاوتها.

٢٨ فبراير ٢٠١٠

البِرّ الذاتي، والتبريرات

البِرّ الذاتي هو اعتقاد الإنسان في ذاته أنه بار، وأنه لم يخطئ ولا يخطئ كما لو كان معصوماً من الخطأ!! أمَّا التبريرات فمعناها أن الإنسان يُخطئ، ولا يُريد أن يتحمَّل مسؤولية أخطائه. ويُقدِّم الأمر كأنه شيء طبيعي جداً، هناك أسباب دعت إليه! كأن لا خطأ في الأمر. وهذه التبريرات لا تُساعد أبداً على التوبة. فهي محاولة لتغطية الخطية، وليست توبة عن الخطية. وإدعاء وجود مُبرِّر للخطية يُساعد على أن يستمر المخطئ، في أخطائه وعذره معه!

★★ إنسان يغطِّي الخطية بعُذرٍ، أو يُغطِّيها بأكذوبة. ويريد بهذا التبرير أن يخرج من الخطية سليماً بلا عيب، بلا لوم، يلتف بثوب من المجد الباطل، ليظهر أمام الناس برئياً في كل شيء ... بينما الخطية هى الخطية مهما كانت التبريرات التي تلتحف بها ... صدق الذي قال: إن طريق جهنم مفروش بالأعذار والتبريرات والحُجج ... والإنسان الذي يجد تبريراً لأخطائه، يستمر فيها. وربُّما يجعلها سياسة ثابتة له.

★★ مثل هذا الإنسان لا يستطيع أن يعترف بخطيئته، ما دام أسلوب التبرير ممكناً. وقد تكون الخطية واضحة جداً لا تقبل النقاش. ومع ذلك لا مانع من أن يقدم عنها تبريرات وأعذار! ويريد الإنسان بهذه التبريرات أن يكون بلا لوم أمام الناس، وربُّما أمام نفسه أيضاً. وذلك لكي يريح ضميره إذ لامه على ما يفعل. ولكن حتى لو قبل الناس منه ما يقدمه من أعذار، وحتى لو استطاع ذلك الشخص أن يخدع نفسه ويُخدر ضميره ليقبل تلك التبريرات، أترى اللَّه يقبلها؟! اللَّه العالِم بكُلِّ شيء، والذي أمامه يستد كل فم! إن التبريرات لا تصلُح مع اللَّه. وإنما الذي يصلح معه هو الاعتراف بالخطية.

★★ رفض التبريرات وتقديم الأعذار يكون هو الطريق إلى التوبة، كما يدل على تواضع القلب المعترف بخطاياه. أمَّا غير المتواضع وغير التائب، فإنه يحاول أن يجد تبريراً عند ارتكاب الخطية، وبعد ارتكابها أيضاً، وفي الحديث عنها بصفة عامة.

ويؤسفني أن أقول إن توالي الأعذار والتبريرات عند مثل هذا الشخص، تجعل المبادئ والقيم عنده تهتز ... وما دام كل خطأ له ما يُغطيه بالأعذار، إذن لا تجد قيم أو مُثل يسير على منهاجها، أو روحيات يتمسَّك بها. وسنحاول هنا أن نذكر بعض الأعذار العامة التي يعتذر بها البعض إذا لم يسلكوا حسناً في حياتهم:

★★ يقولون كل الناس هكذا (الكل كده) فهل نشذ نحن عن المجتمع؟! وكأنهم بهذا يعتبرون أن الخطأ إذا صار عاماً، لم يعد خطئاً يُلام عليه الفرد! كأن نقائص المجتمع كله لم تعُد نقائص. أو صار الخطأ العام مبرراً لخطأ الفرد!! كلا، فالخطأ هو خطأ، عاماً كان أو خاصاً. ومن أجل ذلك يقوم المصلحون الاجتماعيون بإصلاح أخطاء المجتمع. وكذلك يُهاجمها الرُّعاة ورجال الدين والكُتَّاب وأصحاب المبادئ.

★★ إن أبانا نوح كان يعيش ببِرِّهِ في عصر كله فاسد. وبلغ من فساد الناس في تلك الأيام، أن اللَّه أغرق العالم كله بالطوفان. فهل كان ذلك الفساد الذي عم العالم كله، عُذراً لأبينا نوح أن يسلك مثلهم هو وأسرته، ويقول: (كل العالم كده)، فهل نشذ عن المجتمع! أم أنه سلك بكماله أمام اللَّه والناس، وكان لا بد له أن يشذ عن ذلك المجتمع الفاسد. وهكذا نجَّاه اللَّه وأسرته من الطوفان. وهكذا كان لوط أيضاً في أرض سدوم الفاسدة التي حرقها اللَّه بالنار.

★★ إن الأبرار يحتفظون بمبادئهم السامية، مهما كان الخطأ عاماً، أو منتشراً. فهُم لا يتبعون المثل القائل: " إن كنت في بلد يعبدون فيه العجل، حش وارمي له! " كلا، فالخطأ العام يجعل الأبرار أكثر حرصاً ودقة. فهم يطيعون ضمائرهم، ولا ينجرفون مع التيار.

★★ عِش بروحياتك السليمة، حتى لو عشت بها وحدك. كما قلنا في الشِّعر:

سأطيع اللَّه حتى لو أطعت اللَّه وحدي

لذلك إن لم تستطع أن تؤثر على المجتمع بروحياتك، فعلى الأقل لا تندمج في الأخطاء العامة وتخضع لها، ولا تجعلها تؤثِّر عليك ... لماذا تأخذ موقفاً ضعيفاً أمام الذين يُعيِّرونك بتدينك؟! إن القلب القوي يحتمل كل شيء من أجل الثبات في مبادئه.

★★ هناك مَن يعتذر عن عدم سلوكه في حياة الفضيلة، بأن هناك عوائق تمنعه من ذلك ... وهذا الاعتذار لا يليق بالأقوياء المحتفظين بنقاوة قلوبهم. بل هم ينتصرون على العوائق. لأن محبة الخير التي في قلوبهم، هي أقوى من العوائق الخارجية. وما دامت لهم النية الخيِّرة والإرادة القوية، حينئذ يجدون الوسائل الكثيرة للخير الذي يريدون أن يفعلوه. يكفي أنك تريد الخير، وحينئذ تجد نعمة اللَّه تفتح أمامك أبواباً كانت مُغلقة. فلا تفكِّر إذاً في العوائق إنما فكِّر جيداً كيف تنتصر عليها. أم أن دوافعك الداخلية ضعيفة، لذلك تعتذر بالعوائق؟! إن أبانا إبراهيم لم يجد عائقاً أمامه في تقديم ابنه ذبيحة للَّه، لأن قلبه كان قوياً بالإيمان. والشهداء لم يعتذروا بالعذابات التي يتعرَّضون لها أو كافة الضغوط الخارجية أو الإغراءات. بل بقلوبهم القوية انتصروا. وكل الأبرار الأنقياء القلوب، لا يعترفون بالإغراءات الخارجية ولا يخضعون لها، ولا يتخذونها مُبرِّراً لارتكاب الخطية. ومثال ذلك يوسف الصديق الذي ضغطت عليه الخطية من الخارج وبقلبه النقي انتصر عليها.

★★ يعتذر البعض بعبارة: (أنا ضعيف، والوصية الإلهية صعبة!)، وهنا عُذر غير مقبول لأنه لو كانت الوصية صعبة وغير ممكنة، ما كان اللَّه يأمر بها. إن اللَّه لا يأمرنا أبداً بالمستحيل.

إن باب الأعذار واسع قد يدخل فيه الصدق والكذب ... والإنسان غير التائب، على الرغم من أخطائه، فإن نفسه تكون جميلة في عينيه يناقش في موضوع برها ويجادل ويجد له أعذاراً.

٧ مارس ٢٠١٠

الحسد والغيرة

الحسد بمعناه اللغوي هو تمنّي زوال النعمة أو الخير عن المحسود، وتحول هذه النعمة والخير إلى الحاسد. وبهذا المعنى يكون الحسد خطية مزدوجة. فتمنى زوال النعمة عن المحسود خطية لأن ذلك ضد المحبة، والمحبة لا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق. وسليمان الحكيم يقول: " لا تفرح بسقطة عدوك، ولا يبتهج قلبك إذا عثر " فكم بالأكثر إن كان الشخص الذي يتمنى له الحاسد السقوط ليس عدواً، ولم يفعل به شراً!! كذلك تمنى تحول خيره إلى الحاسد يحمل خطية أخرى، إذ هو شهوة خاطئة.

★★ هناك نوع آخر من الحسد، يُحذّر منه الحكيم بقوله: " لا تحسد أهل الشر ولا تشته أن تكون معهم ". وهنا يرتبط الحسد بشهوة الخطية. فيحسد الذين يرتكبونها حين لا يكون بإمكانه ذلك. وهذا يدل على عدم وجود نقاوة في القلب، وعلى أن القلب ليست فيه محبة اللّه ولا محبة الخير.

★★ والحسد عموماً هو ضد المحبة. فالذي يحب إنساناً لا يمكن أن يحسده. وأنت إن أحببت إنساناً، تتمنى أن تزيد نعمة اللّه عليه، لا أن تزول النعمة منه. وإن أحببت إنساناً، فإنك تُفضّله على نفسك، بل تبذل نفسك من أجله. وهكذا لا يمكن أن تشته أن يتحول الخير منه إليك. فالمحبة تبني ولا تهدم.

وهكذا فإن الأم التي تحب ابنتها، لا يمكن أن تحسدها على زواج موفق. بل تسعد بسعادتها وتكون في خدمتها في يوم زواجها. تبذل جهدها أن تكون ابنتها في أجمل صورة وأجمل زينة. وكذلك الأب يفرح بنجاح ابنه. ولا يمكن أن يحسده على نجاحه ولا على تفوقه، ولا على نواله درجة أعلى من درجة هذا الأب.

★★ أمَّا من جهة الغيرة، فليست كل غيرة لوناً من الحسد الخاطئ. وليست كل غيرة ضد المحبة. لأنها مغبوطة هى الغيرة في الحسنى. إنها الغيرة التي لا تحسد، وإنما تقلد، وتتحمس للخير فنحن نسمع عن فضائل الأبرار، سواء الذين تركوا عالمنا الحاضر، أو الذين مازالوا أحياء. فنغار منهم غيرة تجعلنا نتمثل بأفعالهم، لا أن نحسدهم أو نتمنى زوال النعمة منهم إلينا!! بل نفرح كلما نعرف جديداً من فضائلهم.

إنَّ الذي يحب الفضيلة، لا يحسد الفضلاء. والذي يحب الفضلاء، لا يحسدهم بل يقلدهم. إن القديسين ما كانوا يحسدون بعضهم بعضاً في حياة الروح. بل كان ارتفاع الواحد منهم في الطريق الروحي، يُشجِّع الآخرين ويقويهم، فيمجدون اللَّه بسببه. وتملكهم الغيرة المقدسة، فيفعلون مثلما يفعل. ويطلبون صلواته عنهم وبركته لهم.

★★ هنا ونسأل سؤالاً هاماً وهو: هل الحسد يضر؟ نقول أولاً إن الحسد يضر الحاسد وليس المحسود. فالحاسد تتعبه الغيرة، ويتعبه الشعور بالنقص. يتعبه منظر المحسود في مجد. تتعبه مشاعره الخاطئة. وكما قال الشاعر:

اصبر على كيد الحسود .. فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها .. إن لم تجد ما تأكله

★★ وكذلك فإن الحاسد يتعبه تفكيره وسعيه في الأضرار بالمحسود. وقد لا يفلح في ذلك، ويزداد المحسود ارتفاعاً، فيزداد هو غيظاً ... إن القلب الخالي من المحبة لا بد أن يتعب. وقد يسعى الحاسد إلى التحرش بالمحسود وإهانته. فيقابله المحسود برقة ولطف، فتتعبه رقته ولطفه. ويتعبه فشله في إثارته، وتزداد فيه النار اشتعالاً.

★★ نقطة أخرى وهى أن الحسد مع كونه في حد ذاته لا يضر، ولكن المؤامرات التي يدبرها الحاسدون قد تضر أحياناً. ولا يكون الضرر عبارة "ضربة عين" كما يظن البعض! وإنما هو متاعب نتيجة لمؤامرات الحاسدين. إن الحسد هو مشاعر قلب خاطئ، وليس ضربة عين. ونحن حينما نطلب من اللَّه في صلواتنا أن يُنجينا اللَّه من الحسد، لا نقصد أبداً أن ينجينا من ضربة عين، إنما من مؤامرات الحاسدين. كما نطلب من اللَّه أيضاً أن يُبعد عن قلوبنا حسدنا لغيرنا.

إن كثيراً من الناس يحاولون إخفاء كل خير يأتيهم خوفاً من حسد الناس لهم! ولكنه خوف مبني على جهل، ظانين أن معرفة الحاسدين بخيرهم تسبب لهم ضرراً! أو ألا ضربة عين تصيبهم، فتفقدهم ما هم فيه من خير!

★★ إن ضربة العين لو كانت حقيقية، إذن لهلك كل أصحاب المواهب والمناصب والتفوق... الحاصلون على جائزة نوبل كل عام، أليس لهم حاسدون؟ وهؤلاء الحاسدون أليست لهم عيون؟... فهل نتيجة حسدهم يفقد العالم أعظم علمائه وأدبائه وأبطال السلام فيه!! وأيضاً أبطال الرياضة أصحاب الكؤوس الذهبية، والميداليات، والمتفوقون في الفن والموسيقى، وملكات الجمال في العالم... أليس لكل هؤلاء حاسدون، وللحاسدين عيون... والذين ينجحون في الانتخابات أو الذين يتولون مناصب ورياسات على كل المستويات، وفي كل البلاد أليس لهم حاسدون. وأوائل الثانوية العامة، وقد يكون الأول متفوقاً بنصف درجة فقط عن الذي يليه، أليس لكل أولئك حاسدون ولهم عيون "تفلق الحجر"؟!!

★★ ننتقل إلى نقطة أخرى وهى حسد الشياطين. لا شك أن الشيطان يحسد الإنسان البار على بره وفضائله ونقاوة قلبه، بينما الشيطان قد فقد تلك النقاوة وكل ما يتعلق بالبر، ويحسده أيضاً على علاقته الطيبة مع اللَّه - تبارك اسمه - بينما هو قد خسر تلك العلاقة، ويحسده على ما يتمتع به من نعمة ومن بركة بينما الشيطان محروم من كل هذا. ويحسده على ما ينتظره في الأبدية من نعيم وفرح بينما الشيطان يخاف هذه الأبدية.

★★ لذلك فإن الشيطان إن وجد الإنسان في طريقه لعمل فضيلة معينة، يحاول أن يبعده عن عملها بكافة الطرق. وإن وجد الإنسان باراً، يحاول أن يسقطه من بره. ولكن اللَّه لا يسمح له بكل ذلك، ويرسل حفظه لهذا الإنسان.

١٤ مارس ٢٠١٠

المحبة الضارة

على الرغم من أن المحبة فضيلة كبرى، إلا أنه توجد محبة ضارة. ولعل من أسباب المحبة الضارة، أن تكون بغير حكمة، أو بعيدة عن الروحيات، أو تتصف بالذاتية، أو تتعارض مع وصايا اللَّه. وسنتكلَّم في هذا المقال عن أنواع من هذه المحبة الضارة.

★★ لا يستطيع أحد مِنَّا أن ينكر محبة الأم، حتى أنه يضرب بها المثل في الحنان وفي عمق المحبة. ومع ذلك يمكن أنَّ أُمّاً تحب ابنها بطريقة ضارة. ومن أمثلة ذلك تدخلها في زواج ابنها وبعد زواجه. هذا مع الابن ومع الابنة: إمَّا في الإسراع بالتزويج قبل النضوج أو قبل التوافق ... أو اختيار زوج تظن فيه الأم أنه صالح لابنتها، فتدفعها إلى الزواج به دفعاً ويكون في ذلك ضرر لها طول الحياة ... ومن المحبة الضارة أن تتدخل الأم في الحياة الزوجية لابنها. وهى تظن أنها تفعل ذلك إشفاقاً عليه، بينما تحطم حياته الزوجية.

★★ ومن أساليب المحبة الضارة، المديح الضار، الذي يقود أحياناً إلى الغرور، وإلى حسد الآخرين ومتاعبهم. وإعلان ذلك المديح يكون بغير حكمة.

ويماثل المديح الخاطئ في ضرره، الدفاع عن الأخطاء، بدافع من الحُب الخاطئ. هذا الدفاع يجعل المخطئ يثبت في أخطائه، وقد يؤدي ذلك إلى هلاكه. ولا شكَّ أن مبرئ المذنب هو مثل مُذنِّب البريء، في أن كليهما ضد الحق.

وقد يحدث الدفاع عن الأخطاء في جو الأسرة والأصدقاء، أو في تملق الملوك والزعماء، أو في مجال المخطئين دينياً. إنها محبة خاطئة، بل محبة ضارة. سواء كانت عن ثقة واقتناع، أو عن تملق رخيص.

★★ ومن ألوان المحبة الخاطئة تسهيل الشر. مثال ذلك طالب يقوم بتغشيش زميله في الامتحان بدافع من الشفقة والمحبة! أو طبيب يكتب شهادة مرضية وهمية...!

أو صديق يشهد شهادة زور تأييداً لصديقه. أو محاسب يساعد ممولاً على اختلاس حقوق الدولة في الضرائب. أو أستاذ باسم الرحمة أو المحبة يخفض المُقرر لتلاميذه، ويُقدِّم لهم في الامتحان أسئلة تافهة لكي ينجحوا ولم ينالوا من العلم شيئاً ... كما يحدث أحياناً تسهيل زواج غير شرعي!!!

وينضم إلى هذا البند أيضاً النُصح الخاطئ.

★★ ومن أمثلة المحبة الضارة، أن أباً يحب ابناً له أكثر من بقية أبنائه. فيثير فيهم عن عوامل الحسد ضد أخيه. ومن أمثلته أيضاً الذي يتزوج امرأتين، ولا يكون عادلاً بينهما في المحبة.

★★ ومن ألوان المحبة الضارة الاستحواذ. أي المحبة التي تحبس محبوبها في حيزها الخاص. كالأم التي تمنع ابنها من سفر بعيد يفيده جداً، لأنها تريده إلى جوارها وبهذا تضره وتُضيِّع مستقبله بسبب محبتها الضارة. وكثيراً ما تحدث أمثال هذه المشاكل في محيط الحياة الزوجية أو الحياة العائلية بصفة عامة. مثل الزوج الذي تدعوه أنانيته في محبته إلى التضييق على زوجته في الدخول والخروج، وفي الكلام وفي الابتسام، وفي الزيارات وفي اللقاءات. كمَن يحبس عصفوراً في قفص، ويمنعه من الطيران، ليصير له وحده، ويُغنِّي العصفور له وحده! ولا تهمه حرية العصفور في شيء. وفي تضييق الرجل على امرأته بسبب محبته الأنانية لها، يجمع الرجل بين نقيضين: الحب والقسوة!!

ونفس الوضع بالنسبة إلى الزوجة التي تضر رجلها بمحبتها، فتضيق عليه الخناق أيضاً. وتكثر من أسئلتها وتحقيقاتها حول مواعيده ومقابلاته وعلاقاته، بطريقة تصيبه بالضجر والضيق النفسي. وتصيبها هي بالشك والقلق والخوف ... وكل ذلك بِاسم الحب!!

ومحبة الاستحواذ قد توجد أيضاً في محيط الأصدقاء. فبِاسم المحبة يريد الشخص من صديقه أن يتحيز له، فيصادق مَن يُصادقه ويعادي مَن يُعاديه. وهكذا يضره من جهة علاقاته ومن جهة روحياته ... وأحياناً يُضيِّع وقت هذا الذي يُحبه. وبِاسم المحبة إذ يشغل وقته، كثيراً ما يؤثِّر ذلك على دراسته أو عمله فيضره!

★★ ومن المحبة الضارة، أنها تتركز أحياناً في الجسد، وتتحول إلى شهوة. وللأسف قد يسميها البعض حباً بينما هى شهوة، تضر نفسها، وتضر مَن تحبه أيضاً. سواء الضرر الروحي، أو ما يصاحبه من أضرار أخرى.

★★ ومن المحبة الضارة المحبة التي تشفق على الجسد وتضر الروح. كأم تشفق على ابنها، وتمنعه من الصوم حرصاً على صحة جسده. ومن مظاهر المحبة الخاطئة التدليل. وفيه الشفقة الزائدة والإنفاق الزائد على الحاجة وتقديم أنواع المُتع العديدة. وعدم فرض عقوبة مهما كان الذنب. أو تكون العقوبة نوعاً من التوبيخ الهادئ جداً الذي لا يمكن أن يروع أحداً فيستمر الخطأ. وقد يصل تدليل الأم لابنها أنها تُغطِّي على أخطائه أمام أبيه حتى لا يُعاقبه. بل قد تدافع عنه بالباطل، وهكذا يفسد الابن، إذ لا يجد مَن يؤدِّبه أو يربيه. وقد تقاسي الأم بعد ذلك من سوء سلوك ابنها وتطاوله عليها.

★★ ومن ألوان المحبة الضارة، محبة المريض لمَّا يزيد مرضه. كمريض بالسكر يحب الحلويات، أو مريض بالكوليسترول يحب الدهنيات. أو شخص يحب المخدرات ولا يقدر عن الامتناع عنها وكل هذا يضره. وكل من هؤلاء يضر نفسه دون أن يضره غيره ...

★★ وبالمثل شخص لمحبته الخاطئة لنفسه يكثر من الافتخار ومديح نفسه بطريقة تنفر الناس منه ... أو إنسان بخيل يحب المال ويكنزه ويُنمِّي رصيده، بأسلوب يبخل به على نفسه وعلى المحيطين به، فيضر نفسه ويضرهم.

★★ وهناك محبة أخرى للمرضى تضرهم. كأن يزورهم شخص يحبهم، فيبقى إلى جوارهم مدة طويلة يتحدث إليهم. وهم صحياً في حاجة إلى الراحة. وبكلامه معهم لا يعطيهم فرصة للاتصال بالله أثناء مرضهم. أو من المحبة للمريض، خداعه في نوع مرضه. فلا يهتم بأبديته وما يلزمه من التوبة. أو بتقديم مُتَع للمريض أثناء مرضه يمكن أن تضره.

وربُّما إنسان يحب شخصاً فيُضيِّع سمعته.

٢١ مارس ٢٠١٠

محبة خاطئة للنفس تضرها

كل إنسان في الدنيا يحب نفسه، ولا يوجد أحد لا يحب نفسه، وليست محبة النفس خطيئة. ولكنها تصبح كذلك إذا كانت محبة خاطئة أو تقود إلى خطأ. وهناك حروب روحية تُسمَّى حروب الذات، أو عبادة الذات، التي يتمركز فيها الإنسان حول نفسه ويقول أريد أن ابني نفسي، أو أن أُحقِّق ذاتي. وللأسف يبني نفسه بطريقة خاطئة.

★★ من المحبة الخاطئة للنفس، المحبة الخاصة باللذَّة والمُتعة. منها لذة الحواس التي تقود إلى الشهوة وإلى الخطيئة. وفيها قد يفتخر شخص ويقول: " مهما اشتهته عيناي لن أمسكه عنهما ". ويقود ذلك إلى كل أنواع المُتع العادية والضارة.

ومن أمثلة اللذة الخاطئة، ما يقع فيه البعض من ملاذ الجسد، أو المخدرات، أو التدخين، أو كل ما ينسيه عن نفسه. والواقع أنها ليست محبة حقيقية للنفس، التي تأتي عن طريق اللذة والمتعة، ما دامت متعة خاطئة.

★★ ومن المحبة الخاطئة للنفس، المحبة الخيالية. وفيها لا يستطيع الشخص أن يُمتِّع نفسه عملياً، فيسبح بفكره في تصورات إسعادها. وتكون متعته بالخيال أقوى من المتعة الحسية. لأن الخيال مجال واسع لا يقف عند حد. ويتصوَّر فيه الإنسان تصورات لا يمكن أن تحقق في الواقع. وتحصل له بذلك سعادة وهمية.

ومن هذا ما يسمونه بأحلام اليقظة. فكل ما يريد الشخص أن يمتع به نفسه، يغمض عينيه ويتخيله. ويؤلف حكايات وقصصاً عن مُتعة لا وجود لها في عالم الحقيقة. ويقول لنفسه سأعمل وأعمل، وسأصير وأصير... وقد يستمر في هذا الفكر بالساعات، وربُّما بالأيام. ويستيقظ لنفسه، فإذا هو في فراغ وقد أضاع وقته! وعلى رأي المثل العامي: "النفس الجوعانة تحلم بسوق العيش". ومثال آخر التلميذ الذي لن يستذكر دروسه، ولم يستعد عملياً للامتحان. وإنما يجلس إلى جوار كتبه، ويسرح في الخيال: يتخيل أنه نجح

بتفوق كبير، وانفتحت أمامه جميع الكليات، وصار وارتفع وارتقى وتخرَّج ... ثم يصحو إلى نفسه، فيجد أنه أضاع وقته وأضاع نفسه.

وكثير من المجانين يقعون في مثل هذا الخيال الذي يشبعون به أنفسهم، ويجدون به أنفسهم في مناصب ودرجات وألقاب. والفرق بينهم وبين العقلاء، أنهم يصدقون أنفسهم فيما يتخيلونه ويصيبهم نوع من المرض يُسمَّى البارانويا، وحكايات كثيرة.

كثيرون يضيعون أنفسهم بشهوة العظمة الخيالية. وهى محبة خاطئة للنفس. أمَّا العظمة الحقيقية فليست كذلك. والذي تحاربه شهوة العظمة، ما أسهل أن يدخل في حروب ومنافسات قد تضيعه على الأرض. وهذه العظمة الأرضية تضيعه في الأبدية. وهناك أشخاص لا يجدون لأنفسهم تلك العظمة الخاطئة، فيحاولون أن يجدوا العظمة بالكلام. بالفرح بمديح الناس لهم. وإن لم يجدوا ذلك، فإنهم يمدحون أنفسهم. ويتحدَّثون عن فضائلهم وأعمالهم المجيدة، لكي ينالوا تمجيداً من الناس. ولا شكّ أن حروب العظمة قد ضيَّعت كثيرين.

★★ هناك آخرون لا يقدرون على العمل البنَّاء. فيظنون أنهم يبنون أنفسهم بهدم البنائين. فيعملون على هدم وتحطيم غيرهم. ولا يسرَّهم شيء مِمَّا يعمله العاملون، فينتقدون كل شيء. ويبحثون عن أخطاء لتكون مجالاً لعملهم في النقد والنقض والتشهير. كأنهم يعرفون ما لا يعرفه غيرهم. وفي نفس الوقت الذي يحطمون فيه بناء غيرهم، لا يبنون هم شيئاً. حياتهم كلها صراع، ويظنون الصراع بطولة. ويفرحون بذلك، ويفتخرون بأنهم هاجموا فلاناً وفلاناً من الأسماء المعروفة. ويقول الواحد منهم إن عنده الشجاعة التي بها يقول للأعور أنه أعور في عينه! إنهم يحبون في أنفسهم أن لهم الطبع الناري. وشهوتهم أن يرتفعوا على جماجم الآخرين. على أنهم في صراعهم هذا الذي يتخيَّلون فيه أنهم وجدوا أنفسهم، يكونون قد ضيَّعوها ... كالطفل المشاكس في الفصل، الذي يشعر أنه قد وجد ذاته في معاكسة المدرسين! ويظن ذلك جرأة وشجاعة وقوة وبطولة يبني بها نفسه التي يحبها، ولكنها محبة خاطئة للنفس.

إن المحبة الحقيقية للنفس، هى بناء النفس من الداخل، حتى ولو كان هذا البناء بأن يقهر الإنسان ذاته، ويغلب ذاته. وبهذا الانتصار على النفس يبنيها من الداخل من حيث علاقتها بالله، ومن حيث المحبة التي تربطه بالكل. وقد ينكر ذاته لكي يظهر غيره. ومحبته الحقيقية لذاته، تجعله يضبطها، ولا يتركها تسير حسب هواها. ولا تفرح نفسه مطلقاً بهدم الآخرين. فالهدم أسهل كثيراً من البناء. وكما يقول المَثَل: "البئر الذي يحفره العاقل في سنة، يمكن أن يهدمه الجاهل في يوم".

هناك أشخاص يحبون أنفسهم بأسلوب خاطئ في فهم الحرية. حيث يظن الشخص أنه في حريته يفعل ما يشاء بلا قيد حتى المبادئ والقيم والتقاليد. يجب أن يتخلَّص من كل ذلك ويفتخر بأنه يتمتَّع بالحرية التي يهلك بها نفسه. مثال ذلك الشواذ، والوجوديون. كل أولئك يقصدون بالحرية، الحرية الخارجية. وليست حرية القلب من الرغبات الخاطئة، ولا يفهمون الحرية بأنها التَّحررُ من الخطايا والأخطاء، والتَّحررُ من العادات الفاسدة التي تستعبدهم. وأخطر من أولئك: الذين يعطون لأنفسهم الحرية في تفسير الكتاب حسب أهوائهم وينشرون آراءهم الخاصة كعقيدة. ويحب الواحد منهم أن يكون مرجعاً في المعرفة يقود غيره. ويحاول أن يأتي بفكر جديد ينسب إليه وينفرد به. ومن هنا ظهرت البِدَع، التي بها ابتدع الناس أفكاراً جديدة ضد التسليم العام.

★★ ومن المحبة الخاطئة للنفس، الإعجاب بالنفس. إذ يكون الشخص باراً في عيني نفسه، وحكيماً في عيني نفسه. ويدخل في عبادة النَّفس. ولا مانع أن يكون الكل مخطئين، وهو وحده الذي على صواب. وهذا النوع يبرر ذاته في كل عمل وفي كل خطأ. ويرفض كل توجيه. وإن عوقب على خطأ، يملأ الدنيا صراخاً: إنه مظلوم! ولا ينظر إلى الذنب الكبير الذي ارتكبه، وإنما يدَّعي قسوة من عاقبه. والعجيب أن الكثيرين من هؤلاء الذين يقعون في الإعجاب بالنفس، يكون اللَّه قد منحهم مواهب. ولكنهم استخدموا المواهب في الإضرار بأنفسهم.

٢٨ مارس ٢٠١٠

فضيلة الاحتمال

الاحتمال موضوع طويل، وله أسباب عديدة: فهناك من يحتمل بسبب الوداعة والهدوء في طبعه. وهناك من يحتمل لاتضاع قلبه. أو بسبب الحكمة إذ يتجنب عواقب الأمور. أو لأسباب أخرى... ولكن موضوعنا الآن هو الاحتمال بسب المحبة، المحبة التي تحتمل كل شيء.

★★ فالذي يحب شخصاً يكون مستعداً أن يحتمل منه، وأن يحتمل من أجله. يحتمل منه إساءاته وأخطائه. ويحتمل من أجله في الدفاع عنه.

★★ ومن أمثلة المحبة التي تحتمل، محبة الأمومة ومحبة الأبوة: فالأم تحتمل متاعب الحمل والولادة، ومتاعب الرضاعة، وحمل الابن في صغره، ومتاعب الصبر في تربية أبنائها والعناية بهم في غذائهم وفي نظافتهم، وفي الاهتمام بصحتهم، وفي تعليمهم النطق والكلام، وفي الصبر على صراخ الأطفال وصياحهم وعنادهم إلى أن يكبروا.

ومن جهة الأب: يحتمل كثيراً في تربية أبنائه، وفي مشقة العمل للإنفاق عليهم وتوفير كافة احتياجاتهم.

★★ ومن أمثلة المحبة التي تحتمل، ما احتمله الشهداء من سجن وعذابات لا تُطاق، ثابتين في محبة اللَّه، ورافضين أن ينكروه إلى أن قُطعت رقابهم... ولا ننسى أيضاً احتمال الأنبياء والرسل في نشر رسالة الإيمان، وما يتلقونه من متاعب ومقاومات.

ومن أجل محبة اللَّه أيضاً احتمل الرهبان والنُسّاك أن يعيشوا في البراري والقفار وشقوق الأرض، بعيداً عن كل عزاء بشري، في شظف الحياة زاهدين في كل شيء.

★★ ومن أمثلة المحبة التي تحتمل، محبة الجنود لوطنهم. إذ يحتملون مشاق التدريب والحرب، والتعرض للموت أو للإصابة. وربما يحتملون أيضاً فقد بعض أعضائهم أو التعرض لجروح شديدة أو تشوّهات... ونفس الوضع نقوله على ما تحتمله الشرطة لحفظ الأمن، وما يتعرضون له أحياناً من مقاومات من المتمردين على النظام.

كل هذه الأمثلة عن المحبة من أجل الغير، المحبة التي لا تطلب ما لنفسها... ومن الأمثلة أيضاً رجال المطافئ، وفرق الإنقاذ على تنوع تخصصاتهم. أولئك يعرضون أنفسهم للحريق أو للغرق أو للموت بأنواع كثيرة من أجل الغير.

★★ ننتقل إلى نقطة أخرى وهي الحديث عن محبة المخطئين واحتمال تصرفاتهم. المحبة التي تحتمل الغير وتغفر له، والمحبة التي تحتمل الإساءة ولا ترد بالمثل. ولا تُشهّر بالمخطئ، ولا تشكو منه بل المحبة التي تنسى الإساءة، ولا تخزنها في ذاكرتها كما يفعل البعض إذ يتذكر الإساءة لشهور وسنوات، أما المحبة الغافرة فكثيراً ما تنسى حقوقها الخاصة.

★★ المحبة التي تحتمل هي محبة الشخص صاحب القلب الكبير الواسع. الذي يحتمل كلام الآخرين حتى لو كان ذلك بألفاظ صعبة. ويحتمل حتى الفكاهة ولو كانت بأسلوب يبدو فيه تهكم. ويحتمل العتاب القاسي ولا يتضايق.

على أن يكون الاحتمال في غير ضجر ولا تذمر ولا ضيق. بل بصدر رحب وروح طيبة، غير متمركز حول ذاته وحول كرامتها... وطبيعي أن المحبة التي لا تطلب ما لنفسها، سوف لا تطلب حقوقاً لذاتها، وبالتالي ستحتمل كل شيء، دون أن تحتد.

★★ بعض الناس لا يحتملون الذين لا يفهمونه. ومن هنا كانت مشكلة الأذكياء مع الجهلاء أو الأقل فهماً، أو مع الطبقات الجاهلة. لذلك يبعد مثل هؤلاء الأذكياء عن كثيرين من الناس. وقد لا يحتمل الواحد منهم طول الوقت في إقناع غيره، فيبعد عنه. بينما لو كانت في قلبه محبة لأطال أناته على من لا يفهمه، وبمحبته يصبر عليه. وبذلك يمكنه أن يضم إليه هذا الجاهل باحتماله له، ويرجو منه خيراً! ونفس الوضع في معاملته للأطفال.

★★ إن القلب الضيق الخالي من الحب، هو الذي لا يحتمل الآخرين. أما القلب المتسع فيستطيع أن يحتمل كل الناس. لذلك كن متسعاً في قلبك وفي صدرك وفي فهمك. ولا تتضايق بسرعة واعرف أن المجتمع فيه أنواع متعددة من الناس. وليسوا جميعاً من النوع الذي تريده. يوجد فيهم كثيرون لم يصلوا بعد إلى المستوى المثالي، ولا إلى المستوى المتوسط. وعلينا أن نحبهم جميعاً. وبالمحبة ننزل إلى مستواهم لنرفعهم إلى مستوى أعلى. نتأنى عليهم، ونترفق بهم، ونحتمل كل ما يصدر من جهالاتهم، ونصبر عليهم حتى يصلوا...

لا تقل: " الناس متعبون ". بل بمحبتك تعامل معهم، وحاول أن تصلح من طباعهم. لأنك لو كنت لا تتعامل إلا مع المثاليين، فعليك أن تبحث عن عالم آخر تعيش فيه. في إحدى المرات قال لي شخص: " أنا لم أعد احتمل (فلان) إطلاقاً. إنه شخص لا يطاق ولا يمكن احتماله!! ". فقلت له: " وكيف إذاً احتمله اللَّه منذ ولادته حتى الآن؟! وكيف احتمل غيره وأمثاله منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا؟! ". فإن كان اللَّه يحتملنا في كل أخطائنا، فلماذا لا نحتمل غيرنا.

وكم مرة قدمنا للَّه توبة كاذبة، وكان اللَّه يقبلنا. ثم نعود إلى خطايانا السابقة، ويحتملنا اللَّه ويطيل أناته علينا حتى نتوب مرة أخرى. وكم مرة يأتي موعد الصلاة، فنقول ليس لدينا وقت لنصلي! عجيب أن هذا التراب يقول لخالقه: " ليس لدي وقت لأكلمك!! "، ويحتمل اللَّه عبده... وكأنه يقول لهذا العبد: إن وجدت وقتاً افتكرني.

حقاً ليتنا نتعلم دروساً من معاملة اللَّه، ونحتمل الناس. نحتملهم كما يحتملنا اللَّه، ونحتملهم كما احتملهم.

★★ كذلك الإنسان المحب للَّه يحتمل التجارب والمشاكل والأمراض. ولا تتزعزع محبته للَّه مهما طال وقت التجربة أو ازدادت حدتها. بل يحتمل في ثقة وفي غير تذمر ولا يتعجل حل المشكلات... بل ينتظر الرب متى يحين الوقت الذي يخلصه فيه. والذي يحب اللَّه لا يتضايق من انتظاره للرب بل يحتمل. فقد يصلي، ولا يجد أن الصلاة قد أُستجيبت. فلا يشك في محبة اللَّه له، ولا يظن أن اللَّه قد نسيه. بل يحتمل ما يظنه متأخراً في الاستجابة!! واثقاً أن اللَّه لا بد سيعمل من أجله. ولكن اللَّه دائماً يعمل في الوقت المناسب حسب حكمته.

إن القلب الضيق أو الذي محبته قليلة، هو الذي يتضجر. ويريد أن يطلب الطلب، وينأله في التو واللحظة، دون أن يحتمل عامل الزمن!!.

٤ أبريل ٢٠١٠

تجلّي الطبيعة البشرية بالقيامة

أهنئكم يا أبنائي وإخوتي الأحباء بعيد القيامة المجيد، راجياً لكم جميعاً ولمصرنا العزيزة كل خير وبركة من إلهنا الصالح. ومصلياً من أجل كل المشاكل في أفريقيا وفي كل الشرق الأوسط، وفي الأراضي المقدسة وفلسطين. وإله السلام قادر أن يفيض بسلامه على الكل. وما لا يستطيعه البشر، يستطيعه اللّه القادر على كل شيء.

وبعد، أريد أن أكلمكم اليوم عن عنصر هام جداً من عناصر القيامة: وهو أنه في القيامة يتم تجديد وتجلي الطبيعة البشرية. وتجلي هذه الطبيعة يشملها جسداً وروحاً وعقلاً وفكراً. فتصبح بتجليها في حياة جديدة، مقدسة تماماً، مختلفة عما كانت قبلاً.

★★ فمن جهة الجسد، نحن نقوم بأجساد نورانية روحانية، قد تخلصت تماماً من المادة التي كانت متحدة بها في الحياة الأرضية، وبالتالي تتخلص من كل حروب المادة وما يتعلق باللحم والدم. وفي تجلي الجسد، لا يشعر الإنسان في الأبدية بأي جوع، أو عطش، أو تعب، أو مرض، ولا يقاسي من شهوات جسدية أو مادية. ولا من طياشة الحواس وشغبها وانحرافاتها... هذا من الناحية السلبية.

★★ أما من الناحية الإيجابية، فإن الحواس في تجليها ترى ما لا يُرى، أو ما لم تكن تراه من قبل. فترى أرواح القديسين الذين سبقوها إلى عالم المجد. وترى الملائكة الذين لم ترهم من قبل، وكلهم أرواح لا يُرون إلا بتجلي البصر البشري، وفي تجلي الحواس تسمع الطبيعة البشرية ما لم تكن تسمعه من قبل: من التسابيح السمائية، وأناشيد الملائكة، وأصوات الأبرار من كافة البلاد وعلى مر كل العصور. تسمعهم وتتكلم معهم. وهذا لا تحدث إلا بتجلي الطبيعة البشرية.

★★ الروح أيضاً تتجلى، ولا تخطئ أبداً إلى الأبد. لقد كانت تخطئ عندما كانت متحدة بالجسد، يجرها أحياناً معه في شهواته وفي اتجاهاته المادية، كما تحيطها المادة بإغراءات كثيرة وحروب. أما في القيامة فقد تخلصت من هذا كله وتحررت. ومنحها اللّه

" إكليل البر " فصارت بارة على الدوام، وأصبحت تتغذى بالحب الإلهي، وتنمو به يوماً بعد يوم. وصارت متعتها الحقيقية هى عشرة اللَّه وملائكته وقديسيه.

★★ وما أجمل قول السيد المسيح عن الحياة في الأبدية، إذ يقول عنها " تكونون كملائكة اللَّه في السماء ". أي في طهارة الملائكة البعيدة عن كل الشهوات الجسدية، وكذلك خفة الملائكة الذين يتحركون في لمح البصر إلى أبعد مكان، دون أن يقطعوا وسطاً في الطريق.

★★ في تجلي الطبيعة البشرية، يتجلى العقل أيضاً والفكر والمعرفة. فلا تجول أية فكرة خاطئة في العقل، إذ تكون الطبيعة البشرية قد وصلت في تجليها إلى نقاوة العقل نقاوة كاملة. ويصبح في بساطة أبوينا الأولين قبل السقوط في الخطيئة.

أما عن المعرفة، ففي التجلي لا يعرف الإنسان سوى الخير فقط. لقد كان في القديم في ازدواجية متعبة، من الخير والشر، والحلال والحرام، وما يليق وما لا يليق. يتأرجح ما بين وضع وعسكه. أما في تجلي الطبيعة البشرية، فأصبحت معرفتها قاصرة على الخير فقط. وزالت منها كل معرفة لكل أسماء الشر ومرادفاته. ومُحيت من ألفاظ القاموس البشري الجديد كلمة الخطيئة وما يتبعها من كلمات الفساد، والظلم، والزنى، والدعارة، والقتل، والخداع والكذب والسرقة... وما إلى ذلك.

★★ مع محو الماضي الأثيم كله من ذاكرته، مع كل أخباره وقصصه وذكرياته، كما تُمحى صور الناس الأشرار، أعداءً أو أصدقاء. وبعبارة مختصرة: يُنسى كل ما تركز في العقل الباطن وفي الذاكرة. ويصبح للطبيعة البشرية في التجلي عقل باطن جديد طاهر لا يحوي إلا البر، كما يكون لها قاموس جديد للألفاظ، ليست فيه كلمات الخطيئة على الإطلاق. بل كل ألفاظ جديدة بارة.

★★ وفي تجلي المعرفة، يبدأ أن يكون للإنسان معرفة باللَّه، أقصد المعرفة الحقيقية العميقة. فنحن الآن لا نعرف عن اللَّه إلا اسمه، دون أن نعرف الجوهر: نعرف مثلاً أن اللَّه كامل، ولكن ما كنه هذا الكمال؟ هذا لا نعرفه. نعرف أن اللَّه عظيم. ومع ذلك لا نعرف ما كنه هذه العظمة. نعرف أن اللَّه أبرع جمالاً من بني البشر، ولكننا لا نعرف ما كنه هذا الجمال. كل ما نعرفه عن اللَّه هو مجرد أسماء كثيرة، دون أن ندرك كنهها!!

ولكن في الأبدية، حين تتجلى طبيعتنا البشرية، فإن معرفتنا سوف تتجلى، حينما يكشف لنا ذاته أو بعضاً من ذاته. فنصبح في ذهول من عجب وروعة مما لا نستطيع أن

ندركه. حينئذ يوسع اللَّه مجال إدراكنا حتى نستوعب عنه ما هو أكثر... ومع ذلك كل ما ينكشف لنا من مجد اللَّه وجلاله وجماله وكماله، يجعلنا في غاية الذهول والعجب، والعجز عن الإدراك، فيوسع اللَّه إدراكنا أكثر وأكثر حتى يمكننا أن نقترب من فهم ذاته الإلهية، ونحن لا نفهم! أما متى سنعرف اللَّه كما هو، فهذه هي الحياة الأبدية بطولها غير المحدود التي لا تكفي لمعرفته مهما تجلت معرفتنا!. على أننا كلما نعرف عن اللَّه أكثر، كلما نزداد في محبته وإجلاله.

★★ ومع تجلي معرفتنا، نبدأ في أن نعرف أشياء أخرى عن الملائكة بكل طغماتهم وصفوفهم وعملهم، ويحتاج هذا بلا شك إلى مدى طويل. ثم تتوسع معرفتنا بجميع الأنبياء والرسل والشهداء والعبّاد والنساك وسائر الذين أرضوا الرب منذ البدء. فنفرح بهذا ونبتهج بعشرتهم. وتزداد معرفتنا سعياً وراء فهم كل أسرار الملكوت.

وكل هذا يعمّر عقلنا الواعي وعقلنا الباطن بأخبار البر التي تتعلق بكل هؤلاء وكل ما عملوه في محبة اللَّه وإرضائه. وبكل هذا نتعلق بالبر وبالخير، ويصبح طبيعة فينا، لسنا نجاهد لإدراكها كما كان يحدث في الحياة الأرضية.

★★ وأخيراً، وأنا أتكلم عن تجلي الطبيعة البشرية، أريد أن أذكر بعض أمثلة لتبسيط هذا الموضوع:

يحدث أحياناً في أيامنا هذه أن يكون فكر شخص صافياً تخرج منه أفكار في منتهى الروعة. كأن يؤلف قصة أو رواية في منتهى الإبداع، تترك تأثيراً عميقاً في الكل. أو شخص ينظم قصيدة تعتبر من أمهات الشعر في خيالها وموسيقاها وعميق معانيها... فنقول عن هذا الشاعر أو ذلك القصصي إنه كان في حالة تجلي.

وقد نقول عن إنسان إنه في حالة تجلي، إذا كان اللَّه قد وهبه موهبة معينة بقدرة غير طبيعية في لون من الفن أو الموسيقى أو الرسم أو النحت أو في صناعة ما. فينتج إنتاجاً نادراً نقول عنه إنه نوع من التجلي. ولكن كل هذه الأمثلة تدل على تجلٍ مؤقت. أما التجلي الذي يكون للطبيعة البشرية بعد القيامة، فهو دائم وثابت.

★★ ما أعظم التجلي الذي يكون لطبيعتنا في الأبدية. ولكن ما قلناه ينطبق على الأبرار الذين يصلون إلى السماء، وهم في حالة من النقاوة تؤهلهم لمجد هذا التجلي.

ليتنا إذن نستعد لكل ذلك بحياة مقبولة أمام اللَّه.

١١ أبريل ٢٠١٠

ثمار التوبة وعلاماتها

كيف تعرف أنك قد تبت؟ وكيف يعرف الغير توبتك؟ إن التوبة ليست مجرد عمل قلبي. إنما هناك أعمال وثمار تليق بها، كما قيل "من ثمارهم تعرفونهم". فما هي هذه الثمار التي تدل على أن الإنسان تائب.

★★ أول علامة للتوبة هى الاعتراف بالخطأ. وأول مرحلة لذلك هي أن تعترف بينك وبين نفسك أنك قد أخطأت. ولكي تصل إلى ذلك عليك أن تحاسب نفسك بدقة، وتشعر في أعماقك باقتناع كامل أنك قد أخطأت. لأنه بدون هذا لا تكون توبة. وصدق ذلك القديس الذي قال: "احكم يا أخي على نفسك قبل أن يحكموا عليك". فالذي لا يدين نفسه ولا يحكم عليها، لا يحدث أنه يقف أمام اللّه معترفاً بخطيئته طالباً المغفرة. فالإنسان التائب يشعر أنه أخطأ إلى اللّه، بكسره لوصاياه، وبخيانته لقلب اللّه الحنون العطوف الذي تولاه بالعناية والرعاية والحب والستر ولكنه مع ذلك أحب الخطية أكثر من محبته للّه!.

والذي يعترف بينه وبين نفسه أنه قد أخطأ، لا يجوز له أن يبرر ذاته، أو يدافع عن نفسه، أو يلصق مسؤولية أخطائه للآخرين.

★★ والتائب الذي يشعر أنه في خطيئته قد أساء إلى غيره، فأنه في توبته يجب أن يذهب إلى من أذنب إليه ويحاول أن يرضى قلبه من جهته ويصالحه. لأنه لا يليق بالتائب أن تكون هناك نفوس متضايقة منه وهو لا يعبأ! وكيف يطلب من اللّه المغفرة، بينما هناك نفوس أخرى تشكوه إلى اللّه؟!

★★ هناك أمران يمنعان من التوبة ومن الاعتراف بالخطأ، هما الأعذار والبر الذاتي. كأن يعتذر الإنسان بضعفه، أو بضعف الطبيعة البشرية عموماً، أو بشدة الحروب الخارجية، أو أنه ارتكب الخطيئة عن جهل أو نسيان، أو كان فيها ضحية لغيره وبذلك يلصق المسؤولية بغيره أو أنه يتهم القادة الدينيين بعدم رعايتهم له. بل أكثر من ذلك كله يعاتب اللّه سبحانه، لأنه لم يرسل إليه معونة تمنعه من السقوط. أما التائب الحقيقي يقف أمام اللّه كمذنب لا يبرئ ذاته. أما الأعذار فأنها تحاول أن تغطي على الخطية أو تخفف

من ثقلها، لا أن تتوب عنها. أما البر الذاتي فهو أخطر، لأنه ينكر وجود الخطيئة أصــلاً. أنه أخطر من الأعذار التي تعترف بوجود خطيئة، وإنما تحاول أن تهرب من مسـئوليتها أو تقلل منها. وعجيب أن الهاربين من مسؤولية أخطائهم: إن واجههم أحـد بخطايـاهم، يجادلون كثيراً ولا يعترفون.

★★ إن الأخطاء التي نعترف بسقوطنا فيها، هى التي نتوب عنهـا ونطلـب عنهـا مغفرة. ولسنا نندم فقط على الخطايا التي نعرفها ونعترف بها. بل نحتاج أيضـاً أن ننـدم على خطايا أخرى يكشفها اللّه لنا فيما بعد، أو تنكشف لنا من خلال قراءتنـا الروحيـة، أو ما نسمعه من العظات ومن أفواه المرشدين. فنبدأ أن نتوب عنها. وهكـذا ننمـو فـي توبتنا. لأن مقايسنا الروحية تصبح أكثر حساسية، وموازيننا الروحية تصبح أكثـر دقـة. فلا نعرف فقط أخطائنا، إنما بالأكثر نشعر بثقل هذه الخطايا وبشاعتها. ومن الجـائز أن فضائلنا التي نفتخر بها الآن، نلوم ذاتنا بسببها فيما بعد بسبب ضآلتها وتفاهتها وضـعف مستواها، كلما تتسع أمامنا الآفاق الروحية.

خير لنا مادمنا في الجسد، وما دامت أمامنا فرصة للتوبة، أن نعترف بأننـا أخطأنـا ونتوب، قبل أن يغلق الباب.

★★ والتائب الذي يشعر ببشاعة الخطية، يشعر أيضاً بالخجل منها. وكأنـه يقـول لنفسه كيف أمكن أن أسقط وأصل إلى هذا المستوى؟! أين كان عقلي وأين كان ضميري؟ كيف ضعفت وكيف استسلمت؟! إنه يخجل من خطيئته التي تتعب ذاكرته وتطارده، كأنها سياط من نار تلهب ضميره.

أنه يخجل من محبة اللّه له. وكيف أنه قابل محبة اللّه بالجحود والنكـران وبالخيانـة أيضاً! ويخجل أيضاً من أن اللّه كان يراه في سقطاته، اللّه الكُلِّي القداسـة والكمـال ... ويخجل من طول أناة اللّه عليه وكيف صبر عليه! ويخجل من أرواح القديسين والملائكة، الذين كانوا يرونه في سقطته ويتعجَّبون، ويُصلُّون من أجله لكي يقوم ... بل يخجل أيضاً من أرواح أقربائه وأصدقائه الذين انتقلوا من هذا العالم، وكيف أنهم لا بد يتعجبون مـن حالته ... بل يخجل أيضاً من أعدائه الذين يشمتون به إن عرفوا سقطاته ... بل يخجـل من وعوده التي وعد بها اللّه من قبل، وكيف أنه حنث بكل عهوده.

وفي خجله من خطاياه تصغر نفسه في عينيه لسبب ما يراه من سقوطها وضعفها. لكل ذلك نحن نطوّب التائبين الذين يشعرون بالخزي من خطاياهم.

★★ ومن علامات التوبة الحقيقية: الندم، وتحمل آلام وخذ الضمير وتبكيته. وكذلك قبول العقوبات التي يفرضها على نفسه أو التي تُفرض عليه من المجتمع. فيقبلها برضى وبغير تذمر ولا شكوى، وهو شاعر أنه يستحق كل هذا. وازدياد ندم الإنسان وألمه على خطاياه السابقة، إنما يدل ذلك على حساسية في قلبه المرهف وضميره الدقيق. وصدق القديس أنطونيوس الكبير حينما قال: " إن ذكرنا خطايانا، لا يذكرها لنا اللَّه، وإن نسينا خطايانا يُذكِّرنا بها اللَّه ".

نعم اذكر خطاياك لكي تعرف ضعفك فتحترس وتُدقِّق فيما بعد. واذكرها لكي تعرف كم غفر اللَّه لك في توبتك. وبندمك ولومك لنفسك على خطاياك، تصل إلى حالة من الاتضاع، التي تُبكِّت بها نفسك على سقوطها. ولا يعود قلبك يرتفع وتتكبر. وبلومك لنفسك ومعرفتك بضعفها، تقتني الشفقة على المخطئين.

★★ ومن علامات التوبة إصلاح نتائج الخطأ. الإنسان الذي ظلم غيره من قبل من المفروض في توبته أن يرد إليه اعتباره. والذي سرق من أحد يجب عليه أن يرد المسروق بقدر استطاعته. والذي شهر بغيره وأساء إلى سمعته ينبغي عليه أن يُصلح ذلك أيضاً.

وإن كان إصلاح نتائج الخطية غير ممكن، فعلى الأقل يجب أن تنسحق النفس لهذا السبب إذ ارتكب الإنسان خطايا من الصعب علاج نتائجها.

إن التائب الحقيقي الذي شعر بضعفه، لا يُركِّز على خطايا غيره، إنما على خطاياه وحده. كذلك ينبغي أن يغفر لغيره ما أساء به إليه، كما غفر الرب له.

١٨ أبريل ٢٠١٠

التداريب الروحية

إن الدين ليس هو مجرد معلومات، ولا مجرد امتلاء من المعرفة الدينية. فالمعرفة وحدها لا تكفي. فماذا يستفيد الإنسان لو كان يعرف كل المعلومات عن الفضيلة، دون أن يسلك فيها؟! إننا نقرأ كثيراً، ونستمع إلى الكثير، ونهتم بأن نحشوا أذهاننا بالمعلومات. فهل تغيرت أحوالنا بمجرد المعلومات؟ أم ينبغي أن تتحول المعلومات إلى عمل؟! إن كثيرين من أصحاب المعرفة لهم ضعفات ثابتة، تكاد تصل إلى مستوى الطباع، وتستمر معهم على مدى سنوات طويلة. وكذلك لأنهم لم يُدرِّبوا أنفسهم على ترك تلك الضعفات.

★★ ومن هنا كانت أهمية التداريب الروحية: فبها يدخل الإنسان في مواجهة عملية مع نفسه. إمَّا ترك خطاياه، أو اكتساب فضائل تنقصه، أو النمو روحياً. وهكذا يحول بها المعرفة الروحية إلى حياة. وكذلك يحول الاشتياقات الروحية إلى حياة عملية. وفي التدريب العملي يعرف حقيقة نفسه، ومن أين يأتيه الخطأ، ما هي أسبابه ومصادره ويدخل بالتدريب في طريق المقاومة. ويعرف العقبات التي تصادفه، وأسلوب الانتصار عليها.

★★ والتدرايب الروحية تدل على أن صاحبها سهران على خلاص نفسه: يكتشف أخطائه ونقائصه، ويتدرب على تفاديها.

لذلك أنصحك أيها القارئ العزيز أن تكتشف أخطاءك، أو الأخطاء التي يكشفها غيرك لك. لأنه بدون اكتشاف أخطائك، لا يمكنك أن تُدرِّب نفسك على تركها. لأنه لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. فلا تتضايق إذن ممَّن يظهر لك عيباً فيك. بل استفد من هذا الكشف لكي تتدرَّب على التخلُّص من ذلك العيب. بل أنت نفسك حاول أن تفحص ذاتك جيداً في ضوء وصايا اللَّه.

★★ واحذر من تبريرك لنفسك والتماس الأعذار في أخطائك. فالذي يُبرِّر نفسه، يبقى دائماً بحيث هو. لا يصلح من ذاته شيئاً، لأن ذاته جميلة في عينيه بلا عيب!! أمَّا الذي يُحاسب نفسه بدقة ولا يعذر نفسه مطلقاً مهما كانت الظروف فهذا هو الشخص الذي يمكنه أن يعرف عيوبه، ويمكنه أن يُدرِّب نفسه على تركها.

إن كنت تستحي من أن يكشف لك الغير خطأ فيك، فلا شك أن تستحي من نفسك من نفس الخطأ! فاجلس إذن إلى ذاتك وكُن صريحاً مع نفسك إلى أبعد الحدود. وحاول أن تطرق نقط الضعف التي فيك، ونقط النقص التي تكشفها لك القراءة الروحية، أو تدركها من سماعك لبعض العظات التي تشعر أنها تمس حياتك.

★★ فلو أنك دربت نفسك كل أسبوع، أو حتى كل شهر على مقاومة نقطة ضعف واحدة، لأمكنك في عام واحد أن تتخلص من ١٢ نقطة ضعف. وثق أن الخطايا يرتبط بعضها بالبعض الآخر. بحيث أنَّ تخلّصك من خطيئة معينة، قد يُخلِّصك من خطايا أخرى عديدة مرتبطة بها.

كما أن تدربك على فضيلة معينة، وبخاصة لو كانت من الفضائل الأمهات، فلا بد أن ذلك سيقودك إلى فضائل أخرى ما كنت قد وضعتها في تدريبك. الفضائل أيضاً مرتبطة ببعضها البعض، كحلقات في سلسلة واحدة.

★★ إن الإنسان الروحي الذي يدرب نفسه على حياة الفضيلة، فأنه في كل تدريب يكتسب دون أن يقصد فضيلة ضبط النفس. وفي ذات الوقت يكتسب معونة إلهية تساعده على ترك الخطية. لأنه من الواضح أنك إن بدأت في تدريب نفسك في حياة الفضيلة، لا بد أن نعمة اللّه ستبدأ معك أيضاً. فاللّه - جلّت قدرته - لا يتركك وحدك في تدريبك، بل سيعمل معك. لأنك بالتدريب تظهر أنك جاد ومُلتزم بالسلوك في الحياة مع اللّه. وهذا الشعور ستتجاوب معه المعونة الإلهية. وإن كان الشيطان يحاربك لتكسر التدريب، فإن النعمة سوف تسندك لتنجح فيه. المهم أنك لا تتراجع ولا تتراخى ولا تكسل في تدريباتك. بل كن حازماً مع نفسك.

★★ وإن دربت نفسك على فضيلة، فاعلم أن الثبات في الفضائل أهم من بدأ اقتنائها. لأنه ما أسهل أن يسير الإنسان في فضيلة ما يوماً أو يومين أو ثلاثة أو أسبوع. ولكن المهم أن يستمر حتى تصبح هذه الفضيلة عادة فيه، أو تتحوّل إلى طبع. وهكذا تحتاج التداريب إلى مدى زمني طويل تكاد ترسخ في أعماق النفس. لأن كل تدبير لا يثبت فيه

الإنسان زمناً، يكون بلا ثمر. فالاستمرارية هى المحك العملي لمعرفة عمق الفضيلة فيك. وأيضاً تُعطي فرصة لاختبار المعوقات التي تقف ضد التدريب وطريقة الانتصار عليها. لهذا فإن القفز السريع من تدريب إلى آخر، لا يفيد روحياً. ذلك لأن كثيرين يريدون أن يصلوا إلى كل شيء في أقل فترة من الوقت. فتكون النتيجة أنهم لا يصلون إلى أي شيء!! أو أنهم يضعون أمامهم تداريب عديدة في نفس الوقت، بحيث ينسون بعضهم، أو لا يستطيعون التركيز عليها جميعاً. أمَّا أنت فاُسلك في تداريبك بحكمة، شيئاً فشيئاً، لكي تصل. وهنا أضع أمامك بعض الملاحظات:

★★ ليكن تدريبك مُحدّداً وواضحاً. فلا تقل مثلاً: أدرِّب نفسي على المحبة. وكلمة المحبة تشمل فضائل عددية جداً. بل يمكنك الاكتفاء بعنصر واحد تُركِّز عليه، ثم تتابع بعد ذلك. ولا تقُل لنفسك: أُريد أن أتدرَّب على حياة الاتضاع والوداعة. بينما تكون هذه الكلمات غير واضحة في تفاصيلها أمامك. وهكذا لا تفعل شيئاً. إنما قُل مثلاً: أُريد في حياة الاتضاع أن أُدرِّب نفسي على أمر واحد فقط، وهو إنني لا أمدح ذاتي. فإن أتقنت هذا، قُل لنفسك: أُدرِّب ذاتي على أني لا أسعى وراء مديح الناس. فإن أتقنت هذا قُل أُدرِّب نفسي على شيء آخر: وهو إن مدحني أحد أتذكَّر في الحال خطاياي وتقصيري، وأُبكِّت ذاتي من الداخل. فإن لم تستطع شيئاً من كل هذا أُدخل في تدريب آخر لأنَّ التدريب ينبغي أن يكون في حدود إمكانياتك، بحيث يمكنك تنفيذه عملياً.

★★ هناك شخص يُريد أن يُدرِّب نفسه على ترك أخطاء الكلام. فيقول: أُريد أن أُدرِّب نفسي على الصمت. ولا يستطيع ذلك. وقد يصمت فترة يمكن أن يتكلَّم بأخطاء كثيرة! كمال قال المثل: " سكت دهراً، ونطق كُفراً ". إنما يستطيع هذا الإنسان أن يُدرِّب نفسه على بعض نقاط في أخطاء الكلام فمثلاً يُدرِّب نفسه على عدم الإطالة في الحديث. كما يحتاج إلى كلمة، لا يقول فيها جملة. وما يحتاج إلى جملة، لا يلقي فيه محاضرة. وإن فهم محدِّثه ما يريد، لا داع لأن يزيد. ثم يُدرِّب نفسه على عدم مقاطعة غيره في الحديث. أو يُدرِّب ذاته على الصمت الهادئ. أما أن يدخل في التدريب على مقاومة كل أخطاء اللسان، فلن يصل إلى شيء مرَّة واحدة.

٢٥ أبريل ٢٠١٠

صفات الإنسان الوديع

الإنسان الوديع هو شخص هادئ لا حدة في صوته ولا صياح. وقد قيل عن السيد المسيح الوديع أنه: لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ.

الوديع لا يصرخ في الناس منتهراً، ولا يثور. أنه إنسان دمث الخلق، هادئ، يريد دائماً أن يكسب محبة الناس سواء على الأرض أو في السماء.

★★ هنا وأحب أن أفرق بين هدوء الطبع، وبرودة الطبع ... فالإنسان الوديع الهادئ لا يثور على الناس، ولا يثيرهم. بينما البارد في طبعه، قد لا يثور، ولكن ما أسهل أن يثير ببروده! وذلك بأن يرد عليهم بردود باردة قد تتعب أعصابهم أو تحطمها. أمَّا الوديع فهو إنسان هادئ يشيع الهدوء في النفس وهو أيضاً طيب القلب، يحب أن يرضي الناس. يحب أن يكون في علاقة طيبة مع الجميع. فلا يغضب من أحد مهما حدث ... ولا يستريح إن ترك أحداً غاضباً عليه. بل يهمه أن الكل يدعون له بالخير.

★★ والإنسان الوديع يكون هادئاً من الداخل كما من الخارج. إنه ليس مثل بعض الناس الذين يظهرون هادئين من الخارج، بينما في داخلهم ثورة وغليان. وهم يكتمون غضبهم لسبب روحي أو غير روحي، أو لسياسة ما، أو احتراماً لِمَن هو أكبر منهم أو خوفاً من نتائج الغضب ... أمَّا الوديع فهو هادئ تماماً. فمِن الداخل مشاعره وعواطفه واحساساته في هدوء وسلام قلبي ... ومن الخارج له ابتسامة لطيفة بشوشة، يقابل بها أحاديث الناس ومعاملاتهم. ولا يحدث أن يراه الناس وقد اكفهرت ملامحه، أو احمرَّت عيناه. أمَّا الإنسان الذي يبدو هادئاً من الخارج، بينما يغلي في داخله، ليس هو وديعاً في الحقيقة. أقصى ما نقوله عنه إنه يحاول أن يتدرَّب لكي يصير وديعاً!

★★ والإنسان الوديع لا ينتقم لنفسه. بل في كثير من الأحيان لا يُدافع عن نفسه، بل يترك اللَّه ليُدافع عنه. أنه كثيراً ما يتنازل عن حقوقه، بدون أن يحزن. فهو لا يشاء مُطلقاً أن يخسر أحداً من الناس بسبب هذه الحقوق. فسلامه مع الناس هو عنده أهم من التَّمسُّك بحقوقه. وهو يفعل ذلك تلقائياً، دون أن يناقش الأمر في داخله. وهو لا يحب أن أحداً يصيبه أذى بسببه، أو من أجله.

★★ والإنسان الوديع يكون دائماً سهل التفهم، لا يتعب أحد في التعامل معه. إنه يحب باستمرار أن يكسب غيره، لا أن يكسب من غيره. وإذا ما تناقشت أو تحدثت مع إنسان وديع، تجده لا يُقاطعك في الكلام، ولا يحاول أن ينتصر عليك في المناقشة. بل يعطيك كل الفرصة أن تتكلَّم كما تشاء، وتقول ما تشاء، ما دام الموضوع لا يمس عقيدة أو إيماناً. وفي الأمور الإيمانية يقول الرأي القوي بهدوء وبساطة، دون أن يجرح مَن يناقشه. ويترك قوة الرأي تتكلَّم، دون أن يقسو، ودون أن يفتخر. أمَّا في الأمور العادية، فلا يهمه أن ينتصر في نقاش. فليقل القائلون ما يريدون أن يقولون، إن كانت المسائل لا تعنيه.

★★ وأحياناً يجلس في بعض المجالس صامتاً. وما دام ليس مكلَّفاً فيه بمسؤولية، فلا داع له أن يظهر! وإن طلبوا إليه أن يتكلَّم رُبَّما يقول: " أنا أحب أن أسمع وأستفيد "، أو يقول: " البركة في فلان " ... وإن تكلَّم، قد يمتدح مَن سبقوه في الحديث، ولا مانع من أن يقول في كلامه: " على رأي فلان ... وفلان ... ". إنه إنسان لطيف، يحب الناس صمته وهدوءه إن صمت. كما يحبون كلامه وأسلوبه في الحديث، إن تكلَّم ...

★★ إن الإنسان الوديع ناجح في تعامله مع الناس: يحبهم ويحبونه. وإن سكت أحياناً، يكون ذلك بدافع من التواضع والحب، وليس عن انطواء. فهو يُعطي فرصة لغيره لكي يتكلم، ويقدم غيره على نفسه في الكرامة. كما أنه يصمت أحياناً لكي يستفيد من حديث غيره، ويضيف معلومات جديدة إلى معلوماته. وهو أيضاً لا يميل إلى الدخول مع الناس في صراعات الجدل، مفضلاً السلام ... وهو يرضي الذين يحبون الكلام.

★★ والإنسان الوديع لا يضغط على أحد، ولا يستعمل العنف. ولا يلح على أحد إلحاحاً شديداً، لكي يأخذ موافقته على أمر من الأمور، بغير إرادته، بأسلوب الإلحاح والضغط! فهو لا يبحث عن راحته، وإنما عن راحة الناس. لذلك فإن الذين يعاشرونه، يشعرون براحة في عشرته. ويقول كل من يعامله إنه يشعر براحة في التعامل معه. والوديع لا يصر على أن ينتصر لفكرته أو رأيه في الأمور العادية. أمَّا من جهة المبادئ السليمة فهو لا يتنازل. ولكن لا يتشاجر مع الغير بسبب ذلك. ولعل هذا الأمر يحتاج إلى حكمة تمتزج بالوداعة. ومن أجمل ما قيل في ذلك: " مَن هو حكيم وعالم بينكم، فليرِ أعماله الحسنة في وداعة الحكمة ". لأن هناك (حكماء) قد يكونون في شرح حكمتهم عُنفاء، يصرون على رأيهم في غيرة وتحزُّب. وقد يسببون بذلك انقساماً وتشويشاً!! فحكمة هؤلاء ليست روحية لأنها خالية من الوداعة. أمَّا الحكمة الوديعة فهي مسالمة مترفقة مملوءة أخباراً صالحة. وليست حكمة حقيقية، تلك التي تفقد أصحابها حياة الوداعة والهدوء، وتجعلهم عُنفاء في الدفاع عن آرائهم! يجرحون كل من يهاجمهم، ويخدشون مشاعره!!

إن العُنف قد يكون أسلوباً سهلاً وقصيراً، يوصل بسرعة! ولكن الوديع لا يمكن أن يستخدمه. فإن أعطاه الرب حكمة، فإنه يوصلها إلى الناس بأسلوب هادئ، في طيبة في رقة في لُطف. ولا يغضب ولا يثور إن خالفوه في وقت، أو كانوا بطيئين أو متباطئين في التنفيذ... فإنه يصبر عليهم، ويطيل أناته، إلى أن يتمكنوا من التنفيذ. إنه يعطي فرصة لسامعه، ولِمَن يتتلمذ عليه، لكي يصل حسبما تسعفه إمكانياته. فإن لم يصل اليوم فقد يصل غداً أو بعد غد، دون التحكم في عامل الزمن، الذي تتحكم فيه أسباب عديدة.

★★ من صفات الوديع أيضاً أنه متسامح: إن أخطأت في حقه، لا يخطأ في حقك. إن له طباعاً لا يستطيع أن يتجاوزها، وله مبادئ لا يمكنه أن يكسرها. فهو لا يستطيع أن يخطئ.

والإنسان الوديع لا يتحدث من فوق، من موقع السُّلطة، مهما كان في مركز عالٍ أو رئاسة. والناس يدافعون عن الوديع دون أن يُدافع هو عن نفسه.

٢ مايو ٢٠١٠

عِش سعيداً في حياة الرجاء

الإنسان الروحي يعيش دائماً في رجاء أن اللَّه سيتدخل في حياته ويقوده إلى الخير، وذلك مهما تعقدت الأمور أمامه، ومهما بدأ كل شيء مُظلماً. أمَّا الذي يفقد الرجاء، فأنه يقع في اليأس، ويقع في الكآبة، وتنهار معنوياته، ويصبح في قلق واضطراب، وفي مرارة الانتظار بلا هدف. وقد يصير ألعوبة في يد الشيطان.

★★ أمَّا الذي يعيش في الرجاء: وكل مشكلة تبدو معقدة أمامه يرى أن لها من اللَّه حلولاً كثيرة. وكل باب مُغلق أمامه، له في يد اللَّه مفتاح أو عِدَّة مفاتيح. واللَّه هو الذي يفتح ولا أحد يغلق. وبهذا الرجاء ينجو من الخوف ومن القلق والاضطراب. ويكون مطمئناً لعمل اللَّه. واللَّه قادر أن يحول الشر إلى خير، وقادر أن يحول كل مجريات الأمور لتسير في اتجاه مشيئته الإلهية الصالحة. ولذلك فالإنسان الروحي بدلاً من أن ينظر إلى الحاضر المتعب الذي أمامه، فأنه ينظر بعين الرجاء إلى المستقبل المبهج الذي يعده الرب له. وهو لا ينظر إلى المتاعب مجردة بدون عمل اللَّه، الذي يقدر أن يحول الشر إلى خير. والإنسان الروحي إذا شعر بضعفه، يؤمن بالرجاء أن قوة اللَّه سوف تدركه. ويعرف تماماً أن الذي لا تستطيعه حكمته كإنسان، فإن حكمة اللَّه تقدر عليه. ويؤمن أنه في الحياة ليس وحده، بل هو محاط بمعونة إلهية. وقوات سمائية تحيط به، وقديسون يتشفعون فيه.

★★ لكي يمتلئ قلبك بالرجاء يا أخي القارئ، ينبغي أن تثق بأن اللَّه يحبك أكثر مما تحب نفسك. وأنه يعرف ما هو الخير لك أكثر مما لا تعرف أنت بما لا يقاس. ولا بد أن تعلم أنك في يد اللَّه وحده، ولست في أيدي الناس، ولا في أيدي التجارب والأحداث، ولا في أيدي الشياطين. وعليك أن تؤمن أيضاً أن اللَّه يعتني بك، ويحفظك من كل سوء، ويحفظ دخولك وخروجك، وينقذك من كل شر. وتؤمن أنه هو الراعي الصالح الذي يرعاك. ويمنحك كل احتياجاتك فلا تحتاج إلى شيء.

★★ وإن كنت في مشكلة، فمن المريح لك أن تنتظر اللَّـــه الـــذي ســـينقذك منهـــا. ولا تنتظر عمل الرب من أجلك، وأنت متضجر ومتذمر! ولا تسخط وتقول: لماذا لم يعمل الرب حتى الآن؟! أين محبته؟ أين رعايته؟. ولا ينبغـــي أن تشـــك فـــي قيمـــة صـــلاتك وفاعليتها، إن مضى وقت ولم تصل إلى الاستجابة!! واعرف أن الإنســـان المضـــطرب أو اليأس أو الخائف أو المنهار، يدل على أنه فاقد الرجاء. أما الأبرار فإنهم كلما حاربهم الشيطان بالقلق أو بالاضطراب، فإن قوة الرجاء تتجدد فيهم من تـــذكرهم لمواعيـــد اللَّـــه السابقة وصفاته الإلهية المحبوبة باعتباره الحافظ والساتر والمعين، اللَّه الحنـــون المحـــب صانع الخيرات الذي لا يغفل عن أحد. إن عنايته بنا فائقة وشاملة، وحكمته هـــي فـــوق إدراكنا البشري.

★★ في حياة الرجاء نثق إن اللَّه يعطينا باستمرار دون أن نطلب، وقبل أن نطلـــب. فكم بالحري إذا طلبنا. ونحن نثق أيضاً أن اللَّه يعطينا ما ينفعنا، وليس حرفية ما نطلبـــه. لأنه ربما تكون بعض طلباتنا غير نافعة لنا فنتعب. لذلك في حياة الرجاء لا بـــد أن نثـــق بحكمة اللَّه في تدبيره لحياتنا. وهناك أمور كثيرة لا ندريها، وهي معروفة ومكشوفة أمام اللَّه. ربما الذي تطلبه يا أخي، لا يكون مناسباً لك ولا نافعاً لك. وربما الوقت الذي تحدده لاستجابة طلبك، يعرف اللَّه تماماً أنه غير صالح، ويرى أن تأجيل الاستجابة أفضل. لذلك تواضع واترك لحكمة اللَّه أن تتصرف! وانتظر في ثقة... إننا أحياناً نضع حلولاً للأمور، واثقين أنها أفضل الحلول، أو أنها الوحيدة النافعة؟ وربما يكون في تدبير اللَّه حل آخر لم يخطر لنا على بال، هو أفضل بما لا يقاس من كل تفكيرنا. فننتظر إذن حـــل اللَّـــه فـــي رجاء.

أتذكر بهذه المناسبة أن إحدى الفتيات جاءت تشكو إليَّ من أن كل عريس يأتي إليهـــا يمضي ولا يعود. فقلت لها: ربما إن اللَّه يعد لك عريساً أفضل من كل أولئك يسعدك بدلاً من الذين يمضون ولا يعودون.

★★ في حياة الرجاء نؤمن أن اللَّه قادر على كل شيء، وإنه باستمرار يعمل لأجلنا، وأنه ينقذنا من كل ضيق. لقد اختبر داود النبي ذلك، فقال في أحد مزاميره: "نجت أنفســـنا

مثل العصفور من فخ الصيادين. الفخ انكسر ونحن نجونا. عوننا من عند الرب الذي خلق السمَوات والأرض." لذلك فالإنسان الذي يرجو الرب، يكون دائماً في اطمئنان. إنه ليس فقط يؤمن أن اللّه سيعمل في المستقبل، إنما يؤمن تماماً أن اللّه يعمل الآن حتى إن كان لا يرى هذا العمل. ولكنه يثق تماماً بعمل اللّه حالياً. إن الطائرة قد تبدو لمن يستخدمها لأول مرة، أنها واقفة في الجو! بينما تكون في سرعة أكثر من ٨٠٠ كم في الساعة. ولكنها تبدو له كما لو كانت واقفة! وبعض المراوح الشديدة الحركة تبدو متوقفة، وهى في أقوى درجة من السرعة. وهكذا اللّه يعمل، وأنت لا تراه يعمل، لكن تؤمن بذلك. ويكون لك رجاء في نتيجة عمله الإلهي التي ستراها بعد حين.

★★ على أن البعض ربما يفقد الرجاء بسبب ما يظن أنه تأخير في استجابة اللّه له! فربما يكون السبب فيما يظن تأخيراً، هو أن اللّه يعد له بديلاً أفضل مما يطلبه. وربما يكون السبب أن ما نناله بسرعة لا نشعر بقيمته! وقد لا نشكر عليه! فإن (تأخرت) الاستجابة يزداد تعلقنا بما نطلبه ونشعر بقيمة تحقيقه. ولذلك نحرص على ما نلناه فلا نفقده بسرعة. وربما يكون السبب فيما نظن أنه تأخير، هو أننا نطلب وقلوبنا بعيدة عن التوبة. فلا نستحق الاستجابة بسرعة. وإنما علينا قبل أن نطلب أن نرجع إلى اللّه لكي نستحق ما نحتاج إليه. كما يحسن بنا أن نعرف أن الضيقات هى مدرسة للصلاة. ولرفع القلب إلى اللّه ولذلك هى لفائدتنا سواء عرفنا أم لم نعرف.

ختاماً علينا أن نحيا حياة الرجاء، ونثق بعمل اللّه لأجلنا سواء كنا نستحق أو لا نستحق.

٩ مايو ٢٠١٠

التَّأمُّل
ما هو؟ وما هى مجالاته؟

التأمُّل في أي أمر معناه الدخول إلى العُمق، سواء في عمل الفكر، أو عمل الـروح. هو أيضاً الوصول إلى لون من المعرفة فوق المعرفة العادية الخفية، معرفة فوق الحس، معرفة جديدة عليك، ومبهجة لروحك، تجد فيها غذاءً ومُتعة روحية. أو التأمُّل هو تفتح العقل والقلب والروح، لاستقبال معرفة يرسلها اللَّه من فوق، أو من داخل روح الإنسان. والتأمُّل يناسبه السكون والهدوء، والبُعد عن الضوضاء التي تشغل الحواس، وبالتالي تشغل العقل وتبعده عن عمل الروح فيه. ويزداد التأمُّل عمقاً كُلَّما تتحرَّر الحواس من الشغب الحالي، ويتحرَّر الإنسان من سيطرة فكره الخاص، لكي يستقبل ما تعطيه الروح.

★★ وللتأمُّل مجالات كثيرة، نود أن نتناولها بالتفصيل ... هناك تأمُّل في كلام اللَّه، أو في الصلاة والتدبير والألحان. أو التَّأمُّل في الخليقة والطبيعة، أو في السماء والملائكة، أو التَّأمُّل في الموت والدينونة وما بعدها. وهناك تأمُّل في الأحداث وفي سِيَر القديسين، وفي الفضيلة عموماً، وفي وصايا اللَّه. وهناك نوع آخر هو أسمى من التَّأمُّل في صفات اللَّه الجميلة. ومنها التأمُّل في المُطلق، في الحق، في الخير. على أن موضوعات هذا التَّأمُّل قد تكون أكثر من أن نحصيها، بحيث يتأمَّل الإنسان الروحي في كل شيء، حتى في الماديات، يحاول أن يستخرج منها روحيات تفيده.

★★ من جهة التَّأمُّل في كلام اللَّه: فكلام اللَّه هو روح وحياة. والكلمات هى مُجرَّد غُلاف، يُغلِّف معاني داخلها. كالصدفة التي تحوي داخلها اللؤلؤ. وفي التَّأمُّل ينبغي أن تكشف الصدفة، وتأخذ اللآلئ التي في داخلها. وهنا تُصلِّي مع داود النبي وتقول: " اكشف يارب عن عينيَّ، لأرى عجائب من شريعتك ". أي تكتشف العُمق الموجود في الوحي الإلهي. فإلهنا الحنون ينير عقولنا وأفهامنا لندرك عُمق وصاياه. حقاً يارب بنورك نُعاين النور. وهنا يكون التَّأمُّل عبارة عن تقديم عقولنا إلى اللَّه، لكي بنعمته يملأها بالفهم الذي من عنده. أو هو تلمذة على نعمة اللَّه، وتدريب كيف نأخذ منها الفهم الذي تريد أن تعطيه.

فلا تقف يا أخي عند حدود العقل. بل اتخذ العقل وسيلة للوصول إلى الـــروح. والـــروح توصلك إلى اللَّه الذي عنده كل كنوز المعرفة فيعطيك.

★★ القارئ السطحي في كلام اللَّه، قد يقرأ كثيراً ولا يتأمَّل. أمَّا القارئ الروحـــي، فالقليل من قراءته يكون له نبع تأملاَّت لا ينضب. إن كلمة واحدة أو عبـــارة تســـتوقفه، فيغوص في أعماقها، ويظل سابحاً في تلك الأعمال. وهو يقول مع داود النبـــي: " لكـــل كمال رأيت منتهى، أمَّا وصاياك فواسعة جداً ". لأنه في التَّأمُّل قد يفتح اللَّه قلبه، فيرى في الآية الواحدة كنزاً عظيماً، مهما اغترف منه لا ينتهي ...

إذن كتدريب روحي، خُذ لك كل يوم آية للتَّأمُّل تكون قد تركت في نفسك تأثيراً عميقاً أثناء القراءة ... وربُّما تكون معاملات اللَّه مع الناس مجالاً واسعاً للتَّأمُّل ... سواء معاملة - تبارك اسمه - مع قديسيه الذين أحبوه وأطاعوه. أو معاملته للخطاة الذين انتفعوا من طول أناة اللَّه عليهم التي قادتهم إلى التوبة ... إن شخصيات الكتاب أيضاً تصلح مجالاً للتَّأمُّل.

★★ إن التأمُّل في وصايا اللَّه سوف يشغل نفسك أثناء النهار بفكر روحي. ويظـــل هذا الفكر يتعمَّق فيك. والفكر يلد فكراً من نوعه، ويلد أيضاً الكثير من المشاعر والعواطف والتَّأمُّلات. ويصبح قلبك نقياً تعمل فيه كلمة اللَّه. ولا يقف الأمر عند حدود اللذة بالمعرفة، إنَّما يتطوَّر ليكون له تأثيره في حياتك العملية. لذلك إن استطعت أن تُطبِّق تأملاتك علـــى حياتك، وتستخرج منها منهجاً تسير عليه، يدخل في علاقاتك مع اللَّه ومع الناس.

وإن لم تكن لك موهبة للتَّأمُّل في الكتاب، فاقرأ تأملات الأبرار الذين اتصفوا بعُمـــق تأملاتهم في الكتاب.

★★ أمَّا من جهة التأمُّل في الطبيعة فهو ليس مُجرَّد تأمُّل في جمال الطبيعـــة، إنمـــا بالأكثر ما تُقدِّمه لنا من روحيات، كما قال داود النبي في مزاميره: " الســـمَوات تُحـــدِّث بمجد اللَّه، والفلك يخبر بعمل يديه ". وهنا نتدرج من التأمُّل في الطبيعة إلى التَّأمُّـــل فـــي عظمة اللَّه خالقها. وهنا أتذكر قول الشاعر:

ها ذي الطبيعة قِف بنا يا ساري ... حتى أريك بديع صنع الباري

وقديماً كانوا يدرسون الفَلَك في الكليات اللاهوتية. لأنَّ النظام العجيب الـــدقيق الـــذي فيه، يُثبت وجود خالق كُلِّي القدرة استطاع أن يوجد كل ذلك. إن كانت الســـماء الماديـــة مكاناً عظيماً للتَّأمُّل، فكم تكون السماء التي هى عرش اللَّه!! ويرتبط التَّأمُّل فـــي الســـماء

بتأمُّل آخر في الملائكة ... بل على الأرض يمكن أن يكون هناك تأمُّل في جمال الورود والأزهار. وما أكبر الفارق بين الزهور الطبيعية وغيرها من الزهور الصناعية، التي مهما أفتن الإنسان في صنعها، فهى بلا حياة، بلا رائحة، بلا نمو ... وكذلك التأمُّل في طيور السماء، في تعدُّد أنواعها وأشكالها ونغمات أصواتها، وطباعها، ورحلاتها.

بل التَّأمُّل في النملة النشيطة حيث لم أرَ في حياتي كلها نملة واقفة، بل هي دائمة الحركة. وفي ذلك قال سليمان الحكيم: " اذهب إلى النملة أيها الكسلان. تأمَّل طُرقها وكُن حكيماً ". بل أكثر من هذا إذا تأمَّلنا في النحل حيث نأخذ منه أيضاً تأمُّلاً في النظام الداخلي الذي تعيشه مملكة النحل، وكيف خلقها اللَّه بإمكانيات وقدرات عجيبة ... تستطيع أن تجمع الرحيق وتصنعه شهداً، وكيف تصنع غذاء الملكات! وكيف تبني خلاياها بهندسة متقنة عجيبة، وكيف تطير رحلات بحثاً عن الزهور والرحيق. وما أعجب ما قاله عنها أمير الشعراء أحمد شوقي:

مملكة مُدبّرة بامرأة مؤمَّرة
تحمل في العمال والصناع عبئ السيطرة
أعجب لعمال يولُّون عليهم قيصرة

إن الإنسان الروحي يستطيع أن يتخذ كل شيء مجالاً للتَّأمُّل. ويستطيع أن يستخرج من الماديات ما تحمله من دروس روحية.

★★ كذلك جسم الإنسان هو مجال واسع للتَّأمُّل يدل على عظمة الخالق، فما أعجب القدرات التي وضعها اللَّه في المُخ، وفي القلب، وفي كل أجهزة الجسم البشري، وكيف تعمل متناسقة في اتزان عجيب. وبعض هذه الأجهزة إذا تلف، لا يقدر كل التَّقدُّم العلمي على إرجاعه إلى وضعه الطبيعي.

★★ هناك تأمُّل آخر في الأحداث، ويد اللَّه في بعض الأحداث، وفي تدبير كل شيء إلى الخير.

ولا ننسى التَّأمُّل في الموت، وفي القيامة، وفي الدينونة، وفي صفات اللَّه الذاتية مثل الأزلية والقدرة على كل شيء والوجود في كل مكان. وأيضاً تأمل صفات اللَّه في معاملته مع البشر.

١٦ مايو ٢٠١٠

الخدمة الروحية والاجتماعية

الإنسان الروحي لا يحيا لنفسه فقط. وما أجمل المَثل الذي يقول: " ما عاش مَن عاش لنفسه فقط ". ففي خدمة الآخرين لا بد أن يخرج الإنسان من قوقعة نفسه ليلتقي بالغير، ويشبع الكل من محبته. ويشعُر أن رسالته في الحياة هى أن يفعل خيراً مع كل مَن يدفعه اللَّه في طريقه. وكُلما يتسع قلبه، تتسع دائرة خدمته. فلا تقتصر على معارفه وزملائه وأصدقائه، بل تصل إلى نطاق أوسع بكثير.

★★ وما دام الإنسان يستطيع أن يعمل الخير نحو الغير، فعدم قيامه بذلك يُعتبر خطيئة. ولنضع أمامنا هذه القاعدة " مَن يعرف أن يعمل خيراً ولا يفعل، فتلك خطية له ".

وخدمة الآخرين في جوهرها، ما هى إلاَّ تعبير عن الحُب المختزن في القلب من نحو اللَّه والناس. فأنت إن أحببت الناس، فسوف تخدمهم بكل الوسائل المُتاحة لك والنافعة لهم.

★★ والخدمة المقدمة للآخرين، منها الروحية والاجتماعية أيضاً وخدمات أخرى. فمن جهة الخدمة الروحية، نذكر التعليم الروحي وقيادة الغير إلى التوبة. لأن من رد خاطئاً عن ضلال، يخلص نفساً من الموت ويستر كثرة من الخطايا. أمَّا الخدمة الاجتماعية فهى الاهتمام باحتياجات الآخرين الذين لا يجدون كفايتهم في أمور المعيشة. ونذكر من بين هؤلاء: الفقراء والمعوزين، والأيتام والأرامل، والمرضى، وكافة المُضررين والمحتاجين. فاسأل نفسك: ما مصير الآخرين في حياتك؟

أتذكَّر أنه في إحدى المرَّات سألني طبيب جراح عمَّا يستطيع أن يعمله لأجل الآخرين. فقلت له: " على الأقل عُشر العمليات الجراحية التي تقوم بإجرائها، لتكن للفقراء والمحتاجين، بغير أجر ". وهكذا يكون للَّه وللناس نصيب في علمك وعملك. وبهذا تُعبِّر عن محبتك للفقراء.

★★ وما أجمل ما تُقدَّمه بعض الهيئات المحلية أو العالمية من خدمات مثل جمعيات الإسعاف وهيئة إطفاء الحرائق، والهيئات الدولية للإغاثة وأمثالها التي تُقدِّم معونة في

حالات الكوارث الطبيعية كالفيضانات أو السيول، أو المجاعات. ومن تلقاء ذاتها تقوم بإغاثة المحتاجين.

★★ إن كل شخص مُطالب أن يفعل شيئاً من أجل أخيه الإنسان، دون أن يُكلَّف بذلك من هيئة رسمية. بل إن كل شخص عليه أن يخدم غيره حسب النعمة المُعطاة له. والإنسان الخدوم، أقصد الذي فيه روح الخدمة، تجده يخدم في كل مجال: في البيت، في مكان العمل أو الدراسة، في الطريق، في النادي ... مع كل أحد. إنه إنسان مُعطاء. كل مَن يقابله، لا بد أن ينال من عطائه.

★★ وفي خدمتك للآخرين سوف تنال فوائد كثيرة لنفسك.

فكما تعطي المخدومين حُباً من قلبك، كذلك يشبع قلبك حباً بهذه الخدمة. فالذي يخدم الأيتام أو المرضى أو المعوقين أو الفقراء والمحتاجين عموماً، لا شكّ أن قلبه سيمتلأ في الخدمة بمشاعر عميقة تسمو بنفسه. فإنَّ العاطفة التي يكتسبها الإنسان في حماية الآخرين من الألم والمُعاناة، هي أقوى بكثير من العواطف التي تُقدِّمها مجالات اللهو والترف. والإنسان في مجال الخدمة يكتسب كثيراً من الخبرات الروحية، ومن علاقته باللَّه الذي يعينه في الخدمة. فلا شكّ أنك في الخدمة يعمل اللَّه معك، ويعمل فيك، ويعمل بك. وفي كل ذلك ترى عجائب من عمل اللَّه، وكيف يتدخَّل في كل الأمور المُعقدة، ويفتح لك بعض الأبواب المغلقة، أو يُقدِّم لك حلولاً للمشاكل ما كنت تُفكِّر فيها، أو يرسل لك معونات من حيث لا تدري. فتُمجِّد اللَّه في كل عملك ... أمَّا الذين لا يخدمون الغير، فإنهم يحرمون أنفسهم من كل هذه الخبرات الروحية.

والخدمة أيضاً تفيدك في أنها مدرسة للصلاة. ذلك لأنك كُلَّما تخدم الآخرين، أو تعمل على حل مشاكلهم، كُلَّما تشعر أن هناك أموراً تحتاج إلى معونة إلهية، فتتدرَّب على الصلاة من أجلها. كما أنك تُصلِّي لكي يبارك اللَّه العمل الذي تعمله، ولا يتركك وحدك. وقد تُصلِّي وتطلب قائلاً: " إن هؤلاء الناس المحتاجين، يحتاجون بالأكثر أن تكون لهم علاقة بك يارب متصلة دائماً من أجلهم. فأعطني ذلك ليس من أجلهم فقط، وإنما أيضاً من أجل نفسي. لكي ترعاني وترعاهم، وتحفظني وتحفظهم. وليتني أكون جسراً صالحاً يصلون به إليك ".

★★ والخدمة تمنح الإنسان ألواناً من المعرفة: فيعرف مشاكل الناس، ويعرف تفاصيل كثيرة عن النفس البشرية وما يدور فيها من مشاعر. ويعرف أيضاً الحلول العملية لكي ما يتعرض له الناس من مشاكل داخلية وخارجية. وإن لم يكن يعرف، فعلى الأقل سيرى كيف يتدخل المرشدون الروحيون في حل تلك المشاكل. فتزداد خبرته في الحياة.

★★ هناك أشخاص لا يقومون بالخدمة في ذاتها، ولكنهم يساعدون على ذلك بما يتبرعون به للخدمة. أو على الأقل يقومون بخدمة الصلاة من أجل أن يُنجح اللّه خدمة العاملين ومن أجل أن يحل المشاكل. وقد تكون لصلواتهم استجابة أكثر نفعاً، وتكون هي الخدمة الخفية التي تقوم على أساسها الخدمة الظاهرة.

★★ من شروط الخدمة أن تحب الناس الذين تخدمهم، ولا يكون في نفسك ضيق أو تبرج. واعرف أن طُلاب الحاجات قد يلجأون أحياناً إلى الكذب والاحتيال، أو يمتزج طلبهم بإلحاح متعب، أو بضجيج وعلو صوت. وقد يتبرم البعض بهم فيطردهم أو يقسو عليهم! أمَّا القلب المُحب الخدوم، فإنه لا يكتفي بمساعدة المحتاجين، إنما يحتمل أيضاً متاعبهم. ويشعر أنه لولا احتياجهم الشديد، ما كانوا يلجأون إلى تلك الأخطاء.

★★ لا تجعل خدمتك للمحتاجين تتصف بالروتين، أو مُجرَّد النشاط بدون روح. ولا تسمح للخدمة أن تفقدك وداعتك وتواضعك. ولا تسمح بشيطان المجد الباطل أن يتعبك بالمديح أو أن يرتفع قلبك بذلك. بل قل لنفسك باستمرار: " أنا ما دخلت إلى الخدمة لكي أقع في خطايا جديدة، إنما لكي أنمو روحياً! ". إنما إن نجحت في خدمتك، فلا تنسب ذلك إلى نفسك، وإنما إلى اللّه الذي ساعدك، وإلى الآخرين الذين تعاونوا معك. وفي خدمة الفقراء ابعد عن أسلوب الأمر والنهي. وليكن لك أدب التخاطب مع الصغير كما مع الكبير. ومهما أوتيت من سُلطة في الخدمة، لا تكلم الناس من فوق، ولا تتعالَ على أحد. ولا تقل عن نفسك إنك فاعل خير، وإنما أنت خادم للخير.

٢٣ مايو ٢٠١٠

ما بين الكمال والممكن

كلنا مطالبون بأن نصل إلى الكمال، أو على الأقل نسعى إلى ذلك. ولكن الكمال المطلق هو للّه وحده. أما نحن فأقصى ما نصل إليه هو الكمال النسبي أو الكمال الممكن. نسبة لمقدراتنا، ونسبة لما يمنحه اللّه لنا من نعمة ومن قدرة. فالكمال المطلوب منا هو ما يمكننا عمله. مثال ذلك طفل صغير في بداية التعليم، يدرسونه الجمع والطرح في علم الحساب. فينجح في الامتحان ويحصل على الدرجة النهائية. فنقول إنه وصل إلى درجة الكمال في الرياضة (في الحساب)، طبقاً لمستواه. على الرغم من أن مستواه يعتبر لا شيء إذا ما قورن بالمستويات العليا في الرياضيات. ولكنه حصل على الكمال النسبي.

★★ نحن مثلاً نطالب بالسلام مع الناس. ولكن عملياً حسب طاقتنا نُسالم جميع الناس. مثال ذلك زوجة لا تستطيع إطلاقاً أن تعيش في سلام مع حماتها، ليس من جهتها هي، وإنما من جهة معاملة حماتها لها. لذلك إن كانتا تعيشان معاً في بيت واحد: فبدلاً من أن يتكرر الشجار بينهما كل يوم، من الأفضل أن ينفصلا، كل منهما في بيت. وبهذا تعيشان في سلام.

★★ مثال آخر من جهة التعليم والإرشاد: نلاحظ أن بعض المعلمين أو المرشدين الذين يحبون المثاليات، نراهم يطالبون الناس بما هو فوق طاقتهم من جهة الوصايا والتعاليم مما لا يستطيعون تنفيذه عملياً فيفشلون. بينما الأمر يحتاج إلى تدرج للوصول إلى الوصية في كمالها. وهذا أيضاً نقوله للآباء والأمهات ومن يعملون في مجال التربية أو في مجال الإرشاد: أعطوا الناس الممكن الذي يقدرون عليه.

★★ إن اللّه - تبارك اسمه - في محاسبته للناس، يحاسب كل واحد منهم حسب مستواه، من جهة إمكانيات كل شخص، حسب طاقته، وحسب ظروفه، وحسب سنه وصحته. وليس الجميع في مستوى واحد ولا في إمكانيات واحدة. فإن الناس يتنوعون في مستوياتهم، حتى الروحية منها: فالشخص المبتدئ هو غير المختبر الناضج. وكلاهما غير الإنسان الروحي صاحب المواهب التي منحه اللّه إياها. والناس يختلفون أيضاً من جهة

السن. فما يستطيعه الشاب غير ما يقدر عليه الشيخ، غير ما يستطيعه الطفل. كذلك ما يقدر عليه القوي في صحته، غير ما يقدر عليه المريض... إن الكمال الممكن هو لكل هذه النوعيات. ولكن درجته تختلف من واحد إلى آخر، كل واحد على قدر طاقته.

هناك أشخاص يقدرون على حياة الوحدة والتأمل، وأشخاص لا يستطيعون ذلك وإنما يحاولون الوصول إلى الكمال النسبي والممكن في وسط الناس وخدمتهم. ونلاحظ أيضاً أن الناس يختلفون في نوعية نفسياتهم، وفي نوعية ذكائهم وأيضاً يختلفون ما بين البساطة والعمق وكل من هؤلاء له قدرته الخاصة التي تختلف عن غيره. وكل منهم يمكنه أن يصل إلى الكمال النسبي بدرجة يختلف فيها عن غيره. وكل منهم يحاسبه اللَّه حسب الطاقات التي عنده. وينال بركة إذا كان أميناً في التصرف حسب إمكانياته وحسب جهاده في الوصول إلى الكمال النسبي الذي يقدر عليه.

★★ نلاحظ أيضاً في التجارب التي يسمح بها اللَّه، نرى من مراحم اللَّه أن الناس لا يُجربون فوق ما يستطيعون. فما يقدر القوي على احتماله، هو غير ما لا يحتمله الضعيف.

كذلك مستوى الذين يعيشون وسط شعوب وثنية، أو شيوعية، أو مؤمنة بديانات أخرى، هو وغير ما يطلبه الناس من مؤمنين في عمق الإيمان. كل هؤلاء يحاسبون حسب إمكانياتهم ولا يطلب منهم إلا الكمال النسبي حسب الجو الذي يعيشون فيه.

★★ وفي عمل الفضائل يطلب اللَّه من كل فرد ما يستطيع أن يصل إليه من الكمال النسبي. فمن جهة فضيلة العطاء مثلاً، عليك أن تُعطي ما تستطيعه. فإن استطعت أن تُعطي كل ما يكون في طاقة يدك أن تفعله، فهذا حسن جداً. وإن استطعت أن تُعطي الغير من أعوازك وأن تفضله على نفسك، فهذا أفضل. وإن لم تستطع فعلى الأقل تُعطي المستوى الأدنى، سواء من العشور أو الزكاة. وإن طلب منك المحتاجون ما لا تقدر عليه، فعلى الأقل يمكنك أن تحولهم إلى الهيئات الخيرة التي تعتني بأمثالهم وتعطيهم. وبهذا تكون قد أعطيت ولو بطريق غير مباشر. أما إن كنت لا تفعل هذا ولا ذاك، ولا الكمال النسبي ولا الممكن ولا العطاء غير المباشر، فلا شك أن ضميرك يكون مقصراً يلومك ولا بد أن يلومك.

★★ من جهة خدمة الآخرين: هناك درجة من الكمال أن يكرس الإنسان نفسه للخدمة ويعطيها كل حياته. ولكن ليس كل إنسان يستطيع هذه الدرجة من الكمال وظروفه العائلية والمادية لا تسمح بذلك. فعلى الأقل من جهة الكمال النسبي، أن يُعطي وقت فراغه لخدمة اللّه والناس. فإن لم يستطع، فعلى الأقل يُعطي جزءاً من وقته لخدمة الآخرين على قدر إمكانه. وإن لم يقدر، فعلى الأقل كل من يرسله اللّه إلى طريقه، يقوم معه بالخدمة التي يستطيعها. ويكون مستعداً في قلبه أن يخدم كل أحد بقدر طاقته.

★★ من جهة الصلاة، فإن القديسين يصلون كل حين. وهذا نوع من الكمال. والذي لا يستطيع ذلك عليه أن يُصلي صلوات الساعات حسب الوصية. وإن كانت إمكانياته لا تسمح بكل ذلك، فعلى الأقل يبدأ اليوم بالصلاة، ويختم يومه بالصلاة أيضاً قبل نومه. وبإمكان كل أحد أيضاً أن يرفع قلبه في كل وقت إلى اللّه بصلاة قصيرة ولو بكلمة أو بضع كلمات، يطلب فيها من اللّه البركة أو المعونة أو المغفرة وباختصار إن لم تقدر على الوضع الكامل، فلا تهمل الممكن.

كذلك من جهة معاملة المسيئين: إن لم تقدر أن تحب من يُسيء إليك وتصلي من أجله، فعلى الأقل إن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه... وإن لم تقدر على كل ذلك، فعلى الأقل احتمل المسيئين، ولا تنتقم لنفسك، ولا ترد الإساءة بمثلها. وصل أن يغفر اللّه لمن أساء إليك، ويبعد شره عنك.

★★ كلمة أخيرة أقولها وهي: إن سرت في الممكن وليس في الكمال، فلا تحول الممكن إلى تسيب. لا تقصر في تنفيذ وصية اللّه، ولا تغطِ تقصيرك بالأعذار، وبأنه لم يكن في إمكانك غير ذلك! كلا، بل ليكن لك ضمير صالح أمام اللّه وأمام نفسك، في صدق وتدقيق. لئلا تصل إلى تدليل النفس في هروبها من الواجب وفي استهتارها.

٣٠ مايو ٢٠١٠

أسباب تعب الأعصاب

يظن كثيرون أن تعب الأعصاب خاص فقط بخطية الغضب، على اعتبار أن النرفزة مشتقة من كلمة Nerve بمعنى غضب. على أن هناك أسباباً كثيرة لتعب الأعصاب نذكر منها:

★★ فربما يكون سبب تعب الأعصاب مرض جسدي. فأحياناً يحدث أن بعض العظام في الجسد تضغط على أحد الأعصاب، كما يحدث في بعض أمـراض العمـود الفقـري، إذ يضغط العظم على الـ Sciatic Nerve، فيشعر المريض بألم وتعب في أعصابه.

ويحدث أيضاً أن يكون الإنسان مرهقاً جداً من التعب، وفي حاجة إلى الراحة أو إلى النوم. وتكون أعصابه غير محتملة أي نوع من الجدل. وتكون المناقشة معـه فـي هـذه الحالة عبارة عن ضغط على أعصابه قد لا يحتمله، ويظهر أمام غيره أنه ضيق الصدر! لذلك نصيحتي لكل زوجة أنها لا تضغط على زوجها في مناقشة وهو مُرهـق، وأيضـاً لا تلح عليه وهو في مثل هذه الحالة. فإن تعبت أعصابه من الجدل أو الإلحـاح، وثـار عليها أو انتهرها أو رفض الحديث معها، فلا تتهمه بشدة أو جفاء. إنما تلوم نفسها لأنهـا كلمته في وقت غير مناسب وهو مُرهق عصبياً.

إن اللَّه - تبارك اسمه - يعرف مضار الإرهاق وحاجة الجسد إلى راحة، ولذلك منحنا يوم راحة في الأسبوع.

★★ كذلك مما يُتعب الأعصاب أكل لحوم لا يزال فيها شيء من الدم. فالذي يأكـل لحماً بدمه، تكون أعصابه أكثر إثارة. صدقوني حتى الوحوش أيضاً من آكلـة اللحـوم، يحرص المشرفون عليها في حديقة الحيوان أن يُقدّموا لها لحوماً مسلوقة ليأكلوهـا. فـإن أكلوا لحماً بدمه، من السهل أن يزدادوا وحشية.

هناك أيضاً ألوان لها علاقة بالأعصاب، كاللون الأحمر مثلاً. أمّا اللون الأخضر فهو مهدئ للأعصاب. لذلك تحرص بعض الدول على أن تكون المنـاطق السـكنية مُحاطـة بمساحات خضراء green area بالإضافة إلى فوائدها الأخرى.

نلاحظ أيضاً أن الموسيقى على أنواع: منها ما هو مهدئي وما هو مُسيء. وقد كان الموسيقي الشهير بيتهوفن يستطيع أن يعزف لحناً يجعل السامع يُثار وآخر يهدئه. وهكذا يتلاعب بمشاعره كما يشاء. ومن المعروف أن موسيقى الجيش تلهب المشاعر وتثير العواطف، وتوقظ الأعصاب وتشدها ... فاختر لنفسك لوناً من الموسيقى يشيع الهدوء في نفسك. كذلك يمكننا أن نقول أن نوع الطباع له تأثير على الأعصاب: فعُلماء النفس يقسمون الطباع إلى أنواع: الناري، والهوائي، والترابي، والمائي. فالنوع الناري هو أكثرها ثورة وجرأة وانفعالاً، وأقربها إلى الإثارة والاستثارة. وليس هذا الأمر خاص بالأفراد فقط، إنما حتى بالشعوب. فيُقال إن الشعب الفلان الفلاني بارد بطبعه. حتى في فكاهاته، تكون فكاهاته باردة أيضاً! ويقولون عن شعب آخر أنه (زربون) أي يثور بسرعة. لذلك بحسب نوعية الطبع تكون الأعصاب في تعبها وراحتها.

★★ ممِّا يؤثِّر على تعب الأعصاب أيضاً أخطاء الآخرين التي قد تُثير الأعصاب أو تتعبها. ومنها الكلام المُتعب، وهو على أنواع: فيه إطالة الكلام بدون داع، بطريقة مُملَّة تتعب الأعصاب. أو التكرار مما لا يحتمله الذهن أو كثرة المقدمات دون الدخول في الموضوع إلا بعد إرهاق السامع. أو شرح الشيء المفهوم والواضح. كما لو كان المُتكلِّم يتهم السامع بضيق الفكر.

وليس كل إنساناً سهلاً في مناقشاته. فهناك نوع من النقاش مثير للأعصاب. منه المغالطة في الكلام (المقاومة). وإصرار المُتكلِّم على ترجيح رأيه مهما كان مخطئاً! وهنا يدخل في لون من المغالطة غير المقبولة. وقد يمتزج في الجدل بالكذب واختلاق الأسباب.

ومن أسباب تعب الأعصاب الإهانة التي تصدر من الآخرين، وبخاصة إذا كانت ضد إنسان مُتمسِّك بكرامته. ويدخل في موضوع الإهانة الاتهام الظالم والكلام الموجع. وقد تكون الإهانة على شكل نوع من المزاح الثقيل، الذي يخرج عن حدود المزاح إلى لون من الاستهزاء أو التحقير أو الاستهانة بكرامة السامع. وربَّما تكون الإهانة بغير كلام، بالحركات أو الإشارة أو الملامح.

★★ وممِّا يثير الأعصاب أيضاً الإحراج. وقد يكون ذلك بتقديم سؤال صعب الإجابة، أو بمحاولة جر السامع إلى موضوع لا يريد الحديث فيه، أو يحرجه الخوض

فيه. وقد يكون الإحراج بكشف أسراره أو أخباره. ويزداد الإحراج في أتعاب الأعصاب، إن كان مقصوداً، أو أمام مجموعة معينة يجرحه الإحراج أمامها.

ومن أسباب تعب الأعصاب العناد. سواء بمخالفة أمر، أو باستمرار العصيان. أو إن وصل الأمر إلى جو من التمرد والعناد المقصود، أو التحدي والاستهانة.

★★ ومما يتعب الأعصاب جو النكد، وبخاصة لو ازداد أو استمر. ويشبه الشخص النكدي إلى حد ما الشخص الكشري الذي لا تستريح الأعصاب إلى مجرد رؤية ملامحه.

★★ وتتعب الأعصاب أيضاً كثرة الأحزان والضيقات. وأيضاً معاملة الاضطهاد من الغير، وبخاصة لو كان مقصوداً أو مستمراً. وهكذا تتعب الأعصاب عموماً: الضغوط الخارجية التي ضد ضمير الإنسان أو حريته، أو ضد إمكانياته في التنفيذ. ومنها الإلحاح فهو يتعب الأعصاب باعتباره لوناً آخر من الضغوط.

ومما يتعب الأعصاب أيضاً التسلط، سواء في محيط الأسرة أو العمل. فالزوجة مثلاً تتعب أعصابها من الزوج المتسلط الذي يحد حريتها ويقيدها. كذلك يتعب الأعصاب التعامل مع رئيس متسلط، لا يعط حرية للحركة. ويريد أن يكون كل شيء بأذن وبتصريح منه.

★★ نذكر أيضاً في تعب الأعصاب: متاعب الأذكياء. فللأذكياء مستوى مرتفع في العقل والتصرف. قد يتعب أعصابهم الاصطدام بمستوى أقل منهم بكثير. كأن يتعاملون مع شخص بطيء الفهم، أو عديم الفهم، أو سيئ التصرف فإن أخطأ في الفهم أو في التنفيذ، نرى بعضاً من الأذكياء يكثرون الانتهار لمساعديهم أو العاملين تحت قيادتهم... وهؤلاء أيضاً تتعب أعصابهم من أوامر الأذكياء ومن ردود فعلهم. نلاحظ أيضاً أن الشخص الذي يتعب عصبياً قد ينقل تعبه إلى غيره بالعدوى. كما أن معاشرة الهادئين قد تنقل هدوئهم إلى معاشريهم.

٦ يونيو ٢٠١٠

شِبه الشَّر

في مفهوم الناس إن أي تصرُّف أو أي عمل: إمَّا أن يكون خيراً، أو أن يكون شــراً. ولكن أن يكون شبه شرّ، فربما لا يكون هذا المفهوم وعملنا الآن هو أن نشرح هذا الأمر.

★★ هناك أمور قد لا تكون شراً في ذاتها، ولكنها لا تليق، فهى شبه شر. مثال ذلك إنسان يمضغ لباناً وسط الناس أو في اجتماع. ليس هذا شر في ذاته ولكن لأنه أمر غيــر لائق يُعتبر شبه شر، أو شخص يغني كما يشاء ويرفع صوته في الطريق.

★★ هناك أمور أخرى ليست شراً في ذاتها، ولكنها إذا تحولت إلى عادة تتسلط على إرادة الإنسان حينئذ تُصبح شراً. لأن كل ما يُفقد الإنسان حرية إرادته هو شر بلا شــك. وهكذا تكون المرحلة المتوسطة قبل تكوين العادة المسيطرة هى شِبه شر. لذلك عليــك أن تبتعد عن كل شيء يتحول عندك فيما بعد إلى عادة مسيطرة. في حالة الوصول إلى العادة المسيطرة يكون الأمر شراً واضحاً. أمَّا في مرحلة الوصول إلى ذلك يكون الأمر هو شبه شر.

★★ عليك أيضاً أن تبتعد عن كل ما يُسبِّب ضرراً لغيرك، حتى لو لم تكن تقصــد إطلاقاً هذا الضرر ولا يخطر لك على بال. مثال ذلك ما يحدث من البعض في زيــارتهم للمرضى. وقد يكون مريض في مستشفى وفي حالة تعب، والكلام معه يتعبــه ويجهــده. ويزوره أحد معارفه أو أصدقائه ويتكلَّم معه كثيراً وهو لا يدري أن الكلام يتعبه. ويكــون ذلك شبه شر. فإن أتعب المريض فعلاً أو أضره يتحوّل الأمر إلى شــر ... أو مــريض آخر في مستشفى يحتاج في مرضه إلى كمية من الأوكسجين. وربَّما يُركِّبــون لــه فــي حجرته أجهزة الأوكسجين. ويزدحم مُحبُّوه في غرفتــه بالمستشــفى. وطبعــاً يتنفســون ويأخذون كمية من الأوكسجين، ويتركون له كمية من ثاني أكسيد الكربون. وبهذا يضرونه وهم لا يعلمون ولا يقصدون. ويضطر الطبيب أن يخرجهم من حجــرة المــريض وهــم واقعون في شبه شر.

مثال آخر لشِبه الشرّ، هو إنسان كثير الإلحاح. والإلحاح في ذاته ليس شراً إن كان في حدود المعقول. ولكن قد يزداد الإلحاح إلى درجة تُتعب الأعصاب. فيضطر السامع أن يقول: كفى أرجوك. لقد عرفت ما تطلب أو ما تقصد. فينصرف بعد أن يكون قد وقع في شِبه شر ... ومثل الإلحاح كثرة الشروحات أو تكرار الكلام، التي تكون بدرجة مُملَّة أو مزعجة... وبخاصة في موضوعات لا تحتاج إلى الشرح الكثير والتكرار الكثير. ويزداد الأمر إن كان السامع شديد الذكاء ويدرك ما يُقال له من أوّل جملة. ويكون التكرار والشروحات ضغط على أعصابه. إن الشرح في ذاته ليس شراً ولكنه قد يتحوّل إلى شبه شر.

★★ مثال آخر هو زيارة صديق عزيز لك على غير موعد. بسبب الدالة والمحبة جاء إلى زيارتك، ولكن في وقت لا يعرف فيه هل هو مناسب أم لا؟ وهل تستطيع أن تتفرَّغ له أمْ لديك ما يشغلك؟ ويجلس، وتطول الجلسة. وأنت مُتضايق وبسبب المحبة لا تستطيع أن تظهر ضيقك. ويبدو أنه لم يضع حداً لنهاية زيارته! لا شك أن مثل هذه الزيارة للصديق العزيز قد دخلت في شبه شر. وإن طالت جداً وأتعبتك وأضاعت وقتك تتحوّل إلى شر. وبالمِثل المكالمات التليفونية، بغير موعد وبغير وقت محدد. وقد يكون إنسان مع ضيوف له في بيته أو في مكتبه، يتحدَّثون معه في أمور هامة جداً. ثم يرن جرس التليفون، ويظل المُتكلِّم يتحدَّث في موضوعات طويلة، وهو لا يعبأ بالاجتماع وما يدور فيه، أو لا يعرف. ولا يسأل هل صاحب التليفون مشغول أو غير مشغول. من أجل هذا يضطر البعض إلى اتخاذ إجراءات لمنع الاتصال التليفوني في أوقات مُعيَّنة. هناك أمور رُبَّما لا تدركها، ولا تعرف هل تضر أو تضايق الطرف الآخر، ولكنها أمور تحتاج إلى حساسية وإلى ذكاء كي تدرك. وإلاَّ فإنك تدخل في شبه شر، أو تصبح غير مقبول في معاملاتك هذه مع الآخرين.

★★ معروف أن عدم دفع الأجور لمستحقيها هو شر في ذاته. ولكن يدخل في شبه الشر أيضاً، تأخير دفع الأجور. ذلك لأن البعض لا يُبالي ويقول: أدفع للعامل أجرته باكر أو بعد باكر أو فما بعد. دون أن يدري احتياج هذا العامل إلى أجرته وبسرعة، إن مثل هذا التأخير هو شِبه شر ... وبنفس المنطق تأثير دفع المساعدة لفقير. فلا يجوز أن تقول

للمحتاج اذهب الآن وتعال غداً فأعطيك. بينما يكون ما يحتاجه موجوداً عنده. فهذا أيضاً شِبه شر.

ويدخل في شِبه الشرِّ أيضاً التَّشدُّد في الثمن في البيع والشراء. وقد يكون في هذا ضرر للبائع أو المُشتري يحتمله مضطراً. ولا يظن المُتشدِّد في الثمن أنه قد ارتكب شرًّا. لأن الصفقة تمَّت بموافقة الطرف الآخر (المُضطر). ولا شك أن هذا التَّشدُّد شِبه شر. فإن كان يحدث ضرراً واضحاً يكون شراً كاملاً.

وبالمِثل الطبيب الذي يفرض مبلغاً ضخماً لإجراء عملية. وأيضاً كل صاحب مهنة، محامياً أو محاسباً أو مُدرِّساً، ومن شابه ذلك، بنفس التشدُّد في فرض أجرة عملية. وقد يدَّعي صاحب هذه المهنة أنه لم يرغم الذي يدفع له على التعامل معه. بينما يكون ذلك مضطراً، إذ كان يثق بكفاءة صاحب هذه المهنة.

★★ ومن الأشياء التي تدخل في شِبه الشرِّ، الوقت الضائع بلا سبب جوهري. وقد يقول الشخص أنا لم أعمل في هذا الوقت أي شيء خاطئ! فنقول له وأيضاً لم تعمل فيه أي شيء نافع هو شِبه شرّ.

هناك نوع آخر من شِبه الشرِّ، هو وقوف النمو في عمل الخير. فالمفروض الإنسان الروحي الذي يسعى إلى الكمال، أن ينمو باستمرار. وإن توقَّف نموه يكون هذا شِبه شرّ.

ومن ضمن الأشياء التي تدخل في شِبه الشرِّ، أمور ليست شراً في ذاتها، ولكنها تنتهي إلى شر ... مثال ذلك علاقة تبدو بريئة في ذاتها. ولكنها بالوقت والاستمرار تنتهي بخطيئة. لذلك يحتاج الأمر إلى حكمة وتمييز للمواقف وما تنتهي إليه الأمور على المدى الزمني. ومن شِبه الشرّ أيضاً المواقف السلبية التي لم يفعل الإنسان خيراً ولا شراً. ولكنه كان ينبغي أن يأخذ موقفاً إيجابياً في الخير.

١٣ يونيو ٢٠١٠

أهمية ردود الفعل

كل عمل يعمله الإنسان له ردود فعل. بل أيضاً كل كلمة يقولها. ذلك لأن من يزرعه الإنسان إياه يحصد. وينطبق هذا على كل ما يصدر عن الإنسان خيراً كان أو شراً. فردود الفعل تكون على الأرض وأيضاً في السماء.

★★ نرى هذا أيضاً في العلاقات بين الناس بعضهم والبعض. فكل شيء له نتائجه: المحبة تلد محبة، والعداوة تلد عداوة. واللطف يلد لطفاً. بل أن ابتسامة منك في وجه طفل، تطبع ابتسامة أخرى على شفتيه. والأدب والاحترام في معاملة الناس، يكون من ردود فعله احترامه من جهته. أتذكر زميلاً لنا في الدراسة كان لا يكلم أحداً إلا باحترام شديد. وكانت النتيجة أن الكل يقابلونه بالمثل. وإن خرج أحد منهم عن اللائق، كان ذلك الزميل يتصرف بأسلوب رصين ورزين يجبر الآخَر على تعديل سلوكه والالتزام بالاحترام في معاملته. وأتذكر أيضاً أن ناظر مدرسة كان يعامل المدرسين بجفاء وبأسلوب قانوني بحت، فكان رد الفعل هو كراهية جميع المدرسين له. وقد سأل " لماذا يكرهونني وأنا لم أخرج عن القانون في معاملة أحد منهم؟! " وكان الجواب: أنت تعاملهم بالقانون وليس بالمحبة. بينما الناس لا يلجأون إلى القانون إلا إذا زالت المحبة من بينهم. ويقول المثل: " إذا تراضى الخصمان استراح القاضي ".

إن الحزم يولد الانضباط، والتسيب يولد الفوضى. ولكن القسوة في الحزم تلد كراهية أو عداوة. لذلك ينبغي أن يكون الإنسان حكيماً في حزمه، لا يتطرف فيه إلى القسوة أو الشدة الزائدة عن الحد. وقد قلت مرة في تأبين شخص عظيم منذ حوالي ستين عاماً:

يا قوياً ليس في طبعه عنفُ ... ووديعاً ليس في ذاته ضعفُ
يا حكيماً أدب الناس وفي ... زجره حب وفي صوته عطفُ
لك أسلوب نزيه طاهر ... ولسان أبيض الألفاظ عفٌّ

★★ ينبغي للإنسان قبل كل كلمة يقولها، أن يفكر في ردود فعلها. ويحسب حساباً لتأثيرها على من يسمعه ومدى انفعاله بها. ولذلك عليه أن يتحاشى الألفاظ القاسية، وعبارات التهكم، والكلمات التي لها أكثر من معنى، وقد تفهم من البعض على معنى سيئ. لذلك حاول في حياتك الخاصة أن تنتقى ألفاظك، وتكون بميزان دقيق.

★★ ومع الأطفال بالذات، ينبغي أن يكون المتكلم حريصاً. فالطفل من كلامك قد يأخذ عنك فكرة لا تستطيع نزعها منه. ويجب أن تكون صادقاً فيما تقوله أمامه. وأن توفي بكل وعد تعده به. ولا تهز المثاليات التي في ذهنه بأخطائك في الكلام. واحترس من شدة التوبيخ والانتقاد، فإن لها ردود فعل.

★★ وكن رقيقاً. فالرقة لها رد فعل عميق في من يتعاملون معها. أحياناً يكون الرجل رقيقاً جداً في معاملته لخطيبته. وإذا ما تم زواجه بها، يظن - للأسف الشديد - أن الرقة هو لون من الكلفة، بينما قد زالت الكلفة بينهما بالزواج! وهذا خطأ شديد. لذلك احتفظ باحترامك لزوجتك. واستخدم الرقة واللطف لمعاملتها. بل والاحترام أيضاً. وسيكون رد الفعل لذلك طيباً جداً في نفسيتها. أتذكَّر في إحدى المرات - وأنا أسقف - أنه زارني أستاذ من جامعة كمبريدج ومعه زوجته. فكان يجعلها تتقدمه باستمرار. وكان يتحدث عنها باحترام. ولا يذكر اسمها مجرداً وإنما معه لقبها. وكانت هى تحترمه بالمِثل. كذلك أذكر صديقاً لنا كان يتخاطِب مع أبنائه باحترام، حتى مع الصغار منهم. وكان أطفاله يحبونه، إن أنه كان يُشعرهم بقيمة شخصية كل منهم، وبتوقيره لمواهبهم.

★★ هناك ألفاظ يُقال عن بعضها " مثل رجم الطوب ". وتأتي بعكس ما يريد صاحبها. وفي الإنجيل: " بكلامك تتبرر، وبكلامك تُدان ". حتى بالنسبة لرئيس العمل في معاملته لمرءوسيه، يمكنه أن يوجههم ويشرح لهم أخطاءهم. ولكن بأسلوب غير جارح. فكل إنسان له مشاعره التي لا يقبل أن تُهان. ومن جهة ردود الفعل، يقول المَثل السائد: " اللي يشد ذيل القط، يخربشه ".

★★ من أجل هذا عليك أن تدرس نفسيات الناس، وتعاملهم بما يناسبهم. فالزوجة أحياناً تطلب من زوجها طلباً وتظل تلح عليه إلحاح. وتكرر الإلحاح حتى يسبب له ذلك شيئاً من التَّبرُّم والضجر. وربَّما لا يحتمل المزيد من الإلحاح، فيثور أو يرفض، أو يرد بكلمة شديدة. وإن عرفت الزوجة أن هذا هو رد الفعل عند زوجها، عليها أن تحترس من الضغط على أعصابه بالإلحاح. ويمكن أن تُغير الطلب في مناسبة أخرى يكون فيها أكثر هدوءاً وأكثر استجابة. كذلك يحدث أحياناً أن المرأة في بيتها تهمل ذاتها، ولا تهتم بزينتها أو جمالها. ويكون رد الفعل لذلك عند رجل ضعيف، أن تجذبه إغراءات من الخارج يجد أنها تفوق بيته جمالاً وشكلاً وأناقة. حقاً متى نرى بيوتنا لها الجاذبية التي تغني الرجال والأبناء والكبار من طلب المتعة خارج البيت؟!

كثيراً ما نلوم الفتاة التي تفسد أخلاقها، وتستجيب لإغراء أحد الشبان وتخطئ معه. أو لتهرب من بيتها. وقد يكون ما تفعله هذه الفتاة هو رد فعل للمعاملة التي تلاقيها في منزل الأسرة. حيث لا تجد حباً ولا حناناً، والقسوة في المعاملة وانتهارها وكلاماً جارحاً. فتلجأ إلى طلب الحنان خارج البيت. وإن وجدته، تُسلم ذاتها وتسقط. ونصيحتنا إلى الآباء والأمهات، أن يشبعوا أبناءهم وبناتهم من الناحية العاطفية، وأن يبتعدوا عن القسوة والتقيدات الكثيرة. حتى لا يصير البيت بمثابة سجن عند الأبناء. ويكون رد الفعل هو الهروب أو الفساد.

★★ يحدث أحياناً أن بعض رجال الدين لا يهتمون بالناحية الروحية لرعيتهم. ولا يفتقدون شخصاً إذا غاب وكثر ابتعاده عن بيت اللَّه، دون أن يهتموا به أو يفتقدوه. ويكون رد الفعل أن يفتقده الشيطان أو الأصدقاء الأشرار. ويكون قلبه جاهزاً لهم مستعداً، ويضيع ذلك الشخص. نفس الأمر نقوله عن عدم اهتمام أي إنسان بروحياته فيكون رد الفعل أنه يضعف ويكون رد الفعل في حياته أنه بإهماله الحرص يضعف، ويتعود أموراً تتحول فيه إلى طبع.

٢٠ يونيو ٢٠١٠

التفاؤل والرجاء

إن التفاؤل يأتي من الإيمان بعمل اللّه من أجلنا، ومن الرجاء بأنه لا بد سيعمل عملاً. بالتفاؤل يرى الإنسان أن الليل مهما بلغ ظلامه، لا بد سيأتي بعده الفجر المنير. وأن برد الشتاء يعقبه دفء الربيع، وهكذا يتأمل الشخص في النقاط البيضاء في كل ما حوله. وبالإيمان يرى الخير في كل شيء. لا ينظر إلى الظلمة الحالية، بل إلى النور الذي سيأتي. لا ينظر إلى ما يراه الآن، وإنما ما أعده اللّه له فيما بعد.

★★ وقد كنت أقول للذين في ضيقة: تذكروا ثلاث عبارات هى: "ربنا موجود. كله للخير. مصيرها تنتهي". فلا توجد ضيقة تستمر. فمهما طال زمانها لا بد أنها ستنتهي. إنما تأخذ شكلاً هرمياً. فترتفع حتى تصل إلى قمتها. ثم تنحدر إلى أسفل وتنتهي. وتنتهي على خير. وحقاً كله للخير، لأن ربنا موجود. فبالرجاء يتأكد الشخص أن اللّه لا بد سيتدخل. وحينئذ سوف تزول كل المشاكل وينصلح الأمر. إن نظرة الخوف والشك تجلب اليأس. أما نظرة التفاؤل والإيمان، فإنها تؤكد أن اللّه لا بد سيعمل عملاً، ولو في الساعة الرابعة والعشرين.

والإيمان يقول: ليس ما نراه نحن، إنما ما يراه اللّه لأجلنا. وليس ما نعمله نحن، إنما ما يعمله اللّه من أجلنا. وعمل اللّه في القديم، يعطينا الثقة والرجاء بعمله في المستقبل. إن عمل اللّه قادر أن يغير القلوب وأن يبنيها من جديد.

★★ كثيرون جداً تصغُر نفوسهم أمام المشاكل التي تبدو معقده وبلا حل، فتزيد حروب الشيطان من متاعبه. ويحتاجون إلى كلمة تعيد إليهم الرجاء. يحتاجون إلى نافذة من نور تبدد الظلمة التي تكتنف نفوسهم، والرجاء إذن هو شيء هام في الحياة. ولو فقد الإنسان الرجاء، فقد كل شيء. بل قد يقع في اليأس، ويقع في الكآبة، وتنهار معنوياته، ويقع في القلق والاضطراب ومرارة الانتظار بلا هدف. وقد يقع ألعوبة في يد الشيطان

الذي يقال عنه إنه يقطع الرجاء. أما الإنسان الروحي فمهما تعقدت الأمور أمامه، ومهما بدى أن اللَّه قد تأخر في إرسال المعونة، فإنه لا يفقد رجاءه أبداً. إنه يؤمن بأن غير المستطاع عند الناس، هو مستطاع عند اللَّه. وأن كل أمر مهما بدى مستعصياً وصعباً ومعقداً، فهناك رجاء يقدمه اللَّه.

★★ إن الإنسان الروحي لا يرى أن اللَّه سيعمل في المستقبل، فهذا إيمان ضعيف، وإنما هو يؤمن أن اللَّه يعمل حالياً، وإن كان لا يرى عمله. لكنه واثق تماماً أن اللَّه يعمل. ويكون له رجاء بنتيجة عمله التي سيراها فيما بعد. إنه لا ينظر إلى الضيفات، إنما ينظر إلى اللَّه الذي يبعد عنه الضيقات. لذلك فإن الرجاء يصاحبه في كل حين، وفي كل حال. ولا يفارقه أبداً. إنه رجاء في محبة اللَّه، وفي مواعيده الصادقة. ورجاء في قوة اللَّه القادر على كل شيء. رجاء في أن اللَّه الذي عمل في القديم، والذي يعمل كل حين، هو قادر أن ينجيه من كل ضيقة. وهذا الرجاء في معونة اللَّه، يعطي الإنسان سلاماً في القلب، وطمأنينة في الداخل، وفرحاً لعمل اللَّه.

★★ والذي يعيش في الرجاء، ينظر دائماً باباً مفتوحاً في السماء، مهما كانت أبواب الأرض مغلقة. فاللَّه حينما يفتح لا يستطيع أحد أن يغلق. والإنسان المؤمن يعرف تماماً أن اللَّه يحبنا أكثر مما نحب أنفسنا. ويعرف الخير لنا أكثر مما نعرف الخير لأنفسنا. ويوقن أن اللَّه يدبر أمور الكون كلها حسب حكمته غير المحدودة. ويقول في ضميره إن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون اللَّه. ونقصد الخير بالمقاييس الإلهية، وليس الخير بمفاهيمنا البشرية. ويقول أحياناً إذا ضاقت به الأمور: إن المر الذي يختاره الرب لي، خير من الشهد الذي أختاره لنفسي.

★★ والمؤمن يرى - في حياة الرجاء - أن كل مشكلة لها عند اللَّه حل أو عشرات الحلول. وأن كل الأمور التي تمر بنا في حياتنا: إن كانت خيراً فسوف تصل إلينا بكل بركة. وإن كانت شراً، فإن اللَّه صانع الخيرات سيحول الشر الذي فيها إلى خير. والمؤمن يثق أيضاً أن حياته هى في يد اللَّه وحده، وليست في أيدي الناس، ولا في أيدي التجارب

والأحداث، ولا في أيدي الشياطين. وما دامت حياته في يد اللَّه، فإن اللَّه سوف يحفظه في سلام، ويحرسه في الليل والنهار، ويحفظ دخوله وخروجه.

★★ لذلك إن كانت لديك مشكلة، فانتظر اللَّه لكي يُريحك وينقذك منها. ولكن لا تنتظر الرب وأنت متضايق وخائف ومتذمر وفي ضجر. وتقول في داخل نفسك: لماذا لم يعمل الرب حتى الآن؟ وأين محبته ورعايته وأين عمله؟! نعم لا تنتظر عمل الرب وأنت في شك من المستقبل، وفي شك من قيمة الصلاة وفاعليتها!! إن كل تلك المشاعر ضد فضيلة الرجاء. فالإنسان المضطرب أو اليائس أو المنهار، إنما يدل على أنه فاقد الرجاء. أما منتظرو الرب فأنهم ينتظرونه في قوة غير خائفين. وإنما يثقون بمواعيد اللَّه السابقة وبصفاته الإلهية المحبوبة، باعتباره الراعي والحافظ والساتر والمعين. وأنه رجاء من ليس له رجاء ومعين من ليس له معين. وأنه يعطينا باستمرار دون أن نطلب وقبل أن نطلب. فكم بالحري إذا طلبنا.

★★ واعرف تماماً أن اللَّه إذا سمح لك بضيقة، فإنما يكون ذلك لمنفعتك. والضيقات هى دائماً مدرسة الصلاة. ربما حياة التنعم تبعدنا عن اللَّه. أما الألم فأنه يقربنا إليه. فتصير صلواتنا أعمق وأكثر. وتصير أصوامنا أكثر روحانية. إن الضيقات التي احتملها داود النبي، صارت نبعاً لمزاميره، يغنيها على العود والقيثار والمزمار. وصارت ينبوعاً لتأملات روحية وصلوات عميقة تصليها الأجيال من بعده. بل الضيقات أعطته قوة في شخصيته.

★★ ومن جهة الأمراض. فعلى الرغم من أن المرض آفة يحاربها الناس، ويهربون منها إلى الطب والدواء، فإن أمراضاً كثيرة قادت إلى التوبة، وفعلت ما لم تفعله أعمق العظات، وبخاصة الأمراض الخطيرة والمؤلمة. فكم قد أدخلت كثيرين في عهود مع اللَّه، وفي نذور قدموها إليه، وفي حياة جديدة معه، أو في توبة واستعداد للموت. حقاً إن كل الأمور تعمل معاً للخير. لذلك عش سعيداً مهما حدث لك. وقل في ثقة "كله للخير".

٢٧ يونيو ٢٠١٠

إنـذارات من اللّه

إن اللَّه الذي لا يشاء هلاك الخاطئ، بل بالحري أن يتوب ويرجع إليه ويخلص. لذلك فإنه يرسل إنذارات متنوِّعة إليه لعلَّه يستفيد منها من أجل خلاص نفسه. وإنذارات اللَّه هى أجراس تنذر بخطر مُعيَّن، لكي نصحو إلى أنفسنا، ونرجع إلى اللَّه. فهى إذن لفائدتنا. وقد تكون عبارة عن ضيقات مُعيَّنة تحل بنا أو مُجرَّد كلمات إنذار. هذه الإنذارات هـى مـن صميم مراحم اللَّه، تعطي الإنسان فرصة لمراجعة نفسه.

ومن أمثلتها: بعض الزلازل الخطيرة التي هزت بلاداً. وخاف النـاس واعتبروهـا علامة على بداية النهاية. وكان الخوف دافعاً لهـم وقـادهم إلـى التوبـة وإلـى مزيـد من الحرص. إن اللَّه لا يضرب الخطاة ضربة مفاجئة تهلكهم، بـل بمراحمـه ينـذرهم. وهنا تعجبني صلاة كان يُصلِّيها أحد الرهبان قـائلاً: " لا تأخـذني يـارب فـي سـاعة غفلة ".

★★ والإنذار الإلهي قد يأتي قبل السقوط، لكي يحترس الإنسان ولا يسقط. وقد يأتي بعد السقوط، ليكون دعوة إلى التوبة. ولهذا قدَّم اللَّه لنا هذه الوسيلة، لكـي ننـذر أيضـاً ما يمكننا إنذاره من الخاطئين، لكي يتوبوا. ومن الأسف أن الكثيرين مِمَّن عليهم المسؤولية قد يتعسَّفون من الإنذار، بدافع من الخجل أو المجاملة أو العطف. وبسبب ذلك يبتعـدون عن النصيحة أو الإنذار لأحبائهم ومعارفهم. وأحياناً بدافع الخوف لئلا يتضايقوا منهم. وقد توجد أُم عطوفة على ابنها أو طفلها لا توبِّخه مطلقاً مهما أخطأ، لـئلا يحـزن، أو لـئلا يغضب منها. وقد تفتخر بهذا الأمر وتقول: "ابني هذا لن أحزنه في شيء ما منذ ولادته"، بينما رُبَّما هذا التدليل ليفسده. بينما الحُب الحقيقي يكون في توجيهه إلى تـرك أخطـاءه، لكي لا يقع فيها مرَّة أخرى. وأيضاً يكون ذلك بأسلوب حكيم لا تخسره به.

★★ لقد أنذر اللَّه العالم قبل الطوفان، فنجى من قِبَل الإنذار وأطـاع، أعنـي نـوح وأسرته. وقد أنذر اللَّه أيضاً فرعون مرات عديدة ، قبل أن يضربه الضربة النهائية. ولكن فرعون كان في كل إنذارات اللَّه يرفضها ويُعاند، لذلك قد هلك.

★★ قد يأتي الإنذار من اللَّه نفسه مباشرة كما حدث في قصة الطوفان، وكما حـدث كثيراً في بعض أحداث التاريخ. وقد يكون الإنذار الإلهي عن طريق الرُسُـل والأنبيـاء، وعن طريق المرشدين والمُعلِّمين أو بعض الناصحين.

★★ وقد يكون الإنذار عن طريق عقوبة تحدث تأثيرها في النَّفس. وقد يبكي إنسان بسببها ويحزن. لكن الحزن يقوده إلى التوبة. وقد يكون الإنذار الإلهي عن طريـق فشـل يقع فيه الشخص أو مرض أو ضيق. فيبحث عن سبب فشله كيف يُعالجه. أو قد يسـتيقظ إلى نفسه ويقول: " رُبَّما هذا الفشل نتيجة لتخلِّي اللَّه عني بسبب خطاياي. إنه إنـذار لـي لكي أصطلح مع اللَّه وأرجع إليه ". وقد يمرض أحدهم مرضاً خطيراً. فيقول لنفسه: " إنه إنذار من اللَّه، ورُبَّما الموت قريب، وعليَّ أن أتوب قبل أن أموت ". لذلك فـإن بعـض المشاكل العويصة قد تحمل إنذاراً بالرجوع إلى اللَّه لكي يتدخَّل ويحل المشكلة.

★★ هناك إنذارات عامة يُقدِّمها اللَّه للبشرية عن طريق الأمراض المُستعصية. مثل مرض الإيدز الذي عجز الأطباء عن علاجه. وصار إنذاراً للمنحرفين أخلاقيـاً يخـافون منه. وبالمثل لا يحدث لبعض الأمراض المستعصية الأخرى مثل: فيـرس C، والفشـل الكبدي، وأمراض أخرى خاصة بالمخ لا علاج لها ... ورُبَّما يكون الإنذار هو موت أحد الأحباء أو الأقرباء ... إذ يتأثَّر القلب بهذا الموت. ويقول الإنسان لنفسه: " ما أسـهل أن يترك الإنسان هذا العالم الفاني في أي وقت. فعليَّ أن أكون محترساً في كل وقت ".

★★ وقد يأتي الإنذار الإلهي عن طريق أحداث مُعيَّنة: كما حدث سنة ١٩٤٨ حينما هجم وباء الكوليرا على مصر وكان من ضحاياه كثيرون. ولكن الكثيرين أيضـاً قـادهم الخوف من الوباء إلى التوبة. ومثل ذلك ما يحدث في بلاد أخرى من كـوارث طبيعيـة

مثل: البراكين أو الفيضانات أو القحط أو الحروب. ولا شكّ أن كثيراً من الكوارث تحمل في أعماقها إنذارات للعالم لكي يرجع إلى اللَّه. ولكن الحُكماء لا ينتظرون الكوارث حتى يتوبوا. بل عليهم أن يكونوا مستعدين للقاء اللَّه في كل وقت. تجذبهم محبة اللَّه أكثر مِمَّا تخيفهم الإنذارات. أمَّا إن أتتهم الإنذارات فليستيقظوا.

★★ وقد يكون الإنذار بطريق التأثُّر الروحي. وقد يتأثر أحدهم بقراءة روحية، أو بعظة مُعيَّنة أو بأحداث سمع عنها. وقد يكون الإنذار عن طريق توبيخ من مُرشِد روحي، أو من الوالدين، أو نصيحة من أحد الأصدقاء، أو من مقال روحي قد قرأه. على أن ردود الفعل للإنذارات الإلهية قد تتنوع من شخص لآخر، أو من شعب لآخر. وهناك نوع سريع التَّأثُّر ينتفع بالإنذار الإلهي ويستجيب له. وهناك من الناس يسمع الإنذار فيتأثَّر، ولكنه يؤجّل التوبة وتغيير مسلكه. بلون من قساوة القلب والعناد أو التَّمسُّك بما هو فيه. وهناك نوع يتلقَّى الإنذار فيتأثر به. ولكنه ييأس. إذ تكون الخطيَّة قد سيطرت عليه تماماً. وأصبح لا يستطيع الفكاك منها. وكأنه مستعبد للخطأ لا تؤثر فيه الإنذارات. أو هو يسمع الإنذار ولا يبال ويستمر في أخطائه حتى يضيع. ما أكثر الذين تعطيهم الإنذارات ولكن شهواتهم تُضلِّلهم، أو كبرياءهم وتكون عائقاً أمام استجابتهم وتقودهم إلى لون من العناد. وهناك نوع صلب الرقبة مثل بني إسرائيل الذين لم يستمعوا بقلوبهم إلى إنذارات اللَّه مرات عديدة فأسلمهم الرب إلى يد نبوخذنصر، وتمَّ سبيهم في بلاد فارس. وبكوا حينما جلسوا على أنهار بابل مُتذكِّرين صهيون!

★★ وهناك نوع آخر يصله الإنذار، فيستهزئ ويقاوم ويعتد بنفسه.

وهناك نوع أصعب من كل أولئك فهو لا يتأثر إطلاقاً مهما سمع الإنذارات وتكون نهايته هو مثال ذلك يهوذا الإسخريوطي الذي أصبح في العالم كله مثالاً للخيانة.

أمَّا أنت أيها القارئ العزيز: إن أتاك إنذار من اللَّه في وقت ما من الأوقات، فحاول أن تستجيب وبسرعة وتستفيد من ذلك. وليساعدك اللَّه.

٤ يوليو ٢٠١٠

الروح وليس الحرف

المقصود بوصايا اللَّه هو روح الوصية وليس مُجرَّد حرفيتها. ولكن هناك وصايا واضحة جداً من جهة الحرف مثل وصية: لا تقتل، أو لا تزنِ، أو لا تسرق. ويمكن الدخول في بعض تفاصيل هذه الوصايا مثلاً. وتبقى حرفيتها قائمة. وكما تقول القاعدة: " لا اجتهاد مع النص ". ما دام النص واضحاً تماماً.

★★ ونحن في هذا المقال نودِ أن نشرح روحياً المقصود ببعض الوصايا العامة التي لا يمكن الاكتفاء فيها بمُجرَّد النص وإنما يجب الدخول في عُمق روحانيتها.

★★ من جهة العطاء (أو الصدقة): المفروض هو الروح وليس الحرفية. فالإنسان الروحي يعطي من قلبه بكامل حبه، قبل أن يُعطي من جيبه. فالعطاء إذن هو مُجرَّد تعبير عن المشاركة القلبية في احتياجات الآخرين. ولا يُعطي الإنسان لمُجرَّد الإحراج أو لمُجرَّد تنفيذ الوصية، بغير مشاعر وبغير روح. وفي روح الوصية حينما تُعطِي يجب أن تعترف داخل نفسك بأن المُعطي الحقيقي هو اللَّه. وهو الذي أعطاك لكي تُعطِي غيرك، وهو الذي أعطاك الرغبة في العطاء. وأنت مُجرَّد موصل عطايا اللَّه للآخرين. لأنه ليس من عندك الذي تُعطيه، إنما هو من عند اللَّه. وهكذا لا يفتخر أحد إذا أعطى، وأيضاً روح العطاء يعني أنك تُعطي إخوتك في البشرية. فلا تدقق في الحساب معهم، ولا تعاملهم بطريقة سيئة كأنك تحسن إليهم! واعرف أن القلب إن لم يشترك بحب وفرح في وصية العطاء، فيكون في عطائه مُجرَّد الحرفية وليس الروح.

★★ نقول نفس الكلام عن الخدمة الاجتماعية: كثير من الناس يأخذون من هذه الخدمة حرفيتها أو شكلياتها دون روحها. وينسون في ذلك أنها خدمة وليست مجالاً لإظهار الذات. ولا يجوز أن تختلط بحب السيطرة والنفوذ، أو أن تصبح مُجرَّد أعمال

إدارية ومالية، دون روح. ويجب على العامل في الخدمة الاجتماعية أن يذكر أنه خادم للآخرين، وليس مُسيطراً عليهم.

★★ فالصوم مثلاً ليس هو مُجرَّد الصوم عن الطعام. فهو في روح الوصية يحمل معنى ضبط النفس والارتفاع عن مستوى شهوة الجسد. فقد يصوم شخص عن الطعام، ولا يصوم عن متعة جسده بالتدخين. وتبقى هذه العادة مسيطرة عليه على الرغم من صومه، وهو هنا يكون قد دخل في شكلية الوصية وحرفيتها دون روحها. وإن كان الصوم يحمل معنى المنع أيضاً، فالمفروض أن يشمل هذا المنع كثيراً من الأخطاء. فيمنع نفسه عن أخطاء كثيرة. وهكذا يدخل في صوم اللسان عن الكلام الرديء، وصوم العقل عن أخطاء الفكر. وصوم القلب عن الشهوات الرديئة ... وتصبح فترة الصوم هي تدريب روحي على خطايا كثيرة يُمتنع عنها أثناء صومهم. وبتوالي ذلك يتحوّل هذا المنع إلى منهج حياة.

نقول ذلك لأن كثيرين يصومون ولا يستفيدون، لأنهم يسلكون في صومهم بطريقة حرفية شكلية، دون الدخول إلى روح الصوم وما يريده اللّه منه. وهكذا قد يرجع البعض في نهاية فترة الصوم إلى عادته السابقة. ويذكِّرني ذلك بقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

رمضان ولّى هاتها يا ساقي ... مشتاقة تسعى إلى مشتاقٍ

ومعنى ذلك أنه لم يستفد من الصوم في منع نفسه عن زجاجة الخمر إلاَّ مؤقتاً. فما أن انتهى صومه حتى عاد إلى اشتياقه إلى الشرب مرَّةً أخرى. فأخذ حرفية الوصية دون أن يدخل في روحانيتها. وهكذا نرى أن البعض كانت أجسادهم صائمة، بينما أرواحهم مفطرة.

★★ كذلك السجود أيضاً: الإنسان الروحي لا يدخل في حرفية السجود، إنما في روحه. فليس السجود مُجرَّد انحناء الجسد إلى الأرض، إنما أيضاً انحناء الروح مع الجسد. فلا يقتصر الأمر على خشوع الجسد، إنما أيضاً خشوع الروح. والذي يكتفي بمُجرَّد حرفية المعنى من السجود دون روحه، لا يكتسب خشوعاً لا في الجسد ولا في

الروح. وأنت يا أخي حينما تسجد أمام اللَّه، ليكن في قلبك وذهنك الشعور بأنك تراب ورماد، تنحني أمام خالقك الذي صنعك ومنحك هذا الجسد الذي تسجد به.

أيضاً الصلاة حرفياً يظنها البعض أنها الحديث مع اللَّه. ولكن ما هي الصلاة الروحية؟ من واقع عبارة الصلاة، واضح أن معناها الصِّلة باللَّه. وقد يُصلِّي إنسان، أو يظن أنه يُصلِّي، بينما لا توجد هذه الصلة بينه وبين اللَّه!! إنه يُكلِّم اللَّه بشفتيه، أمَّا قلبه فمُبتعد عنه بعيداً! واللَّه يريد القلب قبل كل شيء ... أتظن يا أخي أنك تُصلِّي، بأنك تُحرِّك شفتيك أمام اللَّه؟! بينما تكون الصلاة بلا روح، ولا مشاعر، ولا خشوع، ولا اتضاع، وربما لا تعني عُمق ما فيها من ألفاظ. أتريد أن ترضي ضميرك من جهة الصلاة، حتى ولو كانت هكذا؟ أمْ تُصلِّي بروحك، وتُصلِّي بذهنك، وتقصد كل كلمة تقولها في صلاتك. صدَقَ أحد الآباء الكبار حينما قال عن مثل تلك الصلاة التي بلا روح: " إذا حورِبت بمثل هذه الصلاة، فقُل لنفسك: أنا ما وقفت أمام اللَّه لكي أعدّ ألفاظاً!... ".

ذلك لأن كثيرين يهمهم أن يطيلوا الصلاة بغير فهم، ويفرحون بهذا! دون أن يدخلوا في عُمق المعاني التي في ألفاظ الصلاة. وبالمثل يفعلون ذلك في كل التراتيل والتسابيح... المُهم عندهم هو الحرف وليس الروح ... وتستريح ضمائرهم لأنهم قاموا بواجبهم الروحي في العبادة ... بينما لم تصعد تلك الصلوات إلى اللَّه، ولا تلك التسابيح، لأنه في كل ذلك لم تكن هناك صِلة بينهم وبين ربهم، ولم تشترك الروح ولا القلب أثناء الصلاة.

★★ وفي السلام أيضاً: غالبية الناس يُسلِّمون على غيرهم، وليس في قلوبهم سلام. إنما يأخذون من كلمة السلام جرفيتها فقط دون روح هذا السلام ... وما أكثر ما نقوله في هذا المجال من كلام، ومن تحيات، ومن مجاملات، لمُجرَّد الحرف وبلا روح. لذلك ينبغي أن يكون سلامنا مع الناس بالروح والحق، وبالحُب والتعاطف وحُسن التعامل. على أن يكون كل ذلك من عُمق القلب.

★★ الناس أيضاً رُبَّما لا يفهمون معنى الراحة الحقيقية. فيظن الشخص أنه يهتم براحته الشخصية بينما المعنى الحقيقي أن يجد راحته في إراحة الآخرين. وفي راحة ضميره من نحو نفسه ومن نحو واجبه حيال غيره. إذن ما يتصف على المعنى الحرفي للراحة، بل على معناه الروحي إذ فيها يريح روحه ويُريح كل مَن يتصل به.

١١ يوليو ٢٠١٠

النجاح: أنواعه ودرجته

كلمة النجاح كلمة مُفرحة. والإنسان الناجح يكون فرحاً بنجاحه وسبب فرح لأسرته وأحبائه وللمجتمع المحيط به. وهناك أنواع من النجاح تكون فرحة للوطن كله. كما أن نجاح الإنسان روحياً يكون سبب فرحة للملائكة وأرواح القديسين. ونتكلَّم حالياً عن الفرح بمناسبة النتائج الدراسية وما تعلنه من نجاح كثير من التلاميذ.

★★ والنجاح كما يضم هؤلاء الصغار يضم أيضاً مَن حصلوا على جائزة نوبل، مثل الأديب نجيب محفوظ، والعالم أحمد زويل، وكل مَن قدموا بحوثاً ناجحة، أو اختراعات تمَّ الاعتراف بها. كل أولئك كانوا سبب فرح لبلدهم ووطنهم.

فلا يكفي إذن مُجرَّد النجاح، إنما أيضاً التفوق والذَّكاء والنبوغ والعبقرية الذي يرفع رأس الجميع ويكون أيضاً سبباً للفخر وللإعجاب.

★★ ونحن لا نقصد بالنجاح مُجرَّد النجاح العلمي فقط، وإنما كل نجاح في كل الميادين: كنجاح المحامي إذا كسب قضية مُعيَّنة، ونجاح الطبيب في علاج مريضه، ونجاح العامل في إتقان عمله، ونجاح الفنان في إتقان دوره، ونجاح الوالدين في تربية أبنائهم، ونجاح فريق الكرة في كسب المباراة. وقد رأينا كيف أن بعض رؤساء الدول يرقصون فرحاً في نجاح فريقهم بالمونديال ... كذلك يكون الفرح بأي اقتراح ناجح، أو أية فكرة ناجحة، أو أي مشروع يُلاقي نجاحاً.

★★ وكما يكون الفرح بالنجاح، يزداد الفرح أكثر بدرجة النجاح. فهناك فرق بين تلميذ ينجح نجاحاً عادياً، وبين آخر ينجح بتفوق وبامتياز. وأكثر منهما في سبب الفرح الأوائل حيث يكونون سبب فرح عميق لكل مُن يتصل بهم.

وعكس ذلك كله الفشل والرسوب وما يُسبِّبه من حزن ومن انهيار أحياناً.

★★ والنجاح هو صفة من صفات الإنسان الروحي، الذي يكون ناجحاً في كل شيء، وكل ما يعمله ينجح فيه. فإن مقومات النجاح تكون في شخصيته لا تفارقه في كل ما يمارسه من أعمال. فيكون ناجحاً في وظيفته، وناجحاً في كسب احترام وثقة مَن يتعامل معهم. ويكون ناجحاً في أخلاقياته، وناجحاً في حياته العائلية، وناجحاً في رسالته وفي مهمته. ناجحاً أيضاً في ملاقاة الصعاب وفي حل المشاكل التي يتعرَّض لها، وناجحاً في النجاة من المكائد والمؤامرات. ولا يؤثِّر عليه شيء، بل يجتاز كل ذلك في نجاح.

★★ والتاريخ يعطينا يوسف الصديق كمثال، إذ كان ناجحاً ومحبوباً في كل وضع: كان ناجحاً كابن في أسرة نال محبة والديه، وناجحاً كخادم في بيت ذلك المصري، وناجحاً كسجين يلتف حوله زملائه ويستشيرونه في مشاكلهم. كما كان ناجحاً كوزير ائتمنه فرعون على إدارة البلاد أيام المجاعة.

بلا شك أن هناك أمثلة كثيرة للناجحين في كل مراحل التاريخ: من القادة الناجحين في الحروب الذين أنقذوا بلادهم ورفعوا شأنها. ومن الفلاسفة والكُتَّاب الذين خلدت أسماؤهم وحفظ التاريخ تراثهم، ومن العُلماء الذين انتفع العالم بعلمهم على مر الأجيال وحتى الآن. ولا ننسى أيضاً المصلحين الاجتماعيين ومؤسسي الجامعات، وأصحاب الأنشطة المتعددة في مجالات كثيرة.

★★ على أننا في موضوع النجاح لا تهمنا كثيراً البداية، إن كانت فاشلة أحياناً. إنما تهمنا النهاية التي يحصل عليها الإنسان الناجح. فالإنسان الناجح كثيراً ما تُقابله صعاب ومشاكل تعطله. لهذا كله لا تتعب مطلقاً، إن لم تحصلوا على النجاح في بداية الطريق. فالنجاح يحتاج إلى صبر وإلى مثابرة. أمَّا الإنسان الذي يدركه الملل والضجر والضيق، فهذا لا يستطيع أن ينجح. أمَّا الإنسان الروحي فلا يقلق، وإنما ينتظر ثمرة كفاحه حتى تنضج.

★★ والإنسان الروحي يكون ناجحاً أيضاً في داخل نفسه: يكون ذا نفسية قوية لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تخاف. يكون ناجحاً في قلبه وفي أعصابه وفي إرادته. وقبل كل شيء يكون ناجحاً في علاقته مع الرب خالقه. ويسير في حياته كسهم نحو

هدف، يصل إلى غايته بدون انحراف. ومهما هاجت الأمواج على سفينته، لا يضعف ولا يفشل من الداخل. ولا يلين إيمانه في إمكانية النجاح على الرغم من كل العراقيل التي تحاول أن تسد الطريق أمامه. بل يجد لذة في الانتصار على تلك العقبات، بنعمة من اللَّه. ونجاحه على الرغم من الصعاب يكون له فرح أكبر، ويعطي خبرة روحية عميقة في عمل اللَّه معه.

★★ والنجاح أيضاً يحتاج إلى حكمة وذكاء. فكثيرون يفشلون في حياتهم الروحية أو المادية أو العائلية أو في معاملتهم، كل ذلك بسبب نقص في الحكمة وفي حُسن التَّصرُّف، أو بسبب عدم وضوح الطريق أمامهم. فأمثال هؤلاء يحتاجون إلى إرشاد من مرشدين، لهم عقلية واعية حكيمة. ويحتاجون إلى صلاة لكي يرشدهم اللَّه في طرقهم.

★★ والنجاح يحتاج إلى عمل دؤوب. لأن الذي يزرعه الإنسان إيَّاه يحصد. ويحتاج النجاح أيضاً إلى صمود حتى النهاية. والإنسان الناجح إن فاتته فرصة يلتمس غيرها. وهو لا ييأس أبداً. بل على العكس إن فشل في الخطوات الأولى، يعود فيقوم. وهو باستمرار يضع أمامه قصص الناجحين لكي يكونوا مُثلاً عليا يقتدي بهم، ويعرف وسائل نجاحهم في الحياة. وهو يحتاج في نجاحه أيضاً إلى بركة من اللَّه، وبركة من والديه.

وفي موضوعنا هذا لا بد أن نُفرِّق بين النجاح الحقيقي والنجاح الزائف. فنجاح فتاة في إغراء أحد الشبان، هو نجاح زائف ومثله نجاح شاب في إسقاط فتاة. ومن أمثلة النجاح الزائف أيضاً نجاح شخص ماكر خبيث يخدع إنسان بسيط، ويفرح قائلاً: " قد نجحت اللعبة ". وهنا تقف أمامنا مشكلة منذ القديم وهي: " لماذا تنجح أحياناً طرق الأشرار؟ وقد اطمأن الغادرون غدراً؟! "، هنا ونذكر مثالاً ذكره القديس أُغسطينوس إذ قال: " إن نجاح الأشرار كالدخان الذي يرتفع إلى فوق وتتسع رقعته وفي كل ذلك يتبدد. أمَّا النار فتبقى تحت لا تعلو مثل الدخان. ولكنها تظل في قوتها وحرارتها وفاعليتها، لا تتبدد مثله في الارتفاع ". لذلك فنجاح الأشرار هو نجاح زائف ومؤقت، وبطُرُق شريرة.

المهم إذن هو النجاح الحقيقي الذي يُباركه اللَّه ويفرح به الناس.

١٨ يوليو ٢٠١٠

محبَّتنا للَّه

الفضيلة الأولى والكُبرَى هى أن نحب اللَّه من كل القلب ومن كل الفكر. وإن أحببناه نفعل في كل حين ما يُرضيه. وبالمحبة نُطيع وصاياه، لا عن قهر ولا عن خوف وإنما عن حُب للَّه ولوصاياه. فالدين يا إخوتي، ليس مجرَّد حلال وحرام! أو مُجرَّد أوامر ونواهي، بقدر ما هو حُب نحو اللَّه والناس. ومن هذا الحُب ينبع كل خير، وتصدر كل فضيلة. والشخص الذي لا يُحب اللَّه والناس، ليس هو إنساناً مُتديناً بالحقيقة، مهما كانت له صلوات وأصوام، وقراءات وتأملات وعطاء وخدمة للآخرين. ولا نظن أن الدين هو مُجرَّد واجبات أو فروض، أو وصايا نرغم أنفسنا عليها لكي نظهر مطيعين لأوامر اللَّه، أو لكي نكون أبراراً في أعين أنفسنا. بل نحن نحب اللَّه كما أحبنا من قبل حتى قبل أن نُوجَد. ومن أجل هذا الحُب أوجدنا. ونحب اللَّه لأنه يرعانا باستمرار، ويكفل كل احتياجاتنا. ومن فرط جوده يعطينا قبل أن نطلب، ويعطينا فوق ما نطلب إن طلبنا.

★★ إننا نحب اللَّه، ونحب كل الناس داخل محبتنا له. ولا نسمح بوجود محبة في قلوبنا تتعارض مع محبة اللَّه أو تفوق محبتنا للَّه. حتى محبتنا لأنفسنا لا نجعلها في المرتبة الأولى، فمحبة اللَّه هى قبل كل شيء. ولا يجوز أن أية شهوة أو رغبة ندعها تفصلنا عن محبة اللَّه. وكل محبة تُنافس اللَّه في قلوبنا، تكون محبة غريبة خاطئة لا نسمح بها لأنفسنا. إن قلوبنا هى ملك للَّه وحده، فلا يجوز أن نعطيها لغيره. ولكننا نحب جميع الناس داخل محبتنا للَّه.

★★ إن الذي يُحب اللَّه، يحب أن يتكلَّم معه، وهكذا يحب الصلاة. ويرى الصلاة - من واقع اسمها - هى مُجرَّد صلِة باللَّه. إنها اشتياق إلى اللَّه، وإلى البقاء في حضرته، وهى مذاقه حلوة لأرواحنا تسمو بها في أجواء عُليا أرفع من مستوانا. ومن أجمل ألفاظ الصلاة أن يقول الشخص: أعطني يارب أن أحبك، وأيضاً علِّمني يارب كيف أحبك،

درِّبني على محبتك، ودرِّجني في محبتك. اسكب محبتك في قلبي. وانزع من قلبي كل محبة تتعارض مع محبتك، حتى يصير القلب كله لك وحدك. وأيضاً اجعل محبتك هي التي تشغلني وتملك قلبي، وهي التي تقود كل تصرفاتي. وتمنحني أن أُحب الناس جميعاً. بهذا الشعور لا تكون الصلاة واجباً أو فرضاً، بل تكون متعة للروح وللفكر. والقديسون الذين ذاقوا هذه المتعة، كانوا يحبون الكلام مع اللَّه أكثر من الكلام مع الناس بما لا يحد.

★★ إن الذين أحبوا اللَّه، أحبوا ملكوته. وأحبوا الأبدية التي يحيون فيها معه. ولم تعد محبة العالم والمادة تشغلهم. بل أيقنوا تماماً أن كل شهوات العالم زائلة تنتهي بعد حين. أمَّا محبة اللَّه فتبقى إلى الأبد. شهوات العالم سطحية، أمَّا محبة اللَّه فلها عُمق، ولها قدسية، وترفع مستوى الإنسان، في حين أن شهوات العالم تهبط بمستواه ... والإنسان الروحي يقول: كلما أحبك يارب، ترفعني إليك، لأعيش السماويات. أمَّا إن أحببت هذا العالم الحاضر، فإنه يهبطني معه إلى الأرض إلى التُّراب والأرضيات.

★★ ما أجمل التَّأمُّل في صفات اللَّه، إنها تغرس محبته في قلوبنا ... اللَّه المُحب الطيِّب الشفوق، الطويل الروح، الكثير الرحمة، الجزيل التَّحنُّن. الذي لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا ... اللَّه الكُلِّي القداسة، الكُلِّي الحكمة، الكُلِّي القدرة، الذي فيه كل كنوز الحكمة والعِلم.

★★ إننا نحب اللَّه الذي هو أقوى من الكل. وهو الذي يحرسنا ويسندنا. تشعر النفس المُحبة له أنها في حمايته، محاطة بقوة عجيبة، لا يقدر عليها عدو مهما بلغ من جبروت، ولا حتى الشيطان في كل حيلة وحروبه، هو لا شيء أمام قوة اللَّه الحافظة لنا. وهكذا فإن محبة اللَّه تطرح الخوف إلى خارج قلوبنا. فلا نخاف الدينونة، ولا نخاف الناس، ولا الخطية، ولا الشيطان.

★★ إن محبتنا الحقيقية للَّه تجعلنا ننتصر على جميع العوائق. ولعل العائق الأول هو الذات، الـ Ego. فكثير من الناس يحبون ذواتهم أكثر من محبتهم للَّه!! ذاتهم هي الصنم

الذي يتعبدون له، ويبحثون باستمرار عن رغبات هذه الذات وشهواتها، ورفعة الذات ومجدها، وكرامة الذات وانتقامها لنفسها، وعظمة هذه الذات ومديح الناس لها ... وفي سبيل ذلك ما أكثر الخطايا التي يقترفونها، ويبعدون بها عن اللّه ومحبته. ولذلك يضع أمامنا اللّه - تبارك اسمه - فضيلة إنكار الذات.

★★ وكثيراً أيضاً ما تقف المادة ضد محبة اللّه، كالمال مثلاً. فإن كنت تملك مالاً، لا تجعل هذا المال يملكك. أنفقه في محبة اللّه والناس، فيكون لك كنز في السماء.

★★ الجسد أيضاً تقف شهواته أحياناً ضد محبة اللّه. لذلك فإن شهوات الجسد ضد شهوة الروح. العجيب أن غالبية الناس يهتمون براحة أجسادهم أكثر من راحة الروح.

★★ كذلك أيضاً المشغوليات تعطلنا أحياناً عن محبة اللّه ... إذا استطاعت هذه المشغوليات أن تستولي على كل الوقت وكل الاهتمام، وتشغل الفكر والعواطف بحيث لا تبقى مجالاً للانشغال باللّه في صلاة أو في تأمُّل، أو في قراءة كلمة اللّه، أو حضور الاجتماعات الروحية. وهكذا تبعدنا المشغوليات عن الوسائط الروحية التي تعمق محبة اللّه في قلوبنا. نصيحتي لك أن تمسك بميزان دقيق، وتجعل لكل مشغولياتك حداً لا تتعداه. فلا تضغي كفتها على حياتك الروحية. لأنه: " ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟! ". اهتم إذن بمحبة اللّهِ وبالوسائط التي تؤدي إليها. ولتكن لها المكانة الأولى في قلبك. وحينئذ يكون لك فرح كبير لأنك وجدت الطريق الذي يوصلك إلى اللّه وإلى محبته. وبذلك تصل إلى محبة الفضيلة والقداسة. وكما قال بعض الآباء: " إن القداسة هى استبدال شهوة بشهوة. إذ يترك الإنسان شهوة العالم والمادة والجسد، لكي يتمتع بشهوة الوجود في حضرة اللّه والتَّمتُّع بعشرته فيشتهي كل ما يتعلق بالحب الإلهي، وكل ما يوصله إليه، ويجد في ذلك لذَّة وفرحاً لا تُقارن به كل ملاذ الدنيا ".

٢٥ يوليو ٢٠١٠

نحبه بسبب إحساناته إلينا

تكلَّمنا في العدد الماضي عن محبتنا للَّه. ونودِ اليوم أن نذكر بعض الأسباب التي تقودنا إلى محبة اللَّه. ولعل من أولها تذكار إحساناته إلينا وإلى أحبائنا.

وهذا أمر واضح. فإنك إن تذكرت جميل إنسان عليك، أو إنقاذه لك، أو وقوفه إلى جوارك في ضيقاتك، لا بد ستحبه. وإن استمر في ذلك فسوف تتعمَّق محبته في قلبك ... فكم بالأولى إحسانات اللَّه التي لا تعد!! وهذا الأمر اختبره داود النبي فقال في أحد مزاميره: " باركي (سبحي) يا نفسي الرب ولا تنسي كل إحساناته ".

★★ وأوَّل إحسانات اللَّه إليك إنه خلقك، أي منحك نعمة الوجود. خلق التراب أولاً، ثم جبلك من هذا التراب. وأتذكَّر إنني قلت بضعة أبيات في هذا الأمر هى:

يا تراب الأرض يا جدي وجدّ الناس طرّا
أنت أصلي، أنت يا مَن أقدم من آدم عمراً
ومصيري أنتِ في القبر إذا وُسّدتُ قبراً

على أن كرم اللَّه لم يكتفِ بأن يمنحك الوجود، بل أضاف إلى ذلك عقلاً منحه إياك، بما يحمل هذا العقل من إمكانيات التفكير والفهم والاستنتاج والذكاء، وقدرة هذا العقل على الاختراع والإنشاء وأمور عالية جداً. ولكن الإنسان للأسف الشديد بدلاً من أن يشكر اللَّه على كل هذه الإحسانات، فإنه يتكبَّر ويتعالى ويقول: أنا ... أنا ... وعن هذا الأمر قلت في بعض أبيات من الشعر:

قُل لِمَن يعتز بالألقاب إن ... صاح في فخره من أعظم مني
أنت في الأصل تراب تافه ... هل سينسى أصله مَن قال إني ...؟!

إن الذي ينسى إحسانات اللَّه هو الذي يفتخر بذاته وبمواهبه ... سواء كان له عقل أو ذكاء أو حكمة، أو جمال وجه أو جمال صوت، أو مواهب فنية أو حتى جمال خط ...

مع مواهب أخرى روحية، وما أعطاه اللَّه من نعمة في أعين الناس، ومحبته في قلوب الآخرين... والأولى أن يتذكَّر أن كل هذه هى من إحسانات اللَّه إليه. عليه أن يشكر اللَّه ويحبه الذي منحه كل ذلك. ويقول في صلاته: كم أحبك يارب من أجل هذه النِّعم التي أعطيتني إيَّاها! أو كم ينبغي أن أحبك.

وأيضاً تحب اللَّه من أجل إحساناته إلى أصدقائك وزملائك وأحبائك، بل من أجل إحساناته أيضاً إلى الوطن وإلى بلادها كلها ... فمن العجيب أننا في الكوارث، نذكر من حلَّت بهم المصائب فنحزن ونتضايق. وفي نفس الوقت لا نذكر أحباءنا ومعارفنا الذين أنقذهم الرب من ذلك وخلَّصهم بوسائل تكاد تكون ضمن المعجزات.

★★ لذلك اجلس إلى نفسك وتذكَّر إحسانات اللَّه إليك، منذ ولادتك وإلى الآن. اذكر إنقاذه لك من أمراض أصبت بها ومن أمراض أبعدها عنك، وكان يمكن أن تصاب بها... إنقاذه لك من مشاكل ومن ضيقات ومن أناس أشرار ومؤامرات دبروها ضدك ... وأشكر اللَّه من أجل كل ذلك.

اذكر أيضاً ستر اللَّه عليك في خطايا ارتكبتها، لو عرفها الناس ما كانوا يحترمونك. ولكن اللَّه الذي يعرف خطاياك كلها، والتي لا يعرفها أحد غيره، مع ذلك يستر ويغفر.

★★ بل إن إحسانات اللَّه إليك قد سبقت ولادتك أيضاً: فكان من الممكن أنك لا تولد، ولا تأتي إلى عالم الوجود، لأي سبب يتعلَّق بأبيك أو بأمك. وكان ممكناً أن ترث وأنت جنين بعض الأمراض، أو بعض النقائص. ولكن اللَّه حفظك منها جميعاً. ومنحك أن تولد إنساناً سوياً جسداً وعقلاً ونفساً. فهل يجوز لك أن تنسى كل هذا؟! إنك لو ذكرت جميل اللَّه عليك في تلك الفترة، لازدت حباً له. وأُذكر أيضاً حفظ اللَّه لك في طفولتك، وكيف أن اللَّه جعل هذه الفترة من حياتك تمر بسلام، وأتى بك إلى هذه الساعة التي تقرأ فيها هذا المقال ... علينا أن نحب اللَّه إذن ونشكره لأننا لا نزال أحياء، حتى هذه الساعة ... كم اجتاحت العالم أوبئة وأمراض، ونحن نجونا منها. وكم كانت البلاد أحياناً مهددة بجفاف، والرب أرسل المطر ونجى. ولا يزال اللَّه يعطينا فرصة لنعمل من أجل أبديتنا ... علينا إذن أن نشكر اللَّه ونحبه. لأنه لم يأخذنا من العالم، ونحن في حالة غفلة، أو متلبسين

بخطيئة. الأمر الذي يسبب الهلاك في هذا العالم وفي العالم الآتي إذا كان المـوت يـأتي بدون توبة. قُل إذن في صلاتك: أنا أحبك يا اللّه من أجل طول أناتـك علـيَّ، وصـبرك وإحسانك إليَّ، على الرغم من كثرة إساءتي إليك وكسري لوصاياك.

★★ إذا أردت أيضاً أن يمتلئ قلبك بمحبة اللَّه، لا تنسـب إحسـاناته إلـى غيـره، لا تنسبها إلى الناس أو إلى نفسك ... فكثيراً ما أنجح اللَّه عملك، فكنت تنسب النجاح إلى ذكائك وقدرتك، وتنسى اللَّه الذي ساعدك وأعانك! وكثيراً ما كان اللَّه يُرسل إليك إنسـاناً ينقذك فتنسب كل الفضل إلى ذلك الإنسان، وتنسى اللّه الذي أرسله إليك! ... وقد تمرض وتحتاج إلى عملية جراحية خطيرة، ويجريها لك أحد الأطباء المشهورين وتنجح العمليـة وتشفى. وتعزو بشفائك إلى نبوغ الطبيب وخبرته العالية، وتنسى اللَّه الـذي أمسـك بيـد الطبيب وقاد عقله ومنحه الموهبة ... وفي نسيانك للَّه وعمله، تفقد الشعور بإحسانه إليك، وتفقد سبباً تحبه به.

★★ والعجيب أننا فيما ننسب الخير الذي نناله من اللَّه إلى غيره، فإننا ننسـب كـل مشاكلنا إلى اللَّه!! ... وكل مصيبة تِحل بنا ننسبها إلى اللَّه، ونعاتبه عليها. ونظل نشـكو لكل أحد ونقول إن اللَّه أهملنا، فأين رحمته إذن وحنانه؟! وقد تكون تلك المشكلة بسـبب الناس الأشرار، ولكننا ننسبها إلى عدم محبة اللَّه لنا!! وقد تكون المشكلة بسـبب إهمالنـا نحن أو أخطائنا، ولكننا ننسبها إلى اللَّه أيضاً!! أما أنت يا أخي، فكل بركة تأتيك، انسـبها إلى اللَّه، لا إلى الناس ولا إلى نفسك. وكل مشكلة تصيبك، أرجعها إلى أسبابها الطبيعيـة الحقيقية. ذلك لأن اللَّه هو مصدر كل خير، ولا يأتي شر من جهة اللَّه إطلاقاً ... إنه الذي يظل يحسن إلينا حتى إن نسينا إحساناته.

★★ إن إحسانات اللَّه تصل بنا إلى الشكر عليها. والشكر يوصلنا إلى محبـة اللَّـه، وليس إلى مجرد الفرح بإحساناته وإنما نرى أن إحسانات اللَّه دليل على محبته لنا، فنبادله حباً بحب.

١ أغسطس ٢٠١٠

نحب اللَّه بتأمل صفاته الجميلة

إنك يا أخي القارئ، قد تحب شخصاً أحياناً، لمجرد أن صفة معينة فيه تجذبك إليـــه. كأن يكون إنساناً شهماً، أو خفيف الظل مرحاً، أو يكون إنساناً ذكياً أو قوي الشخصـــية... إنما مجرد صفة واحدة تجذبك إلى محبته... فكم بالأولى اللَّه سبحانه، الذي تجتمع فيه كل الصفات الجميلة، وعلى درجة غير محدودة من الكمال!! لا شك أنك كلما تأملت صفة من صفات اللَّه الفائقة الوصف، ستجد نفسك تحبه.

★★ هناك صفات يتميز بها اللَّه وحده، ولا يشترك فيها أي كائن آخر. مما يجعلنــا نقف في ذهول ونحن نتأمل اللَّه الأزلي الذي لم يسبقه أحد. أو اللَّه الخالق الذي صنع كل شيء من لا شيء. أو اللَّه الواجب الوجود... اللَّه الحاضر في كل مكان، وقبل مســتوى الأزمان. اللَّه غير المحدود، وغير المدرك، وغير المرئِي، وغير المحوي، اللَّه العــارف بالخفيات، وفاحص القلوب والأفكار. الذي يسبحه غير المرئيين، ويسجد له الظاهرون... ألوف ألوف وقوف قدامه، وربوات ربوات يقدمون له الخدمة... إلــى غيــر ذلــك مــن الصفات التي يختص بها لاهوته... لا شك ونحن نتأمل عظمة اللَّـــه، لا بــد أن نمجــده. وحينما نتأمل كيف أنه على الرغم من كل هذا الجلال الذي يُحيط باللَّه نرى كيف أنه فــي كل مجده ينظر إلينا، ويولينا اهتماماً خاصاً. حينئذٍ نجد أننا نحبه.

★★ إننا نحب اللَّه أيضاً في صفاته الأخرى التي يتصف بها بعض البشر، ولكنهــا عند اللَّه كاملة وغير محدودة... مثل قوة اللَّه وحكمته، ومحبته ورحمته، وصبره وطــول أناته. وقد يتصف بعض البشر بإحدى هذه الصفات أو بكثير منها. ولكنهــا عنــد البشــر ضئيلة، أما عند اللَّه فهي في جمال من الروعة لا يعبر عنها، وفوق مستوى إدراكنا. مثال ذلك إن اللَّه رحوم وعادل. وهو كامل في عدله، وفي نفس الوقت كامــل فــي رحمتــه. ولا تتناقض الصفتان. بل عدله مملوء رحمة، ورحمته مملوءة عــدلاً. هــو عــادل فــي

رحمته، ورحيم في عدله. وهنا يملكنا العجب والإعجاب. ولا نستطيع أن نملك أنفسنا من أن نحبه.

★★ نحب اللَّه القدوس، الكامل في صلاحه. والذي على الرغم من كل هذا، يتعامل معنا نحن الخطاة، في رفق وحنو وشفقة. بل يستر علينا في كثير من أخطائنا، ولا يكشفها لغيرنا! ويحافظ علينا. ولا يحاكمنا على كل صغيرة وضئيلة كما يفعل معنا إخواتنا في البشرية، الذين يخطئون مثلنا، ولكنهم يركزون على كل خطأ من أخطائنا، ويشمئزون!

إننا نحب اللَّه الغفور، الذي لم نجد مثله في مغفرته. اللَّه الذي لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا. لأنه يعرف طبيعتنا، يذكر أننا تراب نحن... اللَّه الذي يغفر الخطايا مهما كثرت، ويصفح عنها إذا ما توبنا. ولا يعود يذكرها لنا فيما بعد... أي حنان هذا الذي يذيب قلب الإنسان التائب! وكلما يغفر له الرب أكثر، يحب اللَّه أكثر وأكثر!! فيقول للرب في صلواته: مثل كثرة رأفتك تمحو إثمي!!... حقاً لو كان اللَّه يرصد جميع خطايانا، ما كان يخلص أحد. ولهذا فإنه يستحق كل الحب، هذا الإله الحنون الغفور، الذي لا يذكر لنا كل الماضي الأثيم، من أجل حاضر مستقيم!

★★ إننا نحب أيضاً إلهنا الحكيم، ذا الحكمة الفائقة الوصف، الذي صنع كل المخلوقات بحكمة عجيبة. الذي بحكمة أوجد علاقة بين الأرض والشمس والقمر، ينتج عنها الليل والنهار، والصيف والشتاء، وأوجه القمر المتعددة. والذي جعل حكمة ما بين الأجواء، تنتج عنها الأهواء المتعددة. بل صور الإنسان في حكمة عجيبة... في كل من عمل المخ، والقلب، والأعصاب، وسائر الأعضاء. بدقة لا تخل إذا صارت حسب طبيعتها... اللَّه الذي في خلقه أوجد العشب والزهر. وأوجد الألوان العجيبة في كثير من الطيور والأسماك، والألحان المتنوعة في أصوات الطير.

★★ إننا نحب اللَّه الذي - في حكمة بالغة - جعل هناك علاقة بين القوي والضعيف، مذهلة في وصفها. فهو مثلاً وهب الغزال قوة في الجري، تجعله يستطيع الهروب من الأسد القوي القادر على التهامه. وهو قد أعطى أيضاً للقط قدرة تجعله يستطيع أن يتسلق

شجرة ليهرب من الكلب. وهكذا أعطى كثيراً من الخلائق القدرة على النجاة ممن هو أقوى منها... بل اللّٰه أيضاً الذي أعطى الكرمة أن تنفض أوراقها في الشتاء لكي يتدفئ من يجلس تحتها... وأن تكتسي بالورق في الصيف لكي يستظل من يجلس تحتها أيضاً.

★★ إننا نحب اللّٰه الغني القوي. الذي في غناه منح العالم كله من جوده. حتى أنه من فيض جود خيراته، لم يعد العالم معوزاً شيئاً من نعمة تحننه. فالخير يملأ الأرض كلها، إذا ما أحسن توزيعه، وإذا ما تحركت قلوب الجميع بحب الخير على كل أحد... اللّٰه الذي يملأ الدنيا غنى، والذي يجعل السماء تمطر على الأرض فتغذيها، أو الينابيع تتفجر من باطن الأرض لكي ترويها. فمن السماء من فوق ينزل الخير، ومن باطن الأرض من تحت يأتي الخير أيضاً. سبحانه اللّٰه في كل عطاياه.

★★ ونحن نحب اللّٰه القوي، الذي يستطيع أن يحمي، وأن يدافع عن كل ضعيف، ويمنح نعمة لصغيري النفوس، ويقوي الركب المخلعة. ولا يترك الضعفاء مضغة في أفواه الأقوياء... نحب اللّٰه الموجود بقوته في كل مكان، ينظر ويسمع، ويسجل. وإذا بعبارة "ربنا موجود"، يسمعها الضعفاء فيطمئنون. ويسمعها العنفاء فيقشعرون. ويشعر الكل بأن ميزان اللّٰه العادل مازال موجوداً... يرى ويعمل ويحكم.

★★ إننا نحب اللّٰه الذي يمنح الدب القطبي فروة في جسده تعطيه الدفء من برودة الجو. بينما لا يكون الفراء في أجساد حيوانات البلاد الحارة التي لا تحتاج إلى ذلك. نحب اللّٰه الذي يجعل اللبن في ثدي الأم من البشر ومن الحيوان لكي يتغذى به الأبناء الرضع. نحب اللّٰه الذي يشبع كل حي من رضاه. الذي يهتم حتى بالحشرة التي تسعى تحت حجر لكي يعطيها رزقاً. اللّٰه الذي يهتم باليتيم وبالأرملة، وبالغريب وبالضيف. ولا يحرم أحداً من أعمال نعمته. فالكل من غنم رعيته. أوجدهم ويهتم بهم.

٨ أغسطس ٢٠١٠

محبة الناس:
شروطها وأنواعها

محبة الناس هى لكل الناس جميعاً. فالبشر كلهم أقرباء بعضهم لبعض كلهم أبناء آدم وأبناء حواء. خلقهم اللّه من هذيْن الأبويْن ليكونوا جميعاً أسرة واحدة، تــربطهم رابطــة الدم، وبالتالي رابطة الحُب.

لهذا فإن عدم الحب بين البشر هو أمر غير طبيعي. وهو في نفس الوقت لا يتفق مع الصالح العام، كما لا يتفق مع مشيئة اللّه ولا مع وصاياه.

★★ والعجيب أن أول إيذاء حدثنا عنه التاريخ كان من إنسان ضد إنسان، ولم يكــن من وحش افترس إنساناً. وهكذا فإن هابيل البار قام عليه أخوه وقتلــه. وبــدأت البُغضــة والقسوة بين الناس. ولم تستطع البشرية أن تحتفظ بالحب حتى بين أفراد الأسرة الواحدة. ومعروفة قصة يوسف الصِّدِّيق مع إخوته ... وتتابعت مأساة فقدان الحــب فــي تــاريخ البشرية. وكثرت قصص العداوة والبغضاء، وقصص الحسد والغيرة وتصادم الأغراض، والنزاعات والحروب، والتنافس على الرزق وعلى السُّلطة والمناصب. واكتســت الأرض بدماء بريئة وبدماء غير بريئة، وأصبح الأخ يعتدي على أخيه والأخ يخاف أخاه. حتــى قال أحد الشعراء:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عــوى ... وصــــوت إنســــان فكـــدت أطيــــر

★★ وقدَّم لنا اللّه وصايا لإعادة المحبة بين الناس، وتقديم القدوة في ذلك، ومعالجــة الأسباب التي أوصلت البشرية إلى التخاصُــم والعــداوة والقســوة. وقــام المصــلحون الاجتماعيون والرعاة الروحيون لبذل أقصى الجهد في العمل على تــرميم بنــاء المحبــة المنهدمة. كما وضع اللّه الأُسُس للتعامل بين الناس: أمَّا الأساس الإيجابي، فهــو مشــاعر الود والتعاطف والتعاون. وأما الأساس السلبي فهو الكــف عــن الكراهيــة والاعتــداء.

فالكراهية هى المشاعر الكامنة داخل القلب. والاعتداء هو التعبير الظاهر عن تلك المشاعر الداخلية ... والمطلوب هو الارتقاء بكل مشاعر الإنسان للوصول إلى مستويات الحُب. والحُب هو القمة التي تصل إليها المشاعر البشرية. وفي يوم الدينونة العظيم، ستفحص كل أعمالنا وعواطفنا، ويُستخلص ما فيها من حب، فيكافئنا اللّه عليه. على أن هذا الحب له قواعد ينبغي أن نعرفها، لكي تكون محبتنا بعضنا للبعض سليمة ومقبولة.

★★ أولاً ينبغي أن تكون محبتنا للناس داخل محبتنا للّه. فلا تكون ضدها، ولا تزيد عليها. فلا نحب أحداً عن طريق كسر وصية من وصايا اللّه. فالصديق الذي يحب صديقه بحيث يُجامله في كل خطأ، ويخشَى أن يُقدِّم له نصيحة مخلصة لئلا تجرح شعوره. هنا لا يحبه بالحقيقة. والأم التي تُدلِّل ابنها تدليلاً يُفسده، أو تُغطي على أخطائه. بحيث لا يعرفها أبوه. لا تكون محبتها لابنها محبة حقيقية ولا نافعة. بل لا نُسمِّيها حباً إنما تدليلاً.

★★ ومن شروط المحبة الحقيقية أن تكون عملية. فتظهر محبتنا للناس في معاملاتنا لهم، في إخلاصنا لهم، ومشاركتنا الوجدانية، ووقفنا معهم في وقت الشدة، وتخليصنا لهم من ضيقاتهم. ومحبتنا للفقراء تظهر في عطفنا عليهم، وإعطائهم ما يلزمهم. وليست في مُجرد كلام العطف أو الدُعاء. وهكذا ارتبط الحب عموماً بالعطاء بل والبذل. فلا يوجد حُب أعظم من هذا أن يبذل أحد نفسه لأجل الآخرين. ويظهر الحُب والعطاء بالأكثر، في أن يُعطي الإنسان من أعوازه، وأن يضحي باحتياجاته سبباً في إسعاد الآخرين. وهنا نقول إن المحبة لا تطلب ما لنفسها بل بما لغيرها.

★★ ومن شروط المحبة أن تكون طاهرة. فمحبة شاب لفتاة، لا يمكن أن تكون محبة حقيقية إطلاقاً، إن كان يفسد عفتها، ويفقدها سمعتها في المجتمع الذي تعيش فيه، ويضيع أبديتها. ومثل هذا الشاب لا نقول إنه يحب الفتاة، إنما يحب نفسه محبة خاطئة، ويحب إشباع شهواته، ولا يهتم بصالح الفتاة. وهنا أُكرِّر ما قُلته من قبل في الفرق بين المحبة والشهوة: (المحبة تُريد دائماً أن تُعطي. بينما الشهوة تريد دائماً أن تأخذ).

★★ ومن شروط المحبة أنها تكون صادقة أي أن تكون المحبة بلا رياء ولا نفاق. ويدخل في ذلك أيضاً كل كلام الملق، والمديح الكاذب. ولا تكون محبة فيمن يُساعد غيره

على إهلاك نفسه أو على ارتكاب خطاياه. إنما المحبة الحقيقية هى محبة روحانية. فيهـا تحب شخصاً بأن تساعده على حياة البِرّ، ولا تشاركه في خطأ، ولا توافقـه علـى ذلـك ولا تنصحه به.

★★ والقلب المُحب لا يعرف البغضة مطلقاً. فهو بالبغضة يكون بعيـداً عـن اللَّـه والناس، لأن اللَّه محبة. والقلب المُحِب لا ينتقم لنفسه، ولا يـرد الإسـاءة بإسـاءة. لأنَّ الانتقام هو لون من الكراهية والعداوة والقساوة. وأيضاً هو لون من محبة الذات لا محبـة الغير. لذلك يُعلِّمنا الدين أنه: إن جاع عدوك فأطعمه وإن عطش فاسقهِ.

★★ والمحبة تكون محبة للكل، ولا تكون أبداً تحيُّزاً لجنس أو لـون أو ديـن، بـلا تمييز بسبب شيء من هذا كله، بل ملتزمة بالحق والموضوعية. ومن أنواع المحبة: محبة الأبوة والأمومة، ومحبة البنوة والأخوة، ومحبة الأزواج، ومحبـة الأصـدقاء، ومحبـة العشيرة، ومحبة الوطن، ومحبة بيت اللَّه، ومحبة الفريق، ومحبة المُجتمع كلـه. وهكـذا توجد المحبة العامة التي تشمل العالم أجمع. وما أكثر ما نقرأ عن الهيئات العالمية التـي تعمل في نطاق الخير والإغاثة، لأي شعب على وجه الأرض ... وهنا تظهر أيضاً المحبة للغرباء.

★★ وأسمَى درجة من المحبة هى المحبة للأعداء. فعدونا الوحيد هو الشيطان، أمَّـا الباقون الذين يُسمُّون أعداء فهم ضحايا ذلك الشيطان، ينبغي أن نُصـلِّي مـن أجلهـم أن يهديهم اللَّه ويُغيِّر سلوكهم، من أجل أنفسهم وأبديتهم ومن أجلنا أيضاً. وقد يقول الـبعض: " من الصعب عليَّ أن أحب عدوِّي. فماذا أفعل؟ "، أقول لك: علـى الأقـل لا تبغضـه، وحاول أن تغفر له في قلبك وتسامحه. وأيضاً لا تشمت به إذا فشل، ولا تفـرح إطلاقـاً بسقوطه. فهذا أيضاً يفقدك نقاوة قلبك.

١٥ أغسطس ٢٠١٠

الاهتمام بالغير

إن اهتمامنا بالغير هو مظهر عملي لمحبتنا للناس. وفي الاهتمام بـالغير، لا يعـيش الإنسان لنفسه فقط، بل يهتم بما لغيره كما يهتم بما لنفسه. وربما أكثر، إذ يؤثر غيره على نفسه، أو ينسى ذاته في محبته للآخرين. فهو يؤمن تماماً أن حياته ليست ملكاً له، إنما هى ملك للمجتمع الذي يعيش فيه. وفيما يهتم الإنسان الروحي بالكل، نراه يتعـب ليسـتريح غيره. فهو يهتم بمشاعر الناس وفي محاولة إسعادهم. ويندمج معهم في مشاعرهم. دموع الناس تسير من عينيه وتسقط من جفنيه. وأفراح الناس تنبع من قلبه قبـل أن تنبـع مـن قلوبهم.

★★ أول مَثَل قدمته لنا الطبيعة في الاهتمام بالغير، هو مثال الأمومة المحبة الحانية. فالأم تُفكِّر في طفلها أكثر مِمَّا تُفكِّر في نفسها. تسهر حتى تطمئن أنه قد نام. وتتعب لكي يستريح هو. ولا تتبرَّم بأي طلب يطلبه. تبتسم إذا ابتسم، بل أن ابتسامة هذا الطفل ترتسم على شفتي أمه قبل أن ترتسم كاملة على شفتيه. لقد أوجد اللّه في قلب الأم عواطف الحُب والحنان والبذل والاهتمام بطفلها أكثر من الاهتمام بنفسها.

★★ إن مشاعر الاهتمام بالغير تنزع من القلب الأنانية والاهتمام بالذات. فيـرفض الإنسان تماماً أن يبني راحته على تعب الآخرين. بعكس ذلك الشخص الذي يلوث الجـو بدخان سيجارته. ولا يعبأ في ذلك بأن الغير قد تؤذي صحته بتدخينه هو، ويضطر علـى الرغم منه أن يستنشق الدخان الفاسد الذي ينفثه المدخنون. ولهذا فإن شـركات الطيـران لا تُصرِّح للرُكاب بالتدخين في كثير من الرحلات. ومن أمثلة غير المُهتمين بغيرهم: مَن يرفع صوته بطريقة تُعكِّر الهدوء، وتُعطِّل غيره عن التفكير أو القراءة. أو مَـن يـركن عربته في موضع تعاكس عربات غيره دون أن يبالي! ولكنهـا الأنانيـة التـي لا تهـتم بغيرها.

★★ أمَّا الإنسان المُهتم بغيره، فلا مانع عنده من أن يتعب ليستريح الغير. وهو لا يطلب ما لنفسه. واهتمامه بغيره ينبع من محبته للغير، وأيضاً من محبته للخير. والمُهتم بغيره لا يزاحم الناس في طريق الحياة. إنما يفسح لهم الطريق ليعبروا، ولا يمتنع في أن يتقدَّموا عليه. وهو يفعل ذلك باهتمام وليس بمُجرَّد شكلية. إنه شعور ينبع من قلبه ويدفعه لبذل الجهد الذي يناسب اهتمامه.

★★ والاهتمام بالآخرين يشمل العناية بهم من كل ناحية. سواء من الناحية المادية أو الاجتماعية، أو من الناحية الروحية، أو من جهة نفسيتهم ومشاعرهم وراحتهم، وحل مشاكلهم، وإشعارهم بأن هناك مَن يسندهم ويقف إلى جوارهم. فإن كثيرين من الذين لا يهتم بهم أحد، يقول الواحد منهم: لا يوجد أحد يشعر بما أنا فيه، أو يحس بحالتي!!

★★ والاهتمام بالغير يكون أحياناً في نطاق العمل. فهناك فرق بين موظف وموظف: الموظف الذي يهتم براحة الجمهور، يظهر اهتمامه في بذل كل الجهد لراحتهم، وبدون تأخير. أمَّا الموظف الروتيني، فإنه يماطلهم ويطلب إليهم أن يعودوا إليه في موعد آخر. وقد يضع العراقيل في طريق قضاء مصالحهم. ولذلك أتذكَّر أنني قلت ذات مرة: الموظف المتعاون يحاول أن يجد حلاً لكُلِّ مشكلة. أمَّا الموظف الروتيني فقد يجد مشكلة لكُلِّ حلّ!!

★★ المهتم بالآخرين يظهر اهتمامه بالمساهمة في حل مشاكلهم. إذ يتعبر أن مشكلة الغير كأنها مشكلته شخصياً، ويهتم بحلها مهما كلَّفه ذلك من جهد. ويكون سعيداً إن وصل فيها إلى حل. لأنه يشعر بفرح في إسعاد الآخرين، وإنقاذهم مما هم فيه من ضيقات. ولا شك أن الناس يشعرون باهتمامه وإخلاصه، على الرغم من أن الأمر لا يدخل في نطاق مسؤوليته ولكن اهتمامه يترك في نفوسهم أثراً عميقاً، فيحبون هذا الإنسان الذي يفكر فيهم وفي إسعادهم.

★★ والاهتمام بالغير يمكن تطبيقه على مستوى الأسرة. حيث يبذل الزوج كل طاقته في أن يهتم كل الاهتمام براحة زوجته وأولاده. وكذلك الزوجة تهتم كل الاهتمام براحة

زوجها. ويهتم الاثنان براحة أولادهما. وأنّ الاهتمام المتبادل فطبيعي أن لا تحدث إطلاقاً حوادث الطلاق التي نسمع عنها. إن مثل هذا الاهتمام في محيط الأسرة، أو بين كل أفراد المجتمع، هو ما يُسمّيه البعض بالعقد الاجتماعي. حيث يكون الاهتمام على المستوى الاجتماعي والشخصي. فيتدرب الإنسان في بيته على الاهتمام بأهله وإخوته وأقربائه بل وجيرانه أيضاً. وفي مكان عمله يتعوّد كيف يهتم بزملائه. ثم يتطوَّر حتى يهتم بجميع الناس. ويعيش كإنسان نشيط في المجتمع يخدم الكل، ويصير إنساناً خدوماً يحب الجميع. وباهتمامه بهم يجذبهم أيضاً إلى محبته. وهذا الاهتمام بالغير يشغل فكر الإنسان المُحب ويشغل عواطفه، فيتناوله بجدية ولا يهمله مطلقاً. هناك فرق بين إنسان تطلب تدخله في مسألة مُعيَّنة، فيقول لك: " أنا فاكر موضوعك ". وبين آخر يقول لك: " أنا مهتم بموضوعك "، ويظهر اهتمامه هذا عملياً. إنسان يهمك أمره. فتُقابله باهتمام، وتُكلِّمه باهتمام، وتعامله باهتمام. ويظهر اهتمامك به في طريقة لقائك به وفي تحيتك له، وفي عدم إحراجه حينما تساعده. إن اهتمامك بالغير يظهر في ملامح وجهك، وفي نبرات صوتك. إنه اهتمام يشعر به من يتعامل معك، دون أن تعلن له أنك مهتم به وبما يعرضه عليك من موضوعات.

★★ يظهر اهتمامك بالغير أيضاً دون أن تطلب هذا منه. فهناك شخص قد يكون في خطر وهو لا يشعر بذلك. وقد يحتاج إلى إنقاذ دون أن يعرف إلى من يلجأ. ويصل إليك موضوعه بطريق غير مباشر. فتهتم به وتنقذه دون أن يطلب. ويظهر الاهتمام بالغير أيضاً في الأمور الروحية. فقد يكون شخص غارقاً في عمق الخطية. وهو لا يطلب الخلاص منها، لأنه لا يريد ذلك. وتهتم أنت بخلاصه دون أن يسألك معونة في ذلك. وتعمل كل ما تستطيع لكي تقوده إلى التوبة، بكل حب واحتمال وطول أناة. هذا النوع هو الاهتمام الروحي. وقد يكون من عمل الرعاة والمرشدين الروحيين كما يكون من عمل الاجتماعيين الذين يهمهم سلامة أفراد المجتمع من الضياع. مثال ذلك المهتمين بعلاج المدمنين وإنقاذهم من الإدمان.

وأنت أيها القارئ العزيز لعلك تُشارك في الاهتمام بالغير من أي نوع يصل إليك.

٢٢ أغسطس ٢٠١٠

نوعيات من المُحتاجين

مَن هُم المحتاجون؟ إنهم أنواع وأشكال مُتعدِّدة: فهناك المُحتاجون مادياً ينقصهم المال وسعة الرزق. والمحتاجون اجتماعياً، ويلزمهم التوجيه والاهتمام بهم. والمحتاجون روحياً، ويلزمهم الإرشاد والقيادة إلى التوبة. والمحتاجون ثقافياً، وتنقصهم المعرفة والتعليم.

★★ أمَّا عن المحتاجين مادياً: فنرى كثيرين يتكلَّمون عن محدودي الدخل، وينسون معدومي الدخل. يتكلَّمون عن الفقراء، وينسون الذين هم تحت خط الفقر. إذن هناك الفقير، والمعوز أي المُحتاج. وما أكثر ما نشرت الجرائد عن هؤلاء، دون أن تُقدِّم حلولاً. فأصبح الأمر مُجرَّد كلام بدون عمل. وعن هؤلاء، نسأل مَن هم المسؤولون عنهم أو المهتمون بهم: هل هُم علماء الاجتماع، أم عُلماء الاقتصاد، أم المسؤولة هى الدولة، أم أصحاب القلوب المشفقة من أثرياء الشعب، أو الجمعيات الخيرية، أو محبو الخير عموماً.

في أمريكا توجد مجموعة من الفقراء الذين لا مأوى لهم يطلقون عليهم لقب Homeless وهؤلاء تصرف لهم الدولة معونة هى الحد الأدنى جداً من الإيراد الذي يكفيهم في الضروريات.

★★ نذكر من بين المحتاجين طائفة الذين أهملهم المُجتمع، وليس لهم أحد يذكرهم. يقول المحتاج منهم: " ماحدش حاسس بيَّ ". ذلك لأن الذين يعيشون في سعة وفي سعادة لا يشعرون بالمحرومين من كل ذلك. فيلزم للذين يجلسون في القمم أن ينزلوا إلى القاع ليرون مَن يعيش فيه وكيف يعيش. وعلى هذا النسق فإنَّ سكان المدينة ينبغي أن يفكروا في إخوتهم الذين يعيشون في النجوع ويحتملون البرد والجوع كما يقاسون اختلاف الأجواء، وعدم اهتمام أحد بهم، وكأنهم ليسوا إخوة في الوطن! ومثل هؤلاء بعض الذين يعيشون في القرى المُعدمة. وهنا لا نتكلَّم عن مُجرَّد احتياج فرد، إنما القرية كلها. ومن

بين هؤلاء مَن لا يجدون الماء النقي للشُرب، أو الكهرباء اللازمة، أو وسائل الصرف الصحي ... وأهل الخير قد يحزنون على حالة هؤلاء. ومع ذلك تبقى حالتهم كما هي!

★★ ومن المحتاجين أيضاً الشباب الذين أدركتهم البطالة حتى بعد تخرجهم من الجامعة. وفي هذه البطالة لا يستطيعون تكوين أسرة. فليس لهم مال لتدبير سكن للمعيشة. وقد ارتفعت أسعار المساكن جداً. وليست لهم قدرة على تكاليف الزواج وعلى رعاية بيت مادياً. ومن هنا تأخر سن الزواج عند الفتيات. وعدم القدرة مادياً على الزواج أدَّى إلى العديد من مظاهر الفساد الخُلقي، وإلى تحايل البعض للخروج من هذا المأزق بما يسمونه الزواج العرفي حيث لا مسؤوليات فيه على الإطلاق!

★★ من المحتاجين إلى الرعاية أيضاً ما يمكن أن نسميهم بمجموعة الغرباء. ولعلَّ من بينهم الذين غادروا من الصعيد إلى المُدن الكبرى مثل القاهرة. حيث لا يجدون سكناً ولا عملاً وأحياناً لا يجدون ترحاباً. هُم قد انتقلوا من ضيقة في بلادهم، ليصادفوا ضيقة أخرى في المكان الذي هاجروا إليه. واللَّه تبارك اسمه يدعونا إلى إضافة الغرباء. ليس فقط الغرباء الذين يأتون من خارج بلادنا، وإنما أيضاً الغرباء الذين هم إخوتنا في الوطن ... وهؤلاء الغرباء، كما يحتاج الأحياء منهم إلى عناية، كذلك يحتاج موتاهم إلى مدافن. كما تحتاج أيضاً إلى مدافن مجموعات الفقراء.

★★ ومن المحتاجين أيضاً المرضى الذين تلزمهم عمليات جراحية تكاليفها فوق طاقتهم، وربُّما فوق طاقة المحسنين إليهم أيضاً. بل كثير من هؤلاء لا يجدون أيضاً ثمن الدواء. وربما تنهار صحتهم لعدم قدرتهم على تكاليف العلاج. فيموتون وهم ضحايا المجتمع. ونذكر من بين طائفة المرضى مَن أصيبوا بالجذام أو السُّل. وأصبح كثيرون يمتنعون حتى عن زيارتهم أو الاختلاط بهم. ومن المحتاجين أيضاً المرضى بأنواع من السرطانات، وقد كثرت جداً في هذا الجيل. ونحن نشكر قيام مُستشفى لسرطانات الأطفال. ونودِ أن تنتشر هذه العناية في نطاقات أوسع بكثير.

★★ وينضم إلى طائفة المرضى المحتاجين، مجموعة المعوّقين واحتياجاتهم الكثيرة سواء من جهة العلاج. أو من جهة الدراسة. وأشد هؤلاء المعوقين احتياجاً هم المعوقون ذهنياً ... نضم أيضاً إلى المرضى المحتاجين أولئك الذين وقعوا في الإدمان، وأصبحوا محتاجين إلى علاجهم من إدمانهم.

★★ من بين المحتاجين أيضاً المساجين الذين ينبغي أن نشعرهم بأن المجتمع لم يلفظهم تماماً. وإنما هُم يقضون فترة عقوبة ليخرجوا منها إلى حياة أفضل. فهنا تكون فضيلة زيارة المسجونين وتقديم العطايا لهم وبخاصة مَن يشعرون أنهم قد سُجنوا ظلماً. وهناك بعض المسجونين كانوا هم الوحيدين الذين يعولون أسراتهم. وبسجنهم أصبحت العائلة كلها في صفوف المحتاجين، وفي حاجة إلى رعاية واهتمام. ونضم إلى هؤلاء أيضاً المديونين، والذين وقّعوا منهم على إيصالات أمانة، وأصبحوا هم أيضاً مُهدَّدين بالسجن إن لم يسدِّدوا ديونهم.

ومن المحتاجين أيضاً الذين لا يقدرون على تزويج بناتهم، لأنهم لا يملكون تكاليف الزواج. ومن ضمن هؤلاء ما نُسمّيهم بالأُسر المستورة. فهم يحتاجون ولكن لا يستطيعون إعلان احتياجهم بسبب مركزهم الاجتماعي. وهؤلاء يحتاجون إلى سد احتياجاتهم في سرية. ونضم إليهم الأيتام والأرامل. ومن ضمن المحتاجين بعض الشعوب الفقيرة.

★★ إن اللَّه - من حنوه وعطفه - أوجد على الأرض خيراً يكفي الكُل. وبقى على الموسرين أو الأثرياء أن يسدوا احتياج الفقراء. ويكون ذلك بدافع الحُب والإشفاق، وليس بالتعالي وإشعار المحتاجين باحتياجهم. على أن يكون العطاء لهؤلاء دون أن يطلبوا. فمَن يعطي عليه أن يشعر باحتياج الآخرين ولا ينتظر أن يطلبوا منه. بل يجب أن يعرف أن هؤلاء المحتاجين لهم حق شرعي في ماله، كوصية اللَّه من جهة العشور والزكاة.

★★ أمَّا عن المُحتاجين روحياً وقيادتهم إلى التوبة وحياة الفضيلة، فهذا الأمر يحتاج إلى مقال آخر.

٢٩ أغسطس ٢٠١٠

السلام مع الناس

ما أجمل الحياة في سلام مع الآخرين. والمجتمع الذي يسوده السلام، هو مجتمع مثالي محبوب. لذلك فعلى قدر طاقتك حاول أن تُسالم جميع الناس. وأقول على قدر طاقتك، لأن عدم السلام أحياناً قد يكون سببه منهم وليس منك. وقد يكونون هم الذين يقاومونك. وحتى في مثل هذه المواقف حاول أن تحتفظ بسلامك الداخلي إن استطعت. ولكنك ربما لا تستطيع مسالمة الكل، إذا كانت تلك المُسالمة على حساب ضميرك وروحياتك.

إن هناك أموراً يُمكن للإنسان أن يمررها في هدوء، دون أن يفقد السلام بينه وبين الناس. ولا يعطي خطورة لأمثال تلك الأمور البسيطة التي لا تتعب ضميره. فكيف يستطيع الإنسان أن يتعامل في سلام مع الذين يعاملونه في غير سلام؟! أو كيف يُسالم الذين يتعبونه ويقاومونه؟ هناك بلا شك بعض مبادئ روحية وأساليب معاملات، إن اتبعناها يمكننا أن نعيش في سلام مع الكل: ومن ذلك حياة الوداعة والاتضاع. فالإنسان الوديع، الهادئ، الطيب القلب، الدمث الخلق، الرقيق، اللطيف، المُبتسم، البشوش ... لا شك أنه يستطيع أن يُسالم جميع الناس. وبالمِثل الإنسان المتواضع، الذي - في تواضعه - لا يغضب من أحدٍ، ولا يُغضب أحداً. وبعكس ذلك الشخص العصبي الثائر. لذلك إن أردت أن تُسالم الكل، لا تكن عصبياً. حاول في كل حين أن تهدئ أعصابك. ولا تكن سهل الاستثارة. وإن حاول أحد أن يثيرك، لا تستسلم إلى الضعف البشري وتُثار. إن الشخص القوي هو الذي يستطيع أن يحتمل. لذلك إن غضبت وثُرت على مَن يسيئ إليك، تكون ضعيفاً لم تحتمل. وإن ثُرت عليه بالمثل تكون أيضاً ضعيفاً لم تقدر على ضبط نفسك. وإن قابلت الإساءة بمثلها، فإنك تخسر مَن أساء إليك. بل تكون قد هبطت من مستواك الروحي وأصبحت مثل أولئك المسيئين. وما أجمل قول سليمان الحكيم: " لا تجاوب الجاهل حسب حماقته، لئلا تعدله أنت "، أي صرت معادلاً له أو مساوياً له في أخطائك.

★★ إذن كيف تعامل من يثيرك ويغضب عليك؟ يقول الحكيم: " الجواب اللين يصرف الغضب. والكلام الموجع يهيج السخط ". إذن فالإنسان الوديع هو الذي يقابل غضب غيره بكلام طيب هادئ. وبهذا الأسلوب يصرف غضبه عنه ويسالمه. أما إن رد عليه بكلام موجع، فإنه يهيجه عليه بالأكثر. وقد يتحوّل الأمر إلى معركة. لذلك حسن ما قاله الآباء في هذا المجال: " إن النار لا تطفئها النار. بل يطفئها الماء ". النار تزيد النار اشتعالاً. أمّا الماء فإنه يخمد لهيبها بليونته.

★★ لذلك إن أردت أن تُسالم الناس، لا تكن حساساً جداً في مقابلة أخطائهم، لا تقُل هذه الكلمة جرحتني أو أغضبتني، وهذه الكلمة جرحتني، وهذه الكلمة أهانتني. لأنه إن كان كل شيء يجرحك، فلن تستطيع أن تحيا في سلام مع الناس. لا تكن كنبات الخروع الذي تهزه أي ريح. بل كُن مثل السنديانة الصلبة التي تثبت أمام الريح العاصفة ولا تهتز.

★★ تستطيع أيضاً أن تُسالم الناس، إن اكتسبت فضيلة الهدوء والاحتمال. لا تقُل فلان متعب، فلم أقدر أن أتعامل معه. ولكن لو كان عندك احتمال، ما استطاع هذا المُتعب أن يتعبك. تأكّد يا أخي أن ما يتعبك، ليس هو أخطاء الناس، بل أعصابك وطريقة تفكيرك. فإن استطعت أن تهدئ أعصابك، ولا ترهق تفكيرك بالحكم على تصرفاتهم، حينئذ يُمكنك أن تُسالمهم، ولو بالبُعد عن مجالهم المتعب. وهنا أذكرك بقول القديس يوحنا ذهبي الفم: " لا يستطيع أحد أن يؤذي إنساناً، ما لم يؤذي هذا الإنسان نفسه ". فأنت تؤذي نفسك إن تركت أفكارك تتعبك. لذلك قال نفس هذا القديس: " هناك طريقة تستطيع بها أن تتخلّص من عدوك. وهي أن تحول هذا العدو إلى صديق. وكيف تحوله إلى صديق؟ ذلك بالمُسالمة بل والإحسان إليه. ولا تجعل شره يغلبك، بل أغلب الشر الذي فيه بالخير الذي فيك ".

كذلك تستطيع أن تُسالم الناس بالحكمة. فالإنسان الحكيم، يتصرَّف برزانة، وبهدوء، وبُعد تفكير. ولا يخسر الناس لأنَّ "رابح النفوس حكيم". والنفوس لا تستطيع أن تربحها بالمنازعة والعداوة ومقابلة المِثل بالمِثل. إنما بالمسالمة.

إنَّ الإنسان الحكيم يعرف ما هو المفتاح الذي يمكنه به أن يدخل إلى قلب أحد. وهكذا يُعامل كل شخص بما يُناسبه، حسب دراسته بطبعه وصفاته. وهكذا ليس فقط يُسالم الناس، بل بالأكثر يكسب محبتهم. إذن لكي تسالم الناس، ادرس شخصياتهم، وعاملهم بما يناسبهم. وفي حكمة لا تتسرَّع بمجابهة الأمور. بل عامل الغير بطول أناة وسعة صدر ورحابة قلب. بل حسب التعبير العامي لتكن لك صفة إنسان " بحبوح ". إنك قد تخسر الناس بوجهك العابس المتجهِّم، وبجديتك الزائدة، ومقابلة كل أمر بحزم شديد! إنما بالبشاشة واللطف، يمكنك أن تكسب الناس في أصعب المواقف. حاول أن يكون لك روح المرح في معاملة الآخرين. وربُّما الشخص الذي يُعاملك بطريقة مُتعبة: إن ابتسمت في وجهه ورددت عليه بفُكاهة تُضحكه فإنه قد يُشاركك المرح فتكسبه. وطبعاً ليس الجميع يمكنهم أن يُتقنوا أسلوب المرح هذا. إنِّي أنصحك بالبشاشة واللطف. والوجه البشوش محبوب من الناس، ويُمكنه أن يكسبهم. أو على الأقل يعيشوا في سلام معه. وثِق أنك لو كنت إنساناً غليظ القلب، لانفض الناس من حولك. ولو كنت تُحاسب غيرك على كُل كلمة وتصرُّف ولا تُسامح فإنك لن تقدر على مسالمة الناس، فأُذكر قول الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي تعاتبه
فعِش واحداً أو صِل أخاك فإنه ... مقارف ذنباً مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

أخيراً أقول لك ربُّما يسمح اللَّه أن يعترض طريقك بعض المُتعبين، لكي تتدرب على فضيلة الاحتمال وعلى المغفرة للمسيئين.

٥ سبتمبر ٢٠١٠

ختاماً عن الصوم

ما هو الصوم؟ ولماذا نصوم؟

هل لأنَّ الصوم وصية إلهية علينا أن نطيعها؟ ولماذا أمر اللَّـه بالصـوم؟ إنَّ اللَّـه لا يأمرنا بشيء إلا لخيرنا. إذن لا بد هناك فوائد لنا من الصوم من أجلها أمرنا اللَّه به.

ثم ما هو الصوم؟ هل هو مجرد علاقة بين الجسد والطعام؟ أم هو في الأصل علاقة مع اللَّه؟

نعم يا إخوتي. إننا لو فصلنا الصوم عن اللَّه، لا يصبح فضيلة على الإطلاق. فـنحن من أجل اللَّه نأكل، ومن أجل اللَّه نصوم. من أجل اللَّه نأكل، لكي نأخذ من الأكل طاقـة نستطيع بها أن نخدم اللَّه والناس. ونحن من أجل اللَّه نصوم، لأنَّ الصوم يُقرِّبنا إلى اللَّـه بالأكثر.

★★ في الصوم يكون الجسد تحت سيطرتنا، ولا نكون نحن تحت سيطرة الجسـد. وكما نمنع الجسد عن الطعام، نمنع النفس أيضاً عن الخطايا والآثام. فنكون أثناء الصوم، لسنا فقط بجسد صائم، وإنما أيضاً بنفس صائمة. وعن أي شيء تصوم؟ يُذكِّرني هذا بقول أحد الآباء الروحيين: " صوم اللسان خير من صوم الفم. وصوم القلـب عـن الشـهوات الرديئة هو خير من صوم الاثنين ". وفي الصوم أيضاً لا ننجس عقلنا بفكر رديء.

★★ وفي الصوم اكتساب لفضائل كثيرة: منها تقوية الإرادة، وضبط النفس، والتَّدرُّج على ترك خطايا محبوبة لنا وعادات خاطئة، ومنح الروح فرصة بعيـداً عـن رباطـات الجسد، وفي الصوم أيضاً التَّدرُّج، تدرُّج على فضائل مُعيَّنة. وهكذا يكون الصـوم فتـرة روحية، أو فترة مُقدَّسة. ولا يكون الصوم مُجرَّد جوع للجسد، بل يكون غذاء للروح.

★★ فمن الفضائل المُصاحبة للصوم: التوبة. والصوم من غير توبة، لا يكون مقبولاً عند اللَّه، ولا يستفيد منه الإنسان. والخطية التي يرتكبها الشخص أثنـاء صـومه تكـون أبشع. لأنها تدل على أنه لم يُبالِ بقدسية أيام الصوم. ذلك لأن شهر الصوم هو شهر بِـرّ وقربي إلى اللَّه. فعلى الصائم أن يتخلَّص من الأخطاء التي تبعده عن اللَّه وعن النـاس.

ويتخلَّص من الكراهية ومن الحقد، ومن خطايا النرفزة، ومَسك سيرة الناس. ويتدرَّج أيضاً على مقاومة الوقت الضائع الذي هو جزء من حياته. ويخرج من الصوم بحياة أفضل، ويكون أكثر نقاوة وطهارة قلباً وفكراً وجسداً.

★★ فهل شعرت يا أخي الصائم، بأن الصوم قد غيَّرك إلى الأفضل! أم خرجت من الصوم، وأنت كما أنت، بنفس الطباع، ونفس الأخطاء!! إن كان الأمر هكذا فماذا استفدت من صومك؟!

كم أصوام يا إخوتي مرَّت علينا على مدى أعوام طويلة، ونحن كما نحن؟! إنَّ الصوم بلا شك له فوائده الكثيرة، هذا إذا كنا نصوم فيه بطريقة روحية سليمة، وبالرغبة في النمو الروحي بواسطته، وتعميق الصِّلة مع اللَّه تبارك اسمه.

★★ وشهر الصوم أيضاً هو شهر رحمة. يشعر فيه الصائم بالجوع فيشفق على الجياع. وهكذا تنمو فيه فضيلة العطاء وتستمر معه. الجياع موجودون طول العام وليس في شهر الصوم فقط. إذن إذا بدأت فضيلة العطاء في شهر الصوم، يجب أن تستمر حتى تصبح منهج حياة، وأنت حينما تُعطي، إنما تُعطي من المال الذي أعطاك اللَّه إيَّاه، وأصبحت مُجرَّد مؤتمن على تدبيره ليس لخيرك فقط إنما لخير الآخرين أيضاً. أنت تُعطي فيعطيك اللَّه بالأكثر. وإذا أمسكت يديك فأنت الخاسر. وما أصدق قول الشاعر عن الأموال:

فهى بالإنفاق تبقى ... وهى بالإمساك تفنى

إنها مثل قدح من القمح تلقيه في الأرض فيعطيك طناً من الغلة. إن الفقراء هم رعية اللَّه. أعطاك لتعطيهم. وبالنسبة إليك هم إخوتك في البشرية. فإن كنت لا تعطِ في فترة الصوم، فمتى ستُعطي إذن؟!! والصوم أيضاً هو فترة تتفرَّغ فيها للَّه بالأكثر. هى فترة أكثر للصلاة وللتأمل ولانشغال الفكر باللَّه. وهنا أسأل في صراحة: ما هو نصيب اللَّه في صومك؟ هل مشاغل الدنيا ومشاكلها تملأ فكرك أثناء الصوم؟ وتتوه في دوامة العمل، ودوامة الأخبار، ودوامة الأحاديث ... وتشغل فكرك بالتافهات؟ ولا يبقى وقت للّه في مشغولياتك. إن كنت إنساناً روحياً، فعليك أن تقول لجسدك أثناء الصوم: " أنا لست متفرِّغاً لك الآن. بل أنا مشغول بعملي الروحي، وطعامي الحقيقي هو كل كلمة تخرج من فم

اللَّه ". يا أخي إن يوم الصوم الذي لا تُفكِّر فيه في اللَّه وفي وصاياه، أشطبه من أيام صومك. لا تجعل مسؤولياتك تطغي وتستقطب كل أفكارك. بل اجعل لها حدوداً. فتقوم بها ولكن بحيث لا تنسيك واجباتك نحو اللَّه. وليتك في برنامج صلاتك، أن تُصلِّي من أجل الآخرين أيضاً، من أجل كل محتاج إلى المعونة.

★★ إن الصوم ليس هو إرغاماً لك على عدم الأكل، بل هو ارتفاع منك عن شهوة الأكل. وأن يكون صومك بغرض روحي. ويصير الصوم فترة تخزين روحي للعام كله. ومن هنا تختلف أيام الصوم عن باقي أيام السنة.

★★ إن الصوم هو فترة ترتفع فيها الروح فتجذب معها الجسد، وتخلِّصه من أحماله وأثقاله. فلا نهتم بما للجسد بل بما للروح. نريد أن تكون أرواحنا مع اللَّه، وأن لا يعوقها الجسد فنخضعه بالصوم، لكي يرتفع عن المستوى المادي ويتحد مع الروح في عملها. وهنا يكون عمل الجسد أثناء الصوم هو مجرد تمهيد للروح، أو تعبير عن مشاعر الروح. ويصبح الجسد روحياً في منهجه. وتكون فترة الصوم هى فترة روحية يقضيها الجسد والروح معاً في العمل الروحي. إن أخطر ما يتعب البعض في الصوم: أن الجسد لا يتغذى والروح أيضاً لا تتغذى! فيكون الصوم بذلك فترة حرمان مُتعبة! إذن لا بد من غذاء الروح أثناء الصلاة، وغذاء الروح هو في صلاة القلب، وفي التأمُّل، وفي القراءات الروحية، وفي التسابيح والتراتيل ... والروح إذا تغذت تستطيع أن تحمل الجسد معها.

★★ إنك تُغذِّي جسدك كل يوم ومرات عديدة، وبأنواع شتَّى من الأطعمة. فهل تُغذِّي روحك هكذا؟! وأنت تُعطي جسدك مقويات عديدة. فهل تُعطي روحك كذلك؟! ليتك تهتم بروحك على الأقل كما تهتم بجسدك.

١٢ سبتمبر ٢٠١٠

الحِفظ الإلهي

ما أجمل تلك العبارات التي وردت في المزمور. وهى: " الـرب يحفظـك. الـرب يحفظك من كل سوء. الرب يحفظ نفسك. الرب يحفظ دخولك وخروجك ". إنها عبـارات جميلة ومُعزِّيَة. وتُطمئن النَّفس بأنها في حِمَى اللَّه الحافظ. وقد قِيل في ذلك أيضاً: " يسقط عن يسارك ألوف، وعن يمينك ربوات. وأمَّا أنت فلا يقتربون إليك ".

إن عبارة الرب يحفظك هى العبارة التي يقولها كل أب لابنه، وكل أم لابنها. الـرب يحفظ دخولك وخروجك. وهى عبارة أيضاً يقولها كل مُرشد روحي لتلاميذه أن يحفظهـم اللَّه من كل سوء. بل هى عبارة تُقال لكل جندي خارج إلى الحرب: " الرب يحفظ نفسك " بل هى أيضاً دُعاء يقوله الشعب لقائده حينما يذهب في مفاوضات لأجل البلد. فيُقال لـه: الرب يحفظ دخولك وخروجك.

نعم إن كل إنسان يكون في حفظ اللَّه، فلن تستطيع قوة في العالم أن تؤذِه. لأن حياته هى في يد اللَّه الحافظ وليست في أيدي المعتدين. وكل خطر لا بد أن يفقد خطورتـه إذا كانت مشيئة اللَّه أن يُحفَظ.

★★ والذي يؤمن بالحفظ الإلهي، لا يخاف أبداً، ولا يضطرب ولا يقلق. شـاعراً أن حماية اللَّه ستنقذه من كل ضيق، ومن كل الأعداء مهما كانت قوَّتهم. بل يقول كمـا قـال داود النبي في المزمور: " أحاطوا بي مثل النحل حول الشهد، والتهبوا كنارٍ في شوكٍ ... دُفِعت لأسقط والرب عضدني ... فلن أموت بعد بل أحيا وأُحدِّث بأعمال الرب ".

إنَّ الحفظ الإلهي نابع من حنو اللَّه، ومن رحمته، ومن رعايته لشعبه. فهو - تبـارك اسمه - إن رآهم وقد أحاطت بهم المشاكل وأرهقتهم، حينئذ تتدخل رحمته لكـي تنقـذهم بحفظه الإلهي. وما أكثر الأوقات التي يرسل اللَّه فيها ملائكته لـتحفظ الملتجئـين إليـه. وكثيراً ما تدخَّل الحفظ الإلهي أثناء المجاعات، والأوبئة، وكوارث الطبيعـة مـن زلازل وفيضانات وسيول ... إننا لا ننسى حينما هجم وباء الكوليرا على مصر وهى من أمراض

البلاد الحارة وقد أودت بكثيرين ... لا ننسى أنه في السنة التالية سمح أن تكون قارصة البرد، بحيث اختفى وباء الكوليرا. ولا ننسى إطلاقاً كيف حفظ الرب بلادنا من الزلزال ولم يدرك الخطورة.

★★ ولا ننسى حفظ اللَّه للأطفال، الذين قد يتعرَّضون لأخطار شديدة نتيجة لجهدهم وعدم حرصهم. لكن اللَّه يحميهم ... وقد حفظ اللَّه موسى النبي في طفولته بطريقة معجزية أنقذته من الموت الذي كان يحكم به فرعون وقتذاك على الأطفال ... وحفظ اللَّه للأطفال لا يعني فقط الصغار في السن. بل أيضاً هو حافظ لكل ضعيف محتاج إلى حماية. أي كل مَن لا يقوى على حماية نفسه، فيتدخَّل اللَّه ويحميه ويحفظ له كيانه. وما أجمل ما قاله داود النبي في هذا الموضوع. إذ قال: " نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين. الفخ انكسر ونحن نجونا. عوننا بِاسم الرب الذي صنع السماء والأرض ". حقاً ماذا يستطيع العصفور المسكين أمام فخ الصيادين؟! وإذ لا يستطيع شيئاً لإنقاذ نفسه، حينئذ يدركه.

★★ اللَّه أيضاً في حفظه، يحفظ كذلك من حروب الشياطين. إنه في رحمته لا يترك الشيطان يُحاربنا بكل خبثه وضلاله، بل يضع له حدوداً. وبغير هذه الحدود كان الشيطان يستطيع أن يملأ الدنيا شراً. أمَّا الحفظ الإلهي فقد قيَّده ... وهكذا أيضاً يحفظ اللَّه الناس في حروب الخطيئة. إذ تتدخل نعمة اللَّه الحافظة وتقف إلى جوار الإنسان كُلَّما ضغطت عليه الخطايا في عنف. فيُساعده اللَّه لكي لا يسقط. هذا إذا استجاب الإنسان إلى عمل النعمة واشترك معها.

★★ لقد حفظ اللَّه أيضاً النُسَّاك المتعبدين في البراري والجبال. حفظهم من البرد والحر، ومن الحيَّات والعقارب ودبيب الأرض. وحفظهم من الملل والضجر، ومن حروب الخوف والشَّكّ، ومن هجمات الشياطين. كذلك حفظهم من الأمراض حيث لا يوجد لهم طبيب ولا دواء في وحدتهم ... ويقيناً لولا حفظ اللَّه، ما كان أولئك النُسَّاك يستطيعون أن يقضوا حياتهم في البراري وشقوق الجبال دون أيَّة معونة مادية.

حفظ اللَّه للبشر عموماً يشمل حفظهم في البر والبحر والجو. فما أكثر ما تعرَّضت السفن لأمواج البحر العاتية التي تكاد تُغرقها، ولكن اللَّه الحافظ يدوس على كبرياء البحر. وعند ارتفاع لُججه هو يُسكتها ... كذلك حفظ اللَّه للطائرات في الجو، وأحياناً تدركها أخطار من تقلب الجو ومن المطبات الخطيرة. ولولا حفظ اللَّه لتعرَّضت كثيراً من الطائرات إلى الضياع ... وهناك أخطار أيضاً في البَر، فما أكثر الأحداث الخطرة. ولكن اللَّه يحفظ في غالبيتها.

★★ أقول من جهة الحفظ الإلهي: إن اللَّه يحفظنا كثيراً حينما نطلب منه الحفظ، وأحياناً يحفظنا دون أن نطلب. لذلك حينما نشكر اللَّه على حفظه لنا، لا نشكر فقط على ما نعرفه من حفظه. وإنما هناك أمور حفظنا اللَّه فيها ونحن لا نعلم. ومنع المشاكل من الوصول إلينا دون أن نعرف.

★★ والحفظ الإلهي يلزمه من جانبنا الإيمان والشُكر. فأنت حينما تؤمن بحفظ اللَّه تطمئن. وبإيمانك بالحفظ الإلهي، يدخل السلام إلى قلبك. وتقول للَّه مع داود النبي: " إن سِرْتَ في وادي ظل الموت لا أخاف شراً، لأنك أنت معي ". أمَّا الذي يكون إيمانه ضعيفاً، ويتعرَّض لذلك الخوف، فعليه أن يُصلِّي لكي يمنحه اللَّه هذا الإيمان. وبما يُقوِّيه أيضاً أن يذكر ما يعرفه من قصص الحفظ الإلهي. إن الإيمان والصلاة تسبقان الحفظ، والشُكر يكون نتيجة لهذا الحفظ. لأنه لا يليق بنا أبداً أن يحفظنا اللَّه ونحن لا نشكر! على أن حِفظ اللَّه لنا يزيدنا إيماناً بحفظه.

★★ وعبارة يحفظ الرب دخولك وخروجك، لتكن في ذاكرتك وعلى فمك، في كل مرَّة تخرج فيها من بيتك أو ترجع إليه. وأيضاً في كل مرَّة تدخل إلى مكان عملك أو تخرج منه. وكما حفظ اللَّه دخولك إلى هذا العالم، فليحفظ خروجك منه. وليحفظ دخولك إلى العالم الآخر. وعليك أن تُصلِّي وتقول: أنت يارب الذي تحافظ علينا. فمَن منَّا يستطيع أن يحفظ نفسه بل أنت يارب الذي تحافظ على نفسي من كل شر ومن كل سقطة، ومن كل تجربة. فليكن حفظ هذا مستمراً معنا كل حين. حتى إن لم نعمل على حفظ أنفسنا تحفظها أنت. لأنك يارب إن فتحت أعيننا لنرى كل ما حفظتنا منه، ما كانت حياتنا كلها تكفي لشُكرك.

١٩ سبتمبر ٢٠١٠

حساب ردود الفعل

لا يوجد شيء ليست له نتائج. وكل أمر له ردود فعله. سواء تصرف الإنسان، أو الأحداث التي تحدث. وأنت يا أخي حينما تتعامل مع الناس، فلست تتعامل مع جمادات، وإنما مع نفوس لها مشاعر ولها انفعالات. فكل كلمة تقولها، أو كل تصرف أو معاملة، له رد فعل مع مَن تتعامل معه: المحبة لها ردود فعلها، والعداوة أيضاً لها ردود فعلها. فالقسوة لها رد فعلها، والطيبة أيضاً لها رد فعلها. بل ما يمر على العالم من الأزمات أو المشاكل له أيضاً ردود فعله.

فالبطالة مثلاً كانت لها ردود فعلها: لأنه لمَّا لم يجد الشباب عملاً ينشغلون به، كان رد فعلهم هو الانشغال بما يضرهم ويضر غيرهم. وإذ لم تكن لهم فرصة للزواج وإنشاء بيت، كان رد الفعل هو الفساد الخلقي. بل إن البطالة عند البعض، كان من ردود فعلها اللجوء إلى المخدرات، لكي ينسى الشخص ما هو فيه من ضيق. وأيضاً الفقر له ردود فعله، والجوع له ردود فعله. وهذا الموضوع واسع جداً كمشكلة اجتماعية تحتاج إلى حلول عملية. لأنه رُبَّما من نتائج الفقر، قد يلجأ البعض إلى الاحتيال أو إلى السرقة. وأيضاً من ردود فعل هذه المشكلة ما نراه من أطفال الشوارع.

★★ وإن كان ينبغي على الإنسان قبل كل كلمة يقولها، أن يُفكِّر في ردود فعله. ويحسب حساباً لتأثيرها على مَن يسمعه، ومدى انفعاله بها. لذلك عليه أن يتحاشى الألفاظ القاسية، وعبارات التَّهكُّم، والكلمات التي لها أكثر من معنى، وقد يفهمها البعض على معنى سيئ. ويلزم أن يكون هناك احتراس شديد في الكلام مع الأطفال. فالطفل يأخذ فكرة عنك من كلامك، ولا تستطيع أن تنزعها منه. لذلك عليك أن تكون صادقاً في كل ما تقوله له، وأن تفي بكل وعد تعده به، ولا تهز المثاليات التي في ذهنه بأخطائك في الكلام. ومن الناحية الأخرى، ثق أن كل ابتسامة منك في وجه طفل، تضع ابتسامة أخرى على شفتيه، فيُحبك ويستريح لك.

★★ إن أدبك في معاملة الناس، واحترامك لمشاعرهم، يكون لذلك رد فعل عنـــدهم وعند غيرهم. أمَّا عبارات القسوة فلها ردود فعل تناسبها. بها تخسر الناس في مشـــاعرهم نحوك وأيضاً يكوِّنون فكرة عنك وعن طباعك لا تريحك. لذلك كن رقيقاً فـــي معاملاتـــك للغير. فالرقة لها رد فعل عميق فيمَن يتعامل معك. لا تكن سريعاً في مهاجمـــة غيـــرك، أو بالتشهير بالغير. فكل هذا له ردود فعل سيئة.

★★ وفي محيط الأسرة أيضاً، ينبغي أن تكون المعاملة في رقـــة وأدب واحتـــرام. ولا يظن البعض أن الدالة تسمح بزوال هذا الاحترام بين الزوجين أو حتى مـــع الأولاد. احترم زوجتك أيضاً، واستخدم الرقة واللطف في معاملتها. وثق أن رد الفعـــل ســـيكون طيباً جداً في نفسيتها، وستبادلك نفس المعاملة. وعلى الزوجة أيضاً أن تراعـــي شـــعور زوجها، ولا تضغط عليه في الحديث أو الطلبات. لأنه ربما تطلب الزوجـــة شـــيء مـــن زوجها، وتلح عليه إلحاحاً، وتكرر الإلحاح حتى تسبب له شيئاً من التبرُّم والضجر. وربما يكون رد الفعل أنه لا يحتمل المزيد من الإلحاح، فيرد عليها بشدة. إن السعادة التي يجدها الرجل في بيته، يكون من رد فعلها أنه يُفضّل الوجود في بيته أكثر مـــن الخـــروج إلـــى النادي وإلى الأصدقاء. وذلك إذا لم يجد ما يشبعه في بيته، حتى من جهة الأحاديث التـــي قد تدور كلها حول أمور تافهة تختلف تماماً عن أحاديثه مع أصدقائه خارج البيت.

★★ كذلك في مُحيط الأسرة نذكر أن ما يظنه الآباء من الحزم الشديد فـــي التربيـــة وعدم منح بناتهم ما يحتاجون إليه من الحب والحنان. فإن قسوة هؤلاء الآبـــاء لهـــا ردود فعلها. إذ قد تبحث الفتاة عن مصدر خارجي للحُب والحنان، فتستجيب لإغراء أحد الشبان وتخطئ معه، أو تهرب من بيتها، وبخاصة إذا كانت لا تجد من والدها ســـوى الانتهـــار والكلام الجارح وسوء المعاملة. ونصيحتنا إلى الآباء والأمهات أن يشبعوا أبنائهم وبناتهم من الناحية العاطفية، في بعد عن التقيدات الكثيرة، حتى لا يصير البيت بمثابة سجن عنـــد الأبناء.

نفس الوضع نقوله أيضاً في مجال الإدارة بالنسبة للمسؤول الذي يقسو على الذين هم تحت رئاسته مِمَّا يُسبِّب لهم ضيق النَّفس وشهوة التَّخلُّص منه كرد فعل لمعاملته الســـيئة.

ونفس الوضع يحدث مع كل رجل من رجال الأعمال يُقابل العاملين عنده بالإهمال وعدم مراعاة ما يحتاجون إليه من الرزق والظروف الاقتصادية الصعبة. أمَّا الذي يشتهر بالعطاء، فعطاؤه له رد فعل عميق في قلوب الذين يُحسن إليهم. وعكس ذلك البخيل فرد الفعل هو كراهيته، وربَّما سرقته أيضاً.

هناك أيضاً ردود فعل للحرية، وردود فعل أخرى للتسيب، تتفق على مدى نضوج الناس الذين يحسنون استخدام الحرية، أو عدم نضوجهم بحيث يكون رد فعل الحرية عندهم هو المغالاة في الأخطاء.

وربَّما يكون من مظاهر التسيب نشر الشائعات الضارة. أو كرد فعل لاستخدام الحرية استخداماً خاطئاً، والتعليم الخاطئ، وقيادة الغير إلى تفكير يضرهم وكما تقول كلمات الحكمة: " أعمى يقود أعمى كلاهما يسقطان في حفرة ".

★★ إن ردود الفعل تظهر واضحة في الحياة الروحية لكل إنسان. فالذي يهمل ذاته، يهمل علاقته باللَّه، ويسمح لنفسه بقراءات لا تليق أو يترك نفسه ضحية لِمَا يُنشر أحياناً في النت، يكون رد فعل ذلك هو انحرافه وسيره في الملاهي والعبث، أو تشويه فكره بأخبار أو معلومات تضلله وتقوده إلى الانحرافات.

كما أن معاملة الآخرين لها ردود فعلها، كذلك تعاملك مع نفسك له أيضاً ردود فعل سواء من جهة ضبطك لنفسك أو تراخيك مِمَّا يكون رد فعله هو السقوط والضياع.

٢٦ سبتمبر ٢٠١٠

دون أن تطلب

إنه لا شكَّ شيء مفرح أن يُعطينا اللَّه ما نطلب، وأكثر من هذا أن يُعطينا فوق ما نطلب. ولكن أعمق الفرح هو أن يُعطينا اللَّه دون أن نطلب. وهذه عُمق الرعاية الإلهية، التي يهتم فيها اللَّه بخليقته. فيعطيها من فيض محبته، وليس لمُجرَّد الاستجابة لصلواتهم. وهذا الأمر واضح منذ البدء.

بديهي أن اللَّه خلق البشر دون أن يطلبوا. لأنهم لم يكونوا موجودين حتى يطلبوا الوجود. وبنفس جود اللَّه وكرمه خلق جميع الكائنات الأخرى العاقلة والجامدة، التي لها حياة والتي ليس لها. طبعاً دون أن تطلب. لقد خلقها كلها من العدم، والعدم ليس له كيان لكي يطلب. ونحن كبشر حينما خلقنا اللَّه، وهبنا العقل والضمير دون أن نطلب. وأعطانا السُّلطة على كثير من الكائنات ومن الطبيعة دون أن نطلب. وأبونا آدم وهبه اللَّه حواء دون أن يطلب. كذلك لكي تكون مُعينة له في الأرض.

★★ في كثير من الأمور لا ينتظر اللَّه من البشر أن يطلبوا لكي يعطيهم. بل هو يعرف ما يحتاجون إليه فيعطيهم دون أن يطلبوا. ولكي نوضِّح هذا الأمر في حياتنا العملية، نجد أن الطفل الصغير لا يملُك أن يُعبِّر عن جميع احتياجاته. ولكن أباه يعلم ويفهم ماذا يحتاج إليه ابنه، فيُعطيه دون أن يطلب. وهكذا نحن مع خالقنا الكُلِّي الحكمة والكُلِّي الحنو والرحمة والشفقة. هو أدرى بما نحتاج إليه، ويُدبِّر كل احتياجاتنا دون أن نطلب. بل ويُدبِّر احتياجات الأمم والشعوب والجماعات. ولا ينتظر من كل هؤلاء أن يطلبوا ... وربَّما لا يطلبون ما يفيدهم وما يفيد غيرهم معهم!!

★★ مثال آخر هو الراعي. وكل راعٍ يرعى غنمه حيث توجد احتياجاتها من العُشب والماء، كذلك دون أن تطلب ... ونرى اللَّه أنه يرعى شعبه. وكما قال داود النبي في

المزمور: " الرب يرعاني فلا يعوزني شيء. في مراعٍ خضر يربضني، وإلى ماء الراحة يوردني، يهديني إلى سُبُل البِرّ ". وهكذا اللَّه راع الكون: يعولهم، ويطلب الضال ويسترد المطرود ويجبر الكسير ويعصب الجريح ويهتم بكل واحد حسب احتياجه. وما أكثر الأمثلة في الكتاب وفي التاريخ عن رعاية الرب للبشر.

إنَّ اللَّه يشبع كل حي من رضاه، دون أن يطلب. هو يرسل المطر والشمس، ويُدبِّر أمور الناس من جهة الكون، ويعطي الطعام لكل ذي جسد. حتى للمُلحدين الذين لا يؤمنون به وبالتالي لا يطلبون منه شيئاً. بل اللَّه يُعطي أيضاً جمالاً لزنابق الحقل، وصوتاً جميلاً لكثير من الطيور، طبعاً بدون طلب، وليس بسبب استحقاق الخليقة. وإنما هو جود اللَّه وكرمه.

واللَّه - تبارك اسمه - من فرط جوده أيضاً وعد الناس بالنعيم الأبدي " بما لم تره عين، ولم تسمع به إذن، ولم يخطر على بال إنسان ". وطبعاً من المستحيل أن أحداً كان يطلب ما لم يخطر على باله. إننا قد نطلب نعيماً. ولكن هذه الصورة بالذات، هي فوق ما نطلب بكل تفاصيله.

★★ وأيضاً النبوءات منحها اللَّه للأنبياء دون أن يطلبوا، وما كانوا يفكرون أنهم سيصيرون هكذا. ومنحهم النبوءات لفائدتنا دون أن نطلب نحن. وواضح جداً أن اللَّه يرسل الوحي دون طلب. وهو أيضاً يُقدِّم لبعض قديسيه الحلم أو الرؤيا دون أن يطلبوا. وربَّما في وقت لا يتوقَّعه أحد منهم على الإطلاق. إن يوسف الصديق منحه اللَّه أحلاماً، ومنحه موهبة تفسير الأحلام دون أن يطلب. ويوسف الصديق كل ما كان يطلبه أن يخرج من السجن الذي أُلقيَ فيه ظُلماً. ولكن اللَّه جعله الوزير الأول في مصر والثاني في المملكة. وما كان هو يطلب ذلك أو يحلم به. ولكن اللَّه الحنون المُحب أعطاه دون أن يطلب. ومعروف أن الدعوة الإلهية وصلت إلى البعض دون أن يطلبوا.

لذلك يا أخي القارئ. إن كنت في يوم من الأيام تحت سيطرة خطية مُعيَّنة، ولا تستطيع الخلاص منها، بل لا تطلب نعمة من اللَّه لكي تخلص. ولا حتى تقول:

" توّبني يارب فأتوب " ... ومع ذلك كله لا تيأس. فإن كنت لا تسع إلى خلاص نفسك، فإن اللَّه يريد لك هذا الخلاص. ولا بد أنه سيُدبّر لك طريقاً للتوبة، أو يُرسل لك مرشدين، أو يرسل لك زيارة من النعمة دون أن تطلب فيتأثّر قلبك ويخشى ويرجع إليه.

إنَّ اللَّه لا يُعطِ فقط من أجل صلواتنا وطلباتنا، أو من أجل استحقاقنا، إنما كثيراً ما يُعطي من أجل جوده وكرمه، ومن أجل احتياجاتنا ... ولا شك أن هذا يغرس في قلوبنا الرجاء مهما كانت حالتنا، ومهما كُنَّا غير مستحقين لشيء.

إنَّ القديسين بإيمانهم بأن اللَّه يُعطي حتى دون أن نطلب، كانوا في كثير من الأوقات يخجلون أن يطلبوا شيئاً. بل كانت طلبتهم الوحيدة هى القُرب من اللَّه. كما قال داود النبي في المزمور للرب: " طلبت وجهك، ولوجهك يارب ألتمس. لا تحجب وجهك عنّي " ... ومع ذلك أعطى اللَّه الضعفاء أن يطلبوا ما يشاءون ... إن الذي يؤمن باللَّه وعطائه، ينام في حضن اللَّه ويستريح. ويكون واثقاً إن اللَّه يُدبّر له كل شيء. ولا يتركه معوزاً شيئاً. بل إنه يقول للرب في صلاته: " هل تركت يارب لي شيئاً أطلبه؟! إنني يارب لو قضيت عمري كله شاكراً فلن يكفي. لذلك إن رأيتني يارب أحتاج شيئاً، أعطني إيَّاه دون أن أطلب. إنك أدري بما ينقصني، إن كان هناك شيء ينقصني. إن عملي الوحيد هو أن أشكرك، وأن أسبّحك على كرمك، لا أن أطلب ".

★★ والإنسان المؤمن، مهما أُغلِقَت الأبواب أمامه، فإنه بالإيمان يرى باب اللَّه مفتوحاً، ولا يستطيع أحد أن يغلقه. لذلك هو يطمئن إلى عمل اللَّه من أجله، ويعيش في فرح كامل، لا تهتز نفسه لأيَّة ظروف ضاغطة. شاعراً أن حياته هى في يد اللَّه. وأن اللَّه يستطيع أن يغير المواقف، ويُغيِّر القلوب، ويُمهِّد له طريق السلام دون أن يطلب.

٣ أكتوبر ٢٠١٠

الذي يُحب، يحتمل

لا أريد في هذا المقال أن أُحدِّثكم عن الاحتمال بصفة عامة. فالاحتمال موضوع طويل، وله أسباب عديدة. وهناك مَن يحتمل بسبب اتصافه بالوداعة والهدوء. وهناك مَن يحتمل بسبب تواضعه، أو بسبب الحكمة وتجنُّب عواقب الأمور، أو لأسباب أخرى. ولكن موضوعنا الآن هو الاحتمال بسبب المحبة ... المحبة التي تحتمل كل شيء. فالذي يحب شخص، يكون مستعداً أن يحتمل كل تصرفاته، كما أنه يحتمل من أجله.

ومن أمثلة المحبة التي تحتمل: محبة الأمومة والأُبوة: محبة الأم التي تحتمل متاعب الحمل والولادة والرضاعة، ومتاعب الصبر في تربية الطفل والعناية به، في غذائه وفي نظافته، وفي الاهتمام بصحته، وفي تعليمه النطق والكلام، وفي الصبر على صراخه وصياحه وعناده ... إلى أن يكبر. كذلك محبة الأب في تربية أبنائه، واحتماله مشقة العمل بكافة الطرق للإنفاق عليهم وتوفير كافة احتياجاتهم.

★★ ومن أمثلة المحبة التي تحتمل: محبة الجنود لوطنهم. فمن أجل محبة الوطن، يحتملون مشاق التدريب والحرب، والتعرُّض للموت أو للإثارة. وربما يحتملون فقد بعض أعضائهم، مع جروح أو تشوهات. ونفس الوضع نقوله على ما يتحمله رجال الشرطة لحفظ الأمن.

ومن أمثلة المحبة التي تحتمل، احتمال الشهداء والنساك من أجل محبتهم للَّه. وأيضاً ما احتمله الرسل والأنبياء من الأتعاب في نشر الدين. كل ذلك بصبر كثير، وفي شدائد وضيقات، وفي أتعاب وأسهار وأصوام...

★★ ننتقل إلى الحديث عن محبة الغير واحتمال تصرفاتهم: فنذكر المحبة التي تحتمل الغير وتسامحه. والتي تحتمل الإساءة، ولا ترد بالمثل. والمحبة التي لا تشكو من المُسيء ولا تُشهر به. المحبة التي تنسى الإساءة، ولا تخزنها في ذاكرتها كما

يفعل البعض لشهور وسنوات. المحبة التي لا تقول باستمرار: هذه حقوقي وهذه كرامتي!

★★ المحبة التي تحتمل، هى محبة الشخص صاحب القلب الكبير الواسع. الذي يحتمل العتاب ولا يتضايق. حتى لو كان العتاب بألفاظ صعبة. وبقلبه الكبير يحتمل حتى الفكاهة، ولو كانت بأسلوب يبدو فيه التهكُّم.

★★ على أن يكون الاحتمال بغير ضجر ولا تزمُّر ولا ضيق. بل بصدر رحب، وروح طيبة. لا يتمركز فيه الإنسان حول ذاته وحول كرامته. فطبيعي أن المحبة لا تطلب ما لنفسها. وبالتالي تحتمل كل شيء. ولا تحتد ولا تثور. المحبة التي لا تتفاخر بل تحتمل.

★★ بعض الناس لا يحتملون الذين لا يفهمونه. ومن هنا كانت مشكلة الأذكياء مع الجهلاء، أو مع الأقل منهم فهماً. لذلك يحدث أحياناً أن يبتعد مثل هؤلاء الأذكياء عن كثير من الناس الذين لا يفهمون بسرعة. وقد لا يحتمل الواحد منهم طول الوقت في إقناع غيره، فيتحاشاه. أما الذي في قلبه حب، فإنه يطيل أناته على غيره، ويصبر. وهكذا يضم إليه القليل الفهم ويحتمله، بل يرجو منه خيراً ... وهكذا يتعامل مع الأطفال.

★★ القلب الضيق الخالي من الحب، هو الذي لا يحتمل الآخرين. أمَّا القلب الواسع فيستطيع أن يحتمل الناس. لذلك يا أخي كُن متسعاً في قلبك وفي صدرك وفي فهمك. ولا تتضايق بسرعة. واعرف أن المجتمع فيه أنواع مُتعدِّدة من الناس. وليسوا جميعاً من النوع الذي تريده. فيوجد فيهم كثيرون لم يصلوا بعد إلى المستوى المثالي، ولا إلى المستوى المتوسط. وعلينا أن نحبهم جميعاً. وبالمحبة ننزل إلى مستواهم لنرفعهم إلى مستوى أعلى. وهكذا نتأنَّى عليهم ونترفَّق بهم. ونحتمل كل ما يصدر عنه من جهالات، ونصبر عليهم حتى يصلوا.

★★ لا تقُلْ: " الناس متعبون ". بل بمحبتك تتعامل معهم، وتحاول أن تصلح من طباعهم. ولو كنت لا تتعامل إلا مع المثاليين، فعليك أن تبحث عن عالم آخر تعيش فيه.

في إحدى المرّات قال لي شخص: " أنا لم أعد احتمل (فلان) إطلاقاً. إنه شخص لا يطاق ولا يمكن احتماله! ". فقلت له: " وكيف إذن احتمله اللّه منذ ولادته حتى الآن؟! وكيف احتمل غيره من أمثاله منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا؟! ".

وقال لي آخَر: " (وفلان) يقول الكلمة ويرجع فيها. فكيف يمكن أن أعاشره؟ إن عشرته لا تحتمل ". فقلت له: " وكم مرة تعهدنا للّه بشيء، ورجعنا في كل تعهداتنا؟! وكم مرة وعدناه ولم نفِ بوعودنا؟ ومع ذلك احتملنا اللّه!! كم مرة نذرنا للّه نذوراً ولم نفِ بها. وكان اللّه يعرف ذلك لمعرفته بالمستقبل. ومع ذلك حقّق لنا ما كنا نطلبه في نذرنا ".

وكم مرّة قدمنا للّه توبة كاذبة. ونعود بعدها إلى خطايانا السابقة؟! ومع كل ذلك يحتملنا اللّه، ويطيل أناته علينا، حتى نعود ونتوب مرة أخرى.

وكم مرّة يأتي موعد الصلاة. ونقول ليس لدينا وقت الآن لنُصلِ. يقول التراب والرماد للخالق العظيم ليس لديَّ وقت أُكلِّمك فيه!! ويحتمل اللّه هذا التراب.

فإن كان اللّه يحتملنا في كل هذا، فلماذا لا نحتمل غيرنا؟!

★★ نقطة أخرى وهى أن الذي يحب اللّه، لا يتضايق إذا صلّى، ولم يشعر باستجابة الصلاة. فيشك في محبة اللّه وعنايته، ويظن أن اللّه قد نسيه! بينما اللّه يعمل دائماً في الوقت المناسب حسب حكمته. كذلك الشخص المُحب للّه يحتمل التجارب والمشاكل. ولا تتزعزع محبته مهما طال وقت التجربة، ومهما ازدادت حدّتها. بل يقول في ثقة: " كل الأشياء تعمل معاً للخير "، ويحتمل ولا يتعجّل حل المشكلات. بل يعطي المشكلة مدى زمنياً يحلها اللّه فيه، في الوقت المناسب الذي يراه اللّه مناسباً. وبالطريقة التي يراها اللّه مناسبة.

وهكذا بالمحبة يحتمل الناس، ويحتمل صبر اللّه في علاج مشكلاته.

١٠ أكتوبر ٢٠١٠

القدوة عظة صامتة

إن كنت يا أخي قد أمكنك أن تصل إلى حياة الفضيلة، فمن واجبك أن تعمل أيضاً على توصيل الآخرين إليها. أنت مسؤول إذن أن تعمل عملاً من أجل خير الناس، في نطاق الدائرة التي تحيا فيها. فإن كنت قد ذُقت حلاوة الحياة في الخير، فما أجمل أن تدعو الناس إلى هذه المذاقة. أنت لا تستطيع أن تتخلّى عن مسؤوليتك الروحية تجاه الآخرين، إن كنت تحبهم بالحقيقة. عليك إذن مسؤولية روحية تجاه غيرك في حدود إمكانياتك. قد لا تكون من رجال الدين، ولا من قادة الفكر، ولكنك على الرغم من ذلك تستطيع أن تجذب الناس إلى الحياة الروحية بقدوتك الصالحة أمامهم.

إن القدوة هي واجب على الكل، وهي ممكنة للكل، ونافعة أكثر من الوعظ والتعليم. إن الوعظ يُقدِّم تعليماً نظرياً، أمَّا القدوة فهي تُقدِّم المثال العملي. والذي لا يستطيع أن يعظ، يمكنه أن يكون عظة. يمكنه أن يكون رسالة عملية معروفة ومقروءة من جميع الناس. كل مَن يراه ينتفع بمنظره دون أن يتكلَّم. وينتفع أيضاً بأسلوبه في الكلام وفي التَّصرُّف دون أن يعظ. والمعروف أن الناس يستفيدون من حياة الآخرين، أكثر مِمَّا يستفيدون من أقوالهم. ومن ناحية أخرى لا يمكنهم أن يستفيدوا من عظات أحد، إن لم تكن تصرفاته روحية تسند عظاته وتتفق معه.

والقدوة تنفع أيضاً بالنسبة إلى الذين لا يمكنك وعظهم. فأنت قد تعظ أو قد تُعلِّم مَن هو أصغر منك سناً، أو أقل منك مركزاً أو علِماً. ولكنك قد تحتشم من أن تعظ مَن هو أكبر أو أعلى منك. فهذا تنفعه قدوتك.

كذلك هناك أشخاص لا يحتملون الوعظ ولا يقبلونه! تمنعهم كبرياؤهم أو يمنعهم اعتدادهم بأنفسهم من قبول كلمة توجيه أو نُصح، أو كلمة تعليم أو وعظ. وبالأكثر أيضاً لا يحتملون كلمة نقد. وإن قُلت لأحد منهم كلمة منفعة، قد ينظر إليك في استنكار وسخرية

ويقول لك: (أنت ها توعظني؟!). كل هذا النوع من الناس قد تنفعهم قدوتك ومثالك الطيب الذي يُكلِّمهم في صمت.

وبحياة القدوة يمكنك أن تصل إلى منفعة الآخرين بتقديم المثال الروحي العملي لهـم. وبسلوكك الحسن تجذب آخرين إلى محبة اللّه وتنفيذ وصاياه. وتكون عظة لا واعظاً. إن السيد المسيح لمَّا غسل أرجل تلاميذه، كان مثالاً عملياً لهم وللعالم في التواضع والمحبـة. وأنت يا أخي العزيز من المفروض أن تكون حياتك وسط الناس قدوة لهم ومثالاً ونموذجاً موضوعاً أمامهم، يرون فيه الطريق العملي لنقاوة الحياة. وحياتك العمليـة فـي محبـة الآخرين وفي بذلك لأجلهم، وفي تعاونك معهم، وفي خدمتهم، إنَّما هى درس عملي تُقدِّمه. لأن المحبة لا تكون بالكلام وباللسان، وإنما بالعمل والحق. كذلك إن عِشت في سلام مـع الكل، وبطبيعة هادئة وديعة، تحترس من أن تُغضِب أحداً، إنما تكون بلسم في السلام وفي الهدوء، دون أن تُلقي تعليماً في هذا الأمر.

إنَّ أُم موسى النبي التي لم تكتفِ بإرضاعه لبنها بالجسد، بل أرضعته أيضاً الإيمـان القوي الذي ثبت فيه حينما عاش في قصر فرعون وسط كل الإلهة القديمة، ولم يتأثَّر بهـا بل صار فيما بعد قائداً للإيمان ... هذه الأُم أعطت للعالم درساً في واجب الأمومة وكيف تهتم بإيمان أبنائها.

★★ إننا لا نأخذ قدوة فقط من البشر الصالحين، إنما يقول سليمان الحكيم: " تعلَّم من النملة أيها الكسلان ". صدقوني إنني لم أرَ في حياتي كُلِّها نملة تقف بلا حركة، فهى دائمة العمل في نشاط عجيب هو درس لنا وقدوة. كذلك نأخذ درساً من حبة القمح التي نلقيها في الأرض فتظل تعمل حتى تُقدِّم لنا ثمراً وفيراً: أولاً نباتاً، ثم سنبلاً، ثم قمحـاً مـلآن فـي السنبل. كل هذا الثمر من حبة واحدة ... ونفس الوضع بالنسبة إلى كل شجرة مُثمرة، كم تعطي في كل موسم؟ إنها أيضاً درس. بل نأخذ قدوة أيضـاً مـن الأرض التـي تـدور ولا تتوقَّف مُنذ آلاف السنين، منذ خلقها، وهى تدور باستمرار حول محورها. وتنتج فـي كل دورة ليلاً ونهاراً ... ملايين السنين وهى لا تتوقف. تُرى لـو سـئمت الأرض مـن دورانها، وتكاسلت واتكأت قليلاً على محورها لتستريح! أمَا كان العالم يرتبـك؟! ولكـن

الأرض في حركتها الدائمة تعمل العمل الذي أوكله اللّه إليها، وتعطينا قدوة ودرساً لا ننساه. كذلك الشمس هي الأُخرى عظة صامتة. إذ تشرق على الصالحين والطالحين، وتعطي بنورها للمستحق وغير المستحق. ونورها يضيء لنا دون أن نطلب. فالشمس لا تنتظرك حتى تطلب منها ضوءاً، وكذلك القمر. بل كلاهما ينيران لك ويضيئان الطريق دون أن تطلب إنه درس من القدوة. والشمس في قدوتها تدخل بيت الملك، وتدخل بيت الخادم، والمسكين. الكل يحتاجون إليها، والكل يتمتَّعون بها وهي لا تُفرّق بين عظيم وحقير، أو بين غني وفقير. ونورها يُطهّر كل مكان ولا يتنجس به. هكذا أنتم يا إخوتي في معاملتكم للناس وفي قدوة الشمس لكم التي تشرق على كل أحد بدون تمييز. أنتم جميعاً ضرورة لازمة لنفع العالم. لستم لأنفسكم فقط، وإنما لخير البشرية كلها بالقدوة.

★★ والإنسان الصالح لا يُقدّم قدوة أثناء حياته فقط. بل تظل قدوته قائمة ونافعة حتى بعد وفاته. هو نور يضيء عبر الأجيال، ولا تموت سيرته بموته بل تبقى قدوة للناس. بل إنه إن مات يتكلّم بعد بهذه القدوة. وفي هذا المجال لست أذكر فقط بعض سير القديسين المعروفين. إنما أذكر من جهة القدوة قصة المهاتما غاندي الزعيم الهندي العظيم، الذي قدم قدوة عجيبة في الجهاد البعيد تماماً عن العُنف. كان غاندي البراهمي هو المثل الروحي الحي في أيامه. كان إذ صام يهز البرلمان الإنجليزي. وكان في تحمله للألم والاضطهاد بدون مقاومة أو انتقام، ينال إعجاب العالم كله ويستنزل السخط على الحكام القساة في أيامه.

كونوا يا إخوتي قدوة وبهذا تنفعون غيركم دون أن تتحدثوا.

١٧ أكتوبر ٢٠١٠

ما هى اهتماماتك؟

أسألك يا أخي بماذا تهتم؟ ما هى الأولويات في اهتماماتك؟ لا شكَّ أنه حسب اهتمامك يكون حماسك، ويكون عملك وتكون إرادتك. والسؤال الخطير هو: هل كل اهتماماتك بحياتك الأرضية، أمْ بمصيرك الأبدي في العالم الآخَر؟ إنه حسب اهتمام كل واحد، هكذا تكون حياتك.

وأنت مثلاً حينما تستيقظ كل يوم، بماذا يكون اهتمامك؟ هل تهتم بالاستعداد للذهاب إلى عملك، فتشغل كل وقتك بذلك؟ أم اهتمامك الأول هو كيف تبدأ اليوم مع الرب، فيكون اللَّه أوّل مَن تتحدث إليه في صلاة أو تأمُّل ... أم تقول ليس لديَّ وقت للصلاة! ويقيناً لو وضعت الصلاة والتَّأمُّل في قمة اهتمامك، لأمكنك أن تجد لهما وقتاً.

★★ حتى في الحياة الروحية ... كثيرون يجعلون قمة الاهتمام في النشاط والحركة. وليس في روحانية العمل. ففي الخدمة الاجتماعية مثلاً قد نجد نفس الظاهرة: الاهتمام الوحيد هو العناية بالفقراء مادياً، سواء في المساعدات المالية، أو في مشاكل المرض أو الإسكان وما إلى ذلك. ويندر أن نعطي اهتماماً حقيقياً بروحيات هؤلاء المحتاجين!

ونفس الوضع في عناية الأسرة بالطفل: نرى الاهتمام الأول للأب والأم هو تربية أطفالهما من جهة الاهتمام بصحة أولادهما، وأكلهم وشربهم ولبسهم، وأيضاً بتعليمهم وإعدادهم لوظائف لائقة .. ثم بعد ذلك تزويجهم ... وفي كل ذلك لا تهتم الأسرة بإعطاء الأطفال الغذاء الروحي اليومي، مثلما يهتمون بغذائهم الجسدي. بينما كل أب مسؤول عن تربية أبنائه روحياً، وكذلك الأم مسؤولة ... وعلى الرغم من عدم تربية الأولاد روحياً، يقول كل من الأب والأم: " أشكرك يارب، إني أديت رسالتي من جهة أبنائي. الآن ضميري استراح من جهتهم!! ".

★★ مثال آخر يحدث في حالة الخصم والخصومة: هل إذا كان لك خصم، يكون اهتمامك الأول أن تُحطِّمه أم أن تحاول أن تكسبه؟! إنه حسب اهتمامك سيكون تصرفك معه.

★★ نتطرق أيضاً إلى اهتمام كل شخص بنفسه: الاهتمام هو في شهوات جسده كيف يُحققها؟! أم اهتمامه في أموره المالية كيف ينميها يوماً بعد يوم؟ أم اهتمامه في الوصول إلى السُلطة بأية الطُرُق؟! أم اهتمامه في أن يكون له مركز اجتماعي ينال به احترام الناس وإعجابهم؟! وفي كل ذلك قد يختفي من اهتمامه كيف يقتني الفضائل واحدة بعد أخرى! وأيضاً لا يكون من اهتمامه أن يضبط نفسه بالطريقة التي لا يخطئ بها أبداً ... عجيب أن الناس لا يهتمون بهذا الأمر أبداً.

★★ البعض أيضاً يهتم بمُجرَّد الراحة النفسية، له ولغيره، حتى لو لم تكن على أساس روحي! فالأم مثلاً قد تضع في اهتمامها الأول أن تكسب محبة ابنها، وأن تريحه لكي يريحها، ولو كان ذلك على حساب روحياته! فتدللّه وتعطيه كل ما يطلب، وتُغطي على أخطائه، ولا توبِّخه على خطأ خشية أن تفقد محبته!! فينشأ الولد مُدلَّلاً ويفسد. لأن أمه لم تضع في اهتمامها أن تقوده في الطريق السليم، حتى ولو وجد حيناً، حتى ولو وقفت ضد إرادته الخاطئة، ثم تقنعه وتصلحه وتصالحه. إنها إن اهتمت براحة نفسيته، وليس بروحياته، ستفقده أبديته ... بل حتى في حياته الاجتماعية سيفشل. لأنه سيخرج إلى المجتمع فلا يجد نفس التدليل الذي اعتاده في البيت، فيتعب. وتكون التربية المنزلية قد أضرت به نفسياً، ولو بعد حين.

★★ كذلك نرى الاهتمام بحالة المريض النفسية، وليس بمصيره الأبدي،! وبألوان كثيرة من الكذب والخداع، يُخفي عنه حقيقة مرضه خوفاً على نفسيته ومعنوياته التي توضع في قمة الاهتمام ... إلى أن يُفاجئه الموت، ويموت بدون استعداد، ويهلك ...! بينما المفروض في الأمراض الميئوس منها أن يعد المريض لأبديته وبحكمة، لست أنصح أن تكاشفه بحقيقة مرضه إن كان لا يحتمل. إنما أن نضع في قمة اهتمامنا أن نعده روحياً بكل حكمة تقوده إلى الحياة مع اللَّه، وليس بسبب الخوف من الموت ... إنما بأسلوب إيجابي مؤثِّر وبكل وسائط النعمة المتاحة.

★★ هناك سؤال أساسي نعرضه في موضوع الاهتمام: هل أنت تركز كل اهتمامك بنفسك، أم تهتم بغيرك، ولو فضلته على نفسك؟ هل اهتمامك الأول هو ذاتك؟ أم أنت

تخرج من دائرة الذات، لتهتم بالآخرين ... اهتماماً من عُمق قلبك، تصل فيه إلى العطاء والبذل، إلى حد بذل النفس أيضاً ... هل تهتم براحتك أم براحة غيرك؟ وهل في اهتمامك براحتك، لا مانع لديك أحياناً أن تبني راحتك على تعب الآخرين؟! كالأسرة التي تطلب من عائلها طلبات فوق احتماله، وترهقه وتحرجه وتربكه، ولا تبالي! أمَّا الروحيون والمصلحون فقد جعلوا اهتمامهم الأول يتركَّز في المجتمع الذي يعيشون فيه. كما يهتمون أيضاً بالوطن كله، وبالعالم البشري أيضاً كالمساهمة في راحته وفي تخفيف أتعابه. وهكذا ظهرت هيئات وجمعيات هدفها إنقاذ الآخرين أو إعانتهم من كل ناحية ... مثل الهيئات العالمية للصحة، ولتربية الأطفال، ولإنقاذ العالم من الجوع والكوارث والمشكلات الاجتماعية، والهيئات التي تجاهد للمحافظة على حقوق الإنسان.

★★ ونرى للأسف أنه أحياناً يكون كل اهتمام الشخص أن يصل إلى طلب ما. وربما لا يكون غرضاً روحياً، ولا غرضاً اجتماعياً. إنما هو لإثبات الذات ووجودها أو لارتفاعها بطريقة ما. وفي سبيل الوصول لهذا الغرض، لا يهتم بالوسيلة ماذا تكون؟ بريئة أو غير بريئة، صالحة أو مدمِّرة. ولا يبال إن كانت وسيلة خاطئة! إنه تركيز الاهتمام كله في الوصول إلى الغرض حتى ولو ضيَّع الإنسان نفسه! وكم من أشخاص باهتمامهم بأغراضهم قد وصلوا إلى الجريمة أو إلى إضاعة الغير. وعجيب أن بعض المهتمين بالإصلاح، قد يهتم بملء عقول سامعيه بالمعلومات، دون أن يهتم بروحياتهم أو أبديتهم!!

٢٤ أكتوبر ٢٠١٠

قسوة القلب

إن اللَّه - تبارك اسمه - إله رحيم، يتصف بالحنو والشفقة على عباده، ولا يعاملهم أبداً بالقسوة. وهو يطيل أناته حتى على الخطاة منهم، ولا يعاملهم بقسوة. ولو أنه عاملهم بما يستحقون، ما كان يمكن أن يخلص أحد. وهو يريدنا أن نكون أيضاً لُطفاء بعضنا نحو بعض لا نقسو على غيرنا، ولا حتى على الحيوان. ومن هنا وجدت جمعيات للرفق بالحيوان. والقسوة مكروهة من الكل، وبخاصة من أصحاب القلوب الرقيقة.

★★ ونبدأ أولاً بالحديث عن القسوة في مُحيط الأسرة: فأحياناً يقسو الأب على أولاده بحجة الحزم في تربيتهم. وهكذا يفقدهم الحنان الذي يحتاجون إليه منه كمصدر طبيعي للحنان. فيضطر بعضهم إلى طلب الحنان من مصدر خارجي غير مضمونة نتائجه. وفي محيط الأسرة قد يقسو الزوج أيضاً على زوجته. وبسبب غيرته الخاطئة قد يراقبها في كل أعمالها وأقوالها كما لو كانت مُتهمة أمامه. وبعض الأزواج قد يحبسون زوجاتهم فلا يخرجن إلاَّ بإذن أو بسبب جوهري. بل قد تصل القسوة أحياناً إلى الضرب ... وما أسهل ما ينتهي الأمر في مثل هذه العلاقة الزوجية إلى الطلاق أو الخُلع.

وهناك نوع آخر من القسوة في مُحيط الأسرة حينما يطلب الأبناء من آبائهم نفقات مُعيَّنة تفوق قدرتهم المالية بكثير، وأيضاً حينما تطلب الزوجة طلبات فوق قدرة زوجها. ولكن أبشع ما قرأنا عنه في الجرائد هو قسوة بعض الأبناء على آبائهم أو أمهاتهم لدرجة القتل. عجيب أن يقتل شخص أباه أو أمه في شيخوخة أحدهما وعدم قدرته في الدفاع عن نفسه. إنه لون من ألوان القسوة البشعة.

★★ والمعروف أن القسوة تبدأ أولاً في القلب. وقد تتطوَّر إلى قسوة في اللسان من جهة الكلمة القاسية أو النظرة القاسية. وقد قال سليمان الحكيم في ذلك: " الجواب الليِّن يصرف الغضب، والكلام الموجع يُهيج السخط ". ولذلك ننصح كل أحد أن يتخيَّر ألفاظه التي يتكلَّم بها مع الآخرين. فيبعد عن كل كلمة جارحة وعن كلمات الإهانة، وكلمات التَّهكُّم وخصوصاً التَّهكُّم اللاذع لأنه جارح أيضاً. لأن اللَّه لا يعاقب فقط على المعاملة

السيئة وإنما أيضاً عن مُجرَّد الكلام السيئ. إن القسوة كما تخرج من القلب وتصل إلى اللسان وإلى النظرة القاسية حينما تصل كذلك إلى المعاملة. ولعلنا نذكر أيضاً قسوة الحماة في معاملة زوجة ابنها بحجة محبتها لهذا الابن، بينما عليها أن تحبه للحفاظ على استقراره في حياته العائلية. وكذلك عليها أن تُحب زوجة ابنها باعتبارها ابنة لها أيضاً.

★★ إن القسوة تظهر أيضاً في درجة العقوبة. فهناك رئيس في العمل يُحاسب بلا رحمة على كل صغيرة وكبيرة. وفي قسوته لا يمكن أن يجد عذراً لأحد من الذين يعملون تحت رئاسته. وإذا عاقب يفرض أقصى عقوبة ممكنة ... وأحياناً قد تصل عقوبته إلى فصل هذا العامل من وظيفته، وإلقائه إلى الشارع بلا رزق وبلا حنو غير واضع في نفسه مصير هذا الإنسان وأسرته معه! بينما هناك درجات من العقوبات يمكن أن تفرض. أمَّا القساة فيفرضون أصعب العقوبات ولا يبالون: وقد توجد القسوة أيضاً بين صديق وصديقه، في لون العتاب ودرجته. فالعتاب القاسي هو الذي يكون بشدة وعُنف وباتهامات تكون سبباً في ضياع العلاقة بين الاثنين. وكما قال الشاعر:

ودَّع العتاب فرُبَّ شرّ ••• كان أوله العتابا

★★ إن القلب القاسي هو بعيد عن الوداعة والرحمة وعن الشفقة والحنو. بل أنه يتصف بالعُنف أيضاً. بينما يطلب منا اللَّه أن تكون لُطفاء بعضنا نحو بعض بعيدين عن القسوة.

★★ والقسوة عموماً مُنفِّرة لا يقبلها أحد، والقاسي قد يخسر الآخرين، ويعطي صورة سيئة عن نفسه. وما أكثر النتائج الضارة من القسوة للشخص نفسه وللآخرين. وقساوة القلب قد تدفع إلى الحدة وإلى الغضب وتشتعل مشاعر القاسي ضد غيره بسرعة، ويحتد، ويثور، ويُهدِّد. ولا يحتمل أن يمسه أحد بكلمة. وفي نفس الوقت لا يراع مشاعر الآخرين، فيجرح غيره بسهولة وفي لامبالاة. والعجيب أن الإنسان القاسي يجمع بين أمرين متناقضين: فيكون حسَّاساً جداً من جهة المعاملة التي يعاملُه بها الناس، ولا إحساس له من جهة وقع معاملته القاسية على الآخرين.

والقسوة قد تكون على الجسد أو على النفس. فأبشع قسوة على الجسد هى في تعذيبه، كما كان يفعل الضباط الرومان. ومن أمثلة ذلك ما رأيته في إنجلترا في مكان يُسمَّى بيت الرّعب House of Terror فيه نماذج من ألوان التعذيب التي حدثت في بعض العصور. أمّا القسوة على النفس فيكون ذلك بإذلالها وفي التشهير بها وفي المعاملة المُهينة لها. ومن أمثال ذلك مُعاملة العبيد. ويحضرني هنا قول الشاعر:

لا تشترِ العبد إلاَّ والعَصا معه ••• إن العبيدَ لأنجاس مناكيد

حيث كان العبد يُحرم من كل حقوقه البشرية أحياناً إلى جوار ضربه وجلده. ونذكر أيضاً في هذا المجال المعاملة القاسية التي كان البيض يعاملون بها السُّود في القرون الماضية. وقد تعرَّض لبعض هذه المعاملة المهاتما غاندي حينما كان محامياً في جنوب أفريقيا قبل ذهابه إلى الهند. ولعلَّ من الأمثلة البارزة للقسوة في التاريخ قسوة فرعون.

★★ هناك قسوة أخرى تظهر في قلب البخيل الذي يرفض أن يحن ويشفق على المحتاجين مهما كانت سوء حالتهم. وهناك لون آخر من القسوة في التعليم الذي يفرض على البعض درجة فوق مستوى قدرتهم. ومن أمثلة ذلك المُعلِّمين الذين لا يُراعون المستوى الذي يُناسب كل أحد من جهة قدرته الروحية. على أن هناك أشخاص قُساة القلب من جهة رفضهم لعمل اللَّه في قلوبهم. فهُم يرون وصايا اللَّه ثقيلة عليهم، بينما الثقل كله هو في قلوبهم وإرادتهم. فالواجد منهم لا يتأثَّر بالكلام الروحي، بل قد يسخر ويتهكَّم ويرفض السماع!! ومن أمثلة هؤلاء الوجوديون الذين يرون أن وصايا اللَّه تلغي وجودهم وحريتهم. فمن الخير أن اللَّه لا يوجد لكي يتمتعوا هم بذلك الوجود الوهمي.

٣١ أكتوبر ٢٠١٠

خطايا تتنكَّر في زي فضائل

إن الشيطان لا يُحارِب الناس بالخطية مكشوفة وواضحة إلاَّ للمستهترين. أمَّا الذين يريدون أن يعيشوا في خوف اللَّه فإن الشيطان إذا حاربهم، كثيراً ما يأتيهم بالخطية في زي متنكِّرة في زي فضيلة، حتى لا يتنبَّهوا لها. وسنضرب أمثلة لأمثال هذه الخطايا.

★★ فمثلاً تحت اسم الحكمة، كثير من الخطايا تختبئ. فقد يقع الإنسان في التَّملُّق وفي الجُبْن وفي الرياء. ويُسمِّي هذه حكمة لكي يكسب محبة الرؤساء. أو قد يقع في مجاراة الشر، والسير في التيار العام الخاطئ. ويُسمِّي هذه حكمة لكي يستطيع أن يعيش مع الناس بلا شذوذ. وأحياناً يستخدم الشخص الكذب والخديعة واللف والدوران. ويُسمِّي هذه حكمة لأنها أقصر الطُّرُق التي توصّله إلى غرضه أو تحفظه في أمان. وكأن الوصولية أيضاً حكمة!

وهنا يكون قد أخطأ في مفهوم الحكمة. لأن الشر ليس حكمة. ولأنه ليس من الحكمة أن يخسر الإنسان مصيره الأبدي من أجل أي غرض أرضي زائل. إن الحكمة التي تصبح لوناً من المكر والدَّهاء والحيلة، ليست هي حكمة روحية.

كم يحتاج أمثال هؤلاء " الحكماء " أن يتوبوا عن حكمتهم. ولكن من الصعب أن يتوبوا لأنهم لا يرون أن ما يفعلونه خطيئة. بل يقنعون أنفسهم أن تصرفاتهم تدل على ذكاء وحُسن تصرُّف! وهل من المعقول أن يتوب الإنسان عن الذكاء وحُسن التَّصرُّف؟! كلا. بل للأسف أن كثيرين يقصدون هؤلاء ليعلموهم كيفية الوصول، ويصبحون مرشدين إلى طُرق خاطئة. وقد يفتخرون بحكمتهم هذه، وكيف أنهم استطاعوا أن يستخدموا العقل للوصول إلى الغرض.

مثال ذلك التاجر الذي يفتخر بأنه استطاع أن يلعب بالسوق، ويكذب ويخدع ويكسب. وأيضاً الموظف الذي يفتخر بأنه طوى رئيسه بأسباب مُلفَّقة عرضها عليه، فإن طلت عليه

الحيلة وصدَّقه! وكذلك الذي يفتخر بأنه يستطيع أن يُمثِّل أي دور على أي أحد، ويكسب الموقف بتمثيله المُتقن! أو كالشاب الذي يفتخر بأنه يستطيع أن يُسقِط أيَّة فتاة مهما كانت مُتديِّنة، بحيله وحكمته!!

لا يمكن لأحد من هؤلاء أن يتوب، لأنه يفتخر بأخطائه، ويُغطِّيها بِاسم الحكمة والحيلة. يُذكِّرني هذا الأمر بالشياطين التي تفتخر بإسقاطها لأحد من القديسين إذا استطاعت.

★★ هناك أيضاً خطايا تختبئ تحت اسم الحرية. فالشباب الذي يحيا في حياة العبث واللهو، يُسمِّي تصرفاته بالحرية. وبعض الصُحف التي تُشهِّر بالآخرين وبسُمعتهم، تطلق على هذا الأمر حرية النشر. وجماعة الوجوديين في كل أخطائهم يتعلَّلون بِاسم الحرية والشعور بالكيان الشخصي أي الشعور بوجودهم! وتحت هذا الاسم يقترفون كل أنواع الإباحية والاعتداء على حريات الآخرين. وصدق مَن قال: " كم من جرائم اقترفت بِاسمِكِ أيتها الحرية! "، والذين يخرجون عن التقاليد المتبعة والعُرف المعروف، وينشرون بعض البِدَع التي لمَّا يألفها الناس. يُسمُّون هذا تجديداً! وإن قاومهم المتمسِّكون بالتقاليد والعُرف، يقولون: هل تحجرون على تفكيرنا؟! لا شكَّ أن لنا الحرية أن نُفكِّر كما نشاء! وأيضاً أن ننشر أفكارنا هذه وسط الآخرين.

وما أكثر التسميات التي تختبئ حولها الكثير من الأخطاء. فتحت اسم الدُعابة والمُزاح مثلاً تستتر خطايا كثيرة: يتهكَّم إنسان على آخَر ويجرح شعوره، ويتخذه مجالاً للضحك فيهزأ به الآخرون، غير مُبالٍ بوقع كل هذا عليه ... وإن لُمته، يقول: إن هذا مُجرَّد مزاح ودالة وعشم! وهكذا يُسمِّي عدم احترامه لغيره مُزاحاً ودالة! ... وتحت اسم المُزاح أيضاً قد يكذب، ويُسميه كذباً أبيض أو دُعابة؟ وكل أنواع الهزل غير اللائق يختفي تحت اسم المُزاح والدُّعابة... وتدخل كلها تحت اسم خفَّة الدَّم واللُطف وخفَّة الروح! وتسأل: أليس لهذا المُزاح حدود؟! فلا تجد جواباً.

وأيضاً قسوة الأب على أبنائه تختفي تحت اسم الحزم والتأديب. ويجد هذا الأب القاسي مفهوماً جديداً للتربية يختبئ وراءه. وقد يقتل أب ابنته الخاطئة. ولا يسمي هذا

الأمر جريمة قتل، وإنما يُسمِّيه غسلاً ومحواً للعار ودِفاعاً عن الشرف. كل ذلك لتبرير الخطأ.

وبالمثل فإن كثيراً من ألوان الغضب والنرفزة قد تختفي وراء اسم الدِّفاع عن الحق، أو الدِّفاع عن النظام، أو الدِّفاع عن الكرامة. وكذلك اضطهاد الشخص لِمَن يخالفه في الرأي أو العقيدة يُسميه الغيرة المقدسة. وما أكثر ألوان الإباحية والخطأ التي قد يُسميها البعض أنها ألوان من الفن! والتدخين الذي يضيع الصحة، ويستعبد الإرادة، وتنفق فيه الأموال، يأخذ عند المدخنين اسم المتعة وإراحة النفس لكي لا يتعبهم ضميرهم كثيراً.

★★ أمَّا أنت يا أخي القارئ، فاهرب من التسميات الخاطئة التي يحاول البعض أن يبرِّروا بها أخطاءهم أو يخفوها. ولتكن لك مبادئك الثابتة الراسخة التي لا تتزعزع بمسميات جديدة ومفاهيم غير روحية. واحتفظ بنقاوتك. ولا تسمح أن تسمي خطيئتك بِاسم آخر يريح ضميرك إراحة وقتية زائفة. بينما تشعر في أعماقك أن التسمية الجديدة هي لون من الهروب من المسؤولية. لأنك إن سميت خطيئتك بِاسم آخر، فلن تتوب. أمَّا سبيل التوبة فهو أن تكون صريحاً مع نفسك. لا تشفق عليها شفقة زائفة. واعرف أن الذين يسمون أخطاءهم بأسماء فضيلة، فإنهم قد يدافعون عن سلوكهم الخاطئ، وبالتالي يستمرون فيه. وقد يصبح عادة لهم أو طبعاً لهم أو منهجاً ثابتاً في حياتهم لا يغيرونه. ذلك لأنهم لا يسمون الخطية باسمها الحقيقي. إنما بالتسمية الجديدة التي تغطيها، لا يعترفون بالخطأ. بل قد تهتز المبادئ والقيم عندهم. ولنحترس إذن من الشيطان الذي في حيله الشريرة، يعمل على تغيير القيم من جذورها. ويدخل الناس في حرب مسميات، أو حرب مفاهيم. وكلها خدعة.

٧ نوفمبر ٢٠١٠

نظرتان إلى الأمور

ظروف الحياة كثيرة، ويتعرَّض لها الكل. ولكن انفعال البعض بها يختلف عن انفعال البعض الآخَر. البعض له نظرة بيضاء مستريحة متفائلة، والبعض الآخر له نظرة سوداء حزينة متشائمة.

فمن جهة المشاكل لا يوجد أحد لا تُصادفه مشاكل. كل إنسان لــه مشــاكله. ولكــن البعض ينظر إلى المشكلة بنظرة سوداء مُعقَّدة، كما لو كانت مشكلته بلا حل ولا مخــرج ولا منفذ. كما لو كانت ألماً دائماً وضياعاً. وأنه ليس له خلاص!!

أمَّا البعض الآخر الذي له نظرة بيضاء، فإنه يرى أن كل مشكلة لها حل. وأن الأمر ليس خطيراً وليس مُستحيلاً. وأن اللَّه لا بد أن يتدخل في المشكلة ويحلَّها. وبهذه النظــرة البيضاء، يُقابل المشكلة بأعصاب هادئة. ويرى أنها مجال لخبرة روحية سيدخل فيها. هذا من جهة خبرته الشخصية، وأيضاً من جهة خبرته مع اللَّه في حل مشاكله. وهنا نرى أن المشكلة واحدة ولكن تختلف النظرة إليها والانفعال بها، أي يختلف الــــ Response أي نوع انفعاله بها أو تجاوبه معها. فهناك أُناس يسبب لهم بعض المشاكل أمراضاً صــعبة: مثل ضغط الدم، أو السكر، أو تعب الأعصاب، أو تعب النفسية التي قد يصل الحد بها إلى انهيار عصبي، أو بسبب المشكلة يُصاب بذبحة أو سكتة قلبية .. كل هذا بحســب درجــة انفعاله السيئ بها، وبحسب مقدار ضغطها عليه، وشعوره أنه قد انتهى ولا خلاص! أمَّــا صاحب النظرة البيضاء فيمزج المشكلة بالإيمان والرجاء، وثقته بوجود اللَّه أثناء المشكلة، ويد اللَّه العاملة. فلا يأبه كثيراً بالمشكلة ولا تعصره، ولا يسمح لها أن تضغط عليه. إنــه أكبر من المشكلة. أمَّا صاحب النظرة السوداء فالمشكلة أكبر منه. ولذلك قد تقوده أحيانــاً إلى اليأس.

★★ ننتقل إلى نقطة أخرى وهى نظرة الناس إلى المادة وإلى المال وإلــى الجســد: فهناك شخص ينظر إلى المادة كأداة يخدم بها اللَّه والناس والمجتمع كله. وهناك شــخص

آخر ينظر إليها كوسيلة لخدمة شهواته. المادة هى نفس المادة. ولكن نوعية النظر إليها، تُحدِّد نوعية العلاقة بها والتصرف معها. فبالنسبة إليك هل المادة تملكك أم أنت تملكها؟ المال هو نفس المال ولكنه في يد البعض يُستخدم للخير وفي يد آخرين يقودهم إلى الضلال.

نفس الوضع بالنسبة إلى الجسد: هل تنظر إليه كأنه شر في ذاته، ومجال للعبث واللهو. أم تستخدمه في تعب الجسد لأجل إراحة الآخرين.

★★ نقطة أخرى وهى الفرق بين الشكر والتذمُّر: إنسان ينظر إلى الذي معه، فيرضى ويشكر. وآخر ينظر إلى الذي ينقصه، فيشكو ويتذمَّر. وقد يكون الاثنان في نفس الظروف ونفس الأوضاع أمَّا نوع النظرة فيتغيَّر. ولو أن المتذمِّرين نظروا إلى الذي معهم، لوجدوا أنهم في خير، وقد أعطاهم الرب الكثير. ولكنهم لا يكتفون إطلاقاً. بل باستمرار ينظرون إلى مستوى أعلى وأبعد فيشعرون بنقصهم! حقاً إنه بنوع نظرة الإنسان إلى الحياة، يسعد نفسه أو يشقيها. فليست الظروف الخارجية هى التي تتعبك، إنما يتعبك أسلوبك في التفكير ونوع نظرتك إلى الحياة.

★★ نقطة أخرى وهى النظرة إلى أعمال الآخرين: فإنسان ينظر إلى الخير الذي فيهم فيمدحهم بل ويحبهم. وشخص آخَر لا ينظر إلاَّ ما فيهم من النقائص والعيوب. وهكذا تكون له نظرة نقَّادة، لا يرى إلاَّ الشيء الأسود. فهو مُتخصِّص في رؤية العيوب. ما أسهل عليه أن يجد في أي شخص عيباً ينتقده! إن تخصُّصه هو أن ينتقد، ويُعارِض، ويتكلَّم بالسوء على كل أحد. ولا يعجبه أي تصرُّف، سواء بالنسبة إلى شخص مُعيَّن، أو إلى مجموعة مُعيَّنة من الناس.

أمَّا صاحب النظرة البيضاء، فإنه يرى في كثيرين شيئاً يُحب، وشيئاً يُمتدَح. لذلك يا أخي القارئ درِّب نفسك على هذه النظرة البيضاء. لا تُفكِّر في عيوب الناس إنما فكِّر في فضائلهم. وما فيهم من محاسن.

إن الذي لا ينظر إلا إلى العيوب، قد تجده ساخطاً على المجتمع كله. لا يعجبه شيء. قد يقف لينادي بالإصلاح. يبحث عن شيء يهاجمه. وإن لم يجد، يخترع شيئاً يهاجمه.

وبعض أصحاب هذه النظرة السوداء وعدم الثقة بالمجتمع. قد يتحوَّل بعضهم من الهجوم إلى الانعزال. فينطوون على ذواتهم إذ لا يجدون أحداً يعجبهم ولا شيئاً يرضيهم. فهم ساخطون على كل شيء وبعض هؤلاء قد يُصابوا بالكآبة Depression فباستمرار يمكنهم الحزن. وبعضهم قد يصابوا بالعصبية. فتجده غضوباً باستمرار، حاد الطبع، عالِ الصوت، دائماً يحتد وربما بلا سبب. وفي غضبه يثور، ويتكلَّم بما لا يليق. إنه لا يرى سوى سواد يثيره.

★★ حتى في العلاقة مع اللَّه: صاحب النظرة البيضاء يرى أن اللَّه مُحب ورحيم، ويعطف عليه ويحل مشاكله. أمَّا صاحب النظرة السوداء فيتصورَّ أن اللَّه لا يهتم به، وأن اللَّه قد أهمله ولا يستجيب لصلواته. بل يَصل به الأمر إنه لا يشعر فقط أن كل الناس ضده، بل إن اللَّه أيضاً ضده. وقد يصل به الأمر أنه يُجدِّف على اللَّه. والماركسيون كانوا يقولون: إن اللَّه في برج عالٍ لا ينظر إلى متاعب الناس. إن الشيطان قد يهمس في أذن الإنسان المتضايق أو صاحب النظرة السوداء، ويقول له لماذا يعاملك اللَّه هكذا؟! لماذا تثقل يده عليك؟!

إن صاحب النظرة السوداء يرى أن كل نهار بعده ليل مُظلم. أمَّا صاحب النظرة البيضاء فيرى أن كل ليل مُظلم يعقبه نهار مضيء. النظرة السوداء تتعب من كل خطأ موجود. أمَّا النظرة البيضاء فتقول: إن كل خطأ يمكن تصحيحه.

١٤ نوفمبر ٢٠١٠

مؤثِّـرات على العقل والفكـر

فكر الإنسان أمر هام في حياته. والفكر ينبع من مصـــادر، ويُصـــب فـــي أخـــرى. وحواس الإنسان هى من منابع الفكر. فالحواس توصّل للعقل أفكاراً. وما يفكر فيه العقل، يوصّل إلى القلب مشاعر وأحاسيس. وما أسهل أن مشاعر القلب تصل إلى الإرادة، ومنها إلى العمل ... إنها سلسلة متتابعة.

★★ والحواس لا تؤثر على العقل الواعي فقط، إنما على العقل الباطن أيضاً. فمـــا تراه العين وما تسمعه الأذن من مناظر وسماعات وقراءات، كثيراً ما تنطبـــع - حســـب عمقها - في العقل الباطن. وتظهر فيما بعد كأحلام أو ظنون أو أفكار أخرى. لأن الفكـــر يلد فكراً أو أفكاراً كثيرة. والعقل دائم العمل لا يتوقَّف. وحسب الغذاء الذي تُقدِّمه للعقـــل، تكون أفكارك. فقد تجلب له الحواس أفكاراً خيّرة، وقد تجلب له أفكاراً شريرة. وحســـب نوعية الوقود تكون النار. فاحرص يا أخي على حواسك، لتضمن سلامة فكرك. واســـأل نفسك أي نوع من الفكر يدور في عقلك؟ أهو فكر رديء، أم فكر خطية أم فكر تافه مـــن أمور العالم الزائلة؟

★★ كذلك القراءات تؤثر كثيراً على حياتك وشخصيتك. ويمكن أن تغرس في النفس مبادئ وقيماً، حسب نوعية القراءة. فالذي يقرأ كثيراً عن الحرية وأنواعها، غير الذي يقرأ عن الالتزام وعن الضوابط. والذي يقرأ عن الهدوء، غير الذي يقرأ عن الكفاح والجهـــاد والحماس... حقاً أن القراءة يمكنها أن تساهم في تشكيل شخصية الإنسان. كـــذلك أيضـــاً القراءة توسّع الفكر، وتُعمّق مفاهيم مُعيَّنة، وتزيد المعارف. وما أصدق الشاعر الذي قال عن القراءة في التاريخ:

ومن وعى التاريخ في صـــدره ••• أضاف أعماراً إلى عمـــره

والقراءة تستطيع أن تبعد الفكر عن التوافه. المرأة التي لا تقرأ، ربما لا تعرف سوى الحديث عن الأعمال المنزلية، وعن الملابس والحفلات، وأخبار الناس. بعكس المرأة المثقفة التي تُجيد الكلام في موضوعات لها عمق. وبالمِثل الرجل الذي لا يعرف غير المقهى والنادي ودور اللهو، تكون شخصيته سطحية، وأحاديثه بلا نفع أو قد تضُر. وعلى عكسه الرجل الذي يقرأ، ويكون كلامه ذا نفع.

وبهذا نحن نفرح بتعليم المرأة، ونحس الناس على القراءة حتى الأطفال. ونُشجِّع على تكوين المكتبات. ونطلب من الآباء والمُرشدين أن يوجِّهوا أبناءهم إلى نوعية القراءة التي تُفيدهم والتي تناسبهم. والروحيون إذا قرأوا كُتباً روحية، يرتفع مستواهم ويزداد عمقهم بما يقرأون. المُهم أن يتخيَّر الناس ما يصلح للقراءة وما ينفع.

والقراءة تمنح الفكر لوناً من النمو والنضوج. فهي تشرح للعقل موضوعات ما كان يعرفها. وتناقش معه أفكاراً ربما كان يتلقاها من قبل بالتسليم. فأصبح يدخلها في نطاق الحوار.

وما كنا نقوله منذ سنوات عن مراحل السن عند الأطفال، قد تغيَّر حالياً عن ذي قبل تغيراً كبيراً جداً، بقدر ما يُقدِّمه المجتمع للطفل والشاب من معلومات، وما يُقدِّمه أيضاً لرجل الشارع، وكذلك بازدياد المطبوعات ووسائل التكنولوچيا الحديثة، قد تغير الفكر عن ذي قبل، بحسب نوعية القراءة ونوعية الثقافة.

★★ مِمَّا يؤثِّر في الإنسان أيضاً: السماعات؛ فأنت تسمع كثيراً في الاجتماعات العامة والخاصة، وفي محيط الأقرباء والأصدقاء والمعارف. وتسمع من وسائل الإعلام كالراديو والتليفزيون والڤيديو والكاسيتات والـ CD. ولكن المُهم هو في أمريْن: أن تتخيَّر ما تسمع، وتتحكَّم فيما تسمع. إن اللَّه قد خلق لك أُذنين. ومن الناحية الرمزية لكي تسمع الرأي، وتسمع الرأي الآخر. ولا تكن خاضعاً لرأي واحد، ولا لكل ما تسمعه. إنما تحكم عقلك فيما تسمع. فتقبل ما يصلح، وترفض ما يضر. ولا تجعل عقلك خاضعاً لأذنيك أي لا تكن سماعاً. ولا تُصدِّق كل ما تسمعه. بل افحص كل شيء، وابحث عن الحقيقة. ولتكن أذنك مصغية إلى السماع المفيد، أي إلى كلمة النُّصح، وكلمة المنفعة، وكلمة التوبيخ

المُخلص، وكلمة الإرشاد من الحكماء. وعموماً إلى الكلمة التي تبني أي تبنيك روحياً وفكرياً، وتثبتك في الحياة مع الله. واحترس من كلام الملق ومن كلام الإغراء.

★★ وفي مجال السماع أيضاً، لا يمكن نسيان تأثير الموسيقى والألحان والأغاني. فإن لكل ذلك تأثيراً عميقاً في النفس. وفي مجال السماع أيضاً احترس ممَّا يسميه البعض (غسيل المخ). وذلك بوقوع العقل أحياناً تحت تأثير فكري مُعيَّن، يُضيِّع منه كل ما أخذه من قبل وكل ما اقتنع به. وذلك بأن تغرس فيه شكوك وأفكار أخرى، دون أن تكون له فرصة لمعرفة الرد على ما يسمعه، أو الاتصال بالرأي الآخر ... إلى أن يخرج من هذا الغسيل شخصاً مختلفاً تماماً عمَّا كان من قبل ... وإلى جوار الاختيار الطيب لما تسمعه، عليك أن لا تردد كل ما تسمعه وتصبه في آذان غيرك. واحترس من أسلوب الببغاوات، لئلا تنتقل شائعات أو معلومات قد تكون ضارة. وكما لا تنشر كل ما تسمعه، لا تنشر أيضاً كل ما تقرأه. ذلك لأن البعض لا يكتفون بتأثره بأفكار جديدة مُعيَّنة، بل يتحمَّسون لها بالأكثر لدرجة أنهم ينشرونها في كل المحيط الذي يعيشون فيه. كذلك لا تعجب بكل جديد ممَّا يصل إلى فكرك بل عليك أن تفحصه بكل دقة قبل أن تعتنقه.

★★ أخيراً لا تقل إني لا أتأثر بشيء، وقد تأثرت عقليات أخرى كبيرة. وإلاَّ فماذا كان مصدر البدع الجديدة التي عرفها العالم؟ إنها لم تأتِ من فراغ. إن نظرية "أينشتين" كان لها تأثيرها. والماركسية كان لها تأثيرها ... بل حتى الخرافات التي يؤمن بها بعض الناس لها تأثيرها، والشعوذة أيضاً لها تأثيرها. والمرشدون المُضلون لهم تأثيرهم. والعقل ليس معصوماً من الخطأ، وكذلك الفكر. والإنسان الحكيم يحترس جداً من كل ما يؤثِّر على عقله وفكره. ويحتفظ بثباته.

٢١ نوفمبر ٢٠١٠

ما نتعلَّمه من الأطفال

يبدو عنوان المقال غريباً، فنحن لا نتعلَّم من الأطفال وإنما نُعلِّمهم. ولكنني لا أقصد من جهة العقل. وإنما ما نتعلَّمه من الأطفال من جهة القلب، والروح الطيِّبة، والنفسية الصافية، والطباع. والمقصود بلا شكّ ما نتعلَّمه من الطفل السوي، وليس الذي وُلِدَ بميول أو طباع منحرفة، سواء من جهة الوراثة أو لأسباب أخرى ... فما هو إذن ما ينبغي أن نتعلَّمه من الأطفال؟

★★ أوّل ما نتعلَّمه منهم: البراءة والبساطة. فالطفل يُولَد بريئاً، ويعيش فترة طفولته في براءة. إنه لا يعرف شرّاً بل لا يعرف أي نوع من الشرور. لا يعرف الخُبث ولا المكر ولا الكراهية. وكل هذه من طباع الكبار التي قد يغرسونها فيه حينما يكبر، للأسف الشديد. وهو لا خبرة له أيضاً للشر. وبراءة الطفل أصبحت مثلاً عند الناس. وكما قال نزار القباني على الشخص الذي يحاول أن يتظاهر بالبراءة:

اليوم عاد كأن شيئاً لم يكن   وبراءة الأطفال في عينيه

نعم، إن الخداع ليس من طبيعة الأطفال وإنما هو من طبع بعض الكبار. ونحن حينما نتكلَّم عن براءة الأطفال حينما نقول: إن لهم الفكر البريء، والمشاعر البريئة. ولأنهم لا خبرة لهم بالشر، لذلك لا يخجلون مِمَّا يخجل منه الكبار.

ومن الصفات الجميلة عند الأطفال أنه يحب المعرفة والتعليم. وهو يسأل ويريد أن يعرف. ولا يخجل من السؤال والإقرار بعدم المعرفة. وهو يقبل التعليم، وعن طريقه ينمو في المعرفة يوماً بعد يوم.

أمَّا الكبار فقد يمنعهم عن التعلُّم: إمَّا كبرياء لا تريد أن تظهر أنها لا تعرف. أو يمنعهم الخجل من السؤال، أو يمنعهم الاكتفاء بما هم فيه من معرفة. وكُلَّما كبر الإنسان في سنه أو في مركزه، فقد يخجل أيضاً من التعلُّم. وهو لا يتدرَّب على المعرفة

بألاّ يُخطئ أثناء تدربه. أمّا الطفل فإنه أقدر على تعلُّم كل شيء. فهو مثلاً أقدر على تعلُّم اللغة من كبار السن. لأنه لا يخجل من أن ينطق ولو نُطقاً خاطئاً يُصحّحه له مُعلِّمه. بينما الكبير لا يفعل ذلك.

وأنت يا أخي القارئ حاول أن تتشبَّه بنمو الأطفال في المعرفــة. واقصــد المعرفــة النافعة لك. ومادمت قد كبرت في السن، أمامك ألوان أساسية في المعرفة غير ما يســعى إليه الطفل. عليك مثلاً أن تعرف نفسك، وأن تعرف اللّه، وتعرف الحق، وتعرف الطريق السليم الذي يوصلِّك. وليكن لك التواضع الذي به تسأل وتطلب المعرفة، دون أن تخجــل. ولا تتظاهر في كل شيء بأنك تعرف، ودون أن تكون حكيماً فــي عينــي نفســك ... إن الطفل يرتفع عن هذا المستوى. ويسأل باستمرار. ولا يشعر أن السؤال يخدش كرامتــه. فالطفل مرتفع عن مستوى هذا الاهتمام الضخم للكرامة.

★★ من صفات الطفل أنه دائم النمو. فهو ينمو دائماً في القامة، كمــا ينمــو فــي المعرفة، وهو ينمو في أشياء كثيرة. فمن جهة القامة يصل الكبار إلى حد مُعيَّن لا تنمــو فيه قامتهم. ولكنهم من جهة النمو عليهم أن ينمو في مجالات أخرى ينبغي أن يمارسوها. ومنها النمو في الروح والعقل، وفي المعرفة وفي الحكمة، وفي كل فضيلة وعمل صالح. إذن حاولوا أن تتعلَّموا من الأطفال فضيلة النمو، في المجالات المتاحة لكم.

★★ من صفات الطفل أيضاً الصدق، وعدم الشكّ. فهو يقول الصــدق باســتمرار، إلاَّ إذا خاف من عقوبة الكبار. لذلك على الكبار أن يطمئنــوه باســتمرار، ولا يصــحّ أن يلجأوا إلى العقوبة في كل شيء إنما بالإرشاد بدلاً من العقوبة. وهكذا ينزعون منه عامل الخوف الذي يكون جديداً عليه، وبالتالي يثبتونه في الصدق الذي هو طبيعته.

من طبيعة الطفل أيضاً أنه يثق ولا يشكّ. إلاَّ إذا خدعه الكبار، فيبدأ أن يشــكَّ. أمّــا الشكّ فهو إذن دخيل على طبيعته النَّقيَّة. هل يستطيع الكبار أن تتنقّى طبيعتهم من الشــكّ؟ أم أن فلاسفتهم يقولون إنَّ الشكَّ هو الطريق إلى المعرفة! وبهذا يُعلِّمون الأطفــال الشــكّ أيضاً.

★★ يعجبني في الطفل أيضاً صفة البشاشة. فهو باستمرار بشوش ويحب البشاشة. يحب المرح، ويحب أن يضحك، ويحب مَن يضحكه. إنه لا يحمل أمور الدنيا فوق كتفيه كما يفعل الكبار. ولا يُفكِّر في مشاكل اليوم ولا مشاكل الغد ولا هموم المستقبل. بل يعيش باستمرار في سلام قلبي لا يعرفه الكبار. بل هو لا يعرف كلمة " مشكلة " إنها لم تدخل في مفردات قاموسه اللغوي بعد. وإن حدث وصادفه شيء من الضيق، يلقي كل ذلك على أبيه وأمه، ويستمر في نقاوة قلبه من الضيق. وحتى في أشد الأوقات خطورة، تجد البيت كله منزعجاً ومتوتِّراً ومتوقِّعاً شرّاً، ما عدا الطفل. فليتك يا أخي القارئ تتشبَّه بما يحمله الأطفال من هدوء ومن سلام قلبي ومن فرح. وإن صادفتك مشكلة، حاول أن تحتفظ بهدوئك، واشعر بأن لها حلولاً. إن لم تقدر عليها، فإن اللّه - تبارك اسمه - هو حلاَّل المشاكل.

من صفات الطفل الجميلة أيضاً أنه لا يحمل حقداً. قد يوجد ما يُغضبه أو يُضايقه أو يُحزنه. ولكن هذا كله يأخذ وقته وينتهي، دون أن يخزنه في قلبه أو في مشاعره كما يفعل الكبار وما أسرع أن يتصافى ويلعب مع طفل آخر كان يتعارك معه منذ لحظات. فالطفل سريع التصالح. وقد يضربه أبوه أو أمه. وبسرعة يأتي فيرتمي في حضنهما. وفي عطفهما ينسى كل ما حدث.

والطفل يتميَّز بعُمق الإيمان ويقبل كل حقائق الإيمان. دون أدنى شك. إنه يولد مؤمناً. نقول له نُصلِّي، فيُصلِّي. قل يارب، فيقول، دون أن يسأل مَن هو اللّه؟ وما هى السماء؟

★★ وقع كل ذلك أسمع من بعض الأمهات الشكوى من " شقاوة " الأطفال، إن ما يُسمَّى بكلمة شقاوة هو نوع من نشاط للطفل الذي يريد أن يتحرَّك ويجري ويتكلَّم. وعلى الرغم من كل ما قلناه قد يوجد للطفل بعض الأخطاء ممَّا يترسَّب فيه من البيئة ومن تربية خاطئة. أمَّا طبيعة الطفل الفاضلة فهى أمثولة طيبة وقدوة صالحة للكبار.

٢٨ نوفمبر ٢٠١٠

آذان ولكنها لا تسمع

كل إنسان لا بد أن تصل إلى فكرهِ أو إلى قلبهِ - في وقتٍ ما - رسالة مناسبة ونافعة له أو لغيره: عن طريق إرشاد أو عظة أو في كتاب يقرأه، أو تصله نصيحة أو حتى توبيخ أو إنذار... فإن كان حكيماً يستوعب الرسالة، ويُطيع ويُنفِّذ. مثل هذا يُقال عنه بالعامية إنه (إنسان يسمع الكلام). أي يُطيعه. له أُذُن من النوع الذي يسمع. وهنا لا نقصد الأُذُن الخارجية الجسدية، بل الأُذُن الداخلية أي الإرادة.

★★ في مقدمة أصحاب الآذان التي تسمع: الملائكة القديسون الذين ما أن يسمعوا كلمة من اللَّه، حتى يُبادرون بتنفيذها على الفور. ومثلهم أيضاً الأنبياء الذين يتلقُّون الرسالة عن طريق الوحي. أو بعض الأبرار الذين قد تصلهم رسالة عن طريق رؤى أو أحلام من عند اللَّه. ومن أمثلة مَن لهم آذان للسمع، الأبناء البرَّرة، أو التلاميذ المُطيعين جداً لمرشديهم ومُعلِّميهم، أو كل مَن هو مطيع بدقة لرؤسائه.

على أن هناك آخرين لهم آذان لا تسمع. وما أكثر الأمثلة لهذا النوع وما أكثر أسبابها.

★★ هناك آذان لا تسمع بسبب وجود شهوة في القلب تمنع وصول الكلمة إليه. كالشهوة المُسيطرة والانفعالات الداخلية، تحجب كل وصية وكل كلمة نافعة حتى لا تصل إلى الإرادة.

هناك نوع مُستعد أن يسمع للنصيحة في كل شيء، ما عدا شيئاً واحداً لا تقبله أُذناه. هنا عدم السمع ليس مطلقاً، ولكنه مُركّز في شيء واحد. في نقطة الضعف، كالرغبة الداخلية المُسيطرة. كشخص يُمكن أن يستمع إلى النصح في أمور عديدة، ما عدا في شهوة المال أو شهوة النساء.

★★ وهناك نوع آخر تملكه مشاعر الحقد والغضب على شخص ما أو مجموعة مُعيَّنة. هذا الحقد يكون في قلبه كأنه حاجز قوي، يمنع كلمة النُصح من أن تدخل إلى أُذنيه. فإن سمعها يكون كأنه لم يسمع. فيمضي ويُنفِّذ ما يريد، لأنه مشغول جداً لسماع صوت الحقد أكثر من سماع نصيحة.

★★ أحياناً يكون عدم قدرة الأُذُن على السماع يرجع إلى قساوة في القلب. هذا النوع القاسي لا تستطيع أُذنه أن تسمع إنذارات اللَّه، كما حدث لفرعون الذي كانت له أُذُن لا تستطيع إطلاقاً أن تسمع لصوت موسى النبي.

وقساوة القلب تلد العناد. والعناد أيضاً يمنع من سماع الكلمة. ذلك العناد الذي يغلق القلب، ويغلق الفكر. ومهما قيل له من كلام نافع ومُقنع، فإنه لا يسمع. له أُذُنان ولكنهما لا يسمعان. إنه مُتشبِّث بفكرهِ. مهما كلمته، فكأنك لم تتكلَّم. والتَّشبُّث بالفكر هو نوع من الكبرياء يغلق الأُذُن عن السماع. بعكس الإنسان الوديع المتواضع يمكنه أن يسمع الكلمة ويقبلها. حتى إن كانت له أخطاء، فهو مُستعد أن يستمع كلمة التأنيب والتوبيخ والنصيحة، ويصلح طريقه دون تذمُّر.

المبتدعون أيضاً في العقيدة أو في طرق أخرى هم أيضاً يتصفون بالعناد والكبرياء. وآذانهم لا تسمع النصيحة ولا الإقناع من الجانب الآخر. وقد يموت كل منهم وهو مُتمسِّك ببدعته وبفكره.

وقد تحاور إنساناً من هذا النوع، فتجده متحفِّزاً للرد عليك قبل أن تكمل كلامك. لسانه أسرع من أُذنيه. فأُذنه لا رغبة لديها في السماع، ولا في قبول الإقناع. يمنعها التشبُّث والعناد. وبالمثل كل إنسان يتمسك بفكره الخاص، مُصرّ على فكرِه. تُكلِّمه وكأنك تُكلِّم صخراً صلباً لا توجد فيه منافذ تدخل منها الكلمة.

ونفس الوضع مع كل إنسان مُعتزّ بكرامته. فأُذناه ترفضان السماع لأيَّة نصيحة. إنه يشعر أن النصيحة كأنها إهانة، تهز كرامته، وتشعره بالخطأ، وتتعب نفسيته. فلا يكون مستعداً إطلاقاً لأن يسمع. ولهذا فإن العتاب مع هذا النوع لا يأتي بنتيجة إطلاقاً. فالمُتكبِّر المُعتز بكرامته، إن عاتبته يزداد الأمر سوءً.

★★ هناك عقبة أخرى تمنع تأثير حتى كلمة الرب نفسه من الوصول إلى الأُذنين. وذلك إن كانت هناك محبة أخرى تطغي على محبة اللَّه في القلب. فكم من وصايا اللَّه وكلماته يسمعها الشخص. وطبعه هو نفس الطبع لا يتغيَّر، مهما سمع. كذلك أيضاً الذين تملك عليهم الحرفية في سماع وصايا اللَّه وليس روحانية الوصية. وتمنعه عن سماع التفسير السليم. وترفض آذانهم أن تسمع ذلك التفسير.

★★ هناك نوع آخر يمنع الأُذُن من السماع وهو الخوف: الخوف من التهديد، والخوف من الضياع. وقول البعض لمثل هذا الشخص: إن فتحت فمك لتتكلَّم سيحدث لك كذا وكذا. وكذلك إن حاولت أن تهرب مِنَّا، أو أن تكشف المؤامرة أو إن لم تخضع سيدركك تنفيذ التهديد الواقع عليك. مثل هذا الإنسان لا تدخل إلى أُذنه كل نصيحة لإنقاذه. تُكلِّمه كأنه لا يسمع. الخوف يسد أُذنيه.

★★ هناك سبب آخر يمنع الأُذُن من السماع، وهو الاستهتار واللامبالاة. ويشمل ذلك الغارقين في الخطية أو في الضلال. فلا يقبلون كلمة النصيحة بجدية، بل رُبَّما يقابلونها بالتَّهكُّم والازدراء، أو بتحويل الجو إلى عبث. هؤلاء أيضاً لهم آذان ولكنها لا تسمع. ويشبه هؤلاء النوع المتردد الذي يسمع كلمة نافعة من مرشده فيمنعها عن أذنيه تأثير أصدقاء السوء.

★★ وأنت يا أخي القارئ إن وجدت أن أُذنك لا تسمع، فابحث عن السبب في ذلك. لا تذهب إلى طبيب آذان يُعالجك. بل اذهب بالأكثر إلى طبيب قلب يكشف ما في قلبك من موانع تمنع الكلمة من الوصول إلى أذنيك. ابحث هل هناك شهوة في قلبك تريد أن تحقِّقها. والشهوة من طبيعتها أن تصُم الأذنين عن السماع. واعرف أنه لكي تكون لك القدرة على السماع، ينبغي أن تكون لك الرغبة في أن تسمع، وأن تكون لك الجدية في التنفيذ. بل أن تكون بالأكثر مشتاقاً في سماع كلمة من أجل منفعتك ... ولهذا كله علينا أن نُحاسب أنفسنا كم مرة سمعنا ولم نعمل، وكأننا لم نسمع!!

٥ ديسمبر ٢٠١٠

أمام اللَّه

أنت يا أخي أمام اللَّه باستمرار، ليس فقط في وقت الصلاة أو في دور العبادة، بل أنت أمامه في كل مكان وفي كل حين، في مكتبك ووقت العمل، وفي الشارع، وفي البيت، وحتى في حجرتك المغلقة. نعم أنت أمام اللَّه الذي يَرى ويَسمع ويلاحظ.

★★ من المُلاحظ عملياً في أخطاء الناس، أن أي شخص يخطئ قد يستحي أن يخطئ أمام الناس، أو أمام أحد من محبيه لئلا تتغير ثقته عنه، أو حتى أمام أعدائه حتى لا يعيروه بذلك الخطأ. ولذلك يفضل الخطاة أن يرتكبوا أخطاءهم في الخفاء، أو في الظُلمة حتى لا يراهم أحد. ولذلك قيل عنهم إنهم: " أحبوا الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم شريرة ". فإن كان الخطاة يخجلون أن يخطئوا أمام البشر أمثالهم، أفلا يخجلون من ارتكاب الخطية أمام اللَّه الذي يراهم؟! يقيناً إنهم لو شعروا - أثناء خطيئتهم - أنهم يفعلون ذلك أمام اللَّه، لخجلوا وخافوا، إلاَّ لو كانت درجة محبتهم للخطية، أو درجة استهتارهم، أقوى بكثير من الشعور بالوجود أمام اللَّه. أو أن الخطاة ينسون أنهم أمام اللَّه، أو يحاولون أن ينسوا ذلك، أو أنهم يبعدون عن ذهنهم أثناء الخطية كل فكر يختص باللَّه وبوصاياه. لذلك فإن الشيطان وهو يقود إنساناً إلى الخطية، يُنسيه اسم اللَّه بالكلية، ويُنسيه وصاياه. وكما قال أحد الأدباء: إن الخطية تسبقها الشهوة أو الغفلة أو النسيان.

★★ لذلك نقول للخاطئ: إن كانت خطيتك بالعمل، اخجل من اللَّه الذي يراك. وإن كانت خطية لسان فاخجل من اللَّه الذي يسمعك. وإن كانت الخطية بالفكر أو بمشاعر القلب، اخجل من اللَّه فاحص القلوب وقارئ الأفكار. نعم اخجل من اللَّه الذي يقول لك في أعماقك: " أنا عارف أعمالك ".

عليك أن تخجل أيضاً من الملائكة التي تراك وتسمعك والتي تحيط بنا باستمرار. وفي كثير من الخطايا البشعة التي لا يحتمل الملائكة رؤيتها أو سماعها، وقد يحدث أنهم يتركونك، فتلتف حولك الشياطين وتتعبك.

عليك أن تخجل أيضاً من أرواح القديسين وهم يرونك. اخجل من أرواح أقربائك وأصحابك وزملائك الذين انتقلوا من عالمنا، وهم يرون ما تفعله وما تقوله. وبعضهم كان يثق بك جداً، وما كان يتصوَّر أنك تُخطئ هكذا! وكل أولئك مندهشون جداً مما يحدث منك!

★★ وإلى جوار عنصر الخجل يوجد عنصر النسيان: ففي وقت ارتكاب الخطية تنسى أنك أمام اللَّه، وتنسى أنك بالخطية تكون في حالة انفصال عن اللّه بالفكر والقلب، وأنك في حالة عدم شعور بوجود اللَّه، وعدم شعور بقدسيته، وبنسيان كامل وصاياه. وتكون أيضاً في حالة نسيان للأبدية ولدينونة اللّه العادلة. وفي الواقع أنت أمام اللّه الديان العادل، ليس في السماء فقط، وإنما أيضاً هنا على الأرض.

★★ وفي غير موضوع الخطية، فإن الذي يدرك أنه أمام اللّه، لا شكَّ أنه يشعر بخشوع أمامه. فنخشع أمام قوة اللَّه، وأمام لاهوته، وأمام قدسيته. ومن هنا يكون الشخص في حالة تواضع. فإن الذي يحيط نفسه بالعظمة، ويمشي في الأرض مرحاً، ويتكبَّر في علاقته مع الآخرين ... لا شك أنه لا يشعر أبداً أنه أمام اللَّه الذي يرفض هذا التعاظم وهذه الكبرياء. وذلك مهما حصل الإنسان على مناصب أو درجات. وأذكر أنني قلت مرة في بعض أبيات الشِّعر:

قُل لمِنَ يعتز بالألقاب إن ••• صاح في فخره مَن أعظم مني

أنت في الأصل تراب تافه ••• هل سينسى أصله مَن قال إني ..؟!

ولذلك يا أخي لا تجلس بكبرياء ولا تمشي بكبرياء، ولا تُكلِّم أحداً بكبرياء. لأنك في كل ذلك أمام اللَّه الذي لا يُسر بتعظمك. بل عليك أن تقول في صلاتك: أنا أخجل أمامك يارب من أن أُعامل الناس بكبرياء أو بعظمة أو بسُلطان، ناسياً إنني تراب ورماد، وأنهم خليقتك ورعيتك.

وبنفس الوضع يكون الإنسان الحكيم متواضعاً أمام اللَّه في صلاته. فيقول له: مَن أنا يارب حتى أقف أمامك، أو أتحدث إليك؟! أنت الذي تقف أمامك الملائكة ورؤساء الملائكة

وكل الأجناد السمائية ... هذا بعكس الذين في صلواتهم قد يشعرون بالبِرّ لأنهم أتقياء ويصلون! بل إن الذي يشعر في الصلاة أنه أمام اللّه القدوس البار، الذي لا حدود لقدسيته ولبِرّه، إنما يشعر بهذا المُصلّي بخجل شديد في أنه يقف أمام اللّه ناسياً خطاياه الكثيرة التي نجّس القلب بها. لذلك فإنه يعترف بأنه أخطأ أمام اللّه ولم يخجل! وأنه أخطأ كثيراً ثم تجرّأ أن يقف أمام اللّه ويُكلّمه ناسياً ما فعله من أخطاء!

★★ إن الذي يشعر أنه أمام اللّه، لا بد أن يكون حريصاً جداً في معاملاته مع الناس. وهو يشعر أنه أمام اللّه الذي ستر عليه ولم يكشفه في كل ما ارتكب من خطايا. لذلك يحرص أنه يستر على باقي الناس، ولا يُشهّر بنقائصهم أو بخطاياهم. لأنه بإدراكه أنه أمام اللّه، يقول له: كما سترت عليَّ يارب ينبغي أن أستر على غيري. وكما غفرت لي، ينبغي أن أغفر لغيري إساءتهم. ولا أحكم على أفعال الناس، لأنني إنسان محكوم عليَّ منك، الذي يعرف كل أعمالي في العلن وفي الخفاء.

★★ وفي الضيقة أيضاً ينبغي أن ندرك كل متضايق إنه أمام اللّه الذي يهتم به، والذي هو قادر على أن يُنقذه ويُنجّيه. إن مشكلتنا في الضيقات أننا لا نرى إلاَّ الضيقة، ولا نرى اللّه الذي يحمينا منها! والواقع أن اللّه كما يرى خطايانا، يرى أيضاً متاعبنا. ولذلك في الضيقة ينبغي أن تدرك أنك أمام اللّه الحافظ والراعي والمُعين والمُنقذ. وبهذا تطمئن ويملك السلام على قلبك مهما حدث.

★★ إن شعورنا أننا باستمرار أمام اللّه الذي يضبط حياتنا كضابط للكل، ويراقبها، هذا يجعلنا أكثر احتراصاً في حياتنا، لا نتسيب في شيء ولا نخطئ. مؤمنين أن اللّه يرى كل ما نفعل، ويسمع كل ما نقول، ويطّلع على أفكارنا ومشاعرنا، وكل تفاصيل حياتنا مكشوفة أمامه ... وفي نفس الوقت هو ليس فقط يراقبنا، وإنما أيضاً يُعيننا.

بهذا الإيمان نحيا، واضعين أمامنا في كل حين وفي كل مكان أننا أمام اللّه.

١٢ ديسمبر ٢٠١٠

اللَّه القوي
القادر على كل شيء

من صفات اللَّه - جل جلاله - أنه قوي (قدير). وقوة اللَّه قوة عجيبة غير محدودة، وتشمل كل شيء. وهى أولاً قوة ذاتية أي أنها صادرة من ذاته الإلهية. وليست مثل قوة الملائكة، أو قوة بعض البشر. فكل هؤلاء مصدر قوتهم من اللَّه خالقهم.

إن قلنا إن العقل البشري له قوة هائلة استطاعت أن تصل إلى الفضاء، وأن تقوم باختراعات مذهلة قد تفوق الخيال مثل: الطائرات، ومركبات الفضاء التي تصل إلى القمر، والطائرات التي بدون قائد، واستخدام الفاكس والكمبيوتر والـ mobile phone، وما يُستخدم في مجال الطب والصناعة وعلوم الفضاء والبحار، واستخدام الذرَّة والليزر، وما إلى ذلك ... فإن العقل البشري هو أيضاً من صُنع اللَّه، ومواهبه منحة من اللَّه أيضاً. وحتى إن أُتيح لبعض البشر من الأنبياء والرسل والأبرار أن يصنعوا بعض المعجزات، فذلك أيضاً ليس بقوتهم الشخصية وإنما بموهبة ممنوحة لهم من اللَّه.

ونفس الوضع نقوله عن قوة الملائكة، الذين يمكنهم أن ينتقلوا من السماء إلى الأرض في لمح البصر، وأن يقوموا أحياناً بأعمال معجزية يُكلِّفهم اللَّه بها ... وكل ذلك ليس بقوة ذاتية منهم، إنما بطبيعة وموهبة منحها اللَّه ... أمَّا اللَّه فقدرته ذاتية. بعكس الملائكة والبشر الذين بدونه لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً.

★★ أيضاً من صفات قوة اللَّه التي ينفرد بها، أنه قادر على كل شيء. وهذه صفة خاصة باللَّه وحده. ومن تواضع اللَّه في قوته أنه منح بعض الملائكة والبشر قدرات مُعيَّنة، ولكنها ليست قدرات على كل شيء. وحتى الطبيعة أيضاً، قد يستطيع زلزال أن يهدم منطقة بأثرها ولكنه لا يقدر على كل شيء. وحتى الشياطين: قدرتهم أيضاً محدودة. ويستطيع اللَّه في أي وقت أن يوقف عملهم. ولا ننسى أن هذه الأرواح الشريرة هى من خلق اللَّه، وإن كان لم يخلقها شريرة في البدء، إنما بحرية إرادتهم انحرفوا وتحوَّلوا إلى

شياطين. وهم أيضاً تحت عقوبة اللّه، وسوف يلقيهم في النار المؤبـدة المعـدَّة لإبلـيس وأعوانه.

★★ ومن أعظم الدلائل على قوة اللّه التي لا تُحد: قدرته على الخلـق. والمقصـود بالخلق أنه يوجد كائنات من العدم. وهذا أمر لا يستطيعه أحد علـى الإطـلاق. فأقصـى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان، أن يكون صانعاً أو مكتشـفاً، يكتشـف طبيعـة الأشـياء وخواصها، ويصنع منها ما يستطيعه عقله. أمَّا الخلق أي الإيجاد من العدم فهى قدرة اللّه وحده. وبخاصة قدرته العجيبة على خلق أنواع عجيبة من الكائنات، سواء من الجمـادات أو الأحياء، ما يُرى ولا يُرى، ممَّا لا يستطيع إحصاءه أي عقل بشري.

★★ ومعجزة أخرى مذهلة هى إقامة الموتى. وتصل هذه المعجزة إلى وضع فـوق عقولنا جميعاً. وأعني إقامة الأموات كلهم في اليوم الأخير. ملايين الملايين في كل بقـاع الأرض، ممَّن قد تحلَّلت أجسامهم وعظامهم وتحولت إلى تراب!! وتقوم كلها فـي وقـت واحد وتدخل فيها أرواحها. وتقف أمام اللّه في يوم الدينونة الرهيب، ليُجازي كـل منهـا حسب أعمالهم. ومعروف أن هاتين المعجزتين، أعني الخلق وإقامة الأموات، هما فـوق العقل البشري، وفوق كل علومه.

★★ أضيف إلى ذلك باقي المعجزات والأعاجيب التي قام بها اللّه. نذكر مـن بـين ذلك منح البصر للعُميان، وشفاء الأمراض المُستعصية، وشق البحر الأحمر، وغير ذلـك من الأعاجيب، التي سمح أن تحدث على أيدي بعض البشر أو الملائكة، بقوته الممنوحـة لهم.

★★ تظهر قوة اللّه العجيبة أيضاً فـي معرفتـه. فهـو يعـرف جميـع الخفيـات والظاهرات. ويعرف كل ما في السماء وما على الأرض وما تحت الأرض أيضاً، وما في شقوق الجبال. ويعرف ما يدور في عقول البشر، كل البشر، من أفكار، وما في قلوبهم من مشاعر، وما في إرادتهم من نيَّات ... إنها معرفة عجيبة، خاصة باللّه وحده، تدل علـى قدرته على كل شيء.

★★ وقوة اللَّه العجيبة تظهر أيضاً في محبته وعطائه. فهو يعطي كل شيء. ويعطي الجميع بسخاء. ويعطي قبل أن نطلب، ودون أن نطلب، وفوق ما نطلب. يفتح كوى السماء ويفيض على الناس من إحساناته. يعطي البشر، ويعطي أيضاً جميع الكائنات الحية التي تسكن الأرض أو البحار أو الهواء. وحتى الدودة التي تدب تحت حجر يعطيها أيضاً طعامها. ما أعجب قدرة اللَّه وما أعجب قوته في حنوه وعطفه على الكل.

★★ ما أعجب قدرة اللَّه أيضاً في احتماله: هذا الذي يحتمل كل أخطاء البشر وشرهم وفجورهم، وكسرهم لوصاياه، ويحتمل إلحاد البعض منهم. ونحن الذين لا نستطيع أن نحتمل بعض إساءات إخوتنا لنا. بل بتأثر وحساسية شديدة نغضب ونثور. بينما اللَّه يحتمل كل هؤلاء في صبر. بل أكثر من ذلك احتمل كثيرين من الذين تعمَّقوا في الخطية. وصبر عليهم بشكل عجيب حتى تابوا وصاروا أبراراً.

★★ بل قوة اللَّه أيضاً تظهر في مغفرته. إنه صعب على البشر أن يغفروا للمسيئين إليهم. وإن غفروا ربما لا يستطيعون أن ينسوا. وإن خيّل أنهم قد نسوا، يعودون فيتذكرون كل الإساءات القديمة إن تعرَّضوا لإساءة جديدة! أمَّا اللَّه فهو في قوة مغفرته، يغفر القديم والجديد، لمجرَّد توبة الإنسان.

★★ إنني لا أستطيع أن أحصي كل عناصر قوة اللَّه وقدرته الفائقة، وقوته أيضاً في تدبيره وفي حكمته، وفي أمور أخرى لا يتسع لها المجال ... ولكننا في كل ذلك نفرح أننا في حماية إله قوي تشمل قدرته كل شيء ... في حماية إله يقدر أن يحفظ، وأن ينقذ، وأن يحمي خليقته من كل شر ومن كل ضرر ... وفي قدرته أيضاً أن يضع حداً لكل أعمال الشيطان وكل أعوانه من الناس الأشرار. فهو إله لا يعسر عليه شيء. وكل ما هو غير مستطاع عند الناس، هو مستطاع عند اللَّه القادر على كل شيء. لذلك يمكن أن يحيا الناس في رجاء واطمئنان وسلام قلبي، واثقين بقدرة اللَّه وتدخله.

١٩ ديسمبر ٢٠١٠

إن اللَّه هو إلـه الكل

هو إله الكل، خالق الكل، والمُعتني بالكل، ورازق الكل. وكل أحد له نصـيب فيـه. وهو ضابط الكل ومُدبِّرهم.

هو إله جميع الكائنات: إله الملائكة والبشر، والحيوان والطير، والطبيعة الجامدة.

ما دام اللَّه قد خلق السمَوات والأرض، فهو إذن إله السماء وكـل مـا فيهـا، وإلـه الأرض وكل ما فيها، وكل ما تحت الأرض، وما بين السماء والأرض.

هو إله الحقول التي يرويها الماء فتحيا وتنمو. وهو إله الزهور الموجودة في الحقول. وإله النحل الذي يمتص رحيقاً من الزهور ويحوله شهداً. وإله الإنسان الذي يأكـل هـذا الشهد المصنوع من هذا الرحيق.

إنه إله الطيور التي لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وهو الذي يقوتهـا. وهو إلَه زنابق الحقل التي لا تتعب ولا تغزل، ومع ذلك ولا سليمان في كل مجـده كـان يلبس كواحدة منها. هو أيضاً إلَه العصفور يُنجيه من فخ الصـيادين. وهـو أيضـاً إلَـه الصيادين الذين نصبوا الفخ للعصفور.

هو إلَه الأرواح، وإلَه الأجساد. إلَه الأحياء الذين على الأرض، وإلَه الذين أدركـتهم الوفاة وتركوا العالم الحاضر.

إنه إلَه الأقوياء وإلَه الضعفاء. إلَه هابيل الذي قتله أخوه، وأيضاً إلَه ذلك الأخ القاتل.

★★ إنه إلَه الحُكماء، وإلَه البُسطاء. هو إلَه سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهو إلَه أي إنسان أُمي لا يعرف القراءة والكتابة. وهو يفيض بنعمته على هؤلاء وأولئك.

★★ إنه إلَه الملائكة الذين يُسبِّحونه في السماء قائلين: قدوس قدوس قدوس ... وإلَه الملائكة الذين يرسلهم إلى الأرض لعمل إنقاذ أو لتبليغ رسالة. أولئك الذين يطيعون أمره

للفور وينفِّذون مشيئته بدون إبطاء ... وهو في نفس الوقت إلَه البشر الذين يكسرون وصاياه أحياناً أو يترددون في تنفيذ إحدى الوصايا.

★★ إن اللَّه هو إلَه الأبرار الذين يعيشون في حياة الفضيلة والقداسة. وفي نفس الوقت هو إلَه الخطاة الذين يقودهم إلى التوبة. إنه إلَه أولئك الشيوعيين المُلحدين، الذين على الرغم من إلحادهم أعطاهم القوة والمعرفة لكي يصعدوا في سفينة الفضاء إلى القمر. وأطال أناته عليهم سبعين سنة حتى رجعوا إلى الإيمان ... هو إلَه أُغسطينوس الذي عاش بعيداً عن الإيمان وعن الحياة الطاهرة زمناً طويلاً. إلى أن أرجعه لحياة التوبة وقاده في حياة البِرّ حتى كتب كتاب اعترافاته وقال فيها: " كنت يارب معي، ولكنني لفرط شقاوتي لم أكن معك. لقد تأخرت كثيراً في حبك أيها الحب الذي لا حدود له ".

★★ إن اللَّه الذي خلق الكُل، وبنفسيات متنوّعة، لم يطلب من الجميع أن يكونوا في نسق واحد من الحياة. لذلك فهو إلَه البتوليين وإلَه المتزوجين. إلَه النُسَّاك الذين يعيشون في البراري وشقوق الجبال، وأيضاً إلَه الذين يُجاهدون في خدمة المجتمع وفي العمل وسط الناس. إنه إلَه الذين يعيشون في حياة التأمل والصلاة، وإلَه الذين يعيشون في حياة الخدمة. إنه إلَه القديس أنطونيوس المتوحد في جبل، وإلَه يوسف الصديق الذي كان يعمل كوزير تموين في مصر، يُخزن القمح ويبيعه بحكمة لكي ينقذ الناس من المجاعة. وهو أيضاً إلَه الرعاة الذين يبذلون كل جهدهم في افتقاد الرعية والاهتمام بها ... إنه إلَه الذين يعملون في مجال التعليم، وفي نفس الوقت هو إلَه الذين يتتلمذون على أيديهم. مُبارَك هو الرب الذي يُشعر كل إنسان أيّاً كان عمله، وأيّاً كان وضعه في المجتمع، إنه تحت رعاية اللَّه وتحت حفظه وتحت اهتمامه.

إن اللَّه هو إلَه المرضى الذين يطلبون منه الشفاء، وإلَه الأطباء الذين يُعالجونه. الكل يتطلَّعون إليه، ويضعون حياتهم بين يديه. فهو يُعطي الطبيب الحكمة في معرفة المرض وفي طريقة التعامل معه وعلاجه. وهو يُعطي المريض الصبر واحتمال المرض والثقة في اللَّه الشافي.

★★ إن اللَّه يهتم بالكل، ويبقى أن الكل يهتمون بأنفسهم. هو يعمل بنعمته في الجميع، ولكن المُهم أن يستجيب الجميع لعمل نعمته. والبشر في ذلك ليسوا في اتجاه واحد. منهم مَن يناديه اللَّه فيسمع ويسعى وراءه. ومَن يرفض النداء ويرفض السير في طريق اللَّه. وهنا نتذكَّر أيضاً عبارة القديس أُغسطينوس حينما قال للَّـه: " كنت معي ولكنني لم أكن معك ".

★★ وهنا نسأل عن الرافضين للَّه: هل اللَّه أيضاً يرفضهم؟ هو إلَه لهم، ولكنهم لا يريدون أن يكونوا له! ومع ذلك فإن اللَّه الطيِّب والطويل الروح، الذي لا يشاء موت الخاطئ مثلما أن يرجع ويحيا ... هو يطيل أناته على أولئك الرافضين. رُبَّما الذي لا يأتي اليوم، سوف يأتي غداً. والذي لا يريد أن يتوب، يُقدِّم اللَّـه لـه أسباباً كثيرة للتوبة، ومؤثرات تعمل فيه. لأن اللَّه ليس هو إلَه للطائعين فقط، وإنما للعُصاة أيضاً، حتى يُخلِّصهم من عصيانهم بسعة صدره. وإن كان إنسان أضعف من أن يحيا في حياة الفضيلة، فهذا إن تخلَّى عنه الكل، لا يتخلَّى عنه اللَّه. لأن اللَّه هو إلَه الضعفاء أيضاً، يسندهم حتى يقيمهم. إنه مُعين مَن ليس له مُعين، ورجاء مَن ليس له رجاء. وهو يُشجِّع صغيري النفوس، وينتشل الواقعين في اليأس، فيغرس فيهم القوة والرجاء والأمل. إنه يشفق على المساكين، ويعصب مُنكسري القلوب. ويُنادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق.

لذلك يا أخي القارئ: لا تُفكِّر أبداً في وقت سقوطك أن اللَّه قد تخلَّى عنك. كلا بل هو يهتم بك بالأكثر، لأنك مُحتاج إليه بالأكثر. حتى إن قَوِيَت عليك الحروب الروحية أو الحروب التي من سائر البشر، فثق تماماً أن اللَّه سوف يتدخل برحمته لكي يعينك وينقذك من تعبك. وإن تعرَّضت إلى خطية متعبة. فقل في ثقة كاملة: اعطني يارب قوة لأصمد وأنتصر. موقناً أن اللَّه ليس فقط إلَه القديسين، إنما هو أيضاً هو إلَـه المُحارَبين بالخطية يساعدهم في الانتصار عليها.

٢٦ ديسمبر ٢٠١٠

الإيمان العملي
كيف يُختبر؟ وماذا يضعفه؟

إن الإيمان النظري هو مجرد إيمان العقل بوجود اللَّه وبصفاته، وبوجود الملائكة والأرواح، وبوجود الأبدية والعالم الآخر ... ولكننا في هذا المقال سوف لا نتكلَّم عن هذه الأمور إنما نتكلَّم عن الإيمان العملي الذي تظهر علاماته في الحياة العملية وبسلوكياتها.

وفي هذا الأمر توجد درجات من الإيمان: فهناك إيمان قوي، وإيمان آخر ضعيف. كما يوجد إيمان شامل يشمل كل تصرفات الحياة، وإيمان محدود. إيمان دائم، وإيمان يهتز أحياناً ويرتبك أو يضعف.

★★ ولعلَّ أهم ما يضعف الإنسان عن الإيمان باللَّه هو الذات. حينما تحاول الذات أن ترفض اللَّه لأنه ضد رغباتها الخاطئة، وضد حريتها الخاصة في أن تفعل كل ما تريد حتى الأمور التي لا يوافق اللَّه عليها. ومثال ذلك الوجوديون الملحدون الذين صار شعارهم هو: " من الخير أن اللَّه لا يوجد، لكي أُوجد أنا "، والمقصود الوجود بكامل حريتهم دون عائق من وصايا اللَّه. وهم هنا لا يفهمون معنى الحرية، بل يتصورونها ألواناً من التَّسيُّب.

فهل أنت يا أخي القارئ يتعطَّل إيمانك بسبب ذاتك؟ بسبب رغباتك وغرائزك وأفكارك وشهواتك؟ هل هناك تعارض بين محبتك للَّه ومحبتك لذاتك؟! إن كان كذلك فعليك أن تُدرِّب نفسك على فضيلة إنكار الذات. نعم لأن كثيرين ذاتهم هى صنمهم الذي يتعبَّدون له. فيمنعهم عن حياة الإيمان العملية محبة الذات، والاعتداد بالذات، والرغبة في تكبير الذات وتضخيم الذات، وتحقيق شهوات الذات، والهروب من كل مَن يكشف هذه الذات أو يُظهِر مساوئها. وهكذا يريدون أن تحيا ذاتهم في جو من التدليل والمجاملة.

★★ كذلك يضعف الإيمان سيطرة الحواس، وسيطرة العقل. فالعقل له حدود لا يتعدَّاها. أمَّا الإيمان فهو مستوى أعلى من العقل. ولكن هناك أشخاصاً يريدون أن تعي عقولهم اللامحدود، والمعجزات، وما هو فوق إدراكهم، وإلاَّ فإنهم يرفضون كل هذا!

وكذلك الحواس لها حدودها. فمن الصعب عليها أن تدرك ما لا يُرى كالأرواح والملائكة. ومن أمثلة هؤلاء مَن يريدون إخضاع الوحي والمعجزة للبحث العلمي، أو لمُجرَّد التفسير الرمزي. وبهذا ينكرون كثيراً من المعجزات، ويدخلونها في علم الأساطير **Mythology**.

★★ وممَّا يضعف الإيمان أيضاً: معاشرة الشكَّاكين، أو قراءة أفكارهم من بعض الكتب أو المقالات. فإن تلك الأفكار تغرس الشك في العقول والقلوب إن كانت بمداومة أو من النوع العميق التأثير. أو إن كان المستوى الخاضع للشكوك أقل في المعرفة أو في المستوى العقلي، أو كان غير عميقاً في الإيمان.

ولهذا ممَّا يُضعف الإيمان أيضاً: الانقياد وضعف الشخصية، الذي لا يستطيع أن يصمد أمام الشكوك أو أمام الشائعات أو كلام غير المؤمنين. فيهتز من الداخل بسبب التأثير الخارجي الضاغط والانقياد إليه. لأن الشخصية أضعف من أن تصمد.

وقد يضعف إيمان البعض وينقادون وراء مَن يدَّعي الرؤى والأحلام، كما لو كانت حقيقة ينخدعون بها، ولو ضد معتقداتهم أو مبادئهم الروحية. كمَن ينقاد وراء مَن يتكلَّمون عن السحر والعمل.

★★ الشهوة أيضاً تضعف الإيمان. وبخاصة لأن الذين يمارسون شهواتهم لا يؤمنون بأن اللَّه يراهم، أو أن اللَّه يفحص قلوبهم، ويعرف أفكارهم ونيَّاتهم! كل ذلك لا يضعونه أمامهم وكأنهم لا يؤمنون به بسبب الشهوة.

★★ وممَّا يضعف الإيمان أيضاً: ضلالات الشياطين. ومن أهمها الرؤى الكاذبة التي يندمج بها إرشاد مُعيَّن يضل الإنسان، ومن أمثال ضلالات الشياطين: الأحلام والنبوات الكاذبة، وأفكار الضلالات والبِدَع.

★★ الشك أيضاً يضعف الإيمان. كما أن ضعف الإيمان يولِّد الشك. فإن حاربتك شكوك من جهة وجود اللَّه أو بعض العقائد الأساسية، فلا تخف هذه محاربات من العدو، وليست إنكاراً منك للإيمان. وبخاصة إن كان قلبك رافضاً لها. أمَّا إن كانت الشكوك منك، وأنت مقتنع بها، فعليك أن تعالجها بفهم إيماني سليم، وبسؤال المتخصصين وأهل العلم، وبقراءة الكُتب المفيدة في موضوعك.

★★ وهناك أمور تستطيع أن تختبر بها إيمانك العملي: من أمثلتها الضيقة. قد تحل الضيقة باثنين: أحدهما مؤمن والآخر غير مؤمن. فيضطرب غير المؤمن ويخاف ويقلق، ويتصوَّر أسوأ النتائج، وتزعجه الأفكار. أمَّا المؤمن فيلاقيها بكل اطمئنان، وبسلام قلبي عجيب. وقد يسأله البعض عن شعوره إيذاء الضيقة فيقول: " هذه المشكلة سوف يتدخَّل اللَّه فيها ويحلَّها، وسوف تؤول إلى الخير "، وقد تسأله كيف سيتدخَّل اللَّه؟ وكيف سيحلَّها؟ فيجيبك: أنا لا أعرف ولكن ما أعرفه أننا لا نهتم بمشاكلنا فاللَّه هو المهتم بالكل.

إذن إن كانت الضيقة تفقدك سلامك القلبي، فاعرف أن إيمانك ضعيف. وهو ضعيف من جهة الإيمان باللَّه الحافظ والراعي. لذلك فإن الإنسان المؤمن يجعل اللَّه بينه وبين الضيقة، فتختفي الضيقة ويظهر اللَّه. أمَّا غير المؤمن فإنَّ الضيقة تخفي عنه معونة اللَّه.

المؤمن مهما بدت كل الأبواب مغلقة، يرى باب اللَّه مفتوحاً.

تختبر إيمانك أيضاً ببعض الوصايا. ومنها وصية العطاء، التي تعطي بها نصيباً من مالك واللَّه، أي للفقراء والمحتاجين. وبخاصة إذا كان المؤمن محتاجاً، أو مطلوب منه أن يُعطي من أعوازه. فإن ضعف إيمانه يقول: " إن كان المُرتَّب كله أو الإيراد كله لا يكفي، فكيف يكون الحال إن نقص ما أعطيه للَّه؟! ". أمَّا المؤمن الحقيقي فإنه يؤمن بأن اللَّه سيُبارِك باقي ما يملكه إن دفع للمحتاجين. إنه اختبار لإيمانك: هل اللَّه قادر أن يعولك بما تبقَّى لك بعد دفع نصيب الفقراء.

★★ كذلك من الاختبارات الهامة: مدى محبتك للصلاة. فهل تنساها وتمر عليك أوقات كثيرة لا تُصلِّي فيها؟ وهل إذا وقفت للصلاة تُفكِّر في كيف تنتهي منها لتنشغل بأمور أخرى تهمك بالأكثر؟ وهل أثناء صلاتك يمكن أن يسرح فكرك في أمور أخرى، وتنسى أنك واقف أمام اللَّه تخاطبه؟!

تختبر إيمانك أيضاً بأنه هل يدركك اليأس أحياناً. واليأس ضد الإيمان. ولا شكَّ أن المنتحرين يكونون قد فقدوا إيمانهم بحقيقة الحياة بعد الموت، التي يدخل إليها المنتحر وهو قاتل نفس!

٢ يناير ٢٠١١

مجالات للشكر

ما أجمل ذلك التعليم الروحي الذي يقول: " شاكرين في كل حين، على كل شـــيء ". أي أن الشكر للَّه تبارك اسمه، لا يكون فقط في مناسبات مُعيَّنة. بل تكون حياتنا كلها فـــي شكر دائم، معترفين بفضل اللَّه علينا في كل حين.

إننا نشكر اللَّه في بداية هذا العام الجديد، لأنه منحنا صفحة جديدة من الحياة، ينبغـــي أننا لا نكتب فيها إلاَّ كل خير. على أننا لا نقتصر على ذلك. بل نشعر بإحســـانات اللَّـــه إلينا باستمرار، على الرغم مِمَّا يمر علينا من ظروف الحياة المتنوعة. إننا ندرك عن يقين وثقة أن اللَّه صانع الخيرات، لا يعمل معنا إلاَّ كل خير، سواء كنـــا نـــرى هـــذا الخيـــر أو لا نراه. إننا نشكره على الخفيَّات والظاهرات. نشكره على النِّعم الجزيلة التي يفـــيض بها علينا، كما نشكره على القليل أيضاً أو ما نراه قليلاً. لذلك فإن الإنسان الروحي يحيـــا دائماً في سلام وفي شكر ليس فقط بالكلام وإنما من عمق القلب أيضاً. ويشكر أيضاً على كل الخير الذي يتلقاه من اللَّه. موقناً إنه لا توجد عطية بلا زيادة إلاَّ التي بلا شـــكر. بـــل يصل الشكر أيضاً حتى في وقت الضيقة. لأنَّ اللَّه لا يسمح للإنسان بالضيقة إلاَّ لو كـــان وراءها خير لا بد يظهر بعد حِين. ومن الطبيعي أن يشكر كل شخص على إنقاذ الرب له من الضيقات التي يراها. ولكن ينبغي أن يشكر أيضاً على الضيقات التي كانـــت تســـعى إليه. ووقفها اللَّه ومنعها قبل أن تحدث. وهنا يكون الشكر ليس على الضيقات التي أنقـــذه اللَّه منها، بل أيضاً على الضيقات التي حفظه اللَّه من وصولها إليه.

★★ لو عاش الإنسان حياة الشكر الحقيقية، لكان يشكر اللَّه على كل نَفَس يتنفَّســـه، وعلى كل خطوة يخطوها، وعلى كل عمل يعمله، وعلى كل ما يأتي عليه. ولا يـــرى أن هناك شيئاً من تدابير اللَّه معه، إلاَّ ويستحق الشُكر. وهكذا يقول في كل ما يحدث معـــه: " كله للخير ".

★★ هناك أسباب كثيرة يجب أن نشكر اللّه عليها، ولكننا نادراً ما نشكر! وبعضها يبدو لنا كأنها مُجرَّد أمور عادية. وعلى الرغم من أنها نِعَم، إلاَّ أنها لم تستوفِ حقها من الشُكر.

★★ مثال ذلك أنه ينبغي أن نشكر اللّه لأنه خلقنا وأنعم علينا بالوجود. ولكن مَن مِنَّا يشكر اللّه على ذلك؟! كان ممكناً يا أخي أنك لا تكون موجوداً. لم يكن اللّه مطالباً أن يزيد العالم واحداً! اشكر اللّه أن والدتك لم تكن عاقراً، بل منحها اللّه نعمة أن تلد بنين. أو كان ممكناً أن والديك يكتفيان بولادة إخوتك، دون أن يأتي دورك ...

ينبغي أن نشكر اللّه أيضاً على الطبيعة التي حولك، وعلى كل ما خلقه اللّه لأجل راحتك. اشكره على أنه رتَّب كل قوانين هذا الكون من حيث الضياء والهواء والحرارة والأمطار وكل الكائنات التي حولنا. اشكره لأنه أقام لك السماء سقفاً، وثبَّت الأرض كي تمشي عليها. ولم يدعك معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك.

عليك أن تشكر اللّه أيضاً على ما وهبك اللّه من العقل أو الذكاء أو أيَّة موهبة منحك اللّه إيَّاها: مثل موهبة الرسم أو الموسيقى أو رخامة الصوت، أو جمال الوجه، أو القدرة على الإقناع، أو خِفَة الروح التي تُحبِّب الناس فيك، أو أيَّة موهبة أخرى مثل القدرة على الاحتمال والصبر ... وكلها مواهب من اللّه تحتاج إلى شكرك عليها.

★★ اشكر اللّه أيضاً على الإيمان الذي أنت فيه. نعم هل تشكره على أنك ولدت مؤمناً؟ ولم تبذل أي مجهود لكي تصل إلى هذا الإيمان ... ذلك لأن كثيرين يشتهون هذا الإيمان ولا يجدونه، أمَّا أنت فقد نلته مجاناً وسهلاً. إذ وُلدت فيه.

سمعت مرة عن قصة فيلسوف مُلحِد، رأى فلاحاً أمياً يُصلِّي. وتعجَّب كيف أن هذا الرجل البسيط يركع في حقله، ليخاطب مَن لا يراه وذلك من كل قلبه وبكل مشاعره وبكل ثقة وإيمان! فقال: إنني مستعد أن أتنازل عن كل فلسفتي وكل ما درسته من كتب، مقابل أن أحظى بشيء من إيمان هذا الفلاح البسيط.

نعم، إن إيمانك نعمة لم تحظَ بها البلاد المُلحِدة ولا أولئك الأشخاص الذين شوَّه الشيطان عقولهم بشكوك لا يعرفون ردوداً عنها.

اشكر اللَّه أيضاً على أنك ما زلت حيًّاً. ذلك لأن حياتك هى منحة من اللَّه، بيـده أن يبقيها أو أن ينهيها في أي وقت. وهى يجددها لك يوماً بيوم وساعة بساعة. فلتشـكره إذن على هذا اليوم الذي تحياه. اشكره أيضاً على أنه وقد مد في حياتك، إنما قد أعطاك أيضاً فرصة للتوبة. واذكر هنا ما قاله أحد الكُتَّاب: " إنَّ ملايين الناس من الذين فـي الجحـيم، يشتهون ساعة واحدة من الحياة التي على الأرض، أو حتى دقيقة واحدة، ليُقدِّموا فيها توبة للَّه، ولا يجدون! ".

لو أن اللَّه قرَّر أن يأخذ روحك الآن، ألاَّ تشتهي بعض الدقائق من هذا العمر الـذي لك؟! تقول له بعض دقائق يارب أوزّع فيها ما أملك وأعطيه للفقراء لأكنز بها كنزاً فـي السماء. نعم بعض دقائق أستطيع فيها أن أُصالح من أخاصمهم، مهما كان المخطئـين ... وكل ذلك قبل أن يُغلَق الباب وأقف خارجاً.

★★ اشكر اللَّه أيضاً لأنه هيئ لك بيئة دينية تعيش فيها، وأنه وهب لك هذا القدر من المعرفة الروحية والسلوك الروحي، وأنه أرسل لك قدوات صالحة في طريقك، تتعلَّم منها الحياة الحقيقية وكيف تكون. اشكر اللَّه أيضاً لأنه لا توجد عوائق تمنعك عن الحياة مـع اللَّه.

★★ نحن أيضاً نشكر اللَّه، لأنه لم يُعاملنا بحسب خطايانا، ولم يصنع معنا بحسـب آثامنا. بل على الأكثر فعلى الرغم من أخطاءنا يحسن هو إلينا بكل أنـواع الإحسـان ... لذلك علينا أن نشكر اللَّه على احتماله العجيب وطول أناته علينا ... نعم جميل هو التأمُّل في معاملات اللَّه، سواء لك أو لغيرك. إننا نشكره عليها، لأنه حنون وطيب ومُحب، ولأنه غفور.

★★ نشكره على الصحة وعلى المرض، ونشكره لأنه سترنا وأعاننا وأشفق علينـا، وأتى بنا إلى هذه الساعة. ونشكره على كل عمل صالح استطعنا أن نعمله، لأنه لو لم تكن يد اللَّه معنا ما كنا نستطيع أن نعمل شيئاً صالحاً على الإطلاق. وأكثر من هذا كله نشكر اللَّه لأنه أعطانا أن نعرفه. كما نشكره لأجل وعوده العظيمة التي منحنا إيَّاها.

٧ يناير ٢٠١١

جاء السيد المسيح ينشر الحب

أهنئكم يا إخوتي جميعاً بميلاد السيد المسيح له المجد، فميلاده هو بدء خير للبشرية جمعاء.

لست أهنئ المسيحيين وحدهم، بل المصريين جميعاً، مسلمين ومسيحيين، شاكراً الرئيس محمد حسني مبارك الذي أمر بأن يكون عيد الميلاد عيداً وطنياً لمصر كلها.

إن احتفال المسيحيين ينبغي أن يرتفع بكل المقاييس فوق الأحزان، لأنه لولا ميلاد المسيح، ما كنا نحن مسيحيين، وما كانت لنا الكنائس المسيحية والأعياد المسيحية، والعقائد المسيحية. وعلينا أن نتبع التعاليم التي نادى بها المسيح.

وأول هذه كلها: أن السيد المسيح جاء ينشر الحب. وما أعمق قول أحمد شوقي أمير الشعراء:

ولـد الحـب *** يوم مولد عيسى

★★ نعم، إنه حتى السيد المسيح نفسه، كان حباً يتحرك في كل موضع مع جميع الناس. كل من التقى به، نال شيئاً من حبه، ومن عطفه وحنانه، ومن قلبه المملوء بالرقة وبالإشفاق على جميع الناس.

ولذلك قيل عنه إنه: " كان يجول يصنع خيراً ". يرى المرضى فيشفيهم، والجياع فيطعمهم، والمأسورين من الشياطين فيخرجها منهم. كان يريح الكل، لأنه يحب الكل ... فمثلاً يمر على مريض بيت حسدا، المشلول الراقد إلى جوار البركة ٣٨ سنة لا يهتم به أحد، فيتحنن عليه، ويقول له: " قُم احمل سريرك وامش " فيقوم ويمشي ... أو يرى أرملة نايين وهى تبكي على ابنها وحيدها الذي مات، فيتحنن عليها ويقيم ذلك الابن ويدفعه إلى أمه.

★★ وكان في محبته يهتم بكل المحتاجين. ويقول للمهتمين بهم: "كنت جوعاناً فأطعمتموني، عطشاناً فسقيتموني، عرياناً فكسوتموني، مريضاً فزرتموني، غريباً

فآويتموني، محبوساً فأتيتم إليَّ. وإذ يسألونه: متى يارب رأيناك هكذا؟. فيجيبهم: الحق أقول لكم: مهما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي قد فعلتم". وهكذا فإنه لما رأى الجموع تحنن عليهم، إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها.

★★ والسيد المسيح في محبته للكل، فاضت محبته أيضاً على الجماعات التي كانت مُستبعدة من اليهود فلا يتعامل معها. مثل السامريين الذين كانوا إذا وقع ظلّ واحد منهم على يهودي، يُنجِّسه! هؤلاء أشفق عليهم السيد المسيح. وقال لليهود مَثَل السامري الصالح الذي كان نبيلاً أكثر من الكاهن واللاوي وأشفق على يهودي مُلقَى في الطريق جريحاً بين حي وميت .. وليس هذا فقط، بل زار السيد المسيح مدينة السامرة، وظلّ بأهلها حتى آمنوا.

ونفس الأمر مع الأُمم المحتقرين من اليهود، إذ قال عن قائد أُممي: "لم أجد في إسرائيل كله إيماناً مثل إيمان هذا الرجل".

★★ ومن اهتمام السيد المسيح بوصية المحبة، قال إنها الأولى في الناموس (أي في الشريعة) إذ تحب الرب إلهك من كل قلبك، وتحب قريبك كنفسك. وتعني كلمة "قريبك" كل إنسان. لأن كل البشر أقرباء، إذ أنهم جميعاً أبناء لأب واحد هو آدم، لأم واحدة هي حواء.

★★ ووصلت قمة الدعوة إلى المحبة عند السيد المسيح إلى أنه قال: " أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويبغضونكم "، وإن سأل أحد قائلاً: ماذا أفعل إن لم أستطع أن أحب عدوي؟ فيكون الجواب: على الأقل إنك لا تكرهه، ولا تحمل له حقداً في قلبك. بل بالحري تسامحه، وتغفر له، وتُصلِّي لأجله.

** ومن اهتمام المسيح بالمحبة، أنه قال إن اللّه محبة. وقال أيضاً: " هكذا أحب اللّه العالم " أي أنه يحب الكل: يحب القريبين منه بسبب برّهم. ويحب أيضاً المبتعدين عنه، لكيما بحبه يجذبهم إليه. وذلك لأنه لا يشاء هلاك الخاطئ، مثلما يرجع ويحيا .. ولأنه لا يُعاملنا بحسب خطايانا، بل بحسب رحمته.

** ونحن أيضا نحب اللّه، الذي أوجدنا إذ لم نكن، والذي يرعانا ويحفظنا، ولا نستطيع أن نحصي كل إحساناته إلينا. كما أنه قدم لنا أمثولة عملية في كل فضيلة إلى اكتسابها. إلهنا الغفور الطيب.

وفي محبتنا للَّه، نطيعه ولا نخطئ إليه ولا إلى أي واحد من رعيته. بل نحاول في كل وقت أن ننفذ مشيئته الإلهية في حدود إمكانياتنا، وأن نفعل في كل حين ما يُرضيه.

★★ وفي نطاق وصية الحب، علَّمنا السيد المسيح أن نحب الخير، ونحب الغير. ويقول لنا الكتاب: " إن كنت لا تحب أخاك الذي تراه، فكيف إذن تحب اللَّه الذي لا تراه؟! ". إذن فعدم محبتنا للناس، تعني ضمناً عدم محبة للَّه الذي خلقهم والذي يهتم بهم جميعاً.

★★ والمفروض أن تكون محبتنا للغير محبة عملية. فالكتاب يقول: "لا نحب بالكلام أو باللسان، بل بالعمل والحق". وأن تكون أيضاً محبة صادقة حقيقية، لا رياء فيها. ولا مظهرية. وأن تكون محبة دائمة، تبدأ حيناً ثم تختفي. لأن السيد المسيح يعاتب مَن يفعل هذا قائلاً له: "عندي عليك أنك تركت محبتك الأولي". ويجب أيضاً أن تكون محبة للجميع، وإلا صارت لوناً من التحيُّز. وأن نحب فيها الغرباء كما نحب الأقرباء.

★★ ويُعلِّمنا الكتاب أيضاً أن المحبة بطبيعتها تكون بعيدة عن الحقد والإيذاء، وأن المحبة تحتمل، ولا تطلب ما لنفسها، بل ما للغير. والمحبة أيضاً تظهر في العطاء الذي يصل في قمته إلى البذل، بل إلى حد بذل الذات لأجل الغير.

★★ ليتنا نعيش في هذا الحب الذي علَّمنا المسيح إيَّاه. فنحب بعضنا بعضاً، ونحب هذا الوطن العزيز الذي نعيش فيه ويعيش فينا، ونطلب له السلام من جميع الأعداء المتربصين بنا.

إن مصر تستحق كل بركة وقد باركها الرب في سفر إشعياء النبي حينما قال: "مُبارك شعبي مصر".

★★ وبهذه المناسبة نشكر سيادة الرئيس مبارك الذي عزّانا، والذي هنأنا بالعيد، وبهذا العام الجديد. ونرجو له ولبلدنا كل خير.

١٦ يناير ٢٠١١

الشر كثيراً ما يغلب الخير

منذ بدء الخليقة والشر يصرع الخير. حدث هذا في مقتل هابيل الصديق حينما قام عليه أخوه وقتله. وبعد ذلك رأينا الشر ينتشر في الأرض. وزاد جداً حتى أن اللّه أغرق العالم كله بالطوفان لكي يبيد هذا الشر وكانت النجاة فقط لأسرة أبينا نوح. ثم انتشر الشر أيضاً، وساد الشذوذ الخلقي في مدينة سادوم، وكانت النتيجة أن الرب أحرقها كلها. وكانت النجاة فقط لأفراد من أسرة لوط البار.

★★ وانتقل الفساد من الأخلاق إلى عدم معرفة اللّه. ووجدنا الشر ينتشر كثيراً في العالم الوثني، من جهة عبادة الأصنام وأيضاً تعدد الآلهة. وأصبحت الفئة التي تؤمن باللّه قليلة جداً تركزت في عائلة أبينا إبراهيم، وليس كلها. ففي بلاد اليونان كانوا يعبدون كثيراً من الآلهة تحت قيادة زيوس. وفي بلاد الرومان كانوا يعبدون آلهة كثيرين تحت قيادة جيوبيتر كبير الآلهة. وفي مصر كثرت الآلهة في الزمن الفرعوني تحت قيادة رع وآمون. وإلى جوار ذلك عبد البعض بعض مظاهر الطبيعة. وأحياناً عبدوا الأرواح أو عبدوا النار.

★★ أمَّا الخير فقد ظهر بواسطة الأنبياء الذين أرسلهم اللّه لهداية الناس. ومن أعظمهم موسى النبي الذي كان أول مَن قدم للبشرية شريعة مكتوبة. وعلى الرغم من ذلك بدأ الشر ينتشر بعصيان وصايا اللّه. حتى أن بني إسرائيل أنفسهم جاء عليهم وقت عبدوا فيه العجل الذهبي، وجاء وقت أيضاً انتشرت بينهم الوثنية، حتى أن اللّه نفاهم إلى سبي بابل وأشور، ثم أعادهم بعد سبعين عاماً. وفي أيام السيد المسيح وبَّخهم قائلاً: " يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم من مرة أردت أن أجمعك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هوذا بيتكم يُترك لكم خراباً ". وقد كان.

★★ كان الشر في قلوب الناس أعمق تأثيراً من الخير. وقد رأيناه في اتجاه آخر ينتشر في قسوة الأباطرة وتعذيبهم للناس. ولا ننسى ما حدث في أيام الإمبراطور نيرون من القسوة والتعذيب، وكذلك ما حدث أيام الإمبراطور دقلديانوس، والإمبراطور تراجان، والقسوة والتعذيب التي اتصف بها بعض الولاة، مثل أريانوس والي أنصنا وغيره. وكانت الدماء تسيل بلا رأفة. والشر يهجم على الإيمان بعنف.

★★ ومثل هذه القسوة رأيناها أيضاً في أعقاب الثورة الفرنسية، أيام روبسبير وزملائه. وكيف أن هذه القسوة شملت النبلاء والأغنياء. وسجل التاريخ أخبار المقاصل وألوان التعذيب التي حفل بها في لندن بيت أو متحف يُسمَّى بيت الرعب House of Terror. وعلى الرغم من أن تلك الثورة قامت للإصلاح، إلاَّ أن الشر دخل أيضاً في التنفيذ.

★★ ولا ننسى أن الشر أيضاً كان له مجاله الواسع في الحروب الكثيرة التي سجلها التاريخ. وزادت سطوة الشر في أنواع الأسلحة المرعبة التي تدمر بلاداً بأثرها. ومن أمثلتها ما فعلته القنبلة الذرية، وكافة أنواع القنابل التي تحصد الأرواح حصداً. والعالم حالياً يتخوف بعضه من البعض في إنتاج هذه الأسلحة المرعبة وانتشارها واستخدامها.

★★ انتشر الشر أيضاً في مجال اللهو والعبث، وأصبحت له أنشطة في إفساد أخلاق الناس. وتحطمت العديد من الأسرات عن طريق الطلاق. وفسدت أخلاقياً العديد من الشباب، حتى وصلوا إلى المخدرات وتأثيرها. ورأينا مرضاً جديداً لم يكن معروفاً من قبل هو مرض الإيدز. وما أكثر انتشاره في بعض البلاد الأفريقية.

★★ دخل الشر أيضاً في مجال المال والاقتصاد. فأصبح المال يجد له طريقاً حتى في شئون السياسة. وأصبحت كثير من ذمم الناس تُشترى بالمال، وكثرت حوادث الاختلاسات وحوادث الرشاوي وحوادث السرقات والنهب، وحوادث النصب والاحتيال.

★★ إن الشر له حيل كثيرة وميادين ومجالات واسعة، أكثر مما للخير من المجالات. وله أساليبه التي ينتصر بها على الخير. فالخير لا يستطيع أن يكذب كما يفعل الشر. ولا يستطيع أن يخالف ضميره كما يفعل الشر. ولا يستطيع أن يحتال أو أن يغدر بالغير أو أن يؤذي أحداً. ولكن هذه الأساليب متاحة كثيراً أمام الشر. لذلك كله فالشر له فرصة أكبر في التغلب على الخير.

★★ على الرغم من كل ما قلناه فإن الخير كانت له مجالات كثيرة عمل فيها. ففي إنقاذ الغير مثلاً كان للخير مجال في عربات الإسعاف وعربات المطافئ ومجال فيما يعمله الصليب الأحمر والهلال الأحمر. وما تقوم به كثير من الجمعيات الخيرية، والملاجئ، وأعمال البِرّ في المستشفيات ونذكر في هذا المجال مثلاً مستشفى السرطان لعلاج سرطان الأطفال. وما قام به العلم في تخفيف آلام البشر. وأيضاً ما يقوم به الرُّعاة في هداية الناس نحو البرّ. وكل ما يقوم به أصحاب المشروعات الخيرية وهى عديدة.

★★ إن النفوس البارة لا تزال موجودة، ولو أن نسبتها قليلة إذا قيست بالنفوس الخاطئة. ولا يزال الشيطان نشيطاً جداً يُحارب كل ما يراه من أعمال الخير، وللأسف يجد الشيطان قلوب كثيرة مفتوحة له، تُرحِّب به وتشترك معه في الخطيئة. ولعل الشيطان يقف كثيراً مفتخراً لأن أعماله مثمرة ومنتجة وهو يهوى نشر الصراعات. فمن الممكن أن يخرج من صراع الأديان إلى صراع الحضارات والثقافات إلى صراع السياسات.

★★ كم من المليارات أو مئات الملايين في الشرق الأقصى يعبدون براهما، أو كومفوشيوس أو بوذا. ويعيشون حياتهم في معتقدات أخرى يؤمنون بها ... ومع ذلك ففي كل أولئك ألوان من الخير في الأخلاقيات وليس في الإيمان.

إننا نرجو من كل قلوبنا أن تكون للخير قوة أكثر من قوة الشر، وحينئذ ينتشر الخير بين الأفراد والمجتمعات والدول ويرضى اللّه على الناس.

٢٣ يناير ٢٠١١

باب مفتوح في السماء

إذا رأيت جميع الأبواب منغلقة أمامك على الأرض، ارفع نظرك إلى فوق، فتجد باباً مفتوحاً في السماء.

فمهما ضاقت الدنيا أمامك، ومهما تعقَّدت السُبُل، وأغلق الناس قلوبهم وأحشاءهم، ودعوت وليس من مُجيب، وبحثت وليس من صديق، حينئذ عليك أن تنظر إلى فوق إلى الباب المفتوح في السماء. وكذلك في الوقت الذي لا تجد فيه على الأرض حناناً ولا عدلاً، ولا تجد من البشر معونة ولا سنداً. حينما يبدو أن كل إنسان قد تخلَّى عنك، أو عجز عن معونتك، وقد تركوك إلى مشاكلك وأهملوك ولم يهتموا بك. في هذا الوقت الذي أغلقت فيه أبواب الأرض، لا يبقى أمامك إلا الباب المفتوح في السماء.

★★ إن هذا الباب السماوي مفتوح باستمرار. ولكن عيبنا أن لنا عيوناً ولكنها للأسف لا تبصر باب اللَّه المفتوح دائماً. وذلك لأن مشكلتنا في كل ضيقاتنا، أننا نتجه فقط إلى المعونة الأرضية! أو نعتمد فقط على ذكائنا وحيلتنا، وعلى الذراع البشري في مساعدة الناس لنا. نتجه فقط إلى الظروف والإمكانيات. وبسبب هذا كله نقع في الحيرة والقلق والاضطراب. ولا نُفكِّر إطلاقاً أن ننظر إلى الباب المفتوح في السماء لكي نطمئن.

★★ نصيحتي لك أيها الأخ القارئ أنك في كل صباح قبل أن تخرج من بيتك، أن تُصلِّي من عمق قلبك أن يفتح أمامك اللَّه كل البواب: أن يفتح أمامك كل القلوب وكل الآذان، وأن يفتح أمامك أبواب الرزق وأبواب الخير. وأن تقول له باستمرار: " اجعل يارب بابك مفتوحاً أمامنا في كل حين ".

★★ وأيضاً لا تنظر إلى الأبواب المغلقة، إنما انظر دائماً إلى المفتاح الذي في يد اللَّه. اللَّه الذي يفتح، ولا يستطيع أحد أن يُغلِق. عليك أن تؤمن من كل قلبك أن اللَّه قادر

على كل شيء. وأن كل شيء مستطاع إذا آمنت بمعونة اللّه الفائقة للوصف الذي يستطيع أن يغير كل شيء إلى الأفضل. وأن تثق أن اللّه يحبك ويحب لك الخير وهو قادر على ذلك. ومعونته تفوق الحدود. إذن لتكن أنظارنا باستمرار متجهة إلى فوق حيث توجد معونة اللّه غير المحدودة. وليس إلى الأرض حيث كل معونة منها محدودة أو قاصرة.

★★ انظر إلى الباب المفتوح في السماء في كل المشاكل التي تحيط بك وفي كل الضيقات التي تحل بك. وحينئذ ستسمع في قلبك صوتاً من السماء يقول: " تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين وأنا أُريحكم ". وكذلك تفعل في كل مشروع تبدأه. فإن اللّه قادر أن يباركه، ويُسهّل لك الطريق. كذلك إن مرضت وتعب الأطباء في علاجك انظر أيضاً إلى الباب المفتوح في السماء. وأيضاً في الحزن يمنحك الباب السماوي تعزية. وفي كل حين تجد أمورك مُيسَّرة.

★★ نلاحظ أن الباب المفتوح في السماء، هو مفتوح بطبيعته حتى دون أن نطلب. إن اللّه تبارك اسمه يفتح أمامنا باباً في السماء بسبب محبته لنا وبسبب حنوه علينا وبسبب نعمته. وذلك لأنه يعرف مدى ضعفنا واحتياجنا، وأننا بدونه لا نستطيع شيئاً. وإذا فتح اللّه بابه أمامنا، لا يستطيع أحد في الدنيا أن يغلقه. لذلك يا أخي إن قام ضدك أعداء كثيرون، ثِق أن اللّه هو أقوى من الكل. فالأعداء كلهم قوتهم محدودة، حتى الشيطان نفسه محدود في قوته. أمَّا اللّه فقوته غير محدودة. كذلك ثِق تماماً أن حياتك هى في يد اللّه، وليست في أيدي الناس. وثِق أيضاً أن اللّه قادر أن ينقذك. ومن خبرتي نرى أنه كم من فئة قليلة لم تستطع أن تقوَ عليها. فئة كثيرة. بل قالت الفئة القليلة: "إن كان اللّه معنا فمَن علينا؟!". حقاً إن في هذا عزاء للضعفاء.

★★ على أن هناك قاعدة هامة في هذا الموضوع. وهى أن نفتح نحن قلوبنا للّه، فيفتح الرب باباً في السماء. نصعد بأرواحنا إلى السماء، بينما أجسادنا لا تزال على الأرض، حينئذ يفتح اللّه عيوننا لنرى بابه المفتوح. لا نستبقِ على الأرض في كسلٍ وتراخٍ وإهمال، ناظرين أن يفتح لنا أبواب السماء. بل نعمل كل ما نستطيعه، والباب

السماوي يسهل الأمر حتى يصل إلى غايته. ونحن في إيماننا بعمل اللّه لا نعـرف متـى يفتقدنا اللّه بنعمته وبعمله ومعونته. إنما نعرف أنه لا بد سيعيننا كراعٍ صالح يهتم برعيته. إنما المُهم أن نكون مستعدين لعمله معنا ولعمله فينا.

★★ إن إيماننا بالباب المفتوح بالسماء يعطينا باستمرار الرجاء والتفـاؤل والأمـل. ولا نصل مطلقاً إلى اليأس. فاليأس هو من عمل الشيطان لكي يلقي النفس البشـرية فـي القلق والأرق والحزن والضيق بل قد يصل بها أحياناً إلى الانهيار! أمَّا الرجاء في معونة اللّه فيعطي النفس قوة. ويفتح أمامها طاقة من النور مهما كانت الدنيا مظلمة. واللّـه فـي محبته يقول للإنسان المؤمن: " لا تخف. إني لا أهملك ولا أتركك، أنا معـك باسـتمرار لأنقذك ". لذلك فالإنسان المؤمن لا يمكن أن يعترف بالفشل، لأنه يثق بأنه فـي يـد اللّـه الحانية والمعينة. وما أكثر وعود اللّه للمؤمنين به.

★★ وكما أن باب اللّه مفتوح لكل مَن هو محتاج إلى معونة كذلك بابه مفتوح أيضاً لِمَن يريد حياة التوبة ...

بابه مفتوح لكل خاطئ سيطرت الخطية عليه. وحاول أن يتخلَّص منها مـراراً ولـم يستطع، وكاد ييأس! لقد طرق باب ضبط النفس، وباب التداريب الروحية، وكـل جهـاد شخصي. ومع ذلك كله لم يجد طريق التوبة مفتوح أمامه! حينئذ لا يجد أمامـه إلاَّ بابـاً مفتوحاً في السماء. فيقول للرب: " توِّبني يارب فأتوب. أعطني يارب قوة لأنتصر علـى الخطية. ارحمني يا اللّه كعظيم رحمتك ". حينئذ يعينه اللّه على عمل البرّ، ويمحـو مـن ذاكرته ومن قلبه كل الأفكار الشريرة.

نشكرك يارب على كل محبتك، وعلى بابك المفتوح في السماء، الذي بمعونته تنفـتح أمامنا كل أبواب الأرض.

٣٠ يناير ٢٠١١

مفهوم الحرية

لقد خلق اللَّه الإنسان حُرًّا أي بإرادة حُرَّة يستطيع أن يفعل ما يشاء. ولكن ما هو مفهوم هذه الحرية؟ وكيف يمكن للإنسان أن يُمارسها؟

★★ أولاً: كل حرية يُقابلها حساب ومسؤولية. ففاقد الحرية لا يُحاسَب على أفعاله. أمَّا الإنسان الحُر فيوجد حساب على كل ما يفعله خيراً كان أم شراً. فينال مكافأة على أعماله الخيِّرة، كما توقع عليه العقوبة نتيجة لأعماله الخاطئة أو الشريرة. والعقوبة على الخطأ الذي يرتكبه الإنسان بحريته، هى عقوبة مزدوجة، على الأرض وفي السماء. وقد ينجو الإنسان من العقوبة الأرضية. ولكن تبقى العقوبة في العالم الآخر قائمة، لا تُمحى إلاَّ بالتوبة. كما أن الخير الذي يفعله الإنسان بحرية إرادته له مكافأة مزدوجة. وإن لم ينل هذه المكافأة على الأرض، فأجره محفوظ في السماء.

★★ ثانياً: لا توجد للإنسان حُرِّيَّة مُطلَقة. فأنت حُرّ في كل ما تفعله، بحيث أنك لا تعتدي على حقوق أو حُريات الآخرين. وبحيث أنك لا تكسر وصايا اللَّه. وبحيث لا تخالف القانون والنظام العام الذي جُعِلَ من أجل سلامة البلد وراحة الآخرين. وهكذا نتكلَّم عن الحُرية المنضبطة وليس عن الحرية المُطلَقة.

فأنت ليس من حقك مثلاً أن تركب سيارة وتخالف قواعد المرور، وتقول: أن حُرّ أسير حيثما أشاء!! وليس من حقك أن ترفع صوتك في ضوضاء وتزعج بها الآخرين، وتقول: أنا حُرّ أرفع صوتي كما أشاء!! وليس من حقك أن تخرج في مظاهرة للتعبير عن رأيك، وفي أثنائها تحرق أحد المباني أو السيارات! وليس من حقك أن تأخذ في الامتحان ورقة تغش بها، وتقول: أنا حَر أستعمل ما أشاء من أوراق!!

★★ كذلك كما تستخدم حريتك بحيث لا تضر الآخرين ولا تُخالف النظام العام، فأنت أيضاً من حقك أن تستخدم حريتك بحيث لا تضر نفسك. ذلك لأن نفسك ليست ملكاً

لك. إنها ملك للَّه الذي خلقها ومنحها الوجود. وهى أيضاً ملك للمجتمع الذي رعاك وربَّاك، وله عليك حقوق يجب أن تؤديها. فلذلك فقتل الإنسان لنفسه بالانتحار، جريمة يُعاقِب عليها اللَّه، ولا يوافق عليها المجتمع. ونفس الوضع ينطبق على مَن يضر نفسه عن طريق التدخين أو المخدرات. فليس من حقه أن يقول: أنا حُر أُدخِّن كما أشاء، وأتعاطى المخدرات كما أشاء!! لأنه ليس من حقه أن يهلك نفسه ولو بالتدريج. وليس من حقه أن حرم المجتمع من وجوده في قوة وصحة مؤدياً واجبه.

★★ ثالثاً: إن الضوابط التي توضع على الحرية، هى لفائدتك وليست لتقييدك. ومن فائدتها أنها تمنعك عن الإضرار بنفسك، وعن الإضرار بغيرك، وعن الإضرار بالمجتمع، وعن مخالفة وصايا اللَّه.

إن النهر له شاطئان، لا يُقيدان مجراه، إنما يحفظانه. وإذا لم تكن للنهر شواطئ، فإنه سينسكب ويفيض على الجانبين. ويُغرِّق الأرض ويحولها إلى مستنقعات. أترى يستطيع أي نهر أن يحتج على وجود شاطئين له، ويقول إنهما يقيدان حريتي؟! كذلك أنت: الشاطئان بالنسبة إليك هما وصايا اللَّه، وقوانين أو تقاليد المجتمع. أم الشاطئان هما الدين والتربية، وكلاهما لفائدتك. فالطفل الذي يرفض التربية ويحسبها تقيداً لحريته. والشاب الذي يرفض إرشاد أبويه أو مُعلِّميه أو مُرشديه، ويرى ذلك تقيداً لحريته، لا بد أنه سيفسد ويفقد الطريق السليم السوي، ويضل. وحاشا أن يكون الضلال هو اسم آخر للحرية أو نتيجة لها!

★★ رابعاً: الحرية الحقيقية هى أن يتحرَّر الإنسان من الأخطاء. فيتحرَّر من الخطايا والسقطات، ويتحرَّر من العادات الرديئة. يتحرَّر قلبه من كل المشاعر الخاطئة، ويتحرَّر عقله من الأفكار المنحرفة أو السيئة. يتحرَّر أيضاً من الخضوع للشيطان وكل أعوانه. ويتحرَّر من تأثير الصحبة الرديئة والمعاشرات المفسدة. ويتحرَّر من كل قيادة تفرض سلطانها على إرادته، لتقوده حسب هواها في مسيرة منحرفة.

★★ خامساً: الذي يتحرَّر داخله من الخطيئة، يمكنه أن يستخدم الحرية في الواقع بطريق سليم. فمثلاً الذي يتحرَّر من الكراهية والقسوة والعنف والظُلم، يستطيع أن يستخدم

حريته في التعامل مع الناس بطريق سليم. أمَّا إن كان ظالماً أو قاسياً وقال أريد أن أستخدم حريتي في التعامل كما أشاء، فإنه سوف يؤذي غيره بقسوته وبظلمه، أي بعدم تحرُّره من القسوة والظلم.

كذلك الذي لم تتحرَّر عفته من الشهوات الجسدية، فإنه حينما يستخدم حريته لتنفيذ شهواته، لا بد سيؤذي نفسه وغيره. وفيما يظن أنه يستخدم حريته، يكون قد أضاف على نفسيته قيوداً جديدة تمنع نقاوته. والطالب الذي يلعب طول العام ويهمل دروسه ويقول: أنا حُر! إنما يضر نفسه بِاسم الحرية الخاطئة ويضيع مستقبله ويفشل. إذن نصيحتنا لك أن تستخدم حريتك لفائدتك وفائدة غيرك. وأن تتحرَّر أولاً من الداخل قبل أن تمارس الحرية الخارجية.

★★ سادساً: لا بد أن يضبط الإنسان نفسه ليصل إلى الحرية الحقيقية. فلا يعطِ ذاته كل ما تطلب، لئلا يصل إلى تدليل النفس، ويفقد سيطرته على نفسه. وبالتالي يفقد حريته الحقيقية.

وهكذا ينبغي أن يدخل الإنسان في تداريب روحية لضبط النفس: أي لضبط اللسان فلا يقع في أخطاء. وضبط الأعصاب حتى لا يثور، وفي غضبه يفقد معارفه وأصدقاءه. وأيضاً تداريب لضبط الفكر حتى لا يسرح في أمور تضره. وكذلك يدخل في تداريب لضبط الحواس، ولضبط الجسد بالصوم والسهر، وضبطه في البعد عن الشهوات حتى لا ينحرف في الملاهي والملاذ الجسدية ويفقد روحياته.

١٣ فبراير ٢٠١١

مصر
محبتها وعظمتها

في الوقت الحاضر الذي نرى فيه اهتمام العالم كله بمصر، وحديثه عنها وتتبع أخبارها، يليق بنا الآن أن نركّز على مصر وأهميتها وعظمتها ومحبة أبنائها لها.

★★ مصر في موقعها الجغرافي الممتاز، إذ تتوسط ثلاث قارات هى أفريقيا وأسيا وأوروبا. وبهذا تكون لها علاقات بهذه القارات قديماً وحديثاً. وهى بهذا أيضاً تكون في قلب الشرق الأوسط، بل هى أهم دولة في الشرق الأوسط، وأقوى دولة فيه. وهى ميزان قوته.

ومن جهة العدد هى الأكثر عدداً، إذ أن شعبها أكثر من ثمانين مليوناً.

★★ ومصر محبوبة جداً من أبنائها. كلهم يتحدون حول مصر، وتجمعهم محبة مصر، ويتغنون بها، ويرفعون شأنها، ويقولون " مصر أم الدنيا " وأيضاً " مصر هى وطن يعيش فينا". بل يقول العوام في محبتهم لمصر وحلاوة مصر: " اللي بنى مصر، كان في الأصل حلواني ". كما يقول الشاعر:

مصر التي *** في مهجتي

وأتذكر أنني قلت في محبة مصر، منذ أكثر من سنتين:

جعلتك يا مصر في مهجتي *** وأهواك يا مصر عمق الهوى
إذا غبتُ عنكِ ولو فترة *** أذوب حنيناً أقاسي النوى
إذا ما عطشت إلى الحب يوماً *** بحبك يا مصر قلبي ارتوى
نوى الكل رفعك فوق الرؤوس *** وحقاً لكل امرئي ما نوى

★★ نعم، مصر التي هى من أقدم بلاد الأرض في حضارتها التي ترجع إلى سبعة آلاف سنة من الزمان، قدمت فيها للعالم ألواناً من الفن والعلم والعمارة ما نفخر به جميعاً، وما يشتهي العالم شيئاً منه، ويجذب إليه آلاف السائحين كل عام. وفي قمة ذلك: الثلاثة

أهرامات التي تعتبر من عجائب الدنيا السبع، وأيضاً أبو الهول، والمسلات والمعابد، ووادي الكباش في الأقصر. بالإضافة إلى هرم سقارة، ومجموعة من التماثيل والصور والقطع الفنية والموميات التي تزخر بها متحف مصر العظيم وسائر فروعه من المتاحف.

★★ مصر أيضاً التي عرفت الكتابة قبل غيرها من البلاد. وكانت تكتب على ورق البردي المعروف باسم Papyrus ومن اسمه أخذت كلمة Paper بالإنجليزية، وكلمة Papier بالفرنسية، وكلمة Papier بالألمانية.

★★ أيضاً مصر التي نبغت في كثير من العلوم. ولعل في قمتها فن التحنيط بما فيه من عمق العلم، والجراحة. ومعروف أن علم الكيمياء مأخوذ من مصر التي اسمها في الهيروغليفية (كِمت) وفي القبطية (كيمي). وكذلك الطب. فكلمة طبيب بالمصرية CINI والمصدر منها (مِدسيني). وأخذت منه كلمة Medicine ومشتقاتها.

★★ نذكر أيضاً علاقة مصر بالأنبياء. ففيها وُلد موسى النبي ومعنى اسمه باللغة المصرية (المأخوذ من الماء) أي ماء مصر. ويوسف الصديق كان أعظم وزير تموين عرفته مصر، استطاع أن ينقذها والبلاد المجاورة من سنوات المجاعة. وأيضاً مصر زارها أبو الآباء إبراهيم. كما زارتها العائلة المقدسة وقضت فيها ثلاث سنوات ونصف.

ولا ننسى أن مصر - أثناء العالم الوثني - كانت تؤمن بالحياة بعد الموت، وبالثواب والعقاب، وعودة الروح إلى الجسد. ونادت بالتوحيد أيام إخناتون.

ومصر أيضاً موطن الأزهر الشريف، وأصل الرهبنة للعالم كله. لذلك جميع شعبها متدينون. كما أنها بلد الشهداء.

★★ مصر التي في عصرها الحديث، حفرت قناة السويس، فصارت بركة مواصلات للعالم، تربط الشرق بالغرب. ومصر أيضاً أقامت السد العالي الذي يحفظها من فترات الجفاف. ومصر هى التي دافعت عن فلسطين أكثر من الكل. وهى التي رفضت قواعد أجنبية على أراضيها. ومصر هى التي صارت مركزاً لاجتماع قادة العرب.

★★ حفظ اللّه مصر وأبقاها. هذه التي قيل عنها في سفر إشعياء: " مبارك شعبي مصر ". وعلينا كلنا واجب من أجلها، أن نحافظ على مصر، وعلى أمنها وسلامها. وكلنا نُصلي من أجل مصر.

٢٠ فبراير ٢٠١١

مرحلة البناء مع تساؤلات

يعجبني ذلك المثل الصيني الشهير الذي يقول: " بدلاً من أن تلعنوا الظلام، أضيئوا شمعة ".

نقول هذا لأن الصحف ازدحمت كلها بأخبار الفساد. حتى أصبحت كلمة الفساد أو الفاسدين هى أشهر كلمة على الأفواه، وأول ما تنشره الجرائد بمانشيتات في صفحاتها الأولى، كأنه ليس في بلادنا شيء من الخير! هذا مع كثرة الاتهامات لأشخاص عديدين وكثرة الاحتجاجات من عمال وموظفين على المسؤولين عنهم...

★★ أما وقد بدأت ثورة شباب ٢٥ يناير، وطالبت بأمور في الإصلاح تحققت غالبيتها، فعلينا أن نبدأ مرحلة من البناء. لأن البناء هو العنصر الأساسي في تشييد دولة جديدة قوية هى أول ما نصبو إليه.

وإن كان هناك أشخاص يرقبون الأحداث ويكتبون التاريخ، فأعظم منهم من يصنعون التاريخ. وقد بدأ صنع تاريخ جديد منذ ٢٥ يناير وسوف يكمل بالبناء.

★★ فمن الأمور التي يجب الاهتمام بها، هى بناء الأمن، بإيجاد أمن قوي يستطيع أن يحرس المواطنين في بيوتهم وأماكن عملهم، وبخاصة بعد أن انتشرت عصابات الخارجين على القانون بالنهب والسرقة والحرق حتى تطاولوا في ذلك على أقسام البوليس وبعض المحافظات وعلى محلات الصاغة واقتحام الشقق الجديدة، وشكا من ذلك محافظ القاهرة. ولذلك علينا حالياً أن نعيد بناء أو ترميم مراكز الشرطة، ويستقر فيها الضباط وجنودهم ليعملوا.

★★ نحتاج أيضاً إلى بناء الجيل الجديد أطفالاً وشباباً. ونشر روح المواطنة والأخوة، والتعامل مع الآخر في جو من المحبة. وكذلك نشر الحق والعدل، ومقاومة العنف والتخريب والقسوة وسائر أعمال الفوضى. وبهذا يمكننا بناء الشخصية المتكاملة.

★★ كما نحث كل المواطنين على الاشتراك العملي في سياسة بلدهم. وإعداد الشعب للانتخابات المقبلة التي ستنتج أعضاء الهيئة التشريعية في بلادنا وأيضاً انتخابات الرئاسة.

★★ كذلك بناء علاقات طيبة مع دول الغرب حتى يمكن أيضاً عودة السياحة إلى بلادنا كما كانت، وهى مصدر قوي لاقتصاد البلاد كما أنها تدل على الثقة بسمعة مصر وسلامها وهدوئها واستقرارها.

★★ وعلينا أيضاً معالجة مشاكل الفقر والبطالة. وليتنا نساعد الشباب على إقامة مشروعات خاصة لهم. فهى تساعدهم على الرزق، وأيضاً ينشغلون بها عن مظاهرات الاحتجاجات وعن الشكوى المستمرة. ونحن في هذا المجال نشكر الدولة على قرار منح الموظفين والمعاشات ١٥% من استحقاقاتهم المالية وأيضاً رفع المستوى المالي للعمال بحيث لا يقل عن ٦٠٠ جنيهاً كحد أدنى.

★★ نحن الآن في مفترق الطرق. وهناك آراء متعددة يفكر فيها الكثيرون. بل نحن أمام مجموعة من التساؤلات: ماذا نطلب؟

ما دامت الثورة الحالية سوف تستمر إلى حين إجابة كل طلباتهم: فما هى باقي الطلبات الأخرى. وما مدى الاستجابة لها؟ وإلى متى؟

★★ سؤال آخر عن طلبة الجامعات: إلى متى يستمر تعطيل الدراسة فيها؟ هل هناك تخوف من أن افتتاح الدراسة بالجامعة، يعنى افتتاح ثورة أخرى من الطلبة بها طلبات لم تعلن بعد؟ وإن كان هذا التخوف موجوداً، فإلى متى ستتعطل الدراسة؟

★★ سؤال آخر عن الأحزاب ما هى الأحزاب الجديدة التي سوف تتكون وتكون لها شعبيتها، وترشح نفسها لعضوية الهيئة التشريعية ولرئاسة الدولة؟ وماذا سيكون منهجها؟ ثم ماذا عن الأحزاب الحالية هل ستبقى؟ أم تنتهي على الرغم من شعبية بعضها وشعبية صحافتها التي تعبر عن رأيها؟ وماذا تكون العلاقة بين الأحزاب الحالية والأحزاب الجديدة؟

★★ ورئيس الدولة المقبل: هل ستكون له اختصاصات قوية تساعده على حكم البلاد في فترة عصيبة؟ أم تطبق عليه قاعدة " يملك ولا يحكم " كما في بعض البلاد الغربية.

ثم ما هى خصائص الدولة المدنية التي يُنادي بها الكل؟ وماذا ستكون السلطات العامة.

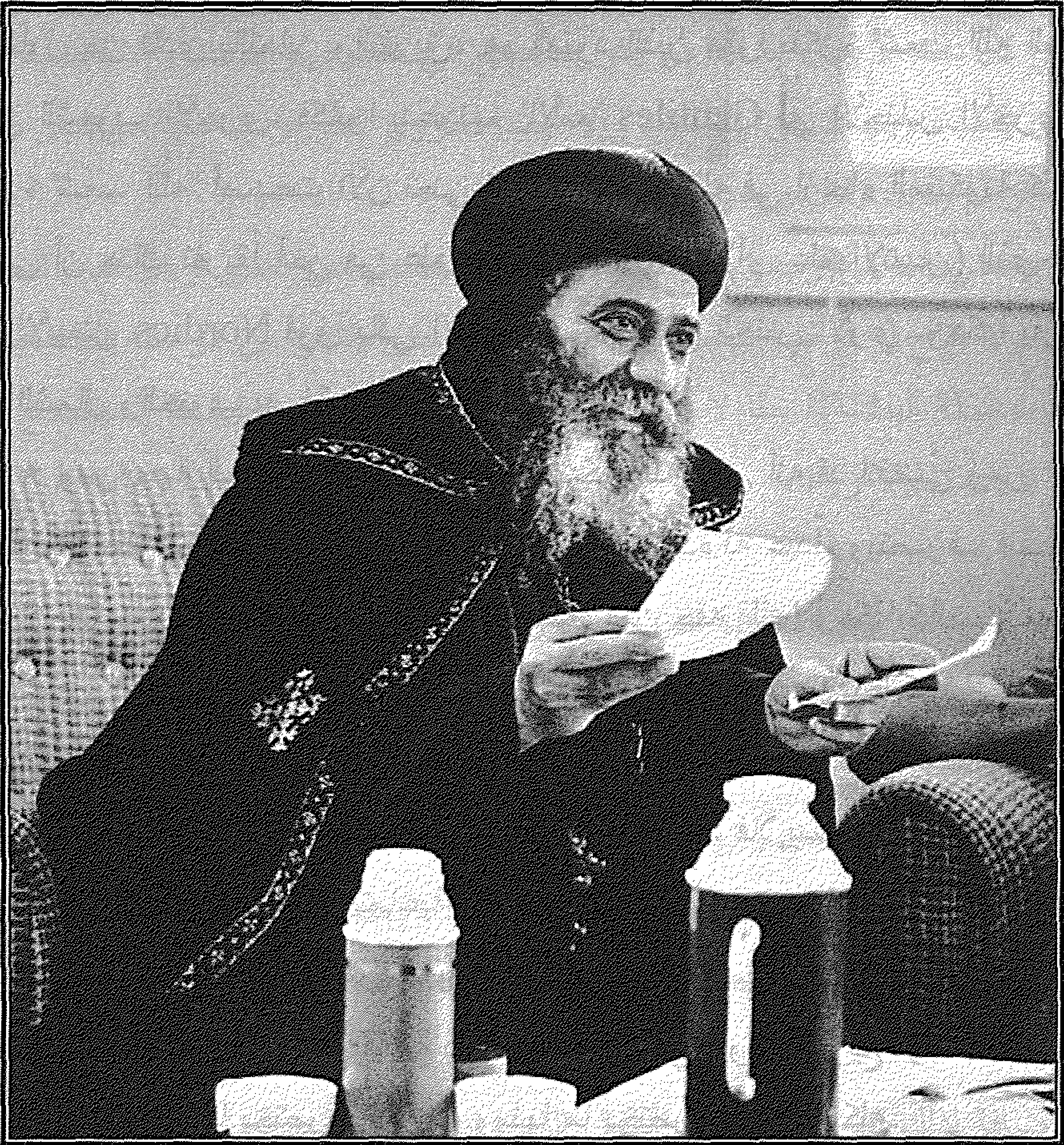
★★ والوزراء السابقون وبعض رجال السياسة ممن جمدت حساباتهم ومنعوا من السفر: متى ينتهي التحقيق معهم وتعلن النتيجة؟ والمليارات التي قيل إنها في ثروتهم، هل

يمكن استخدام بعضها في إصلاح الحالة الاقتصادية لبلادنا وفي القيام بمشروعاتنا المقبلة؟

★★ ولجنة تقصي الحقائق: متى تنتهي من عملها؟ والمخطئون متى يحاسبون؟

كذلك لجنة إعداد الدستور التي تقرر لعملها عشرة أيام. متى ستقدم قرارها؟ وماذا سيكون؟

★★ إننا نسأل، والملايين أيضاً يسألون. والمثل يقول: "الخبر اللي النهاردة بفلوس، بكره يكون ببلاش".



٢٧ فبراير ٢٠١١

العدالة الاجتماعية

العدالة الاجتماعية هى من أسمى القيم التي يحرص عليها العالم المتحضر، بل كانت موجودة منذ بداية الخليقة. وقد نادى بها الأنبياء والرسل والمصلحون والمفكرون الأحرار في تفكيرهم. وينادي بها رجال الدين على اختلاف مذاهبهم.

★★ والعدالة الاجتماعية تنادي بالمساواة وعدم التمايز. على أننا سنناقش هذه النقطة أيضاً. فأول من نادى بالتمايز والتفريق، هم اليهود الذين قالوا بفكرة "شعب اللَّه المختار". أما باقي الشعوب الأخرى، فكانوا يدعونهم "الأمم" Gentiles أي الأجناس الأخرى. على أن عبارة "شعب اللَّه" أصبحت الآن تعني كل من يؤمن باللَّه في أرجاء المسكونة كلها.

على أن هناك تفريقاً آخَر في علم Anthropology (أي علم الإنسان) الذي يضع الجنس الأبيض Nordics فوق باقي الأجناس، وفي قمته الجنس الآري. وهكذا يفرّق بين شعوب الشمال والجنوب بصفة عامة في أصلها.

★★ ومن جهة العدالة الاجتماعية، نحن نشكر اللَّه على أنه قد انقضى زمن الرق، حيث كان الإنسان يستعبد أخاه الإنسان، أو يشتريه ويتخذه له عبداً، ويتصرف فيه كما يشاء. وإن شاء أن يبيعه لغيره، أو حتى أن يقتله، فمن حقه ذلك! وهكذا كانت معروفة عبارة "العبد والسيد". ولا ننسى في هذا المجال، أن يوسف الصديق بيع كعبد!

ومع أن الرق قد زال، إلا أننا - للأسف الشديد - نرى بعض الكبار يعاملون الذين تحت أيديهم كعبيد! بينما الكل ينادون: قد خلقنا اللَّه أحراراً، فلا يستعبدنا أحد...

★★ ومن جهة العدالة الاجتماعية، نتكلم أيضاً في موضوع الاقتصاد والمال: إن اللَّه حينما خلق الأرض، أوجد فيها من الخير ما يكفي سكانها جميعاً. ومازالت خيرات اللَّه قائمة لا تنضب. ولكن المشكلة القائمة باستمرار، هى في سوء التوزيع. وهذا الأمر له جوانبه العديدة، منها ما يختص بالأفراد، ومنها ما يختص بالمجتمع كله.

★★ من المعروف أن الحياة الاشتراكية تهدف إلى إزالة الفوارق الاجتماعية، أو التقريب بين الناس، فلا تزيد الهوة في المستويات بين أفراد الشعب الواحد.

على أننا يجب أن نميز بين الشخص الذكي صاحب المواهب الذي يستطيع أن يُنمي رزقه، وإن دخل في مشروع ينجح فيه، وبين شخص غيره لا ذكاء له ولا نشاط وهو الذي يتسبب في فقره. وليس من العدالة الاجتماعية المساواة بين ذكي وغبي، أو بين نشيط وخامل، وبين صاحب مواهب ومن لا مواهب له! إنما كل واحد ينال من الأجر حسب قدرته على العمل والإنتاج.

★★ إذاً لا بد أن توجد في المجتمع طبقات. ولكننا لا نريد أن تكون الهوة واسعة بين أعلى الطبقات وأدناها، بحيث تختفي أحياناً الطبقة الوسطى! ويتكون المجتمع من كبار الأغنياء وأدنى الفقراء!

وفي كل ذلك لا يعقل إطلاقاً أن يكون الجميع في مستوى واحد. وإلا فلماذا إذاً أن يتعب من يتعب، ويجاهد من يجاهد؟! وإلا أيضاً ستزول الحوافز الداخلية، ويشعر المرء أنه تعب أو لم يتعب، فالأمر سيان!!.

★★ على أننا في وجوب العدالة الاجتماعية نتحدث عن الفقير رغم أنفه، الذي يريد أن يعمل ولا تتاح له فرصة للعمل، أو الذي يكافح حتى ينتهي من دراسته الجامعية، ثم يصطدمه مشكلة البطالة!! حقاً لا نقول إن هذا ذنبه، إنما هي خطيئة المجتمع الذي لا يوجد له عملاً ولا رزقاً.

★★ ثم هناك أيضاً مشكلة الذين يريدون أن يتعلموا، والفرصة لا تتاح لهم كثيراً. لأن عبارة "مجانية التعليم" التي نادت بها الدولة قديماً، أصبحت لا توجد في الواقع العملي. وضاعت عبارة الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي، حينما قال وهو وزير للتعليم "إن العلم لازم كالماء والهواء".

★★ حقاً ماذا يفعل الإنسان العادي، أمام مشكلة المصروفات المدرسية التي ترهقه في تعليم أبنائه، ومشكلة الدروس الخصوصية أو المجموعات، وبوجه خاص في مدارس اللغات؟!

بالإضافة لذلك كله، إن مشكلة "أطفال الشوارع" هي عار في جبين العدالة الاجتماعية، ومعها النسبة الكبيرة ممن صُنفوا بأنهم تحت مستوى الفقر. ويدخل معهم كثير من سكان النجوع، الذين لا يجدون ضروريات الحياة من كافة نواحيها.

★★ إن الدولة مسؤولة أمام الله والناس على رعاية كل الشعب من جهة المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وأن تكفل لهم حياة لا يشعرون فيها بالعوز ومذلة الاحتياج... وهنا نتعرض لمشكلة غلاء الأسعار وعدم كفاية مستوى الأجور لتغطيتها. ومعروف أن ثمن الطعام هو نفس ثمنه بالنسبة للفقير والغني. من يأتي الفقير بطعامه وطعام أولاده؟!

★★ كذلك فأن مبدأ (تكافؤ الفرص) هو من أهم مبادئ العدالة الاجتماعية. وهو بلا شك يتنافى مع ما يحدث في المجتمع من المحاباة والمحسوبية والتمييز وعد المساواة في التوظيف وفي الترقية. وكلها تدخل تحت موضوع الظلم الاجتماعي الذي لا تقره العدالة الاجتماعية.

★★ وهنا ندخل في موضوع [الاشتراكية] وما معناها... هل تعني اشتراكنا معاً في كل الحقوق السياسية، وفي كل الحقوق الاجتماعية، واشتراكنا في خير هذا الوطن وفي مصيره؟ أم أن عبارة (الاشتراكية) أصبحت بلا مفهوم واضح؟ وأخشى أن تلحقها أيضاً كلمة (المواطنة) فتصبح هى الأخرى كلمة بلا مفهوم واضح! وأيضاً "العلاج على نفقة الدولة"! فكثير من أفراد الشعب حالياً ليست لهم قدرة على مواجهة بعض الأمراض، سواء من جهة تكاليف العلاج أو ثمن الأدوية. وكل هذا ضد العدالة الاجتماعية.

★★ إننا نشجع ما تفعله الجمعيات الخيرية، والهيئات التعاونية، وما تقوم به الملاجئ، ودور الإيواء، وجمعيات الإسعاف. وأيضاً ما تقوم به الأيدي السخية في العطاء. كل أولئك لمساعدة الدولة فيما تعمله من جهة رفع الأجور، وما تنوي أن تعمله كلما أتيحت لها إمكانيات أكثر.

ونصلي من أجل أن تسود العدالة الاجتماعية في كل موضع، حتى تصبح عدالة كاملة شاملة بقدر المستطاع.

٦ مارس ٢٠١١

مخافة اللّه
وروحانية الخوف

يقول بعض الناس: مادُمنا نتعامل مع إله مُحب حنون غفور، لذلك لا نخـاف شـيئاً. فمهما أخطأنا هو يغفر لنا. وهكذا ينقادون إلى الاستهتار والاستباحة واللامبالاة! ولا شـك أنهم يحتاجون كل الاحتياج إلى مخافة اللّه. وقد قال داود النبي: " بـدء الحكمـة مخافـة اللّه ".

★★ يلزم في هذا الجيل أن نتحدث عن المخافة. لأنه قد انتزع الخوف مـن قلـوب الكثيرين، حتى من الصغار الذين لا يخافون من أب ولا من أم، ولا من مُعلِّـم، ولا مـن شيخ، ولا من رئيس، ولا من أي سُلطة في المدرسة أو في الشارع أو في العمل.

★★ إن الملائكة - وهم يتكلّلون بالبر - لا يخافون. أمَّا البشر وهم يتعرَّضون للسقوط في الخطايا كل يوم، فإن الخوف يلاحقهم، لأنه لاصق بالخطية فيما يسبقها وفي نتائجها.

وأوّل نوع من الخوف، هو خوف السقوط في الخطيئة. وهو نافع إن دفع صاحبه إلى الحرص. فالإنسان الذي يُحب أن يحيا حياة طاهرة. يخاف من الوقوع في الخطأ. لأنه قيل عن الخطيئة أنها طرحت كثيرين جرحى وكل قتلاها أقوياء. لـذلك فالإنسـان الروحـي لا يستكبر بل يخاف وبخاصة من عُنف الحروب الروحية ومن قوة الشياطين ومكرهم.

★★ فإن أخطأ الإنسان يقع في خوف آخر، هو خوف الانكشاف. فيخاف أن يعـرف الناس خطيئته، فيقع في العار أو الفضيحة، ويتعرَّض لألسنة الناس التي لا ترحم، وتصبح سمعته مضغة في الأفواه!

ومن أجل خوف الانكشاف هذا نرى أن الخطية كثيراً ما تُرتكب في الظـلام وفـي الخفاء.

★★ الخُطاة يخافون أيضاً من اليوم الأخير الذي تنكشف فيه الأعمال، وتفتح الأسفار، وتُفحص الأفكار والنيات. أين يخرجون في ذلك اليوم؟ وأين يختفون؟! فإن كانت خطاياهم قد لا تنكشف على الأرض بأسباب وطُرق شتَّى، فلا بد أنها ستنكشف أمام الديان العادل وأمام الكل في يوم الحساب، حيث لا مكتوم إلا ويُعلن، ولا خفي إلا ويُعرف ... وحيث لا تكون هناك أسرار بل الكل معروف.

★★ هناك أمر آخر يخاف منه الإنسان الروحي حتى وهو على الأرض. وذلك أن خطاياه قد تكون مكشوفة أمام أرواح الذين انتقلوا من هذا العالم، سواء أمام أحباءه الذين كانوا يثقون به فيندهشون! أو أمام الذين كانوا ينتقدونه فيرون أنهم كانوا على حق.

ولعل إنساناً يسأل: وماذا تراني أفعل إذن؟ أقول لك إن التوبة تمحو خطاياك، وكأنك لم تفعلها. فلا تعود إلى الخوف من انكشاف تلك الخطايا التي يمحوها اللَّه بالتوبة.

★★ نوع آخر من الخوف يرتبط بالخطيئة، وهو خوف العقوبة، أو الخوف من نتائج الخطية. والخاطئ يخاف من عقوبتين: إحداهما أرضية والأخرى سماوية. أمَّا العقوبة الأرضية فهي على أنواع: إمَّا عقوبة من المجتمع كالفضيحة أو الاحتقار، أو نبذ ذلك الخاطئ أو عدم الثقة به في المستقبل. أو عقوبة من القانون مثل السجن أو ما هو أشد ... أمَّا العقوبة السماوية فهي رهيبة ومخيفة.

★★ هناك خوف روحي أيضاً يتابع الخاطئ. وهو أن يخاف من غضب اللَّه عليه، أو رفض اللَّه له. أو أن يخاف من أن يأخذ الشيطان سُلطاناً عليه. ويأتي وقت يفقد فيه حرية إرادته. كما يخاف أيضاً أن تتطوَّر حالته إلى أسوأ. ويخاف أن يأتيه الموت فجاءة، وهو في حالة غفلة، أي وهو غير مُستعد لملاقاة اللَّه.

قال أحد القديسين إني أخاف من ثلاثة أمور: أخاف من لحظة مفارقة روحي لجسدي. وأخاف من ساعة الوقوف أمام الديان العادل. كذلك أخاف من لحظة صدور الحكم عليَّ... فإن كان القديسون يخافون هكذا، فماذا نقول نحن عن أنفسنا؟

★★ حقاً إن الذي يخاف اللّه لا يُخطئ. أمَّا الذي يُخطئ فهو إنسان لا يخـاف اللّـه. الذي يخاف اللّه لا يظلم ولا يتدنَّس، ولا يعمل الشر حتى في الخفاء. لأنه يعرف أن اللّـه يرى كل شيء، ويسمع كل شيء، ويفحص حتى أعماق القلوب والأفكار.

ولعلَّ البعض يسأل: ما رأيك إذن في مَن يفعل الشـر ولا يخـاف؟ نقـول إنـه وصـل إلى حالة من الاستهتار أو اللامبالاة، أو أن ضميره مـريض أو متعطِّـل عـن العمل. أو أن دوامة العالم تجرفه ولا تعطيه فرصة لمراجعة نفسه أو للتفكير في أعمالـه. فهو في غيبوبة روحية، إن استيقظ منها فلا بد سيخاف ... حقاً إن اللّه قد وهبنا المخافـة كي نصلح مسار حياتنا.

★★ إن مخافة اللّه تقود الإنسان إلى التوبة، وتمنعه من فعل الخطية قبل ارتكابهـا. أمَّا إن سقط الإنسان في الخطية، فإنها تعطيه رُعباً من نتائج الخطية ومـن عقوبـة اللّـه وهكذا تقوده إلى الرجوع إلى اللّه.

ومخافة اللّه تُعلِّم الإنسان حياة الحرص والتدقيق. فيكون مُدقِّقاً في كـل مـا يعملـه أو يقوله. ويكون حريصاً في كل ما ينوي أن يفعله، لأنه يخاف أن يسقط ويُغضِب اللّـه. أمَّا إذا لم توجد مخافة اللّه في القلب، فما أسهل أن ينطبق على هذا الإنسان المَثَـل الـذي يقول: " إذا لم تستحِ، فافعل ما تشاء!! ".

ومخافة اللّه تقود أيضاً إلى الجدِّيَّة في الحياة الروحية، وإلى أن يكون الإنسان ملتزماً وأميناً حتى في القليل. ذلك لأن مخافة اللّه أمام عينيه على الدوام.

مخافة اللّه تقود أيضاً إلى الاتضاع، وإلى الخشوع أمام اللّه وشـعور الإنسـان أنـه مجرد تراب ورماد. والذي يخاف اللّه يُحاسب نفسه على كل أفكاره ونيَّاته. وكأنه واقـف أمام جهاز تسجيل يُسجِّل عليه كل شيء: يُسجِّل مشـاعره وعواطفـه وأفكـاره ونيَّاتـه، وأخطاء اللسان وأخطاء الحواس. ويخاف أن هذا التسجيل يُذاع في اليوم الأخير.

١٣ مارس ٢٠١١

الجدِّيَّة والتدقيق

إن الفارق الجوهري بين أكثر الناجحين في حياتهم وغيرهم من الفاشلين، هو عنصر الجِّديَّة في حياة أولئك الناجحين. بحيث شملت الجدِّيَّة كل مناحي الحياة عندهم.

نرى ذلك في حياة أصحاب المشروعات، أو كبار رجال الأعمال، أو حتى طلبة الجامعة والمدارس الثانوية، حيث أن الطالب الجاد الذي يهتم بالدراسة والمراجعة وتثبيت المعلومات اهتماماً جاداً، هو الذي يتفوَّق في حياته ويصير ممتازاً.

إن الجدِّيَّة في الحياة دليل على الرجولة وقوة الشخصية. فالإنسان الجاد في روحياته، هو إنسان يحترم نفسه، ويحترم مبادئه، ويحترم الكلمة التي تخرج من فمه، ويحترم الطريق الروحي الذي يسلكه. فلذلك هو يتميَّز بالثبات وعدم الزعزعة. إنه كسفينة ضخمة تشق طريقها في بحر الحياة بقوة متجهة نحو هدفها. وليس كقارب تعصف به الأمواج في أي اتجاه.

★★ الجدِّيَّة في الحياة الروحية لا تقبل الإهمال والتراخي والتردد، والرجوع أحياناً إلى الوراء، ولا تقبل التأرجح بين الفرقتين: محبة العالم، ومحبة اللَّه. والإنسان الروحي الجاد لا يتساهل في حقوق اللَّهِ مطلقاً. إنه يأخذ حق اللَّه من نفسه أولاً قبل أن يأخذه من غيره. وهو يسلُك في وصية اللَّه بكل حزم وبكل دقة وبكل عُمق. وإذا نذر نذراً، لا يعاود التفكير فيه أو المساومة. ولا يؤجِّل الوفاء بنذره، ولا يحاول استبداله بغيره. ولا يُماطل ولا يرجع في كلمته. إنه بكل جدِّيَّة وبكل سرعة ودِقَّة ينفذ النذر واضعاً أمامه تلك العبارة: " خير لك أن لا تنذر، من أن تنذر ولا تفي ".

★★ والإنسان الروحي يكون أيضاً جاداً في توبته. لا يؤجل التوبة. وإن ترك خطيئة، يتركها بجدِّيَّة، فلا يعود إليها مرة أخرى. ويكون جاداً في مقاومة الخطايا بكل ضبط للنفس. وما أجمل قول أحد القديسين: " لا أتذكر أن الشياطين قد أطغوني في خطية واحدة مرتين ".

والإنسان الجاد في توبته، لا يعذر نفسه في سقطاته، ولا يُقدِّم تبريـرات لخطايـاه. ولا يضعف أمام الظروف الخارجية وضغطاتها. شأنه في ذلك شـأن يوسـف الصـديق العفيف الذي كانت تضغط عليه الظروف الخارجية، وتحاول إخضاعه للخطية. ولكنه لـم يتساهل مطلقاً مع إغراء السقوط، ولا بحجة أنه كان عبداً وتحت سلطان غيره، وبإمكـان سيدته أن تؤذيه.

★★ والإنسان الجاد، بكل جدِّيَّة وقوة يستخدم أية موهبة منحه اللَّه إيَّاها لتسـير فـي طريق الخير. ولعلَّ في مقدمة هذه المواهب: الوقت. فالإنسان الجاد يعتبر أن الوقت هـو جزء من حياته. إن فقد شيئاً منه، يكون قد فقد جزء من حياته. لذلك فهو يستخدم وقته كله من أجل خير المجتمع الذي يعيش فيه، ومن أجل خيره هو شخصياً. وهكذا لا يُضـيِّع أي جزء من وقته بغير فائدة.

★★ إن الجدِّيَّة ترتبط أيضاً بحياة التدقيق. ولكي نفهم التدقيق فـي عُمقـه نفتـرض الآتي: لنفرض أن ملاكاً أعلن الإنسان أن حياته على الأرض ستنتهي بعد أسبوع. فلا شك أن هذا الإنسان سيسلُك في خلال ذلك الأسبوع بكل تدقيق، استعداداً لأبديته. وعلـى هـذا القياس نود أن نتحدَّث عن حياة التدقيق.

وهكذا فالإنسان الروحي الجاد يُدقِّق في كل علاقاته مع اللَّه، ومع الناس، ومع نفسه. ويكون مُدقِّقاً في كل تصرُّف، وفي كل كلمة يلفظها، وفي كل أفكاره ونيَّاته. ويكون مُدقِّقاً من جهة حواسه ومشاعره واتجاهاته. ومن جهة مواعيده ووقته والنظام الذي يسير عليه.

والإنسان المُدقِّق، لا يكون مُدقِّقاً فقط وهو مع الناس. وإنما حتى حينما يكـون فـي حجرته الخاصة يسلك بتدقيق. إن التدقيق في التصرف قد يكون سهلاً نوعاً ما في حضرة الناس. لأننا بطبيعتنا لا نحب أن ينتقدنا الغير، ونخشى أن ننكشف أمام النـاس وتظهـر أمامهم عيوبنا. ولذلك فالمقياس الحقيقي للتدقيق هو عندما نكـون بمفردنـا. وأن يكـون التدقيق بدافع داخلي تتمثَّل فيه مبادئنا وقيمنا.

★★ الإنسان المُدقِّق كما هو حريص على وقته، هو أيضاً يكون مُدقِّقاً من جهة وقت غيره. فلا يشغل وقت غيره بغير ضابط، وبخاصة لو كان هذا الغير يخجل من أن يصده. لذلك فهو لا يُضيِّع وقت الآخرين في التوافه، أو في أحاديث تأخذ وقتاً لا تستحقه.

والإنسان الروحي ينبغي أيضاً أن يكون مُدقِّقاً في كلامه: يزن كل كلمة قبل أن يقولها، سواء من جهة معنى الكلمة أو قصدها أو مناسبتها للمجال أو للسامعين. ومعروف أن السرعة في الكلام أو إبداء الرأي أو السرعة في الحُكم على الآخرين، أو في الاستسلام للغضب، كل ذلك يُعرّض الإنسان للخطأ فلا يكون مُدقِّقاً أو موفقاً في كلامه. وكما يُدقِّق الإنسان في كلامه، ينبغي أن يُدقِّق في مزاحه وضحكه. فلا يتحول ذلك إلى نوع من التهكم على الغير أو الاستهزاء به. كما ينبغي أيضاً أن يكون مُدقِّقاً في نقضه وفي عتابه وفي توبيخه. فلا يجرح شعور غيره حينما ينصح. ولا يوبِّخ فيحطم.

★★ والإنسان المُدقِّق تظهر دقته في أداء آيَّة مسؤولية تُعهَد إليه. وطبعاً ستقوده هذه الدقة إلى النجاح وإلى إتقان عمله، وإلى احترام الناس له وثقتهم به.

★★ على أن البعض قد يُدقِّق فيما يسميه الخطايا الكبيرة. أمَّا ما يسميها بالخطايا الصغيرة، فهو يستهين بها ولا يوبِّخه ضميره عليها. كذلك على الشخص الروحي أن يُدقِّق في كل حركاته، في دخوله وفي خروجه، في صوته وفي مشيته. إن كل خطوة عنده لها حسابها. فلا تجرفه التيارات السائدة. ولا يجاري الأخطاء الشائعة. كما ينبغي أن يكون حكيماً في تدقيقه لا ينجرف بالتدقيق إلى الوسوسة حيث يُكبِّر البعض قيمة الخطأ، أو يظن خطأ حيث لا يوجد خطأ.

٢٠ مارس ٢٠١١

ما هدفك في الحياة؟

نلاحظ أن الذين نجحوا في حياتهم، كانت لغالبيتهم أهداف قوية وضعوها أمامهم. واستخدموا كل إمكانياتهم لتحقيقها.

ومحبة الهدف والرغبة في تحقيقه، منحتهم حماساً وقوة ونشاطاً. كما منحهم الهدف تركيزاً في حياتهم وتنظيماً لها. وكانت كل أعمالهم سائرة في طريق هذا الهدف في اتجاه واحد بلا انحراف.

وأيضاً جعل الهدف لحياتهم قيمة. إذ شعروا بأن هناك شيئاً يعيشون من أجله. وأصبحت حياتهم هادفة لها قيمتها. وكل دقيقة من دقائق هذه الحياة صار لها ثمن. وكلما كان الهدف في الحياة سامياً وعالياً، تكون قيمة الحياة أعظم. وتكون الحمية في القلب نار متقدة لتحقيقها.

★★ أمَّا الذي يعيش بلا هدف، فإن حياته تكون حملة وثقيلة عليه. بل تكون حياة لا معنى لها ولا طعم، ولا اتجاه ولا ثبات. وقد يدركه الملل والضجر في أحيان كثيرة. ويشعر بأن حياته رخيصة وضائقة وتافهة، يبحث فيها عن وسائل لقتل الوقت! لأن الوقت عنده لم تعد له قيمة ولا رسالة! وكثيراً ما يتساءل بعض هؤلاء: لماذا نحيا! لماذا خلقنا اللّٰه؟! ما معنى الحياة؟ وما هو غرضها؟! إن أمثال هؤلاء مساكين يعيشون، ولا يعرفون لماذا يعيشون؟! تجرفهم دوامة الحياة دون أن يشعروا. وإن شعروا يسألون: إلى أين؟!

★★ وفيما يحاول البعض أن يجعل له هدفاً ثابتاً في حياته، نرى الشيطان يستغل الفرصة، فيجول في الأرض يوزع أهدافاً. وغرضه من ذلك أن يتيه الإنسان عن الهدف الحقيقي من الحياة. ولذلك يجعل أهل العالم يلتهبون في جحيم من الرغبات الزائلة التي يعتبرونها أهدافاً.

★★ ومن بين تلك الأهداف الخاطئة، الشهوة بكل أنواعها، سواء: شهوة المـال، أو شهوة السلطة والنفوذ والعلو المستمر، أو شهوة الرئاسة والزعامـة، أو شـهوة الجسـد. والبعض يتدنّى إلى أن يصل إلى شهوة اللذّة. سواء كانت لذة الحـواس، أو لـذة الأكـل والشرب، أو لذة الراحة والخمول، أو لذة المتعة بمديح الناس أو رضاهم. ونحن لا نسمي كل هذه أهدافاً، إنما هي رغبات وشهوات. وإن حسبها البعض أهدافاً، تكون مجرد أهداف عارضة أو مؤقتة أو زائلة أو سطحية لا عمق لها. كما أنها محددة بزمن وليست ثابتة.

★★ على أن هناك هدفاً أشمل يقع فيه غالبية الناس وهو الذات. فكل إنسـان مِمَّـن يقعون في هذا الخطأ، يريد أن يبني ذاته ويكبرها، ويجعلها محور ومركز كل تفكيرهـا. يريد أن تكون لها الشهرة والسُمعة الطيِّبة والعلو. ويحب أن يجعلها موضع رضـا الكـل ومديحهم. وينشغل بذاته حتى يُهمل كل شيء في سبيلها، حتى مخافة اللَّه!! فهي تدخل إلى جوار اللَّه في القلب، ثم تتدرَّج حتى تملك القلب كله، وتبقى وحدها فيه. فيتحوَّل الإنسـان إلى عبادة الذات، ويظلّ كل حين يفكر: ماذا أكون؟ ومتى أكون؟ وكيف أكـون؟ وكيـف أتطوَّر إلى ما هو أكبر وأعظم؟ ومن المؤسف بالأكثر أنه قد يربط ذاته بشهوات خاطئـة. وبهذا يبتعد عن اللَّه بُعداً تدريجياً أو سريعاً. ويجذبه بريق العالم الحاضر وأمجاده، وملاذه ولهوه، وأحلامه وأمانيه. وينشغل بكل هذا حتى ما يتفرَّغ أبداً لأبديتـه! ويبقـى مُخـدَّراً بشهوات الدنيا وبعظمة الذات وسعادتها الوهمية. وما يفيق من كل ذلك إلاَّ ساعة المـوت حينما يترك كل تلك المظاهر-والأماني كارهاً.

★★ وهناك نوع من الناس تتحول كل أهدافه لكي تتركَّز في غيره أو فيما هم حوله من الناس. بأن يقول هدفي هو نجاح فريقي وتفوقه. أو إن كان فناناً يقول إن هدفي هو أن أُقدِّم رواية بغرض الحث على فضيلة معينة أو مهاجمة إحدى الرذائل.

والبعض يقول إن هدفي هو الإصلاح بصفة عامة. وهذا الإصلاح أُركِّز فيـه كـل مشاعري وجهدي ووقتي. ومثل هذا الشخص دائماً يعمل من أجل إصـلاح غيـره، دون أن يفكر في إصلاح نفسه. ومن أجل الإصلاح تصير حياتـه سلسـلة مـن المحاربـات والاصطدامات. وفي طريق الإصلاح يشتم ويلعن ويُشهِّر بغيره. وتكون لذته فـي نشـر

الفضائح وكافة الأخبار المسيئة إلى غيره. بل قد يقول أحياناً: إن هدفي الأكبر هو أن أحطِّم فلاناً، أو أن أُحطِّم الهيئة الفلانية!!

والإصلاح أمر هام للمجتمع. ولكن في كل ما ذكرناه عن ذلك يكون الخطأ في الوسيلة ذاتها إذا انحرفت. لأن هناك مَن يعمل في إصلاح المجتمع أو الأفراد بطريقة سليمة وبلسان عفيف، لا يخطأ فيه إلى أحد.

★★ وأنت يا أخي القارئ العزيز: لتكن أهدافك روحية، ووسائلك في تحقيق الأهداف روحية أيضاً. فمن جهة الذات مثلاً، يمكن أن تهتم بذاتك اهتماماً روحياً. وتحاول أن تكون هذه الذات ساعية بكل الجهد أن تصل إلى نقاوة القلب، ونقاوة الفكر، ونقاوة الحواس. بل عليك بالأكثر أن تبذل ذاتك من أجل اللَّه ومن أجل الآخرين. وحينئذ تجد ذاتك في عُمق الوجود الحقيقي، تجدها في القداسة وفي البر وفي الكمال النسبي.

★★ بعد كل ما قلناه من مقدمات، نقول إن الهدف الحقيقي من الحياة، هو إعدادها للأبدية السعيدة. فحياتنا على الأرض - إذا قيست بالأبدية - تعتبر لا شيء. فعلى الإنسان إذن أن يعمل لآخرته. وكما قال السيد المسيح له المجد:" ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه " ولا بد أن يأتي وقت نقف فيه أمام اللَّه جلَّ جلاله، لكي نجيب عن هذا السؤال الهام: ما الذي حققناه طوال حياتنا على الأرض؟ وهنا يجدر بنا أن نتذكَّر قول داود النبي للرب في أحد مزاميره: " معك لا أريد شيئاً على الأرض". وقوله أيضاً: " جعلت الرب أمامي في كل حين ". فإن كانت علاقتنا مع اللَّه هى أهم شيء في الحياة، فلا يليق بنا أن نشوّه هذه العلاقة بأخطاء تبعدنا عن اللَّه، سواء كانت أهدافاً زائلة وخاطئة، أو كانت وسائل خاطئة لتحقيق تلك الأهداف.

اهتم إذن يا أخي الكريم في هدف حياتك. ولا تقُل (ولو في فكرك): إنني أُفكِّر في يومي هذا فقط. أمَّا عن الحياة كلها فلم أُفكِّر في هدفها بعد!!

٢٧ مارس ٢٠١١

الخوف: أنواعه وأسبابه

في هذا الوقت، الذي لا يشعر فيه كثيرون بالأمن والأمان، انتشر الخوف وسط كثيرين. إذ لا توجد شرطة تحرس. وقد لا يوجد مَن يضبط المُعتدي إذا اعتدى.

وكما يخاف الأطفال من العفاريت - مع أنه لا يوجد عفاريت - يخاف الناس حالياً من البلطجية، ويوجد بلطجية، ويوجد خارجون على القانون، وهم مُسلَّحون...

★★ لذلك رأيت أن أُكلِّمكم في مقال اليوم عن الخوف، وتاريخه، ومصادره وأسبابه. وأيضاً عن أنواعه، وعن علاجه، وأمثلة من الشجعان غير الخائفين.

★★ عندما خلق اللَّه أبانا آدم كان يعيش مع الوحوش ولا يخاف. وكانت علاقته مع اللَّه فيها المهابة ولكنها خالية من الخوف. غير أنه بعد الخطيئة ابتدأ يخاف. ثم دخل الخوف إلى البشرية جمعاء. وتعدَّدت أسباب الخوف، وتعدَّدت نتائجه. وصار إحدى الحروب الروحية التي بها يحارب الشيطان الإنسان. هل أصبح الخوف أحد الأمراض النفسية، ودخل في طبيعة الإنسان، وأصبح هناك درجات من الخوف: منها الخشية، والفزع، والهلع، والرُّعب. بل قد يحدث أحياناً أن يموت الإنسان من شدة الخوف. ويمكن أيضاً أن يفقد عقله، أو أن تنهار أعصابه، ويرتعش جسمه خوفاً.

★★ على أن هناك نوعاً مُقدَّساً من الخوف. ونقصد به مخافة اللَّه جلَّ جلاله. وفي هذا قيل: "رأس الحكمة مخافة اللَّه". ومخافة اللَّه تدعو إلى مهابته وطاعته وحفظ وصاياه، وتقود إلى محبته وإلى حياة التوبة وحياة الخشوع. ولكن الخوف المقدس ليس هو موضوع مقالتنا اليوم.

★★ في مقدمة أنواع الخوف: الخوف الطبيعي. وقد قال أحد علماء النَّفس: إن الإنسان يخاف من ثلاثة أسباب: الظلام والمجهول والحركة المفاجئة. وواضح أن هذه الأسباب الثلاثة تتركَّز في سبب واحد هو المجهول. فالظلام يطوي خلفه مجهولاً. والحركة المفاجئة لها سبب مجهول. على أن هناك أشخاصاً لهم جسارة قلب، لا يخافون من الظلام، ولا من الحركة المفاجئة.

★★ والخوف من الموت هو أيضاً خوف من المجهول. فالموت شيء مجهول، لم يُجرِّبه الخائف. وكذلك ما وراء الموت هو شيء مجهول أيضاً.

ومن المعروف أنه يخاف من الموت الشخص غير التائب، وغير المُستعد له. ويخاف مَن يحب ملاذ ومُتع العالم الحاضر. والإنسان الروحي يستعد للموت بالتوبة والسلوك في طاعة اللَّه ومحبته. وحينئذ يختفي الخوف منه، ويمنحه اللَّه اطمئناناً. ولكن الشيطان قد يستغل خوف الموت، فيلقي بضحيته في اتجاه نفسي. إذ يجعل الإنسان يهرب من سيرة الموت وأخباره، وينهمك في ملاذ الحياة، ولا يسمع عن هذا الموضوع المُتعب.

وللأسف نجد مرضى في حالة خطيرة وعلى حافة الموت. بينما أقاربهم يبعدون عنهم هذا الاسم المخيف وكذلك أطباؤهم، بأكاذيب وطمئنيه خادعة، ويشغلونهم في أحاديث وسمر ولهو وتسلية ... إلى أن يدهمهم الموت فجأة بدون استعداد! على أن محبة الأبدية وسعادة الحياة الأخرى تُنجِّي القلب من خوف الموت وتعطيه روح الاستعداد وتبعده عن شهوات العالم. ولذلك حسناً قال القديس أُغسطينوس: " جلست على قمة العالم، حينما أحسست في نفسي أن لا أخاف شيئاً ولا أشتهي شيئاً ".

★★ هناك نوع سائد، وهو الخوف من الناس. فكثيرون يخافون الناس ويخشون أذاهم. يخشون من قوة في الناس قد تبطش بهم، أو تضيع مستقبلهم، أو تخدش سُمعتهم. أو أنهم يخشون اعتداء الناس عليهم. لذلك يعملون للناس ألف حساب.

ويستغل الشيطان خوفهم من الناس لكي يلقيهم في الملق والرياء والنِّفاق. ولا مانع من أجل إرضاء الناس أن يقولوا عن المُرّ حلواً، وعن الحلو مُرّاً. وأن يُعادوا مَن يعاديه هؤلاء، ويصادقوا مَن يصادقوه!! وتضيع المبادئ والقيم في طريق الخوف، بل قد يضيع الإيمان نفسه!!

وفي الخوف، وفي صِغر النَّفس، لا يذكر الشخص إلاَّ تلك العبارات: أرضهم مادمت في أرضهم. ودارهم مادمت في دارهم. وحيهم مادمت في حيهم!

إن الخوف يجرف مثل هذا الشخص مع التيار. فيقوده الخوف وليس الضمير. كذلك يخافون الذين يكونوا في أيديهم مصادر فوائد يمكنهم أن يمنحوها أو يمنعوها. فيخشى الشخص أن يفقد ما يشته فيسير مع التيار.

★★ وقد يخاف البعض من رؤسائهم في العمل ومَن في يدهم مصادر رزقهم.

وقد يخاف البعض ممَّن يستطيعون كشف أخطائهم. فأمَّا أن يعاملوهم بخوف في محاولة للإرضاء والإسكات. وإمَّا أن يقودهم الشيطان إلى التَّخلُّص منهم بجريمة! كالسارق الذي يقتل مَن يراه وهو يسرق. وكالزاني الذي يقتل مَن قد يفضح خطيته. ولا يكون القاتل في هذه الحالة في مركز القوة، إنما على العكس في مركز الضعف والخوف.

والناس عموماً يخافون مَن هم أقوى منهم. سواء مَن هم أقوى منهم عقلاً، أو أقوى منهم بطشاً، أو أقدر على الانتقام، أو على تدبير المشاكل. والخوف من الناس يزيدهم إيذاء. والذي يخاف من غيره قد يخضع له بالأكثر.

★★ هناك نوع آخر من الخوف، هو الخوف من الشيطان. والشيطان يُفرِحَهُ أن تخافه. لأنك في الخوف منه قد تيأس من محاربته فلا تقاوم. أو تستشعر الهزيمة كلما حاربك، فلا تستبسل في مصارعته. وعلى العكس الذي يؤمن بمعونة اللَّه له، لا يخشى إطلاقاً ولا من حروب الشياطين. لذلك لا تعطِ الشيطان قدراً فوق قدره، ولا تخف منه فوق ما ينبغي. واعلم أن ما يلزمك في معاملته، هو الحرص وليس الخوف.

★★ هناك نوع آخر من الخوف، هو الخوف بلا سبب. من أمثلته الخوف الطفولي، أو نوع من الخوف المرضي. فالطفل قد يخاف من لصوص أو أشباح في البيت، بينما لا يكون هناك لا أشباح ولا لصوص. والكبار أيضاً قد يخافون من أسباب لا وجود لها. أو يتصوَّرون مخاوف وهمية لا حقيقة لها على الإطلاق. إنما يخلقها خيالهم المريض. ومن أمثلة ذلك الذين يخافون من السحر أو العمل! والإيمان يمنع الخوف ويُذكِّر الإنسان بالقوة الإلهية الحافظة له.

٣ أبريل ٢٠١١

احترام الكبار

تعوَّدنا مُنذُ الصِّغر أن نحترم الكبار، سواء الكبار في محيط الأسرة، أو الكبار في السن، أو الرؤساء بصفة عامة، أو أُولي الأمر مِنَّا.

وصارت هذه إحدى القِيَم، أو إحدى الثوابت التي إحدى عناصر الأدب.

★★ ولمَّا كبرنا ودخلنا في مجال التعليم، أصبحت من القِيَم الثابتة احترام الأستاذ أو المُعلِّم. وكما قال أحمد شوقي أمير الشعراء في ذلك:

قِف للمُعلِّم وفِّه التبجيلا ... كاد المُعلِّم أن يكون رسولاً
أعلمت أعظم أو أجل من الذي ... يبني وينشأ أنفساً وعقولاً
سبحانك اللهمَّ خير مُعلِّم ... أنشأت بالعلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته ... وهديته النور المُبين سبيلاً

★★ ولمَّا وصلنا إلى الجامعة، صار أساتذتنا في موضع الاحترام والإجلال مِنَّا. وننظر إليهم كآباء وأُناسٍ في قمة العلم. نحترم شخصياتهم ومعلوماتهم كأشخاص بذلوا جهداً ووقتاً في البحث والتنقيب، إلى أن وصلوا إلى هذا الوضع. أين هذا من وقت أصبح فيه الطلبة يطلبون فيه عزل العميد أو حتى رئيس الجامعة!! بل أنه في بعض المدارس، صار التلاميذ الصغار يقولون: لا نريد هذا الأستاذ أو ذاك!

★★ وقد تعلَّمنا ونحن في الجيش احترام الكبار بشكل أعمق. من جهة احترام وتوقير الرُّتبة الأعلى، والخضوع لها، والوقوف أمامها في ثبات، لا يستطيع فيها صاحب الرُّتبة الأقل أن يحرِّك يديه وهو واقف يتكلَّم. بل أكثر من هذا: فإنه في الرُّتبة الواحدة، يحترم الشخص من ورد اسمه في الترقية قبلاً منه في نفس التاريخ...

★★ وفي الريف، كان احترام العمدة احتراماً واضحاً، باعتباره الكبير في القرية. يلجأ إليه الناس إن كان عندهم شكوى. ويقبلون حُكمه باعتباره القاضي بينهم.

وللأسف، نحن نجتاز فترة. نعيش فيها في شبه مجتمع لا يعترف بكبير له. وكثيراً ما يسخط على الكبار. ويصغر الكبار في عينيه ويطلب تغييرهم...

★★ أذكر أنني عندما كنت فتى منذ حوالي ٧٥ عاماً، حينما انتقلنا من الريف إلى القاهرة، حيث كانت أسرة زوجة أخي الكبير الذي ربَّاني. أنني رأيت جد هذه الأسرة، وكان رجلاً مُسناً على المعاش، أنني تقدَّمت إلى هذا الرَّجُل الأشيب، فسلَّمت عليه، وقبَّلت يده - حسب أخلاق القرية - وهنا ضج الجميع بالضحك! فالتفت لأنظر هل قال أحدهم نكتة ضحكوا بسببها. وعرفت أن تصرفي في احترام ذلك الشيخ كان هو النكتة!!

★★ حقاً إن المدينة كانت أكثر من القرية حضارة وتمدُّناً. ولكن القرية كانت أكثر عمقاً في حفظ القيم وفي احترام الكبار. ولكن بمرور الوقت، حينما تحضَّرت القرية وتمدَّنت، وحينما زحف إليها أهل المدينة وسكنوا فيها، حينئذ تغيَّرت أخلاق القرية كثيراً عن ذي قبل...

★★ إن احترام الكبار يبدأ أولاً في جو الأسرة باحترام الوالدين، ثم بِمَن هو في مستواهما مثل العم والخال. وبعد ذلك يزحف هذا المبدأ إلى دور الحضانة، حيث يحترم الطفل مربيته ويحبها. وبالمثل في مستوى الـ K. G. وأيضاً ما يُسمَّى في أمريكا مثلاً Day care.

★★ وبهذا الأسلوب القوي، يكون الدخول في مرحلة الشباب حيث يكون قد تعوَّد على احترام الكبار، ويُعتبر ذلك أدباً. وإذا بالشاب في عصر الكمبيوتر والنِّت والفيس بوك، يحترم أباه حتى إن كان ذلك الأب يجهل كل هذا الرُّقي في المعرفة. وإذا بصاحب الدكتوراه يحترم أباه حتى لو لم يكن قد حصل على مثل هذه الدرجة من التعليم. وفي نفس الوقت يحترم مَن لهم خبرة في الحياة أكثر منه.

★★ هنا وأُقدِّم مثالاً آخر، من الكشافة والجوَّالة، وما عندهم من قِيَم، وما لهم من نظام. ثم أسأل عمَّا تُقدِّمه معسكرات الشباب عندنا، من حيث برامجها، ومن أخرجتهم من أصحاب القِيَم والمبادئ.

★★ وفي احترام الكبار أيضاً، أذكر احترام الأشخاص كبار الشخصية مثل الحُكماء والعُلماء وأصحاب المواهب، ومَن تُقيم لهم الدولة حفلات تكريم، أو تمـنحهم النياشـين، اعترافاً بما وصلوا إليه من عظمة ومن فضل.

وأذكر في هذا المجال، ما قاله أحد الشُّعراء:

إذا كنـت فـي حاجـة مُرسِـلاً ... فأرسـل حكيمـاً ولا توصِـهِ
وإن باب أمـر عليـك التـوى ... فشـاور لبيبـاً ولا تعصِـهِ

★★ إن احترام الكبار يشمل بعض الفضائل الاجتماعية ومنها: لا تُكلِّم شخصاً أكبر منك، وأنت جالس وهو واقف. وإن كنت في جلسة حوار، فلا تتولَ إدارة هـذه الجلسـة في وجود مَن هُم أكبر منك، ولا تسبق الكل. ولا تحتكر الحديث، بل أعط فرصة لغيـرك ليتكلَّم. ولا تحاول أن تُعارض كل رأي. ولا ترفع صوتك على مَـن هـو أكبـر منـك. ولا تقاطعه في كلامه لكي تتكلَّم أنت. ولا تسخر برأي يُبديه. لك أن تُعارض، ولكن فـي حفظ آداب الحديث.

★★ إن عدم احترام الكبار يؤدِّي إلى أخطاء أخطر من هذه وأبشـع: فقـد يتحـوَّل إلى عدم احترام النظام العام، وعدم احترام القيم والقانون، بل والاعتراض والثورة علـى كل شيء. ورُبَّما الاعتراض على أمور بدون دراستها.

نرجو من اللَّه أن يقينا من كل هذا.

١٠ أبريل ٢٠١١

العُنف

العنف منفّر ومنذ خلق اللّه الكائنات الحية، لم يكن فيها عُنف. كان يعيش آدم وسط الحيوانات، ولم يكن يخاف أحداً منها. حتى ما سُمِّيَ منها بالوحوش، لم يكن متوحشاً أيام أبينا آدم.

★★ أول قصة في قِدم الخليقة كانت حينما قام أخو هابيل عليه فقتله. وكان هابيل هو أول ضحية للعُنف وقتذاك، أو هو أول ضحية للعنف على مدى العصور. وفي قصة الطوفان والفُلك، كانت كل الحيوانات معاً، لكي لا يفنى أحد منها حين الخروج من الفلك. فلا يحدث افتراس من متوحش لأليف. وإنما بدأ التَّوحُّش، حينما بدأت مهنة الصيد. حينما كان الناس يطاردون الحيوانات ليصيدوا هذه الحيوانات ويفتكوا بها. وكان رد الفعل من جهة الحيوانات هو التوحش. ومن هنا آتى اسم الحيوانات المتوحشة.

★★ وبعد رسو الفُلك، صرَّح اللّه للإنسان أن يأكل من اللحم، أي من لحم الحيوانات الطاهرة. وقال لهم: "غير أن لحماً بدمه لا تأكلوه". وأصبح اللّه يُطالب بدم كل إنسان يُقتل بدم الإنسان أخيه، وكان إخوته هم كل أبناء نوح .. غير أن القتل تفرَّع كثيراً بأنواعه. فصارت هناك أنواع من الحروب: الهجومية منها والدفاعية. وبعد الحرب العالمية، فصدرت قائمة بأسماء مجرمي الحرب، لأنهم رأوا أن البعض كانوا مجرمين في حق البشرية جمعاء لمسئوليتهم عن تلك الحروب التي تسبَّبوا بها في قتل وتشويه وتشريد عدد كبير من الناس بدون مُبرِّر ولا داع. وهناك قوانين عالمية لمنع أسلحة مُعيَّنة قاتلة أو مشوّهة أو مُدمِّرة. وقوانين أخرى لمنع الاعتداء على المستشفيات وعلى المدنيين والمؤسسات الإنسانية والأطفال والنساء أثناء الحرب.

★★ هناك أنواع أخرى من القتل يؤدي إليها الغضب المُدمِّر، وهى القتل المعنوي، وإن كانت لا تقتل الجسد المادي كله، إلا أنها تقتل الأعصاب. ومنها عبارات التشهير،

وإضاعة سُمعة الإنسان وقيمته الأدبية ومركزه الاجتماعي بين الناس. كل ذلك يمكن أن نسميه بالقتل الأدبي.

★★ نقطة أخرى يمكن بها لأبٍ قاسٍ أن يلغي شخصية ابنه أو يُحطِّمها بحيث ينشأ معدوم الشخصية لا يستطيع أن يتصرف في شيء. ومثله مثل أيضاً زوج مستبد مع امرأته، أو رئيس مُستبد في العمل مع مرءوسيه. يحدث ذلك عن طريق سوء المعاملة أو تثبيط الهمة باستمرار، أو إشعار الإنسان في كل مجال أنه عاجز وفاشل ولا يصلح لشيء، مع عدم إعطائه فرصة لإنماء شخصيته حتى يفشل ويخور، كل هذا قتل معنوي.

★★ في غضب الإنسان قد يدخل مع آخر في اعتداء جسدي، أو الضرب والإيذاء والتعذيب والتشويه. وقد يتطوَّر الاعتداء إلى إحداث عاهة مستديمة، بأن يفقده عضو من جسده، أو يشوّه وجهه ... الخ.

★★ وإن تطوّرنا مع مثل هذا الغضب قد نصل حتى إلى مجرد جرح شعور إنسان... وفي هذا أيضاً يمكن أن تدخل كل أمثلة قتل الأعصاب أو الإغاظة، أو يغلي المعتدى عليه داخل نفسه وتظل الأفكار تتعبه من الداخل، والحزن والألم والغيظ وكل ذلك يُعكِّر دمه وربما يمرض.

★★ هناك أنواع من الغضب الخاطئ تدخل في إرغام فتاة مثلاً على زواج لا تقبله. ويدخلها في شكوك نفسية مُتعبة كأن تهددها الأسرة بأنها في موقف رفضها إنما تدخل في مجال تعذيب أبيها أو أمها أو أن رفضها يؤدي إلى غضبهما أو إلى الشكّ في سمعتها بأنها تحب إنساناً آخر. وهناك عُنف آخر يدخل في كثرة الشكوى من الصغار، والتهديد من الكبار ... وكل ذلك ضد الوداعة والمحبة. حيث قيل عن السيد المسيح إنه: "كان لا يُخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفئ".

★★ هناك نوع آخَر من العُنف هو عنف التشامخ والسيطرة وقيل عنه في سفر إشعياء النبي: "إن لرب الجنود يوماً على هؤلاء فيخفض تشامخ الإنسان، وتوضع رفعة الناس، ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم".

★★ وقد يغضب البعض لأنه يريد أن يُتمِّم كل شيء حسب هواه. ويتضايق من الذين يقفون ضد إرادته، أو لا يسلكون حسب رأيه وطبيعي أن الإنسان كثيراً ما يختلف في الفكر والاتجاه، وفي الشعور والإرادة. ولا يمكن لهذا الإنسان أن يجد كل الناس يوافقونه. فإن أصرّ البعض على اتجاه آخَر لا بد أن يصطدم بهم ويغضب.

★★ وقد يغضب الإنسان لأنه له رغبة لم تحقق: مثال ذلك الابن المُدلَّل الذي يُقدِّم رغبات يصر على تحقيقها مهما كان الأمر. وقد يكون ذلك غير ممكناً، أو ليس في صالحه، أو ليس مناسباً من جهة الوقت. ولكنه يغضب. وقد يثور لأن رغبته لم تتحقق.

وقد تغضب الزوجة أيضاً بالمثل لرغبات تطلبها من زوجها ولم تتحقق. ولنفس السبب قد يغضب المرؤوس من رئيسه في العمل ويثور عليه.

★★ هناك سبب آخَر للغضب هو حُب التَّسلُّط. وهو تعب نفسي وروحي يقع فيه كثيرون. ولا بد أن يقود إلى الغضب، ما دام هذا التَّسلُّط يريد أن يفرض إرادته على غيره، بحق أو بغير حق. وهذا التَّسلُّط يتدخل في شئون الغير ويقيم نفسه وصياً أو رقيباً عليه. مِمَّا يؤدي إلى غضب هذا الغير، وإلى غضب المتسلط الذي يريد خضوع غيره له، رُبَّما في كل مكان يحل فيه! وإن لم يأخذوا برأيه أو بأوامره، يغضب. وقد يُعاند ويتشاجر ويعلو صوته. أو يفرض رأيه بالعنف وبالعناد وبتصلُّب الرأي!!

★★ هناك نوع آخر من الغضب يمكن أن يُسمَّى بالغضب القبلي. أي أنه إذا غضب عليك واحد منهم تجد كل مَن حوله ينضمون إليه كما قال الشاعر:

إذا غضبت عليك بنو تميم ••• وجدت القوم كلهم غضابا

مثل هذا لا يغضب لسبب شخصي، إنما تضامناً مع أفراد فرقته.

١٧ أبريل ٢٠١١

المحبة

المحبة هى قمة الفضائل كلها. أو هى جماع الفضائل كلها. وهى على أنواع: محبة اللَّه، ومحبة الخير، ومحبة الغير.

المحبة كائنة في اللَّه مُنذُ الأزل: أحبنا قبل أن نوجد، ومن أجل ذلك أوجدنا. كنا من قبل في عقله فكرة، وفي قلبه مسرة. ثم لمَّا أعدَّ لنا كل شيء، حينئذ خلقنا.

★★ المحبة هى جوهر الدين. والذي ليست فيه محبة، لا يمكن أن يكون متديناً والمحبة هى خروج من الذات إلى الغير. بحيث ينسى الإنسان ذاته، ويذكر غيره. هو إذن لا يعيش داخل ذاته (داخل الأنا)، إنما يعيش داخل قلوب الناس. يحيا لأجل غيره. ويرى خير الناس قبل خيره هو. وهكذا فيما يحب الخير، يحب الغير. وإذا كانت المحبة تملأ قلبه، حينئذ تفيض من وجهه، وتظهر في ملامحه وفي عينيه وفي كل تصرفاته وأعماله. وتلد في حياته العديد من الفضائل.

★★ والمحبة شيء غير الشهوة تماماً. فالحُب يُريد دائماً أن يعطي. أمَّا الشهوة فتريد دائماً أن تأخذ. الشهوة تكون دائماً ممتزجة بالأنا، بالذات. أمَّا الحب فيمتزج بإنكار الذات لأجل الغير. والحب الحقيقي لا بد أن يمتزج بالطهارة والنقاوة، كما يمتزج أيضاً بالحق.

★★ إنَّ المحبة كانت هى الأصل في علاقات الإنسان الأوَّل: كانت المحبة كاملة بين الإنسان واللَّه قبل الخطيئة. وكانت المحبة بين آدم وحواء طاهرة نقية، فيها البساطة والتعاون والثقة. بل كانت المحبة كائنة بين آدم والحيوانات. لا هو يصيدها، ولا هى تؤذيه. وفي ظل المحبة لم يكن يوجد الطبع الوحشي والافتراس في صفات بعض الحيوانات. بل كان الكل أليفاً. وكان أبونا آدم يحب الحيوانات ويسميها بأسماء.

ونفس الوضع كان في قصة أبينا نوح والفلك. ففي الفلك كان نوح يرعى جميع الحيوانات. وهو الذي أدخلها إليه. وكان يهتم بها فيه ويُقدِّم لها غذائها.

إذن المحبة هى الأصل والبُغضة دخيلة. بل المحبة إذ كانت في اللَّه منذ الأزل، لم يشأ أن يكون وحده. بل من جوده وكرمه أوجد مخلوقات تحيا معه. فخلق الملائكة قبلنا.

وكانت المحبة تربط بينهم. وكما قال أحد الآباء: "لو وقف عشرة آلاف من الملائكة معاً، لكان لهم جميعاً رأي واحد". وكما كان الملائكة يحبون بعضهم بعضاً، هكذا كانوا يحبون اللَّه أيضاً.

★★ والمحبة الحقيقية لها قوتها، وهي لا تسقط أبداً ولا تنهار. وقد قال سليمان الحكيم:" إذا أعطى الإنسان كل ثروة بيته بدل المحبة، تُحتقر احتقاراً ... ".

لهذا فكل فضيلة تؤسس على المحبة، تكون راسخة. وكل علاقة تُبنى على المحبة تبقى قوية ولا تتزعزع. ولهذا قال الرب: "يا ابني أعطني قلبك". إذن اللَّه يريد القلب، أي يُريد الحب. وليس مجرد الشكليات والمظاهر الخارجية. والعبادة الخالية من الحب قد رفضها اللَّه، حينما قال عن اليهود: "هذا الشعب يكرمني بشفتيه أمَّا قلبه فمبتعد عني بعيداً" ... لذلك قال عن صلواتهم وهم خطاة: "حينما تبسطون أيديكم، أستر وجهي عنكم. وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً!".

★★ والمحبة الحقيقية ينبغي أن تكون محبة عملية. فلا نحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق. ومحبتنا للَّه، يجب أن تثبتها عملياً بحفظ وصاياه. والذي يقول إنه يحب اللَّه، ومع ذلك هو لا يحفظ وصاياه، بل يخطئ إليه ... هو إنسان يخدع نفسه بلا شك.

والمحبة لها صفات تُميِّزها. ومحبتك لغيرك تلزمك أن تترفق به، وتتأنى عليه، أي تطيل بالك عليه. والمحبة الحقيقية لا تحسد ولا تتفاخر ولا تنتفخ. ولا تطلب ما لنفسها. ولا تظن السوء. وأيضاً تحتمل كل شيء وتصبر على كل شيء ... إنها منهج طويل شامل في حياة الفضيلة العملية.

★★ إذن ما علاقة المحبة بفعل الخير ومحبة الخير؟ واضح أن الذي في قلبه محبة لا بد أن يفعل الخير. ولكن ليس كل مَن يفعل الخير تكون عنده محبة في قلبه. فهناك مَن يفعل الخير مجبراً مضطراً أو عن خوف! وهناك مَن يفعل الخير لكي ينال مدحاً من الناس أو مكافأة! كذلك مَن يفعل الخير رياءً لمُجرَّد حُب المظاهر! وهناك مَن يفعل الخير وهو مُتذمِّر في قلبه. فظاهره شيء، وقلبه شيء عكس ذلك تماماً!

أمَّا الإنسان الفاضل، فهو الذي يحب الخير حتى إن لم تساعده إمكاناته على فعله. وإن فعل الخير لا يقصد من وراءه مكافأة. بل يجد لذة في فعل الخير، والدافع الأساسي الذي يدفعه هو محبة الخير.

★★ أمَّا إذا لم توجد المحبة في قلب إنسان فلا شكّ أن ذلك تنتج عنه رذائل كثيرة، تتنوع من إنسان إلى آخَر: فخلو القلب من المحبة يوجد البغضة والكراهية. وقد يتسبَّب عن ذلك الشماتة والفرح بالإثم. بينما يقول الحكيم: "لا تفرح بسقطة عدوك، ولا يبتهج قلبك إذا عثر". ومن نتائج نقص المحبة أيضاً: الغضب الحاد والحقد. وقد يتطوَّر الأمر إلى الشتيمة والضرب والقتل. وأيضاً التشهير بالغير وإشاعة المذمة ... ومن نقص المحبة أيضاً يوجد الحسد، وتوجد الكبرياء والتعالي والقسوة ...!

أمَّا نقص محبتنا نحو اللَّه، فيظهر في أمور عديدة، منها إهمال الصلاة، وقراءة كتاب اللَّه والتأمُّل فيه، وعدم محبة بيت اللَّه، وعدم الفرح بالسماء.

★★ إن اللَّه في يوم الحساب، سيفحص جميع فضائلنا، ويكافئنا فقط على ما فيها من حُب. لأن الفضيلة الخالية من الحُب، ليست فضيلة على الإطلاق. إنها ليست محسوبة لنا، وأخشى أن تكون محسوبة علينا.

إذن المحبة تتدخل في كل وصية. فكما يقول الكتاب: "لتَصِر كل أموركم في محبة".

أمَّا علاقة المحبة بكل فضيلة على حدة، فهي موضوع طويل لا تستطيع هذه الصفحة أن تتسع له. فاعذروني إن أرجئت هذا الموضوع لمناسبة أخرى.

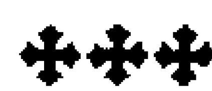
٢٤ أبريل ٢٠١١

القيامة معجزة ممكنة ولازمة ومفرحة

أهنئكم يا إخوتي جميعاً بعيد القيامة المجيد، أعاده اللَّه علينا جميعاً بالخير والبركة، وعلى بلادنا العزيزة في سلام واستقرار وأمان، بعون من اللَّه صانع الخيرات كل حين...

وأريد اليوم أن أحدِّثكم عن القيامة. وأقصد بها بلا شك قيامة الأجساد. لأن الأرواح حية بطبيعتها لا تموت. وبالتالي ليست في حاجة إلى القيامة.

★★ **هذه الأجساد التي بالموت تحوّلت إلى تراب، ستعود بالقيامة إلى الحياة.** وكما سبق اللَّه وخلقها من التراب، ومنحها الوجود، هكذا أيضاً من التراب يعيدها إلى الحياة. ثم بعد ذلك يجعلها تتحد بأرواحها. ويقف الجميع أمام اللَّه العادل، في يوم القيامة العامة أو يوم البعث. وذلك لكي يقدموا حساباً عما فعلوه في الحياة الدنيا خيراً كان أو شراً. إنه يوم الدينونة الرهيب. يتلوه المصير الأبدي لكل البشر. إمّا في النعيم الأبدي أو في العذاب.



★★ **إن قيامة الأجساد لا شك معجزة**، أي قد يعجز العقل عن فهمها وكيف تتم؟! ولذلك فإن الملحدين وأنصاف العلماء قد يضعون عراقيل أمام القيامة وإمكانيتها. وبالعكس فإن المؤمنين يؤمنون بالقيامة، لإيمانهم بقوة اللَّه وإرادته وعلمه. فمن جهة الإرادة، اللَّه يريد للإنسان أن يقوم من الموت، وقد وعده بحياة الخلود، وذكر القيامة. وما بعدها بكل وضوح وصراحة. ومن جهة المعرفة والقدرة، فإن اللَّه يعرف أين توجد عناصر هذه الأجساد التي تحللت، وأين توجد عظامها. ويعرف كيفية إعادة تشكيلها وتركيبها. واللَّه جل جلاله، هو كلي القدرة يقدر على كل ما يخص القيامة.

ولا شك أن عملية قيامة الأجساد هى أسهل بكثير من خلقها. فاللَّه الذي خلقها من التراب، هو قادر على أن يعيدها إلى الحياة. من التراب أيضاً. بل أعمق من هذا، هو خلق الأجساد من العدم. لأن التراب - قبل أن يكون تراباً - كان عدماً. ومن هذا العدم

خلق اللّه كل شيء. فهل كثير عليه إذن أن يقيم أجساداً من التراب؟! لـذلك فـإن الـذين ينكرون القيامة أو يستصعبونها، إنما في داخلهم ينكرون دون أن يشعروا بقدرة اللّه الذي يخلق من العدم.



★ **والقيامة إذن لازمة من أجل كرامة الجنس البشري.** فلولاها لكان مصير جسد الإنسان مصير أجساد الحيوانات التي تموت فينتهي وجودها بموتها؟! فما هى إذن ميـزة هذا الكائن البشري العاقل الناطق الذي أنعم اللّه عليه بموهبة التفكير والاختراع، والقـدرة على أن يصنع مركبات الفضاء التي توصله إلى القمر، وتدور به حول الأرض وترجعـه إليها، وقد جمع معلومات عن الكون لا نعرفها... هذا الإنسان الذي اخترع الـ Mobile Phone، والكمبيوتر والفيس بوك واختراعات طبية وعلمية كثيرة... هل يعقـل أن هـذا الإنسان العجيب يؤول مصيره إلى مصير بهيمة أو حشرة أو بعض الهـوام؟! إن العقـل لا يقبل شيئاً من هذا كله.



★ **والقيامة أيضاً ضرورة تستلزمها عدالة اللّه** وذلك من ناحيتين: من جهة الروح والجسد، ومن جهة أحوال الناس على الأرض.

فمن جهة الروح والجسد، نقول إن الإنسان على الرغم من خلقه في طبيعتين. طبيعة روحية وأخرى مادية، إلا أنهما اتحدا في طبيعة واحدة هى الطبيعة البشرية يشترك فيهـا الجسد والروح معاً. فالجسد ينفعل بحالة الروح، بفكرها ومشاعرها ونياتها: الروح تهـاب اللّه وتخشع له، فينحني الجسد تلقائياً. الروح تحزن، فتبكى العين فـي الجسـد، وتظهـر ملامح الحزن على الوجه. الروح تفرح، فتظهر الابتسامة على الوجه. الـروح تخـاف، فيرتعش الجسد، ويظهر الخوف في ملامح وجهه.

إنها شركة في كل شيء. ليس من العدل أن تتحملها الروح وحدها، أو الجسد وحده. بل يتحملها الاثنان معاً. وهكذا لا بد أن يقوم الجسد، وتتحد به الروح. ويقف الاثنان معـاً أمام العدالة. إن الروح وحدها لا تكوّن إنساناً كاملاً. لذلك لا بد أن يقوم الجسـد ويتحـد بها.

ولو لم تكن هناك قيامة، يتمادى الناس في ملاذ الحياة الدنيا، وفي شهواتها وفسادها، غير عابئين بما يحدث فيما بعد. أما الإيمان بالقيامة، فإنه رادع للنـــاس، إذا يؤمنـــون أن العدل سيأخذ مجراه في الحياة الأخرى.

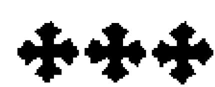


★★ **القيامة أيضاً لازمة لأجل التوازن:** ففي الأرض ليس هناك توازن بين البشـــر: ففيها الغني والفقير، السعيد والتعيس، المتنعم والمعذب. ما دام التوازن غير موجود علـــى الأرض، فمن اللائق أن يوجد في السماء. ومن لم ينل حقه على الأرض، يمكنه أن ينالـــه في السماء، بالقيامة، ويعوّضه الرب على ما فاته في الدنيا، إن كان باراً.

كذلك هناك تعويض آخَر في السماء لا يأتي إلا بالقيامة. فعلى الأرض يوجد عميان، ومعوقون، ومشوهون، وأصحاب عاهات، وكل الذين لم تنل أجسادهم حظاً مـــن الجمـــال أو من الصحة أو من القوة. فمن العدالة أن تقوم أجسادهم في اليوم الأخيـــر بـــلا عيـــب. ويعوضها اللّه عما قاسته من نقص.



★★ **القيامة هى أيضاً معجزة جميلة تقدم الحياة المثالية في العالم الآخر.** فالإنسان المثالي الذي بحث عنه ديجون الفيلسوف ولم يجده، والذي فكّر العلماء كيف.. هذا الإنسان المثالي الذي يسمونه Super Man تقدمه لنا القيامة في العالم الآخَر، في عالم ليست فيـــه خطية على الإطلاق، ولا يوجد فيه حـــزن ولا بكـــاء، ولا فســـاد ولا ظلـــم، ولا عيـــب ولا نقص. إنه عالم الأبرار الذين كافأهم اللّه عزّ وجلّ...



★★ **والقيامة هى أيضاً معجزة مفرحة لأنها باب الأبدية:** نعلن بها نهايـــة المـــوت. أو نقول إن الموت قد مات بالقيامة، إذ لا موت بعدها. ويدخل الإنسان في الحيـــاة التـــي لا تنتهي، أعني الحياة الأبدية، حياة الخلود، التي هى حلم كل إنسان على الأرض. ومـــن أجلها يضبط نفسه، ويقاوم الخطية، ويفعل البر، لكي يستحق هذا الخلود المملوء فرحاً.

أخيراً، ببركة القيامة السعيدة المجيدة، أرجو لبلادنا العزيزة كل خير. ولتكن مصـــر على الدوام بلداً للسلام والاطمئنان والأمان. وليبارك الرب شعبها واقتصادها وعلاقاتها.

١ مايو ٢٠١١

الحق كل الحق

كلنا نحب الحق، ونؤمن بأهميته. والحق اسم من أسماء اللَّه في الإسلام والمسيحية. وميزان الحق هو الذي سنُحاسب به في اليوم الأخير. لذلك ينبغي أن نضع الحق أمام أعيننا.

★★ والحق هو الذي تحكم به المحاكم الأرضية. وعندما يقف الشاهد أمام القاضي، لا بد - قبل سماع شهادته - أن يقسم باللَّه العظيم "أن يقول الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق". ذلك لأنه إن أخفى شيئاً، قد يؤثر هذا على حقيقة الأمور وعلى سير القضية.

وقد يأتي شخص إلى القاضي ويشكو إليه أن فلاناً قد اعتدى عليه. بينما يكون هو الذي سبق بالاعتداء! وما حدث له كان مجرد دفاع عن النفس من الذي يتهمه بأنه اعتدى عليه.

إذن من يطالب بالحق، لا بد أن تكون مطالبته حقاً في ذاتها.

★★ وما دمنا نتكلّم عن الحق، فإننا نقول أن ضد الحق، هو الباطل. وإن كانت كلمة الحق تعني أحياناً الصدق، فيكون ما ضد الحق، هو الكذب. فالكاذب لا يقول الحق. وقد تدخل في ذلك أيضاً المبالغة، وربما بعض الألفاظ التي تقال على سبيل الفكاهة وهي ليست حقاً. ومن ضمنها ما تسمى بكذبة أبريل، وليس من حق أحد أن يكذب في أبريل (والحمد للَّه أن أبريل هذا العام قد انتهى دون أن نسمع عن كذبته). ومما هو ضد الحق أيضاً الظلم. ومنه كذلك الاتهام الباطل، والتشهير الظالم بالآخرين. لذلك فلعلنا ننظر في مبنى المحاكم صورة الميزان. وهي تعني إعطاء كل ذي حق حقه، بغير زيادة ولا نقصان، بل بالعدل.

★★ ونعني بمن له الحق: حق اللَّه، وحق الناس، وحقك أنت. أما حق اللَّه، فهو أن تعبده وحده، ولا تعبد سواه. كذلك من حقه أن تطيعه وتحفظ جميع وصاياه. فراجع نفسك إذن: هل أنت مُقصّر في أي حق من حقوق اللَّه عليك؟

أما من جهة الناس، فعليك أن تأخذ حق اللّه من نفسك، قبل أن تأخذه من الآخـــرين. ولا تطالب أحداً بشيء، مما لا تطالب به نفسك. ولا تنتقد أحداً على شيء أنت واقع فيـــه. فليس من حقك أن تفعل ذلك. وكما يقول المثل: "من كان بيته من زجاج، لا يقذف النـــاس بالحجارة".

وأيضاً من حق الناس عليك، أنك لا تجعل راحتك على تعب الآخرين. بل بـــالحري تتعب لكي تريحهم.

★★ نقطة أخرى تلزم أن نقولها في موضوع الحق: وهى أخطاء البعض في الدفاع عن الحق! أقول هذا لأنه قد كثرت جداً في أيامنا هذه كثرة التشهير بالآخرين، وإلصـــاق العيوب العديدة بالكثيرين. وقد اتسعت دائرة الاتهام والتشهير، حتى أنه قد انتهـــى تمامـــاً زمن الناس الأفاضل، ولم يعد في البلد أحد نقي أو مستقيم!! وأصبحت عبارة الفساد مـــن أشهر العبارات المتداولة، على ألسنة الناس وفي صـــفحات الجرائـــد. وازدادت عصـــبية الناس في تداول الاتهام حتى اتهموا الزمن نفسه. وكما يقول الشاعر:

نُعيـــب زماننـــا والعيـــب فينـــا *** ومـــا لزماننـــا عيـــب ســـوانا

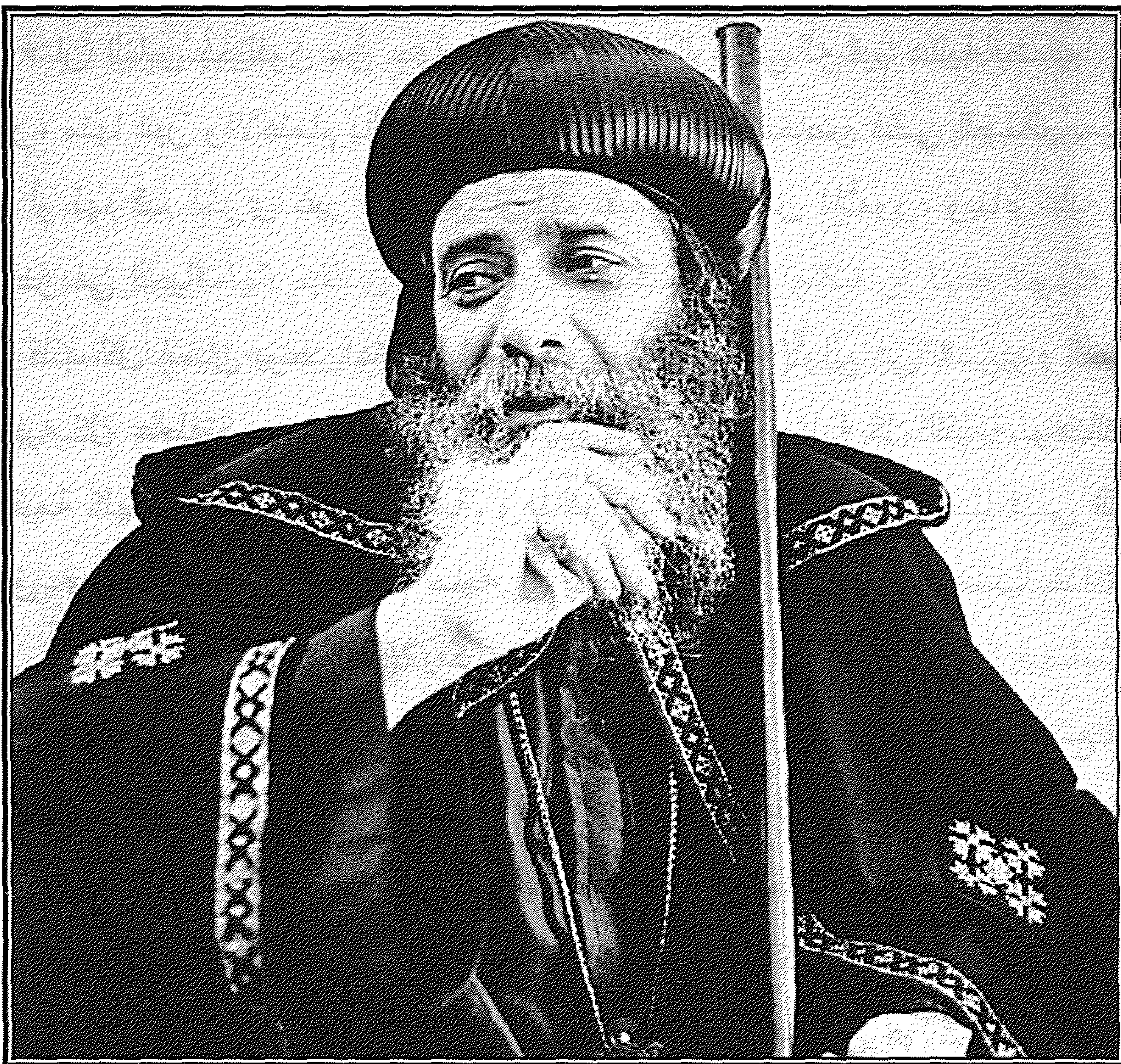
★★ من الناحية الإيجابية، أقول أن الذي يسير في طريق الحق، عليه أن يُعطي كـــل ذي حق حقه: فمن حق الإنسان الفاضل أن تمدحه، وتعطيه قدره. وهكـــذا فـــإن بعـــض الهيئات كانت تكرم من يستحقون التكريم. كما أن رؤساء الدول كانوا يمنحـــون النياشـــين والأوسمة لكبار القوم. وكذلك الهيئات العلمية تمنح شهادات للعلماء.

★★ وإن كان من حق الأفاضل والكبار أن يُكرّموا، فكذلك من حق الفقير أن يعـــيش وبخاصة في وقت ارتفعت فيه الأسعار بدرجة لا تحتملها المرتبـــات. وأصـــبحت هنـــاك درجات لمن هم في مستوى الفقر، ومن هم تحت مستوى الفقر. هناك المحتاج والمعـــوز. وإن كنا نسمع عن متاعب محدودي الدخل، فأكثر منهم من نسميهم معدومي الدخل، الذين لا إيراد لهم، ومنهم الذين يشكون من البطالة. ومن حق كل هؤلاء أن يعيشـــوا. نضـــيف أيضاً أولاد الشوارع، وجميع أنواع المعوقين.

وأيضاً المرضى الذين لا يجدون ثمن الدواء، والذين يحتاجون إلى عمليات جراحيـــة لا يقدرون إطلاقاً على تكاليفها. فهل يُتركون للموت؟! أم من حقهم أن يعيشوا.

★★ هنا وأقول: من حق الإنسان الحياة. ومن حقه أن يحيا حياة كريمة. ومن حقه التعبير عن رأيه بطريقة لائقة. ومن حق الإنسان الحرية ما دام لا يرتكب جريمة. وبحيث أنه في حريته لا يعتدي على حريات الآخرين أو حقوقهم. وأيضاً من حقه المساواة بغيره في حدود تساوي المواهب. هناك أيضاً حرية الاجتماع وهى حق بحيث لا يكون الاجتماع لغرض خاطئ. ومن حق الإنسان أيضاً الدفاع عن النفس.

وما أكثر ما قامت هيئات للدفاع عن حقوق الإنسان. بل قد صدر أيضاً الميثاق الدولي لحقوق الإنسان. وقد راعينا فيما ذكرناه أنها ليست حقوقاً مطلقة، بقدر ما هى مرتبطة بالخير. ونذكر كذلك أن كثيراً من الحقوق مرتبطة بواجبات.



٨ مايو ٢٠١١

القِيَمْ

كلمة "قِيَمْ" من الناحية اللغوية هى لفظة جمع مفردها "قيمة". وتعني الأشياء ذات القيم التي تقود الإنسان في حياته. أو هى الأمور السامية ذات القيمة التي يهتم بها كل مَن يجمع طريقاً فاضلاً. ويتمسَّك بها كمبادئ يبدأ بها كل عمل يعمله.

فما هى الأشياء التي لها قيمة في تقديرك وتقود أعمالك؟

★★ إنَّ الناس يختلفون من جهة القيم فالإنسان الروحي له قيم عالية يضعها أمامه باستمرار، منها البِرّ والاهتمام بالحياة الأبدية. بينما هناك أشخاص في العالم يعيشون بلا قيم. أو لهم قيم أخرى غير روحية. أو لهم تقيمهم الخاص للأمور. وبناءً عليه يتبعون منهجاً آخر في الحياة.

في قلب كل إنسان يوجد اهتمام بشيء مُعيَّن له القيمة الأولى في تقديره الخاص، ويُركِّز فيه كل عاطفته. وهناك مَن يُركِّز جهده في المال ويعطيه كل القيمة. وهناك مَن يُركِّز القيمة كلها في الشهرة أو العظمة. وهناك مَن يجعل القيمة كلها في النجاح أو التفوق. وهناك شخص كل القيم أمامه أن ينتصر على أعدائه ... وبحسب هذا التركيز قد تختفي القيم السامية التي رُبَّما لا يُفكِّر فيها إطلاقاً.

هنا ونتعرض لموضوع هام هو الغرض والوسيلة: فقد يوجد إنسان قد يضع أمامه غرضاً مُعيَّناً يعطيه كل القيمة. وربما في سبيل ذلك لا يهتم مطلقاً بنوعية الوسيلة الموصلة إليه. فلا مانع مثلاً من الكذب والخداع والغش والحيلة لكي يصل إلى غرضه أيَّاً كان هذا الغرض. فإن وصل يشعر بفرحة النجاح، حتى إن كان قد ارتفع على جثث غيره، أو كانت راحته تقوم على تعب الآخرين! مثل هذا الشخص هو شخص وصولي، يعيش بلا قيم. وقد فقد الغرض والوسيلة كليهما.

أما الإنسان الروحي فإنه يضع أمامه غرضاً صالحاً. وتكون وسائله إلى هذا الغرض الصالح هى وسائل صالحة أيضاً.

★★ نتكلَّم أيضاً عن النجاح: فكل إنسان يشتاق إلى النجاح. ويُمثِّل النجاح إحدى القيم التي يضعها أمامه. ولكن ما هو النجاح بمعناه الحقيقي؟ ذلك لأن الأشرار يفرحون أيضاً إذا ما نجحوا في تحقيق الشر الذي يريدونه! وكل صاحب غرض يفرح بنجاحه في الوصول إلى غرضه مهما كان خاطئاً. بينما المعنى الحقيقي للنجاح ليس هو هذا.

فالنجاح هو أن تنتصر على نفسك، لا أن تنتصر على غيرك. والنجاح هو أن تصل إلى نقاوة القلب، وليس إلى مجرد تحقيق أغراضك أيّاً كان. ونجاحك هو أن تمهّد نفسك للأبدية السعيدة، بما تفعله من برٍّ.

فإن خرج نجاحك عن هذه القيم، يكون فشلاً لا نجاحاً. لذلك كثيراً ما يفرح إنسان بأنه قد نجح، بينما السماء ترثى لحالته. وقد يظن أنه نجح في أمر من أمور هذا العالم الحاضر، بينما يكون قد خسر أبديته!

★★ لهذا علينا أن نتكلَّم عن الاهتمام بالأبدية كإحدى القيم الهامة والرئيسية في حياة الإنسان الروحي. فكل عمل أو غرض يتعارض مع أبديته، يرفضه رفضاً كاملاً، ولا يقبل في ذلك نقاشاً. ولذلك يقول في نفسه: "ماذا ينتفع الإنسان، لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟!".

ليتك تسأل نفسك أيها القارئ العزيز: ما هى قيمة الأبدية في حياتك؟ هل هى إحدى القيم الأساسية التي تحرص عليها ولا تبرح أبداً من ذاكرتك؟ أم تشغلك أمور كثيرة لا تجعلك تُفكِّر في الأبدية.

★★ وإن كان البِرّ والفضيلة هما إحدى قيمك وكذلك الأبدية، فهناك سؤال هام عن علاقتك بالغير: ما قيمته في نظرك؟ هل تنظر إلى كل إنسان باعتباره أخاً لك في البشرية: تحبه ويهمك أمره؟ وهل تحرص على مشاعر الناس، كل الناس؟ وهل تُقدِّر قيمة النَّفس، أي نفس؟ هل كل إنسان نفسه ثمينة عندك؟ تهتم بها كما تهتم بنفسك: تحب له الخير كما تحبه لنفسك؟ وتحرص عليه وعلى مصالحه كما تحرص على أعز أحبائك؟ ما يصيبه كأنه يصيبك. وما يُفرحه يُفرحك. وما يُسيئه يُسيئك؟

إن هذه هى إحدى القيم التي يحافظ عليها الإنسان الروحي. أعني تقديره لقيمة النَّفس البشرية أيّاً كانت. وحرصه الشديد في المحافظة على حقوق ومشاعر كل أحد.

إنك يا أخي - لو ارتفعت قيمة الإنسان في نظرك - لوجدت نفسك بالضرورة تحترم كل إنسان، وتحب كل إنسان. ولا تجرؤ أن تجرح شعور إنسان ما. ولا تجرؤ أن تخطئ إلى أحد، ولا أن تخطئ مع أحد وتعثره. بل تخاف أن يطالبك اللَّه بدمه في اليوم الأخير.

أنا أعرف أنك قد تهتم بمشاعر الكبار. ولكنك قد تتجاهل الصغار وتتساهم! فيجب أن تهتم بالكبير والصغير، بالعاقل وبالجاهل. ولا يكون أحد منسياً أمامك. بل كل نفس هى عزيزة عندك. وتكون مستعداً أن تتعب من أجل كل أحد يلقيه اللَّه في طريقك.

★★ هنا ونتعرَّض إلى نقطة أخرى من جهة الراحة والتعب: فالإنسان العادي يهمه أن يستريح ولو تعب الناس! أمَّا صاحب القيم فيجد راحته الحقيقية في أن يتعب لكي يستريح الناس فهذه قيمة هامة عندك.

الراحة عنده هى أن يريح غيره لا نفسه. والراحة في مفهومه هى راحة ضميره، وليس راحة جسده فقط. وهو يدرك تماماً أن الراحة الحقيقية هى الراحة في الأبدية، وليست مجرد الراحة على هذه الأرض.

إن التعب من أجل الغير هو إحدى القيم التي يهتم بها الإنسان الروحي. ويعرف أنه في الأبدية سيأخذ أجرته بحسب تعبه.

١٥ مايو ٢٠١١

الصلاح والإصلاح
ينبغي أن ينبُعا من الداخل

الحياة الروحية ليست مُجرَّد مُمارسات تعبدية تُعمل بالجسد. إنما المقياس الروحي لها، يتوقف على روحانية الإنسان من الداخل، ومن حيث دوافعه ونيَّاته ومشاعر قلبه وحالة فكره. وقد رفض الرب كل عبادة تُقدَّم إليه دون أن تكون نابعة من قلب نقي. وقال عن اليهود في العهد القديم: "هذا الشعب يُكرمني بشفتيه. وأمَّا قلبه فمُبتعد عني بعيداً!".

★★ إذن الفضائل تبدأ في القلب، ومن القلب تخرج، وتظهر في الأعمال الفاضلة. ولكن كل عمل فاضل، لا علاقة له بالقلب، لا يُحسب فضيلة على الإطلاق.

كما أن الفضيلة التي لا تتأسَّس على محبة القلب لها، لن تبقى ولا تستمر. وسنضرب بعض أمثلة:

★★ فتاة مثلاً: سمعت عظة عن الحشمة والأزياء والزينة. فتأثَّرت بها، وبدأ تغيير مظهرها الخارجي. ولكنها من الداخلِ لم تتغيَّر! ولم تتأسس في داخلها العفة الحقيقية ... هذه قد لا تستمر في مظهرية هذه (الحشمة) التي لم تنبع من قلبها. وقد تعود!

العفة في جوهرها هى احترام المرأة لجسدها، وعدم عرضه على الغير كوسيلة لإغرائهم وتحريك الشهوة فيهم. والعفة أيضاً هى لون من الخشية أمام اللَّه ... وإن كنت أقول هذا للفتاة العادية، فماذا أقول إذن للمُمثِّلات المحترفات لتمثيل أدوار الإغراء؟! على كل هؤلاء أن يُفكِّرن داخل أنفسهنَّ عن مصيرهِنَّ جميعاً في الأبدية من جهة سقوطهِنَّ ومن أسقطنه من الرجال.

★★ شخص آخر يقع في الغضب والنرفزة. ودائماً يضج ويثور ويعلو صوته، ويفقد أعصابه، ويفقد مَن يثور عليهم. هل من المعقول أن يقول مثل هذا الشخص: سوف أُدرِّب نفسي على هدوء الصوت وهدوء الحركات. ويبدو هادئاً من الخارج لفترة، بينما يكون قلبه من الداخل في أتون من نار مشتعلاً غضباً؟! كلا، بل عليه أن يبحث عن أصول النرفزة والغضب في داخله، ويُعالجها .. ربما يكون السبب هو كبرياء داخلية لا تحتمل

كلمة معارضة، أو كلمة توجيه أو نقد، مع محبته للكرامة والمديح. أو قد يكون سبب غضبه، هو أنه يريد تنفيذ رأيه أيّاً كان أو تنفيذ رغباته. أو قد يكون سبب الغضب هو كراهيته لِمَن يصطدم به، فأصبح لا يحتمل منه شيئاً، بل قد لا يحتمل مُجرَّد رؤيته، فيثور ...

أيّاً كان السبب، عليه أن يُعالجه داخل نفسه أولاً. لأن مُجرَّد الظهور بهدوء خارجي لا ينفع. بل عليه أن يكتسب في داخله فضائل الاحتمال والوداعة ومحبة الآخرين، ولوم نفسه بدلاً من لوم غيره. حينئذ ينجح في روحياته.

★★ مِثال آخر: مريض ارتفعت درجة حرارته: أيمكنك معالجته بكمادات من الثلج، أو ببعض مخفضات الحرارة؟! أم الأصح هو البحث عن السبب الداخلي الذي أدَّى إلى ارتفاع درجة الحرارة ومعالجته؟ رُبَّما كان السبب التهاباً في اللوز، أو بؤرة صديدية في أحد أعضاء الجسم من الداخل، أو غير ذلك. وإن عرفنا السبب الحقيقي، حينئذ يمكن العلاج على أساس سليم.

يا إخوتي، لا يمكن إصلاحكم لأنفسكم مُجرَّد إصلاح خارجي.

★★ هناك أيضاً مَن يُفكِّر أن يحيا حياة نقية مع اللَّه في ظروف خاصة، أو في مناسبة مُعيَّنة. فقد يكون تحت تأثير مؤقَّت يحدث، أو عظة عميقة قد سمعها أو قراءة روحية تركت فيه أثراً شديداً. أو نتيجة لمشكلة حاقت به، فقال: "إن أنقذتني يارب، فسوف أتبعك كل حياتي". وأنقذه اللَّه، فتبعه. ولكن ما أن يزول هذا المؤثِّر الخارجي، حتى يرجع كما كان ... وكذلك مَن يُصمِّم أن يحيا حياة جديدة بمناسبة عام جديد في حياته، أو أيَّة مناسبة أخرى مفرحة.

إن التدين عن أمثال هؤلاء هو تدين مناسبات، وليس عن إيمان حقيقي وعُمق في حياة الفضيلة. هو مُجرَّد تأثيرات خارجية، وانفعالات تزول بعد حين ... إذن لكي يثبت الإنسان في حياة البرّ، وفي علاقة دائمة مع اللَّه، ينبغي أن يبني بِرّه على أساس داخل القلب.

★★ وأحياناً يظن بعض رجال المجتمع أن الإصلاح قد يأتي عن طريق العقوبة. ولكن العقوبة هى عامل خارجي، ولا تصلح مع كل الحالات ولا مع كل مراحل السن.

حتى السجن مثلاً الذين يقولون عنه إنه: "تدريب وتهذيب وإصلاح". نقول نعم من جهة التأديب. أمَّا من جهة التهذيب والإصلاح، فأمر مشكوك فيه. فقد يكون الإصلاح بالنسبة إلى الآخرين الذين يخافون نفس المصير. أمَّا بالنسبة للسجين، فنادراً ما يستفيد من السجن تهذيباً وإصلاحاً. على العكس قد يمتلئ قلبه بالحقد على مَن تسبَّبوا في سجنه، وعلى القسوة التي عومل بها. ويمتلئ بالسخط من جهة سمعته، وما هو فيه من ضيق، وما ينتظره بعد الخروج من السجن. أين هو الإصلاح إذن؟! لا يوجد إصلاح إلاَّ الذي ينبع من القلب.

★★ اهتموا إذن جميعاً بأن تبنوا حياتكم الروحية من الداخل، من عُمق القلب في صلته مع اللَّه.



٢٢ مايو ٢٠١١

قساوة القلب

قساوة القلب قد تظهر في قساوة المُعاملة. بالكلمة القاسية، والنظرة القاسية، والعقوبة القاسية، والتوبيخ القاسي. وقد تكون القسوة على الجسد في تعليمه، أو قد تكون القسوة على النَّفس في إذلالها وسحقها والتشهير بها، والعنف في معاملتها.

وعكس القسوة: الرحمة والحنو والعطف والإشفاق. وهكذا فإن اللَّه يدعو دائماً إلى الحنان والعطف. ويُحذِّر القُساة من أنهم سوف يلاقون المثل. وبنفس المعاملة التي يعاملون بها غيرهم قد يقعون في نفس الجزاء.

★★ فليحترس القساة إذن. وليخافوا على أنفسهم من قساوة أنفسهم. إن القساوة حرب شيطانية. ومَن يتصف بها يشابه الشيطان في بعض صفاته. وبديهي أن القسوة ليست من صفات اللَّه، بل إن اللَّه - تبارك اسمه - رحيم باستمرار، شفوق على الكل. وواضح أن القلب الطيِّب قريب من اللَّه. إنه مثل عجينة ليِّنة في يد اللَّه، يُشكِّلها مثلما يشاء. بعكس الأشرار الذين لهم قلوب صخرية صلبة قاسية، لا تخضع لعمل اللَّه فيها. وهو سبحانه ينظر إلى الخطية على اعتبار أنها قساوة قلب. لأن القلوب الحسَّاسة لا تُعاند اللَّه مطلقاً، ولا تغلق أبوابها في وجوه الناس. إنها حساسة لصوت اللَّه ولدعوته، سريعة الاستجابة له. تتأثر جداً بمعاملات اللَّه وبعمل نعمته. وإن بعدت عنه، تحن إلى الرجوع إليه بسرعة. أقل حادثة تؤثِّر فيها. وكل كلمة روحية تذيب قلبها، وتُقرِّبه إلى حياة الحنو والشفقة. وعكس ذلك كان فرعون في قساوة قلبه إذ كان لا يلين مُطلقاً، ولا يتوب مهما كانت الضربات شديدة.

★★ القلب القاسي إذن، توبته ليست سهلة. وتأثره بوسائط النعمة ضئيل جداً ووقتي وسريع الزوال. بل قد لا يتأثر على الإطلاق.

★★ القلب القاسي يعيش في جو من اللامبالاة. والكلمة الروحية لا تترك تأثيرها في قلبه. بل قد يسخر ويتهكَّم ويرفض السماع! وقد يرفض المجال الذي يُقال فيه كلام

روحي. وتصبح وصايا اللّه ثقيلة عليه، بينما الثقل هو في قلبه. وهكذا فإن قساوة القلب تقود إلى العناد والمقاومة. رُبَّما تنصح شخصاً مخطئاً وتُبيِّن له خطأه لمدة ساعات. وكأنك لم تقُل شيئاً! فهو مُصرّ على موقفه، ويرفض أن يعترف بالخطأ. قلبه صخري لا يستجيب. وهكذا إذا استمرَّت قساوة القلب، قد تقود إلى تخلِّي النعمة عن هذا الخاطئ فيضيع.

★★ الإنسان الحساس دموعه قريبة. أمَّا القاسي فيندر أن تبتل عيناه مهما كانت الأسباب. لأن الدموع دليل على رِقة الشعور. بينما القاسي لا رقة في مشاعره في كل معاملاته.

والقاسي قد تقوده قسوته إلى الحِدَّة والشغب. إن مشاعره تشتعل ضد الآخرين بسرعة. فيحتد ويثور، ويُهدِّد وينذر. ولا يحتمل أن يمسه أحد بكلمة. وفي نفس الوقت لا يراعي مشاعر الآخرين. بل يجرح غيره في سهولة! وفي لا مبالاة. ولا مانع من أن يهين ويشتم. ولا يتأثَّر من جهة وقع الألفاظ الشديدة على مَن يسمعها. فهو قد يجمع بين أمريْن متناقضيْن: فيكون حساساً جداً من جهة المعاملة التي يُعامله بها الناس. أمَّا من جهة وقع معاملته على الآخرين فلا إحساس له بها على الإطلاق. هو إذا وبَّخ غيره بحق أو بغير حق، يكون كثير التوبيخ.. في قسوته لا يحتمل أحداً، ويريد أن يحتمله الكل.

وباختصار، فإن القسوة مُنفِّرة. ومن يستسلم لحروب القسوة، يخسر الناس ويفشل في حياته الاجتماعية.

★★ وقد يتقسَّى القلب أحياناً بسبب صُحبة شريرة لها تأثيرها عليه. وقد تُدخِل هذه الصُّحبة القساوة إلى قلبه، وتقنعه بأهمية السُّلطة والكرامة ووجوب خضوع الناس لهم. وأصدقاؤه قد يدخلون في قلبه معاني جديدة عن القوة والبطولة، أو عن الحرية الخاطئة. وهكذا يثور على كل سلطة ورئاسة، سواء في البيت أو المدرسة أو الشارع. بل قد يثور أيضاً على النظام وعلى القانون. ويرى أن الرجولة هى في فرض رأيه. وكثير من الشباب في بلاد الغرب يرفضون الخضوع لآبائهم حينما يقولون بحجة الحرية الشخصية! ويعتبر الشاب أن نصيحة والده له، هى مجرد رأى قابل للصحة والخطأ، يمكن أن يأخذ به

أو لا يأخذ! وفي ذلك يعتز برأيه الخاص ويعتد به. ويصر على أنه صاحب القرار، مهما كان حدثاً أو قليل الخبرة في الحياة! إننا نحتاج أن نُربِّي أولادنا منذ طفولتهم المبكرة، حتى لا تتلقفهم أفكار جديدة عليهم تقسي قلوبهم وتتلفهم. بل قد تدفعهم إلى الجدل في البديهيات، ورفض كل شيء لمُجرَّد الرفض. الأفكار التي تصور لهم الطاعة ضعفاً، والخضوع خنوع، والهدوء خوفاً وجُبناً! وفي تقسية قلوبهم تقلب لهم كل الموازين. فيفرحون بهذا إحساساً بقوة الشخصية.

وإن تكلَّمنا عن أثر الصُّحبة الشريرة في تقسية القلب، لا نقصد بهذه الصحبة مُجرَّد أشخاص، وإنما أيضاً الكُتب والمطبوعات، وكل وسائل الإعلام الخاطئة، والوسائل السمعية والبصرية التي يجب أن نتأكد من سلامتها.

★★ وخاصة ما نقوله عن الصغار يمكننا أن نقوله عن الكبار أيضاً في محيط الأسرة مثلاً.

مثال ذلك زوجة تُقسِّي قلب زوجها على أولاده من زوجة سابقة. وتظل تُحدِّثه عن أخطائهم وخطورتهم، حتى يثور عليهم ويقسوا في معاملاتهم. أو مثل أم تظلّ تصب في أذن ابنها المتزوج أحاديث عن أخطاء زوجته، أو إهانات هذه الزوجة لها، حتى تتغيَّر معاملته لزوجته ويقسو عليها. فعلى كل إنسان أن يكون حريصاً ولا يسمح للقسوة أن تزحف إليه من الآخرين أو من أي تأثير خارجي. وعليه عدم تصديق كل ما يسمعه.

وقد يكون من أسباب قسوة القلب، الكبرياء. وقد يكون سببها طباع موروثة. وقد تكون هناك أسباب أخرى ليس الآن مجالها. إنما ذكرنا ما قد ذكرناه كمثال.

٢٩ مايو ٢٠١١

العفة والتَّعَفُّف

التَّعفُّف يشمل عفَّة الجسد، وعفَّة الحواس (النظر والسمع واللمس)، وعفَّـــة اللســـان، وعفَّة الفكر، وعفَّة القلب، وعفَّة القلم، وعفَّة اليد.

★★ **عفة اللسان:** في عفَّة اللسان يبعد الشخص عن كل كلمة بطَّالة. فاللسان العفيف لا يلفظ كلمة شتيمة ولا كلمة تهكُّم. فالإنسان العفيف يحترم غيره، فلا يسئ إليـــه بكلمـــة جارحة، ولا بكلمة استهزاء أو احتقار أو ازدراء، في أي حديث أو أي عتـــاب. وأتـــذكَّر إنني قلت ذات مرَّة في رثاء أحد أساتذتي الروحيين منذ حوالي ستين عاماً:

يا قويـــاً لـــيس فـــي ذاتـــه عنـــف ... ووديعاً ليس فـــي طبعـــه ضـــعفُ
لـــــك أســـــلوب نزيــــه طـــــاهر ... ولســـــان أبـــيض الألفـــاظ عـــفُ
لـــم تنـــل بالـــذم مخلوقـــاً ولـــم ... تذكر السوء إذا مـــا حـــلَّ وصـــفُ

لهذا فإن الذي يستخدم ألفاظاً جارحة، أو ألفاظاً قاسية، وكأنها كرجم الطوب ... ليس هو بالإنسان العفيف اللسان.

فاللسان العفيف لا يشهر بغيره، ولا يكشف عورة إنسان في حديثه. لأن عفَّته تمنعـــه من ذلك. واللسان العفيف هو لسان مؤدَّب ومُهذَّب. يزن كل كلمة يلفظها. ولا يحتاج إلـــى مجهود لكي يتكلَّم كلاماً عفيفاً، لأنه تعوَّد ذلك وأصبح هكذا بطبعه.

واللسان العفيف لا يستخدم ألفاظاً معيبة من الناحية الأخلاقية: فـــلا يـــتلفَّظ بكلمـــات جنسية بذيئة، ولا يذكر قصصاً أو فكاهات جنسية، ولا يقبل سماعها إن قيلت من غيـــره. ولا يردد أغاني من نفس النوع، بل يخجل من النطق بها، حتى فيما بينه وبين نفسه فـــي مسكنه الخاص. إنه لا يتدنَّى إلى هذا الوضع. يمنعه أدبه من استخدام لغة لا تتفق وهـــذا الأدب الذي تعوَّده.

★★ واللسان العفيف قد تعوَّد أيضاً عفَّة التَّخاطب، وتعوَّد أيضاً أدب الحوار. فهو لا يُقاطع غيره أثناء الحديث معه. ولا يوقفه عن الكلام لكي يتكلَّم هو، ولا يعلو صوته في الحوار. ولا يحاول أن يقلل من شأن غيره في حواره معه، لكي يثبت صحة رأيه هو. ولا يهين غيره أثناء المناقشة. فكل هذه أمور لا يسمح بها أدبه.

واللسان العفيف - في حواره - يكون موضوعياً. فلا يتعرَّض إلى الجوانب الشخصية فيمَن يتحاور معه. ولا يمكن أن يصف مُحدِّثه بالجهل أو عدم الفهم. ولا يكشفه في هذه النواحي. بل يركز على موضوع النقاش.

★★ **عفَّة القلم:** عفَّة القلم ترتبط أيضاً بعفَّة اللسان. ونعني بها القلم الذي يراعي كل ما قلناه فيما يُكتب. فلا يشهر بأحد، ولا يجرح أحداً، ولا يعمد إلى الإهانة. ولا يشيع عن إنسان ما ليس فيه. بل يحرص على أعراض الناس. ويرى أن سمعتهم أمانة أمام قلمه لا يمكن أن يتجاوزها. وفيما يكتب، يكتب بموضوعية نزيهة.

وهنا نرى عفَّة النقد ونزاهته: نعني النقد العادل البريء الموضوعي، الذي يهدف إلى الحق. ويزن الأمور بميزان سليم. ويذكر النقط البيضاء أولاً، قبل غيرها من النقاط التي لا يوافق عليها. وهكذا يعطي كل ذي حق حقَّه. وفي نقده لا يدخل في نوايا الناس وفي دواخلهم، هذه التي لا يعرفها إلاَّ اللَّه وحده.

★★ **عفَّة القلب وعفَّة الفكر:** عفَّة القلب هي عفَّة المشاعر والعواطف والأحاسيس، وأيضاً عفَّة المقاصد والنيَّات والرغبات. ومن عفَّة القلب تصدر أيضاً عفَّة الفكر، وتصدر أيضاً عفَّة الحواس. وكلها خارجة من مصدر واحد. وأيضاً عفَّة اللسان صادرة عن القلب. فاللسان غير العفيف مصدره قلب غير عفيف. ومن فيض القلب يتكلَّم اللسان. والذي يتكلَّم كلاماً شريراً، يدل على أن الشر موجود في قلبه. والذي في القلب، يعبر عنه الفكر، ويعبر عنه اللسان، وتُعبِّر عنه الحواس أيضاً. وإن لم يضبط العقل والفكر حينئذ قد يتدرَّج الأمر إلى الإرادة، ثم إلى العمل.

★★ وعفَّة القلب والفكر ترتبط أيضاً بعفَّة العقل الباطن. والعقل الباطن يعمل عن طريق المخزون فيه من أفكار ومن رغبات وصور ومشاعر. فإن كان المخزون في العقل

الباطن غير عفيف، حينئذ يصدر ذلك في أحلام غير عفيفة، وفي ظنون وأفكار من نفس النوع. كما هو معروف أن كل شجر ينتج ثمراً كجنسه.

فليحرص إذن كل إنسان على عفَّة قلبه وفكره، بما يدخله فيهما من روحيات ومن محبة الخير والعفَّة. وذلك لكي يصيرا مصدراً لكل من عفَّة اللسان وعفَّة الحواس وعفَّة الجسد.

★★ **عفَّة الأُذُن:** الأُذُن العفيفة لا تلتذ إطلاقاً بسماع ما لا يليق، ولا تجد لذَّة في سماع مذمَّة الغير، أو سماع أخبار عن سقوط أو فشل من تعاديهم. فهذا نوع من الشماتة لا يتفق مع عفة القلب ولا مع عفَّة الأُذُن. وقد قال سليمان الحكيم: "لا تفرح بسقطة عدوك، ولا يبتهج قلبك إذا عثر".

والأُذُن العفيفة أيضاً هى التي لا تتصنَّت على غيرها، أي لا تتجسَّس لتعرف أسراراً ليس من حقها أن تعرفها. الأُذُن العفيفة لا تسرق أخباراً، متدخلة في خصوصيات غيرها بغير حق. والذي يفعل هذا لا يكون مُهذَّباً.

★★ **عفَّة النَّظر:** إنها أيضاً صادرة عن عفَّة القلب، يعني بها النظرات العفيفة غير الشهوانية. والإنسان العفيف ينظر بغير شهوة، بل في استحياء ... ليس في الأمور الجنسية وحدها، بل أيضاً العفَّة من جهة نظرة الاحترام لِمَن هو أكبر منه. فلا ينظر بغير أدب، بل في توقير. ويحرص عفيف النظر أن يبعد عن النظرات المتجسِّسة الفاحصة بما في ذلك من تفاصيل.

★★ يبقى علينا أن نتكلَّم عن عفَّة الجسد. وهذا موضوع طويل أحب أن أؤجِّله إلى مقالٍ آخر.

٥ يونيو ٢٠١١

حروب الأفكار

حروب الأفكار قد تكون في اليقظة، وقد تكون أثناء النوم. والأفكار التي تأتي أثناء النوم، ربما تكون مترسبة من أفكار وأخبار بالنهار. أو رسبت في العقل الباطن نتيجة لشهوات أو أفكار، أو ما جلبته الأذن من أخبار وحكايات، وما قرأه الشخص وترسَّب في ذهنه.

كل هذه تأتي في أحلام، أو في سرحان، أو ما يسمونه أحلام اليقظة. ويستمر الشخص فيها طالما كان القلب قابلاً لها. أمَّا إن كان رافضاً لها فإنها تتوقَّف ويصحو الشخص لنفسه. وإرادة الإنسان يمكنها أن تضبط الفكر. فهى التي تسمح بدخوله. أمَّا إن دخل الفكر خِلسة، فهى التي تسمح باستمراره أو بإيقافه. ومن هنا تأتي المسؤولية: هل هذه الأفكار إرادية، أو غير إرادية، أم شبه إرادية. أي من النوع الذي هو غير إرادي الآن. ولكنه نابع من إرادة سابقة تسببت فيه.

★★ فقد يغرس الشيطان فكراً في عقل الإنسان، يدخل إليه بغير إرادته. ولكن حتى هذا الفكر الذي لا مسؤولية عليه في دخوله، توجد مسؤولية عليه في قبوله. إن أراد، يمكنه أن يطرد الفكر، ولا يتعامل معه، ولا يُرحِّب به.

وقد يأتيه الفكر الخاطئ في حلم. فإن كان قلبه نقياً تماماً، سوف لا يقبل هذا الفكر في الحلم أيضاً.

★★ إذن قاوم الفكر الخاطئ في النهار أثناء يقظتك، لكي تتعوَّد المقاومة حتى بالليل أثناء نومك. وتتغرس هذه المقاومة في أعماق شعورك، ويتعودها عقلك الباطن. ولهذا نقول إنَّ زمام أفكارك في يدك. سواء منها الأفكار التي تصنعها بنفسك، أو التي ترد إليك من الخارج، من الشيطان أو من الناس. وما أصدق ذلك المثل القائل: إن كنت لا تستطيع أن تمنع الطير من أن يحوم حول رأسك، فإنك تستطيع أن تمنعه من أن يُعشِّش في شعرك.

وبإرادتك، وبعمل النعمة فيك، يمكنك السيطرة على الأفكار، فلا تجعلها تأخذ سلطاناً عليك. لذلك لا تستسلم للأفكار الخاطئة. كن حكيماً. تعرف كيف يبدأ الفكر، وكيف يتطوَّر، وما خط سيره داخل ذهنك؟ وما نوع الأفكار التي تبدأ بريئة وهادئة، وتنتهي بنهاية خاطئة؟

وإن اشتدت عليك الأفكار بطريقة ضاغطة ومستمرة، فلا تيأس ولا تقل لا فائدة من المقاومة، وتستسلم للفكر!! إن اليأس يجعل الإنسان يتراخى مع الفكر، ويفتح له أبوابه الداخلية، ويضعف أمامه ويسقط.

★★ ونضع أمامك هذه المبادئ للانتصار على الأفكار الخاطئة:

١- درّب نفسك على أن تتولى قيادة أفكارك، ولا تجعل الأفكار تقودك.

٢- املأ فكرك باستمرار بشيء روحي نافع. حتى إذا أتاك الشيطان بفكر رديء، لا يجد الذهن متفرغاً له. وهذا علاج وقائي.

إذن لا تترك عقلك في فراغ، خوفاً من أن يحتله الشيطان ويغرس فيه ما يريد. لهذا فإن القراءة الروحية مفيدة جداً. ليس فقط في شغل الذهن ومنع الأفكار الرديئة عنه، وإنما أيضاً لها فائدة إيجابية، لأنها تعطي العقل مادة روحية للتأمل، وتعطي القلب مشاعر محبة للّه وللخير، تجعله قوياً في طرد الأفكار المضادة.

٣- كن متيقظاً باستمرار، ساهراً على نقاوة قلبك. فلا يسرقك الفكر الخاطئ دون أن تحس. واطرد الأفكار الخاطئة من بادئ الأمر قبل أن تضعف وتقوى عليك. لأن إن تركت الأفكار الخاطئة باقية فترة في ذهنك، لا تلبس أن تثبت أقدامها وتقوى عليك. وكلَّما استمرت واستقرَّت، تضعف أنت أمامها ولا تستطيع مقاومتها وتسقط.

٤- اهتم بالفضيلة الروحية التي يُسمونها (استحياء الفكر). أي أن يستحي من الفكر الخاطئ فلا يقبله وسرعان ما يرفضه.

٥- ومن الناحية المضادة، ابتعد عن العثرات التي تجلب لك أفكاراً خاطئة. ابتعد عن كل لقاء خاطئ، وعن كل صداقة أو معاشرة رديئة. ابتعد عن القراءات التي تجلب لك أفكاراً لا تليق، وعما يشبه ذلك من السماعات والمناظر والأحاديث وكل مُسبِّبات الفكر البطّال.

٦- وما دامت الحواس هى أبواب الفكر، فلتكن حواسك نقيَّة لتجلب لك أفكاراً نقية. أمَّا إن تراخيت مع الحواس، فإنك بذلك إنما تحارب نفسك بنفسك.

٧- احترس من الأفكار المتوسطة، التي ليست هى خيراً ولا شراً في ذاتها. لأنها كثيراً ما تكون تمهيداً لأفكار خاطئة. فالذي لا يضبط فكره، بل يتركه شارداً هنا وهناك، قد يرسو على موضوع خاطئ ويستقر فيه. لذلك لا ينفعك أن تترك فكرك يسرح في أمور عديمة الفائدة.

٨- إن أتعبك الفكر ولم تستطع أن تنتصر عليه، اهرب منه بالحديث مع الناس. لأن حديثك معهم يطرد الفكر الذي في داخلك. إذ لا يستطيع عقلك أن ينشغل بموضوع الفكر وبالأحاديث في نفس الوقت.

٩- إن الهروب من الأفكار خير من محاربتها. لأن الفكر الشرير الذي ينشغل به عقلك: حتى لو انتصرت عليه يكون قد لوَّثك بعض الوقت.

١٠- اعرف أيضاً أن الأفكار الخاطئة إذا استمرَّت، قد تقود إلى شهوات وتكون أخطر. لأنها تنتقل حينئذ من الذهن إلى القلب، ومن الفكر إلى العاطفة.

وإن وصل بك الفكر إلى الشهوة، فلا تكملها. بل حاول أن تتخلَّص منها. وتذكَّر ما قاله أحد الحكماء: " افرحوا لا لشهوة نلتموها، بل لشهوة أذللتموها ". ذلك لأن أكثر شيء يفرح الإنسان هو أن ينتصر على نفسه، سواء في أفكاره أو في شهواته. حقاً إن فرح الانتصار على النَّفس، هو أعمق من اللَّذة بالأفكار أو بالشهوات.

وفي كل ذلك اطلب معونة اللَّه لكي تسندك. فإن القوة التي تأتيك من معونة اللَّه هى أقوى بكثير من القوة التي تُحاربك بها الخطية.

١٢ يونيو ٢٠١١

اللسان
وخطايا اللسان

اللسان جهاز عند الإنسان، أو طاقة من طاقات الإنسان، يمكن أن يُستخدَم في الخير، كما يمكن أن يُستخدَم في الشَّرِّ. به يبارك، وبه يلعن. ولذلك حسناً قيل:" بكلامك تتبرَّر، وبكلامك تُدان ". وكما يكافئ اللَّه الإنسان عن كل كلمة طيبة يقولها. فكذلك كل كلمة بطَّالة يتكلَّم بها الناس، سوف يعطون عنها حساباً في يوم الدِّين.

والمقصود بالكلمة البطَّالة، ليس فقط الكلمة الشريرة، إنما أيضاً الكلمة التي بلا منفعة. ذلك لأن اللَّه لم يخلق اللسان عبثاً، إنما خلقه لفائدة. إن لم يؤدها يكون طاقة مُعطَّلة. فليس كل فضل اللسان أنه لا يخطئ، بل لا بد أن يكون له عمل إيجابي. لأنه هل من المعقول أن توجد آلة، كل فائدتها أنها لا تضر أحداً؟! أم لا بد أن يكون لها إنتاج مفيد؟ هكذا اللسان...

لذلك فالثرثرة هى إحدى خطايا اللسان. لأنها استخدام للسان بطريقة خاطئة، وربما بطريقة مزعجة. ولأنها أيضاً إضاعة لوقت السامع، ولوقت المُتكلِّم أيضاً.

★★ إن خطايا اللسان مصدرها القلب، لأنه من فيض القلب يتكلَّم اللسان. ومع ذلك قد يغضب إنسان، ويتلفَّظ أثناء غضبه بألفاظ شديدة غير لائقة. ومع ذلك قد يعتذر عنه أصدقاؤه ويقولون: إنه على الرغم من أخطائه فإن قلبه أبيض!! وهذا خطأ واضح لأن القلب الأبيض تكون ألفاظه بيضاء مثله. فالإنسان الصالح، من الفضائل الموجودة في قلبه يتكلَّم بالصالحات. أمَّا الإنسان الشرير، فمن الشر الموجود في قلبه تخرج الألفاظ الشريرة. وهكذا فإنه من نوع الثمرة تعرف الشجرة.

إذن الألفاظ الخاطئة، تدل على وجود نفس الأخطاء داخل القلب. إذن فخطية اللسان هى خطية مزدوجة، أي خطية قلب وخطية لسان. فالألفاظ القاسية تدل على قلبٍ قاسٍ. والألفاظ المتكبِّرة تدل على قلب مُتكبِّر. والألفاظ المستهترة تدل على قلب مستهتر. والألفاظ الحاقدة تدل على قلب حاقد ... وهكذا في باقي الألفاظ.

فالذي يريد أن يصلح ألفاظه، عليه أن يصلح قلبه أولاً. وإلاَّ فإنه سوف يقع في خطية أخرى هى الرياء. أي أن يقول ألفاظاً بلسانه هى عكس المشاعر التي في قلبه.

يمكننا إذن أن نقول أن خطية اللسان هى الخطية الثانية. أمَّا الأولى فقد بدأت في القلب. وقد تكون خطية ثالثة. أي الأولى خطية القلب والثانية خطية الإرادة والثالثة خطية اللسان.

ولنضرب مثلاً بخطية الكذب: يندر أو يستحيل، أن تكون خطية الكذب هى خطية أولى. وإنما في غالبية الحالات أو فيها كلها، تكون خطية ابنة لخطية أم، هى الخطية السابقة لها التي أنتجتها. أو هى نتيجة لخطية أخرى يُراد إخفاؤها، متحدة بخطية الخوف أو خطية الظهور بمظهر بار غير مخطئ. ومن كل تلك الخطايا تتولَّد خطية الكذب.

★★ وكذلك فإن خطية النرفزة، هى خطية ثالثة أو رابعة. فالألفاظ الشديدة أو القاسية التي يقولها الإنسان في نرفزته، طبيعي أنها لم تصدر من فراغ. إنما هى قد ولدت من خطايا أخرى: ربما منها محبة الذات وكرامتها أو مصلحتها، مع خطية عدم الاحتمال، وكذلك خطية القسوة، وأيضاً عدم محبة أو احترام الشخص الذي وجهت إليه تلك الألفاظ القاسية. ومن هذه الخطايا المجتمعة تتولَّد خطية الألفاظ القاسية أو الجارحة أثناء النرفزة. وتكون هى الخطية الخامسة في الترتيب.

والذي يريد أن يُعالِج نفسه من الغضب ومن الألفاظ القاسية التي يقولها في غضبه، عليه أن يُعالج قلبه من كل تلك الخطايا السابقة. أمَّا إذا أراد أن يُبرِّر نفسه في غضبه وألفاظه القاسية، لتغطية نفسه، إنما يُشكِّل خطية سادسة في الترتيب هى خطية تبرير الذات. والمفروض في الإنسان الروحي أنه لا يُبرِّر ذاته، إنما يدين ذاته.

وبنفس الوضع إذا فحصنا جميع خطايا اللسان، ستجدها كلها خطايا مركبة. يمكن بتحليل كل منها أن نجد عديداً من الخطايا.

★★ ومن خطورة خطية اللسان: أن الكلمة الخاطئة التي تخرج من فمك، لا تستطيع أن تسترجعها! ربما تندم عليها، أو تحاول الاعتذار عنها. ولكن الأمر الذي خرج عن إرادتك، هو أن غيرك قد سمع كلامك، بكل ما يحمل هذا السمع من تأثرات.

وهنا تختلف خطايا اللسان عن خطايا الفكر وخطايا القلب التي هى في داخلك. والتي هى قاصرة عليك وحدك لم تنكشف أمام الآخرين.

★★ كذلك من خطورة خطايا اللسان، مدى تأثيرها على مَن يسمعها: فلنفرض مثلاً أنك حقدت على إنسان، وساءت مشاعرك من نحوه، فمازال الأمر داخل قلبك لم يصل إليه. أمَّا إذا انكشفت مشاعرك بألفاظ نطقت بها، تكون قد أساءت إليه، وربما لا تستطيع معالجة الأمر. ذلك لأن الحقد الذي كان في قلبك، قد تطوَّر إلى علاقة خارجية مع غيرك... وربما كلام الإساءة الذي لفظت به يكون قد سمعه آخرون أيضاً، وحينئذ تكون الدائرة قد اتسعت. فقد يتحمَّس الذين سمعوه، وقد تتغيَّر قلوبهم نحوك. عليك إذن أن تضع أمراً هاماً أمامك وهو ردود الفعل لكل ما تلفظ به من كلام.

ولكن موضوع خطايا اللسان هو موضع طويل لم ننتهِ منه بعد ...



١٩ يونيو ٢٠١١

أنواع من خطايا اللسان
مع نصائح

ما أكثر الخطايا والأخطاء التي يقع فيها اللسان، ويبدو من الصعب حصرها.

منها خطايا الكبرياء والتعالي: كأن يستخدم الشخص كلمة "أنا" كثيراً في مجال الافتخار بالنفس. فيقول أنا قلت، أنا فعلت، وذلك بأسلوب افتخار يتطلَّب فيه مديح السامع. أو يمتدح هو نفسه إن لم يمدحه أحد. وفي مجال الافتخار بالذات يحاول أن يُبرِّر نفسه في كل ما يُنسب إليه من أخطاء، وبطريقة غير مقبولة ... وفي الحوار مع غيره، لا مانع من أن يُقاطعه في الحديث، لكي يتكلَّم هو. إلى جوار أسلوب التشبُّث بالرأي والمقاوحة.

★★ ومن أخطاء اللسان أيضاً خطايا الكذب: ومنها الكذب الصريح، وأيضاً المبالغة والتي تدخل أحياناً في مجال الكذب. ومنها مثلاً أن يقول: إن أهل البلد الفلانية كلهم بخلاء، بينما يوجد فيها الكثير من رجال الكرم! وعموماً كلمة كل أو كلمة جميع بالنسبة إلى طباع الناس غالباً ما يشملها الخطأ الجسيم.

ومن أخطاء اللسان في هذا المجال أنصاف الحقائق التي لا تُعبِّر عن الحقيقة خالصة. من أجل ذلك فإن الذي يشهد أمام القضاء، يقول قبل أن يُدلي بشهادته: "أشهد أن أقول الحق كل الحق، ولا شيء غير الحق". وفي مجال الكذب نذكر أيضاً العبارات التي تحوي الغِش أو الخداع أو التضليل والتلفيق، وشهادة الزور، والمغالطة، والمكر.

★★ كذلك توجد أخطاء للسان مصدرها الكراهية أو عدم المحبة: مثل كلام الشتائم بكل أنواعه، والسب واللعن، أو على الأقل الحكم بإدانة الآخرين وتحقيرهم. وما يصحب ذلك أحياناً من النرفزة وعلو الصوت. وكذلك التهكُّم على الآخرين، ومَسك سيرتهم، والغيبة، والنميمة، والدسيسة.

★★ ومن أخطاء اللسان أيضاً، ألفاظ التهديد والتعيير وإفشاء أسرار الناس، والتشهير بهم، وإلقاء المسؤولية عليهم ظلماً، مع الهروب من المسؤولية الشخصية ... وكذلك نشر الشائعات بما يسيء إلى الغير.

★★ ومن أخطاء اللسان أيضاً، خطايا القسوة: ومنها الكلام الجارح الموجع، الذي لا يُبالي قائله فيه بمشاعر مَن يتحدث إليهم أو ما يتحدَّث عنهم. وكذلك ألفاظ التخويف والتهديد وما إلى ذلك ... وقد يحدث ذلك في مجال الإدارة أحياناً، أو في مجال الأسرة.

★★ ومن أخطاء اللسان أيضاً، الكلام غير العفيف: مثل القصص البطالة، والفكاهات الماجنة، والأغاني العابثة، والعبارات البوليسية، وكل كلام الإغراء، وبخاصة الأسلوب المكشوف، والأسلوب غير المُهذَّب، أو الوقح، وكل ما تستحي الأذن المحتشمة من سماعه.

★★ وهناك أيضاً أخطاء للسان مصدرها صغر النفس. وهذه قد تحدث أحياناً من الصغار نحو الكبار: ومنها ألفاظ التملُّق والرِّياء، والمديح الزائف، والنفاق، والرياء. وقد يحدث ذلك في مجاراة المخطئين في أخطائهم، والسلوك بلسانين، أو الاتجاه مع كل ريح. ونذكر في هذا المجال أيضاً كثرة الشكوى والتذمُّر، وعبارات الخوف واليأس ...

★★ كذلك توجد أخطاء للسان في الفكر الديني: مثل كلام التجديف، ونشر الشكوك في الدين والعقيدة، ونشر البِدَع وإعثار الآخرين. وأيضاً استخدام اسم اللَّه باطلاً بل أكثر من هذا استخدام اسم اللَّه حينما يكون المُتكلِّم كاذباً. ومن أخطاء اللسان دينياً ما يذكره من خرافات يحاول أن يؤمن الناس بها.

★★ ومن أخطاء اللسان أيضاً ما يرويه الإنسان عن جهل. وربما يحاول أن يقنع الغير بما يجهله. وقد يحدث ذلك عندما يدخل شخص في حوار حول القنبلة الذرية، أو القنبلة الهيدروجينية، وبعض الأمور العالية جداً في مجال العلم ... وفي كل ذلك يريد أن يظهر أنه يعرف، بينما هو لا يعرف شيئاً!!

★★ ونود في هذا المجال أن نُقدِّم بعض النصائح:

أول نصيحة هامة هى الإبطاء في الكلام. فلا تسرع إطلاقاً في كلامك، وبخاصة لو كنت في حالة انفعال أو غضب. فربما لا تستطيع أن تضبط نفسك، ولا أن تدقق في اختيار الألفاظ المناسبة، فتكون عرضة للخطأ.

وإن أغضبك أحد لا تسرع بالرد. إنما حاول أن تهدأ نفسك أولاً. ولا تحاول أن تجعل الانفعال هو الذي يُجيب بدلاً من العقل. بينما الانفعال هو خطر عليك وعلى سامعك. وربما لا تستطيع أن تُعالج نتائجه.

وإن كنت رئيساً لغيرك، أو أباً، أو قائداً في مجال مُعيَّن، فلا تعطِ نفسك الحق في الكلام بلا ضابط، أو بلا مراعاة لمشاعر غيرك. ذلك لأن الكبار، كثيراً ما يعطون أنفسهم حقوقاً أزيد مِمَّا يجب، لا يراعون فيها إحساسات مَن هم أصغر منهم سناً أو مركزاً، مدّعين أن لهم الحق في أن يوبِّخوا وأن يؤدِّبوا، ناسين أن كل هذا ينبغي أن يكون في لياقة وحسب ترتيب. إنه أمر محزن، أن يفقد الكبار أبديتهم في توبيخ مَن هم أصغر منهم!!

★★ قبل أن تلفظ أية كلمة، حاول أن تستعرض في فكرك ما هى ردود الفعل لهذه الكلمة عند غيرك، وما هى ردود الفعل عند غيرك؟ لذلك ما أجمل قول داود النبي في المزمور: "ضع يارب حافظاً لفمي، باباً حصيناً لشفتي". وأيضاً ما أعمق ما قاله أحد القديسين: "كثيراً ما تكلَّمت فندمت. أمَّا عن سكوتي فما ندمت قَط"... لهذا فإن بعض الآباء الكبار وجدوا أحياناً أن الصمت هو علاج نافع لأخطاء اللسان. لهذا حاول أن تتكلَّم حينما تكون هناك ضرورة للكلام، حسب حاجة الموقف. وإذا تكلَّمت، فليكن ذلك بصوت هادئ رصين، تحتفظ فيه بآداب الحديث. وليتني أستطيع في مناسبة أخرى أن أُحدِّثك بإسهاب عن آداب الحديث.

★★ ونصيحتي لك أيضاً: لا تكن شغوفاً بتعليم غيرك، أو بالحديث عن معلوماتك الواسعة. كذلك حاول أن تتجنَّب التحدُّث في أي موضوع خارج دائرة اختصاصاتك. ولا تعمل على إساءة مشاعر غيرك بالكلام.

وأخيراً حاول أن تأخذ درساً من كل أخطائك السابقة في الكلام، رغبة في تفاديها. ولتكن كل كلمة من كلامك بميزان دقيق. وليكن كلامك للمنفعة.

٢٦ يونيو ٢٠١١

طاقات الإنسان
استخدامها وتنميتها

إن اللَّه في كرمه وجوده قد زود الإنسان بطاقات كثيرة، كل منها لها اختصاصاتها وإمكانياتها. ونذكر منها: العقل والروح والنَّفس والضمير والإرادة والحواس. يُضاف إلى كل هذا ما يمنحه اللَّه - تبارك اسمه - لكل إنسان على حدة من مواهب. ويختلف كل إنسان عن غيره في درجة هذه الطاقات كلها.

★★ صدقوني إننا لم نعرف بعد مقدار عظمة كل هذه الطاقات البشرية العجيبة.

مَن كان يتصوَّر أن العقل مثلاً، يمكن أن تصل طاقاته إلى اختراع سفن الفضاء، تصل إلى القمر مباشرة، ويتمشَّى الإنسان عليه .. أو أن يخترع أقماراً صناعية تجول حول العالم، وتجمع أخباراً وترسل صوراً عن كواكب في السماء!! ومَن كان يتصوَّر أن العقل البشري يستطيع أن يتوصَّل إلى اختراع عقل آلي، واختراع الكمبيوتر، والـ Mobile Phone، ويستعين بالآلة على سرعة التفكير، وجمع المعلومات، واسترداد الحقائق!!

وليست طاقات العقل هذه ضد الدين في شيء. فاللَّه هو الذي خلق العقل ومنحه طاقاته. وكل ما يصل العقل إليه، يرجع الفضل فيه أولاً وأخيراً إلى اللَّه - تبارك اسمه - فهو الذي وضع في العقل كل هذه القدرات حين خلقها. ويمكننا أن نقول إننا لم نصل بعد إلى اكتشاف كل طاقات العقل، الذي يمكنه أن يخترع أموراً أخرى لا تخطر حالياً على فكر إنسان.

★★ والروح في الإنسان لها أيضاً طاقات عجيبة مذهلة، وكثير من الناس لا يعرفون كل طاقات الروح، لأنهم لم يكتشفوا تلك الطاقات ولم يستخدموها. ونحن حينما نقرأ عن تداريب الروح التي تجريها جماعات من الهندوس ومن اليوجا، وما وصلوا إليه من نتائج،

نرى عجباً. إنها ليست معجزات أو قدرات خارقة، ولكنها الطاقة الطبيعية للروح، التـي لا نستخدمها نحن، لأننا نهمل ذلك أو لا ندركه.

★★ كذلك طاقات الحواس لم نستخدمها كلها ... وذلك لعدم شعورنا بالاحتياج إليها. فعدم استخدامها جعلها طاقات كامنة مختفية. تظهر حينما نفقد حاسة معينـة، فنسـتعيض عنها بتنشيط حواس أخرى بديلة.

مثال ذلك إنسان يفقد بصره. ويحاول أن يستعيض عنه بالسمع وباللمس، فتقوى عنده حاسة السمع وحاسة اللمس، وربما حاسة الشم أيضاً. لأنه أخذ يدرب هذه الحواس تـدريباً دقيقاً، فتكون له أبواباً للمعرفة عوضاً عن النظر. وهنا تظهر الطاقات الجبارة الموجـودة في هذه الحواس، والتي كانت كامنة غير ظاهرة في حالة عدم استخدامها.

إن الإنسان الكامل في كل طاقاته، في عقله وروحه وحواسه، لم يوجد بعد. ويحتـاج الإنسان إلى حرص واهتمام بحيث لا يفقد قوة طاقاته.

★★ يلزم الإنسان أيضاً أن يُنمِّي قدراته وطاقاته. وأن يُنمِّي أيضاً المواهـب التـي يمنحها اللّه له.

لقد منحك اللّه عقلاً، ووهبك ذكاءً خاصاً في عقلك، أو وهبك لهذا العقل ذاكرة قوية. فيلزمك ليس فقط أن تحتفظ على كل هذا، بل أيضاً أن تُنمِّي عقلك وذكائك وذاكرتك.

★★ أن تُنمِّي قدرتك على التفكير السليم، وعلى الاستنتاج، وعلى حل المشاكل...

فالتمارين الهندسية التي كُنا ندرسها في المدارس، لم تكن لمجـرد العلـم أو بهـدف التخصص. إنما كانت لها فائدة أخرى في تدريب العقل على التفكير.

خذ مثلاً: اثنين يلعبان الشطرنج، وكل منهما صامت يُفكِّر: ما هـي الخطـوة التـي سيلعبها زميله، وكيف يرد عليها؟ وماذا سيكون رد زميله على رده! وكيـف سيتصـرَّف وقتذاك! وكيف يمكنه أن يعرقل خططه! وكيف يضع هو خططاً غير مكشوفة تصل بـه إلى النتيجة المطلوبة، ولو بعد مراحل؟ إنه تدريب على الذكاء وليس مجرد لعبة للتسـلية وقضاء الوقت.

الألغاز أيضاً وحلها، والمسابقات، كلها تداريب للتفكير.

وما أكثر تداريب الذكاء وتنمية التفكير. يمكنك أن تستخدمها لنفسك ولأولادك أيضاً ولتلاميذك، حتى ينشئوا بعقل قوي متدرب على التفكير. وحتى إذا صادفته مشكلة، يكون عقله مستعداً لمواجهتها بغير اضطراب. وفي الحياة العملية أيضاً توجد تداريب على الحكمة في التصرف. أو تنمية الفكر عن طريق المشورة والانتفاع بخبرات الآخرين.

★★ ضميرك أيضاً يحتاج إلى تنمية حتى يكون ضميراً صالحاً في كل أحكامه. ذلك يذكرنا بأن هناك ضمائر غير صالحة. فهناك مثلاً ضمير واسع يستطيع أن يُبرِّر كل خطأ! وضمير آخر ضيق قد يصل أحياناً إلى الوسوسة، وتصور الشر حيث لا يوجد شر، أو يبالغ مبالغة شديدة في الحكم على الأخطاء. كما يوجد ضمير مريض لا يُميِّز بين ما هو خير وما هو شر، وما هو لائق وما هو غير لائق! ويوجد ضمير ضعيف تؤثر عليه العوامل الخارجية.

وأنت محتاج أن تُغذِّي ضميرك بما تسمعه من وعظ وكلام روحي، والتأثر بالقدوة الصالحة. وبهذا ينمو ضميرك في المعرفة، وفي الحكم على الأمور، وفي قيادة نفسك.

★★ إن معارفك أيضاً تحتاج إلى تنمية: والمعروف أن هناك نمواً طبيعياً في المعرفة خلال مراحل العمر. هناك نمواً في المعرفة عن طريق الثقافة. والمعرفة تُغذي عقل الإنسان، وتُغذي ضميره، وتدفعه إلى السلوك السليم ... هذا إذا كانت معرفة سليمة.

وبعد، ألست ترى معي أن هذا الموضوع يحتاج مِنّا إلى تكملة لكي نلم بجميع عناصره! فإلى اللقاء إذن في مقالات أخرى.

٣ يوليو ٢٠١١

وأيضاً طاقات الإنسان

تحدثنا من قبل عن العقل والضمير والحواس والمعرفة كطاقات للإنسان. ونودِ اليوم أن نتحدَّث عن الجسد والإرادة كطاقتين للإنسان أيضاً.

★★ فالجسد باعتباره طاقة وهبها اللَّه للإنسان، فهو الجهاز التنفيذي لكل القرارات التي تصدر عن الروح، وعن العقل، وعن الضمير، وعن الإرادة ... والجسد القوي يستطيع أن يُنفِّذ. بينما الجسد الضعيف يعتذر عن ذلك.

وما أسهل أن تؤثر أمراض الجسد على النفس. فتجلب لها ألواناً من الألم أو الحزن، أو الضيق أو التذمُّر. وكثير من الناس قد يصلون إلى درجات من الانهيار النفسي بسبب حالة أجسادهم. أو يصلون إلى مرض الكآبة، أو إلى الحيرة والقلق ... أو تنشغل عقولهم بكيفية التصرف مع حالة الجسد.

وبعض أمراض الجسد تؤثر على كثير من طاقاته: فمثلاً ارتجاج أو نزيف في المخ، قد يؤثر على بعض مراكز المخ كالذاكرة أو الحركة أو الصوت ... وتصلُّب الشرايين قد يؤدي إلى فقدان الذاكرة. وأعصاب الجسد إذا التهبت تؤثر على نفسية الإنسان وسلوكه. وأمراض تؤثر على طاقاته.

★★ كذلك شهوات الجسد تؤثر على العقل وعلى الضمير. وتحاول أن تستخدم العقل لتحقيق رغباتها. كما تسكت الضمير، أو تحاول أن توجد أعذاراً أو تبريرات لهذه الشهوات!! وشهوة الجسد قد تستأسر الفكر تماماً، فلا يدور إلاَّ في فلكها. كما تضعف الروح وتبطل صلتها باللَّه.

لكل هذا يلزمنا الاهتمام بأجسادنا. لا نضعفها بحيث تتعطَّل طاقاتنا. ولا نثير غرائزنا بحيث تضعف أرواحنا.

★★ يلزمنا أيضاً حفظ التوازن بين طاقات الإنسان، والتعاون والتكامل بينها. بحيث لا يوجد تناقض أو تصارع بين الطاقات. ونتفادى أن يوجد انقسام في شخصيتها أو صراع داخلي، كما قال أحد الأدباء الكبار مرة: "كنت أصارع نفسي وأجاهد، حتى

كأنني اثنان في واحد. هذا يدفعني، وذاك يمنعني". وهذا التصارع الداخلي قد عبَّر عنه الشاعر إيليا أبو ماضي في قصيدته "لست أدري". فقال:

إنني ألمح في نفسي صراعاً وعراكاً .. وأرى نفسي شيطاناً وأحياناً ملاكاً
هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراك .. أم تراني واهماً فيما أراه لست أدري

★★ إن الإنسان السليم السوي لا يوجد فيه هذا الصراع. فمن الجائز أن يوجد صراع بينه وبين عوامل أو حروب خارجية. ولكنه في داخل نفسه مستقر تماماً، غير منقسم على ذاته في فكره ولا في مشاعره ولا في إرادته. هو إنسان واحد يحارب بكل طاقاته في حرب خارجة عنه. أمَّا الحرب الداخلية فتحدث لأسباب منها: أن طاقة من طاقات الإنسان تُحب أن تسيطر على طاقاته الأخرى أو بعضها. مثال ذلك إنسان يُحكِّم عقله، فتسير أموره سيراً حسناً. ثم تشتهي نفسه شهوة، أو تنفعل انفعالاً، فتخرج العقل من سيره الطبيعي ليخضع له. ولهذا فإنه ما أسهل أن يكون العقل أحياناً خادماً مطيعاً لرغبات النَّفس! فقد ترغب النفس رغبة خاطئة، وهى مُصِرَّة عليها ومنقادة لها، وتخضع العقل لها. فإذا به يُقدِّم لها براهين وأدلة تؤيد سلوكه. أمَّا الإنسان صاحب العقل الحُر، فيقول عن الحق أنه حق، ولو كان صادراً من عدوه. ويقول عن الباطل أنه باطل، ولو كان صادراً من أبيه أو أخيه.

★★ طاقة أخرى من طاقات الإنسان هى الإرادة. وهى أيضاً تحتاج إلى تنمية وتقوية. فكثيرون يعرفون الخير. ولكن إرادتهم لا تقوَ على عمله. ويعرفون ما هو الشر ومضاره، ومع ذلك فإرادتهم أضعف من أن تبعد عنهم. وهكذا تعجز إرادتهم عن مقاومة الخطيئة، مع معرفتهم بكل نتائجها الرديئة! وذلك بأن الرغبة أو الشهوة تُسيطر على الإرادة وتقودها في طريقها.

الإرادة إذن سلاح ذو حدين، يُستخدَم للخير أو للشر. وكل إنسان يحتاج إلى تقديس الإرادة وإلى تقويتها. وبهذا تكون طاقة نافعة له في حياته الروحية. وهناك تداريب كثيرة لتقوية الإرادة وتنميتها. وبتنمية الإرادة، تُميِّز بين الحرية والتَّسيُّب. فكلنا نحب الحرية. ولكن يجب أن ندرب أنفسنا على أن نسلك في الحرية بإرادة صالحة، وبضمير سليم، وفي

حياة روحية وصلة باللَّه. وإلاَّ تحولّت الحرية إلى لون من التَّسيُّب. وقد يفقد الإنسان سيطرته على إرادته، وعلى توجيه حياته توجيهاً سليماً.

★★ إن الميل إلى الخير هو الأصل في الإنسان، إذ قد خلقه اللَّه سليماً من كل شر. أمَّا الميل إلى الشر فهو دخيل على طبيعة الإنسان، فلا بد أن نبحث عن أسبابه ونتفادها أو نقاومها. فما هى أسباب ضعف الإرادة إذن؟

★★ إن أول شيء يضعف الإرادة هو الشهوة: أيَّة شهوة سواء شهوة الجسد، أو شهوة المال وحب الاقتناء، أو شهوة المناصب وتعظُّم المعيشة، أو شهوة الانتقام، أو شهوة اللهو والعبث. وغير ذلك من الشهوات، التي حينما تدخل إلى القلب، تضعف الإرادة عن مقاومتها. وكلما زادت الشهوة، فإنها تضغط على الإرادة بشدة حتى تنهار الإرادة تماماً. وحينئذ يقول الإنسان المنهارة إرادته: "الشر الذي لست أريده فإيَّاه أفعل!". لذلك من عوامل تقوية الإرادة معالجة شهوات الإنسان وطردها من القلب.

★★ وممَّا يُضعف الإرادة ويُقوِّي الشهوة، القرب من مادة الخطية أي من مسبباتها. وقد قال أحد الآباء: "وأنت بعيد عن مادة الخطية، قد تأتيك المحاربة من الداخل فقط. أمَّا إن صرت قريباً من مادة الخطية، فحينئذ تقود عليك حربان أحداهما من الداخل والأخرى من الخارج، ويتعاونان على إسقاطك إذ تضعف.

والبُعد عن مادة الخطية يشمل البُعد عن كل المعاشرات الرديئة التي تدخل فكر الخطيئة إلى عقلك وإلى قلبك. وحينئذ يضغط الفكر عليك، فتضعف إرادتك أمامه.

وممَّا يضعف الإرادة بالأكثر، طول المدة في جو الخطية. كذلك السرعة أمر هام. فإن أتاك فكر خاطئ وطردته بسرعة، حينئذ تقوى إرادتك. أمَّا إن فتحت لهذا الفكر أبواب ذهنك، وتباطأت في طرده، واستمر معك فترة، فحينئذ تضعف إرادتك أمامه. فإمَّا أن تخضع له، أو إن طردته بعد حين يكون ذلك بصعوبة بالغة، وما أسهل أن يعود إليك مرة أخرى.

١٠ يوليو ٢٠١١

ما هو الإيمان؟ وما صفاتـه؟

★★ هناك أنواع كثيرة من الإيمان. منها: المستوى العالي في الإيمان الذي يمكنه أن يصنع المعجزات. ومثال ذلك: إيمان موسى النبي الذي شقَّ البحر الأحمر بعصاه. وكـان واثقاً ومؤمناً أنه حينما يضرب البحر بالعصا سينشطر شطرين وبهذا الإيمان ضرب لنـا مثلاً لم يحدث من قبل.

وهناك الإيمان بأمور لا تُرى. مثلما نؤمن باللّه وبملائكته وبسمائه ونحن لا نرى.

وهناك أيضاً الإيمان القلبي، غير الإيمان النظري الذي نعرف به أموراً عـن اللَّـه - جلَّ جلاله - من الكُتب.

★★ هناك الإيمان النظري الذي هو مُجرَّد إيمان عقلي. وغير ذلك الإيمان العملـي الذي يتخلَّل الحياة كلها. والذي يكون من نتائجه الإيمان الاختباري في الحياة مع اللّه. إنه إيمان يرتفع عن مستوى الحواس. وفيه يشعر الإنسان أنه أمام اللَّه في كل وقت، وفي كل مكان، وعنه قال داود النبي في المزمور: "رأيت الرب أمامي في كل حـين، لأنـه عـن يميني فلا أتزعزع". وواضح من هذا أنه لا يرى اللّه بالعين المادية. فاللَّه روح لا يُـرَى بالحواس.

وقد قرأت قصة عن أن فيلسوفاً ملحداً كان يتمشَّى في وسط الحقـول. ورأى فلاحـاً ساجداً على الأرض يُصلِّي، ويُكلِّم اللَّه بكل ثقة وإيمان. فوقف ذلك الفيلسوف مُتعجِّباً مـن هذا الفلاح البسيط الذي يُكلِّم كائناً لا يراه، ويسجد أمامه بكل خشوع. وقال في نفسه: "إنني مُستعد أن أتنازل عن كل فلسفتي، إن أمكنني أن أحصل على بساطة هذا الفلاح!".

إن اللَّه بالنسبة إلى المؤمنين الحقيقيين، ليس هو إله مناسبات. ولا مُجرَّد إلـه يـرى في المواضع المقدسة. إنما هو إله كل وقت وكل مكان. إنه معنا باستمرار. إنه إله الحياة كلها. نراه (أو نشعر به) في كل الأحداث التي تمُرُّ بنا. نؤمن أنه هو الذي يُحرِّك الكون، ويدير دفته. نراه في كل ما مرَّت علينا من أحداث في الماضـي، ونـراه فيمـا نتوقَّـع أن يعمله من أجلنا ومن أجل العالم في المستقبل.

★★ إن الإيمان ليس مُجرَّد فضيلة منفردة بذاتها، بل هو يتصل بفضائل عديدة: فهو يرتبط بالسلام والهدوء والاطمئنان. كذلك فإن المؤمن إذ يؤمن بوجود اللَّه الذي لا يـراه، فهو لا يجرؤ أن يرتكب خطية أمام اللَّه، حتى وهو وحده لا يراه أحد. بل أنـه لا يجـرؤ على ارتكاب خطية بفكره أو بنيته، ولا خطية في قلبه إذ يستحي من اللَّه فاحص القلـوب وقارئ الأفكار. وبهذا يقوده الإيمان إلى نقاوة القلب والفكر.

★★ والمؤمن الحقيقي يستطيع أن يصل إلى حياة التسليم إذ يُسلِّم حياته في يدي اللَّـه وينساها هناك. يفعل هذا وهو مطمئن. لا يُناقش اللَّه فيما يفعله به. إنه لا ينشغل بالحاضر ولا بالمستقبل. ولا تتعبه الأفكار والتكهنات. يكفي أن حياته في يد اللَّـه. وهـذا يجعلـه مستريح البال مطمئن القلب.

★★ حقاً إن بساطة الإيمان تؤدي إلى السعادة والراحة. عكس ذلك الذين لا يعيشون بالإيمان. فهم دائمو التفكير، وتتعبهم أفكارهم، وتقودهم إلى الهم وإلى القلق، وإلى البحـث عن طُرق وحيل بشرية تعينهم. وقد تكون طرقاً فيها العديد من الخطايا! وكل ذلك لأنهـم اعتمدوا على فكرهم البشري وحده وليس على الإيمان باللَّه وعمله.

★★ إن الإيمان يقود إلى السلام الداخلي وإلى الفرح باللَّه. والمؤمن الحقيقي يرى أن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون اللَّه ويطيعونه. وبهذه الثقة فـي خيريـة اللَّـه وصلاح عمله، يكون المؤمن في سلام داخلي، مهما كانت الأمور في ظاهرها غير ذلـك! فهو يؤمن أن اللَّه دائماً يعمل معه خيراً. وإن هاجمه شر من الخارج، فاللَّه قادر أن يحوّل الشر إلى خير.

والمؤمن الذي يُسلِّم حياته للَّه، لا يشترط عليه شروطاً. ولا يطلب منـه ضـمانات، ولا يضع أمامه تحفظّات!! إنما هو يُسلِّم حياته للَّه، ولا يحمل بعد ذلك هماً. ولا تحاربـه الشكوك والأوهام. وذلك لأنه مؤمن تماماً بأن اللَّه لا بد سيصنع معه خيراً.

★★ والمؤمن الحقيقي لا يخشى العقبات ولا يعترف بالمستحيل. بل يـؤمن أن اللَّـه قادر على كل شيء ولا يعسر عليه أمر. فما دام اللَّه يريد له الخير، وهو قادر أن يفعـل ذلك، لذلك فإن المؤمن لا يضطرب ولا يحمل هماً ولا يشك. وكل شيء في دائرة الإيمان سهل وممكن.

★★ إن الإيمان درجة أعلى من العقل بكثير. فالعقل له دائرة محدودة يعمل فيها. أمَّا الإيمان فلا حدود لعمله. بل يصل أحياناً إلى إمكانية حدوث المعجزة، والله قادر على ذلك. بينما العقل لا يدرك المعجزة، فهي خاصة بالإيمان وحده.

عجيب أن الإنسان أحياناً لا يتعبه سوى عقله وطريقة تفكيره. أمّا الإيمان فيريحه في كل شيء ... وعندما يرى العقل جميع الأبواب مغلقة أمامه، فإن الإيمان يرى باباً يفتحه اللَّه باستمرار، غير تلك الأبواب التي رآها العقل مغلقة. وبالإيمان يرى اللَّه يفتح، ولا أحد يُغلق ... مبارك أنت يارب في كل رعايتك وعنايتك. ونحن بالإيمان نرى أبوابك المفتوحة أمامنا، التي لا يستطيع أحد أن يغلقها.

إن المؤمن - إذا ضعف إيمانه - فإنه يحتاج حينذاك إلى أدلة وبراهين لكي تُقوِّي إيمانه. أمَّا المؤمن الحقيقي فهو مقتنع دائماً بتدبير اللَّه لحياته. واقتناعه مبني على ثقته بمحبة اللَّه له وحكمته فيما يعمله لأجله. وما دامت هذه الثقة موجودة، فلا حاجة إذن إلى البراهين التي لا يدفع إلى طلبها إلاَّ الشك!

★★ إن المؤمن الحقيقي لا يؤمن فقط بوجود اللَّه، بل يؤمن أيضاً بكل صفات اللَّه وبكل ما يخص اللَّه ويتعلَّق به ... يؤمن بحكمة اللَّه، وبمشيئته الصالحة. ويؤمن بوصايا اللَّه وبكل وعوده لنا. ويؤمن بالمعجزات وبقدرة اللَّه على كل شيء. ويؤمن بالروح، والخلود وحياة الدهر الآتي. يؤمن بكل ذلك عن ثقة لا تقبل الشك، وليست كأمور مفروضة عليه. وتظهر نتيجة إيمانه في حياته وتصرفاته. فهو يقول بإيمان: "لتكن مشيئتك يارب". فمشيئتك هى الصالحة لنا ولخيرنا. حتى إن كنت أحياناً لا أدرك عُمق حكمتك. ولكن من كل قلبي أؤمن بأن كل ما تشاءه هو خير وحكمة.

★★ ولهذا فإن المؤمن الحقيقي يعيش دائماً في حياة الشكر. فحياة الإيمان لا تعرف التذمُّر إطلاقاً، لأن التذمر هو احتجاج على مشيئة اللَّه، حتى ولو كان احتجاجاً صامتاً. كما أنه اعتداد بالفهم البشري الخاص، وفي هذا لون من الغرور.

١٧ يوليو ٢٠١١

المحبة
أهميتها، عناصرها، وشمولها

المحبة هى قمة الفضائل كلها، وهى جماع الفضائل، بل هى الفضيلة الأولى ومنبع كل فضيلة مقبولة. وهى تشمل محبتنا للّه، ومحبتنا للناس جميعاً، ومحبتنا للفضيلة والبِرّ.

إن التّديُّن هو رحلة حب مِنّا نحو قلب اللّه. تعبر في طريقها على قلوب الناس. والمحبة هى الرباط المقدس الذي يربط الناس باللّه. إنها جوهر حياتنا الروحية.

ونحن لا نستطيع أن نصل إلى محبة اللّه دون أن نحب الناس، وهكذا قيل: "إن كنت لا تحب أخاك الذي تراه، فكيف تحب اللّه الذي لا تراه؟!".

المحبة إذن هى خروج من الذات إلى الغير. بحيث تنسى ذاتك وتذكر غيرك. تخرج من "الأنا" ولا تسمح لها أن تحصرك داخلها. وهكذا لا تعيش داخل الأنا إنما تعيش في قلوب الناس. تحيا لأجل غيرك، وترى خيره بعضاً من خيرك. بل ترى خيره قبل خيرك. وهكذا تحب الغير وتحب له الخير.

★★ أمّا من جهة محبتنا للّه، فهى صدى لمحبته لنا. هو الذي أحبنا قبل أن نوجد، ومن أجل ذلك أوجدنا. فوجودنا هو ثمرة لمحبة اللّه لنا ... حينما كنا في عقله فكرة، وفي قلبه مسرة.

★★ المحبة موجودة منذ الأزل. أزلية المحبة واضحة، لأن اللّه محبة، واللّه أزلي. ومن محبة اللّه لم يشأ أن يكون وحده في الكون. لذلك من جوده وكرمه أوجد مخلوقات تحيا وتتمتع بالوجود ... فخلق الملائكة قبلنا وكانت المحبة تربط الملائكة بعضهم ببعض وتوحّدهم. وكما قال أحد الآباء: " لو وقف عشرة آلاف من الملائكة معاً، لكان لهم جميعاً رأي واحد " ... وكما كان الملائكة يُحبون بعضهم بعضاً، هكذا كانوا يحبون اللّه أيضاً " قبل خطية إبليس ".

★★ وهكذا كانت المحبة هى الأصل في علاقات الإنسان الأول: كانت المحبة كاملة بين اللّه والإنسان قبل الخطية. وكانت المحبة واضحة بين آدم وحواء، وطاهرة ونقية فيها

التعاون والثقة والبساطة. بل كانت المحبة كائنة بين آدم والحيوانات. لا هـو يصـيدها، ولا هى تؤذيه. وفي ظِلّ هذه المحبة لم يكن هناك الطبع الوحشي والافتراسي من صـفات الحيوانات منذ البدء. بل كان الكل أليفاً. وكان آدم يحب الحيوانات ويُسميها بأسماء. ونفس الوضع تكرر في قصة أبينا نوح والفلك. حيث كان أبونا نوح في الفلـك يرعـى جميـع الحيوانات وهو الذي أدخلها إلى الفلك وكان يرعاها فيه.

إذن المحبة هى الأصل والبُغضة دخيلة على العالم.

★★ المحبة الحقيقية ينبغي أن تكون محبة عملية. فلا نحب بـالكلام ولا باللسـان، بل بالعمل والحق. واللَّه نفسه - تبارك اسمه - محبته لنا محبـة عمليـة، فيهـا الرعايـة الكاملة. لقد خلق كل شيء أولاً من أجلنا. ثم خلقنا بعد ذلك لكي نتمتع بأعمـال عنايتـه. ولا زلنا نتمتع باستمرار برعايته.

إذن فالمحبة التي لا تُعبِّر عن ذاتها عملياً، ليست هى محبة حقيقية.

★★ ومحبتنا نحن للَّه، يجب أن نثبتها عملياً بحفظ وصاياه. فلا تقل إني أحب اللَّـه، بينما تكسر وصاياه! لذلك فإن الذين يعيشون في الخطية، هم بعيدون تماماً عن محبة اللَّه. والمحبة العملية لها صفات كثيرة.

★★ والمحبة هى غير الشهوة تماماً. ذلك لأن من صفات الحُب أنه دائمـاً يريـد أن يعطي. أمَّا الشهوة فتُريد دائماً أن تأخذ. الشهوة ممتزجة دائماً بالأنا، بالذات. أمَّـا الحـب فميتزج بإنكار الذات لأجل الغير. والحُب الحقيق لا بد أن يمتزج بالطهارة والنقاوة وأيضاً يمتزج بالحق. فإن خرجت المحبة عن الحق أو عن الطهارة، تكون محبة ضارة.

★★ المحبة إذن لا بد أن تشمل محبة الخير. ولا أقصد مُجرَّد فعل الخير. لأنَّ فعـل الخير وحده لا يكفي، وربما لا يكون فضيلة! فهناك مَن يفعل الخير مُجبـراً أو مضـطراً أو عن خوف! وهناك مَن يفعل الخير لكي ينال به مديحاً من الناس أو مكافأة ... أو مَـن يفعل الخير رياءً لمُجرّد حُب التظاهر ... أو هناك مَن يفعل الخير وهو مُتذمِّر في قلبـه. فظاهره شيء، وقلبه عكس ذلك تماماً!

أمَّا الإنسان الفاضل فهو الذي يُحب الخير، حتى إن لم تساعده إمكانياته على فعلـه. وإن فعل الخير لا يقصد من ورائه مكافأة. بل يجد لذة في فعل الخير، ويكون الدافع له هو محبة الغير ومحبة الآخرين.

★★ إن نقصت المحبة ينتج عن ذلك رذائل كثيرة منها: البغضة والكراهية وربما أيضاً الشماتة والفرح بالإثم. وقد قال سليمان الحيكم: "لا تفرح بسقوط عدوك، ولا يبتهج قلبك إذا عثر".

ومن نتائج نقص المحبة أيضاً: ثورة الغضب والحقد. وقد يتطوَّر الأمر إلى الشتيمة والضرب والقتل، والتشهير بالغير وإشاعة المذمة عنه. ومن نقص المحبة أيضاً الحسد والتعالي على الغير، والقسوة وعدم الاحتمال.

أمَّا نقص محبة البشر من نحو اللَّه، فيظهر في أمور عديدة منها: إهمال الصلاة وإهمال قراءة كتاب اللَّه، وعدم مخافة اللَّه، وعدم الشعور بالوجود في حضرته، وعدم الفرح بالسماء.

★★ إن المحبة لا بد أن تتخلَّل كل فضيلة. وأية فضيلة خالية من المحبة ليست هى فضيلة على الإطلاق.

إن اللَّه في يوم الحساب، سيفحص جميع فضائلنا، ويكافئنا فقط على ما فيها من حُب. انظروا مثلاً حتى إلى الشهداء: هؤلاء قدَّموا نفوسهم من أجل محبتهم للَّه، الذي أحبُّوه أكثر من الحياة على الأرض، وأكثر من الأهل ومن العالم كله.

إن كل فضيلة خالية من المحبة، هى فضيلة ميتة لا روح فيها. بل لا تُعدّ فضيلة بدون المحبة.

إن وصلت إلى المحبة، تكون قد وصلت إلى اللَّه لأنَّ اللَّه محبة. وإن ملكت محبة اللَّه في قلبك، فإنها تطرد منه الخوف وتطرد كل خطية. فالخطية لا تقدر أن تعيش في داخلك ما دامت محبة اللَّه في قلبك. إذن حاول أن تجعل محبة اللَّه كائنة في قلبك، وحينئذ تتخلَّص من الخطيئة بدون تعب.

٢٤ يوليو ٢٠١١

النمو الروحي وعوائقه

إن طبيعة الإنسان تساعده على النمو. فالذي يُحب المعرفة، يريد أن ينمو فيها. والذي يُحب المال، يريد أيضاً أن يُنمِّيه. وكذلك مَن يحب السياسة، ومَن يُحب الشهرة، ومَن يُحب الفن. كل من هؤلاء يريد أن ينمو فيما يُحب.

★★ كذلك مَن يُحب الفضيلة والبِرّ يُحب باستمرار أن ينمو: من حياة التوبة، إلى نقاوة القلب، إلى القداسة، إلى الكمال النسبي والذي يستطيعه بناء على عمل النعمة معه.

ولكن الذي يسير في طريق النمو الروحي لا بد أن تُقابله عوائق لعلَّ أولها حسد الشياطين. والشياطين يحسدون كل الذين يتقدَّمون في حياة البِرّ، لأنهم فقدوا هذه الحياة. وهكذا يقول الحكيم: "يا ابني إذا تقدَّمت لخدمة ربك، فهيئ نفسك لجميع التجارب". الذي ينمو في روحياته، قد تشتد عليه الحروب الروحية. فيقاومها بكل ما يملك من جهد، وبكل عمل النعمة فيه. فإمَّا أن ينتصر ويستمر في نموه، أو يضعف أمام الحروب الروحية ولا يستطيع أن يتقدَّم أكثر في نموه.

لذلك إن تعرّضت للحروب الروحية، فلا تتضايق. إنها من طبيعة الطريق الروحي ومن طبيعة الشياطين. ولكن قاوم بقدر ما تستطيع. وفي كل درجة جديدة تصعدها في السلم الروحي، توقَّع محاربة لإيقافك، واستعد. إن الشيطان يخاف من نموك، فيقاوم ذلك. ولكن محاربة الشيطان هى مُجرَّد محاولة منه، أمَّا أنت فكُن صامداً وقوياً.

★★ والشيطان لا يحارب وحده، إنما له أعوان من البشر قد يحيط بك البعض منهم. هؤلاء يكونون من البيئة المحيطة بك لذلك تخيَّر أصدقاءك ومعاشريك ومرافقيك في الطريق. رُبَّما البعض منهم قد يوقف نموك، بل قد يرجعك إلى الخلف. وكما أن الصديق الصالح يجذبك معه إلى فوق، كذلك الصديق الخاطئ يحاول أن يجذبك إلى أسفل ويُعطِّل نموك.

وينطبق هذا الأمر في مُحيط الأسرة، إن كان أحد الزوجين شريراً. والإنسان البار إذا انتصر حيناً على التأثير الخاطئ، فرُبما إذا ضغطت عليه البيئة يوماً فيوماً رُبَّما تتعب

نفسه البارة ويقف نموه. والزرع الجيد إذا أحاطت به الأشواك رُبَّما تخنقه. لهذا ففي نموك الروحي تذكَّر قول الشاعر:

متى يبلــغ البنيــان يومــاً تمامـــه ... إذا كنــت تبنيـــه وغيـــرك يهـــدم

★★ وممَّا يُعطِّل النمو الروحي الاهتمام بمظهر الفضيلة الخارجي، وليس بجوهرها. كأن يهتم إنسان بالنمو العددي وليس بالنمو الروحي في كل ممارسته الروحية. فيهتم مثلاً بكمية الصلوات، وليس بروحانيتها. أو يهتم بمظهرية الصوم من جهـــة الامتنـــاع عـــن الطعام، دون أن يهتم بإخضاع الجسد من الداخل وإخضاع الفكر والقلب لوصـــايا اللَّـــه. وهكذا يهتم بالشكليات وليس بالعُمق، فيتوقف نموه.

★★ وممِّا يُعطِّل النمو في الروحيات الاكتفاء بمستوى روحـــي مُعـــيَّن، لا يحـــاول الشخص أن يتقدَّم بعده. ويظن أن هذا هو المنتهى. أو يُحاربه الشيطان بأنـــه إن حـــاول التَّقدُّم روحياً أكثر من هذا، سيصل إلى لون من التَّطرُّف. ونحب أن نقول إن الذي يقـــف نموه، هو عُرضة أن يرجع إلى الوراء. لذلك حاول باستمرار أن تنمو، ولكـــن بحكمـــة. وضع أمامك المستويات العُليا التي وصل إليها بعض الأبرار والقديسين. لكي يحفزك هذا إلى مزيد من الجهاد. وضع أمامك قاعدة هامة وهى هناك فرق كبير بين النمو والتَّطرُّف. والحكمة هى الميزان بينهما.

★★ ومن الأسباب التي تعوق النمو الروحي: الإرشاد الخاطئ. وذلك إن كان المرشد الروحي غير متمرِّس في الروحيات، أو كان له غرض خاص. فهنـــاك مـــثلاً مرشـــدون يقودون مَن يسترشد بهم إلى الحرفية في تنفيذ الوصايا. وعن مثل هـــؤلاء قـــال الســـيد المسيح: "أعمى يقود أعمى، كلاهما يسقطان في حفرة". لهذا سعيد هو الشخص الذي يكون تحت قيادة حكيمة واعية مختبرة. ولهذا أيضاً من الواجب عليك أنك لا تسمع نصيحة كل أحد، ولا تطلب إرشاد كل أحد. وكما قال أحد الشعراء:

فخُـــذ العلـــم علـــى أربابـــهِ ... واطلـــب الحكمـــة عنـــد الحكمـــاء

★★ ومن أسباب عدم النمو: التقليد الخاطئ. حيث يلبس إنســـان شخصـــية غيـــره بلا إفراز، ويُقلِّده في كل شيء بغير حكمة. أو يطبق حرفياً بعـــض أمثلـــة مِمَّـــن وردت

سيرتهم في كُتب الآباء. وقد يحاول تقليد آخر درجة وصلوا إليها، دون أن يضع في اعتباره الدرجات المتوسطة التي سلك فيها هؤلاء الأبرار حتى وصلوا إلى مستواهم العالي.

★★ وممَّا يُعيق النمو أيضاً، كبرياء الشخص إذا وصل إلى مستوى مُعيَّن. ويبدأ أن يقارن نفسه بمَن هم أقل منه. فيرتفع قلبه. وحينئذ تتخلَّى عنه النعمة بسبب كبريائه. فإمَّا أن يسقط، أو يقف نموه. أمَّا الإنسان المتواضع، فإنه مهما ارتفع في الطريق الروحي. لا يسمح لنفسه بأن يرتفع قلبه. ولا يُقارِن نفسه بمَن هم أقل منه، بل على العكس يُقارِن نفسه بالدرجات العُليا التي وصل إليها القديسون. ويرى أنه لا شيء بالنسبة إليهم. وحينئذ يرى الرب اتضاعه، فيعطيه مزيداً من النمو.

إننا نخشى من الكبرياء. ليس فقط في إيقافها للنمو الروحي. بل بالأكثر إنها قد تؤدي إلى السقوط. وفي ذلك يقول الكتاب: "قبل الكسر الكبرياء، وقبل السقوط تشامخ الروح".

ومن أمثلة تأثير الكبرياء في إيقاف النمو: إنسان تفتقده النعمة وترفعه إلى فوق. فينسب ارتفاعه إلى مجهوده الشخصي وبِرّه الذاتي، لا إلى عمل اللَّه فيه. ولهذا قد تفارقه النعمة، فلا يستطيع أن يتقدَّم خطوة واحدة.

★★ إن النعمة قد لا تبعُد عن الشخص بسبب كبريائه، إنما خوفاً عليه من الكبرياء. في ابتعاد النعمة عنه، يبدأ أن يشعر بضعفه، فيتَّضع. وبهذا الاتضاع ترجع إليه النعمة مرة أخرى.

★★ ومن أسباب عدم النمو: الفهم الخاطئ لمعنى الفضيلة وطريقة استخدامها. فكثير من الأشخاص فشلوا في روحياتهم، لأنهم لم يفهموا الطريق الروحي جيداً، ولم يكن لهم مرشد روحي حكيم. فاعتمدوا على مجهودهم البشري أكثر من الاعتماد على اللَّه. بل اعتمدوا أيضاً على جهلهم فلم يستطيعوا أن ينمو.

٣١ يوليو ٢٠١١

الصوم: أهميته وفائدته

الصوم هو أقدم وصية عرفتها البشرية. وبها وضع اللَّه حدوداً للجسد لا يتعدَّاها. وبالامتناع عن الأكل، يرتفع الإنسان فوق مستوى الجسد، ويرتفع أيضاً فوق مستوى المادة. وهذه هي حكمة الصوم. ولكن حينما ينهزم الإنسان أمام الجسد، حينئذ يأخذ الجسد سُلطاناً عليه. ويظل الإنسان يقع في خطايا عديدة من خطايا الجسد، واحدة تلو الأخرى.

★★ والصوم عرفته كل الشعوب. وهو معروف في كل ديانة، حتى في الديانات الوثنية والبدائية. والذي يقرأ عن البوذية والبراهمية والكونفشيوسية، وعن اليوجا أيضاً، يرى أمثلة واضحة عن الصوم، وعن قهر الجسد لكي تأخذ الروح مجالها. والصوم عندهم تدريب للجسد وللروح أيضاً.

وفي حياة "المهاتما غاندي" الزعيم الروحي الشهير بالهند، نرى الصوم من أبرز الممارسات الواضحة في حياته. وكثيراً ما كان يواجه به المشاكل. وقد صام مرة مدة طويلة متواصلة، حتى قال الأطباء: إن دمه بدأ يتحلَّل.

وبالصوم اكتشف اليوجا بعض طاقات للروح ... تلك الطاقة الروحية التي كانت محتجبة وراء الاهتمام بالجسد، وقد عاقها الجسد عن الظهور، ولم يكتشفوها إلاَّ بالصوم. ويرى الهندوس أن غاية ما يصلون إله هو حالة "النرڤانا" أي انطلاق الروح من الجسد للاتحاد باللَّه. ولا يمكن أن يدركوها إلاَّ بالنُّسك الشديد والزُّهد والصوم.

★★ بالصوم يشعر الإنسان بضعفه، فيلجأ إلى اللَّه لكي يقوِّيه. فالصوم إذن هو فترة صالحة يتوسَّل بها الإنسان أن يتدخَّل اللَّه لكل مشاكله لكي يحلَّها. وفي فترات الصوم الممزوج بالصلاة، يقترب الإنسان إلى الحياة التي تُرضي اللَّه سبحانه. وروحيات الإنسان يمكن أن تكون في أي وقت، ولكنها في فترة الصوم تكون أعمق، وتكون أصدق، وتكون أقوى.

★★ والذي يدرك فوائد الصوم وفاعليته في حياته وفي علاقته باللَّه، إنما يفرح حقاً بالصوم. ولا يكون من النوع الذي يصوم، وفي أثناء الصوم يشتهي متى يأتي وقت

الإفطار! بل أنه حينما يحين الإفطار يشتهي الوقت الذي يعود فيه لصوم من جديد. والإنسان الروحي يفرح بأيام الصوم، أكثر مِمَّا يفرح بالأعياد التي يأكل فيها ويشرب. ومن فرح الروحيين بالصوم، لا يكتفون بالصوم العام، إنما يُضيفون إليه أصواماً خاصة بهم ... شاعرين أن روحياتهم تكون أقوى في فترة الصوم.

ولعلَّنا نتذكَّر أن الآباء الرهبان - من محبتهم للصوم - جعلوه منهج حياة. وبه صارت حياتهم منتظمة.

★★ إن الصوم الحقيقي، هو الذي يتدرَّب فيه الصائم على ضبط النفس. ويستمر معه ضبط النفس كمنهج حياة. فيضبط نفسه في أيام الفطر كما في أيام الصوم ... وهكذا يكون الصوم نافعاً له، ويعتبر بركة لحياته. ولا يرى في الصوم صعوبة، بل يراه نعمة.

★★ إن الصوم يصل إلى كماله، بالجوع وفي احتماله. وما أكثر الفضائل الروحية التي يحملها الجوع. ففيه يشعر الإنسان بضعفه، فيبعد عن الغرور والشعور بالقوة. وفي ضعفه تقوده مسكنة الجسد إلى مسكنة الروح ... ويصل إلى فضيلة الاتضاع. وفي شعوره بالضعف يحتاج إلى قوة تسنده، فيلجأ إلى اللَّه بالصلاة. وهكذا يرتبط الصوم بالصلاة. وصلاة الإنسان وهو جائع، صلاة أكثر عمقاً. أمَّا الجسد الممتلئ بالطعام، فلا تخرج منه صلوات ممتلئة بالروح. في الواقع أن الجوعان يشتاق أن يُصلِّي. أمَّا الشبعان فكثيراً ما ينسى الصلاة. ولعلنا نلاحظ أن غالبية المتدينين يُصلُّون قبل الأكل. بل نرى قليلين من الذين يُصلُّون بعد الانتهاء من الأكل وقد شبعوا.

★★ إن الصوم مفيد للإنسان صحيًّا. فالذي يُتعب الجسد ليس هو الصوم بل الأكل أي كثرة الأكل والتخمة وعدم الضوابط في الطعام. بل الصوم هو فترة راحة لبعض أجهزة الجسد، إنها فترة تستريح كل أجهزة الجسد الخاصة بالهضم والتمثيل: كالمعدة والأمعاء والكبد والمرارة. هذه التي يرهقها الأكل الكثير والطعام المُعقَّد في تركيبه. كما يُتعب الجسد أيضاً أنه بعد الإفطار يبدأ في تناول المسليات والترفيهات وما أشبه، فترتبك أجهزته.

★★ وما أخطر اللحوم بشحومها ودهونها في إزادة نسبة الكوليسترول في الدم، وخطر ذلك في تكوين الجلطات. حتى أن الأطباء يشددون جداً في هذا الأمر. ويُقدِّمون

النصائح في البُعد عن الدسم الكثير حرصاً على صحة الجسد وبخاصة بعد سن مُعيَّنة وفي حالات خاصة.

★★ ومن فوائد الصوم أنه يُساعد على التَّخلُّص من السمنة والبدانة والتَّرهُّل. فالمعدة كلما تعطيها أزيد من احتياجها، تتسع لتحتمل ما هو أكثر. ويزداد اتساعها في حالات التَّرهُّل. وكثير من الأطباء ينصحون من أجل صحة الجسد بإنقاص وزنه، ويضعون له حكماً يُسمَّى Regime (رچيم). ويقولون: الإنسان البدين لن يضبط نفسه في الأكل بعد أن كان يأكل بلا ضابط. والصائم يُقلِّل أو ينقص من وزنه بدون أمر من طبيب. حقاً أنها لمأساة، أن يقضي الإنسان جزء كبير من عمره يُربِّي أنسجة لجسده، ويُكدِّس في هذا الجسم دهوناً وشحوماً. ثم يقضي جزء آخر من عمره في التَّخلُّص من هذه الكتل التي تعب كثيراً في تكوينها واقتنائها. لعلَّ هذا يُذكِّرني بالتي تظل تأكل إلى أن يفقد جسدها رونقه. ثم ينصحها الأطباء أن تصوم وتُقلِّل الأكل وتتبع رچيم.

★★ صوموا إذن لتستفيد أجسادكم صحيَّاً ولا تفقد رونقها، وفي نفس الوقت تسمو الروح وتقترب من اللَّه.

★★ إن الصوم يُساعد على علاج كثير من الأمراض. ومن أهم الكُتُب التي قرأتها قديماً في هذا المجال، كتاب لعالم روسي تُرْجِمَ إلى العربية سنة ١٩٣٠م بِاسم "التطبيب بالصوم".

★★ إن الصوم أيضاً يجعل الجسد خفيفاً ونشيطاً. فالصوم إذن ليس مُجرَّد علاج للروح، إنما هو علاج للجسد أيضاً. فيجب أن تتحرَّروا من فكرة أن الصوم يتعب الصحة، هذه الفكرة التي تجعل بعض الأمهات من حنوهم الزائد على صحة أبنائهن يخفن عليهن من الصوم. فتفرح الأم أن ترى ابنها سميناً وممتلئ الجسم وتظن أن هذه هي الصحة! بينما قد يكون العكس هو الصحيح.

٧ أغسطس ٢٠١١

الصوم بمعناه الروحي

الصوم هو فترة مقدسة، يقترب فيها الصائم إلى اللَّه. ولذلك فالصوم يقترن بفضائل عديدة. وليس هو مُجرَّد علاقة بين الإنسان والطعام، متى يأكل ومتى يمتنع، بل بالأكثر: الصوم هو علاقة مع الإنسان واللَّه تبارك اسمه.

★★ وكأن الصائم يقول للَّه: أنا يارب من أجلك آكل، ومن أجلك أصوم: من أجلك آكل، لكي آخذ قوة أستطيع بها أن أقف في الصلاة، وأن أؤدِّي عملي بطريقة أمينة، وأن أعمل خيراً مع كل أحد ... وأنا أصوم لكي تستطيع روحي أن تقترب إليك بدون عائق من الجسد.

★★ الصوم إذن هو فترة مقدسة مثالية غير عادية. يحتاج فيها الصائم إلى تدبير روحي من نوع خاص يتفق مع قدسيتها، في حياة لها سموّها. ولا يجوز أن تمر كباقي الأيام ... إنها صفحة جديدة في علاقتنا مع اللَّه، ندخلها بشعور جديد وبروح جديدة. ونتفرّغ فيها للَّه على قدر إمكاننا، ونُعمّق علاقتنا به.

★★ الصوم هو فترة للتوبة الحقيقية، وفي الحرص على نقاوة القلب. واللَّه يريد القلب النقي أكثر مما يريد الجسد الجائع. والإنسان الذي يصوِّم فمه عن الطعام، ولا يصوِّم قلبه عن الخطايا، ولا لسانه عن الأباطيل، فصوم هذا الإنسان باطل. فإذا ما اجتمعت نقاوة القلب مع صوم الجسد يكون هذا وضعاً مثالياً. إذن حاول يا أخي القارئ أن يكون صومك قد غير منك شيئاً عن ذي قبل وحولك إلى حياة أفضل. أما إن كانت قد مرت عليك سنوات طويلة تصوم فيها، وأنت كما أنت بنفس الطباع، وبنفس الأخطاء، وبنفس السقطات، فما الذي استفدته أنت من صومك؟!

★★ الصوم أيضاً يرتبط بالصلاة وبالصدقة ... هذه الثلاث صادات (صوم صلاة صدقة) ينبغي أن تحرص عليها. ففي صومك ينبغي أن تهتم بفضيلة العطاء. وما دُمت تشعر في الصوم بالجوع، فعليك أن تهتم بالجائعين وتُطعمهم. وما أجمل ما قاله أحد الآباء في إحدى المناسبات: "إن لم يكن عندك ما تعطيه لهؤلاء المحتاجين، فصُم وقدم لهم طعامك". ولعله في هذا المجال تقام كثير من "موائد الرحمن" لإطعام الغير.

★★ الصوم أيضاً يرتبط بالصلاة. ولا نقصد مجرد الصلاة الشكلية. وإنما الصلاة التي يرتفع فيها القلب إلى اللّه بكل حرارة وبكل عُمق. وهكذا تكون الصلاة - من واقع اسمها - هى صلة باللّه. وإن لم توجد هذه الصلة، لا تكون الصلاة صلاة.

★★ الصوم أيضاً يرتبط باستمرار بفضيلة ضبط النَّفس. وفيما يضبط الإنسان نفسه عن الطعام والشراب، إنما يأخذ من ذلك تدريباً لضبط إرادته بحيث لا تنحرف. بل يُقدِّم الصائم إرادته إلى اللّه. ويقول في نفسه لا أُريد إلاَّ ما يريده اللّه في حياتي. إذن ابحث بدقة أين تشرد إرادتك بعيداً عن اللّه. وركِّز على هذه النقطة بالذات لكي تنجح فيها وتُقدِّم للّه إرادة صالحة ترضيه. وكما تفعل هذا أثناء الصوم، اجعل هذا التدريب يستمر معك حتى بعد أن ينقضي الصوم. وإذا أمكنك في صومك أن تنجح إرادتك، ولو في الانتصار على نقطة ضعف مُعيَّنة في حياتك، فإنك ستشعر بفائدة الصوم لك. لذلك لا تأخذ من الصوم شكلياته بل ادخل إلى العُمق.

★★ إن الصوم وصية من اللّه. ولكنك في صومك، لا تصم لمجرد طاعة الوصية، وإنما بالأكثر لأجل محبة هذه الوصية التي تحقق لك انتصاراً في حياتك على كثير من الأخطاء، والتي تعطيك فرصة لغذاء الروح وتقويتها. وغذاء الروح معروف وهو: الصلاة والتأمُّل، وقراءة كتاب اللّه، وكل القراءات الروحية التي تُعمِّق محبة الفضيلة في القلب. وكذلك الترانيم والتسابيح، والاجتماعات الروحية وما أشبه. وغذاء الروح أيضاً يشمل المشاعر الروحية، والاهتمام العميق بالأبدية وموضع الإنسان فيها.

والروح إذا تغذَّت، تستطيع أن تحمل الجسد. ونُلاحظ أحياناً أن الإنسان حينما يقــرأ قراءة نافعة وجذابة، ويشبع بالقراءة ولذتها، ويحين موعد الطعام، إنـــه لا يجـــد رغبـــة في الأكل، بل كل رغبته أن يكمل القراءة. وذلك بأن روحه تغذَّت فحملت الجســد، فلــم يشعر بالجوع. إذن أعطِ الروح غذاءها أثناء الصوم. وكُن واثقاً أن غذاء الروح ســيعطي الجسد قوة يحتمل بها الصوم. إن صلوات الصوم هى أعمق من الصلوات في وقت آخر.

★★ وفي الصوم لا تجعل مشغولياتك تطغي، بحيث تستقطب كل أفكارك، ولا يبقــى في ذهنك موضع للَّه. لذلك اجعل لمسئولياتك حدوداً، وأعطِ لربك مجالاً تُفكِّر فيه. وكــل فكر لا يرضي اللَّه ابعده عنك. فهو لا يتفق مع المجال القدسي الذي تعــيش فيــه أثنــاء الصوم. لذلك لا تنجس صومك بفكر خاطئ.

★★ الصوم ليس هو فقط صوم الجسد، إنما هناك أيضاً صوم اللسان. حيث تتــدرَّب أن تكون كل كلمة تخرج من فمك، يرضى اللَّه عنها، ولا تتعب ضميرك، بل تكون كلمة للبنيان. تبني بها غيرك، وتبني بها روحياتك. والصوم أيضاً يشمل صوم الفكــر وصــوم النيَّات وصوم القلب عن كل شيء لا يرضي اللَّه. إذن ليكن صومك شاملاً لكل ما فيك.

★★ الصوم إذن ليس مُجرَّد فضيلة للجسد بعيداً عن الروح. وكل عمل لا تشترك فيه الروح لا يُعتبر فضيلة على الإطلاق. والصوم الحقيقي هو عمل روحــي داخــل القلــب أولاً في علاقة الإنسان بخالقه أمَّا عمل الجسد في الصوم، فهو تعبير عن مشاعر الروح. الروح تسمو فوق مستوى المادة والطعام، فتقود الجسد معها في موكب نصرتها. ويعبــر الجسد عن هذا بممارسة الصوم. الصوم إذن ليس هو جوعاً للجسد، بل هو غذاء للروح. والصوم هو روح زاهدة، تشرك الجسد معها في الزُّهد.

إذن فالصوم ليس هو الجسد الجائع، بل الجسد الزاهد. وليس الصوم هو مُجرَّد جوع الجسد، إنَّما بالأكثر هو تسامي الجسد وطهارته. والصائم حينما يُصلِّي، لا يُصــلِّي فقــط بجسد صائم، إنما أيضاً بنفس صائمة. والصوم بهذا الشكل هو وســيلة صــالحة للعمــل الروحي. يحيا فيه الإنسان جميعه بقلبه ونفسه وروحه وفكره وحواســه وعواطفــه فــي إرضاء اللَّه وفي محبته. وتكون وصية الصوم لها تفسيرها الروحي السليم.

١٤ أغسطس ٢٠١١

الرحمة والقسوة

إنَّ الرحمة هى أوّل ما يُركِّز عليه إخوتنا المسلمون من صفات اللَّه عزَّ وجلّ. فأوّل آية في الفاتحة هى "بسم اللَّه الرحمن الرحيم". وهذه قد تكرَّرت في آيات قرآنية كثيرة. وبها يبدأ المُسلم خطابه أو مقاله مُتذكِّراً كل يوم رحمة اللَّه.

ويقول أيضاً: "رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين" [١١٨ المؤمنين]، "وأنت أرحم الراحمين" [١٥١ الأعراف]، ويقول أيضاً: "إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" [٢٣ ؛ ١٤٩ الأعراف].

ولكنه يعرف في نفس الوقت أنه: "لا عَاصِمَ اليومَ مِن أمرِ اللَّهِ إلاَّ مَن رَحِمَ" [٤٣ هود].

إذن كما أنَّ اللَّه رحيم، ينبغي أن يكون البشر رُحماء.

★★ نفس الكلام عن الرحمة موجود في المسيحية. ولذلك فالمسيحي يقول في بدء صلاته كل يوم: **"ارحمني يا اللَّه كعظيم رحمتك"** (مزمور ٥١). ويقول في نهاية الصلاة: **"ارحمنا يا اللَّه ارحمنا"** (مزمور ١٢٣). ويقرأ في الإنجيل: **"طوبى للرحماء فإنهم يُرحمون"**، **"طوبى للودعاء"**، **"طوبى لصانعي السلام"** (متى ٥).

ومن أهمية الرحمة يقول الرب في الكتاب المقدس: **"أُريد رحمة لا ذبيحة"** (هوشع ٦). ويقول أيضاً: **"لا تنتقموا لأنفسكم ... إن جاع عدوُّك فأطعمه. وإن عَطِشَ فاسْقِهِ"** (رومية ١٢). ويقول عن الأشرار: **"هم قُساةٌ لا يرحمون"** (إرميا ٥٠).

إذن الأمر واحد. اللَّه رحيم، ويريدنا أيضاً أن نكون رُحماء. أمَّا القُساة فهُم الذين لا يرحمون.

★★ حقاً إن رحمة اللَّه فوق الوصف، لا مثيل لها. فإلهنا في حنوه وإشفاقه، يُقدِّر ظروف الإنسان وطبيعته الضعيفة، فيرحم. إنه لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا، لأنه يعرف أننا تراب نحن، تثيره الريح فيتحوَّل إلى غبار في الجو. ويصبر اللَّه عليه تهدأ الريح فيستقر.

★★ أمَّا البشر فإنهم قُساة. ولذلك ما أجمل وأعمق ما قاله داود النبي: "أقع في يد اللَّه، ولا أقع في يد إنسان، لأن رحمة اللَّه واسعة".

ولعلَّ هذا يشبه ما قاله الشاعر العربي:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى .. وصوَّت إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

إنه أمر مُحزن أن الإنسان يكون أحياناً كالوحوش، حينما يغضب، أو ينتقم ويأخذ بالثأر.

حقاً إن قسوة الإنسان معروفة منذ البدء، حين قام أخو هابيل عليه وقتله.

للأسف كثيراً ما يكون الإنسان متعطِّشاً إلى الدَّم! يطلب دم غيره، ويفرح به إن سُفِكَ. هناك قوة غاضبة وحاقدة داخل نفسه تريد أن تتنفس! ولا يهمها كيف!

★★ هناك نوع من الأمراض النفسية يُسمَّى (السادية) ويعني التَّلذُّذ بآلام الغير. وهنا تظهر معاملة الذين يثأرون من غيرهم. فيعذبون عدوهم بأنواع عذابات كثيرة قبل أن يقتلوه. وما أبشع قول شخص يعزم أن يقتل عدوه. فيقول له في غيظ وقسوة: "أريد أن أشرب من دمك!!". أليس هذا لوناً من الوحشية يعيش فيها القُساة؟

والعجيب أن مثل هذا القاتل يفتخر بما فعله شاعراً بقوته وقدرته.

يا أخي إنك إن قتلت مَن يُعاديك، تحسب نفسك قوياً! ولكنك إن عفوت عنه فإنك تكون نبيلاً. والنُّبل بلا شكّ أسمى وأعلى وأرقى خلقاً.

★★ إن وجود الدم في الإنسان هو علامة حياته. وهكذا بسفك دمه تنتهي حياته. ولما كانت الحياة بيد اللَّه (فهو الذي يُحيي ويُميت) إذن فاللَّه هو وليّ الدم. لا يسمح أبداً بأن يُسفك الدم عبثاً أو ظُلماً. وقد قال في الكتاب المقدس: "سافك دم الإنسان، بيد الإنسان يُسفك دمه". أي بيد الإنسان الموكل له من اللَّه أن يسفك دم سافك الدم، أو يأمر بذلك.

وحفاظاً على دم الإنسان، أمر اللَّه قائلاً: "لا تقتل"، ووضع اللَّه الرحمة في قلوب البشر لو استجابوا هُم لهذه الرحمة. أمَّا إذا لم يستجيبوا وقتلوا غيرهم، فإنَّ اللَّه سوف يُطالبهم بدم أخيهم المقتول منهم. ويقول للقاتل: "صوت دم أخيك صارخ إليَّ من الأرض".

بل أكثر من هذا فإن اللَّه الرحيم أمر بالرفق بالحيوان وعدم أذيَّتـه. وهكـذا توجـد جمعيات للرفق بالحيوان. ويوجد أطباء يتخصصون في الطب البيطري للعناية بـالحيوان، ومعالجته إذا مرض. ومعروف ضمناً أن الإنسان الذي يشفق على حيوان، فإن مشـاعره لا تسمح له بإيذاء إنسان.

★★ ما أشد قسوة بعض المتديِّنين في معاملتهم للخطاة، أو مَن يظنـونهم خطـاة، بعبارات جارحة. ويظنون أن هذه غيرة مقدسة وشهادة للحق! وما أشـد عنـف بعـض الصحف التي تهاجم الغير، وبخاصة الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم. فتتنـاولهم بكـل سخرية وإهانة وتشهير ...

وإن كان اللَّه سبحانه قد أمرَّ بعدم القتل، فهناك نوع آخر من القتل وهو القتل المعنوي الذي يقتل الإنسان في سمعته ويُحطِّمه بذلك. وكذلك القتل النفسـي عـن طريـق الإذلال والإهانة والتشهير والتحطيم الاجتماعي وجرح الشعور والاحتقار والإهانة. وكـل ذلـك يكون مثل سُم يدخل داخل النَّفس. وإني أعجب من الذين يفرحون جداً بنشر الفضائح أيَّـاً كانت ... فضائح مالية أو اجتماعية أو جنسية ويرون ذلك لوناً من التفوُّق الصحفي!!

إنَّ اللَّه الذي ستر غالبية الناس، ولم يكشف كل ضعفاتهم أمام الآخرين، هـو نفسـه يُطالب البشر الذين يكشفون غيرهم ويعاملونهم بالخشونة والعُنـف وبالقسـوة والتعـالي، يطالبهم جميعاً بالرفق بغيرهم. وعدم المحاولة بتجريح الغير، وكذلك بالبُعد عن الطريقـة المنفِّرة في معاملة الآخرين ... مهما قدَّموا تبريرات كثيرة لِمَا يفعلون.

٢١ أغسطس ٢٠١١

الضمير
وما يؤثِّــر عليه

هل يصح أن نقول: "على كل إنسان أن يتصرَّف حسب ضميره؟" كلا. إن هذه العبارة لا تصح إلاَّ لو كان ضميره ضميراً صالحاً. ذلـك لأن الضـمائر تختلـف فـي مـدى صلاحيتها.

★★ فهناك ضمير صالح، يزن الأمور بطريقة دقيقة، كميـزان الصـيدلي: إن زاد شيئاً يضر، وإن قلَّ شيئاً يضر ... وهناك ضمير واسع، يتسع لكل خطأ ويجد له مُبـرِّراً! وضمير آخر موسوس، يظن الخطأ حيث لا يوجد خطأ، أو يُكبِّـر ويُضـخِّم مـن قيمـة الأخطاء.

★★ فالضمير إذن ليس معصوماً. من الممكن أن يخطئ - كمـا سـنرى - ولهـذا تختلف ضمائر الناس في الحُكم على موضوع واحد. كما يختلف حُكم الضمير من وقـت إلى وقت حسب الظروف!

إنَّ الضمير هبة من اللَّه للإنسان، يدعوه إلى الخير، ويمنعه عن الشر، ولكنـه لـيس هذا باستمرار. وإنه أحياناً يكون قوياً مع البعض، وضعيفاً مع غيرهم. أحياناً يعمل وأحياناً لا يعمل. أو قد يكون ضميراً مستتراً أو غائباً أو مختلاً في موازينه!!

★★ وسنضرب أمثلة للضمير المنحرف: أب يحثه ضميره على قتل ابنتـه التـي حملت سفاحاً، بحجة غسل عار الأسرة، وبدون أن يترك لهذه المسكينة فرصـة للتوبـة. بل إن ضميره يوبِّخه إن لم يقتلها!

ومثال آخر: ابن يدعوه ضميره أن يقتل قاتل أبيه، ويوبِّخه إن لم يأخذ بالثأر منه!

أو حماة تتدخَّل لحماية ابنها أو ابنتها، فتخرب الأسـرة الصـغيرة باسـم الضـمير، أو أم تتستَّر على أخطاء ابنها لحمايته من عقوبة أبيه، ويُساعدها ضميرها على ذلك، حتى لو كذبت!

أو طبيب يكتب شهادة مرضية كاذبة لمنفعة أحد الأشخاص، ولا يرى في ذلك عيباً!. أو يقوم بعملية إجهاض لفتاة لسترها! أو تلميذ يُغشِّش زميله في الامتحان. ويدعو ضميره إلى ذلك باسم المحبة وإنقاذه من الرسوب، أو يُهدِّد مراقباً بالقتل!!

★★ وقديماً كان المصريون يلقون فتاة في النيل، بمناسبة وفاء النيل، بدافع من ضمائرهم! وكان العرب في الجاهلية يقومون بوأد البنات! وكان الوثنيون بحكم ضمائرهم يُبخِّرون للأصنام.

★★ كذلك من انحراف الضمير، إنسان يكون له ضميران: بأحدهما يحكم على نفسه بمنتهى التساهل. وبالضمير الآخر يحكم على غيره بمُنتهى التشدد. وذلك في الموضوع الواحد!

★★ أمَّا عمَّا يتأثر به الضمير، فإن العقائد والتقاليد تؤثِّر عليه، وأيضاً الرغبة والشهوة والعواطف. وتؤثر عليه أيضاً المعرفة أو الجهل، وتؤثر عليه الإرادة سلباً أو إيجاباً، ويؤثر عليه الجو المحيط به، والقيادة التي يخضع لها!!

★★ ومن أمثلة خضوع الضمير للرغبات والعواطف: إنسان يحب قريباً أو صديقاً فيُدافع عن كل تصرفاته مهما كانت خاطئة! وضميره يُسمِّي ذلك وفاءً وإخلاصاً. وضميره يوبِّخه إن لم يُدافع. وإن ثبت خطأ ذلك الصديق، يلتمس له العُذر! ناسياً في كل ذلك أن" مبرئ المذنب، ومُذنِّب البريء، كلاهما مكرهة للرب". لأن كليهما ضد الحق وضد العدل... ومثل هذا الشخص قد يُبالغ في مدح صديقه كذباً، وضميره لا يُبالي بهذا الكذب، بل يُبرِّره. كما يكذب أيضاً، لإنقاذه من ورطة وقع فيها!

★★ الضمير أيضاً يتأثر بالمعرفة ومقدارها: لأنه حسبما يعرف الإنسان، هكذا ينقاد ضميره. والذي يعرف أكثر، يُطالب بأكثر. وهنا قد يقول البعض: "إذن من الخير أن الإنسان لا يعرف أكثر حتى لا يُطالب بأكثر!"، وهنا يرد القديس أُغسطينوس على هذا الأمر فيقول: "هناك فرق كبير بين عدم المعرفة ورفض المعرفة. والذي يرفض المعرفة، فإنه بلا شكَّ يُدان على رفضه".

★★ إن الإنسان في جهله، يُمكن أن يضله ضميره. وقد قال اللَّه في العهد القديم: "هلك شعبي من عدم المعرفة". ومن جهة الجهل، قيل أيضاً: "هناك طُرق تبدو للإنسان

مستقيمة وعاقبتها طُرق الموت". إن الخطيئة مهما جهلها الإنسان. وكسر الإنسان لوصية اللَّه، هو كسر، مهما اعتذر بالجهل.

ولذلك أرسل لك اللَّه الأنبياء والرُسُل والمُعلِّمين، لكي يقودوا البشر إلى معرفة الحق، لأن الضمير وحده غير كافٍ، وأيضاً غير مؤتمن في صحة قيادته. ومعروف أن المعرفة تؤثِّر على الإنسان، سواء كانت صالحة أو خاطئة.

★★ لذلك يا أخي القارئ، راجع مصادر معرفتك، سواء كانت من الصُحُف أو من الإعلام، أو من كتب أو نبذات، أو من الكومبيوتر أو الفيس بوك، أو من وعاظ أو فلسفات، أو من مناهج معرفة أيّاً كانت ... أو من مُرشد. وتأكد من صوابها. فاللَّه قد وبَّخ الناس في العهد القديم قائلاً: "مرشدوك مضلون ...".

إننا نحتاج حقاً إلى وحدة في التعليم وفي المعرفة. لأننا كثيراً ما نرى بعض الأشخاص مُجرَّد صورة لِمَن يرشدهم سواء في الفكر، أو حتى في الصوت والحركة. يتصرَّفون كما يتصرَّف!

★★ نقطة أخرى نطرقها وهى العلاقة بين الضمير والإرادة: الضمير هو مُجرَّد صوت يوجِّه الإرادة إلى ما يجب أن تفعله. ولكنه لا يرغمها. إنه مثل إشارات المرور توجِّه سائق العربة إلى ما يجب أن يفعله: يقف أو يستمر في السير. والسائق حُر أن يطيع الإشارة أو يكسرها ويعاقب بغرامة.

ولذلك قيل حتى عن الضمير الصالح إنه قاضٍ عادل، ولكنه ضعيف! وضعفه يقف ضد تنفيذ أحكامه! لأنه يحكم، أمَّا التنفيذ فهو في يد الإرادة.

★★ والإرادة الشريرة قد تعمل على إسكات الضمير، لكي تكون لها السيطرة، وتستريح من إرشاده ومن توبيخه، وتستريح نفسياً! وقد تشغله بأمور كثيرة حتى لا يراقب ولا يحاسب ولا يُبكِّت! أو لا تطيعه فييأس ويسكت. ولا يجد فائدة من التَّدخُّل، فيبعد، ويتعود الابتعاد!!

★★ عموماً إذا فشل الضمير، قد تتدخل نعمة اللَّه، لتنقذ الإنسان من سيطرة الإرادة الشريرة، وتقوده إلى التوبة.

٢٨ أغسطس ٢٠١١

الشائعات

تحدَّثنا في المقال الماضي عن الضمير وما يؤثِّر عليه. ولا شكَّ أن الضمير قد تؤثِّر عليه أيضاً الشائعات إذا قَبِلَها أو صدَّقها. وهنا أذكر عبارة قالها أحد العُقلاء وهي: "إذا أردت أن تحرق إحدى المدن، يكفي أن تلقي فيها شائعة، وتتركها تشتعل وتنتشر".

★★ ونودّ في هذا المقال أن نتحدَّث عن الشائعات من جهة: مصدر الشائعة أو مؤلِّفها - وأيضاً ناقل الشائعة أو ناشرها - ثم قابل الشائعة أو مُصدِّقها - وفي كل ذلك لا ننسى هدف الشائعة أي الغرض من تأليفها ...

★★ إن الشائعة - في موضوعها - هى خبر كاذب، وفي نفس الوقت، هو خبر مؤثِّر ومُثير. وبقدر إثارته، يكون تأثيره، ويكون انتشاره. والشائعات على أنواع يختلف غرضها:

★★ فهناك نوع طفولي من شخص لا يهدف من إلقاء الشائعة سوى أن يُحدِث ضجيجاً يتسلَّى به ويتفرَّج عليه. ويرى كيف أن المجتمع قد هاج وماج، وارتفع فيه الصخب، وتعدَّدت الأقاويل... وكل ذلك من صُنع يديه هو، مصدر الشائعة! وكأنه في موقف بطولي، استطاع أن يلعب بمشاعر المجتمع ولو إلى حين بما ألقاه من شائعة! هذا النوع من الناس يهوى الإثارة والفوضى، ويفرح بها، ويفتخر - ولو داخل نفسه - بأنه قد عمل عملاً يُثبت به شخصيته!!

★★ وهناك نوع آخَر من صانعي الشائعات، له خطورته: وهو الذي يهدف إلى إحداث فتنة طائفية، بما يؤلِّفه ويتحدَّث عنه من أخبار مثيرة تحدث مثلاً خلافاً بين المسلمين والمسيحيين. وربما يؤدي الأمر إلى صراع أو قتال، تكون من نتائجه بعض الضحايا. ويضيع الهدوء والسلام من المكان. ويتحدَّث الناس عن مشكلة قد حدثت! ويتدخل العقلاء لفض الإشكال! وإذا هى مجرد شائعة لم تكن تستدعي كل ما حدث. وربما ملقي الشائعة لم يكن يتوقع كل ما حدث، أو كان يقصد ذلك، وفي قلبه ما فيه!

★★ وأحياناً يكون الهدف من الشائعة هو إحداث أنواع من الفضائح سواء كانت أخلاقية أو مالية أو نفسية. والغريب أن من يصدر هذه الشائعة، يفتخر بأنه يقولها أو ينشرها، بل يفتخر بالأكثر بأنه ينفرد بذلك! وأحياناً نقرأ في بعض الصحف عنواناً ضخماً في الصفحة الأولى هو: "إنفراد: فضيحة بجلاجل"... وطبعاً يريد الكاتب أن يثبت أنها حقيقة ثابتة، وليست مجرد شائعة. وربما مَن تمسه هذه الفضيحة يستطيع أن يرد على كل ما نشر لو أتيح له ذلك!

★★ نقطة أخرى وهى كثرة الشائعات في المحيط السياسي: في علاقات الدول ببعضها البعض. وفي الأخبار المتعلقة بكثير من الكبار ومن الوزراء السابقين: هذا هرب إلى هنا، وذاك إلى هناك. وهذا يعمل على تغيير جنسيته إلى هذه الدولة أو إلى تلك. وأخبار متباينة حول وفاة البعض، وهو ما يزال حياً! وشائعات عن اعتقال البعض أو عدم اعتقاله... وما تورده قناة فضائية معينة، عكس ما يرد في قناة فضائية أخرى، أو يختلف عنها في تفاصيل معينة. والمشاهد حائر أين هى الحقيقة؟ وأين هى الشائعة؟ كثير من الشائعات الأخرى عن بعض رؤساء الدول، وعن أخبار تتصل بالمظاهرات وبالقتل، وعن الموقف الدولي الدقيق من كل ذلك... إنه جو من الغموض في مجالات عديدة. يجعل العقل يتساءل هل كل ما يصل إلينا حقائق؟ أم بعض منه شائعات؟

★★ هناك شائعات أخرى كثيرة تتصل بأخبار الرياضة أو بأخبار المحيط الفني من جهة الممثلين والممثلات، وهل سيتم التصريح بهذه الرواية أم لا يتم؟ كذلك الاحتجاجات حول بعض الأفلام أو مناظر فيها... وأيضاً شائعات معينة من جهة بعض مشاهير لاعبي كرة القدم وأخبارهم، وما هو موقفهم الآن؟... أمور كلها محيرة...

★★ أمور أخرى تدور حولها بعض الشائعات، تتعلق بالزواج والطلاق، والزواج مرة أخرى. وآراء يذكرها بعض الكتاب من غير المتخصصين في هذا الموضوع، تسير بلبلة أحياناً بين الناس: هل ما يقوله هؤلاء شائعة لمجرد نشر فكر شخصي!

★★ ننتقل إلى نقطة أخرى خاصة بنقل الشائعات أو نشرها وترويجها. إن مؤلف الشائعة لن تكون له أية أهمية كبرى، إن لم يجد من ينقلها عنه وينشرها... إن كانت الشائعة لوناً من التضليل الفكري يُدان عليه مَن يؤلِّفه، فإن ناقل هذا التضليل ربما يكون أكثر وقوعاً في الإدانة.

ويوجد كثير من الناس، هوايتهم هى نقل الكلام. لا يستطيعون مطلقاً أن يصـــمتوا إن عرفوا شيئاً، بل لا بد أن ينقلوه من فم إلى أُذن .. يسمونهم بلغة المُزاح (رويتر).

★★ وإن كانت بعض المشاكل تتسبَّب أحياناً من نقل الكلام، فإن أخفها ضرراً مـــن ينقلون الكلام كما هو. كما يفعل جهاز التسجيل الأمين الصادق، الذي ينقل الكلام كما قيل تماماً. إنما تأخذ المشكلة وضعاً أخطر بسبب الذي ينقل الكلام بعد أن يخلطه برأيه الخاص واستنتاجاته وتصوراته وغرضه الخاص. وهنا يُقدِّم شائعة بصورة معيَّنـــة... ويتطـــوَّر الأمر في تعقيد الشائعة، حينما يسمعها شخص آخر، ويضيف عليها ما يشاء، ثم يُقدِّم كـــل ذلك كأنه حقيقة!! وهكذا تتعقَّد الشائعات في تطورها.

★★ النقطة الأخيرة هنا حول مَن يصدقون كل ما يصل إلـــيهم مـــن شـــائعات ... هؤلاء الذين ينطبق عليهم قول أمير الشعراء أحمد شوقي:

قـــد صــــادفوا أذنــــاً صـــغواء لينـــة .. فأســـمعوها الـــذي لـــم يُســـمعوا أحـــداً

وما أجمل قوله عن مثل الذي يقبل الشائعات ويصدقها:

أثّـــــر البهتـــــان فيـــــه ... وانطـــوى الـــزورُ عليـــه

يـــا لـــــه مـــن ببغـــاءٍ ... عقلـــــه فـــــي أذنيـــــه

لذلك يا أخي القارئ، نصيحتي لك: لا تصدق كل ما يُقال أو كل ما يُنشر. فـــنحن لسنا في عالم من الملائكة، كلامهم صدق مطلق. إنما نحن نعيش وسط أجواء من الناس، يختلفون في مدى تمسكهم بالحق. فالحكمة إذن تقتضي أن تُدقِّق وتحقق، قبل أن تصـــدق. وبهذا يمكن أن تتقي شر الشائعات. وقاك اللَّه منها...

٤ سبتمبر ٢٠١١

الفرح: أصله وأنواعه

يسرني أن أهنئ أخوتي المسلمين في أرجاء العالم كله بعيد الفطر المبارك. كما أهنئ أيضاً زملائي أعضاء أسرة تحرير جريدة الأهرام الغراء، راجياً للكل من اللَّه ملء الفرح والبهجة.

وبهذه المناسبة، أود أن أُحدِّثكم في هذا المقال عن الفرح، وتاريخه مع البشر، وأنواعه ومجالاته...

★★ الفرح هو العطية التي منحها اللَّه للبشرية منذ البدء. فقد خلق اللَّه الإنسان الأول، ووضعه في جنة، أعني جنة عدن. بكل ما في الجنة من أزهار وثمار وأشجار، ومن طيور مغردة، ومن مناظر مبهجة. وأيضاً ما فيها من هدوء وسلام. وهكذا عاش أبوانا الأولان (آدم وحواء) في حياة من الفرح والسعادة، قبل السقوط. لم تكن كلمة الضيقة أو كلمة الحزن معروفة إطلاقاً في الجنة في ذلك الزمان.

★★ وكما منح اللَّه الفرح للبشرية منذ خلقها، كذلك وعدها بالفرح العظيم في العالم الآخر، بعد الموت والقيامة، هذا المُسمَّى بالنعيم الأبدي. وما يقول عنه الكتاب المقدس: "ما لم تره عين، ولم تسمع به أُذُن، وما لم يخطر على قلب بشر، ما أعدَّه اللَّه للذين يحبونه". أي فرح أعظم من هذا الذي أعدَّه اللَّه للبشر في الأبدية؟! إنه فرح لا تستطيع اللغة أن تعبِّر عنه بألفاظها المحدودة...

★★ وكما أراد اللَّه الفرح للبشر منذ البداية، وفي النهاية، كذلك جعل لهم في حياتهم الأرضية أعياداً يفرحون فيها ويبتهجون ... ونحن نضيف إلى كل ذلك أعياداً من عندنا ومناسبات للفرح.

★★ لعلَّ في مقدمتها أعيادنا الوطنية: من تذكار ثورات، وتذكار حروب انتصرنا فيها. وأيضاً أعياد لأبطال وشهداء لا يمكننا أن ننساهم، ولذلك أقمنا لبعضهم تماثيل لتخليد

أسمائهم. وفي خلال تلك الأعياد الوطنية، ننشد أناشيد مفرحة. وما أكثر هذه المناسبات الوطنية في بلادنا المحبوبة.

★★ بالإضافة إلى هذا لدينا أعياد أخرى لعديد من الشخصيات الدينية: مثال ذلك أعياد للسيد البدوي، وللسيدين الحَسن والحُسين عند المسلمين، وأعياد أخرى للسيدة العذراء، ومارجرجس عند الأقباط. وأعياد أخرى لكثير من الأولياء والأبرار والقديسين. وكلها أيام فرح وبهجة فيها أناشيد دينية، وحفلات...

★★ والفرح في كل تلك المناسبات هو فرح طاهر له قدسيته. ولا يمكن أن تكون فيه أخطاء، كما كان يُنسب إلى بعض الموالد قديماً، وكما قال أمير الشعراء أحمد شوقي عن زجاجة الخمر:

رَمَضانُ وَلّى هاتِها يا ساقي ... مُشتاقَةً تَسعى إِلى مُشتاقِ

نقول هذا، لأنه لا يجوز أن الفضائل التي اقتناها الصائم أثناء الصوم، من برٍّ، ومن ضبط للنفس، يفقدها حينما يفطر، حينما ينغمس البعض في حياة اللهو والعبث!!

★★ إن الأطفال يفرحون يوم العيد بالملابس الجديدة، أو بالمفرقعات الصغيرة من البُمب والصواريخ، وأيضاً بالعرائس وفوانيس رمضان، وما إلى ذلك ... أمَّا الكبار فلهم أفراح أخرى... صدقوني إن أعمق ما يفرح به الكبير هو حياة التوبة، والتخلُّص من العادات الخاطئة... مثال ذلك شخص كان يدمن التدخين، ثم استطاع أخيراً أن يتخلَّص من سيطرة السيجارة عليه... أي فرح حقيقي يكون لمثل هذا الشخص!!

وبالمثل يكون الفرح بكل ما ينتصر عليه الإنسان من أيَّة شهوة خاطئة. كما قال ذلك الأديب الحكيم: "افرحوا لا لشهوة نلتموها، بل لشهوة أذللتموها...".

★★ حقاً إن اللَّه رقيب على أفراحنا؟، يرى كل ما يحدث فيها، ويحكم عليها، بالبِرّ أو بالإثم...

ولعلَّ من أبشع أنواع الفرح، هو الفرح بالشماتة وهلاك الغير. وفي ذلك قال سليمان الحكيم: "لا تفرح بسقطة عدوك، ولا يبتهج قلبك إذا عثر... لئلا يغضب اللَّه منــك". إذن لا يليق بك أن تفرح إذا وقع خصمك في ضيقة أو في مشكلة...

★★ بالإضافة إلى كل ما قلناه، نقول إن لكل شخص أفراحه الخاصة: كأن يفــرح مثلاً في عيد ميلاده، أو في عيد زواجه، أو في ميلاد أبنائه ... كما يفرح أيضاً بالتوظُّف وبالترقِّي إلى درجة أعلى... وكل هذا فرح طبيعي...

ومن الأمور التي تجلب الفرح أيضاً النجاح والتَّفوُّق.

★★ على أن من الفضائل المُتعلِّقة بالفرح: المشاركة فيه. أي أن نشــارك النــاس في أفراحهم، ونفرح معهم في فرحهم. فالإنسان لا يعيش بمفرده في جزيرة نائية لا يتصل فيها بأحد. بل هو يعيش في مجتمع يرتبط فيه الكل بمشاعر واحدة "فرحاً مــع الفــرحين، وبكاء مع الباكين". فإن كنت يا أخي لا تستطيع أن تُشارِك الغيــر فعليــاً، بزيــارة لهــم في أفراحهم، فعلى الأقل بمكالمة تليفونية، أو برقية، أو بباقة ورد.

★★ بقى أن أقول لك إنَّ أسمى درجة من الفرح، هى الفرح براحة الضمير. وقــد تفرح أنت بما يسعدك، ولكن أعظم من هذا بلا شكّ، أن تفرح بإسعاد الآخرين. أن تفــرح برسم ابتسامة على وجه شخص، أو إدخال البهجة في قلب إنسان...

لذلك كما تفرح في يوم العيد، ليتك تجعل غيرك يفرح معك أيضاً، وبخاصة ما يُدخِل الفرح إلى قلوب المحتاجين والفقراء والمعوزين واليتامى، والذين ليس لهم أحد يذكرهم.

فليكن كل هؤلاء في ذاكرتك وفي قلبك، وفي أهم الواجب عليك من عمل الخير فــي يوم العيد...

١١ سبتمبر ٢٠١١

أنواع من القتل

وصية اللّه واضحة وصريحة وهى: "لا تقتل".

وعلينا أن نفهم مدلول هذه الوصية وتفاصيلها. لا شكَّ أنه ليس معناها فقط لا تقتل غيرك، وإنما أيضاً لا تقتل نفسك. وإن كانت كل خطية يمكن أن تكون خطيئة بالعمل أو بالفكر أو بالقول، يمكن أن ينطبق هذا أيضاً على خطيئة القتل. وإن كان القانون الجنائي يُعاقِب فقط على القتل بالفعل أو الشروع الفعلي في القتل، ولكن حُكم الضمير يمكن أن يُعاقِب على القتل بالفكر، والقتل بالنيَّة، برغبة القلب من الداخل. وهناك أيضاً قتل جزئي وقتل كُلِّي. هناك قتل للجسد، وقتل آخر للمعنويات، وقتل للسُّمعة. هناك قتل مباشر، وآخر غير مباشر، بالاشتراك أو بالتحريض ... كما أن هناك قتل للروح بإلقائها في جهنم.

★★ وهنا يقف أمامنا سؤال وهو هل القتل في الحرب تدخل مسؤوليته تحت وصية لا تقتل؟ ونجيب بأن الحرب إمَّا أن تكون عدوانية هدفها الاعتداء على دولة أخرى أو احتلالها وهذه ولا شكّ حرب خاطئة تختلف تماماً عن الحرب الدفاعية التي تُجيزها الوصية. كذلك هناك نقطة هامة وهى نوعية الأسلحة التي تُستخدَم في الحرب. فهناك أنواع من الأسلحة لا تجيزها القوانين العالمية كالأسلحة الفتَّاكة أو المُدمِّرة أو التي لا تتفق مع قواعد الإنسانية. كذلك يمتنع الاعتداء على المدنيين والمستشفيات والمؤسَّسات الإنسانية، وعدم التعرُّض للأطفال والنساء ودور العبادة. من أجل ذلك كله فإنه بعد الحرب العالمية الثانية، أُقيمت محاكم دولية لمحاكمة "مجرمي الحرب" أولئك الذين اعتبروا مجرمين في حق البشرية.

كذلك يدخل في نطاق وصية "لا تقتل": القتل بالتعقيم. وأحياناً في بعض العصور كان يُستخدم الإخصاء وهو نوع آخر من القتل الجزئي.

★★ ومن أنواع القتل أيضاً: الإجهاض. الإجهاض هو عملية قتل لجنين، أي لمخلوق حي كاملاً لم يُولَد بعد. وإن تمَّ الإجهاض بطريقة طبية، فإن الطبيب يتحمَّل جزءاً من المسؤولية. على أن الهدف من إسقاط الجنين قد يُحدِّد نوعية المسؤولية. ربما يكون الإجهاض خطيئة لستر خطيئة أخرى إذا كان الحمل سفاحاً. وقد يكون سبب الإجهاض هو عدم رغبة الأم أو الأب في النسل، وهذا لا يعفيهما من جريمة القتل. أو قد يكون سبب الإجهاض هو الخوف على صحة الأم إذا كانت الولادة تُهدِّد حياتها بالموت، فيموت الجنين الذي لم يُولَد بعد بدلاً من الأم الكائنة حية.

★★ وتدخل في وصية "لا تقتل": البغضة الشديدة التي تتمنَّى قتل إنسان. فبما أن القتل لم يتم بالفعل، إلاَّ أنه تم داخل القلب وداخل النيَّة. كذلك ليس القتل قاصراً فقط على الجسد بل هناك قتل معنوي منه عمليات التشهير وإضاعة سُمعة الغير وقيمته الأدبية ومركزه الاجتماعي بين الناس. وكل هذا نُسمِّيه بالقتل الأدبي.

نقطة أخرى هى قتل الشخصية: فيمكن لأبٍ قاسٍ أن يلغي بأوامره الشاملة شخصية ابنه، فينشأ معدوم الشخصية لا يستطيع أن يتصرَّف وحده في شيء. وهذا التَّصرُّف قد يفعله زوج مُستبد مع امرأته، أو رئيس عمل مع مرءوسيه. يحدث هذا عن طريق سوء المعاملة أو تثبيط الهمة باستمرار، أو إشعار الإنسان في كل مجال بأنه عاجز وفاشل ولا يصلح لشيء!!

★★ هناك أيضاً نوع من القتل الجزئي. ويدخل في هذا النطاق الاعتداء الجسدي والضرب والإيذاء، والتعذيب والتشويه. ومن الجائز أن إنساناً يعتدي على آخر فيحدث به عاهة مستديمة كأن يفقده بصره، أو يُشوِّه وجهه. وعملياً أن مَن يُعكِّر دم إنسان بإهانة أو إذلال، فإنه يحدث فيه قتلاً جزئياً عن طريق عمليات هدم خلايا وكرات دموية داخل جسده.

★★ يوجد قتل غير مباشر، مثل قتل الأعصاب، بالإغاظة الشديدة والإثارة، حتى لا تقوى أعصابه على الاحتمال، فيثور أو يغلي في داخل نفسه. وربما يمرض من الحزن

والألم والغيظ. فتظن القتل يا أخي معناه أن تطعن أحداً بسكين أو تضربه بالرصاص؟! كلا، ما أسهل أن تُحطِّم نفسه بتصرُّف فيه احتقار أو امتهان.

★★ هناك نوع سلبي من القتل، وهو الامتناع عن الإغاثة. فإذا تعرَّض شخص للموت، وكان بإمكانك أن تنقذه ولم تنقذه، فأنت إذن مشترك في موته ... نقول هذا أيضاً عن إخوتنا في الصومال، إذا لم تعمل الدول الغنية على إنقاذهم مِمَّا هُم فيه. ونقوله أيضاً عن منع الغذاء لِمَن يحتاجون إليه لحياتهم، أو منع الدواء والعلاج عن الذين هم في مسيس الحاجة إليه.

★★ هناك أيضاً قتل بالمسؤولية: فقد لا يقوم شخص بنفسه بقتل الآخرين. لكنه يطالب بدمهم إن كان مسئولاً عن قتلهم أو عن الذين قتلوهم.

★★ يدخل في نطاق وصية "لا تقتل": الانتحار. فالانتحار هو جريمة قتل للنفس. والإنسان لا يملك نفسه حتى يتصرَّف فيها كما يشاء. والانتحار يشمل خطية أخرى هى اليأس وقطع الرجاء، وأيضاً عدم الاحتمال، وأيضاً عدم الإيمان بالمصير في الحياة الأخرى. والانتحار قد يلجأ إليه مجرم قاتل قُبِضَ عليه. ويخشى الطريقة التي سوف يقتلونه بها أو يخشى التعذيب قبل الموت.

ويدخل في موضوع الانتحار ما يمكن أن نسميه بالانتحار التدريجي أو الجزئي، فيما يستخدمه البعض من التدخين والمسكرات والمخدرات. فكلها تؤدِّي إلى موتهم ولو بالتدريج.

★★ هناك أيضاً قتل الروح، بدفعها إلى الشهوات الخاطئة التي تفصلها عن اللَّه وتقودها إلى جهنم. سواء مَن يتسبَّب في ذلك عن طريق نشر البِدَع أو الإلحاد، أو مَن يعمل على استهواء وإغراء الجسد بخطية النجاسة القاتلة.

١٨ سبتمبر ٢٠١١

طُرق لمُعالجة الغضب الخاطئ

ليس كل غضب خطأً أو خطيئة. إنما الغضب الخاطئ هو الغضب المنفعل الذي تسيطر عليه الأعصاب ويتحوَّل إلى نرفزة، ويكون لأسباب ذاتية غير روحية، وبأسلوب غير روحي.

ومن ضمن الطُرق التي يُعالج بها هذا الغضب:

★★ الإبطاء في الغضب: فالغضب هو حركة سريعة، تُثار فتندفع. والإبطاء يمنعها. فالإبطاء في الغضب يُعطي فرصة للتحقق، ولتهدئة النفس من الداخل، والتَّحكُّم في الأعصاب وفي اللسان. وقد قال سليمان الحكيم: "لا تسرع بروحك إلى الغضب، لأن الغضب يستقر في حضن الجهَّال". وهذه الجهالة واقع عملي. فكثيراً ما نرى أشخاصاً يغضبون بسرعة. ثم يرجعون ويندمون على كل ما فعلوه، ويرونه اندفاعاً غير حكيم، ينقصه التروِّي والفحص. ويقول الواحد منهم عن خطئه: "لم أكن وقتها في عقلي". ونلاحظ أن الإبطاء في الغضب يكون مقترناً بصفات الرحمة والرأفة والمغفرة.

لا شكَّ أن الشخص بطيء الغضب هو إنسان كثير الفهم: يفهم مضار الغضب ونتائجه السيئة. ويفهم أنه لا يصنع برّاً، ولا يُقيم سلاماً مع الناس بل قد يضر الشخص الغضوب صحياً ونفسياً وروحياً. ويوقعه في خطايا كثيرة، ويجعله عثرة للناس.

والمعروف أن الإبطاء في الغضب يمكن أن يمنعه أو يصرفه. لأنه يجعل الإنسان يجتاز مرحلة الانفعال، ويدخل في دائرة التعقُّل وأيضاً الصبر. وبهذا قد يتبدد الدافع إلى الغضب. وربُّما يسبب هذا الإبطاء هدوء الطرف الآخر ويبطل إثارته.

★★ آفة الغضب هى السرعة، والتَّصرُّف باندفاع وبدون تفكير. فلو أنك أبطأت، وبدأت تُفكِّر، ولم تترك نفسك فريسة للاندفاع، فلا بد أنك ستستطيع أن تهدئ نفسك، وتحتفظ بأعصابك. لذلك قبل أن تلفظ كلمة في غضبك، فكِّر في نتائجها. والمعروف أن الكلمات في حالة الغضب (أي النرفزة) تخرج بلا ضابط. وكثيراً ما تكون كلمات خاطئة

جداً، وتُسبِّب مشاكل. كما تكون موضع نقد. أمَّا أنت فلا تندفع بالكلام، وتباطأ حيثما تفهم جيداً ماذا ينبغي أن تفعل. وهكذا يكون الإبطاء في الغضب يحمل فضيلة ضبط النفس.

★★ وإن لم تعرف كيف تتصرَّف، اسكت. فالسكوت في حالة الغضب فضيلة. لأن تبادل الكلمات الشديدة يزيد الغضب بين الطرفين. والكلمة الانفعالية التي هى نتيجة لإساءة سابقة، تصبح مُبرِّراً لإهانة لاحقة. وتزيد الجو توتراً. على أن هناك وسيلة تصلح أكثر من السكوت، وهى الجواب اللين.

★★ قال سليمان الحكيم: "الجواب اللَّيِّن يصرف الغضب. والكلام الموجع يهيِّج السخط". فإذا احتدم الغضب، فإنه لا يُعالج بالكلمات الموجعة. ذلك لأن النار لا تطفئ ناراً، ولكن يطفئها الماء. وهكذا تكون الكلمة اللطيفة أقدر على إطفاء النار.

ربما يكون الجواب اللين، في كلمة فكاهة أحياناً. حيث تبسط جواً من المرح يزول فيه الغضب. ولكن لا بد أن يكون ذلك بروح مودة، لئلا ضحكك يثير الطرف الآخر. والعجيب أن كثيراً من المتدينين المتشددين تنقصهم البشاشة أحياناً. ولذلك ترى وجوههم جادة باستمرار، وملامحهم صارمة عابثة. فإن صادفتهم مشكلة غضب، يزيدونها حدة بهذه الجدية فتشعل. بينما يكون الحل في ابتسامة لطيفة وكلمة رقيقة.

★★ لذلك كثيراً ما تكون البشاشة علاجاً للغضب. والشخص البشوش يستطيع أن يستوعب الموقف في لُطف. ويرد بملامحه المنبسطة المريحة وبوجه مبتسم. وقد يكون الجواب اللين هو كلمة اتضاع. سرعان ما يتلاشى معها غضب الطرف الآخر، ولا يجد أمامه شيئاً يقوله.

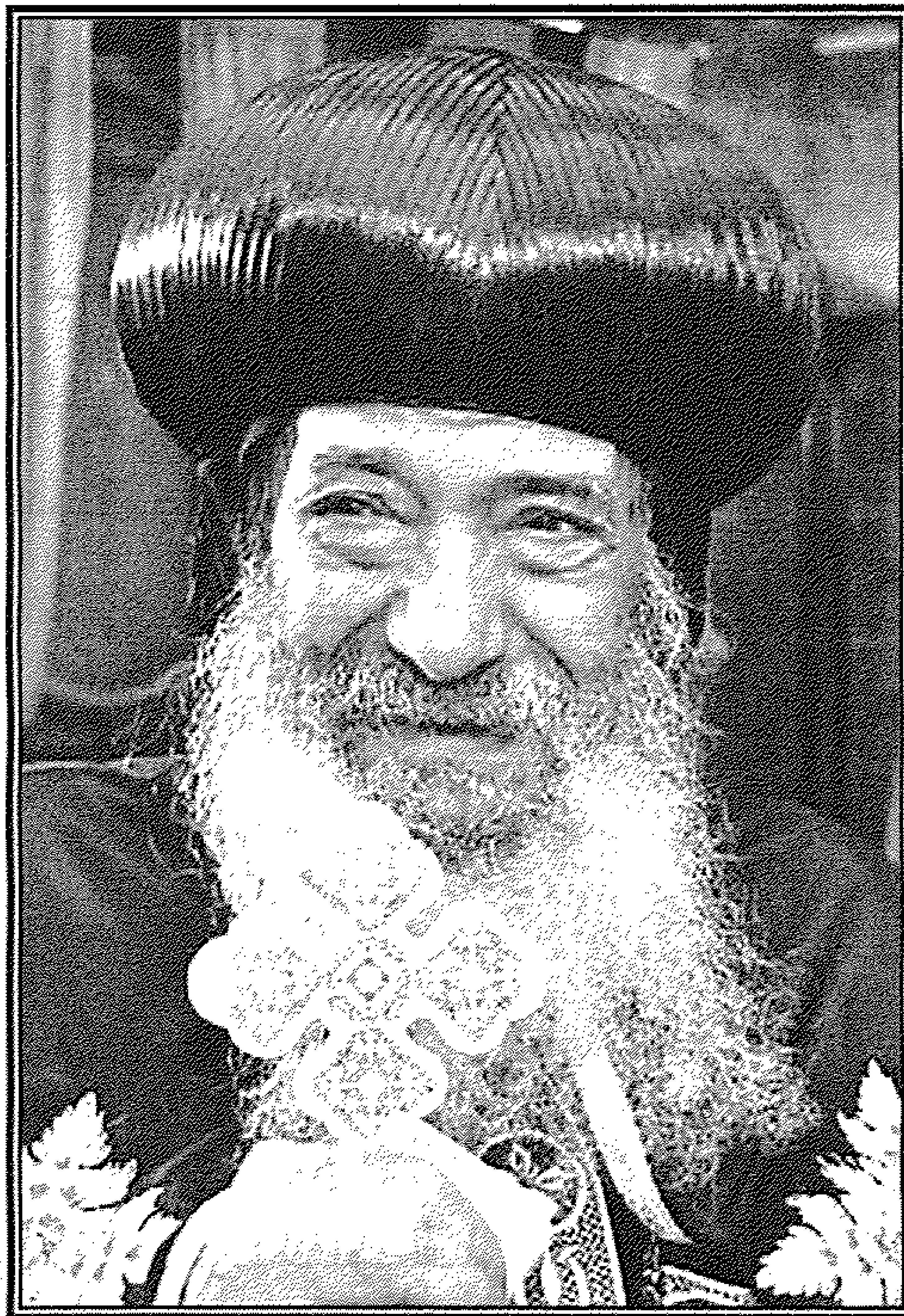
★★ على أنه لا يصلح أسلوب واحد للتهدئة مع جميع الغضوبين. فمع إنسان قد يصلح السكوت، إن كانت كل كلمة يمكن أن تثيره بالأكثر. ومع آخر رُبَّما يثيره صمتك، ويحتاج إلى كلمة تهدئة. والأمر يحتاج إلى حكمة: متى تتكلَّم؟ ومتى تصمت؟ انظر إلى الشخص الذي أمامك: ماذا يريحه ويُهدِّئهُ؟

★★ وفي علاج نفسك من الغضب الخاطئ، تذكَّر نتائج الغضب السيئة. ولعلَّ من أهم هذه النتائج: هزيمة الإنسان من الداخل، وعثرته للناس في الخارج، وخسارته للآخرين، بل خسارته أيضاً في صحته وروحياته وأبديته. مع تعقد الأمور بالأكثر نتيجة

للغضب الخاطئ. فإن اقتنع الإنسان بأن الغضب سيضره من نواحي مُتعدِّدة، حينئذ يجد دافعاً في داخله يمنعه من الغضب أو من إكماله.

★★ وفي كل مرحلة تصل إليها في غضبك، احترس من التدرُّج إلى ما هو أسوأ: فإن دخل الغضب إلى فكرك، احترس من أن يصل إلى قلبك، ويربك مشاعرك ضد غيرك. وإن وصل إلى قلبك احترس من أن يصل إلى ملامحك، فيكفهر وجهك وتظهر بأسلوب غير مُشرِّف. وإن ساد الغضب على ملامحك، احترس من أن يسود على لسانك. فتتلفَّظ بألفاظ قاسية. وإن أدرك الغضب لسانك، اجعله أن يقف عند حد من أخطاء اللسان فهى متعدِّدة. وإن سقطت في أخطاء اللسان، احترس من أن يصل الغضب إلى يدك. فتقع في الإيذاء والاعتداء. وإن وصلت إلى ذلك احترس من القسوة بكل أنواعها. ضع للغضب حدوداً في كل مرحلة. ولا تجعله يصل إلى مستوى الحقد والكراهية.

على أننا في كل هذا لم نستوفِ الموضوع حقّه. وربَّما نحتاج إلى تكملته في مقال آخَر.



٢٥ سبتمبر ٢٠١١

معالجة الغضب الخاطئ وتدريبات

تحدثنا في المقال السابق عن بعض الوسائل لمعالجة الغضب الخاطئ (أي النرفزة). ومنها الإبطاء في الغضب، والجواب الليِّن، واستخدام الحكمة، وتذكُّر نتائج الغضب السيئة، وعدم التدرج إلى أسوأ. واليوم نُكمل موضوعنا، فنقول:

★★ قد يظن البعض أنه يُعالج الوقوع في الغضب بالبُعد والهروب من المُجتمع الذي يغضبه. ولكن هذا نوع من الانطواء، وليس علاجاً. فأسباب الغضب كامنة داخل القلب وفي طباع الشخص. ومنها حساسيته الزائدة نحو كرامته التي تدعوه إلى الثورة على مَن يُسيء إليه وأيضاً عدم قدرته على الاحتمال. ولذلك فالشخص الغضوب إن ذهب بعيداً عن أسباب الغضب، فإنَّ الغضب يرافقه في أي مكان يذهب إليه. وشيطان الغضب يقول له بصراحة: " أنا من أجلك مُقيم معك في هذا الموضوع فإن أردت الانتقال من هنا، فسوف أنتقل بدوري معك. لأني ملازم لك حيثما ذهبت وحيثما سكنت ". إذن يجب على الإنسان أن يُهدئ قلبه من الداخل. ويُنقِّي قلبه من الغضب والغيظ. ولا ينفعه أن ينطوي على ذاته، وقلبه ساخط نافر مملوء بمشاعر خاطئة.

إن نقاوة القلب هذه هي العلاج الحقيقي لمشكلة الغضب، ما دام السبب هو داخلنا، أعني عدم الاحتمال، وعدم المحبة، وعدم المغفرة.

★★ اعلم تماماً أنك في ثورتك على غيرك بهذا الغضب والنرفزة، إنما تخسر الغير. وسليمان الحكيم يقول: "رابح النفوس حكيم"، ولذلك قُل لنفسك إذا حُورِبْت بالنرفزة: لماذا أخسر الناس؟! وهل هذه حكمة مني أن أخسرهم؟!

★★ بدلاً من الثورة والنرفزة، الجأ إلى أسلوب التفاهم والعتاب بهدوء وحاول أن تنتهي من المشكلة عن طريق الإقناع ومناقشة الفكر. فلا ترد على انتقادات الغير لك بالغضب، بل بالتفاهم والإقناع. إن التفاهم أسلوب جميل يشرح الأمور، ويزيل الغضب من جذوره. وقد يتعرَّض لأسباب هذا الغضب، إن كانت قد فُهِمت خطأً.

★★ حاول أن تلجأ في علاج الغضب، إلى طريقة التصريف وليس الترسيب.

أمَّا التصريف فمعناه أن ينصرف الغضب تماماً من أعماق قلبك. ولا يوجد في داخلك أي شيء ضد مَن ترى أنه أساء إليك. ولا يتم هذا إلاَّ عن طريق المغفرة الكاملة، التي تنسى الإساءة، بل ربما تلتمس العُذر للمُسيء. أو عن طريق التواضع العميق الذي يشعر فيه الإنسان أنه هو السبب في كل ما حدث. وبهذا لا يوجد غضب في القلب على الإطلاق. ولا توجد رغبة في الانتقام للنفس. وبتصريف الغضب يصبح القلب صافياً صفاءً حقيقياً. على أن هذا التصريف قد يحدث أحياناً بالتدريج. مثل جرح قد نظفته تماماً وشُفِيَ والتأم. ولم يعد يؤلمك في شيء. ولكن موضعه لا يزال حساساً، بحيث إن أصابته بأية صدمة تكون أكثر تأثيراً عليه وأكثر إيلاماً. ولكن بالوقت يزول الألم تماماً، ويصبح موضع الجرح كأي موضع آخر في الجسم من حيث التعرُّض للألم.

أمَّا الترسيب فهو صفاء خارجي، مع وجود الغضب كامناً في أعماق النفس، ثابتاً في الفكر! مثال ذلك زجاجة دواء مكتوب عليها: " رج الزجاجة قبل الاستعمال ". يكون فيها الدواء صافياً ورائقاً من فوق، مع وجود مواد مترسبة في القاع. بحيث إذا رججت الزجاجة، يتعكَّر السائل الرائق كله، إذ يختلط بما يترسَّب في القاع. وقد يحدث أن إنساناً يهدئ نفسه من الانفعال الظاهري. وفي قلبه هو غير مقتنع بما حدث له. وإنما من أجل الفضيلة قد سكت. ولكن يحدث أنه إذا تكرَّرت الإساءة، يغضب ليس بسبب هذه الإساءة الجديدة، إنما بسبب القديمة أيضاً. لأنها لا تزال موجودة في قلبه كامنة ومُترسِّبة. إنه حاول معالجة نتائج غضبه، ولكنه لم يُعالج أسبابه. ولم يسمح للغضب أن تنتج عنه حدة أو خصومة، أو محاولة لرد الشر بالشر. إنما أسباب الغضب ظلت باقية في أعماق نفسه تحتاج إلى تصريف.

★★ حاول أن تُعالج الغضب بطول البال وسِعة القلب. وحيث لا نغضب بسرعة ولأتفه الأسباب.

إنك إذا ألقِيت قطعة من الطين في كوب ماء، فإنها تُعكِّره. أمَّا لو ألقيت هذه القطعة من الطين في المحيط فإنه لا يتعكَّر. إنما يأخذ قطعة الطين ويفرشها في أعماقه بكل

هدوء، ويُقدِّم لك ماءً رائقاً. كُن إذن واسع القلب وحاول أن تغفر. وإذا ما حُورِبت بالغضب على أحد، فعليك أن تتذكَّر كم مرة أخطأت إلى اللَّه ولم يغضب عليك رغم كسرك لوصاياه. بل تذكَّر أيضاً أنك تكسر وصايا اللَّه كثيراً وتخطئ، وبعد ذلك تقف لكي تُصلِّي إليه وتتحدَّث معه، وتطلب منه طلبات ... دون أن تعتذر إليه أو حتى تصالحه. إنني كلما أرى غضب الناس وثورتهم، أزداد حباً للَّه، الذي يحتمل كل سيئاتنا ولا يغضب.

حقاً ما أعجب اللَّه في احتماله. إنه يحتمل كل الأخطاء، لكل الناس وفي كل العصور... على الرغم من أنه خليقته وعبيده ... بينما الناس لا يحتملون غلطة واحدة في حقهم من بشر مساوين لهم، أو ربما أعلى منهم مقاماً.

★★ لمعالجة الغضب يمكن للإنسان أن يُدرِّب نفسه على أمرين هُما: عدم علو الصوت، وعدم حدة الصوت. حتى لا يتحوَّل غضبه إلى صياح وعراك. فالصوت العالي عثرة، وهو يفضح الغضب الداخلي أمام الناس ويعلنه. ويظهر الشخص الغاضب كإنسان عاجز عن التحكم في أعصابه، وعاجز عن الهدوء أثناء نقاشه. وهذا أمر غير مُشرِّف له من كل ناحية، وموضع لانتقاده مهما كان على حق. وإذا اختلطت حِدَّة الصوت بعلوه، تكون غير محتملة. وكذلك إن ارتبطت بملامح غاضبة. انظر إلى وجهك في مرآة أثناء غضبك، ستجد أنه ليس من السهل احتمال ملامحك. لذلك تدرَّب على هدوء الصوت والملامح.

٢ أكتوبر ٢٠١١

ما هو الحق؟ وأنواعه؟ وماذا ضده؟

الحقُ هو اسم من أسماء اللّه تبارك وتعالى، سواء في الإسلام أو في المسيحية. لذلك فموضوع الحق موضوع خطير، ينبغي أن نُعطيه حقه من الاهتمام.

★★ وكلمة الحق تعني أيضاً الصدق، وضدها الكذب. فكل مَن يكذب بشتى ألوان الكذب هو ضد الحق. ونلاحظ أن الشاهد في المحكمة يقسم: " أن يقول الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق ". وعبارة " كل الحق " تعني أيضاً أن أنصاف الحقائق قد لا تكون حقاً. لأنها تخفي جزءاً من الحق قد يطمس الحقيقة أحياناً.

★★ وكلمة الحق قد تعني أيضاً العدل. وعبارة "يجب أن تحكموا بالحق" معناها أن تحكموا بالعدل. كما أن عبارة "شخص حقّاني" تعني شخصاً عادلاً، يُعطي كل ذي حق حقّه، لا ينحاز إلى أحد. بل إذا اختصم إليه اثنان، يحكم بينهما بالمساواة. لا يُحابي أحدهما، في حين يظلم الآخر. كما أن الإنسان الحقّاني، لا يشهد على أحد بالزور، ولا ينسب إلى أحد تُهماً باطلة.

★★ وإن تكلّمنا عن الحق، ينبغي أن يشمل كلامنا عِدَّة أمور وهى: الحق في ذاته، وحق الغير عليك، وحقوق اللّه أيضاً عليك. وكذلك حق ذاتك عليك. بل أيضاً حقوق الإنسان بصفة عامة...

★★ فمن حقوق اللّه عليك: الإيمان به، والطاعة لكل وصاياه وأوامره، وعبادته والخشوع أمامه، حيث تنحني أمامه وتركع وتسجد. كذلك عليك أن تفعل الخير باستمرار. وتنفذ مشيئة اللّه، ولا تخطئ.

ومن حقوق اللّه عليك، أنك إن نذرت نذراً أن توفي به. لأنك خير لك أن لا تنذر، من أن تنذر ولا تفي. والنذر هو عهد بينك وبين اللّه، لا يجوز أن ترجع عنه وهناك فروض أخرى في الدين يجب مراعاتها.

★★ أمَّا عن حق ذاتك عليك، فهى أن تحفظ ذاتك سليمة في الدنيا والآخرة: لا تضر جسدك بتنجيسه، ولا تضر صحتك بالتدخين والمسكرات. كما عليك أن تحفظ قلبك نقياً بعيداً عن الخطايا التي مصيرها أن تهلكك في جهنم. لذلك عليك أن تضبط نفسك باستمرار، وتحيا حياة التوبة والفضيلة. بل تكون أيضاً قدوة لغيرك.

★★ أمَّا من جهة حقوق غيرك عليك، فهى من الناحية الإيجابية أن تساعده وتعينه على قدر ما تستطيع، وتحاول باستمرار في معاملتك له أن تعطي أكثر ممَّا تأخذ ... أمَّا من الناحية السلبية: فمن حق غيرك عليك أنك لا تظلمه. فلا تمنع عنه حقَّه، ولا تنقصه حقه. ولا تهينه، ولا تُسيء إليه وإلى سمعته. ولا تعتدي عليه، ولا تأمره بما لا طاقة له به، ولا تُهمِّشه إن كان تحت سلطانك. ولا تضطهده، ولا تذله ... وغير ذلك كثير ...

★★ كل ما سبق فقلناه، هو من جهة الأفراد، لكن هناك حقوقاً اجتماعية ينبغي أن نتعرَّض لها. فكما أن هناك ظلماً قد يتعرَّض له الفرد، كذلك قد يوجد ظلم اجتماعي، وظُلم سياسي:

★★ فمن الظلم الاجتماعي مثلاً: وجود أطفال الشوارع الذين بلا مأوى. يوجد مثل هؤلاء في أمريكا يسمونهم Homeless. والدولة مُلزمة أن توجد لهم مأوى، وأن تدفع لهم مبلغاً مالياً بسيطاً كل شهر يكفي للتغذية. ذلك لأن لهم حقاً على الدولة أن تعتني بهم...

نفس الكلام نقوله عن البطالة: كحالة الشاب الذي يبذل جهده للدراسة في الجامعة. حتى إذا ما نجح وتخرَّج، يجد نفسه عاطلاً بلا عمل!! أليس من حقه أن يعيش، وأن يعمل، وأن يكون له إيراد، يمكنه به أن يكون له بيت، ويتزوج، وينفق على عائلة؟!

أقول - وأنا مُتألِّم - إنه في إحدى المرات، أرسلت إليَّ أرملة تقول: إن لها أربعة أبناء، ومعاشها من زوجها المتوفي عبارة عن ١٣٠ جنيهاً، وعليها إيجار شقة، ومصروفات مدارس لأبنائها، ومصروف البيت!! وأمثال هذه الأرملة كثيرات. فما واجب المجتمع حيال الكل؟!

★★ إن اللَّه حينما خلق العالم، أوجد فيه من الخير ما يكفي جميع الناس. ولكن المشكلة هى في سوء التوزيع! فيوجد أشخاص يعيشون في ترف شديد، وآخرون

لا يجدون القوت الضروري. فما هى حقوق كل هؤلاء؟ وكيف ينالونها؟! ومع ذلك يتحدث المجتمع عن الاشتراكية وعن المساواة!! كما تحدثوا قبلاً عن مجانية التعليم!!

★★ إن اللَّه حينما أعطانا المال، لم يعطنا إيَّاه فقط لكي ننفقه، إنما بالأكثر لكي نكون وكلاء عليه، نتصرَّف فيه من جهة احتياجاتنا واحتياجات المجتمع الذي نعيش فيه... أعطانا المال، ومعه وصية العطاء، والرفق على الفقير والمسكين وعابري السبيل.

★★ أيضاً مرَّت على العالم فترة، وُجِدَ فيها الرق والعبودية، وشراء الإنسان لأخيه الإنسان، بل بالأكثر ضربه وأساء معاملته، كما يقول الشاعر:

لا تشترِ العَبد إلا والعَصَا معه *** إنَّ العَبِيدَ لأنجاسٌ مَناكيد

بل كان ممكناً أن يبيع هذا العبد (الذي هو أخوه في البشرية). وأكثر من هذا له أن يقتله! باعتبار هذا الإنسان جزءاً من مقتنياته!!

★★ أخيراً أتكلَّم عن الظُّلم السياسي. ومن أمثلته معاملة السود من نتائج سياسة البيض في الـ Commonwealth، وقد قاسى من الأمر غاندي حينما كان محامياً في جنوب أفريقيا. إذ في إحدى المرات قطع تذكرة درجة أولى في القطار. فاحتجُّوا على ذلك، لأنه لا يجوز أن رجلاً أسود يركب درجة أولى. وألقوه من نافذة القطار إلى الرصيف! كذلك ما لاقاه مانديلاّ من تلك السياسة. ولكن نشكر اللَّه أن ذلك قد انقضى. وخرج مانديلاّ من السجن ليكون أوَّل رئيس أسود لجنوب أفريقيا. كما أن أمريكا تحتفل بتحرير السود بعد استعبادهم زمناً.

★★ أخيراً فإن حقوق الإنسان موضوع طويل. نكتفي الآن بما قد ذكرناه...

٩ أكتوبر ٢٠١١

المحبة الخاطئة للذات

كل إنسان يحب ذاته. والمحبة الحقيقية للذات هى قيادتها في حياة البِرّ والفضيلة للوصول إلى أبدية سعيدة. على أنه توجد محبة خاطئة للذات. وهذه ستكون موضوع مقالنا اليوم.

★★ إن الذات هى أقدم وأخطر عدو حارب البشرية. والشيطان لا يُحاربك بقدر ما تُحاربك ذاتك. بل إن الشيطان في غالبية هجومه لك، يُحاربك بذاتك. وكل الحروب الخارجية التي تأتي عليك، لا يكون لها تأثير إلاَّ إذا استسلمت الذات لها. فإن رفضتها الذات تكون كأنها لا شيء. فيوسف الصديق أتته حرب خارجية عنيفة من جهة الإغراء. ولأن ذاته كانت قوية، لذلك انتصر على كل تلك الإغراءات. إن الذات النَّقيّة ترفض حتى الفكر الخاطئ ولا تتفاوض معه. وقوة الذات تأتي هنا من غلق أبواب الفكر وأبواب القلب أمام كل اقتراح خاطئ يُقدِّمه الشيطان. ولذلك قال الآباء: "إن اصطلحت مع ذاتك، تصطلح معك السماء والأرض". أي إنك إن استطعت في داخلك أن تُقيم صُلحاً بين جسدك وعقلك وروحك وضميرك، ويسير الثلاثة في طريق واحد هو طريق الروح، ولا يشته الجسد ضد الروح، ولا الروح ضد الجسد ... حينئذ تصطلح معك السماء والأرض. فلا تخطئ إلى اللَّه، ولا إلى الناس، ولا إلى نفسك.

★★ ولكن يقع الإنسان في الخطيئة، حينما يحب ذاته محبة خاطئة. أي أنه يُدلِّل ذاته، ويعطيها كل ما تطلب وكل ما تشته! وقد تُريد الذات أحياناً أن تعيش في حياة اللذة، سواء كانت لذة جسدية أو حسية، أو لذة تتعلَّق بشهوات العالم الحاضر ... حينئذ تكون المحبة الحقيقية للذات، هى أن تؤدِّب هذه الذات إن أخطأت، وتقوِّم طريقها كلما انحرفت. بل إذا أدَّى الأمر عليك أن تُعاقِب ذاتك، وأن تقف ضد رغباتها الخاطئة.

★★ ومن الأخطاء الواضحة للذات، أنها تريد أن تكبر باستمرار. وقد يكون ذلك لوناً من الطموح الطبيعي. ولكن الخطأ الذي تقع فيه الذات أنها تريد أن تكون كبيرة من الخارج وليس من الداخل! أعني أن تكون كبيرة بمظاهر خارج النَّفس: كالمناصب والألقاب، والغنى والشهرة، ومديح الناس. وكل هذه أمور لا علاقة لها بطبيعة النَّفس ونقاوتها. وكسب المديح للذات وتمجيدها من الخارج هى أمور من المفروض في الإنسان الروحي أن يرتفع عن مستواها. فما قيمة هذه الأمور كلها بالنسبة إلى أبديته؟!

★★ ومن مظاهر هذه الحرب الروحية ما يسمونه بعبادة الذات أو عشق الذات: إذ يريد الإنسان أن تكون ذاته جميلة في عينيه، وجميلة في أعيُن الناس، بلا عيب أمامه ولا نقص. كما لو كان يؤمن بعصمة ذاته، أو أنه لا يمكن أن يخطئ!! إنه مُعجب بذاته. كما لو كان يحب باستمرار أن ينظر إلى مرآة ويتأمَّل محاسنه! وفي محبته الخاطئة لذاته، لا يمكن أن يحتمل إهانة، مهما كانت ضئيلة. ولا يحتمل نقداً، ولا يحتمل أن يُكلِّمه أحد بصراحة. إنه يرى كل ذلك تشويهاً لصورته التي يريدها دائماً أن تبقى جميلة رائعة أمام الناس ... ولا يقبل أن يُصحِّح له أحد أخطائه. وهكذا تكون محبته الخاطئة لذاته سبباً في بُعده عن حياة التوبة. بل تكون محبته الخاطئة للذات هذه خطراً على أبديته.

والعجيب أن الذي يحب المديح، لا يكتفي بمديح الناس. بل يتطوَّر إلى أن يتحدث كثيراً عن نفسه ويمدحها أمام الآخرين! وفي حديثه عن نفسه لا يكون عادلاً فهو لا يتحدَّث إلاَّ عن محاسن ذاته وانتصاراتها وأمجادها. بينما يخفي ما فيها من عيوب ومن نقائص! وإن أظهر له أحد بعض هذه العيوب، يحاول أن يُبرِّرها ويُدافع عنها.

★★ وأحياناً من مظاهر المحبة الخاطئة للنفس أنها تطلب أحياناً حرية كاملة لتفعل ما تريد. وقد تقودها هذه الحرية إلى أهداف خاطئة عديدة. ولا ننسى أن الوجوديين، قد وقعوا في هذا الخطأ المُرعب. إذ رأوا بسبب شهواتهم الخاصة، أن وجود اللَّـه يُعطِّل وجودهم أي يُعطِّل رغباتهم الخاطئة وشهوات أنفسهم. فقادهم ذلك إلى الإلحاد.

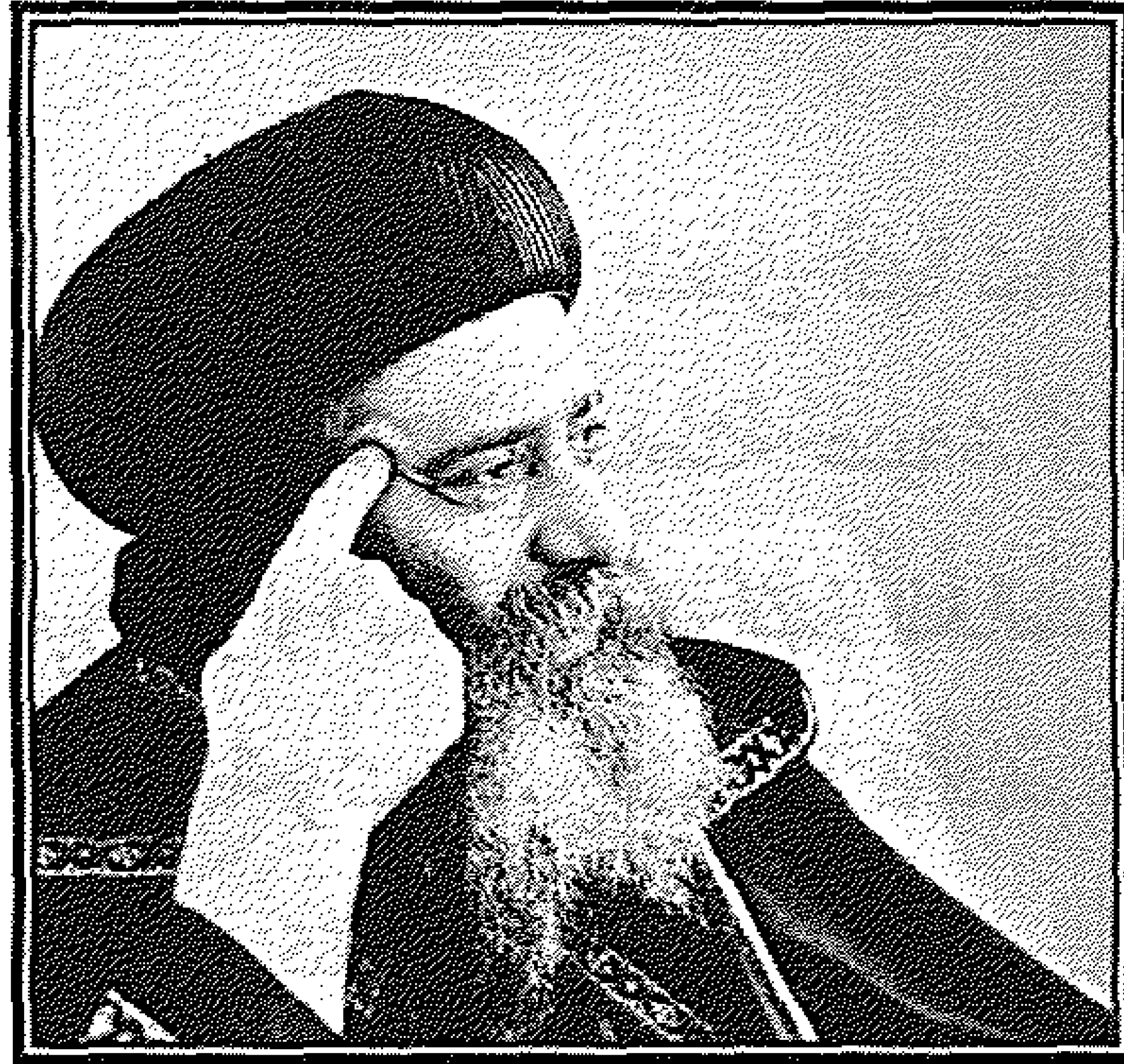
★★ والمحبة الخاطئة للذات، كثيراً ما تدعوها إلى تبرير أخطائها، وإلى أن تغطي على أخطائها بالأعذار!! وهكذا نرى الذات تعتذر عن إهمال الصلاة بقلة الوقت وكثرة

المشاغل! وتعتذر عن التقصير في إعطاء الفقراء بقلة المال في الظروف الحاضرة! وهنا قد لا يدفع المسيحيون العشور، ولا يدفع المسلمون الزكاة. وقد يصل الأمر إلى الإدعاء بأن الفقراء هُم جماعة من المحتالين وليس من المحتاجين!

★★ وأحياناً نرى أن الإنسان المُعتد بذاته، قد يصل إلى العناد وتصلُّب الرأي. ويرى أن فكره هو الفكر الصائب وفوق الكل. لا يقبل فيه معارضة، بل يُعادي مَن يُعارضه أو يكرهه، أو يعمل على تحطيمه! أو على الأقل يتجاهل الرأي الآخر. وفي محبة الإنسان لذاته، قد يقع في الغيرة والحسد. ويكون شديداً جداً من جهة منافسة غيره. وتبدأ الذات حرباً مع كل مَن ينافسها أو يسير في نفس الطريق. إنها تريد أن تكبر وأن تكبر وحدها. وقد تنتقد الغير، لكي تثبت أنه أقل منها. فهي الوحيدة التي يجب أن تتركز عليها الأضواء.

★★ والمُحب لذاته محبة خاطئة، يُلقي بمسؤولية أخطائه على غيره. فإن كان طالباً ورسب في الامتحان. فيشكو إمَّا أن واضع الامتحان كان قاسياً في أسئلته، وإمَّا أن المُصحِّح لم يكن رحيماً في تصحيحه. وإمَّا أن اللّه لم يسنده في امتحاناته!

والمُحب لذاته أحياناً يكون كثير التَّذمُّر ويشكو. إن كان رئيساً يشكو من أخطاء مرءوسيه. وإن كان مرؤوساً يشكو من رؤسائه وزملائه. وإن كان ولا أحد من هؤلاء قد أخطأ، حينئذ يشكو من الأنظمة والقوانين واللوائح! المُهم أنه يدَّعي باستمرار أنه مظلوم.



١٦ أكتوبر ٢٠١١

أنواع من الذين لا يتحكمون في أنفسهم

★★ **بسبب الحزن المفرط:**

مثال ذلك أُمّ فقدت وحيدها. فهي تبكي وتقرع صدرها أحياناً، وتصرخ. متذكرة علاقتها بهذا الابن منذ أن كان طفلاً وإلى أن مات. وهى حزينة لا تستطيع أن تتحكم في صراخها أو في دموعها.

مثال آخر فتاة فقدت خطيبها. وقد ذهبت إلى المستشفى وتراه ميتاً. فأمسكت يده بيدها وهو ميت وترفض أن تترك يده. وهى تبكي بدموع غزيرة، شاعرة أنها قد فقدت الحب، وأنها فقدت القلب الذي كان يسعدها، وفقدت المستقبل السعيد الذي كانت تحلم به مع هذا الخطيب. إنها لا تستطيع أن تتحكم في مشاعرها، لأن موت خطيبها كان أكبر بكثير من تحملها.

مثال ثالث هو أسرة فقدت عائلها. وأصبحت تشعر بالضياع. وترى نفسها أمام مستقبل غامض لا تعرف كيف تتصرف فيه. فهى ما عادت تقدر أن تتحكم في بكائها أو حزنها أو الأفكار الصعبة التي تجول في خاطرها.

كل هذه الحالات قد حدثت فعلاً أمامي. ورأينا كيف أن أصحابها لم يستطيعوا التحكم في مشاعرهم.

★★ **أيضاً في حالات الغضب الشديد**، والثورة الداخلية الجامحة. إما بسبب أحداث وقعت عليهم، وأضاعت حقوقهم أو كرامتهم. هؤلاء قد لا يستطيعون أن يتحكموا في أعصابهم الملتهبة، ولا أن يتحكموا في تصرفاتهم وأقوالهم. وقد يصيحون ويثورون. وربما في ثورتهم يتلفظون بكلمات لا تليق. هذه الكلمات قد تُثير غيرهم. وهنا توجد عدوى الإثارة: من الغضب الثائر، ومن الذي أثاره هذا الغضب. كل أولئك لا يستطيعون التحكم في مشاعرهم.

★★ أيضاً في حالات الذين فقدوا الحرية. مثال ذلك بعض الذين تم إلقاؤهم في السجون، أياً كانت أسباب ذلك. هم أيضاً قد لا يتحكمون في حالتهم النفسية أو العصبية. والبعض منهم قد يعصف بهم الحزن على ما وصل إليه. والبعض قد لا يستطيع أن يمنع البكاء أو الصراخ، أو أن يصيح صارخاً من ظلم قد لحق به، ويقول: أنا بريء! والبعض قد يدركه اليأس، وتفكير الوسواس. ولا يستطيع أن يتحكم في شيء من هذا. فهو يتساءل فيما بينه وبين نفسه: ما هو مستقبلي؟ وما مصيري؟ وماذا ينتظرني من أحكام؟ فلينتظرني حبس مشدد؟ أم سجن مدى الحياة؟ أم إعدام؟... وماذا أيضاً عن أسرتي وأقربائي وأحبائي الذين حُرِمت منهم؟ وهل هم أيضاً سيتعرضون للمساءلة أو القضاء؟ هذا السجين قد لا يستطيع أن يتحكم في مشاعره أو في أفكاره. وقد يفكر أحياناً بصوت عالٍ ويسمعونه!

★★ نوع آخر تشغله فكرة تستولي على عقله وعلى تفكيره وربما يكون أسير لهذا وفي حماسه لتلك الفكرة، لا يستطيع أن يمنع عقله من التفكير في شيء آخر. هذا أيضاً لا يتحكم في عقله.

★★ **هناك أيضاً حالة شخص قد يصاب بكارثة.** وفيها يضيع كل ماله ومدخراته... ربما لأنه وقع في حالة نصب، أو أن شريكاً له كان يثق به. ولكن هذا الشريك خانه واستولى على ماله وهرب إلى حيث لا يدري. وهكذا يشعر مثل هذا الشخص أن حياته قد تحولت إلى الضياع. وفي هذا الضياع قد لا يستطيع أن يتحكم في أعصابه ولا في عقله. وقد يضطر إلى الاستدانة. وللأسف قد يكتب على نفسه إيصالات أمانة، أو شيكات بدون رصيد. وقد يقع في قروض لها فوائد خيالية وهو مضطر إلى ذلك. ثم تتكاثر عليه الديون. ويحاول أن يستغيث، فلا يغيثه أحد لفداحة الديون التي وقع فيها.

وهنا لا يستطيع أن يتحكم في أعصابه وفي كلامه. وقد يشتم الكل! بل قد يصل به الأمر إلى أن يجدف على اللّه نفسه! ويقول للرب أين أنت؟! لماذا تتركني في هذا الضياع؟! إنه يخطئ في قلبه وفي فكره وبلسانه، دون أن يستطيع أن يتحكم في كل ذلك.

★★ وهناً كمثال أذكر ما حدث من الماركسيين الذين رأوا فارقاً كبيراً بين حالات الفقر الشديد عند البعض وحالات الترف الواسع عند البعض الآخر. فصاروا لا يمكنهم التحكم في أفكارهم. فادعوا أن اللَّه يعيش في برج عال لا علاقة له بالبشر ولا بمشاكلهم!! ثم تدرجوا إلى إنكار وجود اللَّه ودخلوا في جو من الإلحاد في العالم الشيوعي. وصاروا يرغمون الناس على الإلحاد أيضاً وأصبح الذي يقدم على إحدى الوظائف، لابد أن يجتاز اختباراً... يسألونه ماذا تعرف عن اللَّه؟ لابد أن يجيب لا يوجد إله. ثم ما رأيك في الدين، فيجيب أنه أفيون الشعوب "أي أنه يخدر الناس". فينسون متاعبهم من أجل التفكير في حياة أخرى في السماء! ثم يسألونه أيضاً ما رأيك في رجال الدين؟ فلابد أن يجيب أنهم كلهم كاذبون! وبهذا ينال الوظيفة. واستمر هذا الأمر للأسف الشديد سبعين سنة إلى أن تدخل اللَّه وأنهى ذلك كله.

★★ ومن الذين لا يتحكمون في أنفسهم، أولئك الذين نالوا حرية لا يستحقونها. فتحولت الحرية عندهم إلى لون من التسيب. ووصف كثير منهم بعبارة البلطجة. هؤلاء ما عادوا يتحكمون في تصرفاتهم. التي قد تصل إلى الخطف، أو إلى القتل، أو الإيذاء، أو نهب الآخرين. وهم في كل ذلك يرون ما يفعلونه كلون من العظمة أو القوة. ولا يستطيعون التحكم في أخطائهم لأنها صارت طبعاً من طباعهم!!

الوضع السليم أن الإنسان يتحكم في الضغوط الخارجية، ولا يدعها تتحكم هى فيه.

٢٣ أكتوبر ٢٠١١

من الداخل، أمْ مِنَ الخارج؟

★★ إذا اجتمعت أعضاء الإنسان يوماً، فلا شكّ أن القلب سيكون بينها رئيساً. ذلك لأن الإنسان تقوده مشاعره، والمشاعر كامنة داخل القلب.

ولكي تكون المشاعر سليمة، فإنَّ القلب يصطحب معه الضمير، بشرط أن تكون أحكام الضمير صالحة، وأحكامه توافق الحق، ولا يكون تحت تأثير خارجي.

★★ ولذلك لا بد من عمل تقييم مستمر لمستوى المشاعر واتجاهاتها، وتغيرها من حين إلى آخر! والتأكد من سلامة تصرُّف الإنسان في سلوكياته ...

وهكذا تدعو الحاجة إلى مراقبة حالة النَّفس من الداخل ومن الخارج. وكيف تسلُك النَّفس في عدّة موضوعات من التقوى والعفة والصداقة وألوان من العبادة.

وسنحاول أن نطرق الموقف من كل هذه الأمور وغيرها، بمقياس الخارج والداخل.

★★ إنَّ اللَّه تهمه حالة القلب قبل كل شيء، وليس مُجرَّد المظاهر الخارجية. إلاَّ لو كانت تلك المظاهر الخارجية تعبيراً صادقاً عن حالة القلب من الداخل. بحيث يكون الأمران معاً عبارة عن صورة واحدة في تيار واحد.

★★ من المُلاحظ أن بعض الوعاظ ورجال التربية يهتمُّون كل الاهتمام بالنقاوة الخارجية فقط ويُركِّزون عليها! فبالنسبة إلى الفتاة مثلاً، يهتمون بمظهرها: هل تتفق ملابسها وقواعد الحشمة؟ وهل هى تسرف في زينتها لكي تجذب بذلك غيرها! ويُركِّزون على هذه السلبيات. ولا يتطرّقون إلى الباعث الداخلي، الذي يكمن في القلب، ويسبِّب عدم الحشمة!!

والمفروض أن يكون التركيز على الداخل، من جهة محبة الفضيلة ونقاء القلب. فإن صار القلب نقياً من الداخل، وتخلَّص من المشاعر التي تدفع الفتاة إلى التَّبرُّج في زينتها، حينئذ هى نفسها، من تلقاء ذاتها وبدون وعظ، ستتخلَّى عن كل تلك المظاهر الخاطئة.

★★ كذلك الشاب الذي يطيل شعره لكي يتميَّز عن غيره، ويلبس ملابس لا تليق. ويضع سيجارة في فمه ليشبه الكبار. ويستخدم العُنف ليُثبت قوته! هذا لا يثنيه الوعظ أو الضغط الخارجي. إنما يحتاج أن يعرف ما معنى الرجولة؟ وما هي علامات قوة الشخصية؟ وكيف يمكنه أن يكسب محبة وتقدير الناس؟ بالإضافة إلى نقاء القلب من الداخل. فإن اقتنع بكل هذا، لابد سيترك أخطاءه بدون توبيخ أو قهر...

★★ إن العُنف والضغط الخارجي والشدة في التوبيخ، ليست هي الأمور التي تُصلِح الآخرين. وغاية مَن تصل إليه هو الإجبار على مظهر خارجي يبدو سليماً، ويبقى القلب كما هو، بنفس رغباته واتجاهاته. يُضاف إلى ذلك روح التَّذمُّر والضيق!!

★★ يحسُن أن يعرف الشباب وغيره، أن العُنف ليس دليلاً على القوة. بل هو الاعتراف بالعجز عن حل الأمور بطريقة هادئة! وبهذه المناسبة، أتذكَّر ما قاله أحد الشعراء:

ضِعاف الأُسد أكثرها زئيراً ... وأصرمها اللواتي لا تزيرُ
وقد كبر البعير بغير لبٍ ... ولم يستفد بالكبر البعيرُ

★★ إن الذين يهتمون بالمظاهر الخارجية الزائفة، رُبَّما يشبهون قبوراً مزينة جداً من الخارج. بينما في الداخل أجساد قد تحلَّلت ويأكلها الدود! إن المظاهر الخارجية غير مقبولة عند اللَّه، ولا ينخدع بها جميع الناس.

ومع ذلك لا ننكر أنه بالإضافة إلى القلب النَّقي من الداخل، يحسُن أيضاً أن يكون الخارج أيضاً نقيًّا: ويكون سلوك كل شخص حسنٌ جداً من الخارج، بحيث يكون ذلك نابعاً من القلب، وليس مُجرَّد تظاهر أو رياء لمُجرَّد نوال مديح الناس! بل الهدف هو إرضاء اللَّه، وأيضاً لكي لا يكون عثرة أمام الناس، بل قدوة صالحة تنفع الغير. ولا شكَّ أن الاهتمام بنقاء القلب من الداخل، ليس معناه ترك الخارج أيضاً. إنما علينا أن نضع أُسُس سليمة للتخلص من الأخطاء.

★★ مثال ذلك: إنسان يكذب كثيراً. هل إصلاحه يأتي بعظات عن خطية الكذب وخطورتها ومضارها؟! وهل توبيخه على كذبه يجعله يبطل ذلك؟! أمْ الأفضل لإصلاحه أن نبحث عن الأسباب التي تدعوه إلى الكذب: هل هو يكذب لإخفاء خطية وقع فيها؟ أو يكذب للحصول على منفعة ما؟ أو القصد من الكذب هو التباهي، أو التخلُّص من الإحراج؟ أو أن الكذب قد صار عادة عنده، بحيث يكذب بلا سبب يضطره إلى ذلك؟ أمْ يكذب عن طريق الفكاهة، أو لإغاظة غيره أو التَّهكُّم عليه؟ أو لسبب آخر؟

إذن نبحث عن سبب الكذب ونُعالجه. ونقنع صاحبه بعدم جدواه. ونُقدِّم له حلولاً عملية أو بدائل لا خطأ فيها. مع الاقتناع بكسب ثقة الناس واحترامهم بأسلوب الصدق. وهكذا نُعالج الداخل، فيزول الخطأ الخارجي تلقائياً...

★★ نصيحتي لك: أن تحترس من الأسباب التي تقودك إلى الخطأ الخارجي. وهذا الاحتراس يقودك إلى نقاء الداخل. ومن أجل أمانتك في الخارج، يُساعدك اللَّه على النقاء الداخلي.

★★ نصيحة أخرى، وهو أن تسلك في الفضيلة بطريقة سليمة، تدرك عمقها الداخلي، وليس مجرد الممارسة الخارجية.

فالصوم مثلاً، لا تعتبره مُجرَّد فضيلة خاصة بالجسد في الامتناع عن الطعام، فهذا عمل خارجي لا علاقة له بالقلب. إنما تضيف إلى ذلك الامتناع عن بعض الخطايا التي تقع فيها. وهنا يجتمع الأمران معاً: عمل الجسد وعمل القلب والروح.

★★ الصلاة أيضاً لا تعتبرها مجرد كلام أمام اللّه. كما قال عنها أحد القديسين: " أنا ما وقفت أمام اللَّه لكي أعدّ ألفاظاً! ". إنما ليدخل عمل القلب في صلاتك: من حيث أن تصبح الصلاة صلة مع اللَّه، بتركيز الفكر والقلب في كل كلمة تقولها وتعنيها. وأيضاً باشتراك القلب بخشوعه.

وليرشدك اللَّه في ممارسة كل فضيلة، بحيث لا تكتفي بمظهرها الخارجي، إنما تدخل إلى عُمقها. وليكن الرب معك.

٣٠ أكتوبر ٢٠١١

العمل الإيجابي، والسلبيات

★★ يعجبني جداً ذلك المثل الذي يقول: "بدلاً من أن تلعنوا الظلام، أضيئوا شمعة". وإضاءة شمعة هى عمل إيجابي بلا شك. وبها ينقشع الظلام تلقائياً دون أن تلعنه. أمَّا لعن الظلام، فهو عمل الذين ينشغلون بالسلبيات. ويظنون أنهم بذلك يقضون على الظلام ويتخلَّصون منه، أي بالشتيمة والإهانة والتجريح. وكلها عناصر من الظلام أيضاً!

★★ العمل الإيجابي هو البناء، والعمل السلبي هو الهدم ... والمعروف طبعاً أن الذي يبني، يصعد دائماً إلى فوق، بينما الذي يهدم، يهبط دائماً إلى أسفل ... وماذا ينتَفع إن كان عمله هو مجرد الهدم دون أن يبني شيئاً، أو ماذا ينتَفع المجتمع من ذلك؟!

قد يقول السلبيون: " نحن ننبه المجتمع إلى الأخطاء الموجودة "، فهل هذا التنبيه هو هدف في ذاته، أم هو مُجرَّد وسيلة للإصلاح؟! فإن كان مُجرَّد وسيلة، فالاكتفاء به لا يصلح ... دون ذكر وسائل الإصلاح. وهنا يكون الدخول في العمل الإيجابي البنَّاء.

★★ هناك مَثَل معروف، وهو الكوب الممتلئ نصفه بالماء: أصحاب النظرة البيضاء، يشكرون اللَّه على النصف الممتلئ. أمَّا أصحاب النظرة السوداء، فإنهم يتذمَّرون بسبب النصف الفارغ... وأنت، إلى أية النظرتيْن تنتمي؟ لا شكَّ أن السلبيين هم أصحاب النظرة السوداء التي لا تشكُر على شيء، بل يتضجرون ... إنهم يفعلون ذلك، حتى مع اللَّه نفسه - تبارك اسمه - ينسون كل إحسانات اللَّه السابقة التي أحسن بها عليهم. ولا يذكرون إلاَّ الضيقة الحاضرة! ويتذمَّرون بسببها، ويقولون: أين معونة اللَّه لنا؟! هذا هو أسلوب السلبيين، وبنفس الوضع يتصرَّفون مع أصدقائهم من البشر: يتجاهلون كل إخلاصهم السابق، ويُركِّزون على غلطة حاضرة!

★★ إن العمل الإيجابي (أي البنَّاء) هو العمل الباقي، الآن وفي المستقبل. أمَّا الشوشرة التي يقيمها العمل السلبي، فإنها تزول، ولا يبقى لها أثر في قلوب الناس أو في أفكارهم، مقارنةً بعمل البنَّاء الذي يُسعدهم.

والعمل الإيجابي البنَّاء هو أيضاً عمل مُفـرِح، إذ أنــه طـوبى لأقـدام المبشـرين بالخيرات، إذ يسعدون مَن يسمعونهم. إنهم مثل الحمامة التي بشَّرت أبانا نـوح بانتهـاء الطوفان، وأتت إليه بورقة زيتون خضراء عَرِفَ بها أن الحياة عادت تظهر على الأرض.

★★ إن السلبيين يبحثون دائماً عن الأخطاء أينما وُجِدت لكي ينتقـدوها، ويفرحـون بذلك كمَن وجد غنائم كثيرة! ويفرحون بالنقائص التي يكتشفونها، أو مـا يظنـون أنهـا نقائص، لكي يتخذوها مجالاً للتشهير. ويفتخرون بذلك! ويقولون: "مفاجأة نحن أوَّل مَـن ينشرها: إنها فضيحة بجلاجل!". وما أسعدهم بذلك! ورُبَّما ينشرون ذلـك بـدون تحقيـق وبدون تأكُّد.

إن كان السلبيون يبحثون عن النقائص لكي ينتقدوها، فإنَّ الإنسان الروحي، إذا وجـد نقصاً في مجالاً ما بالمجتمع، يحاول أن يوفي احتياجات ذلك المجال، حتى يزول النقص، في حرص ألاَّ يُنتقد.

★★ إن السلبيات التي تحمل شروراً كثيرة، منها التشهير الذي يدل على عدم محبة، وكذلك رغبة في الإيذاء. كل هذه وغيرها من الشرور، من أين أتت؟ وما مصدرها؟ ومتى بدأت؟

عندما خلق اللَّه الإنسان، كان باراً، لا يفعل شرًّا، بل من فرط بساطته ونقاوتـه، لـم يكن يعرف ما هو الشر، بكل ما في تفاصيل الشر ... فكيف إذن فقد البسـاطة وعـرف الشر ومارسه؟! لقد فعل كل ذلك بحسد إبليس، الذي سقط، ولم يعجبه أن يبقـى الإنسـان باراً، ويمتاز عليه بالبرِّ والقرب إلى اللَّه. لذلك عمل على إسقاطه كما سقط هو من قبل.

★★ وهكذا أنت يا أخي القارئ العزيز، إذا وجدك الشيطان منشغلاً بالعمل الإيجابي والنمو في الفضيلة والبِرّ، ما أسهل عليه أن يُقدِّم لك العديد من السلبيات لكي تنشغل بهـا، وتترك عملك الإيجابي البار ... يُقدِّم لك مشاكل وأخبار أحداث صراعات لكي تنشغل بها، وتترك عملك الإيجابي. وإن لم يجد أخباراً تثيرك، يخترع شائعات وأكاذيب يُقـدِّمها لـك لتشغلك، ولا تعود تُفكِّر إلاَّ فيها! وهكذا يجذبك إلى السلبيات، ويربطك بها رباطـاً وثيقـاً لا تنحلّ منه!

★★ احترس إذن من السلبيات وأسبابها ... وإن حوربت بالتفكير في أخطاء النـــاس ونقائصهم، قُل لنفسك: الأفضل لي أن أُفكِّر أولاً في أخطائي الشخصية وأصلحها، قبل أن أُفكِّر في إصلاح غيري. فهذا هو المفيد لي. فحقاً مَن أقامني قاضياً على غيري؟!

★★ واعرف أن انشغالك بأخطاء الآخرين، وبالعمل على نشرها، إنما يفقدك الحـب الذي بينك وبينهم. بينما أنت تستطيع بالحب والعمل الهادئ أن تكسبهم. واعرف أيضاً أنك بالسلبيات تبدد طاقاتك. وأيضاً في السلبيات تفقد سلامك الداخلي، وتُصبح إنساناً متضـايقاً مضطرباً ثائراً عالي الصوت. أحياناً تقول لِمَن يُقابلك: الدنيا كلها خربانة!! وأيضاً تفقـد الوداعة والبشاشة والوجه المبتسم.

★★ إن استمرارك في الحكم على الآخرين، إنما تُعطي نفسك سلطاناً ليس لك. فاهدأ إذن واعرف حدودك.

أقول ذلك، لأنه حدث - وأنا سائر في طريق الحياة - أنني رأيـت أشخاصـاً بـدأوا بطريق الفضيلة والبرّ، ولكنهم إذ انشغلوا بالسلبيات التي كانت أقوى من اقتناعهم الداخلي بالعمل الداخلي، انتهى بهم الأمر إلى الضياع. واندفعوا في تيار الظلام، الـذي صـاروا يحبونه أكثر من النور، بسبب تأثير السلبيات عليهم، وضعفهم أمامها. لذلك نصـيحتي أن تثبتوا في العمل الإيجابي، ولا تعطوا فرصة للسلبيات أن تُغيِّركم.

٦ نوفمبر ٢٠١١

للضعفاء إله يقوِّيهم

إن اللَّه هو إله الكل. هو خالق الكل، والمُعتني بالكل، والمُهتم بالكل. هو خالق السمَوات والأرض، والمهتم بكل مَن هم في السمَوات ومَن هم على الأرض، بل ومَن هم تحت الأرض أيضاً. إنه إله لكل المخلوقات: للملائكة والبشر، وأيضاً للحيوانات وللحشرات، يعطيها طعامها، ولكن بوجهٍ خاص هو إله الضعفاء.

★★ نعم إن اللَّه في حنوه يقف إلى جوار الضعيف ليسنده ... إنه مُعين مَن ليس له معين، ورجاء مَن ليس له رجاء. عزاء صغيري القلوب، ميناء الذين في العاصف. وكل إنسان قلبه صغير، لا يحتمل متاعب الدنيا، ولا متاعب الناس، ولا متاعب الخطية. هذا إن اضطربت سفينته وسط الأمواج العاصفة، يرى اللَّه مُنقذاً له في كل هذا.

★★ إن اللَّه دائماً مع الضعفاء، وضد الأقوياء المُعتزين بقوتهم. إنه بعُمق محبته يُبشِر المساكين بالفرح. يعصِبُ مُنكسري القلوب. يُنادي للمسبيين بالعِتق، وللمأسورين بالإطلاق ... لقد كان اللَّه مع يوسف المسكين، الذي ألقاه أخوته في البئر، وبيع كعبد في أرض مصر. وألقوه في السجن ظُلماً. ولم يُدافع في كل ذلك عن نفسهِ. وكان مع داود الضعيف أمام شاول الملك وكل سلطانه وجنده وقوته وقسوته. وكان مع داود الفتى حينما وقف أمام جليات الجبار. وكان مع موسى الوديع الهادئ ضد فرعون المتعالي المعتز بقوته.

اللَّه هو أيضاً حافظ الأطفال. يُراعي ضعفهم ويسندهم ويحميهم. كما أن اللَّه أيضاً يحكم للمظلومين الذين لا يستطيعون أن ينالوا حقَّهم. لذلك إن كنت ضعيفاً فلا تخف ما دام الرب معك. واحذر من أن تكون قوياً والرب مُفارقك. لقد كانت الكنيسة عزلاء وضعيفة أمام كل قوة الدولة الرومانية وبطشها وأسلحتها وبخاصة أيام الإمبراطور نيرون الظالم. ولكنها انتصرت وانتشرت لأنَّ قوة الرب كانت معها.

★★ لذلك إن وجدت جباراً مُعتزاً بجبروته، قل له: لقد قربت نهايتك. إنني أذكر من تأملاتي بعض الكُتَّاب الروحيين: " قال الشيطان للَّه: اترك لي الأقوياء فأنني كفيل بهم. أما الضعفاء فإذ ليست لهم قوة لذلك يحاربونني بقوتك أنت فلا أقدر عليهم ".

★★ إذا كُنت في ضيقة أو في خطية، فلا تقف أمام اللَّه وتذكُر وعوداً منك أو تعهدات، كمَن هو واثق بقدرته على التنفيذ. إنما قف أمام اللَّه كضعيف يطلب المعونة... قل له: ساعدني يارب لكي أترك هذه الخطية. لأني كُلَّما أتركها أعود إليها مرة أخرى، إنني أعرض ضعفي أمام جلالك الإلهي. وأنت يارب تعرف يقظة أعدائي، وضعف طبيعتي أنت تعرفه يا خالقي. وأنا في حروبي الروحية لا أغلب إلا بقوتك.

★★ إن الإنسان المتواضع المنسحق القلب، الذي يقف أمام اللَّه كضعيف يطلب معونته الإلهية، فهو الذي يمكنه أن يأخذ قوة من اللَّه يستطيع بها أن ينتصر. ذلك أنك إن وقفت أمام اللَّه كقوي، تكون معتمداً على ذراعك البشري. وحينئذ تتخلَّى عنك النعمة لكي تشعر بضعفك وتتضع ... إذن فلا تفتخر بقدرتك.

★★ وإذا ما عرفت ضعفك، لا تحتقر إنساناً ضعيفاً ساقطاً. بل قُل لنفسك: أنني مُعرَّضة للسقوط مثله لولا نعمة اللَّه التي تسندني. نعم نعمة اللَّه التي تحتمل ضعف الضعفاء بما لا يُحد من طول أناته.

إن شعورك بقوتك في الحروب الروحية، إنما يفقدك الاحتراس، ويفقدك التدقيق، ويوقعك في الغرور، ويبعدك عن الصلاة. ألم يقُلْ سليمان الحكيم عن الخطية: "إنها طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء" يقصد المعتمدين على قوتهم فقط... حقاً إن المُعتزِّين بقوتهم، نادراً ما يصلون. إذ لا يشعرون بحاجة إلى صلاة تسندهم. وصعب على هؤلاء أن يتضعوا.

★★ ومع ذلك إن شعرت أنك ضعيف، لا تخف من ضعفك. وإن كنت مغلوباً من خطية ما، فلا تيأس من إنغلابك. لقد كان أُغسطينوس ضعيفاً أمام الخطية ومغلوباً لكنه بنعمة اللَّه انتصر على كل ذلك. بل إنه نما في النعمة حتى صار راهباً ثم أسقفاً، ثم قائداً للروحيات في جيله. وهكذا كان موسى الأسود، وبلاجيه، ومريم القبطية، وآخرون ... ولكن قوة اللَّه التي تسند الضعفاء، قادتهم في موكب النصرة. وهكذا هو عمل اللَّه المُحب، الذي يستطيع أن يعطي للمُعيي قوة، ويثبت له أجنحة كالنسور، ويرتفع في حياة الروح.

★★ على أن شعورك بالضعف، لا يعني أن تتصف دائماً بهذه الصفة. بل على العكس تؤمن أنك تستطيع كل شيء في اللّه الذي يقويك. لذلك أنت تشعر أنك ضعيف بذاتك، ولكنك قوي جداً باللّه العامل فيك. فاحرص على عمل القوة الإلهية فيك، واتضاعك الدائم. من هنا يكون الإنسان الروحي قوياً جداً ولكن ليس بقوته وشخصيته، وإنما بقوة اللّه العاملة فيه.

★★ بهذا لا تقف أمام اللّه وتقول سأترك هذه الخطية ولا أرتكبها بعد الآن. إنما قُلْ: أعطني يارب قوة لأتركها. لأنك إن لم تمسك بيدي لن أتقدَّم خطوة واحدة بدونك ... إنني لست أقوى من الشيطان، الذي هو أكثر حيلة، وأكثر معرفة بالنفس البشرية وضعفاتها، وأكثر خبرة بالحروب الروحية ... أنت يارب الذي تنقذني منها. أفرح لا بقوتي، بل بنعمتك التي تُخلِّصني ... أنا لا أحب إطلاقاً أن أتكبَّر. والكتاب يقول: " قبل الكسر الكبرياء، وقبل السقوط تشامخ الروح "، نجِّني يارب من كليهما، ولك المجد الدائم إلى الأبد، آمين.



١٣ نوفمبر ٢٠١١

جاهد واغصب نفسك

الذي يُريد أن يسير في الطريق الروحي، كيف يبدأ؟ حقاً أن الحياة الروحية بمعناها السليم، هى أن الإنسان يحب اللَّه، ويحب الخير، ويحب الملكوت السماوي، ويحب جميع الناس، ويسلُك في طريق البرِّ ونقاء القلب بكل رضا واشتياق، ويشعر أن عِشرته مع اللَّه هى ملء السعادة. وشهوة القلب. ولكن هل كل الناس يبدأون بهذا المستوى؟ كلا بلا شكّ.

★★ هل محبة الإنسان للَّه قد تكون نهاية الطريق، وقمة العلاقة مع اللَّـه. وليست هى نقطة البدء، بل عملياً يبدأ الشخص بمخافة اللَّه، كما قال الكتاب: " بدء الحكمة مخافة اللَّه ". فيستيقظ إلى نفسه. وتبدأ مخافة اللَّه تدخل إلى قلبه. فيخاف من دينونة خطاياه، ومن غضب اللَّه، ويخاف أن يأتيه الموت وهو غير مستعد. وهذا كله يدعوه إلى أن يُغيِّر طريقه. ولكن كيف يُغيِّر طريقه؟ يُغيِّره بالتغصُّب لأن محبة اللَّه لا تكون قد ملكت على قلبه منذ البداية. وهكذا يكون التَّغصُّب هو نقطة البداية العملية في الحياة الروحية.

★★ إنسان دخل جديداً في الطريق الروحي. لم يتدرّج بعد على الصلاة. ولم يتعوَّد الاستمرار فيها طويلاً. وليست له المشاعر الروحية التي تساعده على صلاة الحب والعاطفة والخشوع والتأمُّل. ولكنه يغصب نفسه على الصلاة. وإن حُورِب بإنهائها، يغصب نفسه على الاستمرار فيها. ففي الليل مثلاً يشعر أنه مُثقَّل بالنوم، وأنه مُتعب جسدياً وليست لديه قوة على الوقوف للصلاة. وليست له رغبة في ذلك. ولكنه يغصب نفسه على الصلاة والركوع والسجود، ويغصب نفسه على تركيز حواسه في الصلاة، ومنع ذاته من الشرود والسرحان.

قال أحد الآباء: إنك لو انتظرت إلى أن تصل إلى الصلاة الطاهرة الخاشعة النَّقية، ثم بعد ذلك تُصلِّي، فإلى الأبد لا تُصلِّي. كذلك أن الصلاة في كمالها ليست هى نقطة البدء، بل هى قمة العمل الروحي في الصلاة. إنما أنت عليك أن تغصب نفسك على الاستمرار

في الصلاة، حتى لو كنت مُثقَّلاً بالنوم. واللَّه ينظر إلى تعبك وجهادك وصبرك وإصرارك. ويشرق عليك بنعمته ويجذبك إلى كمال الصلاة.

★★ نفس الوضع نقوله بالنسبة إلى كل فضيلة من الفضائل: وقد لا تبدأ ممارسة الصوم بمحبة الصوم، ولكن تغصب نفسك على ذلك. وقد لا يكون لك اشتياق إلى قراءة كتاب اللَّه والتأمّل في كلماته. ولكنك تغصب نفسك على ذلك. وبالمثل تغصب نفسك على التوبة، وعلى التسامح، وعلى دفع نصيب اللَّه من مالك. وتغصب نفسك على ضبط الفكر، وضبط الحواس ... الخ.

★★ ولكن لعلّ سائلاً يسأل: هل اللَّه يقبل الفضيلة التي بتغصُّب وهي خالية من الحُب؟! أولاً أقول لك إنها ليست خالية من الحُب. ولولا الحُب ما كنت تبدأ بها. ولكنه حُب مبتدئ، يقاومه عادات النفس القديمة، وتقاومه ارتباطات بالمادة والجسد. كما تقاومه محاربات الشياطين ومعطلات عديدة. واللَّه يقبل هذا التغصُّب باعتباره لوناً من الجهاد الروحي ومحاولة قهر النفس.

ثانياً إن الشخص قد يُمارس العمل الروحي بتغصُّب. ولكنه بعد حين يجد لذَّة في هذا العمل الروحي، فيكمله في حُب ويسعى إليه باشتياق قلب. وهكذا يكون التَّغصُّب هو مُجرَّد مرحلة روحية تنتهي بالفضيلة في وضعها الكامل.

★★ ولكن الشيطان قد يهزأ بالتَّغصُّب. ويحاول أن يتخذه وسيلة لإبطال العمل الروحي جملة. فيقول لك هل من الأدب الحديث مع اللَّه بتغصُّب؟! أين الحب الذي قال عنه داود النبي للرب في صلاته: " باسمِكَ أرْفَعُ يَدَيّ، فتشبع نفسي كما من لحم ودسم "... وحينئذ يدعوك الشيطان أن توقف هذه الصلاة احتراماً للمثاليات التي تنقصها!! ولكن اللَّه يقبل صلاتك. كما يقبل الحروف التي يتلفَّظها الطفل بلا معنى في أولى درجات الكلام حتى يصل إلى الكمال. ويرى تحركات الطفل المتعثِّرة، على أنها أولى الخطوات للسير المنتظم السريع. إنه سبحانه لا يحتقر هذا التَّغصُّب بل يُشجّعه كخطوات نحو نمو سليم. وبهذا لا يستمر التَّغصُّب تغصُّباً، بل يكون خطوة تتحوّل إلى أفضل.

★★ مثال آخر وهو العطاء والذي نُقدِّمه للمحتاجين: الوضع السليم أن نُعطي بسرور، ونُعطي بسخاء. فهل نوقف عطاءنا إلى أن نصل إلى هذا المستوى؟! وما ذنب الفقير أو المحتاج لعطائك، إن كنت لم تصل بعد إلى هذه الدرجة؟! إذن الوضع العملي هو أن تُعطي لغيرك ولو بشيء من التَّغصُّب. ثم يتطوَّر الأمر إلى أن تُعطي كل مالك للفقراء، وأنت مسرور بذلك ... ألست ترى إذن أن التَّغصُّب هو فضيلة مرحلية لا تستمر هكذا. وفي مجال التَّغصُّب نذكر أيضاً التداريب الروحية.

★★ من فوائد التَّغصُّب: الانتصار على العادات الخاطئة وعلى الخطيئة التي انتصرت على الشخص زمناً وأذلته واستعبدته. ولم يكن من السهل أن يتركها. إنما يحتاج إلى أن يغصب نفسه على ذلك. والتَّغصُّب هو بلا شك ثورة على تدليل النفس، أو هو حرب ضد الذات واشتياقاتها إلى رغبات مُعيَّنة، أو إلى محبة الراحة والاسترخاء.

ثم ألا ترى إننا أحياناً نحتاج إلى أن نغصب الأطفال في البدء الذين لم يتعوَّدوا الفضيلة. بينما لو تركناهم حسب هواهم، لكانت النتيجة الحتمية هى ضياعهم زماناً.

وكثير من الخاطئين لم يستفيدوا بسرعة. ولم يرجعوا إلى اللَّه حُباً. رجعوا إليه غصباً بتجارب وآلام متنوعة. فخير للإنسان إذن أن يغصب نفسه بإرادته على عمل الخير، من أن تغصبه التجارب أو الأحداث أو العقوبات.

أخيراً اجعل ضميرك هو الذي يغصبك، وليس القانون. وارتفع فوق مستوى القانون لتصل إلى محبة الخير.

٢٠ نوفمبر ٢٠١١

ما بين السرعة والبطء

هل من الصالح السرعة في العمل أم البطء فيه؟ إنه سؤال حيّر الكثيرين، وتعددت فيه الآراء وتناقضت، وبقى الناس حائرين. فنسمع أحد الشعراء يُشجع على التروي والتأني وهو مرحلة ما بين السرعة والبطء فيقول:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الذللُ

ولكن هذا الكلام لا يعجب شاعراً آخر فيرد عليه قائلاً:

وكم أضرّ ببعض الناس بطؤهم ... وكان خيراً لهم ولو أنهم عجّلوا

وهكذا بقى الأمر كما هو موضع حيرة: هل نبت في الأمر بسرعة؟ أم نتأنى ونتروى؟ فما هو الحل؟!

★★ ولا شك أن كثير من الأمور لا يمكن أن تقبل التباطؤ. وقد يكون البطء فيها مجالاً للخطر والخطأ. ويحسن فيها البت السريع.

فمثلاً التباطؤ في معالجة بعض الأمراض الجسدية، قد ينقلها إلى مراحل من الخطر، يصعب فيها علاجها أو يستحيل... وبالمثل في مسائل التربية. حيث يؤدي التباطؤ في تقويم الطفل أو الشاب إلى إفساده بينما لو عولج في طفولته بالهداية لكان الأمر سهلاً مثل غصن الشجرة الذي يمكن عدله في بادئ الأمر، أما إذا تقادم فإنه يتخشّب ويصعب تعديله. وفي ذلك قال الشاعر:

إن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت ... ولا يلين إذا قومته الخشبُ

★★ وعلى ذلك لا يصح أن يتباطأ إنسان في التوبة. لأن كل أمر يمر عليه في الخطيئة، إنما يزيد استعبادها له. فيتحول الخطأ إلى عادة. وقد تتحول العادة إلى طبع. وحينئذ قد يحاول الخاطئ أن ينحل من رباط خطيئته أو شهوته فلا يستطيع. أو قد يستطيع

بنعمة اللّه أن ينحل من هذه الرباطات بعد مدة، ولكن بمرارة وصعوبة، وبعد جهاد مميت... كل ذلك لأنه تباطأ في توبته وفي معالجة أخطائه.

★★ هناك إذاً مواقف تحتاج إلى بت سريع وإلى حزم، قبل أن تتطور إلى أسوأ، وقبل أن يسبق السيف العزل. وبعض التصرف السريع قد يكون مؤلماً، ولكن يكون لازماً بقدر ما يكون سريعاً وحاسماً. وهناك علاقات ضارة وصداقات معثرة، ينبغي أن تؤخذ من أولها بحزم. كما قد توجد اتجاهات فكرية مخرّبة، أو اتجاهات سلوكية منحرفة. إن لم يسرع المجتمع في التخلص منها، فقد تقاسي من هذا التباطؤ أجيال وأجيال... ومن الناحية الأخرى هناك مواقف عكسية كثيرة تحتاج إلى التأني، ويتلفها الإسراع أو الاندفاع.

★★ فمتى يصلح التباطؤ إذن؟ يعجبني ذلك القول الحكيم: "ليكن كل إنسان مسرعاً إلى الاستماع، مبطئاً في التكلم، مبطئاً في الغضب. لأن غضب الإنسان لا يصنع بر اللّه"... نعم إن التباطؤ في الغضب فضيلة كبيرة. فإن الإنسان سريع الغضب، قد يصل به الغضب إلى الاندفاع. وفي اندفاعه قد يفقد سيطرته على أعصابه، أو قد يفقد سيطرته على لسانه، ويقع في أخطاء كثيرة...

لذلك احذر من أن تأخذ قراراً حاسماً في ساعة غضبك. لئلا تضُر نفسك أو تضُر غيرك. إنما حاول أن تهدئ نفسك أولاً. ثم بعد ذلك فكر وأنت في حالة هدوء أو تباطأ في الوضع أو أجّل الأمر إلى أن تهدئ. فإن القرارات السريعة التي تصدر في حالة غضب، قد تكون غالبيتها عرضة للخطأ.

★★ قد يُطلّق إنسان امرأته، إن أسرع باتخاذ قرار في ساعة غضب. وقد يفقد أعز أصدقائه، وقد يتخلى عن عمله، بل قد يهاجر أيضاً من وطنه... كل ذلك لأنه أخذ قراراً سريعاً في ساعة انفعال، دون أن يتباطأ ويفكر، ودون أن يؤجل الموضوع إلى أن يهدئ.

بل قد ينتحر إنسان ويفقد حياته، لأنه أسرع باتخاذ قراراً ساعة انفعال! أو قد يسرع بقتل غيره آخذاً بثأره منه. كل ذلك في ساعة انفعال. لذلك من الخير أن يكون الإنسان مبطئاً في غضبه. وإذا غضب لا يقرر شيئاً بسرعة.

★★ وإذا قرر إنسان شيئاً بسرعة، فلا مانع من أن يرجع في قراره. أو قد يظن البعض أن الرجوع في القرار حينئذ، ليس هو من الرجولة أو من حسن السمعة... ولكن الحكمة تقتدي منّا أن يراجع الإنسان نفسه فيما اتخذه من قرارات سريعة.

اترك القيادة لعقلك لا لأعصابك. وإن أسرعت في التصرف في حالة انفعال، تكون وقتذاك منقاداً بأعصابك لا بعقلك. وهذا خطر عليك وعلى غيرك.

★★ احذر أيضاً من أن تكتب رسالة إلى غيرك في ساعة غضب. لأنك ستندم على ما كتبته، ويؤخذ وثيقة ضدك. فإن لم تستطع أن تقاوم نفسك وكتبت مثل هذه الرسالة، فنصيحتي لك أن تتباطأ في إرسالها. اتركها على مكتبك يومين أو ثلاثة. ثم عاود قرأتها مرة أخرى. فستجد أنها تحتاج إلى تعديل وتغيير، أو قد تجد أنك قد استغنيت عنها ولم تعد تتحمس لإرسالها.

★★ إن التباطؤ في الغضب قد يصرفه. كذلك البطء في التكلم نافع ومفيد. استمع كثيراً قبل أن تتكلم. حاول أن تفهم غيرك، أو أن تلم بالموضوع إلماماً كاملاً. وأعطِ نفسك فرصة للتفكير ولمعرفة ما ينبغي أن تقوله. حينئذ يكون كلامك عن دراسة وبهدوء فلا تخطئ. إن الكلمة الخاطئة التي تقولها، لا تستطيع أن تسترجعها مرة أخرى، فقد تسجلت وحُسبت عليك.

على أن الإنسان يجب أن يكون مسرعاً في التوبة. ويجب أن يكون مسرعاً في إنقاذ غيره. فأنت لا تستطيع مطلقاً أن تبطئ في إنقاذ غريق، كما لا يستطيع المجتمع أن يبطئ في إنقاذ من هم في حريق. ولذلك فإن عربات الإسعاف، وعربات إطفاء الحرائق لها في غالبية البلاد وضع آخر في حركة المرور. فحياة الناس والحفاظ عليها، لا يصح لها الإبطاء أبداً.

كذلك في أمور الإدارة، هناك موضوعات لا بد من الحزم فيها بسرعة قبل أن تتحول الشكوى إلى تمرد، ويتحول التمرد إلى مظاهرات وإلى مشاحنات وما لا يليق.

٢٧ نوفمبر ٢٠١١

فلسفة الأخذ والعطاء

هل نحن في الحياة نأخذ أم نُعطي؟ أم نحن نأخذ ونُعطي؟ أم نأخذ ولا نُعطي؟ ... لكي نفهم كل هذا، علينا أن ندرك ما هى فلسفة الأخذ والعطاء.

★★ كلنا في الحياة نأخذ ونُعطي. وسعيد هو الإنسان الذي مهما أعطى، يشعر أنه يأخذ أكثر مِمَّا يُعطي. أو أنه لا يشعر إطلاقاً بأنه يُعطي ... بينما مسكين ذلك الشخص الذي لا يظن أنه لا يأخذ شيئاً أو هو لا يشعر بما يأخذه ... إنه يعيش تعيساً في الحياة، شاعراً بالظلم، وشاعراً بالعوز والاحتياج. وقد يقضي عمره كله في التذمُّر وفي الضجر والشكوى، وفي الافتقاد إلى الحُب.

★★ واحد فقط يُعطي باستمرار دون أن يأخذ من أحد. إنه اللَّه. واللَّه وحده يُعطي الكل، ولا يأخذ من أحد شيئاً. ذلك لأنه لا يحتاج إلى شيء. فهو مُكتفٍ بذاته، كامل في كل شيء، يملك كل شيء. ولا يوجد عند أحد شيء يعطيه للَّه.

لكن لعلَّ البعض يسأل: ألسنا في الصلاة نُعطي اللَّه وقتاً، ونُعطيه قلباً وشعوراً وخشوعاً وحُبَّاً؟! كلا ليس هذا هو المفهوم الحقيقي للصلاة. بل إننا عندما نُصلِّي، إنما نأخذ من اللَّه معونة، ونأخذ منه نعمة وبركة. ونأخذ كافة احتياجاتنا الروحية والمادية. بل نأخذ أيضاً لذَّة التخاطب معه ولذَّة الوجود في عِشرة اللَّه.

والذي يظن أنه في الصلاة يُعطي اللَّه وقتاً، ما أسهل عليه أن يمتنع أحياناً عن الصلاة محتجاً بأنه ليس له وقت ليعطيه!

في الواقع إننا نُصلِّي لأننا محتاجون إلى اللَّه. لذلك نبسط إليه أيدينا إشارة إلى أخذنا منه. إن أفواهنا تتقدَّس عندما تلفظ اسمه القدوس. ولا شكَّ أنه تواضع كبير من اللَّه أن يسمح لنا بمخاطبته. لهذا ففي كل مرَّة نسجد للصلاة، ينبغي أن نشكر اللَّه - تبارك اسمه - على تواضعه وسماحه لنا بمخاطبته.

وعندما يقول اللَّه: " يا ابني أعطني قلبك " ... فأن ما يقصد: أعطِني هذا القلب لكي أُطهِّره وأُقدِّسه، وأملأه حُبّاً ونقاءً، وأجعل فيه ما يحتمله من كل أنواع الفضائل. وأرفعه عن مستواه الأرضي لكي أجلسه في السماويات.

★★ وعموماً من جهة موقفنا من العطاء، نحن لا نملك شيئاً لنعطيه. فكل الذي لنا هو ملك للَّه، قد استودعنا إيَّاه. وقد أخذناه منه لنعطيه لغيرنا. فكل ما نتبرَّع به لمشروعات الخير، إنما نقول عنه للَّه ما سبق أن قاله داود النبي: " من يدك أعطيناك " .... تماماً كالابن الصغير الذي يُقدِّم هدية في عيد الأسرة لأبيه أو أمه. ومن هنا قد أخذ المال الذي اشترى به هذه الهدية.

إنَّ اللَّه قد أعطانا اليد التي تُعطي. وأعطانا الخير الذي نُعطي منه. بل قد أعطانا أيضاً محبة العطاء والقدرة على العطاء. حقاً إن موهبة العطاء قد أخذناها منه. قد تفضَّل اللَّه وأنعم بها علينا. هى جزء من عمله فينا، وجزء من مؤازرة نعمته علينا. لأن كل موهبة صالحة هى نازلة من فوق من عند اللَّه.

★★ كل شيء نعطيه سنجده في الأبدية، وسنرى أكثر منه بكثير في المكافأة السمائية. إذن فالشيء الذي نعطيه، أو الذي يعطيه اللَّه عن طريقنا، هى محجوز لنا فوق. لم يَضِعْ ... وفي الواقع إننا لم نعطه، وإنما قد ادخرناه. وبالإضافة إلى ذلك فإنما نحن نعطي الفانيات لكي نأخذ الباقيات. نعطي الأرضيات ونأخذ السماويات ... لا شكَّ إذن أننا نأخذ أكثر مِمَّا نُعطي.

★★ لذلك أيَّها القارئ العزيز، عوِّد نفسك على العطاء. فقد قال السيد المسيح له المجد: " مغبوطٌ هو العطاء أكثر من الأخذ ". أعطِ بفرحٍ لا بتضايق. لأنَّ الكتاب يقول: " المُعطي المسرور يُحِبُّه الرب ".

إذن ليكُن عطاؤك هو عن حُب وعن عاطفة، وبسخاء وكرم. أعطِ وأنت موسر، وأعطِ وأنت معوز. والذي يُعطي من أعوازه يكون أعظم بكثير من الذين يعطون عن سعة. وأجره أكبر في السماء.

★★ وإن لم يكن لك ما تعطه لغيرك، أعطِ ابتسامة طيبة، أو كلمة تشجيع، أو عبارة تُفرّح قلب غيرك. ولا تظن أن هذا العطاء المعنوي أقل من العطاء المادي في شيء. بل أحياناً يكون أعمق أثراً. ولكن حذاري أن تكتفي بالعطاء المعنوي إن كان بإمكانك أن تُعطي المادة أيضاً.

واشعر - عندما تُعطي - أنك تأخذ. فالسعادة التي يشعر بها قلبك حينما يُحقِّق سعادة لغيره، هى شيء أسمى من أن يُقتنى بالمال. راحة الضمير التي تأخذها، وفرحة القلب برضا الناس، كلها أمور أسمى من المادة، تأخذها على الأرض وتأخذ أعظم منها في السماء.

★★ عندما تعطي، لا تُحقِّق كثيراً مع الذي تُعطيه. وإلاَّ كنت في موضع القاضي وليس العابد. لا تُحقِّق كثيراً لئلا تُخجِل الذي تُعطيه، وتريق ماء وجهه ... حَسَنٌ أنك قد أعطيته حاجته، فأعطه أيضاً كرامة وعزة نفس، ولا تشعره بذلة في الأخذ.

★★ وعندما تُعطي إنسَ أنك قد أعطيت. ولا تتحدَّث عمَّا فعلته، بل لا تُفكِّر فيه. ولعلَّ هذا بعض ما قصده السيد المسيح حينما قال في العطاء: " لا تجعل شمالك تعرف ما تفعله يمينك ". وإن تذكَّرت قُلْ لنفسك: أنا لم أعطِ هذا الإنسان شيئاً، بل هو الذي أعطاني فرصة لأسعد بهذا الأمر. إن الأُم عندما تُعطي ابنها حناناً إنما تسعد هى نفسها بهذا الحنان. وهى عندما ترضعه، إنما تشعر براحة، ربَّما أكثر من راحته هو في الرضاعة. لذلك فإن عمل الحُب هو عمل متبادل، يأخذ فيه الإنسان أثناء إعطائه لغيره.

★★ كذلك عندما تأخذ احذر من تأخذ شيئاً من الشيطان ولا من جنوده. والشيطان عندما يُعطي، يأخذ أكثر ممَّا يُعطيك. قد يُعطيك لذَّة الجسد، ويأخذ منك كرامة الروح. قد يُعطيك كرامة أمام الناس، ويأخذ منك فضيلة الاتضاع. أو يعطيك اللهو والعبث، ويسحب منك الحكمة والرزانة ... تخطئ إذن إن ظننت إنك تأخذ منه شيئاً.

٤ ديسمبر ٢٠١١

النسيان: فوائده وأضراره

ما أكثر ما يشكو الناس من النسيان، بل يطلبون أيضاً علاجاً للنسيان. حقاً إن للنسيان مساوئ كثيرة. ومع ذلك لكي ننصفه، نقول إن هناك ولا شكَّ فوائد للنسيان.

فالنسيان ليس كله شر. ولقد سمح اللَّه به من أجل نفع الإنسان وفائدته، ولو أحسن الإنسان استخدامه. فالإنسان الحكيم يعرف متى ينبغي أن يتذكَّر، ومتى ينبغي أن ينسى...

★★ من الخطأ طبعاً أن ينسى المرء واجباته الدينية أو واجباته العالمية. ومن الخطأ أن ينسى عهوده ووعوده ونذوره ومواعيده. ومن الخطأ أن ينسى فضل الناس عليه، أو ينسى بالأكثر إحسانات اللَّه العديدة إليه.

★★ ولعلَّ من أخطر أنواع النسيان، أن ينسى الإنسان أصله الترابي. إذ أن اللَّه - جلَّ جلاله - قد خلق التراب أولاً. ثم خلق الإنسان من هذا التراب. والذي ينسى أصله الترابي، قد يقع في الكبرياء والعجرفة، والإعجاب بالنفس، والتباهي بالمناصب والألقاب. وأتذكَّر أنني قلت عن ذلك في بعض أبيات الشعر:

قُل لِمَن يعتز بالألقاب إن ∴ صاح في فخره مَن أعظم مني؟!
أنت في الأصل تُرابٌ تافة ∴ هل سينسى أصله مَن قال إني..؟!

وهكذا فإنني جعلت أمامي هذا الأصل التُّرابي، كأنشودة أغني بها باستمرار. حيث قلت:

يا تراب الأرض يا جدي ∴ وجِد الناس طرّاً
أنت أصلي أنت يا مَن أقدم ∴ من آدم عُمراً
ومصيري أنت في القبر ∴ إذا وُسّدتُ قبراً

★★ أمَّا عن فوائد النسيان فلعلنا نذكر في قمته أن ننسى إساءات الناس إلينا. ننساها لكي نستطيع أن نصفح وأن نُسامح ... وننساها لكي لا يملك الغضب على قلوبنا من جهتهم ... وأيضاً لكي نهرب من شيطان الحقد والكراهية.

الذي ينسى أخطاء الناس إليه، يمكنه أن يحب الجميع. ويملأ السلام على قلبه من جهة الكل. ويستطيع أن يُقابل كل أحد ببشاشة. ولا يخزن في قلبه شراً من جهة أحد. لذلك إن أساء أحد إليك، لا تحاول أن تسترجع في ذهنك إساءته إليك. ولا تجلس مع الناس وتُحدِّثهم عمَّا فعله بك ذلك المُسيء. لا تُفكِّر في هذا الموضوع، ولا تتكلَّم في تفاصيله. لئلا يرسخ كل ذلك في ذاكرتك وفي قلبك ويُتعبك.

★★ وليس فقط تنسى أخطاء الناس إليك، إنما عليك أن تنسى أخطاءهم بصفة عامة. فإنك لو تذكَّرت على الدوام أخطاء الناس، لاسودت صورتهم في نظرك، وأصبحت تعجز من أن تجد لك في الناس صديقاً ... فكل الناس لهم أخطاء. ولو تذكرنا لكل واحد أخطاءه، لما استطعنا أن نتعامل مع أحد. ورُبَّما يدخل الشكّ إلى قلوبنا من جهة الناس. ورُبَّما لا نستطيع أن نتكلَّم باحترام مع أحد!

إذن ليتنا ننسى أخطاء الناس، لكي يُعاملنا اللَّه بالمثل. وما أجمل قول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس: " إن ذكرنا خطايانا، لا يذكرها لنا اللَّه. وإن نسينا خطايانا، يذكرها لنا اللَّه ".

إذن اذكر خطاياك، وانسَ خطايا غيرك. فإن هذا يقودك إلى الاتّضاع، وإلى المحبة. أمَّا الإنسان المُتكبِّر أو غير المُحب، فإنه على العكس: دائماً ينسى نقائصه الخاصة، ودائماً يذكر أخطاء غيره، وقد يتحدَّث عن خطايا الناس. بينما يتضايق إن تحدَّث الناس عن خطاياه!

★★ لذلك فإنه من النسيان النافع، أن تنسى فضائلك. أو تنسى الأعمال الحسنة التي شاءت نعمة اللَّه أن تعملها على يديك .. فإن عملت خيراً، أو إن عمل اللَّه خيراً بواسطتك، فالواجب عليك أن تنسى ما عملته. لا تذكره ولا تتذكره. لئلا يوقعك هذا الأمر في الإعجاب بالنفس أو في الكبرياء. وأيضاً لكي لا تجلب لنفسك مديحاً من الناس، قد تضيِّع معه بعض أجرك في السماء. وتُقال لك تلك العبارة الخطيرة: " قد استوفيت خيراتك على الأرض!! ".

إن الذي يعمل خيراً، ليس عليه فقط أن يعمله في الخفاء على قدر الإمكان، حيث لا يراه الناس ... إنما الأفضل أن يخفي الأمر حتى عن نفسه بالنسيان. حسبما قال السيد المسيح لِمَن يعمل صدقة: " لا تعرف شمالك ما تفعله يمينك ... واللّه الذي يرى في الخفاء هو يُجازيك علانية ".

حقاً إن الإنسان الذي يحاول أن يُظهِر فضائله، أو يتحدَّث عنها، ما أسهل أن يقع في الغرور وربُّما يفقد ثوابه ... فإن لم تستطع أن تنسى الخير الذي تعمله، وإن ألح عليك الفكر في تذكاره ... فانسب ذلك إلى نعمة اللّه وعمله وليس إلى نفسك.

★★ ومن فضائل النسيان أيضاً، أن ننسى المتاعب والضيقات ... فأحياناً يكون التفكير في الضيقة، هو أشد إيلاماً وضرراً من الضيقة ذاتها. لذلك اجعل الضيقات خارج نفسك لا داخلها. لا تسمح لها بالدخول إلى فكرك أو إلى قلبك لئلا تتعبك.

حاول أن تنساها. وإن ألحَّ عليك الفكر ولم تستطع أن تنسى، حاول أن تنشغل بالقراءة أو بالعمل أو بالحديث مع الناس، لكي تنسى ... على قدر إمكانك حاول أن تنسى المتاعب والهموم، لأن تذكُّرها قد يجلب الأمراض النفسية والعصبية وأمراضاً أخرى.

★★ من فوائد النسيان أيضاً، أن ينسى الإنسان المعثرات التي تجلب الخطية. وقد يقرأ شاب قصة بذيئة، أو يرى منظراً خليعاً، أو يسمع كلاماً مثيراً ... وإن لم ينسَ كل هذا، تظل هذه الأمور حرب على فكره تضيع نقاء قلبه، فمن الخير له أن ينسى ... حاول إذن أن تنسى كل ما يُعكِّر نقاء قلبك.

★★ من فوائد النسيان أيضاً أن ننسى التافهات. لكي تبقى في الذهن فقط الأمور الهامة النافعة. فلو ذكر الشخص كل ما يمر عليه في يومه أو طوال الأسبوع من أمور تافهة تختص بالأكل والشُرب وأحاديث الناس ومناظر الطريق وأيضاً كل القراءات والحديث ... فإن طاقة هذا الإنسان لا تحتمل أن تخزن ما يلزمه من المعلومات الأساسية.

إذن إن النسيان هو عملية غربلة حيوية، تغربل في الذهن وفي الذاكرة جميع المعارف والمعلومات والمناظر والسماعات. فتستبقي منها النافع وتترك ما لا يفيد وتنساه.

١١ ديسمبر ٢٠١١

جحيم الرغبات!

أيُّها القارئ العزيز، لتكن رغبتك الأولى والعُظمى هى الحياة مع اللَّـــه. أمَّــا بـــاقي الرغبات فلتكن داخل هذه الرغبة العُظمى. واحذر من أن تعيش فـــي جحـــيم الرغبـــات العالمية التي تستعبد مَن يخضع لها أو يسعى إليها.

★★ بحث أحد الحكماء في أسباب السعادة والشقاء. فوصل إلى حقيقة عميقـــة فـــي فهمها وهى: إن أهم سبب للشقاء **هو وجود رغبة لم تتحقق**: فقد يعيش الإنســـان فقيـــراً. ويكون سعيداً في نفس الوقت. ولكن إن دخلت إلى قلبه رغبة في الغنى ولم تتحقق، حينئذ يتعب ويشقى. وأيضاً قد يكون الإنسان مريضاً وراضياً شاكراً، يُقابل الناس فـــي بشاشـــة وابتهاج، لا يشقيه المرض. ولكن المريض الذي تدخل في قلبه رغبة في الشفاء ولم تتحقق فهذا بلا شك يتعب في رغبته.

★★ إن رحلة الرغبات داخل القلب تتعبه وتضنيه، وترهقه وتُشـــقيه: إنـــه يشـــتاق، ويشقى في اشتياقه. يريد ويُجاهد ويتعب لكي يصل. ويلتمس الوســـائل، فيُفكِّـــر ويُقابـــل ويكتب ويشكو، ويروح ويجيء، ويسعى ويتعب في سعيه.

وقد ينتظر طويلاً متى تتحقق الرغبة، ويشقى في انتظاره. يصبر ويضيق صـــدره، ويمل ويضجر. ويدركه القلق حيناً، واليأس حيناً آخر. أو قد يتعبه الخـــوف مـــن عـــدم الوصول إلى نتيجة. وربُّما يتعب من طياشة الفكر ومن أحلام اليقظة، أو من أن رغباتـــه مُجرَّد آمال، مجرد قصور في الهواء، لا يراها إلا إذا أغمض عينيه! وقد ينتهـــي ســـعيه وتعبه إلى لا شيء. ويُحرم من رغبته التي يود تحقيقها، فيشقى بالحرمان.

★★ وأخطر من هذا كله، فإن آماله وأغراضه قد تجنح به عن طريـــق الصـــواب. فتقوده إلى الخِداع، أو اللف والدوران، أو التزلُّف والتملق، أو الكذب أو الرياء، أو ما هو أبشع من كل هذا. وقد صدق أحد الحكماء حينما قال: " لا بد أن ينحدر المرء يوماً إلـــى النفاق، إن كان في قلبه شيء يود أن يخفيه ".

★★ والعجيب في هذه الرغبات الأرضية، أنها تُشقي الإنسان حتى إن تحققت! ذلك لأنها لا تقف عند حدٍّ ... فقد يعيش الإنسان في جحيم الرغبات زمناً. حتى إذا ما تحققت له رغبة، وفرح بها وقت ما، ما تلبس أن تقوده إلى رغبة أخرى، إلى خطوة أخرى في طريق الرغبات الذي لا ينتهي! إن الرغبات عندما تتحقق يلتذ بها، وتقوده اللذة إلى طلب المزيد. وللوصول إلى هذا المزيد، قد يجره إلى تعب جديد ... ويكون كمَن يشرب من ماء مالح، كُلَّما شرب منه يزداد عطشاً. وكُلَّما يزداد عطشاً يزداد اشتياقاً إلى الماء، في حلقة مفرغة لا يستريح فيها ولا يهدأ.

★★ صاحب الرغبة يعيش في رُعب: إمَّا خوفاً من عدم تحقق رغبته. أو خوفاً من ضياعها إن كانت قد تحقَّقت.

ومن القصص اللطيفة في هذا المجال: أن رجلاً فقيراً لا يملُك شيئاً على الإطلاق، كان يعيش في منتهى السعادة، يضحك ملء فمه، ويُغنِّي من عُمق قلبه. وفي إحدى المرات رآه أحد الأمراء وأعجب به. فمنحه كيساً من الذهب. فأخذ الرجل الفقير كيس الذهب إلى بيته. وبدأت الآمال والرغبات تدخل إلى قلبه: أية سعادة سيبنيها بهذا المال! ثم لم يلبث الخوف أن ملك عليه، لئلا يسرق أحد منه هذا الذهب قبل أن يبني سعادته به. فقام وخبأ الكيس وجلس مفكّراً. ثم قام وغيَّر المكان الذي أخفاه فيه. ثم حاول أن ينام ولم يستطع. وقام ليطمئن على الذهب... وفي تلك الليلة فقد سلامه. حتى قال لنفسه: "أقوم وأُعيد هذا الذهب إلى الأمير، وأنام سعيداً كما كنت".

★★ إن الإنسان قد يُقاد من رغباته. ورغباته تُمثِّل نقطة ضعف فيه، يقوده الناس منها ... وما أشقى الإنسان الذي تكون رغباته في أيدي الناس، في حوزتهم أو في سلطانهم أو في إرادتهم! وبإمكانهم أن يُحقِّقوها له. وبإمكانهم أن يحرموه منها. لذلك يعيش عبداً للناس. تتوقف سعادته على رضاهم.

★★ لقد عاش النُسّاك في سعادة، زاهدين لا تتعبهم الرغبات ... هؤلاء قد ارتفعوا فوق مستوى الرغبات الأرضية. ولم تعُد لهم سوى رغبة واحدة مقدسة هي الحياة مع اللَّه والتَّمتُّع بعشرته. وهذه لا يستطيع أحد من الناس أن يحرمهم منها. وهكذا فإن سعادة

الناسك الزاهد تنبع من داخله، من قلبه، من إحساسه بوجود اللَّه معه. وإذ تنبع سعادته من داخله، لا تصير تلك السعادة رهناً للظروف الخارجية، كما لا يتحكَّم الناس فيها.

حقاً أي شيء في العالم يُمكن أن تتعلَّق به رغبات الروحيين؟! لا شيء ... فليس في العالم سوى المادة والماديات، ومشتهيات الجسد والنفس ... أمَّا رغباتهم هم فتتعلَّق باللَّـه وسمائه وبعالم الروح. لذلك ليس في العالم شيء يشتهونه. لو كان الذي يشتهونه في هـذه الأرض، لتحولت الأرض إلى سماء. إن الروحيين أعلى من رغبات العالم وأسمى. العالم لا يعطيهم بل هم بركة للعالم. وبسببهم يرضى اللَّه على الأرض. إنهم نور للعـالم يُبـدِّد ظلماته. وهم بهجة للأرض ونعمة ... هؤلاء لا يعيشون مُطلقـاً فـي جحـيم الرغبـات الأرضية.

ولقد تأمّلت في حياتي أحد هؤلاء الزاهدين المرتفعين عن مستوى الرغبات الأرضية، فناجيته بأبيات من الشعر قُلت فيها:

كل مـا حولـك صـمت وسـكون ∴ وهدوء يكشـف السـر المصـون
هـل تـرى العـالم إلاَّ تافهـاً ∴ يشـتهي المُتعـة فيـه التـافهون؟
هـل تـرى الآمـال إلاَّ مجمـراً ∴ يتلظَّـى بلظـاه الآملـون
لست مـنهم. هُـم جسـوم بينمـا ∴ أنت روح فر مـن تلـك السـجون

نعم ما أجمل أن يعيش الإنسان سعيداً باللَّه. يمكن أن تكون له رغبات داخـل محبـة اللَّه. ولكن لا يُمكن أن تستعبده الرغبات.

تكون الرغبات مُفتاحاً في يده، ولا تكون أغلالاً في يديه.

١٨ ديسمبر ٢٠١١

محبة المديح والكرامة

التعرُّض لمديح الناس شيء، ومحبة هذا المديح شيء آخر. فقد ينال الإنسان مديحاً من الآخرين ولا يُخطئ. ولكنه إذا أحب هذا المديح واشتهاه، وأصبح جزءً من رغباته. فحينئذ يكون قد أخطأ. وهكذا نقول: إن الرسل والأنبياء والقديسين والشهداء والقادة الفضلاء ... كل أولئك مدحهم الناس ولم يخطئوا.

★★ على أن القديسين في كل جيل كانوا بقدر إمكانهم يهربون من المديح أيَّاً كان مصدره. سواء أتاهم المديح من الناس، أو من الشيطان، أو من داخل أنفسهم. وبعضهم كان يتمادى في هذا الهروب. ويبعد عن كل أسباب المديح وكل مناسباته. حتى وصل الأمر إلى أن بعضاً من هؤلاء القديسين المتواضعين كانوا يتحدثون عن نقائصهم وأخطائهم أمام الناس. ولا يدافعون عن خطأ يُنسب إليهم. حتى إن لم يكن فيهم.

★★ أمَّا محبو المديح فإنهم أنواع ودرجات: وأقلهم خطئاً هو الذي لا يسعى إلى المديح. ولكنه إذا سمع مديحاً فيه من غيره، فإنه يُسرّ بذلك في داخله ويبتهج. وقد يبدو صامتاً لا يشعر أحد بما في داخله من إحساسات.

★★ نوع آخر، هو حالة الشخص الذي يبتهج في داخله بسبب ألفاظ المديح الذي يسمعها. ثم يحاول أن يستزيد منها. كأن يقول عبارات تجلب له مديحاً جديداً. أو يجر الحديث إلى موضوعات مشرّفة له. أو يتمنى عند سماع المديح بألفاظ مُتضعة تجلب له المزيد من الثناء.

★★ نوع ثالث هو حالة الشخص الذي إذ يشتهي المديح، يحاول أن يعمل أعمال بر أمام الناس لكي ينظروه فيمدحوه! وهذا النوع هاجمه السيد المسيح وقال عنه إنه قد استوفى أجره على الأرض ... ودعى الناس أن يعملوا الخير في الخفاء. واللّه الذي يرى في الخفاء يجازيهم علانية.

ولا شكّ أن الذين يعملون البِرّ في الخفاء، إنما يفعلون الخير حُبَّاً في الخير، وليس حباً في المديح.

★★ هناك نوع رابع لمحبة المديح، وهو أصعب من كل ما سبق. وهو حالة الشخص الذي لا يشبع من مديح بعض الناس له، فإذا به يتطوَّع لمديح نفسه! ويتحدَّث عن أعمال فاضلة له ... وبهذا يقع في الزهو والتباهي والخيلاء ... وقد يتمادى في هذا الأمر فيمدح نفسه بما ليس فيه.

★★ نوع خامس أسوأ مما سبق. وهو حالة الشخص الذي يشتهي المديح، وينتظر. وإذ لا يصل إليه، يكره مَن لا يمدحه، ويعتبره عدواً قد قصّر في حقه، فلم يُقدِّره حق قَدره، ولم يعترف بفضله ... وقد يتمادى في هذا الأمر، فيتضايق أيضاً ممِّن يمدحه، ولكن ليس بالقدر الذي كان ينتظره، وليس بالأسلوب الذي يشبع فيه نهمه إلى العظمة والفخر.

★★ مثل هذا الشخص الذي يكره مَن لا يمدحه، ماذا تراه يفعل بمن ينتقده؟! إنه ولا شكّ لا يمكن أن يحتمل النقد ولا النصح ولا التوجيه. وطبعاً لا يقبل التوبيخ ولا الافتقاد حتى ممن هو أكبر منه كأبيه بالجسد، أو أبيه الروحي، أو أي معلم أو مرشد أو رئيس! ويعتبر كل نصح أو توبيخ يوجه إليه، كأنه لون من الاضطهاد، يقابله بالتذمر أو بالاحتجاج أو بالثورة والغضب.

★★ على أن أسوأ درجة لمحبة المديح في نظري، هى حالة الشخص الذي من فرط محبته للمديح، يريد أن يحتكره لنفسه فقط! فلا يطيق أن يسمع مدحاً لشخص آخر. وإلاَّ فإنه يكره المادح ويحسد الممدوح! وهكذا يعتبر من يمتدح غيره، بأنه منحرف عن طريق صداقته. كما لو يشبهه بحالة زوجة تُحب رجلاً آخر غير زوجها! ومحب المديح هذا يحاول أن يُقلِّل من شأن الشخص الآخر الذي سمع مدحاً له. وربما يتهمه ظالماً ويسيء إلى سمعته. وكل ذلك لكي يبقى هو وحده، ولا شريك له، في إعجاب الناس.

★★ من كل ما سبق نرى أن محبة المديح تقود إلى رذائل عدة نذكر من بينها: فقد تقود مَن يحب المديح إلى الوقوع في الرياء، محاولاً أن يبدو أمام الناس في صورة مشرفة نيرة خيرة غير حقيقته الداخلية، وقد يتظاهر بفضائل هو بعيد عنها تماماً كأن يتظاهر بالصفح وهو حاقد، أو بالحب وهو يدس الدسائس. أو يتظاهر بالصوم وهو مفطر.

★★ وقد يقع محب المديح في الغضب وعدم الاحتمال. فيغضب من كل مَن يُوجِّه إليه نقداً، أو يُخطِئ له رأياً. كما يغضبه مَن يُفضّل أحداً عليه. وتكون الكرامة صنماً يتعبَّد له محبو المديح في كل حين. وقد تراه ثائراً في أوقات كثيرة يصيح صارخاً: كرامتي كرامتي.

★★ وقد يقع مُحب المديح في الحسد وفي الكراهية. ولا يكون قلبه صافياً تجاه مَن يظن أنه ينافسه، أو في مَن يظن فيه أنه نال كرامة أو منصباً أو مديحاً هو أولى به منه! وقد تعذبه الغيرة والحسد بسبب كل هذا. وقد يجره الحسد إلى أخطاء أخرى عديدة.

★★ وقد يقع محب المديح في حالة عدم استقرار. فلا يثبت على حاله. إنما يختار لنفسه في كل مناسبة الوضع الذي يجلب له مديحاً في نظر مَن يقابله حتى لو كان في عكس موقف سابق له... وكثيراً ما يقع محب المديح في الكذب أو المبالغة. وكثيراً ما يغطي أخطائه أو نقائصه بأكاذيب أو ألوان من التحايل، أو ينسب أخطاؤه إلى غيره، ويظلم غيره لكي يتبرَّر هو. أو يشتهي موت غيره مما نال مركزاً يشتهيه هو.

★★ وعموماً فإن محب المديح يخسر محبة الناس. لأن الناس تحب الإنسان المتواضع الذي يقدمهم على نفسه في الكرامة، والذي يختفي لكي يظهروا هم، والذي يمدح كل أحد، ويحب كل أحد، ولا يكره منافساً له.

ومُحب المديح لا يخسر الناس. إنما يخسر أيضاً أبديته. ويبيع السماء وأمجادها بقليل من المجد الباطل على هذه الأرض الفانية. وكل الفضائل التي يتعب في اقتنائها، يُبدِّدها بمحبة المديح.

ومحب المديح قد يقع في خداع الشياطين، التي تضلِّله برؤى وأحلام كاذبة وبظهورات خادعة.

٢٥ ديسمبر ٢٠١١

التمركز حول الذات ... وإنكار الذات

لا تظنوا أيها الإخوة الأحباء أن عبادة الأصنام قد تلاشت من الأرض. فهناك صنم كبير يكاد أن يعبده الكل، وهو الذات...

فكل إنسان مشغول بذاته، مُعجب بذاته. يضع ذاته في المرتبة الأولى من الأهمية. أو في المرتبة الوحيدة من الأهمية. يُفكِّر في ذاته. ويعمل من أجل ذاته. ويهمه أن تكبر هذه الذات، بل تصير أكبر من الكل. ويهمه أن تتمتَّع هذه الذات بكل اللذات، بأي ثمن أو بأي شكل.

★★ هذا هو التمركز حول الذات. وفيه يختفي الكل، وتبقى الذات وحدها. فيه ينسى الإنسان غيره من الناس، أو يتجاهلهم، لكي تبقى الذات وحدها في الصورة ... ويكون إذا فكر هذا الشخص في غيره من الناس، يكون تفكيره فيهم ثانوياً، في المرحلة التالية لذاته. أو قد يكون تفكيراً سطحياً، أو تفكيراً عابراً.

★★ وهذا الشخص المتمركز حول ذاته: إذا ما أحب أحداً آخر، فأنه يحبه من أجل ذاته. ويكون مَن أحبه مجرد خادم لذاته. أو مَن يشبع ذاته في ناحية ما ... يحب مثلاً مَن يمدحه، أو مَن يقضي له حاجة ما، أو مَن يشبع له شهواته، أو مَن يُحقِّق له رغبة ما. فهو في الحقيقة يُحب ذاته لا غيره. وما حُبّه لغيره سوى وسيلة يُحقِّق بها محبته لذاته.

★★ لذلك لا مانع عند هذا الشخص، أن يفخر بمثل هذا الحب إذا اصطدم بذاته ورغباته! ولعلَّ هذا يُفسِّر لنا الصداقات التي تنحل بسرعة، إذا ما اصطدمت بكرامة ذاتية أو غرض ذاتي ... ولعلَّ هذا يُفسِّر لنا أيضاً الزيجات التي تنتهي بالطلاق، أو إلى الانفصال ... بينما يظن البعض أنها قد بدأت بُحب، أو بُحب عميق أو عنيف!! قطعاً إن ذلك لم يكن حباً بمعناه الحقيقي. لأن الحب الحقيقي فيه تضحية واحتمال وبذل وعذر للآخرين. والمحبة الحقيقية تحتمل كل شيء.

★★ إن مثل هؤلاء الأشخاص كانوا يحبون ذواتهم فيما هم يتغنون بمحبتهم لغيرهم! كان في محبتهم عنصر الذاتية. لذلك ضحُّوا بهذه المحبة على مذبح الذاتية أيضاً. إنما المحبة تصل إلى أعماقها حينما تتكلَّل بالبذل ... أي أن المُحب الحقيقي هو الذي يُضحِّي من أجل أحبائه بكل شيء، ولو أدَّى الأمر إلى أن يُضحي بذاته. وكما قال الإنجيل: " ليس حُبٌّ أعظم من هذا، أن يُضحي أحد بنفسه عن أحبائه ".

أمَّا المحبة التي تأخذ أكثر مِمَّا تُعطي، فهى ليست محبة حقيقية، إنما هى محبة للذات، وهى أيضاً تحب ما تأخذه، ولا تحب مَن تأخذ منه ... لذلك فإن محبة اللَّه لنا هى المحبة المثالية، لأنها باستمرار تُعطي دون أن تأخذ. ولهذا أيضاً فإن محبة الأم لطفلها هى محبة حقيقية، لأنها باستمرار تُعطي، وباستمرار تبذل.

★★ ولكن لعلَّ إنساناً يسأل: ولماذا لا نحب ذواتنا؟ وأيَّة خطيئة في ذلك؟! ومَن من الناس لا يحب ذاته؟! إنها غريزة في النفس.

نعم، جميل منك أن تحب نفسك. على أن تحبها محبة روحية. تحب ذاتك من حيث أن تهتم بنقاء هذه الذات وقداستها وحفظها بلا لوم أمام اللَّه والناس. وتحب ذاتك من حيث اهتمامك بمصيرها الأبدي، ونجاتها من الدينونة الأخيرة حينما تقف أمام منبر اللَّه العادل، لتُعطي حساباً عن أعمالها وعن أفكارها ونيَّاتها ومشاعرها. هذا هو الحب الحقيقي للذات. الحب الذي يُطهِّر الذات من أخطائها ومن نقائصها، ويلبسها ثوباً من السمو والكمال.

★★ وهناك شرط آخر للمحبة الحقيقية للذات، وهو أن الإنسان في محبته لذاته يحب جميع الناس أيضاً، ويكون مستعداً أن يُضحِّي من أجلهم بكل ما يملك، ولو ضحَّى بذاته أيضاً...

فلا يجوز لك أن ترتفع على جماجم الآخرين، ولا أن تبني سعادتك على شقائهم، أو تبني راحتك على تعبهم! لذلك ضع مصلحة الآخرين قبل مصلحتك، وفضِّل خيرهم على خيرك. وعليك أن تُضحِّي من أجل الناس، سواء شعروا بهذه التضحية أو لم يشعروا، وسواء شكروا عليها أو لم يشكروا.

★★ لذلك هناك فضيلة عُظمى وهى إنكار الذات. فالإنسان النبيل لا يُزاحم الناس في طريق الحياة. بل يفسح لهم مجالاً لكي يعبروا، ولو سبقوه! إنه يختفي لكي يظهر غيره. ويصمت لكي يتكلَّم غيره. ويمدح غيره أكثر مِمَّا يمدح نفسه. ويُعطي مكانه ومكانته

لغيره. وبذلك كما يسعد غيره، يسعد نفسه أيضاً ... إنه دائم التفكير في غيره، ومحبة غيره وصالح غيره، وأبدية غيره وقداسة غيره ... أمَّا ذاته فيضعها آخر الكل، أو خادمة للكل. إنه يفرح لأفراح الناس، ولو كانت الآلام تحيط به من كل ناحية. وإن أصابهم ألم لا يستريح هو، وإن كانت وسائل الراحة تحت قدميه ... إنه شمعة تذوب لكي تضيء للآخرين ... وفي إنارتها للناس، لا تفرح بأنها صارت نوراً. إنما تفرح لأن الآخرين قد استناروا. ذاتها لا وجود لها في أهدافها.

★★ إن أنجح الإداريين في العالم هُم المنكرون لذواتهم. وأكثرهم فشلاً هم الأنانيون.

إن أنجح إداري هو الذي يُعطي فرصة لكل إنسان أن يعمل. ويشرف على الكل في عملهم. ويبدو كما لو كان هو لا يعمل شيئاً، بينما يكون هو مركز العمل كله. ويكون محبوباً في العمل. لأنه كلما نجح العمل، يتحدَّث عن مجهود فلان وفلان، وينسب النجاح إلى كثيرين غيره وينكر ذاته ... إن المُنكر لذاته يهمه أن ينجح العمل أيَّاً كانت اليد التي تعمله. أمَّا المتمركز حول ذاته فلا يهمه إلاَّ أن يتم النجاح على يديه، ولو أدَّى الأمر إلى تعطيل العمل كله!!



١ يناير ٢٠١٢

أيهما أفضل:
الصمت أم الكلام؟

كثيراً ما يتحيَّر الإنسان: أيهما أفضل أن يصمت أم أن يتكلَّم؟ وهكذا عليه أن يُحدِّد موقفه بين الصمت والكلام.

★★ فضيلة الصمت:

نُلاحظ أن غالبية قديسي البريَّة قد فضلوا الصمت. واضعين أمامهم قول سليمان الحكيم: "كثرة الكلام لا تخلو من معصية". وفي ذلك أيضاً قال القديس أرسانيوس مُعلِّم أولاد الملوك عبارته المشهورة: " كثيراً ما تكلَّمت فندمت. وأمَّا عن سكوتي فما ندمت قط ".

من أجل هذا صلَّى داود النبي قائلاً: " ضع يارب حافظاً لفمي، باباً حصيناً لشفتيَّ ". وقال الوحي الإلهي: " الاستماع أفضل من التكلُّم ".

★★ وما أكثر ما تحدَّثت الكتب الروحية عن فضيلة الصمت، ودعت إليها. وذلك لكي ما يتخلَّص بها الإنسان من أخطاء اللسان وهى كثيرة: منها الكذب، والمبالغة، وكلام الرياء والتملُّق والنفاق، ومنها التهكُّم والكلام الجارح، والسب واللعن والإساءة إلى الآخرين. والنميمة، والتحدث بالباطل في سيرة الناس. ومنها الافتخار بالنفس، والتباهي ومدح الذات. ومنها الكلام البذيء، والقصص والفكاهات الخليعة. وكلام المجون ومنها أخطاء الإنسان في حق اللَّه، كالتجديف، وكلام الكُفر، والتذمُّر على اللَّه. ومنها التعليم الخاطئ، والضلالة والبِدع.

ومن أخطاء اللسان أيضاً الثرثرة. ذلك لأن اللَّه لم يخلق اللسان عبثاً، لكي يتكلَّم بلا فائدة.

★★ لكل هذا فضَّل القديسون الصمت ... ليس فقط لكي يبعدوا عن أخطاء اللسان، إنما أيضاً لكي يتيح لهم الصمت فترة للصلاة والتأمُّل. ذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يتكلَّم مع اللَّه والناس في الوقت نفسه. لهذا قال الشيخ الروحاني: " سكِّت لسانك، لكي يتكلم

قلبك ". وقال مار إسحق: " الشخص الكثير الكلام، يدل على أنه فارغ من الداخل ". أي أن قلبه فارغ من مناجاة اللّه، وفارغ من العمل الروحي للتأمُّل والصلاة.

★★★

★★ كلام المنفعة:

يبقى بعد كل هذا سؤال هام وهو:

هل كل صمت فضيلة؟ وهل كل كلام خطيئة؟!

كلاَّ طبعاً، لقد قال داود النبي في المزمور: " فاض قلبي بكلامٍ صالح ". إذاً هناك كلام نافع مفيد. وذلك حينما نتكلَّم الصالحات.

إن الصمت حالة سلبية، بينما الكلام حالة إيجابية.

وإنما يُدرِّب الناس أنفسهم على الصمت، حتى يتدربوا على الكلام النافع. الصمت إذن هو وضع وقائي، يحمينا إن كنا نتكلَّم بدافع بشري.

★★ أمَّا إن كان اللّه هو الذي يفتح شفاهنا، وهو الذي يضع كلاماً في أفواهنا، فحينئذ يكون كلامنا - لا صمتنا - هو العمل الفاضل.

كان السيد المسيح يتكلَّم. والناس " يتعجَّبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ". والشهيد استفانوس تكلَّم، فأفحم المجامع الخاطئة " ولم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلَّم به ".

وقد قال سليمان الحكيم: " فم الصديق ينبوع حياة ". وقد كان عُظماء الناس يجوبون البَر والبحر، لكي يسمعوا كلمة منفعة من المتوحدين والنُسَّاك في براري مصر وقِفارها.

★★ كلام المنفعة هذا هو كلام من اللّه يضعه في أفواه أحبائه، ليُقدِّموه للآخرين، هادئاً كان أم شديداً.

★★ ومن كلام المنفعة: كلمة النُصح لِمَن يحتاج إليها. وكلمة العزاء لقلب حزين. وكلمة التشجيع ليائس أو لأحد الناشئين. وكلمة التعليم لبناء النفوس. وكلمة الحق للهداية والإرشاد. وكلمة البركة، وكلمة الحكمة.

نسأل سؤالاً بعد هذا وهو: إن كان الكلام هكذا نافعاً في بعض الأوقات. فهل يمكن أحياناً أن يُعتبر الصمت خطيئة، تماماً كما يُحسب كلام الشرير خطيئة؟! وهل يمكن أن نُدان على صمتنا، كما نُدان على كلامنا في بعض الأوقات؟!

نعم أحياناً نُدان على صمتنا.

إنّ لكل شيء تحت السمَوات وقتاً. وقد قال سليمان الحكيم: " للسكوت وقت، وللتكلُّم وقت ". فإن كان للتكلُّم وقت فلا شكَّ أننا نُدان إذا صمتنا فيه.

الإنسان البار لا يتكلَّم حين يحسن الصمت. ولا يصمت حين يجب الكلام. إنما يعرف متى يتكلَّم وكيف يتكلَّم. ويضع لكلامه هدفاً روحياً. وقد قال الحكيم: " تفاحة من ذهب، في مصوغ من فضة، كلمة مقولة في موضعها ".

وكثيراً ما أمر اللَّه الناس بالكلام. فكان يرسلهم أحياناً للإنذار، وأحياناً لإعلان حقه بين الناس.

إن اللَّه لا يُكلِّم البشر مباشرة. وإنما يُكلِّمهم عن طريق خُدَّامه من البشر. هو يريدنا أن نعلن وصاياه للناس. وقد طلب مِنَّا أن نكون شهوده على الأرض.

★★ فإن صمتنا عن الشهادة للحق، نُدان على صمتنا. وإن صمتنا، وبصمتنا أعطينا مجالاً للباطل أن ينتشر وأن ينتصر، فإننا نُدان على صمتنا.

وإن قصرنا في إنذار البعض، فأضر بنفسه أو بغيره، فحينذاك نُدان أيضاً على صمتنا.

إن رأيت إنساناً يكاد يسقط في حفرة وهو لا يدري، هل تقول وقتذاك إن الصمت فضيلة أم تحذره؟! وإن لم تحذره، ألا تُدان على صمتك، ويطالبك اللَّه بدم ذلك الشخص؟!

لهذا يكون هناك واجب من الرعاة والقادة أن يتكلَّموا وواجب مثله على الأباء والأمهات، وعلى المعلمين وعلى كل مَن هو في مسؤولية ... كل هؤلاء عليهم أن يقولوا كلمة الحق، وأن يشهدوا لوصايا اللَّه في العالم ... ومثل هؤلاء يكون كلامهم في قول الحق أفضل من الصمت.

فليعطنا الرب أن نعرف كيف ومتى نتكلَّم، وليعطنا الكلمة التي تتفق مع مشيئته الصالحة ... ولا ترجع فارغة. بل تثمر ثمراً في قلوب الناس.

٧ يناير ٢٠١٢

كان يجول يصنع خيراً

أولاً، وقبل أن أبدأ هذا المقال، أُحب أن أهنئكم جميعاً بعيد الميلاد المجيد، وببدء عام جديد، راجياً لكم عيداً سعيداً، وعاماً مملوءاً بكل خير، لكم ولمصر كلها... في هذه الأيام التي يسود فيها القلق والتخوُّف. ويتساءل الكل من جهة بلادنا العزيزة المحبوبة: إلى أين؟!! والجواب: إلى كل خير وبركة... بمشيئة اللّه الذي لا يشاء إلاَّ الخير والبركة، والذي رحمته تتقدَّم كل أعماله، وكل أعمال مشيئته. سبحانه الذي نحتمي برحمته كل حين.

★★ وأُهنئكم أيضاً - يا إخوتي وأحبائي - بعيد ميلاد هذه السنة بالذات - الذي لأول مرة خلال سنوات كثيرة مضت - تزدحم فيه الكاتدرائية... بأكبر عدد من القيادات الإسلامية بكافة اتجاهاتها يهنئون الأقباط بعيدهم، ويضعون أيديهم في أيدينا فرحاً في وحدة المشاعر. ويقولون: كلنا واحد في حُب مصر.

هذا مع الحضور المُميَّز والمُشرِّف لأعضاء المجلس العسكري، الذي يعمل من أجل حماية مصر واستقرارها. هذا الذي نُصلِّي من أجله جميعاً أن يديمه اللّه في قوة وجبروت، مستمراً في حماية مصر من الداخل والخارج أيضاً.

★★ أمَّا عن ميلاد السيد المسيح له المجد، فقد وردت عنه في الكتاب المقدس أنه " كان يجول يصنع خيراً، ويشفي كل مرض وضعف في الشعب... ". نعم، لقد كان هذا هو أسلوب السيد المسيح في العمل، طوال مدة رعايته للكل على الأرض، وبخاصة للمحتاجين والفقراء والمساكين والذين ليس لهم أحد يذكرهم...

نعم، كان يجول يُشبع الكل من رضاه. يهتم بالكل. وهو مُعين مَن ليس له مُعين، ورجاء مَن ليس له رجاء.

★★ كان يهتم جداً بالفقراء والمحتاجين. بالجياع والعطاش والعُراة والمسجونين وأمثالهم. ويعتبر اهتمام الشعب بهؤلاء كأنه موجَّه له شخصياً. فإن سألوه - كما ورد في (مت ٢٥) - " متى رأيناك يارب جائعاً أو عطشاناً أو عُرياناً، أو سجيناً أو ما أشبه... ".

فيجيبهم قائلاً: " الحق أقول لكم: مهما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي قد فعلتم ". وهكذا شجَّع الجميع بالعناية بالفقراء والمحتاجين الذين اعتبرهم إخوته مهما كانوا من الأصاغر في نظرنا.

★★ وكان يهتم أيضاً بالضعفاء والمساكين روحياً، أعني بالخطاة وبالعشارين أيضاً. كان أسلوبه الروحي في معاملة هؤلاء: ليس الانتقام منهم أو عقوبتهم بسبب ارتكابهم للخطايا، بل بالحري إنقاذهم من تلك الخطايا... وهكذا حينما لاموه على جلوسه مع العشارين والخطاة، أجابهم بعبارته الشهيرة المملوءة عمقاً وحُبّاً: " لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى ". إذاً هؤلاء الخطاة، هم مرضى، ويحتاجون إلى طبيب، لكي يعالجهم، وليس ليُعاقبهم. وهنا يسأل البعض: هل السيد المسيح لم يُعاقب إطلاقاً، ولكن في حُب. مجهّر سوطاً وطرد الباعة الذين أحضروا بهائمهم معهم. ووبَّخهم قائلاً: " بيت أبي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص ". وفي هذا قُلتُ:

يا قوياً ممسكاً بالسوط في كفه والحب يُدمي مدمعك

★★ نعم، كان الحب هو أسلوب السيد المسيح، حتى في معاملة الخطاة. وهنا أذكر قول أحمد شوقي أمير الشعراء:

وُلِدَ الحب ... يوم مولد عيسى

وهنا أيضاً أذكر تعامله في قصة المرأة الخاطئة التي ضُبطت في ذات الفعل. وكيف أتى بها الكتبة والفريسيون الذي اعتبروا أنفسهم أمناء على تطبيق الشريعة وأذلوها. وسألوه: " بماذا تحكم على هذه المرأة التي تأمر شريعة موسى برجمها؟ ". وهنا قال لهم في عُمق: " مَن كان منكم بلا خطية، فليرمها بأول حجر ". وفي نفس الوقت، بدأ بطريقة ما يظهر لكل منهم خطاياه. فهربوا جميعاً. فقال السيد المسيح للمرأة: " أين الذين أدانوكِ؟ هل لم يبقَ منهم أحد؟! وأنا أيضاً لا أدينك. اذهبي ولا تعودي تُخطئي أيضاً ". وهكذا أنقذ المرأة من الرجم ومن المذلة...

★★ وبنفس أسلوب المحبة تعامل مع زكا رئيس العشارين وقتذاك. الذي كان قصيراً وتسلَّق شجرة وقتذاك. فقال له السيد المسيح: " يا زكا أسرع وانزل. اليوم سأتعشَّى في بيتك ". فلما لامه الكتبة والفريسيون: كيف يدخل في بيت رجل خاطئ؟! أجابهم قائلاً: " إن ابن الإنسان جاء يطلب ويُخلِّص ما قد هلك ". بهذا الحُب أنقذ زكا العشار الذي

قال تبعاً لذلك: " ها أنا تركت نصف أموالي للفقراء. وإن كنت قد وشيت بأحد، أرد أربعة أضعاف ". وبهذا الأسلوب تاب زكا.

وبمثل هذا الأسلوب الرقيق الهادئ تابت المرأة السامرية وآمنت، وكانت سبباً في إيمان بلدتها... هذه الخاطئة التي قال السيد المسيح لها في رقة دون أن يجرحها: " حسناً قلتِ أنه ليس لكِ زوج، لأنه كان لكِ خمسة أزواج، والذي معكِ الآن ليس هو لكِ ". وطبعاً كلمة (أزواج) هنا هى عبارة رقيقة. فهم لم يكونوا أزواجاً. ولكن السيد المسيح لم يستخدم معها العبارة الدقيقة المحرجة، حرصاً على مشاعرها رغم خطيئتها!!

★★ السيد المسيح كان أيضاً رجلاً شعبياً. يعيش باستمرار مع الشعب. كان مُعلِّماً يعمل كثيراً في التعليم. وغالباً ما كانوا يدعونه "يا مُعلِّم"، "أيها المُعلِّم الصالح". ومع ذلك لم يكن له مكان للتعليم. بل كان يُعلِّم أحياناً وهو جالس على الجبل، أو وهو سائر في الحقول، أو على شاطئ البحيرة. وعموماً لم يكن له بيت يقيم فيه. وقيل عنه "لم يكن له أين يسند رأسه" والذين كانوا يتبعونه من تلاميذه الصيادين الفقراء، كانوا يسيرون وراءه، وهم لا يعلمون إلى أين يمضوا!!

★★ كان بين الناس يسلك بالتواضع والبساطة. وكان يعاشر فقراء الناس، وليس كبار القوم منهم. وقد نشأ في بلدة فقيرة هى بيت لحم، من أم فقيرة هى القديسة العذراء مريم، التي كانت تحيا في بيت نجار. ولعل السيد المسيح قد تعلم هذه الصناعة منه في شبابه المبكر.

كان السيد المسيح يتعامل مع الناس بكل بساطة وشعبية يتعامل مع الكل. حتى مع الأطفال الذين كانوا يحيطون به، متمتعين بمحبته. والذين قال عنهم لتلاميذه "إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال، فلن تدخلوا ملكوت اللّه". يقصد مثل الأطفال في براءتهم وبساطتهم وصدقهم، وليس في عقليتهم طبعاً.

★★ المسيح أيضاً في تواضعه وبساطته، لم يجعل الكنائس تبنى باسمه، ولا حتى الأناجيل تحمل اسمه.

١٥ يناير ٢٠١٢

من الإعواز...

يرجع هذا الموضوع إلى قصة أرملة فقيرة وضعت فلسين في صندوق العطـاء أي بضعة ملاليم. بينما كبار رجال القوم وضعوا بالمئات. والسيد المسيح رأى هذه الأرملـة الفقيرة في عطائها وقال: الحق أقول لكم: إن هذه الأرملة الفقيرة قد أعطـت أكثـر مـن الجميع. لأن هؤلاء من فضلتهم ألقوا في الصندوق. بينما هذه قد أعطت من إعوازها.

حقاً إن اللَّه ينظر إلى عُمق العطاء وليس إلى مجرد قيمته. والذي يُعطي من إعوازه " من احتياجاته " يدل على أن عطاءه فيه الكثير من الحُب، ومن تفضيل غيره على نفسـه. بعكس الذي يُعطي مِمَّا فضل عنه.

وفي هذا الموضوع أود أن أتأمَّل معكم شخصية مَن يُعطي من إعوازه، سـواء مـن جهة المال، أو إعوازه من جهة الوقت، أو من جهة الراحة والصحة.

★★ هناك مَثَل عظيم للذي أعطى من إعوازه من جهة الأبناء إنه إبراهيم أبو الآبـاء والأنبياء الذي أعطاه اللَّه ابناً في شيخوخته ثم أمره أن يُقدِّم هذا الابن محرقة على الجبل. فأطاع ومضى به ليذبحه حسب أمر اللَّه. لذلك باركه اللَّه بركة عظيمة وبارك نسله.

مثال آخر هو حنة أم صموئيل النبي وكانت عاقراً. وصـلَّت ونـذرت إن اللَّـه إذا أعطاها نسلاً تُكرِّسه لخدمته. وفعلاً عندما منحها اللَّه ابنها صموئيل، قدَّمته لخدمة الـرب منذ أن استطاع السير على قدميه. ويؤسفنا في هذه الأيام أن كثيراً من النساء يبخلن على اللَّه في الموافقة على تقديم الزوج أو الابن لخدمة الرب.

★★ مَثَل آخر مِمَّن يعطي من إعوازه. هو مثال مَن يُعطي نفسه لخدمـة الـرب. إذ يكون ناجحاً جداً في خدمة العالم. ولكنه يُفضِّل خدمة الرب وتكريس نفسه لذلك. فيُعطيـه ذاته التي لا يملك غيرها. ويترك كل شيء من أجله. إنه بلا شكّ أعظم بكثير من الـذي يُعطي المال من الإعواز.

لا شكَّ أن الذي عنده مال كثير ويُعطي منه لخدمة المحتاجين. ولكن عطاءه لا يكون له عُمق مثل الذي يُعطي وهو محتاج إلى ما يعطيه.

كإنسان يقول: إن مُرتَّبي كله لا يكفيني، فكيف أدفع العشور للَّه؟! حقاً إنك ستُعطي من إعوازك. لذلك سيُبارك لك اللَّه الباقي من مالك. فيكون أكثر من المُرتَّب كاملاً.

★★ هناك وصية أخرى من أيام موسى النبي هى وصية البكور. إذ كان الشخص عليه أن يُعطي أبكار " أو أوائل " كل ما يأتيه من الخير سواء من النبات أو الحيوان. فالشجرة حينما تطرح ثمراً، يُعطي أول ثمارها للَّه. وكذلك إذا بهيمة أو شاه وَلَدَتْ له، فيُعطي أول نسلها للَّه.

حالياً توجد أزمة بطالة للخريجين. فإذا حدث ونال أحدهم وظيفة مُعيَّنة طالما كان ينتظر. ولكن حسب وصية البكور، فإن أوَّل مُرتَّب يصل إليه من المفروض أن يُقدِّمه للرب لخدمة الفقراء. ويعتبر هذا المُرتَّب هو بكور إيراداته، وفي نفس الوقت عطاءً من الإعواز.

وبالمثل أوَّل عملية جراحية يقوم بها طبيب، أو أوَّل كشف أو علاج، عليه أن يُقدِّمه للرب. وبالمثل على كل مهندس أو مُدرِّس أو محاسب أو محامٍ أو صاحب أيَّة مهنة، يُقدِّم أوَّل مكسب له للَّه. إنه تنفيذ لوصية البكور. وفي نفس الوقت هو عطاء من الإعواز.

★★ إن الأمر باختصار يدل على مدى محبة الإنسان للمال، أو ارتفاعه عن مستوى ذلك. بذلك فإن مال الفقير الذي يُقدِّمه للَّه، هو أكثر قيمة من مال الغني الموسر.

أتذكَّر بهذه المناسبة قصة أولوجيوس قاطع الأحجار، الذي كان يكسب في اليوم درهماً واحداً. فيمضي في الغروب إلى مدخل المدينة، ليرى أي غريب قد جاء إليها. فيستضيفه من درهمه هذا الواحد.

وأتذكَّر بهذه المناسبة قصة كاهن في الإسكندرية كان أقدام خدام الكنيسة الكبرى. وقابله في الطريق إنسان محتاج يطلب منه صدقة. ولم يكن في جيبه أي شيء من المال ليعطيه لهذا المحتاج. فاضطر أن يقترض من صاحب محل قريب. وما اقترضه أعطاه لذلك المُحتاج. لكي يُنفِّذ وصية " مَن سألك فأعْطه ".

ومن الأمثلة الأخرى الأب الفقير الذي يُعلِّم أولاده من إعوازه. أو ذلك الأب المريض الذي يُفضِّل عدم شراء الدواء اللازم له، ويُقدِّم ثمن ذلك الدواء ليُغطِّي احتياجات أبنائه. فهل يذكر الأبناء عطايا آباءهم، التي أعطوها لهم من احتياجاتهم.

★★ نقطة أخرى هى العطاء من إعواز الوقت: أنت ترجع إلى بيتك، وأنت في غاية التعب. ولسان حالك يقول: " ثِقَل النهار وحره لم أحتمل بسبب ضعف بشريتي "، وتريد أن تنام وتستريح. ولكن ماذا عن الصلاة؟ تقول ليس لديَّ أي وقت لها. أو قُلْ بصراحة ليس لديَّ اهتمام بها أو أنك لا تريد أن تُعطي من إعوازك من جهة الراحة ... أعطِ إذن من إعواز وقتك، سواء لعمل الصلاة، أو التأمُّل، أو القراءة الروحية. وأعطِ من قلبك أيضاً. واعلم أن اللَّه سوف لا ينسى لك تعبك وأنه سيقويك. أقول ذلك أيضاً من جهة الخدمة. فلا تحاول أن تعتذر عنها مُبرِّراً ذلك بأنه ليس لديك وقت. بل أعطِ الخدمة من إعوازك في الوقت أيضاً. لا تحاول أن تُبرِّر نفسك بضيق الوقت مثلاً وتذكَّر تلك العبارة الهامة التي تقول: " إن طريق جهنم مفروش بالمُبرِّرات ".

اعرف أن عبارة ليس لديَّ وقت، ربما يكون تفسيرها: ليس عندي اهتمام بذلك. فلا شكَّ أن الشيء الذي تعطيه اهتماماً، سوف توجد له وقتاً.

★★ أيضاً من جهة التربية المنزلية: الأب والأم مسئولان عن تربية ابنهما روحياً وليس فقط من جهة الصحة والتغذية والملابس والتعليم. فهل يعتبر كل منهما أنه لابد أن يكون لديه وقت يقضيه في جلسة روحية مع أولاده يعلمهم طريق الخير والبِرّ.

إنني في حضوري العيد الألفي لبناء الكنيسة في روسيا، شكرت الكنيسة على حفظها للإيمان خلال سبعين سنة من الشيوعية، وشكرت أيضاً الأمهات والجدات اللائي اهتممنَ بالأطفال وعلمنهم الإيمان وإعدادهم لذلك.

قدِّموا إذا وقتاً ولو من إعوازكم لتربية أولادكم.

٢٢ يناير ٢٠١٢

كيف تُحلّ المشاكل

في حياة كل إنسان قد توجد مشاكل. فكيف يمكن مواجهتها حتى لا تتطوّر إلى ما هو أصعب. بعض الناس يلجأ إلى حلول خاطئة لا تفيده شيئاً.

★★ هناك مَن يواجه المشكلة بالاضطراب والحُزن وأحياناً بكثرة البكاء والانهيار كما يحدث مع كثير من النساء. وينبغي أن نعرف أن البكاء لا يحل المشكلة، والحزن لا يحلها. وربما في الاضطراب يرتبك في أخطاء أخرى يقع فيها فتتعقّد معه الأمور.

★★ البعض الآخر قد يواجه المشكلة بحيلة خاطئة. مثال ذلك الذي يحل مشكلة الفقر بالسرقة أو بوسائل أخرى كالاحتيال أو النصب أو الرشوة وبهذا يحاول أن يُعالج المشكلة بخطية. والخطية لا تؤدي إلى نتيجة سليمة، وإن بدت موصلة إلى الغرض في بادئ الأمر! وما أسهل أن تؤدي إلى نتائج سيئة أو خطيرة فيما بعد. كأن توصل إلى السجن أو إلى سوء السمعة على الأقل.

ومن أمثلة معالجة المشكلة بخطية أن فتاة تزني وتحمل - سِفاحاً - فتُعالج هذه المشكلة بالإجهاض. فتضيف إلى خطية الزنى خطية القتل (قتل الجنين). وبهذا تقع في مشاكل أخرى اجتماعية ودينية.

★★ وأحياناً يحاول شخص أن يحل مشكلته بالغضب، أو بالكذب أو الإنكار. ويقول إنه لم يفعل، أو يحاول إلصاق الخطية بشخص آخر. وبهذا يضيف إلى الكذب خطية أخرى هى ظُلمه للغير.

★★ وهناك مَن يحاول أن يحل مشكلته بالغضب أو النرفزة. مثل أب يلاحظ إهمال ابنه أو تأخره في العودة مساءً، فيضربه في عنف ويمنعه من الخروج من البيت. وتحدث مشاكل جديدة نتيجة لعنف الأب. وطبعاً ليس هذا علاجاً على الإطلاق، بل قد تكون له نتائج جانبية رديئة. ومن أمثلة هذا أيضاً الزوج الذي يُعامل أخطاء زوجته بعنف، بالضرب أو الطرد أو الحبس في البيت. وتكون هذه نقطة البداية في فشل الحياة الزوجية.

★★ وهناك أيضاً مَن يحاول أن يحل مشكلته بالعناد. وهذا النوع تكون في نفسيته ألوان من الكبرياء أو الأنانية، وقد يُسمِّي ما بدر منه عزَّة نفس أو كرامة. فيصر على رأيه أو على تصرفه مهما قاد ذلك إلى نتائج سيئة. ويستمر في تشدده. وتتعقد المشكلة أكثر من الأول بكثير. ولا ينفعه عناده بشيء ولا يحل المشكلة.

★★ والبعض في حل مشكلته يلجأ أحياناً إلى القهر والعنف. والعنف قد يكون مادياً أو جسدياً كالضرب، أو الإيذاء، أو القتل أو يكون عنيفاً بالتهديد. وأحياناً يكون البكاء أو الإضراب عن الطعام لوناً من العنف. يلجأ إليهما الذين ليس لهم حيلة للوصول إلى حل... كل ذلك فيه لون من إرغام الغير على قبول ما لا يرضاه. وحتى ولو استجاب قهراً، لا يكون مقتنعاً من الناحية العقلية، ولا راضياً في قلبه.

وللأسف يحدث أحياناً في الريف أن يلجأ الوالدان إلى طُرق من الإرغام الأدبي لكي تتزوج ابنتهما مِمَّن لا ترضاه. تحت ضغط مرض مفتعل من الأب أو الأم، أو تحت ضغط الإلحاح المستمر، أو النرفزة أو البكاء أو التخويف!!!

ولكن هناك طُرقاً سليمة لمواجهة المشاكل:

★★ أول طريقة للتخلص من المشاكل هى الوقاية منها. فلا تنتظر حتى تأتيك المشكلة، ثم تُفكِّر كيف تحلها. وإنما الأفضل أن تتجنبها قبل أن تأتي. ولذلك ضع أمامك قاعدة هامة وهى (علاج الأسباب قبل علاج النتائج). إذن ابحث أولاً عن سبب المشكلة... فإن كانت هناك خصومة بينك وبين إنسان، هل يكفي أن تذهب إليه وتطلب منه العفو دون أن تُعالج أسباب الخصومة؟! فإن بقيت الأسباب تبقى الخصومة مهما فعلت.

ونفس الوضع في العلاقات الزوجية: قد تذهب الزوجة إلى بيت أبيها غاضبة (لأسباب مُعيَّنة) فهل يكفي أن تُحل المشكلة بأن نرسل إليها وساطة لترجعها؟! أم الحل الطبيعي هو معالجة الأسباب التي أدَّت بها إلى الخروج من البيت.

★★ وأحياناً يُفكِّر الناس في أسباب غير حقيقية لمشكلتهم: كفتاة مثلاً كلما يأتيها خطيب لا يرجع إليها مرة أخرى. وبتكرار الأمر تظن أن هناك عملاً قد عُمِلَ لها!! وبهذا يتلقفها مَن يدَّعون فك العمل!! بينما قد يكون السبب الحقيقي هو مقابلة أسرتها للخطيب بطريقة غير لائقة! أو تعقيد الأمور بمبالغ مالية لا يقدر عليها الخطيب فلا يرجع ... أو أن أسلوبهم في الكلام لا يُعجبه. ويكون حل المشكلة في تفادي هذه الأسباب.

★★ حل المشاكل يحتاج أيضاً إلى حكمة. فالإنسان الحكيم يمكنه أن يحل مشاكله بعقل رزين، وبتفكير هادئ. ذلك لأن الإنسان المضطرب لا يستطيع أن يُفكِّر بطريقة متزنة. بل أن تفكيره المشوش لا يوصله إلى حل.

ولعلك تقول: وإن لم تكن لديَّ حكمة فماذا أفعل؟

أقول لك: عليك حينئذ بالمشورة الصالحة. الجأ إلى إنسان عاقل أو إلى أب روحي حكيم لكي ينصحك بما يحل إشكالك. وفي ذلك قال الشاعر:

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً فأرْسِلْ حكيماً، ولا تُوصِهِ
وإنْ بابُ أمرٍ عليكَ التوَى فشاوِرْ لبيباً ولا تعصهِ

ولا تعتمد على نفسك فقد في حل مشاكلك. فكثيراً ما تحتاج إلى عقل إلى جوار عقلك لكي يسنده. والإنسان الحكيم يفترض حلولاً كثيرة لمشاكله.

والإنسان العاقل إن كانت له مشكلة مع شخص، يراعي عقلية ذلك الشخص ونوعية نفسيته، لكي يعرف أسلوب التعامل معه. فإن تعامل مع امرأة يُراعي نفسية المرأة وليس نفسيته هو فقط. فمشكلتك مع شخص ذكي غير مشكلتك مع شخص بسيط. ومشكلتك مع العنيف غير مشكلتك مع الهادئ.

والإنسان الحكيم يُراعي في حل مشكلته الوقت والظروف. ففي بعض الأوقات تكون الظروف مواتية. وفي أوقات أخرى تكون الظروف لا تسمح فيحسن تأجيل الموضوع إلى موعد آخر.

هناك مشاكل تحتاج في حلها إلى صبر واحتمال. وأخرى تحتاج إلى شيء من التواضع والكلمة الطيبة. ومشاكل أخرى تحتاج إلى الصلاة والإيمان.

٢٩ يناير ٢٠١٢

ردود الفعل

إن كان ما يزرعه الإنسان إيَّاه يحصد، فإن هذا ينطبق أيضاً على كل تصرفات أي شخص بل على كل كلمة يقولها. ورد الفعل قد يكون خيراً أو شراً حسب موقعه. وهكذا في العلاقات البشرية: نرى أن المحبة تلد محبة. والعداوة قد تلد عداوة. واللطف يلد لُطفاً. بل أن ابتسامة في وجه طفل، تطبع ابتسامة أخرى على شفتيه.

★★ والأدب والاحترام في معاملة الناس، من ردود فعله أدب واحترام للجهتين. أتذكَّر زميلاً لنا في الدراسة، كان لا يُكلِّم أحداً إلاَّ باحترام شديد. وكانت النتيجة أن الكل يقابلونه بالمثل. وإن خرج أحد منهم عن اللائق، كان هذا الزميل يتصرَّف بأسلوب رصين ورزين. وبهذا يُجبر ذلك الآخر على تعديل سلوكه. أتذكَّر أيضاً ناظر مدرسة كان يُعامل المدرسين بجفاء، بأسلوب قانوني بحت. فكان رد الفعل هو كراهية جميع المدرسين له. وقد سألني مرَّة: لماذا يكرهني المدرسون؟ هل أنا خرجت عن القانون في معاملة أحد منهم؟! فأجبته: مشكلتك إنك تُعاملهم بالقانون وليس بالمحبة. بينما الناس لا يلجأون إلى القانون إلاَّ إذا زالت المحبة من بينهم. ويقول المثل: " إذا تراضى الخصمان استراح القاضي ".

حتى الحَزم يولِّد الانضباط. بينما التَّسيُّب يولِّد الفوضى. ولكن القسوة في الحَزم تولِّد الكراهية أو النفور. لذلك ينبغي أن يكون الإنسان حكيماً في حَزمِهِ. لا يتطرَّف فيه إلى القسوة أو الشدة الزائدة عن الحد. وأتذكَّر أنني قُلت في تأبين أستاذنا الروحي حبيب جرجس سنة ١٩٥١:

يا قوياً ليس في طبعه عُنف ... ووديعاً ليس في ذاته ضعفُ
يا حكيماً أدَّب الناس وفي ... زجره حُبٌ وفي صوته عطفُ
لك أسلوب نزيه طاهرٌ ... ولسان أبيض الألفاظ عفُ

★★ لذلك ينبغي على الإنسان في كل كلمة يقولها، أو يُفكِّر في ردود فعلها. ولذا يجب عليه أن يتحاشى الألفاظ القاسية، وعبارات التهديد وعبارات التَّهكُّم. وبالذات في معاملة الأطفال، يجب أن تكون صادقاً فيما تقوله. وأن تُوفِي بكل وعد تعده. ولا تهز المثاليات التي في ذهن الطفل بأخطائك في الكلام. بل في حياتك الخاصة حاول أن تنتقي ألفاظاً وتزنها بميزان دقيق.

★★ وكُن رقيقاً. فالرقة لها رد فعل عميق فيمَن يتعامل معها. أحياناً يكون الرجل رقيقاً جداً في معاملته لخطيبته. فإذا ما تزوجا، يظن - للأسف الشديد - أن الرقة هى لون من الكُلفة، بينما قد زالت الكُلفة بينهما بالزواج! وهذا خطأ شديد. إذن احتفظ باحترامك لزوجتك، واستخدم الرقة واللطف في معاملتها، بل والاحترام أيضاً. وسيكون رد الفعل لذلك طيباً جداً في نفسيتها. أتذكَّر مرَّة وأنا أسقف للتعليم، أن زارني أستاذ من جامعة كمبريدچ ومعه زوجته. فكان يجعلها تتقدمه باستمرار. وكان يتحدث عنها باحترام. ولا يذكر اسمها مجرداً، وإنما معه لقبها. وكانت هى تحترمه بالمثل.

وأعرف شخصاً كان يتخاطب مع أبنائه أيضاً باحترام. ولا يستخدم مع أي واحد منهم كلمة جارحة مهما حدث. وكان أطفاله يحبونه، إذ أنه كان يُشعِر كل منهم بقيمة شخصيته وبتوقيره لمواهبهم.

كذلك بالنسبة لرئيس أي عمل في معاملته لمرءوسيه، يمكنه أن يوجِّهه ويشرح له أخطاءه، ولكن بأسلوب غير مُهين وكل إنسان له مشاعره التي لا يقبل أن تُهان.

★★ لذلك ادرس نفسيات الناس وعاملهم بما يناسبهم. فالزوجة أحياناً تطلب من زوجها طلباً، وتظل تُلِح عليه إلحاحاً. وتُكرِّر الإلحاح حتى يُسبِّب له ذلك شيئاً من التَّبرُّم والضجر. وربما لا يحتمل المزيد من الانفعال، فيرفض ويرد بكلمة شديدة. فإذا عرفتِ أن هذا هو رد الفعل عند زوجك، احترسي إذن من الضغط على أعصابه بإلحاح. ويمكن أن تُعيدي الطلب في مناسبة أخرى، يكون فيها الزوج أكثر هدوءً وأكثر استجابة.

ونفس الكلام يُقال عن مناقشة في وقت يكون فيها الشخص مشغولاً ومرهقاً أو غير مُتفرِّغ للجدل. ويكون رد الفعل عنده هو عدم القبول أو الغضب عن مَن يجادله.

★★ وعلى كل شخص أن يحسب ردود فعل إغاظته لغيره. وقد تكون الإغاظة بكلمات مهينة، أو ببرود مثير، أو برفض ليست له مبرِّرات، أو بتهكُّم لاذع، أو بغير ذلك.

والكتاب يقول: " لا تغيظوا أولادكم لئلا يفشلوا ".

★★ وأذكر أيضاً بعض الشيء عن العطاء وردود فعله: لا شكَّ أن العطـاء وردود فعله المحبة، وربَّما الدُّعاء أيضاً. بما في ذلك العطاء المعنوي: كابتسامة حُب، أو كلمة تشجيع، أو كلمة مواساة، أو كلمة نصيحة أو بركة ... كل ذلك له تأثيره وردود فعله.

بينما البُخل وعدم العطاء، قد تكون من نتائجه أضراراً كثيرة.

★★ يتحدَّث البعض عن الفتيات الجانحات. وكثيراً ما تُلام الفتاة التي تفسد أخلاقها، وتستجيب لإغراء أحد الشبان وتخطئ معه، أو تهرب من بيتها، أو ترتد عن دينها ... وقد يكون ما تفعله هذه الفتاة هو رد فعل للمعاملة الصعبة التي تلاقيها في منزل الأسرة. حيث لا تجد حناناً ولا حُبَّاً، والقسوة في المعاملة، أو انتهاراً أو كلاماً جارحاً. فتلجأ إلى طلب الحنان من خارج البيت. وإن وجدت ذلك الحنان تُسلِّم له ذاتها وتسقط.

يُشبه هذا الأمر إلى حدٍّ ما عدم اهتمامنا بالفقراء وسد احتياجاتهم، بل أكثر من ذلك سوء معاملة مَن يحتاجون إلى العون المادي، واتهام بعضهم بالكذب والاحتيال ... فيضطر بعضهم -ردود الفعل - أن ينحرف في الحصول على المعونة.

★★ آخر نقطة هي إهمال الإنسان لنفسه روحياً، وقد يقضي فترة طويلة بعيداً عن الصلاة والتأمُّل وقراءة الكُتب الروحية دون أن يفتقدهم الخدام في بيت اللَّه. فيظل هكذا إلى أن يفتقده الشيطان فيجده فريسة سهلة بلا مقاومة.

٥ فبراير ٢٠١٢

العالم مُحتاج

على الرغم من كل ما في العالم من كنوز، ومن خيرات لا تُحصَى، ومن نتائج كثيرة لنمو العلم والمخترعات، ومن نتائج عجيبة للمدنية والحضارة والعلم ... ومع ذلك فإنه محتاج. ولعلنا نسأل إلى أي شيء هو مُحتاج؟!

العالم مُحتاج إلى السلام وإلى الهدوء، فإلى أي مكان نذهب إليه نجد احتياج العالم إلى السلام، في هذا الجو المضطرب، والذي يموج بالاختلافات في كل بلد وفي كل مكان ... حتى إنك لا تتصفح الجرائد في أي يوم، إلاَّ وتجد أخبار الصحف الرئيسية عن مشاكل العالم جملة، وعن المشاكل المحلية في كل بلد. تجد هذا في العناوين الرئيسية. فإن دخلت إلى التفاصيل تجد ما هو أبشع ... نعم هذا هو العالم الذي خلقه اللَّه في سلام. وفيه كان يعيش أبونا آدم في سلام حتى مع الوحوش. كانت في سلام معه، ويعيش هو في سلام معها. وتأتي إليه ويُسمِّيها بأسماء ... وبنفس الوضع كان يعيش أبونا نوح مع الوحوش في الفُلك ويهتم بها ويُغذِّيها، ويتعهَّدها بالرعاية.

وإن كان السلام هكذا، فإن اللَّه قد أوصانا قائلاً: " وأي بيت دخلتموه، فقولوا سلام لأهل هذا البيت ". وهكذا عندما كنت أزور أي بيت من بيوت أولادنا في المهجر، كانت أوّل عبارة أقولها عندما تخطو قدماي باب بيتهم، كنت أقول: قال الرب: " وأي بيت دخلتموه فقولوا سلام لأهل هذا البيت ".

والسلام معروف في كل تحياتنا مع بعضنا البعض ... فإن حضر أحد من سَفَرٍ نقول له: حمد للَّه على السلامة. وإن سافر، نقول له: مع السلامة. وإن وقع على الأرض، نقول له: سلامتك. وأي اجتماع رسمي، نبدأه بالسلام الجمهوري.

★★ والسلام على أنواع ثلاثة: سلام مع اللَّه، وسلام مع الناس، وسلام داخل النفس، في الفكر وفي القلب، ما بين الإنسان وبين نفسه. ولذلك فالإنسان البار هو في سلام مع اللَّه.

أمَّا إذا بدأ بالخطية يبتعد عن اللَّه، حينئذ يفقد سلامه الداخلي، ويحتاج أن يصطلح مع اللَّه بالرجوع إليه. غير المؤمن يصطلح مع اللَّه بالإيمان وحياة البرّ.

أمَّا المؤمن الخاطئ، فيصطلح مع اللَّه بالإيمان وحياة البر. وإلهنا المُحب الغفور يكون مستعداً لقبول ذلك الصُلح، إذ يقول: " ارجعوا إليَّ أرجع إليكم ".

ويأتي هذا السلام أيضاً بحفظ اللَّه للإنسان: كما يقول: ها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب... أحفظك من حروب الشياطين، ومن الناس الأشرار ... وأحفظك من حروبك الداخلية، وأحفظ دخولك وخروجك. وينضم إلى هذا المزمور وعود اللَّه الكثيرة، كقوله: " ها أنا معكم كُلَّ الأيَّام وإلى انقضاء الدَّهر ". وقوله عن الكنيسة: " إن أبواب الجحيم لن تقوى عليها ".

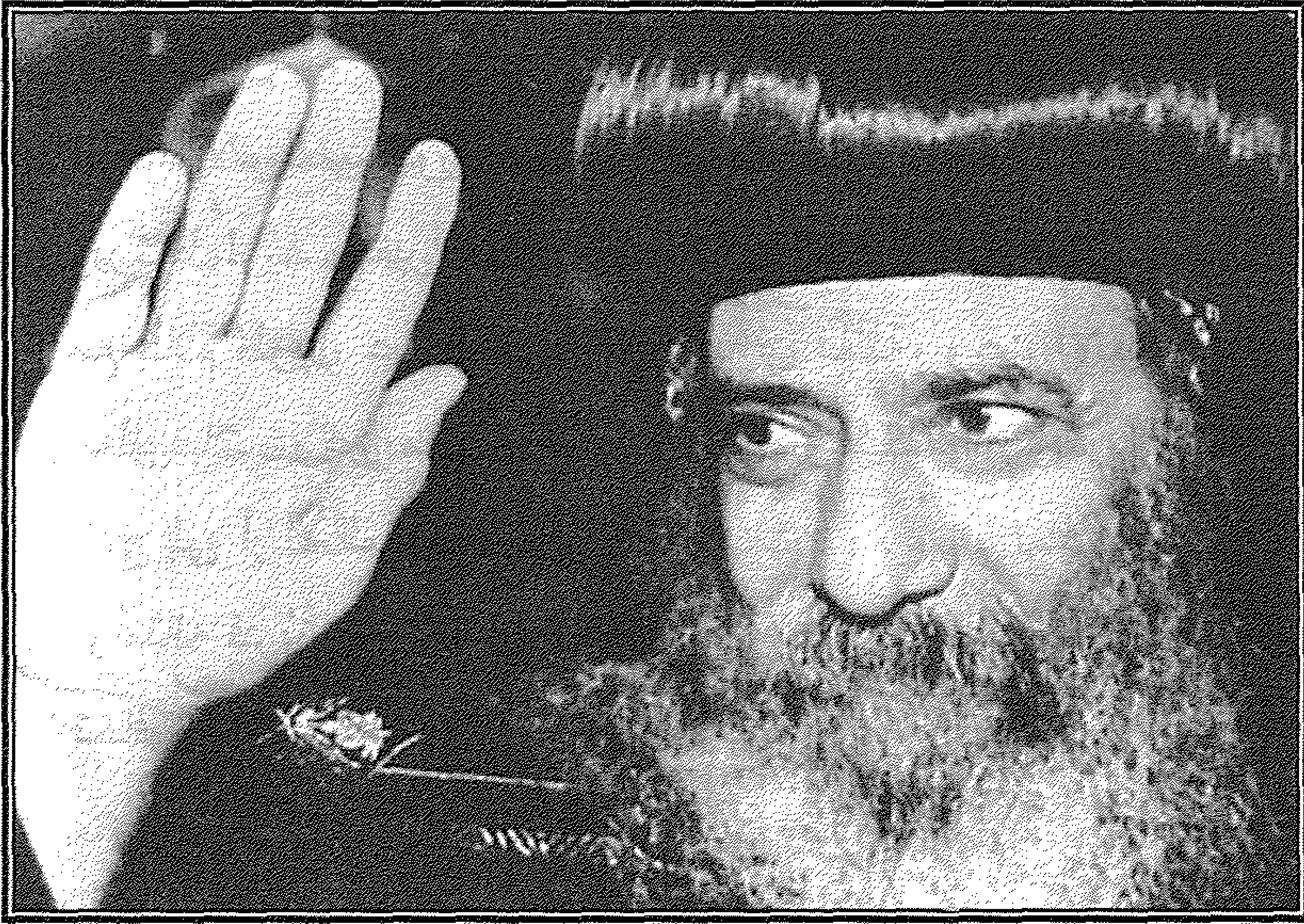
★★ نقطة ثانية وهى سلام مع الناس، فيها يُسلِّم الناس على بعضهم البعض ليس فقط بالأيدي وإنما بالقلب والشعور أيضاً. وإن كانت بينهم خصومة من قبل فإنهم يتصالحون. ولأنه قد يبدو من الصعب أن تصطلح النفس مع كثير من الأعداء والمقاومين، فإن الكتاب يقول: " إن كان مُمكِناً، فعلى قدر طاقتكم سالموا جميع الناس ". وقيل " على قدر طاقتكم " فإن هناك أشخاص تحاول أن تُسالمهم وهم لا يريدون إمَّا بسبب طباعهم، أو بسبب أن سلوكك الطيِّب يكشف سلوكهم الرديء، أو لأنهم يحسدونك بسبب نجاحك، أو بسبب تدبير أو بسبب تدابير مُعيَّنة يُدبِّرونها، أو لأي سبب آخر ... فهؤلاء أيضاً سالمهم حسب طاقتك... وإن وُجِدَ خلاف فلا يكُن بسببك أنت. قد يُعاكسك الغير. ولكن لا تبدأ أنت بالخصومة. ولا تكُن حساساً جداً من جهة احتمال أخطاء الغير كُن واسع الصدر حليماً وتذكَّر أنه قيل عن موسى النبي: " وكان الرَّجُل موسى حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض ".

إن بدأ الغير بالخصومة فاحتمل، فقد قيل في الكتاب: " لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحبَّاءُ... لا تجازوا أحداً عن شر بشرٍّ ". لذلك ابعد عن الغضب. ولا تُعطِ فرصة لأحد أن يستثيرك فتخطئ. واسمع هذه النصيحة الغالية: " لا يغلِبَنَّكَ الشَّرُّ بل اغلِبِ الشَّرَّ بالخيرِ ". واعرف أن الذي يحتمل هو الأقوى. أمَّا الذي لا يستطيع أن يحتمل فهو الضعيف. لأنه لم يقدر على ضبط نفسه.

★★ لا تُطالب الناس بمثاليات لكي تستطيع التعامل معهم. نعم. بل تعامل معهم كما هم، وليس كما ينبغي أن يكونوا. وإلاَّ فربُّما يأتي عليك وقت تختلف مع الجميع. إننا نقبل الطبيعة كما هي: الفصل الممطر، والفصل العاصف، والفصل الحار ... دون أن نطلب من الطبيعة أن تتغيَّر لترضينا ... فلتكن هذه معاملتنا لِمَن نقابلهم من الناس. إنهم ليسوا كلهم أبراراً أو طيبين. كثيراً منهم لهم ضعفات، ولهم طباع تُسيطر عليهم. إنهم عيِّنات مختلفة، وبعضها مثيرة. فلتأخذ منهم بقدر الإمكان موقف المتفرِّج وليس موقف المنفعل، وعاملهم حسب طبيعتهم بحكمة. ولكن احترس من مُعاشرة الأشرار الذين قد يجذبونك إلى الخطيئة معهم. إن المعاشرات الرديئة قد تفسد الأخلاق الجيدة.

★★ النقطة الأخيرة هى السلام داخل النفس، أي السلام داخل القلب والفكر. والذي عنده مثل هذا السلام، يظهر أيضاً هذا السلام في ملامح وجهه. فنجد أن ملامحه مملوءة سلاماً. ويستطيع أن يُشيع السلام في نفوس الآخرين. وفي وجوده، يكون الجو مملوءاً سلاماً. ويكون مملوءاً أيضاً اطمئناناً وذلك بسبب عمل اللَّه معه، وعمل اللّه فيه.

أمَّا الذي يفقد سلامه الداخلي، فإنه يقع في الاضطراب والخوف والقلق والشكّ.



١٢ فبراير ٢٠١٢

لا تخافوا ولا تنزعجوا

دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع، أني رأيت كثيرين خائفين، بل أرى البعض منهم مُرتعبين. وكثيراً من الصحف، بما تنشره من موضوعات مثيرة، ومن صور مثيرة أيضاً، تبث الخوف في قلوب قُرَّائها. مثال ذلك عبارة مثل: "مصر تحترق " ... أو قولهم: "حرقوا مصر، وأضاعوا الثورة!!" ... أو عبارة: "تدمير الدولة وإسقاطها" أو عبارة: "ضاعت البلاد وتحولت إلى خرابة!!"، كلها عبارات صعبة غير مقبولة. لست أدري كيف دار معناها في ذهن ذلك الصحفي وهو يكتبها!

★★ وإلى جوار هذا كله، الدخول في تفاصيل مزعجة، تسندها أيضاً صور مثيرة، وعنوانين من نفس النوع ... أي موضوعات تثير الخوف أو الحزن أو كليهما ... مثل ما ينشرونه عن محاولات لإسقاط الدولة ... والدخول في أحداث صعبة مثل: سرقة بنوك وسيارات، ونهب بعض المحلات التجارية، مع عديد من حوادث الخطف وطلب الدِّيَّة، اقتحام أقسام الشرطة والسجون، وتكرُّر أحداث السرقة والنهب ... وحوادث كرة القدم، وأعداد القتلى والمُصابين.

★★ ويدخل هؤلاء الصحفيون أيضاً في موضوعات سياسية، لا ينتهون منها إلاَّ إلى البلبلة، ومن غير حلٍّ! ... وبغير حلٍّ!! مثل سؤال البعض منهم: متى تُسلَّم السُلطة؟! وأيضاً لِمَن؟ مع كلام طويل عن المُخربين، ومُثيري الفتنة، وعن الانقسام وأنواعه، وعن المظاهرات والمليونيات، وعن مشكلة النقد الأجنبي، ومشكلة القروض، والعلاقة مع سائر الدول، مِمَّا يحتاج إلى آراء المتخصصين.

وكل هذا وأمثاله قد يُزعج القارئ العادي، ولا ينتفع منه بشيء! ... ولهذا رأيت أن أكتب لكم: لا تخافوا ولا تنزعجوا

★ ★ ★

إن الخوف يا إخوتي شيء جديد على البشرية. منذ خلق اللَّه الإنسان، لم يكن الإنسان يخاف. ولم يعرف الخوف إلاَّ بعد الخطية، وبعد مقتل هابيل البار.

ثم تدخَّل الشيطان. فجعله يخاف من الموت: يخاف من الموت ومن كل ما يوصِّل إليه: فيخاف من الأمراض، وبخاصة من الأمراض الثقيلة الموصلة إلى الموت، ثم من المتاعب والضيقات.

★★ إن الحياة فيها الحلو والمرّ. فإن ركَّز الإنسان على المرِّ، حينئذ سيتعب منه ثم يخاف. ويخاف من كل ما هو مُرّ، أو ما يراه هو مُرّاً. وبالتالي من الأحداث التي يراها مُتعبة، أو من الأحداث التي يتصوَّر أنها ستحدث وهي مُتعِبة. ومن المشاكل التي قد تحدث، وليست لها حلول في ذهنه. وهكذا، شيئاً فشيئاً يبدأ الخوف يستقر في نفسه. ويخاف من المجهول.

★★ إذا كان الطفل الصغير يخاف إذا ما جلس وحده، إذ ليس ثانٍ ليؤنسه ويعينه، فماذا إذن عن الكبار وأصحاب الفكر الكبير؟!

★★ الذي لا يخاف، يلزمه أن تكون له شخصية قوية من النوع الذي لا يهتز بسرعة ولا يضطرب بسرعة، إنما يسلُك بهدوء فكراً وعملاً. ويلزمه أيضاً أن تكون له أعصاب هادئة، فالإنسان الغضوب ما أسهل أن يخاف. أقصد أن يخاف من نفسه، إذ هو سريع السقوط، وسقوطه يخيفه.

★★ يخاف الإنسان إذا ما ساءت سمعته. فسُمعته أمام الناس، هى ميزان شخصيته وقدر مكانته وقدره في نظرهم. وهذا الخوف هو خوف ذاتي، وإن كانت له أسباب خارجية هى وسائل حفظ السُّمعة سليمة بعيدة كل البُعد عن الرياء والمظاهر الخارجية.

وتنضم إلى هذه النقطة، حفظ الإنسان لسُمعة بيته وأولاده. فإن ما يمسهم يمسه هو بلا شكّ.

★★ يوجد من الخوف نوعان: نوع نافع هو الخوف من السقوط، والخوف من جرح مشاعر الآخرين. وكلاهما للخير، ونتائجها طيبة. أمَّا الخوف الضار فهو النابع من ضعف في الشخصية. فهو لا ينفع صاحبه وهو لا ينفع غيره.

★★ فوق كل نوع من أنواع الخوف، توجد مخافة اللَّه وبها يخاف الإنسان أن يكسر وصاياه، أو يعصى أي أمر من أوامره، أو أن يبعد عن الحياة معه، أو أن ينفصل عن بيته المقدس. وفي مخافته للَّه، يحب حياة البرِّ والتقوى.

وأحياناً عبارة: " إنسان يخاف اللَّه " تحمل أسمى ما يُمكن أن يُنسب إليه من الفضيلة، وتدعو إلى الاطمئنان إليه.

★★ على أن مخافة اللَّه هى بالضرورة أيضاً خطوة هامة توصِّل إلى محبته. فالذي يخاف اللَّه، لابد أنه سيسلُك في وصاياه. فإذا ما سلك فيها، يحبها. وبالتالي يحب اللَّه مُعطيها. وأيضاً يحب اللَّه في محبته لهذه الحياة صار أنقى وأفضل. وتلقائياً يجد نفسه قد انتقل من مخافة اللَّه إلى محبة اللَّه.

★★ أمَّا عبارة: " لا تنزعجوا " فتعني لا تفقدوا سلامكم الداخلي الذي هو هام لكم، وهام أيضاً في تعاملكم مع الناس. وهام أيضاً في مظهركم الخارجي وتقدير الناس لكم ... والشخص المُنزعج لا يعرف أن يتصرَّف حسناً في أي أمر من الأمور، إلاَّ لو تخلَّص أولاً من هذا الانزعاج، وعاد إلى الهدوء الطبيعي. ومن هنا يبدأ...

★★ وعدم الانزعاج هو الحالة الطبيعية للحياة العامة. ففي كل مناحي الحياة: في الاقتصاد، في التعليم، في الحياة العامة، في التعامل مع الآخرين، لابد أن يكون الإنسان هادئاً غير منفعل، لكي يكون مقبولاً من غيره، ولكي يصل إلى نتيجة سالمة.

★★ أمّا من جهة المشاكل والمتاعب التي وردت في مقدمة هذا المقال، فإن لكل مشكلة حَلّ أو جُملة حلول. لأنك أنت شخصياً لا يُمكنك التحرك في كل المجالات، وفي كل التخصصات. إنما اعمل في ما تستطيعه على قدر الإمكانيات التي وهبك اللَّه إيَّاها.

★★ وأيضاً اعتمد على اللَّه وعلى نعمته وقدرته في كل ما يُقابلك من مشاكل ومن أسئلة صعبة.

وأيضاً اعرف أن لكل مشكلة مدى زمنياً لكي يُمكن حلَّها فيه. فلا تنظر إلى مشكلة وتظن أنها لابد أن تُحلَّ الآن! هذا كلام غير طبيعي. وعلى رأي المثل: إن اللَّه لم يخلق العالم في يوم واحد.

أعود مرَّة أخرى وأقول: لا تخافوا ولا تنزعجوا.

١٩ فبراير ٢٠١٢

اللَّه غير المحدود

إن اللَّه تبارك اسمه له صفات كثيرة. ولكنه في بعض هذه الصفات ينفرد بها وحده. فمثلاً صفة اللَّه كخالق. فهو وحده الخالق ولا يوجد خالق سواه. ومن صفاته التي ينفرد بها وحده أنه غير محدود. وقد يوجد إنسان يتصف بالحكمة والمعرفة. ولكن الحكمة عند اللَّه غير محدودة والمعرفة غير محدودة. نستطيع بعد هذه المقدمة أن نضع هذه القاعدة وهى أنه من صفات اللَّه الخاصة به وحده أنه غير محدود. وهو غير محدود في المكان والزمان وفي القدرة وفي العِلم وفي المعرفة وفي كل شيء.

★★ اللَّه غير محدود من جهة المكان والزمان. فهو موجود في كل مكان. ولا يحده مكان. ولا يسعه مكان. هو في الكون كله: هو في السماء وعلى الأرض وما بينهما. هو في الجو وفي أعماق البحر. السماء هى كرسي اللَّه والأرض هى موطئ قدميه. هو في كل مكان حيث يرى ما يفعل الناس، ويسمع ما يقولونه. كل إنسان مضبوط أمامه. لا يستطيع أن يختفي. وكما يقف البشر أمام اللَّه على الأرض، هكذا أيضاً يقف الملائكة أمامه في السماء. أمامه القديسون يُسبِّحون بطهارة قلوبهم. وأمامه أيضاً الأشرار في أماكن شرهم. إن أشعة الشمس تدخل في الأماكن الطاهرة كما تدخل أيضاً في الأماكن القذرة لكي تُطهِّرها وتقتل جراثيمها ولا تؤثِّر عليها قذارتها ولا تتأثر بها.

★★ ولأن اللَّه في كل مكان لا نقول إنه يصعد أو يهبط، ولا نقول إنه يمشي أو يتحرَّك. فإن صعد، إلى أين يصعد؟ وهو موجود من قبل في المكان الذي يصعد إليه! وإن قُلنا إنه ينزل إلى مكان ما، فهو بلا شكٍّ موجود من قبل في ذلك المكان الذي سوف ينزل إليه. وهو لا يمشي ولا يتحرَّك. لأنه في كل مكان، لا يُفارق موضعاً إلى موضع آخر. إنه مالئ الكل. وإن وُجِدت آيات في الكتاب المقدس تحمل مثل هذا التعبير، فإنها لكي تُقرِّب المعنى إلى عقولنا البشرية. أو تعني ظهوره في المكان الذي يُقال إنه نزل إليه أو ظهر فيه أو عمل فيه عملاً.

★★ فهو لا يأتي إلى مكان، ولا يُفارق مكاناً، ولا ينتقل من مكان إلى مكان. لأنه موجود في كل مكان، وفي كل وقت. وهو لا يأتي إلى مكان لأنه موجود في المكان الذي يُقال أنه يأتي إليه. إنما يظهر فيه، أو يعلن وجوده فيه فيُقال أنه أتى إليه.

عندما سلَّم اللَّه لوحي الشريعة لموسى على الجبل، كان في نفس الوقت في السماء وعلى الأرض. وأيضاً عندما كلَّم أبانا إبراهيم ودعاه ... ويسري هذا المنطق على كل لقاءات اللَّه مع البشر منذ أيام أبينا آدم وعلى مر الأجيال كلها. إنه غير محدود من جهة المكان.

★★ كذلك اللَّه أيضاً غير محدود من جهة الزمان. إنه أزلي أي لا بداية له. والأزلية هى من صفات اللَّه وحده لا يُشاركه فيها أحد. لأن كل الكائنات الأخرى هى مخلوقات. وكل مخلوق له بداية وقبل تلك البداية لم يكن له وجود.

ولأن اللَّه أزلي، فهو واجب الوجود، وهو موجود بالضرورة. فوجوده ضرورة تُفسِّر وجود باقي الكائنات.

★★ وكما أن اللَّه أزلي، فهو أيضاً أبدي. فهو غير محدود من جهة الزمن، بلا بداية ولا نهاية، ولذلك يوصف أيضاً بأنه سرمدي. أنه لا يدخل في نطاق الزمن ولا مقاييسه. لأنه فوق الزمان. بل هو خالق الزمن. ونفس هذا الكلام يُقال عن عقل اللَّه وروحه. نعم يُقال عن عقل اللَّه الذي كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مِمَّا كان.

وكما أن اللَّه غير محدود من جهة المكان والزمان، كذلك هو غير محدود من جهة القدرة.

★★ فمن جهة القدرة نقول: إن اللَّه كُلِّي القدرة، أو أنه قادر على كل شيء. ولهذا نقول: إن كل شيء مُستطاع عنده. وأن غير المُستطاع عند الناس هو مُستطاع عند اللَّه.

ومن هنا نؤمن بالمعجزات. وقد سُمِّيَت المعجزات بهذا الاسم لأن العقل البشري يعجز عن تفسيرها. إنها ليست شيئاً ضد العقل. إنما هى فوق مستوى العقل، تدخل في قدرة اللَّه غير المحدود.

★★ ومن قدرات اللَّه غير المحدودة قدرته على إقامة الموتى. ليس فقط في إقامة أشخاص مُعيَّنين من الموت. بل بالأكثر القيامة العامة في آخِر الزمان. إقامة كل البشر منذ أبوينا آدم وحواء. بل كل الذين تحوَّلوا إلى تُراب، والذين تحلَّلت أجسادهم وامتصتها

الأرض. كلهم سيقومون جميعاً، ويقفون أمام اللّه يوم الحساب بأرواحهم وأجسادهم ... إنها قُدرة غير محدودة يقف أمامها العقل البشري مبهوتاً ومذهولاً.

★★ إن اللّه ليس فقط قادراً على كل شيء، بل هو أيضاً مصدر كل قوة. هو الذي يهب القدرة للملائكة، الذين يستطيعون أن ينتقلوا من السماء إلى الأرض في لمح البصر. واللّه هو أيضاً الذي وهب قديسيه قوة لصُنع المعجزات كالقوة التي وهبها لموسى النبي حينما ضرب البحر بعصاه. وكالقوة التي أقام بها إيليا ابن أرملة صرفة صيدا من الموت. إنها معجزات ليست بقوتهم البشرية إنما بقوة اللّه.

★★ إن اللّه القادر على كل شيء، هو الذي وهب العقل البشري قدرات عجيبة.

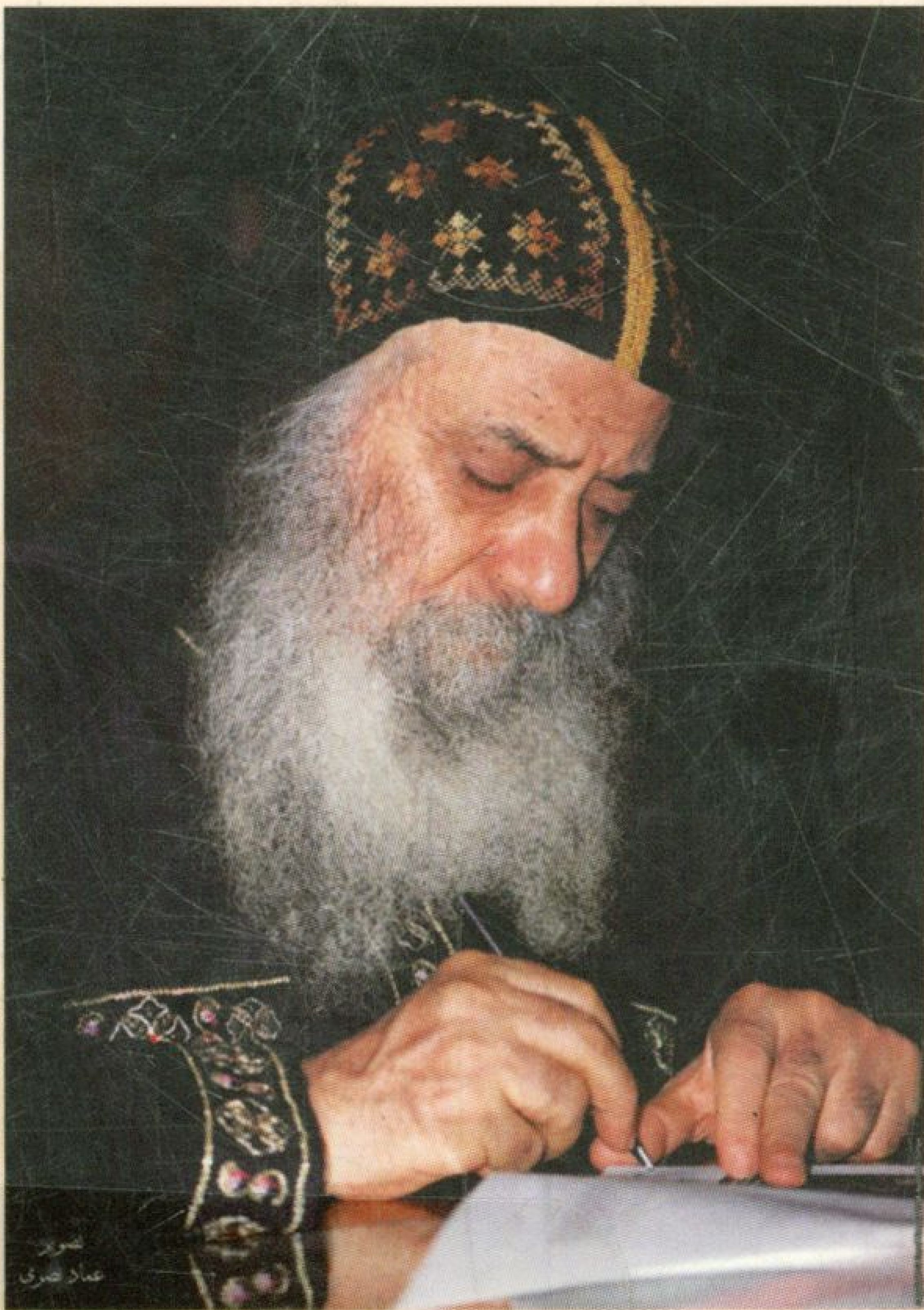
واللّه الذي يهب القدرة، هو قادر أيضاً أن يسحبها متى شاء. هو الذي وهب شمشون الجبار قوة جسدية فائقة للوصف. وعندما كسر شمشون نذره بعد أن باح به لدليلة، سحب اللّه منه تلك القوة. فأذلّه أعداؤه.

اللّه أعطى القوة للنار أن تحرق. ولكنه في قصة الثلاثة فتية القديسين الذين ألقاهم الفُرس في النار، لم يسمح اللّه للنار أن تؤذيهم، وشعرة واحدة من رؤوسهم لم تحترق.

نقول أخيراً إن اللّه سمح أن يكون للشيطان قوة. ولكن اللّه وضع حدوداً مُعيَّنة لقوة الشيطان، كما يظهر ذلك في قصة أيوب البار. وأيضاً في التجربة على الجبل قال الرب أخيراً للشيطان: اذهب يا شيطان. فذهب ولم يستطع أن يُخالف. ولا ننسى المعجزات الكثيرة الخاصة بإخراج الشياطين ولعلَّ من بينها قصة لجئون. على أن مصير الشيطان واضح أنه في يد اللّه الكُلّي القدرة الذي سيلقيه أخيراً في بحيرة النار والكبريت.

Πιπατριαρχης ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ ⲛ̀ⲟⲣⲑⲟⲇⲟⲍⲟⲥ
بطريركية الأقباط الأرثوذكس
Coptic Orthodox Patriarchate

The Coptic Orthodox Cultural Center
المركز الثقافى القبطى الأرثوذكسى



لا تخافوا ولا تنزعجوا

اعرفوا انه لكل مشكلة مدى زمنياً لكي يمكن حلها فيه. فلا تنظر الى مشكلة وتنتظر أنها لمجرد ما تحل التو! هكذا كلام غير طبيعي. وعلى رأي المثل: ان الله لم يخلق العالم في يوم واحد...

أعود مرة أخرى وأقول: لا تخافوا ولا تنزعجوا

شنوده

(مقالة يوم ١٢ فبراير ٢٠١٢م)



خصّ قداسة البابا شنوده الثالث "البابا المُعلّم" جريدة الأهرام بـ ٢٩٣ مقالة بدأها في ٢٩ ... وكان آخِرها في ١٩ فبراير ٢٠١٢م. وتنوّعت مقالات قداسته التي تُنشر كل يوم أحد في "جـ... في كل الأمور الروحية والاجتماعية. وكانت مقالاته بعيدة عن الخصوصية الدينية ... فكانت رسائله إلى كل العقائد وكل الناس: مسلمين ومسيحيين.

نُقدِّم هذه المقالات الذهبية لأبناء هذا الوطن العزيز سراجاً منيراً يهدي خُطى الجميع ... سلام ومحبة.

الأ...
الأ...

Coptic Orthodox Cultural Center
Coptic Orthodox Patriarchate-Anba Rueiss.
222 Ramsis St, Abbassiya, Cairo, Egypt.
Phone: + (202) 2488 2530 - 2482 6163
Fax : + (202) 2685 5541
E-mail: info@copticocc.org

www.copticocc.org

المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي
الكاتدرائية المرقسية بالأنبا رويس
٢٢٢ ش رمسيس بالعباسية - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٨٨٢٥٣٠ - ٢٤٨٢٦١٦٣ (٠٢)
فاكس: ٢٦٨٥٥٥٤١ (٠٢)
البريد الإلكتروني: info@copticocc.org